

اعمال

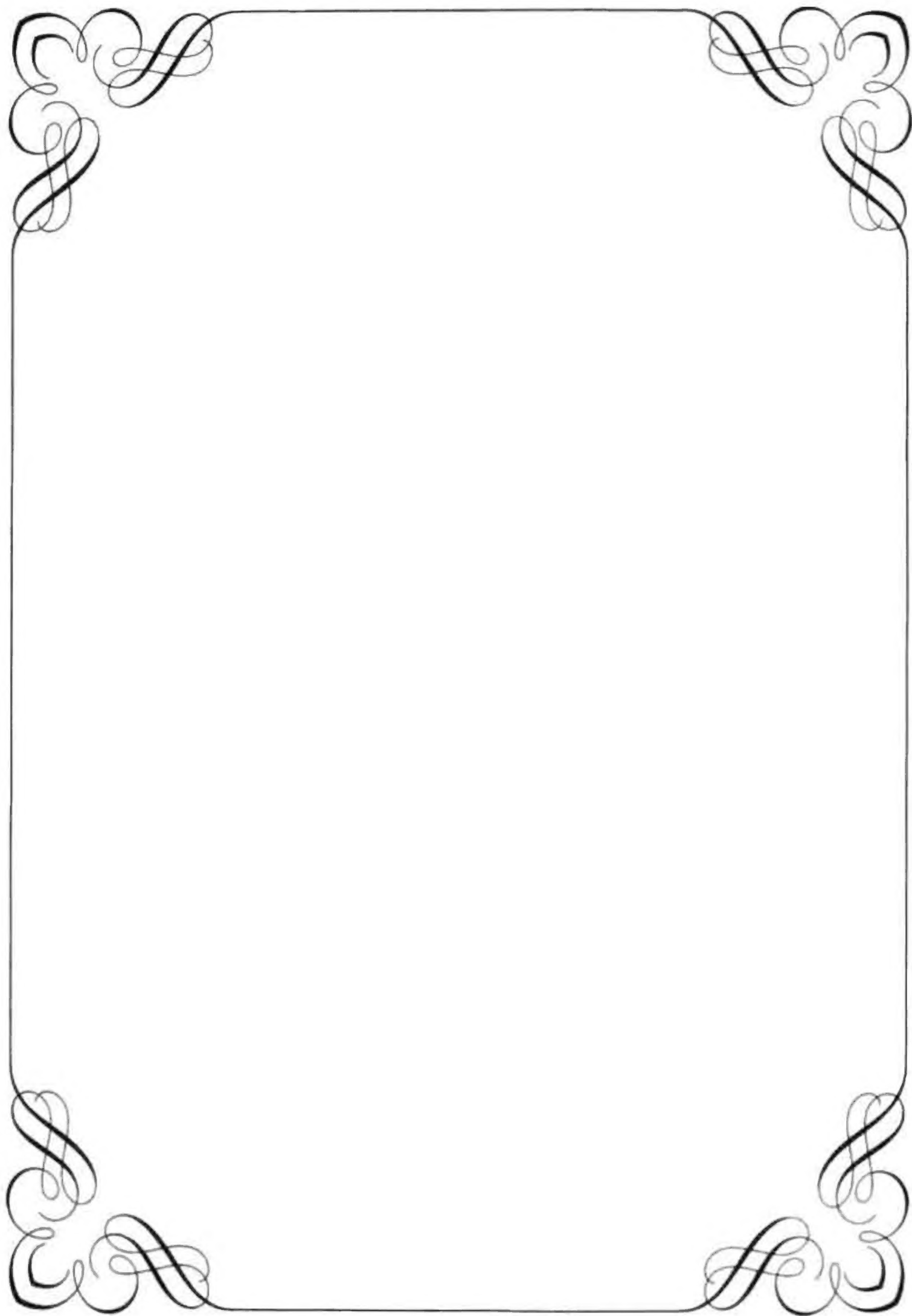
محمد اقبال

الكامله

محمد اقبال

حیاتہ - شخصیتہ - فکرہ - فلسفہ





أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧ م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصَّلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلَّم محمد إقبال في مدرسة إنكليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في الشابِّ الذكي كلُّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمَّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية ، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)^(١) ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدَّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلة علمية

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)^(١) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادة عالية في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلّ همّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نيك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليلة بسرّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجدته قصائد كلّها دموع حارّة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين ، وتتجلّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول « وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجّون إلى أوربة ، ويشدّون إليها الرحال مرّة بعد مرّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبّ من حماسه نيراناً ، ويفجّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتّضحت رسالته ، فنشر له عدّة كتب فارسية ، وقد أثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويتكلم بها قطران مهمّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « پیام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كلیم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

« Reconstruction of religious Thought in Islam » (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون ، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً ، وعلّقوا عليها أهميةً كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والطيانية ، والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م - ١٩٣١م .

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزيراً ، وتذكّر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة ، وإكرام بالغ ، وقابله السنيور موسولينى ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقيا ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عزّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدّث إليه الملك الفقيه طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكى طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوّار ، والعواد ، ويحدثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنّ في سبيل الله جنة أيضاً » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النعمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . . ؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم وبقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوّد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م^(١) .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

- ١ - أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .
- ٢ - رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيهودي) .
- ٣ - رسالة المشرق ١٩٢٣ (بياض مشرق) .

(١) روائع إقبال : للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ٢٨ - ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

٤ - أناشيد فارسية ١٩٢٧ (زبور عجم) .

٥ - رسالة الخلود ١٩٣٢ (جاويد نامه) .

٦ - المسافر ١٩٣٦ (مسافر) .

٧ - ماذا ينبغي أن تفعل يا أمم الشرق ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .

٨ - هدية الحجاز ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

٩ - صلصة الجرس أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .

١٠ - جناح جبريل ١٩٣٦ (بال جبريل) .

١١ - عصا موسى ١٩٣٧ (ضرب كلیم) .

(ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .

١٢ - مراسلات إقبال ومقالاته (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .

تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

العوامل التي كوّنت شخصيته^(١)

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرّج محمد إقبال في مدرستين : أما المدرسة الأولى : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة واجتماع ، وأخلاق واقتصاد ، وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربيّ متخصص فضلاً عن شرقيّ متطّفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسّع في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقريّة ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/٣/١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية : التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإنني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمةَ الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأيد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمان ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال
 الموهوبين ، وحَدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ،
 وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة
 ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت
 شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا انضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ،
 وقد حَدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمَنْ يُرَدُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له
 ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو
 الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرد عقيدة ، أو تصديق بسيط ، بل هو
 مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة
 والتصرُّف ، والحبُّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي
 العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبه ، مقتنعاً
 بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو
 خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة
 ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ،
 وحبِّه العميق له ، ولا شكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجز للقلب ، وخير حارسٍ له ،
 إذا احتل قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشة في فلاة ، أو
 يعبث به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهز لي ، ويمشي
 بصري ، وذلك لأنني اكتنحت بإئمد المدينة » ، ويقول : « مكثت في أتون
 التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود » ويقول : « لم يزل ،
 ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكنني لا أخافهم ، فإنني
 أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ،
وانقادت لي الصعاب ، فإنني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته
الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعقب
من العبير .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ،
والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبع
بتعاليمه ، والتفاني في حبه ، ولما ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر بمدحه ، وأرسل
النفس على سجيته ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر
الوجداني ، يقول : « إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل
شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج
كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة
الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات
العدد ، فكان أن وُجدت أمةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في
الصلاة فميناء تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب
الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌ ، ولم تنجب مثله
الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في
نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم
أسيرةً مقيّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى
عليها رداءه .

نحن أعزى من السيدة الطائفة ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه
رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ،
وقال : لا تشرب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ،
وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة
الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجدع ، وحثت إليه سارية المسجد ؟ ! إن تربة المدينة أحب إلي من العالم كله ،
أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حب النبي ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا
جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة - على منورها ألف سلام -
فاضت عينه ، ولم يملك دمه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق معاني شعرية
عجيبة ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العالمين ،
وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بد من حسابي فأرجوك
يا رب ، أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه
وأكون في أمته ، وأتترف هذه الذنوب والمماصي » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد
أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكثر
كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في
بيت : « إن الفقير المتمرّد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين
صغيرتين قد تغفلتا في أحشائه ، وملكنا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله
إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك
ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحيه ، ومن تتبّع التاريخ عرف أن
الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني
البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصية الفذة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع
الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا
تجرّد منه شخصٌ ؛ كان صورة من لحم ودم ، وإذا تجرّدت منه أمة ؛ كانت
قطيعاً من غنم ، وإذا تجرّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفّى فحسب ، وإذا
تجرّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرّدت منه
عبادة ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلًا بلا روح ، وإذا تجرّدت منه مدينة ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرّدت منه مدرسة ، أو نظام تعليم ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرّدت منه حياة ؛ كُلت الطبايع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشّجاعة ، والقوّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشّهوات ، وهريق المادّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدة ، وتحفّة فنيّة ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قويّة من الحبّ .

لقد ضلّ من زعم أنّ العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وأنّ الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقّة المعاني ، وأنّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحبّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنّما يفوقه ؛ لأنّ الغاية ، أو الموضوع حلّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلم تكلم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكّر فكّر بعقله ، وإذا أحبّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جناية عظيمة ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملاّت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبّ الجنسيّ ، والغرام المادّي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجماذٍ متحرّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرةٌ .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتّر له المشاعر ، وتوتّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطّم السلاسل ، وتفكّ الأغلال ، وتتمرّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفّ بالقوّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسّ بأنه قد مرّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويّ الإيمان ، قويّ العاطفة ، جيّاش الصدر ، فيّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنّما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهيئ بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ، ولا شخصيةٌ ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ، ومتاعٍ ، ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي بشقِّ النفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءةً تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصّة فضلٌ كبيرٌ في تذوّقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أنفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة ، وكلّما تقدّمت دراسته ، واتّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمت المدنيّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتد على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعّمين للدّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمّد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولة ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة »^(١).

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديةً لأغنى رجل في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقَدّمها إليه قائلاً : « إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خير » فبكى الملك وقال : « لقد أتى علي نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوّته كلّ باب »^(٢).

(١) هدية الحجاز (أرمغان حجاز) .

(٢) مثوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفي وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنَّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندَّى جيبني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك »^(١) .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حرите ، يقول في نفس القصيدة : « يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعي من حرية الطيران »^(٢) .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

(٢) المصدر السابق .

بحرّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة :
 « لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك
 والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراصةً ، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما
 لملك من الملوك »^(١) ، ويقول مفتخراً : « إني من غير شك فقيرٌ قاعدٌ على
 قارعة الطريق ، ولكني غنيُّ النفس أبيُّ » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في
 قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته
 افتقر إليك كبار الملوك . إنَّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت
 مخيرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن »^(٢) ، ولا شك
 أنَّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتنحت عفته ، قدّم إليه رئيس وزارة
 في دولة ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ،
 وقال : « إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء » ، وعرضت عليه
 الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه
 الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في اللوالم
 الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال :
 « ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة
 كرامتي » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوّته ومواهبه ، يعتقد أنّه
 صاحب رسالةٍ ومهمّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلّ الشاعر الذي
 ليست له رسالةٌ ، والنظاميين الذين ينظمون في كلّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير
 ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله ﷺ : « إني لأشكو

(١) جناح جبريل .

(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أن أصدقائي يعتقدون أنني شاعر نظام ، فيقترحون علي اقتراحات . ويقول في بيت آخر : « أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنك تأمرني أن أبلغ أمك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل ؟ » .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري ، والهبام الأدبي ، اللذين يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتّابنا ، وعلمائنا ! فيستجمعون كل كلاً ، ويهيمون في كل واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كل شخص ، ويظنون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند : أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فتاناً وصناعاً ماهراً ، سلّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجوّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القويّة ، وقوّته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر مثلك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطئ لها أكناً ، ويدلل لها صعباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ١٧] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرض أسمى ، وغاية أجدى منه ، فأيقظ أمةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكمها ، وتدير دفتها ، أوجد بشعره القويَّ الهزاز القلقَ الفكريَّ ، والاضطرابَ النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميَّ بصفة خاصة ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلَّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يومٍ من الأيام الدولة المسلمة الحرَّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميَّ ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتدثُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيُّ ، فإذا تمَّ هذا كله ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولةً ، وأحدث ثورةً فكريَّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضعٍ ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوَّته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهية ، ومظاهر الجمال الثانية ، وكم ضاع رجال من العبقرين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٢٣] .

العامل الرابع :

والمربي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدّة المعاني ، وتدقّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرّض للنفحات السّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعرٍ جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدّد كلّ يوم ، فيتجدّد شعره ، ويتجدّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السّحر ، ويعتقد أنّها رأس ماله ، ورأس مال كلّ عالم ومفكّر ، لا يستغني عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنّة في السّحر » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « رغم أنّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنّي لم أترك في لندن التبكير في القيام » ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « خذ منّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنّة السّحر ، ولا تحرمني نعيمها » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدّى هذه الأنّة السّحرية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدّينية ، وأيقظ الآمال والأمانى النائمة في صدورهم بنجوم

سمواتك ، التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الإسلاميّ لوعة القلب ، وارزقهم حبّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنّي في الشّحر ، وأثبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتضطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ، ونفسية شديدة ضدّ الموجه العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفّق قوّة وحياة ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرّيان الذي يملّي هذه المنظومة التي لا تزال فريدة في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويّ في تحرير الفكر من رقّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادّية الرعناء ، ويبعث التمرّد على عالم المادية الضيق ، والتطلّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيّة والخلقيّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادئ الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية ، وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرّد ، وعلمه المتجدّد ،

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاضطراع الفكري والاضطراب
 النفسي ، ساعده المثوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ،
 وحلّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ
 له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق
 والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر
 عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ،
 لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحرأ من العلوم » ، ويقول في بيت :
 « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنّ كليماً واحداً - يشير إلى سيدنا موسى - هامته
 على راحته يغلب ألف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » ، وكان محمد إقبال
 يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ،
 والروحية ، وكان يشعر أنّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار
 إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « لم ينهض روميّ آخر من ربوع
 المعجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنّ
 إقبالاً ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصل
 كبير » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار
 تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شك أنها أقوى من آثار المدرسة
 الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة
 الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد
 منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ،
 والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال^(١)

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، وإطلاعاً على أسرارهِ وخفائِهِ ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة متنوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ - كما قلنا - لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لاثقة شأن كل باحث يهيمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكلّيات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغيرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥ م وكتبها أصالة في الأردنية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادئ واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشفائوها ، ورفقها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تحبیر له الأبواب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » - كما يقول إقبال - منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قدّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تدرج في بدايته النهاية ، به فتح عليّ باب خير » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهناك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

وتقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشئت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة - وخاصة المسيحية - الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران متفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له - على حد قولهم - أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها - كحاجة اجتماعية وواقع حي - واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الديوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات - بطبيعة المنطق - كقيل هائج مانح تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللا دينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايته ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة^(١) ، وقدموا صورة وحشية كالحجة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين . وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة^(٢) .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومُنْتَهَى العظيمة ، ونداءها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »^(٣) .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتنال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعيّاً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكرأً وتسبيحاً ،

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وقتلاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالأ ، وتكون بينه وبين الله حجاباً^(١) .

وإنها ماثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووثام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١]

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرماً .

واقراً بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة راتقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها - بالطبع - القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عدااء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذلك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرّون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُباد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »^(١) .

إن التاريخ الإنساني الطويل - الذي أثنى بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب - يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ،

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمدد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعْبَه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهناك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزیزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّبَكَ بِفَعْلُوكَ ﴿ [النمل : ٢٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة - شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق - أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالقيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول - الذهول عن الله - والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَأْيَةً نَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ - ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعيث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعيث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعيث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرهما ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جليلة ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالة ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بمرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحيثنذ يمكن له أن يصادر الأموال والأموال ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها^(١) .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ^(٢) ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهية المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً^(٣) ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمته ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلامة أبي الحسن الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج ١ ، تحت عنوان «التتار محنة العالم الإسلامي» طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان - وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعقلها إذ ذاك - تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والمجذب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل^(١) .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا ائداء العضال ، داء السكر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل - كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتكوا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحوا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكراتها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتها هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُونَ كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالاً إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصه في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف - بالعكس - الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعناً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ،
وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء
لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير
الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى
مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللانقطة في هذه الأرض ،
هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت
في خدمته صارت ترياقاً واقياً » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات
النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب
الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ،
واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على
لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق
الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي
الرائع البناء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه
العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا
التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر
كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة
يائعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ،
وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعه
الجميلة الوضاعة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر
وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربى الصديق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف
صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .
 واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب
أواهة مخبئة منية في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب
القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره
وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مکنون لم يطلع عليه
العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان
على هذه الحفنة من التراب .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا
إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور
النهضة والرقى ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين
صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التمتع والعيش
الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم
وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكارِه في
تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر
وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة
المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ،
وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ،
وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة
الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ،
وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا
ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء
البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء
ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء
والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه
هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآفٍ رَاهٍ ﴾ [العلق : ٦-٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من
الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تر هذا التفاوت واضحاً
بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ،
وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل
لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ،
وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ،
ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر - طبعاً - في
الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر
رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء
عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلا د ، وزهد وشظف^(١) ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعيم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتها بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين^(٢) .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للمعلّامة أبي الحسن الندوي .
(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للمعلّامة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل نخيل ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »^(١)

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ - ١٥٣٠ م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجاپوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذا ينبغي لنا أن نتهياً للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣ هـ .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقر من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورانك زيب » إلى حماة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه »
(١٧١٩م - ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن)
واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « إن الملك محمد
شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن
بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه
القصر إلى الصحراء . . . ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني
« الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حاله ، فانصرف إلى جبال
الدكن وغاياتها » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك
الأوضاع الفاسدة :

« كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل
الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورد والأزهار
والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم »^(١) .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما
بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا
التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقبها
وانحطاطها في بيت واحد : « تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح
أولاً ، ولهو وغناء آخراً » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو
والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان
التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا التاسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها - في حينها - القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرفي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسامة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحياتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دمّاً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها - على ما يقول إقبال - مشحنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .
يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

فكر محمد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارئ إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روح أساسية شاملة لكل شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كل شيء . وتسمى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ (EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهاور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI)
وتقرب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه
هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبدع الحياة ، وتدافع عنها ضدّ نقيضها الموت ، وهي في
نزاع دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهربائية ،
توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتعمل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات
يقلص في الحياة شكلها ومداه وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمحل
الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كل جانب ، كأنها جيوشٌ جرّارة . وهكذا
تتجزأ الذات ألف مرّة وألف مرّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلية
واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذات المطلق (الأنا) ،
وتؤكد هذه الأنا بالسمو درجة بعد درجة ، ومرحلة بعد مرحلة إلى مستوياتها
الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي - في تطوّرها
وارتقائها - تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حد ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهد كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنب الصُّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلى عليه ذاته .

والحق أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجهة

لا تكون ممتعة إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذات ، الحبُّ أن تصون الذات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحب ، وجوهر الحب هو الذات .

وهكذا فإن ما نبحث عنه هو الجمال . والذات الفردية ، وهي تتكامل بدافع من طبيعتها ، تنسجم مع الذات الأخرى ، وتصل إلى مرتبة عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحب يزيده غنى بنوع من حادثة الطين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحب تزداد الوردية ، وشقائق النعمان روعةً وجمالاً .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أن تقدم الذات الفردية يدلاً على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أن تراجع الذات يدلاً على الوجهة التي يزداد فيها القبح^(١) .

قال إقبال :

كل ما يبعث على سمو الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحب والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدل على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الأجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،
كلها يفتقها سرُّ الفنِّ على حساب جوهرنا .

والفنُّ يقدِّم أدلته تمجيداً للذات ، والذات هي المعيار الوحيد للحكم على
قيمه .

الفنُّ يبعث الحياة في كلِّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ،
وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنية فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبين عني ؟

فأنا لست إلا نسمة الصباح .

والإبداع لا يفتُر ، والخلق يطُرد دون هوادة .

في كلِّ لحظة نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكرَّ
الإنسان ، حين يكون فتناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .

أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .

أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،

وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرأة .

أنت خلقت السَّم ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفن الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحى بالأمل ، ويعلم العيش في شرف .

أما الفن الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحمية لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفن الذي يضعف الذات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمالٌ^(١) .

نفي الذات :

تجنح مجموعة من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقي والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعة شيئاً بعد شيء . هذه اللاذات في المستوى الشخصي تُكوّن الذات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالمي سيمُ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كل الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحق في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةً ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدة كذلك ، ولأن الحب يدفع إلى رقي الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالد كذلك كل ما يُنجزه الحب .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحب خالدٌ ، وما من شيء آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقة ، والوجد ، ولحن الصرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظام تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذات الكونية .

وهكذا يتكوّن الإنسان الكامل الذي هو سيّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرّد » الذي تحرّر من كل ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كل شيء ، ليس محروماً أي شيء ، وهكذا يتجرّد . إنّ هذا الوحي الربّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كل زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحولات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر »
« الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في
سموه ، وفي رشاقتة المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن
تصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن (في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحق والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه نذ لها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب الشُماني والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

- يبدو المؤمن كل لحظة في نهار جديد .
- يتجلى الله في أقواله وأفعاله .
- السلطان ، والرّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :
- هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .
- إنّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .
- لا يرتبط ببخارى ولا بيدخشان .
- ما من أحد يعرف هذا السر : المؤمن .
- الذي يبدو أنه قارئ (القرآن) وهو القرآن حقاً !
- نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .
- إنّه الميزان في هذا العالم ، إنّه القسطاس في يوم الحساب .
- إنّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .
- إنّه الشي الذي يرعش قلب الأزهار .
- أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،
- لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .
- في معمل فكريّ تُصنع النجوم .
- وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .
- وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمع إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنّ خير نموذج يقترحه ، وأنّ خير نظام اجتماعي هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازات وإشارات ، نجدها مبنوثة في كل ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالاً وحَّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشئ في محيط مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) - كما ورد في الإيمان - وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلّق بالوجود كله ، والتي ليست خالية من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد... إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علّمهم إياه فوق كل شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذات الجماعية ، دون أن تتخلّى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبي ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كل مؤمن باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نمودجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالاً تصوّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :
الذات ...

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .
ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرّد يحتلّان مركز تفكير إقبال .
يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .
قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالثناء !
حصّاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟
كل أحكامك حق ، ولكن المفسرين
يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنهم يعلمون الشواهيـن الصغيرة العـبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يـبني معلم المدرسة صرحاً ،

صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمة سحرتني :

« لا تبـن جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفة ، ولا بصيرة !

ولذلك حمل إقبال على الرُّهد الساكن البليـد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الرُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الرُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من

النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و (جواب
الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥ م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال
الله عز وجل هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما
يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفر منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبؤٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظة واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجة إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، وذكرنا هذا الشيطان في
بعض ملامحه بـ (برومويوس) سارق النار :

لقد تزوّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في
الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس
لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى
النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمن أن يصبح نذير يتنازعان ؟ أيمن أن يكونا حليفين يتعاونان . وأسفاه ! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتج هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !

تكفي شرارة واحدة مني للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .

إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛

فلماذا وهبت لي كل هذا المقدار من النار ؟

كسر المرمر شرف لي ،

أما كسر الزجاج فعارٌ عليّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفة فردية ، وفلسفة اجتماعية في آن واحد ، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية ، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدّعوة إلى صيانة قيمها الذاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافةً إلى إنسانية ذات أبعاد كونية . ونجد في الميدان السياسي أن أوروبا تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعاد عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجة الرفيعة .

ثم إن تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، وأتخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثلاً على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفةً للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقدير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .

الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .

السجود يعني : الجهد العنيف .

الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .

الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد

وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرة متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحازة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبل مشرقٍ علينا أن نبذعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على ألباس الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالاً ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أن الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأٌ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيّةٌ ، روحٌ قلقة^(١) .



(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملوحي ، ص ١٧ - ٣٥ .

فلسفة محمد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارئ على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه «خودي» (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل » .

(ج) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ » .

(د) والجهد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير ، والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب
بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل
لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة
التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرى في سجدة للقوة الأفلاكُ
ولنغمة من دون نار نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن وهاجة ولهيها دراكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها
وضعفها :

عالم الذات به علو وسفل وبه معركُ قُبَح وجمالِ
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل وقبيحُ ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى
فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته
وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته في هذا :

يا من في القافلة سِرْ رفيقاً وكن وحيداً

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هو في المجمع خال ومن الحشد طليق

مثل شمع الحفل ، في الحفل وحيد ورفيق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوروبية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتد في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويرد كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوة متحابين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظرة إلى الحضارتين الإسلامية والأوروبية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نعمة أو كان فيه صور إسرافلا
صمت طير الصبح أولى من غناء إن سرى في الرّوض باللحن ذبولا
والغناء إن أدى إلى ضعف أو خور فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت حرّم الناي عندنا والربابُ
(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخر له كما في القرآن الكريم :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۖ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ ۚ وَءَاتٰكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاۗءٍ لِّتُمُوۡهُ وَاِنْ نَّعُدْۗا بِنِعْمَتِ اللّٰهِ لَا تَحْصُوۡهَا ﴿٣٢﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومختير غير مسير . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير وهو في العالمين كالميزان النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيدته إلا إطااعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها	من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيء يقيدته	لكن لخالقه في قيد أحكام
والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :	
مقصد الفن في الحياة لهيب	أبدى فما وميض الشرار ؟
يا خيراً بفنه فيه تمت	صنعة العصر والمصور الخوالي
كم ترى من طبيعة وتريها ؛	أرنا الذات فوق هذي المجالي

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ،
ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعُضْبِ الذَّكَرِ
هو مصراعٌ من البيت الذي مضمراً فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعَه الثاني في سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح في حومة الحرب كالرجوم
وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام و شأن لفقر بدا فيه روح القرآن
وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مَنّا فيطبع منك سيفاً للمنايا
وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن تؤثر الذل مدعناً ما احتيالي
وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدوا حماس العشق والفقر الغيور
ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيتها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدّق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقبل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الکتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .

وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلّقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقى اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندري .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :

إلى عصابات العرب ما أنا مُتَمِّم ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي
يقول :

فلست أرى في يديك اليوم جنة تشب بهذا العقل نار التقدم
وفي القطعة التي أولها :

متاعك في الحياة فنون علم :

يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قُصور

وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

في جنوني لك أسرار بدت فاجزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعد الدرس عن حماك جنونا قال للعقل : لا تُلذُّ بنقاش
وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يرى لهيباً مُضيّاً
وظاهر أن إقبالاً يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون
تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي
يذكر في مقابلة العقل .

وكانه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا
الجنون^(١) .

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال
الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه
رواجاً ، حتّى فيه الشاعرُ المسلمونَ على التضحية
والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ،
يحتوي هذا الديوان على أروع الأناشيد الإسلامية ،
وأعظم قصائد الرثاء . ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد
الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى »
وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائبَ
المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ،
لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلامية في
القوة والانسجام ، نُقَدِّمُ هنا نشيداً وقصيدة مترجمةً
بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ
« محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلامة
أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ،
و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .

الدِّيَّانُ الْأَوَّلُ

صَلْصَلَةُ الْجَرَسِ بَانْكَادِرَا

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الشيخ صاوي شعلان المصري



النشيد الإسلامي

والهَيْدُ لَنَا وَالْكُلُّ لَنَا
وَجَمِيعُ الْكَوْنِ لَنَا وَطَنَا
أَعَدَدْنَا الرُّوحَ لَهُ سَكْنَا
فِي الدَّهْرِ صَحَائِفُ سُودَدْنَا
وَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ كَعَبْتَنَا
بِحَيَاةِ الرُّوحِ وَبِحَفَظَتَنَا
وَبَيْنَنَا الْعِزَّ لِدَوْلَتَنَا
مِ شَعَارِ الْمَجْدِ لِمَلَّتَنَا
وَيُمَثِّلُ خَنْجَرَ سَطَوَتَنَا
فِي الْغَرْبِ صَدَى مِنْ هَمَّتَنَا
طَاوَلْنَا النَّجْمَ بِرِفْعَتَنَا
نِيرَانِ الشُّدَّةِ عَزَمَتَنَا
فِي الْخَوْفِ سَفِينَةُ قَوَّتَنَا
أُنْسِيَتْ مَغَانِي عِشْرَتَنَا
عَمَرَتْ بِطَلَائِعِ نَشَائِتَنَا
شَطِيبُكَ مَأْتِرَ عَزَّتَنَا
وَتُعِيدُ جَوَاهِرَ سِيرَتَنَا
مِنْ وَيَا مِلَادَ شَرِيعَتَنَا
فِي أَرْضِكَ رَوَّاهَا دُمْنَا
بِ يَقُودِ الْفَوْزِ لِنُصْرَتَنَا

الصَّيْرُ لَنَا وَالْعُزْبُ لَنَا
أَضْحَى الْإِسْلَامُ لَنَا دِينًا
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرُ
الْكَوْنِ يَزُولُ وَلَا تُمَحَى
بُنِيَتْ فِي الْأَرْضِ مَعَابِدُهَا
هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ نَحْفَظُهُ
فِي ظِلِّ السَّيْفِ تَرْبَتَنَا
عَلِمُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَيَّامِ
بِهَلَالِ النَّصْرِ يُضِيءُ لَنَا
وَأَذَانُ الْمُسْلِمِ كَانَ لَهُ
قَوْلُوا لِسَمَاءِ الْكَوْنِ لَقَدْ
يَا دَهْرُ لَقَدْ جَرَبْتَ عَلَى
طُوفَانِ الْبَاطِلِ لَمْ يُغْرِقْ
يَا ظِلُّ حَدَائِقِ أَنْدَلَسِ
وَعَلَى أَغْصَانِكَ أَوْكَارُ
يَا دَجَلَةُ هَلْ سَجَلْتَ عَلَى
أَمْوَالِكَ تَرْوِي لِلدُّنْيَا
يَا أَرْضَ النُّورِ مِنَ الْخَرَمَةِ
رَوْضُ الْإِسْلَامِ وَدَوْحُهُ
وَمُحَمَّدُ كَانَ أَمِيرَ الرُّكُ

إِنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي رُوحُ الْأَمَّالِ لِنَهْضَتِنَا
 دَوْتُ أَنْشُودَةَ « إِبْرَاهِيمَ » جَرَساً يَحْدُو فِيهِ الزَّمَنُ
 لِيُعِيدَ قَوَائِلَنَا الْأُولَى فِي الْمَجْدِ وَيَبْعَثَ أُمَّتَنَا

٣- علي ضريح فاطمة بنت عبد الله التي استشهدت في سبيل الله وهي تسقى الغزاة في حرب طرابلس

١٩١٢ هـ

رسم العلي وسمية الزهراء يا نور وجه الملة البيضاء
 سكنت رفاتك تحت أطباق الثرى قدمية الأنوار و الأضواء
 حظ من العلياء قل نظيره لسواك يا حورية الصحراء
 أرويت أبطال الغزاة بكوثر من رحمة من قبل سقى الماء
 جاهدت صابرة و لم تتقلدى سيفاً ولا درعاً الى النهجاء
 ماسر هذا الشوق و الهمم التي زاحمت فيها موكب الشهداء
 قدمت في استشهادك المثل الذي يبقى على الأيام خير بقاء
 كانت خميلتنا على وشك البلى و المحو بين عواصف النكباء
 كيف ازدهت رغم الخريف و اسفرت عن مثل تلك الزهرة الفجاء
 كيف انزوت يا رب تحت رمادنا تلك الشرارة فيه طي خفاء
 اولم تزل رغم الخطوب مليئة صجراؤنا بجآذر و ظباء
 و الرعد و البرق الذي يغزو الدجى بوسيفه في حالك الظلماء
 كيف اختفى يا رب خلف سحابنا في وقت صحو و انقطاع رجاء
 و كم اعترتني في مصابك لوعة و سكبت دمع الديمة الوطفاء
 و ذكرت ما ادركت من شرف العلي فنسيت آلامى و مر بكائى
 و تبدلت قيثارتى بأنبيئها في الماتم الباكي لشيد غناء
 في كل قلب من ترابك نشوة من عزيمة وثابة و مضياء

يتدفق الطوفان من جنباته و تشب منه لوافح الرمضاء
 و بشائر آمال في رقصاته يحيى مداها ميت الأحياء
 الصمت يعلن من ضريحك ثورة و لرب صمت فاق كل نداء
 في هذه الأحضان تولد أمة تبني صروح المجد خير بناء
 أنا لست أدري ما وراء الكون من ستكون أقدار و غيب قضاء
 لكن جيلا صاعدا يبدو على قرب المدى في نضرة و لماء
 مشواك مولده القريب و بعثه و مناره السهادى الى العلياء
 و أرى نجوما كالدرارى أومضت بالنور تحت القبة الزرقاء
 تقف النواظر حاسرات دونها و يثير منظرها خيال الرائي
 تطوى القضاء فما يبالي ركبها بشروق صبح أو ظلام مساء
 بسلاح ماضيها و حاضر يوسها تمضي الى غدها بغير و ناء
 بقديمها و جديدها نحو العلى فى غير تشويق ولا إبطاء
 لبيك فاطم انت قد أرسلتها مرة مجدك فى سنا و سناء
 قدر تجلى منك فى اشراقها ذكرى لكل مجاهد و فدائي



٣ - هديه اقبال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

صور اقبال فكرة خلود الشهداء في حرب طرابلس في لوحة شعرية مشرقة قال تحت عنوان "في حضرة الرسول" :

حين ضقت ذرعا بضوضاء هذه الدنيا و اثلت الهموم كاهلي حزنت امتعتي
و ازمعت الرحيل - و انى و ان قضيت كل ايامى فى قيد الصباح و المساء فانى اشعر
بغربتي عن نظام هذا العالم و مقاييسه - لقد حملتنى اجنحة الملائكة الى مقام
من اختاره الله رحمة للعلمين - و ما ان مثلت فى حضرتك حتى سمعت نداء يقول
" يا بلبل ، روض الحجاز كم لك من اغان اذابت البراعم و الازهار بحرارة
الانغام السحرية ، انها تعبر عن خفقات قلبك و تتحدث عن نشوتك بخمر العشق -
ان سجداتك فى سكنة الليل ترسم القدوة الصالحة للمؤمنين ، و لكنى اسألك و قد
تعلمت الطيران و التحليق على اجنحة الملائكة و جئت لنا انسانا من عبيد الورود -

ماذا حملت الينا من عالمك الذى خلفته وراءك ؟ قلت يا نبي الله اشكو
اليك هموسى و حرمائى من طمانينة النفس - فانى لا أجد الحياة التى أوصل البحث
عنها فى كل مكان - ان الرياض فى كل مكان من الدنيا حافلة بالخمائل ، مليئة بالشقائق
و الازهار ولكنى لم أجد فى جميعها زهرة واحدة تحمل رائحة الوفاء ، على انى
يا نبي الله ! اتيت اليك بما لا يوجد مثله فى الجنة ، انها رجز من كرامة امك ، انها
زجاجة مليئة بدماء قانية من شهداء طرابلس :

و لما توالى فى الحياة ضجيجها و ضاق بها صدرى و طال عنائى
حملت من الدنيا متاعى لرحلة تخفف ما أشكو من البرحاء

على رغم انى ما برحت مكبلا
فما زلت حرا من تقاليد عالم
بأجنحة الاسلاك ارسلت همتى
اذا أنا بالنور الذى من شروقه
هو النير المبعوث للخلق رحمة
يقول تقدم ايها البلب الذى
تغنيت فى روض الحجاز فرائد
و كاد يذوب الورد وجدا و رقة
و انعامك النشوى تفيض على الربى
وكم سجدة فى مخدع الليل لم تزل
تمثلت انسانا من العطر و الشذا
فقلت متى يا اكرم الخلق ! تنقضى
ارى كل روض بالازاهير حاليا
يجود بمحمر الشقيق عرائسا
وما ذكرتنى فى الخمائل زهرة
و طافت باحلامى ضحايا طرابلس
لقد بذلوا فى ارضهم ثمن العلا
لقد سجلوها قصبة قرمزية
و لبهنى الهادى البشير و قال لى
فقلت له هذى الوديعه فى يدى
فما حوت الفردوس يوما نظيرها
فقال وماذا ؟ قلت : هذى هديتى

بلقها صباح و ارتقاب مساء
ارى اننى فيه من الغرباء
الى كل اوج صاعد و هلاه
تطالعنا شمس الضحى بضياء
لى البرايا اصدق الرحماء
سرى حبه شذوا بكل فضاء
تحف النخيل الخضر حول قباء
بمالك من شذو و طيب غناء
الاشيد حب صادق و ولاء
بها قدوة الابرار و الصلحاء
تجوب الينا باب كل مساء
هموسى و القى فى الحياة رجائى
نذى الشذا فى نضرة ونماء
تميس بها الا غصان فى خيلاء
بعطر اخاء او نسيم وفاء
و ابناء ابطال بها شرفاء
لتحريرها من عصبة الدخلاء
مسطرة اسجادها بدماء
بأي الهدايا جئت يوم لقاء ؟
تزيد على الياقوت حسن بهاء
جلالة قدر او جميل رواء
زجاجة طيب من دم الشهداء

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)^(١)

ونجومٌ ليلى حُسدي أو عُودي
قطع الزمان طريق أمسي عن غدي
تبكي الربى بأنينها المتجدد
ومدامعي كالطل في الغصن الندي
خرساء لم تُرزق براءة مُشيد

شكواي أم نجواي في هذا الدجى
أمسيت في الماضي أعيش كأنما
والطيرُ صادحة على أفنانها
قد طال شهيدِي وطال نشيدها
فإلى متى صمتي كأنني زهرة

لا بُدَّ للمكبوت من قيضان
ليبين عنها منطقي ولساني
لكنما هي قصة الأشجان
أشكو مُصاب الدين للديان
إلا لحمد علاك في الأكوان

قنارتي ملئت بأنات الجوى
صعدت إلى شفتي بلا بل مُهَجَّتِي
أنا ما تعدت القناعة والرضا
أشكو وفي فمي التراب وإنما
يشكو لك اللهم قلب لم يعيش

رَوْضاً وأزهاراً بغير شميم
لا يُرتجى وردٌ بغير نسيم
ليلاً لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هَيْئِم
فإذا الورى في نُضرة ونعيم

قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد في الأكمَام مجهول الشدا
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل مُحَمَّدٌ زَكَتِ الربى
وأذاعت الفردوس مكنون الشدا

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيح ما عتونها الشاعر بـ « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كَانَ يَهْتَفُ بِاسْمِ ذَاتِكَ قَبْلَنَا
عَبَدُوا تَمَائِيلَ الصُّخُورِ وَقَدَّسُوا
عَبَدُوا الْكَوَاكِبَ وَالنُّجُومَ جَهَالَةً
هَلْ أَغْلَنَ التَّوْحِيدَ دَاعِ قَبْلَنَا
كُنَّا نَقْدُمُ لِلشُّيُوفِ صُدُورَنَا

رُومَانٍ مَذْرَسَةً وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانٍ^(١)
فِي الْمَالِ أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ
يَكْفِي الْيَهُودَ مَوْؤَنَةَ الشَّيْطَانِ
فِي الصِّينِ أَوْ فِي الْهِنْدِ أَوْ طُورَانِ
نَهَجَ الْهُدَى وَمَعَالِمَ الْإِيمَانِ

قَدْ كَانَ فِي الْيُونَانِ فَلَسَفَةٌ وَفِي الْـ
لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ قُوَّةٌ أَوْ نَزْوَةٌ
وَبِكُلِّ أَرْضٍ سَامِرِيٍّ مَآكِرُ
وَالْحِكْمَةُ الْأُولَى جَرَتْ وَثَنِيَّةٌ
نَحْنُ الَّذِينَ بِنُورٍ وَخِيكَ أَوْضَحُوا

حَمَكَ فَوْقَ هَامَاتِ النُّجُومِ مَنَارًا
سِرْنَا عَلَى مَوْجِ الْبِحَارِ بِحَارًا
قَبْلَ الْكَتَائِبِ يَفْتَحُ الْأَمْصَارًا
سَجَدَاتِنَا وَالْأَرْضُ تَقْدِفُ نَارًا
خَضِرَاءَ تُبَيِّتُ حَوْلَنَا الْأَزْهَارَا

مَنْ ذَا الَّذِي رَفَعَ الشُّيُوفَ لِيَرْفَعَ اسْمُ
كُنَّا جِبَالًا فِي الْجِبَالِ وَرُبَّمَا
بِمَعَابِدِ الْإِفْرَنْجِ كَانَ أَذَانَا
لَمْ تَنْسَ إِفْرِيقِيَّةٌ وَلَا صَخْرَاؤُهَا
وَكَاَنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حَدِيقَةٍ

نَصَبَ الْمَنَآيَا حَوْلَنَا أَسْوَارَا

لَمْ نَخْشَ طَاغُوتًا يَحَارِبُنَا وَلَوْ

(١) فِي الْأَصْلِ هَكَذَا ، وَفِيهِ اضْطِرَابٌ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ الْوِزْنُ عَلَى حِسَابِ الْمَعْنَى
فَيَكُونُ :

قَدْ كَانَ فِي (الْيُونَانِ) وَ (الرُّومَانِ) مَذْرَسَةً ، وَكَانَ الْمُلْكُ فِي سَاسَانٍ

صَنَعَ الْوُجُودَ وَقَدَّرَ الْأَقْدَارَ
نَرْجُو ثَوَابَكَ مَغْنَمًا وَجِوَارًا
فَنَهْدِمُهَا وَنَهْدِمُ فَوْقَهَا الْكُفَّارَ
كُنْزًا وَصَاغَ الْحِلْيَ وَالذِّينَارَ

نَدْعُو جِهَارًا لَا إِلَهَ سِوَى الَّذِي
وَرُؤُونَا يَارَبِّ فَوْقَ أَكْفُنَا
كُنَّا نَرَى الْأَصْنَامَ مِنْ ذَهَبٍ
لَوْ كَانَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ لَحَازَهَا

مَنْ بِأَسِنَا عَزَمَ وَلَا إِيمَانُ
لَمْ يَلْقَ غَيْرَ ثَبَاتِنَا الْمِيدَانُ
رِ الْمُؤْمِنِينَ الرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ
نُورًا يُضِيءُ بِصُبْحِهِ الْأَزْمَانُ
فِي الْكَوْنِ مَسْطُورًا بِهَا الْقُرْآنُ

كَمْ زُلْزَلَ الصَّخْرُ الْأَثَمُ وَمَا
لَوْ أَنَّ آسَادَ الْعَرِينِ تَفَرَّعَتْ
وَكُنَّ نِيرَانِ الْمَدَافِعِ فِي صُدُوءِ
تَوْحِيدِكَ الْأَعْلَى جَعَلْنَا نَقْشَهُ
فَعَدَّتْ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ مَصَاحِفًا

كَانَتْ تُقَدِّسُهَا جَهَالَاتُ الْوَرَى ؟
لَجَلَالِ مَنْ خَلَقَ الْوُجُودَ وَصُورًا
بَابَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ^(١)
وَأَبَانَ وَجْهَ الْحَقِّ أَبْلَجَ نِيرًا^(٢) ؟
وَرَأَى رِضَاكَ أَعَزَّ شَيْءٍ فَاشْتَرَى

مَنْ غَيْرُنَا هَدَمَ التَّمَائِيلَ الَّتِي
حَتَّى هَوَتْ صُورُ الْمَعَابِدِ سُجَّدًا
وَمَنِ الْأَلَى حَمَلُوا بِعِزِّهِمْ أَكْفَهُمْ
أَمَّنْ رَمَى نَارَ الْمَجُوسِ فَاطْفِئَتْ
وَمَنِ الَّذِي بَذَلَ الْحَيَاةَ رَخِيصَةً

دُنْيَا الْخَلِيقَةِ مِنْ تَهَاوِيلِ الْكَرَى
وَالْحَرْبُ تَسْقِي الْأَرْضَ جَامًا أَخْمَرَا

نَحْنُ الَّذِينَ اسْتَيْقَظَتْ بِأَذَانِهِمْ
نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لَصَلَاتِهِمْ

(١) هُوَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي حَمَلَ بَابَ حِصْنِ خَيْبَرَ وَجَعَلَهُ ثَرْسًا لَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ الَّتِي كَانَتْ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ .

(٢) هُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ بْنُ سُبُكْتِكِينَ الْغَزْنَوي .

فِي مَسْمَعِ الرُّوحِ الْأَمِينِ فَكَبَّرَا
لَكَ بِالْخُشُوعِ مَصَلِّياً مُسْتَغْفِرَا
سَجْدَا لَوَجْهِكَ خَاشِعِينَ عَلَى الثَّرَى

جَعَلُوا الْوَجْهَ إِلَى الْحِجَازِ وَكَبَّرُوا
مَحْمُودٌ مِثْلُ إِيَّازٍ^(١) قَامَ كِلَاهُمَا
وَالْعَبْدُ وَالْمَوْلَى عَلَى قَدَمِ الثَّقَى

وَكَاَنَّ أَنْخَرَهَا زَمَالُ الْيَدِ
بِالنَّصْرِ أَوْضَحَ مِنْ هَلَالِ الْعِيدِ
لِلْمَجْدِ تُعْلَنُ آيَةُ التَّوْحِيدِ
إِلَّا عِيداً فِي إِسَارِ عِيدِ
مَنْ بَعْدَ أَصْفَادِ وَذَلِّ قِيُودِ

بَلَغْتَ نَهَايَةَ كُلِّ أَرْضٍ خَيْلُنَا
فِي مُحَفَلِ الْأَكْوَانِ كَانَ هَلَالُنَا
فِي كُلِّ مَوْقِعَةٍ رَفَعْنَا رَايَةَ
أُمَّمِ الْبِرَايَا لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُنَا
بَلَغْتَ بَنَا الْأَجْيَالِ حَرَّيَاتَهَا

عُرِفَ الشُّجُودُ بَيْتِكَ الْمَعْمُورِ
يَحْوِي جَلَالَ كِتَابِكَ الْمَسْطُورِ
فَالْخَلْقُ فِي الدُّنْيَا بَغِيرَ شُعُورِ
مِنْ مُلْجِدِ عَاتٍ وَمِنْ مَغْرُورِ
وَاخْتَصَّنَا بِصَوَاعِقِ التَّدْمِيرِ

رُحْمَاكَ رَبِّ هَلْ بَغِيرَ جَبَاهِنَا
كَانَتْ شِغَافُ قُلُوبِنَا لَكَ مُضْحَفَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَفَاءً صَادِقَا
مَلَأَ الشُّعُوبَ جُنَاتُهَا وَعُصَاتُهَا
فَإِذَا السَّحَابُ جَرَى سَقَاهُمْ غَيْثُهُ

وَاسْتَيْقَظْتَ مِنْ قَبْلِ نَفْخِ الصُّورِ
فَكَأَنَّهُمْ مَوْتَى لِبَغِيرِ نُشُورِ
وَعَدْتُ مَنَازِلُهَا ظِلَالَ قُبُورِ
فِي أَنْعَمِ وَمَوَاقِبِ وَقُصُورِ

قَدْ هَبَّتِ الْأَصْنَامُ مِنْ بَعْدِ الْبَلَى
وَالْكَعْبَةُ الْعَلِيَا تَوَارَى أَهْلُهَا
وَقَوَافِلُ الصَّحَرَاءِ ضَلَّ حُدَاتُهَا
أَنَا مَا حَسَدْتُ الْكَافِرِينَ وَقَدْ غَدَوَا

(١) إِيَّاز : هُوَ مَوْلَى السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ السَّيْكَتْكِينِ .

بَلْ مِحتَي أَلَا أَرَى فِي أُمْتِي عَمَلًا تَقْدُمُهُ صَدَاقَ الحُورِ^(١)

لَكَ الْبَرِيَّةُ حَكْمَةٌ وَمَشِيئَةٌ
إِنْ شِئْتَ أَجْرَيْتَ الصَّحَارَى أَنْهَرًا
فَإِذَا دُهِىَ الْإِسْلَامُ فِي أَبْنَائِهِ
فَتَرَاؤُهُمْ فَقْرٌ وَدَوْلَةٌ مَجْدُهُمْ
عَاقَبَتَنَا عَدْلًا فَهَبْ لِعَدُونِنَا
أَغْيَتْ مَذَاهِبُهَا أُولَى الْأَبَابِ
أَوْ شِئْتَ فَلْأَنْهَارُ مَوْجٌ سَرَابِ
حَتَّى انْطَوَوْا فِي مَحَنَةٍ وَعَذَابِ
فِي الْأَرْضِ نَهَبٌ ثَعَالِبٍ وَذُنَابِ
عَنْ ذَنبِهِ فِي الدَّهْرِ يَوْمَ عِقَابِ

عَاشُوا بِشَرَوْتِنَا وَعَشْنَا دُونَهُمْ
الَّذِينَ يَخِيَا فِي سَعَادَةِ أَهْلِهِ
أَيْنَ الَّذِينَ بَنَارُ حَبِّكَ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ
سَكَبُوا اللَّيَالِي فِي أَيْنِ دُمُوعِهِمْ
وَالشَّمْسُ كَانَتْ مِنْ ضِيَاءِ وُجُوهِهِمْ
لِلْمَوْتِ بَيْنَ الدُّلِّ وَالْإِمْلَاقِ
وَالْكَأْسُ لَا تَبْقَى بِغَيْرِ السَّاقِ
أَنْوَارَ بَيْنَ مُحَافِلِ الْعَشَّاقِ
وَتَوَضَّؤُوا بِمَدَامِجِ الْأَشْوَاقِ
تُهْدِي الصَّبَاحَ طَلَائِعَ الْإِشْرَاقِ

كَيْفَ انْطَوَتْ أَيَامُهُمْ وَهَمُّ الْأَلَى
هَجَرُوا الدِّيَارَ فَأَيْنَ أَرْمَعُ^(٣) رَكْبُهُمْ
يَا قَلْبُ حَسْبُكَ لَمْ تُلَمْ^(٤) بِطَيْفِهِمْ
فَارَوْا مِنَ الدُّنْيَا بِمَجْدِ خَالِدِ
نَشَرُوا الْهُدَى وَعَلَوْا مَكَانَ الْفَرْقَدِ^(٢)
مَنْ يَهْتَدِي لِلْقَوْمِ أَوْ مَنْ يَفْتَدِي
إِلَّا عَلَى مَصْبَاحٍ وَجْهِ مُحَمَّدٍ
وَلَهُمْ خُلُودُ الْفَوْزِ يَوْمَ الْمَوْعِدِ

(١) الصداق : المهر .

(٢) الْفَرْقَدُ : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهْتَدَى بِهِ ،

وهو المسمى « النجم القطبي » .

(٣) أَرْمَعُ : قَصَدَ وَتَوَجَّهَ .

(٤) لَمْ تُلَمْ : لم تنزل بهم .

يَا رَبُّ أَلْهِمْنَا الرَّشَادَ فَمَا لَنَا فِي الْكَوْنِ غَيْرَكَ مِنْ وَلِيٍّ مُرْشِدٍ

مَا زَالَ قَيْسٌ وَالْفَرَامُ كَعَهْدِهِ
وَهِضَابُ نَجْدٍ مِنْ مَرَاغِيهَا الْمَهَا
وَالْعَشْقُ قِيَاضٌ وَأُمَّةٌ أَحْمَدِ
لَوْ حَاوَلْتُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَكَانَهُ
مَا بِأَلْهَا تَلَقَّى الْجُدُودَ عَوَائِرًا^(١)
وَرَبِيعٌ لَيْلَى فِي ربيعِ جَمَالِهَا
وَضَبَاؤُهَا الْخَفَرَاتِ مَلَأُ جِبَالِهَا
يَتَحَفَّرُ التَّارِيخُ لاسْتِقْبَالِهَا
رَفَّتْ عَلَى شَمْسِ الصُّحَى بِهَلَالِهَا
وَتَصُدُّهَا الْأَيَّامُ عَنْ آمَالِهَا

هَجَرُ الْحَبِيبِ رَمَى الْأَحَبَّةَ بِالنَّوَى
لَوْ قَدْ مَلَلْنَا الْعِشْقَ كَانَ سَبِيلُنَا
أَوْ نَصْنَعُ الْأَصْنَامَ ثُمَّ نَبِيعُهَا
أَيَّامُ سَلْمَانَ بِنَا مَوْصُولَهُ
وَأَصَابُهُمْ يَتَصَرَّمُ الْأَمَالِ
أَوْ نَسْتَكِينُ إِلَى هَوَى وَضَلَالِ
حَاشَا الْمَوْحِدَ أَنْ يَذَلَّ لِمَالِ
وَتُقَى أُوَيْسَ فِي أَذَانِ بِلَالِ

يَا طَيْبَ عَهْدٍ كُنْتَ فِيهِ مَنَارَنَا
وَأَسْرَتْ فِيهِ الْعَاشِقِينَ بِلَمَحَّةٍ
أَحْرَقْتَ فِيهِ قُلُوبَهُمْ بِتَوْقُودِ الْإِيمَانِ لَا بَتَلْهُبِ النَّيرانِ
لَمْ نَبْقَ نَحْنُ وَلَا الْقُلُوبُ كَأَنَّهَا
إِنْ لَمْ يُنَزَّ وَجْهُ الْحَبِيبِ بِوَصْلِهِ
فَبَعَثْتَ نَوْرَ الْحَقِّ مِنْ قَارَانِ
وَسَقَيْتَهُمْ رَاحاً بِغَيْرِ دَنَانِ
لَمْ تَخْطَ مِنْ نَارِ الْهَوَى بِدُخَانِ
فَمَكَانُ حُزْنِ الْقَلْبِ كُلِّ مَكَانِ

يَا فَرِحَةَ الْأَيَّامِ حِينَ نَرَى بِهَا
رَوْضَ التَّجَلِّيِّ وَارْفَ الْأَغْصَانِ

(١) الجُدود العَوَائِر : الحفظوظ الخائبة .

ويعود محفلنا بحسبك مسفراً
قد هاجَ حزني أن أرى أعداءنا
ونعالجُ الأنفاس نحن ونصطلي
أشرق بنورك وإبعثِ البرق القديم
كالضُّبح في إشراقه الفينان
بين الطُّلأ^(١) والظُّل والألحان
في الفقر حينَ القوم في بستان
أشرق بنورك وإبعثِ البرق القديم
بومضةٍ لفراشك الظُّمان

أشواقنا نحوَ الحجاز تطلَّعت
إنَّ الطيورَ وإنَّ قصَّصتَ جناحها
قيَّسَرتي مكبوتةً ونشيدُها
واللَّحنُ في الأوتار يرجو عازفاً
والطُّور^(٢) يرتقبُ التجلي صارخاً
كحنينٍ مُغترِبٍ إلى الأوطان
تسمو بفطرتها إلى الطَّيران
قد ملَّ من صمتٍ ومن كتمان
ليسوخَ من أسرارهِ بمعمانٍ
بهوى المَشوِّقِ ولَهْفَةِ الحَيْرانِ

أكبادنا احترقتُ بأناتِ الجوى
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا
أو ليس من هَوْلِ القيامة أن يكو
النملُ لا يخشى سليماناً إذا
أرشدَ براهمةَ الهنود ليرفعوا الـ
ودماؤنا نهرُ الدُموعِ القاني
وكأنَّه شكوى بغير لسان
ن الزَّهرُ نَمَماً^(٣) على البُستانِ
حَرَستُ قُراه عنايةَ الرَّحمنِ
إسلامَ فوقَ هياكلِ الأوثانِ

ما يالُ أغصانِ الصَّنوبرِ قد نأت
وتعرَّتِ الأشجارُ من حُلِّ الرُّبا
عنها قَمَارِيْهَا^(٤) بكلِّ مكانٍ
وطيورها فرَّت إلى الوديانِ

(١) الطُّلأ : الخمر .

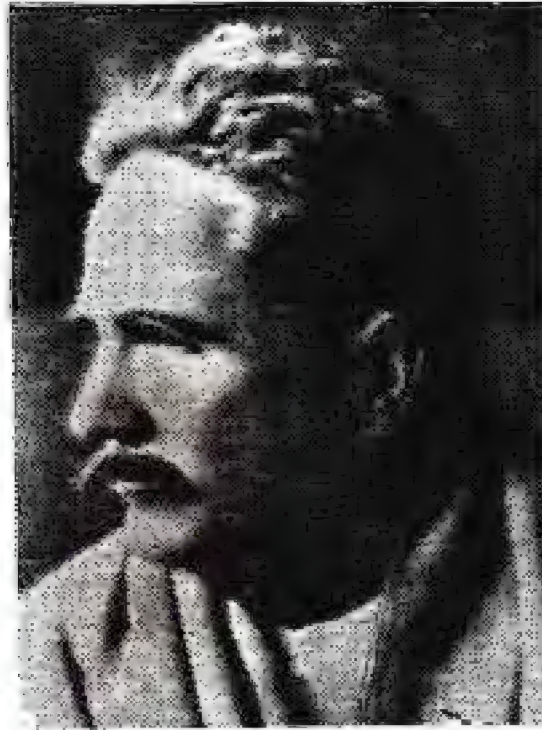
(٢) الطُّور : هو الجبل الذي تجلَّى الله عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلمه .

(٣) نَمَماً : هو مَنْ يُزَيِّن للناس الكلام بالكذب .

(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يَا رَبِّ إِلَّا بُلْبُلًا لَمْ يَنْتَظِرْ وَحَيَّ الرَّبَّيعَ وَلَا صَبَاً^(١) تَيْسَانِ
 الْحَانَةُ بِحَرٍّ جَرَى مُتَلَاظِمًا فَكَأَنَّهُ الْحَاكِي عَنْ الطُّوفَانِ
 يَا لَيْتَ قَوْمِي يَسْمَعُونَ شِكَايَةً هِيَ نِي ضَمِيرِي صَرْخَةُ الْوُجْدَانِ

إِنَّ الْجَوَاهِرَ حَيَّرَتْ مِرَاةَ هـ لَذَا الْقَلْبِ فَهُوَ عَلَى شَفَا الْبُرْكَانِ
 أَسْمِعْهُمْ يَا رَبِّ مَا أَلْهَمْتَنِي وَأَعِذْ إِلَيْهِمْ يَقْظَةَ الْإِيمَانِ
 وَأَذْقْهُمْ الْخَمْرَ الْقَدِيمَةَ إِنَّهَا عَيْنُ الْيَقِينِ وَكُوْثُرُ الرُّضْوَانِ
 أَنَا أَعْجَمِي الدَّنَّ لَكِنْ خَمَّرْتَنِي صُنْعُ الْحِجَّازِ وَكَرْمِهَا الْفَيْنَانِ^(٢)
 إِنْ كَانَ لِي نَعْمُ الْهَنُودُ وَلَحْنُهُمْ لَكِنْ هَذَا الصَّوْتُ مِنْ عَدْنَانِ



(١) صَبَاً : رِيح طَيِّبَةٌ تَهْبُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ .
 (٢) الْفَيْنَانُ : أَيُّ ذُو الْأَفْنَانِ طَوِيلِ الْأَغْصَانِ .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظَمَ مُحَمَّدٌ إِقْبَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ قَصِيدَةً أُخْرَى وَضَحَ فِيهَا تَقْصِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِهْمَالَهُمْ لِدِينِهِمْ ، وَعَدَمَ إِتْقَانِهِمْ أَمْرَ الدُّنْيَا ، تَبَرُّراً لِمَا جُوزُوا بِهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالْهَوَانِ ، وَسَرْعَانَ مَا تَغَيَّرَتْ بِهِاتَيْنِ الْقَصِيدَتَيْنِ الْأَطْفَالُ ، وَالشَّبَابُ ، وَحَفْظَهُمَا الرِّجَالَ ، وَالنِّسَاءَ ، وَسَارَتَا مِيرَ الرِّيحِ وَطَارَتَا بِغَيْرِ جَنَاحٍ .

كَلَامُ الرُّوحِ لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي^(١) وَتَذَرُّهُ الْقُلُوبُ بِلا عَنَاءٍ^(٢) وَشَقُّ أُنْيُوهِ صَدْرُ الْفَضَاءِ جَرَتْ فِي لَفْظِهِ لَغَةُ السَّمَاءِ حَدِيثاً كَانَ عُلوِّيَّ النَّدَاءِ أَهْجَ الْعَالَمِ الْأَعْلَى بِكَائِي

تَحَاوَرَتِ الثُّجُومُ وَقُلْنَ صَوْتٌ ، وَجَاوَبَتِ الْمَجَرَّةُ عَلَّ طَيْفَاً وَقَالَ الْبَدْرُ هَذَا قَلْبُ شَاكِ وَلَمْ يَعْرِفْ سِوَى رِضْوَانِ صَوْتِي أَلَمْ أَكُ قَبْلُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

(١) يَسْرِي : يَجْرِي .

(٢) عَنَاءٌ : تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ .

وقيل هو ابن آدم في غرورٍ
لقد سجدت ملائكة كرامٍ
يظنُّ العلمُ في كيفٍ وكمٍ
وملء كؤوسه دمعٌ وشكوى
فيا هذا لقد أبلغت شيئاً
تجاوزَ قدره دونَ ازِعواء^(١)
لهذا الخلق من طينٍ وماءٍ
وسرُّ العَجَزِ عنه في انطواءٍ
وفي أنغامه صوتُ الرجاءِ
وإنْ أكَثَرْتَ فيه مِنَ المِراءِ

عطايانا سحائبُ مُزَلَّاتٍ
وكلُّ طريقنا نَورٌ^(٢) ونورٌ
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ
وكان تراب آدم غيرَ هذا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ
ولكن ما وجدنا السَّائِلِينَا
ولكن ما رأينا السَّالِكِينَا
ضياءَ الوحي والثَّورِ المِينَا
وإنْ يَكُ أصله ماءً وطيناً
لأجرينا السَّماءَ لهم عُيُونَا

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثَّرِيَّا
ولكنْ أَلْحَدُوا في خيرِ دينٍ
نُراثٍ محمَّدٍ قد أهملوه
تولَّى هادمُ الأصنامِ قُدماً
أباهم كان إبراهيمَ لكنْ
وشيدنا الثُّجُومَ لهم حُصُونَا
بنى في الشَّمْسِ مُلْكَ الأوَّلِينَا
فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينَا
فعاد لها أولئك يصنعونا
أرى أمثالَ آزرَ^(٣) في البنيْنَا

(١) ازِعواء : كَفَّ وارتداع .

(٢) الثَّور : الزَّهْر .

(٣) آزر : اسمُ والدِ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنامَ جِرْفَةً .

وفي أشلافكم كانت مزايا
تضوع^(١) شقائق الصحراء عطرأ
فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالفهم فناء
وكوثر أحمد منكم قريب

بكل فم لذكرها نشيد
برئها وتبسم الورود
فيجمل في دلالكم الضدود
فلم يكتب لغيرهم الخلود
ولكن شوقكم عنه بعيد

وكم لاح الصباح سنا^(٢) وبشرى
وكثرت الخمائل في رباها
ونوم صباحكم أبداً ثقیل
وأضحى الصوم في رمضان قيدا
تمدن عصركم جمع المزايا

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ومن رضي الحياة بغير دين
وفي التوحيد للههم اتحاد
تساندت الكواكب فاستقرت

غدوتم في الديار بلا ديار
وكل صواعق الدنيا سهام

وكيف ينال عهدي الظالمينا
ولا دنيا لمن لم يخفي ديناً
فقد جعل الفناء لها قريناً
ولن تبناوا العلاء مفرقينا
ولولا الجاذبية ما بقينا

وانتم كالطيور بلا وكور
ليدركم وأنتم في غرور

(١) تضوع : تفوح وتنتشر .

(٢) السنا : الضياء .

أَهَذَا الْفَقْرَ فِي عِلْمٍ وَمَالٍ وَأَنْتُمْ فِي الْقَطِيعَةِ وَالْغُورِ
وَبَيْعُ مَقَابِرِ الْأَجْدَادِ أَضْحَى لَدَى الْأَحْفَادِ مَدْعَاةُ الظُّهُورِ
سَيُعْجَبُ تَاجِرُو الْأَصْنَامِ قُدَمَاءُ إِذَا سَمِعُوا بِتَجَارِ الْقُبُورِ

مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ إِلَى الْمَعَالِي عَلَى نَهْجِ الْهَدَايَةِ وَالصُّوَابِ
وَمِنَ جِبْهَاتِهِمْ أَنْوَارُ بَيْتِي وَفِي أَخْلَاقِهِمْ يُتْلَى كِتَابِي
أَمَّا كَانُوا جُدُودَكُمْ الْأَوَالِي بِنَاءَ الْمَجْدِ وَالْفَنِّ الْمَجَابِ
وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْمَاضِي تَرَاثٌ سِوَى شَكْوَى اللَّغُوبِ^(١) وَالْاِكْتِنَابِ
وَمَنْ يَكُ يَوْمُهُ فِي الْعَيْشِ يَأْسَاءُ فَمَا غَدُهُ سِوَى يَوْمِ الْعَذَابِ

أَتَشْكُو أَنْ تَرَى الْأَقْوَامَ فَازُوا بِمَجْدٍ لَا يَرَاهُ النَّائِمُونَ
مَثَوْا بِهَدْيِ أَوَائِلِكُمْ وَجَدُّوا وَضِيعَتَكُمْ تَرَاثِ الْأَوَّلِينَ
أُيْخِرُمْ عَامِلٌ وَرَدَّ الْمَعَالِي وَيَسْعَدُ بِالرُّقِيِّ الْخَامِلُونَ
أَلَيْسَ مِنَ الْعَدَالَةِ أَنْ أَرْضِي يَكُونُ حَصَادُهَا لِلزَّارِعِينَ
تَجَلِّي الثُّورِ فَوْقَ الطُّورِ بَاقٍ فَهَلْ بَقِيَ الْكَلِيمُ^(٢) بِطُورِ سِينَا؟

أَلَمْ يُنْعَثْ لَأَمْنِكُمْ نَبِيٌّ يُوَحِّدُكُمْ عَلَى نَهْجِ الْوِثَامِ
وَمُصْحَفُكُمْ وَقَبْلَتُكُمْ جَمِيعاً مَنَارٌ لِلْأَخْوَةِ وَالسَّلَامِ
وَفَوْقَ الْكُلِّ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ إِلَهٌ وَاحِدٌ رَبُّ الْأَنَامِ
فَمَا نَارُ الْفِتْكِ تَوَلَّى وَأَمْسَيْتُمْ حَيَارَى فِي الظَّلَامِ

(١) اللَّغُوبُ : التعب والإعياء .

(٢) الْكَلِيمُ : لقب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

وَحَسَنَ الْوُلُوْءُ الْمَكْنُونِ رَهْنٌ بصوغ العِقْدِ فِي حُسْنِ النُّظَامِ

وَكَيْفَ تَغَيَّرَتْ بِكُمْ اللَّيَالِي وَكَيْفَ تَفَرَّقَتْ بِكُمْ الْأَمَانِي
تَرَكْتُمْ دِينَ أَحْمَدَ ثُمَّ عُدْتُمْ ضَحَايَا لِلْهَوَىٰ أَوْ لِلْهَوَانِ
رَقِيَّ الشَّعْبِ قَدْ أَضْحَىٰ لَدَيْكُمْ تَقَرُّزُهُ صِلَاحِيَّةُ الزَّمَانِ
وَكَيْفَ تُقَاسُ أَوْهَامٌ وَلَغْوٌ بِحِكْمَةِ مَنْزِلِ السَّبْعِ الْمَثَانِي
أَرَىٰ نَارًا قَدْ انْقَلَبَتْ رِمَادًا سِوَى ظِلِّ مَرِيضٍ مِنْ دُخَانِ

أَرَى الْفُقَرَاءَ عِبَادًا تَقَاةً قِيَامًا فِي الْمَسَاجِدِ رَاكِعِينَ
هُمْ الْأَبْرَارُ فِي صَوْمٍ وَفَطْرِ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَا
وَلَيْسَ لَكُمْ سِوَى الْفُقَرَاءِ سِتْرٌ يُوَارِي عَنْ عِيُوبِكُمُ الْعِيُونَا
أَضَلَّتْ أَغْنِيَاءَكُمْ الْمَلَاهِي فَهُمْ فِي رِيهِمْ يَتَرَدَّدُونَا
وَأَهْلُ الْفَقْرِ مَا زَالُوا كُنُوزًا لَدَيْنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَا

أَرَى التَّفَكِيرَ أَدْرَكُهُ خَمُولٌ وَلَمْ تَبْقَ الْعِزَائِمُ فِي اشْتِعَالِ
وَأَصْبَحَ وَغَظُكُمْ مِنْ غَيْرِ سِخْرِ وَلَا نَوْرٌ يُطْلُ مِنْ الْمَقَالِ
وَعِنْدَ النَّاسِ فِلَسْفَةٌ وَفَكْرٌ وَلَكِنْ أَيْنَ تَلْقَيْنَ (الْغَزَالِي ^(١))
وَجَلَجَلَةٌ الْأَذَانِ بِكُلِّ أَرْضٍ وَلَكِنْ أَيْنَ صَوْتُ مَنْ بِلَالِ
مَنَائِرُكُمْ عَلَتْ فِي كُلِّ حَيٍّ وَمَسْجِدُكُمْ مِنَ الْعِبَادِ خَالِي

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب
« بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥ هـ بمدينة « طوس » .

فَأَيِّنْ أَمَّةٌ وَجُنُودٌ صَدَقِ
 إِذَا صَنَعُوا فَصَنَعَهُمُ الْمَعَالِي
 مَرَادُهُمُ الْإِلَهُ فَلَا رِيَاءَ
 لَأَمَّتْهُمْ وَلِلْأَوْطَانِ عَاشُوا
 كَمَثَلِ الْكَأْسِ تُبَصِّرُهَا دِهَاقًا^(٢)
 تَهَابُ شَبَابَةً^(١) عَزَمَهُمُ الْحَرَابُ
 وَإِنْ قَالُوا فَقَوْلُهُمُ الصَّوَابُ
 وَنَهَجَهُمُ الْيَقِينُ فَلَا ارْتِيَابُ
 فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَى الدُّنْيَا طِلَابُ
 وَلَيْسَ لِأَجْلِهَا صُنْعُ الشَّرَابِ

جِهَادُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ حَيَاةٌ
 عَقَائِدُهُمْ سَوَاعِدُ نَاطِقَاتٍ
 وَخَوْفُ الْمَوْتِ لِلْأَحْيَاءِ قَبْرُ
 أَرَى مِيرَاثَهُمْ أَضْحَى لَدَيْكُمْ
 وَلَيْسَ لَوَارِثٍ فِي الْخَيْرِ حِظٌّ
 أَلَا إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْجِهَادُ
 وَبِالْأَعْمَالِ يَثْبُتُ الْإِعْتِقَادُ
 وَخَوْفُ اللَّهِ لِلْأَحْرَارِ زَادُ
 مِضَاعًا حَيْثُ قَدْ ضَاعَ الرَّشَادُ
 إِذَا لَمْ يَحْفَظِ الْإِرْثُ اتَّحَادُ

لَأَيِّ مَآثِرِ الْقَوْمِ انْتَسَبْتُمْ ؟
 فَأَيِّنْ مَقَامُ ذِي الثُّورَيْنِ^(٣) مِنْكُمْ
 وَقَفَرُ عَلَيِّ الْأَوَابِ هَلَا
 أَقَمْتُمْ فِي الذُّنُوبِ وَفِي الْخَطَايَا
 وَهُمْ سَتَرُوا عَيْبَ الْخَلْقِ فُضْلًا
 لَتَكْتَسِبُوا فَخَارَ الْمُسْلِمِينَ
 وَدَوْلَةَ عِزِّهِ دُنْيَا وَدِينَا
 رَبِحْتُمْ فِيهِ كَنْزَ الْفَاتِحِينَ
 وَتَغْتَابُونَ حَتَّى الصَّالِحِينَ
 وَإِنْ كَانُوا أَبْرَ الْمُتَّقِينَ

(١) شَبَابَةٌ ، جمعها الشُّبَا والشُّبُوت : شبابة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .
 (٢) دِهَاق : مُمْتَلِئٌ ، يقال : كأس دِهَاق ، أي ممتلئ .
 (٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أَرِيكَ قَيْصَرَ^(١) وَسَرِيرُ كِسْرَى^(٢)
وَأَنْتُمْ تَظْمَحُونَ إِلَى الثُّرَيَّا
تَضِيعُونَ الْإِخَاءَ وَهُمْ أَقَامُوا
طَلَبْتُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَعَدْتُمْ
وَكَانَ لَدَيْهِمُ الْبُسْتَانُ مُحْضاً

قَدْ اخْتَمَيْتُمْ بِمُلْكِهِمُ الْعَمِيمِ
بَلَا عَزْمٍ وَلَا قَلْبٍ سَلِيمِ
صُرُوحَ إِخَائِهِمْ فَوْقَ النُّجُومِ
بَلَا زَهْرٍ يَضُوعٌ^(٣) وَلَا شَمِيمِ
وَهُمْ أَصْحَابُ جَنَاتِ النَّعِيمِ

يُعِيدُ الْكَوْنُ قَصَّتَهُمْ حَدِيثاً
فَكَمْ نَزَحُوا عَنِ الْأَوْكَارِ شَوْقاً
وَيَأْسُ شَبَابِكُمْ أَدْمَى خَطَاهُمْ
هِيَ الْمَدْنِيَّةُ الْحَمَقَاءُ أَلْقَتْ
لَقَدْ صَنَعْتَ لَهُمْ صَنْمَ الْمَلَاهِي

وَمِلٌّ مِنَ الشُّكَايَةِ وَالْعَذَابِ
يَرَى لَيْلَاهُ^(٥) وَهِيَ بَلَا حِجَابِ
رَأَى وَجْهَ الْفَرَامِ بَلَا نِقَابِ
مِنَ الْمَاضِي وَأَغْلَقَ كُلَّ بَابِ
وَعَاثَتْ^(٦) فِي الْجِبَالِ وَفِي الْهَضَابِ^(٧)

لَقَدْ سَمَّ الْهَوَى فِي الْيَدِ قَيْسٌ^(٤)
وَيَحَاوُلُ أَنْ يُبَاحَ الْعِشْقُ حَتَّى
يَرِيدُ سَفُورَ وَجْهِ الْحُسْنِ لَمَّا
فَهَذَا الْعَهْدُ أَحْرَقَ كُلَّ غَرَسٍ
لَقَدْ أَفْنَتْ صَوَاعِقُهُ الْمَغَانِي

(١) قَيْصَر : لَقَبُ مُلُوكِ الرُّومِ .

(٢) كِسْرَى : لَقَبُ مُلُوكِ الْفَرَسِ .

(٣) يَضُوعٌ : يَفُوحُ وَيَنْتَشِرُ .

(٤) قَيْسٌ : مِنْ أَشْهُرِ عَشَاقِ الْعَرَبِ .

(٥) لَيْلَى : مِنْ أَشْهُرِ عَاشِقَاتِ الْعَرَبِ .

(٦) عَاثَتْ : أَفْسَدَتْ .

(٧) هِضَابٌ : جَمْعُ هَضْبَةٍ ، وَهُوَ جَبَلٌ مُبَسَّطٌ مَمْتَدٌّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

هي النَّارُ الجديدة ليس يُلقى
خُذُوا إِيْمَانًا إِبْرَاهِيمَ تَنْبُتُ
وَيَذْكُو مِنْ دَمِ الشَّهْدَاءِ وَرَدُّ
وَيَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْكَوْنِ لَوْنٌ
فَلَا تَفْزَعُ إِذَا الْمَرْجَانُ^(١) أَضْحَى

لَهَا حَطْبٌ سِوَى الْمَجْدِ الْقَدِيمِ
لَكُمْ فِي النَّارِ رَوْضَاتُ النَّعِيمِ
سَنِيَّ الْعَطْرِ قَدْسِي النَّسِيمِ
مِنَ الْعُنَابِ مَخْضُوبُ الْأَدِيمِ
عَقُوداً لِلْبِرَاعِمِ وَالْكُرومِ

فَكَمْ زَالَتْ رِيَاضٌ مِنْ رَبَاهَا
وَلَكِنْ نَخْلَةُ الْإِسْلَامِ تَنْمُو
وَمَجْدُكَ فِي حِمَى الْإِسْلَامِ بَاقٍ
وَإِنَّكَ يَوْسُفُ فِي أَيِّ مَصْرِ
تَسِيرُ بِكَ الْقَوَافِلُ مُسْرِعَاتٍ

وَكَمْ بَادَتْ نَخِيلٌ فِي الْبَوَادِي
عَلَى مَرِّ الْعَوَاصِفِ وَالْعَوَادِي
بِقَاءِ الشَّمْسِ وَالشَّبَعِ الشَّدَادِ
يَرَى كَنْعَانَهُ^(٢) كُلَّ الْبِلَادِ
بِلَا جَرَسٍ وَلَا تَرْجِيمِ خَادِي

ضِيَاؤُكَ مَشْرِقٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ
بَغَتْ أُمَمُ النَّارِ^(٣) فَأَدْرَكْتُهَا
وَأَصْبَحَ عَابِدُو الْأَصْنَامِ قُذَمَاءُ
فَلَا تَجْزَعُ فَهَذَا الْعَصْرُ لَيْلٌ

لَأَنَّكَ غَيْرَ مُحَدُودِ الْمَكَانِ
مِنَ الْإِيْمَانِ عَاقِبَةُ الْأَمَانِ
حِمَاةَ الْحِجْرِ^(٤) وَالرُّكْنَ الْيَمَانِيِّ^(٥)
وَأَنْتَ النَّجْمُ يَشْرِقُ كُلَّ آيٍ

(١) الْمَرْجَانُ : صِفَارِ اللَّوْلُؤِ .

(٢) كَنْعَانُ : أَرْضُ فِلَسْطِينَ .

(٣) النَّارُ : قِبَائِلُ كَانَتْ تَسْكُنُ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا ، أَصْلُهُمْ مِنَ الْمَغُولِ ، اشتهروا بِغَزَوَاتِهِمْ ، وَأَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَعْدَ هَجُومِهِمْ عَلَى بَغْدَادِ .

(٤) الْحِجْرُ : يُرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ حَجَرَ الْكَعْبَةِ .

(٥) الرُّكْنَ الْيَمَانِيُّ : هُوَ رُكْنُ الْكَعْبَةِ الَّذِي فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ .

ولا تخش العواصف فيه وانهض
بشعلتك المضيئة في الزمان

أعد من مشرق التوحيد نوراً
وأنت العطر في روض المعالي
وأنت نسيمة فاحمل شذاه
وأرسل شعلة الإيمان شمساً
وكن في قمة الطوفان موجاً
يتم به اتحاد العالمينا
فكيف تعيش محتبساً دفيناً
ولا تحمل غبار الخاملينا
وصنع من ذرة جبالاً حصينا
ومزناً يطر الغيث الهثونا

فباسم محمد شمس البرايا
تلاً في الرياض وفي الصحارى
وتبض الكون منه مستمداً
ومن مراکش^(١) يغزو صده
وما شكاة هذا النور إلا
أقيمت خيمة الفلك المنير
وفوق الموج والسيل المغير
حرارته على مر العصور
رُبوع الصين بالصوت الجهير
ضمير المسلم الحر الغيور

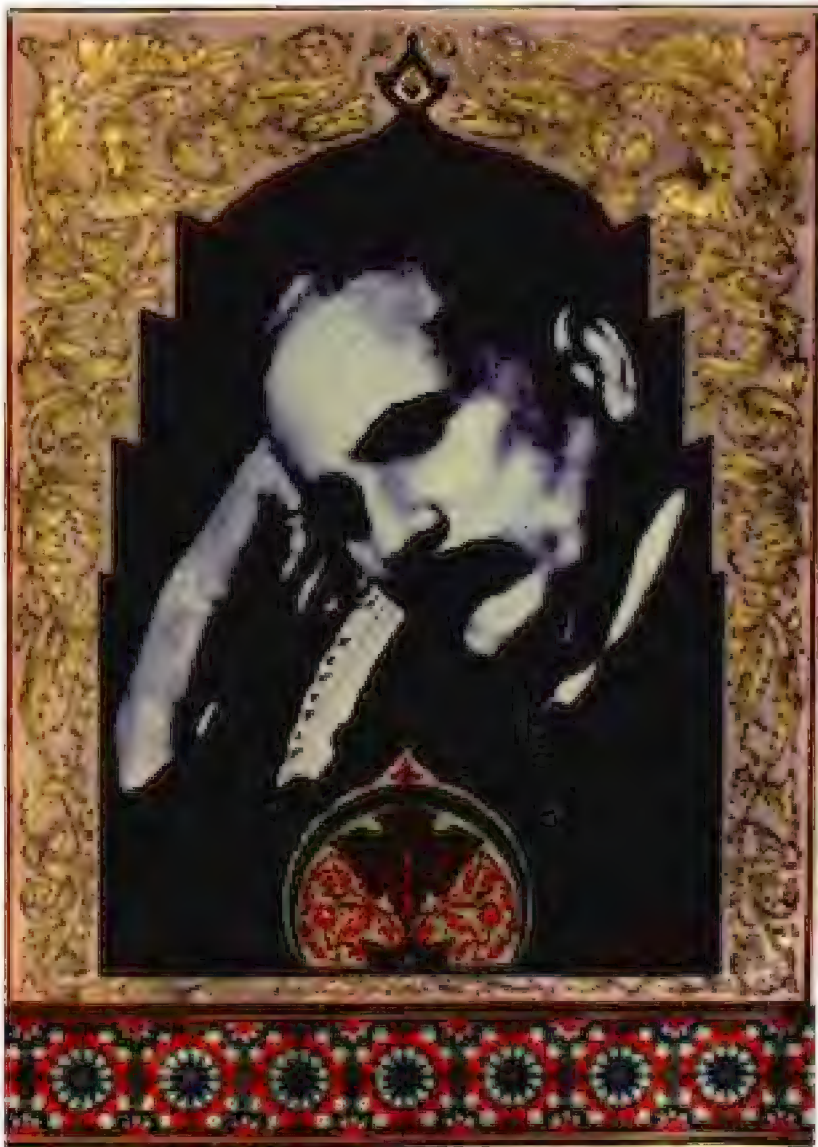
ورفع الذكر للمختار رفع
فكن إنسان عين الكون واشهد
بخنجر عزمك الوئاب لاحت
نداؤك في العناصر مستجاب
وعقلك في الخطوب أجل درع
لقدرك نحو غايات الكمال
مقامك عالياً فوق المعالي
على الأعلام أنوار الهلال
إذا دوى بصوت من بلال
وعشقك خير سيف للنضال

خلافة هذه الأرض استقرت
بمجدك وهو للدنيا سماء

(١) مراکش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيا من هب للإسلام يدعو
سترفع قذرك الأقدار حتى
وقيل لك اختكم دنيا وأخرى

صغيراً كل ما ضم القضاء
وأيقظ صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما تشاء



الدِّيَّوَانُ الثَّانِي

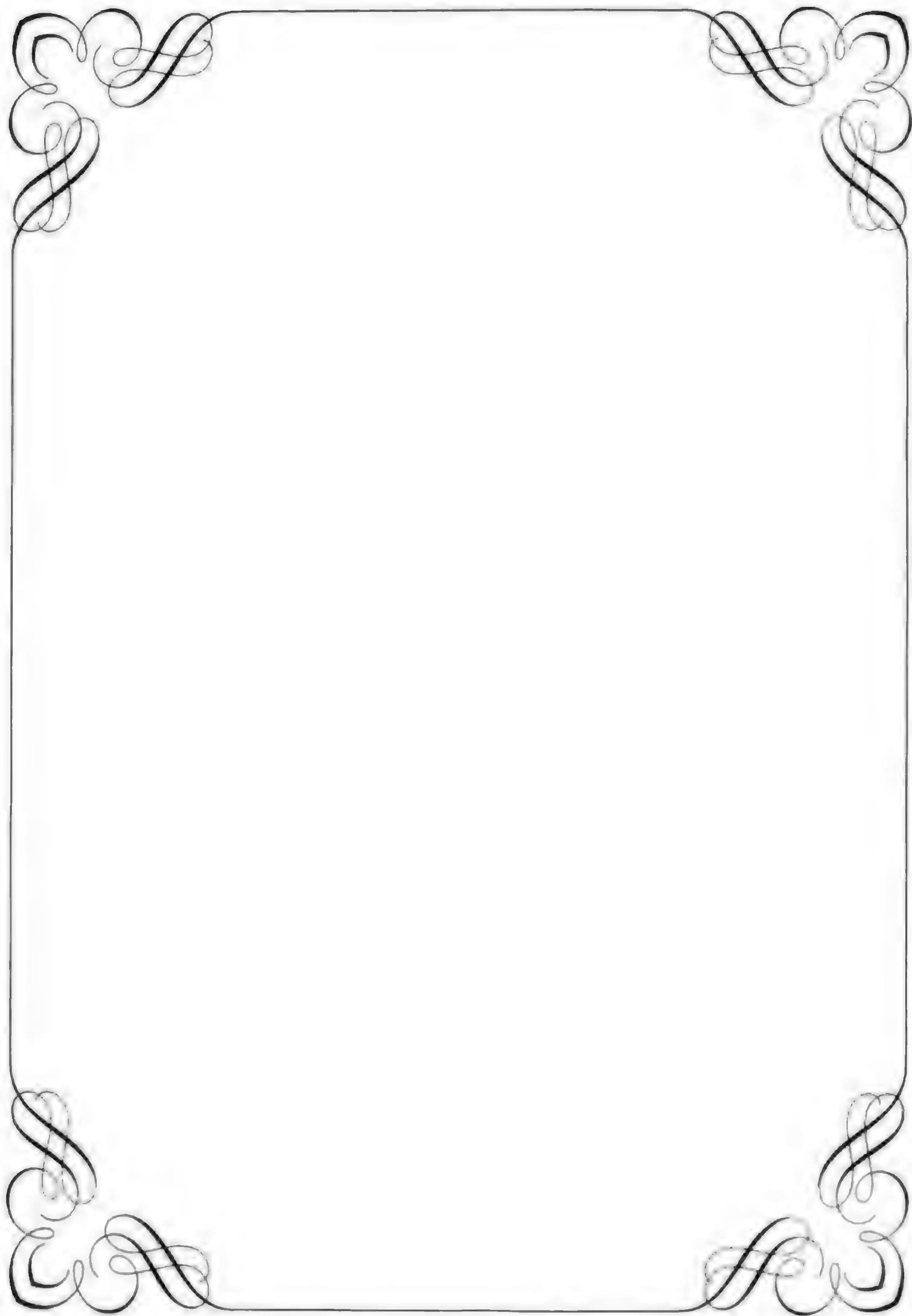
الْأَسْرَارُ وَالرُّمُوزُ

أَسْرَارُ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَرُمُوزُ نَفْسِ الذَّاتِ

أَسْرَارُ خُودِي وَرُمُوزُ بَیْخُودِي

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شَمْرًا

الدكتور عبد الوهَّاب عزام



يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلامية . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلا أنه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورة عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفة حديثة تؤدي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أية فائدة للترك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظريته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوة ، والاعتماد على النفس^(١) ولم يقنط محمد إقبال بل كرّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنّ مردّ هذا إلى الآراء الإغريقية التي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوّل هذا الدين من الإيجابية الدافقة إلى عقيدة مستسلمة تأملية ، الأمر الذي أدّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندّد بأفلاطون ، وشنّ حملة على الصوفيّة التي عدّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خوذي » أي « الذات » وهو يبدوّها بالأبيات التالية التي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرّومي^(٢) : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي ! تبحث

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص (١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسان في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال ، وبطل من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل ! فأحبُ شيء إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالاً^(١) . وقد ركَّز محمد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات التي يركز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الذي في نظره يؤلف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورة جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأن أخلاق الفرد والأمة تحدّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والروحانيّة ، ويؤكد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أن الاستسلام للجبرية هو الذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرّغم من قيمهم الدّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

(١) « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن الندوي ص ٨٥ - ٨٦ .

يشتمل هذا الديوان أولاً على المقدمة المنظومة ، يبين فيها محمد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيل السفر فهمي دمعِي على خدِّ الزهر
غسل الدمع سبات التُّرجس وصحا العشب بمسرى نفسي
جرَّب الفارس قولي موقداً مصرعاً ألقى وسيفاً حصداً
ويشير إلى أنَّ الرومي هو الذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صَيَّر الروميُّ طيني جوهراً من غباري شاد كوناً آخراً

فصول الديوان :

- ١ - أصل نظام العالم من الذاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذاتية .
- ٢ - حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .
- ٣ - تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق .
- ٤ - ضعف الذاتية بالسؤال .
- ٥ - إذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سحَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .
- ٦ - حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

- ٧ - في معنى أنَّ أفلاطون اليونانيّ - الذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها - ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .
- ٨ - حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية .
- ٩ - تربية الذات لها ثلاث مراحل :
- المرحلة الأولى : الطّاعة .
- الثانية : ضبط النفس .
- الثالثة : النيابة الإلهية .
- وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهب .
- ١٠ - في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .
- ١١ - نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .
- ١٢ - الوقت سيف .
- ١٣ - دعاء « ويختم به المنظومة »^(١) .
- نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضي وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفّقٍ طرباً يثني معجباً ، وصائحٍ يتعجّب ويستنكر .
- نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

(١) إقبال . : للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها

محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)^(١) الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلق كل المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقة دائمة ، أم أن الحياة تجلّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلياً عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟ إن سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الأحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خداع الخيال . وهي تعدّ الخلاص من هذا الغلّ نجاةً ، وميل أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث . ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلفت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقّق حكماءهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إن حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإن حالة النفس الإنسانية نتيجة محتومة لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوة إلى العمل بليغة ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوق ينال الخلود بالعمل ، ولكن تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسر بها شكر

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلامي . واقتفى أثره أوجد الدين الكرمانلي ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كل شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة ، فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فأراؤهم خير دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي^(١) ولكن مسحة العمل غلبت على طابع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتت بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختتم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلّ على الطريق من لم يُسلم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، وإنما خيال الشعر فيها وسيلة إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدققة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القراء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثرة ، كما تستعمل في اللغة الأردية غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر

إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٌ خداعٌ نظريٌّ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدرك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيء . والخالق كذلك فردٌ ؛ ولكنه أوحده لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنى القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الديني والأخلاقي إثبات ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله » فكُلُّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفنى وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخرُ كلَّ الصَّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلق دائماً مطالبَ ومُثلاً جديدةً ، وقد خلقت من أجل اتساعها وترقيها آلات الحواس الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقَّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادَّة أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شراً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوى الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قهرت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحقيق الاختيار . ومقصودُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلى في الإنسان تسمَّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌ من التوتر ، ودوام الشخصية موقفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبتهَا حالٌ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضي عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكننا من إدامة حال التوتر يُمكننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها . وكما تعرِّض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطأً ممتداً إلى غير نهاية يتحمَّم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرٌ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدْ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقفٌ على أن نسلِك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا . أنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جداً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدُّ في نيلها . وخاصةً العشق أفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسْمَى ظهر فيه التوحد ، ويتحقَّق ضمناً توحد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشق شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشق كائن غير شخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالاً ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتبع أفكار غيره ، أو يدّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيّنت أنّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ - إطاعة القانون الإلهي .

٢ - وضبط النفس .

٣ - والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذه الدنيا هي أعلى درجات الرقيّ الإنسانيّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

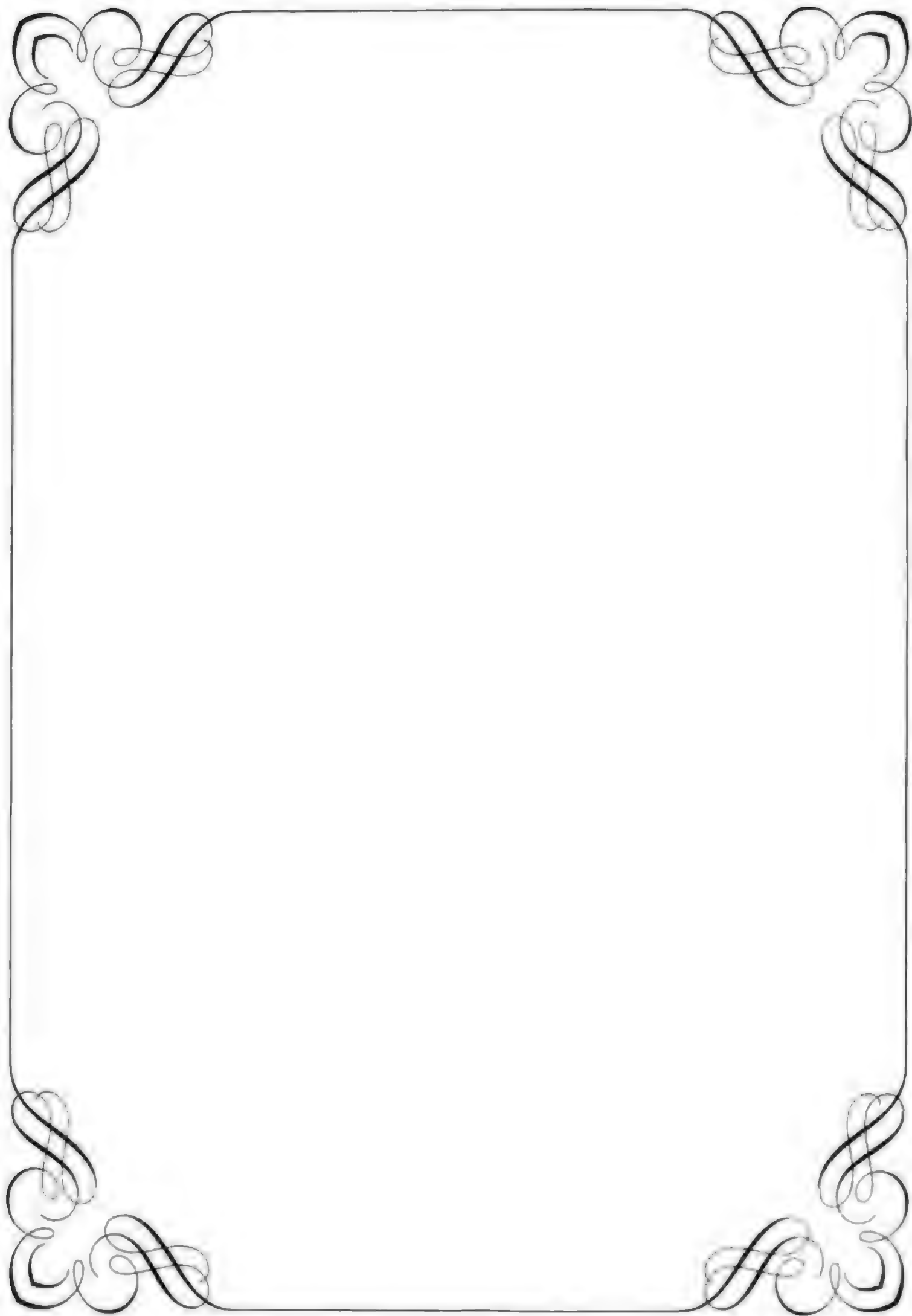
وأول شرط لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبها الروحيّ والجسميّ ، فإنّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أُمَّة مثالية يتجلّى في أفرادها في الجملة هذا التوحّد الدّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريّةٌ يتوحد أفرادها ، ويقوم على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوّر فوقها ذروة .

وقد رأى ننشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها « إهـ .
هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه
ما قدّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسائله إلى نكلسون .





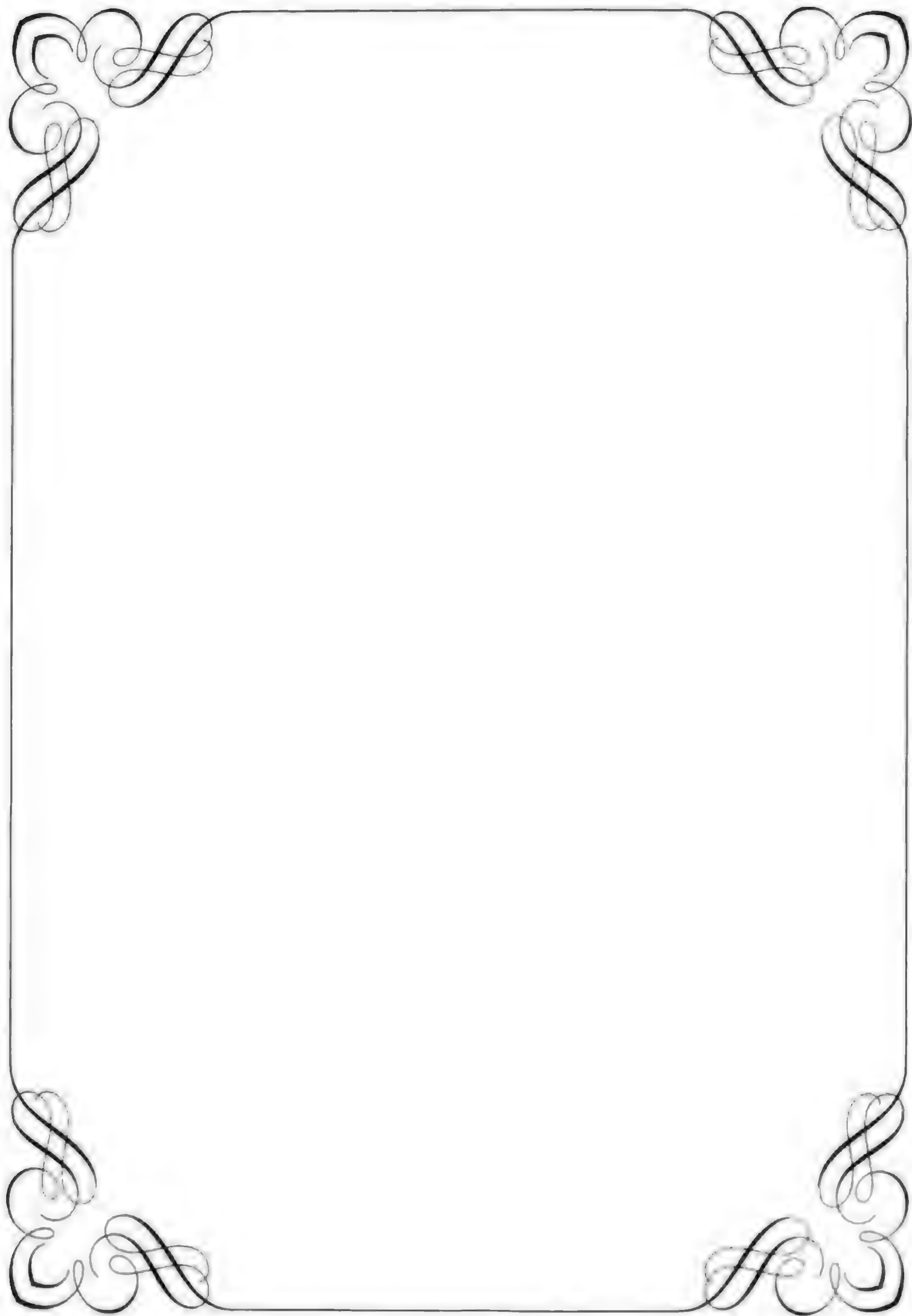
القسم الأول

أسرار إثبات الذات

(أسرار خودي)

رأيتُ الشيخ بالمصباح يسمي له في كلِّ ناحيةٍ مجال
يقول : مللتُ أنعاماً وبَهْماً وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها برشتُم أو بحيدرٍ اندمال^(١)
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا فقال : ومُنيتي هذا المحال
(مولانا جلال الدين الرومي)

(١) حيدر : عليُّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .



تمهيد

« ليس في أعواد غابي سَقَطٌ هي للمنبر أو أعواد صَلْبٌ »^(١)
 نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السَّفر
 غسلَ الدمعُ سُباتَ النُّرجسِ
 جرَّبَ الزَّارعُ قولي مُحَصِّدا
 إنَّه حَبٌّ دموعي زَرعا
 ذرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا
 طيتني من جَامِ جَمٍّ أنورُ
 صَبَدُ أفكاري ظِباءَ لم تُرَمِ
 زانَ بُستانِي عشبٌ ما ظَهَرَ
 محفِلُ الشادين مني يَرْجُفُ
 صامِتٌ في رِبابِ الفِطْرةِ
 إنني شمسٌ قريبٌ مولدي

فَهَمَى دمعِي على خدِّ الزَهَرِ
 وصحا العُشبُ بِمَسَرَى نَفْسِي
 مِصرَعاً ألقى ، وسيفاً حصدا
 نسجَ الروضَ وأتاتني معا
 كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
 من غيوبِ الكونِ عِندي عبْرُ^(٢)
 لم تُسَيِّبَ بَعْدُ من قِيدِ العَدَمِ
 وجنيتُ الوردَ في جوفِ الشَّجرِ^(٣)
 في وِثارِ الكونِ كُفِّي تعزِفُ
 ما وعَى عَنِّي جليسي نغمَتِي
 حُبُكاً في فَلَكَ لم أَغْهَدُ

- (١) نيت درخشك و تربيشه من کوتاهی جوب هرتخل كه منبر شوه داركم
 (٢) حام جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس
 يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ،
 ويدرك ما لم يخلق .
 (٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكانه
 قد جناه .

لَمْ يَرْغُ ضَوْئِي سِرْبَ الزُّهْرِ
مَا رَأَتْ رَقَصَ ضِيَانِي الْأَبْحُرُ
عَيْنُ هَذَا الْكَوْنِ لِي لَا تَعْهَدَ
مَرْقَ الظُّلْمَةِ فَجَرِي فَسْفَرُ
إِنِّي أَرْقُبُ صَبْحاً مُعْلِماً
أَوْ يُرْجَرْجُ زَيْتُنِي فِي الْبَصْرِ^(١)
أَوْ كَسَا الْأَطْوَادَ ثُوبِي الْأَحْمَرُ
أَنَا مِنْ خَوْفِ طُلُوعِ أَرْعَدُ
وَبَدَا طَلُّ جَدِيدٍ فِي الزُّهْرِ
حَبِّذَا مِنْ حَوْلِ نَارِي زَمْزَمَا^(٢)

أَنَا لَحْنٌ دُونَ ضَرْبٍ صَعْدَا
دُونَ عَصْرِي كُلِّ سَرٍّ قَدْ خَفِيَ
أَنَا فِي يَأْسٍ مِنَ الصُّخْبِ الْقَدِيمِ
بَحْرٌ صَحْبِي قَطْرَةٌ لَا تَزْخَرُ
مِنْ وَجُودٍ غَيْرِ هَذَا لِي غَنَاءُ
كَمْ تَجَلَّى شَاعِرٌ بَعْدَ الْحِمَامِ
وَجْهَهُ مِنْ ظُلْمَةِ الْمَوْتِ سَفَرُ
أَنَا صَوْتُ شَاعِرِي يَأْتِي غَدَا^(٣)
مَا بِهِذِي السُّوقُ يُشْرِي يَوْسُفِي^(٤)
مُشْعَلٌ طُورِي لِيَفْشَاهُ كَلِيمُ^(٥)
قَطَرْتِي كَالِيمٌ فِيهِ صَرْصَرُ
وَلِرَكْبٍ غَيْرِ هَذَا لِي خُذَاءُ
يُوقِظُ الْأَعْيُنَ حِيناً وَيَنَامُ
وَنَمَا مِنْ قَبْرِهِ مِثْلَ الزُّهْرِ^(٦)

كَمْ بِهَذَا الشَّهْبِ مَزَتْ قَافِلَةٌ مِثْلَ سَيْرِ الثُّوقِ رَهْواً سَابِلَةٌ

- (١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في العين اضطراب الزئبق .
- (٢) حبذا من صلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .
- (٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .
- (٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .
- (٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .
- (٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرهم إلا بعد الموت .

غَيْرَ أَنِّي عَاشِقٌ ، دِينِي التَّوَّاحُّ
 أَنَا لِحْنٌ كُلُّ عَنْهُ الْوَتَرُ
 أَبْعِدِ الْقَطْرَةَ عَنْ سَيْلِ طَمَا
 لَا تَعِي مَوْجِي هَذِي الْأَنْهَرُ
 لَيْسَ أَهْلًا لِسَحَابِي زَهْرَةٌ
 كَمْ بُرُوقٍ نَائِمَاتٍ فِي الْجَنَانِ
 إِنْ تَكُنْ صَحْرَاءَ فَاطْلُبْ لُجَّتِي
 قَدْ حُيْتُ الْوَرْدَ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ
 أَشْعَلِ الذَّرَّةَ لِحْنِي الثَّائِرُ
 مَائِثًا ذَا السَّرِّ غَيْرِي فِي الْبَشَرِ
 أَقْبِلُنْ إِنْ تَبِغْ عَيْشَ الْخَالِدِينَ
 أَفْشَتِ الْأَفْلَاكُ لِي السَّرَّ الْقَدِيمَ
 أَيُّهَا السَّاقِي ! مِنْ الرَّاحِ اسْقِنِي
 شَعْلَةَ الْمَاءِ الَّتِي مِنْ زَمْزَمِ
 مُقْلَةً الْمُبْصِرِ مِنْهَا أَبْصُرُ
 تَجْعَلُ الرِّيشَةَ طُودًا قَاهِرًا
 هِيَ تَسْمُو لِلثَّرِيَّا بِالْثَّرَى
 تَجْعَلُ الصَّمْتَ ضَجِيجَ الْمَحْشَرِ
 أَمَلًا الْكَأْسَ بِصَفْوِ نَيْرِ

- (١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإغراب عن هذا الوجد .
- (٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضة لبت أهلاً لمطره .
- (٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .
- (٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأَقْدُودِ الرُّكْبِ شَطَرَ الْمَنْزِلِ
رَائِيًا وَجْهَ جَدِيدِ الْأَمَلِ
فَأَرَى إِنْسَانَ عَيْنِ الْعَارِفِينَ
مُعْلِيًا قَدْرَ الْكَلَامِ الْمُبْدَعِ
قَارِئًا مَنْ فَيضِ ذَا الشَّيْخِ الْعَظِيمِ
قَلْبُهُ مِنْ شَعْلَةِ الْوَجْدِ اسْتَعَزَّ
قَدْ رَمَى الشَّمْعُ فَرَاشِي بِاللَّهَبِ
صَيَّرَ الرُّومِي طِينِي جَوْهَرًا
ذَرَّةً تَصْعَدُ مِنْ صَحْرَائِهَا
إِنِّي فِي لُجَّةِ مَوْجٍ جَرَى
قَدْ عَرِثَنِي نَشْوَةٌ مِنْ كَاسِهِ

ليلة رانت على قلبي الشُّجون وسرت « يا ربِّ » في الليل السُّكون^(٣)

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤ هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعة من قبل للروم ، واستقرَّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدَّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمَّن حكايات لها مغزى صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسته عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢ هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

من صروفِ الدَّهرِ شاكٍ صائحٍ من فراغِ الكأسِ قلبي نائحٍ
هَيضَ سِقْطَاهِ وَلِلنَّومِ هَوَى^(١) أرهقَ التَّسيارُ فكري فتوى

لاخ شيخ الحق ذاك الألمعي من حكى قرآنا بالفهلوي^(٢)
قال : يا ولهان بين العاشقين ! من شراب العشق فاجرع كل حين
شوق في العين حجاب البصر وأثر في القلب هول المحشر
واجعلن الضحك ينبوع البكاء واملأ العين دموعاً من دماء
أنت كالكم صموث أبكم انثرن كالورد ريحاً تفعم^(٣)
صعدن من كل عضو ، كالجرس نوحك الصامت في كل نفس
أنت نار فأضيء للعالمين بلهب منك أذك الأخرين^(٤)
سر شيخ الحان أعلن في هياج كن مُداماً واتخذ ثوب الزجاج^(٥)
وكن الفهر لمراة الفكر واصدعن جهراً وأعلن ما استتر^(٦)
حدثن كالنَّاي عن غاب ناي حدثن قياً عن الحي انتأي^(٧)
جدد النوح بلحن محدث

(١) السقطان : الجناحان .

(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي :
الفارسي .

(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت
الرائحة : ملأت الأنف .

(٤) أذكى النار : أشعلها .

(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاج ما فيها .

(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مراة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما
للعشق في قلبك .

(٧) النَّاي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال
الدين كتاب المثنوي بقصة النَّاي والغاب .

وَرَدَ الْحَيِّ حَيَاةً مِنْ « قُمْ »^(١)
وَانْفِ عَنْ قَلْبِكَ مَا قَدْ سَلَفَا
وَاعْرِفِ اللَّذَّةَ فِي هَذَا النَّعْمِ

كُلَّ حَيٍّ فِيهِ رُوحاً أَخْكَمِ
وَهَلَمْ اسْلُوكَ طَرِيقاً أَنْفَا
جَرَسَ الرُّكْبُ ! تَنْبَهْ لَا تَنَمِ

صِرْتُ كَالنَّايِ ، هَيَاجاً أَضْمِرُ
شِدْتُ مِنْ حَسَنِ بَيَانِي إِرْمَا^(٢)
فَبَدَا الْإِعْجَازُ مِنْ أَمْرِ خَوْدِي^(٣)
كَانَ سِقْطاً مُهْمَلاً فِي الْهَمَلِ
كَيْفَ هَذَا الْكُونُ وَالْكَمَّ جَلَا^(٤)
وَبَعْرِقَ الْبَذَرُ دَوْرَاتِ الدَّمِ^(٥)
فَبَدَا سِرُّ حَيَاةِ الْأُمَمِ
فَتَجَلَّى سِرُّ تَقْوِيمِ الْحَيَاةِ
فِي طَرِيقِ الْمَلَّةِ الْبَيْضَا غُبَارِ^(٦)
لَحْنُهَا فِي الْقَلْبِ نَاراً أَشْعَلَا
أَلْفَ رُومِيٍّ وَعِطَّارِ جَنَّتِ^(٧)
عِترتي النَّارُ ، وَإِنْ كُنْتُ الدُّخَانُ^(٨)

صِرْتُ نَاراً فِي ثِيَابِي تُسَعِّرُ
ثُرْتُ مِنْ أَوْتَارِ نَفْسِي نَعْمَا
فَرَفَعْتُ الشَّرَّ عَنْ سِرِّ خَوْدِي
كَانَ كَسُونِي صُورَةً لَمْ تَكْمَلِ
مُبْرَدُ الْعَشْقِ بِرَانِي رَجَلَا
فَرَأَتْ عَيْنَايَ نَبْضَ الْأَنْجُمِ
وَبَكَيْتُ النَّاسَ جَنَحَ الظُّلَمِ
مَصْنَعُ الْكُونِ أَرَانِي مَا حَوَاهِ
أَنَا - مِنْ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ أَنْارِ -
صَوْتُهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَلَا
ذَرَّةٌ أَلْقَتْ وَشُمْساً حَصَدَتْ
أَهْتِي الْحَرَّى سَمَتْ فَوْقَ الْعَنَانِ

- (١) قُمْ : فعل أمر . يعني أحيي الناس بقولك قُمْ . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتِي . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا الكون وكمه حين سلط على مبرده فسوّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدَّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) المَلَّةُ البيضاء : الأُمَّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمى في مسرح الفكر علا فجلا الأسرارَ في السَّبْعِ العُلَى

ما قصدت الشعر في هذا النغم	نحتَ أصنامٍ وتعظيمَ صنم ^(١)
أنا هنديّ شأني الفارسيّ	وهلالٌ أنا ذو جامِ خلي ^(٢)
لا تؤمّل عندنا حسن اليان	لحنَ خنّسارٍ به أو أصفهان ^(٣)
ذاكمُ الهنديّ يحكي الشّكرا	لكن الدّرّيّ أحلى مخبراً ^(٤)
سحرَ الفكر تجلّيه وراغ	فإذا لي شجرُ الطورِ يراع ^(٥)
قد علا فكري وهذا الفارسيّ	لاءم الفطرة في فكري العليّ
أيّها العائبُ كأسَ الخندريس	انظرن يا صاح ما تحوي الكؤوس ^(٦)

في بيان أنّ نظام العالم من الذاتية ، وأنّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلّا باستحكامها

هيكُلُ الأكوانِ من آثارها	كلُّ ما تبصر ، من أسرارها
نفسها قد أيقظت حتى انجلي	عالمُ الأفكار ما بين الملا
ألفُ كونٍ مختفٍ في ذاتها	غيرُها يثبت من إثباتها

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : السدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .

(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتم نوره .

(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .

(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .

(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .

(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، ويتبغى أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلت بَزْر خِصَامٍ بَزْرَهَا
 خلقت أضدادها من نفسها
 تبثلي في نفسها قوَّتَهَا
 خُدْعٌ مِنْ وَهْمِهَا عَيْنُ الْحَيَاةِ
 تُخْرِبُ الْبَسْتَانَ أَجَلَ الْوَرْدَةِ
 لَقْلِيكَ وَاحِدِ أَلْفٍ هَلَالِ
 عَذْرَهَا فِي سَرَفٍ أَوْ قِسْوَةٍ
 حُسْنُ شِيرِينَ لَفْرَهَادَ مَحْنُ
 فِي فَرَّاشٍ حَرْقَةٍ كَالْمَشْعَلِ
 أَلْفَ يَوْمٍ سَطَّرَتْهُ يَدُهَا
 أَلْفُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ اغْتَدَى
 نَفْسَهَا تَنْظُرُ فِيهَا غَيْرَهَا
 لَتَرَى لَذَّتَهَا فِي بَأْسِهَا
 لَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا قُذْرَتَهَا
 غُسْلُهَا فِي دَمِهَا عَيْنُ الْحَيَاةِ^(١)
 تَكْثُرُ النَّوْحُ لِأَجْلِ النِّعْمَةِ
 وَلِحَرْفٍ وَاحِدِ أَلْفٍ مَقَالَ
 أَنَّهَا تَبْغِي جَمَالَ الْخَلْقَةِ^(٢)
 وَمِنْ الْمَكِّ رَدَى ظَبْيُ الْخَتَنِ^(٣)
 عَذْرُهُ فِي شَمْعِهِ الْمَشْتَعَلِ
 لِيُجَلِّي فِي سِنَاهُ غُدُّهَا
 لِسَرَّاجٍ يُرْتَجَى مِنْ أَحْمَدِ^(٤)

هُمُّهَا الْأَعْمَالُ فَهِيَ الْفَاعِلُ
 ثَوْرَةٌ فِيهَا وَإِجْفَالٌ ، وَنُورٌ
 وَهِيَ الْعَلَّةُ وَهِيَ الْقَابِلُ
 وَاحْتِرَاقٌ وَاخْتِفَاءٌ وَظُهُورٌ^(٥)

- (١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفة يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .
- (٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ ، تهتَّم من أجله آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .
- (٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسي . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .
- (٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .
- (٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنسبط فتكون الصحراء ثم ينضم بعضها إلى بعض فتكون جبلاً .

سَمِعَةُ الْإِيَّامِ مِيدَانٌ لَهَا
يَدُهَا فِي الطُّيْنِ ، لِلْكَوْنِ ازْدَهَارُ
قَسَمْتُ شَعْلَتَهَا فِي شَرَرِ
تَخْلُقُ الْأَجْزَاءَ إِمَّا تَنْفَطِرُ
ثُمَّ صَارَتْ بِانْتِشَارٍ فِي مَلَالِ
شَيْمَةِ الذَّاتِ التَّجَلِّي لَا الْخَفَاءَ
قُوَّةُ صَامِتَةٍ حَلَفُ عَمَلِ
قُوَّةُ الذَّاتِ مِنَ الْكَوْنِ النِّوَاءُ
كَلِمَةُ الذَّاتِ تَعِيَهَا قَطْرَةُ
خَارَتِ الْخَمْرُ فَلَا شَكْلَ لَهَا
وَسَهَا طَوْدٌ عَنِ النَّفْسِ فَحَارَ

وَالسَّمَاءُ النَّقْعُ يعلو سُبُلَهَا
نَوْمُهَا اللَّيْلُ ، وَفِي الصُّحُورِ النَّهَارُ
فَرَأَى الْأَجْزَاءَ عَقْلُ الْمُفَكِّرِ
تُنشِئُ الصَّحْرَاءَ إِمَّا تَنْتَشِرُ
فَاحْزَأَلَتْ فَبَدَتْ شَمُّ الْجِبَالِ
وَهِيَ فِي الذَّرَاتِ بَاسٌ وَضِيَاءُ
عَمَلُ الْيَوْمِ لَأَتِيَهَا عَلَلِ
فَعَلَى قَدْرِ الْقُوَى قَدْرُ الْحَيَاةِ
فَإِذَا الْقَطْرَةُ يَوْمًا دَرَّةٌ
وَمِنَ الْكَأْسِ اسْتَعَارَتْ شَكْلَهَا^(١)
فَغَدَا صَحْرَاءَ تَغْشَاهَا الْبَحَارُ^(٢)

يُعَقِّدُ الثُّورُ لَخْلُقِ الْمَقْلَةِ
وَإِذَا الْعَشَبُ نَمَاءً أَضْمَرَ
يَجْمَعُ الشَّمْعُ بَعِزْمِ نَفْسِهِ
وَيُذِيبُ النَّفْسَ إِمَّا غَفَلًا

تَخْفِقُ الْعَيْنُ بِشَوْقِ الْجَلْوَةِ
شَقَّ صَدْرَ الْمَرْجِ حَتَّى يَظْهَرَ
وَمِنَ الذَّرَاتِ يُعَلِّي رَأْسَهُ
فَتَرَاهُ دَمْعَ عَيْنٍ هَمَلًا^(٣)

شَدَّتِ الْأَرْضُ قُوَاهَا فَالْقَمَرُ
وَكَيْانُ الشَّمْسِ مِنْهَا أَكْبَرُ

فِي طَوَافٍ حَوْلَهَا لَا مُسْتَقَرَّ
فَلَهَا عَيْنٌ ذُكَاءٌ تَسَحَّرُ

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت دَرَّةً ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .

(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .

(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعلا الحورُ فهال الناظرا وعلا الطودُ أيُّاً قاهرا
وارتدى كسوة نارٍ حاميه أصله حبة نبت آبيه^(١)
إنَّ ذاتاً جمعتُ أسرارَ الحياه من غديرٍ ازخرت بحرَ الحياه^(٢)

في بيان أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّما يُبقي الحياة المقصدُ جرسٌ في ركبها ما تقصد^(٣)
سِرُّ عيشٍ في طلابٍ مُضمَرُ أصله في أملٍ مسترُ
أحي في قلبك هذا الأملُ لا يحل طينك قبراً مُهملاً
يخفي القلب به بين الصدور هو في صدرك مرآة تُنير
يهبُ التربّ جناحاً يصعد ولموسى العقل خضراً يُرشِد^(٤)
إنَّما يحيا الفؤادُ الأملُ وإذا حيّ يموت الباطلُ
فلذا عني بتخليق المُنَى هيض سقاطاه وأودى وهنا
أملُ الذاتٍ لهيبٌ يستعرُ أو هو الموج الذي لا يستقرُ
وهو المقصودُ حبلُ الأمل إنَّه خيط كتابِ العمل^(٥)
ومماتُ الحيّ فقدان الرجاء يُطفىء الشعلة فقدانُ الهواء

- (١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذاتية شجر الجنار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرة كأنها النار . وكل هذا لأن حبه قوية محتفظة بذاتها .
- (٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زائحاً من غدير صغير .
- (٣) المقصد مثل جرس القافلة ينجيها للسير .
- (٤) هو من العقل كالخضر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .
- (٥) الوهم : حبل فيه أنشطة تمسك به الخيل المسيية ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيف فينا أعينٌ قد ظهرت ؟
من مَنى التَّخْطُّارِ رجلُ الحَجَلِ
حَيَّ نايٌّ قد نأى عن غابِه
ذلكَ العقلُ الَّذي الكون طوى
إنَّما أصلُ الحياة الأملُ

ما نظامٌ في شعوبٍ ، وسُنن ؟
أملٌ من قوة فيه ظَهَرُ
كلُّ ما نملكُ من هذي الحواس
كلُّ فكرٍ وخيالٍ واعتبار
هي آلاتُ الحياة الجاهدة
ليس قَصْدُ العلمِ والفنِّ الفِكرُ
إنَّما العلمُ وقاءٌ للحياة
للحياة العلمُ والفنُّ خَدَمُ

جاهلاً سرَّ الحياة ! اجتهدِ
مقصدِ كالضُّبحِ في أنواره
مقصدِ يجتازُ آفاقَ السَّماءِ

لذةُ الرؤية فينا صَوَّرَتْ (١)
من مَنى التَّغْرِيدِ حَلَقُ البَلْبَلِ
أطلقَ النُّغْمَةَ من أوصابه
وتَرى الإعجازَ فيه والقُوَى
فكذلكَ العقلُ منه يُنْسَلُ (٢)

ما تَرى التجديدَ في علمٍ وفنٍّ ؟ (٣)
بَرَحَ القلبُ فغَشَّتْهُ صُورُ
كلِّ عضوٍ فيه للعيشِ التماسُ
كلُّ حسٍّ وشعورٍ وادِّكارُ
حينَ تَمضي في وغاها صامده
ليس قَصْدُ المِرجِ ألوانَ الزَّهَرِ
إنَّه للذَّاتِ تقويمُ النِّجاةِ
للحياة العلمُ والفنُّ حَشَمُ

وامضي نشوانَ بخمرِ المقصدِ
محرقِ كلِّ « سِوى » في ناره
ياخذُ القلبُ بحُسنٍ وبهاءِ

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبخر ، وحلق البلبل من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظامٍ في الناس وسُنن وعلم وفنٍّ آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوَّرت صوراً شتى .

نُورُهُ فِيهِ وَفِيهِ مَحْشَرُهُ وَعَلَى الْبَاطِلِ حَرْباً يُعِيرُ
نَحْنُ أَحْيَاءُ بِخَلْقِ الْأَمَلِ نَحْنُ فِي نَوْرِ بِهِذِي الشُّعْلِ

في بيان أَنَّ الذَّاتَ تَسْتَحْكَمُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْعِشْقِ

نُقْطُ النُّورِ الَّتِي تُدْعَى الذَّوَاتُ شَرَرٌ فِي طِينِنَا لِلْحَيَاثِ
مُسْعَلٌ بِالْحَبِّ مِنْهَا الْجَوْهَرُ يَتَجَلَّى مِنْ قَوَاهَا الْمُضْمَرُ
قَطْرَةٌ بِالْعِشْقِ تُوعِي ضَرْمًا وَهِيَ بِالْعِشْقِ تُتِيرُ الْعَالَمَا^(١)
لَا يَهَابُ الْعِشْقُ فِي السِّيفِ الْمَضَاءُ لَيْسَ مِنْ مَاءٍ وَتَرِبٍ وَهَوَاءٍ
هُوَ فِي الْعَالَمِ صَلَاحٌ وَخِصَامٌ لِلْحَيَاةِ الْمَاءُ مِنْ هَذَا الْجُحَامِ
نَظَرَةُ الْعِشْقِ بِهَا شَقُّ الصُّخُورِ هُوَ عِشْقُ الْحَقِّ ، وَالْحَقُّ يَصِيرُ
فَابِغٌ فِي طِينِكَ هَذَا الْكِيمِيَاءُ أَقْبَسُ مِنْ كَامِلٍ هَذَا الضِّيَاءُ^(٢)
أَمْضُ كَالرُّومِيِّ شَمْعًا يَشْتَعِلُ وَارَمَ مِنْ تَبْرِيزٍ فِي الرُّومِ الشُّعْلُ^(٣)
إِنَّ فِي قَلْبِكَ مَعْشُوقًا ثَوَى أَقْبَلَنَ أَنْيُثَكَ عَنْ هَذَا الْجَوَى
عَاشِقُوهُ قَدْ شَاؤُوا كُلَّ جَمِيلٍ حُبُّهُمْ فِي كُلِّ قَلْبٍ لَا يَحُولُ
عِشْقُهُ فِي الْقَلْبِ نَوْرٌ أَسْفَرَا لِلثَّرِيَا يَرْتَقِي مِنْهُ الثَّرَى^(٤)
تُرْبُ نَجْدٍ مِنْهُ قَدْ خَفَّ وَضَاءُ طَارَ وَجَدًا مُصْعَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ
مُهْجَةُ الْمُسْلِمِ مَثْوَى الْمُصْطَفَى عِزَّةُ الْمُسْلِمِ ذِكْرَى الْمُصْطَفَى
مَوْجَةٌ مِنْ نَقْعِهِ الطُّورُ الْأَشْمَ دَارُهُ ، لِلْكَعْبَةِ الْعِظْمَى حَرَمٌ

(١) تَرَعِي : تَجْمَعُ وَتَدْخُرُ .

(٢) حَذَفَ بَيْتَ قَبْلَ هَذَا اخْتِصَارًا وَالْكَامِلُ هُنَا الْإِنْسَانُ الْمُرْشِدُ الَّذِي يَهْدِي الْمَبْتَدِءَ .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى جَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ وَشَيْخِهِ شَمْسِ التَّبْرِيزِيِّ الَّذِي نَقَلَهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَى الْعِشْقِ ،
وَالرُّومُ هُنَا أَرْضُ الرُّومِ ، وَهِيَ آسِيَا الصُّغْرَى .

(٤) الْمَعْشُوقُ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ الرَّسُولُ .

ضَاقَ عَنْ آيِ حَوَاهِ الْأَبَدِ
 أَثَرَتْ سُحُوقَ حَصِيرِ عَقَّتِهِ
 خَلَوَاتٌ فِي جِرَاءِ خَلْقَا
 كَمْ لِيَالٍ قَدْ قَضَاهَا سَاهِدَا
 سَيْفِهِ فِي الْحَرْبِ قَطَّاعِ الْحَدِيدِ
 سَيْفِهِ « آمِينَ » تَمْحُو الظَّالِمِينَ
 سُنَّأَ فِي كَوْنِنَا قَدْ جَدَّأَا
 فَتَحَ الدُّنْيَا لَهُ مِفْتَاحُ دِينِ
 اسْتَوَى مَوْلَى لَدِيهِ وَغَلَامِ

مَسْتَمَدُّ مِنْ مَدَاهِ الْأَمَدِ
 وَعَلَتْ تَيْجَانُ كَسْرَى أَمَّتِهِ
 أَمَّةٌ مِنْهَا وَحُكْمًا مُشْرِقَا
 فَجَبَا الْأَمَّةَ مُلْكًا خَالِدَا
 عَيْنُهُ فِي الذِّكْرِ بِالذَّمِّعِ تَجُودِ
 حِينَ يَدْعُو الْحَقُّ بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ
 وَمَنْ الْمَاضِينَ مُلْكًا بَدَّدَا
 عَقِمَتْ عَنْ مِثْلِهِ أُمُّ السَّيْنِ
 هُوَ وَالْعَبْدُ سَوَاءٌ فِي الطَّعَامِ^(١)

أَسْرَتْ فِي غَزْوَةِ بَنَتِ الْجَوَادِ
 رَجُلَهَا فِي الْقَيْدِ وَالرَّأْسِ حَسِيرِ
 بُرْدَةٌ أَلْقَى عَلَيْهَا سَاتِرَا
 نَحْنُ أَعْرَى فِي الْوَرَى مِنْ أُخْتِ طَيِّ
 هُوَ فِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا سَاتِرُ
 لَطْفُهُ وَالْقَهْرُ كُلُّ رَحْمَةٍ
 وَيَوْمَ الْفَتْحِ هَذَا الْغَافِرِ
 إِنَّا مِنْ قَيْدِ أَوْطَانِ بَرَاءِ

مَنْ عَلا طَيًّا بِجَدَوَاهِ وَسَادَ^(٢)
 مُطَرِّقٌ فِي ذُلِّهِ الطَّرْفُ الْكَسِيرِ
 إِذْ رَأَى وَجْهًا وَرَأْسًا حَاسِرَا
 لَيْسَ يَكُونَا لَدَى الْأَقْوَامِ شَيْ
 وَهُوَ فِي الْحَشْرِ إِلَيْنَا نَاطِرُ
 لَصَدِيقٍ وَعَدُوٌّ رَأْفَةٍ
 قَالَ : « لَا تَثْرِيْبَ » وَهُوَ الْقَادِرُ^(٣)
 نَحْنُ مِنْ عَيْنِينَ نَوْرٌ لَا مِرَاءَ^(٤)

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحن في مغربنا والمشرق
أسكرتنا عين ساق في البطاح
قد محا الأنساب طراً ذا العظيم
نحن زهر وشذانا ائتلفا
نحن كنا سره في قلبه

كالندى في وجه صبح مشرق
كزجاج نحن في الدنيا ، وراح^(١)
ناره قد أحرقت هذا الهشيم
ضمنا منه نظام ألفا
فأذاعت صيحة الحق به

عشقه نار بعودي الصامت
ما حديثي عن ولاء واشتياق ؟
صورتي قد أوضحت مرآته
ثورة الحشر بليلي النائم
إنني البستان في آذاره
قد غرست العين في حقل الوداد
قد شأى الدارين من يثرب طيب
أنا للجامي في الشعر فداء
قال بيتاً بالمعاني يفهق
« هو عنوان كتاب العالمين

ألف لحن في فؤادي الساكت
قد بكى جذع موات للفراق^(٢)
أنا صبح أطلعت آياته
وهدوني في اضطراب دائم
في عروقي الماء من أمطاره^(٣)
من سراح العين لي هذا الحصاد^(٤)
حبذا دار بها مشوى الحبيب !
نظمه والنشر من جهلي دواء^(٥)
فيه دُرٌّ من مديح يرق :
سيد الكونين ، مولى الثقلين »

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكان آخر .

(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .

(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .

(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كم يُرىك العشق من صهبائه
أحكم العشق بتقليد الحبيب
في حراء القلب فاقعد خاليا
اقوين بالحق ثم ارجع إليك
قوين بالعشق في سلطانه
تظفرون بالقرب يا ذا السائل !
فترى التقليد من أسمائه^(١)
لتنال القرب من رب مجيب
وإلى الحق فهاجز راضيا
واحطمن اللات والعزى لديك^(٢)
وابتغ الجلوة في فارانه^(٣)
وتكن تفسير « إني جاعل »^(٤)

في بيان أن الذات تضعف بالسؤال

أيها الجابي من الأسد الخراج !
ذلك الإعواز أصل العلل
سالب الرفعة من فكر ربيع
من كنوز الدهر أخرج ما تريد
وعن الرّحل ترجّل كعمر
صاح ! حثام اجتداء المنصب !
تجد الإفلاس بالسؤال أذل
صرت كالثعلب خبأ باحتياج
كل آلامك من ذا المعضل
مطفىء الشمع من الذهن البديع
وخذ الصهباء من دنّ الوجود
احذرن من مئة الناس ، الحذر^(٥)
فيم كالطفل ركوب القصب^(٦)
وترى السائل أخزى وأقل

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحيانا . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .

(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .

(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .

(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيّاها أحد .

(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فَبَدَتْ سَيِّئَاتُهَا دُونَ ضِيَاءِ^(١)
وَطَغَى حَوْلَكَ سَيْلٌ مِنْ بِلَاءِ
لَا تَرْجُ الْمَاءَ مِنْ عَيْنِ ذُكَاءِ^(٢)
يَوْمَ يَخْزِي كُلُّ سَاعٍ مَا وَفَى
فَعَلَيْهِ وَسَمُ نُعْمَاهَا ظَهَرَ^(٣)
مَاءَ وَجْهِ الْمَلَّةِ الْبَيْضَاءِ صُنُ
أَنْ « حَيْبُ اللَّهِ سَاعٍ كَاسِبٌ »^(٤)
خَافِضَ الرَّأْسِ لِثِقَلِ الْمُنَّةِ
بِنَقِيرِ بِاعٍ تَاجِ الْعِزَّةِ
يَسْأَلُ الْخَضِرَ شَرَاباً فِي الْفَلَائِ^(٥)
ذَاكُمِ الْإِنْسَانُ ، لَا مَاءً وَطِينِ
عَالِيِ الرَّأْسِ كَسَرُوْهُ قَدْ عَنَّا
هُوَ يَقْظَانُ وَغَافٍ جَدُّهُ^(٦)
فَارَغَ الْكَأْسَ بِبَحْرِ يَزْخَرُ^(٧)

فَرَّقَ الذَّاتَ سَوَالٍ وَاجْتِدَاءً
إِنْ يَكُنْ فِي الرِّزْقِ وَالْجَدُّ عَنَاءً
لَا تَرُمُ فِي الْأَرْضِ رِزْقاً بِالْبُكَاءِ
أَحْذَرِ الْخَزْيَ أَمَامَ الْمُصْطَفَى
مِنْ سَمَاطِ الشَّمْسِ يَقْتَاتِ الْقَمَرُ
جَاهِدِ الْأَيَّامَ وَاللَّهُ اسْتَعْنُ
عَلِمَ النَّاسَ الصَّدُوقُ الصَّائِبُ
وَيَحْ مِنْ يَحْمِلُ ذُلَّ النُّعْمَةِ
أَرْهَقَ النَّفْسَ بِوَقْرِ الذَّلَّةِ
مَرْحَباً بِالظَّامِئِ الضَّحِيانِ لَا
بِسَوَالِ النَّاسِ لَمْ يُنْدِ الْجَبِينُ
تَحْتَ هَذِي الشَّمْسِ يَمْضِي ذَا الْفَتَى
زَادَ فِي الْعُسْرِ مَضَاءَ حُدُّهُ
كُنْ حَبَاباً مِنْ عَطَاءِ يَنْفَرُ

-
- (١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .
(٢) لا تسأل الماء ولو من عين الشمس .
(٣) السمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .
(٤) إشارة إلى الأثر : الكاسِبُ حَيْبُ اللَّهِ .
(٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .
(٦) همته يقظانة وإن كان جده نائماً .
(٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخر

قوى العالم الظاهرة والباطنة

حينما الذات بعشق تُحكم^(١)
فإذا ما أومات شقُّ القمر
صاغرٌ في حكمها داراً وجم^(٢)
اسمه في الهند مشهورٌ علي^(٣)
قصٌّ أخباراً عن الورد الشميم^(٤)
قصد الأسواق في بغيته
معه الحرَّاسُ قد حفَّت به
أيها الأحمقُ أفسح للأمير
غارقاً في اللجُّ من أفكاره
ضارباً رأس الفتى في غفلته
وهو في دعرٍ وحزنٍ قاتل
دمعُه من محبس العين طليق

أمرها في الكون طراً يَحْكُمُ
يُدُّها من قوَّة الحق أنز
في خصومات الوري أقوى حَكَمُ
اسمعنْ مني حديثاً عن ولي
ذلك الصُّداح في المرج القديم
سالكٌ سكران من خمرة
وأتى العاملُ في موكبه
صاحٌ للتطريقِ جندِي نكير
ومضى الدُّرويش في تسياره
فأتى ربُّ العصا في شرَّته
فتنحَّى عن طريق العامل
ومضى يشكو إلى شيخ الطريق

(١) تحكم أي : تصير قوية محكمة .

(٢) داراً وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصّب مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقى فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آنس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس النقية المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زَمَجَرَ الشَّيْخَ بِقَوْلٍ مِنْ ضَرَمٍ
ثُمَّ أَمْلَى الشَّيْخَ سَطْرًا مِنْ لَهَبٍ
أَمْسَكَ الْمِزْبَرَ وَابْتَدَأَ النَّذِيرَ
«عَامِلٌ عِنْدَكَ غَرٌّ قَدْ عَصَى
اعْزَلِ الْعَامِلَ ، هَذَا الْفَاجِرُ
عَبْدٌ حَقٌّ فِيهِ اللَّهُ احْتِسَابُ
آدُهُ غَمٌّ وَخُوفٌ لَا يَحُولُ
قَيْدُ الْعَامِلِ بِالْقَيْدِ الثَّقِيلِ
وَرَأَى خُسْرُو لَهُ خَيْرَ سَفِيرٍ
سَاحَرَ الْأَبَابِ فِي الْحَانَةِ
وَلَهَا خُسْرُو بِأَوْتَارِ الرَّبَابِ
فَطَرَةً كَالطُّودِ فِي عِزَّتِهِ
احْذَرْنَ لَا تَجْرَحْنَ قَلْبَ فَقِيرٍ

مِثْلَ بَرْقٍ فِي ذُرَى الطُّودِ اضْطَرَمَّ
قَالَ لِلْكَاتِبِ فِي نَارِ الْغَضَبِ :
أَبْلَغَ السُّلْطَانِ عَنْ هَذَا الْفَقِيرِ :
وَعَلَا رَأْسَ غِلَامِي بِالْعَصَا
أَوْ أَهَبْ مُلْكَكَ مُلْكًا آخِرًا «
أَرَعَدَ السُّلْطَانُ مِنْهُ ذَا الْكِتَابِ
فَحَكَى فِي لَوْنِهِ شَمْسَ الْأَصِيلِ
وَاسْتَغَاثَ الشَّيْخَ لِلصَّفْحِ الْجَمِيلِ
ذَلِكَ الْكُوكَبُ وَضَاءُ الضَّمِيرِ^(١)
مُسْتَمِدُّ الْغَيْبِ فِي تَبْيَانِهِ
فَأَهَاجَ الشَّيْخَ وَجَدًّا وَأَذَابِ
خَشَعَتْ لِلْخَنِّ فِي رَقَّتِهِ
لَا تَزُجُّ النَّفْسَ فِي نَارِ السَّعِيرِ

قصة في معنى أن مسألة نفى الذات من مخترعات الأمم المغلوبة
لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

جَمَعَ ضَائِنٌ كَانَ فِي مَرَعَى يُقِيمُ
فَارَغَاتِ الْبَالِ مِنْ لَيْثٍ وَذَيْبٍ
وَرَمَى بِالسَّهْمِ فِيهِنَّ الدَّهْرَ
نَاشِرَاتِ الدُّغْرِ فِي أَيَّامِهَا
سَرُّهَا الظَّاهِرُ فَتَحَ ظَافِرُ

قَدْ سَمِعْنَا أَنَّ فِي عَصْرِ قَدِيمٍ
وَفَرَّتْ نَسْلًا بِذَا الْمَرَعَى الْخَصِيبِ
ثُمَّ أَلْوَى بِمُنَاهِنِ الْقَدَرِ
دَهَمَتَهَا الْأَسَدُ مِنْ آجَامِهَا
آيَةُ الْقُوَّةِ حَكَمٌ قَاهِرُ

(١) أمير خسرو دهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضَرَبَ اللَّيْثُ طَبُولَ النَّوْبَةِ
وَكَسَا الْمَرَعَى بِصَبْغٍ أَحْمَرَ
وَانْبَرَى كَبِشٌ ذَكِيٌّ ذُو عُمُرٍ
غَمَّه مَا قَدْ يَعَانِي سِرُّهُ
أَمْرَهُ أَحْكَمَ فِي تَدْبِيرِهِ
بِاحْتِيَالِ الْعَقْلِ يَحْمِي نَفْسَهُ
قُوَّةَ التَّدْبِيرِ فِي دَفْعِ الضَّرَرِ
فَإِذَا مَا ثَارَ لِلثَّارِ الْجَنُونُ
قَالَ : أَمْرٌ حَارٌ فِيهِ الْعَاقِلُ
كَيْفَ لِلضَّانِّ قَالَ الْأَسَدُ
لَيْسَ وَعِظٌ مِنْ بَلِيغٍ قَادِرٍ
لَكِنَّ اللَّيْثَ رَأَى حَمَلًا
فَادَّعَى فِي الْقَوْمِ دَعْوَى مُلْهِمٍ
قَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ « كَذَّابٌ أَشْرٌ »
جَثَّتْ لِلنَّاسِ بِشَرِّ مُحْكَمٍ
عَجَّلُوا التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ
وَيَسَّحَ جَلْدٌ أُحْكِمَتْ فِيهِ قُوَّةُ

أَخَذَ أَفَاقَ هَذِي الثَّلَاةِ^(١)
مَا سَوَى الْفَرَسِ لَدَى أَسَدِ الشَّرَى
جَرَّبَ الْأَحْدَاثَ مِنْ حُلُوٍّ وَمُرٍّ
مَنْ فِعَالِ الْأَسَدِ يَدْمَى قَلْبُهُ
وَهُوَ يَشْكُو الدَّهْرَ فِي تَقْدِيرِهِ
كُلُّ رِخْوٍ لَيْسَ يَرْجُو بِأَسِهِ
فِي زَمَانِ الضَّعْفِ أَقْوَى وَأَمْرٌ
صَارَ عَقْلُ الْعَبْدِ خَلَاقُ الْفِتُونِ
بَحْرٌ عَمٌّ لَيْسَ فِيهِ سَاحِلٌ^(٢)
سَاعِدٌ رِخْوٌ وَفُولَاذٌ يَدٌ^(٣)
أَنْ يَرُدَّ الْكَبِشَ ذَنْبًا كَاسِرًا
إِنْ سَهَا عَنْ نَفْسِهِ أَوْ غَفَلًا
مَرَسَلٌ لِلْأَسَدِ شُرَابِ الدَّمِ^(٤)
غَافِلٌ عَنْ يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ^(٥)
إِنِّي الثُّورُ لَطَرَفٌ مُظْلِمٌ
وَاتْرَكُوا الْحَرَّ إِلَى الْفَعْلِ الرِّيحِ
« نَفْيِ ذَاتٍ » هُوَ إِحْكَامُ الْحَيَاةِ^(٦)

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .

(٢) قال الكبش . . إلخ .

(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .

(٤) فادَّعى في القوم . أي ادعى الكبش .

(٥) « كذاب أشر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .

(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

عَلَفُ الْعُشْبِ بِهِ الرُّوحُ تَطْيِبُ
 حِدَّةُ الْأَسْنَانِ عَارٌ مُبْرَمٌ
 إِنَّمَا الْقُوَّةُ خَسِرَانٌ مَبِينُ
 طَلَبُ السُّلْطَانِ شَرٌّ مُسْتَطِيرُ
 تَأْمِنِ الْحَبَّةُ بَرْقاً مُحْرِقاً
 ذَرَّةٌ كُنْ لَا كُنْيَاً أَفِيحاً
 قُلْ لِمَنْ يُزْهِى بِذَبْحِ الْغَنَمِ
 يَقْطَعُ السُّبُلَ عَلَى هَذَا الْحَيَاءِ
 يَوْطَأُ الْعُشْبُ فَيَنْمُو صُعُوداً
 أَغْفَلَكَ نَفْسُكَ إِمَّا تَعْقِلُ
 اسْدُدْ عَيْنَاً وَأُذُنَاً وَفَمَا
 هَذِهِ الدُّنْيَا فَنَاءً فِي فَنَاءِ
 كَانَتْ الْأَشْدُّ جَهَاداً مَلَّتِ
 عَنْ هَوًى أَصْغَتْ إِلَى النَّصْحِ الْمُنِمْ
 كَانَ فَرَسُ الضَّأْنِ مِنْ سُنَّتِهَا
 جَوْهَرُ الْأَسَادِ أَضْحَى خَرْقاً
 ذَهَبُ الْعُشْبِ بَنَابِ ذِي أَشَرِ
 ذَلِكَ الْقَلْبُ عَنِ الصَّدْرِ نَأَى
 فَذَوَى فِي الْقَلْبِ شَوْقُ الْعَمَلِ
 ذَهَبَ الْإِقْدَامُ وَالْعِزْمُ الْأَيْلُ

عَائِفُ اللَّحْمِ إِلَى اللَّهِ قَرِيبُ
 بَصَرُ الْإِدْرَاكِ مِنْهَا يُظْلَمُ
 خُصَّتِ الْحَبَّةُ بِالْمُسْتَضْعِفِينَ
 خَيْرُ الْفَاقَةِ مِنْ عِزِّ الْأَمِيرِ
 وَتَرَى الْبَيْدَرَ مِنْهُ مُحْرِقاً^(١)
 لَتَنَالِ النُّورَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى
 اذْبَحِ النَّفْسَ بِحَقِّ تَغْنَمِ
 قُوَّةٌ فِيهَا وَسُلْطَانٌ وَجَاهُ
 يَفْتَحُ الْأَعْيْنَ مِنْ بَعْدِ الرَّدَى^(٢)
 إِنَّمَا الْمَجْنُونُ مَنْ لَمْ يُغْفَلَ
 لِيَجُوزَ الْفِكْرَ أَقْطَارَ السَّمَاءِ^(٣)
 إِنَّهَا وَهْمٌ فَمَا فِيهَا رَجَاءُ
 نَازَعَاتٍ نَحْوَ عَيْشِ الدَّعَاةِ
 فَدَهَاهَا الْكَبِشُ بِالسَّحَرِ الْعَظِيمِ
 فَاقْتَدَتْ بِالضَّأْنِ فِي شِرْعَتِهَا
 حِينَ صَارَ الْقَوْتُ هَذَا الْعَلْفَا
 أَطْفَأَ الْأَعْيْنَ تَرْمِيًّ بِالشَّرَرِ
 جَوْهَرُ الْمِرَاةِ فِيهَا صَدِئَا
 وَهِيَامُ السَّعْيِ خَلْفَ الْأَمَلِ
 وَالسَّنَا وَالْعِزُّ وَالْمَجْدُ الْأَيْلُ

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها تقع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قروود واحد يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

وَاسْتَكَانَ الْقَلْبُ فِي قَبْرِ الْبَدَنِ
قَطَعَ الْخَوْفُ جَذُورَ الْهَمَّةِ
يَجْعَلُ الْأَحْيَاءَ مِثْلَ الرَّمَمِ
سَمَتْ الْعِجْزُ ارْتِقَاءَ الْأُمَمِ

بُرْثَنُ الْفُلُولِ فِيهَا قَدْ وَهَنَ
وَنَمَا الْخَوْفُ بِنَقْصِ الْمُنَّةِ
كُلُّ دَاءٍ فِي سَقُوطِ الْهَمَمِ
نَامَتِ الْأَسَدُ بِسِحْرِ الْغَنَمِ

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثرت آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

مَنْ فَرَّقَ الضَّانَ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ
فِي حَزُونِ الْكَوْنِ قَدْ أَعْيَا وَكَلَّ
صَدَّ عَنْ كَفِّ وَعَيْنِ وَأُذُنِ^(١)
فِي خَمُودِ الشَّمْعِ يَزْدَادُ سِنَاءُ
يَمْحَقُ الدُّنْيَا لَهُ جَامٌ مُنِيمٌ
وَهُوَ فِي الصُّوفِيِّ ذُو بَأْسٍ قَوِيٍّ
وَعَلَّتْ أَفْكَارُهُ فَوْقَ السَّمَاءِ
وَجَفَافِ النَّبْعِ مِنْ مَاءِ الْحَيَاءِ
وَدَعَا الْكَوْنَ فَنَاءً سَحَرُهُ
عَيْنُهُ تُبْصِرُ إِلَّا يَبْرُقُ^(٢)
فَقَفَا مَعْدُومَهُ لَا يَأْتَلِي

رَاهِبُ الْمَاضِينَ أَفْلَاطُ الْحَكِيمِ
طَرَفُهُ فِي ظُلْمَةِ الْمَعْقُولِ ضَلَّ
فَكَرُّهُ فِي غَيْرِ مُحْسُوسٍ قُتِنَ
قَالَ : فِي الْمَوْتِ بَدَأَ سِرُّ الْحَيَاءِ
حُكْمُهُ فِي فِكْرِنَا جَدُّ عَظِيمٍ
هُوَ شَاةٌ فِي لِبَاسِ الْآدَمِيِّ
عَالَمُ الْأَشْيَاءِ سَمَاءُ الْهَرَاءِ
فَعَلُهُ « تَحْلِيلُ أَجْزَاءِ الْحَيَاءِ »
زَعَمَ الْخَسِرَانُ رِبْحاً فَكَرُّهُ
فَكَرُّهُ يُغْفِي وَرُؤْيَا يَخْلُقُ
حُرْمَ الْمَسْكِينِ حُبَّ الْعَمَلِ

(١) أعرض عن الحوَّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر الراب .

الآل : السَّرَاب .

منكراً في الكون ما لا يُفقد
عالمَ الإمكان للحَيِّ وطن
ظبيُّه من خفة لا يجفلُ
لم يُلألىء عنده قطرُ الندى
حبةٌ في أرضه تأبى النماء
في وغي العالم نكسٌ مُحجمٌ
قلْبُه يَعشو لنارٍ خامدة
طار من عشٍّ إلى الأوج العَلَيّ
هَلَك أقوام بهذا الثَّمَل

خالقاً في الكون ما لا يُشْهد
عالم الأعيان للميتِ حَسَنٌ^(١)
غيرُ خطّارٍ لبيده الحَجَلُ^(٢)
طيرُه ما فيه صوتٌ قد شدا
وفرّاشٌ عنده يلقي الضياء^(٣)
مُشفقٌ راهبنا لا يُقدم
صوْرُث عيناها دنيا هاجدة
ثم لم يرجع إلى العش الخَلِيّ^(٤)
حُرِّمُوا بالنَّوم ذوق العمل^(٥)

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حرقَةُ الإنسانِ من كور الأملِ
إنَّه الخمرة في كأسِ الحياة
الحياة الحقُّ تسخيرُ الدُّنَى
هي للمقصودِ في الدُّنيا سبيل

نارُ هذا الطِّينِ من نورِ الأملِ^(٥)
وبه وقدةُ أنفاسِ الحياة
وإلى التَّخْيِرِ تدعوها المُنَى
وهي للعشْقِ من الحسنِ رسول

- (١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردُّ على أفلاطون .
- (٢) خلق أفلاطون عالماً لا يشب ظبيُّه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .
- (٣) الحبة في طبيعتها النمو والفرّاش في طبيعته حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفرّاشه يكره الضوء .
- (٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحس ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيّل .
- (٥) الكور : مجمرة الحداد .

أَمَلُ الْإِنْسَانِ أَنَّى يَظْهَرُ
كُلُّ خَيْرٍ وَبِهَيْجٍ وَجَمِيلٍ
حُسْنُهُ فِي الْقَلْبِ نَوْرٌ يَسْطَعُ
خُلُقُ الْحَسَنِ نَضِيرُ الْأَمَلِ
كَيْفَ يَشْجُو الْحَيَّ هَذَا الْمَزْهَرُ؟
هُوَ فِي يَدَائِنَا نَعْمَ الدَّلِيلُ^(١)
تَجِدُ الْأَمَالَ مِنْهُ تَطْلُعُ
وَأَدَامَ الْحَسَنُ نَوْرَ الْأَمَلِ

مَطْلَعُ الْحَسَنِ ضَمِيرُ الشَّاعِرِ
زَادَتْ الْحَسَنَ جَمَالًا نَظَرْتُهُ
غَرَّدَ الْبَلْبَلُ مِنْ تَلْحِينِهِ
نَارَهُ كُلَّ فَرَّاشٍ كَأَوِيَةٍ
مُضْمَرٌ فِي خَلْفِهِ بَحْرٌ وَبَرٌ
كَمْ شَقِيقٍ فِي الْحِشَا لَمْ يَطْلُعِ
فَكَرَهُ لِلْبَدْرِ وَالنَّجْمِ نَجْوَى
خَضِرٌ فِي لَيْلِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ
نَحْنُ أَغْرَارٌ بِطَاءِ الْأَرْجُلِ
لَطْفَتٌ فِي سَيْرِنَا حَيْلَتُهُ
يَحْفَظُ الرِّكْبَ لِفَرْدَوْسِ الْحَيَاةِ
فَمَضَى الرِّكْبَانُ إِثْرَ الْجَرَسِ
وَسَرَّتْ فِي زَهْرِنَا نَفْحَتُهُ
نَفْسٌ مِنْهُ حَيَاةٌ تُزْهَرُ
طُورُهُ صَبْحُ الْجَمَالِ الْبَاهِرِ
زَادَتْ الْفَطْرَةَ حَبًّا صَنَعْتُهُ
ضَاءَ خَدِّ الْوَرْدِ مِنْ تَلْوِينِهِ
قِصَصُ الْعُشَّاقِ مِنْهُ زَاهِيَةٌ
أَلْفُ كَوْنٍ مَحْدَثٌ فِيهِ اسْتَتَرَ
وَعَنَاءُ وَبُكَى لَمْ يُسْمَعْ^(٢)
يُودِعُ الْحَسَنَ ، وَفِي الْقُبْحِ عَيْيٌ
تُزْهَرُ الْأَكْوَانُ مِنْ مَاءِ بُكَاهِ^(٣)
ضَلَّ سَارِينَا طَرِيقَ الْمَنْزِلِ
وَعَلَّتْ فِي رَكْبِنَا نَعْمَتُهُ
وَيَتِمُّ الدَّوْرُ فِي قَوْسِ الْحَيَاةِ^(٤)
وَشَدَا الْحَادِي بِصَوْتِ مَوْئِسٍ
مِنْ سَرْتِ فِي رَوْضِنَا نَسْمَتُهُ
حُرَّةٌ لَوَّامَةٌ لَا تَصْبِرُ

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلة العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .

(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعون .

(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .

(٤) يكمل دائرة الحياة .

يَأْدِبُ النَّاسَ جَمِيعاً لِلْقُرَى نَارُهُ كَالرَّيْحِ تَسْرِي فِي الْوَرَى

وَيْلُ قَوْمٍ لِهَلَاكِ طَائِرِهِ
كُلُّ حُزْنٍ شَاةٌ فِي مَرَاتِهِ
تُذْبِلُ الْأَزْهَارَ مِنْهُ الْقُبُلُ
تَهِنُ الْأَعْصَابُ مِنْ أَفْيُونِهِ
يَسْلُبُ السَّرَّوَ جَمِيلَ الْمَيْلِ
هُوَ خُوثٌ نَصَفُهُ كَالْأَدْمِيِّ
يُسْحَرُ الرِّبَّانُ مِنْهَا بِاللَّحُونِ
يَسْلُبُ الْقَلْبَ ثَبَاتاً لِحْنِهِ
يُلْبِسُ النَّفْعَ لِبَاسَ الضَّرَرِ
فِي بَحَارِ الْفِكْرِ يُلْقِيكَ فَلَاحِ
شِعْرِهِ فِينَا يَزِيدُ الْكَلَالَةَ
سَيْلُ بَرْقٍ مَا حَوَى نِسَانَهُ
فُتُّهُ بِالْحَقِّ لَا يَعْتَرِفُ
نَوْمُ أَهْلِ الْحَانَةِ يَقْطَعُنَا
بَلْبَلُ سُوءِ قُلُوبٍ نَعْمُهُ
خَمْرُهُ اللَّأَلَاءَةُ أَتْرَكَ وَاحِدَ

- (١) السَّرَوُ : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .
(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تفرق السفن .
(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .
(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سرابٌ من اللون والرائحة .

يا صريعاً خمرةً يغتَبِقُ
يا برودَ القلب من أَلحانه
يا دليلاً للردى أفكارُهُ
أنت للذلِّ أرحمَ البدنا
من نيمٍ مرَّ يَدَمَى خَدُّكَ
أخزتِ العشقَ دُجَى صيحاتِكا
شاحبَ الوجه بدا مِن ضُرْكا
عاجزُ الهمة مِن ذَلَّتْكا
أدمعُ الأطفال في كاساته
آه مِن وغدٍ ذليلٍ يائس
صار كالتاي هزيراً نائحا
ليس إلا الحقدُ في جوهره
يائسٌ فـل حليف الغيبة
نوحه روحك منه في سَقام
ويحَ عشقٍ قد ذكا في الحرَم

فاجعلن معياره نارَ الحياة
مثلَ برقٍ قادَ رعداً جلجلا

صيرفني القول ! إن تبغ النجاة
تَيزُ الفِكْرُ يقود العملا

- (١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .
(٢) يستجدي أو يحاول السَّرقة فيركله الحارس .
(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مَنْ بِفِكْرِ صَالِحٍ فِي الْأَدَبِ ؟
 وَسَلِّمِي الْعُرْبَ يَا صَاحِبَ اعْشَقَا
 فِي رِيَاضِ الْعَجْمِ قَطَّفْتَ الزَّهْرَ
 مِنْ حَرُورِ الْبَيْدِ فَاشْرَبِي يَا رَفِيقُ
 اسْلِمِي رَأْسَكَ يَوْمًا صَدْرَهَا
 قَدْ لَبِستِ الْخَزْءَ طَوِيلَ الزَّمَنِ
 كَمْ وَطِئْتَ الْوَرْدَ فِي طَوِيلِ الْمَدَى
 فَعَلَى رَمْلِ الصَّحَارَى الْمُضَرَّمِ
 فِيمَ هَذَا النُّوحِ مِثْلَ الْبَلْبَلِ ؟
 قَدْ عَلَا جَدُّ الْهُمَا مِنْ صَيْدِكَا
 ابْنُ عُشٍّأَ حَيْثُ لَا تَرْقَى الْأَنْوَقُ
 تُتْرَى أَهْلًا لِأَعْصَارِ الْحَيَاةِ
 ارْجَعِي يَا صَاحِبَ شَطْرِ الْعَرَبِ^(١)
 لَتُرَى صَبْحَ الْحِجَازِ اثْتَلَقَا
 فِي رِيْعِ الْهِنْدِ سَرَّحْتَ الْبَصَرَ
 وَاشْرَبِي مِنْ تَمْرِهَا الرَّاحِ الْعَتِيقُ
 وَأَلْقِي فِي حَرِّهَا صَرَصَرَهَا
 فَأَلْفَ الْكَرْبَاسِ يَوْمًا وَاخْشَنِي
 غَاسِلًا ، كَالْوَرْدِ ، خَدًّا بِالنَّدَى
 أَقْدِمِي يَوْمًا وَغُصْنِي فِي زَمَزَمِ
 وَإِلَامِ الْعُشْرِ بَيْنَ الظُّلَلِ ؟
 اجْعَلِي فِي الطُّودِ مِثْلَ عُشِّكَا^(٢)
 تَخْتَفِي فِيهِ رَعُودٌ وَبَرْوَقٌ^(٣)
 وَتُذِيبُ النَّفْسَ فِي نَارِ الْحَيَاةِ

-
- (١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدّهم شيء ،
 ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .
 (٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم
 قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحفظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع
 عشك فوق الجبل .
 (٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أن للتربية الذاتية ثلاث مراحل :

الأولى : الطاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى

الطاعة

ألفه الكد شعار الجملي	شيمة الصبر وقار الجملي
صامت الأخفاف يمشي ماضيا	زورقا في اليد يسري هاديا
نقشت وجه الصحاري أرجلة	شارد النوم قليلا أكله
ثملا يختال تحت المحمل	راقصا يقدم شطر المنزل
في المدى من راكبيه أصبر	هائم بالسير عجبا يخطر

فاحمل الفرض قويا لا تهاب	وارجون من عنده حسن المآب ^(١)
اجهدن في طاعة يا ذا الخسار	فمن الجبر يبدو الاختيار ^(٢)
بامثال الأمر يعلو من رتب	وهوى الطاغى ولو كان اللهب
سحر الأفلاك في همته	من ثوى في القيد من شرعته
قد سرى النجم يؤم المنزلا	طوع قانون له قد ذللا
ونما العشب بقانون النماء	فإذا ما حاد يُجفَى بالعراء
ولهيب دائم دين الشقيق	دمه من ذاك يسرى في العروق ^(٣)
يربط الذرات قانون الوصال	فهي بحر وهي بر باتصال

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .

(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .

(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحترق .

كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ قَانُونٌ سَرَى كَيْفَ فِي هَذِي الْمَعَانِي يُمْتَرَى ؟^(١)
 أَرْجَعْنِ يَا حُرٌّ دُسْتُورِ قَدِيمٍ زَيْنُنْ رِجْلَكَ بِالْقَيْدِ الْوَسِيمِ
 شِدَّةٌ فِي شَرَعِنَا لَا تَشْكُونُ وَحُدُودَ الْمُصْطَفَى لَا تَعْدُونُ^(٢)

المرحلة الثانية ضبط النفس

جَمَلُ نَفْسِكَ تَرْبُو بِالْعَلْفِ فِي إِبَاءٍ وَعِنَادٍ وَصَلْفِ
 فَكُنِ الْحُرَّ وَقُذْهَا بِزِمَامٍ تَبْلُغُنْ مِنْ ضَبْطِهَا أَعْلَى مَقَامٍ
 كُلُّ مَنْ فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ هُوَ فِي حُكْمٍ سِوَاهِ مُرْغَمٍ
 إِنَّمَا صَوَّرَتْ مِنْ طِينٍ لَزِبَ سَيْطُ فِي أَمْشَاجِهِ خَوْفٌ وَحِبٌّ :
 خَيْفَةُ الدُّنْيَا وَخَوْفُ الْآخِرَةِ خَوْفُ مَوْتٍ وَرَزَايَا فَاقِرِهِ
 حُبُّ جَاهٍ وَثِرَاءٍ وَبِلَدٍ حُبُّ زَوْجٍ وَقَرِيبٍ وَوَلَدٍ
 مِنْ مَزَاجِ الطَّيْنِ وَالْمَاءِ الْبَدَنِ مَرْكَبُ الْأَهْوَاءِ ، مَغْلُوبُ الْفِتَنِ
 مَنْ يَمْسَكَ بَعْصاً مِنْ « لَا إِلَهَ » فَلْتَحْطُمِ طِلْسَمُ الْخَوْفِ يَدَاهُ^(٣)
 كُلُّ مَنْ بِالْحَقِّ أَحْيَا نَفْسَهُ لَا تَرَى الْبَاطِلَ يُحْنِي رَأْسَهُ
 لَيْسَ يَدْنُو الْخَوْفُ مِنْهُ أَبَدًا لَيْسَ ، غَيْرَ اللَّهِ ، يَخْشَى أَحَدًا

- (١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالا مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .
 (٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه .
 ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ،
 ففي هذا القيد حررتك لا عبوديتك .
 (٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثير من شعره . قوله :
 إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل
 الحر .

كُلُّ مَنْ مَوْطِنُهُ إِقْلِيمٌ « لَا »
 مُعَرَّضٌ عَمَّا سِوَى اللَّهِ الْوَاحِدِ
 مِنْ قِيُودِ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ خَلَا^(١)
 يَضَعُ السَّكِينُ فِي حَلْقِ الْوَلَدِ^(٢)
 يَبْذُلُ الرُّوحَ يَوْمَ الْخَطَرِ

دَرَّةُ التَّوْحِيدِ ، فَاحْفَظْهَا الصَّلَاةَ
 فِي يَدِ الْمُسْلِمِ هَذَا الْخَنْجَرُ
 حَجُّكَ الْأَصْغَرَ ، فَاعْرِفْهَا الصَّلَاةَ
 يَفْتِكُ الصَّوْمُ بِجُوعٍ وَصَدَى
 يُقَتِّلُ الْفَحْشُ بِهِ وَالْمُنْكَرُ
 وَيَنْبِرُ الْحَجُّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ
 ضَابِطاً بِالْقِسْطِ هَذَا الْجِسْدُ
 إِنَّمَا الطَّاعَةِ أَسْرُ الْأُمَّةِ
 هَجْرَةُ الْأَهْلِ بِهِ وَالْوَطَنِ
 بِالزَّكَاةِ الْعَابِدُ الْمَالِ أَذْكَرُ
 إِنَّهَا خِيْطُ كِتَابِ الْمَلَّةِ^(٣)
 تَكْثُرُ الْمَالُ ، وَشُحّاً تَمَحَقُ
 عَلَّمَتْ حُبَّ الْمَسَاوَاةِ الْبَشَرُ
 تِلْكَ أَسْبَابُ بِهَا تَسْتَحْكِمُ
 « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا »
 اقْوِ يَا مُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْقَوِي
 إِنْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ دِينَ مُحْكَمُ
 تَحْكُمَنَّ فِي ذَلِكَ الْبَكْرُ الْأَبْيَ^(٤)

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إِنْ خَطَمْتَ الصَّعْبَ قُدَّتْ الْعَالِمَا نَافِذَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ حَكْمَا^(٥)

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .

(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .

(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .

(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسابرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .

(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

فترى المُلْك الذي يخلد لك
 حكمُه في الكون خُلدٌ لا يبذل
 وبأمر الله في الأرض أميرٌ
 وعزمُه ، هذا الباط البالي^(١)
 غيرَ هذا الكون أكوَانٌ آخر^(٢)
 يُخرج الأصنام من بيت الحرم
 يَقْطُ في الحق نومانٌ به^(٣)
 ناشِرٌ في الكون ألوان الشَّباب
 وهو جُنْدِيٌّ وراِعٌ وأميرٌ
 سرٌّ « سبحان الذي أسرى » هُوَه^(٤)
 حينما يُمِسُّك منه بالعنان^(٥)
 وهي إلى أبدانها مثل الرَّمَم^(٦)
 سطوةٌ فيه نجاة العالم
 قِيَمُ الأعمال منه في بدل^(٧)
 كم كليم هام في سينائه !
 عبَّر الرؤيا بتعبيرٍ جديد
 نعمةٌ يُضمِرُ مزمائر الحياة

مشرقاً في الأرض ما دارَ الفلك
 نائبُ الحق على الأرض سعيد
 هو بالجزء وبالكل خير
 في فسيح الأرض يمضي طاويا
 ينجلي من فكره مثل الزَّهر
 يُنضج الفكرة فينا بالضَّرَم
 رنَّ عود القلب من مضرابه
 باعث في الشَّيب ألحان الشباب
 هو في الناس بشيرٌ ونذيرٌ
 مقصدٌ من « علَم الأسماء » هُوَه
 مُحضَرٌ من تحته طُرفُ الزَّمان
 يبعث الأرواح منه قولٌ « قم »
 ذاتُه تتبَّع ذات العالم
 يبعث الميت بإعجاز العمل
 سيرُه يخضرُّ في بيدائه
 جدَّد الدنيا بتفسيرٍ جديد
 كونه المكنون أسرار الحياة

-
- (١) الباط البالي : الأباطيل الموروثة .
 (٢) يخلق من فكره أكوَاناً أخرى ، لا يقيد ما هو واقع .
 (٣) المضراب : أداة تضرب بها أوتار العود .
 (٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسماء » و « أسرى » .
 (٥) يعدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعا إلى مقصده .
 (٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .
 (٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شاعرُ الفِطْرَةِ غَنَّى طَبْعَهُ لِيَقِيمَ الْوِزْنَ إِذْ أَبَدَعَهُ
نَقَعْنَا نَارَ إِلَى أَوْجِ السَّمَاءِ فَبَدَا الْفَارِسُ مِنْ هَذَا الْهَبَاءِ^(١)

فِي رَمَادِ الْيَوْمِ مَنَّا تَرَقُّدُ شُعْلَةٌ يَرْمِي بِهَا الْكَوْنَ الْغَدُ
رَوْضَةٌ تُضْمِرُهَا أَكْمَامُنَا ضَاءٌ مِنْ صَبْحِ غَدٍ أَبْصَارُنَا^(٢)
أَنْتِ يَا فَارِسَ طَرْفِ الزَّمَنِ ! أَنْتِ يَا نُورَ أَلْعَيْنِ الْمَمْكَنِ
مَوْكِبَ الْإِنْشَاءِ هَيَّا زَيْنِ وَتَمَكَّنْ فِي سَوَادِ الْأَعْيُنِ
قُمْ فَكُنْ مِنْ ضَجِيجِ الْأُمَمِ وَامْلَأِ الْأَذَانَ زَهْرَ النَّعَمِ
جَدِّدَنَّ فِي النَّاسِ قَانُونَ الْإِخَاءِ وَأِدْرِهَا كَأْسَ حُبٍّ وَصَفَاءِ
أَبْلِغِ النَّاسَ رِسَالَاتِ السَّلَامِ وَأَعِذْ فِي الْأَرْضِ أَيَّامَ الْوَنَامِ
مَنْ بَنَى الْإِنْسَانَ أَنْتِ الْأَمَلُ أَنْتِ مَنْ رَكِبَ الْحَيَاةَ الْمَنْزِلُ
أَذْبَلَتْ كَفُّ الْخَرِيفِ الشُّجْرَا فَاعِذْ فِي الرُّوْضِ رِبْعاً نَضِيراً
نَحْنُ مِنْ فَيْضِكَ نَمُو لِلْقَلَلِ فِي جِهَادِ الْكَوْنِ نَمْضِي كَالشُّعْلِ^(٣)

*** (٤)

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سيفتح عن روضة ، وعبوتنا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يا أخا الوردة كن صنو الحجر
 آدمياً صوّر من تُربكا
 أنت إن كنت تراباً هيّنا
 أيها الصّارخ من جور الدّهر
 فيم هذا النوح ؟ ماذا الماتم ؟
 مضمّر في السعي مضمون الحياة
 قم فشيّد عالماً دون مثيل
 إنما السّير على حكم الزّمان
 إنّما الحرّ الشجاع الفطرن
 وإذا الدّنيا عنت عن أمره
 يهدم الموجود فيما آثرا
 يصرف الأيام عن كراتها
 خالقاً من قوة في قلبه
 فإذا أعوز عيش الرّجل
 حبذا عشق بغى الأمر الجليل
 تتجلى في مِراس المُفضل
 عُدّة الأنذال حقّ لا سواه
 الحياة الحقّ بأسّ يظهر
 ربّ عفو كان من آفاتِها
 يحسب العجز قنوعاً خانع

وكن السور لبستان الزّهر^(١)
 ثم شيّد عالماً بدعاً لك
 فليضع غيرك منك اللبنا
 يا زجاجاً يشتكي جور الحجر
 وإلام الصّدر حُزناً تليد ؟
 لذة التخليق قانون الحياة
 وحض النار وأقيد كالخليل
 هو رمي الثّرس في وقت الطّعان
 من قفا الآثار منه الزّمن
 حارب الدّهر ، ولم يعبأ به
 يمنح الذّرات شكلاً آخر^(٢)
 يمنع الأفلاك من دوراتها^(٣)
 ذلك العصر الذي يرضى به
 فالحياة الموت موت البطل
 وجنى في النار ورداً كالخليل
 قوة كامنة في البطل
 استمع : صاح ، ذا شرع الحياة :
 حُب الاستيلاء فيه مضمّر
 يكسر الموزون من أبياتها
 لصروف الدهر ذلّ طائع

(١) لا تكن وردة وكن كالبحر صلابة ، وكن سوراً يحمي الأزهار .

(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يستخر عالم الطبيعة في مراده .

(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قَاطِعُ سُبُلِ الْحَيَاةِ الْخَوَرُ
 قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَارِغُ
 فِي كَمِينٍ رَاصِدٌ هَذَا اللَّئِيمُ
 احْذَرْنَ يَا صَاحِبِ مَنْ تَزِينُهُ
 إِنَّهُ يَخْفَى عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ
 فِي ثِيَابِ اللَّيْنِ حِيناً يَظْهَرُ
 وَهُوَ طَوْرًا فِي ثِيَابِ الْمُجَبَّرِ
 وَهُوَ حِيناً فِي لِبَاسِ التَّارِفِ
 مَا سِوَى الْقُوَّةِ لِلصَّدَقِ دَعَمُ
 هِيَ مِنْ حَقْلِ الْحَيَاةِ الْحَاصِلُ
 مَدَّعَاهُ فِي غِنًى عَنْ حِجَّةٍ
 تَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقًّا مَائِلًا
 سَطْوَةُ الْقُوَّةِ تُحْلِي مَا أَمَرَ
 أَثْمَارُ الْغَافِلِ عَمَّا حُمِّلَا
 افْتَحَنْ عَيْنًا وَأُذْنَا وَفَمَا

قَلْبُهُ خَوْفًا وَكِذْبًا يُضْمَرُ
 لَيْشُهُ فِي كُلِّ خَيْثٍ وَالْغُ
 فَاحْذَرْنَ يَا صَاحِبَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ
 إِنَّهُ الْجَرِيءُ فِي تَلْوِينِهِ^(١)
 لَبَسَ الْحَقَّ عَلَيْهِمْ وَاسْتَتَرَ
 وَهُوَ حِينًا فِي اتِّضَاعٍ يُسْتَرُ
 وَهُوَ طَوْرًا فِي حِجَابِ الْقَدَرِ
 يُلْبِسُ الصُّحَّةَ ثَوْبَ الدَّنْفِ
 اعْرِفْنَ نَفْسَكَ ، هَذَا جَامُ جَمِ^(٢)
 فُسِّرَ الْحَقُّ بِهَا وَالْبَاطِلُ
 إِنْ تَحَدَّى الْمَدَّعِي بِالْقُوَّةِ
 وَهَنْ الْحَقِّ يُحَقُّ الْبَاطِلُ
 إِنْ تَقِلَ لِلْخَيْرِ شَرٌّ فَهُوَ شَرٌّ^(٣)
 أَنْتَ فِي الْكَوْنَيْنِ أَعْلَى مَزَلَا
 تُبْصِرُ الْحَقَّ طَرِيقًا مُعَلِّمًا

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر الفارسي أن إقبالاً يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجویری^(١) شاكياً بغي أعدائه

من رأى الجشي مشواه الحرم^(٢)
بأذراً في أرضنا بذر الشجود
وبه للحق يعلو منطق
معقل الباطل منه في تباب
صُبْحْنَا نَوْرَ من تراسه
فيه سرُّ العشق باد يارق

مُجْتَبَى هُجْوِيرَ مقصودُ الأَمَم
قطع الأطوادَ واجتازَ الشُدود
زمنَ الفاروق منه يُشرقُ
حارسُ العزّة من أم الكتاب
حيّت البنجابُ من أنفاسه
ذا رسولَ العشق ، وهو العاشق

طاوياً في الكُم روضَ الزَّهر :
قَدَّه كالسَّروِ عالٍ قد عتا
كاشفاً من نوره عنه الضُّباب
كزجاجٍ بصخورٍ يُصدَم
كيف عيشي بين أعداء كثير
قد تجلّى في إطارٍ من جلال :

قصة أنردّها في أسطر
قد أتى لاهورَ من مرو فتى
جاء عند السيد العالي الجناب
قال : إني في عُدّة لؤموا
علّمني أيّها الشيخ الكبير
فأجاب الشيخ ، من فيه الجمال

(١) الشيخ علي الهجویری مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥ هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجویر إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدّین الجشي أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثيرٌ من الهنّادك ، أقام في أجْمير وتوفي بها سنة ٦٣٢ هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشي قبر الهجویری في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافل عن سر الحياة
 حرّرت نفسك من يأس وغم
 إن رأى النفس زجاجاً حجراً
 وإذا خارت قواه السائر
 كم ترى نفسك طيناً قد حُقر
 فيم شكواك الرفيق النافعا
 كم عدو لك ، في الحق صديق
 قوة الأعداء فضلاً يعلم
 يوقظ الخضم قواك الهاجدة
 قوة العزم تذيب الحجرا
 تشحذ العزم عقاب السبل
 ما حياة دون عزم مُحكم ؟
 زلزل العالم وافعل ما ترى
 اهجرن الذات إن تبغ الفناء
 ما الردى ؟ أن يدرك الذات الوسن
 يا أخا يوسف في الذات أقم
 أخكمن الذات وانهض عاملاً
 هاك سرّاً في حديث مؤنس
 « حبذا سرّ حبيب يُضمّر »

لا يميز الخير من شر الحياة
 أنت بأس نائم ، قم لا تنم
 فهو في الحق ، زجاج يُكسر
 قطع السبل عليه الفاجر
 شعلة الطور من الطين أثر
 فيم شكواك العدو الخادعا
 أنت بالأعداء ذو غصن وريق
 من مقام « الذات » حقاً يفهم
 مثل ما تحيي الموات الراعدة^(١)
 لا يبالي السبل صخراً إن جرى
 امتحان العزم بعد المنزل^(٢)
 ما غناء العيش مثل النعم ؟
 إن حبك الذات عزماً مُسقرا
 واعمرن الذات إن شئت البقاء
 أترأه بعد روح وبدن ؟^(٣)
 ومن السجن إلى الملك استقم^(٤)
 ناصراً للحق ، سرّاً حاملاً
 افتح الكم بحر النفس^(٥)
 في حديث عن سواء يؤثر^(٦) »

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .

(٢) العقاب : جمع عقبة .

(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروح البدن .

(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .

(٥) أبدي السر في قصة قصيرة ككم الزهرة .

(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرّومي .

قصة الطائر الذي أجهدته العطش

كدخانٍ نفساً قد صعدا
صاغها ماءً لعينه الصدى
فراى الجاهل ماءً في الصخر
لم يُصب ماءً بنقر الجواهر
تضرب المنقار في جسمي سدى
ما أنا من أجل غيري باقيه
لحياة نورها منها بدا
وترى الإنسان منه ينهر
فتولّى عن سناها لغيا
زفراتٍ لحنّه يصعّد

طائرٌ من ظمأٍ قد جهدا
قد رأى الماسة مثل الندى
خدعته شذرة مثل الشرر
لم يجد ريثاً بضرب المنقر
قالت الشذرة : جُبت الهدى
لست ماء . لا تراني ساقيه
جاهلٌ يقصد هضمي ما اهتدى
كل منقارٍ بمائي ينكسر
ما رأى الطائر فيها أربا
حسرةً في صدره تتقد



قطرةً في عُصنٍ وردٍ خضيل
ولخوف الشمس فيها رعدة^(١)
شاقه الجلوة في هذا الفضاء^(٢)
لم يزود من حياة نصيب^(٣)
زانت الهذب وكادت تقطر

وأضاءت مثل دمع البلبلي
لضياء الشمس فيها منة
كوكبٌ يرعد من نسل السماء
غرّه الأكمام والزهر الخصب
قطرةً من دمع صب تبهر

(١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفّ في أشعة الشمس .

(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .

(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضى الطائر فيها راغباً
أيها الباغي عدواً تقهراً !
حينما الطائر أضناه صده
كانت الشذرة عضباً يُرهب
قوة الذات احفظنها أبداً
أنضج القطرة كالطود تُرى
أثبتت الذات وفيها حَقُّق
ومن الذات أبى أسرارها

قصة الألماس والفحم

قصة أخرى بها أدلي إليك
قال للألماس فحمُ المعدن :
نحن صنوان ثمانا والذ
وعلى التيجان أنت الزينة
لك حسنٌ في المرايا يسطع
من ظلامي قد أضاء المجر
مَوطيء الأقدام بين البشر
إنَّ حالي بيكاء لَحَرى
إنني موج دُخانٍ يُعقد
ومن الأنجم فيك الرُّونقُ

يفتح الحقُّ بها باباً عليك :
يا حليف الثور طول الزَّمن !
أصلنا في الكون أصلٌ واحد
وأنا في الثُّرب حظي الذلَّة
وأنا مِنْ كَفِّ تَرِبٍ أَضِيع
ورماداً أض فيَّ الجواهر
قد رموا في مهجتي بالشَّرر
هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
كلُّ ما فيَّ شرارٌ يصعدُ
كلُّ جنبٍ فيك نورٌ يُشرق

(١) كن في صلابة الفضة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تَارَةً نَوْرٌ بَعِيْنِي قِيَصْرَا تَارَةً فَصٌّ يَزِيْنُ الْخُنْجَرَا

قَالَ : فَاسْمَعْ يَا رَفِيقِي وَافْهَمْ أَشْنَ فِيمَا حَوْلَهُ حَرْباً وَمَرَّ هَيْكَلِي مِنْ نَضْجِهِ قَدْ نَوَّرَا أَنْتَ مِنْ ضَعْفٍ وَكِيَانٍ تَنْفَقُ أَهْجُرُنْ خَوْفَاً وَغَمًّا لَا تَهْنُ مِنْ أَجَادِ السَّعْيِ وَالْأَخْذِ مَعَا وَبِحَجَرِ الْكَعْبَةِ انْظُرْ حَجَرَا جَاوَزَ الظُّوْرَ عِلَاءَ لَا جَرَمِ قُوَّةُ الْأَحْيَاءِ عَزٌّ وَنَجَاةُ

يَنْضَجُ التَّرْبُ فَيَغْدُو خَاتِمَا وَغَدَا بِالْحَرْبِ صُلْباً كَالْحَجَرِ وَيَصْدُرِي كَمْ شِعَاعٍ أَسْفَرَا وَبَلِيْنٍ فِي قَوَامٍ تُحْرِقُ وَانْضَجَنْ كَالصَّخْرِ وَالْأَلْمَاسِ كُنْ فَهُوَ فِي الدَّارَيْنِ بَدْرٌ طَلَعَا كَانَ مِنْ قَبْلُ تَرَاباً حَقِيراً وَرَجَحَتْ تَقْيِيْلَهُ كُلُّ الْأُمَمِ وَالْوَنَى وَالذُّلُّ مِنْ ضَعْفِ الْحَيَاةِ

قِصَّةُ الشَّيْخِ وَالْبَرْهَمِيِّ ، وَمَحَاوِرَةُ نَهْرِ الْجَنْجِ وَجَبَلِ هَمَالَا
فِي مَعْنَى دَوَامِ حَيَاةِ الْأُمَّةِ بِالتَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهَا

بَرْهَمِيٌّ فِي بَنَارِيْسَ عِلْمٌ بِرَجَالِ اللَّهِ يَحْقُقِي فِعْلُهُ عَقْلُهُ فَوْقَ الثَّرِيَّا قَدْ عَلَا فَكَّرَهُ الْعَنْقَاءُ إِمَّا حَلَّقَا كَأُسِهِ دَهْرًا خَلَّتْ مِنْ خَمْرَةٍ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ أَلْمَى شَبَكَا

غَائِصٌ فِي فِكْرٍ كَوْنٍ وَعَدَمٍ^(١) وَمِنْ الْحِكْمَةِ وَافٍ كِفْلُهُ ذَهَبُهُ مَاضِي يُحُلُّ الْمَشْكَلا شَعْلَةٌ مِنْهَا السُّمَّاكُ احْتَرَقَا قَدْ حَمَاهُ الرَّاخُ سَاقِي الْحِكْمَةِ طَائِرَ الْمَعْنَى بِهِ مَا أَدْرَكَا

(١) بَنَارِيْسَ : الْمَدِينَةُ الْمُقَدَّسَةُ فِي الْهِنْدِ عِنْدَ الْهِنْدُوسِ .

فَكَرَّهَ أَذْمَى وَلَكِنْ لَمْ تَزَلْ
أَعْرَبْتُ عَنْ يَأْسِهِ أَهَائِهِ
سَارِ يَوْمًا نَحْوَ شَيْخٍ كَامِلٍ
لَقِيَ الشَّيْخَ بِنَفْسٍ رَاجِيَةٍ
فَأَهَابَ الشَّيْخُ : يَا خِدْنُ السَّمَاءِ
ضَقَّتْ فِي الْأَرْضِ مَجَالًا فَعَلَا
طَاوِي الْأَفْلَاكِ ! فِي الْأَرْضِ قُمْ
لَا أَقُولُ أَهْجَرُ غَدًا أَصْنَامُكَ
يَا أَمِينًا لِتَرَاثِ الْأَوَّلِينَ !
بِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ تَحْيَا الْأُمَّةُ
لَمْ يَكْمُلْ فِيكَ حَتَّى كَفَرُكَ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ فِينَا هُجِرَا
قُسِنَا مَا هَامَ خَلْفَ الْمُحْمَلِ
إِنَّ شَمْعَ الذَّاتِ فِينَا لَا نَطْفِئُ

عُقِدَ الْأَكْوَانُ فِيهِ دُونَ حُلٍ
وَحَكَّتْ حَيْرَتُهُ نَظْرَاتِهِ
رُبَّ صَدْرٍ بِفُؤَادٍ أَهْلٍ
تَحَسَّنُ الصَّمْتُ ، وَأَذِنَ وَاعِيهِ :
أَهْبَطَنَّ الْأَرْضَ وَارَعَ الذُّمَّامَا
فَكَرُّكَ الْمَقْدَامَ فِي أَوْجِ الْعُلَى
لَا تَطْرُقُ تَطْلُبُ سِرَّ الْأَنْجُمِ
كَافِرٌ أَنْتَ فَخَذُ زُنَّارِكَ
لَا تَدْعُ نَهْجَ الْجُدُودِ الْأَقْدَمِينَ
وَكِذَاكَ الْكُفْرَ فِيهِ وَحْدَةً
لَيْسَ أَهْلًا لِفُؤَادِ صَدْرِكَ
وَبَعْدَتْكُمْ أَنْتُمْ عَنْ آزْرَا^(١)
فِي جَنُودِ الْعِشْقِ لَمَّا يَكْمُلُ
كَيْفَ يُجَدِّدُنَا طَوَافٌ فِي السَّمَاءِ

جَاشَ نَهْرُ الْجَنَاحِ يَوْمًا جَائِلًا
حَامِلًا مِنْ بَرْدٍ أَوْقَارَهُ !
فِي سَفُوحٍ مِنْ هِمَالَا قَائِلًا :
عَاقِدًا مِنْ أَبْهَرِ زُنَّارِهِ !^(٢)

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكماله فيه ما دام برهيمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إِنَّ الموحدين لا يسиров على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجناح لجبل همالا ، وخلاصة المحاوراة : أَنَّ النهر يعبر الجبل بالعجز عن المبر فيجب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وَأَنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاوراة تصوّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها ، وَأَنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يؤدي بها .

صَاغَكَ الْحَقُّ نَجِيًّا لِلسَّمَاءِ
قُيِّدْتَ رَجُلُكَ عَنْ سِيرٍ فَمَا
إِنَّمَا الْعَيْشُ مَسِيرٌ وَوَصْلًا
غَضِبَ الطَّوْدُ لِقَوْلِ النَّهْرِ
قَالَ : يَا مَرَاةَ وَجْهِي ! وَيْلَكَ
إِنَّ هَذَا السَّيْرَ فِيهِ الْحَيْنُ لَكَ
بِمَقَامٍ لَكَ هَلًا تَأْبَهُ !
يَا وَلِيدَ الْفَلَكَ الْمَرْتَفِعِ !
قَدْ وَهَبْتَ النَّفْسَ بَحْرًا غَاصِبًا
كُنْ كَوَرْدٍ فِي رُبَاهِ عَاكِفٍ
إِنَّمَا الْعَيْشُ نَمَاءٌ فِي الْمَكَانِ
فِي دَهْوٍ لَمْ تُزَحْزَحْ أَرْجُلِي
وَإِلَى الْأَفلاكِ قَدْ يَصْعَدُ
أَنْتَ تَفْنَى فِي خِصْمٍ خَضِرٍ
وَبِعَيْنِي لَاحَ سِرُّ الْفَلَكَ
وَبِنَارِ الْجَدِّ طَوَلَ الدَّهْرُ
« صَخْرٌ قَلْبِي وَنَارِي فِي الصَّخْرِ
قَطْرَةٌ إِنْ كُنْتَ فَاحْفَظْ نَفْسَكَ
وَابْتِغِ الثُّورَ وَكُنْ دَرًّا يُضِيءُ
أَوْ فَرْدًا وَاعْلُ سَحَابًا مَمْطَرًا

وَحَمَى رَجُلَكَ سِيرًا فِي الْعَرَاءِ
هَيْبَةٌ فِيكَ وَرَأْسٌ قَدْ سَمَا ؟
وَحَيَاةُ الْمَوْجِ فِي أَنْ يَجْفِلَا
فَرَمْتَ أَنْفَاسُهُ بِالْشَّرِّ
كَمْ حَوَى صَدْرِي بِخَارًا مَثَلًا
مَنْ يَزُلْ عَنْ نَفْسِهِ يَوْمًا هَلَكًا
أَفْخَارٌ بِالرَّدَى يَا أَبْلَهُ !
صِرْتُ دُونَ السَّاحِلِ الْمَتَّضِعِ
وَأَبَحْتُ الرُّوحَ لَصًّا سَالِبًا
لَا تَرُمُ لِلرَّيْحِ كَفًّا الْقَاطِفِ^(١)
وَبِرُوضِ الذَّاتِ قَطْفُ الْأَقْحَوَانِ
أُثْرَانِي زَائِلًا عَنْ مَنْزِلِي ؟
فَعَلَى سَفْحِي الثُّرَيَّا تَرْقُدُ
وَقِلَالِي مَسْجِدٌ لِلْأَنْجَمِ
وَيَسْمَعِي طَيْرَانُ الْمَلِكِ
قَدْ حَوَى صَدْرِي صَنُوفَ الْجَوْهَرِ
لَيْسَ لِلْمَاءِ إِلَى نَارِي مَمَرٌ^(٢) «
جَاهِدِ الْأَمْوَاجَ وَاجْتَنِبِ يَأْسَكَ
ثُمَّ كُنْ قُرْطًا عَلَى وَجْهِ وَضِيءٍ
يُشْعَلُ الْبَرْقُ وَيَهْمِي أَبْحَرًا^(٣)

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .

(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .

(٣) إن كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برق ورعد

يجتدي منك البحر ماءه .

يسيطر البحر لجندواك يدا شاكياً من فاقة يرجو الندى
فهو في فيضك دون الموجه وهو في جندواك بادي الذلة

في بيان أن حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض »
فهو حرام في شريعة الإسلام

والهوى والصيت دغ في حبكا مسلم لا حب فيه قد كفر وله في الحق نوم وسهر كيف يرضى الناس هذا الادعاء؟ ^(١) وعلى الناس جميعاً شهدا شاهد أصدق كل الشاهدين وأضئ بالحق ليل العمل ذاكراً لله يقظان الضمير يسطعن فيك من الحق جلال شر السلم إذا رمت سواء اكتسى في الحرب عاراً صفنا	صبغة الله أنز في قلبكا إنما المسلم بالحب قهر غض بالحق ، وبالحق نظر في رضاه لرضا الحق فناء في ربي التوحيد أرسى العمدا وعليه يشهد الداعي الأمين فدع القال إلى الحال الجلي وكن الدرويش في زبي الأمير واقصدن الحق في كل الفعال خير الحرب إذا رمت الإله نحن إن لم نعمل حقاً سيفنا
---	--

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضاه
رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانمير) الولي
 كان ثبناً في طريق المصطفى
 قبره الإيمان في أوطاننا
 سجد النجم على أعتابه
 غرس الملك هواء في الفؤاد
 بالهوى أضرم ناراً قلبه
 دوّخت أجناده كل وطن
 ديدن المسلم للحقّ التجاء
 قصّد الشيخ العليّ القدر
 صمت الشيخ لقول المالك
 قطع الصمت مريد أقدم
 قال : مولاي ! اقبل النذر الحفيظ
 عرقني من كل عضو قد همي
 قال : سلطاني به أولى يدا

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير
 وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في
 العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في
 مدينة أجرة . شاده لزوجته ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ - ١٠٦٨ هـ) ومير محمد
 المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة
 ٩٣٨ هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن
 مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان
 صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي
 سنة ١٠٤٥ هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيد جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .
 (٣) قال الشيخ : سلطاني . إلخ .

وعلى الشمس تولّى والقمر
عينه فوق سماط الآخرين
نفسه يّني ويردي عالمًا
شقي المسكين من جوع يديه
قطع الطّرق على ركب البشر
نهبه فتحاً . وبئس المدعى
بسيوف الجوع منه شذّر
وخراب الملك جوع الدائل
سيفه في صدره قد أغمدا

ملّكنا أفقر من كلّ البشر
جوعه بالنّار يصلي العالمين
سيفه بالقحط والموت رمى
ضجت الأقوام من فقر لدية
حكّمه في النّاس شرّ وأشر
بخداع النّفس والجهل دعا
عسكر الملك وما قد أسروا
غصّة السائل جوع السائل
من لغير الله سلّ المغمدا

نصيحة مير نجاة النقشبندي المعروف بباباي صحرائي (الأب الصّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

من ضمير الذات نلت المولدا
قطرة كن واشرب البحر صدى^(١)
والغنى في حفظ هذي السلعة
يا أسير الوهم أخطأت الفهم
سأنبئك بأسرار الحياة :
وظهور بعد هذي الخلوة
واشتعال بعد يُعشي البصرا
واجعلن نفسك بيت الحرم
من هوي لا تخف ، مثل العقاب

أنت كالورد من الأرض بدا
لا تعدّ الذات واخلد أبدا
إنما الربح بهذي الثروة
أنت موجود وفي خوف العدم
عندي الخبر بأوتار الحياة
غوصة في النفس غوص الدرة
هي جمع من رماد شررا
هي حول الذات طوف فاعلم
خلقن في اللوح عن جذب التراب

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمنها . الصدى : الظلم .

أَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُ طَيْرًا وَيَحْكَا
أَيُّهَا الْجَاهِدُ فِي كَسْبِ الْعُلُومِ
« إِنَّمَا الْعِلْمُ لَدَى الْجِسْمِ شَقَاءٌ
قِصَّةُ الرُّومِيِّ تَقْضِي بِالْعَجَبِ :
وَعَلَى رَجُلَيْهِ لِلْعَقْلِ قِيُودُ
هُوَ مُوسَى دُونَ طُورٍ يُشْرِقُ
وَعَنِ الْإِشْرَاقِ وَالشُّكِّ حَكِي
وَعَنِ الْمَشَاءِ ^(٤) حَلَّ الْعَقْدَا
وَحَوَالِيهِ صِيَوَانُ الْكُتُبِ

أَمْ يَوْمًا مَكْتَبَ الْمُلا جَلالَ
قَالَ : مَاذَا الْقَالَ وَالْقِيلُ وَمَا
صَرَخَ الرُّومِيُّ : مَهلاً يَا جَهُولُ !
اخْرُجْ مِنْ مَكْتَبِي يَا أبله !
قَالْنَا أَرْفَعْ مِمَّا تَعْقِلُ
نَارُ شَمْسِ الدِّينِ زَادَتْ حُرْقًا
فَاسْتَطَارَ الْبَرْقُ مِنْ نَظَرَتِهِ

شَيْخُ تَبْرِيزِ بِأَمْرِ مِنْ كَمَالِ ^(٥)
مِنْ قِيَاسٍ وَدَلِيلٍ أَوْهَمَا
لَا تَهْوَنُ مِنْ مَقَالَاتِ الْعُقُولِ
قَالْنَا وَالْقِيلُ أُنَّى تَفْقَهُ ؟
سُـرِّجَ الْإِدْرَاكِ مِنْهُ تُشْعَلُ
فَرَمَى مِنْ رُوحِهِ مَا أَحْرَقَا
وَتَلَطَّيَ التُّرْبُ مِنْ شُعَلَتِهِ

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عشت عليه . يعني إن لم تكن ذا هممة تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمته في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التجريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فإذا الأدراك من نارِ القلوب
جهل الرومي عشقاً أضرم
قال : هذي النار ما قصتها ؟
قال شمس الدين يا ذا المسلم !
حالتنا أرفع مما تُفكر

محرق والكُتب منها في لهيب
ما درت أوتارُه ذا النغما
أحرقنا أسفاننا وقدتها
ذوقنا والحال أنى تعلم ؟
ولظاننا الكيمياء الأحمر^(١)

فسحاب الفكر يهمي بردا^(٢)
من تراب فيك أطلع شهباً
مقصداً الإسلام ترك الآفل^(٣)
فحوته كالجنان الشغل^(٤)
تبتغي بالدين إلا الدرهما
غافلاً عما به من كحل^(٥)
واسألن ماء الحياة الخنجرا^(٦)
التمس والمسك في الكلب اطلبين
لا تؤمّل كأس هذا الكافر

تجمع الحكمة زاداً بردا
من هشيم فيك أذك اللهب
من لهيب القلب علم الكامل
صد إبراهيم عما يأفل
قد تبذت الدين ظهرياً وما
أيها الساعي لكحل المقل
من فم التين فابغ الكوثر
حجر الكعبة من بيت الوثن
طفىء العشق بعلم الحاضر

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .

(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .

(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من

نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .

(٤) إشارة إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .

(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشجار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .

(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كل ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعي في كل بعيد
وحباني سرَّ هذي الجنَّة
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ
من حدودِ الحسنِ لا ينطقُ
زلقت رجلاه في سُبُلِ الحياة
كشفي في فيه نارَ هامة
من لهيبِ العشق تَخْلُو فطرته
علَّ العقل لها العشق دواءُ
سجدَ العالمُ للعشقِ الجليل
جامه من نشوة الرِّاحِ خلا

وعرفتُ السرَّ في العلم الجديد
قِيمُ البستان بعد الخيرة
يعبد الوثن وفيها يتجر
وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
وضعت في حلقهِ السِّيفَ يداهُ
شعلة كالطَّل فيهِ بارده^(١)
في طلابِ الحقِّ تبدو خيَّته
مبضعُ العشق لدى العقل شفاءُ
هو محمودٌ لأصنامِ العقول^(٢)
ليله عن وَجدٍ « يا ربَّ » سلا^(٣)



سَرُّوكَ الباسقُ قد أغفلته
أنت كائنائي خلِّي من جواك
تبتغي نفسك في سوقِ سواك
من سراجِ النَّاسِ نادينا استعر
ظيُّنا خاف سوادَ الكعبةِ
كلُّ سَرِّوٍ غيرُهُ أكبرُّه^(٤)
بلحون الناسِ أعليت صدك
وسمَّاط النَّاسِ تجدوه يداك
أحرقَ المسجدَ من دبرِ شرر
فرماه صائدٌ في الثُّفرة^(٥)

- (١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبير في الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كاسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورق الوردة كالعرف انتشر
يا أمين السر من أم الكتاب
نحن حراس حصون الأئمة
أكوس الساقى أراها كسرا
نعمر الكعبة من أصنامنا
شيخنا باع الدُمى بِلته
شيخ الشيخ بياض الشعر
قلبه يبت لأصنام هواة
يلبس الخزقة من يرخي الشعر
بمريديه أدام السفرا
أعين عُمى حكاها النرجس
عبد الأشياخ فينا المنصب
واعظ عيناه شطر الوثن
وجهه للحنان ولّى شيخنا

جافلاً من نفسه! عذ للمقر^(١)
هل إلى وحدة ماضينا إياب؟
كُفرنا ترك شعار الملة
حفل نذمان الحجاز انتشرا
يضحك الكُفر على إسلامنا^(٢)
جاءلاً زُناره مُبَحّته^(٣)
وهو للأطفال مثل الشجر^(٤)
فهو صفر مقفر من « لا إله »^(٥)
آه! للتاجر بالدين اتجر
في هدى أمته ما فكرا
وصدور من قلوب ثقلس
حرمة الأئمة منهم تذهب
وفتاوى تشتري بالثمن
« يا رفاقي بعد ما تديرنا »^(٦)

- (١) يرى إقبال أن الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسنته . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلثم ورقها . فإذا تفرق الورق فنيث .
- (٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .
- (٣) الدُمى : جمع دمية ، يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .
- (٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً ببيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .
- (٥) « لا إله » اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .
- (٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :
شب از مسجد سوى ميخانه آمد بير ما
چيست ياران طريقت بعد ازين تدبير ما

نَضَّرَ اللَّهُ تَرَابَ الشَّافِعِيِّ
فِكْرُهُ قَدْ صَادَ نَجْمًا لَامِعًا
فَاتَ خَوْفًا وَرَجَاءً صَاحِبُهُ
تُعْدِقُ الصَّخْرَةَ مَنْ ضَرَبَتْهُ
كَانَ هَذَا السَّيْفُ فِي كَفِّ الْكَلِيمِ
شَقَّ صَدْرَ الْبَحْرِ لَمَعَ الْقَبَسِ
وَبِهَذَا السَّيْفِ يَوْمَ الْخَطَرِ
سَحَرَ الْأَبَابَ هَذَا الْأَلْمَعِي
حِينَ سَمَى الْوَقْتُ سَيْفًا قَاطِعًا
كُفَّهُ كَفُّ كَلِيمٍ ، ضَارِبُهُ
وَيَغِيضُ الْبَحْرُ مَنْ صَوْلَتْهُ
فَشَأَ التَّذْيِيرَ بِالْعَزْمِ الضَّمِيمِ
صَيَّرَ الْقَلْزُومَ مِثْلَ الْيَسَنِ
زَلَزَلَتْ خَيْرَ كَفِّ الْحِيدِرِ^(٢)

مَمَكُنْ إِبْصَارُ دَوْرِ الْفَلَكَ
يَا أُسِيرَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ انظُرَا^(٣)
أَنْتَ فِي النَّفْسِ بِذَرْتَ الْبَاطِلِ
وَذَرَعْتَ الْوَقْتَ طَوْلًا ، لِلشَّقَاءِ
وَجَعَلْتَ الْخَيْطَ زُنَّارًا لَكَ
صِرْتَ يَا إَكْسِرُ ثَرِيًّا سَافِلًا
اقْطَعِ الزُّنَّارَ حَرًّا لَا تَهْنُ
إِيهِ يَا غَافِلُ عَنْ أَصْلِ الزَّمَانِ
يَا أُسِيرَ الصُّبْحِ وَالْمُسَى اعْقِلُنْ
وَتَوَالِي نُورِهِ وَالْحَلَاكَ
انظُرُنْ فِي الْقَلْبِ كَوْنًا سُبْرًا
وَحَسِبْتَ الْوَقْتَ خَطًّا طَائِلًا
بِذِرَاعٍ مِنْ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ
صِرْتَ لِلْأَصْنَامِ نَدَاً وَيْلَكَ !
يَا وَلِيْدَ الْحَقِّ صِرْتَ الْبَاطِلِ
شَمْعَةً فِي مَحْفِلِ الْأَحْرَارِ كُنْ
كَيْفَ تَدْرِي مَا خَلُودُ الْحَيَوَانِ^(٤)
« لِي مَعَ اللَّهِ » بِهَا الْوَقْتُ اعْرِفُنْ^(٥)

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .

(٣) انظروا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .

(٤) الحيوان : الحياة .

(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد =

كُلُّ مَا يَظْهَرُ ، مِنْ تَسْيَارِهِ
مَا مِنْ الشَّمْسِ أَرَاهُ يَوْجَدُ
وَبِهِ الشَّمْسُ أَضَاءُ وَالْقَمَرُ
قَدْ بَسَطَتِ الْوَقْتَ بَسْطاً كَالْمَكَانِ
يَا شَذّاً قَدْ فَرَّ مِنْ بَسْتَانِهِ
وَقَتْنَا بَيْنَ الْحَيَايَا سَافِراً
الْحَيَاةُ الدَّهْرُ يَا مَنْ عَرَفَا

نَكْتَةً كَالدُّرِّ خَذَهَا رَائِقَةً
حَيْرَةُ الْعَبْدِ مَيِّرُ الزَّمَنِ
يَنْسُجُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ كَفْنَا
وَتَرَى الْحَرَّ مِنَ الطَّيْنِ نَجَا
قَفْصُ الْعَبْدِ صَبَاحٌ وَمَسَاءٌ
وَبَصْدُرِ الْحَرِّ ثَارَ النَّفْسُ
فَطَرَةُ الْعَبْدِ حُصُولُ الْحَاصِلِ
فِي مَقَامٍ مِنْ هَمُودٍ رَاكِدُ
وَمِنَ الْحَرِّ جَدِيدُ الْخَلْقَةِ
قَيَّدَ الْعَبْدَ صَبَاحٌ وَمَسَاءٌ

وَالْحَيَاةُ السَّرُّ مِنْ أَسْرَارِهِ^(١)
إِنَّهَا تَفْنَى وَهَذَا يَخْلُدُ
وَبِهِ فِي الْعَيْشِ مَا سَاءَ وَسَرُّ
وَفَرَّقَتِ الْيَوْمَ مِنْ أَمْسِ الزَّمَانِ
وَحَبِيسَ السَّجْنِ مِنْ بَنِيَانِهِ^(٢)
لَيْسَ فِيهِ أَوَّلٌ أَوْ آخِرُ
« لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ » قَوْلُ الْمُصْطَفَى

بَيْنَ حَرٍّ وَرَقِيقٍ فَارِقَةٍ :
حَيْرَةُ الْأَزْمَانِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ
مِنْ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ مُذْعِنَا
نَفْسَهُ حَوْلَ اللَّيَالِي نَسْجَا
يُحَرِّمُ التَّحْلِيقَ فِي جَوْ السَّمَاءِ
طَائِرَ الْأَيَّامِ فِيهِ يُحْبَسُ
لَيْسَ فِي تَفْكِيرِهِ مِنْ طَائِلِ
نَوْحِهِ لَيْلاً وَصَبْحاً وَاحِداً
كُلَّ حِينٍ ، وَحَدِيثُ النُّغْمَةِ
وَتَوَى فِي فَمِهِ لَفْظُ الْقَضَاءِ^(٣)

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته
يد تسيّر مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وَأَرَى الْحَرَ مُشِيرًا لِلْقَدَرِ صَوَّرَتْ كَفَّاهُ أَحْدَاثَ الدَّهْرِ (١)
عِنْدَهُ الْمَاضِي التَّقَى وَالْقَابِلُ عاجِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ الْآجِلُ (٢)

ضَاقَ عَنْ مَعْنَايَ حَرْفٌ وَصَدَى عَجَزَ الْإِدْرَاكُ فِي هَذَا الْمَدَى
قَلْتُ ، وَاللَّفْظُ مِنَ الْمَعْنَى خَجِلُ وَشَكَا الْمَعْنَى مِنَ اللَّفْظِ الْمَجِلُ
مَاتَ مَعْنَى فِي حُرُوفٍ يُحْبَسُ نَارَهُ يُخَمِّدُ مِنْكَ النَّفْسُ
سُرٌّ غَيْبٍ وَحُضُورٍ فِي الْقُلُوبِ رَمَزُ وَقْتٍ وَمَرُورٍ فِي الْقُلُوبِ (٣)
إِنَّ لِلْوَقْتِ لِلْحَنَاءِ صَامَتَا وَلَهُ فِي الْقَلْبِ سِرًّا خَافَتَا (٤)
أَيَّنَ أَيَّامٌ بِهَا سَيْفُ الدَّهْرِ صَرَّفَتْهُ فِي أَيَادِينَا الْقُدَرُ (٥)
قَدْ غَرَسْنَا الدِّينَ فِي أَرْضِ الْقُلُوبِ وَجَلَوْنَا الْحَقَّ مِنْ سِتْرِ الْغُيُوبِ
وَمِنْ الدُّنْيَا حَلَلْنَا الْعُقْدَا وَاسْتَنَارَ الثُّرْبُ مِنَّا سُجْدَا
مِنْ دَنَانِ الْحَقِّ صَرَّفْنَا الرَّحِيقَ وَهَدَمْنَا حَانَةَ الْعَصْرِ الْعَتِيقَ
يَا مَدِيرَ الرِّيحِ فِي أَضْوَانِهَا وَمُذِيبَ الْكَأْسِ مِنَ الْأَلَانِهَا (٦)
مَنْ غُرُورٍ وَاخْتِيَالٍ تَسْكُرُ وَمَنْ الْفَقْرِ لَدِينَا تَسْخَرُ !
كَأْسُنَا كَانَتْ سِرَاجَ الْمُحْفِلِ صَدَرْنَا كَأَنَّ لِقَلْبٍ مُشْعَلِ
إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ مِنْ آثَارِنَا مَنْ عَجَاجٍ ثَارَ فِي تَسَارِنَا

- (١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .
(٣) القافية مردوفة والروى في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .
(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضة الحق ارتوت من دمننا
كبر العالم من تكبيرنا
« اقرأ » الحق لنا قد علما
لا تهون قدر حر أعدما
إن نكن عندك أصحاب الخسار
فلدينا عزة من « لا إله »
قد تركنا غم أمس وغد
نحن وراث هداة للبشر
لا تزال الشمس تبدي نورنا
ذاتنا المرآة للحق ، اعلم

دعاء (٢)

أنت في الكون كروح مُستسير
منك فيه نعمة عود الحياة
عذ فسكن ذي القلوب البائسة
عذ فكلفنا الفعال الماجدا
إننا نشكو تصاريف القضاء
عن فقير لا تحجب ذا الجمال
عين سهد لفراد قلب

روحنا أنت ، ومنا تستر
في هواك ، الموت محسود الحياة
عذ فعمّر ذي الصدور اليائسة
ألهب العشق فينا الخامدا
أنت تغلي السحر والأيدي خلاء (٣)
عشق سلمان امنحنا وبلال
امنحنا واضطراب الرزق

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .

(٢) الخطاب لله تعالى .

(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيَةً أَظْهَرَ مِنَ الْآيِ الْمُبِينِ
أَظْهَرَ الْبَرْكَانِ مِنْ أَعْوَادِنَا
كُفُّنَا أَلْقَتْ بِخِيطِ الْوَحْدَةِ
قَدْ مَضَيْنَا كَنَجُومٍ حَائِرَةٍ
انْظَمْنَ فِي السُّلُكِ هَذَا الْوَرَقَا
ابْعَثْنَا مِثْلَ مَا كُنَّا لَكَا
مَنْزَلَ التَّسْلِيمِ أَبْلَغُ رَكْبِنَا
عَلَّمَنَّ الْعَشَقَ مِنْ أَعْمَالِ « لَا »

أَنَا كَالشَّمْعِ لَغِيرِي أُخْرَقُ
رَبِّ ! هَذَا الدَّمْعُ نَوْرٌ فِي الْقُلُوبِ
أَبْذُرُ الدَّمْعِ فَتَنْمُو شُعْلُ
أَمْسِ فِي قَلْبِي ، وَعَيْنَايَ الْغَدُ
« ظَنَّ كُلُّ أَنْبِي نَعَمِ السَّمِيرُ
أَيْنَ يَا رَبَّاهُ فِي الدُّنْيَا الْنَدِيمُ

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنْ كُنَّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] .
(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .
(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .
(٤) « لَا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفى ما سوى الله ، و« إِلَّا اللَّه » هي الإثبات في هذه الكلمة .
(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكن الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .
(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .
(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظالمٌ نفسي فكم عنيها
شُعلاً للحس تذرو ما به
وبها العقل جنوناً علماً
قد علت من حرها شمس السماء
كل عرق في ناراً يقطر
بليلي يلفظ هذا الشررا
صذر عصري ما بقلب يوهن
يخفق الشمع وحيداً ويله !
كم أرجي مُسعداً لي في البشر

شُعلاً في صذرِها أذكيها
وتشُب النار في أثوابه^(١)
وبها أحرق ما قد علماً^(٢)
حولها للبرق طوف في الفضاء
شُعلاً يثب في الشعُر
فتراه نغماً مستعرا
نوح قيس حين يخلو المخمل^(٣)
في فراش لا يرى أهلاً له^(٤)
ونجياً كم أرجي في الدهر

يا من الأنجم منه تستير !
اسلبن نفسي ما أودعتها
أو فهب لي وجه خل ليق

أرجعن نارك من روعي الكبير
عطلن من نورها مرآتها
هو مرآة لعشق محرق

يخفق الموج بموج في العباب
ومع الكوكب يسري الكوكب
ومع الليل نهار أبدا
نهاراً ، أبصر ، يفنى في نهر

لا يسير الموج إلا في صحاب
وعلى الأقمار يحنو الغيب
ومسير اليوم يقتاد غدا
ونسيم الرّوض في عزف الزهر

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .

(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم .
انظر الكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكلم .

(٣) يبكي إقبال لخلو عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلي .

(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبَّ حَانٍ أَهْلٍ مِنْ شَرِبِهِ رَاقِصَ الْمَجْنُونِ مَجْنُوناً بِهِ
أَنْتِ يَا وَاحِدُ لَا شِبْهَ لَكَ عَالِماً أَنْشَأَتْهُ مِنْ أَجْلِكَ
وَأَنَا مِثْلُ شَقِيقَاتِ الْفَلَا مُفَرِّدٌ ، فِي بُهْرَةِ الْجَمْعِ خَلَا^(١)
هَبْ نَجِيّاً يَا وَلِيَّ النُّعْمَةِ مَحْرُماً يُدْرِكُ مَا فِي فَطْرَتِي
هَبْ نَجِيّاً لِقْناً ذَا جَنَّةٍ لَيْسَ بِالدُّنْيَا لَهُ مِنْ صَلَاةٍ^(٢)
رُوحَهُ أَوْدِعَ مِنْ أَنْتَائِهِ وَأَرَى فِي قَلْبِهِ مَرَاتِيهَ
وَأَسْوَيْهِ بَطِينِي مُحْكَمَا وَأَرَى آزَرَهُ وَالصَّنْمَ^(٣)

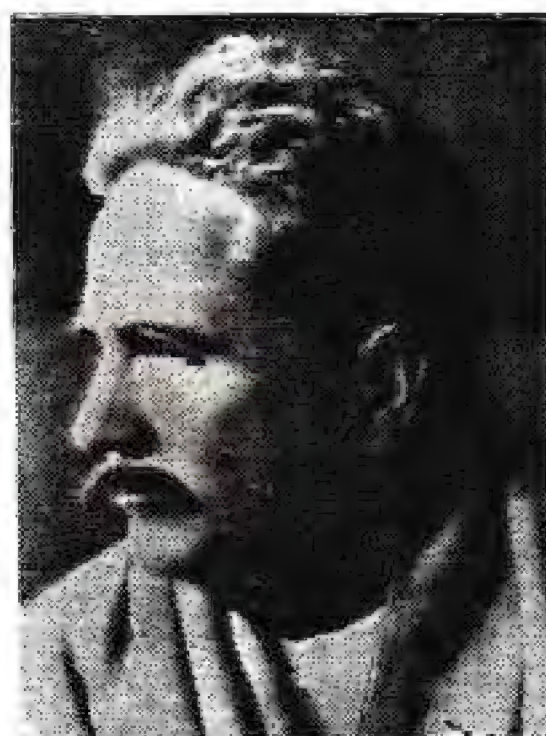


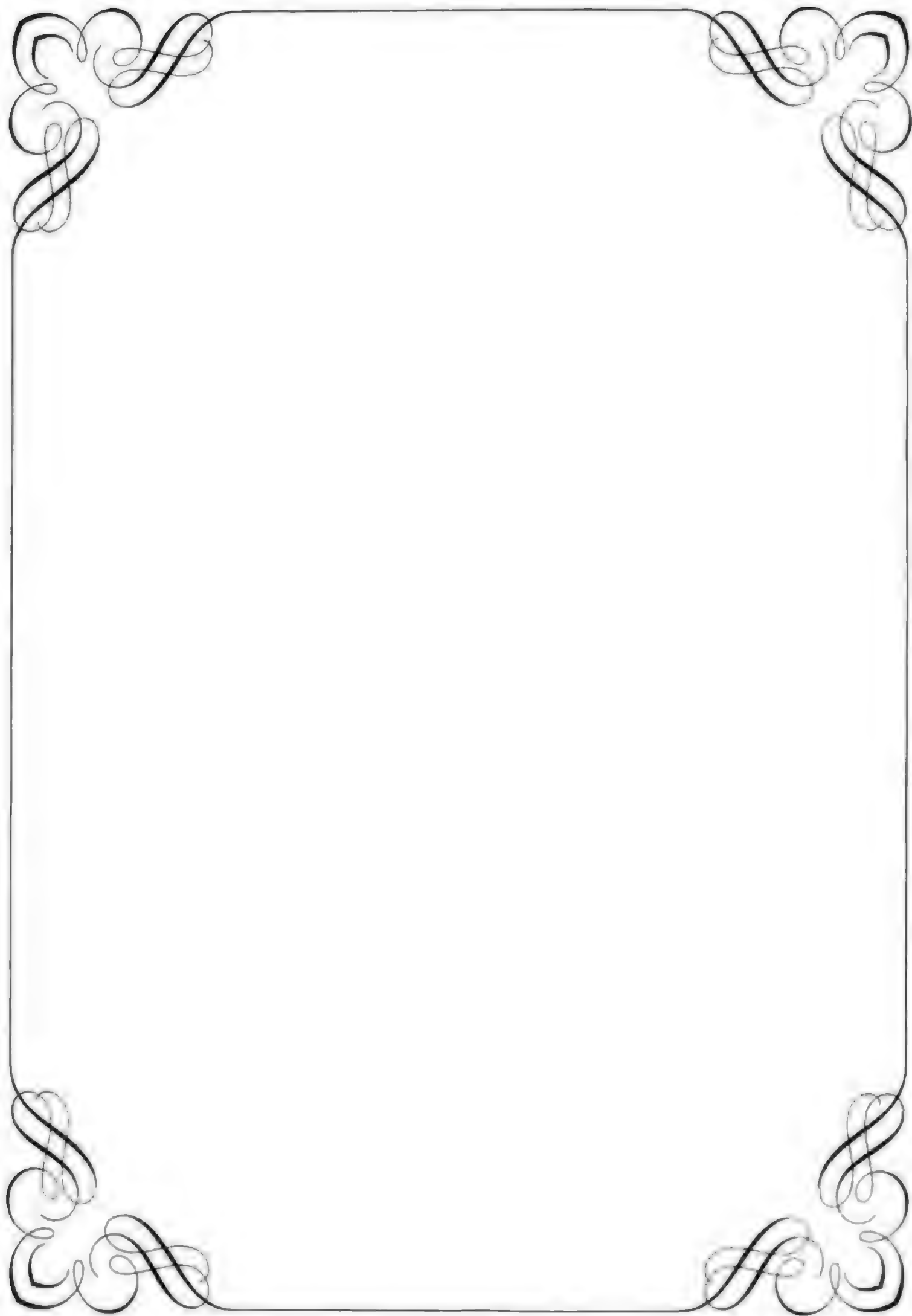
-
- (١) الشَّقِيقَاتُ : جمع شَقِيقَةٍ واحدة الشَّقَائِقُ التي تسمى شَقَائِقُ النِّعْمَانِ . هو وحيد وإن كان جماعة .
(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والمجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حد .
(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .

القسم الثاني

رموز نفي الذات

(أسرار بيخودي)





٢ - رموز بيخودي (أسرار نفي الذات)

باللغة الفارسيّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللُّغة الفارسيّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنّها في الحقيقة تفسر ، وتبيّن نفس النظرية ، وتعتبر التّمة اللّازمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلّد واحد بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات التي تعيش فيها .
وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ - الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة .

٢ - أركان الأمة الإسلاميّة .

أ - التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولاً أخرى للتمثيل .

ب - الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصّ قصصاً شتّى في

هذا الصَّدَد . وأن الأمة المحمّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدها مكان ، وأنّ الوطن ليس أساس الأُمّة ، وأنّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أُمّة محمد القرآن ، وأنّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدّب بالآداب المحمّدية .

٣ - حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلامية الحرم .
٤ - الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصد يقصد إليه ، ومقصد الأُمّة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ - توسيع حياة الأُمّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأُمّة أن تحسّ ذاتها كما يحسّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأُمّة .

٦ - بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ - السيدة فاطمة الزهراء أسوة كاملة لنساء الإسلام .

٨ - خطاب إلى المسلمات .

٩ - خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ - مناجاة المصنف الرّسول الذي بُعث رحمةً للعالمين .

وبيّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنّ « الوطن ليس أساس الأُمّة » فيقول : إنّ العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ، وبيّن كيف هجر النصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلّ حزب بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جمل الملك إلهاً دينه كلّ قبح ناله تحسّنه
وزن الحقّ برّبع وجدى ولدى الملك خنوعاً مسجداً

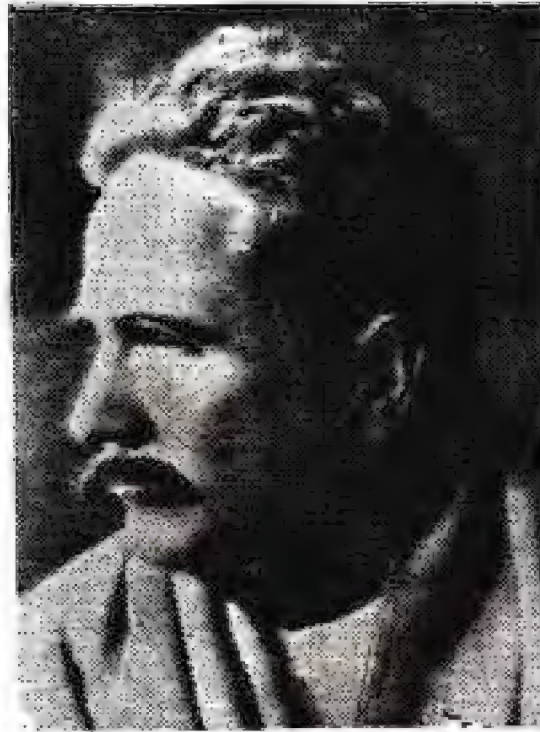
صَيَّرَ الحيلة فِتْنًا محكما

فَزَهَا الباطل مما أعلما^(١)

ويخاطب المرأة المسلمة :

احذري فتنة عصرٍ مهلك
يُعْدَتْ عَنْ عَشْهَافِي خَطِرٍ
فِيكَ تَسْمُو لِلْمَعَالِي فَطْرَةٌ
عَلَّ غَصْنًا مِنْكَ يَأْتِي بِحُسَيْنٍ

وإلى صَدْرِكَ ضَمِّي وَلَدَكَ
هَذِهِ الْأَفْرَاحُ ، لَا تَطِيرُ
فَاتَّبِعِي الزَّهْرَاءَ ، نَعَمَ الْأَسْوَدُ
فَتَرَى النُّصْرَةَ رَوْضَاتِ ذَوَيْنِ



(١) إقبال - للدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٣٧ .

جَدُّ بِنَفْسِي الذَّاتِ . لَا تَهَابُ
اجْتَهِدْ ، وَاللَّهُ يَهْدِيكَ الصَّوَابَ

(جلال الدين الرومي)



تمهيد

مهداة إلى الأمة الإسلامية

ليس بي حُرقة تكون بغير عُرْفِي^(١)
بك حقاً كل بدء خُتْمَا
وجريح القلب رقاء القلوب
وعن الكعبة أبعدت الشرى^(٢)
« من رنا الكون إلى طلعتها »^(٣)
« أين تبغين مُرادَ النَّظَرِ ؟ »^(٤)
وخذي عُشَّكَ بين الشرير
جددي العهد بحب المصطفى
حينما وجهك عندي أسفرا
واصف الطرّة منهم والجبين

إيه يا مُنْكَراً أحاديث عشقي
ختم الله إليك الأُمَمَا
كم تقى فيك كالرسل مُنِيب
لك طرفاً بالنصارى سُجْراً
يا من الأفلاك من هبوتها
سرت كال موج دُوب التفرير
كفراش في لظى الحب اصبري
أحكمي العشق بروح قد صفا
صحة النصاران قلبي هجرا
ورفيقي رهن حسن الآخرين

(١) ترجمة بيت لعرفي الشيرازي صدر به الشاعر هذه المقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحد إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟ !

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبة .

(٣) الأفلاك من الهبة التي أثمرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

مِدَّةَ السَّاقِي بِخَدَّيْهِ يَدُوسُ
وَأَنَا فِيكَ قَتِيلُ الْحَاجِبِ
أَنَا مَنْ نَظَمَ مَدِيحَ أَرْفَعُ
كَمْ مَرَايَا صُغْتُهَا مَنْ كَلِمِي
لَا تَرَى الْمَنَّةَ جِيدِي تَأْطِرُ
مُقَدِّمٌ فِي الدَّهْرِ مِثْلَ الْخُنْجَرِ
أَنَا فِي نَارِ الْحَيَاةِ الشَّرُّ
مَنْشَدًا قَصَّةَ غُلَامَانِ الْمَجُوسِ^(١)
وَتُرَابٌ فِي جِمَاكِ الْحَادِبِ
لَسْتُ مَثْنٍ لِأَمِيرٍ يَرْكَعُ
فَعَنِ إِسْكَندَرَ تَعْلُو هِمَمِي^(٢)
مَنْ زَهْوَرِ الرُّوْضِ حِجْرِي صَفِيرُ^(٣)
مَنْ قُلُوبِ الصَّخْرِ مَائِي أَمْتَرِي^(٤)
فِي ثِيَابٍ مِنْ رِمَادِي أَسْتَرُ

قَصَدْتُ بِأَبْكَ رُوحِي فِي خُشُوعٍ
إِنَّ فِي الزَّرْقَاءِ يَمًّا يَقْطُرُ
أَجْمَعُ الْقَطَرِ رِبْعًا جَارِيًا^(٥)
قَدْ حُيِّتَ الْحَبُّ مِنْ مَحْبُوبِنَا
قَذَفَ الْعَشْقُ بِقَلْبِي حُرْقًا
وَشَقَّقْتُ الصَّدْرَ ، كَالْوَرْدِ لَكَ^(٦)
فِي هَدَايَا مِنْ لَهَبٍ وَدَمُوعٍ
فَوْقَ قَلْبٍ لَا هَبٍ لَا يَفْتَرُ
وَالِي رَوْضِكَ أَزْجِي صَافِيَا
أَنْتِ قَلْبٌ قَدْ ثَوَى فِي صَدْرِنَا^(٦)
صَاغَ مِرَاةَ فَوَادِي الْمُحَرِّقَا
مُدْنِيًا مِرَاتَهُ مِنْ وَجْهِكَ

(١) يعني : أَنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر الحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدام الخانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إِنَّ فِي شِعْرِي مَرَايَا كَمَرَاةِ إِسْكَندَرَ ، فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا .

(٣) يعني : أَنَّهُ لَا يَجْنِي الزَّهْرَ فِي حَجَرِهِ بَلْ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَجْنِيَهُ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أَنَّ الْوَرْدَ يَمْزِقُ صَدْرَهُ حِينَ يَتَفَتَّحُ ، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ : إِنَّ الْعَشْقَ صَاغَ قَلْبَهُ =

لَتَنَالِي نَظْرَةً مِّن سِحْرِكَ وَتُرَى مَغْلُولَةً فِي شَعْرِكَ^(١)
ثُمَّ أَشَدُّ قِصَصاً مِّنْ أَمْسِكَ فَأَذْكَى حُرْقاً فِي نَفْسِكَ

أَسْأَلُ الْحَقَّ حَيَاةً تَحْصُفُ لِفَرِيْقٍ نَفْسَهُ لَا يَعْرِفُ
نَائِخٌ وَاللَّيْلُ سَاجٍ سَادِلٌ يَهْجَعُ النَّاسُ وَدَمْعِي هَاطِلٌ
تَصْطَلِي رَوْحِي بِحَزْنٍ وَالْمَ وَرَدُ « يَا قِيُومُ » أُنْسِي فِي الظُّلُمِ
أَمَلًا فِي الصَّدْرِ صَيَّرْتُ دَمًا لِيُرَى فِي أَدْمُعِي مُنْجَمًا
مَا احْتَرَا قِي كَشَقِيْقٍ أَبَدًا فِيمَ اسْتَجْدِي مِنَ الْفَجْرِ النَّدَى^(٢)
أَنَا كَالشَّمْعِ دَمَوْعِي غُسْلِي فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ أَذْكَى شُعْلِي
مَحْفَلُ النَّاسِ بِنُورِي يُشْرِقُ أَنْشُرُ الثُّوْرَ وَنَفْسِي أَحْرِقُ
مَا لِنَارِي فِي الْحَشَا مِنْ قَتْرَةٍ مَا بِأَسْبَوْعِي فَرَاغُ الْجُمُعَةِ^(٣)
إِنَّ رَوْحِي فِي سَحِيْقِ الْجَسَدِ آهَةٌ ثَوْبَ غِبَارٍ تَرْتَدِي^(٤)
مُذْ بَرَانِي الْحَقُّ فَجَرَ الْخَلْقَةِ زَلْزَلْتُ أَوْتَارَ عَوْدِي أَتْنِي
أَنْتَ لِلْعِشْقِ نَفْسِي سَرَّةٌ آهَةٌ فِي الْعِشْقِ تُذْكَى جَمْرُهُ
تَجْعَلُ الْعَصْفَ لَهِيَاءً يُحْرِقُ وَفَرَاشاً مِّنْ تَرَابٍ تَخْلُقُ^(٥)

مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرأة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

- (١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .
- (٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا استجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .
- (٣) أيامه كلها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .
- (٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .
- (٥) تجعل العصف - وهو الهشيم ضعيف اللهب - ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

ولله وردةٌ وجيدٌ تستعزُّ
في سُبَاتٍ منك أذكى حشرِك
وبأنفاسك أرواحَ الرِّيبِغِ

في ضمير العِشْقِ وَشَمَّ كالشَّقَرِ
هذه الوردة أحَبُّو صَدْرِك
لأرى في تُربِكِ الروضَ الينبِغِ

في معنى ارتباط الفرد والأمة

كاملٌ جوهرُهُ في المِلَّةِ
في ذُرَا الأحرارِ كنْ مثلَ الشعاعِ
كلُّ شيطانٍ منَ الجمعِ نفرُ
وكذا مرآتها صورتهُ
أو نجومٌ تتجلى في النَّهَرِ^(١)
ومن الأفراد نظم الأمة^(٢)
كان كالقطرة صارت خضرمًا
والتقى الغابرُ والآتي به
وقته لا ينتهي كالأبدِ
وهو بالأمة سعي رابحُ
سرُّه من قومهِ والعَلَنُ
ومن الأسلاف يقفوا طُرُقًا
فتراه الفردَ وهو الأمةُ
وهي ، بالوحدة فيه ، وحدة^(٣)

رحمةٌ للفردِ حِجْرُ الأُمَّةِ
فألزَمَ الجمعَ جهدَ المستطاعِ
واخفَظَنُ ما قاله خيرُ البشرِ :
فَرَدْنَا مرآته أمتهُ
وهمما سِلْكُ نظامٍ ودُرَرْ
قيمةُ الأفرادِ جدوى المِلَّةِ
وإذا الواحدُ في الجمعِ نما
جُمِعَ الماضي له في لُبِّهِ
صلةُ الأمسِ تراه والغدِ
هو بالأمة قلبٌ طامحُ
روحهُ من قومهِ ، والبدنُ
بلسانِ القومِ يشدو منخلقها
تُنضِجُ الفطرةَ فيه الضُّحْبَةُ
تُحكِمُ الوحدةَ فيه الكثرةُ

(١) نهر المجرة .

(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمة عليها .

(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي =

أَفَرِدَ اللَّفْظُ مِنَ الْبَيْتِ تَرَى جَوْهَرُ الْمَعْنَى لَدَيْهِ انْكَسَرَا^(١)
تَسْقُطُ الْأَوْرَاقُ مِنْ غَصَنِ يَنْبِعِ فَتُرَى مُحْرَمَةً وَصَلَ الرَّيِّغُ
طَفَّتْ أَنْعَامُ أَعْوَادِ غِنَاءِ فَاتَهَا مِنْ زَمَزَمِ الْأُمَّةِ مَاءِ
يُحَرِّمُ الْفَرْدُ الْوَحِيدُ الْمَقْصِدَا فَتُرَى نَظْمَ قُوءِ بَدَا
نَشَاتُ بِالْقَيْدِ حَرًّا مَظْلَقَا فِيهِ تَجْبُوهُ عَظِيمَ الْهَمَّةِ
ظَلِيهِ الْوُثَّابُ مِسْكَاً يَعْجِقُ أَثْبَتَتْ فِي الْأَرْضِ سَرُوءاً بَسَقَا^(٢)
أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ «خُودِي» مِنْ «بِيخُودِي» إِنَّ حَوَاهُ مِنْ نَظَامٍ وَهَقَ^(٣)
إِنَّ فِي طِينِكَ نُورًا قَدْ بَدَا أَنْتَ لَا رَيْبَ مِنَ الشُّكِّ رَدِّي^(٤)
كُلُّ غَمٍّ وَرَضًا مِنْ دَوْرَتِهِ بِشِعَاعٍ مِنْهُ أَبْصَرْتَ الْهَدْيَ^(٥)
أَنْتَ مِنْهُ أَنْتَ حَقًّا ، وَأَنَا أَنْتَ حَيٌّ بِتَوَالِي ثَوْرَتِهِ
يَخْلُقُ النَّفْسَ وَيَذَرُ وَيُقَرِّرُ أَنَا وَهُوَ الْفَرْدُ لَا يَرْضَى ثَنَا^(٦)
ذُو دَلَالٍ فِي خَضُوعٍ مُسْتَرٍ^(٧)

إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

- (١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .
- (٢) قيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبد بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتتمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .
- (٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيبه .
- (٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أن الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .
- (٥) يعني : الذاتية .
- (٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يشئ .
- (٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويشئها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يَأْسِرُ الشَّعْلَةَ هَذَا الشَّرُّ
 حَرَّةٌ رَهْنٌ قِيُودِ فِطْرَتِهِ
 لِكِفَاحِ دَائِمٍ تَنْزُوقُوهَ
 يَسْتَشِيرُ الْحَرْبَ فِي جَلْوَتِهِ
 يَقْطَعُ الْجَبْرَ عَلَيْهِ الطَّرْقَا
 تَتَشَقَّى الذَّاتُ فِي أَمْتِهَا
 نَكْتَةً خَذَهَا بِكَفِّ مَخْدَمٍ
 لَهَبٌ مِنْ حَرِّهِ مُسْتَعْرِ^(١)
 جَزْؤُهُ بِالْكُلِّ حَاطَتْ قُوَّتُهُ
 هُوَ يُسَمَّى الذَّاتَ أَوْ يُسَمَّى الْحَيَاةَ
 حِينَ يُبْدِي النَّفْسَ مِنْ خَلْوَتِهِ^(٢)
 وَلَهُ بِالْحَبِّ فَرْعٌ سَمَقَا^(٣)
 لَتُرَى الرُّوضَةَ مِنْ زَهْرَتِهَا^(٤)
 « وَانْصَرَفَ عَنِّي إِنْ لَمْ تَفْهَمْ »^(٥)

فِي مَعْنَى أَنَّ الْمَلَّةَ تَنْشَأُ مِنْ إِخْلَاصِ الْأَفْرَادِ وَأَنَّ تَكْمِيلَ تَرْبِيَّتِهَا بِالنَّبَوَّةِ

مَا ارْتِبَاطُ الْجَمْعِ ، أَيْ يَوْصَفُ ؟
 إِنَّا نَبْصُرُ فَرْدًا فِي الْجَمِيعِ
 فِطْرَةٌ تَنْهَجُ نَهْجَ الْوَحْدَةِ
 كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ ائْتَلَفَا
 لَقَّاهُمْ فِي عَيْشِهِمْ مَعْتَرَكُ
 قِصَّةٌ أَوَّلُهَا لَا يُعْرِفُ
 زَهْرَةٌ نَقْطَفُ فِي هَذَا الرَّيِّعِ^(٦)
 إِنَّمَا تَزْهَرُ وَسَطَ الرُّوضَةِ
 مِثْلَ دُرٍّ فِي سُمُوطِ أَلْفَا
 كُلُّ فَرْدٍ بِأَخِيهِ مُمَسِّكُ

- (١) شَرُّ صَغِيرٌ ، وَلَكِنَّهُ كَبِيرٌ فِي مَعْنَاهُ يَقْوَى عَلَى الشَّعْلَةِ الْكَبِيرَةِ .
- (٢) يَظْهَرُ مِنْ خَلْوَتِهِ أَيْ يَبْدُو فِي الْكَوْنِ فَيُشِيرُ حَرْبًا هِيَ جِهَادُ الْحَيَاةِ الدَّائِمِ .
- (٣) الْجَبْرُ وَالْإِكْرَاهُ يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَهُوَ بِالْحَقِّ وَالْإِخْتِيَارِ يَنْمُو وَيَعْظُمُ .
- (٤) تَفَرَّقَ الذَّاتُ نَفْسَهَا فَتَنْمُو مِنْ زَهْرَتِهَا رَوْضَةً ، أَيْ : تَعْظُمُ وَتَكْثُرُ بِهَذَا التَّفَرِيقِ .
- (٥) هَذَا الشَّطْرُ مِنَ الْمَشْتَوِيِّ لِجَلَالِ الدِّينِ الرَّومِيِّ .
- (٦) مَذْهَبُ إِقْبَالٍ أَنَّ غَايَةَ الْجَمَاعَةِ سَعَادَةُ الْفَرْدِ ، وَأَنَّ الْفَرْدَ لَا يَفْنَى مِنْ أَجْلِ الْجَمَاعَةِ .

مَنْ جَذَابٍ تَتَوَالَى الْأَنْجَمُ كَوْكَبٌ مِنْ كَوْكَبٍ مُسْتَحْكِمٌ

كَانَ رَكْبُ النَّاسِ مَأْوَاهُ الْجِبَالُ
نَسَجُهُ مَا أُخْكِمَتْ لُحْمَتُهُ
عَوْدُهُ مَا بَلَاحُونَ رَنَّمَا
لَمْ يُثْرِهِ مِنْ رَجَاءٍ مُضْرِبِ
مُحْفَلٍ غُفْلٍ حَدِيثِ الْمَوْلِدِ
لَمْ يُرْعَرْغْ فِي ثَرَاهُ نَجْمُهُ
فَكَّرَهُ دَارٌ لَغِيْلَانِ الْخِيَالِ
ذُو وَجُودٍ ضَيِّقٍ مِيدَانِهِ
طِينُهُ مِنْ خَيْفَةٍ قَدْ خُلِقَا
رَوْحُهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ تَهْرُبُ
كُلُّ مَا يَنْمُو بِأَرْضٍ يَقْطِفُ

وَمَرْوُجٌ وَسُهْرُوبٌ وَرَمَالُ
فِكْرُهُ مَا فُتِّحَتْ زَهْرَتُهُ
لَحْنُهُ لَمَّا يُؤَلَّفُ نَغْمَا
لَمْ يَخْزِهِ بِزَبَانِي مَطْلَبِ^(١)
جَامُهُ مِنْ خَمْرِهِ غَيْرِ نَدِي^(٢)
كَرْمُهُ مَا فَارَ فِيهِ دُمُهُ^(٣)
خَائِفٌ مِنْ وَهْمِهِ فِي كُلِّ حَالِ
قَدْ أَحَاطَتْ فِكْرَهُ جُودَانُهُ
قَلْبُهُ مِنْ قَصْفِ رِيحٍ خَفَقَا
يَدُهُ فِي أَرْضِهِ لَا تَضْرِبُ
كُلُّ مَا تَرْمِي سَمَاءً يَلْقَفُ

ثُمَّ يَهْدِي اللَّهُ ذَا قَلْبٍ بِصِيرِ
عَازِفٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ يَنْفُثِ
تَقْبِسُ الذَّرَّةَ مِنْ أَنْوَارِهِ
يَنْشُرُ الْأَنْفَسَ مِنْهُ نَفْسُ

يَكْتُبُ الْأَسْفَارَ مِنْ حَرْفٍ يَسِيرِ
وَحَيَاةً فِي مَوَاتٍ يَعْثِ
كُلُّ قَدَرٍ حَالٍ فِي مَعْيَارِهِ^(٤)
بَشْعَاعٍ مِنْهُ يُزْهِى مَجْلِسُ

(١) المضروب ما يضرب به أوتار العود .

(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .

(٣) النجم : الثبت الذي لا ساق له .

(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفةٌ تُحيي وعينٌ تجذبُ
يَهَبُ النَّاسَ جَدِيدَ النَّظَرِ
فَتَرَى الْأُمَّةَ مِنْهُ سَائِرَهُ
شَرَّراً فِي قَلْبِهَا قَدْ أَشْعَلَا
سِيرُهُ يَعْطِي التَّرَابَ الْبَصَرا
عَارِيَّ الْعَقْلِ بِجَدْوَاهِ كَسَا
يَنْفُخُ الْجَمْرَةَ فِي مَوْقِدِهِ
وَيَفْكَ الْعَبْدَ مِنْ أَغْلَالِهِ
قَائِلاً أَنْ لَسْتُ عَبْدًا فَاعْلَمْ
يَجْذِبُ الْإِنْسَانَ شَطْرَ الْمَقْصَدِ
نَكْتَةُ التَّوْحِيدِ يُوْحِيهَا إِلَيْهِ

وَحَدَا الْأَشْتَاتَ هَذَا عَجَبٌ^(١)
يَجْعَلُ الْبَيْدَ كَرَوْضٍ نَضِرٍ^(٢)
بِلَهَيْبٍ مِنْهُ حَرَّى ثَائِرِهِ
فَأَحَالَ الطَّيْنَ فِيهَا شُعْلَا
فَإِذَا الذَّرَّةُ سَيْنَاءَ تَرَى^(٣)
وَهَبَ الثَّرْوَةَ هَذَا الْمَفْلِسَا^(٤)
وَيَذِيبُ الْغَيْثَ مِنْ عَسْجَدِهِ^(٥)
وَيُجِيرُ الْقِنْنَ مِنْ أَقْبَالِهِ
أَتَرَى قَدْرَكَ دُونَ الصَّنَمِ^(٦)
جَاعِلَ الشَّرْعِ زَمَاماً فِي الْيَدِ
أَدَبَ الطَّاعَةِ يَمْلِيهِ عَلَيْهِ^(٧)

(١) كلامه ونظيره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفسٍ واحدة .

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .

(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .

(٤) العقل عريان مفلس حتى يمدّه الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .

(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .

(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .

(٧) يقيده بالشرعية ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فتري الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأُمَّة الإسلامية

الركن الأول : التوحيد

قاده التَّوْحِيدَ شَطَرُ الْمَنْزِلِ
زورقُ الْفِكْرِ أَضَلُّ السَّاحِلِ
رَمَزُ تَوْحِيدِ لِقَلْبٍ يُبْصِرُ^(١)
فِيَجْلِي لَكَ سِرّاً أُغْفِلُ
وَيُرى الأَيْدُ بِهِ وَالْمُكْنَةُ
وَتَجْلِي عَملاً فِي الْعَاشِقِينَ
وَيَصِيرُ الثُّرْبُ تَبْراً يَسْطَعُ
فِيَرُدُّ الْعَبْدَ خَلْقاً آخِراً
دُمُهُ كَالْبَرْقِ فِيهِ لَاهِبُ
عَيْنُهُ فِي الْكَوْنِ يَقْظِي تَعْمَلُ
جَرَّةُ السَّائِلِ تُصْبِخُ جَامَ جَمِ^(٢)
« لَا إِلَهَ » اللَّحْنُ فِي نَعْمَتِنَا^(٣)
« لَا إِلَهَ » السَّمْطُ مِنْ أَفْكَارِنَا
كُلُّ قَلْبٍ لَمْ تُبْرِزْهُ ، مَدْرُ
وَيُضِيءُ الْقَلْبُ مَنْ وَقَدْتَهَا
تَصْهَرُ الْمِرْآةُ مِنْهُ فِي الْخُرُورِ

طَوَّفَ الْعَقْلَ بِدُنْيَا الْعِلَلِ
أَعْوَزَ الْمَنْزِلُ هَذَا السَّابِلِ
فِي « آتِي الرَّحْمَنُ عَبْدًا » مُضْمَرُ
يَبْتَلِي التَّوْحِيدُ فِيكَ الْعَمَلِ
يُشْرِقُ الدِّينُ بِهِ وَالْحَكْمَةُ
قَدْ تَجْلِي حَيْرَةً لِلْعَالَمِينَ
يَرْتَقِي فِي ظِلِّهِ الْمَتَّضِعُ
يَجْتَبِي التَّوْحِيدُ عَبْدًا ثَابِرًا
فَهُوَ فِي الْحَقِّ حَيْثُ دَائِبُ
رَبِّهِ يَفْنَى وَيَحْيَا الْعَمَلِ
فِي « مَقَامِ الْعَبْدِ » إِنْ تَبَيَّنَ قَدَمُ
« لَا إِلَهَ » الرُّوحُ فِي أَمْتِنَا
« لَا إِلَهَ » السِّرُّ فِي أَسْرَارِنَا
صَارَ قَلْبًا إِنْ حَوَاهَا حَجَرُ
يَتَلْظَى الْكَوْنُ مِنْ زَفَرَتِهَا
وَتُسِيلُ الْقَلْبُ مَاءً فِي الصَّدُورِ

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده يتقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جشميد .

(٣) تقدّم أن « لَا إِلَهَ » اختصار كلمة التوحيد .

شعلةً في روحنا مثلُ الشَّقيق
يَبْضُ التَّوْحِيدُ مُسَوِّدُ البَشَرِ
ليس إلا القلبُ قَرَبٌ وابتعادُ
وحدة القلبِ قِوَامُ الأُمَّةِ
قد هدى الأُمَّة سُبُلَ العملِ
نَزَعَةٌ واحدةٌ في قلبها
لا يُجيدُ الفكرُ في قِيَّامه
نحن في الإسلام أبناءُ الخليلِ
أُمَمٌ قد عَبدتْ أوطانها
أَتَرى الأوطانَ أصلَ الأُممِ
إنَّما الأنسابُ فخرُ الشُّفهاءِ
ضَمَمْنَا في الحقِّ أَسْرَ آخِرِ
قد خلصنا من حدودٍ وقيودِ
ضَمَمْنَا ، كالزهر ، نظمَ مضمُرُ
وَحَدَ الرئيِّ لنا والفكرةُ
نحن فكرٌ وخيالٌ واحد
نحن من نعمائه جِلْفُ إخاءِ

كُلُّ ما نمتاره منها الحريقُ
فأبو بكرٍ أخوه وعمرُ
وهذه الكأسُ بها هاجَ الفؤادُ
أشرقَت سِنياءُ من ذي الجلوةِ
هذه الفكرُ بها والأملُ
فَعِيارُ الحُسْنِ والقُبْحِ بها
دونَ نارِ الحقِّ في أوتاره^(١)
من « أبيكم » خذ إذا شئتَ الدَّلِيلَ^(٢)
وبنتَ من نَسَبِ بنيانها
تُعَبِّدُ الأرضُ بها كالصَّنمِ؟
حُكْمها في الجسمِ ، والجسمُ هَبَاءُ
هو في الأبوابِ مِنَّا مُضْمَرُ
قلبنا في الغيبِ إذ نحن شهودُ^(٣)
بصرٌ ليس يراه مُبْصَرُ^(٤)
كسْهامِ جمعتها جَعْبَةٌ^(٥)
ورجاءٌ ومآلٌ واحدُ
قلبنا والرُّوحُ واللفظُ سواءُ

- (١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقه الإيمان .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ قِيلَ أَيُّكُمْ أَتَزَاهِيَةٌ ﴾ [الحج : ٧٨] .
(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة
بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .
(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .
(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث^(١)
 وقاطعاتُ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءً هذه
 العلل الخبيثة

عُدَّة الموت قُتُوْطٌ مُّحْبَطٌ	والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا » ^(٢)
إنما العيشُ رجاءٌ يُوصَلُ	فقنوطُ الحيِّ سَمٌّ يَقْتُلُ ^(٣)
يأسُك القبر إليه ترجع	إن تكن ألونْدَ فهو المصرع ^(٤)
رُبَّت الخبيثة في أكنافه	ونما العجز على الطافه ^(٥)
أه من نوم الحياة المُخْدِرِ	إنَّه آيةٌ ضعفِ العنصر
كحلُّه في العين يُعمي البصرا	ويردُّ الضُّبْحَ ليلاً أكْدرًا ^(٦)
نفسٌ منه سَمُومٌ للحياه	كلُّ ينبوعٍ به جفٌّ ثراه
وهو للغمِّ حليفٌ واصلٌ	إنَّما الغمُّ لحيٍّ قاتِلٌ
يا سجينَ الغمِّ أبصر واسمع	من رسول الله « لا تحزن » وعي ^(٧)
ذلك النُّصح سرى في قلبه	فغدا الصَّدِيقُ صَدِيقاً به
نما المسلم مثل الكوكب	باسمٍ في سعيه والذَّابِ

- (١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .
 (٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .
 (٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .
 (٤) ألونْد : جبل عال مشرف على مدينة همدان يعني : إن تكن كجبل ألونْد في اليأس مصرعك .
 (٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخبيثة ، ويفضله ينمو العجز .
 (٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .
 (٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

إِنَّ عَرَفْتَ اللَّهَ ، أَغْلَالَ الطَّمَعُ
 وَزَدَ « لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ » فَاقْرَأَنَّ^(١)
 حِينَ يَمْضِي نَحْوَ فِرْعَوْنَ كَلِيمٍ^(٢)
 وَهُوَ لِلْأَحْيَاءِ قَطْعُ السُّبُلِ
 وَتَرَى الْمَقْدَامَ مِنْهُ حَذِيراً
 حَرَمْتَهُ مِنْ تَجْلِيهَا الْحَيَاةُ
 يَدُ سُئِلَتْ وَقَلْبٌ يَرْجُفُ
 يَسْلُبُ الرَّأْسَ قُوَى أَفْكَارِهَا
 هَانَ كَالْوَرْدِ ، عَلَيْهِ قَطْفُكَ
 عَيْنُهُ فِيكَ حَسَامٌ لَا يَدِي^(٣)
 مِنْ عُبَابٍ مَائِجٍ فِي دَهْرِنَا
 فَمَنْ الْخَوْفُ تَنْدَى وَتَرُكُ
 وَيَهْرُ اللَّحْنُ آفَاقَ السَّمَاءِ
 أَصْلَهُ الْخَوْفُ ، إِذَا مَا تُبْصِرُ
 مِثْلَ مَيِّمِ الْمَوْتِ قَلْبٌ أَظْلَمَا^(٤)
 أَدْنَاهُ تَدْلِيْسُ أَخْبَارِ الْحَيَاةِ^(٥)
 وَنَفَاقُ الْقَلْبِ مِنْهُ يَوْرَقُ

حَرَّرَ النَّفْسَ مِنَ الْغَمِّ وَدَعَّ
 قُوَّةَ الْإِيمَانِ تُحْيِي فاعْلَمَنَّ
 قَلْبُهُ مِنْ « لَا تَخَفْ » قَلْبٌ سَلِيمٌ
 خَوْفٌ غَيْرِ اللَّهِ قَتْلُ الْعَمَلِ
 وَبِهِ الْعِزُّ يَخَافُ الْغِيْرَا
 مِنْ نَمَاذَا الْبَذْرِ يَوْمًا فِي ثَرَاةٍ
 فَهُوَ فَسْلٌ وَهُوَ شَادٍ يَغْرِفُ
 يَسْرِقُ الرَّجُلَ قُوَى تَسْيَارِهَا
 إِنَّ تَجَلَّى لَعَدُوَّ خَوْفُكَ
 سَيْفُهُ يَزْدَادُ فَتْكَأُ فِي الْيَدِ
 غَلْنَا الْخَوْفُ ، وَكَمْ فِي بَحْرِنَا
 إِنَّ أَبَى النَّعْمَةِ يَوْمًا مِزْهَرُكَ
 فَاعْرُكِ الْأَذْنَ يَثُرُ فِيهِ الْغَنَاءُ
 كُلُّ شَرٍّ فِي فَوَادٍ يُضْمَرُ
 مِنْ دِيَارِ الْمَوْتِ عَيْنٌ قَدِمْهَا
 عَيْنُهُ تَلْيِيْسُ آثَارِ الْحَيَاةِ
 يُزْهَرُ الْخَبْتُ بِهِ وَالْمَلِيقُ

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىٰ آتَاءَ اللَّهِ لَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .
- (٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .
- (٣) لا يؤدي دية من قتله .
- (٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .
- (٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثوبه للزُّور سترٌ والريِّبُ
حُرِّمَ الخوفُ طُمُوحَ الهَمَّةِ
كُلُّ مَنْ يَفْقِدُ سِرَّ المِصْطَفَى
حَجَرُهُ الفِتْنَةُ فِيهِ وَالْحَرْبُ
فَهُوَ خَدَنٌ لِحَلِيفِ الذَّلَّةِ
يَجِدُ الإِشْرَاكَ فِي الْخَوْفِ اخْتَفَى

محاورة السَّهم والسَّيف

قال سهمٌ مرهفٌ يومَ الرُّحَامِ
يا مَنْ الجَنَّةُ فِي أعْطَافِهِ
خَالِداً صَاحِبَتْ يَفْرِي الفِيلَقَا
نَارُ قَهْرِ اللَّهِ فِي جَوْهَرِكَ
إِنِّي فِي الْجَوِّ أَوْ فِي جَعْبَتِي
وَإِذَا الْقَوْسُ رَمَتْنِي لِلثُّبُورِ
إِنْ خَلَا الصَّدْرُ مِنَ الْقَلْبِ السَّلِيمِ
نَقَذَ النَّصْلَ خِلَالَ الْأَعْظَمِ
وَإِذَا حَلَّاهُ قَلْبٌ مُؤْمِنٌ
ذَابَ رُوحِي مِنْ فَوَادٍ وَقَدْ

قال للسيف وللحرب ضرامٌ
ذو الفقار العُضْبُ مِنْ أَسْلَافِهِ (١)
وَعَلَى الشَّامِ نَثَرَتِ الشُّفْقَا (٢)
جَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ مَأْوَى ظُلُكَا !
حَيْثَمَا كُنْتُ ، بِجِسْمِي شُعْلَتِي
بَصُرْتُ عَيْنِي بِأَحْنَاءِ الصُّدُورِ :
مَا بِهِ يَأْسٌ وَلَا خَوْفٌ مُقِيمٌ
فَكَسَوْتُ الْجِسْمَ دِرْعاً مِنْ دَمٍ
نُورُهُ الظَّاهِرُ مِمَّا يُبْطِنُ
وَهَمِّي نَصْلِي كَقَطْرَاتِ النَّدى

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

السُّلطان عالمكير والأسد^(١)

إِنَّ عَالْمَكِيرَ عَالِي الْمَنْزِلِ مِنْ بَنِي تِيمُورِ فَخْرِ الدُّوَلِ
 كَانَ لِلْإِسْلَامِ مِنْهُ عِزَّةٌ وَلِحُكْمِ الشَّرْعِ فِيهِ حُرْمَةٌ
 آخَرُ الْأَسْهَمِ فِي جُعْبَتِنَا فِي ذِيَادِ الْكُفْرِ عَنْ مِلَّتِنَا
 غَرَسَ الْإِلْحَادَ فِينَا أَكْبَرُ فَنَمَا فِي طَبْعِ دَارِ يُزْهِرِ^(٢)
 وَخَبَا فِي الصَّدْرِ مَصْبَاحُ الْفَوَاذِ وَبَدَتْ أَمْتِنَا رَهْنَ فُسَادِ
 فَتَوَلَّى الْهِنْدَ فِي ذِي الْمَحْنَةِ زَاهِدُ رَبِّ حَسَامٍ مُصَلَّتِ
 اجْتَبَاهُ الْحَقُّ لِلدِّينِ الْمَيِّينِ اجْتَبَاهُ أَجَلَ تَجْدِيدِ الْيَقِينِ
 أَحْرَقَ الْإِلْحَادَ مِنْ بَرَقِ الْحُسَامِ وَأَنَارَ الدِّينَ فِي هَذَا الظَّلَامِ
 حَرَّفَ الْجُهَّالُ عَنْهُ مَا جَرَى فَكُرَّهُمْ عَنْ قَصْدِهِ قَدْ قَصَّرَا
 كَانَ إِبْرَاهِيمُ بَيْتَ الصَّنَمِ فِي لُظَى الْحَقِّ فَرَاشاً يَرْتَمِي
 كَانَ فِي الْأَمْلَاكِ فَرْداً خَيْرَا زَهْدُهُ مِنْ قَبْرِهِ قَدْ ظَهَرَ^(٣)

- (١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩ هـ إلى سنة ١١٤٨ هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .
- (٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دين سماه الدين الإلهي ، وكان يتقرب إلى الهنالك ، ويرعى شعائهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .
- (٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجته . فلما ولي عالمكير لم يبق لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجته في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً سادجاً .

ذَا كَم الْمَلِكُ الْفَقِيرُ الْجَاهِدُ
سَارَ صَبْحاً مُوْغِلاً فِي غَيْضَةٍ
فِي نَسِيمِ الصَّبْحِ نَشْوَانٌ خَطَرُ
وَأَمَحَى السُّلْطَانُ فِي شَوْقِ الصَّلَاةِ
وَأَتَى لَيْثٌ مَهِيْبٌ فِتْكَ
شَمِّ رِيحِ الْإِنْسِ بَعْدَ فِدْنَا
فَإِذَا الْخَنْجَرُ مِنْهُ فِي الْيَدِ
لَمْ يَفْزَعْ قَلْبُهُ بِالْبَغْتَةِ
ثُمَّ لِلْحَقِّ دَعَاةُ الْوَلَاةِ
مِثْلُ ذَا الْقَلْبِ الَّذِي لَمْ يَهِنْ
إِنَّمَا الْعَبْدُ أَمَامَ الْحَقِّ « لَا »
أَيُّهَا الْغَافِلُ ! قَلْباً حَصُلاً
ابْذُلِ النَّفْسَ تَنْلُهَا لَا مَفْزَ
أَحْرِقْ بِالْعَشْقِ خَوْفاً وَانْهَذَا
إِنَّ خَوْفَ اللَّهِ إِيْمَانٌ جَلِي

زِينَةُ الْعَرْشِ الْمَلِيكِ الْمَاجِدِ^(١)
مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ ذُو ثَقَّةٍ
سَامِعاً تَسْبِيحَ طَيْرٍ فِي الشَّجَرِ
مِنْ مَجَازِ حَتٍّ لِلْحَقِّ خُطَاهِ
صَوْتُهُ يَرْعَدُ مِنْهُ الْفَلَكُ
وَعَلَى السُّلْطَانِ أَهْوَى الْبُرْتَنَا
بَاقِراً كَالْبَرْقِ بَطْنِ الْأَسَدِ
خَالَ لَيْثُ الْغَابِ لَيْثُ الصُّورَةِ^(٢)
فِي صَلَاةِ الْوَجْدِ مَعْرَاجٌ لَهُ^(٣)
دَارُهُ بِالْحَقِّ صَدْرُ الْمُؤْمِنِ
وَهُوَ لِلزُّورِ « نَعَمْ » لَنْ يَبْطُلَا^(٤)
هَبْنِ لِلْحَبِّ هَذَا الْمَحْمَلَا^(٥)
ذَلٌّ لِلْحَقِّ تَنْلُ عِزَّ الدَّهْرِ
حَمَلًا فِي الْحَقِّ لَيْثًا لِلْعِدَى
ثُمَّ تَقْوَى غَيْرِهِ شَرَكُ خَفَى



-
- (١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورثك زيب) .
(٢) توهم الليث صورة ليث .
(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرة أخرى .
(٤) العبد لدى مولاه يقضى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العريَّان « لَا » ، و« نَعَمْ »
في الأصل .
(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثاني

الرسالة

تَارِكُ الْآفِلِ ، مِنْ قَبْلِ الْخَلِيلِ
إِنَّهُ لَهَّ فِينَا آيَةً
﴿ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾ إِلَيْهِ أَنْزَلَا
قَفَرَةً مِنْ أَجَلْنَا قَدْ عَمَّرَا
﴿ تَبَّ عَلَيْنَا ﴾ نَضَّرَتْ زَهْرَتَهَا
صَوَّرَ الرَّحْمَنُ مَنَا هَيْكَلَا
أَحْرَفْنَا كُنَّا وَلَسْنَا كَلِمَا
بِالرَّسَالَاتِ بَدَا تَكْوِينُنَا
ذَاكَ مَنْ « يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يَرِيدُ »
حَلَقَةً ذَاتُ مَحِيطٍ يُعْجَزُ
نَحْنُ مَّمَّا جَمَعْتَنَا أُمَّةُ
مَوْجُنَا فِي بَحَرِهَا مَتَّصِلُ
أُمَّةٌ فِي حَرَزِ سُورِ الْحَرَمِ

هُوَ لِلرُّسُلِ عَلَى النَّهْجِ دَلِيلُ
رُيِّتُ فِي قَلْبِهِ ذِي الْمَلَّةِ
بَعْدَ سَيْلٍ مِنْ دَمَوَعِ سَيْلَا^(١)
وَبَنَى الْبَيْتَ الَّذِي قَدْ طَهَّرَا
فَنَمَتْ فِي أَرْضِنَا رَوْضَتُهَا^(٢)
وَحَبَّاهُ الرُّوحَ مَمَّا أَنْزَلَا
فَتَأَلَّفْنَا كَيْتَ نَظْمَا
شَرَعْنَا مِنْهَا وَمَنْهَا دِيْنُنَا
حَلَقَةً مِنْهَا حَوَالِينَا يَشِيدُ^(٣)
سَاحَةَ الْبَطْحَاءِ فِيهَا مَرْكَزُ^(٤)
أَرْسَلْتُ لِلنَّاسِ فِيهَا الرَّحْمَةَ
مَوْجَةً مِنْ مَوْجَةٍ لَا تُفْصَلُ
فِي حِفَاطٍ مِثْلَ أَسَدِ الْأَجَمِ^(٥)

- (١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .
- (٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .
- (٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاهُ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .
- (٤) بطحاء مكة .
- (٥) إشارة إلى بيت البردة :
- أَحَلُّ أَمْنِهِ فِي حَرَزِ مَلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجَمِ =

إِنْ تَحَقَّقَ مَعْنَى فِي كَلِمِي
فَالنَّبِيُّ الرُّوحُ فِينَا وَالْعَصَبُ
سِفْرُهُ فِي الْقَلْبِ نَبْعُ الْقُوَّةِ
قَطْعُ حَبْلٍ مِنْهُ لِلْمَوْتِ رَدِيفُ
حَيَاتِ الْأُمَّةِ مِنْ تَرْيَاقِهِ
وَحَدَّ الْمُرْسَلِ فِينَا النِّعْمَا
كَثْرَةُ الْأَلْفِ عَيْنِ الْوَحْدَةِ
وَحَدَّةُ الْقَصْدِ حَيَاةُ الْكَثْرَةِ
عَلَّمَ الْفِطْرَةَ خَيْرُ الرُّسُلِ
بِحَرْهُ أَخْرَجَ هَذَا الْجَوْهَرَ
هَذِهِ الْوَحْدَةُ مَا لَمْ تَفْقَدْ
خَتَمَ اللَّهِ عَلَيْنَا شِرْعَتَهُ
مَحْفَلُ الْأَيَّامِ مِنْهَا يَسْمُ
خِدْمَةُ السَّاقِي إِلَيْنَا صَرْفَا
« لَا نَبِيَّ بَعْدُ » فَضْلٌ عُرفَا
إِنَّهُ قُوَّةٌ هَذِي الْمَلَّةُ
كُلُّ دَعْوَى بَعْدَهَا لِلْأَفْنِ
مَا سِوَى الْحَقِّ قِلَاهُ الْمُسْلِمُ

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا اتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعينَا لطاعته بأكرم الرسل كنَّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

نظرة الصَّدِّيقِ رَبِّ الْفَهْمِ
وَالِى الْقَلْبِ مِنَ الرَّبِّ أَحَبُّ
شَرَعُهُ حَبْلٌ وَرِيدُ الْأُمَّةِ
كَذَبُولُ الْوَرْدِ فِي رِيحِ الْخَرِيفِ
صُبْحَهَا نُورٌ مِنْ إِشْرَاقِهِ
وَالطَّوَايَا وَالْمُنَى وَالْأَلْمَا
وَمِنْ الْوَحْدَةِ نَشَأُ الْأُمَّةُ^(١)
مَقْصِدُ الْمُسْلِمِ دِينُ الْفِطْرَةِ
فَمُضِينَا لِلْهُدَى كَالشُّعْلِ
نَحْنُ رُوحٌ وَاحِدٌ مِنْهُ سَرَى
تَحْفَظُ الْمُسْلِمَ حَتَّى الْأَبَدِ
وَعَلَى الْمُرْسَلِ فِينَا بَعَثَهُ^(٢)
خَتَمَ الرُّسُلِ بِنَا وَالْأُمَمِ
جَامَهُ الْآخِرَ فِينَا خَلْفَا
إِنَّهُ حَرَمَةٌ دِينِ الْمِصْطَفَى^(٣)
إِنَّهُ سِرُّ اتِّحَادِ الْأُمَّةِ
أَحْكَمَ الْإِسْلَامِ طَوْلَ الرُّمَنِ
قَائِلًا : « لَا قَوْمَ بَعْدِي » فَاعْلَمُوا

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمّدية تمكين الحرّية والمساواة والأخوة بين البشر

<p>عبد الإنسان أُنْصَامَ الْبَشَرِ قِصْرُ الْعُسْفِ وَكِسْرَى قَيْدَا وَمِنَ الْقُسْيِ وَالْمَلِكِ طِلَابُ نَصَبِ الْأَشْرَاكِ لِلصَّيْدِ الضَّرْعِ حَقْلُهُ قَدْ عَاتَ فِيهِ الْبَرْهَمُنُ أَضْعَفَ الرِّقُّ لَدَيْهِ الْهِمَمَا</p>	<p>فهو في عُدْمٍ وَذُلٍّ مُحْتَقَرٍ منه جيداً ثُمَّ رَجُلًا وَيَدَا بِخَرَاكِ الْحَقْلِ ، وَالْحَقْلُ خَرَابُ بَائِعِ الْجَنَّةِ أُسْقُفَ الْخُدَعِ وَمَجُوسٍ أَحْرَقَتْ مَا قَدْ خَزَنُ لَحْنُهُ فِي عَوْدِهِ سَالَ دِمَا</p>
---	--

<p>وَأَمِيناً بَعَثَ الْمَوْلَى بِهِ رَفَعَ الْعُبْدَانَ بِالْحَقِّ إِلَى بَيْتٍ فِي بَرْدِ الرَّمَادِ الشُّعْلَا سَلَبَ السُّلْطَانَ حِزْبَ الْأَمْرَيْنِ عَزَمُهُ هَذَا قَدِيمَاتِ الصُّوَرِ بَيْتٌ رَوْحاً حَيْثُ الْمَوْتَى بِهَا مَوْلِدٌ مَاتَ بِهِ الْعَصْرُ الْقَدِيمُ أَزْهَرَ التَّحْرِيرُ فِي رَوْضَتِهِ عَصَرْنَا اللَّالَاءَ فِي أَنْوَارِهِ خَطٌّ فِي الْعَالَمِ سَطِراً مُبْدَعَا</p>	<p>سَلَّمَ الْحَقُّ إِلَى أَصْحَابِهِ سُرُرُ الْخَاقَانِ وَالرُّوَرِ قَلَى فَعَلَى بَرْوِيزَ فَرَهَادُ عَلَا^(١) فَسَمَا بِالْحَقِّ قَدْرُ الْعَامِلِينَ وَبَنَى حَصْناً جَدِيداً لِلْبَشَرِ وَأَفْتَدَى الْأَعْبَدُ مِنْ أَرْبَابِهَا وَيَبُوتُ النَّارُ وَالْوُثْنُ حَطِيمِ هَذِهِ الصَّهْبَاءُ مِنْ كَرَمَتِهِ فَتَحَ الْأَعْيُنَ فِي أَحْجَارِهِ^(٢) أُمَّةٌ فَاتِحَةٌ قَدْ أَبْدَعَا</p>
--	---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسي له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صَدْرُهَا مِنْ وَقْدَةِ الْحَقِّ أَضَاءُ
أَشْرَقَ الْكَوْنُ بِهَا إِذْ يَتَنَبَّأُ
وَلَدَتْهَا الْأَنْبِيَاءُ الْقُدُمُ
إِخْوَةٌ فِيهَا جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ^(١)
الْمَسَاوَاةُ لَدَيْهَا فَطْرَةٌ
نَسْلُهَا كَالسَّارِو حَرْقٌ قَدْ عَلَا
سَجْدَةُ الْحَقِّ بِسِمَاهَا غُرَرُ

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوة الإسلامية^(٣)

مُسْلِمٌ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ أَسْرُ
قَائِدٌ رَبُّ خِدَاعٍ مَّاكِرُ
لَمْ يَعْرِفْ أَسْرِيهِ بِاسْمِهِ
قَالَ لِلْأَسْرِ : يَا ذَا الْكَرَمِ
وَضَعَ الْجَنْدِيُّ فِي الْغَمْدِ الْحَسَامِ
وَحَبَّتْ فِي الْحَرْبِ نِيرَانُ الْعَجَمِ
فَإِذَا الْمَأْسُورُ جَابَانُ الْكَبِيرُ

قَائِدًا مِنْ جَيْشٍ كَثْرَى ذَا خَطَرُ
عَجَمَ الْأَيَّامِ ذَنْبٌ غَادِرُ
أَوْ يَحْدُثُ أَحَدًا عَنْ وَسْمِهِ
أَمَنْتَنِي . ذَاكَ شَأْنُ الْمُسْلِمِ
مُعلنًا أَنَّ دُمُوكَ الْيَوْمَ حَرَامُ
وَهَوَى مِنْ آلِ سَاسَانَ الْعَلَمُ
قَائِدٌ فِي جَنْدِ إِيْرَانَ أَمِيرُ

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسي .

أقبل الجند بصوتٍ قارِع
 بُوعبيد قائد العُرب الأبى
 قال يا قوم : ألسنا المسلمين
 من أبي ذرٍّ علث أو حيدر
 كلُّ جنديٍّ أمينُ الملة
 إنَّ جابان عدوٌّ غثٌ
 دمه اليوم عليكم حُرماً

يسأل القائد قتل الخادع
 عزمه في الحرب عن جيش غني^(١)
 نعمةً واحدةً في العالمين
 من بلالٍ سمعت أو قنبر^(٢)
 صلحُه والحربُ عهدُ الأمة
 لكن الأمنَ حياه مسلم
 أمة المختار ! أوفوا الذمما

قصة

السلطان مراد والعمَّار^(٣)

في معنى المساواة الإسلامية

أخرجت أرضُ حُجندٍ صائعا
 صائعا فرهادُ حقاً ولدا
 غضب السلطان من تقصيره
 قدحت عينُ الملك الشررا
 سار للقاضي حزيناً يجار
 قال : يا مَنْ قولُه الحقُّ المبين !

نال في التشييد صيتاً ذائعاً
 لمراد مسجداً قد شيّدا^(٤)
 لم يرَ الإتقان في تعميره
 ويد المسكين فوراً بترا
 دمه من يده ينهمرُ
 يا حفيظاً شرع خير المرسلين !

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .

(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نعمة ينطق بها بلال ، أو قنبر هي نعمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .

(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لَسْتُ لِلسُّلْطَانِ عَبْدًا فَاسْمَعْ
 قِرْعَ الحَاكِمِ سِرِّ الْمُبْلِسِ
 فَأَتَى السُّلْطَانُ يَخْشَى ذَنْبَهُ
 عَيْشُهُ مِنْ خَجَلٍ لِلْقَدَمِ
 وَقَفَ الْخَصْمَانِ : خَصْمٌ يَشْتَكِي
 جَهْرَ السُّلْطَانِ : إِنِّي نَادِمٌ
 وَتَلَا الْقَاضِي : « حَيَاةٌ فِي الْقَصَاصِ »
 لَيْسَ دُونَ الْحُرِّ عَبْدٌ مِلْمٌ
 سَمِعَ الْقُرْآنَ يُمْلِي حُكْمَهُ
 إِذْ رَأَى الْخَصْمَ الَّذِي قَدْ فَعَلَا
 قَائِلًا : « اللَّهُ أَعْفُو وَكَفِي »
 نَمْلَةٌ عَزَّتْ سُلَيْمَانُ الْقَوِي
 جَمَعَ الْقُرْآنُ مَوْلَى وَفَتَاهُ

في بيان أنَّ الأمة الإسلامية مؤسسة على التَّوْحِيدِ فلا تحدُّها الأمكنة

قَلْبِنَا الْخَفَاقَ يَا بِي مَوْطِنَا رِيحُهُ الْعَاصِفُ تَأْبَى مَسْكِنَا^(١)

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .

(٢) شمر كَمَّه استعداداً لقطع يده .

(٣) آية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] اقطع عدلاً ؛ والعفو إحسان .

(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

لَيْسَ مِنْ هُنْدٍ وَرُومٍ قَلْبُنَا
كَعَبِّ الشَّاعِرِ فِي خَيْرِ الْعِبَادِ
نَظَّمَ الدُّرَّ مَنِيرًا فِي ثَنَاهِ
مَنْ عَلَى الْأَفْلَاكِ فِيهِ رَفْعَةٌ
قَالَ : سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ قُلٌّ
وَكَذَا كَمْ قَالَ ذُو الْقَدْرِ الْعَلِيِّ
لِي مِنْ دُنْيَاكُمْ قَدْ حُبِّبَا
إِنْ تَكُنْ سِرًّا الْمَعَانِي تَعْلَمُ
كَانَ فِي الدُّنْيَا وَفِيهَا مَا سَكَنُ
مِنْ سَنَاهِ قَدْ تَجَلَّى الْعَالَمُ
لَسْتُ أَدْرِي مَا حِمَاهُ وَالْوَطَنُ
قَدْ رَأَى فِي أَرْضِنَا دُنْيَا لَنَا
إِذَا أَضَعْنَا الْقَلْبَ فِي هَذَا الْيَبَابِ
لَا تَحُدُّ الْأَرْضُ قَلْبَ الْمُسْلِمِ
لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ فِي الْأَرْضِ عَظْمٌ

مَا سِوَى الْإِسْلَامِ فِيهِ أَرْضُنَا
أَنشَدَ الْمَدْحَةَ مِنْ « بَانَتْ سَعَادُ »^(١)
مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ سَيْفًا قَدْ دَعَاهُ^(٢)
لَمْ تَرْقُهُ لِبِلَادٍ نَسَبَةٌ
يَا نَصِيرَ الْحَقِّ زُورًا لَا تَقُلْ
مِنْ سَنَاهِ كَحُلِّ عَيْنِ الرُّسُلِ :
بَعْضُ مَا فِيهَا حَلَالًا طَيِّبًا^(٣)
فَافْهَمِ النُّكْتَةَ فِي « دُنْيَاكُمْ »
ذَلِكَ الْمَشْرِقُ فِي لَيْلِ الزَّمَنِ
مُشْرِقًا إِذْ كَانَ طِينًا آدَمُ
أَنَا دَارٍ أَنَّهُ فِينَا سَكَنُ^(٤)
وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَضِيفٍ بَيْنَنَا
وَفَقَدْنَا النَّفْسَ فِي هَذَا التَّرَابِ
لَا يُرَى فِي تَيْهِ « أَنَّى وَكَمْ »^(٥)
حَائِزٌ فِي قَلْبِهِ كُلُّ وَطَنٍ^(٦)

- (١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .
(٢) إشارة إلى البيت :
إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يَسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ مَلُولٌ
(٣) إشارة إلى الحديث : « حُبَّ إِلِي مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ . . . إلخ . » لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .
(٤) سكن الإنسان : من يكن إليه من أهل ، أو صديق .
(٥) لا يتيه في عالم العلل والمقادير .
(٦) يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم :

إِنَّمَا الْكَافِرُ حَيْرَانٌ لَمْ يَلْهُ الْأَفَاقُ تَيْهَهُ
وَأَرَى الْمُؤْمِنَ كَوْنًا نَاهَتْ الْأَفَاقُ فِيهِ

حَصَلَ الْقَلْبُ فِي وَسْعَتِهِ
عَقْدَةُ الْأَقْوَاتِ حَلَّ الْمُسْلِمُ
أُمَّةً مَلَأَ الدُّنْيَا قَدْ أَشْأَا
صَارَتْ الْأَرْضُ لَدِينَا مَسْجِدًا
ذَلِكَ الْمَحْمُودُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
تَفْزَعُ الْأَعْدَاءُ مِنْ هَيْبَتِهِ
فَلَمَّاذَا أَرْضَ أَهْلِيهِ هَجَرَ؟
حَجَبَ الْقَصَاصُ مَعْنَى الْقِصَّةِ
هَجْرَةٌ شَرَعُ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ
إِنَّهَا التَّسْيَارُ نَحْوَ الْوُسْعَةِ
أَهْجَرَ الزَّهْرَةَ أَجَلَ الرُّوْضَةِ
شَرَفُ الشَّمْسِ مَسِيرٌ مُطْلَقٌ
لَا تَكُنْ نَهْرًا مِنَ الشَّجَبِ يُمَدُّ
اقْصِدْ تَسْخِيرَ كُلِّ الْعَالَمِ
لَا يَقْتَدِكُ مُقَامٌ فِي الْوَرَى
كُلُّ مَنْ حُرِّرَ مِنْ ذُلِّ الْجِهَاتِ
تَرَكَ الْوَرْدَ شَذَاهُ فَسَرَى
يَا أَسِيرًا قَدْ ثَوَى فِي رَوْضَةٍ
سَيَّرَنُ نَفْسَكَ حَرًّا كَالضَّبَا

ضَلَّ هَذَا الْكُونُ فِي فُتْحَتِهِ
هَجَرَ الدَّارَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ (١)
جَعَلَ التَّوْحِيدَ فِيهَا أُسًّا
إِذْ أَشَاعَ الْفَضْلَ فِينَا وَهَدَى
ذَلِكَ الْمَحْفُوظُ بِاللَّهِ الرَّحِيمِ
فِي ارْتِعَادٍ مِنْ سَنَا طَلْعَتِهِ
أَتَرَاهُ خَشْيَةَ الْأَعْدَاءِ فَرَّ؟
غَلَطُوا فِي فَهْمِ مَعْنَى الْهَجْرَةِ
هَجْرَةٌ سَرُّ ثَبَاتِ الْمُسْلِمِ
وَلَأَجَلَ الْيَمِّ تَرَكَ الْقَطْرَةَ (٢)
إِنَّ هَذَا الْخَشَرَ رِبْحُ الْكَثْرَةِ
فِيهِ مَنْ فَوْقَ الْبَرَايَا تَخَفُّقُ
وَكُنَ الْبَحْرَ ، عُيَابًا لَا يُحَدُّ
لُتَرَى سُلْطَانَ أَهْلِ الْعَالَمِ
وَكُنَ الْحَوْتَ يَسِيحُ الْأَبْحُرَا
فَلَكَ يُزْهِرُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فِي فَيْحِ الْمَرْجِ عِطْرًا نَشْرَا
عَنْدَلِيًّا هَائِمًا فِي وَرْدَةٍ !
ثُمَّ عَانَقَ كُلُّ أَزْهَارِ الرُّبَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسول الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ؟ ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرن من خدعة العصر الجديد التباس النهج حاذر يا رشيد

في بيان أن الوطن ليس أساس الأمة

صَيَّرُوا الأوطان أسَّ الأُمَّةِ	قَطَّعُوا الأرحام بين الإخوةِ
قَسَّمُوا الإنسان أسراباً بها	قَدَّسُوا الأوطان إعجاباً بها
« فَأَجَلُّوا قومهم دار البواز » ^(١)	طلبوا الجنة في « بنس القرار »
ليس إلا الحرب فيه ثمرُ	محق الجنة هذا الشجرُ
وانتهت قصَّةُ الإنسانيةِ	أنكرَ الإنسانُ وجهَ الإخوةِ
بقيت أقوامه وهو مَضَى	ذهبَ الإنسانُ روحاً وانقضى
فنمت في الغربِ هذي الآفةُ	مَنْصِبُ الدِّينِ حواءُ السَّاسةِ
وَحَبِثَ في دُورِهِ شُعْلَتُهُ	دينُ عيسى بطلت قصَّتُهُ
حادثِ الأَلامِ عن تدييره	عجزَ الأسقفُ عن تقديره
أبطلوا في سوقهم سَكَّتَهُ	قوم عيسى حقروا بيعَتَهُ
ومن الشيطان قد وافى نبي	مزَّقَ الدَّهرِيُّ ثوبَ المذهبِ
كحلُّه أودى بنور الأعينِ ^(٢)	ذا الفُلُورنسيِّ عبدُ الوثنِ
وبذورِ الحربِ فينا بذرا	خطَّ للأُملاكِ سِيفراً منكرا
فطرةً تؤثِّرُ عيشَ الظُّلمِ	مزَّقَ الحقُّ بحدِّ القَلَمِ
خطَّةً يدعأُ جلا تفكيره	آزَّرُ العصرُ ، بدا تزويره
كلُّ قبح ناله تحسُّنه	جعلَ المُلكَ إلهاً دينه

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسي : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلَّ للملوك كلَّ وسيلة تبلغ بهم

الغاية .

جعل النفع عيارَ الذَّمِّ حينما خَرَّ لهذا الصَّنَمِ^(١)
 صارت الحيلةُ فناً مُحَكِّماً ونما الباطلُ ممَّا علَّما
 خطبةٌ لِلوَهْنِ فِينَا حَكَا فِي طَرِيقِ الدَّهْرِ أَلْقَى حَسَا
 أَرَمَدَ النَّاسَ بِهَذِي الْحِكْمَةِ إِذْ دَعَا التَّزْوِيرَ بِالصِّلَحَةِ

في بيان أنَّ الأمةَ المحمديةَ ليس لها حدودٌ زمنيةٌ أيضاً

أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي عُرْسِ الرَّبِيعِ وَهِيَاجَ الْكَيْمِ وَالْوَزْدَ الْيَنِيعِ
 وَعُرُوسُ الزَّهْرِ تَشْوِي النَّعَمَ وَعَلَى الْأَرْضِ قُرَى مِنْ أَنْجَمِ
 غَسَلَ الْعُشْبَ دَمَوْعُ السَّخَرِ وَشَدَا الْمَاءُ لِنَوْمِ النَّهْرِ
 وَإِذَا الْكَيْمُ عَلَى الْغَصَنِ رَبَا مِنْحَنَةً حَجَرَهَا رِيحُ الصَّبَا
 دَمِيَ الْبَرَعُومُ مِنْ قَطْفَتِهِ وَمَضَى كَالرَّيْحِ عَنْ رَوْضَتِهِ^(٢)
 عَشَّشَ الْوُزُقَ وَطَارَ الْبَلْبَلُ وَشَدَا فَرٌّ وَطَلٌّ يَنْزِلُ^(٣)
 لَيْسَ يُكْرَى مِنْ ربيعِ رَوْقُ حِينَ تَذْوِي زَهْرَاتِ تَعَبُقُ
 مُحْفَلُ الْأَزْهَارِ بَاقٍ يَضْحَكُ لَا يُبَالِي كَنْزُهُ مَا يُهْلِكُ
 مَوْسَمُ الْأَزْهَارِ أَبْقَى فِي الدَّهْرِ هُوَ أَبْقَى مِنْ وَرُودِ وَزَهْرِ^(٤)
 لَا يُبَالِي جَوْهَراً قَدْ كُسِرَا مَعْدَنُ يُنْمِي وَيُيْدِي الْجَوْهَرَا
 كَمْ شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ ، لَا مَقَرَّ ! أَكُؤْسُ تُوْخِذُ مِنْ دَنْ الدَّهْرِ

(١) الصنم : الملك .

(٢) الريح : الرائحة .

(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل الندى . فالروضة باقية على تبدل ما فيها .

(٤) موسم الزهر أبقي من أحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

تذهب الأماس والباقي الغد^(١)
 من مسير الغد سيّار القدم
 يرحل الفرد وتبقى الأمة^(٢)
 ثم ذات وصفات أخر
 تولد الأمة من قلب جليل
 ويعيش الفرد عشرات سنين
 وحياة الشعب في حفظ الشئ
 موت قوم ترك قصيد للحياه

خمرة من شربها لا تنفد
 ثابت في الدهر تقدير الأمم
 يسفر الخلل وتبقى الصحبة
 ولها عيش وموت أخر
 ينشأ الفرد من الطين القليل
 نفس الأمة يحصى بالمئين
 وحياة الفرد روح في بدن
 موت فرد نضب ورد للحياه

ولها يوماً قضاءً يحتّم
 أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾^(٣)
 ﴿نحن نزلنا﴾ لديها حجة^(٤)
 بدوام الذكر دام الذّاكر^(٥)
 قال ربي عالماً: ﴿أن يطفئوا﴾^(٦)
 أمة يعشقها أهل القلوب^(٧)

كممات الفرد تنفي الأمم
 أمة الإسلام تأبى أجلا
 لا تخاف الموت هذي الأمة
 دام ذكر ما أقام الذّاكر
 ذلك المصباح أنى يطفأ؟
 أمة الحق إلى الحق تنيب

(١) الأماس : جمع أمس .

(٢) يفر ، أي : يسافر .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدة أزلية عامة خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بد أن يدوم الذّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .

(٦) الآية : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَا أَن يَسَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُضِلَّتْ بِالْحَقِّ ذَا السَّيْفِ الصَّقِيلِ
 مَا سَوَى الْحَقِّ مَحَاةً بِرُقْهِ
 نَحْنُ لِلتَّوْحِيدِ أَقْوَى حُجَّةُ
 مُضِلَّتْ مِنْ غَمْدِ آمَالِ الْخَلِيلِ^(١)
 لِيَعِيدَ الْحَقُّ حَيَاةً نَطَقُهَا
 لِلْكِتَابِ اخْتَارَنَا وَالْحِكْمَةِ^(٢)

أَضْمَرَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا نَارَهُ
 أَطْلَقَ الْفِتْنَةَ مِنْ أَجْبَالِهَا
 فِتْنَةً مَوْطِئُهَا هَامُ الْأُمَمِ
 أَنْفُ هَوَلٍ فِي حِشَاهَا يَرْقُدُ
 سَطْوَةُ الْإِسْلَامِ لِلتَّارِبِ هَوَتْ
 لَكِنْ اسْأَلْ ذَلِكَ الدَّهْرَ الْمُلِيمَ
 رَوْضَنَا كَانَ لَهَيْبِ التَّارِ
 فَلِإِبْرَاهِيمَ فِينَا فِطْرَةٌ
 مِنْ لَهَيْبِ قَدْ جَنِينَا زَهْرًا
 كُلُّ نَارٍ يَوْقَدُ الدَّهْرُ لَنَا
 مَخْفِيًا فِي صَدْرِهِ تَاتَارَهُ
 وَرَمَى بِالطَّوْدِ مِنْ أَثْقَالِهَا
 نَظْرَةً مِنْ طَرْفِهَا قَتْلُ عَمَمٍ
 لَيْسَ لِلْأَمْسِ بِمِثْوَاهَا غَدُ
 مَا رَأَتْ بَغْدَادُ رُومًا مَا رَأَتْ
 مُحَدَّثَ الْأَفْعَالِ ذَا الْمَكْرِ الْقَدِيمِ
 خَلَيْنَا كَانَ نِشَارُ الشَّرِّ^(٣)
 وَإِلَى الْمَوْلَى لَدِينَا نَسَبَةٌ
 نَارَ نَمْرُودٍ رَدَدْنَا كَوْثَرًا
 زَهْرَاتٍ حِينَ تَأْتِي رَوْضَنَا

ذَهَبَ الرُّومُ وَفُضَّ الْمَوْكَبُ
 كَأْسُ سَاسَانَ مِنَ الْغَمِّ دَمٌ
 شَرْقُهَا أَقْوَى وَأَقْوَى الْمَغْرِبُ
 حَانَ يُونَانَ خَرَابٌ مُظْلَمٌ^(٤)

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمة موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَتَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي =

وَعَنْتُ مِضْرُ لَدَهْرٍ عَرِمٍ
وَأَذَانُ الْحَقِّ فِينَا خَلَدَا
إِنَّ لِلْكَوْنِ مِنَ الْعِشْقِ حَيَاهُ
أَحْيَتِ الْعِشْقَ قُلُوبٌ تُسَعِّرُ
إِنْ نَكُنْ كَالْكَمِّ نَطْوَى كَمَدَا

وَتَوْتُ أَعْظَمُهَا فِي الْهَرَمِ
أُمَّةُ الْإِسْلَامِ تَبْقَى أَبَدَا
وَبِهِ أَجْزَاؤُهُ شَدَّتْ قُؤَاهُ
شَبَّهَا مِنْ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » الشَّرْرُ^(١)
فَرَدَانَا فِيهِ لِلرَّوْضِ رَدَى^(٢)

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمّدية القرآن

أُمَّةٌ خَلَّتْ يَدَاهَا السُّنَنُ
سِيرَةُ الْمُسْلِمِ شَرَعٌ وَكَفَى
بِانْتِظَامِ الصَّوْتِ تَعْلُو النِّعْمَةُ
إِنَّمَا فِي الْحَلْقِ مَوْجٌ مِنْ هَوَاءٍ
صَاحٍ هَلْ تَعْلَمُ مَا سُنْتُكَ؟
الْكِتَابُ الْحَيُّ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ
إِنَّ فِيهِ سِرٌّ تَكْوِينِ الْحَيَاهُ
لَفْظُهُ لَا رَيْبَ أَوْ تَبْدِيلَ فِيهِ
قُوَّةٌ فِيهِ تَشْدُ الْخَوْرَا

كَكْثِيبٍ مِنْ رَمَالٍ وَهَنَا
ذَلُكُمْ بِاطْنُ دِينِ الْمُضْطَفَى
وَهِيَ مِنْ دُونِ نِظَامِ ضَجَّةٍ
يَعْلُقُ النَّظْمُ بِهِ فَهُوَ غِنَاءُ
أَيَّ سِرٍّ ضَمَنْتَ قَدْرُتُكَ؟
حِكْمَةٌ فِي الدَّهْرِ تَبْقَى لَا تَرِيمُ
يَسْتَمِدُّ النِّكْسُ أَيْدَا مِنْ قُؤَاهُ
آيَةٌ لَا لَيْسَ أَوْ تَأْوِيلَ فِيهِ
وَبِهَا يَرْمِي الزَّجَاجُ الْحَجْرَا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منظوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قَطَعَ الْأَشْرَاكَ عَنْ صَيْدٍ كَسِيرٍ
 ذَا بِلَاحٍ آخِرٍ لِلْمُرْسَلِينَ
 تَرْفَعُ الْخَامِلَ فِيهِ رَفْعَةٌ
 قَاطِعُو الطَّرِيقِ هِدَاةَ صُبُرُوا
 وَالْبَوَادِي مِنْ سَرَّاجِ زَهْرَا
 الَّذِي يُصَدِّغُ مِنْهُ الْجَبِلُ
 ذَلِكَ الْيَنْبُوعُ مِنْ آمَالِنَا
 انْظُرِ الظَّمَانَ فِي حَرِّ الْقَفَازِ
 عَشُّهُ كَالظَّبْيِ فِي تَغْدَائِهَا
 طَائِفُ الصَّحَرَاءِ يَأْبَى الْجُدْرَا
 خَفَقَتْ فِي قَلْبِهِ هَذِي الشُّورُ
 قَرَأَ الدَّرْسَ مِنْ الْآيِ الْمَبِينِ
 حَكَمَ الدُّنْيَا جَمِيعاً عَدْلُهُ
 مُدْنِياً قَدْ شَيْدَتْ هَبُونُهُ

فَدَعَا الصَّيَّادُ مِنْهُ بِالشُّبُورِ
 قَدْ تَلَاه « رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ »
 وَتَقَيَّمُ الرَّأْسَ مِنْهُ سَجْدَةً
 مِنْ كِتَابٍ ، كَمْ كِتَابٍ سَطَّرُوا
 قَدْ أَضَاءُوا بِالْعُلُومِ الْفِكْرَا^(١)
 وَعَلَى الْأَفْلَاكِ مِنْهُ وَجَلُ^(٢)
 قَدْ حَوَاهِ الصَّدْرُ مِنْ أَطْفَالِنَا
 عَيْنُهُ حَمْرَاءَ مِنْ وَقَدْ التَّهَارِ
 دُمُهَا كَالنَّارِ فِي رَمَضَائِهَا
 ضَارِبٌ فِي الْيَدِ يَقْلِي الْحَضْرَا
 فَاسْتَقَرَّ الْمَوْجُ فِيهِ كَالدُّرَرِ^(٣)
 فَعَدَا بِالْحَقِّ حَرّاً لَا يَمِينُ
 عَرُشَ جَمٍّ وَطِئَتْهُ رِجْلُهُ^(٤)
 وَرِيَاضاً أَتَتْ زَهْرَتُهُ^(٥)



إِنَّ إِيْمَانَكَ فِي قَيْدِ الرُّسُومِ
 أَمْرُكُمْ قَطَعْتُمْ فَهُوَ « زُبُر »

سَنُّ الْكُفْرِ لَكَ السَّجُنُ الْمَقِيمُ
 مُرْعَى السَّيْرِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرُ^(٦)

(١) زهر السراج : أضواء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَتِئاً مُتَصِداً مِّنْ حَشِيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه النثر سكن واستقر كالدرة في الماء .

(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .

(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .

(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُوراً ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاحِ

سَكِرَ الصُّوفِيُّ مِنْ أَحْوَالِهِ وانتشى باللحن من قوَّاله^(١)
 قلبه شعرَ العراقيِّ تلا ومن القرآن أقوى وخلا^(٢)
 تاجه والعرش صوفٌ وحصير فقره يجبي رباطاً للفقير^(٣)
 وأخو الوعظِ جُزافاً قائلُ كليم عالٍ ، ومعنى سافلُ
 قَوْلُهُ مِنْ دِيلَمِيٍّ وَخَطِيبُ فعله حلف ضعيفٍ وغريب^(٤)
 لَكِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ . فَأَقْرَأْ كلَّ ما تبغيه منه فاطلَبْ

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفتن طبعه خلقُ شرورٍ ومحن
 محفلُ الماضين فيه مقفر صوِّحت فيه حياةٌ تنضر
 أنكرت أنفسنا أنظارنا وجفَّت نعمتها أوتارنا
 شعلَةُ التَّوْحِيدِ فِينَا سَلَبَا نازَه والنُّورُ مِنَّا سَلَبَا
 وإذا ما اعتلَّ تقويمُ الحياه فَمِنَ التقليدِ للقومِ نجاه
 سُنَنُ الْأَبَاءِ حَبْلُ الْمَلَّةِ وَمِنَ التقليدِ جمعُ الأُمَّةِ
 يا خَلِيّاً في خريفٍ من ثَمَرِ ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجَرُ^(٥)

إِلَى شَقِّ وَثُكُورٍ [القمر : ٦] .

- (١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .
 (٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .
 (٣) يعني : أنه يأخذ مالاً من الفقراء المقيمين في الأربطة .
 (٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث .
 بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .
 (٥) يعني : يجب الاستمسك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قَدْ حُرِّمَتْ الْبَحْرُ فَادْكُرْ خُسْرَكَ
 فَعَسَى سَيْلُ الْجِبَالِ الْهَادِرُ
 حَالُ إِسْرَائِيلَ فِيهَا تَبْصِرُهُ
 انْظُرْ كَيْفَ ابْتَلَاهَا الزَّمَنُ
 وَجْهَهَا فِي كُلِّ حِينٍ يُلْطَمُ
 عَصْرَتْ عَنْقُودَهَا كَفُّ الْخُطُوبِ
 إِنَّ خَبَا فِي اللَّحْنِ مِنْهَا قَبَسُ
 سَارٍ فِي إِثْرِ الْجُدُودِ الْمَحْمَلُ
 يَا مَنْ انْفَضَّ لَهُ جَمْعٌ وَجَاهُ
 آيَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْقَلْبِ اسْطُورَا
 اجْتِهَادٌ فِي زَمَانِ الْقَهْقَرَى
 اقْتِدَاءٌ بِرُسُومِ الْأَوَّلِينَ
 لَمْ يُصَبِّ آبَاؤُنَا بِالْهَوَسِ
 فَكُرُّهُمْ كَانَ رَقِيقاً مَرْهَفَا
 فَكَّرُ الرَّازِي وَنَجْوَى جَعْفَرِ
 ضَيْقُ الدِّينِ عَلَيْنَا يَسْرُهُ
 قَدْ جَهِلْتَ الدِّينَ عَنْهُ حَائِدَا
 بَاخَ لِي بِالسَّرِّ نَبَاضُ الْحَيَاةِ
 وَحَدَةُ الشَّرْعِ حَيَاةُ الْأُمَّةِ
 نَحْنُ طِينٌ وَهُوَ قَلْبٌ لَا جَرَمُ

الشجر أيام الخريف إبراقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إِنَّ قَلَّ الْمَاءِ فِي نَهْرِكَ فَاحْتَفِظْ بِالنَّهْرِ عَسَى أَنْ تَأْتِيَهُ السُّيُولُ بِالْمَاءِ فَيَزْخَرُ مَرَّةً أُخْرَى .

(٢) كَلِمَتَا نَبَاضٍ وَمَقْرَاضٍ فِي الْأَصْلِ .

فانتظم في سلكه كالذرر أو غباراً في الرّيح انثر

في بيان أن كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي

لا تقل في الشرع معنى مضمّر
جوهرٌ أبدع فيه القادر
ليس علم الحق غير الشريعة
شرعنا للفرد مرقاة اليقين
شريعة الحق نظام الأمم
إن فيه الأيد يا من أخلصا
قام للإسلام بالشرع قوام
لك أيدي نكتة الشرع المبين
إن يعارض ذو عناد مسلما
صار هذا النفل فرض الأمة
وإذا جيش عدو في الوغى
وقضى أوقاته في الدعة
فحرام أخذ بالفتنة
سر هذا الأمر يا ذا البصر :
يتحدّك برضوى العاليه
ويناديك أن اقصم ظهرها
ليس كفاء الليث في صولته

ليس إلا النور تحوي الدرر
جوهرٌ باطنه والظاهر
ليس غير الحب أصل السنة
ترتقي منه مقامات اليقين^(١)
ومن النظم دوام الأمم
اليد البيضاء فيه والعصا
بدؤه الشرع وبالشريع الختام
أنت من في حكمه الذين أمين :
في أداء النفل ما إن لزمنا
فالحياة الحق عين القدرة
ترك الإعداد والسلم بغى
تاركاً للحرب أخذ العدة
قبل أن يأخذ كل الأهبة
« الحياة العيش بين الخطر »
في امتحان لقواك العاتيه^(٢)
وبحدّ السيف فاصهر صخرها
حمل يرجف في ذلته

(١) مرقاة اليقين ومقلّمات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل الوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إِنَّ حَكِي الصَّعْوَةَ صَقَرٌ كَاسِرٌ
 كَتَبَ الشَّارِعُ رَبُّ الْحِكْمَةِ
 يَشْحَذُ الْعِزْمَ بِنَارِ الْعَمَلِ
 وَإِذَا تَلَّغَبُ يُعْطِيكَ الْقُوَى
 إِنَّ دِينَ الْمُصْطَفَى دِينُ الْحَيَاةِ
 إِنْ تَكُنْ أَرْضاً يَصِيرُكَ السَّمَاءُ
 يَصْقِلُ الْمِرَاةَ مِنْ صَخَرٍ شَدِيدٍ
 ضَيَّعَ الْقَوْمُ شِعَارَ الْمُصْطَفَى
 ذَلِكَ الْغَصْنُ الْعَسِيَّ الْمَعْتَلِي
 الَّذِي الْبَطْحَاءُ أَزَكَّتْ غَرْسَهُ
 أَذْبَلَتْهُ الْيَوْمَ رِيحُ الْعَجَمِ
 قَاتِلُ الْأَسَادِ ذَبَحَ الْغَنَمِ
 مِنْ أَذَابِ الصَّخَرِ مِنْ تَكْبِيرِهِ
 مِنْ عِلَا الطَّوْدِ سَرِيعاً مُصْعِداً
 مِنْ بَرَى الْأَعْنَاقِ ضَرْباً عَضْبُهُ
 مُوقِظَ الْآفَاقِ مِنْ خَطَوَاتِهِ
 مِنْ أَطَاعِ النَّاسِ طَرّاً أَمْرَهُ
 رَضِيَ الْقَنَعُ وَأَكْدَى جِدُّهُ
 شَيْخُنَا أَحْمَدُ^(١) مَنْ فِي قُرْبِهِ
 قَالَ يَوْمَاً لِمُرِيدٍ فَهَمَّ
 فَكَّرُهُمْ إِنْ كَانَ لِلنَّجْمِ ارْتَقَى

فَهُوَ كَالصَّعْوَةِ وَإِ خَائِرُ
 لَكَ هَذَا اللَّوْحُ ، لَوْحَ الْقُدْرَةِ
 وَيَرْقِيكَ لِأَعْلَى مَنَزَلٍ
 وَيَرْبِّي مِنْكَ طَوْداً مَا خَوَى
 شَرُّهُ لِلنَّاسِ قَانُونُ الْحَيَاةِ
 وَيَرْبِّيكَ كَمَا الْحَقُّ يَشَاءُ
 وَيَنْقِي الرِّينَ مِنْ قَلْبِ الْحَدِيدِ
 ضَيَّعُوا رَمَزَ بَقَاءِ عُرْفَا
 مُسْلِمِ الصَّحَرَاءِ رَبِّ الْجَمَلِ
 وَرِيَاخُ الْيَدِ رِيَّتْ نَفْسَهُ
 صَيَّرَتْهُ النَّايَ رَوْحُ الْعَجَمِ
 وَطَأْ نَمَلٍ مَسَّهُ بِالْأَلَمِ
 رَاعِهِ الْبَلْبِلَ فِي تَصْفِيرِهِ
 غَلَّ بِالتُّكْلَانِ رَجُلًا وَبَدَا
 يَلْدِمُ الصَّدْرَ وَيَدْمَى قَلْبُهُ
 قِيدَتْ رَجُلَاهُ فِي خَلَوَاتِهِ
 وَاجْتَدَى دَاراً وَكَسَرَى بَرَّهُ
 وَارْتَضَى الْكَذِبَةَ عِزّاً جَدُّهُ
 تَكَسَّبُ الشَّمْسُ سناً فِي قَلْبِهِ
 احْذَرْنَ يَا صَاحِ فَكَّرِ الْعَجَمِ
 فَهُوَ مَنْ سُنَّتْنَا قَدْ مَرَّقَا

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفي عراقي من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرفاعية ، انضم إليها خلق كثير من الفقهاء ، كان له به اعتقاد كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يا أخي فاسمع لهذا الرُّشدِ استمع نَصَحَ الإمام المُرشِدِ
وبهذا الحقُّ فاشدّد قلبك واتبع العُزْبَ تُصِيبُ شِرْعَتُكَ

في بيان أن حُسنَ سيرة الأُمَّة من التأدُّب بالآداب المحمّدية

سائلٌ مثل قضاء مُبرم	صاحّ بالباب بصوت مُبرم ^(١)
بالعصا ضُلت عليه غضبا	فهوى من يده ما قشبا ^(٢)
إنّ هذا العقل في شُرْحِ الشَّبابِ	لا يبالي بضلالٍ وصوابٍ
ورأى الوالدُ فعلي فنفر	وذوى في وجهه روضُ الرُّهر
أهّة في فمه تلهب	قلبه في صدره يضطرب
كوكبٌ في عينه قد ومضا	نور الهدب قليلاً ومضى ^(٣)
روحي الغافل في الجسم ارتعد	ومضى الصَّبرُ وخلّاني الجلدُ
مثل فرخ في الخريف انتفضا	من رياح الليل في العُشِّ قضى
قال لي الوالد : يومَ المحشر	تلتقي أُمَّةٌ خير البشر
العُزاة الغرُّ من أُمَّته	وأولو الميراث من حكمته
والنجومُ الرُّهرُ أربابُ الصِّفاء	حجة الدِّين فريقُ الشُّهداء
وأولو العلم وأربابُ القلوب	وأولو الرُّهد وأصحاب الذُّنوب
وعلا في لُحْ هذا المحشر	صوتُ هذا السائل المنكسر

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر

البيت بمعنى ممل .

(٢) قشب : جمع وكسب .

(٣) يعني دمت عينه ، علق الدَّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب !
 « قد حباك الحقُّ طفلاً مسلماً
 هيئن الأشياء قد شقَّ عليك
 وأنا في العتب من خير الرُّسل
 افكرن في الأمر واذكر يا بُني
 لحيتي البيضاء في الحشر انظر
 لا تزد عبء أبيك الوهن
 أنت كم في فروع المصطفى
 نظرة من روضه فالتمس
 مرشد الرُّوم الذي قطرته
 « لا تجد الحبل من خير البشر
 فطرة المسلم طراً رافة
 العظيم الخلق من شق القمر
 لست من معشرنا فاعتزل
 طائر أنت على دوحتنا
 إن تكن ذا نعمة لا تُفرد
 كل من أوتي حظاً من حياه
 بلبل أنت ؟ ففي الرّوض امرح
 إن تكن صقراً فلا تغش البحار

ما جوابي حين يلحاني النبي :
 لم تُنله من كتابي مغنماً
 لم يهز ذا الطين إنساناً لديك^(١) «
 بين خوف ورجاء وخجل
 أمة المختار إذ ترنو إلي
 رعدتي في الخوف والحزن اذكر
 عند مولاي غداً لا تُخزني
 فتفتح في ربيع المصطفى
 وسناً من خلقه فاقبسي
 قد حوت بحراً ، سمّت قوله :^(٢)
 لا تقل عندي فنون وبصر «
 قوله والفعل كلُّ رحمة
 رحمة عمّت ونور للبشر
 إن تكن منه بعيد المنزل
 شدوه واللحن من نغمتنا
 بسوى بستاننا لا تُفرد^(٣)
 في سوى بيته يلقي رداه
 ومع السّرب بلحن فاصدح
 ليس إلا خلوة الصّحراء دار^(٤)

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .

(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .

(٣) أغرد : أطرب بالتفريد .

(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليزِم كل بيته .

أو تكن نجماً فنور في سَمَاكَ لا يكن مسراك إلا في الجِبَاكَ

قطر نيسانَ اجمعنْ إنْ تردِ
لتراهُ مثلَ قطراتِ النَّدى
وانشِفِ الأنداءَ منْ جواهرها
بشُعاعِ الضُّبْحِ وضَاءِ البُكرِ
لنْ ترى دُرَّكَ إلا كالجَبَابِ
ألقها في اليمِّ تُغَقِّدْ جواهرها
قطرُ نيسانَ عن اليمِّ نأى
واجعلنْ في الروضِ مأواه النَّدى^(١)
تحضنْ الأكمَامُ منها ولدا
واسلبِ اللآلَاءَ منْ عنصرها
الذي منْ سحره ينمو الزُّهر^(٢)
لنْ ترى سَعْيَكَ إلا في سرابِ
مأوها يسطعُ نجماً تيرا
لجفافٍ . لنْ تراه لؤلؤا

طينةُ المسلمِ دُرٌّ يا بُني
قطرَ نيسانَ ! ففُصِّ في موجه
صاح ! من شمس الضُّحى كن أنورا
مأوها والثُّورُ منْ بحرِ النَّبي
وابرزنْ ، درّاً صَفَا ، من لجه
كن ضياءَ ليس يخبو الدُّهرا

في بيان أنَّ حياة الأُمَّة تحتاج إلى مركزٍ محسوس وأنَّ مركز الأُمَّة الإسلاميَّة البيت الحرام

عقدةٌ تنحلُّ منْ أمرِ الحياه
كخيالٍ جَفَلَتْ منْ نفسها
حين أفشي لك منْ سرِّ الحياه :
حُرَّةٌ قد نفرت منْ حبسها^(٣)

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .

(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .

(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتها ما فيه أمرٌ وغدٌ
 أنظرونُ نفسَكَ حيناً واعتبرُ
 شعلهٌ فيها أعدتَ سِنَّرها
 ماؤها قد عقدته في دُرُ
 نازها في نفسها تخفي الحريق
 فكرُك العاجزُ عنها أو هما
 ما أوى للعشِّ هذا الطائرُ
 هو حرٌّ وجواه مَحْبِسُ
 ريشه ينسلُ طيراً كلَّ حينٍ
 عُقداً تعقد في أعمالها
 تسكنُ الطينَ على إسراعها
 كم لحونٍ في جواها رُقِّدِ
 في سهولٍ كلَّ حينٍ وحزونٍ
 إن تكن كالريح تَأبى محبسها
 حولها من خيطها ناسجة
 هي في العُقدة مثلُ الحَبَّة
 تفتحُ العَيْنَ على ما تُضمَر

- (١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .
- (٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر .
- (٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .
- (٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .
- (٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها .

خلعة الطين عليها تُرفد
تؤثر الخلوة في الجسم الحياه
هكذا سنة ميلاد الأمم
إنما المركز روح الدائرة
ومن المركز للقوم نظام
نقطة المركز منّا الحرم
نفس في صدرنا يتقد
من نداء نضرت أغصاننا
نحن من دعواه في الدنيا دليل
صوتنا يندى به في الأمم
وخذ الملة طوف حوله
وحدث في حشبه كثرتنا
إن في الجمع حياة الأمم



فإذا عين وقلب ويد^(١)
وتجلى نشأة العم الحياه^(٢)
مركز فيه حياة تنظم^(٣)
نقطة ، فيها محيط ، ضامره
ومن المركز للقوم دوام
لحنا والوجد فينا الحرم
روحنا الغالي ، ونحن الجسد
حي من زمزمه بستائنا
نحن فيه من براهيم الخليل^(٤)
واصلًا محدثنا بالقدم
فهي صبح قد حوى صدر له
أحكمت من وحدة قوتنا^(٥)
إن هذا الجمع سر الحرم

قوم موسى عبرة فاعتبر
فتراهم في البرايا قطعاً^(٦)
يا أسيراً غلّه وهم وظن

أيها المسلم يا ذا البصر !
زهدوا في مركز قد جمعا
يا علينا شاكياً جور الزمن

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . . إلخ .

(٢) العم : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ،

ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذف هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلن ثوبك ثوب المحرم
افن كالآباء ما بين السجود
من خشوع المسلمين الأولين
في سبيل الحق ثوكاً وطنوا
أطلع الصبح بلبل مظلّم
اسجدن حتى ترى عين السجود^(١)
سيطروا بالحق بين العالمين
فإذا الروضة هذا الموطأ

في بيان أن الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره

اعرفن عني لسان الكائنات
ينظم المقصد أشتات الحياه
طرفنا من تحت مهماز الطلب
إنما يُبقي الحياه المقصد
حينما تدري الحياه المطلب
وبه الأشياء طرأ تنقّد
يُحمر الزُبان أجل الساحل
وعلى قلب الفراش الحرق
طاف قيس في الصحارى ولها
ما اقتفينا في الصّحارى أنرا
ففعال الكون فيها كلمات
فترها « مطلقاً » راع الرواه^(٢)
صرصر ما ند عنه من أرب
هو أشتات قواها ينضد
تجعل الكون إليه سببا
فترد الشيء أو تعتقد^(٣)
والى المنزل سير السابل
لسراج حوله يحترق^(٤)
قاصداً ليلاه يرجو وضلها
منذ ليلانا أقامت في القرى

(١) السجود الأول جمع ساجد .

(٢) المطلق هنا مطلق القصيدة .

(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .

(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، ولبل لقيس .

إِنَّمَا الْمَقْصُودُ رَوْحُ الْعَمَلِ
 دَوْرَانِ الدَّمِّ فِي أَعْرَاقِنَا
 الْحَيَاةُ الْحَقُّ مِنْهُ تَسْتَعِزُّ
 هُوَ مُضْرَابٌ لِعُودِ الْهَمِّ
 حَرَّكَ الْأَعْضَاءِ فِي رَكْبِ الْبَشَرِ
 فَكُنِ الْمَجْنُونُ فِي هَذَا الْحَبِيبِ
 أَبْدَعَ الْقَمِيَّ فِيمَا أَسْمَعَا
 رَامَ نَقْشَ الشُّوكِ حِينَا رَجُلُ
 لِحْظَةٍ يَا صَاحِبِي إِنْ تَغْفُلِ
 ذَاكُمُ الْعَالَمُ دَيْرٌ قَدُمَا
 كُمْ وَكَمْ يُنْبِتُ مِنْ مَقْصَبَةٍ
 كَمْ تَدُمْتُ مِنْ يَدَيْهِ رَوْضَةٌ
 كَمْ تُرَى نَقْشاً وَكَمْ تَمَحُو يَدَاهُ
 كَمْ مِنَ الْأَرْوَاحِ بُنْتُ أَنَّهُ

- (١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .
- (٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعربه . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .
- (٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .
- (٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
- « ذهب لأنقش الشوك من قدمي فاختنى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .
- (٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .
- (٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أن التكمل في العالم شاق أليم ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدّم هذا أول الكتاب .
- (٧) تعالى : تتعالى .

ورجال الزور دهرأ ربيا
ثم في طينك إيماناً بذر
نقطة دار عليها العالم
قوة فيها تُدير الفلكا
لؤلؤ البحر ندى من نورها
نفعها صير طيناً سنبلاً
في عروق الكرم منها شعلة
لحنها في مزهر الكون استر
نغمات فيك تسري كالدم
كلمة التوحيد منك المقصد
الجهاد المر جلف المسلم
أنت لا تدري بآيات الكتاب
أنت في الأيام نور وبصر
ادعون كل لبيب ، أبلغ
قوله ما فيه نطق عن هوى
تبض هذا الكون قد جئت يداه
نضر الأزهار في روض الدهر
دينه فيه الحياة الخالده
أيها التالي الكتاب المنزل

وعلى الأحرار والى الحرّبا
كلمة التوحيد من فيك نشر
كلمة صار إليها العالم
وبها الشمس تُنير الحلكا
به الموج طما من نورها
وجدها صير ريشاً بلبلاً^(١)
وبطين الكأس منها لمعة
أيها العازف ا يدعوك الوتر
أعمل المضرب في ذا النغم
أنت للتكبير فيها توجّد^(٢)
أو يدوي الحق بين الأمم
أمة العدل يميننا الخطاب
شاهد أنت على كل البشر^(٣)
وعن الأمي قولاً بلغ
صادق ما ضل يوماً أو غوى^(٤)
فتجلى سر تقويم الحياه
ومحا الأنداس عنها والكدر
لا تراها عن هداة حائده
شمرن ، لا تقعدن عن عمل

(١) السبل : نبات طيب الرائحة .

(٢) فيها : في الدنيا .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَالتَّجْرِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ﴾ [النجم : ١ - ٣] .

يعشق الأصنام عقل الأمم
هو أحياء سنة من آزار
اسمه لون ودار ونسب
وعلى أقدام هذا الصنم
أيها الشارب من كأس الخليل !
سيف « لا موجود إلا هو » خذ
في ظلام الدهر أشرق للملا
خجلت لك في اليوم العيز
قد أخذت الحق عني ما دهاك

ناحت أو عابد للصنم
محدثاً فيها إلهاً للورى
هو من سفك دماء في طرب^(١)
ذبح الإنسان ذبح الغنم
يا حمي النفس من طاس الخليل !
وبه الأصنام هذي فاجذ
وانشروا حقاً عليك اكتملا^(٢)
حينما يسألك الهادي البشير :
لم تبلغه بحق لسواك !

في بيان أن توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم

مؤمناً بالغيب غير الغافل
اعل عن ذا الطين غصناً ناضراً
ذلك الحاضر تفسير الغيوب
ما سوى الله لتسخير العمل
ما سوى الله تراه يُخلق
عقدة تلقاك بعد العقدة
فسرن يا كم ! روضاً نفسكا
من يسخر عالم الحسن سما

كارها كالسبل قيد الساحل !
وصل الغائب واغز الحاضرا
وهو مفتاح لتسخير الغيوب
صدره للرمي ، فاقذف لا تبلى
لترى سهمك فيه يمرق^(٣)
ليرى في الحل لطف الحيلة
سخرن يا طل ! ذي الشمس لكا
ومن الذرة يخرج عالما

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحسن ، وبيان أن هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

لَوْحٌ تَعْلِيمٍ لِأَرْبَابِ النَّظَرِ
 عَالَمِ الْحَسَنِ جَفْتَهُ هَمَّتُهُ
 لَا تَحْقُرْ عَالَمًا قَدْ حُقِّرَا
 وَامْتَحَنَانٌ لِّصِفَاتِ الْمُسْلِمِ
 لَتَرَى أَنَّ دَمًا فِي الْبَدَنِ
 اخْتَبِرَ عَظَمَكَ فِي ذِي الصَّدْمَةِ
 وَجَلَّاهَا لَعَيُونَ الْمُؤْمِنِينَ
 هَذِهِ الدُّنْيَا مَحَكُّ الْمُؤْمِنِ
 لَا تُضِغْ فِي جَوْفِهَا جَوْهَرَكَ
 وَالَّذِي يَجْتَازُ آفَاقَ السَّمَاءِ
 فَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَفِي النَّجْمِ خُطَاهُ
 لَتَرَى فِيهِ بِأَعْلَى مُنْتَوَى
 حَكَمِهِ فِي الْأَرْضِ مَاضٍ حَاكِمٌ ^(١)
 وَلَأَعْمَالُكَ فِيهَا فَحَةٌ
 أَلْجَمَنْ هَذَا الْجَوَادَ النَّافِرَا
 شَقَّ مَوْجَ الْبَحْرِ عَنْ دُرٍّ بِهِ
 رَبُّ شَمْسٍ قَدْ حَوَّتْهَا ذَرَّةٌ
 وَكَشَفَنْ عَنْ كُلِّ سِرٍّ حُجُبَا
 وَمَنْ السَّيْلُ بِرُوقاً فَاخْلِسِ ^(٢)
 الَّتِي قَدْ عُبِدَتْ أَنْوَارُهَا
 وَإِمَاءٌ سُخِّرَتْ مِنْ أَجْلِكَ
 سَخَّرْنَ آفَاقَهَا وَالْأَنْفُسَا

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بَحْرِ وَبَرٍ
 أَتَيْهَا النَّائِمُ طَالَتْ غَفْلَتُهُ
 قُمْ وَفُتِّحْ بَصَرًا قَدْ سُكِّرَا
 إِنَّهُ تَوْسِيْعُ ذَاتِ الْمُسْلِمِ
 هُوَ يَبْلُوكَ بِسَيْفِ الزُّمَنِ
 اضْرِبِ الصَّدْرَ بِقَهْرِ الْقُوَّةِ
 جَعَلَ الْحَقُّ الدُّنْيَا لِلْخَيْرِينَ
 هَذِهِ الدُّنْيَا طَرِيقُ الظُّغَنِ
 فَأَسِرْنَهَا قَبْلَ أَنْ تَأْسِرَكَ
 أَدِهِمُ الْفِكْرَ الَّذِي يَطْوِي الْفُضَاءَ
 سَاقَهُ فِي الْكَوْنِ حَاجَاتُ الْحَيَاةِ
 يَبْتَغِي فِي الْكَوْنِ تَسْخِيرَ الْقُوَى
 نَائِبُ الْحَقِّ ، بِحَقِّ آدَمُ
 لَكَ مِنْ ضَيْقِكَ ، مِنْهَا سَعَةٌ
 صَهْوَةُ الرِّيحِ أَعْلَوْنَهَا آمِرَا
 شَقَّ قَلْبَ الطُّوْدِ عَنْ جَوْهَرِهِ
 أَلْفُ كَوْنٍ فِي فُضَاءٍ تُكَفَّتُ
 بِشُعَاعِ أَظْهَرْنَ مَا احْتَجِبَا
 مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ نَارًا فَاقْبِسِ
 ثَابِتُ الْأَنْجَمِ أَوْ سَيَّارُهَا
 كُلُّهَا يَا صَاحِبَ عُيْدَانٍ لَكَ
 سَيَّرْنَ فِكْرَكَ فِيهَا عَسَا

(١) يعني أَنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحق ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتح العينَ وأنعمَ نظره
 كم ضعيفٍ في قويٍّ أمراً
 أيُّها المقصود من أمرٍ ﴿انظروا﴾
 قطرةٌ من نفسها ذاتُ خَبَرٍ
 وهي في البحر تراها جوهراً
 كالصِّبَا لا تهفُ حولَ الصُّورِ
 دون مضاربٍ لحوناً سيِّراً
 أيُّها الظَّالِعُ في حَزْنِ الحياه
 بلِّغِ الشَّعْيَ الرِّفَاقَ المنزلاً
 وبقيتَ اليومَ قيساً ملساً
 «عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ» فخرُ الأدمي^(٣)

أبصرن في الراح معنىً مُضمّراً
 حين في الكون أجال البصراً
 كيف في آفاقها لا تنظر؟^(١)
 حمرةٌ في الكرم ، طُلٌّ في الزَّهَرِ
 جوهراً كالنَّجْمِ في الليل سرى
 اطلبن في الروض معنى الزَّهَرِ
 ومن الأحرف طيراً طيّراً^(٢)
 أيُّها الغافل عن طعن الحياة
 أنزلوا ليلي وخطوا المحملاً
 في الصحارى عاجزاً مستيشاً
 حكمةُ الأشياء نصرُ الأدمي

في بيان أنَّ كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد
 وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن
 الأمة ورواياتها

أرأيتَ الطفلَ يا ذا البَصَرِ !
 ليس يدري ما قريبٌ وبَعِيدُ
 ما سوى الأمِّ يرى منه الجفاءُ
 ليس تدري أذنه ما النغمةُ
 ما له عن نفسه من خبرٍ
 كرةُ النِّجَمِ بكفِّه يريدُ
 همُّه أكلٌ ونومٌ وبكاءُ
 لحنه ثورته والضجَّةُ

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكره غُفِلَ ضعيفُ الأثرِ
ليس في تفكيره إلا السؤال
كلُّ نقشٍ عنده ينطبِعُ
عينه إمَّا بكفٍّ تُطبق
فِكْرُهُ في الجوِّ وإِهْ حذرُ
خلف صيدٍ في حِذارٍ يُرسلُهُ
ثم غَشَّاه لهيبُ الفِكْرِ
فتراه عينُهُ مُستعلنا
ومن الذِّكرِ ينمِّي نفسه
ينظمُ الأيامَ خيطُ الذهبِ
جسمه يُرمي ويُكري قائلًا :
« أنا » هذي بدءُ مقصود الحياه
مثلُ الأئمة حين النِّشأة
هي طفلٌ نفسه لا يعرفُ
يومُهُ بالغدِ لم يوصلُ ولا
وبعينِ الكونِ إنساناً يُرى

قوله فيه صفاء الجوهرِ
أين ؟ أنى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال
وهو كلُّ غيرِه يتَّبِع
تنزِّي رَوْحِه في قلبي
كصُقيرٍ لاصطيادٍ يُجبرُ
ثمَّ يدعوه إليه يُعجلُهُ^(١)
فرمى خُذروفُه بالشررِ^(٢)
فندقُ الصِّدرِ يعني : ها أنا^(٣)
غده يربطُ فيه أمَّه
نَسَقَ الدُرَّ بسِمِطٍ مُعجِب
مثل ما كنتُ أراني ماثلاً^(٤)
اليقظة في عود الحياه
مثلُ الطفلِ ضعيفِ المُنَّة
جوهرٌ غشَّى عليه الصَّدْفُ
بصباحٍ ومساءٍ سُلْسلا
كلُّ شيءٍ ما عداه أبصرا^(٥)

- (١) كالصقر الصغير الذي يُعلَّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .
(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمرة النار في خذروف فيطير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يطير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دوي .
(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .
(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .
(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْدَ لَايِ طَرَفُ الْخِيْطِ بَدَا
فَإِذَا رَازَ قُوَاهَا الدَّهْرُ
أَسْطَرّاً تَمْحُو ، وَأُخْرَى تَسْطُرُ
يُبْلِسُ الْفَرْدُ إِذَا مَا انْتَشَرَا
نُورُ قَوْمٍ مِنْ مَدَادِ السَّيْرِ
أُمَّةٌ قَدْ نَسِيَتْ سِيرَتَهَا
أَنْتَ سَفَرٌ كَتَبَتْهُ السَّيْرَةُ
ثَوْبَنَا أَيَّامُنَا فِي الرِّمَنِ
مَا تَرَى يَا غُرُّ تَارِيخِ الْبَشَرِ ؟
فِي سَنَاهِ أَنْتَ بِالنَّفْسِ بَصِيرُ
إِنَّهُ أَعْصَابُ جَسَمِ الْأُمَّةِ
هُوَ يَجْلُوكُ كَيْفَ مَخْذَمِ
أَيُّ عَوْدٍ ذِي فَنُونٍ تَخْرُا
خَامِدُ الشُّعْلَةِ ، فِيهِ يُشْعَلُ
شَمْعُهُ كَوَكَبُ بَخْتِ الْأُمَمِ
عَيْنُهُ تُبْصِرُ مَا قَدْ عَبَّرَا
وَعَتِيقُ الرِّزَاحِ فِي كَاسَاتِهِ
صَائِدٌ يَرْجِعُ فِي أَشْرَاكِنَا
فَاذْكُرِ التَّارِيخَ وَاسْتَحْكِمْ بِهِ
أَحْكِمَنْ وَضَلَّةَ يَوْمٍ وَغَدِ

بَعْدَ مَا حَلَّتْ يَدَاهَا الْعُقْدَا^(١)
يَتَجَلَّى ذَا الشُّعُورِ الْمَضْمَرُ^(٢)
صَفَحَاتٍ بِيَدَيْهَا تَزْبِرُ
عَقْدُ أَيَّامٍ عَلَيْهِ قُدْرَا
نَفْسُهُ يَعْرِفُهَا بِالذِّكْرِ
يَنْسُخُ الدَّهْرُ غَدَا آيَتَهَا
خَيْطُهُ أَيَّامُكَ الْمَوْصُولَةُ
وَحِيَاطُ الثُّوبِ حَفْظُ السُّنَنِ^(٣)
قِصَّةٌ ! أَسْطُورَةٌ ؟ لَهْوٌ سَمَرُ ؟
فِي هِدَاةِ أَنْتَ بِالسَّيْرِ خَبِيرُ
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ مِثْلُ الشُّعْلَةِ
ثُمَّ يَرْمِي بِكَ بَيْنَ الْأُمَمِ
نَعْمَاتُ الْأَمْسِ فِيهِ تُؤَثَّرُ
يَوْمُهُ لِلْأَمْسِ فِيهِ مَا يُلُ
وَسْنَا الْيَوْمِ وَأَمْسِ الْمَظْلَمِ
وَتُرَى الْمَاضِي حَيًّا مُحَضَّرَا
وَحُمَارُ الْأَمْسِ فِي نَشْوَاتِهِ
طَائِرًا قَدْ طَارَ مِنْ بَسْتَانِنَا
عِشْ بِأَنْفَاسٍ مَضَتْ ، فِي طَبِّهِ
وَالْحَيَاةِ امْضِ بِهَا طَوْعَ الْيَدِ

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقد الأيام قسراً بمهاز
صاح ! من ماضيك تبدو حالكا
إن تُردّ خُلدَ حياةٍ فصل
أو فِعش أعمى بليلى ونهاز^(١)
ومن الحال بدا استقبالك
ما مضى بالحال والمستقبل

في بيان أن بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأن حفظ الأمومة واحترامها من أصول الإسلام

نَعَمَاتُ الْمَرْءِ عَزْفُ الْمَرْأَةِ	هو من محبتها في عزة
كَسَتْ الذُّكْرَانَ رَبَّاتُ الْحِجَالِ	إن ثوب العشق من نسج الجمال ^(٢)
عَشَقُ الْحَقِّ رَبَّاهُ حِجْرُهَا	ذلك اللحن حواه صدرها
الَّذِي قَدْ بَهَرَ الْكَوْنَ سَنَاهُ	قرن الطيب إليها والصلاة ^(٣)
جَهَلَ الْقُرْآنَ جَهْلًا مُسْلِمٌ	قد رآها أمة لا تُعْظَمُ
إِنَّمَا الْأُمُّ عَلَيْنَا رَحْمَةٌ	وإلى الرُّسُلِ لديها نسبة
رَأْفَةُ الْمُرْسَلِ فِي رَأْفَتِهَا	سيرُ الأقوامِ من صنعِها
وَمِنَ الْأُمِّ عَلَتْ أَقْدَارُنَا	وبسيماها بدا مقدارنا ^(٤)
لَفْظَةُ الْأُمَّةِ فِيهَا نُكْتُ	أثرى فكرك فيها بثت ؟
إِنَّمَا الْأُمَّةُ مِنْ وَصَلِ الرَّجْمِ	دونه أمرُ حياة لا يتم
قَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ ، وَهُوَ الْحُجَّةُ :	تحت رجل الأمهات الجنة

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبار الرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حبيب إلي من ديناكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوب في سيما الأم .

بخلال الأمّ تسيارُ الحياه
ويدوم الموج فيه والحباب

كُشفت بالأمّ أسرارُ الحياه
وبها في نهرنا يعلو العباب

عبلَةُ الجِئِمِ وعُفْلُ السُّحْنَةِ
دون تعلیم وصقلِ الصِّقْلِ^(١)
وجهُها يُعربُ عما تَحْمِلُ
صبحُنا يشرق من إظلامها^(٢)
مسلماً حقاً عظيم النّجدة
باطنُ المرأة فيه عَطْلًا^(٣)
وتُرى الثّورة في مقلتها
حين طاشت عينها بالنّظرة
إنّ حرّيتها فقدُ الحياء
لم يطق أعباء أمّ علمها^(٤)
ليتها تُغفلُ من حُلَّتْنا

هذه الغيرة بنتُ القرية
حيّة العين ، كهامُ المِقْوَلِ
ألم الأم عليها يثقل
أمرنا يُحكّم من آلامها
إنّ نهب من حجرها للأمة
والتي رقت وخفت محملاً
شعّ نور الغرب في فكرتها
قطعت أوصال هذي الأمّة
إنّ حرّيتها أصلُ البلاء
ليلها ما ضاء فيه نجمها
ليتها لم تَنمُ في روضتنا

مضمّراتٌ ليس يحصيها عدّد
لم تُقيّد بعدُ في كيفٍ وكم
في ظلام الكون عَنّا تسترُ
وزهورٌ لم تفتحها الصّبا

أنجمُ التّوحيد في غيبِ الأبد
لم تُسَيَّبْ بعدُ من قيدِ العدم
جَلّواتٌ في دجائنا تُضمّر
قطراتٌ لم تَزِنْ زهرَ الرّبي

(١) كهام المِقْوَل : عيبة اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .

(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائقها .

(٣) صدقت عن الحمل والوضع .

(٤) لم يضىء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنما تنبت هذي الزهّرات
أيها العاقل ! مالُ الأُمّة
إنّه أولادها ملءُ الأمل
تحفظ الأمّ إخاء الأُمّة

ناضرات في رياض الأمّهات
ليس من عقيانها والفضّة
في ذكاء ونشاط وعمل
وقوى قرآننا والمِلّة

في بيان أنّ سيّدة النّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنّساء المسلمات

أمّ عيسى نسيبةً واحدةً
قرّة العين لخير الأوّلين ،
نافعُ الرّوح بدنياً ووهنٍ
وهي زوجُ المرتضى ذا البطل
ملكٌ في الكوخ زهداً قد أقام
وهي أمّ السّيدين الأكرمين
ذا سراجٍ في ظلامِ الحرّم
ازدري الملك ابتغاء الألفةِ
ذاك في الأبرار ربُّ العَلَمِ
سيرةُ الأولاد صنعُ الأمّهات
زهرةٌ في روضة الصدق البتول
فاقةُ السّائل أذرت دمعها
كلُّ من في الأرض قد طاع لها
نُشئت ما بين صبرٍ ورضا

بثلاث تزدهي فاطمةُ :
خاتم الرُّسل ، وخير الآخرين
خالقُ العَصْرِ جديّدِ السُّننِ
أسدُ الله الحكيمِ الفَيضِ
كلُّ ما يملك درعٌ وحُسامٌ
حسنٍ خيرٍ حلِيمٍ وحُسَيْنِ
حافظٌ وخِدّةٌ خيرُ الأُممِ
أطفأ النيرانَ بين الإخوةِ
أسوةُ الأحرار في الخطب العمي
وخلالُ الخيرِ طبعُ الأمّهات
أسوةُ النّسوة في الحقّ البتول
ليهوديّ أباعت درعها^(١)
ورضاها حين تُرضي بعلها
في القمِ القرآن ، والكفّ الرّحى

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

في مصلاًها يفوقُ الجوهراً
وعلى العرش المعلى نثراً
والى شرع الرسول المتهى
نائراً من سجداتي حولها

دمعها من خشية الله جرى
لقط الروح الأمين الدُّرّاً
أنا لولا الشرع عن هذا نهى
طفئت حول القبر إجلالاً لها

خطابٌ إلى المرأة المسلمة

عرضنا في الصّون من أستارك
قوى الدّين به والأمة
كلمة التوحيد من قبل الكلام
فعلنا ، أقوالنا ، أفكارنا
شع في الأطواد ، والبيد طوى
ونما التوحيد في أحجارك
وعلى الأديان باغ فاجر
كم جهول في شرك قد أسر
بشباك الهذب كم من هالك
ميثه يزعم قصرأ رمسه^(١)
بك ينمو رأس مال الملة
لا تبالي بجدي أو تلف
والى صدرك ضمي ولذك
هذه الأفراخ ، لما تطير

مُشعل مصباحنا من نارك
خلّقك الطاهر فينا رحمة
طفلنا علمته حين الفطام
صيع من حبك أطوار لنا
برقنا في سحب منك ثوى
ضاء دين الحق من أنفاسك
ذلك العصر غرور ماكر
عقله أعمى وبالله كفر
عينه عمن وقاح فاتك
صيدّه يحسب حرأ نفسه
بك يخضر غراس الوحدة
لا تسيري غير نهج السلف
احذري فتنة عصر مهلك
بُعدت عن عشها في خطر

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظن نفسه حرأ ، والميت يحسب رمة قصرأ لا يدري هذا
أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فِيكَ تَسْمُو لِلْمَعَالِي فَطَرَهُ فَاتَّبِعِي الزَّهْرَاءَ ، نَعَمْ الْأَسْوَةُ
عَلَّ غَصْنًا مِنْكَ يَأْتِي بِحُسَيْنٍ فَتَرَى النُّصْرَةَ رَوْضَاتِ ذَوَيْنِ

خلاصة مطالب المنظومة

في تفسير سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

مُزْهِرًا مِنْهُ تَرَابُ الْقَدَمِ
طُورُنَا مِنْهُ الْكَلِيمِ الْأَوَّلِ^(١)
صَحْبَةُ الْغَارِ وَفِي الْقَبْرِ ، الْوَفِيِّ^(٢)
مُطْلَعِ الدِّيَّانِ مِنْ أَهْلِ الْوَفَاءِ !
فَانْظُرُنِي مَا الطَّبُّ مِنْ أَدْوَانِنَا
سُورَةُ الْإِخْلَاصِ بُرْءُ السَّقَمِ
وَهِيَ لِلتَّوْحِيدِ سِرٌّ هَائِلٌ
وَلتَكُنْ مِنْهُ مَثَالًا لِلْجَمَالِ
بِكَ لِلْوَحْدَةِ فِي الدُّنْيَا سَمَا
لَمْ تَزُلْ عَمَّا تَعُودَتِ الْقَدَمُ
اقْصِدِي الْبَحْرَ وَخَلِّ الْقَنَاطِ
قَدْ بَعُدَتْ الْيَوْمَ مِنْ دَوْحَتِكَ
لَا تَقْطَعِ صَاحِ ! حَبْلُ الْوَحْدَةِ

ظَهَرَ الصَّدِيقُ لِي فِي الْحُلَمِ
ذَا « أَمِنُ النَّاسِ » فِينَا مَنْ جَلَا
هُوَ ثَانِي اثْنَيْنِ فِي الدِّينِ وَفِي
قُلْتُ : يَا صَفْوَةَ أَصْحَابِ الصَّفَاءِ
بِكَ قَرَّ الْأَسْرُ فِي بُنْيَانِنَا
قَالَ : حَتَّامَ أَسِيرُ الْوَهْمِ
نَفْسٌ فِي كُلِّ صَدْرٍ جَائِلٌ
فَاجْلُ هَذَا السِّرِّ فِي كُلِّ الْفِعَالِ
الَّذِي سَمَّاكَ عَبْدًا مُسْلِمًا
قُلْتُ : أَفْغَانٌ ، وَتَرْكٌ وَعَجَمٌ
طَهَّرَنِي الْحَقُّ مِنْ هَذِي السَّمَاتِ
يَا أَسِيرًا لِسَمَاتٍ وَيَحْكَا !
أَبْدَلِ الْوَحْدَةَ بِالثَّنِيَّةِ

(١) إشارة إلى الحديث : « أَمِنُ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ » .

(٢) كَانَ ثَانِي الرِّسُولِ فِي الدِّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْغَارِ ، وَفِي الْقَبْرِ إِذْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ دُفِنَ بِجَانِبِهِ .

عابد الواحد ! وحّد واهجرن
 أيها المغفل معنى الكلام
 أمة قطعته في أمم
 قوّة الإيمان زد بالعمل
 كل تفريق وللحق ارجعن
 أثبتن في القلب الفاظ الفهم
 هدمت الحصن فيه تحتمي
 مات إيمان إذا لم يعمل

﴿ الله الصمد ﴾

أشعرن القلب « الله الصمد »
 ليس عبد الله عبد السبب
 ليس غير الله يرجو المسلم
 لا تبئن شكاة أحدا
 بالشعير اقنع ، تقبل حيدرا
 فيم للأجواد حمل المن
 لا ترم رزق لثيم يُنغص
 إن تكن نملاً وكنّت المقعدا
 خفف الزاد ، طريق وعبر
 اجعلن « أقلل من الدنيا » الشعار
 وكن الأكسير لا الثرب بها
 تخلصن من قيد أسباب وحد
 ما الحياة الحق دور اللولب^(١)
 وهو للناس جميعاً سَلَمٌ
 لا تمدن إلى الخلق يدا
 مرحباً فاقتله ، وافتح خيبراً^(٢)
 أنت ، من لا ونعم في حزن
 يوسف أنت ، فأنى ترخص ؟
 لا تؤمل من سليمان جدى
 عش ومث حراً . عداك الغرر
 و« تعش حراً » بها كل الفخار^(٣)
 معطياً لا سائلاً . في حبها^(٤)

(١) إن أخلص الإنسان الله ، وتوكل عليه لا يقيد ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادة الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله علي رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بو علي » ليس مجهولاً لديك
 « تحت قابوس اركلن بالأرجل
 يفتح الحان عجولاً نفسه
 جرة من كأسه أهدي إليك : (١)
 ابذل الرأس وبالعرض اخل
 لفقير لم يدنس كأسه

قائد الإسلام هارون الرشيد
 قال : يا مالك مولى الأمة
 أنت يا بلبل فردوس الحديث
 لم يخفى ذا العقيق اليمن ؟
 حبذا زهرة أيام العراق
 تربته فيه من الشقم نجاة
 قال : « إني خادم للمصطفى
 أنا ، من قيدت في حبي له
 لي في يشرب حب واشتياق (٢)
 ويقول العشق : أمري امثلاً
 أنت تبغي أن ترى لي سيّدا
 التعليمك أغشى بابك
 إن ترّم في الدين علماً يفتني
 من سقى نقفور من ماء الحديد (٣)
 أنت يا رونق وجه الملة
 إني أرغب في درس الحديث
 اقصدن بغداد ، نعم الوطن (٤)
 حبذا حسن به الأعين راق
 قاطر من كزيمه ماء الحياة
 وبحبي حبه لي شرفاً
 كيف أنأى عن مكان حله
 أين من ليلى بها صبح العراق ؟
 لست أرضى بملوك خولا
 أن ترى مولى لحر عبدا
 خادم الأمة لا يعنو لك
 فاغشين حلقة درسي هاهنا

- (١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول
 لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .
 (٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .
 (٣) اليمن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في
 معدنه .
 (٤) في الأصل : أنا حي بتقيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الذي استغنى جديرٌ بالدلال
صبغة الحق من استغنى اكتسى
أنت من غيرك تجدو علمكما
أنت منه إشعارٍ تفخرو
خشعت أرضك من أمطاره
مطراً من مزنه لا تجتدي
سألت عقلك أفكار له
مستعارٌ كلم في فمكما
أعوزت طيرك الحان الغناء
أنت في كأسك خمراً تجتدي
لو يعود اليوم فينا ذو النظر
ماز صدقاً وكذباً سمعه
ثم نادى « لست مني » يا فتى
فإلام العيش مثل الأنجم
أنت قد غرّك صبح كاذب
أنت شمس نَفَسك اعرف كل حين
إن في قلبك نفساً من سواك
بسراج الناس مغناك أضواء

في دلالٍ عنده كل جمال
ورأى صبغ سواه دنسنا
بطلاء منه تطلّي وجهكما
أنت ذا أم غيرتك الغير^(١)
وخلا البستان من أزهاره
لا تُبد زرعك عمداً باليد
ملاّت حلقك أوتار له
مستعارٌ أمل في قلبكما
ليس في سروك في الجو رواء^(٢)
وكذاك الكأس جدوى في اليد
من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾^(٣)
وابتلى كل فراش شمعه^(٤)
ويلتا يا ويلتا يا ويلتا
يطلّع الصبح لها بالعدم
أنت عن نفسك حقاً ذاهب
لا تضئها من نجوم الآخرين
باعت الأكسير بالترب يداك
وبخمر الناس في الرأس انتشاء

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .

(٢) الشرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إن طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] .

(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لك حول الشَّمع في الحفل دوار
 ابقَ في مثواك مثل البصر
 حيَّ فردٌ نفسه قد عرفا
 عن طريق المصطفى لا تذهبن
 اغشين تارك . هل في القلب نار^(١)
 لا تدع عُشَّك مهما تطير^(٢)
 وقيل عن سواه صدفا^(٣)
 واترك الأرباب ، والله اعبدن

﴿ لَمْ يَكِلْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾

قد علا قومك عن لون ودم
 في وضوء قطرة من قبر
 اتركن عمّا وأمّا وأبا
 يا خليلي اسمع حديثي واعقلا
 قطرة من شقير كالقَبَسِ
 لم تقل هذي : أنا نيلوفر
 شأن إبراهيم في ملتنا
 إن جعلت الدم ركن الملة
 في ثرانا ليس ينمو بزركا
 وعلا أسوده حُمِرَ الأمم
 هي أغلى من دم من قبصر
 وكسلمان إلى الدين انبأ^(٤)
 من خلایا النحل هذا المثلا :
 ثم أخرى من بياض النرجس
 أو تقل هاتيك أني عبهر
 دين إبراهيم فيه شهدنا
 صدعت دعواك جمع الإخوة
 أنت ما أسلم حقاً فكركا

- (١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .
- (٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالْبَصَر ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .
- (٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدُّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .
- (٤) يروي أن سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نبيه ، فقال : سلمان بن الإسلام .

ابن مسعود سراج المتقين
أج من موت أخيه صذره
لم يجف الدمع من حرقة
« آه للفقاريء درس العظمة
« آه للسرو الذي قد وزفا
« عينه تحرم إصار النبي

ما من الأنساب يقوى وصلنا
إنما حب الحجازي الحبيب
حسبنا آصرة من حبه
جدد الدهر بنا سيرته
عشقه سر اجتماع الأئمة
صلة العشق لنا أقوى سبب
أيها العاشق خلل النسا
نور حق مثله أمثله
« نور حق ما حواه نسب
من ثوى في نسب أو بلد

جسمه والروح وجد المختين
وأذاب القلب منه جملة
ناخ نوح الأم في لوعته :
ورفيقي في طلاب الحكمة
وشريكي في ولاء المصطفى
وأنا أشهد أنوار النبي^(١)

ليس من روم وعرب أصلنا
قد حبانا ذاك الوصل القريب
حسب عين نشوة في قربه
مذ حوت أعراقنا نشوته
نبضت منه عروق الملّة
هو في الروح ، وفي الجسم النسب
خلل إيران ، وخلل العربا
قد نمت أغصاننا دوحته
ثوب حق ، لا سدى أو لحمة^(٢)
قد غفا عن ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

صاح ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقر
زهرةً من شَقيرٍ في القُننِ
نفساً يتفخ فيها السَّحرُ
تُشفق الزُّهرُ عليها تحسبُ
النَّدى منها نَعاساً يَغفلُ
﴿ لم يكن ﴾ أميكُ بها واشدُّ يدا
ذلك الواحدُ لا شريكَ له
قد سما المسلمُ أعلى مَنْ سَمَا
ورَّده ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزق
حملَ الكونين طراً ظَهَره
أذنه للرعْدِ إمّا جَلجلا
قاتِلُ الرُّورِ ، وللحقِّ ورز
جمره كلُّ لَهيبٍ في حشاه
ليس في ضوضاء هذي الأمم
هو في العفو وفي البذل عظيمُ
لُطفه في الحفلِ جبرُ المنكيرِ
هو في الرُّوضِ صفيَرُ البُلبلِ
قلبه تحت سماءٍ لا يقر
طائرٌ ينقر نجمَ الحُبكِ
أنت ، يا مَنْ لم يَطِرْ منك جناحُ !
مستكينٌ تشكي جور الزَّمانِ

عامراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟
لم ترُعها طلعةً من مُجتنٍ
فتراهما لهباً يستعرُ
أنها خُلف عنها كوكبُ
وشُعاعُ الشَّمسِ فيها قُبُلُ
تُرى في الناس حُزراً أو حُدا
عبدُه يأبى شريكاً مثله
ليس يرضى بمُسامٍ في السَّما
﴿ أنتم الأعلى ﴾ تاجُ المَفرقِ
وحوى برّاً وبحراً صدره
صدره لِلْبَرِّقِ إمّا نَزلا
أمره المعيار في خيرٍ وشرِ
جوهراً فيه كمالٌ للحياه
نغمَةٌ إلا أذانُ المُسلمِ
وهو حين القَهرِ ذو طبعٍ كريمِ
قهره في الحربِ صهرٌ للحجرِ
وهو في البَيدِ انقضاضُ الأجدلِ
هو فوق الزُّهرِ ما إن يستقر
طائرٌ فيما وراءَ الفَلَكِ
دودةٌ في ظلمةِ الشُّربِ تُراح
قد أصبَتْ الدُّلَّ من هَجَرِ القُرآنِ^(١)

قَدْ هَبَطَتْ الْأَرْضَ طَهْرًا كَالْنَّدَى بِالْكِتَابِ الْحَيِّ أَمْسَكَتْ يَدَا
فِي لَامِ الْعَيْشِ فِي الثَّرْبِ ؟ اِرْحَلَا اصْعَدَنْ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَّرْتُ مِنْكَ مُحَيَّاها الْحَيَاةَ وَرَأَتْ تَعْيِيرَ رُؤْيَاها الْحَيَاةَ
الْجِهَاتِ السَّكُّ نَوْرٌ يَسْطَعُ مِنْكَ ، وَالْأَقْوَامُ جَمْعًا تَبْعُ
إِنَّ فَقْرًا فِيكَ ذَخِرُ الْكَائِنَاتِ قَدْ تَعَالَى بِكَ قَدْرُ الْكَائِنَاتِ^(١)
أَنْتَ أَشْعَلْتَ مَصَابِيحَ الْحَيَاةِ وَحَبَوْتَ النَّاسَ مِنْ رَقٍّ نَجَاةِ
صُورُ الْكَوْنِ بَدَتْ مِنْ دُونِكَ فَاقَةً تَشْكُو وَتَشْكُو الْحَلَاكَ
نَقَسٌ مِنْكَ أَطَارَ الشُّرَا فَاسْتَحَالَ الطَّيْنُ مِنْهُ بَشْرًا^(٢)
وَسَمَتْ لِلنَّيْرِينِ الذَّرَّةُ وَتَجَلَّتْ مِنْ حَشَاها الْقُوَّةُ
مِنْ أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَقْرَبُ مَذْ رَأَى وَجْهَكَ طَرْفِي الْمَعْجَبُ
عَشْقُكَ النَّارَ بِجَسْمِي يُضْرِمُ فَلْيُذِْبْ رُوحِي مِنْهُ ضَرْمُ
وَمَتَاعِي أَنَّهُ مِثْلَ الرَّبَابِ إِنَّهَا الْمَصْبَاحُ فِي بَيْتِي الْخَرَابِ
كَيْفَ لَا يُبْدِي شَجَّ أَتْرَاحِهِ ؟ كَيْفَ لَا يُبْدِي زَجَاجُ رَاحِهِ ؟
ضَلَّ عَنْ سِرِّ النَّبِيِّ الْمُسْلِمُ مَوْثَأً قَدْ صَارَ هَذَا الْحَرَمُ^(٣)
كُلُّهُمْ فِي قَلْبِهِ يَثْوِي هُبْلُ وَمَنَاةٌ فِيهِ وَالْعُرَى تُحُلُّ

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكلم » .

(٢) يعني : أَنَّ الْكَائِنَاتِ قَبْلَكَ كَانَتْ فِي ظِلَامٍ وَفَاقَةً وَحَاجَةً إِلَى مَنْ يَبْعَثُ فِيهَا الْحَيَاةَ وَالْقُوَّةَ .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شَيْخُنَا يَفْضُلُهُ الْبَرْهَمَانُ
هَجَرَ الْعَرَبَ ، وَفِي الْعَرْبِ عِصْمُ
فَتْ بَرْدُ الْعُجْمِ فِي أَعْضَائِهِ
هُوَ ، كَالْكَافِرِ ، يَخْشَى الْأَجْلَا
دَاوَهُ كُلُّ طَيِّبٍ مَا شَفَا
هَالِكَا عَرْفَتِهِ مَاءَ الْحَيَاةِ
قُلْتُ عَنْ أَحْبَابِ نَجْدٍ قِصَّتِي
فَأَضَاءَ الْحَفْلَ مِنْ لِحْنِي آيَاةَ

سُمْنَاتُ رَأْسِهِ يَسْتَوِطِنُ^(١)
وَأَطَالَ النَّوْمَ فِي حَائِ الْعُجْمِ
دَمْعُهُ أَبْرَدُ مِنْ صَهْبَائِهِ
صَدْرُهُ مِنْ قَلْبٍ حَيٍّ قَدْ خَلَا
فَحَمَلْتُ النَّعْشَ عِنْدَ الْمَصْطَفَى
وَمِنَ الْقُرْآنِ أَسْرَارَ النَّجَاةِ
حَدَّثْتُ عَنْ رَوْضِ نَجْدٍ نَفْحَتِي
وَدَرَى قَوْمِي أَسْرَارَ الْحَيَاةِ^(٢)

قِيلَ : أَهْدِي سَحَرِ أَوْرُثَةٍ لَنَا
وَاهْبِي عَوْدَ سُلَيْمَى كَرَمًا
أَهْدِ لِلْحَقِّ ، الَّذِي قَدْ أَفْكَأَ
إِنْ يَكُنْ قَلْبِي غَوَى لَا يُبْصِرُ
أَنْتِ يَا مَنْ نَوْرُهُ صَبَحُ الْعُصُورِ
أَهْتَكُنْ أَسْتَارَ فِكْرِي وَافْضَحْنِي
وَحَيَاتِي اقْطَعِ لِأَجْلِ الْأُمَّةِ
أَبْعِدْنِي عَنْ رَوْضَتِي الْغَيْثِ الْمَرِيعِ
جَفَّفِ الرِّاحَ بِكَرْمِي عَاجِلًا

وَبِقَانُونِ الْفَرَنْجِ افْتَنَّا^(٣)
وَالْأَبُوصِيرِي بُرْدًا كَرَمًا^(٤)
الَّذِي يَجْعَلُ مَا قَدْ مَلَكَا^(٥)
أَوْ سَوَى الْقُرْآنِ لَفْظِي يُضْمِرُ
أَنْتِ يَا عَالِمَ أَسْرَارِ الصَّدُورِ
طَهَّرْنِي مِنْ شَوْكَتِي رَوْضَ الزَّمَنِ
وَكَفَيْتُنِي شَرِّي أَهْلَ الْمَلَةِ
وَاحْرَمْتَنِي مِنْ شَأْبِيبِ الرَّبِيعِ
وَامْلَأْنِي وَاحِي سُمَّاً قَاتِلًا

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعبد الهنالك بناءه اليوم .

(٢) الآية : شعاع الشمس .

(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .

(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمان يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .

(٥) أهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخزيتني يوم حشر الأمم
أو أكن أخلصت نصحي في البيان
فدعاءً منك أجري وكفى
اسألن الله رب العرش لي
رب قد أنعمت بالروح الحزين
فاجعلن في الفعل حظي أوفرا

مذ حوى قلبي في الدنيا مقام
شاهداً صبح حياتي الأولا
مذ شدا باسمك أمي وأبي
ودهانني ربه والمحن
ونما بالعتق فيه الثمل
كوكب في جنح ليلي يسفر

أمل آخر في القلب أقام
هو في صدري كقلبي نزلا
أمل أذكيئت منه لهبي
كلما غيظ مني الزمن
شب في قلبي هذا الأمل
إنه تحت ترابي جوهـر

وتعشقت ذوات الطـرر
حين أطفأت سراج العافيه
وغزا قلبي قطاع الطريق
ويكيسي لم يزل هذا النضار

همت حيناً بذوات الحور
وعلى الرّاح صحبت الغانيه
وأحاطت بيدي ناز البروق
وبروحي لم يزل هذا العُفار

لبس الزُّنار عقلي الأزري
وغزا روحي بالنقش الفري^(١)

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجياً .

فِي إِسَارِ الشُّكِّ أَمْضَيْتَ سَنِينَ
 أَحْرُفًا مَا نَلَتْ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ
 لَمْ يَلُحْ فِي لَيْلِ عُمْرِي نَوْرٌ حَقٌّ
 وَفُؤَادِي مُضْمَرٌ هَذَا الرَّجَاءِ
 ثُمَّ مِنْ عَيْنِي دَمْعاً سَجَماً
 وَهُوَ فِي رَأْسِي مَقِيمٌ لَا يَبِينُ
 وَمِنْ الْحِكْمَةِ فِي الرِّيبِ رَهِينٌ^(١)
 لَمْ يُنَزْ لَيْلِي شِعَاعٌ مِنْ شَفَقٍ
 صَدَفٌ فِي قَلْبِهِ دُرٌّ أَضَاءُ
 وَتَجَلَّى فِي فُؤَادِي نَغْمًا^(٢)

يَا مَنْ الْقَلْبُ سِوَاهُ أَغْفَلَا !
 سِيرَتِي مَا ضَاءَ فِيهَا الْعَمَلُ
 أَنَا مِنْ إِظْهَارِهِ فِي حَجَلٍ
 يَا رَحِيماً بِكَ لِلنَّاسِ مَقَارِ
 هَجَرٌ غَيْرَ اللَّهِ شَأْنُ الْمُسْلِمِ
 حَسْرَةُ الْمُسْلِمِ إِنَّ حُجْمَ الْمَمَاتِ
 وَيَلْ يَوْمِي ، وَهَيْئاً لِنَدِي
 حَبْذا أَرْضٌ تَرَاهَا مُوْطِنَا !
 ائْذَنْ أَذْكَرَ هَذَا الْأَمَلَا
 كَيْفَ مِثْلِي مِثْلَ هَذَا يَأْمُلُ ؟
 مِنْكَ لُطْفٌ يَسِّرُ الْجُرْأَةَ لِي
 كُلُّ مَا أَبْغَيْهِ مَوْتِي فِي الْحِجَازِ^(٣)
 كَيْفَ لِي عَيْشٌ بَيْتِ الصَّنَمِ ؟
 أَنْ يَكُونَ الدَّيْرُ مَشْوًى لِلرُّفَاتِ^(٤)
 إِنْ أَقُمَ فِي ذَا الْحِمَى مِنْ لَحْدِي
 حَبْذا تَرَبُّ تَرَاهُ مَسْكِنَا !

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوّل دمعاً سَجَمَ في عينيه ، ونغماً رنّ في قلبه .

(٣) كرّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجّ ، وسأله أن يدعو الله ليقبل حجّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دَارُ حُبِّي وَمَلِكِي وَالْمَكْنِ
 كَوَكْبِي أَطْلَعُهُ بِالسَّعْدِ غَدَا
 لِيَرَى الرَّاحَةَ قَلْبِي الْقَلْبُ
 أَيُّهَا الدَّهْرُ انظُرْ هَذَا السَّلَامُ
 أَيُّهَا الْعُشَّاقُ ! ذَا نِعَمَ الْوَطَنِ »^(١)
 فِي ظِلَالِ الدَّارِ هَبْ لِي مَرْقَدَا
 وَيَرَى الْهَدَاةَ هَذَا الزُّبُقُ
 قَدْ رَأَيْتَ الْبَدَأَ فَانظُرْ مَا الْخَتَامُ

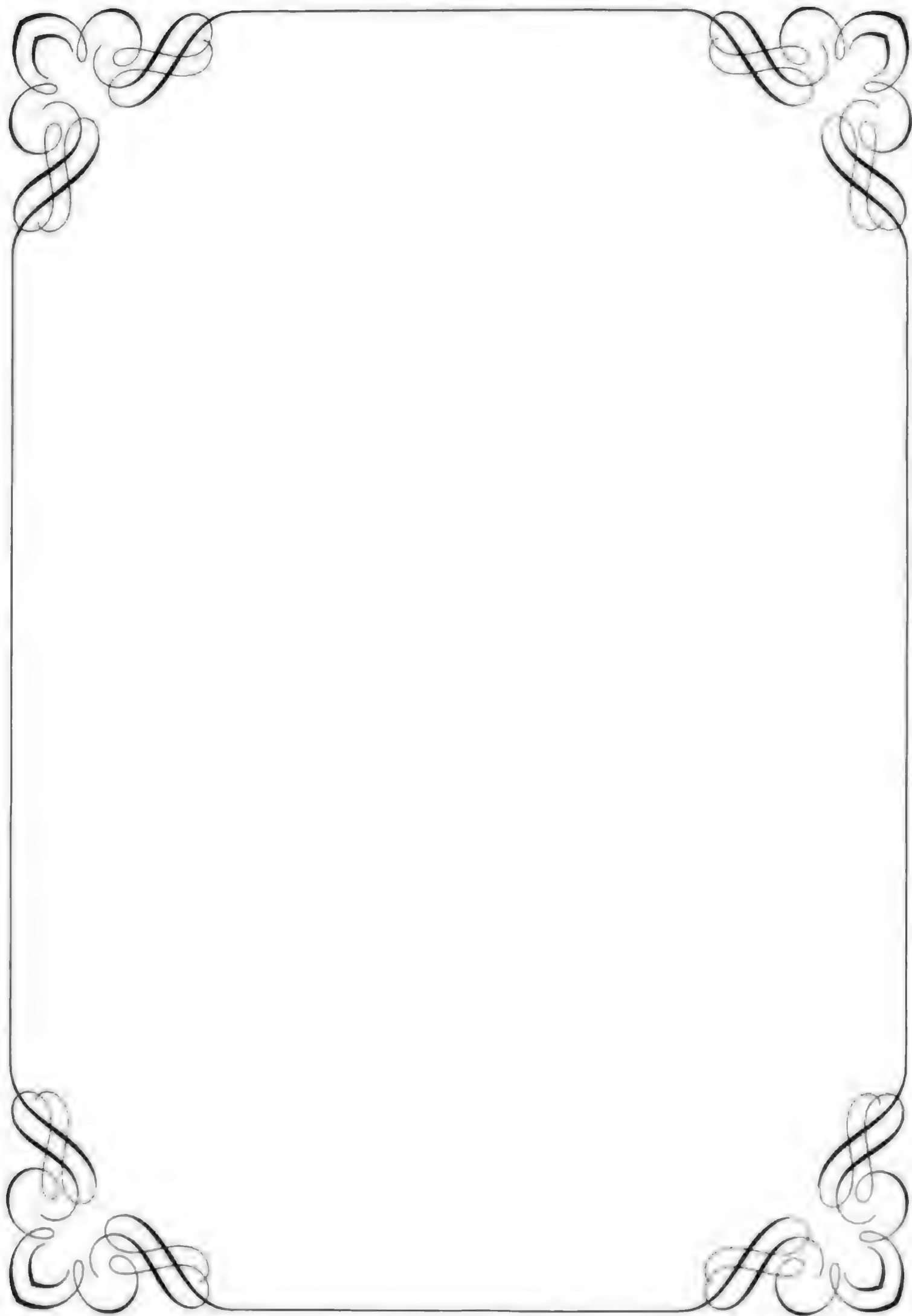


(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .

الدِّيَّوَانُ الثَّالِثُ

رِسَالَةُ الشَّرْقِ
پیام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
الدُّكْتُور عَبْدُ الْوَهَّابِ عَزَّام



طبع هذا الديوان أوّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشاعر فوق
عنوان الديوان : ﴿ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب
ديوان الشاعر جوته » .

وقدّم محمد إقبال هذا الديوان على أنّه شعر الفارسيّة الكامل ، لأنّه قدّم إلى
القارئ اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر
الفارسي من الغزل والرّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويصادفنا في
الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات
فيها وألوان وصنوف الرّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشات الزهر من المشرق
والمغرب .



محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضرب الذي يسمّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلاً ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمس وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويرد .

القسم الخامس : الدقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الديوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدّم إليك الآن مع مقدمة الشاعر .

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيّام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقال له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزّام .

استراسبورج حيث كان يتعلم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقنّدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنّ قصّته « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت بيكر » واستهلّها بقوله :

كفت كز جمله ولايت روس

بود شهري بنيكوئي جو عروس

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتداء التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهياة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروية أخذت روحه القلقة المحلقة تلتمس عشاء في فضاء الشرق الساكن الأمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختر آخر الأمر « للديوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرة في جوته فحسب ، بل كانت مأخذاً لخيالاته العجيبة الغربية ، فيبدو نظمه أحياناً كأنّه ترجمة حرّة من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوة تخيُّله في مصرع

واحد مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغة في الدقة والضعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أن روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجد فيه حافظ في ذلك الشُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحزُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوته المطبوعة تتجلى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »^(١) وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضي في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلاً في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه - ساقى نامه - عشق نامه - تيمور نامه - حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كله فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غريبته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التصوف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفيّاً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصوفي في كلام حافظ أيّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرومي وحقائقه الفلسفية مبهمّة عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي) ^(١) .
والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .



وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمّا بلاتن ؛ فقد تعلّم الفارسيّة لمقاصد أدبيّة ، ونظم غزلاً في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدة في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلف ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغرُّل المحض كذلك .

وأما روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانة عظيمة في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية^(١) وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظومات بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدّة قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الزّوج العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلة بالتأثير الشرقي ، ولم يهتمّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشرقي إلا ديوان جوته ، على أنّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنّ قلب هذا الشاعر الألماني الحرّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوّر نفسه مرّة شاعراً إيرانياً أجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنّ أخاكم في سجن الغم يخفق حيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلة ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلة عالية في العلم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقّاً ، ولكن لم يتيسّر الوقت ، ولا العدّة لهذا البحث . ولعلّ هذا البحث المختصر يشير قلب أحد الشبان للتحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

وأما « پیام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنّ الاضطراب الباطن في أمم العالم . . الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به - هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن القطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيّتي « الذي كان رئيس وزراء إيطاليا » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن وأسفاه لم يستطع عبّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدرُوا الانقلاب المدهش الذي كان يشور في الضمير الإنساني .

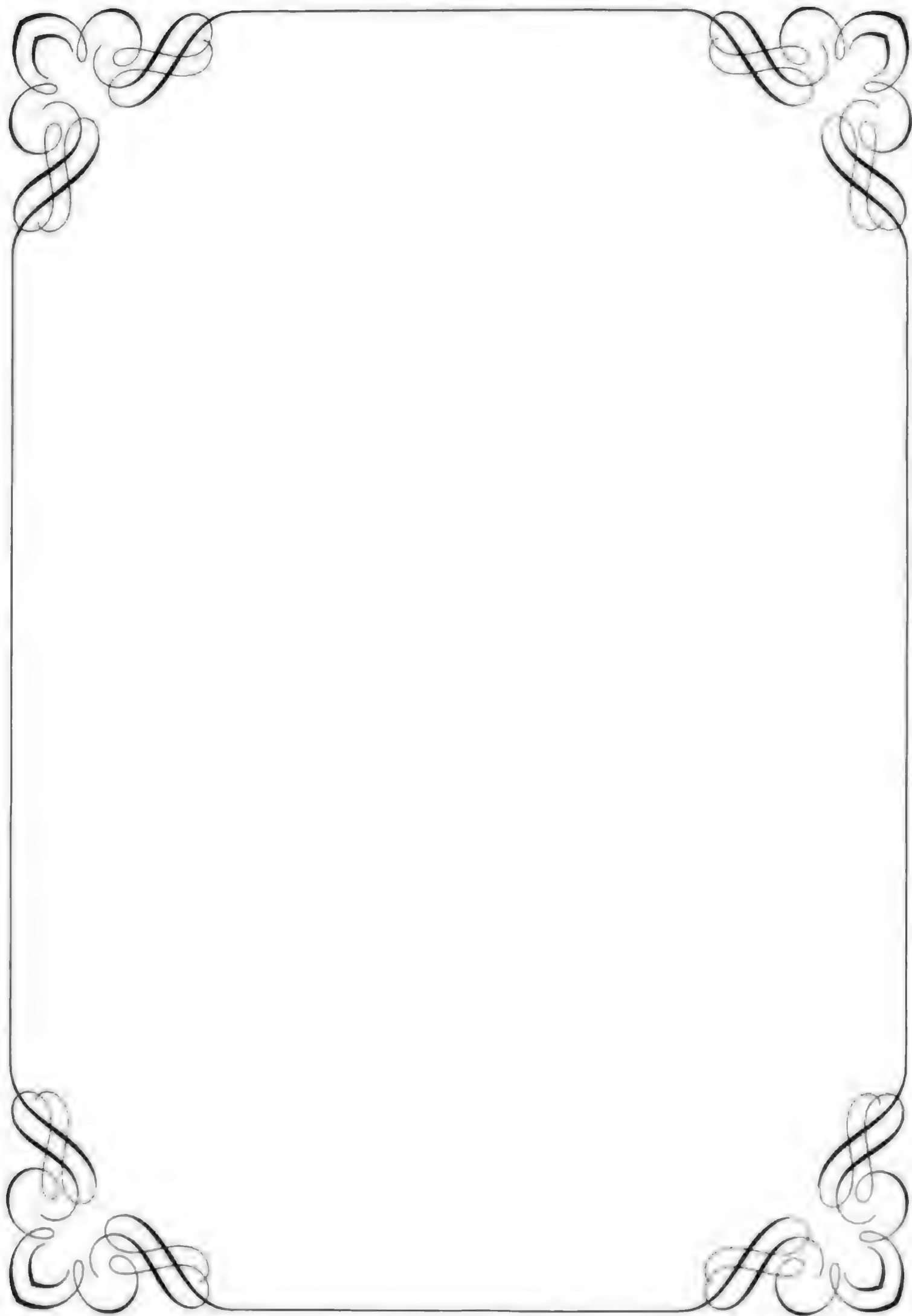
وإذا نظرنا نظرة أدبية خالصة نرى أنّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مثلٍ روحية صحيحة ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ،
والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شك أنَّ أمريكا عنصر صحيح
في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ،
ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة .
ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدَّل ما حولها حتى
يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي
حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في
كلماتٍ يسيرةٍ وبلغيةٍ : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]
إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في
كتبي الفارسية أن أبين للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسميٍّ في العالم
- ولا سيما في بلاد الشرق - يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق
الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

وأختم بالشَّاء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قدرَّتْ مُسَوِّدات
« پیام مشرق » للطبع . ولولا احتمال هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه
المجموعة مدَّةً طويلة .

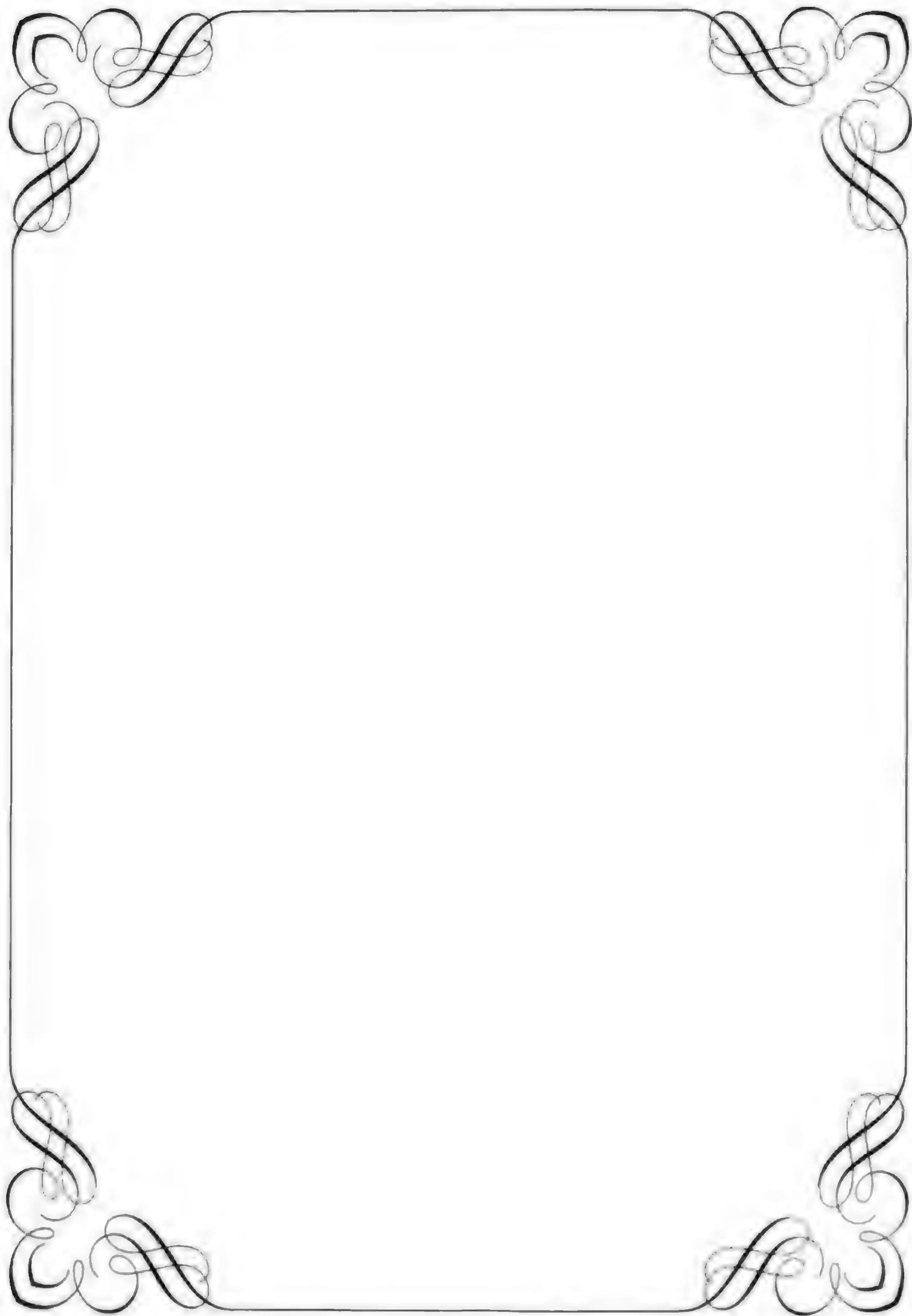
إقبال



القسم الأول

شقائق الطور





- ١ -

شَهِيدٌ دَلَالَهُ خَفِلُ الْوُجُودِ وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مِنَ السُّجُودِ^(١)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ شَمْسَ الْأَفْقِ لَاحَتْ بِوَجْهِ الصُّبْحِ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ؟

- ٢ -

بِقَلْبِي مِنْ تَحَرُّقِهِ ضِيَاءُ وَيَجْلُو النُّورَ فِي عَيْنِي الْبُكَاءُ
فَزَادَ مِنَ الْحَيَاةِ نَوًى غَبِيًّا يَقُولُ : الْعِشْقُ مَسٌّ أَوْ هَرَاءُ

- ٣ -

نَسِيمُ الْعِشْقِ فِي الْجَنَّاتِ جَارٍ وَيُنَمِّي الْعِشْقُ أَزْهَارَ الْبَرَارِي
وَيَخْتَرِقُ الْبَحَارَ لَهُ شِعَاعٌ فِيَهْدِي الْعِشْقُ حَيْثَانَ الْبَحَارِ

- ٤ -

رَمُوزُ الْعِشْقِ فِي وَرَقِ الشَّقَائِقِ وَغَمُّ الْعِشْقِ فِي رُوحِ الْخَلَائِقِ
وَإِنْ تَضَعُ طَبَاقَ الْأَرْضِ تُبْصِرُ نَصِيبَ الْعِشْقِ مِنْ دَمِ كُلِّ عَاشِقٍ

- ٥ -

وَمَا كُلُّ لَهُ فِي الْحُبِّ كَفْلٌ وَمَا كُلُّ الْوَرَى لِلْحُبِّ أَهْلٌ
عَلَى وَرَقِ الشَّقَائِقِ وَسُمْ غَمٌ وَيَخْلُو مِنْ شَرَارِ الْقَلْبِ لَغْلٌ^(٢)

- ٦ -

بِهَذَا الْمَرْجِ مِثْلَ الرِّيحِ^(٣) أُسْرِي عَلَامَ أَهِيْمُ فِيهِ ؟ لَسْتُ أَدْرِي
فَإِنْ أَظْفَرَ وَإِنْ أَخْفَقَ فَإِنِّي شَهِيدٌ تَضَرُّمِ الْأَمَالِ غُمْرِي

(١) جمع ساجد .

(٢) اللعل : أي العقيق .

(٣) الريح : الرائحة .

يقول العندليب : أيا صحابي ! أغيرُ الغمُّ في هذا التراب ؟
يشيخُ الشوكُ في عَرْضِ الفيافي ويدوي الورْدُ في عُمُرِ الشبابِ

لَبْدَةٌ أو ختامٌ لَسْتُ أُسْرِي أَنَا سِرُّ أَحَاوِلُ كَشَفَ سِرِّ
فَإِنْ بَدَتْ الحَقِيقَةُ دُونَ سِتْرِ رَجَعْتُ إِلَى « لَعْلٌ » وَ « لَيْتَ شَعْرِي »

أَقْلِبِي ! كَالْفَرَّاشِ هَوَى ، إلامه ؟ وَلَا تَمْضِي مَضَاءَ فَتَى ، إلامه ؟
بَنَارِكَ فَاحْتَرَقَ يَوْمًا وَأَقْدَمَ بِنَارِ الْأَجْنَبِيِّ صَلَّى ، إلامه ؟^(١)

أَقِمِ يَدْنًا عَلَى كَفِّ الْغُبَارِ^(٢) شَدِيدَ الْأَسْرِ صُلْبًا كَالْحِجَارِ
وَقَلْبًا فِيهِ جِئَاشًا بِهِمْ كَنَهْرٍ فِي حِمَى الْأَطْوَادِ جَارِ

أَنْجَمَ الصُّبْحِ تُسْرِعَ فِي فِرَاقِ لَعْلِكَ مِنْ رُقَادِي ضَقَّتْ ذُرْعَا
ضَلَلْتُ بِغَفْلَتِي سُبُلِي وَلَكِنْ أَتَيْتَ وَجُرُتْنَا يَقْظَانِ تَسْعَى

وَكَمْ ذَا فِي الْوُجُودِ مِنَ الْحُبُورِ ! أَرَى اللَّذَاتِ فِي شَوْقِ الظُّهُورِ
وَيَصْدَعُ غُصْنَهُ بُرْعُومُ زَهْرٍ فَيَسِمُ لِلْحَيَاةِ مِنَ الشُّرُورِ

تَقُولُ فَرَاثَةً مِنْ قَبْلِ خَلْقِ أَنْلَسِي لِمَحَاةٍ قَلَقِ الْحَيَاةِ
رَمَادِي فَادْرُهُ سَحَرًا وَلَكِنْ أَذُقْنِي لَيْلَةً حُرَّقَ الْحَيَاةِ

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .

(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشيت خاك » .

بني الإسلام ! سرُّ في ضميري يُضيء كروح جبريل الرسول
أخادع آزري الطبع عنه^(١) فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

أراك بسرُّ أفلاك تجوُّل وتجهل سرُّ نفسك يا جهول
فوجّه - كالنواة - إليك عينا ليثبت من قرارتك النخيل

تغنى طائرٌ سحرًا طويلاً فأبدع شدوه نغماً وقبلاً :
أين عمّا بصدرك لا تدغّه غناءً أو أنيناً أو عويلاً

أتبغي عند مثلي من شرابٍ يرذّك من وجودك كالبعيد
فلا تطلّب بسوقي من متاعٍ سوى صدرٍ تمرّق كالورود^(٢)

تسوءك روضتي مرأى إذا لم يسرّك في طلابٍ بذلُ روح
أبين في غروق الورد سرّاً ربيعي ليس من لونٍ وريح

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ على غضني أنوح مع الرياح
فإنّ تك من رفاق القلب فابعد فإنّ دمي ليرشح في نواحي

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبل وعان الكدّ في بحرٍ وبرٍ
وموتن في الوغى تزدّد حياةً إلام تحيد عن كرٍّ وفرٍّ ؟

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمرّق صدره ليتجلّى جماله .

له نقشٌ يُجَدِّدُ كُلَّ حِينٍ فلا تَبْقَى الحياةُ على غرارِ
فإنَّ صَوَّرْتَ يومَكَ مثلَ أمسٍ فما يَحْوِي تَرابَكَ مِنْ شَرارِ

بهذا المَرْجِ ما عَلَّقْتُ قلبي مضيتُ ولم تعوِّقني القيودُ
كريحِ الصُّبحِ طَفْتُ به قليلاً مضيتُ ونَضَّرْتُ مِنِّي الورودُ

أجاش بقطرتي بحرأ وردتُ حُمَيَّاه تَرابِي جامِ جَمٍّ^(١)
أقام العقلُ أصناماً براسي خَلِيلُ العِشْقِ بادرها بهدمِ

أتيتَ الطُّورَ تَلْتَمِسُ التجلِّي فروحُكَ منك لست في وصالِ
فأَقْدِمُ في طَلائِكَ آدميأ كذاك اللهُ في طَلَبِ الرُّجَالِ

لخوفِ الموتِ قلبُكَ في ارتعادٍ ولونُكَ حالٌ مِنْ خوفِ الشَّتاتِ
فنفْسُكَ أَحْكَمْنَ وازدد نضوجأ فإنَّ تفعل تعشُّ بعد المماتِ

دَعِ الرَازِيَّ في تفسير آي فإنَّ ضميرنا نعم الدليلُ
يضرِّم عقلنا والقلبُ يصلِي بذا نمروُدُ فسَّر والخليلُ

فأبلغ شاعر الألوانِ عني : لهيُكَ كالشَّقائِقِ لا يَضِيرُ
فنفْسُكَ لا تُذِيبُ بنارِ قلبِ ولا ليلأ لمحزُونٍ تَنِيرُ
جميلُكَ أو قبيحُكَ لا أراه جَعَلْتَ عياره ربحأ وخُسارأ
بهذا الحفلِ من مثلي وحيدأ ؟ أرى الدُّنيا بعينٍ فيَّ أخرى

(١) كَأَسْ جَمَشِيد أَحَدُ مُلُوكِ الْأَسَاطِيرِ الْفَارَسِيَّةِ كَانَ يَرَى فِيهَا الْعَالَمَ .

دع الشُّطَّانَ لا تَرَكْنَ إِلَيْهَا ضعيفٌ عندها جَرَسُ الحِياةِ
عليك البحرُ صارَ فيه موجاً حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

أَتَكْثُرُ لي حديثاً عن حياةٍ وَلَسْتُ أراكَ فيها بالحَقِيقِ ؟
سَكِرْتُ بلَذَّةِ التَّسْيَارِ حَتَّى جَعَلْتُ منازلِي مِثْلَ الطَّرِيقِ^(١)

مَرَزْتُ بزَهْرَةٍ ذَبَلْتُ فَقَالَتْ وَجُودِي مِثْلُ مَا طَارَ الشَّرَارُ
يَذُوبُ لِمَخْنَةِ النِّقَاشِ قَلْبِي فَلَيْسَ لِنَفْسٍ لِيَقْتَهُ قَرَارُ

أَرَى الدُّنْيَا عَلَى سَعَةٍ كَحَوْتِ مِنْ الأَيَّامِ فِي بَحْرِ عَمِيقِ
قَلْبِكَ أَبْصَرْنَا وَاعْجَبَ لِبَحْرِ مِنْ الأَيَّامِ فِي كَاسِ غَرِيقِ

أَنَا فِي المَرَحِ حَدِيثُ الطَّيُورِ وَمَقُولُ كُلِّ بُرْعُومٍ صَغِيرِ
فَأَسْلَمَ لِلصَّبَا تُرْبِي بِمَوْتِي فَمَا لِي غَيْرُ طُوفٍ بِالرُّهُورِ

أَوَادِي الوردِ يُبْدِي كُلَّ شَيْءٍ فَمَا سِرُّ الشَّقَائِقِ فِي لَهيبِ ؟
بِأَعْيُنِنَا الرُّبَى أَمْوَاجُ لَوْنٍ فَكَيْفَ تُرَى بَعَيْنِ العَنَدَلِيبِ

دِمَاجِي يَعْشَقُ الأصْنَامَ كَفَرَاً يَرْبُّهَا وَيَعْبُدُ كُلَّ حِينِ
فَأَبْصَرَ فِي فَوَادِي نَارَ عَشْقٍ بَعِيداً أَنْتَ مِنْ سَنَنِ وِدْنِي

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر بين المسافة .

عِوَالِمُ مِنْ نَجُومٍ لَا تُحَدُّ يَطِيرُ الْفَكْرُ فِيهَا لَا يُرَدُّ
وَلَكِنْ فِي خَفَايَا الْقَلْبِ يُلْفَى لَمَّا يَحْتَوِيهِ الْحَدُّ ، حَدُّ

بَسَلْسَلَةُ الْقَضَاءِ رِبَطَتْ رَجُلًا وَفِي سَعَةِ الْعِوَالِمِ ضُمَّتْ حَالًا
فَقُمَ إِنْ كُنْتَ فِي رَيْبٍ وَحَاوَل تَجَدُّ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا مَجَالًا

بِضَرْبِكَ قَدْ عَلَتْ أَنْعَامُ رُوحِي أَفِي رُوحِي وَخَارِجَهَا تَكُونُ ؟
بَرْقِكَ خَامِدٌ وَبِكَ اشْتَعَالِي بَلَا كَيْفٍ فَكَيْفَ تُرَى بِدُونِي

أَرَى الْأَنْفَاسَ مِنْ جَدْوَاهِ مُوجًا وَمِنْ أَنْفَاسِهِ نَابِي وَنَفْمِي
عَلَى النَّهْرِ الْمُؤَيَّدِ قَدْ نَبَتَا وَقَطَرُ نَدَاهِ أَعْصَابِي وَجَسْمِي

-

أَيَا طِفْلَ السَّجَايَا أَسْمِعْ عَتَابِي أَيْسَلَامَ وَفَخْرَ بَيَانَتَسَابِ ؟
فَأَنْ تَعْتَزَّ بِالْإِنْسَابِ عَرَبٍ فَأَنْ جَزَاءَهَا هَجْرَ الصَّحَابِ

-

أَفْئَانٌ وَتَاتَارٌ وَتَرْكٌ وَفِي مَرْجٍ وَمِنْ غَصْنٍ نَمُونَا
حَرَامٌ بَيْنَنَا تَفْرِيقٌ لَوْنٍ رَيْعٌ وَاحِدٌ فِيهِ زَهُونَا

-

ثَوْتُ فِي صَدُورِنَا هَمٌّ كَبَارُ بَطِينَتَا فُؤَادٍ فِيهِ نَارُ
مِنْ الْخَمْرِ الَّتِي فِينَا أَضَاءَتْ مَقِيمٌ فِي زَجَاجَتِنَا شَرَارُ

أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا قَلْبِي ! أَيَا فُلُكِي ! وَيَا بَرْيَ وَبَحْرِي !
قَطَّرْتَ عَلَى تُرَابِي كَالنُّدَى أَمْ نَبْتُ بِتُرْبَتِي بُرْعُومَ زَهْرٍ ؟

أَتَسْأَلُ مَنْ أَنَا مِنْ أَيْنَ جِئْتُ حَيْثُ بِمَا عَلَى نَفْسِي طُوبِيتُ
بِهَذَا الْبَحْرِ مِثْلَ الْمَوْجِ أُسْرِي إِذَا لَمْ أَطُوفِ فِي نَفْسِي فَنِيْتُ

عَلَيْكَ التَّيْرَ لَا تَرْغَبْ مَقِيلًا وَسِرُّ كَالشَّمْسِ لَا تَرْقُبْ دَلِيلًا
وَهَبْ لِلْآخِرِينَ مَنَاعَ عَقْلِ وَنَارَ الْعِشْقِ فَاحْفَظْهَا بَدِيلًا

أَلَا يَا عَشْقُ ! يَا رَمَزَ الْفُؤَادِ ! وَيَا زَرْعِي النُّضِيرِ ! وَيَا حِصَادِي !
تَقَادِمُ أَهْلُ هَذَا الثَّرْبِ فَاخْرُجْ بِأَدَمِ مُحَدَّثٍ مِنْ ذَا الرَّمَادِ

يَرَى قَلْبُ الشُّجَاعِ اللَّيْثَ وَهَمًا وَفِي قَلْبِ الْجَبَانِ الظُّبْيَ بَيْرًا
فَإِنْ تَجِبُنْ رَأَيْتَ الْمَوْجَ وَحِشًا وَإِنْ تَشْجُعْ فَإِنَّ الْبَحْرَ بَرًّا

أَخْمَرًا خَلْتَنِي أَمْ كَأْسَ خَمَرٍ وَدُزَا خَلْتَنِي أَمْ كَيْسَ دَرٍ
أَرَانِي غَيْرَ رَوْحِي وَهِيَ غَيْرِي مَتَى أَنْظُرَ إِلَى مَكْنُونِ سَرِّي

تَقُولُ : بَطِيرْنَا عَلِقَتْ قِيودُ وَفِي شَرِكِ الْجِسْمِ لَهَا هَمُودُ
وَمَعْنَى الرُّوحِ بِالْأَجْسَامِ يَعْلُو مِمَّنْ سَيُوفِنَا هَذَا الْعُمُودُ

فَكَيْفَ بَقَلْبِنَا وَلَدَ الرُّجَاءِ وَكَيْفَ سَرَّاجُ مَنْزِلِنَا يُضَاءُ
وَمَنْ فِي الْعَيْنِ يَبْصُرُ ؟ مَا يَرَاهُ ؟ وَكَيْفَ حَوَى النُّهَى طِينُ وَمَاءُ

لَنَا كَوْنٌ لِأَزْمِيلٍ وَنَحْتِ يَقْلِبُهُ صَبَاحُكَ وَالْمَسَاءُ
مِثَالُ مَنْ تُرَابٌ لَمْ يَكْمُلْ يَسْؤِيهِ بِمَبْرَدِهِ الْقَضَاءُ

طَرِيقُكَ فَاَنَحْتَنِهِ فِي كِفَاحٍ طَرِيقُ سَوَاكِ مَسْلُكُهُ عَذَابُ
فَإِنْ أَبْدَعْتَ فِي عَمَلٍ فَرِيٍّ وَإِنْ يَكُ مَأْثِمًا فَلَكَ الثَّوَابُ

دليلُ القلب لا يرضى نزولاً ولا يرضيه ماؤك والتُّرابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيماً فلا يرضى بشطّ ذا العُباب

تَخَذْتُ لخلوتي طيني ومائي وبُوعَدَ بين أفلاطٍ وبينِي
فلم أستجد يوماً عينَ غيري ولم أرَ عالمي إلّا بعيني

تري رمز الحياة بكل كمّ مجازٌ فيه يا قلبي الحقيقة
بُشربٍ مظلّم ينمو ولكن له عينٌ إلى شمس الخليفة
يُضيء على المروج وكلّ سَهَبٍ^{٥١} وكاسُ الورد فيه نورٌ حُبّ
وما تَغشى الورى ظلماتٌ ليلٍ فحرقته السّراج لكلّ قلب

وبالعدم استزابت ثمّ راغت فحلّت قلب آدم للثّواء

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروحٍ فلا فزع إذا أجلي أتاني
فإمّا غاب عن عينيّ كونٌ فباقٍ ألفُ كونٍ في جناني

مزاجُ الزّهر أعرف في يقيني وريحُ الورد في خلد الغصون
وحينيّ إلى الأطيّار أني عرّفتُ لها مقاماتِ اللّحون

نظامُ الكون من شعر الرّجاء له الأوتار من وتر الرّجاء
بعيني كلّ ما يمضي ويأتي هو اللّمحات من دهر الرّجاء

يهيمُ القلبُ في أثر الرّجاء وصدري من ضجيجٍ في عناءٍ
فلا تطمّع جليسي ! في حديثي فإني من فؤادي في نداءٍ

أرى الحكماء تحطّم كلّ شكلٍ ومن هذا الوجودِ بسومنات^(١)

يريدون الملائك في طلابٍ وما ظفروا بآدم في الحياة

- ٥٨ -

جلستُ مع الطبيعة ألف عامٍ وُصِّلْتُ بها وعن نفسي قُصِّمْتُ
قُصَّاري سيرتي في ذاك أن قد ٥٩ نَحْتُ ، وقد عِبدْتُ ، وقد حَطَمْتُ

بنفسي جلوة الأفكار ، ما هذا ؟ وحولي محشر الأسرار ، ما هذا ؟
أين لي يا حكيمُ : يقيم جسمي وروحي دائم التسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إن تُحِطْ خُبْراً وكَمُّك يَفُضُّ مِنْ قَطْرَةٍ لَكَ فَيُضُّ بِمَكِّ
فيا قلبي لم استجداء شمسٍ ؟ من الأنفاس نوَّزَ ليلَ غَمِّك

- ٦١ -

أفق ما القلبُ بالأنفاس يحيا ولا هُوَ رهنٌ ما يبقى ويفنى
أخا الأوهام لا ترهبُ جِماماً فإنَّ نَفْسٌ مَضَى فالقلبُ يَبْقَى

- ٦٢ -

إلى أهل التَّصَوُّف والصفاء رجالُ الله أرباب الضياء :
أنا عبدُ الهَمَّةِ عبد نفس بنور النَّفْسِ لِلخَلْأَقِ راء

- ٦٣ -

بُعْدَةٌ حاننا الغبرا غُبار ودورةٌ كأسنا الفلك المُدار
حديثُ جهادنا مُضِنٌ طويل ودُنْيَانَا لِقَصَّتْنا اختصار

- ٦٤ -

وما علَّقْتُ بالأنغام قلبي وفي نَعَمِ الحياة أنا الخبيرُ
وقد غَنَيْتُ في الأغصان حتَّى تَصِيحُ الطَّيْرُ : من ذا ؟ يا زهور !

- ٦٥ -

أثرتُ بنعمتي كلَّ النوادي ومن شرِّ الحياة جَعَلْتُ زَادِي
أضاء القلبُ من عقلي ولكنَّ جعلْتُ عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجم فتیاناً بزمُري وراج متاعُهُمْ مِنْ بَعْدِ خُسْرِ

وكانوا هائمين بكلِّ وإِدٍ وقافلةً نظمتهم بشعري
- ٦٧ -

بروح العُجمِ مِنْ نَعْمِي شرارِ قرعتُ لهم بأجراسي فإزوا
وعاليتُ الحداة لهم كعُرْفِي^(١) تباطأ محمِلٌ ونأت ديارُ
- ٦٨ -

نفثتُ النَّارَ مِنْ رَوْحِي نفثتُ وصدرَ الشُّرقِ قلباً قد وهبتُ
وصير طينه لهباً نُواحِي كبرقٍ في سجاياه نفذتُ
- ٦٩ -

بأغصانِ الرِّجاءِ جنيثُ أكلاً وأفصى الدَّهرِ بالسَّرمِ المنيعِ
أرامِي أخشَ للبتانِ ربّاً فإنَّ معي رسالاتِ الرِّبيعِ
- ٧٠ -

بحارِ العُجمِ ليس لها قرارُ وفي أحشائها دُرٌّ كبارُ
ولكنْ لا أحبُّ ركوبَ بحرٍ إذا لم يُخشَ في موجٍ خطارُ
- ٧١ -

على دُنْيَاكَ تقضي بالهوانِ وسترٌ للمغيَّبِ كلُّ آن
فأحكم يومك المشهودَ واعلمْ بأنَّ غداً ضميرٌ في الزمانِ
- ٧٢ -

كُرهتُ سيادةَ الإفرنجِ لكنْ سجدُك للقبابِ وللقبورِ
ألفت عبادةَ السَّاداتِ حتَّى لتتحتُ سادةً لك من صخورِ
- ٧٣ -

إلامَ تعيشُ في رثِّ الإهابِ ؟ إلامَ تعيشُ نملاً في ترابِ ؟
فَطِرْ كالصَّقَرِ معتزماً وحلُّقِ إلامَ أسيرُ حبِّ في اليَّابِ ؟

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نوارا تلخ ترمي زن جوذوق نغمه كما يابى

حدی راتیز ترمی خوان چون محمل را کران بینی

- ٧٤ -

اتخذ في الورد والأزهار عشاءً
وإن ينقص قواك الشيب فاؤخذ
ومن طير دروساً في انتحاب
من الدنيا نصيباً من شباب

- ٧٥ -

أهاب بمسمعي تُراب قبر :
له نفس وليس لديه روح
وتحت الأرض يُمكن أن يُعاشا
ذليل في مُرادٍ سواء عاشا

- ٧٦ -

سماطي ليس فيه ما يروق
غزالي يغتذي عُشب الموامي
ولا في الكأس لألث الرّحيق
ولكن صدره مسكٌ فتيق

- ٧٧ -

قُلوبُ المسلمين قسِن ناري
برُوحٍ مخسر قد غاب عنهم
ودمعي من عيونهم هَتونُ
فلم تر ما رأيتُ لهم عيونُ

- ٧٨ -

أرى للعشق تصريفاً عجيباً
رماك بأدمعٍ وسباك نفساً
يقُلب كيف ما يهوى القلوبا
وصيّرني إلى نفسي قريباً

- ٧٩ -

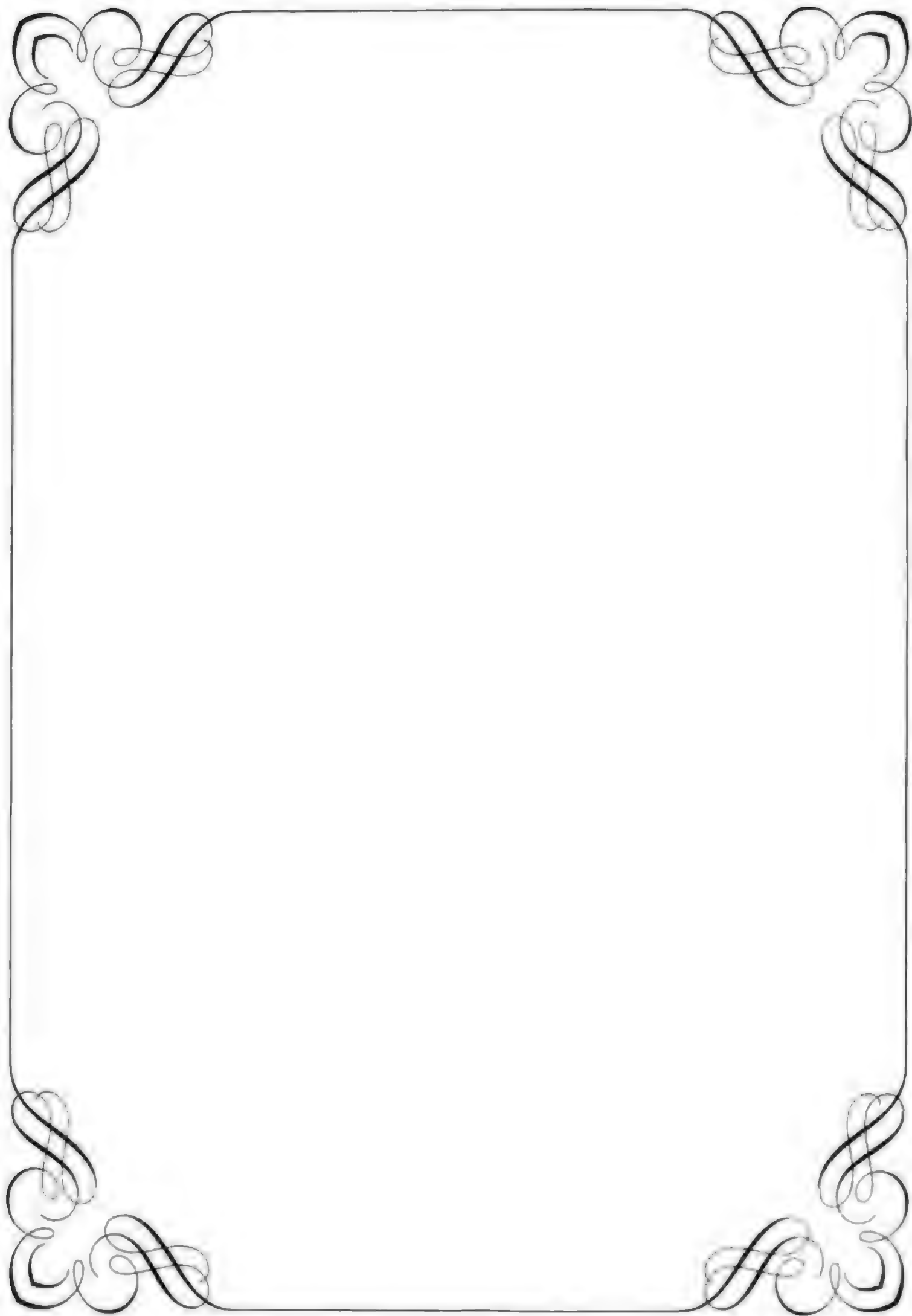
رأيتك لا تزالُ أسير طين
أنا بشرٌ بلا لونٍ وريح
إلى تُركٍ وأفغانٍ تُردُ
وللتوران أو للهند بعدُ

- ٨٠ -

أثار الشُّغُرُ في جنبي نارا
حديث الحبّ حاولهُ لساني
ورَدَّ الثُّربَ في طُرقي شرارا
فزاد السرُّ تبيانِي سِرارا

- ٨١ -

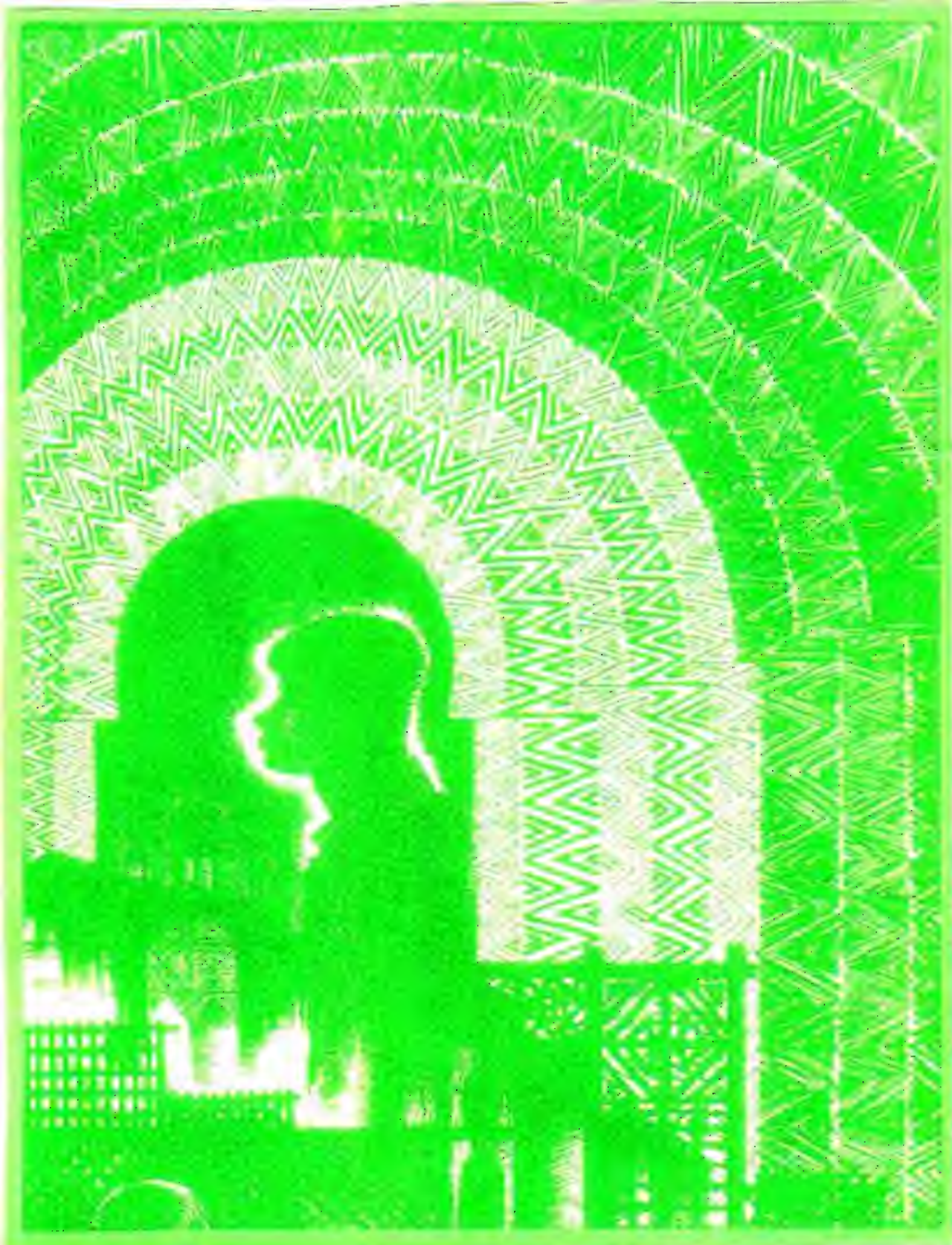
تولّى بعدُ عن عقلِ الفنون
فلا تستفتِ إقبالاً لشيءٍ
وأدمى قلبه عشقُ الشُّجونِ
فإنَّ حكيمنا رَهْنُ الجنونِ



القسم الثاني

أفكار





تو ہے محیطِ سب کراں، میں ہوں ذرا سی آجکو
یا مجھے ہمنما کر یا مجھے سب کنار کر!

الوردة الأولى

لا أرى في المروج لي من قريب
أبتغي في الغدير صورة نفسي
في سطوري رسالة يبرأ
أمس قلبي ، وعبرة اليوم عيني ،
وأنا النجم خلفته الثريا
أنا أولى زهور هذا الربيع
لأرى وجه مؤنس لي سميع
خط سطر الحياة في ترصيع
وغدي مُني وكُلُّ بديع
نَسَج الثربُ ثوبَ وردٍ عليا

دعاء

أيا مالئاً كاسي بحانة فطرتي
وصيّر أنيني ثروة العشق واجعلني
إذا مت فاجعلني سراج شقيقة^(١)
أذب طين كاسي من حرارة خمرتي
تراباً بسينائي تسعّر شعله
وبالبيد أحرقتني وزد نار وشممتي

رائحة الورد

وحوراء في الخلد ضاقت فقالت :
يحير عقلي نهاراً وليلاً
غدث ريح ورد وذرت بغضن
« جهلنا بما تحتنا من جهات
وما قيل عن مولى أو ممات
فحللت بعالم ماضي وآت

(١) يعني : زهرة من الشقائق .

وَتَفْتَحْ عَيْنًا وَتَبْسُمْ كَمَا
لهذي الطليقة لم تبق ذكرى
وبعد نماء هَوَتْ فِي شَتَاتٍ
سوى آهة سَمَّتْ بِالشَّذَاةِ^(١)

نشيد الوقت

قد أحاطَ الشَّمْسَ جَجري	وحوى الأنجم صَذري
أنا لا شيء ولكن	فيكُم رُوحِي تَـسَري
أنا في دُورٍ وقُفَرٍ	أنا في كُوخٍ وقُصَرٍ
أنا داءٌ ودواءٌ	وأنا عيشةٌ يُنـر
أنا سيفُ الدُّورانِ ^(٢)	أنا عَيْنُ الحَيَوانِ ^(٣)
إنَّ جَنكِـزَ وَتِـمـو	رَ قَـلِيلٌ مِّنْ غُبـاري
ثورةُ الإفرنجِ فيها	نَفَثَاتٌ مِّنْ شَراري
إنَّما الإنسانُ والدُّنيا	نُقُوشِي وابتكَاري
ودماءٌ مِّنْ قُـلُوبِ	فِي رِيعِي كالبُهار
أنا لَفْحُ النُّيرانِ	أنا رَوْضُ الرُّضوانِ
أنا سَيَّارٌ مقيمٌ	إنَّ هَذَا الأَمـرَ إمـرُ
إنَّ في خَمرةٍ يومي	مِنْ غَدٍ يَظْهـرُ سِرُّ
ألفُ كَوْنٍ ، فانظُرْـنَها	فِي ضَميري تَـتَسـرُّ
ونجومٌ فِي حِـبـاكِ	وَقِـبابٌ فِي خُضـرُ
أنا ثُوبُ الإنسانِ	أنا سِرُّ الرَحـمـنِ

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمـت .

سِرِّي التَّقْدِيرُ والتَّدِيرُ	يَرُ مِنْ سَحَرِ فَنُونِكَ
أَنْتَ مَجْنُونٌ بَلِيلِي	أَنَا صَحْرَاءُ جَنُونِكَ
أَنَا كَالرُّوحِ بَرِّي	مِنْ خِيَالَاتِ ظَنُونِكَ
أَنْتَ فِي جَوْفِي سَرُّ	وَأَنَا سَرُّ شُؤُونِكَ
أَنَا حَادٍ أَنْتَ نُزْلُ	أَنَا حَقْلٌ أَنْتَ حَاصِلُ
أَنْتَ فَيَّاضٌ بِلَحْنِي	أَنْتَ نَارٌ فِي الْمُحَافِلِ
يَا أَسِيرَ الطُّيْنِ فَكَّرِ	أَنْتَ عَنْ قَلْبِكَ غَافِلِ
انْظُرْنَاهُ مَلَأَ كَأْسِي	وَهُوَ بَحْرٌ دُونَ سَاحِلِ
إِنَّ مَوْجَاءَ فَيْكِ يعلو	مِنْهُ يَبْدُو طُوفَانِي

الرَّبِيع

- ١ -

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرِّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ
وَشَذُو الْعَنَادِلِ فِي كُلِّ وَادٍ
وَدُرَّاجُهُ وَالْقَطَاءُ فِي تَهَادِي
عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ جَذَلَى شَوَادِي
شَقِيقٌ وَوَرْدٌ ضَحْوَكٌ يُنَادِي
فَطَرْفَكَ سَرَّحَ بِهَذَا الْمُرَادِ

هَلُمَّ فَإِنَّ سَحَابَ الرِّبِيعِ يَخِيَّمُ فَوْقَ الرُّبَى وَالْوَهَادِ
- ٢ -

هَلُمَّ فَمِلْهُ الرُّبَى وَالشُّهُولِ قَوَافِلُ أَزْهَارِهِ وَالْوُرُودِ
نَسِيمُ الرِّبِيعِ عَلَى كُلِّ عَوْدِ
وَلِلطَّيْرِ إِبْدَاعُهَا فِي النِّشِيدِ

ومزقت الجيب حُمُرُ الخدود^(١)

جنى الحسنُ ناشيءَ زهرٍ نضيدٍ

وللعشق إبداعُ غمٍّ جديدٍ

هلمَّ فملء الرُّبى والسهولِ قوافلُ أزهاره والورودِ

- ٣ -

صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصِلِ ملءُ النَّسيمِ^(٢)

دمُ المِرجِ في جوفه كالحميمِ

فيا قاعداً صامتاً لا يريمُ !

دع الصمتَ واتركِ وقارَ الحليمِ

وخَمَرِ المعاني اشربنْ يا سقيمُ !

تدثرِ بورِدٍ وغنَّ النديمِ

صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواءِ وصوتُ الصَّلَاصِلِ ملءُ النَّسيمِ

- ٤ -

دع الدُّورَ واطلبْ فسيحَ البراري وانظرِ إلى صفحاتِ الجمالِ

على حافةِ الماءِ دونَ ملالِ

تأملْ تَرَقُّقَ ماءِ زُلالِ

وحَدِّقْ إلى نَرجسٍ ذي دلالِ

بُيُوتِ نِيسانِ ذاتِ اختيالِ

وقَبِّلْ عيوناً لها كاللآلي

دع الدُّورَ واطلبْ فسيحَ البراري وانظرِ إلى صفحاتِ الجمالِ

- ٥ -

وعَيْنَ البصيرةِ فانظرِ بها أيا غافلاً عن عيانِ الخَلْقِ !

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل : الفاخنة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شَقِيقٌ بَدَأَ خَلْقاً فِي خَلْقٍ
بِأَعْطَافِهِ لَهَبٌ قَدْ عَلِقَ
عَلَى كَبِدٍ فِيهِ ذَاتُ حَرِّقٍ
يَلُوحُ نَدَىٌّ مِنْ دَمَوَعِ الْفَلَقِ
فَحَدَّقَ إِلَى أَنْجَمٍ فِي شَفَقٍ^(١)

وَعَيْنَ الْبَصِيرَةِ فَاَنْظَرُ بِهَا أَيَا غَافِلاً عَنْ عِيَانِ الْخَلْقِ
- ٦ -

ثَرَى الْمَرْجِ صَرْحٍ فِي هَيْجِهِ بِمَا أَضْمَرَتْ مُهْجُ الْكَائِنَاتِ
فَنَاءُ الصِّفَاتِ وَكُونُ الصِّفَاتِ
وَمَا أَبَدَتْ الذَّاتُ مِنْ جَلَوَاتِ
وَمَا خِلَّتْهُ مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ
وَمَا خِلَّتْهُ مِنْ مَعَانِي الْمَمَاتِ
فَلَيْسَ لَهُ هَاهُنَا مِنْ ثَبَاتِ
ثَرَى الْمَرْجِ صَرْحٍ فِي هَيْجِهِ بِمَا أَضْمَرَتْ مُهْجُ الْكَائِنَاتِ

الْحَيَاةُ الْخَالِدَةُ

لَا تَنْظُرُ الْخَمَّارَ وَافِي خَتَاماً كَمْ مِنَ الرَّاحِ فِي عُروِقِ الْكُرُومِ !
يَجْمُلُ الْمَرْحُ لَا بِشُوبِ حَيَاةٍ مَرَّقَتْهُ النَّسِيمُ كَالْبُرْعُومِ
مَنْ يُحِطُ بِالْحَيَاةِ لَمْ يَرْضَ قَلْباً لَمْ تَخِزْهُ الْمَنَى بِشَوْكِ أَلِيمِ
مُحْكَمًا كَالْجِبَالِ عَشْنُ ، لَا ضَعِيفاً وَاهِنَ النَّارِ طَائِشاً كَالْهَشِيمِ

(١) يشبه الندى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بِكَوْكَبٍ لِأَخِيهِ يَشْكُو : لَنَا بَحْرٌ وَلَيْسَ يَلُوحُ سَاحِلٌ
خُلِقْنَا لِلْمَسِيرِ بَلَا وَقُوفٍ فَلَيْسَ لِرَكْبِنَا أَبَدٌ مَنَازِلٌ

فَإِنْ تَمُضُ النُّجُومُ كَمَا نَرَاهَا فَمَا جَدْوَى الْعَنَاءِ ؟ وَمَا نُفِيدُ ؟
بِأَشْرَاكِ الزَّمَانِ لَنَا إِسَارٌ سَعِيدٌ مَنْ يُجَانِبُهُ الْوُجُودُ

لَهَذَا الْعَبْدُ مَحْمَلُهُ شَدِيدٌ فَلَيْتَ وَجُودَنَا عَدَمٌ أَبِيدٌ
كَرِهْتُ الْقَبَّةَ الزَّرْقَاءَ أَوْجاً حُضِيضُ الثَّرْبِ خَيْرٌ لَوْ نَرِيدُ^(١)

فَطُوبَى لِأَبِي آدَمَ فِي طَعْمَانٍ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى طَرْفِ الزَّمَانِ
خَلِيقٌ بِالْحَيَاةِ لَهُ قَوَامٌ يُجَدِّدُ أَوْ يُخْلَقُ كُلُّ آنٍ

الحياة

بَكَى فِي الظُّلَامِ سَحَابُ الرَّبِيعِ فَقَالَ : الْحَيَاةُ بَكَاءٌ مَدِيدٌ
فَقَالَ لَهُ الْبَرُّ فِي وَمُضَه : هَلِ الضُّخْكَ فِي لَمْحَةٍ ؟ لَا تَزِيدُ
فَمَنْ أَبْلَغَ الرُّوْحَ هَذَا الْحَدِيثَ فَصَارَ حَوَارِ النَّدَى وَالْوَرُودُ ؟

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعشق

العلم :

وفي قيدي ثوى ماضٍ وآتٍ
وما نظري وراء الشَّابِحَاتِ ؟
وأسراري عرَّضْتُ بكلِّ سوقٍ

أنا سرُّ الكواكب والجهات
وعيني حدَّقت فيما أمامي
وكم نَعَمْتُ في عُودي وبوقي
العشق :

وملءُ الجوّ سَمُوكَ والشرار
ونوركُ مذ هَجَرْتُ حمائي نارُ
وصرْتُ اليوم في قيد الرحيم
ورُدَّ مَشْيِبَ دُنْيَانَا شَبَابَا
أقم في الأرض فردوساً عجابا
للحنِّ واحدٍ بسمٍ و زيرُ

بسحركُ سُجِّرَتْ هذي البحارُ
وكنْتَ لي الصديق فكنت نوراً
وُلِدْتُ الأَمْسَ في حرم الرحيم
هَلُمَّ قَرُدْ رَوْضاً ذا اليابا
هَلُمَّ بِذَرَّةٍ مِنْ نارِ قلبي
كلانا الدَّهْرَ خلٌّ لا يجورُ

غناء النجوم

وسُكِّرْنَا انسجامُنَا
لا يُرْتَجَى مقامُنَا
ننظر سائراتِ
ومظهرَ البَدُودِ^(١)

وجودُنَا نظامُنَا
في دُورِنَا دوامُنَا
في فلكٍ مرامُنَا
وجلوةَ الشَّهْـوِدِ

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

والمعذب والموجود	ومعرك الوجود
نظير سائر	والغيب والمشهود
ونشأة الشجران	وحلبة الطعمان
وذلة السلطان	وغير التيجان
نظير سائر	ولعب الزمان
والعبد قد تولى	مضى زمان المولى
وقيصر قد ذل	يكنى قد ولى
نظير سائر	والوثن اضمحلا
والذل والكفاحا	والصمت والصياحا
وتارة أفراحا	والخنوع والطماحا
نظير سائر	وتارة أتراحا
من كم وكيف في شغل	عقلك في عقد وحل
مضطرب ومضمحل	مثل غزال قد عقل
نظير سائر	ونحن في العليا نحل

وما الدجى ما النور ؟	ما السر ما الظهور ؟
ما فطرة ضجور ؟	ما القلب ما الشعور ؟
نظير سائر	ما الغيب والحضور ؟
حولك عندنا لم	كفرك عندنا أم
قنعت بالظل انسجم	يا من بصدرة خضم
نظير سائر	نحن بعالم نهم

نسيمُ الصُّبح

أجبيء من لَجِّ بَحْرِ	ومن قلال الجبالِ
مُسَيَّراً لست أدري	من أين شُدَّت رحالي
أزجي لطائر غم	بشري ربيع الجمالِ
ونائرأ تحت عُشِّ	نَّارَ زَهْرٍ غَوَالِ
بُخْضرة أتَرَدَّى	وبالشقيق اتصالي
حتَّى يهَجَّ فيه	لوناً وريحاً وصالي
يمسُّ أوراق ورْدٍ	تلطُّفي واحتياالي
فلا تميلُ غصونٌ	من طوفي المتوالي
وشاعِرٍ هيَّجَتْهُ	همومُ عَشْقِي لِقَالِ
مزجت أنفاس صدري	بلحنه والمقالِ

نصيحة صقر لفرخه

تعلّم بنيَّ بأنَّ الضُّفُورَ	لها قلبٌ ليثٌ وجسمٌ صغير
فكنْ مُحْكَمَ الرَّأْيِ شهماً جسوراً	عليَّ السجايا أيباً غيورا
بُغَاثَ الطيور اهجرنها بعيدا	ودعها إذا لم تُردْ أن تصيدا
فتلك الرعايدُ نسلُ اللثام	تدسُّ مناقيرها في الرِّغَامِ
أرى البازَ صيداً لما اصطاده	إذا قلَّد الصيد ما اعتاده ^(١)
فكم باشقٍ قد أتاه النَّوى	بصحبةٍ لقاطٍ حبٍّ هوى

(١) يعني : إن قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

جريئاً متيناً قوياً العضل
 وكن مخلباً كالمُدى أو أحد
 وصبرٌ على محنة واجتهاد
 « بريق الدماء يفوق العقيق »
 توخَّذْ كقومك منذ القدم
 بالأ تقيم بظُل وساق
 فسيحُ الفياقي لنا والجبال
 حباناً الإله عنان السماء
 فأشرف منه حمام ريب
 يحدُّ مخابهنَّ الصخر
 كأنك عنقاء جو متين
 كفيلٌ بإنسان عين النمر
 من الشَّهب فيك كريمُ العزوق^(٣)
 وكل ما أصبت يساً ورطباً
 وكن راشداً واستمع للرشد

فنفسك فاحفظ وعش في جذل
 ودغ للدراريح لين الجسد^(١)
 متاع الحياة ، تعلّم ، جهاد
 نقول لفرخ عقاب عتيق :
 ولا تبغ سزباً كسزب الغنم
 سمعت وصاة الصقور العتاق
 فليس لنا في رياض مجال
 ولقطك حباً بأرض خطاء
 فأما خطئ في الثراب النجيب^(٢)
 فإن بساط البزاة الحجر
 نماك الأوابد زرق العيون
 أصيل أبي يوم الخطر
 جناحك من سطوات البروق
 فطر في السموات لا تخش خطبا
 ولا تقبلن طعمة من أحد

سوس الكتب

(الأرضة)

يُنَادِي الفراشة سوسُ الكتاب
 ونقبت في كتب الفاريابي
 وما زلت من ظلمتي في حجاب
 أرى نكتة لا تُرى في كتاب
 رأيت الكفاح يُمدُّ الحياه

سمعت : بمكتبي ليلة
 يقول مررت بكتب ابن سينا
 ولم أدر حكمة هذي الحياة
 تُجيب الفراشة في حرقية :
 رأيت الكفاح يُمدُّ الحياه

(١) دراريح : جمع دراج وهو طائر معروف .

(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل . (٣) الشهب : أي البيض ، وفيها

نَارٌ بِصَدْرِ عَشْقٍ فَنِي أزلِ أنيـرُ
شمساً أرى وفي كلِّ ذرَّة أثـرُ
شرارها من ناري السـمـاءُ تستعير
حللتُ صَدْرَ مَرَجٍ كنفـي أدورُ
وكالنَّدى من تُربِي غُصْنٌ بدا نضيرُ
قال : قفـي قـلـبـاً ولهـبـي يغـورُ
وما ثـواء قـلـبـي من أـلـمٍ يسـيرُ ؟
ثـوى بـضـيق غـصـنٍ فـي قـلـبـي يـفـور
حَتَّى كُـسِـتُ لـونـاً وعـبـق العـيـر

رش الندى طريقي بلؤلؤ ينير والصبح لي ضحوك وبـي الصبا تدور
حكى لعندليب ورد له نضير أني سلبت ناري وخمد السعير
فقال في نواح : كم أغلى الظهور أحمل من شمس تشع في ضلوعي
فهل - وليت شعري - للنار من رجوع

الحكمة والشعر

ابن سينا في غبار حائر ويد الرومي في ستر الحبيب
غاص هذا يجتني درأ وذا كفضاء دار في اللج المهيب
إن حقاً دون نار حكمة وهو شعر إن يصب نار القلوب

البراعة

وذرة حقيرة قد جمعت قواها كأنها فراشة من حرق تصلاها
قد نورت دجاها

(١) فهي أباة خلقت وأنعمدت شرارا من حرقه في قلبها تحولت نضارا
وبصرا نظارا

فراشة في قلب تطير كل ناحيه
على اللهب رفرفـت حتى كأنه هيه

أنا وأنت قـالـيـه (٢)

أَوْ كَوَكَبٌ فِي صَدْرِهِ مُسْتَتَرٌ الضِّيَاءُ
وَقَدْ تَدَلَّى هَابِطاً فِي الْأَرْضِ لَاجِئاً
مَنْ فَلَكَ السَّمَاءُ

أَوْ قَمَرٌ مَصْفَرٌّ بِجَلْوَةِ تَمَامٍ
فَمَنْنَةُ الشَّمْسِ عَلَى شُعَاعِهِ حَرَامٍ
لَمْ يَحْوَهِ مَقَامٍ

يَا لَكَ مِنْ يَرَاعَةِ تَصَوَّرَتْ مِنْ نَوْرِ
مَسِيرِهِ سَالِكاً لُغَةُ الْغِيَابِ وَالْحُضُورِ
وَسُنَّةَ الظُّهُورِ

يَا مَشْعَلاً لِلطَّيْرِ فِي مَعْتَكِرِ الظُّلَامِ
مَا حُرْقَةٍ أَحْسَتْهَا فَأَنْتَ فِي هِيَامٍ ؟
حَرَارَةُ الْإِقْدَامِ

نَحْنُ - وَقَدْ نَبْتِنَا مِثْلَكَ مِنْ تَرَابٍ -
نَجْهَلُ فِي اضْطِرَابٍ نَبْصُرُ فِي اضْطِرَابٍ
نُخْفِقُ فِي الطُّلَابِ

أَقُولُ قَوْلَ وَاعٍ مَجْرُبٍ شَفِيقٍ :
لَا تَسْعَيْنَ لُنْزَلٍ وَامْضِ عَلَى الطَّرِيقِ
وَارْضَ بِذَا التَّوْفِيقِ

الحقيقة

تَقُولُ لِبَطَّةٍ صَحَبَتْ عُقَابَ : أَرَى مَا أَدْرَكَتْ عَيْنِي سَرَابَا
أَجَابَتْهَا مَحَاوِرَةٌ بِحَقِّ وَلَكِنِّي أَرَى مَاءَ عُقَابَا
فَقَالَ الْحَوْتُ فِي لُجٍّ عَمِيقٍ : هُنَا شَيْءٌ وَيَضْطَرُّبُ اضْطِرَابَا

نغمةُ حادي الحجاز

يا ناقتي الخطارة
وظييتي المعطارة
وعُدَّتِي والشَّاره
والمالُ والتجارة
يا دولتي السيارة !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
مطربةُ الرُّغاء
جميلةُ الرُّواء
محسودةُ الحسناء
وغَيرةُ الحوراء
بُنيَّةُ الصَّحراء !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
كم غُصتِ في السَّراب
في وقدة اليباب
وسرتِ لم تهابي
في اللَّيل كالشَّهاب
والنَّومُ عنك نائي

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريبُ
قطعةُ غيمٍ غادي
سفينةُ الرُّوَّاد
كالخضر في البوادي

تمضين في سداد

فلذة قلب الحادي !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

هُيامك الزمام

وسيرك الأنغام

يتعبك المقام

لا الجوع والأوام

والسفر المدام

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

ممسة في اليمن

مصححة في قرن

ترين حزن الوطن

كالخز تحت الثفن

إيه غزال الختن !

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

بدر السماء نعا

خلف التلال خسا

والصبح قد تنقسا

مرق هذا الغلما

والريح تزجي نفسا

حُثِّي الخطى قليلاً منزلنا قريب

لحني دواء السقم

والروح ملء نغمي

يحدو الركاب كلمي

من جارج وبلسم

هَلُمَّ بَنَاتِ الْحَرَمِ !
حُثِّي الْخَطِيءَ قَلِيلاً مَنْزِلُنَا قَرِيبٌ

بين الله والإنسان

خَلَقْتُ الْأَنْعَامَ لَطِيفٍ وَمَاءٍ	خَلَقْتُ تَنَاراً وَزَنْجاً وَفُرساً
خَلَقْتُ مِنَ الثُّرْبِ هَذَا الْحَدِيدَ	وَسَهْماً خَلَقْتُ وَسَيْفاً وَثُرساً
وَفَأْساً خَلَقْتُ لَجَذْعٍ وَغُصْنٍ	وَسَجْناً صَنَعْتُ لَطَيرٍ مَغْنًى
الإنسان :	

خَلَقْتُ الظُّلَامَ فَصُغْتُ السُّرَاجَ	وَطِيناً خَلَقْتُ فَصُغْتُ الْكُؤُوسَ
خَلَقْتُ جِبَالاً وَبِيداً وَمَرْجاً	خَلَقْتُ حَدَائِقَهَا وَالْغُرُوسَ
أَنَا مِنْ حَجَارٍ صَنَعْتُ مَرَايَا	أَنَا مِنْ سُمُومٍ صَنَعْتُ دَوَايَا

البراعة

تَقُولُ يَرَاعَةٌ : لَا تَحْسِبْنِي	كَنَمَلِ السُّوءِ يَا لَمَنِي رَفِيقِي
وَلَا أَعِشْوَ إِلَى نِيرَانٍ غَيْرِي	كَمَا يَهْفُو الْفَرَّاشُ عَلَى الْحَرِيقِ
إِذَا حَلَّكَ الظُّلَامُ كَعَيْنِ ظَلَمِي	أَنْتِ بَنُورٍ أَضْلَاعِي طَرِيقِي

وَخْدة

قَدْ قَلْتُ لِلْبَحْرِ يَوْمَاً فِي مَوْجِهِ الْمَتَعَالِي

أراك حليف طلاب
 وكنم - سويت بصدر
 أفيك مثلي صدر
 فصدد عني بجزر
 وقلت للطود يوماً :
 أنال سمعك صوت
 إن كنت تحوي عقيقاً
 فواسني بحديث
 فصدد عني صموتاً
 جددت في السير حتى
 فقلت : يا نضو سير
 الأرض مرج زهور
 أخلف نورك قلب
 رأى الكواكب ترنو
 وقلت لله ربني
 أما بدنياك هذي
 أكل طيني قلب
 طابت مروج ولكن
 أجابني بابتسام

قطرة الندى

فما تكن بيال ؟
 من لامعات اللآلي
 بجوهر القلب حالي ؟
 ولم يرد سؤالي
 يا خالياً من عناء
 من زفرة وبكاء
 به عروق دماء
 أنني حليف شقاء
 ولم يرد سؤالي
 أتيتك بدر السماء
 إلى متى في مضاء
 من نورك اللآلاء
 في حرقرة وعناء
 فلم يرد سؤالي
 من بعد طوف البرية :
 من ذرة لي نجية ؟
 وذو البرايا خلية
 ليست بشدوى حربه
 ولم يرد سؤالي

من فلك الدّاري
 للبحر ذي التّيار

قد قيل لي تدلي
 واستحكم لي وسيري

فِي الْمَوْجِ لَا تَحَارِي
تَحَوَّلِي وَاخْتَارِي
فِي الذَّرَرِ الْكِبَارِ

فَمَا رَضِيتُ بِحَرًّا لَصُحْبَتِي بِحَالِ
عَفِيتُ احْتِسَاءَ رَاحِ تَسْلُبْنِي خِلَالِي
مَا ضَعُفْتُ مِنْ خِصَالِي
وَعَشْتُ فِي اعْتَزَالِ
قَطَرْتُ كَاللَّالِي

الْوَرْدَ لِي سَوُولُ : مَا خَطْبُ طَيْرِ السَّحَرِ
وَمَا جِهَاتُ النَّظَرِ ؟
وَمَا وَرَاءَ الْبَصَرِ ؟
مَا الشُّوكُ حَوْلَ الزُّهَرِ

مَا نَحْنُ فِي اصْطِحَابِ ؟ مَنْ نَحْنُ يَا وَدُودُ ؟
مَا طَائِرِي الْمَغْنَمِ رَجَّحَهُ الْأَمَلُودُ ؟
مَا يَقْصِدُ الْغَرِيدُ ؟
وَمَا الصَّبَا تُرِيدُ ؟
مَا الْعَالَمُ الْعَتِيدُ ؟

فَقُلْتُ : الْمُـرُوجُ حَرُّ بُ الْحَيَاةِ فِي الْآفَاقِ
حَفَلٌ لَهُ نَظَامُ مَنْ لَذَّةُ الْفِرَاقِ
الرُّوحُ مِنْ إِشْرَاقِ
وَنَفْسِي أَشْوَاقِي
سَرٌّ مِنَ الْخَلَاقِ

مِنْ فَلَكَ هُبُوطِي مِنْ طِينَةٍ فَتَقَتِ
مِنْ لَذَّةِ التَّجَلُّي نَمُوتِ إِذَا شَرَقَتِ

فِي الْغُضَنِ قَدْ خَفَقَتْ
كَمْ حُجُبٍ مَرَّقَتْ
نَفْسِكَ قَدْ حَقَّقَتْ

الذَّهْرُ فِي اخْضِرَارٍ مَنْ دَفَعْنَا فِي السَّحَرِ
وَذِي الْجَهَنَاتِ طَرًّا خِدَاعُنَا فِي النَّظَرِ
بِالصَّدْرِ سَرَبُ الرَّهْرِ^(١)

مَنْ قَلْبُنَا كَالشَّرِّ
وَنُورُنَا فِي الْبَصَرِ

فِي ثُوبٍ وَرِدٍ إِبْرُ مَنْ شَوْكَةِ تَصَوَّلِ
شَوْكٌ ، أَجَلٌ ، وَلَكِنْ نَادَمَهُ الْجَمِيلِ
مَنْ عَشَقَهُ نَحِيلُ وَعَنْدَهُ الْخَلِيلُ
فِي رَوْضِهِ أَصِيلِ

الْقَلْبُ أَخْلِينَهُ مَنْ صُخْبَةِ الذَّهْوِ
عَيْنِكَ فَافْتَحْنَهَا لِلْكَوْكِيبِ الْمَنِيرِ
وَصَحْبَةِ الْبَصِيرِ مِثْلِي هَلُمَّ طَبِيرِ
وَفِي الْفَلَكِ الْكَبِيرِ

العشق

فَكْرِي قَدْ أَجَدُّ كُلِّ سِيرِ وَطَافَ بَيْنَ حَرَمٍ وَذَمِيرِ
عَدْتُ لِلطَّلَابِ فِي الْبَرَارِ مَرْتَدِيًّا بِالنَّقْعِ كَالْإِعْصَارِ

(١) الرَّهْرُ : التَّجْوُمُ .

بغيرِ خضرٍ أطلُبُ المنازل^(١) يحملُ رحلي للخيالِ كاهل
تطلُبُ راحاً كاسيَ الحطيمِ كالصُّبحِ من شباكهِ النَّسيمِ
منطوياً كالْمَوْجِ في البحارِ حيران كالإعصار في الصحاري
عشقُكَ فاضَ بغتةً بقلبي وحلَّ كلَّ عُقدةٍ في لُبي
عرَّفني الوُجودَ والفناء وصار ديري حرماً وضّاء
على حصيدي مرّاً كالْبُرُوقِ^(٢) عرَّفني لَذَاذَةَ الحريقِ
صُعِقْتُ تَوّاً وسُلِبْتُ حِسِّي فُصِّلْتُ من نفسي مثلَ العكسِ^(٣)
رَفَعْتُ لِلْعَرْشِ العليِّ تُربي بالسِّرِّ قَدْ أَفْشَيْتَهُ لِقَلْبِي
وبَلَفْتُ سَفِيتي مُرْسَاهَا وفاضَ قُبْحِي رونقاً وتَاهَا
عندي حديثُ العشقِ لا سِواه لا أحمِلُ الملامَ في بِلْواه
غَيْثُ عَنْ وَمَضِ العُلُومِ حَسْبِي خَفَقِي وَنَارِي وَدُمُوعُ الحَبِّ



حياتك فابغ في الخطر الجليل

غَزَالَ بَتَّ شَكْوَاهُ غَزَالاً فَقَالَ سَأَقْصِدُ الْبَلَدَ الْحَرَامَا
أَرَى الصَّيَّادَ حَوْلِي كُلَّ حِينٍ فَلَا أَسْتَطِيعُ فِي أَرْضِ مُقَامَا
أَبْدُلْ خِيفَةَ الصَّيَّادِ أَمْنَا وَأَنْفِي الْغَمَّ عَنْ قَلْبِي الْمَعْنَى
أَجَابَ رَفِيقُهُ أَنْ يَا خَلِيلِي حَيَاتَكَ فَابْغِ فِي الْخَطَرِ الْجَلِيلِ
وَنَفْسَكَ فَاشْحِذْ فِي كُلِّ آنٍ وَعِشْ أَمْضَى مِنَ السِّيفِ الْيَمَانِي

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) بكثُر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق
علائق الإنسان بالذُّنْيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

فَفِي الْأَخْطَارِ لِلْهَمِّ اخْتِبَارُ لأرواحٍ وأجسادٍ عيارُ

الحياة

قَدْ سَأَلْنَا عَنْ الْحَيَاةِ حَكِيمًا قُلْتُ : بَلْ دُودَةٌ نَمَتْ فِي تُرَابٍ
قَالَ : لَا بَلْ سَمَنْدَرٌ لَا يَقْرُ^(١) قُلْتُ : وَالشَّرُّ طَبَعُهَا . قَالَ : لَا بَلْ
خَيْرَهَا قَدْ جَهِلْتَ وَالْجَهْلُ شَرُّ قُلْتُ : مَا شَوْقُهَا يَسِيرُ لِنَزْلِ
قَالَ : فِي الشَّوْقِ مَنْزِلٌ مُسْتَسَرُّ قُلْتُ : فِي الطِّينِ خَلَقُهَا قَالَ فَانْظُرْ :
شَقَّتِ الطِّينُ حَبَّةً فَهِيَ زَهْرُ

الحدور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحدور والشاعر لحدوته)

الحدور :

لَا الْخَمْرُ يَوْمًا تَطْيِيكَ وَلَا إِلَيْنَا أَنْتَ نَاطِرُ
إِنِّي عَجِبْتُ لِشَاعِرٍ بِهِوَى الْأَحْبَةِ غَيْرِ شَاعِرٍ
مِنْ حُرِّ أَنْفَامِ الرَّجَاءِ وَحَرَقَةِ الطَّلَبِ الْمُثَابِرِ
نَفْسٌ تَذِيبُ بِلَوْعَةٍ وَتَفْرُؤُ يَشْجُو الْمَزَاهِرِ
وَخَلَقْتَ بِالْأَلْحَانِ دُنْيَا لَكَ الْعَجِيبَةُ خَلَقَ شَاعِرٍ
تَبَدُّو لَهَا إِرْمٌ كَمَا يَبْدُو لِعَيْنِي فِعْلٌ سَاحِرٍ

(١) السَّمَنْدَرُ : حيوان خرافي يعيش في النار .

بِالسُّخْرِ مِنْ وَخَزَاتِ قَائِلٍ
 وَخَزَاتِ شَوْكِ فِي الْمَجَاهِلِ
 لَا تَرْضِي دَعَاةَ الْمَنَازِلِ
 تَهْفُو الصَّبَا حَوْلَ الْخُمَائِلِ
 رَائِعِ حُلُوِ الشَّمَائِلِ
 يعلوه حسناً فِي الْمَحَافِلِ
 إِلَى الشُّمُوسِ رَقِيَّ آمِلِ
 أعوجُ عَلَى الْمَرَاحِلِ
 الْكَاسِ تَسْرِي فِي الْمَفَاصِلِ
 وَرَبِيعِي الْآتِي أَغَازِلُ
 لَا يَنْتَهِي فِيهِ الْمُسَائِلُ
 قَلْبِي عَنِ الْأَمَالِ غَافِلُ
 بِدَارَةِ الْخُلْدِ الْمُوَاصِلُ
 أَلَمْ وَلَا وَاسٍ يَسَائِلُ

تُخَدَعَنْ قَلْبَ مَسَافِرٍ
 مَا إِنْ تَحَاكِي لَذَّةُ
 مَاذَا أَقُولُ وَفَطْرَتِي
 قَلْبِي عَلَى قَلْقٍ كَمَا
 فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى جَمِيلِ
 خَفَقَ الْفَوَازُ إِلَى الَّذِي
 فَمَنْ الشَّرَارُ إِلَى النُّجُومِ
 إِنِّي لِيَهْلِكُنِي الْقَرَارُ فَمَا
 وَإِذَا شَرِبْتُ مِنَ الرَّبِيعِ
 أَشَدُّ بِشَعْرِ أَخْرٍ
 طَلَبِي النِّهَايَةَ فِي الَّذِي
 لَا صَابِرٌ نَظَرِي وَلَا
 تَوْدِي قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ
 لَا صَوْتُ مُحْزُونٍ وَلَا

الحياة والعمل

(جواب لنظم هاتنا ^(١) المسمَّى سؤالات)

يقول الساحل المسكين : دهرأ حيثُ ولم يَبْنُ لي ما أكون . . ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ الشُّكُونُ

الملكُ لله

طارقُ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا من فعله برشيد
غريباءُ ومن لنا بـرجوعِ
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامِ
قائلًا واثقاً بعزمٍ شديدٍ :
مُلكنا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ
إنَّه مُلك ربِّنا المعبودِ

النهر^(١)

انظر النهر جارياً في هيامِ
كان في المهد في السَّحابِ نؤوماً
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ
صافي اللون في بهاءٍ ونضرة
يقصد البحر ذا العبابِ طروباً
وعزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريباً
متحنه يدُ الرِّبيع طريقاً
من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقٍ
يضحك الوردُ إن تلبث لدينا
ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ
في الرُّبى والوهادِ غير رفيقي

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصة إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

يقصد البحر ذا العباب طروباً
تُناديه : يا فسيح المجال
فأرحمنا من بغي هذي الرمال
حاملاً رفقةً ضفاف الحال
حاملاً جوهراً كثيراً عجيباً
جاز ضيق الشفوح والوديان
جاز كل المروج والبلدان
بجديد يمر كل زمان
وعزوفاً عن كل شيء غريباً

وعزوفاً عن كل شيء غريباً
ومئات الأنهار في الحزن والشهل
قد حمانا المير قلة ماء
أفسح الصدر للرياح سريعاً
يقصد البحر ذا العباب طروباً
هدر النهر جائزاً كل سد
فاض سبلاً على ربي ووهاد
هائجاً زائحاً سريعاً مشوقاً
يقصد البحر ذا العباب طروباً

الجنة

وليس هناك من فلك يدور
ولا فيها زليخا تستجير
ولا بكليمها شرر يثور
فزورقها على أمن يسير
ولا لإصالحها هجر مريب
إذا وضحت طريق لا تجور
به المولى وليس به الغرور

وأين بجنة لعب اللآلي
ولا فيها ليوسف غم سجن
وليس خليلها يصلى بنار
وليس لصرصر فيها هبوب
ولا ليقينها « هل » أو « عسى أن »
وكيف يلد عقل ذو ضلال
فلا تحفل بكون فيه نقص

العشق

العقل يُحرقُ عالماً في جلاوة منه تُغير

لكنَّه بالعِشْقِ يعرفُ	كَيْفَ في الدنيا يُتَبَرَّ
العِشْقُ في الأرواح يخلق	كُلَّ لَوْنٍ أو يثبُرُ
إنَّني لأذكر راقصاً	ذا الحرف أو هو بني يدور
بالعِشْقِ ترتاح القلوبُ	وإنَّه فيها سعيُرُ
ما كل معنى ينطوي	في اللَّفْظِ ، كم معنى يثور
أنصت لقلبك ساعة	فلعلَّما يدنو العسير

لفزُ السَّيفِ

ما جاهدٌ يُبْطُ ماء الحجر	لا يَهْتَدِي بالخضر كالإسكندر؟
كنظر العينِ صفيٍّ مشرقٌ	لا بلل وهو غريقٌ نهر
مصراعُه مكَّمَّل منفردٌ	ليس عليه منَّة لأشطر

الجمهورية

تريد معنى العُلَى من ساقطي همم	وَأَيْنَ لِلنَّمْلِ إقدام السُّلَيْماني ^(١)
فاتبع حكيماً ودع جمهورَهم ، أترى	بألفِ رأسٍ حمارٍ عقلَ إنسان؟

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الدُّهْرُ عَادَ بِنَارِ نَمْرُود
هَلُمَّ نُلِقِ الْحِجَابَ عَنْ حُرْقٍ
أَمَلْتُ حُورَ الْفَرَنْجِ مِنْ حَكَمٍ
فَقُلْ لِأَهْلِ الْحِجَازِ عَنْ سَلَمِي
عَلَى خِرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ فَعَجٍ
كَمْ أَنْتَظَرْنَا لِعَارِفٍ وَلَكُمْ
جَعَلْتَ عَشْقاً حَدِيثَ ذِي هَوْسٍ
جَوْهَرُ الْإِسْلَامِ رَهْنٌ تَجْدِيدُ
كَالشَّمْسِ تَغْشَى الْوَرَى بِتَجْرِيدِ^(١)
وَرُعْتَ أَصْنَافَهُمْ بِتَوْحِيدِ
وَبِثَّ فِي التَّرْكِ شَوْقَ مَعْمُودِ
وَرَدُّ لِلْعُجْمِ شَوْقَ تَغْرِيدِ^(٢)
شَجَا « جَمَالِ »^(٣) بِلَحْنِ مَفْؤُودِ
تَثَرَّتْ دَرُّ الْكَلَامِ بِالْيَدِ

غنى الكشميري^(٤)

غَنَى أَخُو الشُّعْرِ رَبُّ الْبَيَانِ
يَفْتُوحُ أَبْوَابَهُ إِنْ نَدَرَ
فَقِيلَ لَهُ : يَا أُنَيْسَ الْقُلُوبِ
فَمَاذَا أَجَابَ الْهَمَامُ الْفَقِيرُ ؟
أَخَوَانِنَا مَا رَأَيْتُمْ سَدَادَ
وَبَلْبَلُ كَشْمِيرَ ذَاتِ الْجَنَانِ
وَيَغْلِقُهَا جَاهِداً إِنْ حَضَرَ^(٥)
عَجَبْنَا وَفَعَلْنَا أَمْرٌ عَجِيبُ
فَقِيرٌ بِمَلِكِ الْمَعَانِي أَمِيرُ :
أَقْبَى الدَّارِ غَيْرِي مَتَاعٌ يَرَادُ ؟

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقى أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفغاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كان في الدار ربُّ العرين غنى ففيها متاعٌ ثمين
وإن غاب عنها أنيسُ الورى فلا دارَ أفرغَ منها تُرى

إلى مصطفى كمال باشا^(١)

حزيران (١٩٢٢ م)

أمة كائنات ومن حكمتها نحنُ آثارٌ على مرِّ العصور
قد عرفنا سرَّ تقديرِ مضي فمضينا نقتفي سرَّ الدهور
شوراً كنا ، أجدنا نظراً فإذا شمسٌ على الكونِ تسير
شيخاً أطفأ في أحشائه نارَ عشقٍ فخنعنا في فتور
صرصر البیداء في فطرتنا أذبلت ریح الصبا فينا الزهور^(٢)
وعلى الأفلاك دوى صوتنا فاسمعنه اليوم في نوح الأسير
رُبَّ صيدٍ قد أخذنا وثبةً دون أشراكٍ كما انقضت صقور
وغدونا يوقِعُ الصيدُ بنا ولنا قوسٌ وسهمٌ في الجفير
« كلما أمكن طرفٌ فاركضنْ » كم أمانات العزمِ تدبِرُ الأمور^(٣)

الطائرة

على غصنٍ وردٍ بوقت السحر نفا طائرٌ لطيفٍ آخر :

- (١) كان الشاعر معجباً بـمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلد القرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمٌ أوربة .
(٢) يعني خلقنا للجهد فأضعفنا الترف .
(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقد سُلِبَ الأَجْنَحَ الأَدَمِيَّ
فقلت له : « يا أَمِيرَ الرِّيحِ
بطائرة قد ركبنا الهواء
وأية طائفة في الفلك
لها عزم صقرٍ وأيدٌ عقاب
تُدَوِّي وتزفر حين السُّفَّار
من الطِّين صار لنا جبرئيل
وعى الطائير الألمعيُّ الكلام
فأهوى إلى ريشه ينقر
فيا مَنْ يروِّقك عقدٌ وحلٌّ
أصلحت في الأرض بعد عناء

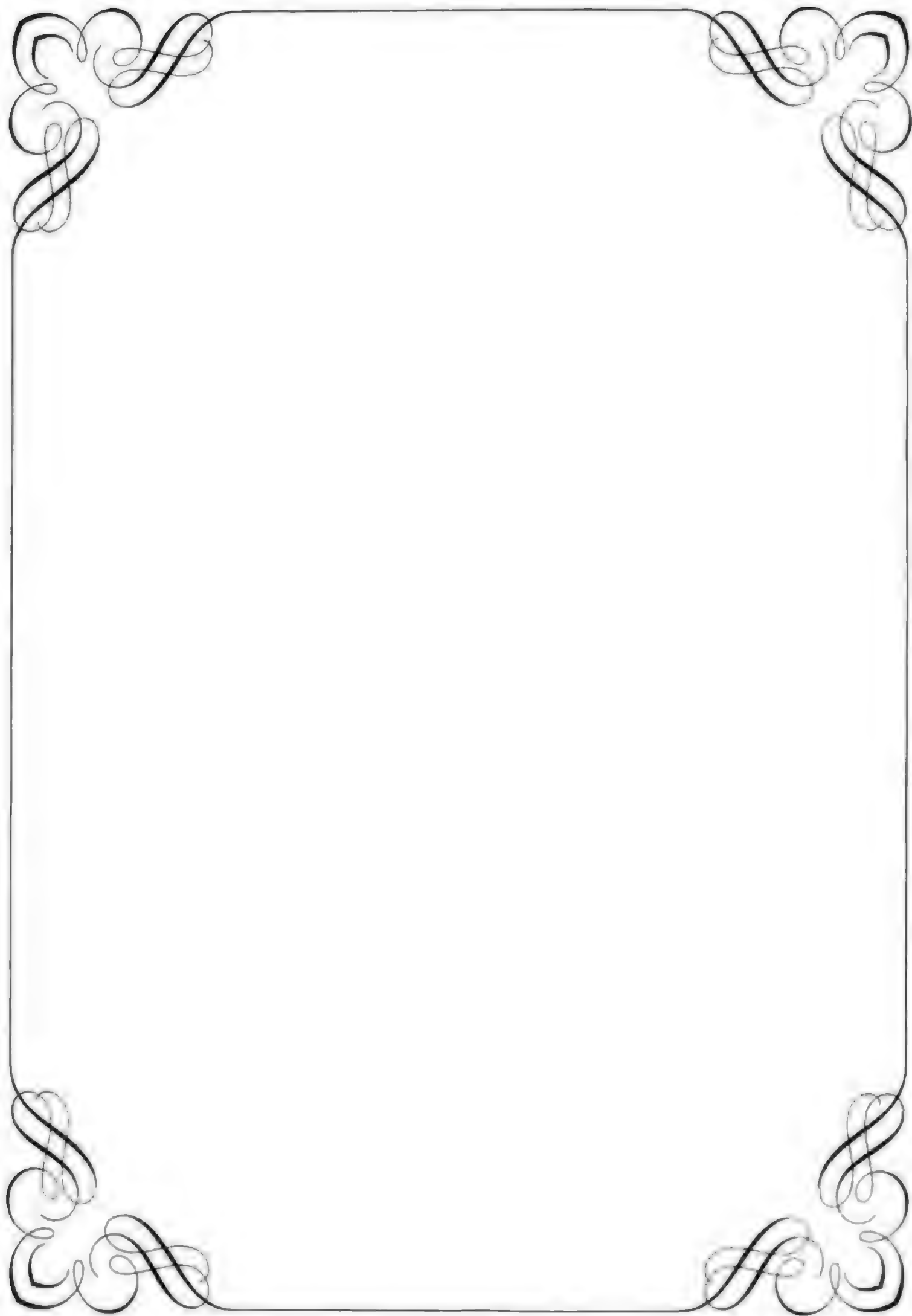
ومكَّن في الأرض هذا الغيَّ
أفي الحقُّ إن قلبته من جناح... ؟
شقنا بها في عَنان السَّماء
يفوت مداها جَنَاحَ المَلَك
بلاهور^(١) ترنو إلى فارياب^(٢)
وفي العش صمتٌ كحوت البحار
من الأرض نحو السماء دليل
وأبصر ما قلته في الخصام
وقال مقالك لا أنكر
وفي قيد سحرك علوٌ وسُفْلُ
فجئت لتصلح جوَّ السَّماء^(٣)

العِشْقُ

هو الحرفُ ضاءت عليه القلوب
هلم أنبئك قولَ الخير
وعاه النَّدَى خلصةً في السَّماء
وباح به الوردُ للعندليب

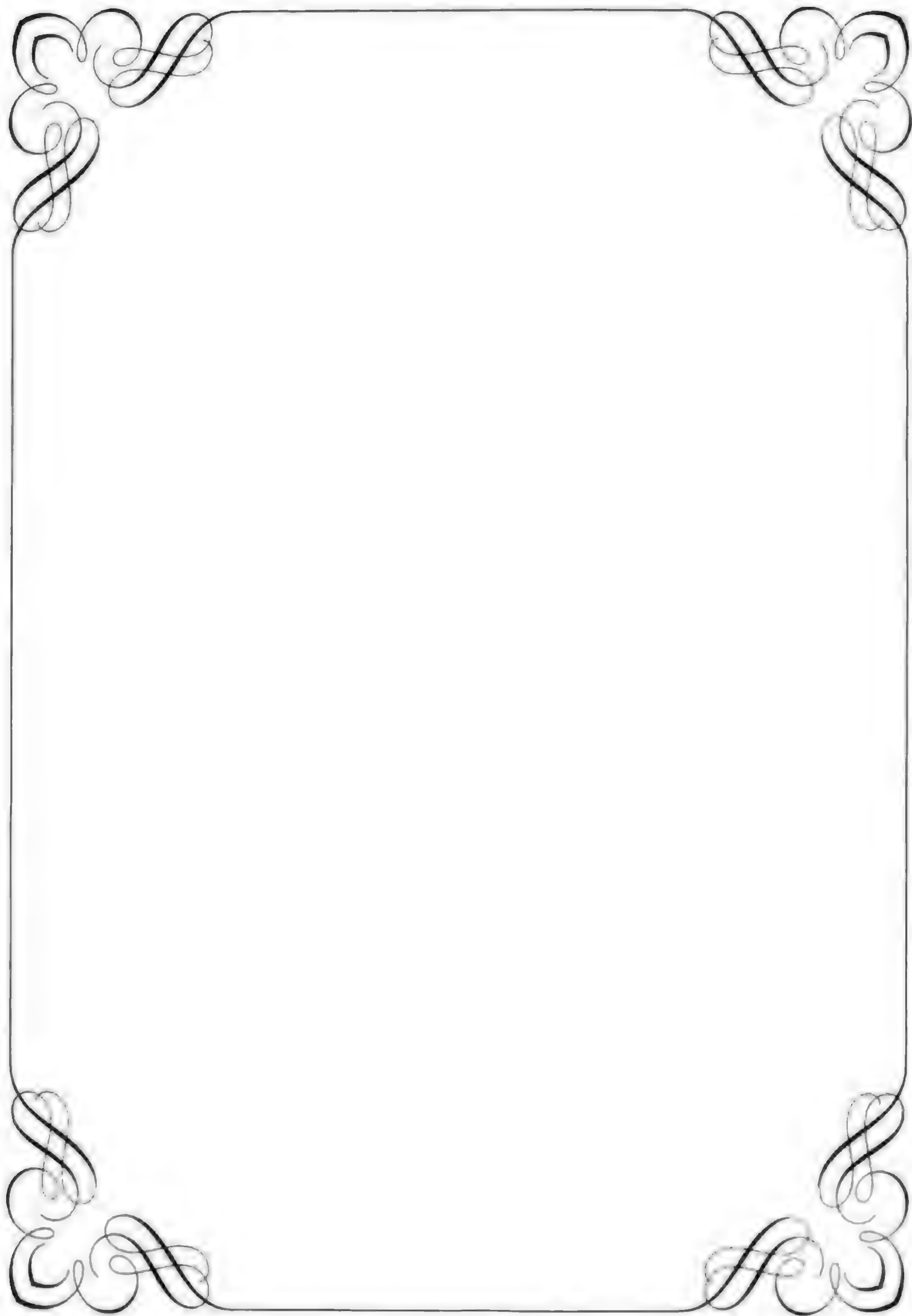
وليس بسرٌّ وسراً يرى
بمن قد رواه وعمَّن روى
وأسمعه الوردَ قطرُ النَّدَى
عن العندليب روته الصُّبا^(٤)

-
- (١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .
(٢) فارياب ، تقع في تركستان .
(٣) البيت الأخير للشَّيخ سعدى الشيرازي .
(٤) أبيات تمثل تطور العشق من قطرة إلى غناء بلبل إلى خفق الرِّيح .



القسم الثالث
الخمر الباقية
(غزليات)





حباً الربيعُ رُبانا
 فاستيقظت أكمّام
 لا تحسبَنَّ أنْ خُلِقْنَا
 فَمَا تَزَالُ خِيالاً
 لا تَغْتَرَّرُ بَعْلُومِ
 إِنَّ الْفَقِيرَ مُرِيْبٌ
 ضَمَّ الرِّبِيْعُ شَتِيْ
 وَبِئْسَ رِيْحاً وَلَوْناً
 مَنْ يُحْكَمَنْ نَظَرَاتِ
 لَمْ يَشُدْ يَوْمَاً بَغِيْب
 قَدْ قَالَ فِي الْحَانَ فَاسِ
 فِي كُلِّ دَهْرٍ خَلِيْلٌ
 لَا تَلْحِيْنَ أَهْلَ دِيْرٍ
 أَقَامَ أَوْثَانَ حَبِّ
 يَضِيْعُ شِدُو حَيَاةٍ
 فَالْمَيِّتَ لَيْسَ بِحَيٍّ

محافلُ الثَّغْرِ يَدُ
 لِلْبَلْبَلِ الْغُرِّيْدُ
 فِي صَبْحِ دَهْرٍ مَدِيْدُ
 حَوَى ضَمِيرَ الْوُجُودِ
 الْكَأْسُ خَيْرُ شَهِيْدُ
 فَلَا تَكُنْ بِمُرِيْدُ
 سَتَ الْأَوْرَادِ بِالتَّنْضِيْدِ
 أَنْظَارِنَا فِي الْوُرُودِ
 لِنَفْسِهِ فِي شَهْوَدِ
 كَلّاً وَلَا مَوْجُودِ
 مَغْ مَقَالَ شَيْخٍ رَشِيْدِ :
 وَالنَّارُ مَنْ نَمْرُودُ^(١)
 فَالْعِشْقُ جَدُّ عَنِيْدِ
 فِي الْقَلْبِ مَنْ مَحْمُودُ^(٢)
 يَنْسَابُ بَيْنَ الْهِنْدُودِ
 بِالنَّفْسِ مَن دَاوُدِ

عَقَلْنَا يَنْحَتُّ رِبَاً كُلَّ حِيْنَ
 أَرْفَعِ الْبَرْقَعَ جَهْرًا لَا تُبَلِّ
 فَهُوَ مَنْ قَبِدَ إِلَى قَبِدِ رَهِيْنِ
 لَيْسَ فِي حَيْكَ غَيْرِي ذُو حَنِيْنِ

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .

(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنا من عيني غيورٌ ناسج
بسمه خلّس ودمعٌ ورنأ
حبّذا العشق ففي يوم النوى
أيها الطائر من صدري اقبس
عود تيمور مضى لا لحنه
سادن الكعبة لا تأذن له

شكواي أمـرٌ عجيب
فنظرتني لي حجاب
أبلغ خلّاتق نور
حذار كفف تراب
في محفل من ربيع
بالرّيش منا شرار
يا واهنّ النفس تدري
حواك كـونٌ بعيد
مثل الشقيق تراني
والقلب غرضة رمي
في عرف أهل قلوب
لكعتني لم أسافر
وكم قيل أقاموا

نظراتي لك سترأ في العيون
ليس في الحبّ سواها من يمين
زاد باللوعة عهد لا يمين
لتزيد النار في هذا الأنين
هو في لحن سمرقند يبين
فلإقبال إله كل حين

من نور عيني شكاتي
وأنت في الجلوات
الحق من كلماتي^(١)
للنفس في نظرات^(٢)
نذوب من حركات
في الفجر من آهات
من أين لي نغماتي ؟
من عالمي وجهاتي
بالرّوض في حشرات
من أسهم اللحظات
الكدح سرّ الحياة
للأمن في طرقاتي
وأدبروا في شتات

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .

(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار

خودي » .

ففي دارة ضياء فيها
 فاخلق بطينك خلقاً
 مثلُ اسام شرارٍ
 إن لم تكن ذا فضولٍ
 العشقُ أبعَدُ شأناً
 في العجم أذكى نشيدي
 والعرب من نارٍ شوقي

في ذلك الحفل سؤلي
 لذاك أزجى غنائني
 في خلوة كل لفظٍ
 يبتُّ قلبي حديثاً
 من أجل نظرة وجدٍ
 مطهر نظراتني
 كالكم كل أموري
 لكن الجلوة شمسٌ
 كال موج ، ليس كياني
 ولست في البحر أبغي

عن محرم بي حقيق
 وفيه لحن الصديق^(١)
 فيها كثر صفيق
 بمقلتي وبموققي
 لوجهك المرموق
 بدمع عين طليق
 لعقدة ولضيّق^(٢)
 أنمو بقلب مشوق
 يهاب سيل العقيق^(٣)
 إلى الشطوط طريقي

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كراج في مشكاة .

(٢) فرصات : جمع فرصة .

(٣) اللحن : الرمز في الكلام .

(٤) يتخيل الشاعر أن كم الزهر لانطباقه معقود .

(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشق الأرض وواد بالمدينة .

مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَرَأْيٍ
مَهْمَا تَبَاعَدَ عَنِّي
قَدْ خَطَّ فِي سِتْرِ عَيْنِي
بَشَعُ وِذَاتِ أَرَانِي
فِي قَبْةٍ قَدْ أَحَاطَتْ
شَوْكَ بِجَنْبِ سَمَاءٍ
لَا اسْتَرِيحَ بَعْشُ
طَوْرًا بِشَاطِئِهِ نَهْرٍ

بَيْنِي وَبَيْنَ صَدِيقِي^(١)
فَكُلُّ حِينَ رَفِيقِي
نَقُوشُ كَوْنٍ أَيْقُ^(٢)
فِي قَيْدِ سَحَرٍ وَثِيقٍ
لَا أَرْضِي بِالصُّيُوقِ
لَا بِدَلِّي مِنْ مُرُوقِ
مَنْ لَذَّةِ التَّحْلِيْقِ
طَوْرًا بِرُوضِ شَقِيقِ

الْمَغْنَى الصَّبِيحَ فِي الْحَانِ
وَتَحْيِي دَمَ الرِّبِيعِ شَقِيقِ
نَغْمَةً تَفْتَحُ الْعَيُونَ لِمَعْنَى
فَتَأْمَلُ بَعِينَ عَشْقِي وَأَبْصُرُ
فَعَيُونََ الْعُقُولِ تُظْهِرُ فِيهَا
وَعَنْ عَشْقِي خُذْ دُرُوسَ جِهَادِ
إِنَّمَا الْعَشْقُ جَوْهَرٌ لَشُعُورِ
وَلَنَا غَايَةٌ مِنَ الشَّمْسِ أَعْلَى
إِيهِ يَا قَطْرَةً عَنِ النَّفْسِ تَاهَتْ

وَرِيَاضُ الرِّبِيعِ الْوَاخُ مَانِي^(٣)
أَيُّ ظَمَأٍ بِهِ إِلَى الْأَلْوَانِ ؟
ضَاقَ عَنْهُ طَرَائِقُ التِّيَّانِ
مِنْهُ آيَا تُضْيِيءُ دُونَ بَيَانِ
هَذِهِ الْكَائِنَاتُ سَحَرُ الْعِيَانِ
وَأَفْعَلْنَ مَا تَشَاءُ فِي كُلِّ آنٍ
وَهُوَ رُوحُ الْإِدْرَاكِ وَالْعُرْفَانِ
إِنَّهَا الشَّمْسُ صُورَةُ الرُّكْبَانِ^(٤)
تَطْلُبِينَ الْمَحَالَّ فِي الْأَكْوَانِ

(١) الرَّأْيُ : رَأْيَ الْعَيْنِ .

(٢) فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الصُّورِ الَّتِي تَسْمَى خَيَالِ الظَّلِّ ، فَالْسِتْرُ يَظْهَرُ عَلَيْهِ الْخَيَالُ لَا الْحَقِيقَةُ ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْعَالَمَ نَقُوشٌ فِي سِتْرِ الْعَيْنِ تَخْدَعُ عَنْ الْحَقَائِقِ .

(٣) مَانِي : صَاحِبُ مَذْهَبِ الْمَانَوِيَّةِ كَانَ مَاهِرًا فِي التَّصْوِيرِ ، وَتَرَكَ الْوَاخَا مَصُورَةً فِي كِتَابِ عَرَفَ بِاسْمِ « أَرْزَنْكَ » ضَرْبٌ مِنَ الْمَثَلِ .

(٤) الصُّورَةُ : أَحْجَارٌ تَجْعَلُ عَلَامَةً عَلَى الطَّرِيقِ .

إِنَّ عَاراً مَعِيشَةَ الْبَحْرِ إِنْ لَمْ
يَا جَهولاً بِقَدْرِ نَفْسِكَ لَوْلَا

تَطْلَعِي مِنْهُ دُرَّةٌ ذَاتُ شَانٍ
أَنْتِ كَانِ الْعَتِيقُ كَالصَّوَانِ^(١)

أَنَا سَيْلٌ هَدَمْتُ كُلَّ سُدُودِي
كَانَ عَقْلِي يُرِينِي وَجُودِي
وَصَلَاتِي بِكُمْبَةِ التَّوْحِيدِ
فَاعْجَبْنِي مِنْ زُنَّارِي الْمَعْقُودِ
دَمْعُ قَلْبِي حَبْسُهُ عَنْ خَدُودِي
خَمْرُ شَوْقِي لِسُكْرَتِي وَشُهُودِي

قَدْ هَدَمْتُ الْأَصْنَامَ لَمْ أَرْضَ شُكْلًا
وَمِنَ الْعِشْقِ قَدْ رَأَيْتُ كَيْانِي
وَبِدِيرِ ضِرَاعَتِي وَهُوَ أَنِّي
وَمِنَ الذِّكْرِ سُبْحَتِي بِيَمِينِي
مَنْبَعُ الْحُزْنِ فِيكَ غَيْرُ نَضُوبٍ
رَاقِ قَوْلِي ، وَسِيرَتِي لَجُنُونٍ :

بَنَارِ رَاحِ عَتِيقِ
مَنْ نَارُهُ كَالشَّقِيقِ
هَدَيْنِي يَمِينُ الدَّلُوقِ^(٢)
بَسْتَانِ وَجْهِهِ أَنْيَقِ
مَجَاوِرِ بَالِ الْعَتِيقِ
فَتَاوَى بِكَأْسِ رَحِيقِ
عَلَى غَنَائِي الرَّرِيقِ
إِسْكَنْدَرُأَ بِحَرِيقِ
الصَّبَا سَلَامِ مَشُوقِ^(٣)
لَعَيْنِ ذِي تَحْقِيقِ

طَوْبِي لِمَحْرَقِ عَقْلِي
مَنْ يَعْتَنِي بِمَتَاعِ
أَوْحَى الرَّبِّيعُ إِلَيَّ الزَّا
فَاغْرَسَ بِالْكَأْسِ الْحَمِيَّا
قَلْبِي رَثِي لَفْقِيهِ
مَا اتَّبَاعَهُ شَيْخُ خَانَ
اللَّحْنُ لَا تَقْدُرُونَهُ
فَبَرْقَةُ اللَّحْنِ تَغْشَى
لِرَوْضِ « وَيْمَر » تَهْدِي
فَذِي الدِّيَارِ أَضَاءَتْ

(١) يعني أَنَّ الإنسانَ جهلٌ قَدْرَ نَفْسِهِ وَقَدَّرَ أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا قِيَمَةٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ .

(٢) الدَّلُوقُ : جَمْعُ دَلَقٍ ، وَهُوَ لِبَاسٌ بَالٍ مَرْقَعٌ يَلْبَسُهُ الرُّهَّادُ وَالشُّحَّادُونَ .

(٣) وَيْمَرُ : مَدِينَةٌ فِي أَلْمَانِيَا ، أَقَامَ فِيهَا الشَّاعِرُ غَوْتَهُ كَثِيرًا وَمَاتَ وَدُفِنَ فِيهَا .

نُوح لِيْلِي الْقَلْقُوقَ
وَالْأَنْيُنْ مِنْ شَرَرِ
أَيْن حَرَصَ مَجْتَهِدِ
ذَاكَ فَاسْ فَرَمَادِ
قُل لَسَاكُنِي حَجَبِ
ذَا الْغُبَارُ ذُو نَظَرِ
مَطَرَبَتِي تَسْكُرْنِي
نَغْمَاتُ مُسْتَحَرِ
مِنْ حَذَارِهِ أَرْضُ سَمَرِ
مِنْ هَجُومِ جَنْكِيْزِ
هَاتِ مَطَرَبِي غَزْلًا
لَأَفُوزَ مِنْ لَهَبِ

مُنِيَّتِي أَنْ يَتَجَلَّى
فِيْدِي تُفْسِكُ صَدْرِي
وَيَقُولُ الْحَسَنُ : صَبَحِي
فَيَقُولُ الْعَشِقُ : وَجَدِي
لَيْسَ مِنْ يَوْمِي وَأَمْسِي
لَيْسَ لِي نَجْدٌ وَغَوْرٌ

وَالْهَمُومُ فِي الْقَلْقُوقِ
وَالْقَرِيضُ مِنْ خَرَقِ
مِنْ تَضَرُّمِ الْعَشِقِ
ذَاكَ خُسْرٌ فِي مَذَقِ^(١)
عَنْ تَرَابِي الْقَلْقُوقِ :
ذَا التَّرَابُ ذُو فَلْقِ
وَتَزِيدُ فِي خُرْقِي
بِالْقَلْبُوبِ ذِي عِلْقِ
فَنَدَبْتُ فِي فَرْقِ
أَوْ هَلَكَوْ فِي الْحَلْقِ^(٢)
نَظْمُ مَرَشَدِي اللَّيْقِ
التَّبَرِيْزِي بِالْحَرْقِ

ذَلِكَ الْبَدْرُ التَّمَامُ
وَبَعِيْنِيَّ اقْتَحَامُ
لَيْسَ يَغْشَاهُ ظِلَامُ
لَيْسَ يَخْبُوُ وَالْهِيَامُ
وَعْدِي فِي زَمَامُ
لَيْسَ يَحْوِيْنِي مَقَامُ

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

وكؤوساً لا تـرام
دائر عندي جام^(١)
لا يرى فيه انسجام
عن حبيبي لي كلام
لي في اللحن مقام^(٢)
لي بالغمد كعام^(٣)

خمرة الأسرار أبغي
وبحانات مجوس
لا تقل : مالي ولحنأ
فأنا طائر غيب
أرفع الستر وأشدو
أنا صمصام دماء

من ظمئنا في الطُّلاب
تعلُّه الهَيَّاب^(٤)
وأيـن أزجي ركابي ؟
ونظرتني في حجاب
واخفض نواح الرِّباب^(٥)
تنوح تحت نقاب
قوافلي بسـلاب
فلا تفه بعتاب
لا تبغ وزن خطابي

عُضُنُ الحَيَاة ندي
عين الحَيَاة أراها
فمن أبـتُ حديثي
ولا تـؤثر آهي
فزمزمـن في غناء
فلا تـزال طيور
أهل الحجاز تولوا
حبيـنا عـربي
وزن عـجم وهند

- (١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحناتهم .
(٢) من مقامات الموسيقى .
(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الذي يخشى صياله - وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السُّلاح - .
(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .
(٥) الرزمزة : كلام خفي .

فأصل هذي اللآلي
هَلُمَّ فالرَّاحُ عندي
وخمرة القول أصبى

بالليل دمع انتحابي
من دُنْ عالي الجناب^(١)
من خمرة الأعناب

من كرى الموت لا تفيقُ عيونُ
إنَّ من دونك الوجودُ محال
قد حوى الكون قلبنا وهو فيه
نغماتي الضعاف أحرقن صحبي
إنَّ تضرن الصبا بطلُ فدعها
فإلى الحق وجه القلب واصبر
سُدَّة الوثنِ هذه وعليها^(٢)

دون نور تفيضه من سناكا
ومحال فناؤنا في جسماك
عقدة لا تحلُّ فاكظم فاك
حرقتي نغمة أبت أن تحاك^(٣)
نار قلب الشقيق تأبى فكاكا^(٤)
لا تؤمل بغيره إدراكا
جبهات الأباة تأبى حكاكا

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة^(٥)

لهيب الوجد من أسماء لا عندي ولا عندك
وحرُّ القلب في البداء ، لا عندي ولا عندك

(١) جلال الدين الرومي .

(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطيع إظهارها .

(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط
الطل فهذه النار لا تفارقنا بأية حال .

(٤) الوثن : جمع وثن .

(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثمانين
مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا
« لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيخ أنت في حان وإنني ناشيء ساق
 عطاش نطلب الصهباء لا عندي ولا عندك
 رهناً قلبنا والذين حبُّ الغيد من عجم
 ونارُ الشوق من ظمياء ، لا عندي ولا عندك
 حطام كان أصدافاً على شطِّ لقطناها
 فقدنا الدُّرَّة البيضاء ، لا عندي ولا عندك
 ويلوى يوسف المفقود من يطيع ذكراها
 وخفق القلب في زلخاء^(١) ، لا عندي ولا عندك
 كفانا الثُّورُ في المصباح قد أخفته أستارُ
 فطوق الثُّور في سيناء ، لا عندي ولا عندك^(٢)

قلبنا كـوَنٌ ولكـن	ما به دور القمر
دورانٌ ليس فيه	من عشيٍّ أو بُكر
ويل ركـبٍ قد أسفـ	العزمُ فيه وضمـ
فهو يرتاد طريقاً	ليس فيها من خطر
فدع العقل ومـوج	العشق صارع لا تقرر
فبذاك النهر ضيق	ليس فيه من دُرر
كلُّ ما يجري خيالـك	أو خيالي في الأثر
هو في العين ولكـن	مُستسرٌّ كالنَّظر

غير مجـدٍ بكـاؤنا ويلتا ! ضاع ذا النغم

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام .

(٢) الطوق : الطاقة .

نُفُوح قَلْبٍ مَمَزَقٍ
خَفَقَ الْقَلْبَ سَاعِيَا
هُوَ فِينَا مُحَدِّقٌ
نَبَذَ السُّرَّ أَهْلَهُ
غِيْرَةُ الْعَشَقِ فَاَنْظُرْنَ !
مَطْرَبُ الْحَانِ فِي الدُّجَى
ذَوْقِ رَاحٍ مُحَرَّمٍ
هِيَ مَسِيرَ حَيَاتِنَا
لَيْسَ لِلْمَوْجِ مَنْزِلُ
أَشْعَلِ النَّارَ فِي هَشِيمِي
« مَنْزِلَ الْكَبِيرِيَاءِ لِي »

حَاصِلُ الْغَمِّ وَالْأَلَمِ
يَخْلُقُ الدَّيْرَ وَالْحَرَمَ
نَحْنُ فِيهِ عَلَى قَدَمِ
لُذْتُ بِالنَّفْسِ فِي حَرَمٍ^(١)
أَيْنَا شَوْقُهُ احْتَدَمَ ؟
قَدْ شَدَا مَعْجَبُ الْحَكَمِ
شَرِبُ رَاحٍ لَنَا أَمَمِ
مَا سَوَى السَّيْرِ يُغْتَنَمِ
أَوْ طَرِيقُ إِذَا التَّطَمِ
مَنْ قَالَ فِي الْقَدَمِ :
مُرْشِدَ الرُّومِ^(٢) ذَا الْعِلْمِ

لَا تَحِلَّ بَعْدَ هَذَا يُقَدَّرُ
« لَيْسَ مِنْ قَوْمِي مَنْ لَا يُنْحَرُ »
لَا تُرْعَ لِلْعَشَقِ جَنْدَ يَنْصَرُ
عُودَ سَلَمَى كُلِّ حِينٍ يَقْطُرُ
يَتَوَجَّهَ لِسَوَاهَا النِّظَرُ
وَأَنَا فِي شُغْلٍ لَا أَنْظُرُ

أَبَدٍ مِنْ طِينِكَ نَاراً تُضْمَرُ
مُلْكُ جَمٍّ « لَنْظِيرِي »^(٣) مَصْرَعُ :
سَاحِرَ الْعَقْلِ يَعْجِي جَنْدَهُ
بِمَقَامٍ وَلِحَوْنٍ لَمْ تُحِطْ
نَظِيرِي فِي النَّفْسِ أَحْكَمْتُ فَلَمْ
فَتَجَلَّى الْحُبُّ فِي كُلِّ الدُّنَى

(١) أهل السر الذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العِشْقِ في البيداءِ سدَى
وبصيدِ الوحشِ في البحرِ اهتَفَنُ
ملءَ عيني دليلَ ما مضى
اصبحنُ شُرباً خليعاً واخَذَرُنُ
غايةَ الإفصاحِ لمَحْ وكُنَى
في قرى الحسنِ تعالوا نَجَارُ^(١)
لا تَقُلْ : زورقنا لا يُحَرُّ
في طريقٍ ليس فيها خطر
عهد شيخٍ ليس فيه ذَارُ^(٢)
فلغى الخلوة رمز يُعبرُ^(٣)



تضيّقُ بـ بدارِ أصنام
ولكن نحو مشتاقٍ
فأقْدِم واتخذ مغنا
وكيف وأنت ربُّ الدَا
تُغير على ذوي التسييح
وتطرق أهل زُنَّار
وذو جحفـل لجـب
وطوراً في جماعات
وتأتني باللهيب إلى
وتأتني كالقراش إلى
فيا إقبال خذ كأساً
ولا تـرضى بمحـراب
تسيرُ بشوقِ أصحاب
كُ في أرواحِ أحباب
ر تدخل خطو مرتاب ؟
تحمـل كل أسـلاب
بـلـي فعل نهـاب
لسفـك دمـاء أصحـاب
بكـاساتٍ وأكـواب
كليم غير هيّاب^(٤)
يتيم شمعُه كـابي^(٥)
بخمر « الذات » للهـاب

- (١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلي وهيامه في البید ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .
(٢) الذار : الشره وحده الخلق .
(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .
(٤) إشارة إلى النار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .
(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفاك الغرب من كامنٍ لنفسك منك سلاب

لذعات حان العُجم لبت	كُفء ناري الحاميه
ذا أحمد العربيُّ نظد	رُتته تحيط جهاتيه
ما حيلتي والعقلُ في	عُقدي له متواليه
نظرات عينك ، فانظرن	حلت طلسم مجازيه
جِيلُ العقول تفوقها	خفقات قلبي الداميه
فاهجر كنيس تفلسف	لحرير ناري الحاميه

أنت كالمرآة تفتني في جمال الآخرين	فاغسلن قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطير في الأحرام فاقسن واحرقن ^(١)	ذلك العش الذي شدت بمال الآخرين
وتعلم جاهداً خفق جناحيك وطرن	أنت لا تستطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرتي	ممكن قتلي بكأس من زلال الآخرين
إيه يا أقرب من روعي ولا أبصره	عندنا هجرُك أحلى من وصال الآخرين ^(٢)

عندليب الربيع جن غناء	وعروس الشقيق تزهي بهاء
لا مفن ولا مزاهر فيه	ذاك لحن من المغيب جاء
محرم السر من يسدد ضرباً	في وتار الحياة أيان شاء ^(٣)

(١) الأحرام : جمع حرم .

(٢) وهذه قطعة أخرى بنيت على الرمل المثلث - والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف .

(٣) الوتار : جمع وتر .

لست أفشي ، فالدهر لعباً أساء^(١)
قدّر الله في الحياة التقاء
كل شيء كالزّمل يمضي هباء
وبأرض الحجاز قلبي أضاء
أرض شيراز ، حبّ ذاك انتماء

من خضمّ الزرقاء نبغي قراراً
لذة « الذات » فرّقنا شراراً^(٢)
نال بالعقل في السماء مطاراً
وبكّد الحياة نقّح ناراً
كلّنا أعين فآلق السّاراً

روضة تبت ورداً وشقيقاً
صوّحت جناتهم ، روضاً أنيقاً
يا ترابي ! فلتكن قلباً خفوقاً
سار لا يرضى مقاماً أو طريقاً
عقلنا اليائس فاحذره رفيقاً
قد حبا قلباً إلى اللّحن مشوقاً
علّ شدوي مضرّم فيك حريقاً
قطرة فيك غدت بحرّاً عميقاً

من وراء الستور أنبت سرّاً
لا تعنّف وخذّ سبيل وداد
أين في دارة التراب مقام ؟
زهرة من رياض كشمير جسمي
وأغانيّ واللحون نمّتها

نحن تربّ ، وكالنجوم سفارا
نحن من شعلة الحياة جميعاً
قل لأهل السّماء : إن تراباً
نحن في العشق زهرة في نسيم
نحن في المرج نرجس ناظرات

ليردّ العُرب دمعِي دامياً
وليردّ العُجم أنفاسي وقد
من حياة وخلود كدحنا
صحب الله فؤادي هائماً
صوّر اليأس على آفاقنا
وبعدوٍ قطعّت أوتارهُ
أنت نشء وكلامي شعل
ليس في قلبي إلا أن أرى

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالذي يسمّى خيال الظلّ .

(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عرا الرُّوح هدوء ولتكن بحياة الكد والكُذح خليقاً

ولا سنا الرُّينات	لا الثَّاج يزهر عليه
من الملوك الأبناء	فقيراً حُكك ، لكن
وفتيلاً في سُبُرات	في الشيب ماتت قلوبُ
في الفجر من أهلات	فما لصدِر نصيبُ
في واسع الفلوات	لا تقعدن عن طِلابِ
هادٍ إلى الطُّرقات	فما بعصرك هذا
أضعتَه في شتات	غَفُلْتَ عن سرِّ وقتِ
بالشَّهر والسَّنوات	وقتٌ عداه حسابُ
ما فيه عيش مواتي	هذا الرُّباط قديم
وعن جهاد الحياة	غَفُلْتَ عن سرِّ عيشِ
كاتبها الهفوات	ماذا يخطُّ من الذنوب
فيها سوى نظراتِ	دياك ما قد أصبنا
بذيله في ثبات	إقبالاً الحرَّ أمسك
من بائعي الخرقات	فما يرى في رباط

وحكمتي عن شرر تخور	عشقي الجريء صدره سعيَرُ
قيسُ بـ « ليلي » عندنا شهير	إن يكمل الهيام صار ذلاً
سيماه فوق جبهتي تفور	إليك جئت في سجود وجِدِ
« إلا » ي كيف في الدنى ثور ^(١)	هب سيف « لا » لكافري وأبصر

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بد من دور يعيد أمسي
نورك فيه للذنن نصيب
أحدث الرحمن في حجاب
أيها رسول الله ! إن ربي

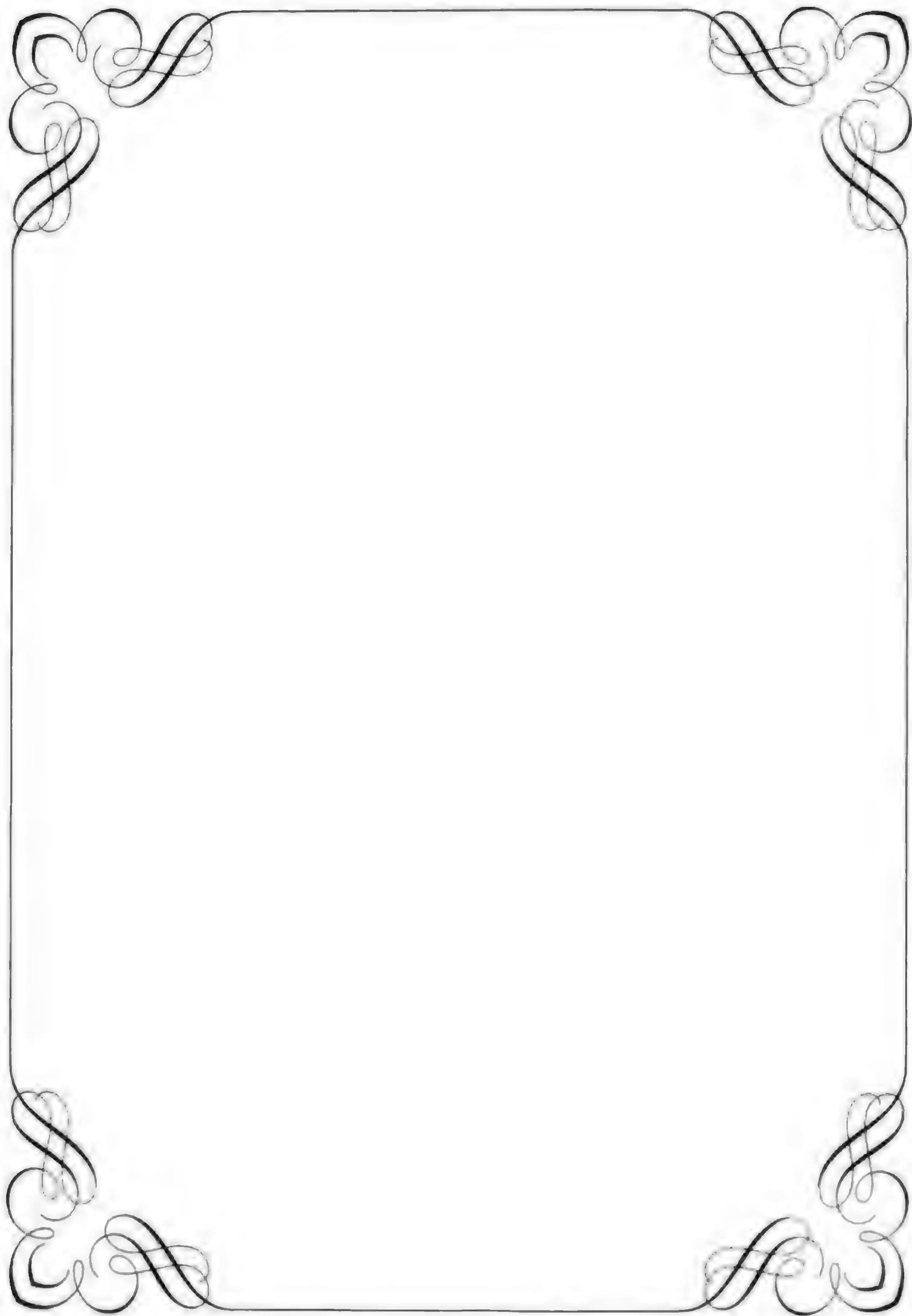
في جلوات من غدي يسير
« سينا » ي كيف فاتها تنوير
وفي حماك منطقي جهير
محجب وأنت لي ظهور

أسفي عليك نحتاً أصناماً آخر
أسفي عليك صُهرت في نار الفرن
أسفي عليك فما وُزنت بنظرة
أسفي عليك قرأت أسفار العقو
أسفي عليك تطوف من دير إلى

عوداً ولم تبحث بقلبك عن أثر^(١)
حج ومن لحاظ العين روحك قد قطر^(٢)
في حلة فيها التراب له قدر
ل وما فهمت حديث وجد يُستطر
حرم وفي معنك لم تُجد النظر

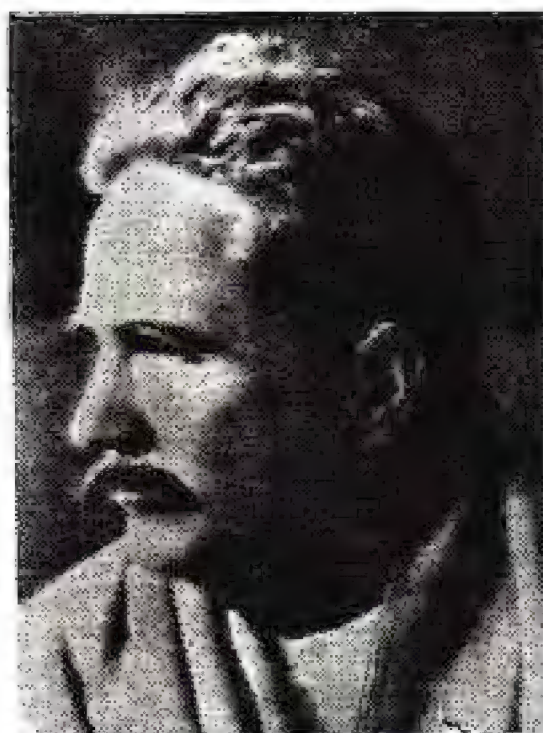
(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .

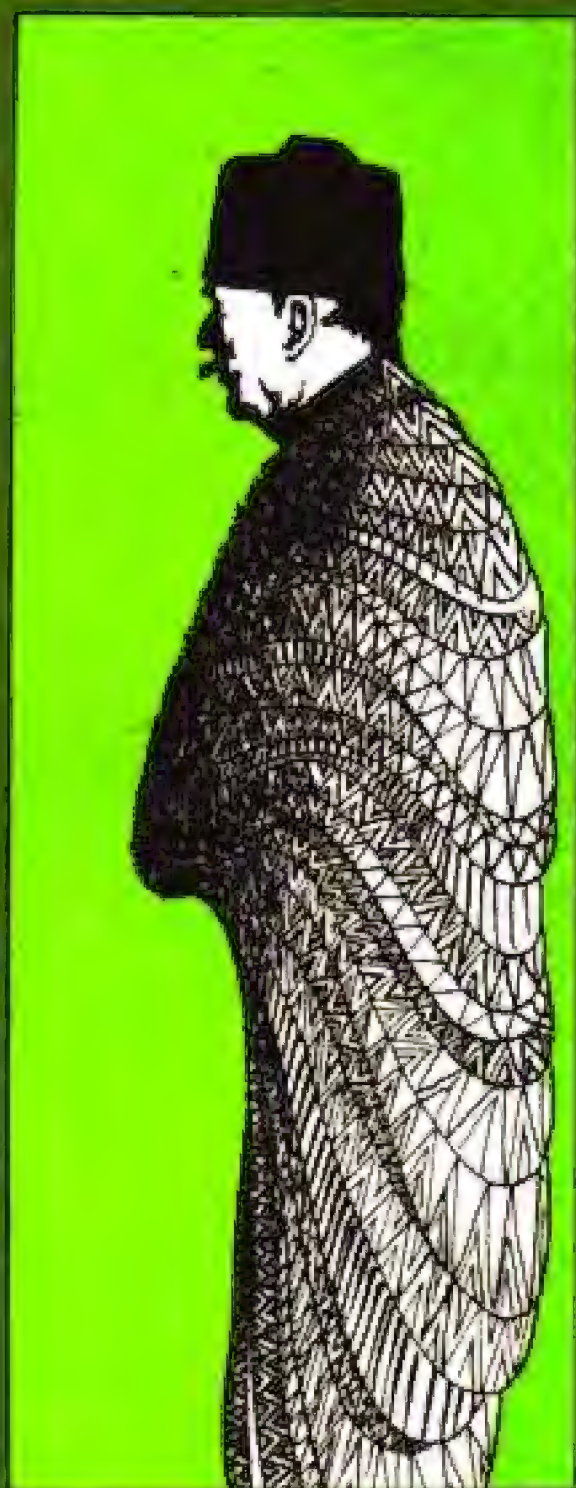
(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .



القسم الرابع

نقشُ الإفرنج





طرح نو انداز اندر جان خویش
تماره کن با مصطفی پیمان خویش

نقش الإفرنج

عالم الإفرنج جهرا :
 زاده التحليق أسرا
 منه هذا العقل فرأ
 بالأكباد أدري
 حينما تبصر زهرا
 هو أجلي منه يُدري
 ز مسيح نلت خيرا^(١)
 داؤه عندك أشد^(٢) يرى
 سب لا ترغب فيه
 ضاع في كف سفيه
 ليس فيه من نهايه
 والعشق بدايه^(٣)
 يقظات بالعمايه
 هو في الفتنة آيه
 إلى القلب سرايه

أبلغني يا ريح عني
 إنما العقل أسير
 يتحدى العشق برقاً
 سحر العقل ، وكان العشق
 تبصر الأعين لونا
 وراء اللون معنى
 ما عجبنا أن إعجا
 قد عجبنا لمريض
 تجمع العلم وتلقي القل
 آه ذا نقد ثمين
 إنما الحكمة أمر
 ليس في كتابها للحب
 قطعت سبل قلوب
 ذات طرف ذي كلام
 ودلال لا ترى فيه

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شري الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالمنج في المعجزات ، ولكنه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزّه كما يبري القلم .

زرة من غمر الرعايه
فمر بظبي في النهايه
بلغ من الأزهار غايه
سداداً ورشاداً
وابلغوا منه مُراداً

ليس فيها لذة الوخ
طسوت اليد ولم تظ
طافت البستان لم تب
فهلُّموا نسأل العشق
واقصدوا العشق سُجوداً

ذا شعاب حين سارا
وأصار الماء نارا
ردت الرمل نضارا
في قلوب أو أنارا
فقبلناه جهارا
قطع السبل نهارا
سج والنقع أثارا
ذر من ذاك غبارا
وحصّنا من لهيب
عقداً فوق القلوب

سلك العقل طريقاً
ملا العالم هرجاً
في يديه كمياء
لم يضغ إكسير حب
سحره قد خال فينا
ذاك قطّاع طريق
فنه قد هدم الأفرن
ثم في مقلّة عيني
كم زرعنا من شرار
كم عقدنا وحلّنا

من جناح العندليب
على الأرض تريب
د الثريب لا يخيب
كنسيم في هبوب
ر للسرّ يصيب
سار أو شكّ مريب
ك للمسرى الرّحيب

أين من خفق الشواهي
أين من يلقط من حب
من فتى يلقط عنقو
أين من يسري بروض
من بصير في ضمير الزه
أين فوق الأرض ظن
من طمّوح جاوز الأفلا

حَبَّذا عَقْلٌ فَسِيحٌ
 نَوْرُ أَمَلِكِ وَنَا
 نَحْنُ مِنْ خَلْوَةِ عِشْقٍ
 فَجَعَلْنَا مَوْطِئَ الْأَقْدَا
 فَنَظَرْنَا هَمَّتْنَا كَيْ
 قَدْ أَضَعْنَا الْكَوْنَ جَهْرًا
 قَدْ نَزَلْنَا شَطْطَ نَهْرٍ
 تَبَصَّرُ الْأَعْيُنُ سَطْرًا
 قَلْبُنَا بَيْتُ هَذَا الدَّيْرِ
 فَرَمَى النَّارَ بِرَطْبِ
 شَعْلَةٍ كُنَّا جَمِيعًا
 أَهْلَ شَوْقٍ وَحَنِينٍ
 أَصْبَحَ الْعِشْقُ غَوِيًّا
 فَتْنَةً لِلنَّاسِ فِيهَا
 آثَرُ الْحَرْبِ عَلَى الْخَفِضِ
 لَمْ يَرَوْا السَّيْفَ إِلَّا
 قَطَعَ الطُّرُقَ وَسَمَّى الْـ
 أَخَذَ الدُّفَّ وَغَنَّى
 رَافِعًا فِي الْكَفِّ كَأْسًا
 حَانَ أَنْ تُحْدِثَ نَهْجًا

قَدْ أَحَاطَ الْعَالَمِينَ
 رَ الْآنَسِ فِيهِ دُونَ مِينَ
 قَدْ بَرَزْنَا بِالسَّجَايَا
 مَ فِي الْأَرْضِ مَرَايَا
 فَعَلَبْنَا بِالْعَطَايَا
 حِينَ حَزَنَاهُ خَفَايَا^(١)
 نَبَصَّرُ الْمَوْجَ سَرَايَا
 مِنْ غُدُوٍّ وَعَشَايَا
 لَا يَبْغِي سَبَايَا^(٢)
 وَيَبْسِي فِي الْبَرَايَا
 وَانْثَرْنَا كَالشَّرَرِ
 وَرَجَاءٍ وَنَظَرِ
 قَاطِعًا كُلَّ وَكَايَا^(٣)
 خَفَقُ حَوْتٍ فِي الْعَرَاءِ
 وَعَبَّيَ لِلْقَاءِ
 مِنْ صَدُورِ الْأَوْفَاءِ
 قَطَّعَ حِفْظَ الْأَمْنَاءِ
 رَاقَصًا دُونَ حِيَاءِ
 مِنْ دُمَاءِ الْأَصْفِيَاءِ
 وَنَجَدَ النُّظْرَا

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلكه أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدَّيْرُ الْقَدِيمُ ، وهو كناية عن الدُّنْيَا .

(٣) أحب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أَنَّ الْعِشْقَ ، وهو الوجدان السليم قد صار
 هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فَاغْسِلُنْ لَوْحَ فؤَادِ
 لَحْنُ إِسْكَنْدَرِ وَلَيْ
 وَأَتَى فَرَهَادُ يَغِي
 يَوْسُفُ فَارَقَ سَجْنَا
 وَخِرَافَاتُ زَلِيخَا
 كُلُّ سَرُّ كَانَ يَخْفَى
 وَمَضَى حِفْلُ الثَّدَامَى
 فَافْتَحِ الْعَيْنَ وَأَمِيزْ
 إِنَّمَا تَبْنِي الْحَيَاةَ الْيَوْمَ
 أَنَا فِي الْأَرْضِ بِصِيرُ
 أَبْصَرَ الذِّذَاتِ طَرَا
 وَأَرَى الْحَبَّةَ تَحْتَ الثَّرْبِ
 ذَاتُ أَصْلٍ وَفَرْعٍ
 وَأَرَى الْأَطْوَادَ رِيشَا
 وَأَرَى الرِّيشَ ثِيَابَا
 وَانْقِلَابُ لَيْسَ يَحْوِ
 قَدْ أَرَاهُ لَسْتُ أَدْرِي
 حَبَّذَا الْمَبْصَرُ جَهْرَا
 وَيَرَى جَوْهَرَ لَحْنِ
 بِالْحَيَاةِ النَّهْرُ جَارِ
 عَاتِقِ الرِّاحِ فَتَى
 كُلُّ أَهْلِ لَوْجُودِ
 وَوَجُودُ غَيْرُ أَهْلِ
 إِنَّمَا الْعِشْقُ عِيُونُ
 وَمُنَى الْحَسَنِ ظَهْرُ

وَأَجِدُ الْأَسْطَرَا
 وَتَقْضَى لَحْنُ دَارَا
 مَلِكُ بِرُويَرُ جَهَارَا
 وَعَزِيزُ الْمَلِكِ صَارَا
 وَرُقَاهَا تَتَوَارَى
 غَشِي الشُّوقِ نَهَارَا
 وَبَرِيْقُ الْقَوْلِ بَارَا
 لَتَرَى مَا لَا تَرَى
 كَوْنَا آخِرَا
 عَارِفُ سِرِّ الْحَيَاةِ
 كُنْجُومِ نَاطِلَاتِ
 مَنْ قَبْلَ نَبَاتِ
 وَثَمَارِ يَنْعَمَاتِ
 فِي رِيَّاحِ قَلَقَاتِ
 كَجِبَالِ رَاسِخَاتِ
 بِهِ ضَمِيرُ الْكَائِنَاتِ
 كَيْفَ فِي الْعَيْنِ يَوَاتِي
 فَارِسَا فِي ذَا الْقَتْرِ
 فِي اهْتِزَازِ بِالْوَتْرِ
 وَسِيَجَرِي فِي مَضَاءِ
 وَسِيَقِي فِي فُتَاءِ
 سَوْفَ يَحْظِي بِالضِّيَاءِ
 سَوْفَ يَحْوِيهِ الْفَنَاءِ
 تَرْقُبُ الْحَسَنَ ظَمَاءِ
 وَسِيَدُو فِي جَلَاءِ

إِنَّ هَذَا الْأَرْضَ فِيهَا لِي دَمَوُحٌ مِنْ دَمَاءِ
سُورِي الدَّمْعُ عَقِيقاً فِي حِشَاهَا ذَا بَهَاءِ
« فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ جَاءَتْ نِي مِنَ الصُّبْحِ بِشَارِهِ
أَطْفَىءَ الشَّمْعَ وَلاَحَتْ لِي مِنَ الشَّمْسِ أَمَارُهُ » (١)

جمعية الأمم

بِؤْسَاءِ الْأَرْضِ رَامُوا سُتَاً لَتَزُولَ الْحَرْبُ فِي هَذِي الْعُصُورِ
وَسَمِعْنَا أَنَّ نَبَاشِي قُبُورِ شَرَكَةً شَادُوا لَتَقْسِمَ الْقُبُورِ

شوبنهاور ونيثشا (٢)

طَارَ مِنْ عُنْثِهِ يَسِيرُ بِرُوضِ فَأَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ مِنْ زُهْورِ
لَعَنَ الرُّوضَ وَالزَّمَانَ وَنَادَى بِشُورٍ لِنَفْسِهِ وَالطُّيُورِ
وَرَأَى وَسْمَةَ الشَّقَائِقِ جَوْرًا وَطَلَسَمَ الْبِرْعُومَ خَدْعُ خَبِيرِ (٣)
قَالَ ذِي الدَّارِ شَيَّدَتْ بِاعْوَجَاجِ كُلُّ صَبَحٍ بِهَا إِلَى دِيَجُورِ
نَاحَ حَتَّى تَقَاطَرَتِ نَغْمَاتُ مِنْ دَمَاءٍ ، بِدَمْعِ عَيْنِ غَزِيرِ
وَشَجَا الْهَدَهْدَ النَّوَاحُ فَوَاقَى يَنْزِعُ الشُّوكَ مِنْ جَنَاحِ الْكَسِيرِ

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .

(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .

(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الثُمرَاءَ وَسْمَةً مِنَ الْحَرَقَةِ . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاغه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ريحاً
واجعل الجُرحَ بَلسماً فسترضى
مَرَّقُ الوردُ صَدْرَه للعير
واثْلَفِ الشوكَ تغدُ كُلُّك روضاً

الفلسفة والسياسة

لا تقيسوا فلسفياً بارعاً
ذاك عينُ جهرت في شمسها^(١)
بسياسي وبالعدل احكموا
ذاك في الحقِّ دليلٌ واهنٌ
وجمودُ عينِ ذا لا ترحم
ذا لدى الباطل قولٌ مُحْكَمٌ

نيتشا

نارٌ من ضعفِ الأناسي قلبه
فتنة في الغرب من ذي جنون
فبى الخلقِ المكمل لُجْه
كان في دار الرُّجاجي ضربه

بايرُن^(٢)

قطراتٌ رشحت من كأسه
ذو رسالاتٍ بها حرُّ الجوى
شعلةٌ تنمو كوردٍ وشقيق
ضاق بالإفرنج برداً طبعه
فرسولُ الحبِّ منها في حريق
فهو في الأوطان في غمٍّ وضيق

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .

(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيالٍ كم بنى من ملعب
جلّوات للشباب اثتلفت
طائرٌ فارق عشاً ورأى

فيه للحدود مراح وبريق
فهو في الغشبة منها لا يفوق
خلق الشباك^(١) أولى بالخلق

جلال وهيكل^(٢)

ليلةً بك أعاني حلّها
ذاك من أبرز في إبداعه
يخجلُ العالم من أفكاره
سرت في بحر له فالتطمت
نفت النّوم بعيني سحره
وأحدّ الشّوق طرفي فإذا
إنه الشّمس تجلّت في الضحى
نوره في مظلّم الأفق سرى
تنبّت الأفكار في الفأظه
قال : قم يا أيها النائم ! هل
في طريق العشق بالعقل يُسار ؟

مشكلاتٍ لحكيم الألمان
أبدئي الكون من ستر لآني^(٣)
شاكياً ضيقَ زمانٍ ومكانٍ
سفنُ العقل بموج الطوفان
فحماني فكرَ باقي أو فاني
نور وجهٍ لحكيم رحماني
كلُّ أفقٍ بسناها نوراني
كمنارٍ في طريق الرُّكبّان
مثل ما ينمو شقيقُ النّعمان
تمخرُ السفن سرابَ القيعان
بسراجٍ تبتغي شمسَ النهار^(٤)

(١) الشباك : الشبكة .

(٢) جلال الدين الرومي ، وهيكل الفيلسوف الألماني .

(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .

(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفى

(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على
بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياضِ غَنِيَتْ حيناً زدتَ قلباً جوى وأسليتَ قلباً
وخصَّبتَ الشقيق من دمك المسفوك وجُداً وجلّ ذلك خضيباً
كم بآهِ الصُّباح في المرجِ يسري ، في صدور الأكمّام فتَحَتَ قلباً
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها في « مزار » القريض تُدفن حبا
والى التراب لم تعد بمماتٍ ذاك حقّ فليس أصلك تراباً

جلال وجوته (١)

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم (٢)
شاعرٌ يشبه ذا العالي الجناب
قصٌّ للعارفِ بالسِرِّ القديم
فأجابَ الشَّيخُ : يا رب العلاء
قد خلا فكرُك في القلب السليم
فرأيتُ الدُرَّ في قاع البحار

فاز بالصحبة من شيخ العجم
ما نبياً كان لكن ذو كتاب (٣)
ما وعى إيليسُ والشيخُ الحكيم
أنت صيادٌ ولكن في السماء
فأجدُّ الرُّوح في الكون القديم
وديبُ الرُّوح منْ خلف الستار

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجناب - لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب - .

ليس كلُّ قد تجلَّى العِشْقُ له ليس كلُّ أهلِ هذِي المنزلة
« قد تجلَّى لسعيدِ المعِي مكرُّ إبليس وعشْقُ الآدمي »^(١)

رسالة برغسون^(٢)

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدُ بنفسِكَ عن لظاها كما جفَلَ الشرارُ عن اللهب
ولا تصحبْ سوى نظيرٍ عريفٍ ولا تمرر بأرضِكَ كالغريب
وما صورته وهمٌ فأعدد لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

حانة الفرنج^(٣)

عهدُ حاناتِ فرنجٍ ذكّرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرةُ فيها عينَ خمارٍ جميلٍ
نظرةُ الساقبي رسالا تُلشُّ ربابَ الشمسِ
عقلُها الخاتِر غاز عشقُها كلَّ سبيلٍ
جوُّها ما أشعلته نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها مِنْ خليجٍ فيه ترنيحُ الشكارى

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .

(٢) فيلسوف فرنسي .

(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء^(١)

لوك^(٢)

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيق^(٣) يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت^(٤)

فطرةٌ ضاءت شراباً ولها نجم كأسٍ من حريم الأزل

بگسون

ماله مِنْ أزلٍ خمرٌ وكأس ناره مِنْ حرقه القلب الشَّقِيقُ

شعراء

برونگی^(٥)

ليس في كأس الحياة البرد نازٌ فبماء الخضر كاسي أملا^(٦)

بايرن

منةٌ للخضر لا تلهبُ صدري فبماء القلب كاسي أملا

(١) صوّر الشاعر كلًّا من هؤلاء الفلاسفة بيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرّمها إسكندر .

لأزید الخمرَ والصُّدرَ لهيباً أصهر الذُّنَّ وكأسي أملاً

جلال الدّین الرومي

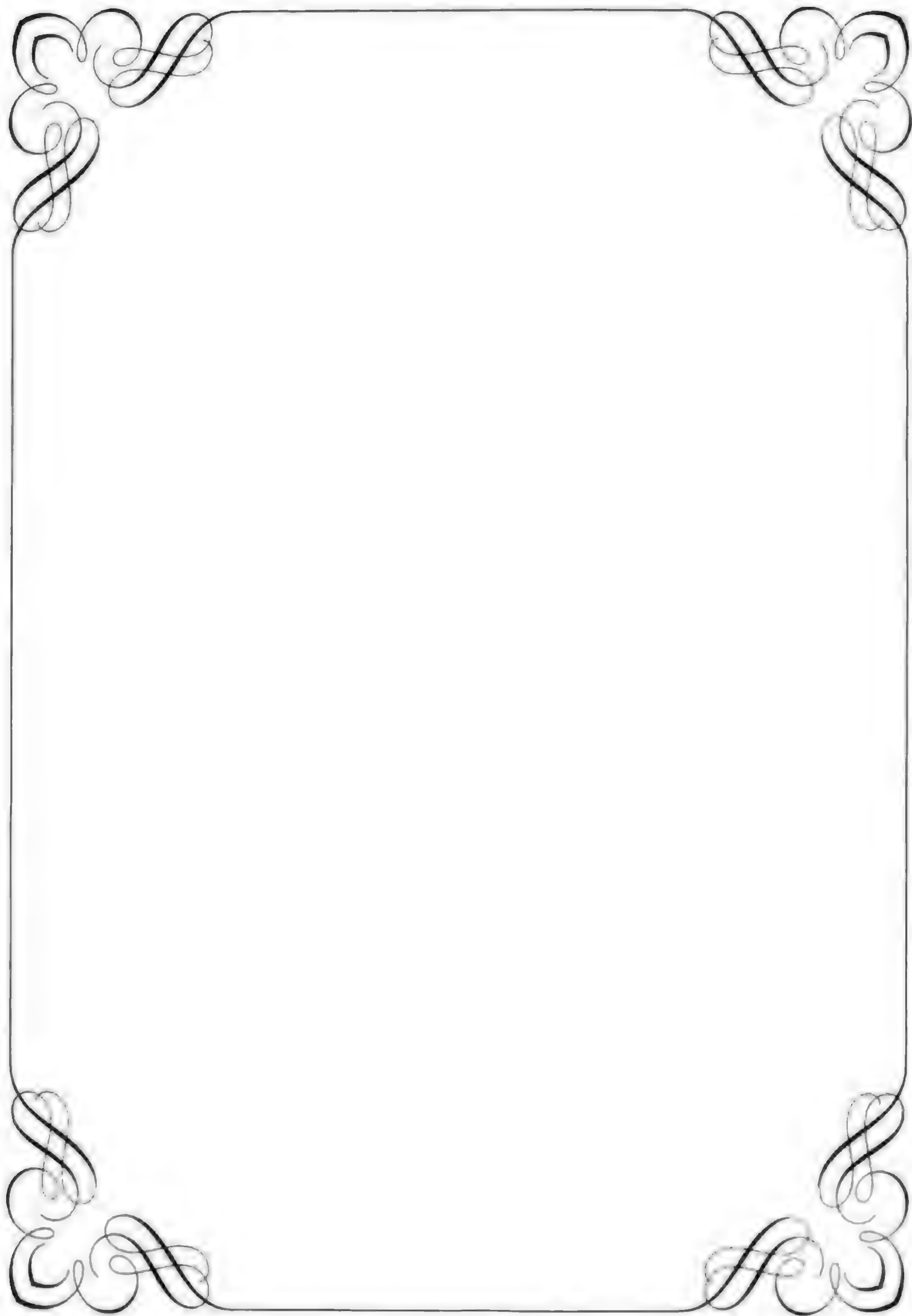
أین مزجُ مِنْ سنا جواهرِها مِنْ عروقِ الکَرَمِ كأسی أملاً

حانات الفرنج

أمر في حانة الفرنجة وهنا	راعني قولُ ماجنٍ ذي خلاعه
قال : لست كنيسةً تغشاها	في دُمى للغناء تبغي سماعه
إنها حانةُ الفرنج وفيها	كلُّ ما ذمّه البريةُ طاعه
قد وزنا الأعمالَ فيها بوزنٍ	غير ما حَسَنَ الأنامُ اصطناعه
لا تزنُ وزنَ أُمّةٍ ذات دينٍ	رثَ ميزانهم فحاذر متاعه
كلُّ قبحٍ يزيدُ جاهك ، حسنٌ	كلُّ حسنٍ يضُرُّه فهو شناعه
إن تفكّرت فالحياةُ رياءٌ	وبها الصُّدقُ قولةٌ خدّاعه
إنما الصُّدقُ والوفاءُ حجابٌ	يُحرمُ السَّاعي الغريزُ ارتفاعه
شيخنا قال : مؤمنٌ كلُّ صُفر	بنضارٍ وزَيِّقُنْ كلُّ ساعه
ذاك سرُّ الحياه لا تفشينه	تربحنُ في يدك كلُّ بضاعه



(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .

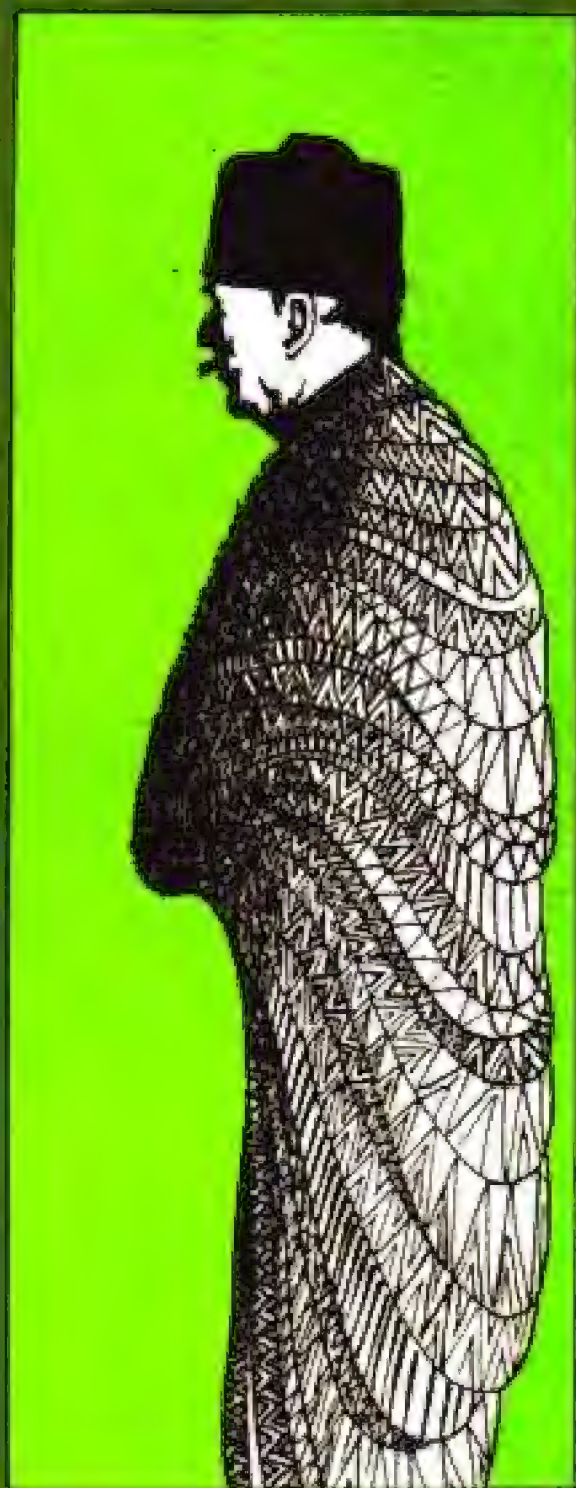


القسم الخامس

وقائع



معارف



طرح نو انداز اندر جان خویش
متازه کن با مصطفی پیمان خویش

رقائق

ذَرَّائُنَا ثَوْرَةٌ تَهْدُرُ بِأَنْفَاسِنَا مُحْشَرٌ مَضْمُرٌ
لَقَدْ أَفْصَحَ الْخَضِرُ فِي الظُّلُمَاتِ عَلَى حِينِ صَاحِبَهُ إِسْكَندُرٌ
عَسِيرٌ عَلَى النَّاسِ فَهَمُّ الْمَمَاتِ وَفَهُمُ الْحَيَاةِ لَهُمُ أَغْسَرُ

حَبَّةُ الدُّرِّ تَعْرِفُ الْبَحْرَ لَكِنْ أَيُّ عِلْمٍ لَهَا بِدَوْرِ الرَّحَى ؟

يَصْرُ الْيَرَاعُ لِإِعْوَاذِ لَبٍّ^(١) فَلَيْسَ لِمُرُودِ كَحْلِ صَرِيرِ

طَفْتُ بِالْبَيْتِ حَامِلًا أَصْنَامِي وَأَمَامَ الْأَصْنَامِ « هُو » قَدْ جَارَتْ^(٢)
وَفُؤَادِي يَسِيرُ خَلْفَ طِلَابِ فِي طَرِيقِ كَشْعَرَةٍ قَدْ مَرَزَتْ
يَقُولُ وَرْدُ رَوْضِي : عَيْشُ الرَّبِيعِ أَحْلَى وَصَبْحُ مَرْجٍ عِنْدِي مِنَ الْجَمِيعِ أَحْلَى
مَنْ قَبْلَ جُورِ كَفِّ لَزِينَةٍ تَقْطِفُنِي مَوْتُ بَحْضِنِ نَضْرِ مِنَ الْفُرُوعِ أَحْلَى^(٣)

يَا صَاحِبِي ذَاكَ قَوْلٌ عَلَى الْحَيَاةِ دَلِيلٌ

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .

(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .

(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

النَّوْمُ مَوْتُ خَفِيفٌ وَالْمَوْتُ نَوْمٌ ثَقِيلٌ

إِنْ تَكُنْ لِلْعَفْوِ لَسْتُ بِأَهْلٍ فإلى الأعداء فاقصدُ بحقدك
لَا تُقِمْ فِي الصَّدْرِ مَصْنَعَ حَقْدٍ لَا تَصَبِّ الْخَلَّ فِي كَأْسِ شَهْدِكَ
دَعْ التَّسْأَلَ عَنْ طَبْعِ دَقِيقٍ يَشُقُّ الشَّعْرَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
لشاعرنا زجاجاتٌ رقائقُ تحطمهنَّ أنفاسُ النَّسيمِ
أَيُّغِي وَصْفَ حَرْبٍ فِي حَيَاةٍ « حَبَابٌ ضَاعَ فِي لَحْجٍ عَظِيمٍ ؟ »

امضِ فِي الدُّنْيَا كَنَهْرٍ فِي جِبَالٍ واعرف الأغوارَ فيها والنُّجودا
أَوْ مِثَالَ السَّيْلِ فَاجْرُفْ كُلَّ شَيْءٍ لَا تَبَالِيهِ هَيَوطاً أَوْ صَعُودا

قَطُوفَ الْوَرْدِ ! لَا تَجْزَعْ لِشَوْكِ كَذَاكَ الشَّوْكُ مِنْ نَفْسِ الرَّبِيعِ

لَا تَبْتَغِ الْخَضَابَ وَالتَّلْوِينَ لِبِسِ الشَّبَابِ سَرَقَةَ السُّنِينَا

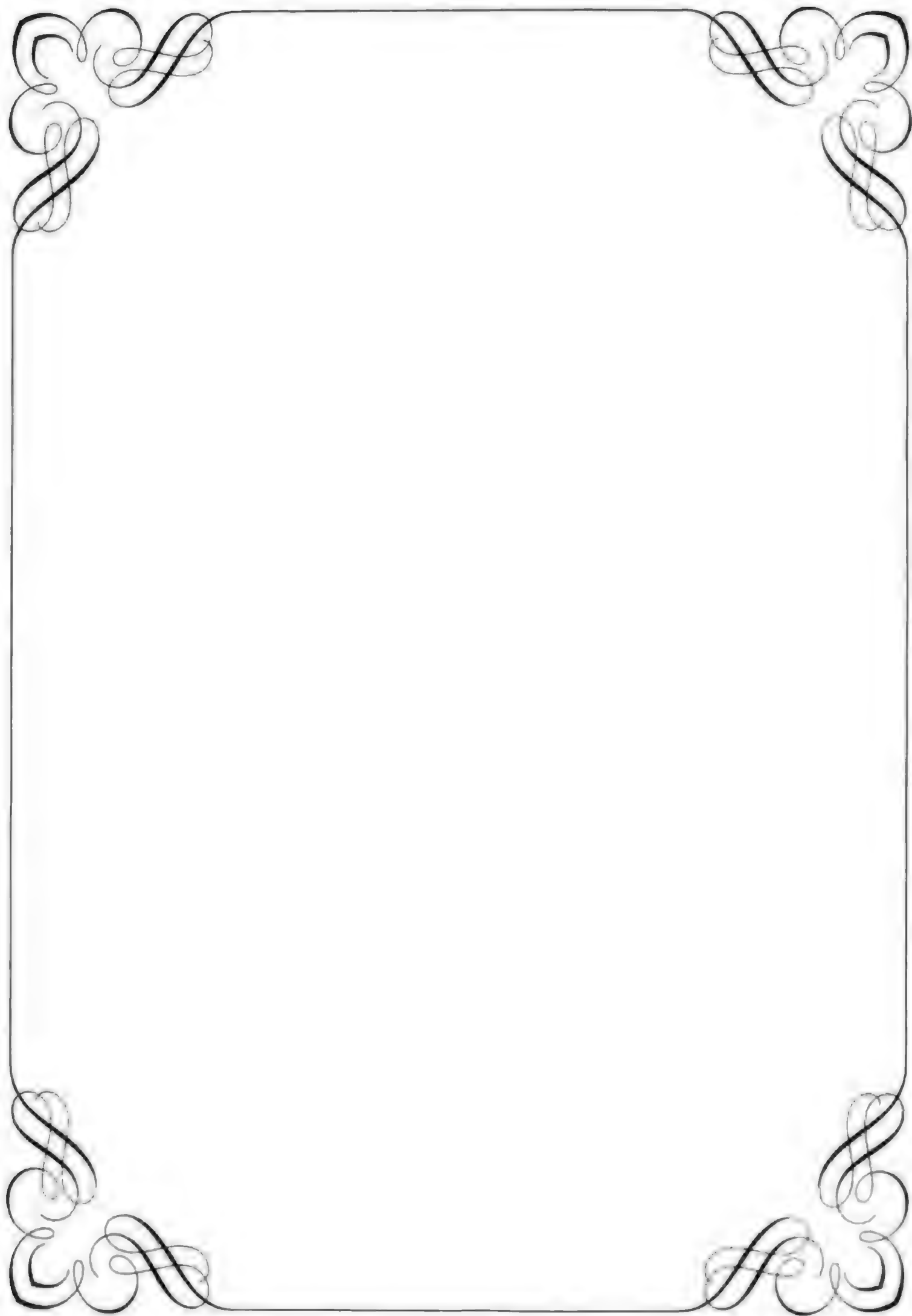
رَأَيْتُ الْعِشْقَ يَأْبَى كُلَّ وَغْدٍ كَمِيتِ الطَّيْرِ تَأْبَاهُ الصُّقُورِ

يَبُورُ الشَّعْرُ فِي الْأَسْوَاقِ نَقْدًا فَلَا تُخْبِزْ بِفَضَّةٍ يَاسْمِينَ

انتهى

اللمعات





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدأت هذه المنظومة حينما قرأت منظومتِي إقبال : « أسرار خودي » ،
و « رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شغلتُ عن إتمامها ،
فلبثتُ أعادُ النَّظْمَ فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پیام مشرق » على التَّهْيَاة عزمْتُ على إتمام
المنظومة ، فتمَّت بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)



أَيْهَا اللَّيْلُ ! إِلَيْكَ الْمَفْزَعُ
كَمْ خَفِينَا فِي غِيَابَاتِ الدُّجَى
كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلُ أَمَّا حَانِيَةً
كَمْ أَلْفَتْ اللَّيْلُ وَحِشاً رَاقِبَا
كَمْ بَثَّتْ اللَّيْلُ سِرّاً كَتَمَا
كَانَتْ الظُّلُمَاءُ لَوْحاً لِّلْأَلَمِ
كَانَ لِي اللَّيْلُ مَدَاداً فَتَقَدَّ
جَاشَتْ الظُّلُمَاءُ مَوْجاً بَعْدَ مَوْجٍ
فَنَيْتَ هَذَا ، وَهَذَا زَاخِرُ
خَلَّتَنِي فِي اللَّيْلِ جَمِراً سَعِراً
إِرَّةٌ قَدْ وَقَدْتُ فِي أَضْلَمِي^(١)



خَطَّهُ فِي غِيَاهِ اللَّهُ الصَّمَدُ
حَرَّتْ فِي الإِعْرَابِ عَنْهُ بِالْكَلِمِ
خُطَّ شَيْءٌ فِيهِ إِلَّا الْحَرْفُ « مَا »^(٢)
صُورُ الْأَقْطَارِ فِيهِ تَنْتَظِمُ
أَحْرَفٌ أَوْحَتْ إِلَى مَعْنَى بَعِيدِ

كَنْتُ سَطِراً لَمْ يُفْسِرْهُ أَحَدٌ
فِي ضَمِيرِي كُلُّ مَعْنَى مِنْهُمْ
قَدْ ثَوَى الْعَالَمُ فِي قَلْبِي وَمَا
جَلَّ قَلْبِي أَنْ أَرَاهُ جَامِجَمَ^(٣)
إِنَّمَا الْأَقْطَارُ فِي قَلْبِي الْعَمِيدُ

(١) الإِرَّةُ : جِيلُ النَّارِ .

(٢) يَعْنِي : لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ فِي قَلْبِهِ إِلَّا تَفْخِياً .

(٣) جَامِجَمٌ أَوْ كَأْسٌ جَمَشِيدٌ ، فِي خِرَافَاتِ الْفَرَسِ : كَأْسٌ كَانَتْ تُرَى فِيهَا الْأَقَالِيمُ
الْبَيْعَةُ .

ليس في الناس عليه مَحْرَمٌ^(١)
أتراني مسمعاً من في القبور^(٢)
ناطقٌ فيهم كأني أبكم !
ضاع في ضوضائهم هذا الأذان !
وعلى الأذان ران الصمم ؟
قلبه رخوٌ خلّي من شرر
بعضه يوري ، وبعضٌ يضلّد
طفىء الجمر ولم تور الزناد !

ربّ معني في ضمير يكتّم
وقلوب رمّوها هذي الصدور
أنا في الناس فصيحٌ أعجم
صمت الأذان عن هذا البيان
كيف يُجدي القوم هذا النغم
كيف يُجدي القَدْخُ في هذا الحجر ؟
إنّ خفق القلب قدحٌ مُجهّد
كيف يُجدي النفخ في هذا الرّماد

ثم يلتفت عليه الغسق
فيه بين الغيب والومض وضوح
فهو سطرٌ من غيابٍ وحضور^(٣)
قامت الأنجم فيه نصبا
كيباض الطرس يعلوه المداد
ألقت منه سطورٌ وضّح
وكان الضوء تفصيل الظلم
أعجمت معناه تلك النقط
وحوى الأحرف سطرٌ مظلم^(٤)

يخرق الليل شعاعٌ يخفق
كمنار البحر يخفى ويلوح
أو يراع الليل يخفى ويُنير
تارة يبدو طريقاً لحبا
أو بياناً من يياض وسواد
كل لون فيه حرفٌ مفضّح
ورآه تارة خطاً أجم
فهو سطرٌ من ظلام أرقط
كل لون فيه حرفٌ أعجم

(١) المَحْرَم هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمك شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبگ سلسله غيب وحضور ست (يا يراعة الليل كللك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .

(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارة تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارة تُغم عليها الحقائق .

يَا لُبْنَى أَوْقَدِي ، طَالَ الْمَدَى
أَوْقَدِي يَا لُبْنَى قَدْ حَارَ الدَّلِيلُ
ارْفَعِي النَّارَ وَأَذْكِي جَمْرَهَا
شَرَّدِي هَذَا الظَّلَامَ الْجَائِمَا
حَبِّذَا النَّارَ بَلِيلَ تَوْقَدُ
حَبِّذَا عِنْدَكَ هَذَا النُّزْلُ
مَا لَذَا الْمَنْزِلِ قَدْ سَارَ الْفَرِيقُ
قَدْ تَرَحَّلْنَا مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ
رَنَّا فِي آفَاقِنَا هَذَا النُّدَاءُ
قَدْ غَنِينَا عَنْ مَبِيتٍ وَمَقِيلٍ
وَعَنْ الرَّغْبَةِ وَالْخَوْفِ سُوًى
نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنَارِ الْغَسَقِ
نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنَجْمِ الصُّبْحِ لَاحٍ
نَحْنُ لَا نَرْضَى نَجُوماً لَامِعَةً
قَدْ رَحَلْنَا بِالْجَوَى وَالْحُرْقِ
أَيُّنَ مِنَّا طَائِرَاتٌ سَبَّاقُ
نَحْنُ رَكِبُ فِي جَوَاهِ مُوَضَّعٍ
كُلُّ حُرٍّ ضَاقَ عَنْهُ الْمَوْطِنُ

أَوْقَدِي عَلَّ عَلَى النَّارِ هَدَى^(١)
أَوْقَدِي النَّارَ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ
عَلَّ هَذَا الرِّكْبَ يَعْشُو شَطْرَهَا
أَرْشَدِي هَذَا الْفَرَّاشَ الْهَائِمَا
حَبِّذَا الْمُؤْنَسُ هَذَا الْمَوْقَدُ ؟
لَوْ حَوَانَا فِي سَفَارٍ مِنْزِلُ
إِنَّمَا النُّيْرَانُ أَعْلَامُ الطَّرِيقِ
لَا نَبَالِي بِقَرِيبٍ أَوْ سَحِيقِ
فَأَمَمْنَا الْبَيْتَ يَحْدُونَا الرَّجَاءُ^(٢)
وَعَنْ الْأَمْوَاهِ وَالظِّلِّ الظَّلِيلِ
خُلِعَ النُّعْلَانُ فِي وَادِي طَوًى^(٣)
نَحْنُ لَا نَرْضَى بِنُورِ الشَّفَقِ
لَا وَلَا نَرْضَى تَبَاشِيرَ الصُّبْحِ
إِنَّمَا نَبْغِي شَمُوساً طَالِعَةً
وَعَنِينَا عَنْ رَسِيمِ الْأَيْنِقِ
جَمَعَ الْغَرْبُ لَهَا وَالْمَشْرِقُ
لَمْ يَسْغُهُ فِي جَوَاهِ مُوَضَّعٍ
وَانْطَوًى دُونَ مَنَاهِ الرَّمْنِ

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَعَلَّكَ إِنَّا نَكُونُ أَهْلًا عَلَى النَّارِ هَدَى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النُّعْلَانُ هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّي أَنَارُكَ فَالْخُلْعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾ [طه : ١٢] .

وعلى متن هيام لا يقر
طائر من تحته ذا الفلك
كل غايات لديه مبدأ
زودي يا لبن من هذا الهيب

كل طيار على متن الفكر
طائر منه يغار الملك
بارق في اللوح لا ينطفئ
زودينا بهيام ووجيب

مُرِّقَتْ منه دجاجير الظلم
أم كلام منه نور لائح ؟
أطرب الناشد صوت المنشد^(١)
ينبت الرُّوح بسهب مقفر
بشر الغارق في بحر الرمال
صاح في أذني فقيد مبلس
وهده الصَّوت شطر القافله
كبلال لصلاة أذنا
دورة الإبرة شطر القطب
ابركي يا ناقتي ! تمَّ الشُّرور
نعم ما رَوَّحت يا ريح الصِّبا^(٢)

جال في الظلماء نور من نعم
أشعاع فيه صوت صائح
أذن الركب لهذا المنشد
سال في القلب مسيل المطر
أو خريبر الماء من نبع زلال
رَن في نفسي رنين الجرس
طوت اليداء عنه السابله
سبق القلب إليه الأذنا
دار قلبي شطر هذا المطرب
« غتني يا منيتي ! لحن النُّشور
عُذت يا عيدي إلينا مرحبا

ومن الهاتف بالقلب الكسير ؟
ومن البارق في هذي الغيوم ؟
هادياً في الأرض جيلاً مظلماً ؟

حبذا الصَّوت فَمَنْ هذا البشير ؟
وَمَنْ المُشعد في هذي الهموم ؟
ومن الهابط في نور السَّما

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ،
والناشد : مَنْ ينشدها .

(٢) جاء هذان البيتان بالفاظهما العربية في مشنوي جلال الدين الرُّومي .

وَمِنِ الْهَادِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ
وَمِنِ السَّائِقِ شَطْرَ الْحَرَمِ
وَمِنِ الْقَارِيءِ فِي بَيْتِ الصَّنَمِ
وَمِنِ الْحَرِّ الَّذِي قَدْ حَطَمَا
وَمِنِ الْآبِي عَلَى كُلِّ الْقِيُودِ
وَمِنِ الْبَاعِثِ فِي مِيتِ الْأُمَمِ
لَاخَ كَالْغُرَّةِ فِي هَذَا السَّوَادِ
جَرَفَ النَّاسَ أَتَيْ مَزِيدُ
وَطَغَى اللَّجْجُ عَلَيْهِ وَالتَّطَلَّمَ
عَارِضَ الْمَوْجِ عَلَى أَغْمَارِهِ
سَبَحَ اللَّجْجُ وَبِالشَّطِّ اسْتَقَرَّ
يَجْرِفُ الْتَّيَّارَ جَسَماً جَامِداً
إِنَّ عَزَمَ الْحَرُّ بَحَرٌ مُزِيدُ
هَذِهِ الْأَقْدَارُ فِي تَسْيَارِهَا
وَمِنِ الشَّاعِرِ يُذَكِّي الْقَافِيَهُ
تَقْشَعِرُّ الْأَرْضُ مِنْ أَوْزَانِهِ
وَكأنَّ الدَّهْرَ صَوْتُ كُتَيْبَا
هُوَ بِالشَّعَارِ بَحَرٌ فَائِضُ
حَدَّثَهُ الْأَرْضُ عَنْ أَخْبَارِهَا
هُوَ بِالْأَمْسِ خَيْرٌ بِقَدِ
كَشَفَ اللَّهُ عَنِ الْغَيْبِ لَهُ
عَرَفَ الشَّرْقَ وَرَادَ الْمَغْرِبَا

يعرف النهج وقد حارَّ اللَّيْبِ ؟
والى الأصنام سَيَّرَ الْأُمَمِ ؟
سورة الإخلاص في هذا النَّعْمِ ؟
من قيود الأسرِ هذا الأدھما ؟
وَمِنِ الْقَاطِعِ أَغْلَالَ الْعِيدِ ؟
ثورة العزَّة من هذِي الھِمَمِ ؟
بصَّ كالجمرَة في هذا الرَّمَادِ
ضَلَّ فِيهِ الْمُقْتَدِي وَالْمُرْشِدُ
فرساً كَالصَّخْرِ فِي هَذَا الْخَضَمِ
وَطَوَى اللَّجْجُ عَلَى تَيَّارِهِ
دَاعِياً وَالنَّاسُ غَرَقَى فِي النَّهْرِ
تَقْذِفُ اللَّجْجَةُ قَلْباً خَامِداً
جَائِشٌ فِي الدَّهْرِ لَا يَتَّيْدُ
هَمُّ الْأَحْرَارِ فِي أَسْفَارِهَا^(١)
فهي نورٌ وهي نارٌ حَامِيهِ ؟
ويھيمُ النَّجْمُ مِنْ أَلْحَانِهِ
قد حكَاهُ الشُّعْرُ لَحْناً مَطْرَبَا^(٢)
وهو لِلْأَزْمَانِ قَلْبٌ نَابِضُ
وَحَبْنَةُ الزُّهْرِ مِنْ أَسْرَارِهَا
وهو الْيَوْمَ نَجِيٌّ الْأَبَدِ
فلسانُ الْغَيْبِ يُنْطَلِي قَوْلَهُ
فَانْجَلَى السَّرُّ لَهُ مَا كُذِّبَا

(١) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .

(٢) يعني : أنَّ الدَّهْرَ أمامَ الشَّاعِرِ كعلاماتِ الموسيقى ، والشعر قراءة هذه العلامات .

جاهد في الخير لا يتجد
عزمه في صدره يتجد
وفيقه وغناه لا يحسد
فقره استغناؤه عن كل يد
هو بالله وفي الله غني
ضاق عن هذا الغنى كل ثري

صغار الهمم

إن في الناس قلوباً جامده
جذوة الإقدام فيها خامده
هتها ما يتغيه الجسد
كل ما تهوى طعام ود
حدت آرائها آفاقها
فحكث في ضيقها أخلاقها
لا تبالي حين تبغي أربا
عمر الكون به أم خربا
إنما قانونها أهواؤها
شخرث في نفعها آراؤها
وترى أهواءها تغلبها
كل حين في هوى يجذبها
وإلى الأرض تراها مخلده
لا ترى نحو المعالي مضعده
إنما آفاقها هذا البدن
إنما أحيائها كالرّمم
خامدات العزم موتى الهمم

العالم معبد

إنما العالم طراً معبد
كل من أدلى بقول طيب
كل من أحسن يوماً عملاً
كل من أدلى بقول طيب
كل من أحسن يوماً عملاً
كل من أدلى بقول طيب
كل من أحسن يوماً عملاً
كل من أدلى بقول طيب
كل من أحسن يوماً عملاً

كُلُّ مَنْ يَنْتِظُ بَشْراً فِي السَّبِيلِ
كُلُّ مَنْ يَنْتِظُ بَشْراً فِي السَّبِيلِ
كُلُّ مَنْ أَحْدَثَ عِلْماً لِلْبَشَرِ
كُلُّ مَنْ أَحْدَثَ فِكْراً مُحْكَمًا
كُلُّ مَنْ جَدَّ وَإِنْ لَمْ يَجِدْ
كُلُّ مَنْ أَثَّرَ فِيهَا أَثَرًا
كُلُّ مَنْ فِي دَهْرِهِ قَدْ أَجْمَلَا
كُلُّهُمْ لِلَّهِ نِعْمَ الْعَابِدُ
فَاصْطَنَعَ لِلْخَيْرِ فِكْراً وَيَدَا

لا رهبانية في الإسلام

يَحْبِسُ الْأَعْمَالُ وَالْفِكْرُ مَعَهُ
فَتَوَى فِي ضَيْقِهِ قَدْ خَنَعَا
عَابِداً تَخْشَى الْبِرَايَا وَجِلَا
مَوْضِعاً فِيهِ سَيْلاً لِلنَّجَاةِ
ذَاكِرَ مَوْلَاهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ
يَتَّصِلُ بِالْحَقِّ لَا يَخْشَى الْفِتْنِ
إِنْ يَفْكَرُ ظَالِمٌ فِي ظُلْمِهِ
يَطْلُبُ الرِّزْقَ بِعِزِّ وَجَنَاحٍ
لَا يُرَى حَوْلَ الدُّنْيَا حَائِماً
لَوْ يَرَاهُ الْجَوْعُ يَوْمَ مَا أَسْفَتْ
لَمْ يَطْلُقْ صَبْراً عَلَيْهِ فَهَلَكْ
فَأَسَارَ الْحَرَّ فِيهِ مَهْلِكُ

لَيْسَ مَنَا مِنْ تَوَى فِي صُومِعِهِ
ضَاقَ نَفْساً عَنْ مَجَالٍ وَسَعَا
لَيْسَ شَيْئاً أَنْ تُرَى مَعْتَزِلَا
إِنَّمَا الْعَابِدُ مَنْ خَاضَ الْحَيَاةَ
أَخَذاً بِالْعَدْلِ مَا عَنْهُ حَوْلُ
إِنَّهُ بِالْحَقِّ مَوْصُولٌ وَمَنْ
ثَوْرَةٌ مَضْمُورَةٌ فِي حِلْمِهِ
أَرَأَيْتَ الصَّقَرَ فِي مَتْنِ الرِّيَّاحِ
طَائِراً فِي الْجَوِّ يَسْمُو عَازِماً
يَأْكُلُ الْجَوْعَ وَلَا يَرْضَى الْجَيْفَ
فَإِذَا الْجَدُّ رَمَاهُ فِي الشَّرْكِ
لَيْسَ يَحْوِي الْحَرَّ يَوْمَ شَبْكُ

يا فتى هذا الجهاد الأكبر
قل في الناس عليه صابر
يا أسير الوهم أقدم لا تبُل
عزماً الحر فيه تُخبر
ليس إلا الحر فيه ظافر
وامض فيمن صحَّ عزماً وانكل

معنى التَّوَكَّل

مَنْ يَنْمَ عَنْ سَعِيهِ لَا يَتَّكِلْ
مُقَدِّمٌ فِي أَمْرِهِ الْمُتَّكِلُ
عَازِمٌ مَاضٍ عَلَى خَيْرِ سَنَنِ
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي نَوْرِ الصُّبْحِ
إِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كَفِّ الْقَدْرِ
طَالِبَاتِ الرِّزْقِ فِي كُلِّ رَجَا
يَالِهًا مِنْ أَمَلٍ قَدْ صَوَّرَا
أَرَأَيْتَ الْعَزْمَ فِي شَكْلِ جَنَاحِ
لَا يَصُدُّ الطَّيْرَ خَوْفُ التَّهْلُكَةِ
ضَرْبِ الْمُخْتَارِ هَذَا مَثَلَا
أَرَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي أَوْكَارِهَا
ثَاوِيَاتٍ تَبْتَغِي أَرْزَاقَهَا
مَنْ وَنَى فِي سَعِيهِ لَمْ يَتَّكِلْ
إِنَّمَا التَّكْلَانُ عَزْمٌ وَعَمَلٌ

إِنَّمَا التَّكْلَانُ سَعْيٌ مُتَّصِلٌ
وَأَثَقُ بِاللَّهِ فِيمَا يَأْمُلُ
لَا يِيَالِي بِعِقَابٍ أَوْ مِحْنٍ^(١)
تَطْلُبُ الرِّزْقَ بِعَزْمٍ وَجَنَاحِ
مَقْدَمَاتٍ لَا تِيَالِي بِالْخَطَرِ
تَمَلُّ الْجَوَّ وَثَوَقاً وَرَجَا
طَائِرَاتٌ يَطْلُبُ رِزْقاً قُدْرَا
خَافِقَاتٌ لَا يَنْشِي دُونَ النَّجَاحِ
أَوْ تِيَالِي بِطَرِيقٍ مَهْلِكَةٍ
لِلَّذِي يَسْعَى عَظِيماً أَمَلَا^(٢)
رَاجِيَاتٍ رِزْقَهَا فِي دَارِهَا ؟
لَيْسَ تَذَرِي مَنْ إِلَيْهَا سَاقَهَا
إِنَّهُ لِلْوَهْمِ وَالْعَجْزِ وَكُلِّ
إِنَّهُ الْإِقْدَامُ فِي ضَوْءِ الْأَمَلِ

(١) العقاب : جمع عقبة .

(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما تَرْزُق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطناناً .

إِنَّهُ الْحَزُّ إِلَى الْقَصْدِ سَعَى
هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ بَعْضُ الْقَدْرِ
سُنَنُ الْخَلْقِ فِي أَكْوَانِهَا
مَا لَهَا كَرُّ اللَّيَالِي حَوْلُ

إِنَّهُ الْإِعْدَادُ وَالْعَزْمُ مَعَا
إِنَّهُ التَّقْدِيرُ فِي سَعَى الْبَشَرِ
هَمُّ الْأَحْرَارِ فِي إِيْمَانِهَا
سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَبْدَلُ

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

مُقَدِّمَاتٍ فِي الْمَعَالِي سَاعِيهِ
أَوْ مَنْ يَدْرِكُ هَذَا النِّعْمَا ؟
كُنْتَ فِي الْأَرْضِ جِهَاداً وَهُدًى
أَوْ لِلْقَلْبِ الَّذِي قَدْ صَدَّأَ
فِيضِيءُ الْأَرْضِ مِنْهَا شُعْلُ
خَمَدَتْ فَالْنَفْسُ عَجْزٌ وَرُكُودُ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَدِيهِ مَنْ شَرُّ
عَلَّهِ فِي الْقَلْبِ يَذْكِي ضَرَمًا
عَلَّ جَمْرًا مُحْرِقًا تَحْتَ الرَّمَادِ
عَلَّنِي أَمْحَقُ هَذَا الْعَيْشَا
عَلَّنِي أُنْعِثُ مَيِّتَ الْهَمَمِ
عَلَّهَا تُنْبِتُ الْوَانَ النَّبَاتِ

أَوْ مَنْ لِي بِقُلُوبٍ وَاعِيهِ
أَوْ مَنْ يَفْقَهُ هَذَا الْكَلِمَا ؟
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مَاذَا قَدْ عَدَا ؟
أَوْ لِلثُّورِ الَّذِي قَدْ طَفْنَا
أَوْ لِلنَّارِ الَّذِي تَشْتَعِلُ
خَمَدَتْ فَالْقَلْبُ بَرْدٌ وَهَمُودُ
إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ زَنْدٌ وَحَجَرُ
إِنَّنِي أَضْرِمُ هَذَا الْأَلَمَا
إِنَّنِي أَنْفِخُ فِي هَذَا السُّوَادِ
عَلَّنِي أَذْهَبُ هَذَا الْخَبَثَا
إِنَّنِي أَبْعَثُ فِيهِمْ نَفْمِي
إِنَّنِي أُمْطِرُ فِي أَرْضِ مَوَاتِ

الأمل

لَا تَرَانَا فِي جِهَادٍ نِيَّاسُ لَيْسَ مِنْ أَمْتِنَا مَنْ يَسُوا

أشعل الإيمان في كل دُجى
 وَاَرْفَعَن فِي كُلِّ لَيْلٍ شُعْلَا
 وصل القلب بخلاق الرجاء
 إنما الإنسان فكرٌ وعمل
 أمل الإنسان في القلب ضياء
 إِنَّهُ النَّارُ الَّتِي تَشْتَعِلُ
 إِنْ دَجَا بِالْيَاسِ لَيْلٌ غَيْهَبُ
 هو وَخِيُّ اللَّهِ يَهْدِي عِبْدَهُ
 هو نورُ اللَّهِ فِي أَفْقِ النِّجَاهِ
 إِنَّهُ الْقُطْبُ إِلَى يَهْدِي
 إِسْرَةً تَهْدِي إِلَى قَصْدِ السَّبِيلِ
 يا دليلاً هادياً في كلِّ وادٍ
 يَفْدَحُ الْقَلْبُ إِذَا مَا خَفَقَا
 فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْدَعُ
 فَأَوْمِلْ لَخَيْرٍ وَصَابِرٍ لَا تَمَلْ
 وقضاءُ اللَّهِ عَوْنُ الْأَمَلِينَ
 لَا يَرُدُّ اللَّهُ قَلْباً آمِلاً
 رَبُّ عَبْدٍ مُخْلِصٍ قَدْ أَقْسَمَا
 وجهادُ العبدِ أَوْلَى أَنْ يُرَى
 إِنَّ عِزَّمَ الْحَرُّ فِيهِ قَسَمُ
 قَدْ تَوَلَّى اللَّهُ هَذَا الْمُقْسِمُ

واقْدَحِ الْعِزْمَ إِذَا الْهَوْلُ دَجَا
 وَاَبْعَثْنِ مِنْ كُلِّ يَأْسٍ أَمَلَا
 وَاخْلَقْنِ فِي كُلِّ حِينٍ مَا تَشَاءُ
 يَضْدَعُ الظُّلُمَاءُ فِي نَوْرِ الْأَمَلِ
 وهو في الكفِّ جهادٌ ومضاء
 إِنَّهُ النَّجْمُ الَّذِي لَا يَأْفُلُ
 يَضْدَعُ الظُّلُمَةَ هَذَا الْكَوْكَبُ
 وَيُرِيهِ فِي الدِّيَاجِي قَضَاهُ
 هو هادي اللَّهِ في هذِي الْحَيَاةِ
 كُلُّ قَلْبٍ وَإِلَيْهِ يَفْزَعُ
 تَقْصِدُ الْقُطْبَ وَعَنْهُ لَا تَمِيلُ
 أَنْتَ سِرُّ اللَّهِ فِي كُلِّ فَوَادٍ
 شَرِراً مِنْهُ مَنِيراً مُخْرِقَا
 يَوْضَعُ النَّهْجَ فِيهِ يَذْفَعُ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا رَجَاءٌ وَعَمَلٌ
 وهو في عَوْنِ الْأَبَاءِ الْعَامِلِينَ
 لَا يَرُدُّ اللَّهُ عَبْدًا عَامِلاً
 فَأَبْرَأَ اللَّهُ مِنْهُ الْقِسْمَا^(١)
 إِنَّهُ الْفَعْلُ عَلَى الْقَوْلِ أَبْرَ
 مُضْمَرٌ يَعْلَمُهُ مَنْ يَعْلَمُ
 فدعاه في يقينٍ يقسم

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبِرْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ » .

الوجدان السليم

مِنْ غَشَاوَاتِ الْهَوَىٰ أَوْ يُطْفَأُ
صَرْصَرُ الْأَهْوَاءِ فِيهَا سَافِيهِ
أَوْ يَخْجُبُهُ حِجَابُ الشَّهْوَةِ
فَمُضَىٰ بِحَيَا حَيَاةٍ هَمَلًا
أَيَقِظُ الْوَجْدَانُ وَاتَّبَعَ هَدْيِهِ
تَبْصُرِ الْعَالَمِ فِيهِ مَثَلًا
وَاجْلُهُ بِالذِّكْرِ حَتَّىٰ يَسْطَعَا
لَا تُطِغَ مِنْ بَاعٍ فِيهِ وَاشْتَرَىٰ
لَا تَغْلُ ضَوْضَاؤُهُمْ هَذَا النَّعْمَ
مَجْهَلٌ أَعْلَامُهُ تَشْتَبِهُ
فِي فَيَافٍ خَافَ فِيهَا الشَّابِلُ
وَأَصْبَحَ فِيهَا لِصَوْتِ الْجَرَسِ^(١)
إِنَّهُ دَاعٍ يُتَادَىٰ لِلنَّجَاهِ
فِي لَيْالٍ وَبِحَارٍ زَاخِرِهِ
مِنْ مَنَارٍ فِي الدِّيَاجِي خَافِقِ
وَتَوَقَّى الصُّخْرَ مِنْ وَمُضَاتِهِ
قَاصِدَاتٌ قَطَبَهَا لَا تَعْدُلُ
إِيرَةُ الْقُطْبِ وَمِضْبَاحُ النَّجَاهِ

ذَلِكَ الْوَجْدَانُ إِنْ لَمْ يَصْدَأْ
أَوْ تَحْجِبَهُ رِيَاخٌ عَاتِيهِ
أَوْ يَجْلُلُهُ ظِلَامُ الْغَفْلَةِ
أَيَقِظُ الْوَجْدَانُ يَا مَنْ غَفَلَا
أَيَقِظُ الْوَجْدَانُ وَاسْمَعْ وَخِيَهُ
إِنَّهُ الْمَرَاةُ ، إِمَّا صُقِلَا
اجْلُهُ بِالْفِكْرِ وَالْعِلْمِ مَعَا
لَا تُضِغَ فِي الشُّوقِ هَذَا الْجَوْهَرَا
لَا تُضِغَ فِي لُغْوِهِمْ هَذَا الْحَكَمَ
نَحْنُ فِي الدُّنْيَا حَوَانَا مَهْمَهُ
تَقْصِدُ الْمَنْزَلَ هَذَا الْقَافِلَةَ
فَاتَّبَعْنِ خَرَّتَيْهَا لَا تُبْلِسِ
إِنَّهُ الْوَجْدَانُ فِي هَذَا الْفَلَاهِ
أَرَأَيْتَ الْقُلُوكَ تَسْرِي مَاخِرِهِ
تَهْتَدِي فِيهَا بِنُورٍ بَارِقِ
تَهْتَدِي النَّهْجَ عَلَى لَمَحَاتِهِ
وَهَدْنَهَا إِبْرَ لَا تَغْفُلُ
إِنَّمَا الْوَجْدَانُ فِي بَحْرِ الْحَيَاةِ

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارة إلى قول سعدى الشيرازي - ما زمنز مقصود من خبريم - أين قدرهست كه بانگ جرس میآید .

طغيانُ العقلِ على القلبِ

كلُّ إنسانٍ به مُتَّحِنٌ
فَتَنٌ فيها تحاُزُ الفِطْرُنُ
سُيِّبَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَحْبَالِهِ
وَانْبَرَى يَكشِفُ عَنْ أَسْرَارِهِ
ومَضَى يَبْحَثُ فِي ذُرَاتِهِ
ومَضَى يَبْحَثُ فِي أَغْوَارِهَا
مُخْرِجاً مِنْ بطنِهَا أَثْقَالَهَا
حيثُ لا يَطْمَعُ صَفَرٌ أو عُقَابُ
كل ما يَسْمُو إِلَيْهِ يَقْتَرِبُ
مَنْ بِأَقْصَى الشَّرْقِ قَاسِمُغٌ وَاعْجَبُ
فِي ذُرَى الْأَفْلَاكِ يَبْغِي مَسْرَحاً

مَحَنَةٌ لِلنَّاسِ هَذَا الزَّمَنُ
كُلُّ مَا نَبْصَرُ فِيهِ فَتَنُ
أُطْلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَغْلَالِهِ
جُرْدَ الْعَالَمِ مِنْ أَسْتَارِهِ
وَأَجَالَ الْفِكْرَ فِي طَيَّاتِهِ
وَأَحَاطَ الْأَرْضَ مِنْ أَقْطَارِهَا
فَارْعَا فِي ظَهْرِهَا أَجْبَالَهَا
طَائِراً فِي اللُّوحِ مِنْ فَوْقِ السَّحَابِ
طَاوِياً أَقْطَارَهَا لَا يَغْتَرِبُ
يَسْمَعُ الْهَمْسَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِ
ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِ فَانْتَحَى

مِثْلَ مَا أُعْطِيَ عَقْلاً بَارِقاً
مِثْلَ مَا يُغْمَرُ عَقْلاً رَاجِحاً
مِثْلَ مَا أَعْمَلَ كَفّاً حَاطِماً
مِثْلَ مَا مَكَّنَهُ عِزْفَانُهُ
مِثْلَ مَا سَيَّطَرَ فِي أَجْوَانِهِ
فِيهِدْمٌ فَوْقَهُ بِنْيَانُهُ
لَيْتَهُ لَمْ تُغْمِهِ أَمْوَالُهُ
وَتَوَقَّرَ سَمْعَهُ ضَوْضَاؤُهُ
فِي ظِلَامِ الصَّدْرِ مِنْهُ قَدْ أَضَاءَ

آه لَوْ أُعْطِيَ قَلْباً خَافِقاً
آه لَوْ يَعْمُرُ قَلْباً رَاحِماً
آه لَوْ أَعْمَرَ عَيْناً سَاجِماً
آه لَوْ هَدَّبَهُ إِيْمَانُهُ
آه لَوْ سَيَّطَرَ فِي أَهْوَانِهِ
آه لَوْ لَمْ يُغْمِهِ طَغْيَانُهُ
لَيْتَهُ لَمْ تُطْغِهِ أَعْمَالُهُ
لَيْتَهُ لَمْ تَغْشِهِ أَضْرَاؤُهُ
آه لَوْ أَنَّ شِعَاعَ الْكَهْرِبَاءِ

ويله من ماردٍ قد دمَّرا
ليته حاط الذي قد شيدا
ليته حاط البلاد الزاهرة
ما بناه مخرباً ما عمرا
بوثام وسلام وهدي
ليته صان الجنان الناضرة



إنَّ هذا العصرَ روضٌ مُزهرُ
نُضِرَتْ فيه فنون الرُّهر
أو لكنَّ في مهبِّ العاصفة
صُرُصُرٌ تأتي عليه لا تَذُرُ
يُخْرِبُ البستان من قد غرسا
كلُّ طاغٍ يدَّعي البستان له
لو تآخروا ورَضُوا بالمعدله
لو تآخروا واهتدؤا واستثمروا
لاؤوا منه إلى ظلِّ ظليل
وجنوا أثمَّاره وانتفعوا
فتمالوا ننظر الداء العصي
إنَّ هذا الشَّعر لا يحصي العلل
إنَّه لمحَّةُ عينٍ عابره
إنَّه نفثَةُ نفسٍ شاعره

كلُّ غُضَنِ فيه نام مثمرُ
أينعت فيه ضروبُ الثَّمَر
كلَّ حينٍ تعتريه جائفة
تخطم الأغصان فيه والشَّجر
يهدم البنيان من قد أسسا
يبتغي الأشجار والبيان له
وجنوا في غير بغى أكله
ثمَّ أسمى عدلهم ما دمَّروا
ورأوا في زهره كلَّ جميل
ونما بستانهم فاستمتعوا
ونرى الأسباب في الداء الدوي
إنَّه يعيا بذا الأمر الجلل
ليته كفُّ طيبٍ ماهره
ليتها كفُّ حكيمٍ قادره



البيت

معبودُ الله ما أطهره
روضةٌ ينبُت فيها الخلقُ
فيه سرُّ الله ما أظهره
وترى الحقُّ عليها يُشْرِقُ

تَشَاءُ الْخَيْرَاتُ فِيهِ وَتَرْبُ
 أَنْفُسٌ فِيهِ كَتَفَسٍ وَاحِدَةٍ
 بَلْ شَكُورٌ مُثَلَّثٌ لِلْوَالِدِ
 كُلِّهَا حَبٌّ وَإِثَارٌ فَلَا
 فَاحٌ يَفْدِي أَخَاهُ جَاهِدَا
 وَتَرَى الْأُمَّ عَلَيْهِمْ حَانِيَةً
 وَأَبُوهُمْ فِي غَدُوٍّ وَرَوَاحٍ
 رَوْضَةٌ لِلْحَبِّ فِيهَا مُثَلَا
 كُلُّ خَيْرٍ هَاهُنَا مِنْبَعُهُ
 مَسْجِدٌ يَسْعَدُ فِيهِ الْوَالِدَانِ
 يَعْْبُدُ الرَّحْمَنَ مَنْ قَدْ عَبَدَا
 فَلِإِلَى تَوْحِيدِهِ مِنْ غَيْرِ بَيْنٍ
 إِنْ تَشَاءُوا مَثَلًا لَا يُدْفَعُ
 فَاقْرَءُوا يَا قَوْمَنَا كَيْ تَشْهَدُوا
 ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فِيهَا فَاقْرَءُوا
 أَحْكَمُوا الْأَسْرَةَ مِنْ قَرَآنِهَا
 وَاعْمُرُوا الْبَيْتَ بِبِرٍّ وَوَفَاءٍ
 إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ فِي نَظْمِ الْأُمَمِ
 كُلُّ بَيْتٍ أَلْفَتْ أَحَادَهُ

مَنْ رَأَى الْخَيْرَ لَهُ أُمٌّ وَأَبٌ
 أَلْفَتْهَا فِي حِمَاهَا الْوَالِدَهُ
 كَالْمَرَايَا حَوْلَ وَجْهِ وَاحِدٍ
 حَسَدٌ فِيهَا وَلَا حَقْدٌ وَلَا
 وَكَلَا الصَّنَوِيْنَ يَفْدِي الْوَالِدَا
 تَسْهَرُ اللَّيْلُ إِلَيْهِمْ رَانِيَةً
 يَسْطُ الْحَبُّ عَلَيْهِمُ وَالْجَنَاحُ
 كُلُّ غَصْنٍ بِأَخِيهِ اتَّصَلَا
 كُلُّ بَرٍّ هَاهُنَا مَطْلَعُهُ
 وَهَمَا الْخَلَاقُ فِيهِ يَعْْبُدَانِ
 وَالِدِيهِ وَإِلَى الْبِرِّ اهْتَدَى
 قَرَنَ الرَّحْمَنَ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ
 يَنْأُ كَالشَّمْسِ نَوْرًا يَطْلُعُ^(١)
 ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا﴾
 ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ فِيهَا النَّبَأُ^(٢)
 وَارْفَعُوا بِالذِّينِ مِنْ بَنِيَانِهَا
 وَسَلَامٍ وَوَنَامٍ وَإِخَاءٍ
 مِثْلَ بَيْتِ الشَّعْرِ فِي نَظْمِ النَّعْمِ
 آزَرْتُ أَسْبَابُهُ أَوْتَادَهُ

(١) الآية : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الْآيَاتَانِ : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء : ٣٦] .
 ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
 [الأنعام : ١٥١] .

وَنِظَامَ الْبَيْتِ مِنْ نِظْمِ الْكَلِمِ
كُلُّ لَفْظٍ مِنْ حُرُوفِ الْأَلْفَا
وَنِظَاماً وَاحِداً يُبْنَى الْقَصِيدُ
فِي قَوَافٍ أَلْفَتْ آيَاتُهَا
وَمَعَانٍ بَعْدَ هَذَا غَالِيهِ
هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ مِنْ شَعْرِ رَفِيعٍ
كَيْفَ تُبْنَى لِلْمَعَالِي أُمَمُ
مِنْ بَيُوتٍ فِي خِلَافٍ وَشِقَاقٍ
كُلُّ بَيْتٍ فِيهِ لَفْظٌ ثَانٍ
لَا تَقِلُّ فِيهَا زَحَافٌ وَعِلَلُ

مَا أَصَابَ الْخَيْرَ فِيهِ وَالْهَدَى
لَا وَلَا صَفّاً لَدَيْهِ قَوْمَا
لَا وَلَا أَسْمَعُ تَرْجِيْعَ الْأَذَانِ
عَطَلَ الْمَحْرَابُ مِنْ آيَاتِهِ
وَمَضُوا فِي كُلِّ أَفْقٍ بَدْدَا
وَمَضَى فِي غَيْبِهِ كُلُّ فَرِيقٍ

لَيْتَ شَعْرِي مَا أَصَابَ الْمَسْجِدَا
لَا أَرَى جَمْعاً لَدَيْهِ نُظْمَا
مَا أَحْسَنُ الْيَوْمَ تَرْتِيلَ الْقُرْآنِ
خَرَسَ الْمَنْبَرُ عَنْ أَصْوَاتِهِ
ذَهَبَ الْعَبَّادُ عَنْهُ قَدْدَا
غَلَبَ الْمَلْهَى عَلَيْهِ وَالطَّرِيقُ

كَانَتْ الْأَمْسَ زَهَوِراً زَاهِيهِ
وَذَوَتْ أَوْرَاقُهَا وَالزُّهْرُ
وَحَمَتَهَا الْمَاءُ أَيْدٍ سَاقِيهِ
فَطَغَى الشُّوكُ عَلَيْهَا وَالتُّرَابُ
أَنْعَمُوا التَّفَكِيرَ فِيهَا وَالنَّظَرُ

رَوْضَةُ الْبَيْتِ أَرَاهَا ذَاوِيهِ
صَوَّخَتْ أَعْشَابُهَا وَالشُّجَرُ
صَدَفَتْ عَنْهَا عَيُونٌ وَاقِيهِ
غَابَ بَسْتَانُهَا دُونَ إِيَابِ
إِنَّهَا يَا قَوْمَنَا إِحْدَى الْكَبَرُ

هي أصل الداء أو أصل الدواء

نعمة الأقوام فيها والشقاء

اعمروا بالخير هذا المسجد
اعمروا البيت وردوا والديه
نضروا الروضة من إروائها
أرجعوا الطير إلى أوكانها
ألفوا الأحرف في كلماتها

وابتغوا الخيرات فيه أبدا^(١)
واجعلوه حرماً يؤوى إليه
وابتغوا النعمة في أفيائها
ليشب الولد في أحضانها
وانظموا الأمة من أبياتها

تنافر الجماعة

إننا نبصر في كل مكان
من وجوه مات فيها الخفر
يلعن الوجه أخاه نافرا
قطعوا من بينهم كل سبب
ثورة تبصرها كل طريق
ليست الأم بها أما ترى
لا ولا الأخت لها حرمتها
لا صغير قد رعى حق الكبير
فنرى في قبورها أفعالها
تلك فيض من قلوب في نفور
إنما الناس صلاح وفساد
إننا نبصر أحاداً ولا

حسرة الأنفس في هذا الزمان
وعيون حار فيها النظر
يغض الطرف أخاه ناظرا
هجر الناس حياء وأدب
يتجلى الهجر فيها والعقوق
لا ولا الوالد فيها عزرا
من أخيها وقدت حسرتها
أو كبير راحم ضعف الصغير
تسمع الألفاظ أصداء لها
تقدح النيران منها في الصدور
بالثام أو شقاق وعناد
نبصر الحُب بها متصلاً

(١) المسجد : هو الأسرة .

إنها الأعداد في غير حساب
ومن الأعداد بُغْضٌ واختلاف
ومن الأعداد حَقٌّ وشقاق
فإذا سارت على غير سَنَنِ
وإذا ألفتها في قاعة
فهي نظمٌ وائتلافٌ وأطراد
فانظروا ما النظم في أعدادنا
انظموها هذي القلوب النافرة
املؤوا الأنفُسَ خيراً وهدى
اغسلوا بالحُبِّ هذا الدُّرنا

لم يؤلفها على النهج احتساب
ومن الأعداد حُبٌّ وائتلاف
ومن الأعداد رُحْمٌ ووفاق
فهي بغضٌ وشقاقٌ وفتن
فاستقامت في طريق واحد
وحسابٌ بالغٌ كلُّ مراد
وانظروا ما الجمع في آحادنا
 واجمعوا هذي الوجوه الشائرة
 واجمعوا بالحُبِّ هذا البدنا
أطفئوا بالودِّ هذا الضُّغنا

ما ينال الحُبُّ يوماً بالهوى
يجمعُ الحقُّ نفوساً شاردة
ليس إلا الحقُّ في جمع القلوب
أرضعوها الحقُّ في ألبانها
 واجعلوه قِبلَةً في كلِّ حين
ومن الحقِّ إلى الخير طريق
ومن الخير إلى الحُبِّ المسير

لا يُرى للحقِّ إلا مَشْرِقُ
ليس للخيرات إلا مَنبُعُ
إنما للحبِّ نَهْرٌ واحد
مَنبُعُ الحقِّ هو الحقُّ المبين
مَنبُعُ الخير هو البرُّ الرَّحيم

كلُّ حقٍّ من سناه يُشرقُ
كلُّ خيرٍ من جداه ينبُعُ
كلُّ ينبوعٍ إليه عائد
باريُّ بالحقِّ كلُّ العالمين
برُّه في خلقه فيضٌ عميم

مَنْعُ الْحَبِّ هُوَ اللَّهُ الْعَلِيِّ
فَأُضِثُّوا النَّفْسَ مِنْ إِيْمَانِهَا
أَمَلُوا الْأَنْفُسَ مِنْ نَوْرِ الْيَقِينِ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ
ذَلِكَ اللَّحْمُ إِلَى مَاءٍ وَطِينٍ
فَإِذَا أَطْفِئَ فِيهِ ذَا الضُّيَاءِ
إِنَّ هَذَا الْجِسْمَ ذُو وَزْنٍ وَحَدٍ
هَالِكٌ مَنْ عَاشَ فِي ضَيْقِ الْجَسَدِ
أَنْتَ فِي جَسْمِكَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
أَنْتَ فِي الرُّوحِ حَيَاةٌ وَطَمَاحٌ
أَنْتَ فِي قَلْبِكَ سِرُّ الْعَالَمِينَ
لَا يَحُدُّ الْقَلْبَ فِي الْأَفَاقِ حَدٌ
أَيْهَا الْغَافِلُ عَنْ سِرِّ الْإِلَهِ
ضَاقَ عَنْ أَمْرِ الْإِلَهِ الْعَالَمُ
كُلُّ مَا أَدْرَكَتْ مِنْ مَعْنَى جَمِيلٍ
كُلُّ مَا أَوْعَاهُ تَارِيخُ الْبَشَرِ
كُلُّ مَا سُجِّلَ عَنْ أَخْيَارِهِ
هُوَ نَوْرُ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ الصَّغِيرِ
هُوَ نَبْضُ الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا الْتَشْرِ
إِنَّمَا الْإِيْمَانُ بِالدُّنْيَا يَدُورُ
فَاجْعَلُوا مِنْهُ تَبَاشِيرَ الْمَنَى
ارْفَعُوا الْأَنْفُسَ فِيهِ صَاعِدَةً
عَنْ مَتَاعٍ وَطَعَامٍ وَشَرَابٍ

هُوَ مَوْلَى الْبِرَايَا وَمَوْلَى
وَانْظُرُوا الْآيَاتِ مِنْ إِحْسَانِهَا
وَانْظُرُوا إِبْدَاعَهَا فِي كُلِّ حِينٍ
فِيهِ قَلْبٌ كَسْرَاجٍ فِي ظَلَمٍ
ذَلِكَ النُّورُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
فَهُوَ وَحْشٌ هُمُّهُ سَفْكُ الدِّمَاءِ
وَبِهَذَا الْقَلْبِ كَوْنٌ لَا يُحَدُّ
مَنْ يَعِشُ فِي وَسْعَةِ الْقَلْبِ خَلَدٌ
أَوْ قَوَامٌ فِيهِ لَحْمٌ وَدَمَاءٌ
وَرَجَاءٌ وَجَهَادٌ وَكِفَاحٌ
فِيهِ أَمْرُ اللَّهِ لِلْمَخْلُوقِ مَبِينٌ
إِنَّهُ يَكْبُرُ عَنْ وَزْنٍ وَعَدٍ
انْظُرْ فِي الْقَلْبِ يَوْمًا لَتَرَاهُ
وَحَوَاهُ الْقَلْبُ ، هَذَا الْخَاتَمُ
كُلُّ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ أَمْرِ جَلِيلٍ
مِنْ جَلَالٍ وَجَمَالٍ وَعَبِيرٍ
كُلُّ مَا حُدِّثَ عَنْ أَبْرَارِهِ
أَوْ تَجَلَّى اللَّهُ فِي الْكَوْنِ الْكَبِيرِ^(١)
هُوَ خَفَقُ الْقَلْبِ يَرْمِي بِالشَّرِّ
فَهُوَ نَارٌ فِي دَجَائِهَا وَهُوَ ثَوْرٌ
وَأَمَلُوا الْأَفَاقَ مِنْهُ بِالسَّنَا
ارْفَعُوهَا عَنْ مَعَانٍ خَامِدَةٍ
وَمَعَانٍ كُلِّهَا نَبْتُ الشُّرَابِ

(١) الْكَوْنُ الْكَبِيرُ : الْقَلْبُ .

قيمة الإنسان قلبٌ للعلی
كلُّ ساعٍ قذره بغیثه
أيها القانع دوداً في تراب
أيها السادرُ في لهوٍ ودذ
أنقذوا الإنسان من هذا الردى

لا ريشاً و متاعٌ للبلی
وزنه بين السورى منبته
حلّقن في جوّها مثل العقاب
من لهذا الكون في يومٍ وغد
أبصر الإنسان يا قومي هوى

أيها المسلم يا من خلّقا
انهضن يا صاح بالعبد الثقیل
قد قضى الخلاق بالأمر إليك
سَطَرن بالحق في هذي البلاد
أنقذ الإنسان من هذا الشقاء
املا الأرض بحبٍّ وصفاء
واحكمن بالحق في أرجائها
واملا الآفاق حقّاً وسنا
علّم الإيمان والحقّ العلی
زهد مَنْ يملك آلاف الألوف
قولة في الحقّ أعلى عنده
كلُّ ما يمسك منها درهم
هذه الأموال جمعاً يا بني
إنّها اللعبة في عين الحكيم
جوهرأ بحسب من لا يعرف
إنّما الجوهر قلبٌ قد أضاء
لا يعاف الحرُّ أكل الطیيات
ربّما استولى على أعدادها

ليكون الحقّ فيه خلّقا
أنت في الأرض عن الله وكيل
قسم الأرزاق يوماً بيدك
واحكمن بالعدل ما بين العباد
وأزل من أرضنا هذا الغناء
وسلام ووداد وإخاء
وانعمن بالأمن في أفيائها
واملان بالخير آفاق الدنيا
علّم الإيثار والزهد الغني
وهي في عينه لغوٌ وزیوف
فعلة في الخير أغلى عنده
كلُّ ما ينفق منها مغنم
لا تساوي ذلة الحرّ الأبى
إنّها الدّزهم في كفّ الكريم
وهي عند العارفين الصّدْفُ
وسیع الأرض جمیعاً والسّماء
أخذاً في الأرض كل الثمرات
ربّما أوفى على آمادها

أَخْذاً أَوْ مَعْطِياً لَا يَشْرُهُ
عَبْدُ الدُّنْيَا وَلَا تَسْتَعْبِدُهُ
حَائِثاً لِلرِّزْقِ صَقِراً طَائِراً
فَإِذَا شِيمَ هَوَاناً فَزَعَا
وَاسْتَمَدَّ الْعِزَّ مِنْ هَمَّتِهِ
فَإِذَا الْمَاءُ لَهَيْبٍ وَدُخَانُ
وَإِذَا سُدَّ عَلَيْهِ كُلُّ بَابٍ
إِنَّ مَوْتَ الْحَرِّ فِي ذَلَّتِهِ

قَالَ لِي شَيْخٌ وَقَوَّزَ الْمَعِي
كُنْتُ يَوْمَاً فِي عَيُونٍ وَنَخِيلٍ
وَمَعِي مَنْ أَهْلُ نَجْدٍ تَقَرُّ
وَإِذَا صَقَرَ عَلَيْنَا حَلَقَا
أَسْرَعَ الرِّفْقَةُ فِي نَضْبِ الشَّرْكَ
وَهَوَى فَانْقَضَ هَذَا الْأَجْدَلُ
فَطَوَى سَقَطِيهِ هَذَا الْمَهْلِكُ
وَأَتَى الصَّيَّادُ لِلطَّيْرِ الْأَسِيرِ
سَابِغُ الْجَوِّ بِخِيطٍ عَلَقَا
ذَلِكَ الصَّيَّادُ فِي جَوْ السَّمَاءِ
قَاهِرُ الْجَوِّ بِعِزِّ وَجْنَاهِ
ضَاقَتْ الْأَجْوَاءُ عَنْهُ مَسْرَحَا
ثُمَّ قَالَ الشَّيْخُ جِئْنَا نَنْظُرَ
فَإِذَا دَمْعَةٌ عَيْنٍ هَامِلَةٍ

مَنْ بَنَى يَنْبَعُ شَهْمٌ عَرَبِي
فِي الْقَرْيِ مَنْ يَنْبَعُ النَّخْلُ الْجَمِيلُ
اصْطِيَادُ الطَّيْرِ فِيهِمْ وَطَرُ
سَابِغاً فِي جَوْهُ قَدْ خَفَقَا
وَسَمَانِي وَضَعُوهَا فِي الشَّبَكِ
بَلْ هَوَى هَذَا الْقَضَاءُ الْمَنْزِلُ
وَتَوَى فِي حَبْلِهِ يَرْتَبِكُ
عَيْنُهُ فِي اللَّوْحِ لَكِنْ لَا يَطِيرُ
ذَلِكَ الْخَفَّاقُ فِيهِ أَخْفَقَا
صَادَهُ بِالْخَنْتِلِ صِيَادُ الْقَضَاءِ
بَذَلَ الشَّبَاكَ مَنْ مَتْنِ الرِّيَّاحِ
كَيْفَ يَرْضَى فِي إِسَارٍ مَطْرَحَا ؟
لَنْرَى الْأَجْدَلَ أَتَى يَوْسَرَ
وَإِذَا الْمَهْجَةُ فِيهَا سَائِلُهُ

ذَا يَسْمَى «الْحَرْ» مِنْ بَيْنِ الصُّقُورِ
 فَكَانَ الصُّقْرُ الْأَبْيَّ الْعَالِيَا
 وَاحْذَرْنَ يَا حَرْ هَذَا تَهْلِكُهُ
 إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ لِلْأَبْطَنِ
 فِي وَغَاهَا كُلُّ حَزْمٍ ضَيِّعَا
 لَا تَغَرَّنَّكَ مَرَايَا بَارِقَهُ
 إِنَّهَا رَأْسٌ بِلَا قَلْبٍ يَسِيرُ
 قَدْ أَضَلَّ الْغَيُّ هَذَا الْأُمَمَا
 فَدَعَاهَا فِي ظَلَامٍ تَصْطَدِمُ

الشيوعية

أَحْدَثُ الدَّعَوَاتِ فِي هَذَا الْأَمَمِ
 تَعَدُّ الْإِنْسَانَ بِالْمَرْعَى الْخَصِيبِ
 تَعَدُّ الْإِنْسَانَ أَعْشَابَ الرَّيِّعِ
 يُوَعِّدُ الْمَرْعَى وَلَا شَيْءَ لَهُ
 لَيْسَ يَرْغُو سَرْبُهُمْ : أَيْنَ الْمَسِيرِ
 وَيَتِمُّ الشُّبُهَةُ فِيهِ بِالْغَنَمِ
 كَفَرُهُ بِاللَّهِ وَالْخَيْرِ وَمَا
 وَضِيَاعُ الْبَيْتِ مِنْهُ وَالرَّجْمِ
 كَافِرٌ بِاللَّهِ لَا بِالْوُثْنِ
 يَبْصُرُ الظُّلْمَةَ عِنْدَ الصَّنَمِ

تَسْلُكُ الْإِنْسَانَ فِي سِلْكِ الْغَنَمِ
 فِيهِ عُشْبٌ وَرُغَاءٌ وَنَيْبٌ
 ثُمَّ عَيْشٌ مِثْلُ مَا عَاشَ الْقَطِيعِ
 وَعَصَا الرَّاعِي تَرْبِيهِ أَكْلَهُ
 لَا ، وَلَا يَتَغَوُّ إِلَى أَيْنَ الْمَصِيرِ
 قَطْعُهُ عَنْ مَنَبَعِ الْخَيْرِ الْقَمِيمِ
 فِيهِ إِنْسَانٌ عَنِ الْعُجْمِ سَمَا
 وَحَنَانِ الْقَلْبِ مِنْ أُخْتٍ وَأُمِ
 كَافِرٌ بِالسَّلَامِ لَا بِالْفَتَنِ
 عَنْ ضِيَاءِ اللَّهِ وَالْحَقِّ عَمِي

(١) الْحَرْ : نَوْعٌ مِنَ الصُّقُورِ قَلٌّ أَنْ يَعْشَى بَعْدَ إِسَاكِهِ .

كُلُّ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْ وَدٍّ وَحَبٍّ لَا يَسَاوِي عِنْدَهُ مَكِيلَ حَبٍّ
كُلُّ مَا يَدْعُو أَنَاسٌ بِالشُّعُورِ لَا يَسَاوِي عِنْدَهُ كِفَّةَ شَعِيرِ
ذَاكُمُ السَّيْرِ وَهَذَا الْمُنْتَهَى أَنْعَمُوا التَّفْكِيرَ يَا أَهْلَ النُّهَى

إقبال

يُبَيِّنُ الْإِقْبَالَ مِنْ سِرِّ الْحَيَاةِ وَأَزَالَ السُّتْرَ عَنْ نَوْرِ النِّجَاةِ
يُبَيِّنُ الْإِقْبَالَ مِنْ سِيرِ الزَّمَانِ وَأَفَاضَ النُّورَ مِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ
بَثَّ فِي النَّفْسِ كَلَاماً مِنْ شَرَرٍ مِنْهُ عَشَقَ الْحَقُّ فِي الْقَلْبِ اسْتِعْرَ
فَتَقَشَّ نَظَرَاتُهُ كُلَّ حِجَابٍ فَرَأَى الدَّوْحَةَ مِنْ تَحْتِ الثُّرَابِ
ضَاقَتْ الْآفَاقُ عَنْ نَظَرَاتِهِ ضَجَّتِ الْأَفْلَاكُ مِنْ أُنَاتِهِ
وَصَلَّتْهُ نَفْحَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَتَجَلَّى نَوْرُهُ فِي قَلْبِهِ
قَدْ ثَوَى فِي قَلْبِهِ كُلُّ الْجِهَاتِ وَاسْتَوَى فِي فِكْرِهِ مَاضٍ وَأَتِ
سَالَ فِي أَلْحَانِهِ دَمْعٌ وَدُمٌّ وَالتَّقَى الْمَاءُ عَلَيْهَا وَالضَّرَمُ

يَا بَرُودَ الْقَلْبِ خُذْ مِنْ نَارِهِ فَالْحَيَاةُ الْحَقُّ فِي أَشْعَارِهِ
يَا مَوَاتَ الْقَلْبِ خُذْ مِنْ رَجْعِهِ^(١) يَا جَمُودَ الْعَيْنِ خُذْ مِنْ دَمْعِهِ
يَا صَغِيرَ الْهَمِّ خُذْ مِنْ هَمَّتِهِ يَا كَلِيلَ الْعَزْمِ خُذْ مِنْ عَزَمَتِهِ
يَا أَسِيرَ الْيَأْسِ خُذْ آمَالَهُ فِي دَجَى الْيَأْسِ أُثِرْ أَقْوَالَهُ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ صَعِدْ فِي السَّمَاءِ وَابْلُغْ فِي جَوْهَا أَعْلَى الْعِلَاءِ
وَخُذِ الْإِقْدَامَ مِنْهُ وَالطَّمَّاحَ وَجَنَاحاً قَاهِراً هُوجَ الرِّيَّاحِ

(١) الرَّجْعُ : المَطَرُ ، كَمَاءٌ ، جَاءَ فِي الْقُرْآنِ .

إِثْنَهُ الْإِسْلَامُ فِي عِزَّتِهِ إِثْنَهُ الْقُرْآنُ فِي أَنْوَارِهِ
 إِثْنَهُ الْإِيمَانُ فِي قُوَّتِهِ إِثْنَهُ الْفِرْقَانُ فِي أَسْرَارِهِ
 قَدْ أَتَى فِي شِعْرِهِ نَارٌ وَنُورٌ^(١)

بَلِّغِي يَا رِيحُ فِي شَطِّ النَّوَى أَدْمَعِي قَبْرًا بِبَلَاهُورِ ثَوَى
 وَامْضِي يَا بَرْقُ بِبُوجْدِي وَهِيَامِي أَبْلِغْنِي قَبْرًا بِبَلَاهُورِ سَلَامِي
 إِنَّ : إِقْبَالَ بَلَاهُورِ أَقَامَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالسَّلَامُ

دعاء

فَالِقَ الْإِصْبَاحِ رَبَّ الْمَشْرِقِينَ بَاسِطَ اللَّيْلِ وَرَبَّ الْمَغْرِبِينَ !
 أَنْتَ فِي الصُّبْحِ ضِيَاءٌ فِي جَمَالِ أَنْتَ فِي اللَّيْلِ ضِيَاءٌ فِي جَلَالِ
 نَاشِرَ الشَّمْسِ خِضْمًا مِنْ ضِيَاءِ طَاوِي الذَّرَّةَ شَمْسًا فِي خَفَاءِ
 أَنْتَ نُورٌ فِي ظُهُورٍ وَجَلَاءِ أَنْتَ نُورٌ فِي حِجَابٍ وَخَفَاءِ
 يَا جَلِيلًا فِي دُجَى أَسْتَارِهِ يَا خَفِيًّا فِي ضُحَى أَنْوَارِهِ
 يَا أَنْيسًا فِي قُلُوبِ الْعَارِفِينَ وَحَيَاةً لِقُلُوبِ الْغَافِلِينَ
 يَا ضِيَاءَ الْعَيْنِ فِي النُّورِ الْعَمَمِ وَضِيَاءَ الْقَلْبِ فِي دَاغِي الظُّلَمِ
 قَرُبُكَ الْمُؤْنَسَ فِي هَذِي الْقَفَارِ هَدِيكَ الْمُنْقِذَ فِي هَذِي الْبَحَارِ
 نَازِمَ الْكَوْنِ الْبَلِيغِ الْمُبْدَعَا مُحَسِّنًا مَطْلَعَهُ وَالْمُقْطَعَا
 خَلَقْتَكَ الْأَلْفَاظُ فِيهِ وَاقِيهِ أَمْرُكَ الْوِزْنُ لَهُ وَالْقَافِيهِ^(٢)
 كُلُّ لَفْظٍ فِيهِ نُظَّارٌ إِلَيْكَ كُلُّ مَعْنَى فِيهِ بَرَهَانٌ عَلَيْكَ

(١) مولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منك هذا العقل ، هذا الثائر ، جاوز الأفلاك يسعى نحوكا
 منك هذا القلب ، هذا الخافق ، ذاكر إياك راج كل حين
 طالب إياك ساع حائر
 يكشف الأستار يبغي وجهك
 في الدياجي منك نور بارق
 خفقه ذكر وشوق وحنين

اجعلن عقلي ضياء ثاقبا
 واشددن فكري بصدق وسداد
 واملأن قلبي بحب وصفاء
 وارفعن في الحق صوتي عاليا
 واجعلن وجهك قصدي لا سواه
 وامنح المسلم قلباً خافقاً
 امتحنه العقل والقلب السليم
 واجعلنه في البرايا حكماً
 اجعلنه قائداً بين البشر
 تضدع الباطل حقاً صائبا
 واحبني التوفيق في كل مراد
 واحفظنه من شقاق ومراء
 وجناني فيه عضباً ماضيا
 هوئن في عين قلبي ما عداه
 واحبه بالعلم عقلاً بارقاً
 واهد رب الصراط المستقيم
 قاضياً بالعدل إماً حكماً
 هادياً للخير لا يسعى لشر

أنقذ الإنسان من هذي الغم
 هدم الإنسان ما قد عمرا
 فاهد بالإيمان عقلاً حائرا
 أذك الناس بحب ووثام
 أنج من بغيها هذي الأمم
 حينما أمر عقلاً كفرا
 واجعل القلب عليه آمرا
 إنك الداعي إلى دار السلام^{(١)(٢)}

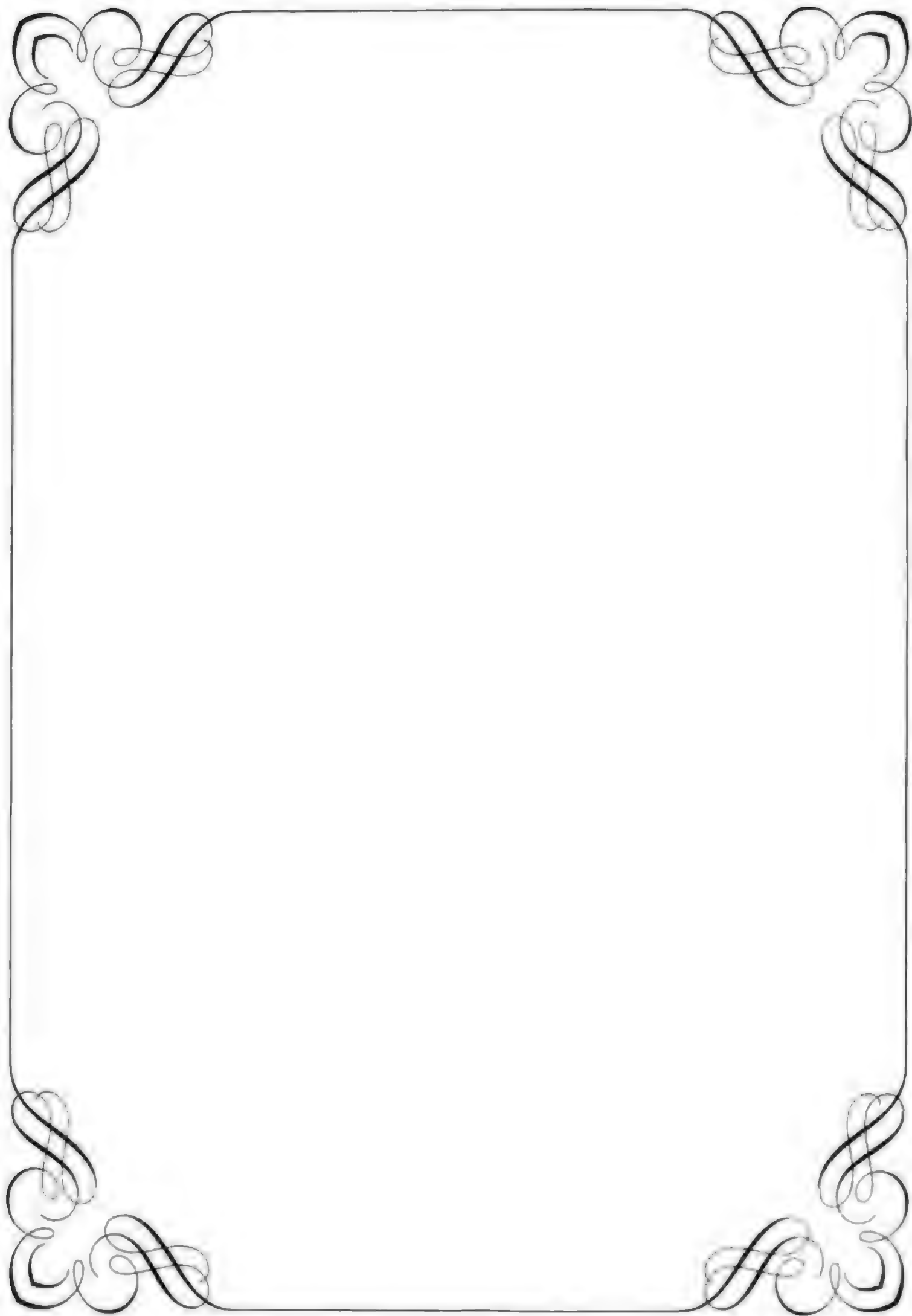
(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ نَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچی . والله الحمد أولاً وآخرأ ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

الدِّيَّوَانُ الرَّابِعُ

زُبُورُ الْعَجَمِ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدُّكْتُورُ حُسَيْنُ مَجْنِبِ الْمَصْرِيِّ



هذا الديوان - في الأصل - جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الديوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزديد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أوما إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوة بلغت من الجرأة مداها ، ينمّشك صاحبها فيها التمشك الشديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعة أكثرها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعة تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (كلشن رازجديد) وهو على طريقة «كلشن راز» .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (كلشن راز) ، ألفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوف أرسلها إليه بعض الصوفية ، ولهذا سماه الشاعر - محمد إقبال - « روضة السرِّ الجديد » (كلشن رازجديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفية وصوفية .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبين فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة
والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .
وإليك الآن القسم الثالث من هذا الديوان الذي نقله من الفارسية إلى العربية
شعراً الأستاذ حسين مجيب المصري :



لَكَ عَيْنٌ ، نَظَرًا فِيهَا خَلَقْتَ لَكَ نَفْسٌ ، وَلَهَا دُنْيَا خَلَقْتَ
نَامَ هَذَا الشَّرْقُ لَا يَرَعَاهُ نَجْمٌ بَنَشِيدَ الْعَيْشِ فَجَرًا قَدْ خَلَقْتَ^(١)

تمهيد

خبا في الشَّرْقَ ذِيَاكَ اللّٰهِيَّ فَأَيْنَ الرُّوحُ بَلْ أَيْنَ الْوَجِيبُ^(٢)
وَأَضْحَى صُورَةً تَرْنُو إِلَيْهَا وَمَا لِلْعَيْشِ مِنْ ذَوْقٍ لَدَيْهَا^(٣)
يَجَافِي قَلْبُهُ طَيْفَ الْأَمَانِي وَيُسَكِّتُ نَائِيَهُ رَجْعُ الْأَغَانِي^(٤)
عَنِ الْمَقْصُودِ مِنْ قَوْلِي أُنْتُ عَلَى سَفَرٍ لِمَحْمُودٍ أَجِيْتُ
تَوَالَتْ بَعْدَ ذَا الشَّيْخِ الْعُهُودُ وَمَا لِلنَّارِ فِي رُوحٍ وَقُودُ^(٥)
لَنَا كَفَنٌ وَنَرَقْدُ فِي ثَرَانَا قِيَامُ الْبَعْثِ يَوْمًا مَا عَنَانَا^(٦)
وَفِي تَبْرِيزَ عَيْنٌ لِلْحَكِيمِ رَأَتْ أَثَارَ جَنْكِيزَ الظُّلُومِ^(٧)

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أن الشرق نام مستراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقات القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه بقرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجوع : الصدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهمنا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر چنكيز على سبيل المجاز .

ولكن ثورة أخرى وجدتُ
 رفعتُ أنا عن المعنى النقابا
 الست ترى بلا كأس خُماري
 وكل الخير فيمن قال تعدم
 فما اشتاق داراً للحبيب
 ترابي ليس من هذا الممر
 لقد صافيت جبريل الأمين
 بفقري كان لي مال الكليم
 وما الصَّحراء تحويني تُرابا
 زجاجي منه ترتعد الصُّخور
 هي الأقدارُ تكمنُ خلف ستري
 بذاتي برهةً ها قد خلوتُ
 وليس العازُ من شعري عليا

وشمسٌ غير هذي ما شهدت
 جعلتُ الشمسَ ما كان الترابا
 وليس لشاعرٍ غيري شعاري^(١)
 بأنِّي شاعرٌ يا صاح فافهم^(٢)
 وما في القلب من وجدٍ مذيب
 وفيه القلبُ لا يشقى بأسر
 عدوًّا لا أشاهدُ لي مينا^(٣)
 وجاء الملك في سَمَلِ العديم^(٤)
 ولا الدماء تطويني عُبابا^(٥)
 وأفكاري بلا شطِّ بُحور
 قياماتٍ أقيمتُ بمحضِ أمري
 بدنيا الخلدِ أخلقها بدوت
 فللعطار لن تجدِ السَّميّا^(٦)

- (١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .
 (٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .
 (٣) العدو المبين : الشديد العداوة .
 (٤) الكليم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو التجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقداً الغنى ، بل فقداً الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمَل : الثوب البالي . العديم : الفقير .
 (٥) الدماء : البحر . والعباب : الموج .
 (٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بروحي للحياة مع الفناء
 رأيتُ ثراك عن روح غريباً
 ولي في القلب وهاجُ السَّعير
 وذاك القلبُ حبٌّ في ثراه
 وذوق الذاتِ شهدٌ في لهاتي
 لقد جربت ذلك في البدايه
 وجبريلُ كتابي إنْ رآه
 لرئي ظل يشكو من مقامه
 جلاء للتجلِّي لا أريد
 كفتُ عن الوصالِ السَّرمدي
 غرورَ المرء هبني والخضوعا

صراعٌ ، لا أرى غَيْرَ البقاء
 ففيه نفختُ من روحي ديباً^(١)
 دجاءك أنير بمصباحي المنير^(٢)
 كلوح خطَّه ما في سواه^(٣)
 وهذا كلُّه من وارداتي^(٤)
 منحت الشرق منه في النهايه
 أنار لنا بلمح من سناه^(٥)
 وحال القلب بين في كلامه
 ولكن ما حوى القلبُ العميد^(٦)
 لذتُ شكاة قلبٍ لي شجي^(٧)
 إذا ما ذابَّ أو أمسى دموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحير فما مفهوم ما يُدعى التفكير

- = الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار .
 السَّميُّ : النظير هنا .
- (١) الديب : دبُّ الشراب والسُّقم في الجسم ديباً : سري ، وكأنه مشى .
- (٢) السَّعير الوهاج : النار المتأججة المضينة .
- (٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .
- (٤) اللهاة : لحمه في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّد من الإنسان .
- (٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .
- (٦) العميد : من هذه العشق .
- (٧) السَّرمدي : الخالد . والشَّجي : الحزين .

طريق شزطها من أي فكر؟ نطيع الله ثم نكاد نكفر!

الجواب

بَصَدْرِ الْمَرْءِ مَنَّا أَيُّ نَوْرٍ
بدا لي الثَّابِتُ السَّيَّارُ جَهْرَةً
وفيه النَّارُ حِيناً مِنْ دَلِيلٍ
بهذا النُّورِ لِلرُّوحِ الشُّرُوقِ
بِمِسِّ التُّرْبِ بِنَايَ عَنْ مَكَانٍ
وَمَا بَتَرْدُدِ الْأَنْفَاسِ يَبْقَى
وبهنا في الشَّوْاطِئِ بِالْمَقَامِ
عَصَا مُوسَى وَهَذَا كَانَ بِحَرِّهِ
غَزَالٌ ، وَهُوَ يَرَعَى فِي السَّمَاءِ
لَهُ فِي الْأَرْضِ وَالزُّرْقَا مَقَرٍ
وَمِنْ أَحْوَالِهِ ظَلَمٌ وَنَوْرٍ
لِإِبْلِيسَ وَآدَمَ مِنْهُ مَظْهَرٌ

عَجِيبٌ ، غِيُّهُ عَيْنَ الْحُضُورِ
أَرَاهُ النَّارَ أَوْ نَوْرًا بِنَظَرِهِ^(١)
وَيَسْتَطِيعُ نَوْرُهُ مِنْ جِبْرِئِيلِ
شِعَاعٌ مِنْهُ شَمْسًا قَدْ يَفُوقُ
بَقِيدِ الْيَوْمِ يَخْرُجُ مِنْ زَمَانٍ^(٢)
دُؤُوبًا مِثْلَهُ فِي الْبَحْثِ تَلْقَى ؟
يَعْبُ الْبَحْرَ أَحْيَانًا بِجَامٍ^(٣)
وَقَدْ ضَرَبَتْ فَشَقَّتْ مِنْهُ صَدْرَهُ
وَيُزَوِّى مِنْ مَجْرَتِهَا بِمَاءٍ^(٤)
وَحِيداً بَيْنَ قَافِلَةٍ يَمُرُ^(٥)
وَجَنَاتٍ وَمَوْتُ ثُمَّ صُورٍ
وَيَكْمُنُ تَحْتَهُ لَا شَكَّ مُخْبِرٍ^(٦)

(١) جَهْرَةً : عياناً . أَوْ : بمعنى الواو .

(٢) التُّرْبُ : التُّراب . الْيَوْمُ : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عَبَّ الْمَاءُ : شربه بلا تنفس ، وَالْجَامُ : الكأس .

(٤) الْمَجْرَةُ : نجوم تسمى حاملة التبن أو نائثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهْرِ .

(٥) الزُّرْقَاءُ : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمَّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليه العين في شوقٍ شديد
 بعين خلوةٍ ها قد رآها
 حرامٌ عَصَبُ عَيْنٍ بامتهان
 وذاك البحرُ يخلقه بنهره
 فيبدو صورةً ليست لجنسه
 هياجٌ فيه منعدمٌ صداه
 وهذي كأسه تحوي الزمانا
 حياةً منه بالأوهاق تُرمى
 ولكن نَفْسَهَا أسرث بذلك
 وأنت العالمين إذا غزوتنا
 وهذا البحثُ في القفر احذرته
 ضعيفٌ ؟ خذ من الذَّات قوى
 بغزو الذَّات إن يوماً ظفرتنا
 لك الدنيا ، ليسعد يومُ نصرك
 جعلت البدر يسجدُ في هوانٍ

تجلُّ منه إعجابُ الحميد^(١)
 تجلُّ عينه الأخرى ملاحا^(٢)
 فشرطٌ للطريق ، له اثنتان
 ويصبح جوهراً في مستقره
 وغواصاً بصير للقط نفسه !
 له لونٌ ، وما أحدٌ رآه
 وبالتدريج نُذركه عيانا
 ومن يعلو ولا يعلو لتصمى^(٣)
 وغير الله أوردت المهالك^(٤)
 فوخذك من هلاكٍ قد نجوتنا^(٥)
 عليك بعالمٍ فيك ادخلته
 تريدُ الله ؟ قربيها ، لذاكا
 لك الآفاقُ في ملكٍ وجدنا
 سماءٌ قد شَقَقْتَ قِتَهُ بِقَدْرِكَ
 عليه رميت أوهاق الدُّخان^(٦)

- (١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .
- (٢) ملاحا : ملاحا .
- (٣) الأوهاق : جمع وهق وهو جبل ذو أنشطة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .
- (٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوجدانية والانصراف عن التعدد إلى الواحد .
- (٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .
- (٦) الأوهاق : تقدّم شرحها .

بِهَذَا الدَّيْرِ حَرّاً قَدْ أَقْمَتَا وَأَصْنَاماً كَمَا تَهْوَى نَحْتًا^(١)
 مِنَ الدُّنْيَا بِمَلِكٍ كُلِّ حَذْفُورٍ مَقَامَ الصَّوْتِ وَالْأَلْوَانِ وَالثُّورِ^(٢)
 وَتَنْقُصُهُ وَأَنْتَ تَزِيدُ فِيهِ تَغْيِرُهُ عَلَى مَا تَشْتَهِيهِ^(٣)
 يَقْطَعُكَ عَنْهُ قَلْبُكَ كُلَّ قَطْعٍ وَإِبْطَالِ الطَّلَسِ لِسَحْرِ تَسْعِ^(٤)
 إِذَا مَا شِئْتَ غَوْصاً فِي ضَمِيرِهِ فَقَمُحَكَ فَضْلَنْ عَلَى شَعِيرِهِ
 وَهَذَا الْمَلِكُ ، وَالْمَلِكُ الْعَظِيمُ وَتَوَهُمُهُ هُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ^(٥)

السُّؤال الثاني

وَعَلِمَ كَانَ سَاحِلَ أَيِّ بَحْرٍ ؟ بَعِيدِ الْقَاعِ يُخْرِجُ أَيِّ دَرٍّ

الجواب

حَيَاةً ، يَالَهَا بِحَرّاً يَمُور وَسَاحِلُهُ الْقَطَّانَةُ وَالشُّعُورِ^(٦)
 عَمِيقٌ مَوْجُهُ أَبْدَأُ يَمِيدُ وَفِي الشُّطَّانِ أَطْوَادٌ وَبِيدُ^(٧)
 عُبابٌ فِيهِ قَدْ عَدِمَ الْقَرَارَا فَلَا تَسْأَلُ ، عَلَى شَطِّ أَغَارَا^(٨)

(١) الدَّيْرُ القَدِيمُ : مِنْ أَسْمَاءِ الدُّنْيَا فِي الشَّعْرِ الْفَارْسِيِّ .

(٢) الْحَذْفُورُ : الْجَانِبُ . وَجَمْعُهُ حَذَافِيرُ . يُقَالُ : ذَكَرَهُ بِحَذَافِيرِهِ ؛ أَيَّ بِجَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَتَفَاصِيلِهِ .

(٣) يَرِيدُ الْعَالَمَ .

(٤) الطَّلَسُ : كِتَابَةٌ لِلسَّحَرَةِ . وَالتَّسْعُ هِيَ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ .

(٥) فِي رَأْيِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ الْمَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الدِّينِ أَيَّ : الدِّينِ الْحَنِيفِ .

(٦) الْقَطَّانَةُ : الْإِدْرَاكُ ، وَالْفَهْمُ .

(٧) يَمِيدُ : يَضْطَرِبُ . الشُّطَّانُ : جَمْعُ شَاطِئٍ . الْأَطْوَادُ : جَمْعُ طُودٍ وَهُوَ الْجَبَلُ . وَالبِيدُ : جَمْعُ بِيْدَاءٍ وَهِيَ الصَّحْرَاءُ .

(٨) الْعِبَابُ : الْمَوْجُ .

روى الصَّحراءَ منقطعاً عن اليَمِّ
 وما تلقاه جاء إلى حضوره
 بخلوته انتشى كرة الرِّفقا
 ويظهر أولاً للمستنير
 وقربه من الدُّنيا الشعورُ
 بدا بالعقل مرفوع النَّقاب
 وفي دنياه ليس له مُقام
 ترى الدُّنيا ولكن ليس فيكما
 من الأزهار دنيا اللون طاقه
 طريق القلب سرى إليها
 إذا أغمضت عنها العين هانت
 برؤيتنا لدنيانا النَّماء
 ومنظورٌ وناظرٌ غورٍ سرٌّ
 أنا المشهودُ يا مَنْ أنت تشهدُ

أفاد العين معنى الكَيْفِ والكمِّ^(١)
 ينيرُ بفضل فيضٍ من شعوره^(٢)
 بقلب الكائناتِ بدا شروقاً^(٣)
 بمראהٍ ليؤخذ كالأسير
 فأدرك سرّها وهو الخبير
 ولكن قد تعرّى بالخطاب
 من الدُّنيا له هذا المقام^(٤)
 بما تحويه فلتدع الشُّكوكا
 نُقيدها ، لها منّا انطلاقه^(٥)
 ويشي كلُّ مخلوق عليها
 وإلا البحرَ والأطوادَ كانت^(٦)
 بنا لغصونها هذا العلاء
 تضرُّعُ قلبٍ ذراتٍ لأمر
 لتجعلني ، فبالنظراتِ أوجد^(٧)

(١) اليَمِّ : البحر .

(٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .

(٤) المقام : بضم الميم الإقامة . ويفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .

(٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .

(٦) الأطواد : تقدم شرحها .

(٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاث الشيء تَكْمُلُ بالوجود
فليس زوالها بالبعد عنا
تجلينا به الدُّنيا تكون
ومنها العونُ في اللاواء جَرُبُ
وأيقن أن آساد الفلاة
تعينك ، أنت تلك الذَّاتُ فاعرف
وعالمُ كثرةِ بالعقل شاهذ
ومن ریحِ القميصِ فنل نصيبا
وذاثك نُيرين بها تصيدُ

وبالتمكين من هذا الشُّهود
ونورُ شعورنا فَقَدْتُهُ مِنَّا
بنا نورُ تجلَّى أو رنين^(١)
بأحوالٍ لها نظراً فأدب^(٢)
أرادت عونَ نملٍ للنَّجاة^(٣)
كجبريل الأمين إذا فرفرف
لتدرك مظهراً يديه واحد^(٤)
تنسم من ضفاف النيل طيبا^(٥)
ومن تدبيرها لهما القيود^(٦)

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحس ، ويشير إلى أن العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللاواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَحِشْرَ إِسْلَيْمَنْ جُنُودٌ مِنْ آلِيْنَ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ حَقٌّ إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَأَنَّكُمْ سُلَيْمَنْ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فَلَبَسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَادِّكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ [النمل : ١٧ - ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فقبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النمل كما أنجت جنود سليمان من ظلم كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمل ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمل من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسع أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ أَذْهَبُوا بِقَبِيضٍ هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنُوفٍ بِأَفْئِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شم .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلك الذات في دنياك أضرم بغزوك ما ترى أو غاب حطم^(١)

السؤال الثالث

يقال لممكن صلة بواجب وما بعد وقرب يا مخاطب؟^(٢)

الجواب

وهذا العالم الفاني فجذد	وعقل كيفه والكم قيذ
لإقليدس وطوسسي أراه	وعقل قاس أرضاً قد كفاء ^(٣)
وليس حقيقة فيه الزمان	ولا أرض ولا حتى المكان
أقم هدفاً لترشق بالسهم	وما المعراج فافهم من كلامي ^(٤)
أتحوي مطلقاً دنيا الجزاء	وليس سوى ضياء للسماء ^(٥)

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أننا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبغ العالم الثاني بالروح العلهمة . وتسمى هذي القوة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثير والقليل .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادئ علم الهندسة السطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولاءكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دبر المكافاة . والدبر في الشعر الفارسي يطلق على الدنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وعند إقبال أن النور أقرب شيء إلى المطلق .

وما للحقيقة زمنٌ وحدٌ لها حدٌ ولكن ليس يظهر وليس يباطن أي ارتفاع إلى أبد لعقل ما السبيل ؟ وأعرجُ كان ، بغيته الشكون ومزقنا الحقيقة في يدنا وفي غير المكان رأى مكانا زمانٌ ما بدا لي في الضمير يمرُّ العام ، ما ساوى الشعيرا لذاتك عُد ، تخلص من هدير وفصل الجنم عن روح كلام وتخفي الروح سرَّ الكائنات

فكيف تريدُ دنيا لا تحدا ولا يخفي بها ما كان أكثر^(١) ويقبلُ ظاهرٌ كلَّ اتساع^(٢) فواحدة كثيرة ، والقليل على القشر الباب له يكون^(٣) مظاهر للفوارق ما رأينا وكالزئار يتخذ الزمانا^(٤) خلقت الوقت يمضي بالشهور^(٥) بآية ﴿ كم لبثتم ﴾ كن بصيرا^(٦) ونفسك ألقي في قاع الضمير^(٧) فتفرقة وتمييز حرام وهذا الجسم حال للحياة

- (١) في الأصل أن حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفض ولا مرتفع ولا قليل ولا كثير .
- (٢) يذهب إقبال إلى أن الزمان والمكان مما يقبس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .
- (٣) كان هنا تامة .
- (٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزئار : ما يشد به النصارى وسطهم .
- (٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغير ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .
- (٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمّا آية ﴿ كم لبثتم ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وكذلك بعثناهم لنساء لواء بينهم قال قائل بينهم كم لبثتم قالوا لئنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدم الحجة على عجز الحساب عن قياس الزمن .
- (٧) الهدير : صوت الرعد والبحر .

لها الحناء مِنْ صَوْرِ عروس
تستتر الحقيقة بالنقاب
وبين الروح والجسد الفراق
رجال الدين سُبْحَتُهُمْ تدور
ففي التمويه منقطع الشبيه
وقلبك ثم عقلك فاضحبن
بتقليد لهم ذاتاً أضاعوا
وكم جزء لواحد قد رأينا
تري دنياك ما يبدو كترب
وصورة ميت رسم الحكيم
وما من حكمة قلبي رآها
أرى الدنيا بثورتها تميد
دع الأعداد واطرحها ، لتهمل
فمن كل جزيء كان أكثر

هي المعنى ، ففي حلل تميس^(١)
ويسعدّها الظهور بلا حجاب
بغرب ، أين في الحكم الوفاق^(٢)
بأمر الحكم ليس لهم شعور
هو الجسد الذي لا روح فيه^(٣)
إلى الأتراك فازحل ، وانظرن
بدين ربط حكم لم يراعوا
بأعداد لنحصيله أيننا
أراها برهة من صنع ربي^(٤)
بلا عيسى ولا ضرب الكلم^(٥)
بشوق حكمة أخرى ابتغاهما
خفوق هز باطنها شديد^(٦)
وبعض الوقت في ذات تأمل
جنون قولة الطوسي وآخر^(٧)

- (١) تميس : تبختر .
(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .
(٣) يريد نظام الحكم الذي يفصل عن تعاليم الدين . والتمويه : الخداع بالظاهر .
(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلة من المواد ، ولكنها أحداث متلاحقة . وسلوك منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادة إلهية ، كما يقول إقبال .
(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكليم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .
(٦) تميد : تضطرب .
(٧) في الأصل : نصير الدين الطوسي ، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري .

أرسطو مرةً إياه فاعرف
لهذين المقام ففادرئة
بعقلك وهو يدرك كل كم
على دنيائك سيطر ثم هيمن
ولكن حكمة أخرى تعلم
ودغ دنيا الدياجي والنهار

ويكون لحنه يوماً لتعزف^(١)
تضيّع بمنزلي ، فحذار منه
وباطن معدن أو قاع يـم^(٢)
وفي أفلاكها الأجرام مكن^(٣)
وذاتك نح عن يوم لتسلم^(٤)
يميناً فاطلبن بلا يسار^(٥)

السؤال الرابع

أهذا محدث هجر القديم
أمعروف وعارفه ، إلهي
فكانا الكون والباري العظيما
لم الأشواق أزمضت الظليما^(٦)

الجواب

حياة الذات إيجاد لغير
وللمعروف بعد كل خير^(٧)

-
- (١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .
- (٢) المعدن : المنجم . واليم : البحر .
- (٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .
- (٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .
- (٥) الدياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .
- (٦) يقول : إن المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى . . وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .
- (٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خير عظيم .

قديماً أو مغايره حبنا طلسماً كان حُباناً ، فحبنا^(١)
 ذكرنا الأمن والغد في دوام (فكان) و (سوف) أسراً للكلام^(٢)
 وفطرنا انقطاعاً عنه كانا سبيلاً قد ضللنا في سُرانا^(٣)
 وليس لنا بفرقة عيار وواصلنا ، فدام له القرار^(٤)
 بنا وبه ! عجيب ، أيُّ حالِ ففرقتنا فراقاً في وصال^(٥)
 فراق يمنح النظر الترابا وقشاً ما به بلغ السحابا^(٦)
 وهذا العشق يزكو بالفراق مع العشاق كان على وفاق^(٧)
 تباريح الفراق لنا الحياة تخلدنا ، فيبقينا الممات^(٨)
 من المولى ؟ ومن إياه يُعبد هما سرٌّ يؤيد أن سنخلد^(٩)
 يدوم له التجلي نور ذات وبين الجمع معنى للحياة^(١٠)
 وتلك محبة في الجمع تبصر بغير الجمع ذا ما ليس تبصر

- (١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حساباً : عدّه وأحصاه . وكان هنا تامة .
- (٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .
- (٣) السرى : السير ليلاً .
- (٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .
- (٥) في الأصل : ليس بدوننا ولنا بدونه .
- (٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .
- (٧) زكا : نما وصلاح . وفي الأصل : أن الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .
- (٨) تباريح الشوق : شدته وآلامه .
- (٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كل الخير في اجتماع المحب بالمحبيب .
- (١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجلياتٌ محفّلةٌ تأملُ
فلا الأبوابَ أمسكنا علينا
ويجعلُ نفسه عَنَّا غريباً
وننحتُ مثلَ صورته الحجاره
هتكنا سترَ فطرتنا علينا
وهذا الثُّربَ ما جَ به الخيال
ولكن من فراقٍ وهو يشكو
به كانت له هذي البصيره
وأنفد حزنه جزعُ الصُّبور
وأصبح دمعُه دُرّاً ثمينا
وذاتُك : إن تعانقها طويلاً
مقاماتٌ لها بالحبِّ عقدُ
تسير له الأمورُ بلا ختام

تجلّي الله لا الدُّنيا تأملُ^(١)
ونحنُ به بمفردنا اختلينا^(٢)
يُدا عينا كمعزفه طروباً^(٣)
ونسجدُ ، ما رآته العينُ ، تاره
جمالَ حبيينا ها قد رأينا^(٤)
فباطنُه أضاء ولا يزال^(٥)
بفضلِ فراقِه تلقاه يزكو^(٦)
فهذا ليله أضحي الظهيره
ومن حزنٍ تبدّل بالشُّرور^(٧)
الحزن أودتِ الغصوناً^(٨)
تجد في الخلد من موتٍ بديلاً !
وما من منتهى يحدّوه حدُّ^(٩)
به الفجرُ الضُّحوكُ بلا ظلام

- (١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .
(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أن هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .
(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .
(٤) هتك الستر : مزّقه أو جذبه من موضعه .
(٥) الثرب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .
(٦) يزكو : ينمو ويصلح .
(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصُّبور .
(٨) أودّه : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .
(٩) في الأصل : أنه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغايِر عقلنا وعزُّ الطريق ودنيا كان في وهج الشروق^(١)
 بآلاف العوالم قد مررنا على بعض التوقف هل قدرنا ؟
 خلوداً في حياتك يا مسافر وفي موتٍ ، إلى الداني فبادر^(٢)
 وليس البحر يفرقنا انتهاء تعلق فيه ، ما هذا فناء^(٣)
 وجود الذات في ذاتٍ محال لتصبح نفسها ، هذا كمال^(٤)

السؤال الخامس

أجبنِي من أنا ؟ وَضَح (أنا) لي وما في الذات من (شدُّ الرُّحال)^(٥)

الجواب

بذاتٍ عُوذَةٌ للكائنات وأوَّلُ نورها أصلُ الحياة^(٦)
 وتصحو مِن رُؤاها في كراها بكثيرٍ بَعْدَ واحدِها تراها^(٧)

- (١) الوهج : انقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنه عالم في نور برهة .
 (٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريق إليك ، واسلكه .
 (٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناء في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما يشد الصوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .
 (٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .
 (٥) الرُّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرُّحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معني في قولنا سافر في الذات) .
 (٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرِّ والحسد .
 (٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثير : الكثرة . وعند إقبال أنَّ الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا
يضم صميمها في العمق بحرا
تخالف من بشيمته تصبر
كنار ، والذات لها شرار
وراء حدودها والغير تشهد
تأمل في انطواء كيف تبدو
ثبور وراء ستر للخفاء
بنار في الصميم ثوث وقامت
فمن هذا لعالمنا النظام
ذوات أطلعتها من شعاع
تراب الجسم للذات الحجاب
وتلك الذات تشرق من صدور
ومعنى لأننا كم قلت بين
على صلو بأرواح جسوم
بذلك مولد من غير أم
على خلد حصولك بالتياع

ولولا ذاك منها ما زكونا^(١)
وقلب القطر موج ما استقرا
وفي ملأ لنا تبدو بمظهر^(٢)
نجوم ، سائر وله القرار^(٣)
وفي الجمع الكبير كمن توحد^(٤)
تراب ديس ، منه كيف تنمو
وتبحث في دوام عن رواء
تحارب نفسها ، والحرب دامت
وكالمرآة قد أضحي الرغام^(٥)
جواهر أخرجت كانت بقاع
وتبدو الشمس أطلعها السحاب
بجوهرها التراب لنا كنور
(بذاتك فلتسافر) فلتعين
فسافر كي تحقق ما تروم^(٦)
ومن سطح كإمساك بنجم
كانك قد رأيت بلا شعاع

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تسع مدة نمونا . وزكا : كريا .

(٢) الشيعة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصير بطبعه ، فهي لا تستطيع صبرا . الملاء : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرغام : التراب .

(٦) الجسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعن أملٍ وعن وجلٍ تناء
 طلسم البرِّ والدأماء فاصدع
 بأوبةٍ مَنْ يطوف بلا مكان
 لهذا السرِّ تفسيرٌ محال
 فما قولي (أنا) وهي الضياء
 ويرجفُ من سناها الأزهران
 مقرُّ ضمِّها كأنَّ القلوبا
 عن الغيرِ افتراقٌ ، وارتباط
 خيالٌ في التراب له الكيان !
 سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت !
 بصدرك مثل مصباحٍ منيرٍ

كشَّقُ أنتَ محدُّثه بماء^(١)
 وبدرِ التَّمِّ فلتصدغ بإضْبَع^(٢)
 له الدُّنيا لتحملُ في الجنان^(٣)
 وتنفع فيه عينٌ لا مقال^(٤)
 وفي ﴿إنا عرضنا﴾ ما نشاء^(٥)
 زمانٌ تحتضنه والمكان^(٦)
 لهذا التُّربِ أصبحتِ النُّصيا^(٧)
 بنفس ضيعةٍ ، وبه اختلاط^(٨)
 أيحويه الزَّمان أم المكان ؟^(٩)
 فما الرَّامي وأوهاقُ تدلَّتْ ؟^(١٠)
 لك المرأةُ ، فيها أيُّ نور

- (١) التناهي : البعد . الوجل : الخوف .
- (٢) الدأماء : البحر .
- (٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .
- (٤) المقال : القول . أي : أن الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .
- (٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفه ولم يفِ ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .
- (٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .
- (٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .
- (٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .
- (٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .
- (١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا بإدراكك لذاتك كن قميناً^(١)

السؤال السادس

أهذا الجزء عن كلِّ يزيد ! وكيف البحث عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما لِلذَّاتِ مقياسٌ لدينا
من الأفلاك تهبطُ ثُمَّ تَعْلُو
فَمَنْ بالنَّفْسِ يملكه الشعور
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورُ
لها حكمٌ بها الأبوابُ تسحر
خلوداً في الصميم العيش كانا
مقامُ الكونِ منها قد تقدَّر
أَسْأَلُ عن طبيعتها وتَسْأَلُ
وماذا عَنِ طبيعتها لقائل
فما قولِي ؟ وفي قول النَّبي

وأعظمُ ما يلوح لناظرينا^(٢)
ببحر الكون تسقطُ ثُمَّ تَسْمُو^(٣)
سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
تناءت جنةٌ ، في الحُضْنِ حورُ^(٤)
وَمِنْ قاع الحياة أثَّتْ بجوهر
ولكن للعيون بدا زمانا
وتحفظه بما للعين يظْهَر
وعنها ما بقدر ليس يفصل
فجير ظاهر والضدُّ مائل^(٥)
بذا الإيمانِ في قولٍ جلي^(٦)

(١) القمين : الجدير .

(٢) الناظران : العيان . يقول : إِنَّ الذَّاتِ أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليست بالبصر .

(٣) تسمو : تعلو .

(٤) تناءت الجنة : بعدت .

(٥) المراد بالضد هو الاختيار . مائل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .

(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وبالقدر خيره وشره .

وَمَا لِلخَلْقِ عِنْدَكَ غَيْرَ جَبْرِ
وَتِلْكَ الرُّوحُ مِنْ نَفْسِ الْإِلَهِ
وَهَذَا الْجَبْرُ وَهَمٌّ أَوْ ظَنُّونَ
تَصُولُ بِعَالَمٍ لِلْكَيفِ وَالْكَمِّ
وَذَاكَ الْجَبْرُ مِنْهُ إِنَّ أَفَاقَتَ
بِرَغْبَتِهَا خَفُوقُ النُّجْمِ وَاجِبٌ
تَمِيطُ الشُّرَّ عَمَّا أَضْمَرْتَهُ
وَأَهْلُ الثُّورِ قَدْ وَقَفُوا طَوِيلًا
وَمِنْ كَزَمَ لَهَا خَمِرُ الْمَلَائِكِ
تَقُولُ : وَهَلْ إِلَيْهَا مِنْ سَبِيلٍ
لَكَ الْآيَامُ فَاجْعَلْهَا خُلُودًا
لِهَذَا الْعَقْلِ مِنْ حَسٍّ صَدُورٍ
لِعَقْلِ جَزْؤُهُ ، لِلنُّوحِ كُلِّ
وَذَاكَ الْعَقْلُ مَا وَسَّعَ الْخُلُودَ

- (١) أَي أَنَّ الرُّوحَ فِي خُلُوتِهَا مَعَ اللَّهِ تَبْدُو فِي كُلِّ مَظَاهِرِهَا بِجَلَاءٍ .
(٢) كَانَ هُنَا تَامَةً .
(٣) صَال : غَلَبَ وَقَهَرَ ، فِي الْأَصْلِ أَنَّهَا تَغْيِيرٌ عَلَى عَالَمِ الْكَيفِ وَالْكَمِّ . وَتَمْضِي مِنَ الْجَبْرِ إِلَى الْإِخْتِيَارِ .
(٤) فِي الْأَصْلِ : أَنَّهَا إِذَا نَفَضَتْ عَنْهَا غَبَارَ الْجَبْرِ سَاقَتْ عَالَمَهَا كَمَا تَسُوقُ النَّاقَةُ . وَالنُّوقُ جَمْعُ نَاقَةٍ .
(٥) خَفُوقُ النُّجْمِ : اضْطِرَابُهُ . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ السَّمَاءَ تَدُورُ بِإِذْنِهَا .
(٦) تَمِيطُ : تَزِيحٌ وَتَرْفَعُ .
(٧) أَطْلَقْنَا أَهْلَ النُّورِ عَلَى النُّورَانِيَّةِ ، وَهَمَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .
(٨) الْكَرْمُ : شَجَرُ الْعَنْبِ . وَالْمَلَائِكَةُ : الْمَلَائِكَةُ . وَالْعِيَارُ مَا يُضَافُ إِلَى الدَّنَائِيرِ وَالْدِرَاهِمِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ . وَالْمَرَادُ قِيَمَتُهَا . وَالتَّرَبُّ : التَّرَابُ ، فَهِيَ تَسْتَمِدُّ قِيَمَتَهَا مِنْ تَرَابِهَا .
(٩) فِي الْأَصْلِ : إِنَّ أَنْفَاسَنَا تَحْصِي السَّاعَاتِ كَعَقْرِبِ السَّاعَةِ . وَالْعَدِيدُ : الْعَدَدُ .

بخلق الليل يُشغل والنهار
 قصارانا نواخُ العشق كانا
 وذاتٌ إن بدا المعروف عنها
 لعينك مثلها هذا الضياء ؟
 فكيف تخافُ من ريبِ القناء
 وموتاً غير هذا خاف قلبي
 سكون الخفق في شوقِ أليم
 وأنفسنا بأيدينا نكفن
 فوئك كامنٌ لك في الكمين
 بجسمك كان حفرٌ للحفير

ومن نارٍ له بعضُ الشرار^(١)
 وتحوي برهةً منه زمانا
 لحلت عقدةٌ في العمق منها^(٢)
 وتحسبُ أن سيدركها الفناء
 إذا نضجت ، فعنها الموتُ نائي
 وروحي بل وماءٌ لي وتربي
 وإبعادُ الشرارِ عن الهشيم^(٣)
 وموتٌ جاءنا نلقى بأعين
 تذكر ، واخشَ عادية المنون^(٤)
 ومنكرٌ فيه جاوره نكير^(٥)

السؤال السابع

ومن غير السبيل ومن مسافر ووصفُ كمالٍ من في ذكرٍ ذاكر ؟

الجواب

أطل نظراً على قلب تردد بصدركَ منزلٌ ، إيَّاهُ فاشهد^(٦)

(١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .

(٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .

(٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكر من النبات .

(٤) المنون : الموت .

(٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .

(٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفي حَضَرٍ بِذَلِكَ تِلْكَ سَفَرَةٌ
فَأَيْنَ مَقَرُّنَا يَا لَيْتَ شِعْرِي
وَمَالِكَ غَايَةً ، لَا تَبْغُ غَايَةً
بِنَا نَضْجاً ظَنَنْتُ وَمَا نَضْجَنَا
وَفِي عَدَمِ الْوُصُولِ لَنَا الْحَيَاةُ
تَجَوَّلْنَا بِرَحْبِ الْأَفْقِ كَانَا
لَغِينَا ، حَوْلَ أَنْفُسِنَا نَدَوْرُ
وَدُومًا كُنْ لِدَاثِكَ فِي الْكَمِينِ
وَمَا لِأَجِيجِ عَشَقٍ مِنْ فَنَاءِ
كَمَالًا نَظَرَةٌ كَانَتْ بِذَاتِ
بِذَاتِ الْحَقِّ تَخْلُو آنَذَاكَ

وَمِنْ ذَاتٍ إِلَى ذَاتٍ ، بِخَطَرَةٍ^(١)
وَمَا لَحْنًا لَشَمْسٍ أَوْ لِبَدْرِ
فَرَوْحُكَ تَنْتَهِي عِنْدَ النِّهَايَةِ
نَقَصْنَا فِي الْمَنَازِلِ أَوْ كَمَلْنَا
بِسَفَرَتِنَا تَحْشَانَا الْمَمَاتُ^(٢)
وَطَنْنَا ذَا الْمَكَانَ وَذَا الزَّمَانَ^(٣)
بِقَاعِ الْكَوْنِ مَوْجَتُنَا تُثَوِّرُ^(٤)
وَمِنْ شَكٍّ فَفَرَّ إِلَى الْيَقِينِ
وَنَظَرَةٌ ذِي الْيَقِينِ بِلَا انْتِهَاءِ^(٥)
وَذَلِكَ بِالْخُرُوجِ عَنِ الْجِهَاتِ^(٦)
تَرَى مَوْلَاكَ وَالْمَوْلَى يَرَاكَ^(٧)

- (١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .
- (٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياة خالدة .
- (٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماء . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .
- (٤) لغينا : تعبنا .
- (٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .
- (٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .
- (٧) عند إقبال أن هذا ما تبلغه الذات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهدته ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كُنَّ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إن بصره أثبتته ما رأى إثباتاً صحيحاً متيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .
- ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أن منهم من أجازها لأن موسى =

بنور فلتنر من ﴿ لن تراني ﴾
 بذاتك كن قوياً في حضوره
 ومما ماج فيك لتعط ذره
 تحرق حيث يبدو في جلاء
 برؤيته ، لعالمنا إمام
 وإياه اطلبين إذا افتقدته
 ولا تمدد إلا الملاً يميناً
 لأمر الدين والدنيا إمام
 كمثل الشمس تشرق في الصباح
 وغربي له حكماً أقاماً
 بغير العزف ليس له غناء
 ومن بستانه الصحراء أجمل

وإن أغمضت عينك أنت فإن^(١)
 حذار من الضياع ببحر نوره^(٢)
 بجانب شمسنا لتير مره
 وأظهر منك ذاتك في ضياء^(٣)
 له لا للورى كان التمام^(٤)
 بفضل ثيابه خذ إن وجدته^(٥)
 ولا تغمض عن الشخص العيون^(٦)
 هو الرائي ، وقد عمي الأنام^(٧)
 لديه شمس أفكار صحاح
 عن الشيطان قد خلع الزمام
 حوته بما يطير به السماء^(٨)
 مديته فدغ ، فالفقر أفضل

طلبها .

- (١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَٰكِنِ أَنْظُرْ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَاحَا رَجِعَ إِلَى الْجَبَلِ لَمَّا دَكَا وَكَانَ صُورًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .
- (٢) هذا صريح في دلالته على أن إقبالاً لا يأخذ بمذهب الفناء في الذات الإلهية .
- (٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .
- (٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتمام : الكمال .
- (٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمكن التمسك به منها .
- (٦) الملاً : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشخص : الحديدية التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إن مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخدع السمكة بالشخص لتصاد .
- (٧) الأنام : الناس .
- (٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادية .

من السُّراقِ شرذمةٌ تغيّر
صحا جسمٌ وللزُّوجِ الثُّبَاتُ
لدى الكُفَّار زاد الكفر عقلُ
وهذا راصدٌ ولذا الكمينُ
إذا ما شئتَ بلغهم كلامي
على هذا الحسام الروحُ تجري
ليدخل ذلك الصَّمصامُ غِمدَه
وراء الخبز طالَ بها المسير^(١)
مع الدِّينِ الفنونُ محقَّراتُ^(٢)
وللإنسان عند الغرب قتلُ
إلهي ! كن لهم نغمَ المعينِ !
نظامُ الحكمِ كالسَّيفِ الحُسامِ^(٣)
يصولُ على الرقابِ وليس يدري^(٤)
ولا أهلك الإنسانَ بَعْدَه^(٥)

السؤال الثامن

أتعرف ما تضمَّنه (أنا الحقُّ) أتحبُّه هراء حين ينطق^(٦) ؟

الجواب

أعاود عنه قولاً لي يطولُ
بحلقته مجوسِيَّ أشاعا
وعند القوم سرُّ ما أقول^(٧)
(حياة بالآنا خدعت خداعا)

- (١) السُّراق : جمع سارق . والشرذمة : الجماعة من الناس .
- (٢) الثُّبَات : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأطلقنا الفنون على العلوم والفن .
- (٣) السيف الحسام : القاطع . يقول : إنَّ هذا نظام الحكم في بلاد الغرب .
- (٤) يصول : يشب . وفي الأصل : إنَّ هذا السيف لا يميز في الضرب بين مسلم وكافر .
- (٥) الصمصام : السيف . يريد له أن يستقرَّ في غمده ؛ لأنَّه يقتل نفسه بقتله الناس .
- (٦) أنا الحق : قول منسوب إلى الحلَّاج ، ذلك الصوفي الذي كان يتجوَّل في الأسواق ، وقد غلب عليه الوجد والطرب ، وحرص على الدُّعوة إلى آرائه وتعاليمه التي خرجت على مألوف القوم في زمانه ، فبلغت من أهل الدين مبلغاً شديداً ، واتهموه بالحلول والكفر ، وأفتوا بقتله ، فصلب في بغداد سنة ٣٠٩ هـ . وإقبال يرى في الحلَّاج رأياً آخر يناقض رأي قومه ، ويعانده . ولذلك انبرى للدُّفاع عنه في عديد من تأليفه .
- (٧) عاود الشيء : عاد إليه . والمراد بالقوم هنا أهل إيران والهند .

سبات الرب فيه الحلم كُنَّا
ولولاه لما وُجد المكان
هو العقل المميز بل هو القلب
وفي الأحلام تُفرق ناظريكما
وباستيقاظه يفنى الجميع
لديننا العلم نورٌ بالقياس
تغيّر حسنا سبب التغيّر
فما من حولنا ريحٌ ولون
وهذا كله وهمٌ عجاب
وخدعة حسنا لا ريب فيها
فما ذات لنا في الكائنات
حريم الذات ما بلغته نظره
لها يومٌ بلا فلكٍ يدور
إذا سميت تلك الذات وهما
معي قل : من تخامره الظنون

وهذا الحلم منه قد خلقنا^(١)
بما يحوي ولا وُجد الزمان
هو التفكير والتّصديق والريب^(٢)
وأقوالاً وأعمالاً لديك^(٣)
فمن شوقاً سيثري أو يبيع^(٤)
وتعويلُ القياس على الحواس^(٥)
لعالمنا ، فيشملنا التطوّر
ولا يدي لنا الآثار كون^(٦)
على وجهٍ لخالقنا حجاب
دخلنا من خداع الحس فيها^(٧)
بذات حسنا قطع الصّلات
تشاهدها بلا نظر ، بخطرته^(٨)
تأملها فما شكٌ يشور^(٩)
كمظهرٍ أيّ شيءٍ قلت حتما
تأملها ، لتعرف من يكون

- (١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنة ولا نوم .
- (٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .
- (٣) الناظران : العيان .
- (٤) يشري : يشتري .
- (٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .
- (٦) الريح : الرائحة . وطالما سمى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .
- (٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
- (٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرَم . الخطرة : الفكرة .
- (٩) يقول : إنّ أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعالمنا ترى ؟ أورد دليلاً
لقد خفيت ، دليلاً فاطرحن
أراها الحق ما في ذاك باطل
إذا نضجت ، لها امتنع الزوال
جناح لو حبوت به الشرار
بما أبلاه ربي ما الخلود
لروح طاب خلد ، تستعار
وما للطود والوادي البقاء !
عن المنصور ما جدوى الكلام ؟
بذاتك ضع ، ودغ عنك الجدال

بفكرك كان ذلك مستحيلاً^(١)
تفكر ، ذلك السر اكشفت
لها أكل ، فأيقن لا تجادل^(٢)
فراق العاشقين هو الوصال
لخلد في الخفوق به وطارا^(٣)
بيحث ليس هذا ما يريد^(٤)
ويشملها من العشق العقار^(٥)
ستبقى الذات ، للذنيا الفناء^(٦)
بذاتك فاطلبن رب الأنام^(٧)
وحققها بما الحلأ قال^(٨)

السؤال التاسع

وسرّ الوخدة الخافي أتدري أيعلم عارف يا ليت شعري ؟ !^(٩)

- (١) يقصد أن العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .
- (٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .
- (٣) حباه : أعطاه .
- (٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .
- (٥) يشمل : يسكر . العقار : الخمر .
- (٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللذنيا الفناء .
- (٧) المنصور : هو الحلأج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چريا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .
- (٨) دع عنك : اترك وأهمل .
- (٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصوفي في فروة المعرفة .

مقامٌ تحت قُبَّتِها يطيب
ونعشُ الشَّمسِ يحمله الماء
كمنهالِ الرُّمالِ هَوَتْ جبالُ
على الأزهارِ عاصفةٌ تشور
وإنْ بالدُّرِّ زان الطُّلُّ زهرا
بغيرِ سماعها الألحانُ تَفنى
حمامٌ عنه تَنالُ أيجدي
وفيها النُّيرانِ إلى مغيب^(١)
كواكبُه لها الكفنُ الضياء
لهذا البحر بعد الحالِ حالُ
ورعبٌ للقوافلِ من مغير
فباقي تارةٌ ليزولَ أخرى^(٢)
وتلقى النَّارُ في الأحجارِ دفناً^(٣)
من الأنفاسِ قُيدنا بقيد^(٤)

غزل

لنا الكاساتُ دارتُ بالفناء
وقد ذُقناه من داني ونائي^(٥)

- (١) المراد بهذي القبة قبة السماء . وبالثيرين : الشمس والقمر ، ولهما المغيب بعد ظهورهما .
- (٢) الطُّلُّ : الندى . وهذا الندى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .
- (٣) يقول : إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارها ، كما تموت النَّار الكامنة في الحجر .
- (٤) الحمام : الموت ، والتَّسأل : السؤال .
- (٥) الغزل عند الفرس منظومة ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .
- دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تَسْمَى سَاحَةً قَدْ جَالَ فِيهَا
بِهَا إِنَّ ذَرَّةً أَبَدَتْ نَقَارًا
أَتَطْلُبُ أَنْ يَقْرَأَ لَنَا قَرَارًا
شَغَافَ الْقَلْبِ فَاحْفَظْ فِيهِ ذَاتًا
هِيَ الدُّنْيَا مَقَامُ الْآفِلِينَ
بِقَلْبٍ بَاطِلًا مَا إِنْ أَرَدْنَا
هَنَا الرِّغْبَاتِ مَا هُمْ يَزْمِقُونَهُ
وَفِي الْإِمْكَانِ تَخْلِيدٌ لِذَاتِ
وَمَصْبَاحٌ يَزْفِرْتَنَا تَأَلَّقُ
لَدَى الْقِيُومِ ذَوْقٌ لِلْكَلامِ
فَمِنْ بَرَقِ التَّجَلِّيِّ كَانَ فِيهِ

بَدَنِيَا ، مِنْ نَجُومٍ فِي ضِيَاءِ
فَرُوقِيَّةٍ نَظَرَةٌ كُلُّ الْغَنَاءِ^(١)
بِنَا الْأَيَّامُ تَجْرِي جَرِيَّ مَاءِ
وَكُوكِبَهَا سَرَاجٌ لِلْمَسَاءِ^(٢)
وَذَا الْعَرْفَانُ عِنْدَ الْعَارِفِينَ^(٣)
وَهَذَا الْحَزَنُ مِنْهُ قَدْ أَفَدْنَا^(٤)
وَبِهَجَّةٍ شَوْقِهِمْ مَا يَطْلُبُونَهُ^(٥)
وَجَعَلُ الْوَصْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّتَاتِ^(٦)
بِإِبْرَتِنَا سَمَاءٌ سَوْفَ تُرْتَقُ^(٧)
تَجَلَّى فِي جَمْعٍ لِلْأَنَامِ^(٨)
وَذَاكَ الْجَامُ مَنَذَا يَحْتَسِيهِ^(٩)

- (١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا التفار ، كما تبطل الرقية السحر .
- (٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .
- (٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكِبَ قَالَ هَذَا رَقِيَ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ؛ لأن مثل هذا التغير من صفات الأجسام .
- (٤) أفاد : استفاد .
- (٥) يرمق : ينظر ويطلب .
- (٦) الشتات : التفرق .
- (٧) رتق الفتق : سدّه .
- (٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .
- (٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدح برق التجلي في قلبه ، وشرب تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَنْ قَلْبٌ عِيَارِ الْحَسَنِ مِنْهُ (أَلَسْتُ) لَخْلُوةٍ قَدْ صَعَّدَتْهَا
لِعَشَقِ أَيُّ نَارٍ فِي التُّرَابِ
تَدُورُ الْكَاسُ ، لَكِنْ مَا بَقِينَا
لِعَزَلَتِهِ فَوَادِي قَدْ تَحَرَّقَ
وَأَنْشُرُ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ ذَاتِي
وَطَافَ بَيْتٍ مِنْ ؟ مَا زَالَ عَنْهُ^(١)
(بَلَى) أَيُّ الْمَعَارِيفِ رَدَّدَتْهَا^(٢)
وَحَرَّقَ لَحْنَنَا كَمْ مِنْ نِقَابِ^(٣)
بِمَحْفَلِهِ الْحَيَاةُ غَدَّتْ رَيْنَا^(٤)
أَهْيَى مُحَفَّلًا مَا إِنْ تَفَرَّقَ
لَهُ قَدْ صُنْتُ لَا لِسِوَاهُ ذَاتِي !

الخاتمة

لِيُشْهَرَ مِنْكَ ذِيَاكَ الْحُسَامِ
وَتَمْلِكُ قُدْرَةً فَارْفَعْ نِقَابَا
دُجَاكَ أَنْزِ بِأَنْوَارِ الْيَقِينِ
وَعَيْنَكَ فَافْتَحَنَّ عَلَى فَوَادِكَ
وَمِنْ قَلْبِي لَتَقْتَبِسَ الشَّرَارَا
وَالْأَ ، نَارَ غَرْبٍ خَذْ وَحَاذِرْ
بِعَمْدِكَ لَا يَطِيبُ لَكَ الْمَقَامُ^(١)
تَنْلُ شَمْسًا وَبَدْرًا وَالسَّحَابَا
يَدَا بِيضَاءَ أَظْهَرَ لِلْعُيُونِ^(٢)
مِنْ الشَّرَرِ الثَّرِيَّا فِي حَصَادِكَ^(٣)
أَنَا الرُّومِيُّ إِمَّا شُتَّ نَارَا^(٤)
وَمُتَّ فِي الْقَلْبِ كِي تَحْيَا بِظَاهِرْ

* (١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .

* (٢) الذُّجَى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيضًا مِنْ غَيْرِ سُوٍّ أَيْةٌ أُخْرَى ﴾ [٢٢ - ٢٤] .

* (٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .

* (٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى

(١) العيار : ما يضاف من ذهب أو فضة إلى الدينار والدرهم . زال عن المكان : غادره . وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .

(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألسنته ، والمعزف الذي ردد لحنها .

(٣) التراب هنا هو الإنسان .

(٤) ما بقينا : ما دمننا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

ويتصارع كل فرد مع فرد آخر، ويكون لكل فرد في كل زمان
الما آخر.

وبالعبودية يربط رجل الحق الزنار، وبالعبودية يصبح جوهراً
زانفاً !

ويتعري غصنه عن الأوراق بغير مهركان (يريد وقت أن يحصل
فصل الخريف) ولا تكون في روحه سوى خشية الموت !

ويضحى بلا ثوق، فيظن الجملة ترياق، وهو ميت بغير موت،
ونعشه على الكتف !

لقد ضيع ماء وجه الحياة، وقنع كالخمر بالتبن والشعير !
فانظر إلى ممكنه ومحاله، وانظر إلى حركته ومكوثه مشهوراً
وسنين !

إنهم أياما في مأتم الواحد منهم بعد الآخر
وفي الوفاء بالوعد أقل من دقائق الساعة !
أرض بور تعج بحمي العقارب، نملها يلدغ التيسن ويصطاد
العقارب !

صرصرها نار من جهنم، ولزورق إبليس (فيها) ريح المراد ! نار
تدور في الهواء، تنثني شعلة في شعلة !
نار من دخان مثتن كلها مرارة ! نار شديدة الرغبة، تهيج البحار !
على شفيرها الحيات في عراقك، حيات ذات أصلال نائرة للسلم !
شعلتها عضوض مثل كلب عقور، مهولة، حارقة للأحياء (لكن)
نورها منطقي !

وإن تكون لمئات من الزمان في مثل صحارى البلاء هذه لأطيب
من أن تكون (عبداً) محكوما لحظة واحدة !

في بيان الفنون الجميلة للغلمان الموسيقي

هناك مهالك في فنون العبودية، فماذا أقول عن دمة العبودية ؟
إن نغماتها خالية من حرارة الحياة، لكنها تأتي على جدار الحياة
كالسيل.

إن قلب الغلام أسود سواد عارضه، ونغماته رديئة رداءة طبعه !
فقد ذهب الحرارة عن قلبه المنجمد، وذهب عنه ثوق الغد والذمة
اليوم.

وكشف نايه من أسرارهِ وموت أهل البلد في معزاقهِ.
فهو يجعلك عاجزاً مولوداً، ويجعلك نافرأ من الدنيا.

إن عينيه تكتحلان بالدموع المتوالية، فلتنا ما أمكنك عن دنيا
الحانه.

رسالة العبودية

ترجمة نصية كاملة

(بندگی نامه - منظومة إقبال)

رسالة العبودية

يا جى القمر المضيء للعالم ربه قائلاً: إن نوري يحيل الليل نهاراً !
وتكرى الأيام التي كنت فيها نائماً في ضمير الزمان، بغير ليل
ونهار !

ولم يكن ثمة كوكب في سوالي، ولم يكن الدوران من طبعي !
وما ارتكت الصحراء مرأة من نوري ولا اكتسى النر، وما وقع
في البحر هياج لجمالي !

(لكن) أه من سحر الوجود وفتنه هذه ! وويلي من هذا الإشراق
والتنوق !

لقد تعلمت الإشراق من الشمس وألزت (دنيا) مترتبة مينة. متربة
ذات ضياء (لكنها) بغير فراغ، جبينها من العبودية قد تشوه !

إن أتمها قد اصطبغ كالسمك، إذ هو أنمي جاحد لله، غائب للأسمى !
لنمذ جعلتني أسير الماء والطين، أخلتني من الطواف حوله !

إن هذا العالم غير مطلع على نور الروح وليس جنيراً بالشمس
ولا بالقمر !

لقد ع في الفضاء النبلي اللون، واقطع وشائجنا نحن التوريين عنه !
أو اعفني من ختمته، أو أوجد من تراه لم آخر !

لأفضل لعيني المتفتحتين أن تكونا معتمتين عمياوين، والأفضل
يا إلهي، أن تكون هذه المتربة بغير نور !

إن القلب يموت في الجسد بالعبودية، وتستحيل الروح عبداً على
الجسد بالعبودية.

وبالعبودية يحل ضعف الشيوخوخة في الشباب، وبالعبودية تصفط
الأنياب من أسد الغاب.

وبالعبودية يتفرق محفل الأمة فرداً فرداً ويكون هذا وذلك في
صراع مع هذا وذلك.

(ولكان) ذاك في سجود، وهذا في قيام، وتسمى أعمالهم وأعيالهم
مثل صلاة بلا أمام.

فإن كان بك عطش، فليس في هذا الحرم زمزم، وإنما هلاك الأدمي في خفض صوته ورفعته.

فهو يزيل لهيب القلب عنه، ويعشيه غما، ويقدم السم في أقذاح جسم.

يا غم، يا أخي، قاصع إلينا واجعل شعلتنا سراجا لعقلك !

غم يلتهم الأدمي، وغم يأكل كل غم !

ذلك الغم الثاني الذي هو رفيقنا، أضحت روحنا بصحبته بغير غم.

فيه صراع الغرب والشرق بحر، جملة الموجدات فيه غرقى !
عندما يحل بقلب يصبح القلب منه بحرا بلا شاطئ !

ما العبودية فهي تغافل عن أسرار الروح، تؤدي أنشودتها بذلك غم الآخر إلى الضلال.

على أني لا أني لا أقول أن نعماته خاطئة،

كن مثل هذا العويل لا يليق إلا بالأراذل !

لك إن النعم ينبغي أن يكون سريعا كالسيل، ليزيل الغيوم عن قلب فرقة بعد فرقة.

ينبغي أن يخلق النعم الجنون، ويحل النار في دماء القلب. ومن داه يمكن أذكاء الشعلة، ويمكن أن يكون الصمت جزءا منه.

هل تعرف في الغناء ذلك المقام، الذي يجري فيه الكلام بغير حرف ؟!

إن النعمة الواضحة سراج للفطرة، يكون معناها نقاش الصورة.

وأنا وإن كنت لا أعرف من أين ينبع المعنى، إلا أن صورته واضحة لنا معروفة لدينا.

إن النعمة إن لم يكن لها معنى، تكون ميتة ولهيبها يكون من نار باردة !

إن أسرار المعنى قد حلها المرشد الرومي، ولذا يسجد فكري على أعتابه.

((فالمعنى ذلك الذي يجذبك، ويجعلك في غنى عن النقش، وليس للمعنى ذلك الذي يجل المرء أعصى أصم، وأكثر عشقا للنفوس)).

لكن مطربنا لم يدرك جلاء المعنى

فعلق قلبه بالصورة، وفر من المعنى !

لقد رأيت فنا من التصوير، ليس إبراهيميا ولا أزريا: ((راهيب في حلقة شباك الهوى. متيم مع طائر في القفص. ملك أمام فقير مرتديا الخرقة. رجل من الجبال يحمل حطبيا.

عاشق في الطريق إلى بيت الصتم. جوكي (راهب) في خلوة الخراب.

شيخ يحترق بالآلام الشيخوخة فيتحول الطين في يده سراجا مطرب ثمل بنعمة غريبة. بلبل صدح فتقطعت أوتاره.

شباب غض يصاب بنظرة واحدة. طفل على كتف الأب الشيخ)).

وتقطر من الأفلام مضمون الموت، وفي كل مكان أسطورة الموت ودممته !

إن العلم الحاضر في سجد لدى الأقل، فإنه يزيد الشك ويزيل اليقين من القلب.

وليس من لذة التحقيق بغير يقين، ولا قوة للتخليق (طاقة للخلق بغير يقين، ولا قوة للتخليق (طاقة للخلق) بغير يقين.

وتكرب الرعشات في القلوب بغير يقين، ويشكل عليها تقبل النقش الجديد.

فيكون بعيدا عن الذات ومتألما وحسب، ويكون مرشده هو ذوق الجمهور وحده.

إنه يستجدي الحسن من الفطرة، وهو قاطع طريق، لكنه يتظاهر بأنه خاوي اليدين.

إن البحث عن الحسن في خارج ذاتك خطأ فإن ذلك الذي ينبغي أن يكون، أليس هو أمامنا ؟!

إن النقاش عندما يودع ذاته لدى الفطرة، يسقط نقشه ويمحو صورته.

فلم يبرز لون من لونه زمانه، ولم يضرب محكمه على زجاجنا مرة.

وبقيت الفطرة في الطيلسان ذات الألوان السبعة.. بقيت على قرطاسه عرجاء زمنة !

والفراشة (التي يرسمها) غير خافقة بسبب قلة اشتعاله، والصورة التي يرسمها اليوم لا تعكس صورة الغد.

وليس لنظراته نفوذ في الأفلاك لأن قلبه في صدره غير مبال.

فهو مترب، بلا حضور. خجل، ليس له نصيب من ضحية الروح الأمين.

وفكره معتم ! ولا ذوق يحركه. وليس لصيحة اسرافيله قيامة.

بين العشق والمذهب في العبودية فراق، وشهد الحياة فيها شيء
المذاق !

والعشق؟ ختم التوحيد على القلب، وموجهة كل مشكل بفأهلك.

وليس العشق في العبودية سوى كلام، فلا يصاحب عملنا قولنا.

إن قافلة الشوق بغير ذوق الرحيل

وبغير يقين وبغير سبيل وبغير دليل !

إن الغلام يفرط رخيصا في الدين والعمل ويسلم الروح ليبقى على
الدين حيا !

وهو وإن كان اسم الإله على شفثيه، إلا أن قبلته هي طاقة صاحب
الأمر.

إنها طاقة مشرقة اسمها الكذب، فلا تكد بطونها إلا الأكاذيب.

وهذا الصنم إذا سجدت له يكون إليها، فإذا اتجهت في القيام
للواحد، يكون له الفناء.

وذلك الإله (الحق) يمنح العيش والروح، وهذا المولى (السيد)
يسلب الروح ويعطى الرغيف.

وذلك الإله واحد، وهذا مئات من الشطايا. وذلك عون للجميع،
وهذا بلا حول ولا قوة !

وذلك الإله علاج لآلام الفراق، وهذا المولى في كلامه نفاق.

إن العبد إذا ركن إلى ذاته تكفر باصبرته وسمعه وعقله.

وإذا يركب أرواح عبيده، تكون الأرواح في الأجساد، لكنها عن
الأجساد غائبة.

إنه حي بلا روح، فاي سر هذا ؟ لنتمعن ! فأنى أسوق إليك معنى
جميلا، فانظر !

إن الموت والحياة يا متفكي الدقائق، ليسا إلا من الاعتبار
وحسب

فالأسماك بالبحال والصحراء بغير وجود، والطيور في قاع البحار
بغير وجود.

وشجن المنفى للأصم منعذم، ولذة الصوت والصدى له منعذمة !

والأعمى يكون ثملا مسرورا أمام الصناجة، لكنه في عداد الموتى
لما الأكران !

وإن الروح حية قائمة بالحق، وإلا فهذه ميتة وذلك حي ! إن ذلك
الحق الذي لا يموت هو الحق، والحياة مع الحق حياة مطلقة.

وكل من يعيش بغير الحق ليس إلا ميتا، وإن لم ينح في ملتص
نانج.

فكل ما يراه بناظرية في حجاب، وقلبه خال من الذوق والشوق
والهياج.

ولو أن الأعمى قد عد نفسه في عداد الطين لا نطفأ نور الإله في
نميره.

عندما خرج الكلیم (موسى) عن ذاته، أصبحت يده مظلمة وعصاه
سنا.

ليس ثمة حياة بغير قوة الإعجاز، وليس كل فرد عارفا لهذه
الأسرار !

ما ذلك الفنان الذي يزيد على القطرة فيكشف لسرائره أمام
ناظرينا؟

وهو وإن لم يكن بحره في احتياج، (إلا أن) نهرا هو الذي يصل
إليه بالخراج.

وهو الذي يجذب من بساط الزمان ثيابه، وهو الذي ينال منه كل
حبیب العيار.

فحوره أجمل من حور الجنة؛ ومنكراته ومنااته كافر !

وهو الذي يخلق الكائنات الأخرى ويبعث القلب حياة أخرى. وهو
الذي يتلاطم بحره وموجه ويطرح موجه أمامنا الدز. ومن سعة
روحه يملأ شأنه كل فراغ. إن فطرته الطاهرة عيار للجميل
والقيح، وصنعتة مشاطة لكل حسن وقبيح.

إنه عين إبراهيم وعين أزر، فیده تهدم الأصنام وتشتتها. وهو
يزيل كل بناء قديم، ويصقل جملة الموجودات. وفي العبودية

يصبح الجسد خلوا من الروح. وأي أمل أفضل ترجوه من جسد
بلا روح ؟!

إن ذوق الإيجاد والتجلي يذهب من القلب، فيغفل الأعمى بذلك
عن نفسه.

ولو أنه جعلت جبريل غلاما، لذهب عن القبة البلورية اللون !

ويصبح مذهب تقليدا وعمله أزر، وتكون الندرة في مذهبه كبرا !
ويزداد الوهم والشك في كل جديد عليه، فيقبل على كل قديم
ودارس !

قد ذهبت عينه وصار أعمى عن المستقبل، عندما تجاوز رزقه
وكراب المذاق !

فإذا كان هذا هو الفن ! فإنما هو موت الأمل: باطنه كربه وظاهره
جميل.

إن الطائر العاقل لا يق أسيرا،

ولو وضعت له شباك من الحرير !

فأنتي لأعماله لوحة المشتاق ١٩ وأنتي لأقواله نسور الأساق ١٩ إن
مذهبه ضيق مثل أفاقه، وإشراقه أظلم من عشانه. إن الحياة حمل
ثقل على عاتقه، وموته ربيب أحضانه.

والعشق من سحيته الأم، ومن نفسه تخمد نيرانه (نيران العشق).

وإن من تلك الديدان التي لم ترتفع من الطين أبدا

الشمس والقمر والفلك الدوار ١٩

فلا تطلبن ثوب اللقاء من غلام، ولا تطلبن منه يقظة.

فإن عينه لم تعان مخدة الرؤية، وما كان له في الدنيا إلا الأكل
والنوم الثقيل والموت.

إن حاكمه يحل قيده لو أنه وضع على روحه قدا آخر.

فهو يجعل له مذهباً كله عقد في عقد، ويأمره بأن يلبس بزعا من
هذا المذهب.

بذلك يجعله محكوما للقهر والحقد، ويزيد فيه الخوف من الموت
المفاجئ.

حتى يصبح الغلام بانسا من نفسه، ويختفي الأمل من صدره.

عندئذ يخلع عليه خلعة جميلة حيناً ويضع في يده أيضاً زمام
لأمور حيناً آخر.

إن اللاعب الماهر لا يدع قطعة تقفز خارج يده، إلا بأن يجعل
يدقه يترقى إلى وزير.

قد أذهبت نعمة اليوم عقله، حتى جعلته ينكر المعنى في الغد.

إن جسده ضخم من منح الملوك، لكن روحه الطاهرة نحيلة
كالمغزل.

فإن تتألم روح طاهرة وتأسى، لأفضل من هلاك قريبة الأحرار
كلها.

ليس القيد على القدم وإنما هو على الروح

وإنه لمشكل في مشكل في مشكل !

في فن بناء الأحرار

اختر صاحبة الذاهبين زماناً، وأبصر صنعة الرجال الأحرار
أيضاً.

وانظر إلى أعمال أليك وسوري، وافتح عينيك إن كانت لك جرأة.

فقد أخرجاً ذاتيهما، وبهذا تفرجاً على نفسيهما.

فقد وضعاً الأحجار على الأحجار، وربطاً الزمان بمتعلقاتهما
المتفرقة.

إن نظرك إلى ذلك يجعلك أكثر حنكة، ويطرحك إلى عالم آخر.

إنه يأتي بالنقش إلى النقاش، ويعطيك خبراً من ضمير.

إن همة الرجال والطبايع العالية، (تجدها) في القلب الحجري لأبيك
اللعيلين الغاليين.

ولا تسألني مسجد من كان هذا، فلا خير عندي ! ولا تسأل الجسد
عن أمر الروح !

أه من احتجابي عن ذاتي، وعن عدم ارتشافي من فرات الحياة.

وأه لقد قلعتني من جذوري وأصولي، وأبعثتني عن مقامي !

إن المحكمات من اليقين المحكم، ويا ويلتي من غصن يقيني وقـ
خلا من الندى.

ليس بي قوة ((إلا الله))

وسجنتي ليست جنيرة بهذه الساحة !

انظر إلى ذلك الجوهر الرقراق، وانظر إلى ذلك التاج الذي تحت
القمر.

إن مرمره أكثر رواء من الماء الجاري، ولحظة هناك أنوم مر
الأبد !

إن عشق الرجال يفضح سرهم، وتقب الحجر إنسا يكون باين
الجفون (الرموش).

إن عشق الرجال طهر وبهاء كالجنة، ويقطر النعم في الحجر
والآجر.

إن عشق الرجال نقد نوعيان للحسان، ويكون للحسن مدمراً لو
حامياً !

لقد تجاوزت همة ذلك الجانب من الكون، وتجاوزت عالم كيف
ولماذا.

وحيث إن ما راه لا يجوز الخوض فيه.

فإنه رفع النقاب عن ضميره !

إن الجنيات ترتفع بالمحبة، وينال قدرها منها من لا قيمة له
فالحياة بغير محبة مآثم كلها، وأعمالها وأعباؤها كلها قبيحة غير
محكمة.

والعشق يصقل المعرفة، ويمنح الحجر خاصية المرأة.

ويهب العشاق صدر سيناء ويمنح أهل العقل اليد البيضاء.

ولديه كل ممكن وموجود حائر، وجميلة العالم مر وهو مسكر
النبات.

إن حرارة أفكارنا من نار، وخلق الأرواح النفخ فيها شانه.

ويكفي العشق أن يكون له الفعل والظير والأنمي، ويكفي للعشق
أن تكون له وحده الداران.

إن سلك اللب بغير قهر سحر، وسلب اللب مع القدرة هو النبوة.

وقد جمع العشق كليهما في الأعمال ومزج بينهما، وأثار العشق
عالمنا في العالم !

الدِّيَّوَانُ الْخَامِسُ

جِنَاحِ جَبْرِيلَ بِالْجَبْرِيلِ

نَقَلَهُ مِنَ الْأَرْدَوِيَّةِ إِلَى الْفَرَنْسِيَّةِ نَثْرًا
السَّيِّدُ مِيزْزَا سَعِيدٌ خَطْفَرُ شَاغَتِي
وَالسَّيِّدَةُ سَوْرَانُ بوساك

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ نَثْرًا
الْأَسْتَاذُ عَبْدُ الْمُعِيزِ الْمُلُوحِي
ثُمَّ صَاغَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الْأَسْتَاذُ زُهَيْرُ ظَاظَا

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورة تمثيلية رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطع كثيرة متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المعين الملّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوْتُ بِصَرْخَةٍ رَغْبَتِي أَرْكَانَ حَضْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ
فَاسْتَرْحَمْتُهُ الْعَاكِفُونَ لِفَرْطِ جَرَأَتِهَا الْمَخِيفَةِ
هِيَ ذِي مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَحُورُهَا أُسْرَى خِيَالِي
بِصَرِي يَكْذُرُ مَا يَفْنِيضُ بِهِ التَّجَلُّي مَنْ جَمَالِ
إِنْ كَانَتْ أَقْصَرَتْ عَلَى نَقْشِ الْمَسَاجِدِ هَمَّتِي
لِي سَاعَةً تَجْتَاحُ فِيهَا الْكَوْنُ حِدَّةً نَظَرْتِي
مَاذَا فَعَلْتَ ، أَبَحْتَ سِرِّي هَاهُنَا ، لَكِنْ لِمَاذَا ؟ !
وَأَنَا هُوَ السِّرُّ الْوَحِيدُ لَهُمْ بِصَدْرِ الْكَوْنِ هَذَا
أَنَا مَا سَكَرْتُ بِمَا سُقَيْتُ فَهَلْ بِكَاسِكَ مِنْ ثَمَالَةٍ
مَا مَدَحْتَ لِلْبَحْرِ أَنْ يَهَبَ النُّدَى ظَمِئاً حِيَالَهُ

(٢)

لِمَ أَهْتَمُّ بِأَخْطَاءِ النُّجُومِ ؟	وَأَذِيبُ الْقَلْبَ فِي هَذَا الْعَنَا
إِنْ أَصَابَتْ شَأُوهَا أَوْ أَخْطَأَتْ	فَهُوَ شَيْءٌ لَيْسَ يَعْنِينِي أَنَا
ثُمَّ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَرْتِي لَهَا	وَأَنَا أَطْلُبُ مَنْ يَرْتِي لِحَالِي
لَسْتُ فِي كَوْنِكَ إِلَّا حَفْنَةً	فَلِمَاذَا يُشْغِلُ الْعَالَمُ بَالِي
هُوَ لِي أَمْ لَكَ أَنْتَ	عَالَمِي أَمْ عَالَمُكَ ؟
كُلُّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ	لَيْسَ لِي مِنْهُ نَصِيبُ
جَاهِدَ الْعَقْلُ جَهَادَةً	هُوَ أَمْ أَنْتَ الْمَصِيبُ
أَنَا مَا قَصَّرَ فِي بَحْرِيكَ هَذِينَ مَضَائِي	
رُغِمَ أَنْ يَلِي لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَا خَلْفَ الْقَضَاءِ	
كَيْفَ إِبْلِيسُ الرَّجِيمِ	قَالَ : لَا ، لِلْكَوْنِ هَذَا

ولمـاذا (أنا حتـى الآن لا أدري لمـاذا) !!
 ليت شعري أنت حقاً أم أنا مـوضع سرّ
 أنا بالنسبة لي طـوّختُ في خيرِي وشـرّه
 يا أبا القاسم يا جبريلُ يا قرآنُ إنّي^(١)
 حلفُ سيرٍ فإليكم أثـها السّادة عني
 أثـنا يشـرُحُ ما في القول هذا من حلاوة
 أنا أم أنت الذي يـمْنَحُـه هـذي الطّـلاوة
 عطرُك اللهم في الإنسان ما زال ولوئـك
 وبإشـراقـة هـذا النّـجم قد أشـرق كـوئـك
 أنا مـن آدم فرغ وهو من صنـع يـدَيـك
 هل أساءت هـذه الرّحـلة في شـيء إـليـك

قد تألّفت فرزده ألقأ هذا العـذار
 وأدم لي حكمتـي في أسـره ليل نهـاز
 خذ إلي أسـرك قلبي فلقد طاب التـهالـك
 أنا لا أرغب أن يُكشـف حـبي وجمـالـك
 أنت كاللّـجة لا ساحل لك وأنا الجدول لا لـجّة لي^(٢)
 قل لها تأخذني في حضنها وأغثنـي مرّة مـن ساحلي

- (١) يريد الشاعر أن يقول : إنّ القلب السليم هو الذي لا يحول بينه وبين الله رسول ولا ملك ، إنّه حتّى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .
- (٢) المقصود ﴿ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أبأ كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
 أما أنت فكـالـلّـجّة ، حتّى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآة تعكس زرقتها .

إِنَّ أَكُنْ قَوْعَةً فَارْغَةً
 أَنْتَ مَنْ يَجْعَلُ مِنْ هَذَا الْحَصَى
 رَبِّ مَا قَدَّرْتَ لِي رَجْعَ الرِّيحِ
 فَعَسَى تَرْوِي بِهِ قُبْرَةً
 مَعَ مَا أَرْهَقَنِي عِبَاءَ الْحَيَاةِ
 سَتَرِي كَمْ تَوْبَةٍ فِي صَفْحَتِي
 أَنَا قَدْ يَخْمَرُ وَجْهِي خَجَلًا
 فَرَجَائِي عِنْدَمَا تَقْرُؤَهَا
 أَعْرِفُ الْحَبِّ الَّذِي خَبَّأَتْهُ
 أَنْتَ لَوْ تَجْعَلُهُ قَطْبًا لَهَا
 أَرْحِمِ الْكَأْلَ الضَّعِيفَ
 بَدَلًا مِنْ ذَا الرِّغْغِفِ

(٤)

سِوَاءِ أَهْرَئِكَ أَمْ لَمْ تَهْزَكْ
 أَنَا وَقَحْ لَسْتُ أَسْأَلُ عَدْلًا
 سَمَاءً وَأَرْضٌ وَرِيحٌ غَضَابٌ
 فَهَلْ لَكَ فِي الْخَلْقِ مِنْ فَرْحَةٍ
 أَنَا الْعَطْرُ خِيْمَتُهُ وَرَدَّةٌ
 وَبِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ أَسْبَابِهَا
 وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي فِي السَّمَاءِ
 رَضِيتُ بِبُؤْسِي الَّذِي اخْتَرْتَهُ
 خِلَا الرُّوْضِ مَا فِيهِ مِنْ أَجْمَةٍ
 إِذَا كَانَ صَيَادُنَا مَاهِرًا
 إِلَى عَالِمِ الْحُبِّ لَا تَسْتَطِيعُ وَصُولًا مَلَائِكَةً فِي السَّمَاءِ

شَكَاوِي أَطْلُبُ تُضْغِي إِلَيَّ
 فَيَا طَالَمَا الْعَدْلُ يَبْغِي عَلَيَّ
 وَكُلُّ عَلَى قَبْضَةٍ مِنْ تَرَابٍ
 وَهَلْ هَذِهِ رَحْمَةٌ أَمْ عَذَابٌ
 تَقَاوُمُ رِيحًا بِسِتَانِكَ
 إِلَى الْآنَ تَزْهَوُ بِأَلْوَانِكَ
 وَضِيْعٌ وَأَكْثَرُ مِنْ مَزْدَرِي
 وَأَنْشَأْتُ مَمْلَكَةً فِي الْعَرَا
 فَتَاهَتْ عَلَيْهِ الْمَهَا وَالظُّبَاءُ
 فَلَيْسَ يَصِيدُ بِهَذَا الْعَرَاءِ
 إِلَى عَالِمِ الْحُبِّ لَا تَسْتَطِيعُ وَصُولًا مَلَائِكَةً فِي السَّمَاءِ

ورايته ليس تُعطى سوى
ومن أين تعرف معنى الوصال
سألتك تملأ روح الشباب
وتؤتي الشواهي عون الجناح
وأمنية العُمر هذي الجراح

(٥)

لمن لا يهابون سفك الدماء
إذا لم تنل من ضرام الهجر
بأنات إقبال هذا الفجر
لتنزل منزلها في القمم
تقسمها بين كل الأمم

نمط العيش هاهنا
أدرك الحبيب أحمـد
ففي لهيب انتظاره
ضاع عمري بلحظة
تربت من شرارة
هبت له خلـد روحه
وانظر الأرض عندما

أفقد الحبيب بهجته
نفحة الموت جذوته
بذد العمر حـزقته
أخذت منه زهرته
قاومت منه شغلته
وأدم فيه سخطه
يهب الأرض نظرتـه

(٦)

أنا أرجو ألا يقوم رمادي
ورجائي ألا يكون عذابي
ثم أرجو ألا أخور وأبكي
وعسى هذه المحافل ألا
ربما يذكر المسافر يوماً
فرجائي ألا يصير حيناً
جعل الحب من فؤادي بحراً
أنا أرجو ألا أفاجأ يوماً
ورجائي ألا أكون ببـحـثي

أبدأ هاهنا بتقويم قلبي
مثل يومي غداً أمامك ربي
وترى الحور لوعتي ونحيبي
ياخذوا أي فكرة عن لهيبي
كل وخـز رآه عبـر الطريق
ذلك الوخـز في فؤادي الرقيق
لم أجد ساحلاً له في حياتي
وأرى ساحلي شعوري بذاتي
وهو بحثٌ بغير لونٍ ومنهج

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلّت له هذه الحقيقة : إنّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في الشحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥ م : « ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العش على غصن رطبٍ ضعيف مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذّر الناس عامة والأمم الإسلامية خاصة من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .



وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كلیم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية^(١) ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كلیم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجه عام ، وهي : أنّ شعر إقبال حافل بكلمات معينة ، عربية وفارسية ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذ لا يتأتّى لأحد أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملقاً بحدود تلك المصطلحات الخاصة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ثورة في كل شيء في الحياة
أيها السَّاقِي خذ الكأس وهات
لم نَعُدْ نَنْفَعُ شيئاً لِلْعِبَادِ
جَعَلْتَهُ هَائِماً فِي كُلِّ وادٍ
نحن أبناءُ أطباءِ القلوب
قبلُ أخِينَا به روحُ الشُّعوبِ
يُوقِدُ الجذوةَ في صَدْرِ الحَرَمِ
أن تَرى زمزمَ قُرْبَ الملتزمِ
رغمَ أَنَّ النَّهْرَ والبِستانَ في تَبْرِيزَ بستانٍ ونَهْرَ
لم يَزَالَا لَمْ تَقُمْ جَوْقَةً رومِي من ذَهْرَ
قل لها إن شئتَ هذا النهرَ والبستانَ قَومِي
لو تَرى إِذْ رَقَصْتَ تَبْرِيزَ في حضرةِ رومِي
أيها السَّاقِي إِذَا المَاءُ هَطَلَ
وابلاً يا أَيُّهَا السَّاقِي فَطَلَ
لذوي الكدية أسرارَ الملوكِ
لم أَكُنْ أَرْغَبُ عن هذا السلوكِ
ليس من طغول أو سنجار في بيتي هبه
رغمَ هذا ما لجمشيدِ على قلبي قيودُ

من الكاساتِ هاتيكِ
مكاني من معانيكِ
الحنانِ في الهندِ

أيها السَّاقِي لقد قامَ الغفاة
ذرةٌ لم تَحُلْ من عاصفةٍ
نُهَيْتُ خيراتنا أجمعها
أي عَيْنٍ قد أصابت ركبنا
فتنةٌ في القلبِ قد أودت بنا
أين في ودياننا الماءُ الذي
لَمْ لَا يَنْطَلِقُ التَّوْقُ الذي
حُجِبَتْ غَطَّتْ عِوْنَ المؤمنين
رغمَ أَنَّ النَّهْرَ والبِستانَ في تَبْرِيزَ بستانٍ ونَهْرَ
لم يَزَالَا لَمْ تَقُمْ جَوْقَةً رومِي من ذَهْرَ
قل لها إن شئتَ هذا النهرَ والبستانَ قَومِي
لو تَرى إِذْ رَقَصْتَ تَبْرِيزَ في حضرةِ رومِي
أيها السَّاقِي إِذَا المَاءُ هَطَلَ
وابلاً يا أَيُّهَا السَّاقِي فَطَلَ
لذوي الكدية أسرارَ الملوكِ
لم أَكُنْ أَرْغَبُ عن هذا السلوكِ
ليس من طغول أو سنجار في بيتي هبه
رغمَ هذا ما لجمشيدِ على قلبي قيودُ

ألا يا أَيُّهَا السَّاقِي
لعلني أن أرى يَوماً
لماذا أَغْلَقْتُ أَبوابها

مضت هدراً ثلاث قرونٍ بَعْدَ سقوطِ سرهندي^(١)
مضت هدراً ثلاث قرون في حانِ هَدمِها
ولم تتحَمَّلِ التُّدمان بَعْدَكَ أيُّها السَّاقِي
ذوت غزليتي لا شيء والأشياء حُرْمه
علينا بائع اللاهوت بَعْدَكَ أيُّها السَّاقِي
قلوبُ أسودنا في الغاب قد هَجَرَتْ تحقُّقَها
مع الضُّوْفِي والمَلَأَ عِيْدُ أيُّها السَّاقِي
مِنْ انتِزَعِ الحقيقةَ مِنْ مَهْنَدِ حَيَاتِنا هذا
وما أبقَى لها إلا قراباً أيُّها السَّاقِي
كلامُ القلبِ حينَ يكونُ حَيّاً خمرُنا الباقي
ولا كان للأرواح موتاً أيُّها السَّاقِي
أنا ليلٌ بلا قمرٍ وما لي هاهنا قَدْرُ
ألا يا أيُّها السَّاقِي بكأسك ذلك البدرُ
بكأسك سرُّ ذِيكَ الشُّكُونِ وهذه الحركة
فأينَ الماءُ ، ماذا كان رَدُّ الخضرِ للسُّمَكَةِ

(٩)

ساقِي ما حصل الذي أبغيه الذات عالمها متى تلغيه
القلبُ منشغلٌ بما عاطيته عمَّن يغنيه ومن يُسْقِيه
ذهبت بجوقة كؤوسك كلها لم تبقِ إلا الصَّمْتُ في واديه

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الزباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السهرندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

ما مثله متسوّلٌ في حانةٍ باللامبالاة التي ترويه^(١)
لو جاء ماءُ الخضرِ كسر كاسه ورثي لذي كلفٍ به يأتيه

ساقِي والكأس الصغيرة لم تعد تكفي هلمَّ له بما يكفيه
فرغتِ دنانُ القومِ في أديارهم وأتيتُ أسالك الذي تخفيه
بصري على طمحٍ وقلبي جامحٌ فاسترِ إذا أحبتَ ما أنويه
غادرتُ لؤلؤتي التي أغرقتها في البحر تنعمُ من ضيائك فيه

نظراتُ هذا الشعر تسحرُ لبنا والحسنُ لا يحتاجُ للتويّه
تضفي على لونِ الشقائق رونقاً وتزيدها ألقاً بما تضفيه

مرة تبصرُ المحبَّ شريداً مرة تبصرُ الملوكَ لديه
مرة يقحمُ النزال عرياً مرة يحشدُ الدروع عليه

(١٠)

أحرقْتُ رغبتِي بلاهةً سُوقِ فأتتني ملوكُه تشتريها
لستُ أبتاعُ سكرةَ الملكِ غُبناً بعبوديتي التي أنا فيها
لا يليقُ الوجودُ هذا بحرٌ سرُّه يشتكي وجودك ذاكاً
لم يجدْ هاهنا من الموتِ بدءاً أو مفراً من الحياة هناك
لذّةُ العشق من فراقٍ وهجرٍ فأتق الله أن تقولَ لماذا
ما ترددتُ أو تشردتُ يوماً أو تسكمتُ في طريقِ كهذا
لا يملُ الشاهين ما يرتجيه بين غابٍ يرودها وجبالٍ

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص ٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويرى في اتخاذه العُشَّ عاراً
من تُرى يَسُرُّ الذَّيِّحَ لَبِراً
كثرة الدَّرْسِ أم نباهة نفسٍ
سلوة الشرق حين يجرح شعري
جئتُ (آلوند) ^(١) مرة بعد أخرى
ليس يحتاجُ زخرفَ القول معنى
ما استعارت يدَ الحديقة لونا

مرة وحده يغني الجبالا
يملأ القلب غبطة ووصالا
طالما أضلح المنابر بالآ
أخذ العلم كله والقتالا

هو ذا الحبُّ مرة إلفَ وإد
مرة بالغياب يشقى وأخرى
طالما ألهبَ المحارِبَ وجداً
مثلُه مثلُ الإمام عليّ

(١١)

وتاريخ لحظته الحاسمة
وأسياف نظرتَه القاسمة
ولم يبقَ منه سوى وسوسة
إلهٌ سوى صنمِ المدرسة
ولأن ما عرفوا رسمه
هَمُّ وثَنُيون لا يعرفونَ منَ فنِّ آزرَ إلا اسمَه
رشاقة فطرتَه البادئة

ألا يتذكَّرُ يومَ اللقاء
وما قدَّسَ الحبُّ من بقعة
ذوى الحبِّ في أنفُسِ العاشقين
وصرنا إلى زمنٍ ماله
يقولون أستاذنا آزرُ
هُمُّ وثَنُيون لا يعرفونَ منَ فنِّ آزرَ إلا اسمَه
نعم هم إلى الآن لم يعرفوا

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب
ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أن إقبال
نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر
جبل آلوند وميمند .

تَطْوَحُ مَعْبُدُهُمْ فِي الرِّيحِ
تَعَجَّبْتَ مِنْ عَالَمٍ هَكَذَا
هَبِ الْكَرْمَ رَوْنَقَهُ يَا كَرِيمَ
وَحَانَاتُ إِيْرَانِ قَدْ أَجْدَبَتْ
يَظُنُّونَ شِعْرِي لِأَجْلِ الرَّبِّيعِ
دَمِي وَغِيَارِي هُمَا الْجَوْهَرَانِ
وَأَنْتَ سَفَكْتَ عَلَيْهَا دَمِي
بِفَضْلِكَ لَا أَشْتَكِي الْأَصْدِقَاءَ
وَنُوبُ الْحَيَاةِ الَّتِي خَضْتُهَا
فَهَبْنِي بِسُرِّكَ ذَوْقَ الْفَنَاءِ
فَلَا الْحَزْنَ ثَبَّتْ مِنْ عَزْمِهِمْ
نَعَمْ ، عَقْدَ الْفِكْرِ أَطْلَقْتُهَا
مَتَى الْحُبُّ تَمْنَحْنِي سِرَّهُ

(١٢)

يَهَبُ الشَّقِيقُ بِلَا حِسَابٍ خَمْرَهُ
عَجَباً مِنَ الصُّوْفِيِّ يَتْرَكَ زُهْدَهُ
الْحُبُّ يَجْعَلُ حَيْثُ مَدَّ سَاطِطُهُ
يَرِثُونَ شُرْفَةَ أَبْرُويزَ بِمَكْرِهِمْ
هَذَا النُّجُومُ عَتِيقَةٌ كَسَمَائِهَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْقِيَامَةُ أَزَلَقْتُ
مَوْلَايَ عَيْنَكَ لَوْ أَدْرَتَ لِحَاطَهَا
أَنَا غِبْطَتِي عِنْدَ الصَّبَاحِ تَنْهَيْدِي
لَمْ لَسْتُ مُهْتَمًّا بِهَذَا كُلِّهِ ؟
عَيْنَاكَ لَا مَعْتَانَ إِلَّا أَنَّهَا

وَلَمْ تَبْقَ زَاوِيَةٌ هَادِئَةٌ
فَلَا هُوَ عُشْرٌ وَلَا هُوَ قَفْصُنْ
فَلَمْ يَبْقَ فِي الدَّنِّ إِلَّا غَصَصُنْ
وَهَذِي الَّتِي فَجَّرْتَ عَيْنَنَا
وَمَا عَلِمُوا مَا الَّذِي بَيْنَنَا
اللَّذَانِ يَجِيشَانِ فِيمَا تَشِيدُ
وَخَلَدُ التَّالِقِ أَجْرُ الشَّهِيدِ
وَلَا أَشْتَكِي جَوْرَ هَذَا الزَّمَانِ
بِفَضْلِكَ أَخْلَعُهُ فِي أَمَانِ
كَمَا فَنِيَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُ
وَلَا الْخَوْفُ أَقْعَدَهُمْ فِي الدُّوَلِ
وَخَلَّصْتَنِي مِنْ شِيَاطِينِهِ
وَتَجْعَلْنِي مِنْ مَجَانِينِهِ

فَتَرَى الْكَؤُوسَ عَلَى مَدَى الْبُسْتَانِ
لَأَقْلُ بَارِقَةٍ بِهَذَا الْحَانِ
مِنْ طَعْمَةِ الْمَتَسَوِّلِينَ مَلُوكَا
فَتَظُنُّ كَانَ كَمَثَلِهِمْ صُغْلُوكَا
هَلْ مِنْ نَجُومٍ غَيْرِهَا وَسَمَاءِ
مَا حَظُّهَا مِنْ هَذِهِ الضُّوْضَاءِ
عَنِّي لِحَلِّ الْوَيْلِ بِي فِي لِحَظَّتِي
حَاشَاكَ تَحْرِمْنِي وَدَاعَةَ غِبْطَتِي
وَلَوْ اِهْتَمَمْتَ جَعَلْتَ مِنْهُ يَقِينَا
دَلَّتْ عَلَى عَدَمِ اكْتِرَائِكَ فِينَا

بالزهر لم يُذرك مدى أحزاني
غنى له العصفور في البستان
فكن ابنَ عصرك أيها المجنون^(١)
فمن المناسب حريتنا المكنون
الروح لا تفنى إذا فني الجسد
هي أنكرت هذا الشعاع إلى الأبد^(٢)

(١٣)

لم أستفد شيئاً بكل غنائي
هذا فضاؤك أنت أين فضائي ؟
والكون سخرُك أم تموج ذاتي
في ساحها أنفقت كل حياتي
نشبت على لغز من الألغاز
حيناً وحيناً باكتئاب الرّازي
وترعرعت بين الشور الكاسرة
لم تدره تلك العقاب الحائرة
لغة ، ولا تحتاج للألفاظ
فالسّر كل السّر في الألفاظ

أنا لا يلائمني ربيع طافح
ويظن من خيلائه عن فرحة
قالت لي الحمقى تبدّد شملنا
فاجبتهم إن كان غير مناسب
حقاً أبو الحسن المحقق قال لي :
أتظن تبقى الشمس مشرقة إذا

عدم اكتراثك لم يزل وشقائي
رباه أين أنا وأنت وإن يكن
ولك الوجود جميعه أم لي أنا
ما خضت إلا وقعة نشبت به
ما خضت طوال العمر إلا وقعة
بحرارة الرّومي كنت أخوضها
ما أفلحت تلك العقاب وقد نمت
فلصقنا الملكي سرّ واحد
للحُب أغنية وما لغنائها
هي إن تكن أو لم تكن عربية

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمن أن تظل الشمس مشرقة لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أن الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية . قلت : وقريب من هذا .

رباه ذاتك في سماء حياتنا شمس أشعتها ذوات الناس
وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لميئة ابن سينا :
يا نفس مثل الشمس أنت أشعة في عامر وأشعة في بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت شتى الأشعة والتقت في المرجع

ما بين دروشة ولا ملكية
كلتاها تغزو الوجود فهذه
البعض قد ترك الركاب لغيرها
لو أتقن الحادي مقاماً واحداً
الفكر حتى بالفضيلة لم يعد
والقلب حتى بالتجارب كافر
فإلى متى هذا النفور يقودنا
الله يعلم ما رأت نفسي التي

(١٤)

يتعدى أبداً ظل القمر
ليس في كوني سوى هذا السمر
عندما مزقت أطراف الرداء
بقعة زرقاء في هذي السماء
طوحت خلف تلايف الأثير
بعض من صاحبت في هذا المير
في حجاب السر لا تنتهيان
تجعل الأسرار في جبة كان
فضحته صرختي عند الصباح
لم تدع للحب سراً لا يُباح
صرخة التائه من غير دليل
دعوة تغرب عن قرب الرّحيل

أنا لا يبدو مجالي هاهنا
وأرى اللعبة من ماء وطين
أي عين هاهنا ما افتنت
تربت من أعين كانت ترى
كم لنا قافلة مرهقة
إن هذا المشتري والنّيرين
هذه الأرض وهاتيك السماء
قفزة واحدة من عاشق
أنت إن حاولت كتمان الهوى
صرخة الحب التي تملكني
رغم ما تطلقه من حيرة
هي عندي وكما أعرفها

صرت تهتم بأرضي وسماء
لهناء في صباح ومساء

إن تكن رباً فيعني عندنا
وجع في الرأس لا يتركه

أَسْتَمِيعُ الْعُذْرَ إِمَّا إِنْ تَكُنْ
فَهُوَ لَا يَعْنِي (تَمَاماً) عِنْدَنَا

(١٥)

رَغِمَ أَنِّي حَافِلٌ بِالْحَيَرِ
كُلُّ مَا أَعْرِفُهُ عَنْ قَدْرِي
أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي يَمْلِكُهُ ؟
عَنْ زَمَانِي لَمْ أَكُنْ أَهْتِكُهُ
كَيْفَ لَا تَمَلَأُ أَرْجَاءَ السَّمَاءِ
أَنَا أَمْ أَنْتَ الَّذِي صَاغَ الْغِنَاءُ ؟
مَا الَّذِي يَدْعُو إِلَى تَكَرَّارِهِ
وَمَتَى يَخْرُجُ مِنْ فَحْارِهِ
مِنْ جَمِيعِ الْعِلْمِ غَيْرَ التُّرَاهُتِ
صَارَ لِلْإِسْلَامِ عَاراً فِي الْحَيَاةِ

وَاضِحٌ قَوْلِي ، وَفِكْرِي نَيِّرُ
طَبِئَتِي هَذِي الَّتِي أَمْلِكُهَا
لَيْسَ عِنْدِي غَيْرَ شَيْءٍ وَاحِدٍ
أَنْتَ لَوْ مَكَّنْتَنِي مِنْ صَوْنِهِ
كَيْفَ لَا تُعْرِبُ عَنِّي صَرَخَتِي
أَنَا غَنَيْتُ كَمَا عَلِمْتَنِي
خَطِئاً إِنْ كَانَ فِي تَصْمِيمِنَا
ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَا قِيمَتُهُ
رَغِمَ أَنَّ الْغَرْبَ مَا عَلَّمَنِي
فَأَنَا يَوْسُفَنِي (الْمَلَأَ) الَّذِي

كَيْفَ لَا تَشْرِقُ فِي أَرْضِ الْبَشَرِ
قَالَتِ الْحَمْقَى أَسِيرٌ لِلْقَدَرِ
مِثْلُهَا تِلْكَ الَّتِي فِي مَعْبَدِكَ
فَتَرَفَّعَ عَنْ يَدٍ غَيْرِ يَدِكَ
مَا لَهُ عِلْمٌ بِمَا فِي قَلْبِكَ
وَتَرَاهُ تَحْفَظُهُ مِنْ رَبِّكَ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ^(١) يَا نَوْرَ السَّمَاءِ
أَنْتَ سُلْطَانُ اللَّيَالِي لَا كَمَا
إِنَّ أَصْنَامِي الَّتِي فِي مَعْبَدِي
لَمْ تَحْطَفْهَا يَدٌ غَيْرُ يَدِي
ذَلِكَ الْأَعْمَى الَّذِي تَقْصِدُهُ
هُوَ لَا يَبْصُرُ حَتَّى نَفْسَهُ

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى »

رَبَّاهُ هَذَا الشُّوقُ يَنْبِضُ رَوْعَةً
 بِالرَّغْمِ مِنْ هَذَا فَأَرْخَصُ سَلْعَةً
 مَلِكُ الْمَرَابُوتِ الْبِلَادَ جَمِيعَهَا
 وَالنَّاسُ يَعْتَقِدُونَ رَغْمَ شَقَائِهِمْ
 لَمْ تَمْنَحِ الْعُلَمَاءَ حَتَّى قِتَّةً
 وَالْإِنْكَلِيزَ وَهُمْ عِبَادٌ مِثْلُنَا
 مَلَيْتُ كُنَائِسُهُمْ بِكُلِّ مَلْدَّةٍ
 هَلْ فِي مَسَاجِدِنَا بِكُلِّ بِلَادِنَا
 قِرَائَتُكَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَإِنْ يَكُنْ
 لَوْ يَرْغَبُونَ بِرَأْيِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا
 فِرْدَوْسَكَ اللَّهُمَّ لَمْ يَرَهُ هُنَا
 الْإِنْكَلِيزُ بِلَادَهُمْ فِرْدَوْسُهُمْ
 مَا زَالَ فِكْرِي فِي سَمَائِكَ حَائِماً
 تَابَى عَلَيَّ مَلَائِكَةُ فِطْرَتِي
 لَكَ ذَلِكَ الدَّرْوِيشُ جَرَّحَ نَفْسَهُ
 لَا فِي سَمَرْقَنْدٍ وَلَا دِلْهِي وَلَا
 أَنَا لَسْتُ مُسْكِناً وَلَسْتُ مَرَاوِغاً
 غَضِبْتَ عَلَيَّ الْأَصْدِقَاءَ جَمِيعُهُمْ
 لَمْ أَسْتَطِعْ أَبَداً أَسْمِي سُمَّهُمْ

وَيَرْوِجُ حَتَّى فِي ابْتِيعِ الدَّاءِ
 عِنْدَ الشَّرَاءِ مَوَاهِبُ الْعُلَمَاءِ
 وَتَقَامَرُوا حَتَّى عَلَى الْأَدْيَانِ
 لِلْإِنْكَلِيزِ بِمُطْلَقِ السُّلْطَانِ
 وَجَعَلَتْهُمْ أَخْلَى الْعِبَادِ وَفَاضَا
 يُغْطُونَ أَبْنَاءَ الْحَمِيرِ رِيَاضَا
 فَهِنَا اللَّحُومُ وَهَاهُنَا الْكَاسَاتُ
 إِلَّا الْمَوَاعِظُ تِلْكَ وَالصَّلَوَاتُ^(١)
 قَاسَى كَلَامَ مَفْسُورِهِ وَعَانَى
 الْقُرْآنَ (بِازَنْدِ الْمَجُوسِ)^(٢) لَكَانَ
 أَحَدٌ وَأَنْتَ هُوَ السَّمِيعُ الْمُبْصِرُ
 وَالْمُسْلِمُونَ إِلَى سَمَائِكَ تَنْظُرُ
 فَاسْجَنُهُ فِي فَلَكَ مِنَ الْأَفْلَاكِ
 أَنْ أَسْتَمِرَّ بِهَذِهِ الْأَشْرَاكِ
 حَاشَا تَكُونَ لِقَلْبِهِ جَهَنَانِ
 فِي أَصْبَهَانٍ لَهُ مَقَامٌ ثَانِ
 وَالْحَقُّ : أَرْفَضُ غَيْرَ نَفْسِي شَاهِداً
 وَالْحَقُّ لَا يَبْقَى صَدِيقاً وَاحِداً
 حَلَوَى وَأَعْرِفُ أَنَّهُ قَتَّالُ

- (١) المقصود اللادنيوية التي مَنِي بها المسلمون واللاأدينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .
- (٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رافستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي الثرية) .

(دومند) عندي لا يسمي صخرة
لما قُذِفَتْ لِنَارِ نمرودِ أتى
وصمْتُ لَمَّا قال : هل لك حاجةُ
رَبِّاهُ ! إني أَنْعَبُني حيرتي
الحسنُ من حولي يشيع وصاله
سكرانُ مغتبطُ السَّجِيَّةِ منتشِر
يا ليت شعري كيفَ يُخرَمُ برعمُ
لم يستطع إقبالُ يكتُمُ جرحه
من سوف يُسَكِتُ ذلك الوقح الذي
وعليه من قُللِ الجبالِ جبالُ
جبريلُ يسألني فلمْ أتكلّم
أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شيلم
ما عاد يمكن أن أغضُّ عيوني
والحُبُّ في صدري يذيعُ فتوني
بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُ
من رغبةٍ في الابتسام تهيجُ
حتَّى أمام الله قام وقال
لم يبق للمتجملين جمالا

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضّل جلالة السلطان نادر شاه - الذي استشهد بعد ذلك - بدعوتي فاغتنمتُ
زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣ م
وقد نظمتُ هذه التأملات على نمط قصيدة مشهورة لهذا الفيلسوف^(١) ذكرى
لهذا اليوم السعيد :

« إِنَّا نسير على خُطى السنائي والعطار »^(٢) .

- (١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويُنَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى
تجسيد عقيدة عند أهل التصوّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .
- (٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لَمْ تَقْوِ صَحْرَاءَ الطَّبِيعَةِ هَذِهِ
لَوْلَا الْجَنُونَُ أَسَاءَ فِي تَقْدِيرِهَا
بِالذَّاتِ يُمْكِنُ أَنْ نَكْشُرَ سِحْرَ مَا
لَا أَنْتَ تَمْلِكُ فِي الْحَيَاةِ وَلَا أَنَا
صُورُ الْوُجُودِ تَمُوجُ نُضَبَ عَيُونِنَا
لَوْ يَسْتَطِيعُ الْبَحْرُ يَتْرَكَ مُوجَهُ
بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْفَقِيهِ خَصُومَةٌ
لَمَّا رُئِيَ الْحَلَّاجُ فَوْقَ صَلِيْبِهِ
مَا بَيْنَ مِنْبَرٍ ذَا وَبَيْنَ صَلِيبٍ ذَا



رَجُلُ الْبَصِيرَةِ لَا يَذُوقُ هَوَانَا
يَخْتَالُ وَالذَّرْعُ الْوَحِيدَةُ زَهْدُهُ
جَبْرِيلُ دَعَنِي فِي الْحَيَاةِ وَسَكَّرْتَنِي
أَنَا إِنْ تَبِعْتُ خُطَاكَ خَنْتُ خِلَافَتِي
سَفَكَ الدَّمَاءَ رِسَالَةً مَذْمُومَةً
أَهْلُ السَّمَاءِ صَلَاحُهُمْ فِي أَنَّهُمْ
كَمْ ذَا ذَهَبْتُ مُشْرِقًا وَمُغْرِبًا
فَهِنَا كُؤُوسٌ لَا مَذَاقَ لَخْمَرِهَا
طُورَانُ مِنْ إِيْرَانَ تَأْخُذُ ثَارَهَا
ذَهَبَ الدَّرَاوِيْشُ الَّذِينَ عَهْدَتَهُمْ
وَبَقِيَتْ فِي حَرَمِ يَتَاجِرِ شَيْخِهِ
لَمَّا اشْتَكَى لَهِ إِسْرَافِيلُ مِنْ
هَذَا الْفَتَى قَبْلَ الْأَوَانِ يَرِيدُ أَنْ
فَاجَابَهُ صَوْتُ : أَلَيْسَ أَشَدُّ مِنْ

لَمَّا جَنَنْتُ عَلَى احْتَوَاءِ جَنُونِي
لَمْ آتَهَا بِمَخَافَتِي وَظُنُونِي
بَعَثَتْهُ مِنْ عَطْرِ وَمِنْ تَلْوِينِ
أَسْرَارَ وَحْدَانِيَةِ التَّكْوِينِ !
فَامْلَأْ عَيُونَكَ مَا مَلَأَتْ عَيُونِي
الْقَى بِمَوْجِ الظَّنِّ بَحْرُ يَقِينِي
عَصَفَتْ بِمِنْبَرِ ذَلِكَ الْمَسْكِينِ
كَسَرَ الصَّلِيبَ تَعْظِيْبًا لِلدِّينِ
لَمْ أَلْقَ غَيْرَ خَصُومَةٍ مِنْ طِينِ

سَيِّانَ عَبْدًا كَانَ أَوْ سُلْطَانَا
لَا يَشْتَكِي زَمَنًا وَلَا شَيْطَانَا
لَا أَنْتَ أَسْتَاذِي وَلَا أَنَا عَبْدُكَ
شَتَّانَ وَجُدِي فِي السَّمَاءِ وَوَجْدُكَ
لَكِنَّهَا فِي الْأَرْضِ أَقْدَسُ فَرْضِ
يَسْتَغْفِرُونَ بِهَا لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
أَتَفَحَّصُ الْحَانَاتِ فِي الْآفَاقِ
وَهَنَّاكَ خَمْرٌ مَا لَهَا مِنْ سَاقٍ
وَبِلَاطُ قَيْصَرٍ مِنْ دِمَائِهِمَا نَدِي
لَا يَأْبَهُونَ لَصَارِمٍ وَمَهْنَدٍ
بُوشَاحِ فَاطِمَةٍ وَمَصْحَفِ أَحْمَدٍ
شَكُوَايَ قَالَ - بِحَرْقَةٍ وَتَهْنَدٍ - :
يَنْهَى الْوُجُودَ بِشِغْرِهِ الْمَتَمَرِّدِ
هَذِي النُّهَايَةَ مَا تَرَى يَا سَيِّدِي

إِحْرَامُ أَهْلِ الصَّيْنِ دَاخِلَ سِدِّهَا

وَرَقُودُ مَكَّةَ فِي جَوَارِ مُحَمَّدٍ

مِنْ (لَا إِلَهَ) لَنَا
وَكُـ____وُوس (إِلَّا اللَّهُ)
الْكُـ____أَسُ طَافِحَةُ
وَالْكُـ____أَسُ فِي الْإِثْبَاتِ
الْعَازِفُ الْمَوْهُوبُ
نَبْكِي بِـ____لَا صَوْتِ
عَجَبًا أَوْرَبَّةَ
وَبِـ____ذَاتِ لَجَّتْهُ
تُخْفِي بِهـ____دَاتُهَا
عَصَفَتْ فَمَا تَرْكَتْ
رَأْيُ الْعَبِيدِ بِهـ____ا
وَتَقَرَّرُ الْأَحْرَارُ
لَا شَيْءَ يُقْنِعُنَا
يَأْتِي بِلَوْلُؤِ
ذَاكَ الرَّجْجِ إِذَا
فَأَنَا أَسْوَدُ
لِي فِي الْجَهَادِ يَدُ
بِيضَاءِ مَا مُدَّتْ
أَنْظَرُ أَوْرَبَّةَ
أَوْ تَنْطَفِي نَارِي
نَارِي وَقَدْ أَذْكَتْ
لَا شَيْءَ يَمْنَعُهَا

كَأَسُ يَمْنُنَا
كُـ____رَتْ بِأَيْدِينَا
بِالنَّفْسِ فِي الْأَرْوَاحِ
تَبْكِي ذَهَابَ الرَّاحِ
بِالْعَزْفِ أَخْرَسْنَا
وَنَخْـ____وْنَ أَنْفُسَنَا
بِالنَّهْرِ تُغْرِينَا
ضَاعَتْ مَعَانِينَا
تَيَّارَهَا الْمَاحِي
وَكُـ____رَأَ لَتَمْسَاحِ
لَا نَطْمئنُّ لَهـ____ه
الرَّأْيِ مَجْمَلَهـ____ه
إِلَّا اجْتَهَادُ وَفِي
مِنْ ذَلِكَ الصَّدْفِ
عَجَّتْهُ فِي الْكِيَرِ
صَخْرًا بِإِكْسِيرِي
فَرَعُونَ يَخْشَاهَا
إِلَّا لِمَوْلَاهَا
أَنْ يَنْتَهِي نَفْسِي
فِي قَشَّهَا الْيَسْرِ
مَا اخْضَرَّ مِنْ قَصْبِي
مِنْ ذَلِكَ الْحَطَبِ

متفاههم قلبني
الحبيب علمه
من عشر عالمه
لا قصير قصيره
متعلّق أبداً
لا غزو للاقمراز
هو سيد الأشياء
هو شغل السّاري
هو مركب من نور
أعطى جنون الطور
هو أول الميّدان
في أعين السّكران
هو رحمه القرآن
هو سيّدي ياسين
أقلعت عن غوصي
لولا (سنائي) ما
لولا عن بحري
فلأليّ فيه

(٢)

الشاعر الفرخ الحزين معاً أنا
أوتيت ملكهما بوجه معذّبي
والزهد من شيم الملوك فإن تجد

لا يعرف اليأس
أن يُزغم النفس
يستخرج اليُسرا
يرجو ولا كسري
بركاب سيّده
ينقطن في يده
هو خاتم الرُّسل
في هذه السُّبل
يمشي أمام الرّكب
لغبار هذا الدّرب
هو آخر الدّرب
من نشوة الحب
للنّاس أعطاهما
هو مالكي طه
وتركت أحمالا
أقلعت إجلالا
لولا ما جلت
أضعاف ما قلت

حذر الحكيم أشوبه بجنونه
ورميت بالاثين حول عيونه
ذا الفقر فيه فمن عظيم فتونه

زهدُ الملوكِ كأبرويز محبةً
وكهداةِ الأسدِ المقيم كما يرى
لا قعدةُ الضوفي مُنهدِمَ القوى
ما قول سادتنا الدراويش التي
هو من رجالِ الله إلا أنه
رجلٌ تيزُ طريقه شطحاته
ملكُ أماراتِ الجنونِ بوجهه
تيمورُ أو جنكيزُ كان كلاهما
شعري بفارمن والعراق محيرُ
الكافرُ الهندي^(٢) يذبحُ دونما

(٣)

والتي مكّتي منها الجنونُ
أخذت من صدرِ جبريل الأمين
عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
في رحابِ الكونِ منبؤُ مهينُ
وهي في اليقظة أو في الحلمِ
كثرةُ الحيرة موتُ الهممِ

روعةُ السرِّ التي أعطيتها
إن أنفاسي التي أحدو بها
لستُ آتي النجم كي أسأله
هو لا يعرف من أين أتى
ما حياةُ الناس إلا مكرةُ
لا تُضغِ عمرك في تفسيرها

فرحي تفجّر من قدامي إلى رأسي

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الرباني الجزء الأول ، ص ٣٢) .

والقـلـومُ تطلـب أن
ما سرُّ قلبي ؟ أه
وسمـو نظـرتـه
لا أرتضـي بـدلاً
بكنـوز قـارون
معـراج سـيدنا
بـدت السـماء بـه
لابـدَّ يُذهـشنا
فـوجـودنا هـذا
فـي كلِّ آونـة
يلغـي خـرافات
ألـهـتك أوربـة
إيـاك أن تـرضـي
لا تـترك الرُّومـي^(١)
فـدواؤك الشـافـي

أنـسـل من نـفـسي
لضمـيره العـذب
فـي سـكرة الحـب
عـن قلبي المـجنون
وعـلـوم أفـلاطون
عـلم عـظيم الشـان
فـي عـالم الإنـسان
ما كان يُخـتمـل
ما زال يـكـتمـل
نـصـفي إلـى إعـلان
مـن سـالف الأزـمان
بـالسـحر عـن ذاتك
عـن كـسر مـراتك
ولـهـيب حـرقـته
فـي نـار نـظـرتـه

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكولوجية متقدمة فإنها لا تتركز على وهم ، وإنما تحمل قيمة معرفية كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجة مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريبية التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه » انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي .

أَوْ مَا اسْتَعَزَّتْ بِهِ
إِيَّاكَ كُنْتَ تَرَى

مَا ضَاعَ مِنْ نَفْسِكَ
جِيحُونَ فِي كَأْسِكَ

(٤)

أَلَا يَا عَالِمًا فِي الْمَاءِ
ظَاهِرَ ذَلِكَ السِّرِّ
وَهَذَا اللَّيْلِ فِي حَزَنِ
وَلَحْنٍ مُؤَذِّنِ الْفَجْرِ
نَشَاطِ الدَّهْرِ يَطْلُبُ مَنْ
وَيَخْمِلُ عَثَمَهُ يَجْرِي
غِبَارُ نَحْنٍ يَا أَعْمَى
فَحَقْلُ الْكُونَ لَا أُدْرِي

بَيْنَ الثَّرْبِ وَالْأَهْوَاءِ
أَنَا أَبْدِيهِ أَمْ أَنْتِ
وَحَرَقْتَهُ وَحَيْرْتَهُ
أَنَا أُعْطِيهِ أَمْ أَنْتِ
أَنَا أَمْ أَنْتِ يَثْقُلُهُ
أَنَا أَغْرِيهِ أَمْ أَنْتِ
وَلَكِنِّي أَعْيِي ذَاتِي
أَنَا اسْقِيهِ أَمْ أَنْتِ

(٥)

كَمَا أَنْتَ لَا تَكْتَرُثُ لِلسُّنَيْنِ
كَمَا أَنْتَ لَا تُضْغِ لِلْقَائِلِينَ
تَعَالَى جِهَادُ النَّزِيهِ الْغَيُورِ
وَجَائِزَةُ الْحَرِّ غَيْرُ الْخَمُورِ
عَلَى الطُّغْمِ يَسْقُطُ مَنْ لَا يَطِيرُ
إِذَا سَلَبَ الْغَرْبُ قَلْبَ الْغَرِيرِ
عَصَاكَ تُصَدِّعُ صُمَّ الْجِبَالِ
فَدَغُ تَرْفِ الْغَمْدِ مَا لِلْهَلَالِ
إِمَامُكَ يَفْقَدُ مَعْنَى الْخُشُوعِ
أَمْثَلُكَ يَرْضَى بِهَذَا الْخُنُوعِ

وَسِرُّ فِي طَرِيقِكَ نَحْوَ الْأَمَامِ
فَلَسْتَ لِنَجْدٍ وَمَصْرِ وَشَامِ
تَعَالَى يَكُونُ لَنَيْلِ الْخُطَامِ
وَغَيْرُ الْغَوَانِي وَغَيْرُ الْخِيَامِ
وَمَنْ لَا يَحْلُقُ فَوْقَ الْغَمَامِ
فَسِرُّكَ يَغْزُو مَصِيرَ الْأَنَامِ
وَتَعْرِفُ سَيْنَاءَ صِدْقِ الْكَلَامِ
عَلَى فَخْرِهِ غَيْرُ شَكْلِ الْحَسَامِ
وَيَنْقُضُ نَجْوَاكَ عَرُّ الْقِيَامِ
وَتَلِكُ الصَّلَاةِ وَذَاكَ الْإِمَامِ

نَسِيبُ جَبْرِيلَ مَعْصُومٌ مِنَ الرَّيْبِ وَحِكْمَةُ الذَّوْقِ تَعْلُو حِكْمَةَ الْكُتُبِ
 كَمْ كَانَ مِنْ سَفَنِ لِلْقَوْمِ أَغْرَقَهَا سَلَّمَ التَّصَوُّفِ وَاللَّاهُوتِ وَالْأَدَبِ
 كُنْ ثَاقِبَ الْعَيْنِ فِي قَلْبِ الْأَسْوَدِ لَهَا جَرَحُ فَمَا لثُغَاءِ الشَّاةِ مِنْ عَتَبِ
 جَسَّ الطَّيِّبُ بِقَلْبِي مَا أَكْبَدُهُ فَقَالَ : وَيْحَكَ مَا تَخْفِيهِ مِنْ طَلَبِ
 تَطْلَعَاتُكَ لَا طَاقَاتُ تَحْمِلُهَا لَكِنْ (لَكَ الْحَقُّ) لَا تَيَاسُ مِنَ السَّبَبِ
 وَمَا يُسَمَّى صَفَاءَ الرُّوحِ أَعْرِفْهُ وَلَيْسَ هَذَا الَّذِي فِي قَلْبِكَ اللَّجِبِ
 هَذَا الدَّمُ الْقِزْمِزِيُّ اللَّوْنِ (نَضْرَتُهُ) تَدُلُّ أَنَّكَ لَمْ تَشْرَبْ شَرَابَ غَيْبِي

(٧)

لَشَقَائِقِ النِّعْمَانِ قَنَدِيلٌ عَلَى الْأَكَامِ يَشْرِقُ مِنْ جَدِيدٍ^(١)
 وَيَحْتَنِي الْعَصْفُورُ فِي الْبِسْتَانِ ، يَرْغَبُ أَنْ أَجِدُّ فِي النَّشِيدِ
 الْحَوْرُ صَفٌّ بَعْدَ صَفٍّ وَالزَّهْرُورُ مَبْعَثُورَةٌ
 ضَجَّ الْجَمِيعُ وَلَا أَظُنُّ جَمِيعَ هَذَا ثَرَثُورَةٌ

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضة إذا تُركت بغير تعليق للرموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرة بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مفرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرة واضحة عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل - الأصل - من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .

يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طور جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهماهي الذات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقَّة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة الندى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلِّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثُّوبُ أَضْفَرُ أَصْفَرُ والثُّوبُ أَزْرَقُ أَزْرَقُ
 والقِرْمِزِيَّةُ قِرْمِزِيَّةٌ والتَفَرُّدُ مُطْلَقٌ
 القِي نَسِيمُ الصُّبْحِ لَوْلُوَّةٌ عَلَى تَاجِ الرُّهُورِ
 والثَّمَرُ نَوْرَتِ النَّدَى لتَزِيدَ مِنَ الْقِي الْعُطُورِ
 مِنْ هَذِهِ الْغَابِيَاتِ قَامَ الْحَسَنُ يَبْدَأُ رَقَصَتَهُ
 فِي هَذِهِ الْغَابِيَاتِ لَا فِي الْمُذْنِ نَفْهَمُ قَصَّتَهُ
 اغْرَقَ بِذَاتِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَشَطُّ بِحَرِّكَ فِي حَيَاتِكَ
 إِنْ كَانَ يَزْعُجُكَ انْتِسَابِي فَانْتَسِبْ لِحِمَالِ ذَاتِكَ
 مَا عَالِمُ الْقَلْبِ ؟ الْمَحَبَّةُ وَالْمَرْوَةُ وَالْحِمَاسَةُ
 مَا عَالِمُ الْجَسَدِ ؟ التَّجَارَةُ وَالتَّمَلُّقُ وَالسِّيَاسَةُ
 يَا أَنْتَ أَنْتَ إِذَا وَجَدْتَ غِنَى الْفُؤَادِ فَلَنْ تُرَاعَ
 أَمَا غِنَى الْأَجْسَادِ فَهُوَ وَكُلُّ مَا فِيهِ ضِيَاعٌ
 وَإِذَا وَجَدْتَ الْقَلْبَ ثُمَّ أَضَعْتَهُ فَالْحَقُّ أَنَّكَ مَا وَجَدْتَهُ
 وَالْحَقُّ : أَنَّكَ ضَائِعُ الْخُطَوَاتِ مِنْ وَهْمِ تَصَدُّقِ مَا ظَنَنْتَهُ
 لِإِنْكَلِيلِ سَيَادَةٍ فِي غَيْرِ قَلْبِ الْمُسْلِمِ
 مَا فِيهِ تَأْوِيلَاتٌ شَيْخٌ أَوْ مَسَائِلُ بَرَهْمِي
 لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ لِلْقَلْبِ حِينَ قَالَ وَحِينَ جَلَّلَنِي حَيَاءٌ
 لَمَا انْحَنَيْتَ أَمَامَ غَيْرِكَ صَرْتَ مِنْ جَسَدٍ وَمِنْ قَلْبٍ هَبَاءٍ

(٨)

دَمُ الْمُسْلِمِ الثُّورُ فِي دَرِيهِ وَمَوْهَبَةُ السُّحَرِ فِي قَلْبِهِ
 وَيَعْتَرِفُ الْعَصْرُ أَنَّ الْجَمَالَ صَبَا وَتَرَعَرَعَ فِي شَعْبِهِ
 وَلَوْ لَا مَدَارِسُ هَذِي الشُّيُوخِ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرَهْبَانُهَا
 لَرَوَى الْمَدِينَةَ مِمَّا ارْتَوَاهُ وَأَوْرَقَ بِالْحَبِّ بِسْتَانُهَا
 صَغَارُ الشُّوَاهِينِ مَا ذَنْبُهَا هُمْ عَلَّمُوهَا عِنَاقَ الْغَبَارِ

هُمُ قَتَلُوا الْقَلْبَ فِي صَدْرِهَا هُمُ أَبْدَلُوهَا بِهَذَا الشَّنَازِ
تَرَى النِّشَاءَ يَمْلَأُ وَجْهَ الطَّرِيقِ بِرُوحَاتِ نِسْرِ وَغَدَوَاتِ بَارِ
وَمَفْتِي الْمَدِينَةِ وَإِذْ سَحِيقُ يَضُجُّ بِمِصْطَلِحَاتِ الْحِجَازِ
أَنَا لَسْتُ أَفْهَمُ هَذِي الْكُؤُوسِ وَيُؤَسِّفُنِي مِثْلُ هَذَا اللَّجَاجِ
وَمَنْ كَانَ يَحْسُنُ نَخْتِ الصُّخُورِ تَرْقَعُ عَنْ أَنْ يَصُوغَ الرُّجَاجِ
يَقُولُونَ إِقْبَالَ مَاذَا يَرِيدُ وَمَنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَذَا السُّلُوكِ
سَأَلْتُ الدَّرَاوِيضَ عَنْ سِرِّهَا وَالْقَيْثُ فِي وَجْهِهِ الْمَلُوكِ

(٩)

هُوَ الْحَبُّ بِمَضِي حِيَالِ الْحَيَاةِ يَغْنَى نَشِيدَةَ الْحَانِ
وَيُرْسِلُهَا فِي وَجْهِهِ الثُّرَابِ وَيَمْنَحُهَا بَعْضَ الْوَانِ
يُغْلِغِلُ فِي الْأَرْضِ أَوْتَارَهُ وَيَمْلَأُ هَيْكَلَ إِنْسَانِهِ
كَمَا يَتَغَلَّغِلُ لِيْنِ النَّسِيمِ بِسِقَانِ زَهْرٍ وَقِفْطَانِهِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَذِرْ مَا رِثَهُ تَحْوُلُ عَبْدًا لِسُلْطَانِهِ
وَمَنْ طَلَبَ اللَّهَ لَا مِنْ سِوَاهِ وَأَدْرَكَ قِيمَةَ عِرْفَانِهِ
تَحْوُلُ (دَارًا) لَهُ طَالِبًا وَ (جَمَشِيدًا) مِنْ بَعْضِ نُدْمَانِهِ
يَجَاهِدُ لِلْقَلْبِ حُرَّ الْجِهَادِ وَلِلْبَطْنِ صَعْلُوكَ أَوْطَانِهِ
وَذَاكَ يَحْصُلُ سِرُّ الْخُلُودِ وَهَذَا يَمُوتُ بِمِيدَانِهِ
تَمَعَّنْ بِقَلْبِكَ وَاسْتَفْزِزْهُ وَلَا تَسْأَلِ الشَّيْخَ عَنْ شَانِهِ
خَلَا حَرَمُ اللَّهِ مِنْ أَهْلِهِ فَكُنْ أَنْتَ جَذْوَةً أَرْكَانِهِ

(١٠)

الْقَلْبُ يَنْقُصُهُ الْهَوَى وَالْعَيْنُ يَنْقُصُهَا الصَّفَاءُ
مَنْ لَمْ يُغَامِرْ مِثْلَمَا غَامَرْتُ تَدْهَشُهُ السَّمَاءُ
مَا سِرُّ طَيْتِكَ الَّتِي ذُوقُ التَّجَلُّي نَقْشُهَا

أَتَضَيِّعُ فِي وَهْمِ الْحَيَاةِ وَأَنْتَ قَلْبُكَ عَرِشُهَا
 حَاشَا لَأُورُوبَةِ النَّبِيِّ جَفَّتْ دَمْعُ عَيْنُونَهَا
 حَاشَا تَنْبَرُ بِقَطْرَةٍ مُلْتَثِّ بَلِيلِ ظَنُونَهَا
 هَلْ يَعْرِفُ الصُّوفِيُّ وَالْمَلَأَ حَقِيقَةَ جَذْبَتِي
 ضُنُّوا بِكُلِّ ثِيَابِهِمْ وَأَنَا أَمْزُقُ جَبَّتِي
 مَا مَزَّقَا يَوْمًا وَلَا حَشَوَا وَلَا طَرَفَ الرِّدَاءِ
 فَاَعْجَبْ لَصُّوفِيٍّ وَمَلَأَ يَلْجُنُونُكَ لِلرِّيَاءِ
 حَتَّى مَتَى يَا طَيْتِي تَتَوَسَّلِينَ إِلَى النُّجُومِ ^(١)
 كَانَتْ نَجُومًا ثُمَّ ضَاعَتْ خَلْفَ أَوْهَامِ الْعُلُومِ
 إِمَّا أَكْفُ أَنَا وَإِمَّا أَنْ تَكْفُ عَنْ الْوُجُودِ
 هَذَا الصُّرَاعُ الْبَارِدُ الْوَاهِي طَرِيقٌ لِلْجُحُودِ
 مَا دُمْتُ صَاعِقَةً فِي الصَّحَرَاءِ أَعْمَلُ وَالْجِبَالِ
 عُشْبٌ وَقَشٌّ يَا بَسَّ لَا يَسْتَحَقُّ أَنْ أَنْفَعَالِي
 الْكَوْنُ مِيزَانٌ يَكُونُ لِذِي الشَّجَاعَةِ وَالْجِلَادِ
 لِلْمُؤْمِنِ الْحَقُّ الْمَخَاطَرُ بِالْحَيَاةِ لِمَا يَنَادِي
 حَاشَا لِمَنْ (لَوْلَاكَ) ^(٢) فِي يَدِهِ يَرَى شَيْئًا مَنِيْعًا
 مَا مُؤْمِنًا مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْكَوْنِ عَلَيْهِ جَمِيعًا

(١١)

أَلْفُ خَوْفٍ وَلَا قِيَامٌ لِنَانِي بِحَدِيثٍ مِمَّا يُكَذِّبُ قَلْبِي
 عِنْدَمَا قُلْتُ لِلْقَلَنْدَرِ ^(٣) هَذَا قَالَ : أَحَسَّنْتَ إِنَّ ذَلِكَ دَابِّي

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأبيهم اقتديتم » (الحديث) .

(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .

(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في =

عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقرئ في ذلك بتصرف في الخطط (٤٣٢/٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للمصفي (٢٩٢/٤) . النعيمي (٢٠٩/٢) معجم البلدان (ساوة) ، تليس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ١٩١/٣ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ٤٨/١ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣٨٩/٣ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (٣٥٣/١) . والعبر (١٤١/٥) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمتحّن رأي دائرة المعارف الإسلامية «النسخة الفرنسية» من أن قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص ٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية . كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . «النسخة الإنكليزية» والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و«شاه نامه» الذي ألفه للملك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفاة وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مبانة قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية . فمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أن الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للمصفي .

الذي يَخْشَدُ الجموعَ بحانٍ
خَوْرُ القلبِ لا يداويه رازي
المريدُ البسيطُ وهو نقيُّ
اسأل الله نعمةً مثل هذي
ربّ ما زال نجلُ آدم هذا
صنمُ النَّفسِ تحت إبطيه يُضفي
لستُ في صرختي أبرئ نفسي
وأنا ، كلُّ تهنّاتي (لملأ)
مؤمنٌ لا يكون للحبِّ أهلاً
وإذا الكُفْرُ صادفَ الحبَّ يوماً

ظُرِفَ ساقٍ مُنشأً في الخلاعة
رغمَ ما في كلامه من براعة
يُرفِقُ التَّوبةَ النَّصوحَ بكاء
للشُّيوخِ التي تموت رياء
إسرَ وهمٍ وشعوذاتٍ قديمة
حلّةُ النَّصرِ فوق شرِّ هزيمة
فاحتراف الإيمان روحُ الشَّجاعه
يدّعي حملَ مثل هذه القناعة
مؤمنٌ في الجحود جدُّ عريقٍ
قاده الحبُّ مرغماً لطريقي

(١٢)

أو لا تزال مسافراً تسري
والعصرِ إنّ القومَ في خسرٍ
وتغرُّك الدُّنيا بما فيها
وسلِ الطبيعة عن فيافيها

ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص ٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص ٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج ٢ ص ٣٠٤) .
ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص ٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .
ويتوسّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .

يقول : عيناى وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أنت أسد أيها القلب أم نمر من نمر ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

لا زاهداً حقاً ولا ملكاً
ملكاً يُبجل أينما سلكا
في حمل سيفٍ يبعثُ الفرقا
قدرٌ يشوبُ سيوفه ألقا
حرٌّ ولا من صولة القدرِ
متعللاً بالعلم والنظرِ
نرمي بها الجهلاء بالدين
متسئراً في زِيٍّ مسكين
مرقتُ أسراري إلى الأبدِ
لا أستطيع بلوغها بيدي

(١٣)

فاهداً قليلاً وكن منها على حذرٍ
وبعض ما فيه موجُ الشمس والقمر
أن تستطيع احتواء اللحن والوتر
يريد يستبدل البحور بالحجر
من صيحة الحق أو من صرخة السحر
روح الجبال وأين الصعق في الضور
فإذ بها أمة الصحرَاء في حورٍ
وماله في وجوه القوم من أثر
تلوح بين دخان الغرب بالشَّرر
تفوح رَغَم حروب الكُفر والأشر

(١٤)

يقظ كمثل المرتضى في حربهِ

يمشي المنافق في نقائصه
وترى الموفق رَغَم محتته
كفُ المنافق لا تساعده
والمؤمن الصديق محتته
ما للمنافق من إرادته
يستقبل الأقدار مرتبكاً
المسلم المغوار حجتها
في نفسه أقدار أمته
حتى تحس بما أكابده
وجذور غفلتك التي سكرت

الحوُر في الغرب سكر القلب والبصر
بحر الوجود تعالى أن نحيط به
حاشا لقيشارة مهما بذلت لها
صوفينا خلف لاهوتي أديرة
والمنبر اليوم والمحراب قد فرغا
أين الأذان الذي كانت تميد له
طوّفت في أمة الصحرَاء أسألها
رأيتهم في سجود لا اتجاه له
مهلاً فقرطبة الحمراء ما برحت
حماسة الشعر هذا من شبيبته

حجرُ الفلاسفة المجرب مثله
أيقظ فؤادك إنَّ عُمرَكَ ضائعٌ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ
وغزالنا الثَّريُّ لستَ تصيده
رَبَّاهُ أينَ يلوذُ مركُبك الَّذي
أبروخُ في طلبِ الشواطئِ مخطئاً
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي
كُتِمَتْ مخافةً برهمي لم يزلْ
فإلى متى صمتي وحولي أمةٌ
هذا يُسُبِّحُحِيهِ وذاك يَسَيِّفُهُ
سمحتُ حضارتنا الحديثة هذه
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهروا أمرها
مولاي خُذْ بيدي ليشرَبَ إنَّه
ضَيَّعْتُ معرفتي وإيماني على

(١٥)

عيونُ اللذات دافقةٌ خلال الدُرِّ والصَّدفِ
بغيرِ تصنُّعٍ منها ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانت لها أسلُوبها في الهَجَرِ والشُّوقِ
فذلك من تواضعها وذلك منتهى الذُّوقِ

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أَتَطْلُبُ جَيْفَةَ الْغَرَبِ إِنْ هَاتَيْكَ الشَّوَاهِينَ
إِذَا أَخْفَتُ مَخَالِبَهَا فَأَعِينُهَا سَكَكِينَ
مَتَى الْأَوْتَارُ تَلْهُبُهَا بِلَوْعَةٍ ذَلِكَ الْحَبُّ
فَنَغْمَةٌ صَوْرٍ إِسْرَافِيلَ لَا تَفْتَنُ فِي الْقَلْبِ
أَتَيْتُ الْغَرْبَ لَمْ أَغْبَأْ بِسَكْرَةٍ دَلُّ سَاقِيهَا
كَرَامُ النَّاسِ لَا تَشْجُو عَلَى مَرَأَى أَعَادِيهَا
غَزَاةُ الْعَصْرِ لَيْسَ لَهَا عَلَى عَشَّاقِنَا عَوْنُ
وَمَا مِنْ عَاشِقٍ إِلَّا لَهُ مِنْ حُبِّهِ كَوْنُ
غِيَابٌ كَالْحُضُورِ بِهِ مِنَ الْهَيْجَانِ أَدْوْمَةٌ
لَعَلَّ الْهَجَرَ لِلْجُرْحِ الَّذِي فِي الْوَضَلِ مَرْمُوهُ
وَلَوْ لَا ذَاكَ عَانَيْتُ مَا عَانَيْتُ مِنْ غُصَصِي
وَلَوْ أَنِّي ظَفِرْتُ بِهِ رَجَعْتُ وَلَمْ تَطُلْ قِصَصِي !
إِذَا أَحْبَبْتُ تَلَمَّسُهُ فَذَلِكَ فِضُّ أَشْجَانِي
أَقَمْتُ فِي عِزْلَةٍ وَاقِرًا (مَزَامِيرِي بِإِيرَانِ)^(١)
وَلَا يَحْزَنُكَ مَا تَقْرَأُ مِنْ شَطْحِي وَمِنْ مَيْلِي
يَقَالُ : يَرُونُ صَوْتَ الشَّرِّ فِي مُتَصَفِّ اللَّيْلِ !

(١٦)

شَبَابٌ قَعُودٌ رَقُودٌ نِيَامُ لِعَجْزِ الْأَمِيرِ وَفَوْضَى الْجُنُودِ
فَوَاسِفًا كَيْفَ هَذَا السَّهَامِ تَطِيئُ بِلَا هَدَفٍ فِي الْوُجُودِ
يَقُولُونَ بَحْرٌ عَمِيقٌ عَمِيقُ وَمَا أَضْيَعُ الْبَحْرَ مَا أَضْيَعَةَ
يَحْتُتُ بِهِ مَوْجَةٌ مَوْجَةٌ وَقَلْبْتُ قَوْعَةً قَوْعَةً
أَمَّا أَنْ تَهْجُرُ أَصْنَامَهُمْ أَمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ قُمْقُمِكَ

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغيابة أصنامهم أنهما
أنا كيف أجهز هذا الماء
وشغل الحكيم بهذا العراء
هو الحب يسبك وقع الجراح
وما الحب إن لم تمت عزرة
أنا لم أر السر لو لم أنل
ومن بدء تلمذتي قال لي
رايت فلاسفة بالآلوف
وذو الوحي يرفع من رأسه
إذا خضت معركة فلتكن
فمن ﴿ لا تخف ﴾ شعله لم تزل
بريق الحضارة أوج الترف
أنا ابن المدينة وابن التجف
غبارهما قطرة للعيون
مقيم برغم رياح القرون

(١٧)

وكان طرف الهوى في مينة الولع
بما تضم من الحانات والبيع
على الضيق برأى الفاجر الهلع
يشير في حتمه آلام مجتمعي
وتدعي أن هم الشرق جاء معي
ما تدعيه يد العمال من شرع^(١)

كان الشتاء كمثل السيف حدثه
أيام لندن ماخوڑ لطالبها
أيام كنت صلاة الفجر أبعثها
ما لي هنا ولهبي حيث رحت ذكي
وكيف كانت هناك الناس تُكرني
أيام آلت مقاليد الأمور إلى

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤ م ، =

فكان في دربِ قُطَاعِ الحجارة ما
 يا لعبةً من ديمقراطيةٍ طَلَبَتْ
 كانت حكايةً فصلِ الدين آخرها
 ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها^(٢)
 كلا الدروس لها سحرٌ وأبهةٌ
 لأبرويز من التُدليس والطَّمع^(١)
 عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعٍ
 إنَّ السياسةَ جنكيزية الجَشَعِ
 فكنت بينهما في ملتقى وجعي
 ربَّاه عفوكم قد أَبْعَدَتْ مُتَجْعِي

(١٨)

استفتِ قلبك كيفَ المسجدُ افترقا
 وأين ذو جَلَدٍ منهم يمرُّ به
 الحبُّ ، يَعْرِفُ من زَلَّتْ له قدمٌ
 وأنه جرحُ سهمٍ إن صبرت له
 ضاعَتْ عقيدةٌ قومٍ في مصادمةٍ
 هيهات يُذَرِّكُها من لَيْسَ في دمه
 درسُ الشريعةِ غيرُ الوجد وهو كما
 وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
 تقوى طويته إن تكتُمِ الحُرَقا
 بأنه أقصرُ الأشياءِ أزمانا
 أوتيت من جُعبَةِ الصَّيادِ سُلوانا
 باثني وسبعين وإد من معانيها
 وجدٌ يؤلِّفُ قاصيها ودانيها^(٣)
 رأيتُ مُتَشَرِّ في جُمْلَةِ الفِرَقِ

(من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

- (١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
 قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً
 جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لبنين بفيلهم
 إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
 ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُنَيَّم بها أبرويز فسوف يثيم بها فرهاد قاطع الحجارة .
 انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص ٧٩ .
- (٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمر المائدة المستديرة ، الذي دعت إليه
 الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام
 ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .
- (٣) يذكرنا هذا المعنى بيتاً ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي
 المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وَأَنَّهُ وَكَمَا نَمَتْ تَجَارِبُنَا
غَصْنُ الْيَقِينِ الرَّطِيبِ الْوَجْدُ يَنْبَتُهُ
فَقُلْ لِّذِي هِمَّةٍ بِالْدَّرْسِ مَجْتَهِدِ
الْحُبِّ فِي قَحَّةٍ يَحْلُو فِي سَفِهِ
وَلَا تَكُونَنَّ ذَا حُبٍّ بِلَا سَفِهِ
لَنْ تَهْدَأَ الرَّغْدَةُ الْمَلَقَاةُ فِي خَلْدِي
إِنْ لَمْ تَشُقَّ بِسَيْفِ السُّكْرِ جَذْبَتَهَا

(١٩)

وَلَيْسَ فِي بُعْدِنَا عَنْ عَالَمِ الْبَشَرِ
هَذَا الْعَذَابُ عِقَابُ الْجُبْنِ وَالْخُورِ
وَقُلْتُ : أَطْلُبُ مِنْكُمْ زُهْدَ مُقْتَدِرِ
أَضَاعَ أَمْجَادَ تَيْمُورَلَنْكٍ فِي سَمَرِ

الرُّهْدِ إِخْضَاعُ هَذَا الطَّيْنِ وَالشَّرِّ
فَقُلْ لِّصُوفِيٍّ بِالْفَقْرِ رَاضِيَةٍ
وَمَا عَلَيْكَ إِذَا أَنْكَرْتَ مَذْهَبَهُمْ
فَالرُّهْدُ وَالْمَلِكُ لَا يُسْتَحْسِنَانِ لِمَنْ

يَلِيقُ بِالْقَوْلِ هَذَا جِسْمُهُ الْقَمَرِي
وَأَيْقُظُ الطَّيْشُ مِنْهُمْ رَقْدَةَ الْفِكْرِ
وَمَرْقُوا سُرَّهُمْ فِي ثُوبٍ مَعْتَذِرِ
فِي سَكْرَةٍ مِنْ كُؤُوسِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ
مَنْ رُوحٌ ذِي طَمَحٍ فِي عَيْنِ مُنْبَهَرِ
لَوْ أَمَعْنُوا قَبْلَ هَذَا التَّيِّهِ بِالنَّظَرِ

يَا حَبِّذَا يَغْفُلُ السَّاقِي الْجَمِيلُ فَلَا
إِنَّ الرِّفَاقَ إِذَا جَاشَتْ قِرَائَتُهُمْ
خَاضُوا بِكَلِمَةٍ (عَفْواً) مَا يَرُوقُ لَهُمْ
أَفِيلَسُوفٌ وَصُوفِيٌّ وَمَجْتَهِدٌ
مَا فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ أَبَدِي فَوَا أَسْفَاً
كَانَتْ بِزَاوِيَةِ الْأَقْفَاصِ بَغْيَتُهُمْ

(١) فِي تَرْجُمَةِ الْأَسَازِ الْمَلُوحِي الثَّرِيَّةِ :

لَنْ تَسْكُنِي رِعْدَتِي حَتَّى فِي يَوْمِ الْحِسَابِ ، إِمَّا أَنْ تَشُقَّ ثَوْبَهَا أَوْ أَنْ تَشُقَّ مَعْطَفَ اللَّهِ !
يُرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ يَقُولَ : لَنْ أَضْحِي بِهِذِهِ الرَّعْدَةِ الَّتِي تَمْتَلِكُنِي وَلَا بَدَّ لِي مِنْ أَنْ أَجِدَ مَنْ
يُصْغِي إِلَيْهَا وَلَوْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنِّي سَأَتَمَسَّكَ بِمَعْطَفِ كَبْرِيَاءِهِ وَلَنْ أَبْرَحَ حَتَّى أَشْقَهُ
بِجَذْبَتِي أَوْ يَمْحُوهَا بِخَمْرِهِ . (انْظُرْ ص ١١٩ ، مِنْ التَّرْجُمَةِ الثَّرِيَّةِ) .

سَجُنُ التَّفَلُّتِ لَا قَضِيَانُ تُنْسِكُهُ وَرُبَّ غُلٍّ خَفِيَ بِالْغِ الْأَثَرِ
تَغْنِيكَ إِنْ حَرَّتْ فِيمَا قَلْتُ تَجْرِبَةً فَمَا التَّجَارِبُ إِلَّا مَرَهُمُ الْحَيَرِ
انْظُرْ خَرَابَ فَوَادِ الْغَرْبِ يَأْكُلُهُ وَعَقْلُهُ فِي كِمَالٍ وَافِرٍ بَطَرِ
يَقُودُهُ الْعَقْلُ فِي نَهْرٍ يَفْجُرُهُ وَخَلْفَهُ قَلْبُهُ يَمْشِي عَلَى كَدَرِ

(٢٠)

رَغِمَ أَنْ الْعَقْلَ لَا يَمْنَعُهُ قَرَبٌ وَبُعْدُ
إِنَّهُ وَالْحَقُّ : مَا أَهْلٌ لِلْحَضْرَةِ بَعْدُ
اسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى وَالتَّمِمْ عَيْنَا لِقَابِكَ
إِنَّهَا أَثْمَنُ مَا تَكْسِبُهُ مَنْ فَضَّلَ رَبُّكَ
أَنَا لَا أَنْكَرُ أَنَّ الْعِلْمَ لِلنَّفْسِ حُبُور
هُوَ فَرْدُوسٌ وَلَكِنْ فَارِغٌ مَا فِيهِ حُورُ
مَا أَحَقَّ النَّاسَ بِالرَّافَةِ مِنْ عَصْرِ سَفِيهِ
لَيْسَ فِي الْعَالَمِ قَلْبٌ يَجِدُ الْغَيْبَةَ فِيهِ
إِنَّهُ صَحْوٌ بَلَّانٍ وَاحِدٍ هَذَا الْجَنُونَ
ذَلِكَ النَّوْعُ جَنُونَ مَا لَهُ صَحْوٌ يَكُونُ
قَلْبُ الْقَلْبِ غِذَاءٌ وَعَطَاءٌ حَيَوِيٌّ
إِنَّ قَلْبًا لَيْسَ فِيهِ قَلْبٌ ، قَلْبٌ شَقِيٌّ
أَنْتَ لِلْحَضْرَةِ سَرُّ مَا لَهَا سَرُّ سَوَاكَ
إِنَّهَا إِنْ كُنْتَ حَيًّا حَيْثُمَا كُنْتَ هُنَاكَ
كَسَّرَ اللَّوْلُو كُسْرًا كُلَّ أَصْدَافِ الْبُحُورِ
فَلَمَّاذَا أَنْتَ بِالْوُ لَوْ تَبِي تَأْبَى الظُّهُورِ
مُسْلِمٌ أَنْتَ وَقَدْ أَلْهَبْتُ سِنَائِي عَلَيْكَ ؟

أولاً يزعج قولي : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾^(١)

(٢١)

إنَّهَا الذَّاتُ إِنْ تَمَعَّنْتَ بَحْرُ وَمَحَالٌ تَكُونُ جَدُولَ أَنْسٍ رُبَّمَا تَكْسِرُ السَّمَاءَ بِفَاسٍ وَالَّذِي يَجْعَلُ الْبَحَارَ بَحَاراً لَا يَطِيقُ الْجَبَانَ لَجَّةَ ذَاتٍ وَقَوَامِ الشُّجَاعِ لَيْسَ عِلُوماً كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ الْمَنْجُمُ هَذَا أَنْتَ مِنْ طِينَةٍ يَحْكُ عَلَيْهَا إِنَّ فَرْدَوْسَنَا عَلَى الْأَرْضِ هَذَا حَبَّذا أَنْ تَكُونَ ثَاقِبَ عَيْنٍ بِجَنُونِي فَهَمْتُ عَصْرِي تَمَاماً الْبَسُ الدُّزْعَ مِنْ نَسِيجِ جَنُونِي إِنَّ شَخَّ الطَّبِيعَةِ الْيَوْمَ هَذَا لِلْيَوَاقِيتِ كَاللَّهْيَبِ أَحْمَرَاً	مَالَهُ سَاحِلٌ لِيَخُوضَ جَبَانٍ وَمَحَالٌ لَجْمَعَ أَهْلِ الْهَوَانِ فَبِنَاءِ السَّمَاءِ سَبْكُ زَجَاجٍ تُنْقَى أَنَّهُمَا مَحَلُّ الْهِجَاجِ وَيَغُوصُ الشُّجَاعُ فِيهَا وَيَطْفُو تَرِبَ الْعِلْمُ فَالشُّجَاعَةُ لَطْفُ بَطْرِيقِ مَكْبَلِ بِالنُّجُومِ سُرُّ الْحَيِّ زَيْفُ كُلِّ الْعُلُومِ فِيهِ جَبْرِيلُ لَا يَغِيبُ وَحُورُ حَجَرُ الْعَيْنِ فِيهِ مَاءٌ وَنُورُ وَتَحْمَلْتُ وَقْعَةً بَعْدَ وَقْعِهِ لَيْسَ ثَوْباً مَرْقَعاً أَلْفَ رُقْعَةٍ وَهِيَ مِنْ طَبْعِهَا السَّخَاءُ لَعَارُ شَكْلُ نَارٍ وَلَيْسَ فِيهَا شَرَارُ
---	---

(٢٢)

جَاءَ مِنْ نَسْمَةِ الصَّبَاحِ كِتَابٌ فَلِذَا فِيهِ : مَبْصَرَ الذَّاتِ أَقْبَلُ شَرَفُ الرَّأْيِ ذَاكَ جَاءَكَ مِنْهَا وَحَيَاةٌ تَكُونُ مِنْ غَيْرِ ذَاتٍ	وَأَنَا جَالِسٌ عَلَى عَرْشِ ذَاتِي صُرْتُ فِي رَتْبَةِ الْمُلُوكِ الْكُفَاةِ وَالْحَيَاةُ الْكَرِيمَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ أَيُّ مَعْنَى لَهَا وَأَيُّ قِيَمَةٍ
---	--

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أَيْهَا الْفِيلْسُوفُ دَعَكَ وَشَانِي
لَسْتُ مِثْلِي مَافِرًا كَيْفَ أَشْكُو
لَيْسَ سَهْلًا إِذَا الدَّرَاوِيشُ حَجَّتْ
الْقَضَايَا دَقِيقَةً فَاسْتَلَمَهَا
لَسْتُ أَخْفِيكَ أَنْتَنِي لَمْ يَرْقُ لِي
لَا يَصِيدُ^(١) الْعَنْقَاءَ صَيَّادُ سَوْءٍ
طَرَزَتْ أَمْ غَضَّتْ فِي سَمَاءٍ وَبَحْرِ
لَيْسَ يَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ وَجُودُ
وَسَوَاءٌ ، فَلَا تَقْلُ عَرَبِيٌّ
سَتَرِي الذِّكْرَ أَجْنِيًّا إِذَا لَمْ

فَأَنَا مَدْرُكٌ إِلَى أَيْنَ أَمْضِي
لَكَ دَرَبِي وَأَنْتَ فِي غَيْرِ أَرْضِي
مَنْ بَعِيدٌ إِلَى مَدَارِسِ شَعْرِي
وَاقْضِ فِي أَمْرَهَا إِذَا كُنْتَ تَدْرِي
ذَلِكَ الْعَيْشُ فِي طُقُوسِ الصَّوَامِ
مِلَّتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ الْمَطَامِعِ
أَمْ تَرَاجَعْتَ عَنْهُمَا وَجَبُنْتَ
كَالْوَجُودِ الَّذِي تَعَانِيهِ أَنْتَ
كُنْتَ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَلَيْسَ يُفِيدُ
يَكُ لِلذِّكْرِ فِي الْفَوَادِ شَهِيدُ

(٢٣)

النَّخْلَةَ الشَّمَاءُ أَخْتُكَ كُؤُنْتُ
أَتَطُوفُ فِي الْحَانَاتِ تَسْقِي كَأْسَهَا
مَا فِي مَدَارِسِكَ الَّتِي تَرْتَادُهَا
سِرُّ الدَّرَاسَةِ فِي فَوَادِكَ كَامِنُ

مِمَّا تَبَقَّى مِنْ بَقَايَا طِينِكَ^(٢)
وَتَطُوفُ مَخْنُوقًا بِعِلْمَانِيَّتِكَ
إِلَّا بِحُوثٍ مَغْفُلٍ وَبِلَيْدِ
لَوْ كُنْتَ تُثَقِّنُ صَرْخَةَ التَّوْحِيدِ

(١) يرى الدكتور كفا في أن اصطيد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص ١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أن النخلة خلقت من بقايا الطين الذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .

يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لم تبق يا مسكين إلا فرصة
اطلب علوم القلب من أستاذها
لك في استعادة سرك المفقود
واجهد لنيل مقامك المحمود

إن كان زئك زئ سلطان
فغطاؤنا لا رأس يحميه
ليس النجوم برغم لعبتها
بل موت ذاتك بعدما شقيت
أنا آسف جداً ويحزنني
ضاعت هناك بصيرتي وذوي
أو كان زئك زئ مسكين
فيليق إلا رأس شاهين
مسؤولة عن هدم أمجادك
ما بين ققمها وأصفادك
غضبي على ديري ومدرستي
حبي وأظلم درب معرفتي

(٢٤)

دواء البصيرة - هذا الدواء -
وما العقل إلا جدال العلوم
مصيرك أرفع من وقفة
وسر اللآلئ خلد البريق
وما هي جدوى دم في العروق
فقل للشقائق في خدرها
وما عده الغرب سقط المتاع
يقولون إقبال في فقره
وعالمه لهب كلّه
رجاؤك في كشف داء البصر
وحرب الظنون ورجم النظر
وأول معناه ذوق السفر
والأ فمعدنّها من حجر
إذا كان يطفئ ناز الفكر
تجلّي فإني نسيم السحر^(١)
بمذهبتنا رأس مال الظفر
غني على أي كنز عثر
ولا يمنح الناس إلا الشرز^(٢)

(١) المقصود قل لهذه المتعلمة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إلي فلن أعصف بك أنا لست إلا
جمالاً وعطاء أنا نسيم السحر ولست ربح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أَعْيُنُ الدَّرْوِيشِ لَمْ تَعْبَأْ بِمَا
هَذِهِ التَّيْجَانِ مَا قِيَمَتْهَا
كَيْفَ لَا تَيْأَسُ تَرْجُو صَنْمَاءَ
أَنْتَ هَلْ تَعْرِفُ كُفْرًا آخِرًا
أَنَا لَا أَفْهَمُ مَا قَصَدُ السَّمَاءِ
تَهْبُ السُّلْطَةُ مَنْ لَا يَمْلِكُونَ
وَحَدَّهَا النَّظْرَةُ مَا أَطْلُبُهُ
نَظْرَةً خَالِيَةً مِنْ جَذْبَةٍ
وَأَنَا مِنْ أَجْلِ هَذَا كُلِّهِ
أَنَا لَا أَجْهَلُ مَا تَقْصِدُهُ
مَعَ هَذَا لَا أَرَى مِنْ زَاهِدٍ
أَنَا لَا أَقْتُلُ ذَاتِي هَكَذَا
وَحَيَاتِي عِنْدَمَا شَرَّدْتُهَا
قِيَمَةُ الْأَشْعَارِ هَذِي أَنَّهَا

أَظْهَرْتُ أَبْهَةً الْإِسْكَانِ
وَهِيَ تَسْتَجِدِّي نِسَاءَ الْيَدْرِ
وَمَنْ اللَّهُ تَعَالَى تَيْأَسُ
غَيْرَ هَذَا أَيُّهَا الْمَتَكَسُّ
وَهِيَ بِالسُّلْطَةِ لَوْ شَاءَتْ تَطِيحُ
أَيَّ مَفْهُومٍ عَنِ الشَّغْبِ الْجَرِيحِ
وَشَوْوَنَ الْقَلْبِ عَنْهَا تَضْدُرُ
نَظْرَةً فَارِغَةً لَا تَسْحَرُ
بِاعْتِزَالِ الْقَضَرِ مُحْكُومٍ عَلَيَّ
وَمَصِيرُ الْكُلِّ مَعْلُومٌ لَدَيَّ
مَالُهُ مِنْ طَمَعٍ فِي السُّلْطَةِ
أَنَا حُرٌّ سُلْطَتِي فِي خِلَاطِي
أَرْضَتِ النَّاسَ جَمِيعاً كَلِمَتِي
خَطَرَاتٌ فِي قُلُوبِ الْأُمَمِ



للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسياتي قوله :

حطب الموقد الغليظ مملٌ
أنا لا أمنح الحصاد لحقلٍ
وأنا رغبتي بحرق الدقاق
عملي الفرد والوحيد احترافي

وَأَتَمَّا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَكَ
هَذَانِ جَانِبَانِ مِنْ مَوْضُوعِكَ
شَرَارَتَانِ مِنْ لَهيبِ الْحَبِّ
فِي ذَلِكَ السَّهْلِ الْخَصِيبِ الرَّخْبِ
بَصْرَخَةٍ وَزَفَرَةٍ تَنْطَلِقُ
كُلَّ الْجَمَالِ عِنْدَمَا تَحْتَرِقُ
يَمُخِرُ فِي النَّيْلِ وَفِي الْقُرَاتِ
مَنْ سَاحَلَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
بِأَنْ يَدُلَّهَا الْمَدَارُ الْحَائِرُ
يَنْقُصُهَا الْيَوْمَ دَلِيلَ مَاهِرٍ
وَسَحَرُ الْفَاطِظِ وَرُوحِ لَاهِبِهِ
قَائِدُ هَذِي الْقَافِلَاتِ الذَّاهِبَةِ
وَيَا الْكَأْسِيَّةَ وَيَا الْغَضَّتِي
فَمَا وَجَدْتُ زِينَةَ لِقِصَّتِي
لَوْ قُلْتُهَا لَحَيَّرْتَ جَبْرِيلاً
هَنَّاكَ سَوْفَ أَنْقَعُ الْغَلِيلاً

لَسْتُ دَمْعاً عَلَى مَنَازِلِ رَسِمِهِ
بَيْنَ صَلَاصَالِهِ وَهَيْكَلِ جِسْمِهِ
فَلَمَّاذَا مَلَأْتَ بِالْخَوْفِ عَشَّكَ
عِنْدَمَا تَحْرِقُ الصَّوَاعِقُ قَشَّكَ
مَلَأْتَ عَالَمَ الْقَلَنْدَرِ طِيّاً

لَسْتُ لِهَذِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَلَسْتُ مَوْضُوعَهُمَا وَإِنَّمَا
تَطْلُعُ الْعَقْلُ وَوَجَدُ الْقَلْبِ
وَالْعُشْبُ مَوْجُودٌ لِيَحْرِقَاهُ
وَالرُّوضُ هَذَا بَقْعَةٌ تَصْطَفِقُ
أَعْشَابُهُ لَسْتُ لَصْنَعِ عَشٍّ
حَتَّى مَتَى مَرْكَبُ هَذِي الذَّاتِ
قُدِّرَ أَنْ يَرْكَبَ بَحْراً مَالَهُ
فَكَيْفَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ رَغْبَةٌ
رَغَائِبُهُم بِالرُّغْمِ مِنْ نَشَاطِهَا
الْحَاطِظُ مَوْهُوبٌ وَعَيْنُ ثَاقِبِهِ
كُلُّ الَّذِي يَمْلِكُهُ مِنْ عُدَّةٍ
فِي الْحَسَنِ فَارِسٍ وَوَحْيِهِ
بَحِثْتُ طَوْلَ الْعُمُرِ فِي بَسْتَانِهِ
تَرَقُّدٌ فِي حَنْجَرَتِي أَغْنِيَهُ
أَحْرَصُ أَنْ تَبْقَى هُنَا مَطْوِيَةً

إِنَّهَا السَّهْمُ مِنْذُ كَانَتْ رَمَتْهُ وَمِنْ الْقَوْسِ لَا يَزَالُ قَرِيبَا
 لَا تَعْيَقُ النُّجُومُ سَرَّكَ هَذَا فِسْمَاءُ النُّجُومِ غَيْرُ سَمَائِكَ
 أَخْطُ فِي الْمَوْقِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ لَتَرَى زُرْقَةَ السَّمَاءِ بِمَائِكَ
 لَا تَقُلْ لِلدَّلِيلِ دَعْنِي لَوْحَدِي إِنَّ أَمْرًا كَمَثَلِ هَذَا بِدِيهِ
 لَا يَطِيقُ الْكَرِيمُ ذَلِكَ سَوَالٍ فَاجْتَهِدْ وَخُذْكَ اجْتَهِادَ فِقِيهِ

(٢٨)

تَأْمُلُ فَيْلَسُوفٍ كُلُّ مَا أُعْطَانِي الْفِكْرُ وَلَوْلَا الْحَبُّ مَا أَدْرَكْتُ مَا يَضْمُنُ الشَّكْرُ
 وَنَظَرْتُهُ هِيَ الشُّرُورُ الْمُشِيعُ بِمَحْفَلِ الْقَلْبِ بِبَلَا دَنْ وَلَا خَمْسَر
 تَنْظُرُ تَنَافُرَ الْكَلِمَاتِ مِنْ شِعْرِي وَمِنْ أَدْبِي تَدُورُ كَوُؤُسُهَا جَنْبِي
 فَحَانَتْهَا عَلَى عِلْمٍ بِمَا مَرَّقَتْ مِنْ حُجْبِي
 إِلَيْكَ الْبَرَعَمَ الظَّامِي لِمَقْدَمِ نَسْمَةِ الضُّبْحِ
 تَأْمُلُهُ تَجِدُ فِيهِ حِكَايَةَ ذَلِكَ الْجُرْحِ
 غِيَابُ أَمْ حُضُورٌ لَسْتُ أَدْرِي مَا أَكْبَاهُهُ يَشَاهِدُ مَا أَشَاهِدُهُ
 فَهَلْ مِنْ بَيْنَهُمْ أَحَدٌ هُنَا يَا أَنْتَ كُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ بَعْضَهُمْ بَعْضَا
 هُنَا إِلَّا أَنَا فِيهِمْ غَرِيبٌ يُنْكِرُ الْأَرْضَا
 وَكُنْتُ بِقَصْرِ أَوْرِيَّةَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ أَبْقَى
 شَرِيطَةً تَحْمِلُ الصَّحْرَاءَ حِينَ أَجِزُ مَا تَلْقَى مَضَى إِقْبَالَ هَوْنًا فِي دُرُوبِ الْفِكْرِ وَاجْتَاذَا
 وَلَمَّا جَاءَ دَرْبَ الْحَبِّ مَالُ الْقَلْبِ وَانْحَاذَا

وأخيراً انتبهتُ ولَبَّثْتُ صَرَخَتِي هَذَا السَّمَاءُ
وسمعتُ ما قالوا : أخيراً سوف يَنْكشِفُ الغِطاءُ
للمُشَاقِقِينَ حِكَايَةً وَتَكَادُ تَنْفِقُ الحِكَايَةَ
بَارٌّ وَحَزَنٌ وَانْفِجَارٌ فِي الْبِدَايَةِ وَالنَّهَائَةِ
فَانْظُرْ إِلَى قَدَرِ الشُّعُوبِ وَكَيْفَ يَبْدَأُ بِالشُّيُوفِ
فَإِذَا انْتَهَى فَإِلَى الْمِزَامِيرِ الشَّجِيئَةِ وَالذُّفُوفِ
حَانَاتٍ أَوْرَبَّةٍ كَذَلِكَ وَالْغَرِيبُ طَقُوسُهَا
الشُّكْرُ يَبْدَأُ أَوَّلًا وَتَدُورُ بَعْدُ كَوُوسُهَا
سَيِّانٍ تِيْمُورْلَنَك فِي سُلْطَانِهِ سُلْطَانٍ نَادِرُ
الْكُلِّ تَسْقُطُهُ أَخِيرًا سَكْرَةُ الزَّمَنِ الْمُبَادِرُ
وَلَيْ زَمَانُ الْوَحْدَةِ الْمَطْرُوحِ فِي دَرْبِ الْفَنَاءِ
خَرَجْتَ أَخِيرًا مِنْ صَدُورِ الْغَيْمِ عَاصِفَةُ الْبَقَاءِ
لَمْ يَتَحَمَّلْ مَوْجَةَ الشُّطْحَاتِ هَذَا أَيُّ سَاحِلِ
هَتَكْتَ يَا مَجْنُونُ أَسْرَارَ الْكِتَابِ بِغَيْرِ طَائِلِ

يَرْحَلُ كُلُّ كَائِنٍ وَيَذْهَبُ
وَأَنْتَ أَنْتَ فَارَسُ الْمِيدَانِ
يَا سَيِّدَ الْجِبَالِ وَالصَّحَرَاءِ
أَهْكَذَا قِيَمْتُكَ الذَّاتِيَّةِ
فِيهَا لَهَا بَصِيرَةٌ فِي كَدْرِ
لَا تَعْبِدِ الْأَرْضَ فَإِنَّهَا لَكَا
لَا شَيْءَ فِيمَا قُلْتَهُ وَلَا جَرَمَ
قَوْلٍ بِلَا فِكْرٍ وَلَا إِشَارَةٍ

حَوْتُ وَطِيرٌ ، لَجَّةٌ وَكُوكَبُ
وَقَائِدُ الْجِيُوشِ فِي الزَّمَانِ
جَنْدُكَ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ
هَدَرْتُهَا وَرَوَّحُكَ الْفَتْيَةَ
وَيَالَهُ مِنْ قِصْرِ فِي الْبَصْرِ
كُنْ رَاهِبًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مَلِكًا
فَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ سَيِّدَ الْحَرَمِ
وَعَمَلٌ تَنْقُضُهُ الْحَرَارَةُ

كُلُّ شَيْءٍ إِلَى التَّجَسُّدِ يَسْمَى
وَحَيَاةً بِغَيْرِ ذَوْقٍ ظَهَوِ
قُوَّةُ الذَّاتِ قُوَّةُ الذَّاتِ سُرٌّ
خَوْزُ الذَّاتِ يَجْعَلُ السَّيْفَ عَيْشاً
شَرَّدَتْ نَفْسَهَا النُّجُومُ وَلَكِنْ
لِفِرَاقٍ يَزُولُ كُلُّ وَجُودٍ
يُظْهِرُ الْبَذْرُ آخِرَ اللَّيْلِ فَرْدَا
كُلُّ نَوْرٍ أَخَذَتْهُ مِنْ غَرِيبٍ
قَلْبُكَ الشَّمْسُ فَاقْبِسِ النُّورَ مِنْهُ
كُلُّ شَيْءٍ سِوَاكَ - أَنْتَ - سَرَابٌ
شَوْكَ صَحْرَانَا يَحُلُّ بِلَطْفٍ
فَامْضِ فِي الشَّوْكَ حَافِياً وَتَفَرَّحْ
لَغَزْ هَذِي التَّدَاخِلَاتِ وَإِنْ لَمْ
شَوْكَ صَحْرَانَا يَغُورُ بِرَفَقٍ

(٣٢)

مَا لِمُلْكِكَ الْغَرْبَ خُلْدٌ
كُلَّمَا شَيْءٌ صَارَ حَافِياً
عِنْدَمَا أَنْهَيْتُ شَيْئاً
صَرَخَاتُ الْعُشِّ بِرَقٍّ
أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ فَالْزِمْ
مَا عِنْدَ عَزِّ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَسْوُلُ
سَيِّدُ الْأَحْرَارِ عَبْدٌ
فَاحْفَظِ الذَّاتَ وَصُنْهَا
كَيْفَ (إِلَّا اللَّهُ) لَمْ تَذْمَعْ أَسَاطِيرَ مَسْطُورِ
بَلَغَ الْعَضْرُ أَشَدَّ
ضَحِكَ الشَّرْقِ وَهَدَّ
قِيلَ هَبْ لِلْعُشِّ ذَاتَا
تَمَلَّأَ الْعُشُّ حَيَاةً
لَيْسَ لِلْحَرِّ تَحْوِيلُ
وَدَيْدَةَ اللَّهِ تَسْوُلُ
حَرَّمَ اللَّهُ بِذَاتِهِ
إِنَّهَا مِنْ عَتَبَاتِهِ
أَسَاطِيرَ مَسْطُورِ

أَيِّنَ ذَاكَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالطَّبْعِ الْمُسَيِّطِ
 كَمَ قُلُوبٍ فِي صُدُورِ
 دَرَسَ الْعِلْمِ اللَّذُنِّي
 وَذَوِي فِي فَطَرَتِكَ
 رُبَّمَا أَشْرَفَ إِقْبَالَ
 عَلَى السِّرِّ الْقَدِيمِ
 حَدَّثَ السُّرَّ حَدِيثاً
 كَحَمِيمِ لَحْمِيهِمْ

(٣٣)

لِمَ تَسْأَلُونَ الْقَوْمَ مَا هُوَ مَصْدَرِي ؟
 مَا زِلْتُ مِنْذُ وَجِدْتُ أَشْرُقُ سَائِلاً
 الْحُرُّ يَسْمُو فِي الْحَيَاةِ بِذَاتِهِ
 يَا أَنْتَ حَتَّى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
 أَسْرَارُ رُوحِكَ جَدُّ سِمَائِيَّةِ
 بِلَهِيْبِ أَنْفَاسِي الَّتِي أَطْلَقْتُهَا
 سِرِّي تَتَرَجَّمُهُ سِلَاطَةُ أَعْيُنِي
 لَوْ أَنَّ (نَيْشَهُ) جَاءَنِي بِحِمَاسِهِ
 صَرَخَاتُ وَجْدِي فِي الصَّبَاحِ تَلَطَّخَتْ
 رَبَّاهُ ! أَيُّ جَرِيْمَةٍ فَارَفْتُهَا
 وَأَنَا بِنَفْسِي لَمْ أُحِطْ بِمَصِيرِي
 وَأَغِيبُ فِي وَجْدِي وَفِي تَفْكِيرِي
 وَيَصُوغُ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ أَمْرِهِ
 أَفْتَى بِرَأْيِ كَلِيمِهِ فِي عَمْرِهِ
 فَلِمَ التَّرَاعُ عَلَى هِيَآكَلٍ مِنْ حَجَرٍ
 شَاهَدْتُ مَا تَخْفِيهِ أَعْمَاقُ الْقَدَرِ
 لَا تَسْأَلُونِي مَنْ تَكُونُ وَمَا هِيَ
 لِأَرِيْثِهِ (زَرْدَشْتَه) وَالْهِيَ
 بِدَمِي وَلَمْ أَسْمَعْ لَهُنَّ جَوَاباً
 لِأَكُونُ مَنْ قَتَلَنِي الصَّبَاحُ عِقَاباً

(٣٤)

تَدْخُلُ الْحَبَّ بِأَطْوَارِ السُّلُوكِ
 مَا كَانَ لِلرَّازِي وَلِلْغَزَالِي
 لَوْ لَمْ يِعَانُوا رَغْبَةَ الصَّبَاحِ
 فَيَا رَيْسَ الرُّثُلِ كُنْ حَلِيماً
 تَنْقُصْنَا شَجَاعَةَ الرُّسُولِ
 إِيَّاكَ يَا قُبْرَتِي مِنَ التَّلَفِ
 يُعَزِّقُ الْجَنَاحَ أَنْ يَطِيرَ
 يَكْشِفُ لِلْعَبِيدِ أَسْرَارَ الْمُلُوكِ
 وَالرُّومِي وَالْعَطَّارِ مِنْ نَوَالِ
 وَصَرَخَةُ الْحَيْرَةِ فِي الصَّبَاحِ
 لَا يَقْتُلُ الْيَأْسُ فَتَى حَكِيماً
 لَا تَنْقُصُ الرُّغْبَةُ فِي الْوَصُولِ
 فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ هَذَا الْعَلَفِ
 وَرَبِّمَا يَتْرُكُهُ كَسِيْراً

أَعَزُّ مَنْ أَتَاهُ الإسْكَندَرُ
دَرُوشَةُ تَنِمُّ عَنْ قَلْبِ مَلِيٍّ
شَرِيعَةُ الشَّجْعَانِ هَوْلَاءُ
وَمَا لَهُوْلَاءُ قَطُّ غَالِبُ

(٣٥)

جاءَ مَنْ عِنْدِهِمْ كِتَابٌ جَدِيدُ
فَإِذَا فِيهِ : يَا مَسَافِرُ أُمِّكَ
رَبِّمَا كُنْتَ ذَاهِباً مِنْ جَدِيدِ
عُصْنٌ طَوِيلٌ فَأَنْتَ أَيْضاً عَمِيقُ
أَنَا (سَيْفٌ خَرَجْتُ) مِنْ غَيْرِ غَمْدِ
يَجْرَحُ النَّاسَ مِنْظَرِي مِنْ بَعِيدِ
أَيُّ مُسْتَهْزِئٍ بِكُلِّ مَلَامِ
(هَذِهِ الْأَغْيَاءُ تَسْجُدُ لَمَّا
امْضَى يَا شَاهِدَ الشَّقَاءِ بِصَمْتِ
بَعْدَ مَا الْحَفْلَةُ انْتَهَتْ وَتَوَلَّوْا
وَهَبَ الْمُسْلِمِينَ إِقْبَالَ نَاراً
مَا عَلَى الْكَأْسِ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْمُ
ذَاكَ إِقْبَالَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ
وَأَخِيراً وَبَعْدَ لَاي طَوِيلِ

وَمَلِكُ (دَارَا) نَظْرَةُ الْقَلْبِ دَرِ
فِيهِ عَيْبُ أَسَدٍ عَلَيَّ
الْجَهْرُ بِالْحَقِّ بِلَا رِيَاءِ
هَذَا أَسْوَدُ اللَّهِ لَا تُعَالِبُ

صَرْخَةُ اللَّيْلِ أَوْصَلَتْهُ إِلَيَّا
وَتَفَكَّرُ بِمَا قَطَعْتَ مَلِيًّا
فِي طَرِيقِ كَمَثَلِ تِلْكَ عَسِيرِهِ
وَأَفْهَمَ الْقَضْدَ فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةُ
ضَاعَ فِي غَمْرَةِ الْمَعَارِكِ غَمْدِي
وَيَخْوِضُونَ فِي مَرَامِي وَقَضْدِي
خَطٌّ فَوْقَ الْمِخْرَابِ تِلْكَ الْحُرُوفُ
يَقْتَضِي الْأَمْرُ أَنْ يَكُونُوا وَقُوفًا
إِنْ تَكُنْ مَوْضُوعِي لَمَزَقْتَ نَفْسَكَ
جاءَ دُورِي وَقِيلَ : كَأْسَكَ كَأْسَكَ
فَإِذَا النَّارُ ذَاتُهَا فِي ذُبُولٍ !!
خَامِلٌ طَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْخُمُولِ
وَهُوَ مُسْتَفْصِمٌ بِحَصْنِ وَرْخِ
وَقَعَ الْبَارُ فِي حَبَائِلِ فُحْيِ

(٣٦)

أَنَا لَوْلَا مَوْجَةُ الرُّغْبَةِ لَمْ تَوْجِدْ حَيَاتِي
فَحَيَاتِي مَوْجَةُ الرُّغْبَةِ فِي أَعْمَاقِ ذَاتِي

كُلُّ حِينَ عَالَمِي يَضْطَرُّنِي أَطْلُقُ وَجْهِي
 عَلَى إِنْسَانٍ جَدِيداً يَحْمِلُ اللَّوْعَةَ بَعْدِي
 مَكْنُونٌ لِلنَّارِ أَنْ تَحْرِقَهُ عَشُّكَ هَذَا
 تَسْأَلُ السَّاقِي إِذَا لَمْ تَكُ ظِمْآنًا لِمَاذَا
 لَا تَقْلُ فِي الْغَرْبِ رَأْيَا بِبَرِّيهِ يَتَعَلَّقُ
 مَا شِئَهُ مِنْ كَهْرِبَاءٍ جَعَلْتَهُ يَتَأَلَّقُ
 لَا تَتَوَقَّ النَّفْسُ أَنْ تَخُكُمَ آفَاقَ الْفَضَاءِ
 حِينَ لَا تَتَصَفَّ الْأَبْصَارُ حَقًّا بِالْمَضَاءِ
 أَنَا لَوْلَمْ تَسْقِطِ الْأَوْرَاقُ عَنْ عَشِّي اللَّطِيفِ
 عَجَزَ الصَّيَادُ عَنْ صَيْدِي وَلَوْ وَقَّتِ الْخَرِيفُ
 عَنْ قَرِيبِ تَقْلِبِ النَّيَّاتِ أَقْدَارَ الْخِلَائِقِ
 لَيْسَ أَوْهَامٌ غَيْبِي إِنَّهَا جَدُّ حَقَائِقِ

(٣٧)

الْعَقْلُ هَذَا لَيْسَ يَقْهَرُ وَسْعُهُ وَسْعَ الطَّبِيعَةِ
 وَجْهًا لَوَجْهِ ضَعْفُهَا وَانْظُرْ لِقَوَّتِهَا الْمَطِيعَةَ
 الْحَقُّ : أَنَّكَ قَدْ أَضَعْتَ الذَّاتَ فَاطْلُبْ مَا أَضَعْتَ
 وَعَلَى الْعَطُورِ وَعَالِمِ الْأَلْوَانِ سَيَطُرُ مَا اسْتَطَعْتَ
 وَانْظُرْ مَقَامَ الْقَبَةِ الزَّرْقَاءِ لَيْسَ لَهُ حُدُودُ
 وَاخْتَرْ مَقَاماً مِثْلَهُ يَسْمُو بِذَاتِكَ فِي الْوُجُودِ
 أَشْجَارُ حَوْرِكَ عَارِيَاتٌ حَوْلَ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 أَوْقِفْ تَمَرُّقَ وَرْدِكَ الظَّامِي وَتَحْطِمْ الشَّقِيقِ
 لَمْ يَسْتَطِعْ ذَوْقُ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَوْكُدَ شَعْنَهُ
 اصْنَعْ بِذَوْقِكَ أَنْتَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ هِيَ صُنْعَهُ

وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ
جَرَتْ في قلبهم مجرى الدماءِ
ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)^(١)
بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقِيقَةِ
رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحِيقَةِ
تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقةِ
إذا كان الهوى كان الجنونُ
من الحسناءِ تفضَّحه العيونُ
بنو عثمان أتراكُ كذاكا
وصخرُ أولاءِ مرتفعٍ هناكِ
بإقبالِ الذي هَجَرَ القُصورا
وقد ملأتِ عوالمها نُسورا
ملوكيَّ لجينيَّ خفيفُ
ويدمي قلبه الحَرَمُ الشريفُ

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرُّثاءِ
حصادُ جهودِهِم ظلماتُ شكِّ
بنفسكِ ثِقْ تجذِّ (نغفور) عبداً
أنا حزني على هجري تبدَّى
بسكرةٍ قربه ، بصُراخٍ وَجِدِ
ومن يكُ شأنه حبّاً وسكراً
جری قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبِ
وذنبُ الرَّاَجِعين بلا نصيبِ
أما كانت بنو تيمور تركا
أولئك في ترابِ السند ضاعوا
بِمَ النُّسَاكُ في الحَرَمِ استبدَّتْ
ولم تَقوَ الملوكُ عليه يوماً
فما هو سرُّه ؟ الشَّاهين هذا
بطيرُ على القُصور فيزدرِها

في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدةِ
بلا عصا الكَلِيمِ لا يُعاشُ
بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ
ومالُهُ إلا طريقٌ واحدُ
لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

العلمُ أطلَقَ الحياةَ الراقدةِ
من كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ
ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ
والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدُ
حُجَّاجُهُ تَظَلُّ في تلْهُفِ

(١) ابن السماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنسبُ الكؤوسُ
النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

لو لم تسر في ظلام التُّرب نابتةً ما نَشُرت في فضاء الثُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ « لا » في البدء نافية وفي النهاية « إلا » تُكمل الشانا
إن لم تجيء بعدها « إلا » مثبتةً كانت على الموت « لا » في الدهر عنوانا
إن أمةً روحها لم يمض معتزماً عن « لا » فقد آذنت بالهُلُك إيذاناً

إلى أمراء العرب (٢)

هل يُشعدُّ الكافرَ الهنديَّ منطقُه مخاطباً أمراء العُرب في أدبٍ
من أمةٍ قبل كلِّ النَّاس قد أخذت بحكمةٍ فأعانتها على الثُّوب :
إخاءَ مصطفىويٍّ دون تفرقةٍ وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤها من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العُربِ

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبين فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّة والروس الشيوعيين خاصَّة .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينمى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وَيُنْقِصُ رَغْبَتَهُ مِنْ نَضِجِ
كَذَلِكَ أَغْلَنَ شَيْخُ الْحَرَمِ
لِتَسْمَعَ ذَلِكَ كُلُّ الْأُمَمِ
كَمُوسَى لَأَعْرِفَ أَسْرَارَهُ
وَمِثْلِي جَدِيرٌ بِمَا اخْتَارَهُ
تُهَنِّكَ أَسْرَارَهَا فِي الْبِلَادِ
عَيُونَ ضَعُفُ إِطْلَاقِهَا لِلْعِبَادِ
كَمِثْلِكَ عَطْشَانٌ لَمْ تَرْتَوِ
وَلَكِنَّا فِيهِ لَمْ نَنْصَوِ
فَكَانَتْ لَنَا أَرْضُ رُومٍ وَشَامِ
ذَهَبْنَا دَوَالِيكَ خَلْفَ الْأَنَامِ

فَكَمْ يَفْعَلُ الطَّيْشُ فِي عَقْلِهِ
لَقَدْ بَلَغْتَ صَرَخَتِي أَوْجَهَا
وَحَذَّرَنِي الْيَوْمَ مِنْ كَثْمِهَا
أَنَا لَمْ أَقْلُ ﴿ أَرْنِي ﴾ مَرَّةً
فَمُوسَى جَدِيرٌ بِالْحَاجَةِ
وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ
فَإِنَّ الطَّرَائِقَ هَذِي الْجَرِيئَةِ يَضْعُبُ إِطْلَاقُهَا لِلْعِبَادِ
تَضْرُغُ حَاشِيَةِ السَّالِكِينَ
فَأَيْنَ الْحِمَاسَةُ أَيْنَ النَّصَارَةُ
أَنَا لَمْ أَزَلْ عَطِشًا مَا ارْتَوَيْتُ
هُوَ الْحَبُّ أَسْمَى صَعُودٍ لَنَا
نَهَضْنَا بِأَسْلُوبِ دُرُوشِنَا
وَلَمَّا زَهَدْنَا بِأَسْلُوبِهِ

(٤٢)

مَعْرِفَةً يَغْطُهَا جَبْرِيلُ
فِي النَّاسِ مَا يُطْلِقُ إِسْرَافِيلُ
وَعُدَّتِي مَعْرِفَةُ الْأَيَّامِ
فَكُنْتُ فِي النَّيْرَانِ فِي نَعِيمِ

ذَاتِكَ فَالذَّاتُ الَّتِي تَدْعُمُهَا
وَأَنْ أَضَافَ الْحَبُّ عَوْنًا أَطْلَقْتُ
أَنَا خَلِيلُ هَذِهِ الْأَصْنَامِ
فِي النَّارِ الْقَوْنِي كِإِبْرَاهِيمَ

حَائِرَةٌ يَسْحَرُهَا التَّوَقُّفُ
تَجَاوَزَتْ غَبْطَةَ تِلْكَ الرَّاحَةِ
فَقَمْتُ إِذَا كُنْتُ بِلَا بَصِيرَةٍ
نَبِيلَةٌ كَحَدِّ سَيْفٍ بَاتِرَةٍ

قَافِلَةُ الْقَوْمِ بِوَضْعِ يَوْسُفَ
وَرُغْمَ هَذَا غَبْطَةُ السَّيَّاحَةِ
أَنَا عَلَى شِعْرِي شَدِيدُ الْغَيْرَةِ
أَنَا مَجَالِي الذَّاتُ فِي مِشَاعِرِي

تَذَكَّرْتُ رُوحِي دُرُوسَ الْفَرْبِ أَيَّامَ حُورِهِ سَكْرَنَ جَنِيبي
فَأَهْ يَا لِفَرَحَةِ الْحُضُورِ وَأَهْ مِنْ مَنْطِقِهِ الْمَغْرُورِ

هَذَا الزَّمَانُ لَيْلُهُ شَدِيدُ وَأَنْتَ عَنْ قَافِلَتِي بَعِيدُ
لَهَيْبُ زُفْرَتِي هُوَ الْمَصْبَاحُ لَكَ يُبَدِّدُ اللَّيْلَ وَيَقْشَعُ الْحَلَاكَ

حِكَايَةُ لَيْسَ لَهَا نَظِيرُ بَسِيطَةٌ لَكِنَّهَا تُثِيرُ
ثَبَاتُ إِسْمَاعِيلَ مُتَبَدِّهَا وَمَقْتَلُ الْحُسَيْنِ مِنْتَهَا

(٤٣)

غَصَنُ الْعَقِيدَةِ فِي الْمَدَارِسِ عَارِ وَمِذَاقُ أَدِيرَةٍ بِلا أَسْرَارِ
بِالزُّعْمِ مِنْ طُولِ الطَّرِيقِ وَعُشْرِهِ عَيْنَاكَ ظَاعِنَةٌ وَقَلْبُكَ سَارِ
أَسْفًا لَدَيْنِ لَيْسَ يَكْسِبُ دَوْلَةً وَلِدَوْلَةٍ وَقَفْتَ كَخَيْبَرِ وَجْهِهِ
مِنْ أَيْنَ لِلْأَثْنَيْنِ كَرَّةٌ حَيْدَرُ يَلْقَى سَخَافَتَهَا وَيُضْلِحُ فَقْهَهُ
لَا تَبْلُغُ الْعُلَمَاءُ بَاطِنَ مُؤْمِنٍ وَمِذَاقُ رَغْبَتِهِ وَلُطْفَ تَأْمُلِهِ
أَسْرَارُهُ فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِهِمْ وَجَمَالُهُ فِيمَا وَرَاءَ تَجَمُّلِهِ
وَعَجُوزُ حَانَتِنَا يَقُولُ مُؤَكِّدًا عَنْ صَرَحِ أَوْرَثَةِ الْمَضِيِّ الْمَعْتَمِ
هَذِي الْمَرَايَا مِنْ جَلِيدِ مَا لَهَا وَسُحَّ لَتَعَكِّسَ نَوْرَ قَلْبِ الْمُسْلِمِ

(٤٤)

الْحَادِثُ الْمَحْجُوبُ قَبْلَ ظَهْوِهِ لِلنَّاسِ تُغْلِنُهُ نَقَاوَةُ مُهْجَتِي
لَا حِظَّ لِلْأَفْلَاكِ مِنْ دَوْرَانِهَا فَالَسَّرُ مَظْهَرُهُ جَسَارَةُ صَرْخَتِي
أَتَرَى بِلا رُوحِ شَرَارَةِ أَنْتِي أَمْ أَنَّ عُشْبَكَ مَا يَزَالُ نَدِيًّا

صرخاتُ هذا القلب في صلّصاله
لن يَحْمَدَ اللَّهَبُ الذي في طيبتى
بالرُّغم من قَدَرٍ قد اِزْتَبَكْتَ به

(٤٥)

في حواشي الصُّوفيِّ إلا غبارا
كَبَدَتْه هزيمةٌ وشنّاراً
وارتضى هذه الحياة السَّقيمة
وقصّاراه أن يكونَ غنيمه
يصلُّ الليلَ حولها بالنَّهار
أولياءَ يقولُها للصُّغارِ
في الرّوايا وفي تكايا السُّلوك
كيف دَبَّتْ إلى قُصُورِ الملوك
أيُّ يومٍ مضى عليك كيومي
يَطْفَحُ النَّجَاحُ في منازلِ قومي
والَّذي عند كلِّ مُلَأٍ وصوفي
ووقوفاً يكونُ مثلَ وقوفي
عريباً أم لا ، معانيه يفيضُ
وعن العالمِ الأخيرِ يفيضُ
نظرةُ السَّاقِي في الفؤادِ كنُضْلٍ
فَلَوْهُ فديته لِمَ قَتَلِي ؟
يَضْبَعُ الرُّوحُ مِنْهُ لونا فلونا
ودواءُ يكونُ للدَّاءِ عَوْناً

ما وَجَدْنَا وقد بَحَثْنَا كثيراً
يَدَّعي أَنه يخوضُ حروباً
كيف زالت حرارةُ الحبِّ عنه
حرُّبه لم تكن لِيَغْنَمَ شيئاً
كُتِبَ الْقَوْمُ عنده فوقَ بعضِ
ما تَبَقَّى لديه إلا حكايا
ما تعجَّبتُ أن يشيعَ خرابٌ
عجبي من نهايةٍ مثلَ هذي
امضِ يا شاهدَ الشَّقَاءِ بصمتِ
مثلَ سَجَّادةِ الصَّلَاةِ نفاقاً
الكتابُ الَّذي يَمُوجُ بياضاً
يملاً الحشرَ حيرةً وارتباكاً
وسواءٌ كان ابنُ آدمَ هذا
وعن العالمِ الَّذي هو فيه
ذهبتْ سكرةُ المَاءِ ولكن
ولها فيه طعنةٌ بعد أخرى
لا يذمُّ البستانُ مرَّ غنائي
رُبَّ سُمٍّ يكونُ ترياقَ داءِ

أقصى مواهب أوربة الشيطنة أن
كم وردة قصفت في روضنا يدها
حرارة الحب من خمر اليقين وما
هب المدارس يا رباه حرقتها
متى سمواتنا تنشق وزدتها
هذي السماء التي أغرت كواكبنا
سماء شيطان ما فيها ملائكة
العقل حجتنا طراً فما أحد
هذا الجنون - ومن يدري حقيقته -
العقل عند جميع الناس منهجه
والمؤمن الحق هذا الكون أجمعه

تقلب العصر في ليل من التيه
ما مرقت طوق زر واحد فيه
لمنكر الحب إلا الوهم يفييه
فحسنها بارد لا روح تذكبه
متى ابن آدمنا هذا ترقبه
اللازوردية المجنونة الفرحة
رأس منير واكن نظرة وقحة
إلا وللعقل مصباح بمذهبه
لعله هو أيضاً أن يصاب به
ولم يكن من خصوصيات إنسان
ميراثه ، وأنا - لولاك - برهاني

ليس سهلاً فقبل بدئك فارجع
موضع الدرة الفريدة صعب
ما لسنجار أول (طغرل) حظ
حيرة الفكر أم حماسة رومي ؟
هي أسلوب ثعلب في ظلام
حيلة الإنكليز تظهرها أم
أهي في هذه الشريعة قامت
أم هي الوجد في فؤاد ملب

يرفض البحر أن يقول لماذا
وخلال الطريق تعرف هذا
من عيون القلندر^(١) الملكية
وجد موسى أم فكرة فلسفيه ؟
أم (يد الله) في طريقة حبه ؟
هجمات التركي داخل حربه
تخرس المعبد الذي شيدته ؟
يُمسك الكعبة التي ألهمته

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كُنْ غَنِيًّا وَكُنْ إِذَا شِئْتَ عَبْدًا أَوْ أَمِيرًا مَا بَيْنَ (سَمْعًا وَطَاعَةً)
كُلُّ هَذِي الْأَقَابِ الْقَابُ وَهَمِ لَا يَكُونُ الْوَصُولُ دُونَ شَجَاعَةٍ

(٤٨)

لَيْسَ لِلْجُنْدِ غَيْرُ شَكْلِ سِوْفٍ لَيْسَ لِلتَّاجِ غَيْرُ لَمْعَةٍ جَوْهَرٍ
فِي عُرُوشٍ وَفِي جِيُوشٍ بَحْثًا مَا عَثَرْنَا عَلَى فَوَادِ الْقَلَنْدَرِ
لَمْ تَحْصُلْ مِنْ (لَا إِلَهَ) ضِيَاءُ هَذِهِ الذَّاتُ لِلطَّرِيقِ الطَّوِيلِ
أَصْبَحْتَ مَعْبَدًا لِأَصْنَامٍ وَهَمِ عِنْدَمَا ضِيَعَتْ حَوَارِ الْخَلِيلِ
يَصْنَعُ الْحَرُّ كَوْنَهُ بِجَهَادٍ وَيَرَى فِي تَدَخُّلِ النَّاسِ عَارًا
لَسْتَ أَجْرَةً لِقَصْرِ غَرِيبٍ لَسْتَ فِي وَقْعَةِ الْحَيَاةِ غُبَارًا
كُلُّ مَا فِي سَمَائِنَا مِنْ مَدَارٍ لَا يَسَاوِي مَدَارَ هَذِي الْقُلُوبِ
وَمَصِيرُ الْقُلُوبِ أَبَعْدُ شَأْوًا مِنْ غِبَارٍ مَشَرَّدٍ فِي الدُّرُوبِ
قَالَ أَهْلُ الْبَحَارِ أَهْلُ الْبَرَارِي : لَيْسَ لِلْغَرْبِ غَيْرُ رَاحَةٍ يَأْسِهِ
وَاقِفٌ فِي طَرِيقِ سَبَلٍ عَنِيدٍ لَيْسَ يَقْوَى عَلَى حِمَايَةِ نَفْسِهِ
قِفْ قَلِيلًا فَأَنْتَ أَيْضًا قَدِيرٌ وَلَكَ الْحَقُّ فِي اخْتِيَارِ الْحَيَاةِ
كُلُّ فَجَرٍ يَطْلُ تَبَدُّعٌ كَوْنًا صَرْخَةُ الْوَجْدِ فِي عَوَالِمِ ذَاتِي
أَنَا فِي حَانَتِي قَنَعْتُ بِدَنِّي لَسْتُ مَمَّنْ يَطُوفُ حَوْلَ الْكُنَائِسِ
أَبَدًا لَا تَقْدَمُ الْخَمَرُ هَذِي نَفْسَهَا فِي رَحَابِ تِلْكَ الْمَدَارِسِ

(٤٩)

لَمْ تَهَبْ لِي الطَّبِيعَةَ الْيَوْمَ فِكْرًا ثَابِقًا ، غَيْرَ أَتْنِي لَا أَبَالِي
عُدَّتْ طَيْتِي طَيْتِي الَّتِي وَهَبْتَنِي طِيرَانِي الْمُخِيفُ عَبْرَ اللَّيَالِي
طِينَةٌ بِالْجَنُونَ تَضُقُّلِ حُسْنِي طِينَةٌ تَجْعَلُ الْغَبِيَّ نَبِيهَا
رَبِّمَا مَزَّقَتْ لِجَبْرِيلَ سِرًّا وَرَأَى قَوْلَهُ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾
طَيْتِي لَا يَهْمُهَا صُنْعَ عَشْرٍ مِنْ دَقَاقِ الْأَغْصَانِ فِي الْبُسْتَانِ

وَجِيئَ النُّجُومُ يَرْشَحُ عَاراً لِبَرِيْقِ الدُّمُوعِ فِي أَجْفَانِي

(٥٠)

يَقْصِدُ الْمُبْدِعُ الْغُيُورُ بِلَاداً لا إِلَى الْكُوفَةِ الَّتِي مَا اسْتَطَاعَتْ
نَظْرَاتِي الَّتِي تَمُوجُ فَتُوناً مَنَحْنِي فِي حَانَةِ الْغَرْبِ صَحْوَاً
لَسْتُ أَحْتَاجُ فِيلَسُوفاً وَمُلاً كَيْفَ لِإِلَاهُوتِي أَبَدِي أَزْدِرَائِي
الذَّرَاوِيشُ يَطْرِبُونَ لِهَذَا لَسْتُ أُغْنِي بِمِثْلِ هَذَا فَدَعْنِي
مَمَكْنٌ يُشْتَرَى غَنًى (أَبْرُويز) وَمَحَالٌّ جِرَاحٌ (فَرِهَاد) تُشْرَى^(٢)

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذا فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذا فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانية أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .

وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحة سليمة مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أن الحب لا بد أن يفتك بالمحب والمحبوب معاً . وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .

قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر =

والذي يجعل القلبَ حراً
لستُ عن متعةٍ أمزق ثوبي
طمعي الفرد والمطامع كُثرُ
رأي غاندي إن كنتَ غيرَ قويٍّ
ليس إلا عصا الكليم لسحرِ

(٥١)

إقبالُ تُحزِنُه الملائكةُ التي
وقحُ يَهْتِكُ للطبيعة سرَّه
لا ينتمي للأرض وهو سليلها
مُتَعَدِّدُ الأوصاف في قدراته
قَلْبُ رِياحِ الخدِّ تملأ صدره
في ظلِّ مذهبه الملائكةُ اهتدت

(٥٢)

لُغْبَةُ النَّزْدِ لم تكن دونَ نردٍ
خمرةُ القومِ لا تُنالُ بِخُحٍّ
كأسُ جمشيدٍ لمُعْها في دوامٍ
ليس قلبي وليس قلبُك فابحث
ليس للعاجزِ الضَّعِيفِ حياةٌ
لا تقلُ في الصَّلَاةِ : وجهت وجهي
نحن سَجَّادَةٌ له حركاتُ
إنَّ حرباً أبطالها نحنُ حربُ

عَذْبَةً مَلُؤَهَا الطَّرَبُ
 مَلِكُ تَرْكِ وَلَا عَرَبُ
 حَسْبُهُ كَنْزُهُ الدَّفِينُ
 لَهْجَةُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ
 صَنْعَةُ الْعَاجِزِ الدَّلِيلُ
 حَسْبُهُ صَنْعَةُ الْخَلِيلِ
 إِنَّكَ النَّجْمُ وَالْمِدَارُ
 ذَلِكَ النَّقْعُ وَالْغُبَارُ

لَغَةُ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ
 لَكِنِ الْحَبِّ لَمْ يَكُنْ
 حَسْبُهُ الْبَعْدُ عَنْهُمَا
 حَسْبُهُ الْحُبُّ إِنَّهُ
 نَحَسْتُ أَصْنَافَ آزِرِ
 وَالَّذِي يَطْلُبُ الْعُلَا
 لَسْتُ نَقْعاً مَجْرُداً
 مِنْ جَنُودٍ مَثَابِرِ

(٥٣)

بَدَأَ الْمَسِيرَ فَقُمَ مَعَ الرُّكْبَانِ
 يَتَوَقَّعُ التَّرَحُّالَ كُلَّ أَوَانٍ
 دِيراً وَعَصْرُكَ غَيْرُ طَبِيعِكَ فَإِنْ
 أَوْ لَمْ يَدْعُ لِلْعَقْلِ مِنْ سُلْطَانٍ
 وَطَوِيلَةً وَكَثِيرَةً الْأَشْجَانِ

دَوَى النَّدَاءُ عَلَى الْقَوَافِلِ مَعْلَناً
 أَوَاهُ مَاذَا يَفْعَلُ السَّارِي الَّذِي
 انْهَضَ فَخَمَرُكَ لَا تَنَاسِبُ هَاهُنَا
 سَيِّانَ كَانَ الْقَلْبُ عَبْدًا طَائِعاً
 فَالذَّبُّ يَا هَذَا الْمَسَافِرُ صَعْبَةً

(٥٤)

خَمَدَتْ لَوَاعِجُهَا عَلَى الْأَغْصَانِ
 فَاَنْظُرْ لِأَثَارِي مَدَى الْبُسْتَانِ
 وَهَتَكَتُ لِلْبُسْطَاءِ سِرَّ الْحَانِ
 وَمَلَأْتُ أَنْفُسَهُمْ بِرَشْحِ دِنَانِي
 أَطْلَقْتُ فِي الْحَرَمِ الشَّرِيفِ لِسَانِي
 مَزَقَّتْهُ بِاللَّحْنِ مِنَ الْحَانِي

نَفْسِي يُؤْجِجُ نَارَ وَزْدَتِكَ الَّتِي
 لَمْ يَهْدَأِ الْبُسْتَانُ مِنْذُ أَتَيْتُهُ
 أَيْقَظْتُ قَلْبَ الْعَارِفِينَ بِصَدْرِهِمْ
 وَوَهَيْتُ لِلْجِيلِينَ ذَوْقَ لَهْيِهِمْ
 أَنَا أَعْجَمِي الْحَبِّ إِلَّا أَنَّنِي
 كَمْ ثَوْبٍ إِحْرَامٍ عَلَى مَتَضَرِّعٍ

متلطفٌ قلبي بنظرةٍ عادِلٍ
 في الشَّامِ أم في الكوفةِ النَّزْدُ الَّذِي
 أخشى يكونُ كلاهُما متعثراً
 لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ
 فقرُ الجُنَيْدِ ومَلِكُ سنجارٍ به
 بالرُّغمِ ممَّا قُلْتُ قبحي ظاهراً

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقِهِ يتسامى
 لولا تجاوزه لكلِّ وجوهه
 لا تفتحُ الأنسامُ بُزعمَ وردةٍ
 طهرُ العيونِ هو الحقيقةُ كُلُّها
 هذي الشَّقَائِقُ تَحْرِقُ القلبَ ارتمتْ
 كوقائعِ (الغوري) و(أبيك) ^(١) عَطَلَا

أبدأ يريدُ الكَرَّ والإقداما
 ما كان في فَلَكِ السَّمَاءِ إماما
 بلهاءَ عن شمسِ الصُّبْحِ تحيدُ
 والقلبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ
 في الحَقْلِ ما احتملت سيوفَ سنابِلِه
 ونشيد (خسرو) في قلوبِ بلايلِه

(٥٦)

يا أَيُّهَا الإنسانُ كُنْ يَقْظاً فَدَرْبُكَ فِي السَّمَاءِ
 لا ترمِ نَفْسَكَ خَلْفَ هذا الضُّبْحِ أو ذاكِ المساءِ
 الدَّزْبُ ذلِكَ ماله زَمَنٌ لِيَأْسُفَ رَكْبُهُ
 وَمَنْ الَّذِي يَدْرِي وَيَعْرِفُ أَيْنَ تَنْشُبُ حَرْبُهُ
 لا سِرٌّ يَنْبُضُ فِي التَّسْكُوعِ وَالتَّمْخُلِ وَالْيَقِينِ
 فوقَ المَواخِرِ والمَسَاجِدِ والكنائسِ أَجمعينِ

(١) هو قطب الدين أبيك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى
 سلالات سلطنة دهلي بشي مناراً عالياً يُسمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم
 الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

الـؤلؤ الفرؤ الؤؤى قؤ نؤؤ عن صؤر المؤارة
مؤلاء فى ءمؤ الصؤاؤ ولىس فى ءؤؤ المؤارة
القؤرمؤؤى المؤؤؤ لا ءؤؤاؤ مسؤوقاً ءىاع
والؤازؤ المؤؤؤؤ لا ءرضى بالؤان الرؤاع
الؤان هؤا العصر ءلزمها الكؤىر من الؤؤاء
إؤ طالما الصؤؤ الؤى فى السؤر ءؤطىء فى العناء

(٥٧)

ءمؤؤ مؤرسة الأسود رأؤها
ؤارؤ علفها الؤاؤاؤ فأصؤؤ
ما للؤوافل من ءقؤؤ ركاءها
من أىن للؤصفور ذوق نشفءه
لأه لأنفاس مؤؤؤ وكأؤها
وهى الؤى أؤؤ لهىبؤ مؤاله
فى لفل ءهؤفه هناؤ وؤؤؤه
هل ءهؤة أؤرى وؤؤؤ أؤرؤ
ؤؤرى نألق كالبروق بللفهم
ولفلم القرباء لىؤ فؤة

ءبكى أباطرة الزمان الؤاهؤ
مرعى لؤرفان وؤؤرؤعالب
بؤوار مؤسى فى رؤاب الله
والؤمع ساه والمؤرؤؤ لاه
طفؤ ومؤرؤ بؤلك البؤسان
وهى الؤى رؤؤه بالالؤان
ظلماءؤ ءارىؤ ءؤرؤ نفؤه
ءرؤى ءقلفؤه وىملاً كأسه
لبروا ءقلفه هؤه الؤناء
ؤمراؤ هؤا السؤر فى الصؤراء

(٥٨)

أؤؤؤر البىؤ الؤى قؤ قاله
(سىظلؤ عالما برؤم صؤابه
البؤؤ ءلزمه مؤاهؤ باشق

سلمان^(١) ذاك الشاعؤ الؤرؤ الأمفن
(سىظلؤ) مؤؤؤاً أمام العاملفن
وفؤاؤ لىؤ لا ءؤافؤ جؤوؤا

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسى مشهور ، ربما وُلد فى لاهور فى العهد الفزنوى
(إقبال) .

يَجِدُ الشُّجَاعُ طَرِيقَهُ مَفْتُوحاً
يَشْدُو فليسَ السِّرُّ فِي الْاِثْنَيْنِ
السِّرُّ فِي سَمْعٍ وَرَقَةٍ عَيْنِ

مَنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَغَيْرِ قِرَاءَةٍ
دَغَّ عَنْكَ طَاوُوساً يَتَبُهُ وَبَلْبَلاً
السِّرُّ لَيْسَ بِنَغْمَةٍ وَبَصُورَةٍ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

قَلْبُهُ تَحْتَ عَرْشِهِ مُسْتَقَرُّهُ
عِلْمُهُ بِالتَّجَرُّدِ الْحَقُّ سِرُّهُ ؟
وَهُوَ يَرْمِي لَصَوْغِ عَيْنِ وَقَلْبِ
وَهِيَ بَحْثٌ عَلَى مَجَرَّدِ دَرْبِ
وَهِيَ لِلنَّاسِ فَيْلَسُوفٌ وَقَاضِ
وَهِيَ لَيْسَتْ سِوَى أَقَاوِيلِ مَاضِ
وَهِيَ سَكْرَانَةٌ بِخَمْرِ الرَّذِيلَةِ
لَيْسَ فِيهِ رَذِيلَةٌ وَفَضِيلَةٌ
لَيْسَ سَيِّئَانِ وَالَّذِي يَقْتَضِيهَا
طَبَعُهُ الدَّاتُ الَّتِي يَقْتَضِيهَا
عَنْ جِيوشِ تَخَافَ وَهَمِ الْفَنَاءِ
كَسَرَتْ عَيْنُهُ مَرَايَا السَّمَاءِ

لَيْسَ يَقْوَى عَلَى الْقَلَنْدَرِ دَهْرٌ
سِرُّهُ لَيْسَ فِي الْعُلُومِ وَلَكِنْ
هِيَ تَرْمِي لَصَقْلِ عَقْلِ وَفَكْرِ
هُوَ دَرْبٌ بِذَاتِهِ مُنْقَلَبٌ
هُوَ عِنْدَ الصُّعَابِ عَيْسَى وَمُوسَى
هُوَ لِلْسِرِّ وَالْبَصِيرَةِ رُوحٌ
هُوَ سَكْرَانٌ بِالْفَضِيلَةِ سَارٍ
مُطْلَقُ الشُّكْرِ فِي الْحَقِيقَةِ حَالٌ
الَّذِي يَقْتَضِي التَّجَرُّدَ شَيْءٌ
نَظَرُهُ النَّفْيُ لِلْقَلَنْدَرِ سَيْفٌ
وَاحِدٌ مِنْ جُنُودِهَا الْحَقُّ يُغْنِي
وَإِذَا الْمَرءُ كَانَ صَاحِبَ قَلْبٍ

(٦٠)

لَمْ يُجْمِعُوا إِلَّا عَلَى إِقْصَائِي
وَبَقِيَتْ مَجْنُوناً بِلا صَحْرَاءِ
أَسْتَارُ كَعْبَتِنَا بِوَجْهِ صِيَاحِي
طَافَتْ عَلَى الْحَرَمِ الشَّرِيفِ جِرَاحِي
دُونِي وَمَا حَارُوا بِأَيِّ جَوَابِ

وَقَفَ الْجَمِيعُ بِعَارِضُونَ نَدَائِي
ذَهَبُوا مَعَ الصَّحْرَاءِ خَلْفَ جُنُونِهِمْ
حَمْدًا لِمَنْ رَجِمَ الْعِبَادَ فَأَسَدَلَتْ
وَبَقِيَتْ وَحْدِي مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ
فَقَهَاؤُنَا وَقَفُوا بِصَوْتِ وَاحِدِ

لا مثل أفلاطون بين حضوره
كانت رجال الفكر تنبض جراحة
نفس إذا القرآن ما انتفعت به
إن كنت من وهم بشيء مفرح
في خمير أوربة شعاع ذائب

(٦١)

جعل الوجد والتعقل دربا
تركته في ساحة الحب نهبا
ثم كانت عذولة ورقية
مخفل يربك الضمير خطية
فأقرئوهم من شعر إقبال بيتا
كل ما في يديه لولا ولئت
وانتهاك لحرمة الساجدين
لوجوه الرهبان والسالكين
من بقايا الأسرار يكشف بعدي
ليس عصراً لذي جنون ووجد
ثم غصن في البحار واعثر عليها
ليس من شاطئ يقود إليها
من تراني أنا وما جنسي ؟
قفصي الكون ؟ أم نهاية نفسي ؟
وكأني في أرض ذاتي دخيل
سهر دائم وليل طويل
وغنائي أشد نقشاً ولونا
تارة أطلب الفراق لأفنى

عجبا من مغامرات ذكي
لم تزل حوله المواجد حتى
كيف ناحت حمامة الأيك قربي
إنني مدرك إلى أين يمضي
قيل إن الأتراك بالشعر أدرى
(لا يكون القوي جاز ضعيف
ما طقوس المساجد اليوم ؟ ظلم
ما سلوك الكنائس اليوم ؟ سوق
في ردائي الذي تمرق سر
لا يليق الجنون بالعصر هذا
أضع النفس في البحار وغامر
وأقم بين ضجة وتلو
هل لمثلي من الفضاء نصيب
جئت للأرض ؟ أم تخلق منها ؟
كم تعثرت في متاهات ذاتي
بين نفسي من الخصام وبينني
قصة الحب ألف نقش ولون
تارة أملاً الحياة وصالاً

الْيَقِينُ الْيَقِينُ جَلْسَةُ حَبِّ
سِرُّهُ أَنْ تَقُومَ لِلَّهِ شُكْرًا
كَعْبَةُ الْعُرْبِ أَطْلَقَتْ كُلَّ لَحْنٍ
كَيْفَ تَسْمُو حَضَارَةٌ لَيْسَ فِيهَا
صَوْتُ قِثَارَتِي الَّتِي سَمِعُوهَا
شَهِدَ الْغَرْبُ أَنَّنِي غَزَنُويُّ
أَيُّهِيْمُ الْفَوَاذُ فِي كُلِّ حَسَنِ
رُغْمِ أَنَّ الزَّمَانَ لِلْقَلْبِ غِلُّ
أَيُّهَا الْمُسْلِمُ الَّذِي يَشْتَكِينِي
لَا تَخَفْ مِنْ صِرَاحَتِي فِي حَدِيثِي
طِيرَانُ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ كَهَذَا
لَيْسَ يَعْنِي إِنْ كَانَ جَدُّكَ بَازًا
أَهٍ لِلْمُسْلِمِ الَّذِي بَاتَ رَسْمًا
سَأَلُونِي فَقُلْتُ : يَوْجَدُ ، قَالُوا :
لَا يَبَالِي الدَّرُويْشُ عُسَرَ طَرِيقِ
اسْأَلِ اللَّهَ أَنْ تَكُونَ بِصِيرًا
إِنَّهَا الذَّاتُ عِنْدَمَا تَتَجَلَّى
إِنَّهَا نَفْسُهَا حِجَابُ إِلَهٍ
تَصِلُ الذَّاتُ قَابَ قَوْسَيْنِ لَكِنْ
كُلُّ شَيْءٍ هُنَاكَ تُغْرِبُ عَنْهُ
صَنَمُ الْعَيْنِ كُلُّ لَوْنٍ تَرَاهُ

مِنْ خَلِيلٍ بِنَارٍ نَمْرُودَ يُنْفِسُكَ
وَقَصَّارَاهُ أَنْ تَلُودَ بِنَفْسِكَ
طَافَتِ الْفَرَسُ وَالْمَغُولُ عَلَيْهِ
حَرَمٌ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ لَكِنْ لَحْنِي حِجَازِي
حِينَ جَرَّعْتُهُ مَصِيرَ إِيَّازٍ^(١)
أَمْ يُغْنِي لَوْحَدَهُ فِي الزُّحَامِ
لَا يَذُلُّ الزَّمَانُ قَلْبَ هُمَامِ
لَا تَلْمُزْنِي فَأَنْتَ تَفْضَحُ عَيْنَكَ
إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
مَالِكَ الْيَوْمِ فِي السَّمَاءِ اجْتِيَازُ
أَنَّكَ الْيَوْمَ بِالْوَرَاثَةِ بَازُ
شَغَلْتَهُ عَنِ الْحَيَاةِ جُدُودُهُ
أَيَّنَ سُلْطَانُهُ وَأَيَّنَ وَجُودُهُ
وَيَرَى الْعُنْرَ عَوْنَهُ وَنَصِيرَهُ
فَسَلَاخُ الدَّرُويْشِ نَوْرُ الْبَصِيرَةِ
تَنْعُمُ النَّاسُ فِي ظِلَالِ النُّبُوَّةِ
عِنْدَمَا تَأْخُذُ الْكِتَابَ بِقُوَّةِ
لَا تَرَى نَفْسَهَا بِعَرْشٍ وَكَرْسِي
صَرَخَةُ الْفَجْرِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِي
يَجْعَلُ الْكَوْنَ هَيْكَلًا لِلْعُقُولِ

(١) كَمَا قَصَّ الْغَزَنُويُّ صِفَاتِ إِيَّازِ الَّتِي تَنْبُضُ إِغْرَاءً هَكَذَا فَعَلَ إِقْبَالُ بَضْفَاتِ أَوْرُوبَةِ فَعَادَ مِنْهَا
وَقَلْبَهُ فِي صَدْرِهِ وَفِي يَدِهِ قِصَاصَةٌ شَعَرَهَا مَنَادِيًا .

إِنَّ الْحَسَنَ الَّذِي يُمْكِنُ لِلْمَقْصُودِ أَنْ يَزْلُزَلَهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ كَعْبَةً لِلْقُلُوبِ .

مُمْكِنٌ أَنْتَ أَنْ تَكُونَ خَلِيلاً
فِيمَ هَذَا الْمُحِبِّ يَعْثُ سَكْرًا
لَمْ تَزِدْهُ الشُّبَّاهُ إِلَّا حُبُورًا
عِلْمُ رَازِي تَهَوُّزٍ وَانْحِدَارٍ
قِيَمَةُ الشُّكْرِ وَالْمَحَبَّةِ تَبْدُو
أَيْنَ مَنْ أَطْلَقَ الْحَيَاةَ بِعَقْلِي ؟
هُوَ فِي عُزْلَةِ الْفُؤَادِ مَقِيمٌ
أَنَا لَا أَرْكَبُ الْهُوَادِجَ هَذِي
أَرْشِدُ الرُّكْبَ لِلطَّرِيقِ وَأَمْضِي
حَطَبُ الْمَوْقِدِ الْغَلِيظِ مُمْلٌ
أَنَا لَا أَمْنَحُ الْحَصَادَ لِحَقْلِ
قَدْ تَنَقَّسْتُ لَيْسَ مِنْ نَارِ قَلْبٍ
شَعْلَةُ الْفِكْرِ لِلطَّرِيقِ ضِيَاءُ
أَرْضُنَا هَذِهِ لَطْهَرِكِ تَهْفُو
قَلْبُكَ الْمَطْمَئِنُّ قَبْضَةُ نَوْرِ
عَنْ يَدِ اللَّهِ طَرِزَتْ لَا عَنْ غِبَاءِ
وَلَكِ الْحُورُ وَالْمَلَائِكُ صَيِّدُ
أُتْرَى مَا لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيبُ
دُمُهُمْ كَانَ لِلشُّعُوبِ مَنَارًا
ذَاكَ أَنَّ الضُّلُوعَ خَارَتْ قُوَاهَا
سَجْدَاتُ رَتِيَّةٍ فِي خَمُولٍ
أَيْهَا الْمُسْلِمُ الْمَثَابِرُ يَرْجُو
كُنْ وَحِيدًا وَوَحْدِ اللَّهَ وَاكْشِفْ
كُنْ كَمَا الْمَوْجُ كُلُّ حِينٍ تَرَاهُ
انْتَزِعْ مِنْ يَدَيْهِ ثَوْبَكَ وَارْجِعْ

فِي صُرَاخِ الصَّبَاحِ بَعْدَ الْأَفُولِ
بِحِبَالِ الصَّيْدِ الَّتِي أَوْعَتْهُ
وَكَأَنَّ الشُّبَّاهُ قَدْ أَطْلَقَتْهُ
وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ عِلْمُ الْقَلَنْدَرِ
فِي السُّلُوكِ الَّذِي يَمُتُّ لِخَيْدَرِ
أَيْنَ ذَاكَ الَّذِي أَبَادَ حَصَادِي
وَسُؤَالِي الْوَحِيدُ أَيْنَ فُؤَادِي ؟
أَنَا لَا أَمْتَطِي الرُّكَابَ دَلِيلًا
لَسْتُ عَمَّا يُفْتَشُونَ بِدِيلًا
وَأَنَا رَغْبَتِي بِحَرِّ الدُّقَاقِ
عَمَلِي الْفَرْدُ وَالْوَحِيدُ احْتِرَاقِي
نَفْسًا بَارِدًا أَهَاجَ رَمَادًا
وَدَلِيلٌ لَهُ وَلَيْسَ مُرَادًا
أَنْتَ بَرَهَانُهَا وَأَنْتَ هُدَاهَا
مَنْحَتُ أَغْيُنِ السَّمَاءِ مَدَاهَا
أَنْتَ شَاهِينُهُ وَأَنْتَ رَسُولُهُ
ذَاكَ دِينَ وَلَيْسَ شَعْرًا أَقُولُهُ
مَنْ جَنُونِ الْحَبِّ الَّذِي أَطْلَقُوهُ
ثُمَّ هُمْ فِي ظِلَامِهِمْ أَهْرَقُوهُ
لَمْ يَعُدْ بَيْنَهَا لَهَيْبٌ يَصُولُ
وَصَفُوفٌ مُعْوجَةٌ وَذُھُولُ
ثَوْبَ تَقْوَاهُ كُنْ نَسِيحَ حَيَاتِكَ
سِخْرَ الْوَانِنَا بِقُوَّةِ ذَاتِكَ
يَدْرُسُ الشَّاطِئُ الَّذِي يَبْتَغِيهِ
لَا تَغْرُنْكَ الْإِقَامَةُ فِيهِ

التدى شفاً عن صدور ورويد
فؤور الخضرة النسيم صباحاً
احمرار الشقيق صورة نار
شعلة العقل للمسافر عون
ما هو العقل ؟ إنه ليس إلا
وضجيج الطريق من فعل قلب

ليس فيها من الخلاعة كفاءة
فورة ما لها هنالك دفء
ضاع في غمرة الحياة فؤاده
والذي يلهب الطريق مراده
نار مصباحنا بهذا الطريق
ليس للعقل منه غير بريق



القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الإسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أن هذا المسجد العظيم صورة للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوّ في الهمّة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراءة في النية ، وثبات على الحق ، وإعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر - والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوّي في الجوّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعون ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظير في الأصوات ، والتهافتات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصادق إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً و يقيناً بأن الأمة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود - لا تموت ولا تفنى .

حرّك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقريّة الإنسانية بين حين وآخر ، كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص^(١) - والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت - إن الدهر سريع ، ورفيق في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إن الحب غير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحب هو الذي تجلّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والشُرور ونشوة الخمر ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب ، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالة لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌّ وترحال ، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه ، هو الذي أطلق قيثار الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب - الحب - أصبحت مصنوعات سطحية من لون ، أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاقت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحران ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلفه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدرأ لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجدوا الإنسان ؟ ! » .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ التجار ، وأنَّه من إحدى بيوتات « البراهمة »^(١) ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام - كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقة بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « إن المسلم حي خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة ! » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الشفور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها المعجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق - العصر الجاهلي - بالرحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانه لبن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب

القسم الثالث

المرأة



بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمالاً شرقيّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز .

ثم يخاطب إسبانيا - الأندلس الإسلامي المغصوب - فيتغنى بأرضها التي تطاولت السماء سموّاً ورفعة ، ويتوجع على أنّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويشوّق إلى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فحدثت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرّر الفكر الأوربي ، وتحركت سفينته في بحرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتياً بلذة التجديد^(١) ، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقاً ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخّض بحوادثٍ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهّن بالمستقبل » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيداً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعبينه ، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس ، لو كشفت الفطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحث ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنّ جنونها » .

ثم يعود مرّة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلّ حياة لا تجديد

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفُ بئارٍ في يدِ القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختتم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة مأثورة ، مبنية على تجارب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ ماثرة وكلَّ إنتاج ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يذمَّ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للأدب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا^(١) ؟

(نُظِمَتْ فِي مَسْجِدِ قَرْطَبَةِ)

إِنَّ هَذَا الصَّرْخَةَ الْيَوْمَ الَّتِي تَفْضُحُ أَمْرِي
صَرْخَةُ الْقَلْبِ الَّتِي خَبَّأَتْهَا طِيلَةُ عُمْرِي
صَجْبَةُ الْأَطْهَارِ نَوْرٌ وَرَضَا اللَّهُ حُبُّور
وَشَقِيقُ الرُّوضِ كَاسَاتٌ عَلَى النَّهْرِ تَدُور
هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ أَذْكَرَ وَعَثَاءَ الْمَسِيرِ
وَوُضُوئِي لِصَلَاتِي مِنْ دَمِ الْقَلْبِ الْكَسِيرِ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

مع مَنْ يَمْشِي الَّذِي يَمْشِي عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ
 وَأَنَا إِلَّا رَجَائِي لَيْسَ لِي فِيهِ رَفِيقٌ
 أَيْكُونُ الْقَضْرُ عَشِي وَأَنَا أَكْرَهُ لَوْنَهُ
 أَنْتَ ذَاكَ الْعُشْرُ وَالْغُصْنُ الَّذِي يَسْتُرُ كَوْنَهُ
 أَنْتَ مَنْ أَطْلَقْتَ مَنْ صَدْرِي صَرَخَ الْفَجْرُ بَعَثَا
 لِي مِنَ التَّوْحِيدِ نَارٌ تُلْهِبُ الْعَالَمَ بَحْثَا
 بِكَ أَنْفَاسِي تَغْنِي لَكَ تَغْدُو وَتَرْوُخُ
 ذَاتِ شَجَرٍ وَحِمَاسٍ وَنَدُوبٍ وَجَرُورِ
 أَمَلِي أَنْتَ وَشُغْلِي طَلَبِي أَنْتَ التَّوْحِيدُ
 وَأَنَا هَذَا نَصِييِي غَيْرَ هَذَا لَا أُرِيدُ
 عِنْدَمَا تَخْطُرُ قَرِيبِي تَصْبِحُ الصُّحُورُ بِحَرَا
 وَإِذَا لَمْ تَكُ فِي الْبُسْتَانِ فَالْبُسْتَانُ صَحْرَا
 أَمْنِي مَرَّةً أُخْرَى وَلَوْ جَرَعَةً كَأْسِي
 عَلَّ أَنْ أُخْرَجَ يَوْمًا مِنْ طَوَافِي حَوْلَ نَفْسِي
 أَنَا مِنْهَا فِي خَمَارٍ كَيْفَ لِي أَشْرَبُ مِنْهَا
 كُلُّ حَانَاتِ الْوَرَى حَطْمُتُهَا فِي الْبَحْثِ عَنْهَا
 أَيُّهَا السَّاقِي مَتَى تَنْظُرُ لِي عَيْنُ حَنَانِكَ
 وَمَتَى الْجَمْهُورُ بِالْأَقْدَاحِ تَرْوِي مِنْ دِنَانِكَ
 خَلَقْتَكَ اللَّهُمَّ هَذَا لَمْ يَذُقْ ذَوْقَ فَتُونِي
 وَأَنَا، إِنْ لَمْ تَبْدُلْهُ يَبْدُلْهُ جَنُونِي
 مَا هُوَ الْعَارُ الَّذِي يُلْحَقُ هَذَا الْفِيلَسُوفُ
 وَهُوَ بِالسَّرِّ الَّذِي خَبَّأَتْهُ أَنْتَ يَطُوفُ !؟

نَسْمَةُ الْأَسْحَارِ هَذَا الَّذِي نَفَحَتْهُ اللَّهُ الْخَبِيرُ

فِي نَسِيجِ الرُّوحِ يَجْرِيهَا كُنُشُغٍ فِي الضَّمِيرِ
يَصْبِحُ الرُّءَايَا كَمُوسَى بِتَعَالِيهِ شُعِيبُ
﴿ لَا تَخَفْ ﴾ سَيْفٌ فَخَذَهَا وَهِيَ وَحْيٌ دُونَ رَيْبِ

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصة في قرطبة)

(١)

ضِيَاءُ الضُّبْحِ بَعْدَ اللَّيْلِ آتٍ (وَمِنْ هَذَيْنِ كُلُّ الْحَادِثَاتِ)
هَمَّا فِي الدَّهْرِ خَيْطٌ مِنْ حَرِيرٍ تَلَوَّنَ بِالْحَيَاةِ وَبِالْمَمَاتِ
هَمَّا إِيقَاعُ أَغْنِيَةِ الْحَجَابِ وَلَحْنُ الْحَقِّ فِي هَذَا الرُّحَابِ
عَلَى وَتَرِ الْخُلُودِ لَهُمْ نَشَاطٌ مُلِمٌّ بِالْقَرَارِ وَبِالْجَوَابِ
وَعِنْدَهُمَا بِكُلِّ النَّاسِ عِلْمٌ هَمَّا حَجَرُ الْمَحَكِّ لِكُلِّ شَفِيفٍ
فَلَا تَفْخَرْ بِقَلْبِكَ دُونَ زَيْفٍ وَجَرَّبَ مِثْلَمَا جَرَّبْتُ قَلْبِي
فَإِنْ هُوَ كَانَ زَيْفُكَ مِثْلَ زَيْفِي وَلَمْ يَكْ لِي وَلَا لَكَ أَيُّ قِيَمَةٍ
فَعَيْدُكَ مِثْلُ عَيْدِي عَيْدُ مَوْتٍ وَحُطُّكَ مِثْلُ حُطِّي فِي الْوَلِيمَةِ
وَمَا الْمَعْنَى لِيَوْمِكَ أَوْ لِيَوْمِي بِلَا لَيْلٍ يَكُونُ وَلَا نَهَارٍ
إِذَا عَبَرَ الثُّبُوعُ بِأَرْضِ قَوْمٍ تَوَلَّى مِثْلَ زَوْبَعَةِ الْغُبَارِ
حِكَايَةُ كَوْنِنَا وَهَمٍّ وَظَنٍّ وَهَذَا كُلُّ أَطْوَارِ الْحِكَايَةِ
مِنَ الْعَدَمِ الْبَدَايَةُ أَخْرَجْتَنَا وَتَرَمِينَا إِلَى الْعَدَمِ النَّهَايَةُ

(٢)

الْمَوْتُ لَا يَمْحُو رَجَالَ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ
الْحَبُّ فِي دِمِهِمْ تَلَوَّنَ بِالشَّبَابِ وَبِالْخُلُودِ

مهما يكن جريان هذا العصر جباراً عنيفاً
 فالحبُّ يَجْرُفُه ولكن سيُلْهيه يَبْدُو لطيفاً
 الأملُ والغدُ ليس وجهتنا التي نسعى إليها
 الحبُّ أزمنةٌ بلا أسماء نُطْلَقُ عليه عليها
 ما الحبُّ ؟ ما هو ؟ إنه وثبات أوقات الصفا
 في نفحة الوحي الأمين على فؤاد المصطفى
 ما الحبُّ ؟ سكرة وردة خلعت الجمال عذارها
 لعب النسيم بها عليه فقطعت أزرارها
 الحبُّ في ساح الجيوش هو المقدم والنبية
 والحبُّ في الحرم الشريف هو المشرع والفقيه
 أسأل به متسكعاً خلف الهوادج والقوافل
 بين الألوف من المنازل والألوف من المراحل
 الحبُّ ليس مغنياً الحبُّ إبداع الأغاني
 أوتاره نور الحياة وقوسه نار المعاني

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و (٥) و (٦)

قصر التاريخ ومسجده ما أروع ما صنعت يده
 للقوم بصدر حكايته صوت ما زال يُرَدِّده
 ظمأ لا ربي له وبه طلب الظمآن ومقصده
 يزداد برؤيته ولهأ ويريد يقوم فيقصد
 وكأن علائق زيتته خفقات القلب ومعقده
 في الصخر فنون سرائرنا بلطائفنا نعهده

لِيَهَيِّجَ رَيْنُنْ جَوَانِبَهُ بِأَتَيْنِ الرُّوحِ نَزْوُدُهُ
يَا ظِلَّ الْغَرْبِ وَدَوْحَتَهُ مِنْ ذَا تَارِيخُكَ يَجْجِدُهُ
بِكَ أَضْحَتْ تَرْبَةُ أُنْدَلُسٍ حَرَمًا فِي الْغَرْبِ نُمُجَّدُهُ
لَا نَدُّ لَهُ فِي سُوْدَدِهِ إِلَّا الْإِيْمَانُ وَسُوْدَدُهُ
عَرَبِيُّ اللَّحْنِ حَجَّازِيُّ رَوْحِ الْإِسْلَامِ تُخْلُدُهُ
يَمْنِيُّ الْعِطْرِ تَهَبُّ بِهِ أُنْسَامُ الشَّامِ وَتَخْشُدُهُ
نَظَرَاتُ ظَبَائِكَ لَاعِبَةً بِسَهَامِ الْحَبِّ تَكْبُدُهُ
أَنَا مِنْ كَفَّارِ الْهِنْدِ فِي نَظَرَاتِي مَا لَا تَجْحَدُهُ
وَحِمَاسُهُ أَغْنَيْتَنِي هَذَا مِنْ لَحْنِ قَلْبِكَ يُنْشِدُهُ
وَصَلَاةُ الْحَبِّ عَلَى شَفَتِي (وَعَلَى خَدَيْكَ تَوْرُدُهُ)
الْفِتْنَةُ وَجْهُكَ يَوْقِدُهَا وَأَنَا أَشْرَحُ مَا تُوقِدُهُ
تَوْحِيدُ اللَّهِ لَنَا نَوْرٌ وَحَيَاةُ الْقَلْبِ تَوْحُّدُهُ
لَوْ كُلُّ رِيَّاحٍ فِي الدُّنْيَا اجْتَمَعَتْ لَا تَقْدِرُ تُخْمِدُهُ
يَحْكِيكَ جَمَالًا وَجَلَالًا رَجُلٌ لِلَّهِ تَعَبُّدُهُ
وَحِمَاسُ ضَحَاهِ وَوَجْدُ مَسَاهِ وَمَا يَخْفِيهِ لَهُ غَدُهُ
وَمَسْرُوتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَتَوَاضُعُهُ وَتَوَوُّدُهُ
عَذْبُ الْكَلِمَاتِ خَفِيفُ الرُّوحِ رَقِيقُ الْقَلْبِ مُسَهَّدُهُ
أَبْدِيُّ الْحَبِّ نَقِيُّ الْحَرْبِ مَصُونُ الْعِرْضِ مَهْنَدُهُ
وَعَلَى يَدِهِ اللَّهُ يَدٌ بَلَطِيْفُ الْقُدْرَةِ تَعْضُدُهُ
الْعَالَمُ قَصْرُ خِلَافَتِهِ وَسَمَاءُ الْعَالَمِ مَعْبَدُهُ
سِرُّ الْكَوْنَيْنِ بِنَظَرَتِهِ وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ تَجَرُّدُهُ
وَسِرَابُ الْعَظْرِ بِنُورِ الدِّينِ وَنَارِ الْحَبِّ يُبَدِّدُهُ
هُوَ أَوَّلُ سِرٍّ فِي الدُّنْيَا وَرَجَاءُ الْكَوْنِ وَمَقْصِدُهُ
هُوَ مِثْلُكَ شَاغِلُ عَالَمِهِ بِقَدِيمِ الْحُسْنِ يُجَدِّدُهُ

كَنَخِيلَ الشَّامِ وَأَعْمَدُهَا شَمَخَتْ فِي الْمَسْجِدِ أَعْمَدُهُ
تَتَأَلَّقُ زَرْقَةً قَبَّتُهُ وَتَقِيْمُ اللَّيْلَ وَتُقْعِدُهُ
وَتَنْهَضُهَا فِي وَخْدَتِهَا كَالطُّورِ كَوَاهُ تَنْهَضُهُ
بَعَثَتْ جَبْرِيلَ مَنَائِرُهَا بِجَمَالٍ أَنْتَ مُحَمَّدُهُ
نَادَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى لَشَهْوٍ هَذَا مَشْهَدُهُ

(٧)

إِنَّ أَرْضاً أَنْتَ فِيهَا لَسَمَاءٌ لِلْعُرُونَ
كَيْفَ لَمْ يَسْمَعْ أَذَاناً أَهْلُهَا مِنْذُ قُرُونٍ
لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ أُسْرَى مَوْكِبُ الْحَبِّ الْغَضُوبُ
لَيْتَ شَعْرِي مَا يَرَى الْآنَ وَفِي أَيِّ الدُّرُوبِ
هَيَّجَ الْأَلْمَانَ حَوْلَ الدِّينِ إِصْلَاحاً عَرِيقاً !
بَدَّدَ الْأَسْرَارَ لَمْ يَتْرِكْ لَهَا بَيْتاً عَتِيقاً
أَصْبَحَتْ مِنْهُ هَبَاءٌ عَصْمَةُ الْبَابِ الْعَجُوزُ
وَأَفَاقَ الْفِكَرِ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً لَا يَجُوزُ
مَنْذُ أَنْ ثَارَتْ فَرَنْسَا بِدَا الْغَرْبِ الْعِرَاقَا
لَمْ تَعُدْ تُبْصَرُ فِيهِ بَعْدَهَا إِلَّا ارْتِبَاكَا
هِيَ ذِي رُومَا الَّتِي شَاخَتْ عَلَى الْعَهْدِ الْقَدِيمِ
تَحْتَسِي خَمِراً جَدِيداً مَعَهَا الْبَابَا نَدِيمِ
فِي فَوَادِ الْمُسْلِمِ الْيَوْمَ كَهَذَا الْغَلِيَانِ
هُوَ سِرُّ اللَّهِ عَنِ تَبْيَانِهِ كُلُّ اللِّسَانِ
فَارْقُبُوا مِنْ ذَلِكَ الْوَاثِبِ فِي بَحْرِ الْقَضَاءِ
وَارْقُبُوا الْكُؤُوبَ الَّذِي يَخْتَارُهُ مَاءُ السَّمَاءِ

تَمِيلُ سَحَابَةُ الْوَادِي فَتَحْكِي فِيهِ غَطَاسَا
 رَمَتْهَا الشَّمْسُ بِالْيَاقُوتِ أَكْدَاسَا فَأَكْدَاسَا
 وَأَغْنِيَةُ ابْنَةِ الْفَلَاحِ تُطْرِبُ رُبَّ رُغْمٍ رَغْتَهَا
 بِرَقَّتْهَا إِذَا غَنَّتْ وَأَهْتَهَا وَأَنْتَهَا
 كَأَنَّ غِنَاءَهَا فِيضٌ يُقْلُّ سَفِينَةُ الْقَلْبِ
 تَغَازِلُ نَهْرَ قُرْطُبَةَ الَّذِي يَذْخِرُ بِالْحَبِّ
 هُنَالِكَ يَزْتَعُ السَّارِي هُنَالِكَ تَضْدَحُ الْوَرَقُ
 كَأَنَّ النَّهْرَ تَارِيخٌ يَغْنِي فَوْقَهُ الشَّرْقُ
 نَعَمْ ، مَا زَالَ عَالَمُهُ الْجَدِيدُ يَحْوَطُهُ الْقَدْرُ
 وَمِثْلِي لَيْسَ يُعْجِزُهُ عَلَى إِدْرَاكِهِ نَظَرُ
 وَلَوْ هَتَكَتُ أَسْتَارِي وَأَسْفَرَّ وَجْهُ أَفْكَارِي
 لَكُلِّ الْغَرَبِ أَنْ يَحْمِلَ مَا غَنَّتْهُ أَوْتَارِي
 حَيَاةٌ لَيْسَ فِيهَا ثَوْرَةٌ مَوْتُ لَطَالِبُهَا
 وَهَلْ لِحَيَاتِنَا فِكْرٌ يَكُونُ لغير غَالِبِهَا
 وَبَدَأُ الْفِكْرَ بَدَأُ تَأْهُبِ الْأَحْرَارِ لِلْخَطَرِ
 وَشَعْبٌ وَائِقُ الْخَطَرَاتِ سَيْفٌ فِي يَدِ الْقَدْرِ
 إِذَا الْأَثَارُ جَوْهَرْنَا أَبْنَاهُ عَابَهَا النَّقْصُ
 وَإِنْ لَمْ تَأْخُذِ الْأَنْفَامُ عَنَّا أَضْحَكَ الرِّقْصُ

صرخة «المعتمد»^(١) في السّجن

تَكَادُ صرخةُ قلبي عند حَنَجَرَتِي تشقُّ من كُتْمِها قلبي وتنطلقُ
كأنَّها جمرةٌ فيه بلا شَرَرٍ قلبي بها دون كلِّ الناسِ يحترقُ
كذلك تفعلُ بالحرِّ الحياءُ إذا أرادَ شيئاً وحالتْ دونَه الطُّرُقُ
أليسَ عاراً على الأحرارِ يسجنُهُم مع العبيدِ دعِي جيئهُ الحَمَقُ
لعلَّ فولاذَ سيفي صِنِعَ ثانيةً غلاً لكفي التي لم يَشْنِها فَرَقُ
لا أشتَ اللهُ بالأقدارِ حاسدنا فليسَ شيءٌ من الأقدارِ يُسَبِّقُ



(١) المعتمد بن عبّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأمره يوسف بن تاشفين وألفاه في السجن فمات فيه .

وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة
عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٥٤ / ٣ وقد غُرِست
النخلة في مدينة الزهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقرئ) .

تبدت لنا وسط الرُصافة نخلةٌ	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى	وطول اكتنابي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبةٌ	فمثلك في الإقصاء والمُتأى مثلي
سقتك غواصي المُرْن في المُتأى الذي	يسُح ويسمري السُماكين بالوئيل

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي الشربة :

أنت نورٌ عيني
أنت فرح قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترغرعت في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حورية من الصحراء العزيبية
أنا نقذ صبري في غربتي
وأنت نقذ صبرك في غربتك
أيمكن أن تؤني ثمارك في الأرض الغربية
عسى أن يكون تدي الصُّباح هو الذي ينقذك .

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا
نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرَّمْلِ
زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكْلِ
مضيتُ به عريانَ مُنْتَشِيقاً نصلي
وهل يقدح الزُّند الشرارَ من الوحل
وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلُ
فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ
وحاشا لأهل الجُودِ توصمُ بالبخل
فمنزلنا رِيانُ من عَدَقِ البَذْلِ
وتطلُّب من آثارنا كعبةَ الفضل
هنا انتبذت أرواحها رسلُ النُّخْلِ

وأعجبُ ما في الكونِ غربَةُ مثلنا
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى
وليس لهذا البحر من ساحل يُرى
وما من حياةٍ للذي أنفَ الرَّدَى
إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تَأَلُّقاً
وما ضرَّنا مُلكُ تركناه خَلْقاً
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرنا
إذا نَضَبَتْ أجسادنا من دمائنا
ستذكُرنا الدُّنيا وتندُبنا الوري
يقال هنا صلَّت وضجَّت قلوبهم

(كُتِبَتْ فِي إِسبَانِيَا سَاعَةَ مَفَاذِرَتِهَا)

صَوْتُ الْمَنَائِرِ فِي نَسِيمِكَ يَرْقُدُ وَصَدَاهُ فِي أَرْوَاحِنَا يَتَرَدَّدُ
يَا تَوَّعَّمِ الْحَرَمَ الشَّرِيفَ تَطَوَّقَتْ بِكَ رُكْعٌ مِنْ عَاكِفِينَ وَسُجَّدُ
سَيْمَالِكَ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ عَلَى الثَّرَى طَرَبٌ يَفُوحُ وَنَضْرَةٌ تَتَجَدَّدُ

تَحْكِي النُّجُومُ أَسْنَةً لِرِمَاحِهِمْ بِإِزَائِهَا لَيْلٌ يَقُومُ وَيَقْعُدُ
مَلُؤُوا وَهَادَكَ بِالْخِيَامِ وَلَمْ تَزَلْ أَوْتَادُهَا بِنَسِيمِهِمْ تَتَأَوَّدُ
إِنْ تَسْأَلِ الْحَسَنَاءُ عَنْ حُنَائِهِمْ فَتَخِيبُ يُنْصِفُهَا دَمِي الْمَتَوَرَّدُ
يَا طَالَمَا سَفَكْتُ هُنَاكَ دِمَاؤُنَا ظُلْمًا وَنَحْنُ الْمَشْفِقُونَ الْعُودُ

مَا كَانَ صَقْرُ قَرِيشٍ غَيْرَ مَوْحِدٍ عَجَبًا أَمَا فِي الْمُسْلِمِينَ مَوْحِدُ
خَمَدَتْ حَقِيقَتُنَا وَزَالَ لَهْيُنَا وَبَرِيْقُ قَرْطَبَةَ الشَّرِيدِ مَخْلَدُ
وَوَقَفْتُ لَا نَوْمِي خَمَدْتُ وَلَا الشُّرَى أَتَكَبَّدُ الْجَرْحَ الَّذِي أَتَكَبَّدُ
عَانَيْتُ مُشْهَدَهُمْ وَقُلْتُ وَقِيلَ لِي سَيِّانُ قَوْلٍ فِي الْعِزَاءِ وَمَشْهَدُ

سُتْهِتَكَ الْأَسْتَارُ عَنْ سَيْنَانِنَا وَتُبَاحُ أَسْرَارِ لَنَا وَتُبَدَّدُ
وَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَقُومُ بِهَتِكِهَا لِلنَّاسِ أَوَّلَ مُصْلِحٍ يَتَحَمَّدُ

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد - القائد الشاب - بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »^(١) ، فيشير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافئ الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ متقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبيراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لا تُهزم ، وإرادة لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُنَدًا لَهُمُ الْغَلِيْبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الأولى - إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » ، فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالاً غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمم الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والتفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردى في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دم عربي زكي ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليه إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جذب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظار شاق طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر - العرب - بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يارب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحميمة الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف^(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المخلص - وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] ^(٢) .

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

« نُظِمَتْ فِي سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي الْأَنْدَلُسِ »

حملوا عَنَاءَ الْعَالَمِينَ وَسَارُوا
وَالنُّورَ فِي نَظَرَاتِهِمْ وَالنَّارَ
وَتَرَجَعْتَ لَخَطَاهُمْ الْأَنْهَارَ
وَالْعِشْقَ فِي أَرْوَاحِهِمْ إِعْصَارَ
عِلْمٍ عَلَى الدَّارَيْنِ لَا يَنْهَارُ
وَإِذَا تَقَحَّحَ فَالْجِرَاحُ غِبَارُ
وَمَطَامِخُ الْهَمِّ الْكِبَارِ كِبَارُ
تَرْجُو رَجَاءَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ
وَتَضِجُ لَيْلَ نَهَارٍ فِي الْبُسْتَانِ
سَكَّانَهَا وَجَعَلْتَهُمْ أَفْئِدَا
وَجَعَلْتَ أَعْرَابِيَّهُمْ أَسْتَا
عَزَّتْ وَطَلَبْتُهَا مَذَاقُ النَّارِ
كَلَّتْ مِنَ التُّرْحَالِ وَالتُّشْيَارِ
هُوَ لِلْبَصِيرَةِ بَابُهَا الْمَفْتُوحُ
يَتَوَسَّلُونَ كَمَا تَوَسَّلَ نُوحُ
وَهُمْ وَأَنْتَ الْفَرْدُ لَا تَتَغَيَّرُ
وَالنَّاسُ مِنْهَا مُوسِرٌ أَوْ مُعْسِرُ
إِلَّا ظَنُّونَ الْوَاهِمَ الْمُتَقَوِّلَ
سَكْرَانَ مِنْ مَاضٍ وَمِنْ مُسْتَقْبَلِ

هَذِي الْكُمَاةَ عِبَادُكَ الْأَخْيَارُ
أَصْحَابُ سِرِّكَ وَالسِّيَادَةُ طَبْعُهُمْ
فَعَلْتَ كَمُوسَى فِي الْبَحَارِ عِصِيَّتُهُمْ
الْبَحْرُ حَبَّةُ خَرْدَلٍ فِي كَفِّهِمْ
عَزَفُوا عَنِ الدَّارَيْنِ إِلَّا أَنَّهُمْ
نَيْلُ الشَّهَادَةِ لِلْمَوْحِدِ مَطْمَحُ
لَا سَبِيَّ غَانِيَةٍ وَسَلْبُ خَزَانَةٍ
كُلُّ الْعِبَادِ عَلَى اخْتِلَافٍ عَرُوقُهُمْ
تَرْجُو مِنْ الْعَرَبِيِّ لَوْنُ دِمَائِهِ
رَبَّاهُ أَنْتَ بَعَثْتَ مِنْ صَحْرَائِهِمْ
وَمَلَأْتَ صَدْرَ الصُّبْحِ مِنْ آهَاتِهِمْ
طَوَتْ الْحَيَاةُ الدَّهْرَ تَنْشُدُ طُلُبَةً
وَبِرُوحِهِمْ عَثَرَتْ عَلَيْهَا بَعْدَمَا
الْمَوْتُ لَيْسَ نَهَايَةً فِي عَيْنِهِمْ
رَبَّاهُ! فَابْعَثْ مُسْلِمِينَ أَعَزَّةَ
لِتَغْيِرَاتِ الْعَصْرِ مِنْ ثَوَرَاتِهِ
رَبَّاهُ! أَنْتَ هُوَ الْحَقِيقَةُ كُلُّهَا
الدَّهْرُ مَلِكٌ يَدِيكَ لَيْسَ لِأَهْلِهِ
يَتَنَازَعُونَ عَلَى تَفْهُمِ عَالَمِ

يا من نرى في النفس والآفاق من آياته
الحق : أنك خالداً حيّ يقوم بذاته
ما كان يمكن في وجودك أن يكون على يقين
والعقل يخرج مرغماً عن رأيه في كل حين
ما كان يدرك عقلنا في طيش نظراته الشريرة
ما كنت تُرسله من الأنعام في خلد الطبيعة
سيان رضاء الثجوم ومن توغل في النبات
وقفوا على مرصاهم والكل ينقصه الثبات
اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
وأنا الذي كابدت أفهمه وعانيت الكثير
أنني - وتعلم - لم أكن وحدي هنالك في غرور
كانت أساطير الكنيسة حول عتَمَتنا تدور

- (١) علق الأستاذ المُلُوحى على القصيدة بقوله : يهّم القارئ أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥ م) وفيه ص ٧٣ :
- هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطيء من يرى فيها تغيراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
- ويجب أن نقول إن هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشدّ وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرّاعد الذي كلّه حب وصفاء .
- انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص ٧٩ وما بعدها .

كُنَّا هُنَاكَ مَكْبَلِينَ بِكُلِّ أَغْلَالٍ اللَّيَالِي
أَيَّامَ أَنْتَ تَصَوِّرُ الْأَزْمَانَ فِيهِ عَلَى التَّوَالِي
قَلْبِي يَمْرُقُّهُ سَوْأَلُ فِيهِ فَائِذُنْ بِالسَّوَالِ
تَرْكَّتْهُ خَوْفًا مِنْ عَوَاقِبِهِ أَبَاطِرُهُ الْجِدَالِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ طَوَّلُ الْعُمْرِ يَرْمِينِي شَرِيدًا
وَيُثِيرُنِي تَحْتَ السَّمَاءِ أَسَى وَيَتْرَكْنِي وَحِيدًا
هَذَا الَّذِي أَلْقَى بِأَيَّامِي حُطَامًا فِي الْوَهَادِ
هَذَا السَّوَالُ وَكَانَ مَغْرُوسًا كَشَوْكٍ فِي فَوْادِي
هَذَا السَّوَالُ عَنِ الْأَنَامِ وَلَنْ أَجُورَ عَلَى الْأَنَامِ
وَأَنَا تَضَايِقْنِي مَرَاقِبَةُ الطَّرِيقَةِ فِي الْكَلَامِ
فَالْمَرَّةُ لَمَّا تَعَصَّفُ الْأَفْكَارُ فِي أَرْجَاءِ رُوحِهِ
لَا يَسْتَطِيعُ تَخْيِيرَ الْكَلِمَاتِ تَخْرِجَ مِنْ جُروحِهِ
[مَنْ كَانَ آدَمُ حِينَ كَانَ الطِّينَ صَلَاحًا عَلَيْهِ
مَنْ كَانَ سَيِّدَهُ سَوْأَلُ لَا أَوْجَهُهُ إِلَيْهِ]
إِيَّاكَ يَعْبُدُ - لَا أَظُنُّ وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ -
عَاصِرُتُهُ أَيَّامَ كَانَ الدُّيُنَ أَفْيُونَ الشُّعُوبِ
عَاصِرُتُهُ مَتَرُنُحًا بِهِيَاكِلِ الصَّنَمِ الْقَبِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ التِّي ائْتَمَرَتْ عَلَى الشَّرْقِ الْجَرِيحِ
فِي دَرْبِ أَوْرَبَّةِ التِّي تَبْدُو مِنْ أَرَا لِلْحَيَاةِ
وَالْحَقُّ أَنَّ النَّبْعَ فِي ظُلُمَاتِهَا نَبْعُ الْمَمَاتِ
تَاهَتْ بِأَبْنِيَةِ الْمَصَارِفِ فَوْقَ أَبْنِيَةِ الْكُنَائِسِ
وَأَنْتَ لِهَيْكِلِهَا الْجَدِيدِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ النَّفَائِسِ
قَالُوا تَجَارَاتُ تَدَارُ وَكُلُّ مَا فِيهَا قَمَارِ
وَمَصَادِفَاتُ تَجْمَعُ الْبُلْدَانَ فِي جَيْبِ الْكِبَارِ
أَيُّ السِّيَاسَةِ وَالْحُكُومَةِ وَالْكُنْيَةِ وَالسَّمَاءِ

رفعوا مساواةً تقال وأشربوا حُبَّ الدماء
 العُزِّي والفقر المبادل والبطالة والفساد
 آياتُ أوربَّة التي انتشرت بأنحاء البلاد
 أسفلاً لشعبٍ كاملاً ردَّ المحبَّة للسماء
 حصرت روائعه بما أوحى إليه الكهَّرباء
 لم يبقَ بعد حكومة الآلات معنى للقلوب
 كان الحنان ملاذناً فمَحَنه من بين الشعوب
 وبرغم هذا كله تبدو الدلائل أنهم
 سيُبدُّون ويُقرَّعون على الهزيمة سنَّهم
 حاناتهم وقعت بما نصبوه من تلك الشباك
 فإذا شيوخُ الشكر مما يشربون بلا حَرَاك
 الحمرة الملقاة فوق وجوههم عند المساء
 آثارُ خمير زائفٍ وخضابٍ زورٍ لا دماء
 ربَّاه ! أنت القادرُ الحقُّ الرَّحيمُ العادلُ
 من ذاق مرَّ المعيشة ما يذوقُ العامِلُ
 الراسماليون مركبهم يُعزِّبُ في بحارك
 فمتى تُغرِّقه وتأخذُ من مظالمهم بشارك

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة ليتين »

الفكر حرٌّ لا يُردُّ جماحه والحبُّ لا مأوى له يُؤويه
رباه ! لوحتك التي لم تكتمل جارت على السرُّ الذي تطويه
كُهان خلقك في صفوف طُفاتهم يَقْفُونَ للبطاء بالمرصاد
محنُّ صباح مساء لا معنى لها إلا لجوءُ النَّاسِ للإلحاد
فقراؤهم من يؤسهم في سكرة والأغنياء من الرِّفاه سُكاري
عبدٌ يلمُّ من الشَّوارع خبزه عوزاً ، وعبدٌ يُطعمُ الأقمارا
هل تَسْلَمُ الحكماءُ والفقهاءُ من طمعٍ تأجَّج في النفوس وقِيْدُهُ
أم تَسْلَمُ الآراءُ من لعناته هذي عطاياه ، وتلك عبيدُهُ
يرعونَ كلَّ ضغينةٍ لبقائهم والحبُّ من ألم الشَّقَاءِ يصيحُ
سبحانك اللهمَّ فالحبُّ الذي يأسو جراحَ البائسين جريحُ
ذاتُ الحياةِ الحبُّ جوهرُ سرِّها والحبُّ جوهرُهُ حياةُ الذاتِ
أسفاً لهذا السيفِ يخبطُ سرَّه في الغنمِ بين الذَّلِّ والآهاتِ

« أوامر الله للملائكة »

قوموا إلى كوني الغريقِ وأطلقوا فقراءه فيه على الأمراء
أبدلون مساجدي بقصورهم جوراً على خلقي وهم أجرائي

وأرى جمالاً في بهاء أن تُرى في سجدة للقوة الأفلاك
ولنعمة من دون نارٍ نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحاك
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن وهما جنة ولهيها دراك

المصوّر (١)

قلد الغرب فنٌ عجم وهند عمّ هذي البلاد موت الخيال
شقني الغم أن بهزاد عصري يفقد الشرق بهجة الآزال^(٢)
يا خبيراً بفنّه فيه تمّت صنعة العصر والعصور الخوالي
كم ترى من خلقه وتربها أرنا الذات فوق هذي المجالي

الغناء الحلال (٣)

تفتح القلب نعمة من غناء أي فتح القلب رهن هُمود؟
في صدور الأفلاك لحنٌ خفي صاهر حرّه نجوم الوجود

- (١) يرى الشاعر أن المصوّر وكلّ ذي فنٍ ينبغي أن يُظهر ذاته فيما يصوّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأن المحاكاة موت .
- (٢) بهزاد : مصوّر فارسيّ مشهور نبغ أيام الدولة الصفوية ، والشاعر يغتم لأن بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .
- (٣) يرى الشاعر أن الغناء وكلّ لحنٍ يحلّ إن كان فيه قوة الذات وحرقة الحياة ، ويخوّم إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟ وفي الأفلاك ألحانٌ طبيعية تذيب النجوم ، وتبرئ الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . إلخ . والنعمة الحيّة التي يحلّها فقهاء الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

في أرض فلسطين

تحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكل نظرة تضع في جمال الطبيعة ترجع إلى القلب بالريح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريتة » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهاى الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسان جميل زاهي اللون ، وهب النسيم عليلًا بليلاً ، وهفت أوراق النخيل مصقولة مفسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيران انطفأت قريباً ، وأثافي^(١) منشورة هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظمنت .

وطاب المكان والزمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنّى به ، وقد حلّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طلّه النّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا
وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتّى ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورة إبراهيمية جديدة ، إلى كاسر أصنام يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جزاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالثيت ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز - معقل الإسلام وعرين الأسود - فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدُّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةً قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلّى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون » .

ثم يستعرض العالم الإسلامي - وقد عرف شرقه وغربه وعربيّه وعجميه - فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة ، وقلة البضاعة^(١) في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية - بمعناها

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همّ بصدوره .

الواسع - محرومة من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعته في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو قطرة صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرة فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضيء على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل - بعد توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » ، ويناجي ربه ويقول : « إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركة قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر^(١) .

فليُنظر العالم العربي إلى أي معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أي راية ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمدية التي التف حولها أبو بكر وعمر^(٢) .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثر هذه الأبيات في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراك في المؤتمر العالمي الإسلامي .

من الفقر أن تأني وفاضك فارغٌ وقد طُفَّت في تلك الرياض جميعها^(٣)
« سعدي »

نزلت برية السوادي بذي سلم والشمس ترتع بين البان والعلم

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .
وقد ترجمه الفراني :

واحسرتا قد عدت فارغ اليد من تحف الدنيا لهذه البلد
انظر البتان (١ : ١٦) .

يشفي العليل من الأوصاب والسقم
 تقحم القلب منها ألف مقتحم
 حمراء زرقاء من ورد ومن عثم
 وأومض البرق في الظلماء من إضم
 مرفوعة الراي تحكي رفعة القمم
 يموج فيها بما في الخز من عثم
 يذوي ، هنا بضغ أشلاء من الخيم
 وعرض من لغب نضو على لجم
 فإن رضيت بسكر هاهنا أقم
 سلوة ، ويهيج الوجد بالشيم

وفاح ريح صباح من مواجدها
 بنظرة لجمال الوادي واحدة
 وللمساء سحاب من غلائها
 ألقت براقع مجلاها على إضم
 نقيّة الخدّ سعف النخل مشرقة
 والرمل كالخزفي في أرجاء كاظمة
 هنا بقيّة أطلال ، هنا لهب
 كم خلف ليلي ركاب من هنا عبرت
 هم أقاموا سكارى هاهنا زمناً
 يرى هنا من ناث عنه أحبّه

(٢)

عندي ، ومن ذا الذي يضيء إلى كلمي
 وزناً زمان تعاطى سكرة القدم
 بغزنوي جديد غير منهزم
 أمام (سومنات) مبعوث من الحرم
 يرجي ، ولا في غناء الفرس من نعم
 وهل هنالك محمود من العجم
 قلب ، ولم يلقه خال ولم يهم
 وحسن دجلة في محرابهم صني
 وهم سلالة أهل الحب والتيم
 بغير حب وهل للشعب من قيم
 وابن الحسين على كف الحسين رمي
 كم ضرج الحب فيهما من فؤاد كمي

خمر الحياة كمثل الشم عاقبة
 صياح وجه جديد لا يقيم له
 أما لمعتريك الأيام من طمع
 عباد (سومنات) تخشى أن يحرمها
 لا في لهيب تراث العرب من رصدي
 هل في الحجاز حسين من بني مضر
 ألا يهيم على وجه الفرات لهم
 أحسن دجلة لم يفتن سرائرهم
 أما لهم من بقايا الحب باقية
 استغفر الله هل للدين من قيم
 بالحب قدم إبراهيم واحده
 فسل حنياً وبدراً عن حروبهما

في آية^(١) الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولو تجلّيت ما أبقيت من عصم
لأجل معنأك ما تلقى وما لقيت قوافل القوم في الوديان والأكم

رهباننا انقطعت عنا بأديرة وكلُّ منقطع في الدّير عنك عمي
لا يرتضي القوم عن حاناتهم بدلاً بالرّغم من أنّ ساقى الناشئين ظمي

أنا - وفي غزلياني التي اشتهرت بصيصُ نارٍ ذكّت من صالفِ القدم -
حكايتي البحث عن قوم هنا عُدِمَتْ أخبارهم وهنا سادوا على الأمم

لِلشُّوكِ كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ونسمةُ الصبح للرّيحان والسّلم
أنا أعيبُ على وردٍ بلا جذلٍ كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

هذا الغناء الذي ماج الرجاء به تسيل أنفاسه من مُهْجتي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارهم وتروى من أكفهم

فلا تدع لهياج القلب فرصته فإنّ ذلك يعني فرصةَ القدم
أرجو جدائل هذا الشعر تنصّفي بموجةٍ من معاني هذه اللّمْ

(٤)

اللّوح أنت وما في اللّوح من قدرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمٍ

(١) يبدو أن إقبالاً في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزّ وجلّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .

ويرى تشيشتي أنّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لو تنطقُ القبّةُ الزرقاءُ ما كَذَبَتْ بأنّها ذرّةٌ في بحركَ العَرَمِ

لكَ الجلالُ الذي لم تبقَ روعته من ملكٍ سِنجارٍ إلا عبرةُ النَّدَمِ
لولا جمالكَ ما ذاقَ الجُنْدُ نوى ولا أهيلَ على طيفورٍ بالتُّهَمِ
نذاك لا تَعْرِفُ الأنسابَ نفحتهُ يا من غَمَزَتْ جميعَ الناسِ بالكَرَمِ
إن لم تكن نُضِبَ عيني في الصَّلَاةِ فلا قامت على الزُّورِ في محرابها قَدَمي

مذاهبُ الفكرِ من بحثِ الغيابِ وهَتْ ومشهدُ الحبِّ من وثبِ الحضورِ دمي
بالرُّغمِ من ثورةٍ للشمسِ ساطعةٍ ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

(٥)

أنا - وتعرف أيامي التي سلفت وما تحمّلتُ من كدِّي ومن سامي -
ما كنتُ أعرفُ أنَّ العلمَ مضيعةٌ وأنّه سببُ الأطماعِ والنَّهَمِ

هزرتُ كلّ نَخيْلِ الفكرِ ما سَقَطَتْ عليّ غيرُ عراجينٍ من الهَرَمِ
لقد تيقّظَ وجداني الَّذي عَصَفَتْ به مقالاتُ موتورٍ ومُنْتَقِمِ

الفكرُ من حيث تأتيه أبو لهبٍ وكلُّه كلّهُ مكرٌ مِنَ الأَمَمِ
والحبُّ حيث يكون المصطفى يدهُ وكلُّه كلّهُ من مقلتيه نُمَي

أخذتُ عنه فنونَ الحبِّ فاغتنموا مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نَهَايَةُ الْحُبِّ أَحْلَى مِنْ بَدَايَتِهِ وَرَبِّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالسَّقَمِ

وَلَيْسَ أَغْرَبُ مِنْهُ عِنْدَ مُبْتَدَأٍ وَلَيْسَ أَعْجَبُ مِنْهُ عِنْدَ مُخْتَلِمٍ
إِذَا رَمَاكَ فَمَا لِلْقَلْبِ مِنْ حِيلٍ وَإِنْ جُرِحْتَ فَجَرَحَ غَيْرُ مِلْتَمٍ

يَا سَائِلِي عَنْ فِرَاقِي بَعْدَ لَيْلَتِنَا وَعَنْ حَظْوِظِي مِنَ الْبُلُوِّ وَعَنْ قِسْمِي
فِرَاقِهِ رَغْبَةً فِي الْقَلْبِ مُحْرِقَةً وَصُرْحَةً مِنْ صُرَاخِ الْفَجْرِ مَلءُ فَمِي
أَهْلُ الْوِصَالِ لَهُمْ قَلْبٌ بَلَا طَلَبٍ وَأَيُّ مَعْنَى لِقَابٍ غَيْرِ مُضْطَرَمٍ
وَهَلْ لِقَطْرَةٍ مَاءٌ مَجْدٌ تَسْمِيَةً إِلَّا إِذَا تُبَذَّتْ مِنْ عَجْمَةِ الدَّيَمِ

حَاوَلْتُ لَمَّا تَجَلَّى أَنْ أَشَاهِدَهُ وَسَوَّلْتُ لِي نَفْسِي هَتَكَةَ الْحُرَمِ
بِالرُّغْمِ مِنْ أَنْ طَرَفِي فِي الْهَوَى وَقَحَّ أَغْضَيْتُ لَمَّا تَجَلَّى خَشْيَةَ الدَّهَمِ

الفراشة واليراعة

قَالَ الْفَرَّاشُ لِنَفْسِهِ لَمَّا رَأَى رَفُصَ الْيَرَاعِ عَلَى الْمِدَادِ الْأَسْوَدِ
كَمْ فِي حَيَاتِكَ مِنْ غَيْبٍ أَحْمَقٍ مَا ذَاقَ تَصْلِيَةً بِنَارِ الْمَوْقِدِ
سَمِعَ الْيَرَاعُ كَلَامَهُ فَأَجَابَهُ حَاشَا لِأَمْثَالِي بِمِثْلِكَ تَقْتَدِي
حَمْدًا لِرَبِّي مَا خُلِقْتُ فَرَّاشَةً بِجَنَاحِهَا وَسَمُ الْعَيْدِ الرُّقْدِ
أَنَا لَسْتُ أَسْتَجِدِي سِوَايَ تَسْوُلًا أَنَا فِي فُؤَادِي جُذُوتِي وَتَوَقُّدِي

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

باقٍ يبدلُ على خلود حياته
إلا تصليُّه بشعلة ذاتِه
ملكاً لهذي الأرض قولُ نبيه
ومن التألُّق ألفُ نوعٍ فيه
مهما استطالت في السماء قواه
أبناءُ سيِّده الذي ربَّاه
ما في زمانِكَ من يَصُونُ حياته
ويقولُ لي جاويدُ يبدلُ مائه
لنقاء فكرته وخضبِ فؤاده
بوصيتي هذي جميعَ بلاده

أبني ! لحنُ الذات في أعماقنا
أبني ! ليلُ الشعب ليس يضيئه
أبني ! قولك : كان آدمُ جدُّنا
فيه من الإيمان ألفُ حقيقة
أبني ! لن يصل الغرابُ لعشنا
هذي الشواهيْن التي يلهو بها
أبني ! صان الله وجهك عالياً
إياك أن يأتي لقبري زائرُ
إقبالُ ما رضي الترهُّبَ سيرةً
أبني ! ليس بُنيَّ إلا مَنْ روى

تسول

إنَّما السُّلطانُ شحَّادُ جِلْفِ
طمعاً في ذلك التَّاجِ الصِّلِفِ
يرتدي في القُصرِ ثوباً من ذهبٍ
وعليها من دَمِ النَّاسِ حَبِيبِ
بقرارٍ مُجحفٍ إثرَ قرارٍ
مثلَ مَنْ يَسْرِقُ في وَضَحِ النَّهَارِ
شَحَدُوا منها طعاماً للدُّجَّاجِ
إنَّما الشُّعَاذُ من سنِّ الخراجِ

صاحَ في الحانة سَكِيرُ ظريفِ
أَيْكُمَ يخرجُ عن بَزَّتِه
أَيْكُمَ يُضْبَحُ عُريانَ لِكَيِ
كأسُه حمراءُ في لونِ الشَّقِيقِ
كلُّ ما في قُصْرِه جَمْعُه
ليس مَنْ يَسْرِقُ في جَنحِ الدُّجَى
كَمْ بذاك الحَقْلِ من فلاحٍ
بلغوهم أنني قلتُ لكم

المُلاّ والفردوس

أنا أيضاً كنتُ لكن ما تحمّلتُ الشُّكوت
كنتُ مِن شدّة غيظي أتمنّئُ أن أموت
كنتُ إذ بسّرت الحجابُ بالفردوسِ (مُلاّ)
فتقدّمتُ أنادي : عفوكَ اللهمّ كلاًّ
ليس للمُلاّ اهتمامُ بمغائيبك وحورك
هو سكرانُ ، نعم سكرانُ ، من غير خمورك
ما درى من لُجّة الذّوقِ سوى قيل وقال
يخسبُ الدّينَ الذي أنزلت تاريخَ جدال
أنا لا أرضى لنفسي أن أرى عبيدي جناناً
كيف ترضاهُ زعيماً وهو لا يُخَيِّنُ شأننا
لم يُعدْ يا أبه إنسانٌ بملاك المنقّر
فإذا ما جاء يوماً قيل قد جاء المكفّر
لا يرى في خَلْقِكَ المسكينَ إلّاهُ مُطيعاً
كيف ترضى عن غيبي كَفَر النَّاسَ جميعاً
ليس في الفردوس ذكرٌ لكهوفٍ وصوامع
إنّما الفردوسُ فيضُ الحبِّ من صَدْرِ الجوامع

الدّينُ والسّياسة

عندي لرهبنة الكنائس طُرْفَةٌ
فهلُمّ نَضَحْكَ للحياة قليلاً
بُنيت لأعداء الملوك وأصبحت
للطامعين من الملوك سبيلاً

رَأْسُ الْكَنِيسَةِ فِي الْوَدَاعَةِ غَارِقٌ
تَنْوِي الْمَضِيِّ فَيَسْتَبِدُّ أَمَامَهَا
هَذَا التَّنَاقُضُ كَيْفَ أَمَكْنَ دَفْجُهُ
مَا لِلْقُصُورِ وَلِلْكَنَائِسِ حِيلَةٌ
فَصَلُّوا عَنِ الدِّينِ السِّيَاسَةِ بَعْدَمَا
وَتَطَاوَلَ الْبَابَا فَقِيلَ لَهُ : اسْتَخِرْ
وَتَلَقَّتِ الشَّعْبُ الْجَرِيحُ فَلَمْ يَجِدْ
كَانَتْ مَصَالِحَ رَاهِبٍ وَمَتَوَجِّ
ثَنُوبَةٍ لَمْ تُبْقِ دَرِيأً صَاحِبِ
هِيَ فِي الْيَسَارِ وَفِي الْيَمِينِ مَقِيمَةٌ
هِيَ لَعْنَةُ الدُّنْيَا كَمَا أَفْضَى لَنَا
لَنْ نَعْرِفَ النَّاسُ السَّلَامَةَ سَاعَةً
أَبْدًا مَرْقَعَةُ الْجُنَيْدِ لِيُؤْخَذِهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَرْدَشِيرُ صَرَاحَةً

الأرض لله (١)

مِنْ ظِلْمَةِ الطَّيْنِ رَبُّ الْحَبِّ وَالطَّيْنِ
إِلَى السَّمَوَاتِ سُلْطَانُ السَّلَاطِينِ
فَيَطْلُقُ الزَّهْرَ أَنْغَامَ الْبَسَاتِينِ
وَلِلنَّدى نَسَبٌ مِنْ حَوْرِهِ الْعَيْنِ

الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ يَنْبِتُهُ
وَالْغَيْمُ مِنْ لُجَجِ الْأَمْوَاجِ يَرْفَعُهُ
يَسُوقُ لِلزَّهْرِ أَنْسَاماً تَهَيَّجُهَا
لِلشَّمْسِ مِنْ نُورِهِ طَوْقٌ يَزِينُهَا

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فَقُلْ لَصَاحِبِ تَاجٍ يَدْعِيهِ لَهُ أَفِئْتُ فَإِنَّكَ مَسْكِينُ الْمَاكِينِ
مَالِي وَمَالِكَ مِنْ هَذَا التُّرَابِ سَوَى ضَجِيجِ حَيْنِ نُؤْلِي عَنْهُ فِي حَيْنِ
الْأَرْضُ لِلَّهِ يَعْطِيهَا أَحَبَّتْهُ وَالْحُبُّ عَاقِبَةُ الْغُرِّ الْمِيَامِينِ

رسالة إلى شاب

سَجَّادُكَ الْعَجْمِيُّ هَذَا وَالْأَثَاثُ الْإِنْكَلِيْزِيْ
مَاذَا يَفِيدُكَ يَا عَزِيزِيْ !
مَاذَا تَفِيدُكَ ثَرَوَةٌ حَصَلَتْهَا فِي مِثْلِ أَتْهَةِ الْمُلُوكِ بِذِلَّتْهَا
أَبْكِي لِأَجْلِكَ يَا عَزِيزِيْ !
هَلْ ذُقْتَ يَوْمًا غِبْطَةً الْإِيمَانِ أَوْ بَأْسَ حَيْدَرٍ أَوْ رِضَا سَلْمَانِ
ارْحَمِ شَبَابَكَ يَا عَزِيزِيْ !
سَلْعُ الْحَضَارَةِ لَا تَقَاسُ بِذَاتِكَ أَنْظِنُهَا ثَمَنًا لِكُلِّ حَيَاتِكَ
أَخْطَأْتُ جِدًّا يَا عَزِيزِيْ !
الْمُؤْمِنُ الصَّدِيقُ سَيِّدُ سَاعَتِهِ وَرَقِيُّ عَالَمِهِ رَقِيُّ قَنَاعَتِهِ
فَاعْرِفْ مَكَانَكَ يَا عَزِيزِيْ !
لَوْ دَبَّ رُوحُ الشَّرِّ فِي قَلْبِ الشَّبَابِ لَمْ يَبْحَثُوا عَنْ سِرِّهِمْ بَيْنَ التُّرَابِ
إِيَّاكَ تِيَّاسُ يَا عَزِيزِيْ !
بِالْيَاسِ مَعْرِفَةُ الْفَتَى تَغْتَالُهُ وَبَصِيرَتُهُ وَالْمُؤْمِنُ الصَّدِيقُ بَرَهَانُ الْإِلَهِ سَرِيرَتُهُ
فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ يَا عَزِيزِيْ !
يَا أَيُّهَا الشَّاهِينَ عُشُّكَ لَيْسَ فِي قَصْرِ الْمُلُوكِ لَوْ كُنْتَ شَاهِينَ الْجِبَالِ حَقِيقَةً مَا أَمْسَكُوكَ
فَارْجِعْ لِعُشِّكَ يَا عَزِيزِيْ !

قَالَ لِلْبَازِ الْفَتَى نَسْرٌ عَجُوزٌ أَنْتَ فِي الْجَوِّ كَمَا شِثْتَ تَجُوزُ
لِي رَمُوزٌ كُنْتُ قَدْ حَصَّلْتُهَا مِنْ شِبَابِي فَاعْتَنِمْ هَذِي الرُّمُوزُ
لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا قِيمَةُ الشَّاهِينَ فِي أَخْلَاقِهِ
إِنَّمَا الشَّاهِينَ مَنْ يَخْرُقُهُ دُمُهُ الشَّخْصِيُّ فِي أَعْمَاقِهِ
قِسْوَةُ التَّدْرِيبِ رُوحُ الشُّؤْدِدِ لَا تَضِيعُهُ سَدَى هَذَا الْكَلَامِ
سَتَرِي قِيمَتَهُ يَا وَلَدِي ! حِينَ تَنْقُضُ عَلَى فَرْخِ الْحَمَامِ
مَا أَرَيْنَا فَرْحَةً أَمْتَعُ مِنْ فَرْحَةِ الْمَنْقُضِ مِنْ أَفْقِ السَّمَاءِ
فَرْخٌ وَاللَّهِ لَا يَعْدِلُهُ فَرْخٌ ، حَتَّى وَلَا سَفْكَ الدِّمَاءِ !

شقائق النعمان في الغاب^(١)

لِمَنِ السَّمَاءُ تَزَيَّنَتْ بِلَّالِي وَالذَّيْرُ مِنْ أَهْلِ الصَّبَابَةِ خَالِ
أَشْقِيْقَةُ النُّعْمَانِ هَلْ تَجْدِينَ فِي تِلْكَ الْبَرَارِي مِنْ يَرْقُ لِحَالِي

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمز لكل ما ليس لظاهره معنى يجانسها ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدَّم إلا أنها تفتقر لحيوته فلذلك ينبذها البتان على ضفافه .

قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إِنَّ هَذِهِ النَّارُ الْبَارِدَةُ تَمَحُّوْهَا نَارُ دَمَوْعِي إِلَّا أَنْ إِقْبَالَ يَعودُ فيقول : إِنَّ هَذِهِ الشَّقَائِقُ تَحْتَرِقُ لِأَنَّهَا ضِيعَتْ مَعَهَا .

ولهيب دائم دين الشقيق دمه من ذاك يسري في العروق
إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدف واحد .

قفصٌ يضيقُ بمثله أمثالي
فتعالني نقتسمِ الهمومَ تعالي
والأمَ هذا الكدُّ في الترحال
وشتاتُ بالِكَ في الجبال ويالي
وأنا تجلّيتها وأنتِ جبالِي
من بين أوصالي ومن أوحالي !
أم فرحةً بتفوّقي وتعالِي !
منه وتفضّحُ سرّه في الحالِ !
فسألتها فاستغربتُ لسؤالي
لم تلطم الشَّطَّ الغبيّ السّالي
وأنا أجرُّ إلى السّماءِ رمالي

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً
وعلامُ أَيْتُها الشقيقةُ سيرنا
موسى غريبٌ عن نوى وديانِيا
سيناءُ أنتِ ونار واديهَا أنا
من ذلك الفَوَاصِ أخرجَ دُرّنا
هل كان مخفياً فرام ظهوره
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةً
شاهدتُ زوبعةً تنزُّ لموجةً
قالتُ : ألا تبكي لثورة موجةٍ
أتعيقُها تلك الرُّمالُ أمامها

والشَّمْسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالِي
لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

آلُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ
هذا الوجودُ بِصُمْتِهِ وحماسه

قطعة

رشيقةً هيّجت في الرّوض شكواه
إن شاء مرّقه أو شاء أبقاه
ولا يمزّق ثوبي غير حُمّاه

إقبال غنى أمّام الرّوض أغنية
ما كنتُ كالزّهر زهّن الرّيح عالمه
أمشي ويمشي جنوني في الطّريق معي

كتاب السَّاقِي

(١)

تَنَزَّلَ الرَّبِّيعُ عَلَى الْفَلَاحِ يَدُهُ وَأَطْلَقَ عَسْكَرَهُ
وَتَحَوَّلَ الْوَادِي إِلَى حَانَ فَقَامَ وَأَسْكَرَهُ
الْوَرْدُ وَالنَّسْرِينَ يُفْسِكُ بِالْأَكْفِ وَالْقَدُودُ
فِي صَبْغَةِ الْوَانِهَا مِنْ كُلِّ مَا خَلَعَ الْوَجُودُ
وَشَقَائِقُ النُّعْمَانِ تَرْقُصُ فِي الْوِشَاحِ الْأَحْمَرِ
مَا بَيْنَ بِسْمَةِ أَبِيضٍ يَرْنُو وَغَمَزَةِ أَسْمَرِ
وَتَرَى السَّمَاءَ مِنَ الشُّرُورِ تَكَادُ تَسْقُطُ فِي الْفَجَاجِ
وَنَدَى النِّسِيمِ خِلَالَ زُرْقَتِهَا تَكْشُرُ كَالرُّجَاجِ
وَتَدْفُقُ الدَّمَ فِي الْحِجْرِ وَمَضَى يَكَابِدُ مَا هَجَرَ
وَالْقُبُورَاتُ تَرْكُنُ فِي الْأَعْشَاشِ أَغْلَالَ الشَّجَرِ

آهَ لِهَذَا الْجَدُولِ الْمُحْزُونِ يَقْفُزُ فِي الْوَهَادِ
لَا يَشْتَكِي ضَيْقَ الْحَيَاةِ وَلَا يَمَلُّ مِنَ الْجَهَادِ
يَنْسَابُ ، يَرْقُدُ ، يَسْتَقِرُّ ، يَهِيْجُ ، يَضْحَكُ ، يَلْتَوِي
يُرْوِي الْجُلُوسَ عَلَى الضُّفَافِ وَبِالْتَمَرِ يَرْتَوِي
وَإِذَا تَجَمَّعَتِ الصُّخُورُ عَلَيْهِ شَتَّتْ حَزْبَهَا
وَاخْتَارَ مِنْ ثَغَرَاتِهَا دَرِيَاءَ وَمَرَّقَ قَلْبَهَا
يَا أَيُّهَا السَّاقِي فَهَاتِ مِنَ الْكُؤُوسِ مِنَ الدُّنَانِ
لَا تُخْغِنِ الْقَلْبَ الْجَرِيحَ وَأَنْتَ أَجْدَرُ بِالْحَنَانِ

هَذَا الشَّقَائِقُ جَوْقَةً بِالسَّرِّ تَرْقُصُ فِي الطَّرِيقِ
دَعْنِي أَبَدُ خَمَرْتِي أَسْفَاً عَلَى الْكَأْسِ الْعَتِيقِ
مَا كُلُّ مَا دَارَ الشُّقَاةُ بِهِ تَدُورُ بِهِ الْقُلُوبُ
أَنَا أَطْلُبُ الْخَمَرَ الَّتِي كَانَتْ تُشَقُّ لَهَا الْجِيُوبُ
كَانَتْ تَفِيضُ كَأَبَةً كَالْوَرْدِ يَذُبُلُ فِي الْخُدُودِ
فُسْرُ إِشْكَااتِنَا وَتَذِيغُ أَسْرَارِ الْخُلُودِ
أَيُّهَا الشَّاقِي هَتَّكَ الْأَسْتَارِ
عُمْرُنَا الْبَاقِي جَلْوَةُ الْأَسْرَارِ
لَذَّةُ التَّلْحِيحِ لَيْسَ فِي الْأَوْتَارِ
يَضْرَعُ الشَّاهِيْنُ أَصْفَرَ الْأَطْيَارِ

(٢)

بَذَلَتْ أَنْغَامَ الزَّمَانِ وَنُوطَةَ الْعَرْفِ الْبَلِيدِ
وَتَدَاخَلَتْ آلَاتُهُ وَتَمَرَّدَ النَّقَمُ الْجَدِيدِ
فَرِحَ لِلْغَزِ الْإِنْكَلِيْزِ وَلِلَّذِي عَرَى غُرُورَهُ
وَلَأَنَّ ذَاتَ السَّرِّ يَعْكَسُ مِنْ زُجَاجِ الصَّيْنِ نَوْرَهُ
هُوَذَا عَلَى مَرَأَى وَسْمَعِ الْكَوْنِ يَرْقُصُ فِي الْمَرَايَا
وَيَجِيْشُ فِي (أَلْوَنَد) يَلْمَعُ فِي رُؤُوسِ الْهَيْمَلَايَا
فَرِحَ لَأَنَّ الْأَرْضَ تَلْفِظُ كُلَّ سُلْطَانٍ مَهِيْنٍ
وَتُعَلِّمُ الشَّعْبَ الْمَكْبُورَ كَيْفَ يَأْخُذُ بِالْيَمِينِ
فَرِحَ لَأَنَّ الرُّأْسَمَالَ يَنْأَلُ مِنْهُ جُنُودُ طُورِهِ
وَلَأَنَّهُ كَالسَّاحِرِ الْمَفْضُوحِ بَعْدَ أَدَاءِ دَوْرِهِ

لَمْ يَبْقَ إِلَّا الرُّوحُ تِلْكَ وَذَلِكَ الشَّعْبُ الْعَرَاءُ
نَزَلَتْ عَلَى سِنَاءٍ صَعَقْتُهَا فَلَمَلَمَهَا حِرَاءُ
مَا سَلِمَ مَنْ يَسْأَلُ التَّوْحِيدَ يَضُقُّ فِئَاسَهُ
لِيُحَطِّبَ الْأَصْنَافَ أَجْمَعَهَا وَيَتَرَكَّ نَفْسَهُ
نَفْسٌ أَقَامَ لِأَجْلِهَا مَا شَاءَ مِنْ أَصْنَافِهِ
وَيَرِيذُهَا صَنَمًا يَرَافِقُهُ إِلَى إِسْلَامِهِ
هَذَا هُوَ الصَّنَمُ الَّذِي شَيْطَانُهُ عَقْلُ الْعَلِيمِ
خَدَائِمُهُ أَهْلُ الطَّرِيقِ كِتَابُهُ الْعِلْمُ الْأَلِيمُ
أَسْفَلُ لَحْقٍ يَتَرَكُّ الطَّاغُوتَ يُوَدِّعُهُ صَرُوحَهُ
وَيَرَى الْفَقِيرَ يَكَادُ يَلْفِظُ فِي خِصَمِ الْجَهْلِ رُوحَهُ
كَلِمَاتُهُ هَذَا الْمُبَشِّرُ تَجْذِبُ الْقُلُوبَ الْغَرِيرَ
لِكَنْ ذَوْقِ الْحَبِّ يَنْقُصُهَا وَيَنْقُصُهُ الْكَثِيرُ
وَلَهُ مَوَاعِظُهُ يَنْظُمُهَا بِدَقَّةٍ مَنْطِقِهِ
لَكِنَّهَا سَرْعَانِ مَا تَخْفَى بِعُقْدَةِ رَوْنَقِهِ
حَتَّى الْمَرِيدُ فَوَّادُهُ بَقِيَّةُ سُبْحَتِهِ أَسِيرُ
جَبَّاتٍ فَخْ أَوْقَعَتْهُ وَكَوَانِ شَاهِينَا يَطِيرُ
هَذَا الْمَسَافِرُ كَيْفَ يَرْجِعُ مِنْ ظُنُونِ الْارْتِقَاءِ
هُوَ نَفْسُهُ مَا عَادَ يَعْرِفُ مَا الْفَنَاءُ وَمَا الْبَقَاءُ
خَمَدَتْ حَقِيقَتُهُ وَنَارُ الْحَبِّ تَاهَتْ فِي فَوَّادِهِ
فَإِذَا هُوَ الْمَتَحَرِّقُ الْمَجْنُونُ يَشَخَطُ فِي رَمَادِهِ

(٣)

قُلُوبُ الْقَوْمِ مَا عَرَفَتْ كَلْدَةَ خَمْرِكَ الْبَاقِي

(أَدْرُ كَأْساً وَنَاوِلَهَا أَلَا يَا أَيُّهَا الشَّاقِي (١)
رَمَادِي ذُرُّ أَجْنَحِي بِيَابِ السَّرِّ تَكْتَظُ
وَمِمَّا مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا لَهَا مِنْ حَبْنَا حَظُّ
بِوَدِّي أَنْ أَرَى شَيْخاً يَغْيِرُ وَضَعْنَا هَذَا
يَقُومُ وَيَجْعَلُ التَّلْمِيذَ لَلْأَسْنَادِ أَتَاذَا
يَخَافُ الْبَارِ عَصْفُوراً يُقَلِّمُ ظُفْرَ مَخْلَبِهِ
فَأَتِ شَبَابَنَا نَوْرًا تَفِيضُ عَلَى الشُّيُوخِ بِهِ
وَحُلَّصَهُمْ بِمَا تَخْتَارُ مِنْ قَيْدِ الْعَبُودِيَّةِ
وَلَوْ أَلْقَيْتَهُمْ حَطْباً بِنِيرَانِ الْوُجُودِيَّةِ
تَصَرَّفَ بِالْجَنُونَ لَهُمْ وَفَجَّرَهُ بِهِمْ شُعْبَا
فَلَيْسُوا شَعْبَةً مِنْهُ إِذَا لَمْ يَسْقُطُوا تَعْبَا
شَبَابٌ لَا يَلِيْقُ بِهِمْ مِثَالُ الْجُمْرِ فِي ضَرْمَةٍ
كَقَلْبِ الْمَرْتَضَى بِأَسَا وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
بِظُلِّ جَمَالِكَ الرَّيَّانِ أَوْرَقَ شُعْبُنَا الْيَبْسُ مِثَالُ الْجُمْرِ فِي ضَرْمَةٍ
وَلَمَّا أَنْ بَخَلَّتْ بِهِ وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
أَسْهَمَكَ لَمْ يَعِدْ يَقْوَى وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
أَمْ الرِّكْبُ الَّذِي تَرْمِيهِ أَصْبَحَ فَارِغَ الْبَالِ وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
سَأَلْتُكَ هَذِهِ الْحَسَنَاءُ تُطْلِقُهَا مِنْ الْخَدْرِ وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
لِيَعْرِفَ عُدْلِي مَعْنَى وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ
بِشَعْرِي ضَعُ لَهُمْ شَرَكاً وَكَالصَّدِيقِ فِي كَرْمَةٍ

(١) ذكر العلامة السوداني في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد غاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .

انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص ٣ .

وخلَّ حُسامَكَ الهنديَّ يجرُّ كُلَّ ذِي قَلْبٍ
مرادي رشفُ أسرارٍ
ولا قَلْبٌ لِلطَّلَابِ
ركبنا البحرَ في فلكٍ
فأجرى الرِّيحُ عاصفةً
ذوتَ عيناَيَ من أرقٍ
وهذا الدَّمْعُ في عينيَّ
تؤوِّل راحة اليأسِ
ما أخفيه في نفسي
بأعينه صنعناه
وعكسَ الرِّيحَ أجراه
على قَلْبٍ طوى جَنبي
طلَّ من ندى قلبي

خُشوعي في عَذاباتي
ونوعُ طرقتي هذي
وفكري وهو بُستانُ
وحضنُ يقينها المُنْصَنِي
وقلبي وهو ميدانُ
ودروشتي التي تبدو
سألتُك أن تعقَّها
وتسقيها لقافتي
ووثبي في طموحاتي
التي أمحو بها ذاتي
ونفسي وهي مرآتي
وجيشُ ظنونها العاتي
تضجُ به عراكاتي
نصيبني من مُعاناتي
وتمزجُها بأهاتي
بموكبِ جيلنا الآتي

(٤)

إنَّه البحرُ دائمُ الحركاتِ
ذاك بحرٌ من الحياة تجلَّى
اللَّهيبُ الذي تأجَّجَ فينا
يرفضُ المُكثَ بين ماءٍ وطينٍ
ما الذي يطلبُ اللهيبُ بهذا
في فرارٍ إلى السَّماءِ تراه
وثبةٌ بعد وثبةٍ في الحياةِ
واحداً في تموجاتِ الدَّواتِ
والذي يحتوي جنونَ الدُّخانِ
وهو راضٍ عن كلِّ ما يصنعانِ
إنَّه قاطنٌ وسارٍ بأنِ
حذِرَ المَوْتِ في شبَّاك المعاني

إِنَّهَا الْوَحْدَةُ الَّتِي كَبَّلَتْهَا
 رُغْمَ كُلِّ التَّعَدُّدِ تَبْقَى
 إِنَّ أَعَادَ مَعْبَدِ الْعَصْرِ هَذَا
 وَلِسُومَنَّا كُلِّ عَصْرِ وَجُودُ
 نَحْنُ فِي ظِلِّهِ مَعاً وَاخْتِلَافِي
 وَاللَّهِيبُ الَّذِي تَأَجَّجَ فِينَا
 حَلَقَاتُ اللَّهِيبِ نَحْنُ وَلَكِنْ
 فِي بَرُوقِ وَفِي نَجُومِ مُشْعٍ
 فِي غِيَاظِ وَفِي رِيَاظِ مَقِيمٍ
 لَا يَعْيبُ زَهْرَكَ الْمُفْتَحِ شُوكِي
 لَيْتَ شِغْرِي يَفِيدُ كَيْدُكَ هَذَا؟
 هُوَ ذَا يَنْسِفُ الْجِبَالَ بِحَزْمٍ
 هُوَ حِيناً تَرَاهُ بَازِئاً وَحِيناً
 وَهُوَ حِيناً حَمَامَةٌ دُونَ عُشٍّ

(٥)

الرَّاحَةُ الْكُبْرَى بِقَلْبِكَ وَالسَّكِينَةُ خُذَعْتَانُ
 فَالْكُونُ ذَرَاتٌ يَهِيْجُهَا بِرَقِصَتِهِ الرُّمَانُ
 وَقَوَافِلُ الْأَشْيَاءِ فِي الْأَفَاقِ تَضْرِبُ بِالْأُذْفُوفِ
 وَتَرْوِحُ تُمَعِّنُ فِي التَّجَدُّدِ لَا تَفْكُرُ بِالْوُقُوفِ
 السَّيْرُ مَعْنَاهَا الْعَمِيْقُ بِهِ تَجُولُ بِهِ تَصُولُ
 فَدَعِ الْوُصُولَ لِمَنْ يَرِيدُ فَلَيْسَ مَطْلَبُنَا الْوُصُولُ

(١) اهتم إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي
 في ترجمته النثرية) .

تَسْوِقُ إِلَى الطَّيْرَانِ يَتَرَكُ سَرَّهَا يَتَفَطَّرُ
وَتَحْسُنُ رَاحَةَ صَاحِبِهَا فِي وَثْبَةٍ لَا تَقْطُرُ
وَتَحِلُّ ، تَغْقِدُ مَا تَحِلُّ ، تُقَيِّمُ تَهْدِي مَا تُقَيِّمُ
فِرْدَوْسُهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ وَرَوْحُهَا السَّيْرُ الْمُقَيِّمُ
وَإِذَا ابْتَدَاهَا الْمَوْتُ وَهُوَ النَّدْفُ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ
وَمِنْ الْعَسِيرِ كَفَاحُهُ تَمْضِي إِلَيْهِ فِي ثَبَاتٍ
وَبِذْوِقِهَا النَّسْوِي تَنْقَسِمُ اثْنَتَيْنِ إِلَى النَّزَالِ
وَتَرْوِحُ تُخَشِّدُ فِي الشُّهُولِ تَعُودُ تُخَشِّدُ فِي الْجِبَالِ
كَالْغُصْنِ إِنْ جَرَّدَتْهُ مِنْ سَكْرَةِ الدُّنْيَا صَحَا
وَازْدَادَ فِي وَقْتِ الرَّبِّيعِ تَنُورًا وَتَفْتُحَا
لَا شَيْءَ أَسْرَعُ مِنْ تَذَارُكِهَا لَمَّا أَفْسَدَتْ مِنْهَا
الْوَقْتُ سِلْسِلَةً وَكُلُّ جِهَاتِهِ يَضْدُرُّ عَنْهَا
شَفْتَانِ فِي فَمِهَا أَزَلَّ إِلَى أَبَدِ
الْوَقْتُ بَيْنَهُمَا كَالنَّفْسِ فِي الْجَسَدِ !

(٦)

مَوْجَةُ الْأَنْفَاسِ سَيْفٌ جَعَلَتْهُ الذَّاتُ حَادًّا
طَلَبَتْ ذَاتُكَ شَيْئًا نِيلُهُ يَضْعُوبٌ جَدًّا
هَذِهِ ذَاتُ شَرِيكِ هَذِهِ ذَاتُ مُقَيِّمِ
إِنَّهَا الْيَقْظَةُ وَالْعَزَلَةُ وَالسَّرُّ الْحَمِيمِ
إِنَّهَا الذَّاتُ سَوَالٌ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَدَلِّ
مِثْلَمَا الشَّوْقُ إِلَى الْعُزْلَةِ فِي وَقْتِ التَّجَلِّيِ
إِنَّهُ الْبَحْرُ الَّذِي تَحْمُلُهُ قَطْرَةٌ مَاءٍ
وَهِيَ فِي الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ
وُلِدَتْ مِنْكَ وَمَنْنِي فَأَضَعْنَاهَا كَلَانَا

وَأَنَا أَزْهَقُ ظُنِّي
أَزْلِيَّاتِي وَرَائِي
وَأَنَا رُغَمَ غِبَائِي
إِنَّهَا الذَّاتُ الَّتِي تَمُخَّرُ فِي بَحْرِ الْحَيَاةِ
فَتُنَاغِي لَطَمَاتِ
وَتُقَاسِي لَطَمَاتِ
عِنْدَمَا تَطْمَعُ أَنْ تَقْلِبَ أَمَالَ الشُّبَابِ
تَتَخَفُّ وَتَدِيرُ اللَّحْظَ مِنْ تَحْتِ النُّقَابِ
فَتَرَى الصَّخْرَ تَرَاباً
صَعِقاً مَمّاً تُدِيرُ
وَتَرَى الْعَالَمَ وَجْداً
يَتَمَنَّى لَوْ يَطِيرُ
إِنَّهَا الْبَدْءُ جَمِيعاً
إِنَّهَا ذَاكَ الْغُبَارِ
إِنَّهَا فِي الْبَدْرِ أَضْوَاءُ
وَفِي الصَّخْرِ شَرَارِ
إِنَّهَا فِي ظُلْمَةِ النُّجُورِ إِذَا شَعَّ النَّهَارُ
مَا لَهَا أَعْلَى وَأَدْنَى
مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرِ
لَمْ تَزَلْ جِلْفَ كَفَاحِ
أَحْرَقَتْ آدَمَ لَمَّا
فَإِذَا آدَمُ لَحْنٌ
وَإِذَا فِي بَوْبِ الْعَيْنِ انْطَبَاعَاتُ السَّمَاءِ
قَبْحُ السَّلَامَةِ أَنَّهَا
وَالْعُمُرُ حَرْبُ الذَّاتِ فَالشَّرَفُ الرَّفِيعُ أَوِ الْأَذَى
الذَّاتُ عِنْدَ تَجَاهِلِ الْأَهْوَاءِ مَرَهُمُهَا الْأَكِيدُ
وَتَجَاهُلُ الْأَهْوَاءِ دَرْبُ الذَّاتِ وَالْخَبَرُ الْوَحِيدُ
(محمود) ترفع رأسه ذاتٌ تؤولفُ جنده
و (إياز) عند الناس ملء الأرض ممّا عنده

لما أراد الغَزَنِيُّ يَحْطُمَ الصُّنَمَ الْكَبِيرَ^(١)
 جَاؤُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ وَالْحَرِيرِ
 فَرَمَى بِمَا جَمَعُوهُ فِي بَحْرِ وَبِلَدِّهِ جَمِيعَةً
 وَأَجَابَ جَثُّ لِكْنِي أَحْطَمَهُ وَلَيْسَ لِكْنِي أُبِيعَهُ
 فَلَأَن أَسْمَى هَادِمَ الْأَصْنَامِ خَيْرٌ فِي الثَّلَاثِ
 مِنْ أَنْ أَسْمَى بِأَنْعِ الْأَصْنَامِ مِنْ بَيْنِ الْمُلُوكِ
 لَيْسَ الشُّجُودُ تَهْدِيلُ الْكَتِفَيْنِ مِنْ قَرْطِ الْقُعُودِ
 مَا كَانَ يَغْنِي عَنْ سَجُودٍ آخَرَ فَهُوَ الشُّجُودُ
 مِنْ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ وَالْأَلْوَانِ عَالَمُنَا خَلِيطُ
 وَجَلُّ يَطَارِدُهُ الْفَنَاءُ مِنَ الْمُحِيطِ إِلَى الْمُحِيطِ
 أَصْنَامُ أَلْوَانٍ وَأَصْوَاتٍ تَلْمُ الْكَوْنُ لَمَّا
 أَسْفَأَ عَلَى سَمْعٍ وَعَيْنٍ أَلْفَا عُمِيًّا وَصُمًّا
 الْأَمْرُ مَرَحَلَةٌ وَدَرْبُ الْذَاتِ تَذَخَّرُ بِالْمَرَا حِلِ
 مَا أَبْعَدَ الْجُزُرِ الَّتِي تَغْرِيكَ عَنْ تِلْكَ الشُّوَا حِلِ
 يَا أَنْتَ نَارُكَ لَمْ تَكُنْ مِنْ مَوْقِدٍ هَذَا لَهْيُهُ
 ضَاعَتْ شَرَارُكَ الَّتِي كَانَتْ بَنْظَرَتِهَا تَهْيُهُ

عَبْدُكَ الْعَالِمُ فَاؤْمَر	فَهُوَ لَا يَهْرُبُ مِنْكَ
غَيْرِ الْمَوْقِفِ وَانْظُرْ	إِنَّهُ يَضْدُرُّ عَنْكَ
امْضِ لَا تَرْكُنْ لَشَيْءٍ	وَانْضُ عَنْ كَوْنِكَ هَوْلَةٍ
لَهْثَةٍ الرَّآكِنِ مِنْ	سُرْعَةٍ مَا يَبْصُرُ حَوْلَةٍ
ظَاهِرُ الْعَالَمِ سَحَرٌ	وَعَصَا مُوسَى ثَبَاتُكَ

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همة محمود .

أَسَدُ اللَّهِ الَّذِي يَفْتَنُ صَالِحَ الْعَالَمِ ذَاتُكَ
جَوْهَرُ الْكَوْنِ قَدِيمٌ فَكَرُّكَ الْكَشْفُ الْجَدِيدُ
أَيُّنَ كَفِّ تَنْظِيمِ الْجَوْهَرِ فِي سِلْكِ فَرِيدِ
أَيُّهَا الْمَسْلَمُ فَارْقُبْ نَظْرَةَ الدُّنْيَا إِلَيْكَ
فِي مَلَأَ مِنْ رَجَاءِ يُعَقِّدُ الْعَزْمَ عَلَيْكَ
إِنَّ لَلْأَمَادِ شَغْلًا حَوْلَ أَقْطَارِ الْوُجُودِ
عِنْدَمَا تَكْشِفُ عَنْ ذَاتِكَ تُدْعَى لِلشُّجُودِ
لَسْتُ فِيمَا قُلْتَهُ أَشْرَحَ لِلْعَالَمِ قَدْرَكَ
فَأَنَا حَاوِلْتُ حَتَّى الْآنَ أَنْ تَفْتَحَ صَدْرَكَ
مَرَّقَ الْكَلِمَةَ ضِيْقُ عَنْ مَعَانٍ نَقْتِفُهَا
نَحْنُ مَرَاةَ مَعَانٍ كَدَّرَ الْكَلِمَةَ فِيهَا
زَفَرْتَنِي تُضَرِّمُ صَدْرِي وَأَنَا بَيْنَ الشُّبُوفِ
غَيْرَ أَنَّ الْقَوْلَ مِنْ خَشْيَتِهِ يَرْجُو الْوُقُوفِ
أَنَا مِنْ كَثْرَةِ مَا حَلَّقْتُ أَلْهَبْتُ النَّوَاحِي
فَلَوْ اجْتَزَتْ قَلِيلًا أَحْرَقَ الثُّورُ جَنَاحِي

الزَّمن

شُعْلَةُ الْعُمْرِ مِنْ لَهَبِ الثَّوَانِي
غَدُكَ الطُّغْمُ فِي جَبَالَةِ أَمْسٍ
يَرْقُبُ النَّاسُ طَالِعًا ذَا خِيَالٍ
وَأَنَا ذَلِكَ الْخِيَالُ وَلَكِنْ
يَسْقُطُ الْعَالَمُ الْجَدِيدُ بِكَاسِي
سُبْحُ الْقَوْمِ لَعَبَةٌ فِي يَدِيهِمْ
أَشْعَلَتْهَا تَغْيُّرَاتُ الزَّمَانِ
فَتَرَفَّقْ بِيَوْمِكَ الْمُتَفَانِي
وَيَخُوضُونَ فِي جَمِيعِ الْأَمَانِي
يَضَعُبُ الْيَوْمَ شَرْحُ تِلْكَ الْمَعَانِي
قَطْرَةٌ قَطْرَةٌ كَرَشَحِ الدُّنَانِ
أَنَا سُبْحَتِي لِيَالِي زَمَانِي

كُلُّ حَبَاتِهَا عَرَفْتُ وَلَكِنْ
وَلِكُلِّ طَرِيقَةٍ وَسَلُوكُ
مَرَّةً أَجْعَلُ الْأَعْنَةَ سَوَاطِ
لَكَ مِنْ حَفْلَةِ اللَّقَاءِ نَصِيبٌ
لَيْسَ مِنْ عَادَتِي أَخْبِيءُ كَأْساً
بَدءُ هَذَا التَّعَرُّجَاتِ عَسِيرٌ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِرَاصِدٍ فِي غُرُورٍ
إِنَّ عَيْناً خَبِيرَةً بِقُؤَاهَا
شَفَقُ الْأَفُقِ ذَاكَ نَهْرُ دِمَاءٍ
وَانْتَظِرْ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ وَفَهَقَهُ

لَا أَسُوِّي بَيْنَ الْجَمِيعِ بِشَانِي
بَعْضُهَا فَارَسِي وَأُخْرَى حِصَانِي
مَرَّةً أَجْعَلُ السَّيَاطِ عِنَانِي
فَإِذَا لَمْ تَكُنْ فَلَسْتُ بِجَانٍ
لِنَدِيمٍ عَلَى كَرَامَةِ حَانِي
وَهِيَ لَيْسَتْ تَعَرُّجَاتِ جَبَانٍ
وَهِيَ لَيْسَتْ لِمُقْتَفٍ فِي هَوَانٍ
غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ لِحَمْلِ سِنَانٍ
فَتَحْمَلُ نَهْرَ الدِّمَاءِ وَعَانٍ
حَاكَتِ اللَّغْزَ ذَاكَ أُسْطُورَتَانِ

هَذِهِ الْفِكْرَةُ الْجَرِينَةُ عَزَّتْ
إِنَّ عُشّاً هِيَ الصَّوَاعِقُ فِيهِ
إِنَّهَا الرِّيحُ وَالْفَضَاءُ جَمِيعاً
كَانَ جُنْدُ الْقَضَاءِ لِلْمَوْتِ ذِعْراً
وَإِذَا أَنْتَ جِئْتَ بِالسَّيْفِ طِفْلاً
ذَهَبَ الْعَالَمُ الْقَدِيمُ قَتِيلاً
قَامَرِ الْإِنْكَلِيزَ حَتَّى تَوَلَّوْا
إِنَّ هَذَا الصُّوفِيَّ يَحْمِلُ نَاراً
مَلَأَ اللَّهُ دَرْبَهُ بِمَعَانٍ

سُلْطَاتِ الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَبَدَّةِ
لَيْسَ صَعْباً لِمِثْلِهَا أَنْ تَهْدَهُ
إِنَّهَا الْبَحْرُ وَالسَّفِينَةُ عِنْدَهُ
فَإِذَا بِالْقَضَاءِ يَقْتُلُ جُنْدَهُ
أَمْسَكَ الطُّفْلُ لِلْجَمَالِ فِرْنْدَهُ
أَتَرَى يَسْلَمُ الْمُقَاتِلُ بَعْدَهُ
وَكَذَا الدَّهْرُ لَا يَقَامِرُ وَحْدَهُ
لَا تَبَالِي بِرِيحِ تِلْكَ الشُّكُوكِ
عَلِمْتُ قَلْبَهُ سَلُوكَ الْمُلُوكِ

آدمُ يُغادرُ جَنَّةَ عَدْنَ

والملائكة تودِّعه

لَمْ نَجِدْ لِلْغُرِّ حَلًّا
أَنَّ ذَاكَ الطَّيْنِ وَلَّى
زَيْبِقًا فِي السَّرِّ حَلًّا
قُلْ عَمَى هَذَا وَعَلَّ
أَحْمَلُ الْعَالَمِ كُلاًَّ
أَنْتَ فِي الْحُلُمِ تَصَلَّى
يَغْمُرُ الْيَقْظَةَ ظِلًّا
يَمْلَأُ الْجَنَّةَ طَلًّا
زَهْرَهُ مَمَّا تَمَلَّى
تَرْقُصُ الْجَوْقَةُ دَلًّا
وَعِثَاءٌ لَيْسَ إِلَّا

أَنْتَ مَوْهَوْبٌ وَإِلَّا
كُنْتَ مِنْ طَيْنٍ وَيَبْدُو
كَأَنَّكَ النَّفْخَةُ مِنْهُ
وَيَقُولُونَ تَرَابٌ
وَمَعَ النِّكْتَةِ هَذَا
كَلِيفٌ بِالْحُسْنِ حَتَّى
لَكَ فِي الْحُلُمِ نَعِيمٌ
دَمْعُكَ الصُّبْحَ لَدَيْنَا
يَطْلُبُ الرُّوضِ لِسْقِي
فَاكْشِفِ الْأَسْرَارَ وَارْقُصْ
إِنَّمَا الدُّنْيَا بَكَاءٌ

روح الأرض تستقبل آدم

إِنَّهُ آدَمُ جَاءَ
كُنْتَ مِنْ طَيْنٍ وَمَاءَ
وَتَمَعَّنُ فِي السَّمَاءِ
فَتَأْمَلُ مَا وَرَاءَ
وَاحْتَمَلُ وَهُمْ الشَّقَاءَ
حَرْبُ خَوْفٍ وَرَجَاءَ
مَنْ بِحَارٍ وَفَضَاءَ

فَأَتَى الْأَرْضَ فَقَالَتْ
أَنْتَ يَا آدَمُ فَاعْلَمْ
حَوْلَكَ الْعَالَمُ فَاَنْظُرْ
وَوَرَاءَ الْحُجُبِ حُسْنٌ
لَا تَكُنْ نَافِذَ صَبْرٍ
ضَجَّةُ الْعَالَمِ هَذَا
لَكَ مَا فِي الْكَوْنِ مُلْكٌ

هذه الشَّخْبُ جميعاً هذه اليُّدُ العَرَاءُ

(٢)

كنتَ من وجهه ملاك في اندها شر وفناء
فَخُذِ المِرآةَ وانظر فيك أسرارَ القضاء
نظراتُ ذاتٍ مغزى أطلقَتْ سرَّ البقاء
وشراراتُ صراخ يتعالى في السماء

(٣)

إنَّ ضوء الشمس هذا من شراراتِك ضياء
عالمٌ أنتَ جديدهُ أنت والكونُ سواء
أنتَ فردوسُك ذاتُ مالهها قطُّ انتهاء
جسدٌ ؟ لا ليس هذا جسداً هذا جزاء
أيتها الزَّهْرَةُ فانظر كيفَ تمضي في العطاء

(٤)

كلُّ أوتارِك تبكي أيتها العودُ الشَّريد
كلُّ ميثرائِك حبُّ فتخيِّر ما تريد
سُيِّدُ الأسرار في المعبد من وقتٍ بعيد
تنفق الذاتُ وتبلى ثم تُبدي وتعيد
ثمَّ في غير كثيرٍ تمتطي كلَّ جديد

قطعة

خطاي كمثل نسيم الصُّباح تُبطلِي حيناً وتُشرع حيناً
أنا شوكتي إبرةٌ للورودِ ترقعُ ما انقذَ عبر السنين

بدأ بي كَسَوْتُ ثِيَابَ الْحَرِيرِ هَذَا الشَّقَائِقَ وَالْيَاسَمِينَ

الْمُرْشِدُ وَالْمُرِيدُ

إقبال وهو التلميذ الهندي بوجه إلى مرشده
أُسْئَلَةُ نَجْدِ أَجَوِبَتِهَا كَامِلَةٌ مَدْرَجَةٌ فِي كِتَابِهِ
(المثنوي) وهو يوردها بنصّها بالفارسية .

قَالَ إِقْبَالَ لِرُومِيٍّ	يَا إِمَامَ الْعَاشِقِينَ
لَمْ يَزَلْ يَمْلَأُ سَمْعِي	ذَلِكَ الْقَوْلُ الْمُبِينُ
وَتَرُ الْعُودَ وَقْشَرُ الْعُودِ	وَالْعُودُ سَجُونُ
عِنْدَمَا تَبَيَّنَ فِيهِ	يَبِينُ اللَّحْنُ الدَّفِينُ
عَصْرُنَا النِّشْوَانُ هَذَا	تَنْتَشِي مِنْهُ الظُّنُونُ
رَقِصَةُ الْأَجْسَادِ لَا تَمْحُو	أَسَى الْقَلْبِ الْحَزِينُ
مَبْدَأُ الْعَالَمِ يَا أَسْتَادُ مَا شَاؤُوا يَكُونُ	
لَيْسَ فِي قَلْبِ حُضُورٍ	أَوْ بِوَجْدَانٍ يَقِينُ
كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ سِرًّا	ذَلِكَ الصَّدْرُ الْمُهِينُ
رَدًّا لِلصَّدِّيقِ مَا يَرُوي	عَنِ الْوَحْيِ الْأَمِينُ
كَيْفَ جَرَّتْهُ إِلَى الْأَوْهَامِ قِيَادَةُ طِينُ	
رُغْمَ مَا أَنْفَقَهُ لِلْمَجْدِ	مَنْ كَادَ الْقُرُونُ
قَالَ رُومِيٍّ أَيُّ فَرْقٍ	بَيْنَ لَحْنٍ وَطِينُ
إِنَّ فَنَّ السَّمَاعِ الْحَقِّ	سَلَطَانُ الْفَنُونُ
كَالْعَصَافِيرِ وَلَيْسَتْ	كُلُّهَا تَأْكُلُ تِينُ
قَالَ : طَوَّفْتُ لِأَجْلِ الْعِلْمِ فِي شَرْقٍ وَغَرْبِ	

وَأَنَا الْآنَ وَحِيدٌ وَالْأَسَى يَمْلَأُ قَلْبِي
 قَالَ : هَذَا طَبُّ كَفٍّ لَيْسَ أَهْلًا لِعِلَاجِكَ
 جَعَلْتُ مِنْكَ مَرِيضًا فِي فِرَاشٍ مِنْ لَجَاجِكَ
 اسْأَلِ الْأُمَّ عِلَاجًا مِنْ عَقَاقِيرِ الْأُمَمَانِ
 إِنَّ نَصَفَ الطَّبِّ مِنْ عِلْمٍ وَنَصَفًا مِنْ حَنَانٍ
 قَالَ يَا مَنْ شَرَحْتَ نَظْرَتَهُ ضِيقَ فُؤَادِي !
 أَمَلِي أَفْهَمُ مَا تَفْهَمُ مِنْ أَمْرِ الْجَهَادِ
 قَالَ : مَنْ سَوَّى لَكَ الْأَصْنَامَ سَوَّى لَكَ فِئْتَهُ
 وَبِأَحْجَارِ الْحَبِيبِ يَضْرِبُ الْحَاقِقُ كَأْسَهُ (١)
 لَا تَقُلْ لَيْتَ وَلَوْلَا مَا عَلَيَّ هُمُّكَ بِأَسْرُ
 أَنْتَ يَا هَذَا الَّذِي يَجْرُحُ فِي الدَّهْرِ وَيَأْسُو
 قَالَ : حَوْرُ الْغَرْبِ أَلْقَتْ فِتْنَةَ الشَّرْقِ شَبَاكَ
 صَرَعَتْ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا تَرَى فِيهِ جِرَاكَ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمَ ! اخْذْ ظَاهِرًا يَطْغِي عَلَيْكَ
 عِنْدَمَا تَفْرِكُهَا الْفُضَّةُ انْظُرْ لِيَدَيْكَ
 قَالَ : يَا رُومِي ! وَسِخْرُ الْإِنْكِلِيلِ زِيَّ الْإِمَامِ
 يَأْخُذُ الطَّالِبَ لِحْمًا ثُمَّ يَرْمِيهِ عِظَامًا
 قَالَ : كَالْعَصْفُورِ إِنْ لَمْ يُكْمَلِ الرِّيشَ وَطَارَ
 هَجَمَ الْقَطُّ عَلَيْهِ وَرَمَاهُ لِلصَّغَارِ
 قَالَ : إِنَّ الدُّيْنَ وَالْقَوْمِيَّةَ الْيَوْمَ صَرَاعُ

(١) فِي الْمَثْنَوِي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه
 د . كفاي : إنه لاحق لإنسان في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء
 كان ذلك بفعل مباشر أو بأمر واجب الاتباع مما نصت عليه الشريعة .
 انظر ترجمة د . كفاي للمثنوي ص ٦١٣ .

أَنْتَ هَلْ تَدْرِي بِمَاذَا يَنْتَهِي هَذَا النَّزَاعُ
 قَالَ : مَا فِي اللَّيْلِ لِلزَّائِفِ وَالْمَحْضِرِ عِيَاذُ
 وَدَلِيلُ الذَّهَبِ الْخَالِصِ إِشْرَاقُ النَّهَارِ
 قَالَ يَا شَيْخُ ! بِمَاذَا أَمَّا الذَّرْبُ الْقَصِيرُ
 وَبِأَيِّ الْأَمْرِ أَغْنَى بَعِيدَانِ أَمْ بَصِيرُ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ مَا هَذَا الَّذِي لَيْسَ يَبِينُ
 إِنْ تَكُنْ تُبْصِرُ يَعْنِي أَنْتَ إِنْسَانٌ مَبِينُ
 يَمْلَأُ الْمُهْجَةَ حَقُّ وَحَبِيبٌ دَامِغُ
 مَا عَدَا ذَلِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ جَوْرٌ فَارِغُ
 قَالَ : يَا مَنْ مَلَأَ الشَّرْقَ بِمَا يَحْيِي الْقُلُوبَ
 مَا الَّذِي يَغْصِفُ بِالشَّرْقِ وَمَادَاءُ الشُّعُوبِ
 قَالَ : مَا أَعْرِفُ شَعْباً مَاتَ إِلَّا مَاتَ لَمَّا
 حَسِبَ الْأَحْجَارُ بَخُوراً وَظَنَّ الشُّهُدَاءُ سَمّاً
 قَالَ : يَا شَيْخُ ! وَهَذَا الْمُسْلِمُ الضَّائِعُ كَوْنُهُ
 دُمُهُ أَصْبَحَ ثُلُجاً عَطَرُهُ غَابَ وَلَوْنُهُ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَعْباً
 وَرَجُلًا الْقَلْبُ لَا تَجْرُو أَنْ تَجْرَحَ قَلْبُكَ
 قَالَ : يَا أَسْتَاذُ ! إِنَّ السُّوقَ وَالْحَقَّ أَقْوَلُ
 كَسَدَتْ فَالْبَيْعُ أَيُّ الْبَيْعِ يَحْظَى بِالْقَبُولِ
 قَالَ : اذْهَبْ وَاشْتَرِ الْحَيْرَةَ بِالْعَقْلِ الظَّنِّينِ^(١)
 إِنَّهُ وَهُمْ وَظَنُّ وَهِيَ حَقٌّ وَيَقِينُ
 قَالَ : جِيرَانِي جَمِيعاً نَدَمَاءُ لِلْأَمِيرِ

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفاي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يوليه ظهره »

وَأَنَا فَوْقَ حَصِيرِي حَاسِرُ الرَّاسِ فَقِيرُ
 قَالَ : كُنْ خَادِمًا حَرًّا قَلْبُهُ دُونَ حُدُودِ
 لَا تَكُنْ فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ مِنْ بَعْضِ الْقُرُودِ
 إِنْ تَكُنْ عَبْدًا لِلْإِنْسَانِ لَهُ قَلْبٌ كَبِيرُ
 هُوَ خَيْرٌ مِنْ طَوَافٍ بَيْنَ نُدَمَانِ الْأَمِيرِ
 قَالَ : يَا هَذَا الَّذِي يُسْهِمُ فِي وَجْدِ الْكِبَارِ !
 ضَعْتُ مِنْ قَلْبٍ عِلْمِي بَيْنَ جَبَرٍ وَاخْتِيَارِ
 قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمَ ! مَا الشَّاهِدُ ؟ يَبْدُو كَالْغُرَابِ
 رِيثُهُ يُضْبِحُ تَاجًا رِيثُ هَذَا لِلْغُرَابِ
 يَطْلُبُ الْمَوْتَى غَرَابٌ ظَفَرُهُ عِبْدٌ عَلَيْهِ
 وَتَرَى الشَّاهِدِينَ يَمْضِي أَكْلُهُ صَنْعُ يَدَيْهِ
 قَالَ : مَاذَا يَأْمُلُ الْإِسْلَامُ مِنْ هَذَا السُّلُوكِ
 الْكَافِي نَرْضَى بِفَقْرٍ أَمْ إِلَى طَيْشِ الْمُلُوكِ
 قَالَ رُومِي : جَنَّةُ الْإِسْلَامِ فِي ظِلِّ الشُّيُوفِ
 لَيْسَ مَا تَطْلُبُهُ الرُّهْبَانُ مِنْ أَمَنِ الْكُهُوفِ
 قَالَ : يَا أَسَافُ ! كَيْفَ الْخَوْضُ فِي مَاءٍ وَطِينِ
 أَيْنَ مَا يَوْقُظُ قَلْبِي وَهُوَ فِي صَدْرِي سَجِينِ
 قَالَ : لَا تَشْمِخْ كَنَعَشٍ فَوْرَاءَ النَّعَشِ كَفُفُ
 وَتَوَاضِعْ كَحَصَانِ أَيْنَمَا شَاءَ يَخْفُفُ
 قَالَ : يَا أَسَافُ ! أَيْنَ الْبَعِثُ مِنْ ضَعْفٍ يَقِينِي
 وَأَنَا أَجْهَلُ مَا أَجْهَلُ مِنْ أَسْرَارِ دِينِي
 قَالَ : مَا أَنْتَ وَهَذَا ابْعَثِ النَّفْسَ بِذَاتِكَ
 ثُمَّ سَلْ نَفْسَكَ مَاذَا إِنَّهَا دَرَبُ حَيَاتِكَ
 قَالَ : يَا أَسَافُ ! إِنَّ الْذَاتَ تَمْضِي فِي السَّمَاءِ
 تَحْمِلُ الظُّلْمَةَ وَالنُّجُورَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءِ

مع هذا غابَ عنها
هي مِنْ فَقْدِ التَّجَلِّي
في ازدهارٍ وانهيـارٍ
هي ممّا افترسَتْه
قال رومي : ليس إلا
لكن الموضع (مَنْ يوقعه بين الشباك)
قال : يا أستاذ ! قل لي
أنت للإسلام شمسٌ
قال رومي : كلُّ حَبٍّ
لا تكن بُزْعَمَ وردٍ
كن على حبِّك فحّاً
واستُر البُزْعَمَ واضرب
قال : يا أستاذ ! ما
أنا ما جئتكَ إلا
هو ذا قلبي بِصَـذري
بين كدٍّ وخمولٍ
قال : يا إقبالُ لَسْنَا
أنا لي مثلك قلبٌ
إنّما القلبُ سماءٌ
ولله ربُّ حواء
ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربٌ تسلكُـه
مُنتهى الحكمة أن تبحثَ عَمَّن يملكُـه
قال : يا أستاذ ! فكري
وأنا في الأرض هذي
لِمَ نسترشد بالمُضِلِّح لا يُضِلِّحُ أهْلُـه ؟

ما يجلِّيه الفراق
في جحيمٍ لا يُطاقُ
شأن أربابِ الوصول
في جراح لا تزول
الحبُّ أهلاً للعراكِ
يوقعه بين الشباك)
هل لهذا الشعب حَرْقُك
في ضمير الكون شرقُك
يرغبُ العصفورُ نَقْرَه
تقصِفُ الأطفالُ ظهْرَه
يمنعُ الحائِم طَوْلَه
قصباً نفَسَك حَوْلَه
الحربُ التي تملأُ جنبك
قلت لي قلبك قلبك
وأنا جِلْفٌ طريقي
مِلءَ مرآتي بِرِيقِي
أهلُ فقهِ وأصولٍ
وكمّا أنت تقوون
عرشُـه في مستواها
ولها ربُّ حواها
يا إقبالُ دربٌ تسلكُـه
عَمَّن يملكُـه
للسموات دليل
خائرُ العِزِّم ذليل
لِمَ نسترشد بالمُضِلِّح لا يُضِلِّحُ أهْلُـه ؟

وَلَمَّا عَارَفُ بِالذَّيْنِ بغيرِ الذَّيْنِ أبله
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبير :
في سماء الله يسري مَنْ على الأرض يسير
قال : يا أستاذ ! لا أَبْصِرُ في الدُّبِ منارا
أين مَنْ يَقْدَحُ للحكمة في صَدْرِي نارا
قال : يوري العلمَ نارا يا بئسَ الخبز الحلال
والذي يأكل كدَّ النَّاسِ يُفْنِيهِ الضَّلَالُ
قال : يا أستاذ ! إِنَّ العَصْرَ يستدعي النَّزال
ولهيبُ الشُّعْرِ يخبو وقدْ دُونَ اعتزال
قال : يا إقبال ! لَسْنَا نَقْصِدُ العِزْلَةَ قصدا
عندما الأحباب تأتي تُضَيِّحُ الخِلْطَةَ شهدا
بَدْدِ العِزْلَةَ واذهبْ مَنْ قَطِيعَ لِقَاطِعِ
تَشْتَرِي النَّاسُ فراءَ ليس من أجل الرِّيعِ
قال : أين الهندُ ضاعتْ لا لهيبُ لا ضياءُ
ورجالُ القَلْبِ فيها تُعْصَاءُ أَشْقِيَاءُ
قال : يا إقبال ! هَذِي النَّاسُ لا تعرفُ روحا
أَجْلِي الدَّمْعَةَ هَذِي وكفى اليَوْمَ جروحا
يَلْفِظُ الحَقُّ بَعْدًا جَسَدًا ما فيه قلبُ
إِنَّ رَبَّ النَّاسِ حَيٌّ وهو للأحياء ربُّ
كُلُّ ما في الشُّعْرِ هذا مَنْ صُراخٍ وصياحِ
ليس ما يُذْهَشُ أَنْ يَذْهَبَ أدراجَ الرِّيحِ

جبريلُ والشَّيْطان

التقى سيّدنا جبريلُ إبليسَ الرَّجِيمِ
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخُلُ القديم ؟
ما جرى في عالم الألوَانِ والعِطْرِ الجديّد
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدٌ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلُقك
أولا يُمكن أن يُزقَعَ في الجلبابِ خِزْقُك
قال : هيهاتَ ولكِن لستَ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشقي وهو في الحق يُسرُّ
قدحُ السرِّ الذي أسكّرني منه تكسّرُ
ورجوعِي للأعالي بعد سُكُري بتعسّرُ
أنا حتّى لا أطيقُ العيشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرّحمة حالٌ وأنا اللّعنةُ حالِي
ذلك العالم ما معناه من غير أوابد؟
إنّهُ الموتُ الذي تُعرِف لولا ما أكابِدُ
فلماذا كنتَ حياةً بقنوطي للوجود
أتري الواجبَ أبقي في قنوطي أم أعود
قال : لكنّ عندما استنكفتَ كِبِراً أن تطيعه
نالكَ العارُ ونال المَلَأُ الأعلى جميعه
صارَ شُقلُ المَلَأُ الأعلى أمام الله خوفاً
يهدرُ الدُّغُرُ عليه تملأ الرّعدةُ خوفاً
قال : يا جبريل لكنّ جرأتِي سرُّ البقاء
وهبتُ للحمماً المسنون شوقاً للنماء

أَنْتِ فِي الشَّاطِئِ تَرْنُو لِصِرَاعَاتِ الْمَوَاقِفِ
 أَنَا أَمْ أَنْتِ الَّذِي تَصْفَعُهُ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ
 عِنْدَمَا تَغْصَفُ رِيحِي لُجَجَ الْبَحْرِ الْجَلِيلَةِ
 لَا يَرَى إِلْيَاسَ وَالْخَضِرُ مِنَ الْمَوَاقِفِ حِيلَهُ
 فَإِذَا أَمَكْنَ يَوْمًا تَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى
 فَأَنَا أَرْجُوكَ أَنْ تَسْأَلَهُ هَذَا السُّؤَالَ
 دُمُ مَنْ ذَاكَ الَّذِي خَضَّبَ تَارِيخَ ابْنِ آدَمَ^(١)
 دُمُ مَنْ هَذَا (دُمِّي أَمْ دُمُّهُ أَمْ دُمُ آدَمَ)
 صَاغِنِي اللَّهُ تَعَالَى شَوْكَةً تَجْرُحُ قَلْبَهُ
 أَنْتِ لَا تُتَّقِينَ إِلَّا النَّفْسِي وَالْإِثْبَاتِ قَرْبَهُ

قطعة

بِالْأَمْسِ أَوْصَى مُرْشِدُ أَصْحَابِهِ
 أَعْلَى وَأَثْمَنُ مِنْ بَحُورِ لَآلِيءِ
 فِي خَمَرِ أَوْرُوبَةِ لَشَعْبٍ كَامِلِ
 تَفَنِّي بَنِيهِ بِالتَّسْكُعِ خَلْفَهَا
 بِوَصِيَّةِ سُبْحَانَ رَبِّكَ مِنْ وَهَبِ
 يَا لَيْتَهَا كُتِبَتْ بِمَاءٍ مِنْ ذَهَبِ
 سُمٌّ يُسَمِّمُ ذَاتَهُ وَإِرَادَتَهُ
 تَمْحُو مَوَاهِبَهُ تُبِيدُ كِرَامَتَهُ

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشرير يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبحِ لـأفلاكِ يوماً لا حياً
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحياً
سُخَّرَ المَريخُ ممّا قاله نجمُ الصُّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحياً أو غير صاحٍ
تدركُ الأقدارُ ما تفعلُ في هذا الظُّلامِ
وأرى الخيرَ لـداومتِه في أن تنامَ
قالت الرُّهرة : أف غَيِّروا الموضوع هذا
تُنفِقُ اللَّيلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيهم نهتمُّ لهذي الذِّرةَ العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يقولُ
نحنُ في الظُّلُمَةِ نبدو وهو يبدو في النُّهارِ
روحُه سرُّ اللَّيالي قلبُه قُطْبُ المَدارِ
وهو لو أدرك معنَى سهرِ اللَّيلِ وذائقُه
جاز أطباق الثُّريا وأرى الله طباقة
إنَّه في صَدْرِهِ يستر نوراً باهراً
وهو أطلقه لـم يبقِ نجماً ساهراً
فملا صَوْتُ أذانٍ بينهما هُم في جدالٍ
يا لها صرخةٌ وعظٌ صدَّعتُ قلبَ الجبالِ

قطعة

رُغِمَ ما يوجد في رِكةِ شعري من عُيوب

رِيْمَا تَبْلُغْ يَوْمًا كَلِمَاتِي لِلْقُلُوبِ
 مَا عَلَى الشَّارِعِ لَوْ كَيْفَمَا قَالَ وَعَبَّرُ
 أَنَا يُغْنِينِي عَنْ الشَّعْرِ نَدَاءُ (اللهُ أَكْبَرُ)
 أَنَا تَغْنِينِي إِذَا أَخْفَقْتُ فِي كَشْفِ النَّوَايَا^(١)
 صَلَوَاتُ وَتَرَاتِيْلُ بِهَاتِيكَ الزَّوَايَا
 مَغْشَرُ الْجَانِبِ هَذَا دِينُهُمْ لَا يَسْتَطَاعُ
 عَرَفُوا النَّفْسَ وَلَمَّا نَظَرُوا فِي اللهِ ضَاعُوا
 وَعَبَادُ الْجَانِبِ الْآخِرِ عُمَّا لُ مِنْ جَانِبِ
 هُمْ عَنِ الْأَهْوَاتِ أَغْرَابُ وَفِي الْبَحْثِ أَعْجَابُ

الحب

مَنْ شَهِدَ الْحَبَّ الَّذِي زَعَمُوهُ
 سِمَةُ الْعُشُقِ لَا تُنَاحُ لَشَعْبِ
 فِي هِيَاجِ الْفُؤَادِ لِلْحَبِّ سِرٌّ
 إِنَّمَا الْغَزَنَوِيُّ صَنُوْ إِيَّازِ
 رَوْجِ الْحَبِّ سَوْقَ كُلِّ حَكِيمِ
 هِيَ لَوْلَا تَدْخُلُ الْحَبَّ فِيهَا
 رَجُلُ الْحَبِّ لَا يَذِلُّ لَشَيْءِ
 لَيْسَ يَحْتَاجُ أَوْ يَخَافُ مَلِيكَاً
 تَاجُ إِسْكَندَرَ الشَّهِيرِ مَتَاعِ
 أَنَا أَبْنَى الرُّجَالِ بِالْفَقْرِ هَذَا

ابْحَثُوا عَنْهُ فِي جَمِيعِ الْفِجَاجِ
 دُونَ شَعْبٍ وَلَا تُبَاحُ لِرَاجِي
 كَهِيَاجِ الْفَرَّاشِ حَوْلَ السُّرَاجِ
 إِنْ يَكُنْ قَلْبُهُ بَغِيرِ هِيَاجِ
 حَاكَ آرَاءَهُ بِهِ لِلزَّوْاجِ
 لَعِبَةٌ مِنْ لَأَلِيٍّ مِنْ رُجَاجِ
 مُسْتَقِلُّ الْفُؤَادِ حُرُّ الْمَزَاجِ
 إِنَّمَا الْخَوْفُ مَظْهَرُ الْاِحْتِيَاجِ
 وَأَنَا الْفَقْرُ وَالتَّدْرُوشُ تَاجِي
 وَهُوَ بَيْنِي مَدِينَةٌ مِنْ رُجَاجِ

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لِي يَقُولَ : مُحَالٌ أَنْ يَعِيقَ الظُّلَامُ شُغْلَةَ ذَاتِي
أَنْتَ مِثْلِي مَافِرٌّ ذُو لَهَيْبٍ فَأَنْزِرْ بِاللَّهَيْبِ لَيْلَ الْحَيَاةِ

إلى جاوید^(١)

لَتَكُنْ لِقَلْبِكَ يَا بَنِي مَكَانَةً
كُنْ فِي أَمَاسِيهِ وَفِي أَسْمَارِهِ
وَعِي الْفُؤَادَ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَإِنْ
أَخْرَجْتَ مِنْ صَدْرِ الْوَرُودِ حَدِيثَهَا
إِيَّاكَ يَوْمًا أَنْ تَدِينَ لَصَانِعِ
صُغْ مِنْ تَرَابِ الْهِنْدِ كَاسَكَ وَافْتَخِرْ
أَبْنِيَّ عَرَجُونَ بِدَالِيَةِ (أَنَا)
مِنْ هَذِهِ الْأَعْنَابِ أَعْصِرْ خَمْرَةً
أَنَا عِيشَةُ الْأَمْرَاءِ لَمْ أَبْهَ لَهَا
فَادْخُلْ سَجَلُ الْفَقْرِ بِاسْمِكَ إِنَّهُ

فِي مَوْطِنِ الْحَبِّ الْبَعِيدِ النَّاتِي
نَعْمًا يُجَدِّدُ حَرْقَةَ النُّدْمَاءِ
وَهَبْتُكَ إِيَّاهُ يَدُ الرَّحْمَنِ
وَنَزَعْتَ صَمْتَ شَقَائِقِ التُّعْمَانِ
فِي لَيْلِ أَوْرِيَةِ يَصُوعُ زُجَاجَا
وَارْفَعْ بِلَادَكَ فَوْقَ رَأْسِكَ تَاجَا
أَبْيَاتُ شَعْرِي هَذِهِ أَعْنَابِي
حَمْرَاءُ تُلْهَبُ بِالْحَيَاةِ شَبَابِي
أَنَا عِشْتُ دُرُوشًا مَعَ الْفُقَرَاءِ
فَخَرُّ النَّبِيِّ وَسِيْدُ الْأَسْمَاءِ

الدينُ والفلسفة

مَحَلُّ الدِّينِ مِنْ يَدِ فِيلَسُوفٍ مَحَلُّ الشَّمْسِ مِنْ كَيْدِ السَّمَاءِ

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

له في كل يوم وهمٌ بحثٍ
 أنا في ظل بيتي أم غريبٌ
 قد استوحشتُ من جبلٍ ووادٍ
 أضعتُ على رسومِ القومِ غُمري
 تعجَّب جئت من أين (ابن سينا)
 أرافقُ في طريقي كلَّ سارٍ
 ولم أر في طريقي مستعداً
 يكونُ من الصُّباح إلى المساء
 وهل سفري بعيداً أم قريب؟
 فأينَ تراه يستتر الحبيبُ
 أفُتْشُ عن بصيرِ الرؤسومِ
 وساءلني ستذهب أين (رومي)
 وأُعطيه نصيباً من طريقي^(١)
 يكونُ إلى نهايته رفيقي

رسالة من أوربة

الاعتصامُ بجبلِ الحسِّ ضيَّعنا
 وللبصيرة بحرٌ عاصفٌ حظيت
 أنا لقافلةِ الرُّوميِّ متَّبِعُ
 هبْ عصرنا مثوياً آخراً فلقد
 طريقُ حُرِّيَةِ الأحرارِ مُظلمةٌ
 في الليل من بحثنا عن شاطئِ البصرِ
 من قعره غطسةُ الرُّوميِّ بالذَّررِ
 وهل لقافلةِ الرُّوميِّ من أثر
 جارت رسالةُ أوربة على البشرِ
 تضيئها شعلةُ الرُّوميِّ بالشَّررِ

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابن آدم أن يرعى العلى أنفأ ولا يجوز له بل لا يليق به هم يضخون بالمقنات من كلاً ومن تخلّق بالقرآن مجده كظبي (خوتان)^(١) يرعى نبتة الجودي أكلُ الشّعير ورعى العشب والعود ويخضعون لمن ناواهم الشانا وأصبحث نفسه للناس قرآنا

على قبر نابليون

التوق للفعل سيف الخالدين به وقبل مولد نابليون خاض به جبال (آلوند) هدتها حماسته تصير صرخة أهل الله صرخته والتوق لحظته لا تستمر فإن وقام يثار ليل القبر منك له (مسيرنا نحو واد الصمت لذته تشق في جبة الأسرار أقدار إسكندر الأرض أمصاراً فأمصار وأطلقت سيل تيمورلنك تيارا إذا أصرت على الإيمان إصرارا لم تغتنم ثيله في وقته غارا لا يستقر إلى أن يأخذ الثارا أن تملأ القبة الزرقاء آثارا)^(٢)

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها طباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

نشاطٌ جديدٌ وفكرٌ جديد
صَبَا شعْبُهُ أن يردَّ الصُّبَا
نشاطٌ جديدٌ وفكرٌ جديد
بصوغان من حجرٍ لؤلؤاً
تَأَمَّلْتَ روما وقد جددت
فقلتُ : أيا ربَّ ماذا أرى
حياة تُقرُّ عيونَ الشُّيوخ
فيما للتَّجَلِّي الذي هاهنا
وهل تستطيع رؤوس الرُّهور
سماؤك يا نعمة الثَّائرينَ
وروحك تنتظرُ العازفينَ

يُشِرُّهُمَا أَمَلُ الثَّائِرِ
إلى مجدٍ أَمَّتْهُ الغابِرِ
وهذان معجزةُ القادرِ
وتاجاً لحاضره الزَّاهرِ
بتجديدها حيرةُ الناظرِ
وهذا الهدى خطأ أم صواب
وتذكي الطُّموحَ بصدرِ الشَّبابِ
وبالحماسةِ ماذا تُذيع
أن تتوارى بفصلِ الرَّبيعِ
تهرُّ أغانيك أقطارها
فَمَنْ سيهيِّجُ أوتارها

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة . وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :

بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .

وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :

وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص ٧٤ - ٧٥ .

وَمَنْ ذَا الَّذِي صَاغَ هَذَا الْجَمَالَ وَبَارَكَ بِالْحَبِّ تِلْكَ النَّفُوسُ
هُوَ الْحَرُّ ذُو النَّظَرَاتِ الَّتِي بِهَا تَقْتَدِي نَظَرَاتِ الشُّمُوسِ

سؤال

قَالَ دُرَيْشُ أَبِي يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى
أَنَا لَا أَشْكُو إِلَيْكَ الْفَقْرَ وَالْعِيشَ الْمَحَالَا
لَكِنِ اللَّهُمَّ قُلْ لِي أَنْتَ أَرْسَلْتَ الْمَلَائِكَ؟
لِيَقِيمُوا سُلْطَةً الْأَوْغَادِ فِي ظُلِّ سَمَائِكَ

إلى فلاح البنجاب

أَيُّهَا الْفَلَاخُ مَا سُرُّ الْحَيَاةِ؟ مَا الَّذِي يَكْتُمُهُ هَذَا الْمَدَارُ
أَنْتَ فِيهَا مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ خَلْفَ مُحَرَّاتٍ يُغَطِّيكَ الْغُبَارُ
خَمَدَتْ نَارُكَ فِي الطِّينِ الَّذِي عَلَقْتَ أَكْوَامُهُ فِي نَعْلِكََا
قُلْ لِمَنْ أَدْنَى فِي هَذَا الصُّبْحِ أَرْنِي اللَّهَ الَّذِي فِي فَعْلِكََا
لَمْ يَقُلْ لِلنَّاسِ حَيٍّ لِلْفَلَاخِ إِنَّمَا حَيٍّ عَلَى الْفَلَّاحِ قَالَ
هُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى مَادِيَةٍ أَنْتَ أَرْسَلْتَ لَهَا كُلَّ السُّلَالِ
كَيْفَ تَرْضَى أَنْ يَكُونُوا هَكَذَا وَهُمْ مِثْلُكَ مِنْ حِمَاةِ طِينِ
إِنَّ تَبَعَ الْخَضِرَ لَا يَلْقَاهُ وَجِلٌّ مِنْ ظِلْمَاتِ الْمُعْتَدِينَ
لَيْسَ يُجِدِي الْهَمُّ فِي شَيْءٍ إِذَا لَمْ تَضَعْ ذَاتَكَ تَحْتَ التَّجْرِيبَةِ
حَطَّمِ الْأَصْنَامَ يَوْمًا وَاحِدًا لَا تَخَفْ مَعْبَدَهَا أَنْ تَخْرِبَهُ
حَطَّمِ الْأَوْثَانَ أَوْثَانَ الْعُرُوقِ وَاهْدِمِ الْأَصْنَامَ أَصْنَامَ الْقِبَائِلِ

وانضُ أغلالَ التقاليد التي تتعنى خلفها من غير طائل
لا تقل أنشدُ في الدين الخلاص وامنح الكهان روحانيته
إنَّ دينَ الله في الدين الذي يهبُ الإنسانَ وحدانيته
أحفظَ القلبَ الذي تحمله لا تدعه تحت أقدام العباد
الذي يزرعه في صدره يجدُ المتعة أيامَ الحصاد

نادر شاه ملك الأفغان

في حضور الحقِّ كان الحَدَثُ الفرْدُ الكبير
غيمَةً تحمِلُ في أعماقها روحَ الرُّهُور
رأتِ الفردوسَ في الدَّربِ فقالتُ للسَّماءِ^(١)
أه ما أجملَ هذا هاهنا نلقي الدُّلاءَ
فأجابتها وقالت نترك الهند لقابل
أدركي عشياً جديداً ظمئاً في أرضِ كابل
وعسى نادرُ يأتي ليرى هذي الحقائق
علَّه يغسلُ بالدمِّ مع جراحاتِ الشَّقائِقِ^(٢)

- (١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .
- (٢) جراح شقائق النعمان هي آلام الأفغان .

كلُّ شيءٍ حولنا يَسْلُبنا
أنا لا أَسْتَأْذِنُ أَنْ تَرْمُقَنَا
بَلَيْتْ أَثَوَابُنَا أَجْمَعُهَا
ما الَّذِي أَفْعَلُهُ فِي وَحْدَتِي

مَجَدَّنَا حَتَّى سَجَّاجِيذُ الصَّلَاةِ (٢)
شُزْرَاءُ أَعْيُنِ أَوْلَادِ الطُّغَاةِ
جَبَّةُ الشَّيْخِ وَجَلْبَابُ الْأَمِيرِ
ما الَّذِي يَفْعَلُ إِيْمَانِي الْكَسِيرِ

وصية « خوش حال خان » (٣)

يا أمة الأفغان شدُّوا بعضَكم
ما شَاهَدَتْ عَيْنَايَ أَجْمَلَ مَنْظَرًا
يَرْمُونَ فِي بَحْرِ السَّمَاءِ شِبَاكَهُمْ
أَطْفَالُ كُوَهْسْتَانِ وَعِدَّةٌ مَفْعَمٌ
لِيسُوا أَقْلٌ مِنَ الْمَغُولِ شَجَاعَةٌ
أَنَا (خوش حال) أَحَبُّ قَبْرًا إِنْ أَمْتُ
لَا رِيحٌ تَصْفَعُهُ بِتَقَعٍ خَامِلٍ
مَا تَبْقَى غَيْرُ جَمْرٍ هَامِدٍ

بَعْضًا وَكُونُوا سَادَةَ الْأَفْغَانِ
كَجَمَالِ صَيَّادِيكُمْ الْفَتِيَانِ
(صَيْدُ النُّجُومِ رِيَاضَةُ الشُّجْعَانِ)
مَتَوَاتِبٌ فِي قَلْبِ كُوَهْسْتَانِ
لِيسُوا بِأَدْنَى مِنْهُمْ فِي شَأْنِ
فَوْقَ الْجِبَالِ مَمَرَّدُ الْبُنْيَانِ
مَرَّتْ عَلَيْهِ خِيُولُ مَغْلَسْتَانِ
يَتَخَفَّى تَحْتَ أَكْوَامِ الرَّمَادِ

- (١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيد تطلعات النثر في تركستان إلى الاستقلال . »
- (٢) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينهبوننا . »
- (٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أن إقبالاً رغم نزعه للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

جَعَلْتُ مِنْهُ حَدِيثاً لِلْعِبَادِ
وَسَمِرَقَنْدَ بَلِيلٍ قَاتِمٍ
أَنَا فَصٌّ مَالَهُ مِنْ خَاتِمٍ ^(١)
زَلَزَلْتُ أَرْضَ سَمِرَقَنْدَ السَّمَاءِ
بَدَدَ اللَّيْلِ بِسَيْفٍ مِنْ ضِيَاءِ
كُضِيَاءِ الشَّمْسِ مِنْ قَبْلِ الْأُفُولِ
رَوْحُ تَيْمُورَلَنْكٍ فَاسْمَعْ مَا أَقُولُ
سَدَّتِ الْأَيَّامُ أَبْوَابَ التَّزْوَرِ
فَرَّقَتْ أَبْنَاءَ طُورَانَ الْبَشَرِ
وَبَرِيقاً ثَانِياً مِنْ مَقَلَّتِكَ
لِمَ لَا تَخْلُفْنِي فِي أُمَّتِكَ

أَيُّ رِيحٍ فَوْقَهُ لَوْ عَصَفَتْ
غَطَّتِ الرِّيحُ بُخَارِي كُلَّهَا
(وَتَطَلَّغْتُ لِنَفْسِي فَإِذَا
بَيْنَمَا أَنْدَبُ حُظِّي فَجَاءَ
وَإِذَا مَرْقَدُ تَيْمُورَلَنْكٍ قَدْ
كَانَ نُوراً أبيضاً فِي صُفْرَةٍ
قَالَ لِي : يَا أَيُّهَا الْبَاكِي أَنَا
إِنَّ بَابَ اللَّهِ مَفْتُوحٌ وَإِنْ
أَنْتَ مِنْ أَبْنَاءِ طُورَانَ وَإِنْ
فَهَبِ الذَّاتَ لَهَيْباً آخِراً
أَنَا حَظُمْتُ بِهِذِينَ الْجِيُوشَ

الحالة النفسية والظرف

هي أولٌ وهو المحلُّ الثاني
والحالُ خيرُ ذخائرِ الإنسانِ
ظُلُّ تَوْلَفِهِ ظُرُوفُ الْحَالِ
وَمَنَازِلُ الْقَلْبِ الْمَقِيمِ خَوَالِ
لَا فِي مَعَانِيهَا وَلَا فِي لَفْظِهَا
لَيْسَتْ كَسَجْدَةِ نَاسِكٍ فِي وَعْظِهَا
مَا زَادَ عَنْ قِرَائَتِهِ قِرَائَتُهُ
لَكِنْ لِكُلِّ مِنْهُمَا طِيرَانُهُ

الرَّأْيُ بَعْدَ شَجَاعَةِ الشَّجْعَانِ
إِنْ كُنْتَ يَقْظَاناً فَأَنْتَ مَظْفَرُ
كُلِّ الْحَيَاةِ عَلَى اخْتِلَافِ ظُرُوفِهَا
فِي كُلِّ وَقْتٍ لِلْمَسَافِرِ جِدَّةٌ
كَلِمَاتُنَا مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَخْتَلِفْ
فِي سَجْدَةِ الْجَنْدِيِّ نَلْمَحُ غِبْطَةَ
هُوَ مُسْلِمٌ لَكِنْ وَهَذَا مُسْلِمٌ
لِلنَّسْرِ كَالشَّاهِينَ جَوْ وَاحِدٌ

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

ليأكل اللحم لا يلوي على دين
وليس يقتات إلا من يد الطين
يريد يلقاه فيما اختار مُزْتَبِكَا
شناعة السيخ ألقى فوقه وبكى
يداك حتى دَخَلْتَ النار بالسيخ
وما لجأت إلى شجبي وتوبيخي
وللطبيعة إذ قالت لطالها
وقدّر الموت للمستضعفين بها

يقال : إِنَّ المعري لم يكن أبداً
يقال : كان نباتياً بمذهبه
شوى له مرة مستهزئ حَجَلَا
لكنَّ شيخَ اللزوميات حين رأى
وقال : يا أيها المكينُ ما افترفتُ
لو كنتَ بازاً لأعطوك الدجاج فدى
لم تُلقِ بالك للأديان إذ وَعَظْتَ
اللهُ سَخَّرَ للاقوى خلائقه

سينما

وبذيعُ في السينما معانيه
عادت له بِرَواجِ ماضيه
جاءت تُريدُ تبيعه فينا
وثناً وصاغَ لِعَضْرِهِ الدُّنْيَا
ما كان غيرَ طقوسِ أوْثانٍ
هي في الحقيقة ثوبه الثاني
ما صاغَ من طينٍ وفخارٍ
أصنامها من مارجِ النارِ
هذا الرَّمَادِ وذلك الطينِ
لم يتركَا شرفاً لمُتَكِينِ

أبعودُ آزرُ مرةً أخرى
أصنامها في صَدْرِ صالتها
ما كان يُنْحَتُ قبلُ من صنم
صاغت لنا الدُّنْيَا لِنَعْبَدَهَا
ما كان فَنّاً فُتِّه أبداً
فتفحصِ السِّينَمَا التي ظَهَرَتْ
هو صاغَ أصناماً لعالمه
وتصوغُ صالتها لعالمنا
ما في زوايا المعبدَيْنِ سوى
إن لم يلِ التَّوْحِيدُ أمرهما

إلى جماعة « بيرزاده »^(١) في البنجاب

جَزْتُ البلادَ إلى ضريحٍ مجدِّدٍ^(٢)
وعلى الثُّرابِ من الضُّريحِ تَأَلَّقُ
لا غرورَ للأسرارِ تَلْمَعُ هاهنا
من ردِّ جاهنكيرٍ عن يده وما
هذا المكانُ من الوجودِ ضريحه
الهندُ تعرفُ أرضها وسماؤها
هو أحمدُ المختارِ لِلْمَحَنِ التي
لما وقفتُ على ضريحِ مُجَدِّدٍ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمانِ له وما
فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا
من أين أتمسُّ البصائرُ إنِّي
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم
لا تَكْتَرِثُ منهم بصاحبِ شطحةٍ
أرني قلنسوةَ لِدَرْوِيشٍ لهم
ذهبوا مع الفقهاءِ خلفَ ملوكهم

ووقفتُ ليلى نادياً ونهاري
غَبَطْتُهُ في قَصْرِ السَّماءِ جَواري
فهاهنا توارى صاحبُ الأسرارِ
ذَلَّتْ عمامته لوصمةِ عارٍ
وهنا يقيمُ معلَّمُ الأحرارِ
كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
نالتُ شريعةَ أحمدَ المختارِ
دارَ الحديثِ عن الزَّمانِ الدائرِ
ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
هو مبصرٌ لكن يَغَيِّرُ نفوذِ
أصبحتُ في عيني كالمنبوذِ
لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجابِ
مجنونةٌ ولو ارتدى جلابي
لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولاً أدوارنا في لعبة التَّيجانِ

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى المادِّيين .
(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدق هذا اختيار الأعب الشيطان
إن البيادق إن أعافت نفسها دلت على شاه بلا سلطان

التجرّد

ليس التجرّد أن تقيم على الطوى وقواك خائرة وبيتك مُقدّم
فمن التجرّد ما يطبخ بأهله ومن التجرّد ما يعزّ ويكرم
أنا لم أجد عند الملوك تجرّداً أحلى وأجدى منه في شايور
شايور في صنع الإمارة مسلم فتعلّموا الإسلام من شايور

الذات

لا ترضين فضة بالذات أو ذهباً ولا تبغ بشرار ذلك اللهب
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفت للفرس أقواله الأستار والحجبا
(المال يوجد حتى حين تفقده فلا تكن وقحاً إن رمته طلباً)^(١)

فراق

النور حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحاً غزلته من ذهب الحرير فصار للذنيا وشاحاً
والكون مُعَبّط بما جلب الفراق من السلي

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

مَرْنَحْ فِي صَمْتِهِ نَشْوَانُ مَنْ مُتَعَ التَّجَلِّي
هَلْ تَعْرِفُ الْأَنْهَارُ وَالْأَفْلاكُ أَسْرَارَ التَّشَوُّفِ
هَلْ يَسْرَتُونَ مِنَ الْفِرَاقِ وَيَكْتَوُونَ مِنَ التَّلَهُفِ
أَنَا قَسَمَتِي قَلْبُ الْفِرَاقِ سِوَاهُ مَا لِي مِنْ مُنَى
هُوَ فِي الصَّمِيمِ مِنَ الثَّرَابِ وَمَا الثَّرَابُ سِوَى أَنَا

الدَّير

لَا الْعَصْرُ لِلْقَوْلِ بِالْأَلْغَازِ مُحْتَمَلٌ وَلَا أَنَا أَسْتَطِيعُ الْيَوْمَ الْغَازَا
مَضَى الَّذِينَ إِذَا قَالُوا لَمِيَّتِهِمْ قُمْ ، قَامَ فِيهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاجْتَازا
فَمَا الَّذِي بَعْدَهُمْ فِي الدَّيرِ تَفْعَلُهُ جَمَاعَةٌ بِمِذَاقِ الدَّيرِ كَقَارِ
أَخِذْهُمْ لِقُبُورِ الْقَوْمِ مَا بَرِحُوا أَمْ أَنَّهُمْ لِقُبُورِ الْقَوْمِ حُقَّارِ

شكوى الشَّيْطَانِ

قَالَ إِبْلِيسُ الرَّجِيمُ يَشْكِي إِلَهَ تَعَالَى
مَا لِنَجْلِ الطَّيْنِ هَذَا فَوْقَ نَارِي يَتَعَالَى
هُوَ ذَا آدَمَ بَعْدِي هُوَ ذَا كَوْمِ الثَّرَابِ
وَاهِنُ الرُّوحِ كَبِيرُ الْكَرْشِ مَوْفُورُ الشَّيَابِ
عَقْلُهُ فِي الْأَوْجِ لَكِنْ قَلْبُهُ يَلْفِظُ رَوْحَهُ
مَا لِقَلْبِي غَيْرَكَ اللَّهُمَّ لَوْ تَأَسَّوْ جُرُوحَهُ
كَلَّمَا يَجْعَلُ مِنْهُ الشَّرْقَ مَعْيَارَ النَّجَاسَةِ
لَا تَبَالِي حِكْمَاءُ الْغَرْبِ أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهُ

حورُ فردوسِكَ تخشى عالمَ الفردوسِ يُقْفِرُ
جثُّكَ اللهمَّ بالحُجَّةِ كي تَرْضَى وتغْفِرُ
فَسَّرَ الْغَرْبُ الدِّيمَقْرَاطِيَّ تَزَكِي لِسُجُودِي
لَمْ يَعِدْ مَنْ بَعْدَهُ فِي الْأَرْضِ مَعْنَى لَوْجُودِي

دَمٌّ فِي الشَّرَايِينِ

لَا تَخْشَ نَيْلَ الشُّوءِ مِنْ رَجُلٍ
وَارْغَبْ عَنِ الْمَحْرُومِ مِنْ دَمِهِ
رَجُلٌ يَحْرُكُ قَلْبَهُ دُمُهُ
إِيَّاكَ مَنْ لَمْ يَهْدِهِمْ دُمُهُمْ
إِنْ كَانَ فِيهِ دَمٌ وَنَامُوسُ
فَالْخَيْرُ مِنْ كَفِّهِ مِئْوَوسُ
لَا الْفَقْرُ يُخْزِنُهُ وَلَا الْجُودُ
سُودُ الدِّمَاءِ عَقُولُهُمْ سَوْدُ

الطَّيْرَانِ

تَشَكَّتِ التَّيْنَةُ لِلْعُصْفُورِ
قَالَتْ لَهُ : يَا أَيُّهَا الْمَغْرُودُ
لَوْ أَنَّ لِي أَجْنَحَةً وَعَوْنَا
أَجَابَهَا الْعُصْفُورُ فِي ودَاعَةٍ
قَالَ لَهَا : أَيُّهَا الْمَسْكِينَةُ
قَوْلُكَ لَا يَنْبَغُ عَنْ غِبَاءِ
أَتَدَّعِينَ الظُّلْمَ فِي عَيْنِ الْعَدْلِ
الطَّيْرَانِ سَرُّنَا الْمُحْجُوبُ
مِنْ مَعْبِدِ الْأَلْوَانِ وَالْعُطُورِ
حَتَّى مَتَى يَكْفُرُ هَذَا الْمَقْبُودُ
أَغْرَقْتُ بِالْجَمَالِ هَذَا الْكُونَا
إِجَابَةً فِي مِنْتَهَى الْبِرَاعَةِ
كَيْفَ تَطِيرِينَ وَأَنْتِ تَيْنَةٌ
وَأَنْمَا يَدْعُو إِلَى الرِّثَاءِ
وَأَنْتِ أَحْرَى مِنْ أَرِيَتْ بِالْعَذْلِ
لَا يَسْتَطِيعُ نَيْلُهُ مَجْذُوبُ

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التَّلاميذِ التي اختنقت
الحقُّ ما قال كاغاني^(١) وَيَسْحَرُنِي
بينِي المَعْلَمُ هذا صرَحَ فُخَّار
ما قال من بيت شعرٍ بدَّ أشعاري
فلن ترى نورَها في باحة الدَّارِ
(إذا الجدارُ أمامَ الشَّمسِ ترفَعُه)

الفيلسوف

يعرفُ الفيلسوفُ كيفَ يطيرُ
جسدُ فارغٍ وعِلْمٌ غزيرُ
وهو في العِلْمِ غايةٌ في البراعةِ
لو أضافوا إليه روحَ الشَّجاعةِ
كالشَّواهين والطَّيورِ الحرائرِ^(٢)
فهو يخفي نقيضها في السَّرائرِ
هي تقتاتُ من إورٍ وبطُ
أيُّ معنى له إذا حرموه
متعة الانقضاض فوق الفريسةِ

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبة ما إذا سبقي على شيء لها أم لا .

الشَّاهِين (١)

ثُمَّ الْقَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَرَائِي
لَيْسَ يَقْتَاتُ غَيْرَ حَبٍّ وَمَاءٍ
وَهُمَا فِي سَجِيَّتِي وَدِمَائِي
لَوْعَةِ الْعَنْدَلِيبِ عِنْدَ الْمَاءِ
لَيْسَ تُغْرِي مَنْشَأً فِي الْعَرَاءِ
وَأَذَلَّتْ حَمَامَةٌ كَبِيرَائِي
وَأَرَوِّي حِمَاسَتِي وَإِبَائِي
وَأَنَا هَاهُنَا حَلِيفُ مَضَائِي
وَهُوَ الْفَرْدُ فِي رَحَابِ السَّمَاءِ

جَزْتُ فِي الْأَرْضِ بَلَدَةً بَعْدَ أُخْرَى
ذَلِكَ الْعَالَمُ الَّذِي زَعَمُوهُ
أَنَا نَجَلُ الصَّحَرَاءِ وَالرُّهْدُ دِينِي
أَجْهَلُ الزَّهَرِ وَالنَّسِيمِ وَمَا فِي
وَرَجَالِ الْبُتَانِ تَغْرِي وَلَكِنْ
أَيْنَ مَجْدِي إِذَا شَقِيتُ لَجُوعٍ
بِافْتِرَاسِي أَصُونُ عِزَّةٍ وَجْهِي
كُلُّ طَيْرٍ لَهُ مِنَ الْأَرْضِ عَشْرُ
كَيْفَ يَبْنِي قَلَنْدَرُ الطَّيْرِ عِشًّا

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

الشاهين : الطير المختار عند إقبال لأنه :

١ - لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .

٢ - يطير إلى الأعالي .

٣ - ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهد .

٤ - لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .

وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الشائر (١)

أنا فانوسي الذي أمْلِكُه شمعَةٌ في قصعةٍ من خَرْفِ
 إن أقمْتُ الليلَ ذابْتُ وإذا هَبَّتِ الرِّيحُ عليها تنطفي
 ما الذي يفعله سيّدنا بالمصاييح التي حول المزار
 ثمّ ما معنى مزارٍ وضريح وستورٍ وعظورٍ وجَمّار
 يا إلهي كم لنا من كعبةٍ كم لنا من صنمٍ في الحرم
 وفقاعاتٍ قبابٍ فوقهم جعلتنا ضحكةً للأمم
 ليس ما يعطى لهذي الأولياء من نذورٍ باسمهم إلّا رَبا
 المرابي دائمٌ مختبئٌ ووليُّ القومِ في القبرِ اختبا
 أتراهم سلكوا كالأولياء إنّما هم أولياءُ بالوراثه
 ملا الغربانُ أوكار النُشور خلّصَ الله من القومِ تراثه

آخر وصايا هارون

قال الرَّشيد لابنه يوصيه : ها أنذا اختُصِرْتُ
 ستمُرُّ بعدي أنت في هذا الطُّريق كما مررتُ
 أبني إنّ الموتَ نورٌ في عيون المؤمنين

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدة ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الذّير) .
 وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّور هذا لا تشاهده عيون الكافرين

إلى عالمِ نفس

دغ عنك فكرك فالإعصار جرَّارٌ وليس تجدي ببحر الذات أفكارُ
وأين أنتَ بهذا البحر من جُزُرٍ صغيرة ما أتاهما قطُّ بخارُ
إن لم تشقْ كموسى ثوبَ لُجَّتِها فحطُّك الصُّمْتُ إن وافاك إعصارُ

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشبه (شيلوخ)^(١) في المِرْصاد واقفةً مَكْرُ الثَّعالب يَفْري قوَّةَ الأسدِ
لا بدَّ تسقطُ أوربة إذا نَضِجَتْ في كيس شيلوخها المجهول للأبدِ

الأسدُ والبغلة

قالَ للبغلة يوماً أسدٌ أنتِ حقاً لكِ سرٌّ من أبوكِ
فأجابته ألا تفرِّفُني أنا خالي فخرُ إصطبل الملوكِ

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة (١)

ألا ترثني لعصفورٍ عن الطيران قد مُنعا
إذا استخفى وحاول أن يطيرَ لوخذه وقعا
بحاول أن يكون فؤاده بيتاً لجبريل
وليس له من الطيران غير القال والقيـل
هل العصفور بين الشوك كالعصفور في الجنة
بربك هذه حرّية في الفكر أم جنـه
فقل لمفكر حرّ أضلّ الفكر وجدانه
تعالى الله أن يلهم ما يُبطل قرآنـه
وهل يهدم مجد الشغب غير الفكرة الحرّة
وهذي الفكرة البهاء سيّدها (أبو مرّه)

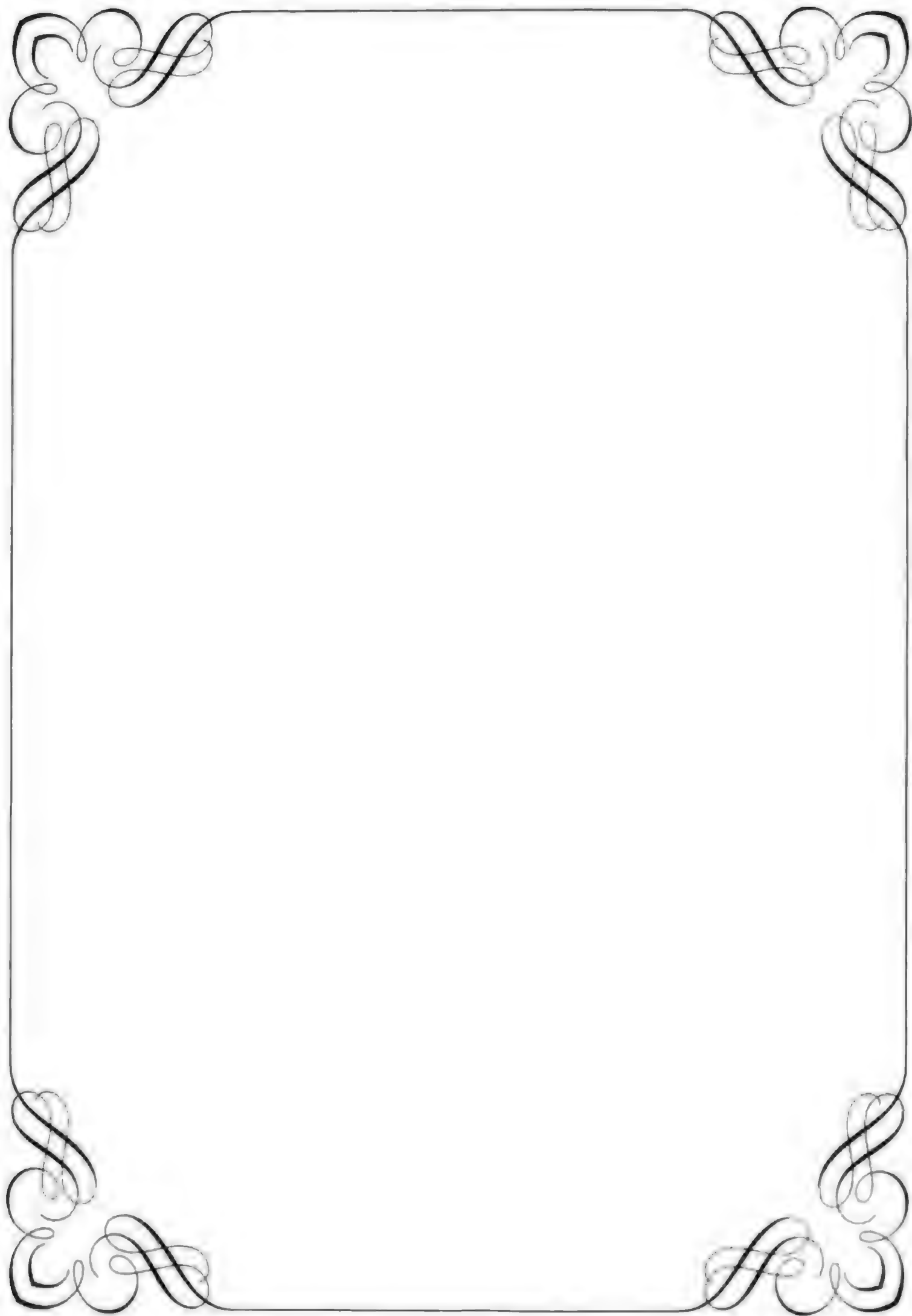
النسر والنملة

قالت النملة للنسر الذي مرّ يوماً ما على وادي النمل
أنت ترعى في بساتين النجوم وأنا في شقوة العيش المذل
قال : لكن أنا لا أبحث عن مؤني مثلك في هذا الشراب
لست ألقى نظرة حتّى ولا للسّموات التي فوق السحاب

●●●

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

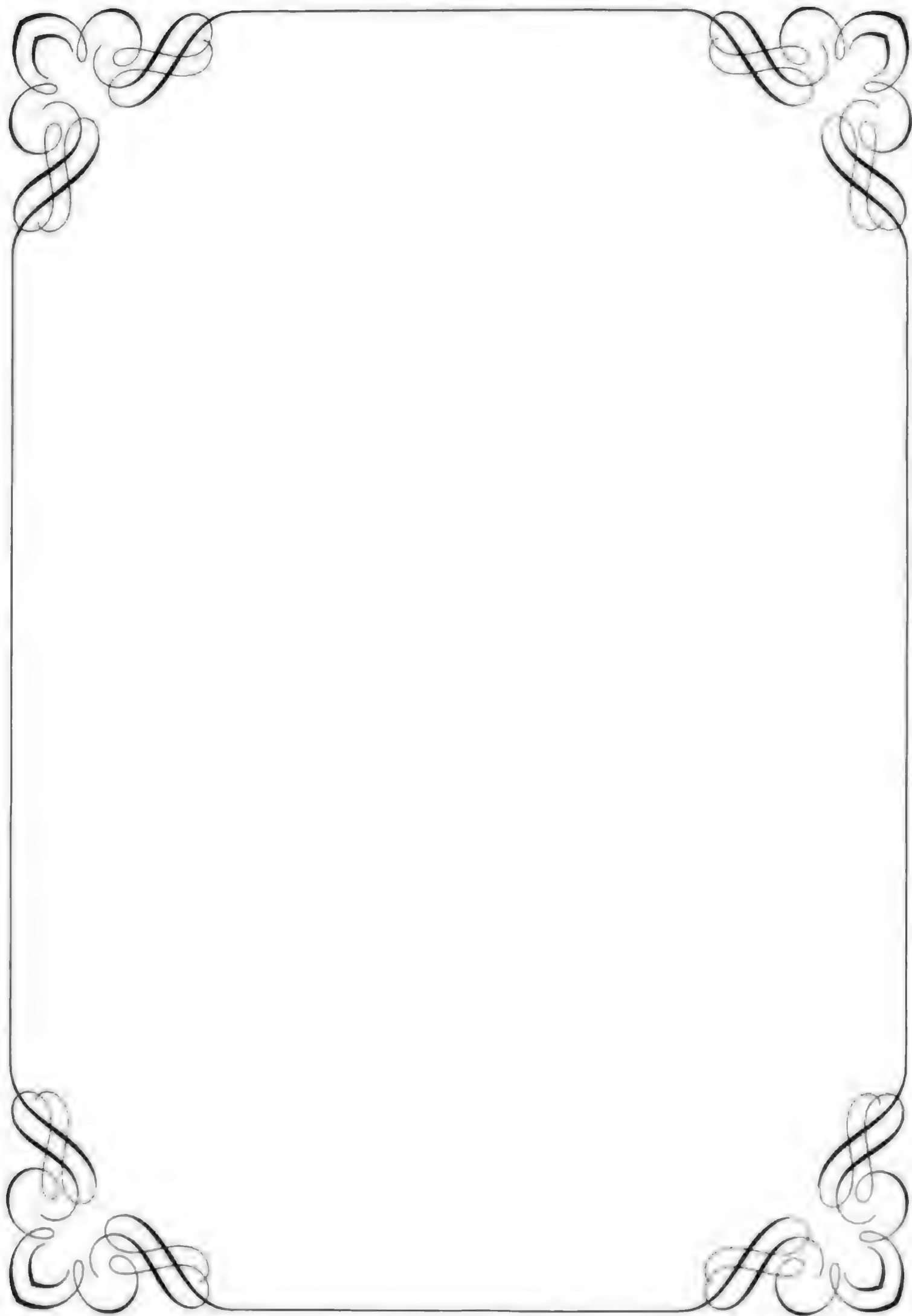
نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي
كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين
الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكر ويتحدث في حرية في موضوع الدين) .



الذَّيْوَانُ السَّادِسُ

ضَرْبُ الْكَلِمِ
ضَرْبُ كَلِمِ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور عبد الوهاب عزام



هذا الديوان الثالث^(١) لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاوز ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكلم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ شديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر
ومن أجل هذا سمّاه إقبال « ضرب الكلم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .
فلعل القارئ يقدّر خفايقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيفوف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة للمجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حباله « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشرعية اليهود المعنية بالصور والأشكال ، كذلك عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .



والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجهها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغناء . وضرب الكلیم هو إيدان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذا يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلَّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد ، وحدَّ حدوداً ، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدِّ هذه الحدود وهذه المقاصد ، والحدود لا تتبدل ، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا ينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته إمكانات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكّنات وتجلّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلاّلت تجلّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامّةٍ ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(ج) ثم فلاح النوع الإنسانيّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدةٍ ، يُتلقّى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعاش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سُدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتجلّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيُّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيَّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة - التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل - قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيّةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كل واحد في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلل لهم الوسائل والأسباب أبداً .



هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلمات قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كل المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إن الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتنفى بتفرق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغير فيها كل شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحاد ، أو جماعات أخرى) . والشر ما يضرّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرّ إلى أنفسها منفعة . وعمل العقل والعلم أن يهيئ الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أن في كل ستّة من تلك الأفراد فرداً يختلّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دُلّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أن أمم العالم في شغل بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .



أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلّت له هذه الحقيقة : إنّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في الشحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥ م : « ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العش على غصن رطبٍ ضعيف مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذّر الناس عامة والأمم الإسلامية خاصة من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .



وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كلیم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية^(١) ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كلیم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجه عام ، وهي : أنّ شعر إقبال حافل بكلمات معينة ، عربية وفارسية ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذ لا يتأتّى لأحد أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملماً بحدود تلك المصطلحات الخاصة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درویش وقلندر ومردخُر « وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالاً أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكلم » يتحتم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمة موجزة قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابة عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وَهْم وخدعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حجاب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوَّلت المسلمين من أمة دائبة في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخص جميع الموجودات كلاً على حدة ، حتى أنَّ الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسْمَى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أنَّ الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أنَّ أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أنَّ المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكانتها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت - الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أنَّ كلَّ عملٍ يؤدي إلى إضعافها شر .

وبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأمانى هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمع على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبط النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتم التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلى بأكمل وجه في الذاب الإلهية الجامعة لصفات متضادة متعادلة للغاية .

وإذا تمّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوّ المحل ، وانعدام شاغله أولاً) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه . الحال التي تسمّى في عرف إقبال « الفقر » (حال الدرويش أو القلندر) وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

میان امتان والامقام است کہ آن امت دوکینی را امام است
نیاسا بد زکار آفرینش کہ خواب و خستگی بروی حرام است
(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنها أمةٌ نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« يباغان عندليبي خوش صفيري براغان جره بازي زودكبري
 أمير أو سلطاني فقيري فقير أو به درويش اميري
 (إنها في البساتين عندليب حسن التفريد ، وفي الصحاري باز خفيف سريع
 الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها
 أمير على الرغم من كونه درويشاً)^(١) .

﴿ لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .



(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية
 الآداب بجامعة القاهرة) .

فَطَرَهُ الْحُرَّ لَا تُطِيقُ مُقَاماً فَاثْلَفَ السَّيْرَ دَائِباً كَالنَّسِيمِ
أَلْفُ عَيْنٍ تَشْقُ صَخْرَكَ فَاضْرِبْ بَعْدَ غَوْصٍ فِي (الذَّاتِ) ضَرْبَ الْكَلِيمِ



إلى القارئین

إذا لم تُصب في الحياة النظر
كفاحٍ شديدٍ ، وضربٌ شديد
مَعِينُ الحياة دماءُ القلوب
فليس زجاجُك كُفءَ الحجر^(١)
فلا ترجُ في الحرب عَزَفَ الوتر
ولحنُ الدِّمَا لا المِياهِ الفِطَر^(٢)



-
- (١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .
- (٢) لحن المِياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دم ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المِياه .

يَقْظَةُ « الذات » لا أراها بدئير
 إِنَّ رَوْحَ الشُّعُوبِ فِي الشَّرْقِ غَافٍ
 إِنَّ تَضِيقَ بِالْجِهَادِ فِي الْأَرْضِ ذَرْعاً
 لَيْسَ مِنْ خِيفَةِ الْمَمَاتِ نَجَاةٌ
 لَيْسَ يُخْفِي صُرُوفَهُ الدَّهْرُ لَكُنْ
 قَدْ مُنِحَتْ الْهَشِيمَ فِي آسِيَا إِذْ
 لَا وَلَا تُجْتَلَى لَدَى الْمِحْرَابِ
 مِنْ سُمُومِ التَّرْيَاقِ ، رَهْنُ غِيَابٍ^(١)
 فَحَرَامٌ مَسْرَاكَ فَوْقَ السَّحَابِ^(٢)
 إِنْ تَرِ (الذَاتِ) هَيْكَلًا مِنْ تَرَابٍ^(٣)
 لَكَ قَلْبٌ وَنَاطِرٌ فِي حِجَابٍ
 أَنْ نَارِي حَدِيدَةً فِي التَّهَابِ^(٤)

ذَنْبُ إِقْبَالِ الْيَبَالِ وَإِنْ كَانَ
 هَاجَ أَنْغَامُهُ عَكُوفاً عَلَى الْخَشْخَاشِ مَوْتَى ، إِلَى طَلَابِ الْمَعَالِي
 فَمَهِيضُ الْجَنَاحِ أَلْفُ دَارٍ
 قَدْ رَنَا الْيَوْمَ لِلْفَضَاءِ الْعَالِيِ^(٥)
 فَعَدَاهُ التَّغْرِيدُ فِي الْأَسْحَارِ
 وَحَنِينٌ وَمُتَعَةٌ الْأَبْصَارِ^(٦)

(١) الترياق : الأفيون .

(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .

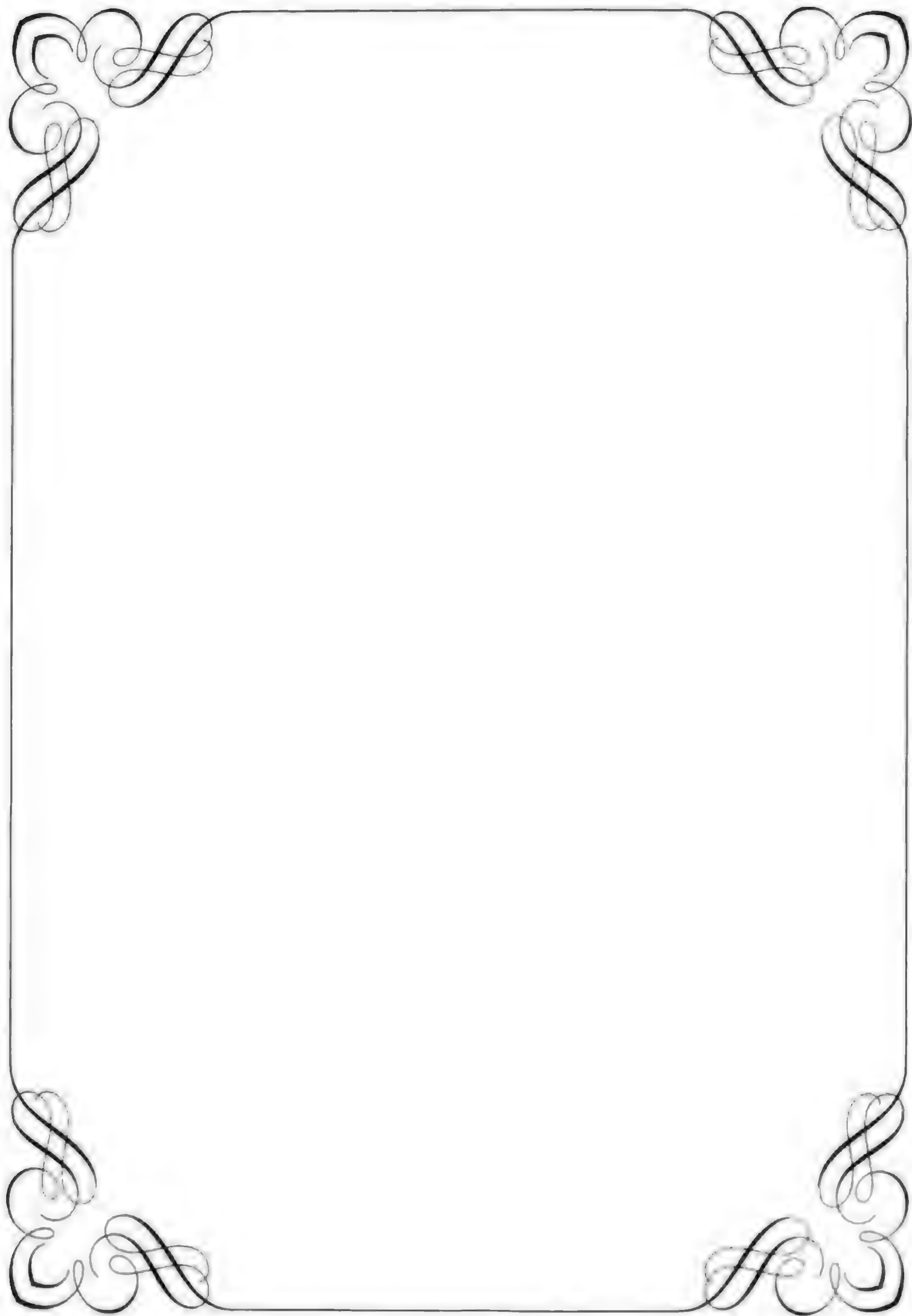
(٣) يرى إقبال أن الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .

(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفسدها وإعدادها للحياة .

(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .

(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .

(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .



القسم الأول

الإسلام والمسلمون



الصبح

إِنَّا لَنَجْهَلُ مَطْلَعَ الصُّبْحِ الَّذِي يُدْعَى بِیَوْمٍ أَوْ غَدٍ فِي الْأَزْمَنِ
لَكِنَّمَا الصُّبْحُ الَّذِي ارْتَجَّتْ لَهُ ظُلَمُ الْعَوَالِمِ ، مِنْ أَذَانِ الْمُؤْمِنِ

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (١)

مُسْتَسْرٌّ فِي الذَّاتِ مَعْنَى بَعِيدٌ	سَرُّهُ	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
سَيْفُ الذَّاتِ قَاطِعٌ غَيْرُ نَابٍ	شَحَذُهُ	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
عَصَرْنَا يَتَغْيِي خَلِيلًا حَطُومًا	وُثْنُهُ .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (٢)
إِنَّ دُنْيَاكَ مَوْثَنٌ لَا تَصْدُقُ	زوره .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
فِي مَتَاعِ الْغُرُورِ تَسْعَى وَتَبْغِي	ربحه ا	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
يَا أَسِيرَ الْخَسَارِ وَالرِّبْحِ يَنْسَى	نفسه !	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مَالُ دُنْيَاكَ وَالْبَنُونَ خَدَاغٌ	كُلُّهُ .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
هِيَ أَصْنَامٌ وَاهِمٌ قَدْ بَرَاها	وهمُّهُ .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
حَبَسَ الْعَقْلَ فِي مَكَانٍ وَوَقَّتِ	كفرُّهُ .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
لَا زَمَانَ وَلَا مَانَ فَحَطَّم	غَلُّهُ .	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .
(٢) الوثن : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر^(١)

من القرآن قد تركوا المساعي وبالقرآن قد ملكوا الثريا
إلى (التقدير) ردُّوا كلَّ سعي وكان زماهم قدراً خفياً
تبذلت الضمائر في إسرار فما كرهوه صار لهم رضىاً

المعراج^(٢)

وذرة طار فيها الشوق صاعدة تُغيرُ في عَرَصات الشمس والقمر
يا رفقة المرح ! تلقى الصقر مقدمة دُرَاجة تملأ الأنفاس من شرر
المسلم السهم ، والأفلاك غايته سرائر الروح في المعراج فاذكر^(٣)
جهلت **﴿ والنجم ﴾** أسراراً فلا عجب ما زال مددك محتاجاً إلى القمر^(٤)

-
- (١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الأفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحق أنَّ العبودية بدلت النفوس ، فأروا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .
- (٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُرَاجة إذا ملأ صدرها الحماس فأتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .
- (٣) يريد أن في المعراج سرُّ الروح . وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .
- (٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجباً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدّه .

إلى سيد مصابٍ بالفلسفة

لو لم تُؤَلَّ « ذَاتُكَ » النِّسْبَانَا
أَصْدَافُ (هَيْكَلِ) مِنَ الْخَوَالِي
فَكَيْفَ صَاحٍ تُحَكِّمُ الْحَيَاةُ
وَطَلَبُ الْإِنْسَانِ لِلثَّبَاتِ
يُحَوِّلُ الدُّجَى إِلَى الْإِشْرَاقِ
وَأَنْتِي فِي الْأَصْلِ سُومَنَاتِي
وَأَنْتِ مِنْ أَوْلَادِ هَاشِمِيٍّ
فِي عَصَبِي فِلَسْفَةُ الْأَشْيَاءِ
أَحْاطَ إِقْبَالٌ بِهَا تَفْصِيلاً
عَاقِبَةُ الْعَقْلِ إِلَى شَتَاتِ
وَنَغْمَةُ الْأَفْكَارِ دُونَ صَوْتِ
الَّذِينَ فِي حَيَاتِنَا تَقْوِيمُ
(قَلْبِكَ فَارْبِطْ بِالْهُدَى الْمُحَمَّدِيَّ
إِنَّ تَكُ بِالطَّرِيقِ غَيْرَ دَارِي

لَمْ تَحْمِلْنِ زُنَّارَ (بَرْجَسَانَا)^(١)
طَلَسْمَةُ جَمِيعِهِ خِيَالِي
وَكَيْفَ تَجْتَازُ الزَّمَانَ (الذَّاتُ) ؟
وَقَصْدُهُ دَسْتُورُ ذِي الْحَيَاةِ ؟
أَذَانُ مَوْمِنٍ يَبْدُو الْأَفَاقِ
إِلَى مَنَاةَ سَلَفِي وَاللَّاتِ^(٢)
وَطَيْتِي مِنْ نَشْلِ بَرْهَمِيٍّ
قَدْ مُزِجَتْ بِطَيْتِي وَمَائِي
وَأَنْ يَكُنْ عَرَفَانُهُ قَلِيلاً
فِلَسْفَةُ بُعْدٍ مِنَ الْحَيَاةِ
لِلذَّةِ الْأَعْمَالِ حَادِي الْمَوْتِ
الَّذِينَ أَحْمَدُ وَإِبْرَاهِيمُ
« أَبَا عَلِيٍّ » أَتَرَكَنُ يَابْنَ عَلِيٍّ
فَالْقَرَشِيَّ اتَّبَعَهُ لَا الْبَخَارِيَّ^(٣)

-
- (١) بَرَجَسُون : فِيلَسُوفُ فَرَنْسُوِي ، وَيَلْفِظُ اسْمَهُ فِي الْهِنْدِ بَرَكْسَان ، وَهَيْكَل : فِيلَسُوفُ الْعَمَانِي .
- (٢) سَوْمَنَات : مَعْبِدٌ كَبِيرٌ فِي الْهِنْدِ هَدَمَهُ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُودُ الْفَرَنْزَوِي حِينَمَا فَتَحَ الْهِنْدَ ، وَيَشِيدُهُ الْهِنَادُكَ الْيَوْمَ . وَاللَّات ، وَمَنَاةُ مِنْ أَصْنَامِ الْعَرَبِ .
- (٣) هَذَا الْبَيْتَانِ مِنْ شَعْرِ الْخَاقَانِي فِي « تَحْفَةِ الْعِرَاقِيْنَ » وَأَبُو عَلِيٍّ وَالْبَخَارِيَّ فِي الْبَيْتَيْنِ : ابْنُ سِينَا .

الأرض والسماء

صاح عَلَّ الذي رأيتَ ربيعاً هو في أعين خريف الزمان
سالك النهج ! كل حين شؤون لا تفكر في الريح والخسران
رب ما خلته بدنياك أوجاً هو أرض لعالم غاب ثان

اضمحلال المسلمين

إن كان ذا الذهب الذي يقضي الحوائج في الدنى
فالفقير صاح ميئسراً ما لا يسرُّه الغنى
شبان قومي لو تحلوا بالشجاعة دينا
لم تُلِفَ صغلكي أقل من الملوك تصوُّنا
الأمر ليس كما زعمت وقد وصفت المؤمنا
فزعمت أن طماحه من قلة المال انثنى
إن كان في الدنيا بدا لي جوهراً فيه سنا
فمن التصغُّل قد بدا لا بالخزائن والقنى

العلم والعشق

كان لي العلم غروراً : إنما العشق جنون
قال لي العشق مجيباً : إنما العلم ظنين
لا تكن سوس كتاب يا أسيراً للظنون
فمن العشق شهود ومن العلم حجاب
من لهيب العشق نار ثورة في الكائنات

وشهوود (الذات) للعشوق ، وللعالم الصفات
 ومن العشوق ثبات
 علمنا سؤل جلي
 معجزات العشوق ملك
 وعبيد العشوق أدنا
 ومن العشوق زمان
 إنما العشوق يقين
 ألفسة المنزل في شرع
 خطر البحر حلال
 خفقة البرق حلال
 علمنا نزل كتاب
 وعشنا خاف في الجواب
 زانه فقر ودين
 هم له عرش مكين
 ومكان ومكين^(١)
 وبه يفتح باب
 راحه السرب حرام
 وفرة الحب حرام^(٢)
 عشقنا أم الكتاب

اجتهاد

حكمة الدين كما قد زعموا
 ما بها لذة سعي دائب
 أين منهم جراءة العقل لدى
 آه للتقليد والأسر بما
 علمت في الهند من أي طريق؟
 لا ولا فيها من الفكر العميق
 مخفل يهفو إلى الفكر مشوق
 ألفوه وزوال التحقيق

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة امتزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردي .

بَدَّلُوا الْقُرْآنَ لَا أَنْفُسَهُمْ كَمْ فَقِيهِ مُبَعَّدٍ مِنْ تَوْفِيقٍ^(١)
وَكَفَى الْقُرْآنَ نَقْصاً أَنَّهُ مَا هَدَى الْمُؤْمِنَ مِنْهَا جَ الرِّقِيقُ^(٢)

شكر وشكوى

لَكَ الْحَمْدُ إِنِّي عَبْدٌ جَهْلٌ وَلَكِنْ وَصِلْتُ بِسِرِّ الْغُيُوبِ
مَنْحَتُ الْقُلُوبِ هِيَاماً جَدِيداً أَثَرْتُ الْبَعِيدَ بِهِ وَالْقَرِيبَ
وَمِنْ حَرِّ شَذْوِي يُرَى فِي الْخَرِيفِ طَرُوباً بِصَحْبَتِي الْعَنْدَلِيبِ
وَلَكِنْ خُلِقْتُ بِأَرْضٍ بِهَا نَفُوسُ الْعَبِيدِ بِرِقِّ تَطِيبِ

الذكر والفكر

ذَاكَ لِلنَّالِكِ الطَّمُوحِ مَقَام نَزَلْتُ فِيهِ «عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ»^(٣)
وَمَقَامِ التَّفَكِيرِ قَوْلُ ابْنِ سِينَا وَمَقَامُ الْعِطَارِ بِالذِّكْرِ ضَاءً^(٤)
وَلِذِكْرِ «سُبْحَانَ رَبِّي» وَالْفِكْرِ يُقَيَسُ الزَّمَانُ وَالْأَرْجَاءُ^(٥)

-
- (١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .
- (٢) يعني أن الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .
- (٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .
- (٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .
- (٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغل بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عَلَيْكَ مَقَامُ آدَمَ فِي الْوَرَى فَالْنَفْسُ مَا نَالَ الْإِلَهَ وَصَّالُهَا^(١)
مَا فِي أَذَانِكَ مِنْ صَبَاحِي دَعْوَةٍ أَوْ فِي الصَّلَاةِ جَمَالُهَا وَجَلَالُهَا

القدر (٢)

رَبِّمَا يَبْلُغُ اللَّثِيمُ مُنَاهُ وَيُنَالُ الْكَرِيمُ ضِيمُ الزَّمَانِ
عَلَّ فِي مَنْطِقِ الْقَضَاءِ خَفَاءُ وَيُرَى دُونَ مَنْطِقِ فِي الْعِيَانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذِي الْحَقِيقَةِ طُرّاً وَجَلَّاهَا التَّارِيخُ كُلَّ أَوَانِ
نَحْوَ مَسْعَى الْأَقْوَامِ يَرْنُو الْقَضَاءُ نَظْرَةً كَالْحُسَامِ فِيهَا مَضَاءُ

التوحيد

قُوَّةٌ كَانَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَارَ التَّوْحِيدُ عِلْمَ الْكَلَامِ
رَدُّهُ فِي الْفِعَالِ غَيْرَ مَضِيٍّ جَهْلُنَا الْيَوْمَ مَا لَنَا مِنْ مَقَامِ
قَائِدَ الْجَيْشِ ! قَدْ رَأَيْتُ غُمُوداً مِنْ « هُوَ اللَّهُ » مَا بَهَا مِنْ حُسَامِ^(٣)

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخذت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إِنَّ الْقَضَاءَ يَبْدُو غَيْرَ تَابِعٍ لِلْمَنْطِقِ ، وَلَعَلَّ لَهُ مَنْطِقاً خَفِياً ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ نَرَى حَقِيقَةً لَا جَدَالَ فِيهَا ، هِيَ أَنَّ عَيْنَ الْقَضَاءِ تَنْظُرُ إِلَى مَسَاعِي الْأُمَمِ ، فَتَقْضِي فِيهَا عَلَى قَدْرِ مَسَاعِيهَا .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

ما درى الشيخُ أنَّ توحيدَ فكرٍ دونَ فعلٍ ، يُعدُّ لَفْوَ كَلامٍ^(١)
يا إماماً لركعةٍ كيف تدري في الوَرَى ما إمامةُ الأقوامِ ؟

العلمُ والدينُ^(٢)

العلم يخلق إبراهيم موثته إذا تراه نديمَ القلبِ والنَّظيرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما بُدِلا ما مُحَدَّثٌ وقديمٌ قولُ ذي بَصَرٍ
ما يُحسِّنُ المرجُ تريبَ الزُّهورِ إذا لم تَشْرِكِ النِّسَماتُ الطَّلَّ في الزَّهَرِ
العلم إن لم يُضِفْ نَجوى الكليمِ إلى رأي الحكيمِ فما للعلم من قَدَرٍ

المسلمُ الهندي

قال البَرَهْمَنُ : خائنٌ أوطانه والإنكليزُ تقول : هذا مجتدي
ونُبُوَّةُ البَنُجَابِ قالت : كافر مستمكٌ بقديمه لا يهتدي^(٣)
أَيَّانَ صَوْتُ الحَقِّ يعلو هاهنا ؟ ويلٌ لقلبي في الصُّراع المُجْهِدِ^(٤)

-
- (١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .
(٢) العلم وحده عاجز مُضِل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيم ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلُّ والنسيم لا بدُّ من اشتراكهما في تربية الزهر .
(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .
(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف^(١)

أيها المسلم تُذري اليومَ ما
هو مصراعٌ من البيت الذي
وأرى مصراعه الثاني في
أنت يا مسلم - إن تظفر به -
قيمة الفولاذ والعُضْب الذَّكَر
مضمراً فيه من التَّوْحِيدِ سِرَّ
سيفٍ فقِرٍ تحنويه كفُّ حُرِّ
خالدٍ أو حيدرٍ يوم المَكْر^(٢)

الجهاد^(٣)

الشيخُ أفتى أنه عصرُ القلم
أما درى الشيخُ بأنَّ وعظَّه
فما ترى السَّلاحَ كفُّ مسلمٍ
مَنْ قلبه يهابُ مَوْتَ كافرٍ
فعلَّمَنْ تركَ الجهادَ طاغياً
أما ترى الغربَ بدا مُدَجَّجاً
يا مُفتياً على الكيسِ مُشفقاً
الحربُ في المشرقِ شرٌّ داهِمٌ
ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممِ
في مسجدٍ قد صار من لَعْوِ الكَلِمِ ؟
بل قلبه من لَذَّةِ الموتِ حُرِمِ
فكيف ميتةُ الشَّهيدِ يَغْتَنِمُ^(٤) ؟
مِنْ كَفِّهِ يسيلُ في العالمِ دَمٌ
ليحفظَ الباطلَ في عِرْزِ عَمَمِ ؟
قد حارَ في أحكامِهِ أولو الفَهَمِ
والحربُ في المغربِ شرٌّ لا جَرَمِ

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إِنْ يَبْتَغِ الْحَقُّ فَكَيْفَ حَاسِبَ الْمَدِّ لَمْ لَا الْفِرْنَجِ ذَلِكَ الْحَكْمُ ؟

القوة والدين

كم أصاب الإنسان في هذه الأَرْ
ويقول التاريخُ في كلِّ عصرٍ :
هي سبيلُ غُثَاوَةِ الْفَرِّ وَالْعِلْمُ
وهي سُوءٌ بغير دينٍ . وبالدِّينِ
ضِيٌّ مِنْ إِسْكَندَرٍ وَمِنْ جَنْكِيَرٍ
خَطَرَ فَرْطُ قُوَّةٍ لِعَزِيْزٍ
وما أَثَلَ الْوَرَى مِنْ كَنُوزٍ
دَوَاءٌ لِكُلِّ سُوءٍ نَجِيْزٍ

الفقر (١)

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَالرُّجُومِ

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعده مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سُودد ، والمقتحم كل عقبة ، ومن الآيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما
هو مصراع من البيت الذي
وأرى مصراعه الثاني في
وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاحٍ
وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلم فالف مقام وشان
وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرُّ عَلَيْكَ مِنْ فَقْرٍ مِسْنَأٍ
فقطيع منك سيفاً للمنايا =

وَكُلُّ ضَرْبٍ لَهُ سَدِيدٌ إِنَّ ثَارَ مَنْ قَلْبُهُ السَّالِيمُ
حَمَاسُهُ قَصْرٌ كُلُّ عَصْرِ قِصَّةَ فِرْعَوْنَ وَالْكَالِيمِ
يَا غَيْرَةَ الْفَقْرِ أَنْجَدِينَا وَاهْدِي إِلَى نَهْجِكَ الْقَوِيمِ
عِبَادَةُ الْفَرْبِ جَمْعُ مَالٍ تَنْخَرُ فِي رُوحِهِ السَّقِيمِ

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أَيُّ مَلِكٍ مَقَامُ فَقْرٍ ، وَلَكِنْ تَوَثَّرَ الذَّلْ مَذْعَنًا مَا احْتِيَالِي
وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فتون علم » :
وَمَا إِنْ ذَلْ قَوْمٌ قَدْ أَعْدُوا حِمَاسَ الْعِشْقِ وَالْفَقْرِ الْغِيورُ
ويتبين للقارئ من التأمل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو
قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويمتدُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال
حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارئ من كلام الشاعر : أنَّ
الفقر الذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملُّك أو الطمع ، ومضيتها عاملة
مقدمة لا يطغىها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما
يكون ملكاً مسلطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .
وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئِلَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ عَنِ الْفَقْرِ ، فَقَالَ :

« حَقِيقَتُهُ أَلَّا يَسْتَغْنِيَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

وقال الشبلي :

« أَدْنَى عِلَامَاتِ الْفَقْرِ أَنْ لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا لِأَحَدٍ فَأَنْفَقَهَا فِي يَوْمٍ ثُمَّ خَطَرَ لَهُ أَنْ لَوْ
أَمْسَكَ مِنْهَا قُوَّةَ يَوْمٍ مَا صَدَّقَ فِي فَقْرِهِ » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وَقِيلَ : صَحَّةُ الْفَقْرِ أَلَّا يَسْتَغْنِيَ الْفَقِيرُ فِي فَقْرِهِ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَنْ إِلَيْهِ فَقْرُهُ » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إِذَا صَحَّ الْاِفْتِقَارُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَحَّ الْغِنَى بِاللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُمَا حَالَانِ
لَا يَتِمُّ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْآخَرِ » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان
بما أدرك أو بما فات ، أعني أن لا تكون الدُّنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشقُ والشُّكرُ ما أباحا أن أضبطَ النفسَ في همومي
فَعُقْدَةُ الْكِيمِ لَمْ تُفْتَحْ إلا بِمَوْجِ مَنْ النِّسِيمِ^(١)

الإسلام

إِنَّ نَارَ «الذَّاتِ» ، والنورُ لديها هي للإسلام رُوحٌ مستنير^(٢)
إِنَّ نَارَ «الذَّاتِ» ، فاقبس من لظاها في حياة الخلقِ نورٌ وسُفورٌ
هي تقويمٌ وجودٌ وهي أضلُّ للتَّجَلِّيِ أُخْفِيَتْ خَلْفَ سُتُورِ
إِنَّ قَلَى الْغَرْبِ مِنَ الْإِسْلَامِ لَفُظاً فله اسمٌ آخَرُ : الْفَقْرُ الْغَيُورُ^(٣)

الحياة الأبدية^(٤)

صَدَفٌ لَنَا هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وذاتنا كالقطر من نَيْسَانَ فِي الصَّدَفَاتِ^(٥)
ما قيمة الصَّدَفِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ يُحِيلُ قَطْرَاتٍ إِلَى دُرَّاتٍ
إِنْ صَانَتِ الذَّاتُ الْمَتِينَةُ نَفْسَهَا أَعَيْتَ عَلَى الْأَيَّامِ كُلَّ مَمَاتٍ

-
- (١) كَيْمُ الزَّهْرِ لَا يَفْتَحُ إِلَّا بِالنِّسِيمِ ، وبيان الشاعر وشكواه كالنَّسِيمِ تَفْتَحُ بِهِمَا نَفْسَهُ .
(٢) رُوحُ الْإِسْلَامِ هِيَ الذَّاتُ نَارُهَا وَنُورُهَا .
(٣) إِنَّ نَفَرَ الْقَرْنَجِ مِنْ لَفْظِ الْإِسْلَامِ فَنَحْنُ نَسْمِيهِ اسماً آخَرَ فِيهِ حَقِيقَتُهُ هُوَ الْفَقْرُ الْغَيُورُ .
(٤) يُوَكِّدُ الشَّاعِرُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ رَأْيَهُ فِي الذَّاتِ أَنَّهَا مَقْصِدُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّهَا إِنْ قَوِيَتْ وَاسْتَحْكَمَتْ ؛ لَمْ تَمُتْ .
(٥) يُقَالُ : إِنَّ الْأَصْدَافَ تَكُونُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مَفْتُوحَةً ، فَإِذَا نَزَلَ مَطَرُ نَيْسَانَ تَدْخُلُ فِي كُلِّ صَدْفَةٍ قَطْرَةٌ مِنْهُ فَتَنْطَبِقُ عَلَيْهَا حَتَّى تَتَحَوَّلَ دُرَّةً . وَالشَّاعِرُ يَجْعَلُ الْحَيَاةَ صَدْفَةً ، وَالذَّاتَ قَطْرَةً مِنْ نَيْسَانَ . وَيُرِيدُ أَنْ تَحْكُمَ الْحَيَاةُ الذَّاتَ كَمَا تَحِيلُ الصَّدْفَةُ الْقَطْرَةَ دُرَّةً .

لفقر بدا فيه روح القُرَّانِ
فهذا مقامٌ لملك الزَّمانِ
قوى مؤمنٌ يُبتلى بامتحانِ
وظلٌّ من الله في ذا المكانِ
هو العشقُ والوجد ملء الجنانِ
على الأرض حفظُ الورى في أمانِ
فأصبحت في الرقِّ جِدَنَ الهوانِ
تُبَارِي الكواكبِ ملء العيانِ
فهل في نجومك منه معانٍ ؟

تَعَلَّمَ ؛ فألفُ مقامِ وشانِ
إذا انجلت (الذات) في قهرها
وتوزن في ذا المقامِ القُوى
وإنَّك في ذا المقامِ عظيمٌ
وما ذاك بغِيٍّ وقهرٌ ولكن
فما استطاع بقهرٍ وبغِيٍّ
وأعياك في الدَّهرِ حفظُ لفقرِ
وكان على الدِّينِ سيما سجودِ
وكان على الشمسِ منه سَناءٌ

إلى الصُّوفيِّ

وفي عينيِّ دُنيا الحادِثاتِ
لِدُنْيَا للحياةِ وللِمَمَاتِ
وكم تدعوك دُنيا الممكناتِ

تُرى عيناك دُنيا المعجزاتِ
ومن دُنيا الخيالِ عَجِبَتِ ، فاعجب
تبدَّلها بنظرةٍ غيرِ واعٍ

(١) السُّلْطَانُ الحقُّ هو أحدُ شؤونِ الفقرِ ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلِّي « الذات » - ذاتِ
الفقير - بالتسلُّطِ . وليس السُّلْطَانُ طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في
رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صريح الفرنج

- ١ -

مِنْ تَجَلَّى الْفَرَنْجِ نَلَتْ وَجُوداً فَهَمُّ مِنْكَ هَيْكَلًا قَدْ أَقَامُوا
وَمِنْ (الذات) هَيْكَلُ التُّزْبِ خَالٍ أَنْتَ غِمْدٌ مُذَقَّبٌ لَا حَسَامُ

- ٢ -

وَوُجُودُ الْإِلَهِ عِنْدَكَ رَيْبٌ وَأَرَى الرِّيبَ فِي وَجُودِكَ أَنْتَا
إِنَّمَا الْكَوْنُ جَوْهَرُ (الذات) يُجَلَّى فَانْظُرْ أَيَّ جَوْهَرٍ قَدْ دَفْتَا

التصوُّف (١)

إِنَّ عِلْمَ الْإِلَهِوتِ فِي مَلَكُوتٍ لَيْسَ لِلدِّينِ آسِيَا - لَيْسَ شَيْئًا
وَقِيَامُ الْأَسْحَارِ فِي طَوْلٍ وَجَدَ لَيْسَ لِلذَّاتِ رَاعِيًا - لَيْسَ شَيْئًا
ذَلِكَ الْعَقْلُ صَاعِدًا لِلثَّرِيَا لَيْسَ بِالْوَجْدِ سَارِيًا - لَيْسَ شَيْئًا
يَنْطِقُ الْعَقْلُ « لَا إِلَهَ » وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْقَلْبِ مُسْلِمًا - لَيْسَ شَيْئًا^(٢)
كَلِمَاتِي خَوَافِقُ وَسْنَا الْإِصْبَاحَ لَمْ يَبْدُ خَافِقًا - لَيْسَ شَيْئًا

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلام الهندي

بوحدة الأفكار تحيا أمة
لا تحفظ الوحدة إلا بالقوى
يا عابداً ليس لديه قوة
وهات إسلاماً به تصوّف
للشيخ في الهند أجيزت سجدة
ودونها الإلهام يُلقى ملحداً^(١)
لم يفلح العقل هنا ولا اهتدى
أذهب إلى كهفٍ وسبح واعبدا
إلى الردى والذل واليأس هدى
فحسب الإسلام خيراً سيّداً

قطعة (٢)

ما القلب مات ، قلب
يمحو الفؤاد داء
بحرّك في سُكون
لا وحشٍ أو هياجاً
وفي السماء سرّ
ما هاج طرفُ نجم
رمى نسيّداً صبحي
شراةً أكنّت
دنيا غداً وأمس

فأحي ذا الرميما
في أمم قديما
سُحّر أم أنيما؟
أو ساحلاً لطيمما
لست به عليمما
منك فتى كليمما
أبواءك الهشيمما^(٣)
في طيتي قديمما
يُصّرهما عليمما

(١) بغير توحيد الأفكار تعمّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .

(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .

(٣) الأبواء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَنْ حَازَ مِثْلِي عَيْنًا جَرِيثَةً هَجُومًا

الدُّنْيَا (١)

كَذَاكُمْ بَدَا لِي بِوَقْلَمُونِ وَقَلْبْتُ فِي الْمَلَكُوتِ النَّظْرُ
فَهَذَا هَلَالٌ ، وَهَذِي نَجُومٌ وَهَذَا عَقِيْقٌ وَهَذَا حَجَرٌ
وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ أَعْمَلْتُهَا فَأَوْحَتْ إِلَيَّ صَحِيْحَ الْخَبَرِ
فَهَذَا تَرَابٌ وَتِلْكَ سَمَاءٌ وَذَلِكَ طَوْدٌ وَهَذَا نَهْرٌ
وَلَا أَكْتُمُ الْحَقَّ : أَنْتَ وَجُودٌ وَلَا شَيْءَ مَا سَاحَ فِيهِ الْبَصَرِ

الصَّلَاةُ (٢)

تَلَوْنُ فِي كُلِّ ثَوْبٍ مَنَاءٌ وَشَابَ بَنُو الدَّهْرِ وَهِيَ فَنَاءٌ
فَهَذَا السَّجُودُ الَّذِي تَجْتَوِيهِ بِهِ مِنْ أَلُوفِ الشُّجُودِ نَجَاةٌ (٣)

(١) أَنَا كَذَلِكَ أَبْصَرْتُ دُنْيَا الْأَلْوَانِ الَّتِي تُشَبِّهُ بِوَقْلَمُونِ ، وَأَعْرِفُ الْهَلَالَ وَالنَّجْمَ وَالسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ . . إلخ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ وَجُودٌ حَقٌّ ، وَمَا عَدَاهُ لَيْسَ شَيْئًا .

(٢) الْأَصْنَامُ لَمْ تَنْقُطْ عِبَادَتُهَا ، فَلَا تَزَالُ تُظْهِرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتُعْبَدُ ضُرُوبُ الْعِبَادَاتِ . فَأَعْلَمُ أَنَّ سَجُودَ الصَّلَاةِ الَّذِي يَثْقُلُ عَلَيْكَ يَنْجِيكَ مِنْ آلَافِ السَّجُودِ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ .

(٣) تَجْتَوِيهِ : تَكْرُمُهُ .

ليس هذا العقل ذو الوه
فحياة الظن والتخمين
ليس في فكر نور
كيف يجلو في حياة
إن لغز الحسن والقبح
حين لا تجلو الحياة السر منها مستهامه
من حرياً بالإمامه
ضعف وسقامه
أو إلى السعي استقامه
ذلك الليل ظلامه ؟
ليعي ذا الفهامه

هزيمة

خلا الصوفي من حرق وكذ ؛
وفر إلى ترهبه فقيه
شراب (ألت) معذرة البطالة (٢)
يرى في الشرع معترك البسالة (٣)
إذا خشي الرجال وغى حياة
فتلك هي الهزيمة لا محاله

العقل والقلب

سيطر العقل على الكون أميراً
ذا جلال يخضع الكون له
وطوى الأفلاك والأرض مسيراً
غير قلب ثار بالعقل جسوراً

- (١) العقل ظن وتخمين ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقبح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .
- (٢) يوم « ألت » أو عهد « ألت » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألت » يتعلل به ، ويعتذر لبطالته .
- (٣) لما رأى الفقيه أن الشرع جهاد وكفاح فر إلى الترهب .

سكر العمل

في طريق الصوفي سُكْرُ الحال وطريقُ الفقيه سُكْرُ المقال
ونشيد الشُّعر المرجَّع مَيَّت خامدُ اللُّحن لم يُشَبَّ بجمال
بين نومٍ ويقظةٍ غيرُ صاحٍ بين سُكْر الأفكار والبَلال
وبنفسٍ مجاهِدٍ لا أراه ! فيه سُكْرُ الأعمال لا الأقوال

القبر (١)

لا يجد القلندرُ راحةً وإن ثوى بقبره تحت الثرى
سكنةُ الأفلاك في الضَّريح لا فاحةُ الأفلاك أو طولُ السُّرى

همّة القلندر (٢)

يقول للزمان ذلك الفتى : امض إلى حيث يسير المؤمنُ
مالك في معركي من طاقةٍ حذارٍ من قلندرٍ لا يُدعن

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر
أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبة أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في
الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُدسمون السفر ،
لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحللون رؤوسهم .
وسُني سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .

وقد رأى المترجم أن يبقى اللفظ في الترجمة لأنه عَلِمَ في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً
وأحياناً نَسَب إليه ، فقال : القلندرُ والقلندري .

إذا طغى اليمُّ فهيّا أقدمن ما حاجتي ملاحه والسفن
لقد محا سحرَك تكبيري فهل تقوى على جحوده يا وهن ؟
يحاسب الأفلاك ذا القلندر وقاهرٌ أيامه لا يقهر

الفلسفة

ليس يخفى على القلندر فكرٌ ساور النشء ظاهراً أو خفياً^(١)
أنا عندي بكلِّ حالِك خبيرٌ فبهذا الطريق سرْتُ مليّاً
لا يقيم الحكيمُ في شرك اللف ظ ولا بالحروف كان خفياً
ليس همُّ الغواص أصداف بحرٍ يتغني الغائصون دُرّاً بهيّا
إنَّ في حلقة المجانين عقلاً في شرارٍ يرى لهيّا مضياً^(٢)
إن أغلى من الجواهر ، معنى صدق القلب سرّه مطويّا
فلسفات ما سطرت بدم القلب مَوَاتٌ أو للمات تُهيّا

رجال الله

إنما الحرُّ من يُجيد ضراباً لا الذي حربه تدور هُراء
وسجايّا الأحرار تجمع تاجاً ذا سناء ، وخرقة وقبّاء^(٣)

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيّا عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصُّوفية لابس الخرقه ، وفيها فقه العلماء لابس القباء .

من خفايا تُرابهم أخذ الدهرُ شراراً فصاغ منه ذكاء
فطرةً حرّةً تعاف الدنيا من طواف الأصنام عاشت براء
أنت في الكفر والتدين جَمْعاً وثنيّ تُقدّس الأهواء^(١)

الكافر والمؤمن^(٢)

أمس عند البحر قال الخضر لي قولاً أعية^(٣)
تبتغي الترياق من مُم فرنّج تتقبّيه ؟
فخذن قولاً سديداً هو بالسيف شبيه
ذا مضاءً وضياءً خبرة الصّيقـل فيه :
إنّما الكافر حيرانُ له الأفـاق تـيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الأفـاق فيه

- (١) الأحرار منزّهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .
(٢) يكرّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلفقه أحداثه ، وتقلبه غيره .
والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرّومي . فقد قصّ المثنوي قصة افتقاد حليلة الرسول في طفولته وطلبها إثمًا والهة ، وأنّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الأفاق ، فهذه الأفاق تتيه فيه .
(٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلُّ نَوَى في مَحْبَسٍ من صُنْعِهِ : سَيَّارُ إفرنج وثَابِتُ مشرقٍ^(١)
والشَّيْخُ في حَرَمٍ وَحَبْرُ كَنِيسَةٍ لا جِدَّةٌ في القولِ أو في المنطقِ
أهلُ السِّيَاسَةِ في شِرَاكِ قَدِيمِهِمْ والشُّعْرُ أَفْلَسُ في خَيَالِ مُغْلَقِ
من لي بمهديٍّ له نَظَرٌ يَزْلُزُلُ عَالَمَ الْأَفْكَارِ ، غَيْرَ مَمْخَرِقِ

المُؤْمِنُ

- ١ -

في الدُّنْيَا

مع الصَّخْبِ لَيْنٍ كَمَرُ الحَرِيرِ بعيدٌ من المَحَكِّ ، الْمُؤْمِنُ^(٢)
حَدِيدٌ إِذَا مَا طَغَى بِاطِلٌ جَرِيءٌ لَدَى المَغْرَكِ ، الْمُؤْمِنُ
من الطَّيْنِ ، لَكِنْ عَلَى الطَّيْنِ يَسْمُو وَيَأْبَى عَلَى الفَلَكِ ، الْمُؤْمِنُ
وما هُمُّهُ صَيْدُ طَيْرٍ وَلَكِنْ يَصِيدُ مِنَ المَلَكِ ، الْمُؤْمِنُ

- ٢ -

في الجَنَّةِ

تَقُولُ المَلَائِكُ في غِبْطَةٍ : حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِنَا ، الْمُؤْمِنُ

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السَّيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والروبيُّ الكاف التي قبلها .

وللحور شكوى إلى ربّها : سريعٌ إلى هجرنا ، المؤمن

محمّد علي الباب (١)

أجاب (الباب) في حفل	مفيضاً في مقالات
وفات الشيخ توفيق	بإعراب (السموات)
سرت في الحفل غلطته	فلاقوه ببسمات
فقال (الباب) : لم تذرنا	وفاتكم مقاماتي
ثوى القرآن بالإعراب	في حبس وإعنات
وإن إمامتي جاءت	بتحريض لآيات

القدر (٢)

الخالق وإبليس

إبليس : يا إلهاً أمره كن	ليس عنه من مَحيد
لم يُصَبِّبْ آدم مني	بمعدو أو حدود
ويلٌ غرّ ، من زمان	ومكان في حدود
كيف استكبر عن	أمرك أو كيف أحيّد

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلهن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إن بشرى إمامتي تحرير الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كَانَ فِي عِلْمِكَ أَنِّي حَائِذٌ عَنْ ذَا السَّجُودِ

الخالق : هل عرفت السرَّ هذا
إبليس : بعدُ ! يا مَنْ مِنْ تَجَلِّيهِ
قَبْلَ أَوْ بَعْدَ الْجَحُودِ ؟
كمالات الوجود
(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِصَّةُ الْفُطْرَةِ فِيهِ
قَالَ : مَا شِئْتَ سَجُودِي
عَلَّمْتُهُ ذَاكَ عَزَّاراً
أَنَا لَا أَمْلِكُ أَمِيراً
ذَلِكَ الظَّالِمُ سَمِّي
اخْتِياراً فِيهِ جَبَّاراً
إِنَّهُ سَمِّي رَمَاداً
شُعْلَةً فِيهِ وَجَمَّاراً

أَيْنَ رُوحَ مُحَمَّدٍ ! (١)

أَرَى الْمَلَّةَ الْبَيْضَاءَ بُدِّدَ نَظْمُهَا
وَلَيْسَ بِبَحْرِ الْعُرْبِ لَذَّةُ ثَوْرَةٍ
فَمَسْلُوكٌ أَنْظِرْ حَالَهُ ، أَيْنَ يَذْهَبُ ؟
وَفِي الصُّدْرِ مَوْجٌ غَالَهُ ، أَيْنَ يَذْهَبُ ؟
وَقَطْعُ الْفِيَا فِي هَالِهِ ، أَيْنَ يَذْهَبُ ؟
حَفِيطٌ لَآيٍ ، يَالَهُ ، أَيْنَ يَذْهَبُ ؟
وَلَا رَكْبٌ لِلْحَادِي وَلَا زَادَ عِنْدِهِ
فَيُبْنِ لَنَا الْأَسْرَارَ رُوحَ مُحَمَّدٍ !

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمَّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافي هائلة . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل رُوح الرسول أين يذهب .

مدنية الإسلام

حياة المسلم أعرف في بياني كمالُ العقل فيها والجنون^(١)
 سناً كالضُّبح مغربه طُلوعُ وحيدٌ ، كالزَّمان له شؤون
 ولا كالعصر ، خلُوٌ من حياء ولا فيها من الماضي فتون
 حياةٌ بالحقائق في قرارٍ وليست ما يُطليسم أفلاطون^(٢)
 عناصرُها يؤلِّفها جمالٌ تمثِّل فيه جبريلُ الأمين
 وحسنُ الخلق من عَجْمٍ لديها ونارُ العُرب فيها والشُّجون

الإمامة^(٣)

أتسألني : الإمامة ما مداها ؟ حَبَاك الله مثلي بالخفايا
 إمامُ العصر حقاً من تراه فتسألم ما تشاهدُ في البرايا
 بمرآة الممات يريك وجهه الـ حبيب فتجتوي عيشَ الدُّنايا

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذَّة لا نظير لها ، ولكنها كالزمان في شؤون متعددة ، وهي قائمة على الحقائق ، وجامعة عناصر الجمال والقوَّة .

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال من ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعرك التخلّف عن كمالٍ فينفخُ فيك مشبوب السّجايَا^(١)
يُمِرُّ عليك مِنْ فَقْرٍ مِسْنَاً فيطبّعُ منك سيفاً للمنايا
فَتُونَ المَلَّةَ البيضاء إماماً كأنّ المسلمين به سبايا^(٢)

الفقر والترهّب^(٣)

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقرُ عندك كالترهّب يظهر
شَتَانٌ ، فانظر ، بين خلوة راهبٍ وشِراع فقيرٍ في عُبابٍ يمُخر
في الروح والأبدان يبغي جلوةً فنهاية الإيمان (ذاتٌ) تبهر^(٤)
هو صيرفي الكائنات وجوده فعن الفناء أو البقاء يخبر^(٥)
فاسأله عما ترثيه أعالمُ أم موج رائحة ولون يزخر ؟
لما أضاع المسلمون على المدى ذا الفقر - لما ضاع هذا الجوهر
لم يبقَ فيهم من سليمان ولا سلمان دولةٌ عِزّة لا تُقهر

-
- (١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .
(٢) فتنة الملة الإسلامية إمامٌ يمكن أصحاب السُلطان من إذلال المسلمين .
(٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرز من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .
(٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .
(٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

متاعك في الحياة فنون علم
وما عندي متاع غير قلب
لأهل الفكر معجزة تجلت
وأهل الذكر شادوا معجزات
أقول لمسلم : ما فيك صدر
ومزقت الجيوب وأنت خال
أقل القول وافتح عين قلب
وما إن ذل قوم قد أعدوا

تطل الدهر منها في حبور
طموح ما أراه بالصبور
بفلسفة معقدة الشطور
على موسى وفرعون وطور^(٢)
لأنفاس بها حرّ النشور
جنوني - لا ألومك - في قصور^(٣)
ولا تك مهذراً عند البصير
حماس العشق والفقر الغيور

التسليم والرضا

على كل غصني تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قرّ في ظلمة الترب حب
فلا تبغ في فطرة ترك سعي
لأهل النماء فضاء فيح
فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
وما ضاق ملك الإله ، فيحوا

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليّ لا عليك .

نكتة التوحيد^(١)

إِنَّ سِرَّ التَّوْحِيدِ طَوْعُ يَبَانِي شِدَّتْ فِي الرَّأْسِ مَوْتَنَا ، مَا احْتِيَالِي ؟^(٢)
 رَمَزُ شَوْقٍ بِلا إِلَهٍ خَفِيٍّ لَيْسَ فِي الْفَقْهِ بَيْنَا ، مَا احْتِيَالِي ؟
 كَمْ سُرُورٍ فِي حَرْبٍ حَقٌّ وَزُورٍ لَسْتُ فِي الْحَرْبِ مَطْعَنَا ، مَا احْتِيَالِي ؟^(٣)
 كَمْ تُجَلِّي الْأَفَاقَ نَظْرَةً حَرًّا حَجَبَ الرِّقِّ أَعْيَا ، مَا احْتِيَالِي ؟
 أَيُّ مُلْكٍ مَقَامُ فَقِيرٍ وَلَكِنْ تَوَثَّرَ الذِّلُّ مُذْعَنَا ، مَا احْتِيَالِي ؟

الإلهام والحرية

إِنَّ لِلْحُرِّ مَلْهَمًا نَظَرَاتٍ تَحْفِزُ الْقَوْلَ وَالْفِعَالَ بِنَارٍ
 حَرُّ أَنْفَاسِهِ يَشِيعُ بِرَوْضِي فَتَرَى الرُّوضِ مُزْهَرًا مِنْ شَرَارِ
 يَهْبُ الْعَنْدَلِيبُ سِيرَةً بَارِ كَيْفَ حَالَتِ طِبَائِعُ الْأَطْيَارِ ؟
 يَنْحُ الْمُجْتَهِدِينَ شَوْكَةً جَمًّا عَارَفُ النَّفْسِ وَالْهَ الْأَسْحَارِ^(٤)
 وَوَقَى اللَّهَ حِكْمَةً لِذَلِيلٍ مِثْلَ جَنْكِيْزٍ طَالَعَ بِالذَّمَارِ^(٥)

- (١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .
- (٢) يمكن أن يبين سِرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلني وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانها ، ونحوهما .
- (٣) كم سرور في مجاهدة الباطل بالحق في هذه الحياة .
- (٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .
- (٥) يريد أن حكمة الذليل تدمر الأمم كفارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم (١)

ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
 وشورة وسرور النفس والحزن
 أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن^(٢)
 جمرٌ بدا في رَمادٍ منه للقطن
 ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟
 ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل
 ومشكلٌ لك أنَّ الخمر من قدح

« لاهور » و « كراجي » (٣)

قد تولى الله عبداً
 هو بالموت إلى عا
 كيف تَفُودون شهيداً
 دُمُّه من حَرَمٍ أعلى
 آه للمسلم غفلاً
 سرٌّ لا تدع مع الله
 مسلمٌ ما أمرا
 لَم روح سافرا
 لخلود أثرا
 وأغلى جوهر^(٤)
 نسيّاً ما درى :
 إلهاً آخر^(٥)

- (١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .
- (٢) الزكن : القطنة .
- (٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يزدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .
- (٤) يعني : أنَّ كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .
- (٥) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُوَّةُ (١)

لَسْتُ الْمُحَدِّثُ وَالْفَقِيهَ وَلَا الْوَلِيَّ وَلَا الْمَجْدُّ
لَا عَلِمَ عِنْدِي بِالنُّبُوَّةِ كَيْفَ تَوْصِفُ أَوْ تَحَدِّدُ
لَكِنِ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الْأَيَّامِ لِي نَظَرٌ مُسَدَّدُ
أَوْحَى إِلَيَّ بِسِرِّهِ الْفَلَكُ الْمَحِيطُ فَلَا أَفْنَدُ
فَرَأَيْتُ فِي ظُلُمَاتِ هـ إِذَا الْعَصْرُ ذَا الْحَقِّ الْمُؤَيَّدُ :
عِنْدِي حَشِيشُ الْمُسْلِمِينَ نَبُوَّةٌ فِيهِمْ تَجَدَّدُ
مَا إِنْ لَدَيْهَا دَعْوَةٌ لِلْبَاسِ وَالْمَجْدِ الْمُخْلَدُ

الإنسان

ذَا طَلَسْتُمُ الْكَوْنُ وَالْعَدَمَ سُمِّيَ الْإِنْسَانُ مِنْ قِدَمِ
هُوَ سِرُّ اللَّهِ جَلُّ فَلَا يَحْتَوِيهِ الْوَصْفُ فِي كَلَمِ
إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ مِنْ أَزَلٍ مِنْ سَفَارٍ بَاءَ بِالسَّقَمِ
وَمَضَى الْإِنْسَانُ سِيرَتَهُ لَمْ يُصَبِّ بِالضَّعْفِ وَالْهَرَمِ
وَالِيكَ السِّرُّ أُعْلِنَهُ إِنْ تَسَفَّهَ غَيْرَ مَتَّهِمِ :
مَا بَدَأَ رَوْحاً وَلَا بَدَناً ذَلِكَ الْإِنْسَانُ لِلْفَهَمِ

« مكة » و « جنيوا »

كَمْ حَدِيثٍ عَنِ الشُّعُوبِ سَمِعْنَا وَحَدَّةُ النَّاسِ حُجِّبَتْ عَنْ عِيَانِ

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من أدعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكف عن الجهاد .

حكمة الغرب فُرقة النَّاس والإسـ
ومقال من مكة لجنيوا
خبريني اليقين : هل عصابة الأقد
سلام فيه توخذ العمران
قد وعاه الليب في كل أن :
وام خير أو عصابة الإنسان ؟

يا شيخ الحرم

ودع الخلوة يا شيخ الحرم
يحفظ الله لك الفتیان في
هم عن الغرب زجاجاً أخذوا
طول ذل أظلم القلب به
في جنوني منك أسرارٌ بدت
واسمعن في الفجر مني ذا النغم
حكم نفسي ، واشتعال في الهمم
علمتهم صدمة الصخر الأصم
أدرك الحيران في هذي الظلم
فاجزني يا شيخ عن هذا اللمم^(١)

المهدي^(٢)

أرى الأقوام تمضي في حياة
فمجنوب القرنج على خيال
على قدر التخيل في الحياة
من المهدي قاد إلى النجاة^(٣)

- (١) يعني : أن نشوته ووليه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشيها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .
- (٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جراجوري يأخذ على إقبال أنَّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء .
- (٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه : الذي تكلم عن الإنسان الكامل .

فَإِنْ تَنفَرِ مِنَ الْمَهْدِيِّ يَنْفَرِ غَزَالُ الْمِسْكِ مِنْ هَذِي الْفَلَاةِ^(١)
 إِذَا مَا الْحَيُّ مِنْ جَهْلٍ تَرَدَّى بِأَكْفَانٍ وَأَغْرَقَ فِي سُبَاتٍ
 أَسْلِمَ ذَا الْجَهْلُولَ إِلَى الرَّدَى أَمْ تَمَزَّقَ عَنْهُ أَثْوَابَ الْمَمَاتِ ؟

المؤمن

إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ الْعَجِيبَ الشَّانِ كَلَّ حِينَ جَدِيدَ شَانٍ وَأَنِ
 هُوَ فِي قَوْلِهِ السَّدِيدِ وَفِي الْفَعْلِ عَلَى اللَّهِ وَاضِحُ الْبَرَهَانِ
 فِيهِ قَدَسِيَّةٌ إِلَى جَبَرُوتٍ وَمِنَ الْقَهْرِ فِيهِ وَالْغَفْرَانِ
 إِنْ تُؤَلَّفَ هَذِي الْعُنَاصِرُ كَانَ الْمُسْلِمُ الْمُسْتَعْلَى عَلَى الْجِدْثَانِ
 هُوَ تُرْبٌ سَمَا يَجَاوِزُ جَبْرِيلَ وَيَأْبَى الْحُلُولَ فِي الْأَوْطَانِ
 لَسْتُ تَدْرِي بِسِرِّهِ فَتَرَاهُ قَارِئاً وَهُوَ صُورَةُ الْقُرْآنِ
 فِيهِ عِزٌّ عَلَى الْقَضَاءِ دَلِيلٌ وَهُوَ فِي الْعَالَمِينَ كَالْمِيزَانِ^(٢)
 هُوَ بَرْدُ النَّدَى بِقَلْبٍ شَقِيقٍ وَيَقْلِبُ الْبَحَارَ كَالطُّوفَانِ^(٣)
 لَيْلُهُ وَالنَّهَارُ لِحْنُ حَيَاةٍ فِي أَنْسَجَامِ كَسُورَةِ الرَّحْمَنِ
 إِنَّ فِكْرِي مَطَالَعُ لِنَجُومٍ تَجْمِكُ أَعْرَفَ طُلُوعِهِ فِي بَيَانِي^(٤)

- (١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .
 (٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إِنَّ عِزْمَ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْقَدْرِ أَوْ هُوَ مُشِيرٌ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ ، وَإِنَّ رَأْيَهُ وَعَمَلَهُ مِيزَانُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ فِي الْحَيَاةِ . وَهَذَا يَقُولُ : إِنَّ مِيزَانَ الْأَعْمَالِ فِي الدَّارَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 (٣) هُوَ تَارَةٌ كَالنَّدَى يَبْرِدُ قَلْبَ الشَّقَاتِ ، وَتَارَةٌ كَالْمَوْجِ الْهَائِجِ فِي الْبَحْرِ .
 (٤) يَقُولُ : أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ فِي طَوَالِعِ النُّجُومِ هَلُمَّ أَدُلُّكَ عَلَى أَسْبَابِ السَّعَادَةِ ، فَإِنَّ فِكْرِي يَطْلُعُ نَجُومًا صَادِقَةً تَدُلُّ عَلَى السُّعْدِ وَالنَّحْسِ .

المُسلم البنّجايي^(١)

مجدّد في كل حين مذهباً يحلّ في مرحلة ليركبا
في حلّبة التحقيق يَكسُ وإذا قامره داع غويّ غلبا
حباله التأويل إن تُنصب له هوى من العُشّ إليها مُعجبا

الحرية^(٢)

ألا مَنْ يطبق اليوم نُصحاً لمسلم وحرية الأفكار من ربّه أمر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن ثأ فموثّن أفرنج به الزور والسحر
وإن شئت فالقرآن تأويل لأعب فجدد لنا شرعاً يلائمه العصر
رأيتُ بأرض الهند أيّ عجيبة فإسلامها عبد ومسلمها حرّ

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هذي الحضارة ما تدبّن قلبها فأخوة الإفرنج بالعصبات
فلئن تنصّر برهميٍّ لم يزل للإنكليز إليه نظرة عات
ولو أنّهم قد أسلموا لم يرفقوا بالمسلم المنكود من إعنات^(٣)

(١) عُرف أهل البنّجاي بكثرة النحل والدعوات المبتدعة .

(٢) ينمى إقبال في هذه الأبيات على من يدعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .

(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ما نَشُرت في فضاء الثُّور أغصاناً
تقضي الحياة به « لا » في البدء نافية
إن لم تجيء بعدها « إلا » مثبتةٌ
إن أمةً روحها لم يمض معتزماً عن « لا » فقد آذنت بالهُلُك إذا

إلى أمراء العرب^(٢)

هل يُشعدُّ الكافرَ الهنديَّ منطقُه مخاطباً أمراء العُرب في أدبٍ
من أمةٍ قبل كلِّ النَّاس قد أخذت بحكمةٍ فأعانتها على الثُّوب :
إخاءٌ مصطفىويٌّ دون تفرقةٍ وهجرٌ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤها من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العُربِ

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبين فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّة والروس الشيوعيين خاصَّة .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينمى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلهية^(١)

قيدَ القضاء ترى أم قيدَ أحكام
في كلِّ حين ترى التقدير في غير
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها
والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيدُه
ما أعجزت هذه أربابَ أفهام
رهنُها بين لذاتِ وآلام^(٢)
من القضاء قيودُ ذاتِ أحكام
لكن لخالقه في قيد أحكام

الموت^(٣)

في اللحد أيضاً يبقى
إنَّ يـك قلبٌ حيّاً
هذي النجوم تمضي
والذاتُ فيها راحٌ
إنَّ من جسماً موثٌ
فلـو جود قُطبٌ
الغيبابُ والحضور
فالقلبُ لا صبور
كشـرٍ يرّ بطيـر
فـي أبـدٍ سُـرور
واحتجب الظهور
منـالـه عـسير

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها ، وأما المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارئ شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

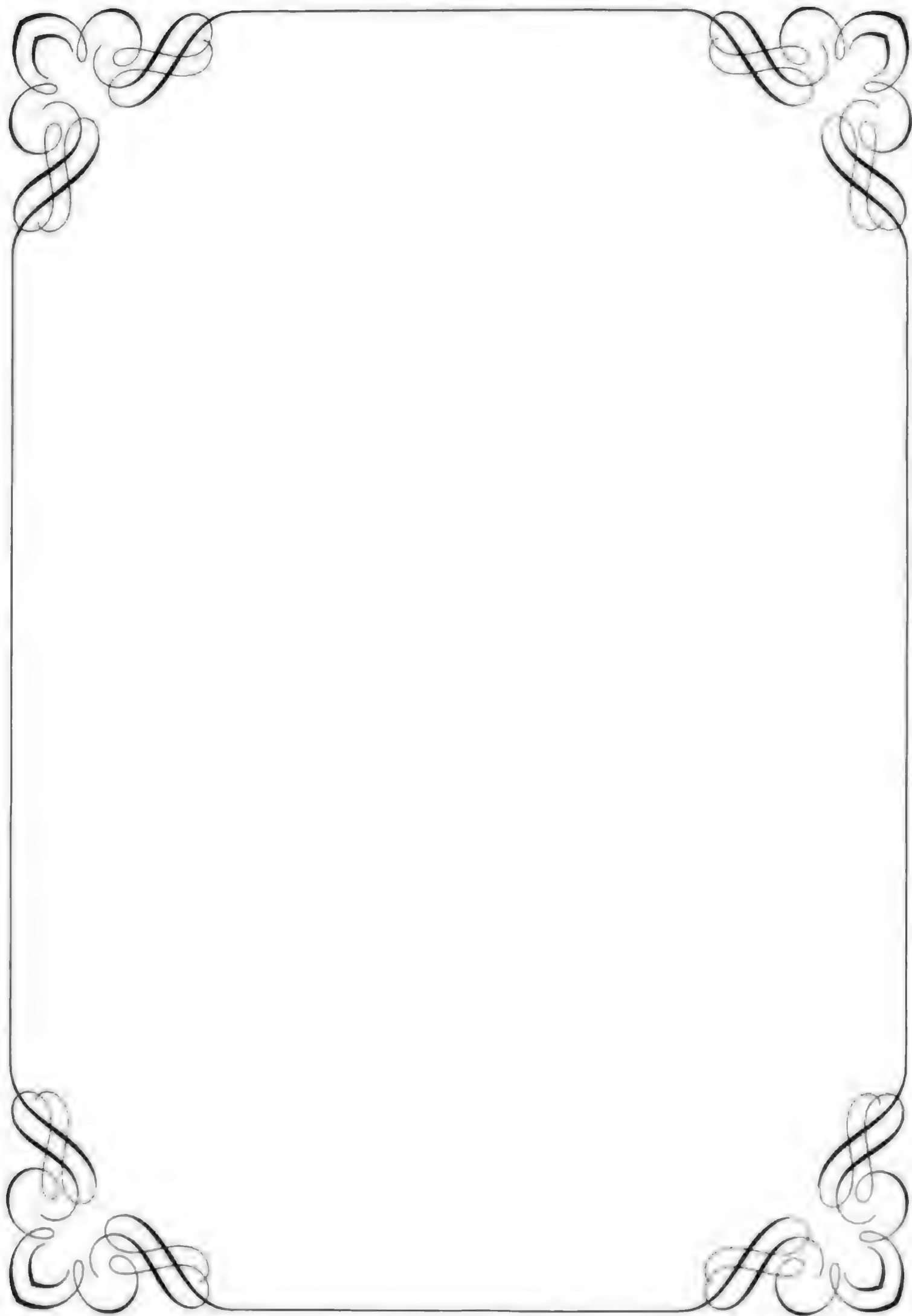
(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحي لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (١)

إِنْ تَحُلْ دُنْيَا فَلَمْ تَقْنِ أَرْضٌ وَسَمَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ
مِنْ « أَنَا الْحَقُّ » انطوى فِىكَ قَلْبٌ وَمَضَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (٢)
لَا تُرْغِ مِمَّا تَرَى ؛ لِفَرْنَجٍ سِيمِيَاءٌ ، قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣)



-
- (١) في هذه الأبيات يبشّر إقبال بالمستقبل الوضاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ » مكررة بلفظها في الأصل .
- (٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فبك روح تنتسب إلى الأرواح العظيمة .
- (٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .



القسم الثاني

التَّحْلِيمُ وَالتَّحْرِيَةُ



المقصود^(١)

اسبينوزا :

يبصر العاقلُ الحياةَ وليست غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ
أفلاطون :

يبصر الموتَ عاقلٌ . فحياةٌ
ما إلى الموت والحياة التفاتٌ
كشرارٍ بجنحٍ ليلٍ يشبُّ
مقصِدُ الذات رؤية الذاتِ حسب^(٢)

إنسان هذا العصر

حُرم العِشْقُ وللعقل به
تبِعَ العقلَ شروداً سادراً
نكَزاتُ كشجاعٍ يشار^(٣)
ما هدى العقلَ لديه بصرُ
لم يسافرَ في دُنَى أفكاره
هو من حكمتِه في شَرِكِ
وعلى الأفلاك دام السَّفَرُ
غابَ عنه نفعُه والضررُ
ما به ليلُ حياةٍ يُسفرُ !
من شُعاعِ الشَّمسِ في قبضته

-
- (١) يبين هنا الشاعر رأي اسبينوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
(٢) هذا رأي إقبال .
(٣) النكزة : عضه الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أُمُّ الشَّرْقِ

كَيْفَ تُجَلِّي حَقَائِقَ لَعِيُونٍ عَمِيثَ بِالْخَضُوعِ وَالتَّقْلِيدِ
كَيْفَ يُحْيِي الْفَرْنَجُ عُزْباً وَفُرْساً بَفَنُونٍ تَسِيرُ نَحْوَ اللُّحُودِ

التَّنْبِهُ (١)

نَظَرَ الْمَنْجَّمُ فِي حِجَاكِ نَجُومِهِ لَكِنْ مَقَامُ الذَّاتِ عَنْهُ يُشْتَرِ
مَنْ يَدْرِ أَنَّ الذَّاتَ أَرْفَعُ مَنْزَلاً عَرَفَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ لَا يُقْهَرُ^(٢)
وَجَمِيلَ أَنْظَارٍ يَرَى وَفِيحَهَا وَحَلَالَ قَلْبٍ وَالْمَحْرَمَ يُبْصِرُ

مُصْلِحُو الشَّرْقِ (٣)

يَنْسَتْ فَلَا أَرْجِي فِي أَنْاسٍ لَهُمْ فَنٌّ كَفَنُ السَّامِرِيِّ^(٤)

(١) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَنْعَى إِقْبَالَ أَيْضاً عَلَى الْإِنْسَانِ اِهْتِمَامَهُ بِعَالَمِ الطَّبِيعَةِ وَإِهْمَالَهُ نَفْسَهُ ، وَيَقُولُ : إِنَّ تَقْوِيَةَ الذَّاتِ وَتَقْدِيرَهَا يَعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَبِصَرِهِ الْجَمِيلِ وَالْقِيَحِ فِي الْبَصِيرَةِ ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، حَلَالَ الْقَلْبِ وَحَرَامِهِ (اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمَفْتُونَ) .

(٢) أَرْفَعُ مَنْزَلاً مِنَ الْفَلَكَ .

(٣) يَأْخُذُ الشَّاعِرُ عَلَى مُصْلِحِي الشَّرْقِ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا لِلنَّاسِ شَيْئاً ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمْسِكُوا بِالسَّنَنِ الصَّالِحَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَا أَخَذُوا بِالسَّنَنِ الْحَدِيثَةِ .

(٤) السَّامِرِيُّ : الَّذِي صَنَعَ لِقَوْمِ مُوسَى عَجَلاً مِنَ الذَّهَبِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ، فَتُهُ سِحْرٍ وَضَلَالٍ .

سُقَاةٌ فِي رُبُوعِ الشَّرْقِ طَافُوا عَلَى النُّدْمَاءِ بِالْقَدَحِ الْخَلِيِّ
سَحَابٌ مَا حَوَى بَرْقاً قَدِيماً وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ بَرْقٍ فَتِيٌّ

الحضارة الغربية

أَرَى تَثْقِيفَ إِفْرَنْجٍ فَسَادَ الْقَلْبِ وَالنَّظَرِ
فَرْوُحُ حَضَارَةٍ لَهُمْ خَلَّتْ مِنْ عَقَّةِ الْوُطَرِ
إِذَا مَا الرُّوحُ جَانِبَهَا جَمَالَ الصَّفْوِ وَالطُّهْرِ
فَأَيْنَ جَمَالٌ وَجَدَانِ وَلَطْفُ الذُّوقِ وَالْفِكْرِ

أسرار ظاهرة (١)

مَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى السِّيفِ قَوْمٌ مِنْ حَدِيدٍ يُصَاغُ فِيهِمْ شَبَابٌ
أَيْنَ مِنْكَ الْأَفْلَاكُ ؟ إِنَّكَ حُرٌّ وَهِيَ قَهْرٌ ذَهَابُهَا وَالْإِيَابُ
مَا اصْطَخَابَ الْأَمْوَاجِ ؟ لَذَّةُ سَعْيٍ وَاللَّالِي يَصْوَغُهَا الْوَهَّابُ
لَيْسَ يَهْوَى الشَّاهِينَ مِنْ طَوْلٍ خَفَقَ يَا أَخَا الْعَزْمِ لَا يَنْلُكَ الثَّرَابُ

(١) قَالَ مُوسَوِلِينِي لِإِقْبَالِ حَيْنِ لَقْبِهِ : مَنْ مَلِكِ الْحَدِيدِ مَلِكُ كُلِّ شَيْءٍ . فَاجَابَ إِقْبَالُ :
مَنْ كَانَ هُوَ حَدِيداً فَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ . وَقَدْ ضَمَّنَ هَذَا الْمَعْنَى الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذِهِ
الْأَبْيَاتِ .

وصية السلطان تيبو (١)

طاوي اليداء شوقاً ! أقبلن
لا ! وإن سار بلبلى محمل
جدول الماء ! تقدّم مُرعاً
لا تحز في مَصْنَمِ الكونِ وسر
يا مُذِيبَ الحَفَلِ ! لا تقبل له
كلُّ قلبٍ ذلٌّ للعقل فقد
وَحَدَ الحقُّ وثنى باطل

لا تمرّج ، منزلاً لا تقبلن^(٢)
فامض شوقاً ، محملاً لا تقبلن
واغدُ نَهراً ، ساحلاً لا تقبلن
في البرايا ، ضللاً لا تقبلن
حُرقة ، كنّ مشعلاً ، لا تقبلن
قال ربي أزلأ : لا تقبلن
فشوب حق باطلا لا تقبلن

قطعة

إلى عَصَبَاتِ العُربِ ما أنتَ منتَمٍ ولستُ بهندي ولا أنا أعجمي

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولاً إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يش من النصر ألقي بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣ هـ .

وهو عند إقبال معن تتجلّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه . وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :
يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلي ، وإلى المضي والتقدّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يفضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد نارا ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلاً وساحلاً . . . إلخ .

فقد علمتني (الذات) تحليق نافر
 بعينك أني كافر غير مسلم
 فدينك تعداد لأنفاس مُحجَم
 تبدلت فالتبديل في الشرع حكمة
 فلست أرى في يديك اليوم جنة
 إذا حاد عن نار الحياة منغم
 يمرُّ على الدارين غير محووم
 وأنت بعيني كافر غير مسلم
 وديني إحراق لأنفاس مُقَدِّم^(١)
 فليس يطبق الظبي شرعة ضيغم^(٢)
 تشبُّ بهذا العقل نار التَّقَدُّم^(٣)
 فموتُ شعوبٍ لحنُ هذا المنغم^(٤)

اليقظة

خِدتُ حقَّ تنبَّهت فيه (ذات)
 نظراتٌ لديه تُشرقُ فيها
 إيو عبدَ الآفاق ! كيف تداني
 أنت في البرِّ قاعدٌ عن طلاب
 كالحسام المصمَّم البراق
 ما انطوى في الذرات من إشراق
 رجلَ الله صاحبَ الآفاق
 وهو في البحر محرم الأعماق

تربية الذات

رَبِّ « الذات » بالرعاية تُبصرُ (كَفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا^(٥)

-
- (١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .
 (٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .
 (٣) يرمز إلى هيام مجنون ليلي في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .
 (٤) إذا لم تكن الألحان ناطقة بحرقة الحياة وكذها فهي مميتة للهمم .
 (٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إِنَّ سِرَّ الْكَلِيمِ فِي الدَّهْرِ بَيْدٌ وَشُعَيْبٌ وَالرَّعْيُ لَيْلَ نَهَاراً^(١)

حرية الفكر

بحرية الأفكار هلك جماعة إذا لم يكن فيها تدبُّرٌ عالم
فحرية الأفكار في رأس جاهل طريق لِرَدِّ الناس مثل البهائم

حياة الذات

إِنَّ الذَّاتُ حَيْثُ فَالْفَقِيرُ مَمْلُكٌ ترى طُغْرَلاً أَوْ سَنْجَرًا لَا يَشَاكِلُ^(٢)
إِنَّ الذَّاتُ حَيْثُ فَالْبَحَارُ ضَحَاضُحٌ إِنَّ الذَّاتُ حَيْثُ فَالْحَزُونُ مُخَامِلُ
تَرى فِي الْحَيَاةِ الْوَحْشَ قَاهِرَ لَجَّةٍ وَفِي مَوْتِهِ مَوْجُ السَّرَابِ سَلَاسِلُ

حكومة^(٣)

يَرْضَى الْمَرِيدُونَ قَوْلَ حَقٍّ لَيْسُوا عَنِ الْحَقِّ بِالْعُتَاةِ
وَالشَّيْخُ قَوْلَ الْفَقِيرِ يَقْلِي وَلَيْسَ لِلْحَقِّ بِالْمُؤَاتِي
قَدْ قَعَدَتْ أُمَّةٌ وَبَاءَتْ فِي حَلْبَةِ السَّعْيِ بِالْخَزَاةِ
إِنْ شَغَلَتْ عَقْلَهَا بِيَحْثٍ فَلِسْفَةُ الذَّاتِ وَالصُّفَاتِ

(١) يعني فسحة البیداء و تربیة روح عظیمة كشعيب ، والجد الدائب .

(٢) طغول و سنجر من ملوك السلاجقة .

(٣) بمعنى حکم .

دستورُ ذا الدِّيرِ ليس فيه
لكنمَّا راحُةٌ نصيبُ
الشَّهْدُ عندَ الشَّبابِ فيها
المُرُّ من مَوردِ الحِياةِ
للخمرِ والشَّربِ من ثَبَاتٍ^(١)
لأمة حُرَّةِ السَّماتِ

المدرسة الهندية

إقبالُ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ
الخيرُ ألا تُرى في عين قُبرةٍ
فلحظة الحرِّ عام للذليلِ فكم
ولحظة الحرِّ من خُلدِ رسالته
وفكرة الحرِّ من حقِّ منورةٍ
كرامةٌ حيَّةٌ ماثلةٌ
حسب المُقَيَّدِ تعلِيماً وتربيَةً
فما لمدرسة هذي المقالاتُ
من البُرْاة مقاماتُ وحالاتُ
تبطيء السَّيرَ بالعُبدانِ أوقاتُ
ولحظة العبد من مَوْتِ فُجاءاتُ
وفكرة العبدِ تغشاها الخرافاتُ
والعبدُ من غيرِه تأتي الكراماتُ
تصويرُهُ ولحونُ والنباتاتُ^(٢)

التربية

فرقُ علمٍ وحياةٍ
هو في الرأسِ ذكاءٌ
قدرةٌ في العلمِ تبدو
ليس فيه من خفاءٍ
وهي في القلبِ ذكاءٌ^(٣)
ومتاعٌ وثرَاءُ

(١) يكني عن الدُّنيا بالدِّيرِ القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .

(٢) يعني : حسب الدليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .

(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعْضَلٌ أَنْ لَيْسَ فِيهِ فِي خُطَا السَّيْرِ اهْتِدَاءٌ
وَأُولُو الْأَبْصَارِ نَزَرٌ وَأُولُو الْعِلْمِ زُهَاءٌ
لَيْسَ بِدَعَا أَنْ كَأْسًا لَكَ مِنْ رَاحِ خَلَاءٍ
مَا طَرِيقُ الشَّيْخِ فِي الْمَكْتَبِ لِلْقَلْبِ ضِيَاءٌ^(١)
كَيْفَ بِالْكَبْرِيتِ إِشْعَا لُ سِرَاجِ الْكَهْرِبَاءِ؟

الحسن والقبح^(٢)

إِنَّ لِلْفَكْرِ طُلُوعاً وَغُرُوباً كَنُجُومِ سَابِحَاتٍ فِي الْعَوَالِي
عَالَمُ الذَّاتِ بِهِ عُلوٌّ وَسُفْلٌ وَاعْتِرَاكُ الْقَبِيحِ فِيهِ وَالْجَمَالِ
فِي اعْتِلَاءِ الذَّاتِ مَا يَبْدُو جَمِيلٌ وَقَبِيحٌ مَا بَدَأَ فِي الْأُسْتِفَالِ

موت الذات

مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْغَرْبِ ظِلَامٌ وَبِمَوْتِ الذَّاتِ فِي الشَّرْقِ جَذَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْعُرْبِ خَمُودٌ وَلَدَى الْعُجَمِ عُرُوقٌ وَعِظَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ فِي الْهِنْدِ جَنَاحٌ هَيْضٌ فِي الْأَقْفَاصِ وَالْعَشُّ حَرَامٌ
مِنْ مَمَاتِ الذَّاتِ يُعْرِي مُسْلِمًا مِنْ ثِيَابِ سَادُنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ^(٣)

(١) المكتب - المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول : ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفاسف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرُ أولي المدارسِ في ازدحامٍ بأفكارٍ كما امتلأ القفِيرُ
وهذا العصرُ ماضٍ في هواءِ جميلاً من قبيحٍ لا يَمِيرُ
ففي جَنَبَاتِ قلبك أخلِ بيتاً عسى يشوي به ضيفُ عزيز^(١)

العصرُ الحاضر

فأينَ يُصيب المرءَ ناضجَ فكرةٍ وأجواءُ هذا العصر لا تُنضِجُ الثمرَ
مدارسُ فيها كلُّ عقلٍ محرَّرٌ ولكنْ بها الأفكارُ عِقْدٌ قد انتثرَ
أطاحت بعشق الغربِ أفكارُ ملحدٍ وعبدَ عقلَ الشرقِ فوضى من الفكرِ

طالب العلم^(٢)

الله يحبُّوكَ علماً بمـائـجاتِ العُبابِ
فإنَّ بحـرَّكَ رَهـوً ما يُبتَلَى باضطرابِ
لن تستطيع فراغاً في السُّفرِ من أبوابِ

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتراحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فَأَنْتَ قَارِي كِتَابٍ وَلَسْتُ أَهْلَ كِتَابٍ

امتحان (١)

قال نهر الطُّود يوماً للحجر : بسقوط وانتكاس تفتخر !
أنت للاقْدَام والغَمِّ لَقِي وأنا يشتاقني بحرٌ وبرٌ
لم تُدْهِدْهُ مِنْ جِدَارٍ مَرَّةً كيف تُدرى أزجاجٌ أم حجر ؟

المدرسة (٢)

مَلَكُ المَوْتِ عَصْرُنَا يَتَوَقَّى كُلُّ نَفْسٍ بِفِكْرَةٍ فِي المَعِاشِ
يَرْجُفُ القَلْبُ مِنْ كِفَاحِ حَيَاةٍ وَهِيَ مَوْتُ لِمُشْفِقٍ مِنْ هِرَاشِ
أَبْعَدَ الدَّرْسُ عَنْ حِجَاكِ جُنُوناً صَاحَ بِالعَقْلِ : لَا تَلْذِ بِنِقَاشِ^(١)
عَيْنُ صَقَرٍ مُنِحَتْهَا وَعَلَيْهَا وَضَعَ الرِّقُّ نَظْرَةَ الخَفَّاشِ
حَجَبَتْ دُونَكَ المَدَارِسُ سِرّاً هُوَ فِي البَيْدِ وَالرَّوَاسِخِ فَاشٍ

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء - يمثل بالنهر المتحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعاش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليفة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها !

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

أي قدر لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد
ليس إلا لذي البصيرة يبدو سرُّ معنى بـ (لا إله) بعيد
أرسل الفكر أسهماً في سماء وحوى الشمس بالخيال المديد
طاهر الطين في الترهب لكن لذة الإثم نصب طَرْفٍ حديد

الأساتذة

إن كان تربيةً الياقوتِ مقصِدنا فما شعاع رمته الشمس حيران^(٢)
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللروايات عمَّ الأرض إذعان
كانت جديراً بقود العصر أدمغة يقودها العصر ما فيهن نكران

قطعة

يبلغ المنزل سارٍ لا ينام مُسرج عين هزبرٍ في الظلام
إنما للعبد تُمْنَى راحة ليس للحر على الأرض حمام

(١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً ، وأنه كان ضرورة عفاً ، ولكن كان يتشوّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها » .

(٢) يقول الطبيعويون القدماء : إنَّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قد أزاغَ العَيْنَ في الغرب سناً لك من صاحبٍ ﴿ ما زاغ ﴾ إمام^(١)
 ذاكُمُ الحفلُ الذي أكُوسه كنجومٍ ، لمحَّةٌ فيه المُقامُ
 أعمَّتِ الأسفارُ جِئاً فالصِّبا لم تعطر لك من روضٍ مشام^(٢)

الدين والتعليم

قد عرفنا قدرَ أشياخِ الحَرَمِ كلُّ دعوى دون إخلاصٍ سَقَمِ
 ولتعليمِ النَّصارى نغمٌ ليس من دينٍ وخلقٍ ذا النِّغمِ
 تكتبُ الدُّلَّ على أقدارها أمةٌ بالذات فيها لا تُهَمِ
 ربمَّا تَغْفِرُ للفرد ولا تغفِرُ الفطرةُ آثامَ الأممِ

إلى جَاوِيد^(٣)

- ١ -

حَرَبٌ على الأديانِ ذا الزمانُ مرَّكِبٌ في طبعه الكفرانُ

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ العكوف على الكتب أمات الحس . فالصِّبا تمرُّ على الروض ، ونأتي الأيكة فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاوريد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاوريد نامه » الديوان المخلد .
 والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامي الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاوريد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُدَّةُ أَهْلِ اللَّهِ - فَاطْلُبْنَهَا -
لَكِنَّهُ « الْحَقُّ » عَصْرُ سَحَرٍ
عَيْنُ الْحَيَاةِ مَاؤُهَا نَضُوبٌ
مَنْ كَانَ فِي نَظَرَتِهِمْ سِهَامٌ
لَكِنَّمَا الدَّارُ الَّتِي سَرَّاجٌ
إِنْ تَكُ (لَا إِلَهَ) فِي ضَمِيرِ
عُشْكَ فَوْقَ (الذَّاتِ) أَحْكَمَنَّهُ
الْأَدْمِيُّ يَا بَنِي بَحْرٍ
مِنْ حَبَّةٍ تَرَى أَلُوفَ حَبٍّ
لَا تَغْفَلُنْ فَلَاتَ حِينَ لَغَبٍ

- ٢ -

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدْرِ حَرٌّ قَلْبٍ
لَمْ تَنْضَجِ الْحَيَاةُ فِي هُمَامٍ
إِنْ يَنْشَطِ الْغَزَالُ فِي ذِكَاءٍ
لَمْ يَظْفِرِ الصَّيَادُ بِالْمَرَامِ (١)
مَاءُ الْحَيَاةِ هَاهُنَا قَرِيبٌ
طَرِيقُهُ حَرَارَةُ الْإِقْدَامِ (٢)
فِي غَيْرَةٍ أَرَى طَرِيقَ حَقٍّ
الْفَقْرُ بِالْغَيْرَةِ فِي تَمَامِ (٣)

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطئ . فإن كان يقظاً وثاباً لا يظفر به الصياد .
فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحمل القلب الذكوى وصارماً وأنفأ حمياً تجتنبك المظالم
(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجد والكد ، وشدة العطش . كما قال في
رسالة المشرق :

غصنُ الحياةِ ندي من ظمئنا في الطُّلاب

يَا قَرَّةَ الْأَعْيُنِ مُسْتَحِيلٌ
لَيْسَ الْمَقَالُ فِي الْأَنَامِ نَزْرًا
وَإِنَّمَا بَيْنَ الْوَرَى مُتَاعِي
وَصَدَقَ أَقْوَالُ بِهَا تِرَانِي
مَوْهَبَةُ الْخَلَاقِ لَا تُرَاثُ
لِنُورِ عَيْنِيهِ يَقُولُ نَصَحًا
أَبَوْتِي لَيْسَتْ بِذَاتِ بَالٍ

لِبَاشِقِ ضَرَاعَةِ الْحَمَامِ^(١)
كَمْ أَنْوَرِي عَنْدهُمْ وَجَامِي^(٢)
نُوحُ خَالٍ فِي دُجَى الظُّلَامِ
فِي نَظَرِ الدُّنْيَا مِنَ الْكِرَامِ
نِبَاهَةُ الذِّكْرِ عَلَى الْإِيَامِ
مَا أَجْمَلَ الْمَقَالُ مِنْ نَظَامِي^(٣)
فِي حَلْبَةِ السَّبْقِ إِلَى الْمَعَالِي

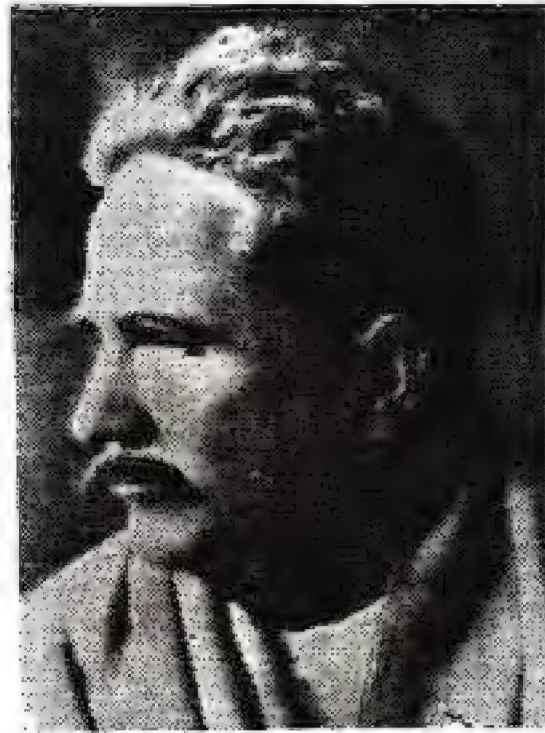
- ٣ -

عَبءٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ ذِي اللَّيَالِي
وَلَا أَرَى نَشْوَانَ فِي كِفَاحٍ
فَإِنْ تَكُنْ ذَا هَمَّةٍ فَأَقْدَمِ
الْأَدْمِي مِنْهُ فِي صِفَاتِ
هَذَا الْمَقَامِ لِلْبُغَاثِ حَتَفِ
تُضْيِءُ عَيْنَ الْعَقْلِ مِنْ سَنَاءِ
سَطْوَةِ (مَحْمُودٍ) تُصِيبُ فِيهِ
فَذَاكَ فِي دُنْيَاكَ إِسْرَافِيلُ

الذِّينُ وَالِدَوْلَةُ فَعْلٌ هَازِي
فَلَيْسَ إِلَّا كَلِمٌ نَوَازِي
وَابْتَغِ فَقْرًا أَصْلَهُ حِجَازِي^(٤)
كَاللَّهِ مُسْتَغْنٍ بِلا إِعْوَازِ
فَإِنَّمَا هَذَا مَقَامُ الْبَازِي
مَا بَابِن سِينَا كُحِلَتْ وَالرَّازِي
إِنْ لَمْ يَكُنْ طَبْعُكَ مِنْ إِيَّازِ^(٥)
مِنْ نَفَّخَاتِ النَّايِ فِي اشمِزَازِ^(٦)

- (١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .
- (٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكلم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .
- (٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .
- (٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .
- (٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلामه إيَّاز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإيَّاز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .
- (٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظرته المثيرة الليالي
وصاحب الفقر الغيور هذا
إمارة المؤمن فيه سرُّ
ساريةً بالكون في ارتجاز
بلا سلاح في الزمان غارِ
عطية الوهاب هذا الفقر



القسم الثالث

المرأة



الرَّجُلُ الْإِفْرَنْجِي

كم حكيمٍ قد تمنَّى حلّه مشكُلُ المرأة في هذي الحياة
لا تُلْمُها في فسادِ شائع شهدت بالطُّهر كلُّ النِّراتِ
عِشرة الإفرنج نهجٌ مُفسدٌ جهل الحمقى طباعَ المحصّناتِ

سؤال

إلى عالم الغرب من أسلست له الرومُ والهندُ يُزجي سؤالُ :
كمال معاشرَةٍ عندكم حيالُ النِّساءِ وعُطلُ الرِّجالِ ؟^(١)

حِجاب

أرى فلکاً كلَّ حينٍ للونِ ولم تنضُ دنياك هذا الإهابِ
ولا فرق ما بين عرسٍ وعرسٍ فذي في نقابٍ وذا في نقابٍ^(٢)
ولم يزلِ النَّاسُ رهنَ حجابِ ومن برزتْ ذاته من حجابِ ؟

(١) الحيال : الخلو من الحمل .

(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أنَّ الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَضَحَ الْعَصْرَ جَنَّةً بِالشُّفُورِ نُورُ عَيْنٍ وَظُلْمَةٌ فِي الصُّدُورِ
إِنْ تَجُزَّ مَتَعَةُ الْعَيُونِ مَدَاهَا كَانَ فِيهَا الشَّتَاتُ فِي التَّفَكِيرِ
قَطْرَةُ الْمَاءِ لَا تُحَوِّلُ دُرّاً دُونَ أَصْدَافِهَا بِقَاعِ الْبُحُورِ
تُمْسِكُ الذَّاتُ نَفْسَهَا حِينَ تَخْلُو لَا خِلَاءَ بِمَسْجِدٍ أَوْ دِيْوَرِ

المرأة

إِثْمًا الْمَرْأَةُ لَوْنٌ فِي رَسُولِ الْكَائِنَاتِ
لَحْنُهَا يَنْفُثُ نَارَ الْوَجْدِ فِي صَدْرِ الْحَيَاةِ
ذَلِكَ الطِّيبُ تَعَالَى فَوْقَ أَوْجِ النَّيِّرَاتِ
إِنَّهَا دَرَجٌ لِيَدِيهَا كُلُّ دُرٍّ مِنْ صَفَاتِ
مَا لَا فَلَاطُونَ تَرْوِي مِنْ قَضَايَا مَعْضَلَاتِ
وَهَوَّ مِنْهَا كَشْرَارٍ مِنْ ذِكْيِ الْجَمَرَاتِ^(١)

حرية النساء

قَضِيَّةُ عَصْرِ لَسْتُ فِيهَا بِفَيْصَلٍ وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ الشَّهْدِ وَالشُّمِّ أَفْرِقُ
وَمَا نَفْعُ أَقْوَالٍ تَزِيدُ مَلَامَتِي وَقَبْلًا بَنُو التَّمْدِينِ عَنِّي تَفْرَقُوا
يَبِينُ هَذَا السُّرُّ وَجَدَانُ مَرَاةٍ وَيَعْجِزُ عَنْهُ فِي الرِّجَالِ الْمُحَقِّقُ

(١) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أَحْرِيَّةُ النِّسْوَانِ أَجْمَلُ زِينَةٍ أَمَ الْجَيِّدُ بِالذَّرِّ الثَّمِينِ يَطْوُقُ^(١)

حِصَانَةُ الْمَرْأَةِ

فِي الصَّدْرِ حَقٌّ لَيْسَ يُدْرِكُهُ مِنْ حَازَ بَرْدَ دِمَائِهِ عَصَبُ
حِفْظُ الْأَنْوَةِ فِي يَدَيِ رَجُلٍ لَا الْعِلْمُ يَحْفَظُهَا وَلَا الْحُجُبُ
إِنْ غَابَ هَذَا الْحَقُّ عَنْ أُمِّ فَكُشُوفُ شَمْسٍ فِيهِمْ كُتُبُ

الْمَرْأَةُ وَالتَّعْلِيمُ

مَوْتُ الْأُمَمَةِ إِنْ رَامَتْ حَضَارَتُهُمْ فَالْمَوْتُ عَاقِبَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْغَرْبِ
إِنْ يَجْعَلِ الْمَرْأَةُ التَّعْلِيمَ لَا أَمْرًا فَالْعِلْمُ مَوْتُ يَرَاهُ صَاحِبُ الْقَلْبِ
إِنْ تَحْرِمَنَّ الْفَتَاةَ الدِّينَ مَدْرَسَةً فَالْعِلْمُ وَالْفَنُّ مَوْتُ الْعِشْقِ وَالْحُبِّ^(٢)

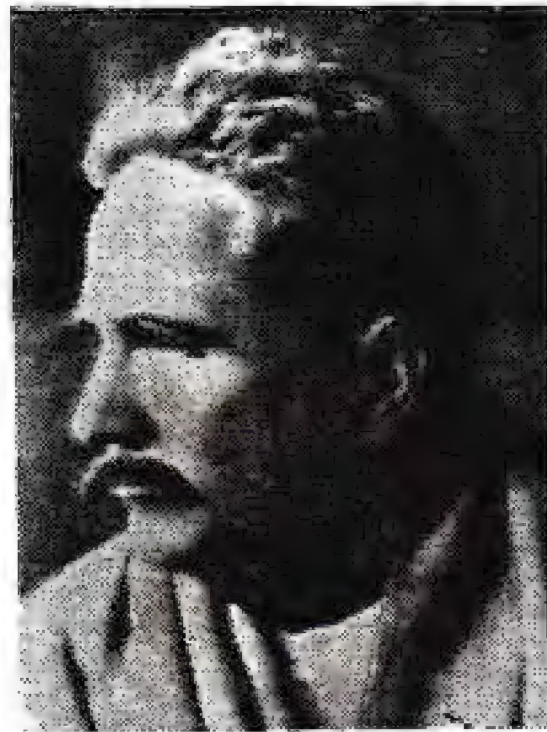
الْمَرْأَةُ

بَغِيرِهِ يَتَجَلَّى جَوْهَرُ أَمْرَةٍ وَوَحْدَهُ يَتَجَلَّى جَوْهَرُ الرَّجُلِ
حَرَارَةُ الشُّوقِ سَرٌّ فِي بِلَابِهَا كَيْانُهَا لَذَّةُ التَّخْلِيْقِ كَالشُّعْلِ

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحب إليها ، أو غل
عنقها بمقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .

(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت
عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

من هذه النار أسرارُ الحياة بَدَتْ والخلقُ والموتُ منها في وغى زَجَلِ
كذلكم في فؤادي للنساء أسيءُ لكنَّها عقدةٌ أعيثُ على الحيل^(١)



(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحد في هذا .

القسم الرابع
الأدب والفنون



الدِّينُ وَالْفَنُّ

الدِّينُ وَالْفَنُّ والتدبير والخُطْبُ
كُلُّ يُحِيط بِمَكْنُونٍ يَضُرُّ بِهِ ؛
وَمَنْ ضَمِيرٍ سَلِيلِ الطَّيْنِ مَطْلَعُهَا
إِنْ تَحْفَظِ « الذَّاتَ » هَذِي فَالْحَيَاةُ بِهَا
كَمْ أُمَّةٌ تَحْتَ هَذِي الشَّمْسِ قَدْ خَزِيَتْ
وَالشَّعْرُ وَالتَّثَرُّ وَالتَّحْرِيرُ وَالْكَتَبُ
فِي صَدْرِهِ يَتَوَارَى جَوْهَرٌ عَجَبُ
لَكِنْ لَهَا مِنْ وَرَاءِ الرُّهْرِ مَضْطَرَبُ^(١)
أَوْ لَمْ تَطُقْ ذَاكَ فَهِيَ السَّحَرُ وَالْكَذِبُ^(٢)
إِذْ جَانِبِ الذَّاتِ فِيهَا الدِّينُ وَالْأَدَبُ

التَّخْلِيقُ

جِدَّةُ الدُّنْيَا بِتَجْدِيدِ الْفِكْرِ
هَمَّةُ الْغَائِصِ فِي « الذَّاتِ » لَهَا
قَامِرُ الْأَيَّامِ مِنْ أَنْفَاسِهِ
رِيحُ أَصْحَابِ مِنَ الْيَدِ أَنْتِ
لَيْسَتْ الدُّنْيَا بِصَخْرٍ وَمَدَرُ
مِنْ غَدِيرِ الْمَاءِ بَحْرٌ قَدْ رَخِرَ
هِيَ أَعْمَارُ خُلُودٍ فِي الدَّهْرِ
لَا عَجِيبُ إِنْ بَدَأَ خِذْنُ سَفَرِ^(٣)

(١) سَلِيلِ الطَّيْنِ : الْإِنْسَانُ .

(٢) الدِّينَ وَسَائِرَ مَا ذَكَرَهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ مَقْصِدُهَا حِفْظُ الذَّاتِ . . . إلخ .

(٣) يَمُجِبُ إِقْبَالَ الْبَادِيَةِ : لِأَنَّ الذَّاتَ فِيهَا أَقْوَى ، وَلِذِكْرِ الرُّسُولِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَخْرَجُوا لِلْعَالَمِ الْحَيَاةَ وَالْقُوَّةَ . وَهُوَ يَجِدُ مِنَ الْبَادِيَةِ رِيحاً تَبْشُرُ بِصَاحِبِ مَسْعَدٍ لَهُ ، يَدْعُو دَعْوَتَهُ ، وَيَحَقِّقُ أَمَلَهُ .

جُنُون

واهِنُ البيتُ شاعرٌ وفقِيهٌ وطوى البيدَ - ويحه - المجنونُ
في طمّاحِ الجنونِ أيُّ كمالٍ حينَ تعدو البيداءَ منه فنونُ^(١)
قله في الدروسِ أيضاً مجالٌ ليس وقفاً على الفيافي الجنون

إلى شعره

لي من فعلك شكوى : همت في حُبِّ الطلوعِ
شفت عن قلبي فالأسـ رار عن قلبي تشيعِ
لا تكن مثلَ شرارِ ندد عن نارٍ يضيغِ
والتمس خلوةً صدرِ فيه من نارٍ ضلوعِ

مسجدُ « بارس »

يا نظري لا يخدعُك فُتـ للزور هذا الحرمُ المغرِبُ
وليس هذا حرماً لكنّه عند الفرنج للغرامِ ملعبُ
قد أخفت الإفرنج رُوحَ موثني في صورةٍ من حرمِ تكذّبُ^(٢)
إنّ الذي شيد هذا موثناً دمشق من عُدوانه تخربُ

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضرة فنوته ، وفيه إشارة إلى مجنون ليلى .

(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب^(١)

رَأَيْتُ الْعَشْقَ يَقْفُو الْيَوْمَ نَهْجاً مِنْ الْعَقْلِ الْإِلَهِيِّ الْقَوِيمِ
وَلَيْسَ يُرِيقُ مَاءَ الْوَجْهِ ذُلًّا عَلَى عَتَبَاتِ مَحْبُوبٍ غَرِيمِ
مَحَا التَّقْلِيدَ فِي رُوحٍ قَدِيمِ وَأَحْيَا الرُّوحَ فِي جَسَدٍ قَدِيمِ

البصيرة

الرَّيْبُ النُّضِيرُ مِلْءُ الْفُضَاءِ وَجِيوشُ الشَّقِيقِ فِي الصَّحْرَاءِ
وَشِبَابٌ وَمَتَعَةٌ وَسُرُورٌ وَدَلَالٌ وَنَشْوَةٌ بِالْفَتَاءِ^(٢)
وَعَيُونُ النُّجُومِ فِي حَلَكِ اللَّيْلِ وَسَبْحُ الْأَفْلَاكِ فِي الدَّمَاءِ^(٣)
وَعُرُوسُ الْهَلَالِ فِي هَوْدَجِ اللَّيْلِ تَهَادَى بِمُوكِبٍ لِلْقَاءِ
وَتَبَدَّى ذُكَاءٌ فِي رَوْنِقِ الصُّبْحِ وَصُمْتُ الْأَفْلَاكِ فِي ذَا الرُّوَاءِ
سَرَّحَ الْعَيْنَ ، لَا تَكْلُفُ أَجْرًا لَا يَبَاعُ الْجَمَالُ فِي ذَا الْفُضَاءِ

مسجدُ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ^(٤)

تَمَلَّأَ صَدْرِي هَمُومٌ مَفْؤُودٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا اذْكَارُ مَفْؤُودٍ^(٥)

(١) بهذا يُجَمِّلُ الشَّاعِرُ طَرِيقَةَ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، فَهُوَ مَزَاجٌ مِنَ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ ، وَهُوَ يَجْدُدُ الرُّوحَ فِي صُورٍ قَدِيمَةٍ ، أَوْ يَحْرُرُ مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَرْوَاحَ الْعَتِيقَةَ . (كُتِبَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ فِي بَهْرَفَال . - رِيَاضُ الْمَنْزَلِ - دَارُ الْبَيْدِ رَاسُ مَسْعُودِ) .

(٢) الْفَتَاءُ : الشَّبَابُ .

(٣) الدَّمَاءُ : الْبَحْرُ .

(٤) مَسْجِدٌ عَظِيمٌ شَامَخَ فِي دَهْلِي ، هُدمَت بَعْضُ جُدْرِهِ .

(٥) الْمَفْؤُودُ : حَزِينُ الْفُؤَادِ .

قَدْ خَمَلَتْ « لَا إِلَهَ » لَا حُرْقُ
فِي الْخَلْقِ كُلِّ الْعِيُونِ تَنْكَرُنِي
مِنْ صَخْرِكَ الْمُسْلِمُونَ فِي خَجَلٍ
فِيئْتَمِبَا كُفَاءَ مَا تَمَثَّلُهُ
جَلَالُ تَكْبِيرِهِ لِذِي أُذُنٍ
وَمَا صَلَاتِي بِقَلْبِ ذِي حُرْقٍ
وَلَا أَذَانِي جَلَالُ مَقْتَدِرٍ

مَسْرُوح

تَضِيءُ حَرِيمَ وَجُودِكَ ذَاتُكَ
لَهَا فَوْقَ أَوْجِ الثَّرِيَا مَقَامُ
أَمِنْ « ذَاتِ » غَيْرِكَ تَعْمُرُ قَلْبًا
فَلَا تَبْعَثُنْ وَثْنَهَا بَعْدَ مَوْتٍ
كَمَالِ الْمُحَاكَاةِ أَنْتَ تَفْنِي
كِفَاحُ بِهَا وَسُرُورُ حَيَاتِكَ
جُلِيَتْ بِهَا وَتَجَلَّتْ صِفَاتُكَ
مَعَاذَ الْإِلَهِ ! تُرَى أَيْنَ ذَاتُكَ ؟
فَتَحِيَا مَنَاتُكَ فِيهَا وَلَا تُنْكَ (٣)
فِيكَفِيكَ هَمُّ الْحَيَاةِ مَمَاتُكَ (٤)

(١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .

(٢) لجوهرهم الضعيف كالزجاج .

(٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .

(٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً
فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل^(١)

- ١ -

<p>تَنَادِي أَشْعَثَهَا فِي ضَجَر عَجِبْتُ لَدُنِيَا نَهَارٌ وَلَيْلٌ إِلَامَ الْهَيَامُ بِهِذَا الْفَضَاءِ فَلَا دِعَاةٌ فِي اتِّقَادِ بَرْمَلِ وَلَا دِعَاةٌ فِي دَوَامِ طَوَافِ تَجَمُّعِنَ فِي صَدْرِي الْمُسْتَنِيرِ</p>	<p>ذُكَاءٌ وَتَجْمَعُ مِنْهَا النُّشْرُ^(٢) عَجِبْتُ عَجِبْتُ لَدُنِيَا الْغَيْرِ وَجُورُ الزَّمَانِ بِكُنْ اسْتَمَرَّ تَلَاؤُ ذَرَاتُهُ كَالشُّرَرِ طَوَافَ الصَّبَا فِي رِيَاضِ الرَّهْرِ وَدَعْنُ الْبِدَاةِ وَدَعْنُ الْحَضَرِ</p>
---	--

- ٢ -

<p>تَدَاعَى الْأَشْعَةُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَصَاحَتْ : تَعَذَّرُ فِي الْغَرْبِ نُورٌ وَفِي الشَّرْقِ قَلْبٌ بِصِيرٍ وَلَكِنْ أَنْوَارَ الْعَوَالِمِ لَا تَهْجُرِينَا</p>	<p>إِلَى الشَّمْسِ تَبْغِي لَدِيهَا قَرَارَا دُخَانُ الْمَصَانِعِ يَكْسُوهُ قَارَا كَمَا لَمْ غَيِّبَ بِصَمْتِ تَوَارِي إِلَى نُورِ صَدْرِكَ آوَى الْحَيَارَى^(٣)</p>
---	---

- ٣ -

<p>شُعَاعٌ جَرِيءٌ لَهُ نَظْرَةٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالَةٍ يَقُولُ : أَضِيءُ عَلَى الشَّرْقِ حَتَّى</p>	<p>كَنْظَرَةٍ حَوْرَاءَ تَغْزُو الضَّمِيرُ تَرَى زَيْبِقاً فِي ضِيَاءِ يَمُورُ أَرَى ذَرَّةً كَشْمُوسٍ تَنْبُرُ</p>
---	---

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس يثبت من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بآسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تياسي ، فكل ليل إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشْر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام
ففيها من الشرق آماله
تضيء بها أعين النيرين
وكم عاش في أرضها غائص
فأعوز أعواده عازف
ينام البرهمن في سدة
ومسلمها خذن محرابه
فلا يحزننك من الشرق نوم
قضت فطرة الله أن تبدلي

أمل (٢)

لست من أجناد حرب
بيد أني في صروف الدهر
عُدَّتْني ذكر وفكر
لست أدري أهو شعر
إن عبد الحق يُزهِى
من جلال ظل فكر
ليس دون الكفر إن لم
أن يرى بالحاضر المش

لا ولا رب لواء
رَبَّتْ في اللقاء
وهي أم وغناء
أم سواه ذا العطاء (٣)
في محيَّاه ضياء
الكون منه في امتلاء
يك كُفراً ذا البلاء
هوود للحر سبأ (٤)

(١) الخطاب للشمس .

(٢) كتب في بهوبال - رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٣) هو يدري أنه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر .

(٤) ليس أقل من الكفر أن يأمر الحر ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحر =

لا تذب غمًا فكم في الدهر ——— أدوارٌ وضوء
كم نجوم حادثاتٍ ——— سوف تجلوها السماء

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرها — شوقُ الظهور يثورُ في ذراتها
إنَّ صاحبَ النظراتِ شوقُ بصيرةٍ — تبدلُ الأيامُ في جلَّواتها^(١)
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا — أنباء من خضعوا لها ساداتها
مِنْ ذي البصيرة لي جنونٌ نائرٍ — عرفتُ به الذراتُ طيَّ فلاتها^(٢)
هذي البصيرةُ لا تيسرُ لامرئٍ — تخزي القلوبُ بنفسه وسماتها

إلى أهل الفن^(٣)

رأيت الكواكبَ لمحاتِ نورٍ — وذاتُك بالعشق رهنُ خلودٍ

= لا يقيد ما يسمى « الأمر الواقع » .

- (١) يعني أنَّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فتري الدنيا على غير صورتها الظاهرة .
(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنَّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرون الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .
(٣) مذهب الشاعر أنَّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات » صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة . وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاء غير خاضعة لهذا العالم . والروح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كل لونٍ ففقت من اللون كل القيود
وغيبه ذاتك ذكر وفكر ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت الروح آلام رق ففتك عبد رهين سجون
وإن عرفت قدرها كنت حقاً على الجن والإنس رب الجنود

قطعة

تأير الموج كم لدى البحر دُر وعلى الساحل الصموت غناء^(١)
في شراري سنا البروق ولكن رطبة العود هذه القصباء^(٢)
ولك الوقت والتصرف فيه ليس يا غر ! للنجوم غناء
قد رأينا عجيبة من جنون فيه رفو لما يشق القضاء^(٣)
إنما الكامل الخلاعة شهم دون من الكروم فيه إنشاء^(٤)
وإلى اليوم حانة الشرق فيها خمرة للشعور منها جلاء^(٥)
ينس المبصرون من أمم الغد رب فيها بواطن سوداء

- (١) الدُر في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغناء ، فالحياة جدّ وكدّ ، لا سكون .
- (٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرطب لا تشتعل .
- (٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً للطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاءً وقدراً في هذا الكون .
- (٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .
- (٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنت تحت الشمس تمضي كشرار
ليس في فُكك للذات بناء
ليس في المكتب والحانة إلا
ليت شعري هل تعلمت وجوداً
لست تدري ما مقامات الوجود
ويل تصوير وشدو وقصيد
درس إفناء به الذات تبيد
لحياة ودوام وخلود

الفناء

صاح من أين لناي نشوة ؟
صاح ما القلب ؟ ومن أين له
ولماذا نظرة منه سرت
ولماذا ذلك السرُّ له :
ولماذا كل حين مبدل
ولماذا صاحب القلب ازدري
إن وعى للقلب رمزاً مطرب
صوت عود ذاك أم من قلب حي ؟
قوة سكرى تحدث كل شيء
مثل ربح صرصر في تحت كي^(١)
من حياة فيه يحيا كل حي^(٢)
واردات زُمراً تهفو إلي
ملك روم ومنى شام وري
طوي الفن له أسرع طي^(٣)

-
- (١) كي : كيكافوس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .
(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أن بحياته تحيا الأمم .
(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوي مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والندى

النسيم :

لم أرقَ في فلك النُّجوم وإِنِّي في شقِّ أثواب الأزاهر أعملُ
وأسيرُ عن وطني غريباً مجبراً في مسمعي شدوُ البلابل يثقلُ
قل لي ، فقد أعطيت سرَّ كليهما ، المرجُ أم فلكُ الكواكب أجملُ^(١)

الندى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه لرأيتَه سرَّ الكواكب يحملُ^(٢)

أهرام مصر^(٣)

شادت الفِطْرة كُتباناً لها في سُكونٍ من يباب قد وقَد
رَوَّع الأفلاك فيه هرمٌ أيُّ كفٍّ صوّرت هذا الأبد !
مِنْ إَسارِ الكونِ حرُّزُ صنعةٍ صائدٌ ذو الفن أم صيداً يعدُّ^(٤)

-
- (١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .
- (٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبيات أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .
- (٤) لم يحاك باني الهرم كُتبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليفة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليفة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قد رأى ذو بصرٍ سرَّ الذات وجلا الفنُ لعينٍ جَنَّاتٍ^(١)
ما به الذات ولا الكون يُرى فهو من جهدٍ حياة في نِجاةٍ^(٢)
تعمس الكافرُ من أضنامِه من حُطامٍ لمناةٍ واللاتِ^(٣)
هالكٌ صلَّى عليه فُتِه في ظلام اللحد يرنو للحياة^(٤)

إقبال

قال للرومي^(٥) في الخلد سنائي : لا يزال الشرق بالتقليد يُؤسّر
قال منصور : ولكن قد سمعنا أن سرَّ الذات أفشاه قلندرُ

الفنون الجميلة

نظراتُ الآفاق مُتعةٌ عيني سرُّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

- (١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
- (٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
- (٣) المقلد في الفن يتخذ أضناماً من بقايا أضنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .
- (٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
- (٥) جلال الدين الرومي أكبر شعراء الصُوفية ، ومجدُّ الدين السنائي طليعة شعراء الصُوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسين بن منصور الحلاج الصوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ : مَا نَظَرْتُ لَا تَجْلِي كَوَامِنَ الْأَسْرَارِ^(١)
 مَقْصِدُ الْفَنِّ فِي الْحَيَاةِ لَهَيْبٌ أَبَدِيٌّ فَمَا وَمِضُّ الشَّرَارِ؟^(٢)
 قَطَرُ نَيْسَانَ ! مَا اللَّالِيءُ إِنْ لَمْ تَلَاطِمَ بِهَا قُلُوبُ الْبَحَارِ^(٣)
 مَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ فِي الشَّعْرِ وَاللَّحْنِ إِذَا مَا أَدْوَى سَنَا الْأَزْهَارِ^(٤)
 لَيْسَ إِلَّا الْأَعْجَازُ يَحْيِي فَنًّا لَيْسَ ضَرْبُ الْكَلِيمِ فِيهِ ، عَوَارِي^(٥)

صُبْحُ الْمَرْجِ^(٦)

الزَّهْرَةُ :

وَاقِدَ الْأَفْلَاكَ ! هَلْ خِلْتَ بَعِيداً مُوْطِنِي ؟ لَا إِنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ

النَّدَى :

مَنْ يَطِيرُ مَا بَيْنَ أَرْضٍ وَسَمَاءٍ يَتَبَيَّنُ أَنََّّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ

- (١) إن لم تنفذ نظراتُ صاحب الفنِّ إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
 (٢) الفنُّ بصوِّر لهيب الحياة الأبدية ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
 (٣) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدُّرُّ في الصُّدف . يقول الشاعر : يا قطر نيسان !
 ما قيمة الدُّرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش
 لها قلب العالم .
 (٤) إن كان نسيمُ الصبح المتمثل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الزَّهْرَ في الرِّوْضة ولا
 ينضُّره فأَيُّ نسيم هو ؟ !
 (٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عارية لا دوام لها .
 (٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافلٍ
 عن عالم الغيب ، كضوء الصُّبح يُغشى السهول والجبال ولكِنَّه موصول بالفلك ،
 وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدَى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض
 ليست بعيدةً من السماء .

أقبلن في الرّوض كالصُّبح رقيقاً ليس يؤذي وطؤه قطر الندى
واحضن الأجيال والبيد ولكن من عُرا الأفلاك لا تحلّ بدا

الخاقاني (١)

ذا صاحب تحفة العراقيين ذو القلب يراه قرّة العين
تنشئ لفكره السُّطور الحُجبُ جميعُها تُنير
يجتاز بعالم المعاني لا يسمع قول : ﴿ لَنْ تَرِنِي ﴾ (٢)
فاسأله بذلك الثّراب والدَّهرُ يجيشُ في عُباب (٣)
ذا محرم عالم الثّواب كم دلّ بموجز الخطاب (٤) :

- (١) شاعرٌ فارسيٌّ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢ هـ . وله من الكتب « تحفة العراقيين » . سجل فيها ما رأى في العراقيين العربي والعجمي حينما مرّ بهما في طريق الحجّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشرقي وهو مشتقٌّ من الأوزان العربيّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أوّلها :
يا مَنْ لعبت به شمولٌ ما ألطفَ هذه الشمائل
وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيد في شعرنا مثلاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .
(٢) يتكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ لَنْ تَرِنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمزٌ إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴾ .
(٣) أسأله عن هذا العالم الأرضي وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْتَلْ بِهِمْ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي أسأل عنه .
(٤) المحرم : المطلع على السرّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« ناهيك بشرُّ هذا العالمِ إبليسُ ثوى ومات آدم »^(١)

الرُّومي (٢)

ما زال طَرْفُكَ في خَلْطٍ وفي سِنَةٍ وعنكَ ذاتُكَ في الأسرارِ لم تَزَلِ
ولم تَزَلْ في صلاةٍ لا قيامَ لها وبالصُّراعةِ عزُّ الرُّوحِ لم تَصِلِ^(٣)
ومِزهُرُ « الذاتِ » أوتارٌ مقطَّعةٌ ما زلتَ عن نغمةِ الرُّوميِّ في شُغْلِ

الجَدَّة (٤)

إنَّ صدقتَ نفسُكَ في الدَّهرِ النظرُ تُنَوِّرُ الأفلاكُ منك في البُكرِ
وتستضيءُ الشَّمسُ منك بالشَّررِ وينجلي قدرك في سيما القمرِ
والبحرُ يلقي منك موجاً ذا دُررٍ وتستحي إعجازَ صنْعِكَ الفِطَرِ^(٥)

-
- (١) حسبك تعريفاً بهذا العالم أن آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعات الشر في هذا العالم . فهو عالمٌ محنٌ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .
- (٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .
- (٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنها رمزُ الدلال والصُّراعة (ناز ونياز) أي : الخضوع والسيادة ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيام . . . إلخ .
- (٤) يرى الشاعر أن الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخَّرٌ لك .
- (٥) تستحي الخليفة من صنْعِكَ المعجز ، تراه أحسن منها .

تخذت أفكار الوري مرآتك فكيف لا تبلغ حتى ذاتك^(١)

مرزا بيدل^(٢)

ذي سماء وجمال وفجاج ذاك حق أم عيون في اعوجاج ؟
فرق الآراء إثبات ونفي أهى دنيا أم خداع في الحجاج ؟
عقدة قد حلها بيدل حقاً أعجزت من قبله كل علاج :
« ما بدا ذا المراج لو في القلب وسع » بان لون الخمر من ضيق الرجاج «

الجلال والجمال^(٣)

حسبي كمالاً قوة من خيذر وكفاك من أفلاطن الإدراك

(١) إنك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .
(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعر صوفي له ديوان كبير يغلب فيه التعشق ونكسر الدقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرة في بيت لبیدل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أن هذا العالم الحسي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النشر :

« لو اتسع القلب ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدة ضيق الرجاج » .
(٣) الشاعر من المعجبين بالقوة ، الداعين إليها ، وهو يدعي هنا الإجمال بغير جلال ، يرى الكمال في شجاعة علي لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالاً . وقد تخيل الشعراء أن انحناء السماء في رأي العين سجود . والنعمة التي لا قوة فيها نفخة ضائعة ، بل لا يحب أن يجازى إلا بنار شديدة الالتهاب .

وأرى جمالاً في بهاء أن تُرى في سجدة للقوة الأفلاك
ولنعمة من دون نارٍ نفخة ما الحسن إلا بالجلال يُحاك
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن وهما جنة ولهيها دراك

المصوّر (١)

قلد الغرب فنٌ عجم وهند عمّ هذي البلاد موت الخيال
شقني الغم أن بهزاد عصري يفقد الشرق بهجة الآزال^(٢)
يا خبيراً بفنّه فيه تمّت صنعة العصر والعصور الخوالي
كم ترى من خلقه وتربها أرنا الذات فوق هذي المجالي

الغناء الحلال (٣)

تفتح القلب نعمة من غناء أي فتح القلب رهن هُمود؟
في صدور الأفلاك لحنٌ خفي صاهر حرّه نجوم الوجود

- (١) يرى الشاعر أن المصوّر وكلّ ذي فنٍ ينبغي أن يُظهر ذاته فيما يصوّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأن المحاكاة موت .
- (٢) بهزاد : مصوّر فارسيّ مشهور نبغ أيام الدولة الصفوية ، والشاعر يغتم لأن بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .
- (٣) يرى الشاعر أن الغناء وكلّ لحنٍ يحلّ إن كان فيه قوة الذات وحرقة الحياة ، ويخوّم إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟ وفي الأفلاك ألحانٌ طبيعية تذيب النجوم ، وتبرئ الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . إلخ . والنعمة الحيّة التي يحلّها فقهاء الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ الناسَ منه خوفٌ وغمٌ إيازُ يسمو إلى محمود^(١)
 تيهُ هذي النُجوم يفنى ولكن أنت تبقى ونعمة التوحيد^(٢)
 قد أحلت شريعة الذات لحناً لم يزل في انتظار شادٍ مُجيد^(٣)

الفناء الحرام

ما بذكرى من التصوف وجدٌ أو برأيي ثوابهم والعذابُ
 قَرَّبَ الله مذهبي من فقيهٍ عُرِفَت عنه سُنَّةٌ وكتابُ :
 « إن سَرَت في اللحن دعوة موتٍ حَرُمَ النايُ عندنا والرَّبابُ »^(٤)

النافورة

لا يُطَيِّني مَسِيرُ النَّهْرِ مَطَرِداً مُسائراً تُربّه جنباً إلى جنبٍ
 دع ذاك ، وانظر إلى نافورة بَسَقَتْ تُصَعِّدُ الماءَ منها قوةُ القَلْبِ^(٥)

-
- (١) السلطان محمود بن سيكتكين وخادمه إياز .
 (٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونعمته الموحدة .
 (٣) اللحن الذي أحلته شريعة الذات ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .
 (٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .
 (٥) لا يُعجب الشاعر بالنهر يسائر الأرض ، بل يُعجب بنافورة قوية تقذف الماء عالياً في الهواء .

في غابة الشرق نائيً يبتغي نفساً يا شاعرَ الشرق هل في صدرك النَّفسُ ؟
من كان في ذاته من رقةٍ خورٍ فقلْ له من لُحونِ العُجم يحترسُ
إنّاؤها من زجاجٍ كان أو خزفٍ اجعل بخمرِكَ سيفاً لمعه قَبَسُ
لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها مجدٌ بغير الجلال المرُّ يُلْتَمَسُ
طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ كلُّ آونةٍ لا قَرَبَ اللهُ للعشاقِ ما التمسوا

شعر العجم

كم بشعر العُجم من سِخرٍ ولكن منه سيفُ الذَّاتِ ذو حدٍّ قليلٍ
صَمْتُ طيرِ الصُّبحِ أولى من غناء إن سرى باللَّحنِ في الرِّوضِ ذبولٍ
ليس ضرباً ما يشقُّ الطُّودَ لكن ليس منه عرشُ برويزٍ يميلُ^(٢)
يَنحِتُ العصرُ أيا إقبالٍ ! صخرأ فاحذَرُنْ من كلِّ ما يُبْدي الوذيلُ^(٣)

- (١) ينفرُ إقبالٌ من شعر الرُّخاوة والذَّلة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرقة والترف .
- ولا بدَّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجٍ أو صراحية ، ينبغي أن تكون محرقة . وليس لشوق الشاعر غاية ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلِّي جديد .
- (٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .
- (٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرأة . والشُّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرأة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلُّ ضعيف ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركز إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تخيّلُهُم جَنَازَةً كُلُّ عَشْرٍ وظَلَمَةٌ فَكْرُهُم لِلْحَيِّ قَبْرُ
وَمَوْتُهُم بِهِ نَقَشُ الْمَنَایَا وليس لفنّهم بالعيش خُبْرُ^(١)
يُنِيمُ الرُّوحَ فِي إِيقَاضِ جَسَمٍ ودون المجد يُسَدِّلُ مِنْهُ سِتْرُ
يُسَحَّرُ لِلْأَنُوثَةِ كُلِّ شَيْءٍ لهم قَصَصٌ وَتَصَوِيرٌ وَشِعْرُ^(٢)

الرَّجُلُ الْعَظِيمُ

هُوَ فِي الْحُبِّ عَمِيقٌ وهو فِي الْبُغْضِ عَمِيقٌ
قَهَرُهُ فَبُرُوقُ عِبَادِ اللَّهِ بَرْقٌ وَشَفِيقٌ
نَشَاتُهُ ظِلْمَةُ التَّقْلِيدِ بِالنَّاسِ تَحِيْقٌ
غَيْرَ أَنَّ الطَّبْعَ بِالْإِلَابِ دَاعٍ وَالْخَلْقَ خَلِيقٌ
هُوَ فِي الْمَجْمَعِ خَالٍ وَمِنَ الْحَشْدِ طَلِيقٌ
مِثْلُ شَمْعِ الْحِفْلِ ؛ فِي الْحِفْلِ وَحِيدٌ وَرَفِيقٌ^(٣)
مِثْلُ شَمْسِ الصُّبْحِ ؛ فِكْرٌ فِيهِ نُورٌ وَيَرِيقٌ
لَفْظُهُ حَرٌّ يَسِيرُ لَكِنَّ الْمَعْنَى دَقِيقٌ
نَظَرٌ فِيهِ سَدِيدٌ عَنْ بَنِي الْعَصْرِ سَحِيقٌ

(١) الموثن : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهوات الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسحّر كل شيءٍ للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدة بحرقتها ونورها .

ليس يدري أيُّ حالٍ فيه أشياخُ الطريقِ

عالمٌ جديدٌ^(١)

مَنْ كَانَ حَيَّ القلبَ في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلو له رؤياهُ كوناً مُحدثاً يدعُ المثالَ يروقه تصويرُهُ
فإذا جلا صوتُ الأذانِ منامه شادَ الذي في حلمه تعبيرةُ
ولهيكلُ الدُّنيا الجديدةِ طينه هذا الضئيلُ ، وروحها تكبيرةُ

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني من الخلاقِ موهبةٌ لكنَّ للفنَّانِ إجهاداً
من حُرقةٍ في دَمِ الباني ، مشيدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زوناتُ بهزاداً^(٢)
ما جوهراً يتجلى دونَ مجهدةٍ من ومضةِ الفأسِ نارتِ دارُ فرهاداً

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .
وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشئٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُمى ، بضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقَا

دَلٌّ عَلَى بَرْدِ دَمِ الْمُغْنِي لَحْنٌ لَهُ الْوَجْوه لَا تُنِيرُ^(١)
 أَنْفَاسُ زَامِرٍ سُمُومٌ لَحْنٍ إِنْ كَانَ لَمْ يَطْهُرْ بِهِ ضَمِيرُ^(٢)
 بِالشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ فِي رِيَاضٍ مِنَ الشَّقِيقِ شَاقِنِي الْمَسِيرُ
 فَمَا مَرَرْتُ بَيْنَهَا بِمَرْجٍ شَقَّتْ بِهِ جُيُوبَهَا الرُّهُورُ^(٣)

لَذَّةُ النَّظَرِ

أَيُّ ذَاتٍ حَوَى فَتَى الصَّبْرِ مَنْ قَا لَ لَجْلَادِهِ أَمَامَ الْجِمَامِ :
 مَنْظَرٌ رَائِقٌ ، تَمَهَّلْ ، تَمَهَّلْ لَأَرَى لَحْظَةً وَمِیْضَ الْحُصَامِ^(٤)

الشُّعْرُ

لَمْ أَدْرِ سِرَّ الشُّعْرِ إِلَّا نَكْتَةً سَيَرُ الشُّعُوبُ تُبَيِّنُهَا تَفْصِيلاً

- (١) اللَّحْنُ الَّذِي لَا تَنِيرُ لَهُ وَجْوه السَّامِعِينَ دَلِيلٌ عَلَى بَرْدِ نَفْسِ الْمُغْنِي ، وَخُمُودِ عَاطِفَتِهِ .
- (٢) لَا بَدَّ لِلْمَطْرِبِ مِنْ طَهَارَةِ الضَّمِيرِ لِتَكُونَ أَلْحَانُهُ صَدَى الضَّمِيرِ الطَّاهِرِ ، وَإِلَّا فَأَنْفَاسُهُ فِي اللَّحْنِ سَمٌّ لِلْسَامِعِينَ .
- (٣) زَهْرُ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَمْ يَهْجُ بِهَا الطَّرِبُ فَتَمَزَّقَ جُيُوبُهَا كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَغْلِبُهُ الطَّرِبُ مِنْ حَزَنِ أَوْ فَرَحٍ - يَعْنِي : لَمْ يَظْهَرْ الْمَطْرِبُونَ أَسْرَارَ النَّفْسِ ، وَبَدَدُوا مَكْتُونِ الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِي ، وَلَا تَزَالُ « الذَّاتُ » مُحْجُوبَةً .
- (٤) رَجُلٌ صَبْرِيٌّ قَامَ أَمَامَ الْجَلَادِ وَالسَّيْفِ مَصْلَتِ قَلَمٍ يَشْغَلُهُ هَذَا الْمَقَامُ عَنِ الْإِعْجَابِ بِوَمِیْضِ السَّيْفِ ، فَقَالَ لِلْجَلَادِ : أَهْلَانِي لَا مَتَعَ النَّفْسُ بِهَذَا الْمَنْظَرِ . فَهَذَا يَعْجَبُ بِهِ إِقْبَالُ أَيِّ إِعْجَابٍ ، وَيَرَى فِيهِ ذَاتًا كَامِلَةً .

الشَّعْرُ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ رِسَالَةٌ أَبَدِيَّةٌ لَا تَقْبَلُ التَّبْدِيلَ
إِنْ كَانَ مِنْ جَبْرِيلَ فِيهِ نَعْمَةٌ أَوْ كَانَ فِيهِ نَفْخُ إِسْرَافِيلَ^(١)

الرَّقْصُ وَالْمُوسِيقَا

إِنَّ لِلشَّعْرِ بِهَجَةً ضَاءٌ مِنْهَا رُوحُ جَبْرِيلَ وَالرَّجِيمُ اللَّعِينُ
وَمِنَ الْمَوْسِيقَا ابْتِهَاجٌ شَوْقٌ وَكَذَا الرَّقْصِ نَشْوَةٌ وَقُتُونُ
قَدْ سَمِعْنَا فِي الصُّينِ قَوْلَ حَكِيمٍ فِيهِ أَفْشَى مَخَبَّاتِ الْفُنُونِ :
إِنَّ لِلْمَوْسِيقَا مِنَ الشَّعْرِ رُوحاً وَمِنَ الرَّقْصِ جِسْمُهَا فِي الْعِیُونِ

ضَبْطُ النَّفْسِ

دَابُّ أَهْلِ الزَّمَانِ شَكْوَى الزَّمَانِ لَيْسَ لِلْحَرِّ آهَةٌ فِي طَعْمَانِ
قَدْ أَسْرَّ النُّجْوَى إِلَيَّ عَلِيمٌ مِنْ شِيُوخِ الْقُلُوبِ وَالْعِرْفَانِ :
إِنَّ كَظْمَ النُّوَّاحِ شِيمَةٌ لَيْسَ وَمِنَ النُّوحِ شِيمَةُ الثُّغْلَانِ

الرَّقْصُ

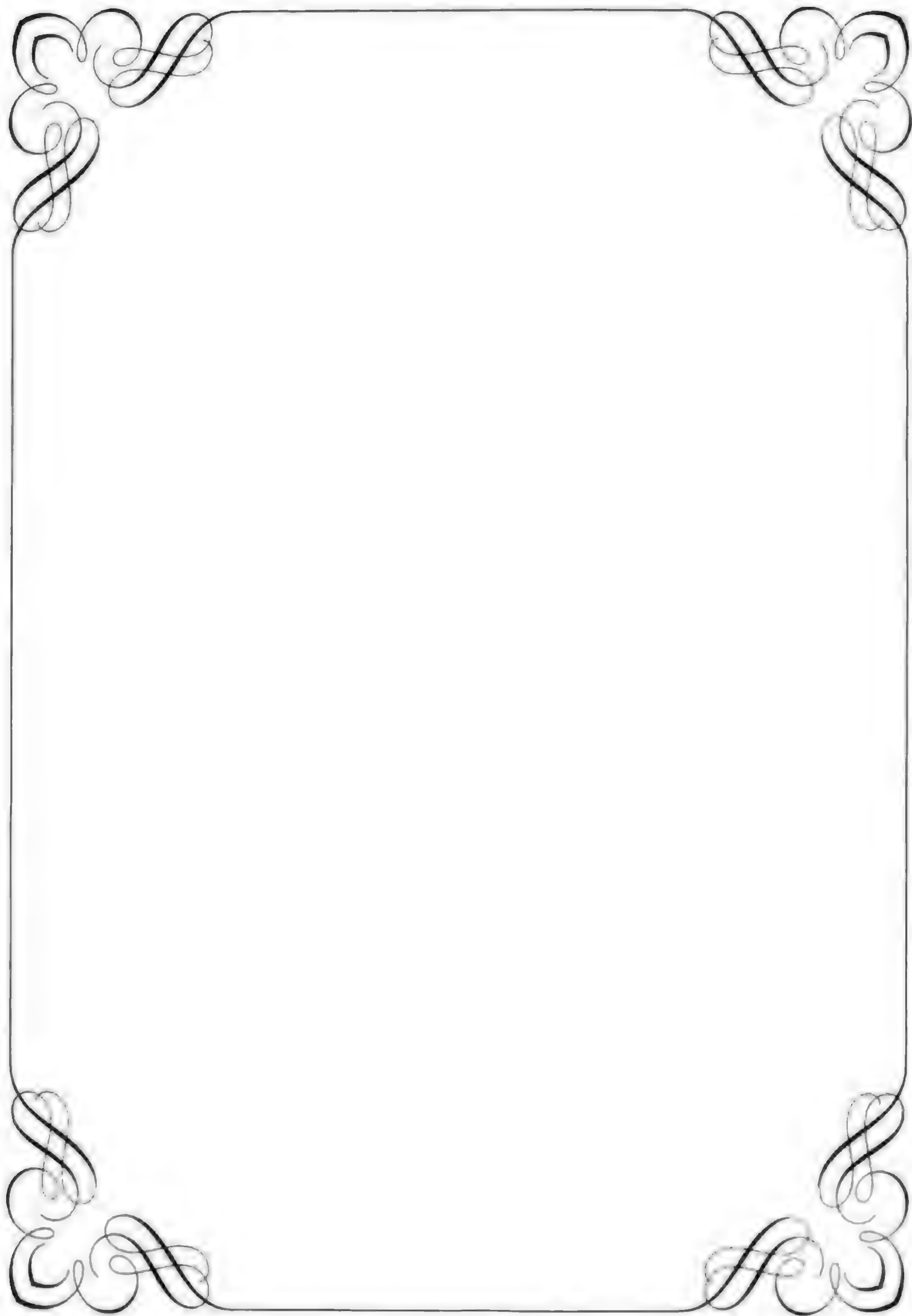
دَغْ لَأَهْلِ الْغَرْبِ رَقْصاً بِجِسْمٍ إِنَّ رَقْصَ الرُّوحِ مِنْ ضَرْبِ الْكَلِيمِ
فَبِهَذَا الرَّقْصِ سُلْطَانٌ وَفَقْرٌ وَبِذَاكَ الرَّقْصِ هَمٌّ لَا يَرِيمُ

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبدية إن كان جميلاً هادياً ، كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صغقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .

القسم الخامس

سياساتُ المشرقِ والمغربِ





انقلاب

أبمشرقٍ أو مغربٍ نارُ الحياة ونورُها
فَهِنا تَموتُ ذوائُها وهناكَ ماتَ ضميرُها
وأرى القلوبَ لثورةٍ ملءُ البلادِ زفيرُها
فلعلَّ دنياكَ القديمةَ للمماتِ مَسيرُها

تملُّق (١)

جهلتُ أمورَ الناسِ غيرَ مجربٍ ولكنَّ ربَّ القلبِ للغيبِ يَشْهَدُ
فقلُّ لوزيرٍ ما بدا لك مادحاً فذاك دُستورٌ وعهدٌ مجدُّ
إذا قال : صقرُ الليلِ للبومِ مادحٌ فهل ذاك حقٌّ أو دِهانٌ يَرُدُّدُ^(٢)

المناصب (٣)

سِحْرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد هَمَّتْ عَبراتها

-
- (١) العنوانُ في الأصل (خورش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الداخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .
- (٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟
- (٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السابقة .

فلعلّ منصبتك الرفيع مبارك فالذاتُ مِنْ جَرَّاه حانَ مماتُها
هذي القضيةُ منفضِلٌ إخفاؤها وضحتُ لكلِّ مفكِّرٍ آياتُها :
« لا شِرْكَ في حكمٍ لعبدٍ إنَّما شريتُ عقولَهُمْ وخابَ شُراتُها »^(١)

أوربة واليهود^(٢)

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيدٌ وظلمةٌ صدرٍ لها القلبُ يَقلِّي
دخانُ المصانع في الغرب داجٍ فواديهِ ليس بأهلِ التَّجَلِّي
رأيتُ حضارتَه في احتضارٍ تموتُ اعتباطاً ، وما الموتُ يُملِّي^(٣)
فليس غريباً تولِّي اليهود كنائسَه بعد هذا التَّوَلِّي

عبوديةُ الأنفس^(٤)

ليس يخلو زمانٌ شعبٍ ذليلٍ من عليمٍ وشاعرٍ وحكيمٍ
فرقتهم مذاهبُ القَوْلِ لكنَّ جَمَعَ الآراءِ مقصدٌ في الصِّميمِ :

- (١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظم .
شريت : بيعت ، والشراة : البائعون .
- (٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهد حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّط اليهود على أوربة
وأمریکا ، كما رأينا . ولكنه نظر إلى الحوادث نظرة عارفي خير .
- (٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .
- (٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتى إلى غاية
واحدة ، هي أن يروّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجايها الإقدام حتى
ترضى بالرق ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويل في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« عَلِّمُوا اللَّيْثَ جَفَلَةَ الظَّيِّ وَامْحُوا هُمُّهُمْ غِبْطَةَ الرَّقِيقِ بِرَقٍّ قَصَصَ الْأَسَدَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيمِ^(١) كُلُّ تَأْوِيلِهِمْ خِدَاعٌ عَلِيمٌ

الرُّؤُسُ الشُّيُوعِيُونَ

إِنَّ سَيْرَ الْقَضَاءِ جِدُّ عَجِيبٍ أَيُّ سِرٍّ حَوَى ضَمِيرُ الزَّمَانِ
لَيْسَ يَأْلُو الصَّلِيبَ سِرًّا قَبِيلُ كَانَ يَرْجُو النِّجَاةَ بِالصُّلْبَانِ
أَمَرَ الْوَحْيُ مُلْحَدِي الرُّؤُسِ هَهُذَا مَا أَقَامَ الْقُسُوسُ مِنْ أَوْثَانٍ هـ

الْيَوْمُ وَالْغَدُ

مَنْ عَدَاهُ لِيَوْمِهِ فِي جِهَادٍ نُورُ نَفْسٍ وَشُعْلَةٌ فِي الْكُبُودِ
مَالَهُ الْحَقُّ فِي مَتَاعٍ وَهَمٍّ يَسْتِيرَانِ فِي الْغَدِ الْمَوْعُودِ
لَيْسَ أَهْلًا لِمَعْرَكِ الْغَدِ مَنْ فِي سِيرِهِ (الْيَوْمُ) لَيْسَ بِالْمَعْدُودِ

المشرق

جَيْبُ الشَّقَائِقِ مِنْ شَدَوِي غَدَا مِرْقَاً وَنَسْمَةُ الصُّبْحِ رَوْضاً تَطْلُبُ الْآنَا^(٢)

(١) فِي هَذَا الْبَيْتِ مَقْصِدُ الْقَائِلِينَ الْمَذْكُورِينَ فِي الْبَيْتَيْنِ السَّابِقِينَ .

(٢) أَنَا شَدَوْتُ حَتَّى مَرَّقْتُ شَقَائِقَ النِّعْمَانِ جِيوبَهَا وَجَدَاً ، وَنَسِيمُ الصَّبْحِ لَا يَزَالُ يَطْلُبُ رَوْضاً يَنْضُرُ أَزْهَارَهُ .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلّى حقيقتها فالروحُ في الشرق جسماً تطلب الآنا^(١)
وحنّ ذاتي عِقَابٌ غيرَ أنّ لها ذا العصرُ جذعاً وحبلاً يطلب الآنا^(٢)

سياسةُ الإفرنج

يا ربّ نذكّك في غربِ سياستُه وما تعبّد إلا الهامّ والرؤسا^(٣)
خلقت إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومن تُرابٍ أقامت ألفَ إبليسا

العبيد

تعلمتُ بين الغرب والشرق حكمةً أراها لأهل الرقّ أجدى الفوائد :
فلا مُلكَ أو فقراً وديناً وحكمةً يؤسّس إلا فوق صخرِ العقائد
فلما خلا منها ضميرُ جماعةٍ فأفعالٌ رعديدٍ وأقوالٍ هامدٍ

إلى أهل مصر

من أبي الهول أتني نكتةٌ وأبو الهول طوى السرّ القديم^(٤)

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدنأ تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صليبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بَذَلْتُ سَيْرَ شُعُوبٍ جَمَلَةً قُوَّةٌ لَمْ يَجْفُهَا الْعَقْلُ الْحَكِيمُ
طَبَعُهَا فِي كُلِّ عَصْرِ مَائِلٌ يُبْدِلُ الشَّكْلَ وَيَبْقَى فِي الصَّمِيمِ
فَهِيَ طَوْرًا فِي حُسَامِ الْمُصْطَفَى وَهِيَ طَوْرًا فِي عَصَا مُوسَى الْكَلِيمِ

الْحَبِشَةُ

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عَقَبَانُ أَوْرِئَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي جِيْفَةِ الْأَحْبَاشِ أَيُّ سَمٍّ أ
قَدْ آنَ لِلْمَيِّتَةِ أَنْ تَجِيفَا
حَضَارَةٌ تَكْمَلُ بِالْمَخْزَاةِ وَعَيْشُ أَقْوَامٍ عَلَى الْغَارَاتِ
وَكُلُّ ذَنْبٍ طَارِدٌ خَرُوفًا
وَجْهَ الْكَنِيسَةِ اكْتَشَى شَنَارَا رُومَا أَرَاقَتْ مَاءَهُ نَهَارَا
يَا بَابُ قَدْ أَضْحَى الْوَرَى أَسِيفَا^(١)

أَوَامِرُ إِبْلِيسَ إِلَى أَبْنَائِهِ السَّاسَةِ^(٢)

عَلَيْكُمْ بِالْبَرِّهِمَنْ فَارَبَكُمْ بِأَشْرَاكِ السِّيَاسَةِ وَالْحِبَالِ

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشاعر في هذه الأبيات عملَ السَّاسَةِ بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلَّها من الدِّينِ ، ولا سيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصَّ العربَ الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدِّينِ . . إلخ .

ثمَّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرُّوضِ لأنَّ نَفْسَهُ يشعل الحقائق + أي : يشير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

وأصحابَ الزَّنَانِيرِ اطردوهم
وذلكم الصُّبُورُ على الرزايا
فروحَ محمدٍ منه اسلبوه
وفي العَرَبِ اقدفوا في كُلِّ فكرٍ
بأرضِ العُزْبِ للإسلامِ كيدوا
وفي الأفغانِ بالذِّينِ اعتصامٌ
عليكم بالفقيهِ فأخرجوه
وقوَّاماً على الحَرَمِ اسلبوهم
غَزَالَ المسكِ من خَتَنِ أثيروا
واقبالاً له شَذُوْثٌ مثير
من المَرَجِ اطردوا هذا المغني

جماعةُ الأممِ الشَّرْقِيَّةِ (٤)

سُخِّرَ الماءُ والهواءُ مسخَّرَ
جبروتُ الفرنجِ غَرَّتْهُ رؤيا
إنْ جنيوا للشرقِ طهرانُ صارت
ليس يدعاً إنَّ القضاءَ تغيَّرَ
علَّها غيَّرَ ما رآه تُعبَّرُ
فلعلَّ التبديلَ للأرضِ يُقدَّرُ

(١) ذلكم الصبور .. إلخ . يعني : المسلم .

(٢) يريد بقوَّام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره .

(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تين مشهور في الشعر الفارسي وما يتصل به .

ويريد الشاعر : أدخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أدخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .

(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إني لَفَوَّاصُ المعاني فِطْرَةٌ لَكَتَّي بَحَرَ السَّيَاسَةِ أَحْذَرُ
ما إن يُحِبُّ الدَّهْرُ مُلْكَاً خالداً ولو أنَّ فيه من الرُّؤْيَى ما يَسْحَرُ
فَرهاذُ أبْقَى الدَّهْرُ نَحْتَ صَخُورِهِ لم يَبْقَ من برويز مُلْكٌ يُؤَثَّرُ

الجمهورية

بدا السرُّ في قولةٍ من أريبٍ وما كان من قبله يُعلنُ^(١) :
نظامُ الجماهير حُكْمٌ به تُعدُّ العِبادُ ولا تُوزَنُ

أوربة وسورية

أهدت الشَّامَ إلى الغرب نبيًّا هو عَفُفٌ ومُواسٍ وصَبُور
ومن الغرب إلى الشَّامَ هدايا من قمارٍ ونساءٍ وخمُور

من مُوسوليني

(إلى أُنْداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يَأْبَى من مُسولينَ جُرْمَهُ وأخيارُ أوربةٍ عليَّ غِضَابُ

(١) سيظهر .

أَتَنْقِمُ أَفْعَالَ الشُّيُوفِ حِرَابُ
أَمَا ثَارَ مِنْهُمْ بِالضُّعَافِ ضِرَابُ
وَلَا مُلْكَ أَوْ مَلِكٌ بِهِنَّ يُصَابُ
وَيُجَبَى إِلَيْكُمْ عَامِرٌ وَيَبَابُ^(١)
وَكَمْ كَانَ مِنْكُمْ لِلْعُرُوشِ نِهَابُ
أَأَمْسُكُمْ فَخْرٌ وَيَوْمِي عَابُ ؟

كَلَانَا بِآلَاتِ التَّمْدُنِ آخِذُ
وَقَدْ نَقَمُوا مِنِّي غِرَامَ تَمْلُكِ
لِمَنْ شَعَبَذَاتُ الْحَكَمِ تُبْقِي مَمَالِكَا
أَيَنْفُخُ فِي الْأَعْوَادِ أَبْنَاءُ قَيْصِرِ
نَهَبْتُمْ خِيَامَ الْبَدْوِ وَالزَّرْعَ وَالْقُرَى
قَصَدْنَا مِنَ التَّمْدِينِ قِتْلًا وَغَارَةً

شكوى

يَا وَيْحَهَا ، دُرَّةٌ فِي النَّاجِ تُرْتَهَنُ^(٢)
وَلَمْ يَزَلْ مِرْقًا تَحْتَ الثَّرَى الْكَفَنُ
لَمْ يَبْقَ فِي أَرْضِهَا دَارٌ وَلَا سَكَنُ
فَمَنْكَ شُكْوَايَ لَا مِنْهَا ، وَبِي حَزَنُ

مُسْتَقْبَلُ الْهِنْدِ مَنْ يَدْرِي ؟ وَمَا بَرِحَتْ
دِهْقَانُهَا مِنْ ظِلَامِ اللَّحْدِ مَطْرَحِ
الْجِسْمِ وَالرُّوحِ لِلْبَاغِينَ قَدْ رُهِنَا
رَضِيتَ رَقًّا لِأَوْرَثَةٍ بَلَا أَنْفِ

انتداب

فِي عَصْرِنَا هَذَا السُّؤَالُ يَسِيرُ :
ضَيْقُ الثِّيابِ عَلَى النَّسَاءِ يَجُورُ
لَكِنْ عَلَى سَنَنِ الْجَدُودِ يَسِيرُ
وَابْنُ الْبِدَاوَةِ فِي الذِّكَاةِ جَسُورُ

مَلِكُ الْحَضَارَةِ أَيْنَ يُحْتَمِ سَيْرُهُ ؟
فِي حَيْثُ لَا خَمَرٌ وَلَا قَمَرٌ وَلَا
وَالرُّوحُ فِي بَدَنِ قَوِيٍّ خَافِقُ
حَيْثُ الْمَدَارِسُ غَائِضٌ يَنْبِوَعُهَا

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحَارَى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أئمنُ دُرَّةٍ فِي تَاجِ الإمبراطورية .

يُفتي جهابذة الفرنجة أنما هذي البقاع من التمدن بُور^(١)

السِّياسةُ اللادينيةُ

ما الحقّ مخفٍ عن فؤادي سرّه
فسياسةُ اللادينِ عندي حِسةُ
لما قلّى حكمُ الفرنج كنيسةُ
شَرِهَتْ لأموالِ العباد كنيسةُ
فلقد حباني الله قلباً مبصراً
مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى^(٢)
ساسوا كشيطانٍ بلا قيدٍ جرى
فإذا الخُميسُ سفيرُها بين الوري^(٣)

شبكة التمدن

أمانتها علّت عن كلِّ ريبٍ
فأوربة نصيرةُ كلِّ شعبٍ
كراماتُ القساوسِ أن أضأؤوا
ولكن من فلسطينَ بقلبي
وتلكم عُقدةٌ ليست لحلّ
من الترك الجُفافةُ نَجّوا فلاقوا
واقبالٌ مُقرٌّ دون نكيرٍ
تشكّي الدهرَ من ظلمٍ وضُرٍّ
سراجُ الكهْرُبَاءِ بكلِّ فكرٍ
وللشّامِ الكسيرةُ حرٌّ جَمَرٍ
تُلاقِي كلَّ تدييرٍ يُعسرٍ
بأشراكِ التمدنِ شرٌّ أسرٍ^(٤)

-
- (١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدن ، فأرسلوا إليها ملك التمدن باسم الانتداب .
(٢) إبليس افترأها .
(٣) الخُميس : الجيش .
(٤) في هذا استهزاء : يقول : إن أوربة ادّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرٍّ أسر .

نصيحة

قال لُزْدٌ من الفرنج لنجل
أظلم الظلم للمساكين إعلام
إنَّ للملك سرُّه فاكثمته :
ويحمض التعليم فاغمس نفوساً
أين منه الإكسیر ؟ هذا محيلٌ
ابغِ مَرَأًى يدومُ فيه المراد^(١)
خِرافٍ شريعةَ الأسد^(٢)
لا تَرُم بالشيوفِ قهرَ العباد
ثم صُغ طينها وفاق المُرَاد
جبلُ الثَّبرِ كومةٌ من رَماد

قرصان وإسكندر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانٌ
فقد صيرتَ وَسْعَ البحرِ ضيقاً
القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم توفَّق
فإنَّ القتلَ دأبي لا أماري
كلانا اليوم قرصانٌ : برُّ
أيجملُ بالفتى فضعُ الرِّفيقُ ؟
كذاك القتلُ دأبك يا صديقي
تصوّل ، وَصَلْتُ في بحرٍ عميق

-
- (١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطعم الذي لا يحد .
(٢) أظلم الظلم أن تعلم الغنم سيرة الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبة الأمم (١)

مِسْكِينَةٌ مِنْذُ زَمَانٍ تُحْتَضِرُ لَا فَاةَ مِقْوَلِي بِسَيِّءِ الْخَبَرِ (٢)
وَمَوْتُهَا مُحْتَمٌّ لَكُنَّمَا يَدْعُو الْقُسُوسُ أَنْ يَزُولَ ذَا الْخَطَرِ
عَجُوزُ أَوْرَبَةٍ يَجُوزُ عَيْشُهَا عَلَى رُقَى إِبْلِيسَ أَيَّاماً أُخَرِ (٣)

الشَّامُ وفِلَسْطِين

مَرَحَى لِحَانَاتِ الْفَرَنْجِ فَقَدْ مَلَأَتْ بِهِنَّ زَجَاجَها حَلَبُ
إِنْ فِي فِلَسْطِينِ الْيَهُودُ رَجَعَتْ فَلْيَأْخُذَنَّ إِسْبَانِيَا الْعَرَبُ
لِلْإِنْكِلِيزِ مَقَاصِدُ خَفِيَتْ مَا إِنْ يُرَادُ الشَّهْدُ وَالرَّطَبُ (٤)

أُثْمَةُ السِّيَاسَةِ

مَا رَجَائِي بِسَاسَةِ قَدْ أَسْقُوا وَإِلَى الْأَرْضِ أَخْلَدُوا إِدْرَاكَ
نَظَرَاتُ إِلَى ذُبَابٍ وَنَمَلٍ فَهَمُّ الْعَنْكَبُوتِ مَدَّتْ شِبَاكَ
حَبَّذَا الرِّكْبُ قَدْ هَدَاهُ أَمِيرٌ ذُو مَرَامٍ تُجَاوِزُ الْأَفْلَاكَ

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .

(٢) يعني لا أودُّ أَنْ أَخْبَرَ بِمَوْتِهَا .

(٣) الظاهر أَنَّ الشاعِرَ نَظَّمَ هَذِهِ الْآيَاتِ حِينَما كَانَتْ عَصْبَةُ الْأُمَمِ فِي آخِرِ سَنَوَاتِهَا .

(٤) بِلَادُ الْعَرَبِ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ فِي الْهِنْدِ بِالنَّخْلِ ، وَيَقُولُ الشاعِرُ لَيْسَ قَصْدُ السِّيَاسَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ مَا تَعْلَنُ مِنْ عِمْرَانِ الْبِلَادِ بَلْ لَهَا مَقَاصِدُ خَفِيَّةٌ .

نزعات العبودية

بأسبابِ سُقمِ الشُّعوبِ خَفَاءُ يَقْصُرُ فِي شُرَاجِهِنَّ الْبَيَانُ :
بشرعِ الأسودِ إمامُ العبيد يرى دائماً حِكْمَةَ الثُّعْلِيَّانِ^(١)
كَلِيمُ الْإِلَهِ يُرَى لَعْنَةً على قومه في خُطوبِ الزَّمانِ
إذا كان في السرِّ هذا الكَلِيمُ لِقُوَّةِ فِرْعَوْنَ طَوْعَ الْبَنَانِ

صلاة العبيد^(٢)

قَالَ بَعْدَ الصَّلَاةِ حَلَفُ جِهَادٍ : كم يطيلُ الصَّلَاةَ فَيَكُمُ إِمَامُ
ما درى ذَاكُمُ الْمُجَاهِدُ الْمُؤْمِنُ الْغُرُّ صَلَاةَ الْعَبِيدِ كَيْفَ تُقَامُ
كم لدى الْحُرِّ في الْحَيَاةِ كَفَاحُ غَيْرَةُ الْحُرِّ لِلشُّعُوبِ قِيَامُ
حُرْمُ الْعَبْدِ حَرْقَةُ الْكَذِّ عَجْزاً فعلى وَقْتِهِ الْمُضِيِّ حَرَامُ
لا تَعْجَبْ إِذَا أَطَالَ سَجُوداً ما لديه سوى الشُّجُودِ مَرَامُ
رَبِّ وَفَوْقَ أُمَّةِ الْهِنْدِ يَوْمًا لسجودٍ تَحِيَّاهُ بِهِ الْأَقْوَامُ

(١) أسباب مرض الأمم أئمةً أدلَّةً ، يرون في شريعة الأسود فلسفة الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثُعْلَيَانِ : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبتهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمامُ الصَّلَاةَ ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاة إمامكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فلسطين

لا يزال الزمانُ يَصَلِّي بنارٍ لم تزل في حَشَاكَ دُونَ خُمُودٍ^(١)
لا دواءٌ بِلَنَدَنٍ أو جَنِيحُوا بوريدِ الفرنجِ كَفْتُ اليهودِ^(٢)
ومن الرقِّ للشعوبِ نِجاةٌ قوَّةُ الذَّاتِ وازدهارُ الوجودِ

الشرق والغربُ

علَّةُ الشرقِ ذِلَّةٌ واقتداءٌ ونظامُ الجمهورِ في الغربِ داءٌ
مَرَضُ القلبِ والبصيرةُ فاشٍ ما بشرقٍ ولا بغيرِ شفاءٍ

نزعات التسلُّط

(إصلاحات)

أرى رحمةَ الصَّيَادِ سِتْراً لقهره ولم يُجدِ فينا ذا الصَّغِيرُ المجدُّ^(٣)
وقد زَيْنَ الأَقْصاصَ بالزُّهرِ ذابلاً لعلَّ أسيراً للإسارِ يُغَرَّدُ

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

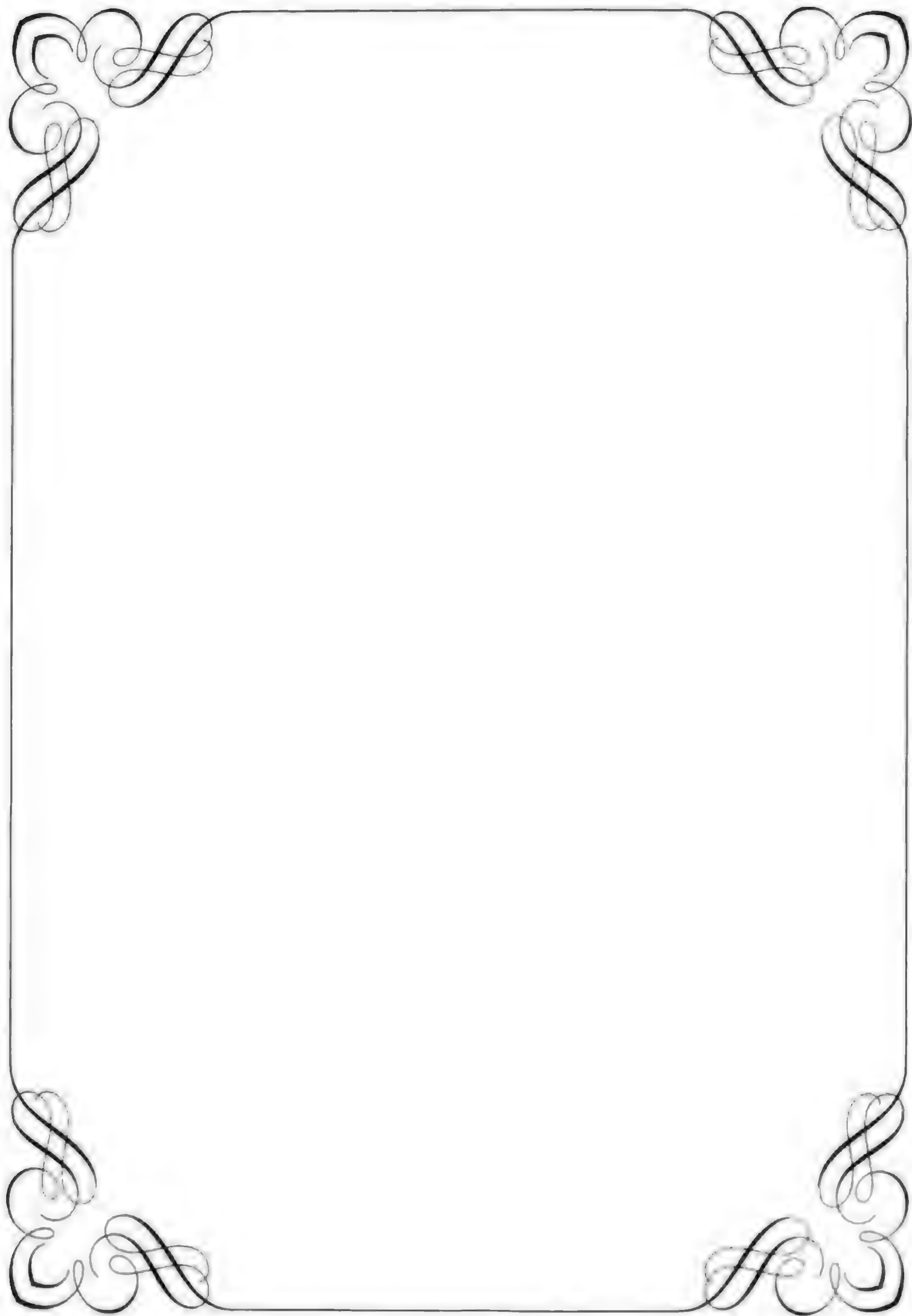
(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الداخلي ، يقول :

ما يزال الصيَّاد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرققه أن تجدد له غناء . وإنما هيَّة أن يرضى الأسير فهو يزِينُ الأَقْصاصَ بزهورٍ لا نصرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .

القسم السادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم
بجبالهم ، وحميتهم الإسلامية ، وقد تخيّل الشاعر أنَّ شاعراً
(محراب غل) أنشأ هذا الشعر الذي في الصّفحات التّالية ، بيّنَ
عمّا في نفوس هؤلاء النّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر
(إقبال) .



- ١ -

يا جبالي أَيْانَ عَنْكَ الْمَسِيرُ وَتَرَابُ الْأَبَاءِ هَذَا الصُّخُورُ
لا زَهُورٌ وَلَا صَدَى عِنْدَ لَيْلٍ فَيْكَ مِنْذُ الْأَزَالِ تَأْوِي الصُّقُورُ
جَنَّتِي فَيْكَ مَخْرَمٌ وَشُعَابٌ مَاؤُكَ النُّورُ ، وَالتُّرَابُ الْعَبِيرُ
لَنْ يَكُونَ الشَّاهِينَ عَبْدَ بُغَاثٍ الْحَفِظُ الْأَبْدَانِ رُوحِي أُبِيرُ
خَلْعَةُ الْإِنْكَلِيزِ أَمْ سُخْقُ ثُوبٍ إِيهِ فَقْرِي الْغَيُورُ ! مَاذَا تَشِيرُ ؟

- ٢ -

تَنَافَرُ النَّاسُ دَائِمٌ أَبَدًا لَسْتُ وَلَا أَنْتَ الْقَضَاءُ فَضَّلَهُ
فِي الذَّاتِ عُصْنٌ ، لِلزَّمَانِ ذَا أَمَلٍ دَوَاؤُهُ فِي الْجُرُوحِ أَرْسَلَهُ
تَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ وَاحِدًا بَطْلًا إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ « لَا شَرِيكَ لَهُ »

- ٣ -

يَجُوزُ أَنْ تُبَدَلَ أَنْتَ ، لَا تَحُلْ بَدْعُوه أَنْ الْقَضَاءُ يُبَدَّلْ
إِذَا سَرَى فِي ذَاتِكَ انْقِلَابُهَا فَجَاءَتْ أَنْ الْفَضَاءُ يُبَدَّلْ
يَبْغِي الشَّرَابَ وَالْفَنَاءَ إِذَا تَرَى رَسَمَ « السُّقَاةِ » وَالْإِنَاءَ يُبَدَّلْ
تَدْعُو بِتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ جَاهِدًا وَدَعَوَتِي أَنْ الرَّجَاءُ يُبَدَّلْ

- ٤ -

وَمَا فَلَّكَ جَائِرٌ فِي السَّيْرِ وَمَاذَا ذِكَاةٌ وَمَاذَا الْقَمَرُ ؟
أَرَى رَكْبَهَا جَاهِدًا فِي الْمَسِيرِ وَأَقْعَدَهَا طَوْلُ هَذَا السَّفَرِ
يَكْنُدُ زَمْجَرَ كَالرَّعْدِ حِينًا وَعِنْدَكَ يَا مَوْتُ صِدْقُ الْخَبَرِ
وَعَائَتْ بِدِهْلِي يَدَا نَادِرٍ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ حَكِي فَاخْتَصَرَ^(١)

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلي ، وتوفي سنة ١١٦٠ هـ .

وتبقى الجبال وأفغانها
تذل الحوائج صيد الرجال
إن الذات أيدها فقرها
قوام الشعوب بحر فقير
لك الملك والحكم رب القدر
تري الليث كالثعلب المحتقر
فعندي وعندك ملك البشر
إلى سدة الملك ما إن نظر

- ٥ -

مدارس ثم ضوضاء ولهو
وسم الحر هذا ليس علماً
وما أدب وفلسفة غناء
تحكم في الطبيعة رب فن
فرب الفن من بركات فن
وذلك إن يشأ قطرت عليه
وغم دام في العيش الوفير
إذا كان الجدا كف الشعير^(١)
قوام الفن في جهد المسير^(٢)
يضيء الليل كالصبح المنير
يطوع لحكمه كل العير
آية الشمس كالطل النضير^(٣)

- ٦ -

عالم التجديد إن يظفر بحر
لا تدغ ذاتك بالتقليد لغوا
بارك التجديد قوماً ليس فيهم
خشيتي أن وغي التجديد في الشرق
موجد من حوله طاف الزمان
جوهراً فرد فحطه بصوان
غير حفل الأمس ، ذكرى وعيان^(٤)
على التقليد للغرب دهان

- ٧ -

تبدل الأقوام في البلدان
في الروم والشام وهندستان

-
- (١) العلم الذي جدواه كف من شعير ؛ أي : متاع قليل ، ليس علماً ولكن سئاً للأحرار .
(٢) الفن بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) رب الفن إن شاء قطرت عليه آية الشمس (أي شعاعها) كالندى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركة لقوم لا يذكرون ، ولا يرون إلا صور الماضي .

يا ابن الجبالِ هُبْ لِلزَّمانِ وأدركنْ ذاتك بالعِرفانِ

ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ذا موسمٍ وماؤه عُبَابٌ وَعَسْجَداً يُنبِتُ ذا الترابُ

من لم يروْ زرعَه احتسابُ فكيف يُدعى الغرُّ بالدهقانِ

ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

ما لم يهْجِ في مَوْجِه الزَّخارِ فأَيُّ بحرٍ ذاك في البحارِ ؟

ما ليسَ فيه ثورَةُ الإعصارِ فكيف يُدعى عاصفَ الأكوانِ

ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

من اهتدى ونفَسَه أصابا مقلَّباً في طينه الترابا

فحرثُ ذا العبدِ الذي قد طابا يُفدى بكلِّ الجاه والسُّلطانِ

ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

جهلُك هذا ما به مِنْ عارٍ قد صيِّرَ الجهلُ من الفَخارِ

كم عالمٍ فاضلٍ مَماري متاجرٍ بالدين والإيمانِ

ذاتك بالعِرفانِ

يا غافلَ الأفغانِ

- ٨ -

يُدعى الزاغُ أنَّ ريشَكَ قُبَحَ ويقول الخفَّاشُ : أعمى جهول

ما رُذال البُغاثِ يا صقراً ! تدري في عَنانِ السَّمَاءِ كيفَ تصول

كيفَ تدري بحالِ طائرٍ عزمَ كُلُّه في المطارِ عينٌ تجول

لا يُسِفَّ العَشْقُ دَابَّ الهوسِ بَذبابٍ بازياً لا تَقْسِرِ
رَبِّ رَوْحٍ حَالٍ حَتَّى لَيَرَى عَنْدَلِيبٌ عَشَّةً كَالْمَحِيسِ
مُزْمَعُ الْأَسْفَارِ لَا يَبْغِي صَدَى مَنْ أَدَانِ بِرَحِيلِ الْغَلَسِ
أُتْرَى قَافِلَةُ الْمَوْجِ لَهَا فِي مَسِيرِ حَاجَةٍ بِالْجَرَسِ
خَدَعُ الْعَيْنِ فَتَى مَدْرَسَةٍ قَبَدَتْ فِيهِ حَيَاةُ الْأَنْسِ
وَهُوَ مَيِّتٌ وَمِنَ الْغَرْبِ اجْتَذَى مَا سَرَى فِي صَدْرِهِ مِنْ نَفْسِ
إِنْ تُرِدَ تَرْبِيَةَ الْقَلْبِ فَمِنْ نَظَرِ الْمُؤْمِنِ شَزْراً فَاقْبِسِ

سَوَادُ عَيُونِ عِثْرَتِهِ فَتَى حَلِيفُ طَهَارَةٍ وَفَتَى ضِرَابِ
يُرى فِي السَّلْمِ ظِيماً ذَا جَمَالٍ وَفِي يَوْمِ الْكَرِيهَةِ لَيْثٌ غَابِ
بِهِ نَارٌ تُحَرِّقُ كُلَّ شَيْءٍ وَحَسْبُ الْغَابِ مِنْ شَرِّ الثَّقَابِ
جَاءَ اللَّهُ أَتْهَةً وَمُلْكاً بِفَقْرِ حِذْرِيٍّ وَاحْتِسَابِ
سَيْلُ النَّجَاحِ حَسْرُ الرَّأْسِ عَنْهُ فَلَا تَنْظُرْ إِلَيْهِ بِارْتِيَابِ^(١)

فِي بَارِحَاتِكَ لَالَاتُ أَنْوَارِهِ يَسْطِيعُ نُوراً ذَا السَّرَاجِ الْخَابِي^(٢)
يَشْكُو الضَّعِيفُ مِنَ الزَّمَانِ صُرُوفَهُ وَالْحَزَنُ فِيهِ بِاسْمٍ لِحَرَابِ
مِنْ صَوْتِ طَيْرِ الصُّبْحِ يَدْهَشُ ذَا الْفَتَى أَمْرَاهُ أَهْلَ تَطَاعِنٍ وَضِرَابِ

(١) وهو حاسر الرأس ولكنه طموح إلى التاج ، أو هو في همته وعزته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهل لأن يضيء مرة أخرى ، يعني : الإسلام .

حذري لأنك في طبع طفولة والغرب تاجر سكر وجلاب^(١)

- ١٢ -

بلا دين ولا دين	هوثة في الفخ رجلاه ^(٢)
دواء العاجز المغلوب	« لا غلاب إلا هو »
وصياد المعاني ما	رجث في الغرب عيناه
فضاء موزق لكن	غزال المسك خلأه ^(٣)
يقوم ذاته سحرأ	بدمع العين أوأه ^(٤)
فهذا الرزق أحسنه	على الأمواه تلقاه
ودير الكون ، زون الرري	سح والألوان معناه ^(٥)
على الكفار مستول	وذو الإيمان مولاه
إمام المسجد ! امنعه	أميرأ حين يغشاه
زوى المحراب حاجبه	ولم تعجبه تقواه ^(٦)

- ١٣ -

دنياك في عيني شيء آخر أنى لعينك - ليت شعري - تظهر

- (١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحب السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافت على تجارتها .
- (٢) يشير إلى مصطفى كمال وأتباعه سياسة لا دينية ، وأخذ الحروف اللاتينية للغة التركية .
- (٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزلاً مكياً يصده وإنما هي فضاء لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يبحثها .
- (٤) الأواه : المتعبد ، الرقيق ، كثير الدعاء .
- (٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنام من الألوان والروائح ، يستعبد الكفر ، ولكنه مسخر للمؤمن .
- (٦) تخيل زاوية المحراب تقطياً لصلاة أمير ليس فيها معنى الصلاة .

مَاذَا التَّقَلُّبُ فِي عَقُولِ شَبَابِنَا
شَيْخَ الْمَسَاجِدِ! مَا دُعَاؤُكَ سُخْرَةً
مَا «الذَّاتُ» يُرْجَى فِي رِبَاطٍ خَلَقَهَا

فِي كُلِّ صَدْرِ قَدْ تَبَدَّى مَحْشَرٌ
أَبَهُ الْحَيَاةُ بِلَا جِهَادٍ تَظْفَرُ^(١)
هَلْ لِلشَّرَارِ مِنَ الرَّمَادِ تَسْفُرُ^(٢)

- ١٤ -

كُلُّ عَشْقٍ دُونَ إِقْدَامِ هَوَى
وَيْلَتَا مِنْ تَرْفٍ! أَيْنَ فَتَى
خَلْوَةُ الْأَطْوَادِ لَيْسَتْ وَحِشَةً

وَيَدُ اللَّهِ بَعْثَقَ مَخْطَرِ
تَخِذْ الْأَهْوَالَ زَادَ السَّفَرِ
يَعْرِفُ «النَّفْسُ» بِهَا ذُو الْبَصَرِ

- ١٥ -

عِلْمُ فَقْرٍ لِسَالِكٍ غَيْرُ صَغْبٍ
لَا يَكُونُ الْفُؤَادُ جَوْهَرَ سَيْفٍ
إِنَّ قَهْرَ الْإِلَهِ فَقْرٌ ذَلِيلٌ
قَدْ سَبَاكَ الْفَرَنْجُ نَفْسًا وَلَكِنْ

حَدَّثَ النَّاسَ عَنْ هُدَاهِ الضَّمِيرُ
إِنْ يَكُنْ فِي الطَّبَاعِ مِنْهُ حَرِيرٌ
وَسَبِيلُ السُّلْطَانِ فَقْرٌ غَيُورٌ
أَنْتَ يَا مُؤْمِنُ الْبَشِيرُ النَّذِيرُ^(٣)

- ١٦ -

مَوْتُ الشُّعُوبِ بُعْدُهَا
وَالذَّاتُ إِمَّا رُكُوزُ
فَقْرٌ تَرَاهُ شَاكِيًا
بِقَافٍ عَلَيْهِ مَسْحُورٌ
وَلَمْ يَزَلْ مُيَسَّرًا
أَنْ يَجْعَلَ الصُّخُورَ كَالْذَّرَاتِ غَيْرِ مُعْجَزِ^(٤)

عَنْ جَذَبَاتِ الْمَرْكَزِ
فَلِلْمَعَالِي تُرْكَزِ
جَوْرَ الزَّمَانِ اللَّحْزِ
مِنْ اجْتِدَاءِ الْكَزْرِ
لِلْبِرِّ فَعِلْ الْمَعْجَزِ
لِلذَّرَاتِ غَيْرِ مُعْجَزِ^(٤)

(١) فِي الْأَصْلِ شَيْخَ الْحَرَمِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَسَاجِدَ عَامَّةً .

(٢) الرِّبَاطُ : مَقَامُ الصُّوفِيَّةِ ، وَفِي الْأَصْلِ خَانِقَاهُ .

(٣) جَاءَ هَذَا الْمَصْرَاعُ فِي الْأَصْلِ بِالْفَارْسِيَّةِ .

(٤) لَا يَحُولُ دُونَ هِمَّةِ الْحَرِّ شَيْءٌ مِنْ عَالَمِ الْمَادَّةِ فَهُوَ يَحِيلُ الصُّخُورَ ذَرَاتٍ ، فَلَا تَكُونُ فِي =

فَأَيْنَ يَا مُؤْمِنُ أَنْتَ
مَا فِي جِهَادِ لَذَّةٍ
يَا شَمْسُ مِنْ سُرَادِقِ الْمَشْرِقِ
وَكَسِي جِبَالِي حُلَّةً

الْيَوْمَ لَمْ تُبْرِزْ
جَمْرُكَ فِيهِ مُعْوزِي^(١)
رَقِ هَيَّا فَاِبْرُزِي
تُزْهِى بِلَوْنِ الْقُرْمُزِ

- ١٧ -

إِنْ يَكُنْ فِي الْأَلُوفِ رَبٌّ يَقِينُ
رَبِّمَا تَنْشِئُ الصَّحَارَى فَقِيرًا
يِرَاعُ لَكَ اكْتَبَنْ لَكَ حِظًّا
ذَا الْقَضَاءِ الَّذِي يُسَمَّى سَمَاءً
هُوَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ يُدْعَى سَمَاءً

نَفَخَ النَّارَ فِي شَبَابٍ وَشَيْبِ
يَخْلُقُ الدَّرَّ مِنْ حَصَى فِي الْجُيُوبِ^(٢)
لَمْ يَخُطَّ الْجَبِينُ رَبُّ الْغُيُوبِ^(٣)
لَيْسَ شَيْئًا لَدَى الْعُقَابِ النَجِيبِ
وَهُوَ أَرْضٌ تَحْتَ الْجَنَاحِ الْهَبُوبِ

- ١٨ -

أَيُّ قَوْلٍ لِشِيرِشَاهٍ رَشِيدٍ
خَلَعُوا ثَوْبَ أُمَّةٍ جَمَعَتْهُمْ
ذَهَبَ الدِّينُ فِي الْجِبَالِ شِعَاعًا
حَرَمٌ فِيهِ حُرْمَةُ اللَّاتِ تَرَعَى

فِي اخْتِلَافِ الْقَبِيلِ ذَلَّ الْعَبِيدُ^(٤)
وَأَزْدَهُوا بِالْوُزَيْرِ وَالْمَحْسُودِ^(٥)
كُلُّ حَزْبٍ لِلْبُدَةِ فِي سَجُودِ^(٦)
فَحَبَاكَ الْمَوْلَى بِضَرْبٍ سَدِيدِ^(٧)

طريقه عقبات .

- (١) ليس في الجهاد لذة ما لم تكن فيه حرارة الإيمان . وجمُرُ المؤمن يفترق اليوم في الجهاد .
- (٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .
- (٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .
- (٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .
- (٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .
- (٦) اللبد : الضنم .
- (٧) هذا حرم ولكن فيه أصنام . فالله يوقفك لضرب تكسر فيه الأصنام ، كما كسر الرسول =

ليس الذي يُدرك الألوان بالبصر
يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلة
وحانة الغرب للصادي مفتحة
لك الممات بهذا الشكر مُستَر
هل يسمعن بنو الخانات موعظتي
بل مُفتن عن ضياء الشمس والقمر^(١)
تقدمن . ليس هذا مُنتهى السفر
ما الشكر فيها بعلم العصر بالنكر
إن لم يكن فيك للتوحيد من شر^(٢)
في شملة لست ذا تاج ولا سر^(٣)

مقاصد الفطرة العلياء يحفظها
يراقب السحر في التمدين يُطله
للحُسن واللطف صاغ الروض بلبه
يا شيخ كم تُعجب الأبصار مدرسة
هل يعرف الدهر للإسلام من شبه
من عاش في اليد أو في الطود إنسانا
في فقره أودع الخلاق سلطانا
وتنشىء اليد للإقدام عقبانا
لكن في اليد فاروقاً وسلمانا^(٤)
في نشوة تتحدى السيف غضبانا



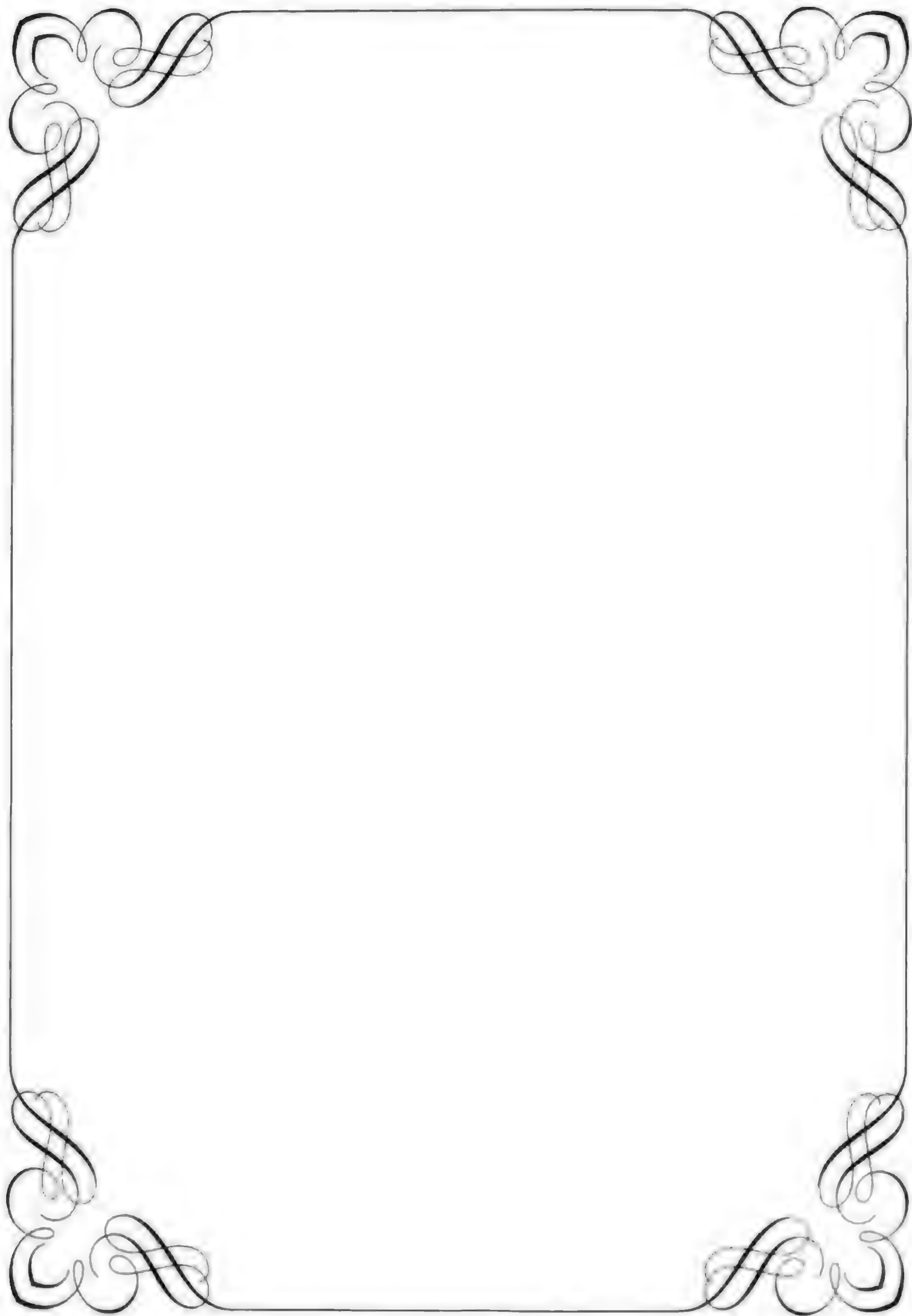
= أصنام الكعبة .

- (١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .
(٢) لا ضمير في أن تأخذ علوم العصر وتنشي بها ، ولكن الهلاك فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتوحيد .
(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثياب خشنة ، لست ملكاً ولا أميراً .
(٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .

الدُّيُونُ السَّابِعُ

رِسَالَةُ الْخُلُودِ
جَاوِيدِ نَامَةِ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ سِفْرًا
الدُّكْتُورُ حَسِينُ مَجِيبِ الْمَصْرِيِّ



يعتبرُ هذا الديوانُ الثَّحفةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢م ، وإنَّه يُبرزُ قوَى الشاعر الفكريَّة وذراها الرُّفيعَة ، وفيه توريَّةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الديوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصَّة دانتى الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أن تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّومِيّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثم يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليَّه جلالَ الدِّين الرُّومِيّ إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم الأول يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الرُّومِيّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرة يأكلُ ويشربُ في تأمُّلٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثه مع الرُّومِيّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافة الشرقيَّة والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملًا المادِّيات ، بينما الغرب قد ركز على المادِّيات مهملًا الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّومِيّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النَّوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعر إلى وادي جرغميد ، حيث يرى الشاعرُ كتبَ البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربع شخصياتٍ ، فتعاليمُ بوذه تُشرحُ على لسان فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليمُ المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشاعرُ بعد ذلك إلى « عطار د » حيث يقابل جمالَ الدِّين الأفغانِي^(١) وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدِّم الرُّوميُّ الشاعرَ على أنَّه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغانِي ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاء التي ترتكبها أممُ الشَّرْقِ خاصَّةً الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشَّرْق والغرب ، ويبين أنَّ إنقاذَ وخلاصَ الجنس البشريَّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تزواج العقل بالعشق .

ويحكي سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنَّهر الحيِّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلَّا » فقد اقتصرت وظيفته على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشاعر في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّوميُّ الشاعرَ إلى إقليمٍ يقعُ مباشرةً تحت نهرٍ ، حيث يقيم فرعون وكتشز ، ويقدِّم فرعونُ الاعتذارات ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحذِّرُ الآخرين كي يكونوا أكثر حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّوميُّ بين « الأثوقراطية »^(٢) والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المَرِّيخ » حيث يقابل فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المريخ مشكلةَ القضاء والقَدَر ، وفي رأي الحكيم أنه من

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريين » أصدره والشيخ محمد عبده مجلَّة « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

ويقابلُ الشاعرُ كذلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعر الهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوتَ الإلهيَّ المقدَّسَ يوضحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يكمنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي القسم الثامن الذي هو الأخير يخاطب فيه الشاعرُ الشَّبابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحُهم بتجنُّب الرفقة الشرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاح المستمر .

وقد نقلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدِّم الآن إلى القراء هذا الديوان في عنوانه الأصل الذي سمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالةُ الخلود) توريةً إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم .



بَدَّدَ الْغَيْبَ بَنُورٍ قَدْ بَدَا
يَا إِلَهِي مِثْلَ هَذَا الْيَوْمِ هَبْنِي
آيَةَ التَّخْيِيرِ فَيَمَنْ أَنْزَلْتَ
(عَلَّمَ الْأَسْمَاءَ) سَرٌّ مِنْ دَرَاهِ
مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْذَا تَضَطَّفِي
قَدْ رَشَقْتَ الصَّدْرَ مِنَّا بِالسُّهَامِ
لَكَ وَجْهٌ هُوَ قِرَانِي وَدِينِي
لَوْ زَمَتْ أَلْفَ شُعَاعٍ شَمْسُنَا
قَيْدُ هَذَا الْعَصْرِ قَيْدٌ مِنْ نُهْيِ
وَيَمُرُّ الدَّهْرُ مِنْ عَمْرِ الْوُجُودِ
أَنْتَ مَا لَمْ تَفْلَحِ الْأَرْضَ الْجَدِيدَةَ
إِنْ نَمَّا مِنْ ذَلِكَ الطَّيْنِ الْمَهِينِ
أَنْتَ بَدْرٌ مَرَّ بِي فِي مَخْدَعِي

وَعَلَى الدَّهْرِ سَيِّقِي سَرْمَدًا^(١)
إِنَّ يَوْمِي مُزْمَهَرٌ فَلْتُغْنِنِي^(٢)
هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَيَمَنْ حَيَّرْتَ^(٣)
أَسْكُرْتُ مِنْ خَمْرِهَا أَوْ مِنْ سَقَاهِ^(٤)
فَالِيهِ بُخْتُ بِالسَّرِّ الْخَفِيِّ^(٥)
حَرْفٌ ﴿ اَدْعُونِي ﴾ ، لِمَنْ هَذَا الْكَلَامُ؟^(٦)
أَنْضُرُ؟ وَعَلَى رُوحِي الْحَزِينِ
مَا رَأَتْ فِي الشَّمْسِ نَقْصًا عَيْشًا
أَيْنَ رُوحٌ لِي تَنَاهَى صَبْرُهَا^(٧)
كَيْ نَرَى رُوحًا وَمَا فِيهَا خُمُودُ
لَمْ تَنْلُ مَا كُنْتَ تَبْغِي مِنْ رَغِيبةٍ^(٨)
قَلْبُ إِنْسَانٍ فَذَا كَنْزٌ ثَمِينٌ
ظَلَمَةُ الرُّوحِ تَأْمَلُهَا مَعِي

(١) السَّرمَدُ : الدائم .

(٢) ازمهر اليوم : اشتدَّ برده .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والثمار ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أنَّ هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .

(٥) اضطفى : اختار .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] أي : اعبدوني أثبكم .

(٧) التَّهْيَ : العقل ، وتناهى : بلغ النهاية .

(٨) فَلَاحِ الْأَرْضِ : شَقَّهَا لِيَزْرَعَهَا . وَالرَّغِيبةُ : الْأَمْرُ الْمَطْلُوبُ .

لَمْ نَزِدْ عَنْ هَشِيمِ شَعْلَةٍ
عِشْتُ مَا قَدْ عِشْتُ لَكِنْ فِي الْفِرَاقِ
افْتَحَنْ كُلَّ بَابٍ لِي هُنَاكَ
هَآكَ صَدْرِي فِيهِ أَشْعِلُ لَهَا
نَحْ تِلْكَ النَّارَ عَوْدِي أَوْقَدَنْ
أَجْجِ النَّارَ بِكَأْسِي خَمْرَةٍ
قَدْ طَلَبْنَاكَ وَمَا تَبَدُّو لَنَا
وَعَنِ السَّرِّ أَمِطْ سِتْرًا خَفَاهُ
دَوْخُ فِكْرِي لَا يُرْجَى مِنْ ثَمَرِ
قَدْ وَهَبْتُ الْعَقْلَ فَاْمُنَحْنِي الْجَنُونَ
إِنَّمَا لِلْعِلْمِ فِي الْفِكْرِ الْمَقَامُ
وَإِذَا الْعِلْمُ عَنِ الْعِشْقِ انْفَرَدُ
فِيهِ سِخْرُ السَّامِرِيِّ ظَاهِرُ
بِالتَّجَلِّي عَالَمُ الْقَوْمِ اهْتَدَى
عِشْنَا لَوْلَا التَّجَلِّي سَقَمْنَا
هَذِهِ الدُّنْيَا بِهَا بَحْرٌ وَبِرْ

أَيَخَافُ الْبَرْقُ لَيْلًا زَلَّةً ١
اهْدِنِي رَبِّاهُ مَزْرُقَ الرُّوَّاقِ (١)
وَاجْعَلِ الطَّيْنَ نَجِيًّا لِلْمَلَائِكِ (٢)
وَدَعْ الْعُودَ وَأَضْرِمِ حَطَبًا
وَعَلَى الْكَوْنِ دُخَانِي بِدَدَنْ
وَبِفَضِّ الطَّرْفِ هَبْنِي نَظْرَةً
إِنَّمَا كَانَ عَمَانًا ذَنْبَنَا
أَوْخُذِ الرُّوحَ الَّتِي مَا إِنْ تَرَاهُ (٣)
أَرْسِلِ الْمَعُولَ أَوْ رِيحَ السَّحَرِ (٤)
وَاهِدِ هَذَا الْقَلْبَ لِلْجَذْبِ الدَّفِينِ
عُشْتُ ذَاكَ الْعِشْقَ قَلْبٌ لَا يَنَامُ
مَسْرَحًا أَضْحَى لِأَفْكَارٍ تُعَدُّ
عِلْمُنَا مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ سَاحِرٍ (٥)
مَا رَمَاهُ الْوَهْمُ فِي جَوْفِ الرَّدَى
عَقَلْنَا مَنْ وَجَبَرُ دِينُنَا
نَحْنُ نَزَنُو وَهِيَ مِنْ يَرْوِي الْخَبِرَ

(١) مَزْرُقُ الرُّوَّاقِ : السَّمَاءُ .

(٢) يَرِيدُ بِالطَّيْنِ نَفْسَهُ ؛ لِأَنَّهُ إِنْسَانٌ خَلِقَ مِنْ طِينٍ . وَالنَّجْيُ : صَاحِبُ الرِّ . وَالْمَلَائِكَةُ : الْمَلَائِكَةُ .

(٣) خَفَاهُ : أَخْفَاهُ .

(٤) الدَّوْحُ : جَمْعُ دَوْحَةٍ وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ .

(٥) بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ، تَحَيَّنَ رَجُلٌ يُسَمَّى السَّامِرِيُّ غَيْبَتَهُ ، وَأَخَذَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ ، وَأَلْقَاهَا فِي النَّارِ ؛ لِيَسْبِكَ مِنْهَا عَجَلًا ، وَجَعَلَهُ بِحَيْثُ يَكُونُ لَهُ صَوْتُ كَالْخَوَارِ ، وَخَدَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَوْلِهِ : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى .

فَلْيَلْقَ الْبَذْرُ إِلَيْهِ فَلْتَعْدَ^(١)
وَكَلَامُ الْهَجَرِ يَخْلُو مِنْ خِتَامِ
مِنْ بَعِيدٍ فَلْتَقُلْ إِنِّي قَرِيبٌ
فَكُلُّ صَوْبٍ وَشِمَالٍ وَجَنُوبٍ
وَوَرَاءَ كُلِّ نَجْمٍ اسْتَبَقَ^(٢)
وَلَنَا الْأَنْفَاسُ عَمْرٌ مُسْتَعَارُ
أَيُّ عَبْدٍ غَارَ مِنْ صُنْعِ الْإِلَهِ^(٣)
لَمْ يَسِرَّ بِغِيَابٍ أَوْ حُضُورٍ^(٤)
وَأَنَا الْأَرْضُ أَسْكُنِي السَّمَاءُ
كُلُّ خَيْرٍ ، وَمَسِيرِي لِلْأَمَامِ
لَا وَلَا تِلْكَ السَّمَاءُ هَذَا الْكِتَابُ
أَيْنَ مِنْ غَاصٍّ عَلَى قَاعِي الْعَمِيقِ^(٥)
وَتَرَى فِي الْبَحْرِ مَوْجَاتٍ تَفِرُّ
وَلَدَيَّْ عَنْ غَدِي قَوْلٌ مَبِينٌ
وَلِيَكُنْ كُلُّ عَمِيقٍ كَالضُّحُولِ^(٦)

(١) فَلْيَلْقَ الْبَذْرُ بِكسر الفاء : القطعة منه .

(٢) اسْتَبَقَ : تَسَابَقَ .

(٣) مَازَ الشَّيْءَ : فَرَزَهُ عَنْ غَيْرِهِ .

(٤) جَابَ الْبِلَادَ : قَطَعَهَا .

(٥) غَاصَّ عَلَى اللَّوْلُو : غَطَسَ يَسْتَخْرِجُهُ .

(٦) الضُّحُولُ : جَمْعُ ضَحْلٍ ، وَهُوَ الْمَاءُ لَا عَمَقَ لَهُ .

تمهيد سَمَويّ

في اليوم الأول لِلْخَلْقِ ، تثنّي السَّماءُ على الأرضِ بِالْمَلَامِ
لِلْخُصُورِ لَذَّةً أَوْ لِلْغِيَابِ
كَانَ لِلْأَنْفَاسِ خِيْطٌ فَانْقَطَعَ
وَبِهَا قَدْ خُلِقَ الْكَوْنُ الْعُجَابُ
حَيْثُمَا تَمْضِي تُشَاهِدُ قَائِلًا
بَنَتِ الْحَيْرَةَ صَرْحاً مَا انْصَدَعَ^(١)
عَلَّمُوا الْأَنْجَمَ طُرّاً سَيْرَهَا
بَعْدَ شَوْقٍ : لَسْتُ مِثْلِي يَا فُلَا^(٢)
هَذِهِ الشَّمْسُ أَقَامَتْ خِيْمَةً
مَنْحُوها فِي السَّمَاءِ نُورَهَا^(٣)
أَوَّلُ الْإِصْبَاحِ فِي الْأَفْقِ انْبَثَقَ
زَانَهَا الثُّبُرُ رَسوماً جَمَّةً
كَانَ لِلْإِنْسَانِ أَرْضٌ قَاحِلَةٌ
لَا تَمُرُّ فِي ثَرَاهَا قَافِلَةٌ
وَالْفِيَا فِي تَحْتِ غَيْمٍ مَا انْهَمَرُ
لَا وَلَا فِي الْمَرْجِ سِرْبٌ مِنْ ظِبَاءِ
الْتَّجَلَّى غَابَ عَنْ بَحْرِ وَبَرٍ
وَأَنْطَوَتْ تَحْتَ الثَّرَى فِي غَبْرَةٍ
فِي ربيعٍ مَا بَدَتْ مِنْ خُضْرَةٍ
لَا مَ تِلْكَ الْأَرْضُ مَزْرُقُ الْفَلَكَ
وَفَضَائِي لَيْسَ فِيهِ مِنْ ضَرِيرٍ
قَدْ يَطْوِلُ الثَّرْبُ طَوْداً فِي السَّمَاءِ
فَلْتَعِشِي مِثْلَمَا عَاشَ الْجَمِيلُ
فَاعْتَرَى الْأَرْضَ مِنَ اللَّوْمِ الْخَجَلُ

« مَا رَأَتْ عَيْنٌ كَهَذَا هَيْتَ لَكَ »^(٤)
لَكَ نُورٌ مِنْ سِرَاجِي أَيُّ نُورٍ
لَا يَضَاهِي فَلَكَا أَوْ أَنْجُمَا^(٥)
أَوْ فَمَوْتِي مِنْ شَنَارٍ لِلذَّلِيلِ^(٦)
بَعْدَ حَزْنٍ وَضِياعٍ لِالْأَمَلِ

(١) الصرح : كلُّ بناء عال .

(٢) يا فُلَا : ترخيم يا فلان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعال .

(٥) الثرب : التراب . والطود : الجبل .

(٦) الشَّنار : العيب والعار .

وَمَنْ الظُّلْمَةُ أَضْوَاهَا الْأَلَمُ
 يَا أَمِيناً لَسْتَ تَدْرِي مَا الْخَبِيرُ
 النَّهَارُ نَوْرُهُ مِنْ مُغْتَرِكِ
 نَوْرُ هَذَا الصُّبْحِ مِنْ شَمْسٍ جَرِيحِ
 نَوْرُ تِلْكَ الرُّوحِ مَاضٍ فِي سَفَرِ
 مِنْ كِتَابِ الرُّوحِ أَسْقَطَتْ « الْمَنَى »
 يَمْلِكُ الْعَقْلُ مِنَ الدُّنْيَا الْعَنَانِ
 يَهْتَدِي الْفِكْرُ وَمِنْ غَيْرِ الدَّلِيلِ
 يَا لَهُ تَرْباً يَطِيرُ كَالْمَلَكِ
 يَخْزُ الزُّرْقَاءَ جَسْمٌ فِي الْمَسِيرِ
 ثَوْبٌ دُنْيَانَا مَحَا عَنْهُ الْوَضَرُ
 وَرَقِيقُ الدِّينِ سَفَاكَ الدِّمَاءِ
 تَسْتَنِيرُ عَيْنُهُ بِالْكَائِنَاتِ
 مَنْ تَلْظَى عِشْقُهُ مِنْ حُسْنِ ذَاتِ

وَنَدَاءٌ جَاءَ مِنْ فَوْقِ الْقِمَمِ^(١)
 أَيُّ بَأْسٍ؟ ذَاتَكَ امْنَحْهَا النَّظَرَ
 لَيْسَ مِنْ نَوْرِ أَتَانَا مِنْ فَلَكِ^(٢)
 مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ أَنْوَارُ لِرُوحِ
 يَسْبِقُ الشَّمْسَ شُعَاعاً وَالْقَمَرَ
 وَهِيَ تَبْدِي مِنْ ثَرَاكِ ذَا السَّنَا^(٣)
 وَلِهَذَا الْعِشْقُ غَزْوُ اللَّامِكِ
 عَيْنُهُ يَقْظِي وَفَاقَتْ جِبْرِئِيلُ
 وَلَهُ يَبْدُو رِبَاطاً ذَا الْفَلَكَ^(٤)
 إِبْرَةٌ قَدْ خَرَقَتْ ثَوْبَ الْحَرِيرِ
 فَضَّلَهُ فِي عَيْنِهَا نَوْرُ الْبَصَرِ^(٥)
 وَهُوَ كَالْمِهْمَازِ فِي جَنْبِ الْقَضَاءِ^(٦)
 لَتَرَى الذَّاتَ تَجَلَّتْ فِي الصِّفَاتِ
 سَيِّداً أَضْحَى لِكُلِّ الْكَائِنَاتِ^(٧)



-
- (١) أضواها : أضعفها .
 (٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .
 (٣) السنا : النور .
 (٤) الرباط : مبنى لنزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .
 (٥) الوضر : الوسخ .
 (٦) رقيق الدين : الملحد .
 (٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة (١)

ويوماً تبهر الصلصال نورياً بأنوار
ويوماً تُضيح الأرض سما من نجم أقدار
خيال المرء ظمآن ، سيول الدهر ترويه
ويوماً خارج الأفلاك في أمن سُلقيهِه
وفي معنى لإنسان تأمل أنت ثم اسأل
ويوماً تغد تطويح سيمسي ذلك الأكمل
ويعلو منه شأن لم يكن في أمسه شيئاً
ويوماً أنت لا تلقاه عند الله مَرْضِيّاً

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوح روح جلال الذين الرومي ، وتناول بالشرح سر المعراج
شُعلة للعشق شبت في المدينة ضجة للقوم تطويها دفينه
تنشد الخلوة في طود أشم أو على الساحل من بحر خضم (٢)
ما وجدت لي حميماً مرة فقصدت البحر ألقى نظرة
ورأيت البحر في وقت الغروب زرقة فيها يواقيت تذوب
للضربير واهب نور البصر للمساء مكسب لون السحر
ثم ناجيت طويلاً مُهَجَّتِي وطلبت في خيالي مُنِيَّتِي (٣)

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسي أصلاً ، ولا يستعمل إلا رباعياً ، غير أن الفرس يستعملونه ثمانية . وقد أوردناه ثمانية كما ورد في هذا الشعر الفارسي .

(٢) الطود الأشم : الجبل المرتفع . البحر الخضم : العظيم الواسع .

(٣) المهجة : دم القلب . والمراد به هنا القلب .

إِنِّي الْفَانِي وَمَالِي مِنْ خُلُود وَأَنَا حَيٌّ وَمِثْلِي فِي الْخُلُود
ظَامِيٌّ وَالنَّبْعُ عَنْ ثَقْرِي بَعِيد فَإِذَا بِي مَشَدُّ هَذَا النَّشِيد

غزل

اَفْتَحِ الثَّغَرَ لَذَّةَ الشَّهْدِ اَطْلُبْ اَظْهِرِ الْخَدَّ رَوْضَةَ الْوَرْدِ اَطْلُبْ
هَذِهِ الْكَاسُ فِي يَدِي وَبِأُخْرَى شَعْرُهُ ، إِنَّ رَقْصَةَ الْوَجْدِ اَطْلُبْ^(١)
فِي دَلَالٍ تَقُولُ قُمْ أَنْتَ عِنَّا قُلْ وَكِرْزُ ، فَقَوْلَةَ الْقَنْدِ اَطْلُبْ^(٢)
أَنْتَ يَا عَقْلُ فَانصَرِفْ عَنْ هَذَا أَنْتَ يَا عَشْقُ صَحْوَةَ الْجَدِّ اَطْلُبْ^(٣)
إِنَّ تِلْكَ الْحَيَاةَ كَالسَّيْلِ تَمْضِي وَأَنَا الْحَوْتُ لُجَّةَ الْمَدِّ اَطْلُبْ^(٤)
ذَاكَ فَرَعُونَ أَزْمَضَ النَّفْسَ جَوْرًا نَوَّرَ مُوسَى بَلِيلَةَ الْبَرْدِ اَطْلُبْ^(٥)
طَافَ فِي اللَّيْلِ شَيْخُنَا بِسَرَّاجِ قَالَ إِنِّي مُؤَجَّلَ الْعَوْدِ اَطْلُبْ^(٦)
وَرَفَاقٍ كَرِهْتُ مِنْهُمْ حِصَالًا رُسْتَمًا لِي وَسَيِّدَ الْأَسَدِ اَطْلُبْ^(٧)

- (١) يريد برقصه الوجد رقص المولوية ، وهم أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أَنَّ الرَّقْصَ والسماع مما يشير في القلوب لوعة العشق الإلهي . ونصف رقصهم تفصيلاً في الصفحات الأخيرة من الكتاب .
- (٢) الْقَنْدُ : السكر .
- (٣) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .
- (٤) اللجة : معظم الماء . والمدُّ : ارتفاع ماء البحر .
- (٥) ذكرنا ليلة البرد هنا لأنَّ موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح برزنده فما أخرج الزند ناراً غير أنَّه شاهد ناراً من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَمَّا لَمْ أَلِكُمْ مِنْهَا يَاقَبِيرٌ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .
- (٦) العود : العودة وجعلناها مؤجلة للمبالغة .
- (٧) رستم : بطل الأساطير الفارسية المشتهر بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو عليّ كرم الله وجهه .

كم بحشنا ، وأي شيء وجدنا

قلتُ إنني برغمِ ذا الفقْدِ أطلبُ

فوقَ ماءٍ أغبرِ الموجُ نام
إنَّ منها اللَّيْلُ شيئاً قد سَرَقَ
روحُ « رومي » مرَّقتُ كلَّ الشُّتور
إنَّهُ شَمْسُ الصُّحَى فِي طَلْعَتِهِ
وبنورِ سمرمديّ قد أضاء
شفتاه فيهما سرُّ الوجود
إنَّ هذا القَوْلَ مرآةٌ تدلّت
غَيْرُ موجودٍ وموجودٍ؟ أجبني
قال لي الموجودُ ما ينبغي الظهور
للوجودِ زينةٌ تُدعى « أنا »
ألفوا يومَ « السّت » مجمعا
إنَّ تكنَ حيّاً أو الميتَ الدّفين
شاهداً فلتتخذهُ منْ شعور

غابتِ الشَّمْسُ وفي الأفقِ الظّلام
يشهدُ الكوكبُ بالنُّورِ ائتلق
ولها منْ خَلْفِ أطوادِ ظُهور^(١)
وشبابُ شبّه ، في مِيعَتِهِ^(٢)
منْ حُبورِ الخلدِ غطاءُ الرِّداء^(٣)
فكَّ عنه القَوْلَ فكاً للقيود
وهو علَمٌ فيه نارٌ قد تجلّت
غيرُ محمودٍ ومحمودٌ؟ أجبني
فالموجودُ يقتضي هذا الظُّهور
رغبةٌ في الذاتِ برهانٌ لنا^(٤)
« أينَ منْ يشهد ؟ » قالوها معا^(٥)
أو تجذُّ بالروحِ سلٌّ عن ذا الأمين^(٦)
أو عيونٍ مالها إلّا نور

(١) روميّ : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .

(٢) مِيعَةُ الشَّباب : أوَّلُهُ .

(٣) السمرمديّ : الخالد . والحُبورُ : الشُّرور .

(٤) أنا هنا بمعنى الذات أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كلية في واقع الأمر ، وتجلّي الحياة في الفرد ليس إلّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارة الإسلام .

(٥) يُكثِّرُ شعراء التصوُّف من الفرس ذكرَ يومِ « السّت » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٦) المراد بهذا الأمين : الشَّاهد .

واجعل الثاني شعور الآخرين
ولتكن ذات الإله خير شاهد
أنت إن واجهت ذاك الضياء
الحياة هي للذات الوصول
لم تلائم مؤمناً قط الصفات
ما هو المعراج ؟ مرجأة لشاهد
شاهد عدل ومما قاله
ما لإنسان ثبات في الحضور
ذرة لا تلق من هذا اللهب
أن تزيد الثور فيك ذاك أخلق
جسمك البالي جذد بالصقال

شاهد الذات بعين الآخرين
ولها نور به ذاتاً فشهد
نلت طولا سمردياً للبقاء
وهي ذات ليس يخفيها سدول^(١)
ما اختيار المصطفى إلا لذات
واختبار ، وتراه عين شاهد
عيشنا البستان أزهار له
أو هو الكامل لا يشكو القصور^(٢)
ثم ضنه مثل تذكير الحبيب
أن تضاهيه بشمس ذاك اليق
واختبر ذاتك عيش فالعمر طال

ليس بالمحمود إلا ذو الوجود

عيشنا لولاه ما يعلو الوقود^(٣)

قلت كيف نحن نمضي قصدنا الحق
وبعيد أمر عن أمرنا
قلت والسلطان إما كان لك
انتظر يوماً تعزى الكائنات

لجبال ومياه كيف ذا الشئ^(٤)
والرمان شفه في حلقنا^(٥)
لاستطعت اليوم تحطيم الفلك^(٦)
والغبار طال من ذيل الجهات

(١) السدول : جمع سدل ، وهو السر . واللام في اللذات بمعنى إلى .

(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي عنده
كالحكم العيني . ونقيضه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيب عن نفسه ،
ويستطيع مشاهدتها .

(٣) الوقود : النار وأتقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرق متبدد .

(٤) الحق : هو الله جل وعلا .

(٥) الشص : حديدة عققاء يصاد بها السمك .

(٦) إما : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

الأقل لا ترى والأكثر
قوله ﴿إلا سلطان﴾ تذكّر
بـولادِ اللهـذا الألمي
بـولادِ أنت قد تمضي بعيدا
ليس من ماء وطين ذا الولاد
ذاك من جبر وذا بالاختيار
بالبكا ذاك وذا بالابتسام
ذا سكون ، سيره في الكائنات
ذا ليل ولصبح حاجته
مولد للطفل بطناً قد فطر
ودليل العالمين في الأذان

أنت منه وهو منك ما ترى
أو فمّت في الوخل والذرّ المبعثر^(١)
كنت في دنيا الجهات الأربع^(٢)
وتفكّ عنك هاتيك القيودا
ما دراه قط إلا ذو فؤاد
ظاهر هذا وذا خلف الستار
باحث هذا وللثاني المرام
ذاك قط لا يسير في الجهات
ما هما إلا لذاك دأبته
للرجال المولد الدنيا فطر
ذاك بالروح وهذا باللسان^(٣)

مولد للروح حلّت جسمنا

زلزل الدنيا فماجّت حولنا

قلت لمولد معنى لا أراه
إنما دنياك غيب أو حضور
ولذات ذوبها في جلوة
جلوة للذات في نور الصفات
عقلها الدافع نحو الجلوة
والى العالم هذا العقل جاء

قال شأن من شؤون الحياة
ثابت هذا وللثاني المُرور
وتراها جمعت في خلوة
لكن الخلوة من نور لذات
عشقها الماضي بها للخلوة
كي يحلّ اللغز من طين وماء

- (١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿يَتَنَفَّسُ الْيَمِينُ وَالْأَرْضُ إِن يَشَاءُ تَنَفُّذًا مِنْ أَمْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .
(٢) الولاد : الولادة . والألمي : الذكي الحصيف .
(٣) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

كُلُّ جَلْمُودٍ لَهُ أَضْحَى أَدِيْبَا
عَيْنُهُ تَأَلَّفَ ذَوْقاً لِلنَّظَرِ
يَرْهَبُ السَّيْرَ فَيَمْضِي كَالضَّرِيرِ
حَيْثُ كَانَ الْعَقْلُ فَوْقَ الْقُوَّةِ
أَمْرُهُ شَيْئاً فَشَيْئاً يَنْتَظِمُ
مَا دَرَى الْعِشْقُ شَهوراً مِنْ سَنِينَ
وَيَشُقُّ الْعَقْلُ شَقّاً فِي الْجِبَلِ
وَمِنْ الْعِشْقِ جِبَالٌ كَالْهَيْثِمِ
إِنَّمَا الْعِشْقُ يَبِاتُ اللَّامَكَانِ
لَيْسَ يَقْوَى الْعِشْقُ مِنْ رِيحٍ وَمَاءٍ
خَيْرَآ نَالَ بِخَيْرٍ مِنْ شَعِيرِ
رَأْسٍ نَمْرُودٍ بِلَا ضَرْبٍ حَظَمِ
إِنَّهُ فِي الرُّوحِ ، فِي الْعَيْنِ الْبَصَرِ
وَالرَّمَادُ الْعِشْقُ وَالْعِشْقُ الضَّرْمِ
وَهُوَ سُلْطَانٌ وَبِرْهَانٌ مَبِينِ
أَمْسْنَا وَالْغَدُ وَهُوَ اللَّأَزْمَانِ
مَنْ إِلَهَ الْكَوْنِ ذَاتاً يَطْلُبُ

ثُمَّ أَمْسَى الْبَرْقُ وَالْغَيْمُ الْخَطِيْبَا
لَا كَعَرِيْدٍ جَرِيءٍ فِي الْغَرَرِ^(١)
نَمْلَةً أَنْتَ تَرَاهُ إِذْ يَسِيرُ
أَمْ مَنْ يَهْوَى وَثِيْدَ الْخُطُوَّةِ^(٢)
فَمَنْى أَمْرٌ لَهُ يَوْمَآ يَتَمُ
لَا وَلَا حَتَّى قَرِيْباً مِنْ شَطُونِ^(٣)
أَوْ حَوَالِيهِ يَطُوفُ فِي مَهْلٍ
وَقُلُوبٌ كَالسُّمُوكِ إِذْ تَعُومُ^(٤)
وَالْمَمَاتُ دُونَ قَبْرِ اللَّعِيَانِ^(٥)
لَا وَلَا مِنْ قُوَّةٍ لِلْأَقْوِيَاءِ^(٦)
شَقٌّ ذَلِكَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ
جَيْشَ فِرْعَوْنَ بِلَا حَرْبٍ هَزَمَ^(٧)
كَامِنٌ فِيهَا وَهِيَ مِنْهَا انْتَشَرَ
يَفْضَلُ الدَّيْنَ وَمَنْ عِلْمُ أَهْمِ
وَلَهُ قَدْ عَفَّرَ الْكَوْنَ الْجَبِيْنَ
مَا دَنَا أَوْ شَطَّ وَهُوَ اللَّامَكَانِ
وَلَهُ الْكَوْنَ جَوَادٌ يُرْكَبُ

(١) العرييد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصُّوفي . والغرر : التعرُّض للهلاك .

(٢) أَمْ : قصد . والوثيد : البطيء .

(٣) الشطون : البعيد .

(٤) السموك : الأسماك .

(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .

(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .

(٧) حطم بمعنى حطم .

منه يبدو ما لقلب من مقام
يَهْبُ العشاقُ ربّاً نَفْسَهُمْ
عاشقٌ أنت ؟ على اللاصوب أقدم
أنت يا من أنت ميت في الحفير
لك لحنٌ مُطربٌ في المسمع
المكان والزمان اركب
اشحذ الأذن واشحذ عينكا
« من بسمع منه صوت النمل مرّا
تخرق النظرة لي كل الستور

إنما الإنسان هذاك النظر
فيه من كان يهوى قد غمر
كل هذا الجسم فاضهر في النظر
فعليك وعليك بالنظر^(٥)

من سموات تخاف ! لا تخف
الزمان والمكان فلتشاهد
نظر من جالوة إما سبق
حبة في جوف طين مظلّم
وهي لا تدري قريباً أنها

وسعة الدنيا تخاف ! لا تخف^(٦)
فيهما حالاً لروح أنت واجد
فاختلاف الغد والأمر انبثق
لا ترى علو الفضاء الأعظم
قد تمد في السماء غصنها

(١) الصوب : الجهة .

(٢) الحفير : القبر .

(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .

(٤) هذا البيت للشاعر الفارسي جلال الدين الرومي .

(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .

(٦) الوسعة : الاتساع .

ولها الجوهرُ نغرقُ للنماء

ومقامٌ ، وهما أيضاً سواء^(١)

قلتُ إنّ الجسمَ للأرواحِ مَحْمِلٌ أبصرَ الرُّوحَ وعن جسمٍ قَمِل^(٢)
إنّما الجسمُ تعلقُ الرُّوحِ حال قوْلُكَ المحمّلُ زوراً ومحال
ما هي الرُّوحُ ؟ احتراقٌ بالوجيب وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرّحيب^(٣)
واعتيادُ اللونِ والريحِ والجسد والمَقَامُ في الجهاتِ بالعدد^(٤)
القريبُ والبعيدُ في الضمير إنّما المعراجُ تغيّرُ الشُّعُورِ
في الشُّعُورِ ذاك من جذبٍ وشوق خلُصنَ الذّاتُ من تحتِ وفوق

ليسَ هذا الجسمُ للرُّوحِ النّظير

والثُّرابُ مانعاً من أنْ نطيرا^(٥)

« زروان » وهو روحُ الزّمانِ والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي^(٦)

دَبَّ في روحي فتورٌ من كلامه زئبقُ ذرّاتٍ جسمي من أمامه^(٧)

(١) النماء : النمو ، يقول : إنّ الحبة هي جوهرها .

(٢) المحمل : شقّان على البعير يُحمّل فيهما العدلان .

(٣) الوجيب : خفّقان القلب .

(٤) المقصود بتلك الجهات الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .

(٥) التراب هنا هو مادة جسم الإنسان .

(٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمانُ المطلق . وعند بعض المجوس : الذين

يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنّ هذين الإلهين ظهرا

من زروان ، ويُعرفون بالزروائيّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .

(٧) يعني بقوله : إنّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَفْتَةٍ شَاهَدْتُ بَيْنَ الْخَافِقِينَ
مَلَكٌ يَهْبِطُ مِنْ هَذَا الْغَمَامِ
هَذِهِ كَاللَّيْلِ وَالْأُخْرَى مُنِيرُهُ
فِي الْجَنَاحِ حَمْرَةٌ أَوْ صَفْرَةٌ
فِي طَبَاعٍ مِنْهُ سَرَبٌ لِلْخَيَالِ
فَتَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي سَمَاءِ
قَالَ زُرْوانُ أَنَا الدُّنْيَا قَهَرْتُ
كُلَّ تَدْبِيرٍ بِتَقْدِيرِ رَأْيَتِهِ
إِنَّ بِي لِلزَّهْرِ فِي الْغُصْنِ الثَّمَاءِ
تُضْبِحُ الْحَبَّةُ إِنْ طُرْتُ الْغُصُونَا
وَأَنَا مِنْ لِي الْعَتَابُ وَالْخُطَابُ
الْحَيَاةُ وَالْمَمَاتُ وَالنُّشُورُ
فِي يَدَيِ الْإِنْسَانِ بَلْ كُلُّ الْمَلَائِكِ
مَا قَطَفْتُ مِنْ وَرُودٍ فَهُوَ لِي
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَسِيرٌ فِي طَلْسَمِي
« لِي مَعَ اللَّهِ » حَدِيثٌ مِنْ وَعَاهِ
إِنْ أَرَدْتَ لِي رَحِيلاً مِنْ هُنَاكَ

السَّمَاءُ فِي غَمَامٍ كَاللَّجِينِ^(١)
طَلَعَتَاهُ فِي الْبَيَاضِ وَالْقَتَامِ^(٢)
هَاهُمَا يَقْطُرُ وَوَسْنَى كَالضَّرِيرَةِ^(٣)
وَلَجَيْنٌ أَزْهَرَتْهُ خُضْرَةٌ^(٤)
بَيْنَ أَرْضٍ وَنَجُومٍ فِي انْتِقَالِ^(٥)
لِجَنَاحَيْهِ جَدِيدٌ مِنْ فُضَاءِ
وَأَنَا مِنْ قَدْ ظَهَرْتُ وَاخْتَفَيْتِ
كُلَّ حَيٍّ فِي شِبَاكِي قَدْ حَمَلْتَهُ
وَلِتِلْكَ الطَّيْرِ فِي الْوَكْرِ الْغَنَاءِ
وَبِفَيْضِي الْوَضْلُ نَالَ الْعَاشِقُونَا
أُظْمِئَ الظَّامِي وَآتَى بِالشَّرَابِ
وَأَنَا النَّارُ وَجَنَّاتُ وَحُورِ
وَبَنِيَّ عَالَمٍ مِنْ فِيهِ هَالِكِ^(٦)
أَمْ مَا لِنَاطِرِنِكَ يَنْجَلِي
وَتَشِيخُ فِي زَفِيرٍ مِنْ قَمِي
سَرَى الْمَغْمُورُ فِي لُبْسٍ وَعَاهِ^(٧)
« لِي مَعَ اللَّهِ » اذْكُرَنَّ فِي فُؤَادِكَ

- (١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الفضة .
(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقتام : السواد ، والظلام .
(٣) وسنى : نائمة .
(٤) أزهر المصباح : أضواءه .
(٥) سرب صرباً : مضى في الأرض على وجهه .
(٦) الملائك : الملائكة .
(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لِي مِنْ رُؤْيَيْهِ
عَالِماً آخَرَ أَبَدِي يَأْتِرِي
بَيْنَ الْوَانِ وَرِيحٍ قَدْ قَضَيْتُ
وَأَنَا عَنْ عَالَمِي هَذَا انْقَطَعْتُ
لِضِيَاعِ عَالَمِي إِنِّي حَزِنْتُ
خَفْتُ جَسْمِي ، ذَاكَ رُوحِي مَا اسْتَقَرَّ
وَالْخَفَايَا مَا عَلَيْهَا مِنْ حِجَابٍ

قَدْ نَسِيتُ عَالَمِي مِنْ قُدْرَتِهِ
أَوْ كَأَنَّ عَالَمِي قَدْ غَيَّرَا
وَإِلَى دُنْيَا الْكَوْنِ قَدْ مَضَيْتُ^(١)
عَالِماً آخَرَ إِنِّي قَدْ مَلَكَتُ
مِنْ تُرَابِي غَيْرِهِ هَا قَدْ وَجَدْتُ
وَبِقَلْبِي زَادَ نُورٌ لِلْبَصْرِ
وَالْتَّجُومُ لِحْنُهَا لِحْنٌ عُجَابٍ

زَمْزَمَةٌ^(٢) النُّجُوم

عَقْلُكَ الْحَاصِلَ كَانَ لِلْحَيَاةِ
فَتَعَالَ ، أَنْتِ يَا هَذَا الثُّرَابِ
وَعَلَيْكَ الْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةُ الْحَمْدُ
رَغْبَةٌ فِي نَظَرَةٍ مِنْكَ أَثَارَتْ
وَطَرِيقٌ لِلْحَبِيبِ ، كَمْ جَدِيدٍ
إِنَّمَا هَذَا الْحَنِينُ لِلْوَحِيدِ
الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا الصَّفَاءُ

لَكَ عَشْقٌ هُوَ سِرُّ الْكَائِنَاتِ
مَرْحَباً وَلْتَمْضِ فِي دُنْيَا الْجِهَاتِ
نَاءٌ كَانَا فِي شَدِيدٍ مِنْ نِزَاعٍ
مَا أَثَارَتْ مِنْ تَجَلِّيِ الْمَعْجَزَاتِ^(٣)
وَجَدِيدٍ فِيهِ يَدُو لِّلَّتَّجَلِّيِ
فِي قُلُوبِ الْعَاشِقِينَ الشَّيْقَاتِ^(٤)
الْحَيَاةُ إِنَّهَا هَذَا النَّمَاءُ

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .

(٢) الزمزمة : الترتُّم ، أو التكلُّم بصوتٍ خفي . وقد آثرنا أن نترجم هذه المنظومة على نسقها في أصلها .

(٣) الزُّهْرَةُ : كوكبٌ معروفٌ وقد سكنت الهاء فيها لضرورة الشعر . يقول الشاعر : إِنَّ رَغْبَةَ الْمَشْتَرِي وَالزُّهْرَةَ فِي نَظَرَةٍ مِنْكَ إِلَيْهِمَا وَهُمَا الْمُتَنَافِسَانِ عَلَيْكَ ، مما أثار هذا التجلِّي .

(٤) الشيق : المشتاق .

الحياة مُلك ربي ، باعد الـ
غزلٌ إن شاقَ منك النفس يو
شحنة السلطان يبدو ثمَّ خـ
في العراقِ والشَّامِ بلْ وهـ
هؤلاء يطلبونَ الخُلُودَ دؤ
كي يَمُورَ البحرُ بالأمواجِ مؤ
متعةً للسَّيلِ يجري بالهدى
الفقيرُ كانَ ناراً كلُّ مُد
الملوكُ حَسْبُهُمْ في بطشهم
إِنَّ للصُّوفِيَّ عزّاً ياله
إِنَّ للصُّوفِيَّ جذباً من كليـ
يُقْتَلُ الصُّوفِيُّ بالعَيْنينِ لـ
ذاك يبغي السَّلمَ والصُّلحَ وهم
ذا وذاك يا لعمري يفتحـا
ولهذا كانَ قولُ لُيْنٍ

خطو سريعاً ولتسرَّ حتى الفناء^(١)
مأْ فله رَجَعَ الصُّباح ، امْتَحَنَ
حميراً بحانٍ ، جَزَّةَ الرِّاحِ امْتَحَنَ^(٢)
د ثم فرس ، يالفون الطَّعمَ حلوا
مأ ، طعم هذا العشقِ مرّاً ، امْتَحَنَ
رأ وهو طامٍ في عُرَامٍ واحتدام^(٣)
ر من حُدُورِ السَّهلِ نهراً ، امْتَحَنَ^(٤)
لك ليس إلا من غُثاء ، فاعْلَمَنَّ
من مُغْدَمٍ رَفَعَ النِّداء ، فاعْلَمَنَّ^(٥)
عزّاً ، وهذا المُلكُ للإسكندرِ
سم الله ، لكنَّ ذاكَ سِحرُ السَّامري
كنَّ الملوكُ بالجيوشِ قَتْلَهُم
يبيغون بالهيجاءِ حُكْمَ الجائرِ^(٦)
ن عالَمين ، والدَّوامُ بُغْيَةٌ
لكنَّ لذاكَ كانَ عَنفُ القاهرِ^(٧)

(١) النماء : التَّمَوُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .

(٢) الشُّحنة : من يقوم للسلطان بضبط اليد . والخمير : من يُدمن شرب الخمر . والرَّاح : الخمر .

(٣) يمور : يضطرب . الطامي : الممتلىء الجائش . العارم : العنف والشدة . والاحتدام بهذا المعنى .

(٤) الهدير : صوت أمواج البحر . والحُدُور : المكان ينحدر منه .

(٥) الغثاء : ما يحمله السيل من القش واليابس من أوراق الشجر . يقول : إِنَّ للفقير ناراً تحرق الملك قشاً وصوت الفقراء إذا ارتفع بالشكوى قَوْض ملك الملوك .

(٦) الهيجاء : الحرب .

(٧) أي أَنَّ الصوفي والملك كل منهما له عالم يفتحه ، وإن اختلف هذان العالمان ، وكيفية =

فَتَعَالَ وَتَقْدَمْ ، قَبْضَةُ الصُّوفِي قَدَمْ ، سَدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ حَطْمٌ
أَحْيَ مَا كَانَ لِمُوسَى مِنْ رَسْمٍ م ، لَيْسَ هَذَا السُّخْرُ غَيْرَ الْمَيْنِ ، حَطْمٌ^(١)



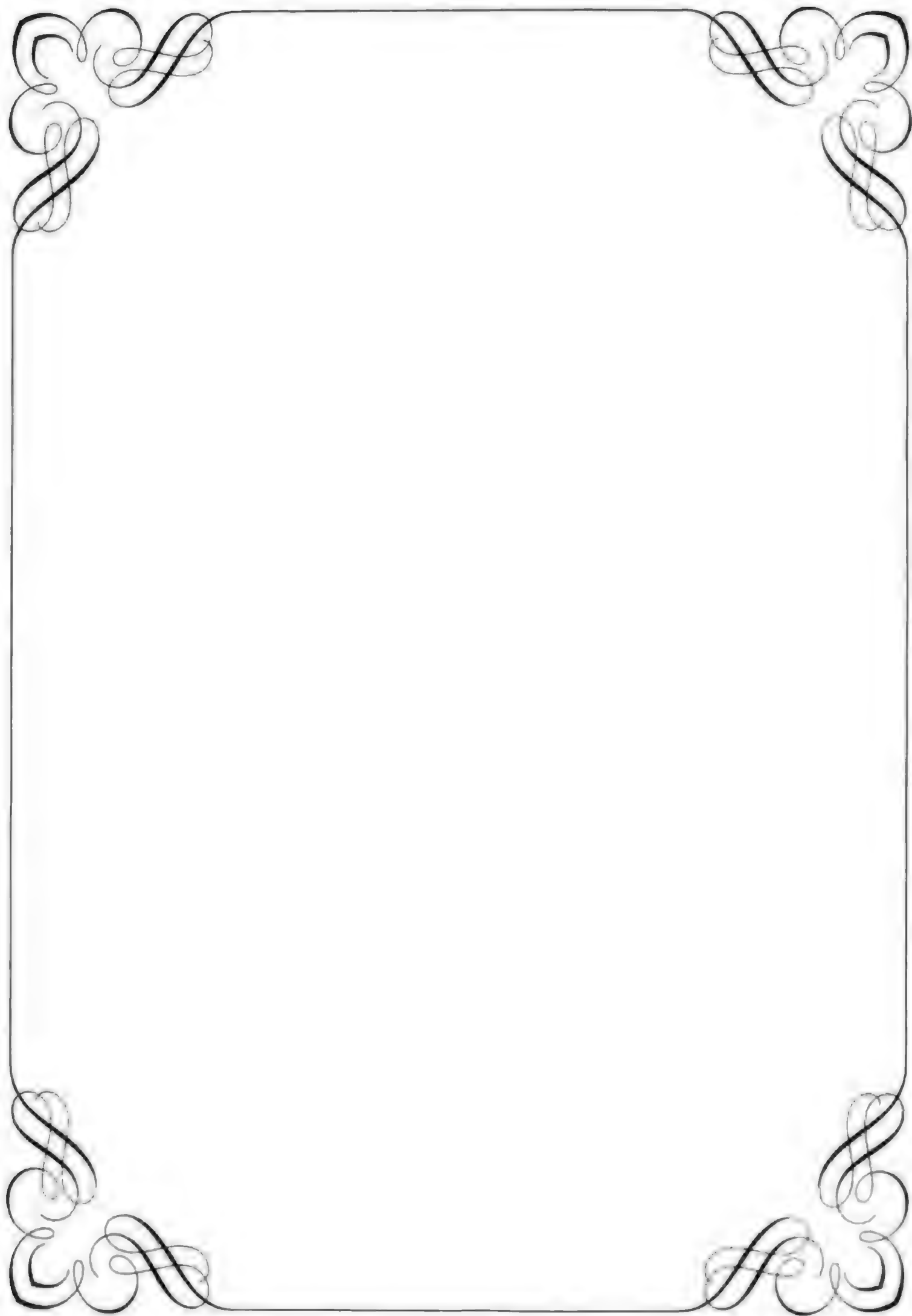
= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .

(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنه كان نبياً . وسمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي صفيرتان ، أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمي ذا القرنين لقرنين على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلوح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من قائل : ﴿ قَالُوا يَبْنَدا الْفَرَقَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .

القسم الأول

فَتَاكَ الْقَمَر





إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي وَالسَّمَاءُ
كُلُّ مَا لِلنَّاطِرِينَ قَدْ بَدَا
لَا تَسِرْ مِثْلَ الْغَرِيبِ فِي دِيَارِكَ
إِنَّ مِنْكَ الْقَوْلَ كُلُّ يَمْتَثِلِ
عَالِمٌ لِلْعَيْنِ وَالْأَذِنِ الصَّنَمِ
أَشْبَهَ الْمَجْنُونِ فِي وَادِي الطَّلَبِ
إِنْ طَوَّيْتَ الْأَرْضَ طَيًّا وَالسَّمَاءَ
غَيْرَهَا سَبْعًا مِنْ اللَّهِ أَطْلُبَنَّ
خَارِجَ الذَّاتِ بِشَطِّ الْكَوْثَرِ
لَوْ بَكَفَ الذَّاتِ عَنْ بَحْثِ أَمَانِ
الْشَرِّ مَا وَرَثْنَا وَالْ
بَعِثُونَ لَصَفِيٍّ فَاقَهُ
لَا تَخَفْ مِنْ غُرْبَةٍ مَرَّتْ
وَبِأَمْرِ أَوْ بِنَهْيٍ قَدْ
وَالزَّيْدِ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا
كُنْ كِإِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمٍ وَ
عَالَمِكَ أَطْوَى عَلَى حَدِّ
كَمْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ تَسْأَلُ
لَا تَرَى خَيْرًا وَشَرًّا يَنْبِ
كَانَ هَذَا الْقَبْرِ خَيْرًا مِنْ

وَتَمُوتُ الرُّوحُ مِنْ طُولِ الْمَقَامِ
أَيُّهَا الرَّاحِلُ ، فَاْمضِ لِلْأَمَامِ
وَمَعَ النَّجْمِ تَطِيبُ سَفَرَتِكَ
حِينَ كَانَتْ فِي الْفَضَاءِ وَطَاتِي
حَبَّذَا مِنْ غَيْرِ وَقَفٍ رَحِ
مَا عَلَا الْقَيْتُ تَحْتَ نَظَرِ

- (١) اخترمه الموت : أخذه .
- (٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولهه العشق حتى عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق إلا ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه أصنامهم .
- (٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرة من الأزمنة والأمكنة .
- (٤) انبرى : تعرض .

هذه الغبراء قنديل الليالي
 اقتربت في صعودي واقتربت
 ولة « الرومي » : بدد كل شك
 عُد البذر ولكن تألفه
 على رأسي ظلي قد بدا لي
 وعلى البذر جبلاً قد رأيت
 وترسم ما تراه للفلك^(١)
 منزلاً في نهجنا ذا نعرفه^(٢)
 ليله والصباح فيه ما يرى
 فيه غيران لإعجاب الوري^(٣)
 لاصمت ولرعب في الجبل
 تأمل « خافطين » و « يلدرم »
 زكا عشب يتلك الأرض قط
 جهام ، والرياح العاصفات
 الم ما فيه من لون وصوت
 بس في بطن له أصل الحياة
 سليل لذكاء ذا الوجود
 ولة : « الرومي » : تابع خطوتك
 اختفي بفضل فيه ما ظهر
 ذكي اللب كل ما حصل
 ظهر الدنيا لعين باصرة
 على رأسي ظلي قد بدا لي
 وعلى البذر جبلاً قد رأيت
 وترسم ما تراه للفلك^(١)
 منزلاً في نهجنا ذا نعرفه^(٢)
 ليله والصباح فيه ما يرى
 فيه غيران لإعجاب الوري^(٣)
 لاصمت ولرعب في الجبل
 تأمل « خافطين » و « يلدرم »
 زكا عشب يتلك الأرض قط
 جهام ، والرياح العاصفات
 الم ما فيه من لون وصوت
 بس في بطن له أصل الحياة
 سليل لذكاء ذا الوجود
 ولة : « الرومي » : تابع خطوتك
 اختفي بفضل فيه ما ظهر
 ذكي اللب كل ما حصل
 ظهر الدنيا لعين باصرة

(١) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسم الدار : نظر إلى آثارها وتأملها .

(٢) المنزل : مكان النزول . والنهج : الطريق .

(٣) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والوري : الناس .

(٤) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .

(٥) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .

(٦) ذكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .

(٧) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجن الشيء : جذبه إليه .

أَيْنَمَا يَخْمَلُكَ مَوْلَانَا انْطَلِقْ لَا تَفْكَرْ فِي سِوَاهُ وَاصْطَفِقْ^(١)
ثُمَّ شَدَّ الْكَفَّ مَنِي فِي مَهَلٍ
وَالِي غَارٍ حَيْثُ أَقْدَ وَصَلُ

الحكيم الهنديُّ الذي أثر الخلوة في غارٍ من غير أن القمر

ويسميه أهل الهند « صديق الناس كافة »

وَدَخَلْتُ ذَلِكَ الْكَهْفَ الْعَمِيقَ	كضربٍ قادني هذا الرَّفِيقُ
تَحْمِلُ الْمَصْبَاحَ شَمْسٌ لِلدُّخُولِ !	مِنْ ظِلَامٍ فِيهِ ذَا بَدْرٍ مَلُولِ
وَكَأَنَّ الْعَقْلَ مَنِي مَاتَ عَنِّي	وَعَذَابِي طَالَ فِي وَهْمِي وَظَنِّي
مَا بَقَلْبِي الصُّدُقُ أَوْ بَرَزْتُ الْيَقِينِ	وَمَضَيْتُ وَاللُّصُوصُ فِي الْكَمِينِ
ظَهَرَ الصُّبْحُ وَلَمْ تَبْزُغْ ذُكَاءُ ^(٢)	جَلْوَةٌ لَاحَتْ لِعَيْنِي فِي جَلَاءِ
أَرْضُ جَنٍّ نَخْلُهَا مِثْلُ الْأَكَمِ ^(٣)	هَذِهِ الْأَحْجَارُ عَبَادَ الصَّنَمِ
أَوْ خِيَالِي يَتَهَادَى فِي الْمَنَامِ ^(٤)	كَأَنَّ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ ذَا الْمَقَامِ
وَالظُّلَالُ وَمَضَى نَوْرٌ تَظْهَرُ	النَّسِيمُ مِثْلُ خَمَرٍ تُشْكِرُ
لَا وَلَا فِي الْأَفْقِ مِنْ أَلْوَانٍ وَرِدٍ ^(٥)	مَا زَايَتْ قُبَّةً مِنْ لَازَوْرِدِ
وَأَمَحَى صُبْحٌ وَلَيْلٌ مِنْ قَتَامٍ ^(٦)	مَا أَقَامَ الثُّورُ فِي أَسْرِ الظَّلَامِ

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذكاء : الشمس .

(٣) الأكَم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللأزورد : حجر تشبه زرقته زرقه السماء .

(٦) القَتَام : السواد والظلام .

وحكيمُ الهندِ في ظلِّ جلس
جِسمَهُ الوهنانَ عَرَى كَلَهُ
وعلى الإنسانِ من طينٍ مفضَّل
لا يُعَدُّ الوَقْتُ أياماً تمرُّ
قال للروميِّ من هذا الرِّفِيق ؟
عينُهُ في الكُحْلِ نورٌ لِلْغَلَسِ^(١)
حيَةً بيضاءُ تسمى حَوَلَهُ
صورةُ تلك الدُّنَى ممَّا تَخَيَّلُ^(٢)
والزُّمانُ لا يفيدُ أو يضرُّ
منيةُ الدُّنْيَا بعينِهِ البريق !

الرُّومِيُّ^(٣)

إنَّه الجَوَّالُ في وادي الطَّلَب
غُرَّةٌ منها له رأيٌ سديد
كأشبه قد أصبحت قوسَ السَّمَاءِ
كالعقابِ صَيْدُهُ لِلنَّيَّرينِ
كَلَّمَ الأرضَ كَمَنْ نَشَى بَدَنَ
لدخانٍ مِنْهُ نارٌ في صعود
ناحٍ كالنَّاي لِفَرْطِ الاشتياقِ
لست أدري السرُّ في صلِّصاله
والمَقَامَ ، والذي في منزله
يُشَبُّ السَّيَّارُ في السَّيْرِ اضطرب
وعلى عيبٍ له إني شهيد^(٤)
فِكْرُهُ يبغِي إلى الوحي انتماء
في السَّمَاءِ طوفُهُ بالخافِقَيْنِ^(٥)
والجنانُ عِنْدَهُ يَتُّ الوَثْنِ^(٦)
ورأيتُ الكبرياءَ في سجود
وقتلٍ في الوِصالِ والفِراقِ

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٢) الدُّنَى : جمع دنيا .

(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

(٤) الغُرَّة : الغفلة وعدم التجربة .

(٥) الثَّيران : الشمسُ ، والقمر ، والخافقان : المشرق والمغرب .

(٦) نَشَى : سكر . والدَّن : جرَّة الخمر . والفرس يشبهون الحسناء بالوثن أي الصنم في الحسن .

جهان دوست

مَا لِرَبِّ الْكَوْنِ لَوْنٌ ، وَهُوَ لَوْنٌ
أَيُّ رَبِّ أَيُّ إِنْسَانٍ وَكَوْنٌ ؟

الرومي

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ سَيْفٌ لِإِلَهِهِ ذَلِكَ الْكَوْنُ مَنْ قَدْ تَرَاهُ
شَاهِدَ الشَّرْقِ الْإِلَهَ وَخَدَّهُ وَأَشَاحَ الْغَرْبُ عَنْهُ خَدَّهُ^(١)
أَنْ تَرَى اللَّهَ بِعَيْنِكَ الثَّقَاةَ أَنْ تَرَى الذَّاتَ وَلَا سِتْرَ الْحَيَاةِ^(٢)
وَإِنْ الْعَبْدُ مِنَ الدُّنْيَا انْعَتَقَ رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ بِالْعَبْدِ اسْتَحَقَّ
إِنْ غَفَلْتَ ذَاتَ يَوْمٍ عَنْ قَدَرِ فَارِقِ الصَّلَاحَ رَوْحُ ذُو شَرَرِ

جهان دوست

فِي طَلَسِمِ اللُّوْجُودِ وَالْعَدَمِ ذَلِكَ الشَّرْقُ بِسَرٍّ مَا أَلَمَ
مَا لَنَا أَهْلَ السَّمَا إِلَّا النَّظَرُ فِي غَدٍ لِلشَّرْقِ تَحْقِيقُ الْوَطَرُ
شَاهَدْتَ عَيْنِي عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَلَكاً مِنْ قُبَّةِ الزُّرْقَا نَزَلَ
كَانَ مَنْ عَيْنِيهِ ذَوْقٌ لِلنَّظَرِ وَهُوَ بِالْعَيْنِينَ دَنَانَا غَمَرُ
قُلْتُ سَرّاً عَنْ صَفِيٍّ لَا تَكُنْ أَرْضُنَا كَيْفَ تَرَاهَا أَذْكَرُنْ
حُسْنُ نَجْمٍ لَاحَ فِي أَفْقٍ عَشِيقَتَا فِي قَلِيبِ السَّحَرِ قَلْباً قَدْ رَمَيْتَا^(٣)

(١) أشاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .

(٢) الثقا : التقوى .

(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي تكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان كانا يُعلَّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين في بئر . كما قيل : إنهما مثال لرجل اتقى ربه ، واقترب منه ، ثم أضله الشيطان .

قَالَ يَبْدُو الآنَ هَذَا الْمَشْرِقُ شَمْسُهُ الْأُخْرَى عَلَيْهِ تُشْرِقُ
يُظْهِرُ الْبَاقُوْتُ مِنْ صَخْرِ الطَّرِيقِ يَوْسُفُ يَخْرُجُ مِنْ جُبِّ عَمِيقٍ^(١)
وَيَوْلِي عَنْ دِيَارٍ مِنْ كَفَرٍ لِيَرَى عَنْ ذَلِكَ الْكُفْرِ الْمَقَرَّ^(٢)
حَبَّذَا شَعْبٌ بِرُوحٍ قَدْ خَفَقَتْ ذَاتُهُ مِنْ طِينِهِ هَذَا خُلِقَ
حَامِلُ الْعَرْشِ بِأَعْيَادٍ فَرِخٍ^(٣)

إِنْ رَأَى لِلشَّعْبِ عَيْنًا تَنْفَتَحُ

غَاصَ شَيْخُ الْهِنْدِ فِي صَمْتٍ قَلِيلًا فَرَأَنِي تَهْتُّ فِي فَهْمِي مَلُولًا
قَالَ : مَوْتُ الْعَقْلِ ؟ قُلْتُ : تَرَكْتُ فِكْرَ قَالَ : مَوْتُ الْقَلْبِ ؟ قُلْتُ : تَرَكْتُ ذِكْرَ
قَالَ : جِسْمٍ ؟ قُلْتُ : تُزِبُّ قَدْ تَرَاهُ قَالَ : رُوحٍ ؟ قُلْتُ : رَمَزُ لَلْإِلَهِ
قَالَ : وَالْإِنْسَانُ ؟ أَبَدَى سِرَّهُ قُلْتُ : وَجَّةَ شَطْرِهِ^(٤)
قَالَ : عِلْمٍ ؟ قُلْتُ : قَشْرٌ لَا يَطِيبُ وَالذَّلِيلُ ؟ قُلْتُ : وَجَّةٌ لِلْحَبِيبِ
قَالَ : مَا دِينُ الْعَوَامِ ؟ : مَا سَمِعْنَا قَالَ : دِينُ الْعَارِفِينَ ؟ : مَا رَأَيْنَا

طَابَ نَفْسًا قَرَّ عَيْنًا مِنْ مَقَالِي

صَفْوَةٌ مِنْ حِكْمَةٍ أَلْقَى بِيَالِي^(٥)

(١) الْجُبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثروا أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم فيكون مدعين أن الذئب أكله . وجاءت قافلة ، فلما أدلوا الدلو في الجب تعلّق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(٢) فِي الْأَصْلِ إِشَارَةٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا جَاءَ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهُوَ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ دَنَا أَتَخَذُ أَصْنَامًا إِلَهًا إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ٧٤] .

(٣) حَامِلُ الْعَرْشِ : أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .

(٤) الشَّطْرُ : الْجِهَةُ وَالنَّاحِيَةُ . وَشَطْرُهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ .

(٥) صَفْوَةٌ الشَّيْءِ : خُلَاصَتُهُ وَخِيَارُهُ . وَالْبَالُ : الْقَلْبُ .

تسع كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليس يُخفي عالمُ ذاتِ الإله
غائصاً ما رَدَّ رَسْمٌ في المياه

أنتَ إنْ في غيرِ ذي الدُّنيا وُلدتَ
بشبابٍ غيرِ هذا قد نَعِمْتَ

بعد موتِ ربِّنا ، وهو الحياة
لا يُحسُّ العَبْدُ شيئاً بالوفاء
نحنُ طيْرٌ بجناحٍ لا نظيرُ
علمُنا بالموتِ مقطوعُ النظيرُ

إنَّما الوقتُ سَمَامٌ في الشُّهاد^(١)
رحمةٌ في قَهَرٍ قَهَّارِ العِبادِ
ويلوحُ قَهْرُهُ في كلِّ صوبِ
رحمةٌ فيه مَضَتْ من غيرِ أوبِ

إنَّما الموتُ كفورٍ يا حَكِيم

(١) السَّمَامُ والشُّهاد : جمع سُمٍّ وشَهْد .

أَنْتَ إِنْ جَاهَدْتَ أَمْوَاتاً مُلِيمٌ^(١)
وَمَعَ النَّفْسِ التَّقَى فِي قِتَالٍ
يَا لَهُ اللَّيْثُ الْهَضُورُ وَالْغَزَالُ^(٢)

كَافِرٌ صَاحِي الْفَوَادِ ذُو صَنَمٍ
يَفْضُلُ الْمُؤْمِنَ نَامٍ فِي الْحَرَمِ

عَمِيَتْ عَيْنٌ رَأَتْ غَيْرَ السَّادِدِ
لَا تَرَى الشَّمْسَ اللَّيَالِي فِي سَوَادِ
صَحْبَةٍ لِلْحَبِّ وَالطَّيْنِ الثَّمَاءِ
صَحْبَةُ الْإِنْسَانِ وَالطَّيْنِ الشَّقَاءِ
يَرْضَى الْحَبُّ مِنَ الطَّيْنِ الْعَذَابِ
لِيَرَى الثُّورَ كَتَبَ فِي أَنْسَكَابِ
قَدْ سَأَلْتُ الْوَرْدَ ذَا الصَّدْرِ الْجَرِيحِ
أَيُّ حَسَنِ لَكَ مِنْ طِينٍ وَرِيحٍ؟
فَأَجَابَ : يَا حَكِيمًا مَا شَعَرَ
بُخْمُودِ الْبَرْقِ هَلْ يَأْتِي الْخَبَرَ !
رَوْحُنَا فِي الْجِسْمِ جَذْبٌ وَانْجَذَابُ
مَنْكَ مَا يَخْفَى لَدَيْنَا كَالشَّرَابِ^(٣)

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : المعلوم .

(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .

(٣) يقول : إنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي
أما جذبنا فظاهر .

تَجَلَّى سُروش^(١)

أوصد العارف باباً للكلام
إنَّه بالشَّوقِ والدَّوقِ انجذَبَ
بالحضورِ مِنْهُ ذراتُ كطور
في أساطير الليالي غايَّة
شعرُها المِعطارُ حتَّى خَصِرَها
وهي في سُكْرِ التَّجَلِّي أغرقت
ولديها دارُ مصباحِ الخيال
فيه تبدو كلُّ ألوانِ الشُّكول
قلتُ للرُّوميِّ بالسِّرِّ العليم
قال : « ذا الجسمُ لُجَيْنٌ يَلْمَعُ
ثمَّ حنَّ الشَّوقُ فيه للظُّهور
ومن الغُربةِ كان ذا نصيب

أُسكِرَتْه الذَّاتُ لا تِلْكَ المُدام
في وجودٍ من شهودٍ قد وَقَبَ^(٢)
أو فلا نورٍ ولا حتَّى ظُهور^(٣)
كوكبٌ مِنْهُ الظُّلامُ حَالِيَّة^(٤)
والشُّهوبُ نورُها مِنْ نُورِها^(٥)
وتَغَنَّتْ ما بكأسِ أُسْكِرَتْ
فلكأُ كمَّ دَارٍ في الدَّهرِ الطُّوال^(٦)
نَمِرٌ يَفْرِسُ أو صَقْرٌ يَجُولُ^(٧)
اكشفِ الأسرارَ ، لي فهمٌ سقيم
وهو في فِكْرِ الإلهِ يَنْبُعُ
فاتى الدُّنيا خَلَّتْ مِنْ كُلِّ نُورٍ
كلُّنا يا صاحٍ في الدُّنيا غَرِيبُ^(٨)

- (١) سُروش : اسمُ ملكٍ في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتقٌ مِنْ : سراوشا ، بمعنى السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواح في الآخرة .
- (٢) وَقَب : دخل .
- (٣) الطور : الجبل .
- (٤) الغانية : المرأة التي يغنيها حسنُها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلْي .
- (٥) المِعطار : من تعود أن يتعهَّد نفسه بالعطر . والشُّهوب : جمع سَهَب ، وهو السَّهْل المنبسط .
- (٦) مصباح الخيال : مصباحٌ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباحٌ يُدار حوله ستارٌ فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .
- (٧) الشُّكول : جمع شكل . وفريس النمر : افترس .
- (٨) يا صاح : بمعنى يا صاحبي .

عرفوه بِسُروش ، كالملائك أبعد الحسن وقد أدنى كذلك
فتح البرعوم منّا بالنّدى وبأنفاسٍ رماداً أوقداً^(١)
منه ألحانٌ لأوتارِ القريض وشقوقُ الشّترِ بالبيتِ الأريض^(٢)
ثمّ غنّى فشهدتُ عالماً
أسمعُ الألحانَ جمرأ مضمراً

لحنُ سُروش

أخشى عليك ركوبَ بحرٍ من سَراب
وكما ولدتَ العُمَرَ تطوي في الحجاب^(٣)
للفخرِ كحلٌّ عن جفونِي أغسله
فأرى مصيرَ الشّغْبِ في هذا الكتاب^(٤)
في كلِّ صَوْبٍ انطواءٌ لآخٍ لي
للبزقِ كأنّ الموتُ في جوفِ السّحاب
في الغَرْبِ كُنْتُ وَقَلَمًا عيني رأت
منْ كَانَ ذا لحنٍ تجافى عن حِسَاب
دُنْيَاكَ فامْلِكْ إِنْ أَرَدْتَ الْقُرْبَ لَكَ
الروضَ خُذْ يَا عطره في الماءِ ذاب^(٥)

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تفتح .

(٢) الترهنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .

(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعدّه عجباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .

(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .

(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من ماثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر =

مَا أَنْتَ إِلَّا لِلْفَنَاءِ يَا زَاهِداً
 أَنْيَيْتَ طُوفَاناً تَوَارَى فِي الْحَبَابِ^(١)
 اللَّحْنَ تَسْمَعُ مَا تَرَى مِنْ مُطْرِبِ
 حُورِيَةٍ قَدْ غُرِبَتْ تُبْكِي الرَّبَابِ

الرحيل إلى وادي يرغميد المسمّى عند الملائكة وادي الطواسين^(٢)

فَوَلِّهِ لِلظَّامِثِينَ السُّنْبِيلِ	إِنَّمَا الرُّومِيُّ لِلْعِشْقِ الدَّلِيلِ
قَوْلُ «اللهُ هُوَ» حَبَاهَا حَرٌّ جَمْرُ ^(٣)	قَالَ : «إِنَّ النَّارَ إِنْ كَانَتْ بِشَعْرِ
كَانَ لَأَفْلَاكِ مِنْهَا تَفْضَةٌ	نَعْمَةٌ مِنْهَا الْهَشِيمُ رَوْضَةٌ
وَبِهَا الْمُلْكُ الْفَقِيرُ وَاجِدٌ	وَعَلَى الْحَقِّ الْعَلِيِّ شَاهِدٌ
ثُمَّ يَصْحُو الْقَلْبُ كَالرُّوحِ الْأَمِينِ ^(٤)	وَبِهَا دَفَقُ الدِّمَاءِ فِي الْوَتِينِ
سَارِقُ الْقَلْبِ وَإِبْلِيسَ النَّظَرِ	نَازِمُ الْأَشْعَارِ بِالسُّخْرِ اشْتَهَرُ
رُوحُهُ مِنْ سِخْرِ قَوْلٍ جَرَّده	شَاعِرُ الْهِنْدِ إِلَهَ أَيْدِهِ
وَضُرُوبَ الْكُفْرِ حَتَّى الْأَتْقِيَاءِ ^(٥)	عَلَّمُوا الشُّعْرَ أَفَانِينَ الْغِنَاءِ

= (في ماء الورد) .

(١) الْحَبَابُ : الفقايع التي تعلقو الماء والشراب .

(٢) الطواسين : جمع ط . س ، وهما حرفان في أوائل سور قرآنية ، وهي : النمل ،
 والشعراء ، والقصص . وللحلاج كتاب الطواسين . وقد جعل إقبال هذا الاسم اسماً
 للمكان الذي تتجلى فيه صفات الأنبياء .

(٣) حباه : حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه .

(٤) الوتين : عرق في القلب . والروح الأمين : جبريل .

(٥) الأفانين : الأساليب والأجناس . والضروب : الأنواع والأشكال .

لفظهم ما فيه شيء من ألم إن خيراً من لحون أفادت
 يتحث الشاعر طوعاً بالسليقة ليس إلا القلب في صدر الشعوب
 نقش الشكر وناز عالما
 في الأنام يُخلق الروح السويّا
 ورث الشاعر من ثم النبيا
 قلت : هات القول في تلك النبوة
 قال : « أقوام لها آياتها
 الصخور أنطق أنفاسها
 أصلنا في العمق منا طهرت
 إنها صوت دوي في الكائنات
 ما لشمس أطلعتها من زوال
 رحمة الله نراها قوله
 إن عقل الكل حتى إن ملكته
 يرغميد امض وأسرغ في السرى
 في جدار من صخور بالقمر
 للطواسين أطل منك النظر
 يعرف الشوق الطريق لا الدليل
 ويطيّر بجناح جبرئيل

(١) أضفت الرؤيا : أتى بها ملتبسة .

(٢) الحطيب : الكثير الحطب .

(٣) الروح : جبريل .

(٤) في الأصل : أن سورة التّجم ، والنور ، والنّازعات من شفة النبوة .

(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .

(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

البَعِيدُ عِنْدَهُ كَالْخُطُوتَيْنِ فِي الْمَقَامِ يَشْتَكِي مِنْ قَرْطِ أَيْنِ^(١)
 مِثْلُ نَشْوَانٍ قَصَدْتُ ذَا الْجَبَلِ وَرَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ مِنْ قُلُلِ^(٢)
 أَيُّ قَوْلٍ لِي ؟ وَمَا وَضَفِي لَهُ ؟ هَذِهِ الْأَنْجَمُ طَافَتْ حَوْلَهُ
 عِنْدَ أَهْلِ الْفَرَشِ ضَاءٌ فِي الضَّمِيرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرْشِ فِي الْجَفْنِ الْبَصِيرِ
 عَيْشَنَا وَالْقَلْبَ رَبِّ قَدْ حَبَانَا لَا كُتْنَاهُ السَّرَّ فِي الدُّنْيَا هَدَانَا
 سِرٌّ دُنْيَانَا سَابِدِي مَنْ سُدِلِ^(٣)
 وَحَدِيثِي عَنْ طَوَاسِينِ الرُّسُلِ

طَاسِينِ جَوْتَامَا بُودَا^(٤) تَوْبَةُ الرَّاقِصَةِ اللَّعُوبِ

جَوْتَامَا

الشُّمُولُ وَالْحَبِيبُ ، لَيْسَ شَيْئًا^(٥)
 بَلْ وَحُورٌ فِي الْجَنَانِ ، لَيْسَ شَيْئًا
 كُلُّ مَا أَنْتَ تَرَاهُ سَوْفَ يَفْنَى

(١) قرط الأين : شدة التعب .

(٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .

(٣) السُدُلُ : السُّرُ .

(٤) الترمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة ترد في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافية موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .

(٥) الشُّمُول : الخمر .

الْفَلَا وَالشَّاطِئَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً^(١)
 عَلَّمْ غَرْبٌ حَكَمَةً لِّلْمَشْرِقِ
 مَعْبِدٌ وَالطَّائِفَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً^(٢)
 ذَاكَ اذْكُرْ وَامْضِ وَاعْبُرْ
 أَنْتَ هَذَا ، الْعَالَمَانِ ، لَيْسَ شَيْئاً
 هُذَبَ عَيْنِي لِي طَرِيقاً شَقَّهَا
 كُلُّ مَا فِيهَا عِرَانِي ، لَيْسَ شَيْئاً
 دَعَاكَ مَنْ غِيبَ فَمَا وَهَمَّ بِشَيْءٍ
 لَا تَكُونُ أَوْ تَكُونُ ، ذَاكَ شَيْءٌ^(٣)
 لَا تَكُونُ جَنَّةٌ كَالْجَنَّةِ
 لَوْ أَهْلُ الْجِنَانِ ، ذَاكَ شَيْءٌ^(٤)
 رَاحَةَ الرُّوحِ طَلَبْتَ ، مَا تَسَاوِي !
 فِي حَيْبٍ دَمَعْتَانِ ، ذَاكَ شَيْءٌ
 نَظْرَةٌ وَالْعَيْنُ مَكْرَرٌ وَالتَّغْنِي
 يَا لِهَذَا مِنْ حُسَانٍ ، مِنْهُ شَيْءٌ^(٥)
 كَانَ خَيْراً فِي الْمَعَانِي ، ذَاكَ شَيْءٌ



-
- (١) الْفَلَا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .
 (٢) ذَكَرْنَا الطَّائِفَ بِالْمَعْبِدِ فِي الْمَثْنَى مَعَ إِرَادَةِ الْجَمْعِ (المترجم) .
 (٣) كَانَ هُنَا تَامَةً .
 (٤) يَرِيدُ الشَّاعِرُ لِيَقُولَ : إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مَاوِيٍّ لِلْمُتَّقِينَ جَزَاءَ لَهُمْ عَلَى عَمَلِ الصَّالِحَاتِ .
 (٥) الْحُسَانُ : الْحَسَنُ .

الرَّاقِصَة

لَا تَزِدْ أَحْزَانَ قَلْبِي مَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارٍ
 زِدْ جَمَالَ الشُّعْرِ ثَنِيًّا ، يَا لَهُ لَيْلُ السَّرَارِ^(١)
 فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ مِنِّي ، مِنْكَ أَنْوَارُ التَّجَلِّي
 فَأَذَقْتَ الشَّمْسَ وَالْبَدْرَ مَرِيرَ الْإِنْتَظَارِ
 إِنَّ ذَوَاقَ الْحُضُورِ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ عَشْقَا
 يَخْدَعُ الْعِشْقُ فُؤَادًا مِنْ مُنَاهُ فِي الْخُمَارِ^(٢)
 فِي صَفَاءٍ إِنَّ تَرَنُّمْتُ بِلَحْنٍ لِي جَدِيدٍ
 عَادَ طَيْرُ اللَّرِّيَاضِ عَوْدَ مُشْتَاقِ الدُّيَارِ
 طَبْعِي السَّامِي وَهَبْتَ حُلَّ عَنْ سَاقِي قِيُودِي
 خِرْقَةً هَبْنِي لِتَحْظِيَ بِقَشِيبٍ مِنْ إِزَارِ^(٣)
 أَيُّ مَعْنَى لِلْكَلامِ ؟ وَالضُّخُورُ تَخْتَفِئُ فَاسُ
 يَحْمِلُ الْعِشْقُ الْجِبَالَ ثُمَّ يَمْضِي فِي انْحِدَارِ^(٤)

طاسين زرادشت^(٥)

أهرمن يختبر زرادشت

مَا خَلَقْتُ مِنْكَ نَايَاتِ الْبُكَاءِ وَرَبِيعِي مِثْلُ شَهْرِ فِي الشِّتَاءِ^(٦)

(١) الثني : كلُّ شيءٍ بعضه على بعض . وليلة السَّرَارِ : آخر ليلة في الشهر .

(٢) الخُمَارُ : الضُّدَاعُ مِنْ شِدَّةِ الشُّكْرِ .

(٣) الخِرْقَةُ : ثوب الزاهد . والقَشِيبُ : الجديد . والإِزَارُ : الملحفة وكل ما يستر .

(٤) يَمْضِي فِي انْحِدَارٍ : أَنْ يَمْضِي فِي سُرْعَةٍ وَخَفَّةٍ .

(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر

يسمى أهرمن . وجاء قومه بكتابٍ يسمى : الأَبَسْتاق .

(٦) النَايَاتِ : جمع ناي .

أَنَا فِي الدُّنْيَا أَعَانِي صَوْلَتِكَ بِدُمَائِي قَدْ رَسَمْتَ صُورَتَكَ
 إِنَّ مِنْ سَيْنَاكَ لِلْحَقِّ الْحَيَاةَ
 وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ لِي مِنْهَا الْمَمَاتُ^(١)

أَخَذُ بِالْعَهْدِ مِنْ رَبِّ خَيْلٍ وَلَهُ الْمِنْشَارُ وَالذُّودُ^(٢) التَّعَمُّ^(٣)
 وَمِزَاجُ الرِّاحِ فِي الْكَاسَاتِ سَمٌ إِنَّ نَوْحاً لَمْ يَجِدْ غَيْرَ الدُّعَاءِ^(٤)
 وَاعْتَزَلَ فِي الْغَارِ وَارْحَلَ عَنْ دِيَارِ نَحْوِ أَهْلِ الثُّورِ عَنْ مَخْضِ اخْتِيَارِ
 وَبَعِينَ اجْعَلِ الثُّرْبَ الذُّهَبَ وَبِنَجْوَاكَ السَّمَاءَ مِنْ لَهَبِ^(٥)
 كَالْكَلِيمِ فِي الْجِبَالِ كُنْ شَرِيداً وَخَتَرِقْ مِمَّا رَأَتْ عَيْنٌ بَعِيداً^(٦)
 وَتَنَاسَ شَيْمَةً لِلْأَنْبِيَاءِ دَعَاكَ مِنْ فَرْطِ الذِّكَاةِ وَالذَّهَاءِ^(٧)
 بَيْنَ مَنْ هَانُوا تَهُونِ الْفِطْرَةِ وَالرَّمَادِ فِي الرِّيَّاحِ الْجَمْرَةِ
 الْوَلِيِّ إِنْ شَأَى يَوْمًا نَبِيًّا لِلْهَوَى كَانَ النَّبِيُّ دَاءً عَصِيًّا^(٧)

فَمُ وَفِي عُشٍّ انْفِرَادٍ عُزْلَتِكَ
 وَلَتَدْعُ هَذَا التَّجَلِّيَ خَلْوَتِكَ

- (١) يَلْمُحُ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ ، وَإِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : ﴿ وَأَضْمَمُ بِذَلِكَ إِلَيْنَا جَنَاحَكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوِّءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .
- (٢) الْخَيْلُ : الْمَخْبُولُ الَّذِي اخْتَلَطَ عَقْلُهُ .
- (٣) الْإِشَارَةُ إِلَى تَعْذِيبِ زَكَرِيَّا بِالْمِنْشَارِ ، وَأَيُّوبَ بِالذُّودِ .
- (٤) الْغَنَاءُ : الْكِفَايَةُ .
- (٥) الثُّرْبُ : التُّرَابُ ، وَالتَّجْوَى : الْمَسَافَةُ .
- (٦) يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِذُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ و ١٠] .
- (٧) شَأَى : سَبَقَ وَكَانَ أَفْضَلَ . وَالذَّاءُ الْعَصِي : هُوَ الَّذِي لَا شِفَاءَ لَهُ .

زرادشت

الضيَاءُ الْبَخْرُ وَالشَّطُّ الظُّلُمُ مَا حَوَتْ سَيْلًا كَمَثَلِي وَارْتَطَمُ^(١)
 فِي فَوَادِي الْمَوْجِ دُفَاعٌ يَمُورُ إِنَّمَا السَّيْلُ عَلَى شَطِّ يَغْيَرُ^(٢)
 صُورَةٌ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ طِلَاءٍ وَإِلَهُ الشَّرِّ رَسَامُ الدِّمَاءِ^(٣)
 أَظْهَرَ الذَّاتَ ، فَهَاتِيكَ الْحَيَاةَ
 وَاخْتَبَارُ الْمَرَّةِ مَا أَذَتْ يَدَاهُ
 يُنْضِجُ الذَّاتَ التَّرْدِي فِي الْبَلَاءِ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ قَدْ تَمَحَوَ الْخَفَاءُ
 رَجُلٌ اللَّهُ رَأَى بِاللَّهِ ذَاتَهُ فِي دِمَاةِ خَرٍّ كِي يُنْهِيَ حَيَاتَهُ
 بِالْذِّمَاءِ الْعِشْقُ يَسْمُو وَيَسُودُ وَلَهُ الْعِيدَانُ مَنْشَارٌ وَعُودُ^(٤)
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا يَجْرِي يَطِيبُ
 مَرْحَبًا بِالصَّدِّ إِنْ صَدَّ الْحَيِّبُ
 لَا تَرَى عَيْنِي التَّجَلِّي وَخَدَهَا تَزْمُقُ الْحُسْنَ عَيُونٌ حَوْلَهَا^(٥)
 خَلْوَةُ الْإِنْسَانِ ؟ وَجَدُ سَعَرَا إِنَّهَا الْبَحْثُ ، وَجَمْعٌ قَدْ يُرَى
 خَلْوَةٌ فِي الْعِشْقِ مِنْ شَأْنِ الْكَلِيمِ إِنْ تَجَلَّى كَانَ كَالْمَلِكِ الْعَظِيمِ^(٦)
 خَلْوَةٌ أَوْ جَلْوَةٌ فِي الْقَلْبِ وَقَدْ وَمَقَامٌ أَوْ هَمَا حَالٌ وَوَجْدُ^(٧)
 وَيَلُوحُ فِيهِمَا الرَّحْمَنُ آيَةٌ بَدَأَ الْأُولَى وَذِي الْآخِرَى نَهَايَةٌ

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفَاع : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إِنَّ « أهرمن » إله الشر رسمها بالذِّمَاءِ .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكليم : موسى عليه السلام .

(٧) الْوَقْدُ : النار .

النُّبُوتُ ، كما قُلْتُ ، المِلَلُ ، يَخْلُقُ الْإِنْسَانَ عَشَقُ إِنْ كَمُلَ
 حَيْثُذَا رَكَّبْتُ وَلِلَّهِ الْمَسِيرُ^(١)
 وَبِدُنْيَانَا كَأَرْوَاحٍ نَطِيرُ

طاسين المسيح

(رُؤْيَا تُولَسْتُوِي الْحَكِيم)

<p>شَامَخُ قَدْ ضَمَّ أَنْوَاعَ الْمَمَاتِ فِيهِ نَوْرُ الْبَذْرِ قَارٌ مِنْ غُبَارِ وَالْغَدِيرُ زَيْبِقٌ قَدْ قَارَ فَوْرَهُ لَا ارْتِفَاعَ لَا انْخِفَاضَ فِي الطَّرِيقِ صَاحَ شَابٌّ قَدْ حَوَاهُ الزَّيْبِقُ مِنْهُ ذَاكَ الْغَيْمُ مَا إِنْ يَقْرَبُ وَعَلَى الشَّطِّ رَأَيْتُ غَانِيَةً عَلَّمَتْ مِنْ سِخْرِهَا الْعِبَادَ كُفْرًا يَا تَرَى مَنْ أَنْتِ قُلْتُ فَلَتَجِيبي هَ إِنْ فِي عَيْنِي سِخْرُ السَّامِرِي</p>	<p>فِيهِ وَاِدٍ مَا بِهِ رَفَّ النَّبَاتُ^(٢) بِسْمَاءِ الشَّمْسِ ظَمَائِي فَوْقَ نَارِ وَهُوَ يَجْرِي دَافِقًا مِثْلَ الْمَجْرَةِ^(٣) زَاخِرٌ طَامٍ وَذُو مَوْجٍ حَنِيقٍ^(٤) جَارِعًا وَهُوَ يَكَادُ يَفْزُقُ ظَمَائِي ، مَنْ زَيْبِقٍ هَلْ يَشْرَبُ لِحَظْهَا يَأْسِرُ أَلْفَ سَارِيَةٍ^(٥) شَرُّهَا الْخَيْرُ وَكَانَ الْخَيْرُ شَرًّا مَا بُكَاءُ بِلَ وَمَوْصُولُ التَّحِيْبِ وَاسْمِي أَفْرَنْكَيْنِ وَاسْمُ السَّاحِرِ^(٦)</p>
---	--

(١) الرُّكْب : رُكْبَانُ الْخَيْلِ ، أَوْ الْإِبِلِ .

(٢) الشَّامَخُ : الْمُرَادُ بِهِ الْجَبَلُ . وَرَفَّ النَّبَاتُ : اهْتَرَأَ نَضَارَةً .

(٣) الْغَدِيرُ : النَّهْرُ . وَالْمَجْرَةُ : مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ تُشَبِّهُ النَّهْرَ .

(٤) الطَّامِي : الْمَمْتَلِيءُ . وَالْحَنِيقُ : الشَّدِيدُ الْغَضَبِ .

(٥) الْغَانِيَةُ : الْحَسَنَاءُ . وَالسَّارِيَةُ : الْجَمَاعَةُ .

(٦) أَفْرَنْكَيْنِ : مِنْ فَرَنْكِي فِي الْفَارَسِيَّةِ بِمَعْنَى الْإِفْرَنْجِي فِي الْعَرَبِيَّةِ . وَإِقْبَالُ يَجْسُدُ التَّفَرُّجِ عَلَى أَنَّهُ أَفْسَدُ الْمَسِيحِيَّةِ الْأُولَى . أَمَّا الْإِنْسَانُ الْمَغْمُورُ فِي مَاءِ النَّهْرِ فَهُوَ رَمْزٌ إِلَى الْخَائِنِ =

الجليدُ فجأةً كانَ القدير
رَدَّدَ الشُّكوىَ ومنَ قلبٍ وجعٍ
قالتِ افرنكين « فُكِّرْ فِكْرَةً
إنَّما عيسى سراجُ الكائنات
اذْكُرَنَّ بِيلاطوسَ الممتنع
لذَّةَ الإيمانِ في رُوحٍ حُرِفَتْ
ما عَرَفَتْ الوحيَ والجسمَ اشترَيْتَ
ولذا فالرُّوحُ أموالٌ فَقَدْتَ »

وَمِنْ الحسناءِ تجرِيحُ الملام
قال : « منَ خدعكَ ، فالزُّورُ الجلي
ذلُّ عقلٍ ذلُّ دينٍ منَ فسوقِكَ
الودادُ منك ضُرٌّ خَفِيَّةُ
أنتَ بالماءِ وبالطينِ عَقَدْتَ
حكمةَ الإنسانِ حَلَّتْ مشكلات
ما لدى المُنْصِفِ قَطُّ أيُّ رَيْبِ
المسيحُ أسْكَنَ الرُّوحَ البَدَنُ

- = الذي خانَ المسيحَ عليه السلام .
- (١) الكَسِيرُ : المحطَّم .
- (٢) وجع : بمعنى تألم ، ومَرَضَ .
- (٣) اللَّماحُ : المتلألئ . يقول : إنَّ نوره يغمُرُ العالمين .
- (٤) بِيلاطوس : هو من يعتقد المسيحيون أنه القاتلُ إني بريء من دم المسيح .
- (٥) اللجين : الفضة .
- (٦) الفسوق : ترك أمر الله وعصيانه . السُّوم : من سام السلعة ، أي : عرضها وذكر ثمنها ، فكان المنافقين يتخذون الدين سلعةً لتجارتهن .
- (٧) يريد ليقول : إنَّ المسيحَ عليه السلام أحيَا الموتى .

مَا صَنَعْنَا كَانَ مِنْ نَاسُوتِهِ كَانَ مَا لِلْقَوْمِ مِنْ لَاهُوتِهِ
بِمَمَاتٍ لَكَ نَحِيًا قَاطِبَةً
لَا تَمُوتِي ، لَتَرِي مَا الْعَاقِبَةُ ١

طَائِفَةُ مُحَمَّدٍ (ﷺ) (نِيَاحَةُ أَبِي جَهْلٍ فِي حَرَمِ الْكَعْبَةِ)

زَارَتْ رُوحُ عَمْرُو بْنِ هِشَامٍ - زَعِيمُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالنَّخْوَةِ الْعَرَبِيَّةِ - مَكَّةَ ، وَقَدْ
أَصْبَحَتْ بِلَدَ الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَطُهِرَ بَيْتُ اللَّهِ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكْعِ
السُّجُودِ ، وَحُرِّمَتْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَا أَلِلَاتَ ، وَلَا مَنَاةَ ،
وَلَا هَبْلَ ، وَلَا الْعَزَى ، وَلَا أَسَافَ ، وَلَا نَائِلَةَ ٢ ، وَقَامَ الْمُؤَذِّنُ عَلَى شُرَفَاتِ
الْحَرَمِ يَنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ خَمْسَ مَرَّاتٍ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » .

وَذَهَبَتْ نَخْوَةُ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَظَّمَتْ بِالْآبَاءِ ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مِنْ
آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ ، فَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا
بِالتَّقْوَى ، وَسَمِعَ النَّاسُ يَتْلُونَ : ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الْحَجَرَاتُ : ١٣] .

وَأَصْغَى إِلَى النَّاسِ فِي غَدُوِّهِمْ وَرَوَاحِهِمْ ، فَلَمْ يَسْمَعْهُمْ يَفْتَخِرُونَ بِبِلَادِهِمْ أَوْ
نَسَبِهِمْ ، وَوُطْنِهِمْ أَوْ شَعْبِهِمْ ، وَطَافَ فِي النَّاسِ ، فَلَمْ يَرِ أَحَدًا يُعَيِّرُ أَحَدًا بِأَقْبَلِهِ ، أَوْ
سَوَادِهِ ، أَوْ حُرْفَتِهِ ، أَوْ حَبَشِيَّتِهِ ، أَوْ عَجَمِيَّتِهِ ، وَيَتَطَاوَلُ بِعَرَبِيَّتِهِ ، أَوْ قُرَشِيَّتِهِ ،

(١) قَاطِبَةً : جَمِيعًا .

(٢) كَانَ أَكْثَرُهَا أَصْنَامُ قُرَيْشٍ ، وَالتِّي كَانَتْ لَغَيْرِهَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَعَظَّمُهَا ، رَاجِعُ ابْنِ هِشَامٍ
وَإِبْنُ الْكَلْبِيِّ .

وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلة بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبين عبد شمس ، ولا مساجلة في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبد أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتقون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعة عربية ، أو نعة قومية ، يتعلق بها سيد بني مخزوم ، ويقرّ عيناً ، ورأى أنّ الحياة القديمة قد نُسخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساس من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيّرت الموازين والقيم ، وتغيّرت عقول الناس ونفوسهم ، وسُمِع يُنشد في حزنٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاسِ الذي عهدتهم ولا الدَّارُ بالدَّارِ التي كُنْتُ أعرفُ
لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيّد من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين : لأنكر مكّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنّه قد ضلّ الطريق .

لقد كان يرى في الدّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والضّررَ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدّم والعرق ، ويرى العالم كلّهُ في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلّهُ في العرب ، فغيرهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقّون مدحاً ،

ولا يستحقون رحمةً ، ولا يستحقون عدلاً ، لقد كان يرى كل ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس في راسة في معرفة غايات الإسلام ، ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أن الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ومهداها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثار روحه ، ورثي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوح ، ويقول : « إن قلوبنا - معشر الجاهليين - قروح وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة ، وحط من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قبصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والباطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتِنُوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرّد القلوب عن معبود مشهور يرى ويلمس ، وربطها بمعبود غير مشهود لا يرى ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟

أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة سجود لغائب ؟ هل يجد الإنسان لذّة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب ؟ !

إن دينه حنفٌ للوطنية والقومية ، إنه من قريش ، ولكنه لا يفضل حراً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه ، أسفاً إنه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج

والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم بالثميم ، والجميل بالذميم ، وذلّ العرب ، وذلّ بنو قصي .

إننا لا نشك في أنّ هذه المؤاخاة ، التي بحث عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي ، وقد تحقّق لدينا أنّ سلمان مزدكيّ ، وأنّ ابن عبد الله خُذِع به ، وجرّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتي الهاشمي قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصلّيها ، هل لعجمي أصل عدنانيّ ، وهل لأعجمي نطق عربيّ ولهجة مصرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمّيه محمدٌ وحياً ، بكلامكم البليغ السّاحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الضّباة ، أغرّ عليهم ، وعكّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدّ من الرحيل ، فلا تعجّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما ^(١) .

وإليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرنا نارٌ تلظت من محمد	فسراج الكعبة الوضاء أحمّد
وبهلك الروم أو كسرى تغنى	سلّب الفتيان طراً من يدنا
ساحرٌ والقول منه ساحرٌ	وبقولٍ « لا إله » كافرٌ !
وبساط دين آباء طوى	وأذاق ما عبدناه التّوى ^(٢)
حطّم اللات فكانت كالفئات	منه فلتقتصر كل الكائنات ^(٣)

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن عليّ الندوي ، صفحة ١٦٩ - ١٧٤ .

(٢) التّوى : الهلاك .

(٣) الفئات : كسرة الشيء بعد أن يتفتت .

نَاطَ مِنْهُ الْقَلْبُ بِالْغَيْبِ الْكَثِيرِ وَمَا الْحَاضِرُ بِالسَّخْرِ الْمُبِينِ^(١)
 وَيَعِيبُ الْمَرَّةُ لِلْغَيْبِ النَّظَرَ أَيْنَ شَيْءٌ لَيْسَ يَبْدُو لِلْبَصَرِ^(٢)
 الضَّرِيرُ مَنْ لَغِيبٍ يَشْجُدُ يَا لِهَذَا الدِّينِ أَعْمَى يُتَعَدُّ
 مَا الشُّجُودُ وَلَرَبٌّ لَا يُحَدُّ
 الصَّلَاةُ مَا ارْتَضَاهَا قَطُّ عَبْدٌ
 فِي قَرِيشٍ بَتٌّ أَصْلًا لِلنَّسَبِ يَا لَدِينٍ مَنَكْرٌ فَضَّلَ الْعَرَبِ^(٣)
 الْوَضِيعُ كَالرَّفِيعِ عِنْدَهُ لِلْخَوَانِ فَهَوَ يَدْعُو عَبْدَهُ^(٤)
 مَا دَرَيْ فُضْلًا لِأَحْرَارِ الْعَرَبِ وَدَّ أَحْبَاشٍ غِلَاطٍ قَدْ خَطَبَ^(٥)
 وَلَحْمِ الْقَوْمِ بِالشُّودِ اجْتِمَاعِ يَا لِعَمْرِي عَرْنَا هَذَا مُضَاعِ
 الْمَسَاوَةِ أَرَاهَا أَعْجَمِيَّةَ دَانَ سَلْمَانَ بَدِينِ الْمَزْدَكِيَّةِ^(٦)
 ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَخْدُوعٌ بِهِ فَأَذَاقَ الْعُرْبَ مِنْ تَخْرِيْبِهِ
 وَبَنِي هَاشِمٍ جَافَى قَوْمُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي ظِلَامٍ عَيْنُهُمْ !
 أَيْنَ مِنْ عَدْنَانَ أَصْلُ الْأَعْجَمِي أَيْنَ مِنْ سَخْبَانَ صَمْتُ الْأَنْكَمِ^(٧)
 لَخَوَاصِّ الْعُرْبِ عَيْنٌ لَا تُرَى قَمَ زَهِيرٌ شَقٌّ مَرْكُومَ الثَّرَى^(٨)

- (١) الكثرين : المستور .
 (٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .
 (٣) بت : قطع .
 (٤) الخوان : ما يوضع عليه الطعام .
 (٥) خطب الود : طلبه .
 (٦) لم يكن الصحابي الجليل سلمان الفارسي على الديانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنه توهم أن النبي ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أن أبا جهل من الكافرين .
 (٧) سخبان مضروب المثال في الفصاحة عن العرب .
 (٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خير الدليل

قُمْ وحطّم سِخْرَ لَحْنِ جِبْرِئِيل

قُلْ وَحَدَّثْنَا طَوِيلًا يَا حَجَرُ ! ما رأينا منه ؟ واصدُقنا الحَبَرُ

قَابِلَ الْأَعْدَاةِ أَنْتَ يَا هَبْلَ عَنْكَ ذُو مَنْ دِينَنَا مَا إِنْ عَقَلُ

رَأْسُهُمُ الْقَوْلُ لَذِيبٍ أَوْ هَصُورَ وَلَيْكُنْ فِي نَخْلِهِمْ مُرُّ الثُّمُورِ^(١)

صَرُصَرًا واجعلْ هَوَاءَ الْبَادِيَةِ إِنَّهُمْ أعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

لَا تُدُومِي ، لَا تُرِيْمِي يَا مَنَاةَ أَنْتَ مَا فِينَا قُلُوبٌ خَافِقَاتُ^(٢)

تَسْكُنَانِ بَيْنَ جَفْنَيْنَا الْجِدَاقَا

مَهْلَةً إِنْ كُنْتَ أَرْمَعْتَ الْفِرَاقَا^(٣)



= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظكم منه . وما حال الحول حتى

بُعث النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والثُمور : جمع تمر .

(٢) اللَّات ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدُها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الجِدَاق : جمع حَدَقَة ، وهي معظم سواد العين . والشُّطر الثاني من البيت مما اقتبسه إقبال عن شاعرٍ عربي .

ایقبال اپنے فرزند جاوید
کے ساتھ۔

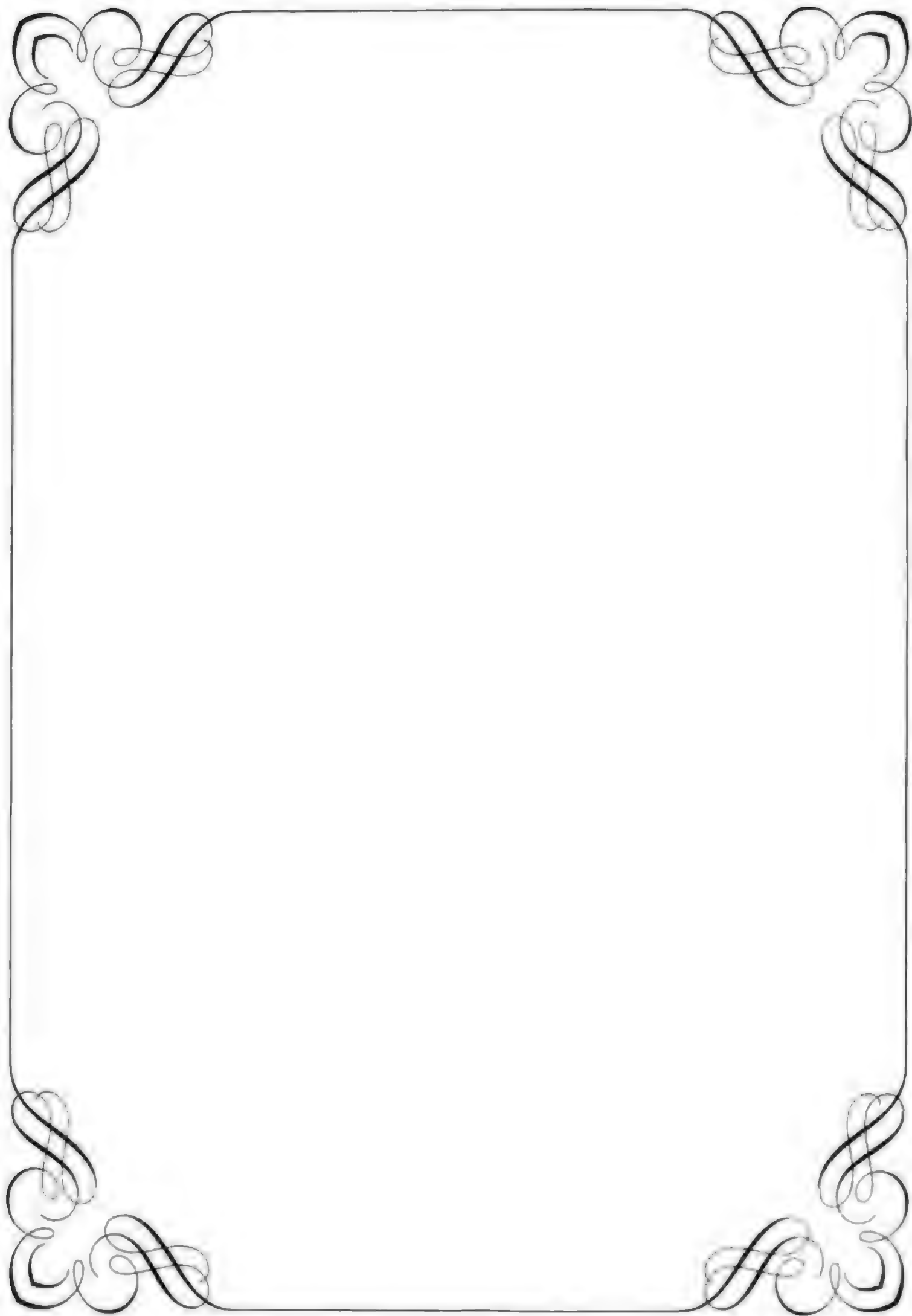


العلامة محمد إقبال مع نجله جاوید

القسم الثاني

فلكٌ عطارٌ





ساعةٌ مع السيّد جمال الدين الأفغاني^(١)

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربيّه الروحي والفكري - الشيخ جلال الدين الرومي - في سياحةٍ روحيةٍ فكريةٍ ، ومرّ في جولاته - الخيالية - بمنازل كثيرةٍ ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضيةٍ ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرّجالات ، وتحدّث معهم في مسائل كثيرةٍ .

ومرّ في رحلته بمنزلٍ بكرٍ ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثّلت فيه الدّنيا بسهولةٍ ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلةٍ من المدنية والصناعة الإنسانيّة ، وأعجبَ الشاعرَ جمالُ الطبيعة ، ورقةُ الهواء ، وخريفُ الماء في هدوء الصّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرّوميّ ، فقال وقد قرّع أذنه صوتٌ عذبٌ رقيقٌ : مالي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟

قال الرّوميّ : إنه منزلُ الصّالحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريبٌ ، فقد قضى فيه أبونا آدمٌ يوماً أو يومين ، لمّا هبط من الجنة ، قد شهدَ هذا المكانُ زفرائه وأناته في السّحر ، وبلّت دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيد ، وأبي يزيد ،

(١) هو جمال الدين الأفغاني ، ذلك المصلح الدّيني ، والسياسي ، والاجتماعي ، ورجل الفكر الحرّ والأدب العالي ، ومن له الرّيادة في دعوته إلى الحقّ ومكافحته للباطل . وكان الدّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلامي بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيم الأثر ، واسع النفوذ ، ذا ثبّ العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨ م .

فلنقم ولنشرع لنذكر الصلّاة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذّة الروح ، ونعمة الخشوع التي حُرّمتها في العالم المادّي .

ونهما من مكانهما مسرعين فوجدا رجلين يُصليان ، أحدهما أفغانِيّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغانِيّ ، يصلي خلفه الأمير سعيد حلّيم باشا ، فقال الروميّ : إنّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضلَ منهما ، وقد حلّا كثيراً من عقدي والغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعسِ روحَ النشاط ، ودبّت بدعوته الثائرة الحياة في الأموات والجمادات ، وأمّا الزعيم سعيد حلّيم فقد جمع بين القلب الجريح الدّامي ، والفكر المحلّق السّامي ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير ، إنّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضلِ المباداتِ ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوء المكان والزّمان ، وشخصيّة الإمام ، وجمال القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم الخليل لأعجّب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس ، وتذيب القلوب ، وتعلو بها صيحة التكبير ، والتهلّيل في القبور ، وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتبضح بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد إقبال يحكي قصّته ، قال : « قمتُ بعد الصلاة ، وقبّلتُ يده في أدبٍ ومحبة وقد قدّمني أستاذنا الرّوميّ إلى السيد ، وقال : إنّهُ جوالٌ جوابٌ في الأفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويَحْمِلُ في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حرّاً طليقاً » .

وأقبل عليّ السيّد جمال الدين ، فقال : حدّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلّهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأُمَّة التي خلقت لتسخير العالم

معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدين والوطن ، لقد ضُفِّف الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراك والإيرانيون سُكَّارِي بَصْهَاء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةً كيدها ودهانها ، أصبح الشرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعيةُ بيهجة الدين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألُّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً :
إنَّ الباقعةَ الأوربيَّ هو الذي علَّم أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكِنَّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشَّامَ والعراقِ ، فتحرَّزَ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يعتبرُ كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضه ، إنَّ كنتَ تميز بين « الجميل » و « القبيح » فلا تربطُ نفسك وقلبك بالتراب والحجارة والقرميد ، إنَّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمةَ نفسه ، إنَّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسهه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات ، إنَّ الحشيش ينبتُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنَّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنَّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يَأْبَى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبِس في « التراب » ^(١) اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحَفَنَةَ من التراب ، التي نسمِّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث أن تنحَرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطرُ على العالم وتحتضنه . إِنَّ فطرتها بريئةٌ من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي ! فَإِنَّ مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله ، إِنَّ الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الفبيَّة ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » إِنَّ الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إِنَّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وَحدة الأجسام والبطون ، إِنَّمَا يقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس .

إِنَّ المُلوكيَّة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفَّاق ، إِنَّها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتتشربُ منها الرُّضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزَّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنها أوراقٌ بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك المُلوكية تستحوذُ على الشعوب والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتركها أجساداً هامدة .

إِنَّ « المُلوكيَّة » و « الشيوعية » تلتقيان على الشره والثَّهامة ، والقلق والسَّامة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »^(١) ، وعند المُلوكية « خراج » ، والإنسانُ البائسُ بين هذين الحَجْرين قارورةُ الرُّجاج ، إِنَّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنِّ ، والمُلوكية تنزع الروحَ من أجسام الأحياء ، وتسلبُ القوتَ من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كليهما غارقتين في المادَّة ، وجسمُهما قويٌّ ناضر ، وقلْبُهما مظلمٌ فاجر .

(١) يعني : تجرُّد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أن القرآن وتعاليمه في وإد والمسلمين في وإد ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلّتهم عن النبي ﷺ إنَّ المسلم اليوم لا يؤسّس حياته ، ولا ينظّم مجتمعه على مبادئ القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدّين والدنيا ، لقد ثلّ عرش قيصر وكسرى ، ونمى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وترجّع عليه ، واقتبس من المعجم الملوكية وأساليها ، وبذلك تغيّر نظره إلى الحياة ، وتغيّر منهج تفكيره .

لقد حطّمت « القيصريّة والكسروية » مُثُلَ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الرّوسية ! من تاريخنا ، عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية والوطنية » فلا تعودى إليها ، ولا تطوفي حولها مرّة ثانية . إنّ العالم اليوم يطلب أمة تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرّحمة والشّدّة ، فاقبسي من الشرق ديانتَه وروحانيته ، لقد أصبحت ديانات الإفرنج ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودى إليها مرّة ثانية ، لقد أحسنت إذ ألقيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكملين مهمّتك ، وتُتمين رحلتك المظيمة ، إنّك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ مُحكّم ، وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الأولين أسطورة أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورة سورة ، وما أدراك ما القرآن ؟ إنّهُ نبيّ للملوكية والسُّخرة ، وحفّ للاكتناز والأثرة ، وحياة للصعلوك ، وبشرى للملوك ، إنّهُ يذمّ الذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا يتفقونها في سبيل الله ، ويحثّ على إنفاق كلّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَنْ نَسْأَلَهُمُ الْبَرْحَ حَقَّ تَنْفِقُوا وَمَا يَحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرم الربا ، ويحلّ البيع ، ويحثّ على القرض الحسن ، وهل يتولّد من الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة والضراوة ؟ إنّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكلّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقهُ ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعبثهم . إنَّ المبدأ الذي يقرُّره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلها كنفس واحدة^(١) .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أُؤمنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهر ومسترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جذود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أن تنظري إلى العالم بنور القرآن نظراً جديداً^(٢) .

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

وَتَجَلَّى لَهُ جَلِيًّا قَدْ رَأَى ^(٣)	التُّرَابُ كُلُّ مَخْلُوقٍ شَأَى
وَالْوَجُودُ قَنَصْتُ أَحْبُولَتِي ^(٤)	أَبْكَانَ أَمْ يَكُونُ سَقَطَتْنِي
إِنِّي مِنْهَا وَإِيَّاهَا مَلَكْتُ ^(٥)	أَنَا فِي الزَّرْقَاءِ لِي شَقًّا شَقَقْتُ
أَمْ أَرَاهَا مِنْهُ فِي الصُّدْرِ ارْتَمَتْ	أَفْوَادِي فِي حَنَوْ عَانَقَتْ

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ إِلَّا كَفَّيْسًا وَجِدْتُ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) شَأَى : تفوَّق على غيره .

(٤) السَّقَطَةُ : المرَّة من الوقوع والتردِّي . وَقَنَصَ : اصطاد . والأحْبُولَةُ : المصيدة .

(٥) الزَّرْقَاءُ : السماء .

ما الذي يخفى وما شيءٌ ظَهَرَ
 في سماء غيرها طيراً خَفَقَتْ
 عالمٌ بالبرِّ والدَّاماءِ مُفَعَّمٌ
 عالمٌ من بَغْضِ أَرْمَاءِ ظَهَرَ
 ما عَلَيْهِ صورةٌ لوحِ الوجود
 قلتُ للرُّومِيِّ يا حَسَنَ الْيَبَابِ
 أينَ أثارُ الحياةِ هاهنا ؟
 قال لي « هذا مقامُ الأولياءِ
 آدمٌ عن خُلْدِهِ حينَ ازْتَحَلَّ
 ورأى هذا الفضاءَ زَفَرَتَّةً
 زائروه من خواصِّ الكُمَّلِ
 بوسعِهِ والفضيلُ بينهم

لستُ أدري كُنْهَ ما تَحْتَ البَصَرِ
 فرأيتُ عالماً ما إن رأيتُ
 من ثرانا إنه خيرٌ وأَقْدَمُ^(١)
 ليس للإنسانِ فيه من أثارِ^(٢)
 ليس للفُطْرَةِ من نقدِ حَدِيدِ^(٣)
 في الجبالِ حبذا هَذَرُ الْعُبَابِ^(٤)
 والأذانُ فاضٌ مِنْهُ سَمْعُنَا !^(٥)
 أرضنا والأرضُ في فيءِ الإخاءِ^(٦)
 ذلك العالمُ يوماً فيه حُلُ
 وبفجرٍ وهو يشكو ، رَنَّةُ^(٧)
 كلُّهم في قومِهِ هذا العَلِي
 بإيزيدُ والجُنَيْدُ عِنْدَهُم^(٨)

(١) الدَّاماءُ : البحر .

(٢) الأرماء : جمع رمي ، هو السَّحَابَةُ الصَّغِيرَةُ .

(٣) النقد الحديد : النقد الشديد الحاد .

(٤) اليباب : الخراب . والعباب : الموج .

(٥) يعجب الشاعر لوجوده في أرض خراب ، ومع ذلك يسمع صوت المؤذن .

(٦) الفياء : الظلُّ .

(٧) الرَنَّةُ : الصَّوْتُ ، أو صوتُ القوس .

(٨) أبو سعيد بن أبي الخير من مشاهير المتصوفة في أوائل القرن الخامس الهجري . ومن أذاعوا بين الناس في خراسان نظرية وَخْدة الوجود . وله رباعيات يعبر فيها عن مذهبه الصُّوفي وهو رقيق المعاني أصبُلُ الشاعرية . والفضيل شيخ الحرم المكي كان في الحديث ثقة ، أخذ عنه خلقٌ كثير منهم الشافعي . وهو في عداد زهاد المسلمين كانت وفاته عام ١٨٧هـ وبإيزيد أو أبو يزيد البسطامي أوَّلُ صوفي نسبت إليه الشطحات ، وأراد ابن تيمية أن يدفع عنه غلوه في شطحاته ، وتوفي عام ٢٦١هـ . أما الجنيد فصوفيٌّ بغداديّ مرموقُ المنزلة من أهل الصُّحُو لا أهل الشُّكْرِ ، أي أنه لم يكن من غلاة =

قُمْ مَعِيَ كَيْمَا نَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ

وَنَذَابُ بَرَهَةِ أَوْ بَرَهَتَيْنِ ۝

إِنَّمَا الرُّومِيُّ دُومًا فِي الْحَضُورِ مَشْرِقُ الطَّلَعَةِ ذَوْقًا فِي الشُّرُورِ
قَالَ : « إِنَّ الشَّرْقَ قَطُّ مَا وَلَدُ مِثْلَ هَذَيْنِ فَقَدْ حَلَّ الْعُقْدُ
سَيِّدُ السَّادَاتِ مَوْلَانَا جَمَالِ مِنْهُ يَحْيَى الطَّيْنِ وَالصَّخْرُ الْمَقَالِ
وَرَثِيْسُ الثَّرَكِ مَنْ يُدْعَى حَلِيمَا كَانَ فِي فِكْرٍ وَفِي جَاهٍ عَظِيمَا
مَعَ هَذَيْنِ الصَّلَاةُ طَاعَةٌ وَجَزَاءُ مَنْ يُصَلِّي جَنَّةٌ

سُورَةُ النَّجْمِ تَلَاهَا شَيْخُنَا غَمَرَ الصَّحْرَاءَ صَمْتُ هَاهُنَا
وَيَثِيرُ اللَّحْنُ وَجَدًا فِي الْخَلِيلِ وَكَذَا فِي عَمَقِ رُوحِ جِبْرِئِيلِ
وَيَذُودُ الصَّبْرُ عَنْ قَلْبِ صَبُورِ يَرْفَعُ « إِلَّا اللَّهُ » مِنْ كُلِّ الْقُبُورِ
يَهْبُ النَّارُ دَخَانَ الرِّفْرِفَةِ وَلِدَاوُدَ ضِرَامُ السَّكْرَةِ
وَبِذَا اللَّحْنِ الظُّهُورُ لِلْغِيَابِ وَارْتِفَاعُ الشُّرِّ عَنْ أَمِّ الْكِتَابِ
وَالصَّلَاةُ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ نَهَضَتْ وَيَذِيهِ فِي خُشُوعٍ قَدْ لَثَمَتْ
قَالَ « هَذِي ذَرَّةٌ تَطْوِي الْفَلَكَ عَالَمٌ مِنْ حُرْقَةٍ فِيهَا اغْتَرَكَ ^(١)
ذَاتُهَا مِنْهَا تَلَقَّتْ نَظْرَةً لَمْ تَهَبْ قَلْبًا وَكَانَتْ حُرَّةً
وَحَيْثُ فِي الْوُجُودِ سِيرُهَا زَنْدُهُ رُودٌ إِنَّنِي سَمَّيْتُهَا ^(٢)

= المتصوِّفة ، وبعْدُ أَوَّلِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي التَّوْحِيدِ بِبَغْدَادَ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ٢٩٧ هـ .

(١) اعْتَرَكَ : اخْتَلَجَ وَاضْطَرَبَ .

(٢) زَنْدُهُ رُودٌ فِي الْفَارْسِيَةِ بِمَعْنَى النَّهْرِ الْحَيِّ ، وَهُوَ اسْمُ نَهْرٍ عَظِيمٍ يَجْرِي بِمَدِينَةِ أَصْفَهَانَ فِي إِيرَانَ . وَلَكِنْ الشَّاعِرُ أَخَذَ عَنِ الشَّاعِرِ الْأَلْمَانِيِّ كُوتِهَ فِي مَنَظُومَةٍ لَهُ بِعَنْوَانِ « نَشِيدِ مُحَمَّدٍ » وَقَدْ عَرَفَهَا إِقْبَالٌ وَتَرَجَمَهَا ، وَفِيهِ يَشَبُّهُ الشَّاعِرُ الْأَلْمَانِيُّ رُوحَ النَّبُوَّةِ بِالنَّهْرِ الْمَتَدَفِّقِ الْمَزِيدِ ، كَمَا قَالَ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِيطَالِيُّ بَاوْزَانِي .

الأفغانيُّ

زنده رود ، تِلْكَ دُنْيَانَا تَكَلَّمْ
أَرْضَنَا صِفْ أَوْ سَمَانَا أَنْتَ أَغْلَمْ
يَا تُرَايِيًّا سَمَاوِيَّ الْبَصَرِ
أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَنْهَا مَا الْخَيْرُ ؟

زنده رود

أُمَّةٌ قَدْ دَوَّخَتْ كُلَّ الْأُمَمِ
فِيهَا فِكْرُ الدِّينِ وَالْأَوْطَانِ عَمٌ
وَتَمُوتُ الرُّوحُ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ
بِأُسْهَاهَا مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ الْمُبِينِ
الْفِرْتَنُجُ الْمُسْلِمِينَ أَسْكُرُوا
وَيَسْمُرُ فِي الْخُلُوقِ جَرُّرُوا^(١)
مَنْ تُفَوِّذِ الْغَرْبِ فِي الشَّرْقِ الْخَرَابِ
وَالشُّيُوعُ لَانْحِطَاطِ الدِّينِ بَابِ

الأفغانيُّ

الدِّينُ وَالْوَطَنُ

مَكْرٌ لَوْرِدِ الْغَرْبِ كَمْ أَعْيَا الْفَطَنُ
فَطَنَ الْقَوْمَ بِمَعْنَى لِلْوَطَنِ^(٢)
مَرْكَزاً يَغْيِي وَأَنْتَ فِي التَّفَاقِ
أَنْسَ حَتَّى الشَّامَ ، دَعُ أَمْرَ الْعِرَاقِ
أَنْتَ إِنْ أَدْرَكْتَ مَا خَيْرٌ وَشَرٌ
فَلْتَفُكْ عَنْكَ قَيْدُ مَنْ حَجَرِ^(٣)
مَا هُوَ الدِّينُ ؟ الْقِيَامُ مِنْ ثَرَى
ذَاتِهِ الْقَلْبُ الطَّهُورُ كَيْ يَرَى
« اللَّهُ هُوَ » مَنْ قَالَهَا قَوْلًا يَجُودِ
لَمْ تَعُدْ تَحْوِيهِ هَاتِيكَ الْجُدُودُ^(٤)

(١) الشخص : حديدة معقوفة يُصَادُ بِهَا السَّمَكُ حين يتعلَّق من فمه . يقول إقبال : إِنَّ الْأُورَبِيِّينَ خَدَعُوا الْعَرَبَ ، وَالْفَرَسَ ، وَالتُّرْكَ ، وَجَذَبُوهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا يَجْذِبُ الصَّيَّادُ السَّمَكَ .

(٢) فطن : فهم .

(٣) يريد بالحجر المنازل التي تتألف منها المدن .

(٤) يجود : يحسن .

قَشَّةٌ فِي الْأَرْضِ قَامَتْ مِنْ تُرَابٍ وَيَلُ رُوحٌ فِي التُّرَابِ مِنْ تَبَابٍ^(١)
يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ لَوْنُهُ كَالْوَرْدِ مِنْ مَاءٍ مَعِينٍ^(٢)
بَشَرٌ لِلْإِنْسَانِ فِي الطِّينِ الدَّوَامِ إِنْ يَهُ لَمْ يَغْلُ ذِيَاكَ الْمَقَامِ
يَا حَكِيمُ ، الرُّوحُ تَسْمُو عَنْ جِهَاتٍ ضَاقَ حَرٌّ بِقِيُودِ مُثْقَلَاتٍ

من ظلام الأرض حرٌّ قد يَشُورُ

ما كفارٍ فَعَلْتَ تِلْكَ الصُّقُورُ !

قَبْضَةُ الطِّينِ تَسْمِيهَا الْوُطُنُ دَعَاكَ مِنْ مِصْرَ وَفُرْسِ وَالْيَمَنِ^(٣)
بَيْنَ أَوْطَانٍ وَقُومٍ نَسَبُهُ إِنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا نَبْتُهُ
أَنْتَ إِنْ أَمَعَنْتَ فِي هَذَا النَّظَرِ دَقَّةً أَدْرَكْتَ دَقَّتْ كَالشَّعْرِ
فَمَنْ الشَّرْقِ ذُكَاءٌ تَطْلُعُ بِاجْتِرَاءٍ وَتَجَلُّ تَنْطُعُ^(٤)
فِي عَذَابٍ وَاصِبٍ مِنْ نَارِ قَلْبٍ عِنْدَ فَكِّ الْقَيْدِ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ^(٥)
بِالتَّجَلِّيِ أَسْكِرَتْ فِي شَرْقِهَا أَفْقاً مَا أَفَلَّتْ مِنْ غَرْوِهَا

مِنْهُمَا قَدْ قَطَعْتَ أَصْلَ السَّبَبِ

إِنَّهَا لِلشَّرْقِ لَكِنْ فِي النَّسَبِ^(٦) !

الشُّيُوعِيَّةُ وَالرَّأْسِمَالِيَّةُ

صَاحِبُ « الْمَالِ » سَلِيلٌ لِلْخَلِيلِ وَبِلَا جَنْرِيلٍ أَضْحَى كَالرَّسُولِ^(٧)

(١) التَّبَابُ : الهلاك والخراب .

(٢) الْمَعِينُ : الجاري .

(٣) الْفُرْسُ هُنَا بِمَعْنَى بِلَادِ الْفُرْسِ .

(٤) ذُكَاءٌ : الشَّمْسُ .

(٥) الْوَاصِبُ : الدائم .

(٦) يَقُولُ : إِنْ الشَّمْسُ قَطَعْتَ كُلَّ صِلَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

(٧) يَرِيدُ كَارْلَ مَارْكَسَ صَاحِبَ كِتَابِ رَأْسِ الْمَالِ .

مبطلٌ ، في الزَّيْغِ حَقًّا يُضْمَرُ مؤمنُ القلبِ بعقلِ كافرٍ
 إنَّ أهلَ الغربِ أفلاكاً أضاعوا طلبوا الرُّوحَ ببطنٍ حينَ جاعوا !
 ما استمدَّ الرُّوحُ حسناً من جَسَدٍ وعلى الجِسمِ الشُّبُوعِيُّ اعْتَمَدُ
 قولُه في كُفْرِهِ هذا المُبين ليس إلا في مساواة البُطون

في صميمِ القلبِ ذِيَّكَ الإخاءُ

ما احتوى أصلاً له طينٌ وماءٌ^(١)

الجسومُ بالثَّراءِ سُمِّنَتْ والصُّدُورُ مِنْ قلوبٍ جُرِّدَتْ^(٢)
 يالَهُ الرُّثْبُورُ يرعى وردَهُ ثم يمضي ، نالَ مِنْهُ شَهْدَهُ
 إنَّ عُضْنَ الوَرْدِ هذا حُشْنُهُ وله البُلْبُلُ هذا لَحْنُهُ^(٣)
 عَنْ جَمالٍ راقٍ فلتَطوِ النَّظْرُ اقْصِدِ المعنى ودَعْ عَنْكَ الصُّورُ

أَنْ تَرى لِلْقَلْبِ موتاً يَضْعُبُ

أَنْ تَسْمِيَ الطِّينَ وَرِداً يَكْرُبُ^(٤)

يَمْلِكُ الْإِنْ رُوحَ نَدٍّ صَبْرُهَا تَخْدَعُ النَّاسَ وَيَبْدُو كُفْرُهَا^(٥)
 لهما العيشُ الخروجُ والخَرَجُ حَجَرانِ ، والورى هذا الرُّجَاجُ^(٦)
 هذه ديناً وعِلماً حَطَمَتْ تِلْكَ روحاً ورغيفاً حَرَمَتْ
 لهما في الماءِ والطِّينِ الفَرْقُ أَظْلَمَ الْقَلْبُ وذو الجِسمِ اثْتَلَقُ
 والحياةُ الاحتراقُ والعَمَلُ

(١) يقول : إنَّ الإخاء في الروح لا في الجسد .

(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .

(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبل يَغشَقُ الوردة ، ويغني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذات الإلهية .

(٤) كل في الفارسية بفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، وللفاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للنقيضين . ويكرب : يثير الحزن .

(٥) يتحدث الشاعر عن الشُّبُوعِيَّة والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .

(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

وَالشُّوَيْدَاءُ لِيُتْلَقَى فِي الْوَحْلِ^(١)

سعيد حلیم باشا^(٢) الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ

وَالْهَوَى فِي الشَّرْقِ سُرُّ الْكَائِنَاتِ	إِنَّ فِي الْغَرْبِ الذِّكَا أَوَّلُ الْحَيَاةِ
وَلْعَشَقُ بِالذِّكَاءِ ذَا الْعَلَاءِ	وَبِعَشَقٍ يَغْرِفُ اللَّهُ الذِّكَاءَ
عَالِمًا آخَرَ قَطْعًا حَقًّا	وَإِذَا الْعِشْقُ الذِّكَاءَ صَادَقَا
بِالذِّكَاءِ ذَلِكَ الْعِشْقُ امْرُجَنُ	انْهَضَنَّ الْعَالَمَ الثَّانِي اضْئَعَنَّ
قَلْبُهُمْ مَاتَ وَعَيْنٌ فَتَحَتْ	لِلْفِرْنَجِ شِعْلَةً قَدْ بُلِّلَتْ
يَا لَهُمْ صَرْعَى كَمِثْلِ صَيْدِهِمْ ^(٣)	جُرِّحُوا لَكِنْ بَحْدُ سَيِّفِهِمْ
جِدَّةٌ مِنْ عَضْرِهِمْ لَا تَأْمَلُنْ ^(٤)	نَشْوَةٌ مِنْ كَرْمِهِمْ لَا تَطْلُبُنْ
لِلْحَيَاةِ النَّارُ فَلْتُشْعَلْ بِنَارِكَ	
اضْئَعِ الْعَالَمَ وَارْقَعْ مِنْ مَنَارِكَ	
قَالَ : إِنَّ الْمَخَوَ لِلْعَهْدِ الْعَهْدِ ^(٥)	و « كَمَالٌ » حِينَ نَادَى بِالْجَدِيدِ
إِنْ أَتَى الْكَعْبَةَ غَرْبِي بِلَاث !	لَيْسَ لِلْكَعْبَةِ تَجْدِيدُ الْحَيَاةِ
بَلْ قَدِيمُ الْغَرْبِ سَمَّوُهُ الْجَدِيدَا	مَا تَغْنَى الثَّرْكُ مَا قَالُوا نَشِيدَا

(١) الشُّوَيْدَاءُ : حَبَّةُ الْقَلْبِ .

(٢) هو سعيد حلیم باشا الصدر الأعظم الذي قتل عام ١٩٢١ في روما . ولقد فَرَضَ إجلاله حتى على خصومه لِسَدَادِ رَأْيِهِ ، ورجاحة عقله . والجامعُ بينه وبين الأفغاني أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا صَاحِبُ نَزْعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ .

(٣) الصَّيْدُ : مَا يَصَادُ .

(٤) الْكَرْمُ : شَجَرُ الْعِنَبِ .

(٥) كَمَالٌ هو مصطفى كمال أو كمال أتاتورك رائد تركية الحديثة . والعهد : القديم .

نَفْسٌ آخِرُ فِيهِمْ مَا خَفَقَ عَالَمٌ فِي الْقَلْبِ مِنْهُمْ مَا انْبَثَقَ
 وافقوا العالمَ هذا لا جَرَمُ فِيهِ ذَابُوا شَمْعَةً تَحْتَ الضَّرَمِ^(١)
 فِي الصَّمِيمِ طُرْفَةٌ لِلْكَائِنَاتِ لَمْ تَكُنْ تَقِيدُ تَقْوِيمَ الْحَيَاةِ^(٢)
 إِنَّ حَيَّ الْقَلْبِ خَلَّاقَ الدُّهُورِ وَمَنْ التَّقْلِيدَ كَانَ ذَا النُّفُورِ
 مُسَلِّماً إِنَّ كُنْتَ ذَا عَقْلِ مُنِيرِ فِي الْكِتَابِ انْظُرْ وَفِي هَذَا الضَّمِيرِ^(٣)
 كَمْ دُنَى تَظْهَرُ فِيهِ مَنْ سُبُورِ وَالْعُصُورُ مَرُّهَا تَلَوُ الْعُصُورِ
 إِنَّ دُنْيَا مِنْهُ تَكْفِي عَضْرَتَنَا إِنْ عَقَلْتَ أَنْتَ فَاجْعَلْهَا لَنَا
 يَوْمُنُ الْإِنْسَانُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ كُلُّ دُنْيَا يَزِيدُهَا مِثْلُ ثَوْبِهِ
 وَإِذَا دُنْيَاهُ رَثَتْ ثَوْبَهَا قَدَّمَ الْقُرْآنُ دُنْيَا غَيْرَهَا^(٤)

زنده رود

زورقُ نَحْنُ بِلا هَدْيِ جَرَى
 عَالَمُ الْقُرْآنِ أَيْنَ ؟ مَنْ دَرَى

الأفغانيُّ

عَالَمٌ فِي صَدْرِنَا هَذَا اخْتَفَى فِي انْتِظَارِ « قُمْ » لِلْإِنْسَانِ غَفَا
 لَيْسَ فِيهِ أَيُّ لَوْنٍ أَوْ دِمَاءٍ مَا لَغَرِبٍ مَا لَدَيْهِ مَنْ بِهِاءٍ

(١) الضَّرَمُ : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .

(٢) الطُّرْفَةُ : الشيء العجيبُ النادر .

(٣) الْكِتَابُ : الْقُرْآنُ .

(٤) رَثَ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ : جعله رثاً أي غير صالح .

ليس فيه من ملوك أو عبيد مثل قلب في خلوة من حدود^(١)
 عالم الحسنى ، ومن فيض النظر بذره ألقى بقلب من عمر^(٢)
 سمردي في أحداث تدوم محكمات فيه تهدي من يروم^(٣)
 لا يهاب باطن فيه التغير وله الظاهر دوماً في التطور
 بين جنبيك ، عليك بالنظر
 محكمات ، ألق سمعاً للخبر^(٤)

مُحْكَمَاتُ الْعَالَمِ الْقُرْآنِيِّ خِلَافَةُ الْإِنْسَانِ

أثرُ العشق بدا في العالمين ويرى في المرء منا رأي عين
 ليس سرُّ العشق من دنيا الرّحم ما إلى سام وحام يختكم^(٥)
 كوكب ، ما من شروق أو غروب لا ولا يذري شمالاً من جنوب
 قول ﴿إني جاعل﴾ تقديره بين أرضي وسما تفسيره^(٦)

(١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .

(٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آية قرآنية ، وهو يهيم بقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .

(٣) السمردي : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .

(٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .

(٥) الرّحم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السامي ، وكذلك حام وهو أبو السودان .

(٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

الحياة مِنْهُ كَانَتْ وَالرَّدى
الإمامُ وَالصَّلَاةُ وَالْحَرَمُ
غِيْبُهُ يُمسي زُويداَ ذَا الْحُضُورُ
مِنْهُ كَانَ اغْتِبَارُ الْكَائِنَاتِ
يَا لَهُ بِحِرَاءِ بِلَا شَطِّ يَفُورُ
إِنَّمَا الْإِنْسَانُ دُنْيَا قَدْ وَسِعَ
وَتَجَلَّى فَإِذَا نَوْرُ السَّمَاءِ

نَوْرَ دُنْيَانَا وَنَاراً أَوْجَدَا
وَالْمِدَادُ وَالْكِتَابُ وَالْقَلَمُ
مُلْكُهُ مَا فِيهِ حَدٌّ أَوْ تُغُورُ
واعتِدَالُ فِيهِ قَاسِ الْمُمَكِّنَاتِ
قَلْبُهُ قَدْ أَغْرَقَتْ فِيهِ الدُّهُورُ
هَذِهِ الدُّنْيَا لَهُ لَمْ تَسِغْ
وَاخْتَلَى يَوْماً فَجِبْرَائِيلُ نَائِي^(١)

وَعَنِ الْأَفْلَاكِ أَعْلَى قَدْرُهُ
وَالْحَمِيدُ مَنْ تَغْنَّى شُكْرُهُ

مَا الْحَيَاةُ يَا بَصِيرٌ هَلْ فَهِمْتَا
يَرْبِطُ الْجَنِينَ مَوْصُولُ الصَّلَاتِ
تُسْعِلُ الْمِرْأَةَ نِيرَانُ الْحَيَاةِ
أَضْرَمَتْ فِي الرُّوحِ مِنْهَا نَارَنَا
مَمَكِّنَاتُ الْعَيْشِ مِنْهَا فِي الضَّمِيرِ
إِنْ يَغِيبُ عَنْ هَذِهِ النَّارِ الشَّرُّ
مَا لَنَا مِنْ قِيَمَةٍ ، مِنْهَا لَنَا

أَنْ تُرَى اثْنَيْنِ ، وَفَرَّدَ مِنْ عَشِيقَتَا
يَرْشُمَانِ شَوْقَ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ^(٢)
طَبَعُهَا لَوْحٌ لِأَسْرَارِ الْحَيَاةِ^(٣)
جَوْهَرٌ فِيهَا أَتَمَّ خَلْقَنَا
وَثَبَاتُ الْعَيْشِ فِي وَهْجِ الشُّعُورِ^(٤)
لَمْ يُلَخَّ جِسْمٌ وَرُوحٌ لِلنَّظَرِ
رَسَمْتَنَا وَأَجَادَتْ رَسْمَنَا

إِنْ حَبَاكَ اللَّهُ عَقْلاً لِلتَّفَكُّرِ
طَهَّرَ النَّفْسَ بِتَقْدِيرِ لَهَا انْظُرْ

أَفْسَدَ الْإِيمَانَ فِيكَ عَضَرْنَا
يَكْشِفُ السَّرَّ الْخَفِيِّ قَوْلُنَا

فَلَمَّا [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطان عليها ، وسيصرف في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته .

(١) يقول : إن جبريل لم يفتح عليه عزله .

(٢) الجنان : المراد بهما الرجل والمرأة .

(٣) اللوح : ما يكتب فيه .

(٤) الوهج : اشتعال النار .

فِي الْجِسْمِ الْخَلْقِ نَارٌ تَنَقِّدُ
 مَنْ يَنْتَلِ مِنْ هَذِهِ النَّارِ النَّصِيصَا
 إِنَّهُ ذُو الرَّأْيِ فِيمَا قَدْ عَمِلَ
 مُدَّةً فِي الْغَارِ ظِلُّ الْمُصْطَفَى
 رَسَمْنَا قَدْ أَغْرَقُوا فِي مُهْجَتِهِ
 وَعَلَى انْكَارِ رَبِّ إِنْ قَدَرْنَا
 لَوْ أَنَارَتْ فِيكَ رَوْحٌ كَالْكَلِيمِ
 فَالْخِيَالُ فِيكَ تَحْيِي عِزْلَةً
 ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ بَحْثٍ ضَالَّةٍ^(٢)

مِنْ مَقَامَاتٍ لَنَا عِلْمٌ وَشَوْقٌ
 بِهَجَّةٍ لِلْعِلْمِ تَحْقِيقٌ دَقِيقٌ
 صَاحِبُ التَّحْقِيقِ رَامَ الْمُتَجَلِّي
 عَيْنُ مُوسَى رُؤْيَا الدُّنْيَا أَرَادَتْ
 ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ إِنَّهَا الْمَعْنَى الدَّقِيقُ
 إِنْ تَلَخَ لِلْعَيْنِ آثَارُ الْحَيَاةِ
 هَذِهِ الْآفَاقُ بِالْعَيْنِ أَرْمَقُنْ
 لَهَا فِيمَا جَرَى لِلْقَوْمِ حَقٌّ
 مَتْعَةٌ لِلْعَشْقِ خَلْقٌ قَدْ يَلِيقُ
 صَاحِبُ الْخَلْقِ بِذَاتِ يَخْتَلِي
 وَإِلَيْهَا رَغْبَةُ التَّحْقِيقِ سَاقَتْ
 وَلَتَضَعُ فِيهِ فِذَا الْبَحْرُ الْعَمِيقُ^(٣)
 تَسْتَمِدُّ النَّبْعَ جَوْفَ الْكَائِنَاتِ
 وَتَجَلِّي رَبُّهَا لَا تَطْلُبُنْ

- (١) اِغْتَمَلَ : عَمِلَ عَمَلًا يَتَعَلَّقُ بِهِ دُونَ سِوَاهُ . وَالْمِبتَكِرُ : الْمَجْدُّدُ لَا يَقْلُدُ غَيْرَهُ .
- (٢) الضَّالَّةُ : النَّاقَةُ الضَّائِعَةُ الَّتِي لَا يَعْرِفُ لَهَا صَاحِبٌ . وَالْمُرَادُ هُنَا مَا يَرَادُ مَعْرِفَتَهُ .
- (٣) الشَّاعِرُ يَرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْأَعْرَافُ : ١٤٣] وَقَدْ تَضَارَبَتْ أَقْوَالُ الْمَفْسُرِينَ فِي مَعْنَى تِلْكَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . وَفِي شَعْرِ لَجَلَالِ الدِّينِ الرَّؤُومِيِّ : أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْوُجُودِ مِنَ الْعَدَمِ ، وَالرُّؤْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا لَمَّا ظَهَرَ وَخُلِقَ .

خلوة تحفظ كل من صنع
جوهرأ في خاتم كانت لمع^(١)

الحكم الإلهي

إن عبد الله لا يبغي المقام	ماله عبد ولا كان الغلام
إنه حر وذو نفس زكية	ملكه هذا من المولى عطية ^(٢)
دينه والعرف من رب كريم	خلوة والمر من رب عظيم
جاز عقل في الغرور حدة	وله النفع تمنى وحده ^(٣)
خير كل الناس يبغي وحي ربي	ويرى الخير نداء كي يلبي
ويكون السلم أو حتى المصاف	لا يراعي منصف بل لا يخاف ^(٤)
وإذا الإنسان أضحي أمرا	كان للمنكين حتما قاهرا
ومن القهر صدور أي أمر	
ولغير الله أمر مخض كفر	
أمر بالامر زكى عقله	من قوانين بني حصا له
إن صقرا في ذرى جو يطير	صعوة في أمره قد يستشير ^(٥)
قهره القانون ، مفقود البصيرة	يضع الإثم في العين الضيرة ^(٦)

(١) يقول : إن الخلوة تحمي كل من أوجد شيئا ، وهي فص من الجواهر لخاتمه .

(٢) الزكية : الطاهرة .

(٣) جاز : تجاوز .

(٤) المصاف : الموقف في القتال .

(٥) الدرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصعرة : أنثى الصع وهو عصفور صغير .

(٦) الإثم : الكحل .

صاحب الأرضي البدين ، كان شِرْعَه

والنَّحِيلُ زَارِعٌ مَا اقْتَاتَ رَزْعَه^(١)

بِشَسَ مَا فِي الْغَرْبِ حَقًّا حُكْمُهُمْ^(٢) وَيَزِيدُ الْمَيْتَ مَوْتًا صُورُهُمْ^(٣)
يَسْحَرُونَ ، خَذَعُ دَهْرٍ خَذَعُهُمْ^(٤) مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ كَانَ نَزْدُهُمْ^(٥)
يَسْرِقُونَ ، ذَا ثَرِيٍّ ذَاكَ كَادِحٌ بِالْعَدَاءِ بَعْضُهُمْ لِلْبَعْضِ كَاثِبٌ^(٦)
يَكْشِفُ السَّرَّ جَلِيًّا قَوْلُنَا سَلْعَةً نَحْنُ وَهُمْ تُجَارُنَا
جَفْنُهُمْ فِي الْمَالِ حُبًّا قَدْ جَمَدَ كُلُّ أُمَّ آدَهَا يُقْلُ الْوَلَدُ^(٧)
وَيَلْهَمُ ! خَوْفًا عَلَى حُلُوِّ الثَّمَرِ يُخْرِجُونَ الْمَاءَ مِنْ جَذَعِ الشَّجَرِ !
وَلَكَيْلًا يَبْعَثُ الْعُودُ الرِّينَا فِي الْبَطُونِ قَتَلُوا حَتَّى الْجَنِينَا
عِنْدَهُمْ مِنْ كُلِّ فَرْقٍ كَثْرَةٌ كُلُّ مَا حَصَلَتْ مِنْهُمْ عِبْرَةٌ

يَا أُسِيرًا كَانَ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ

الْكِتَابَ اقْرَأ ، وَعُذِّ مِنْ أَمْرِهِمْ^(٨)

الأَرْضُ مَلِكُ اللَّهِ

إِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ لَا مِتْلَاكُ الْأَرْضِ فِي حَرْبٍ وَضَرْبٍ
كَمَرُوسٍ وَلَهَا كُنَّا الرُّجَالَا سَحَرْتُنَا ، قَطُّ مَا نَلْنَا الْوِصَالَا

(١) البدين : الشمين . والشَّرْعَةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذته قوتاً .

(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليعث من في القبور .

(٣) النرد : شيء معروف يلعب به مع تحريك قطع من العاج على لوح من الخشب .

(٤) كاشح له بالعداوة : أضمرها له .

(٥) جمدت العين : قل دمعها ، أو انقطع . وآده الحمل : أثقله .

(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضَمَنْتُ كُلَّ خَدَاعٍ دَلَّهَا فِي هَوَاهَا إِنَّا لَسْنَا لَهَا^(١)
أَيُّ شَيْءٍ رُمْتَ مِنْ ذَاكَ الْحَجَرُ إِنَّهُ الْبَاقِي وَأَنْتَ فِي سَفَرٍ^(٢)
وَعَنِ الْيَقْظَانِ مَنْ نَامَ افْتَرَقَ وَمَعَ السَّيَّارِ ضِدُّ مَا اتَّفَقَ^(٣)
هَذِهِ الْأَرْضُ مَنْحِنَاهَا مَتَاعًا مَنْ شَرَاهَا مَنْحَةً يَوْمًا وَبِاعًا^(٤)
مَالِكَ الْأَرْضِ إِلَيْكَ الْقَوْلُ عَنْهَا اتَّخَذَ رِزْقًا وَقَبْرًا ثُمَّ دَعَاهَا^(٥)
وَالْإِمَامَ لَيْتَ شِعْرِي تَبْقِيَانِ قَدْ تَظَلُّ وَتَغِيْبُ عَنْ عِيَانِ^(٦)
طُفْ بِأَفْلَاكِ السَّمَاءِ كَالْعُقَابِ كُنْ طَهُورًا وَاجْتَنِبْ رِجْسَ الثَّرَابِ^(٧)

إِنَّمَا الْأَرْضُ لِرَبِّي ، ذَاكَ ظَاهِر

كُلُّ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا فَهُوَ كَافِر

لَمْ أَقُلْ دَغٌّ عَنْكَ هَاتِيكَ الدُّيَارَا عَالِمًا تَمْلِكُ مِنْ حَسَنِ أَنْارَا
ارْفَعْنِ عَنْ جَوْهَرِ الْأَرْضِ الثَّرَابَا التَّقِطُ حَبَّ النُّجُومِ طَرُ عُقَابَا
فِي الْجِبَالِ اضْرِبْ بِفَاسٍ صَخْرَهَا وَبَنُورٍ مِنْكَ أَوْقِدْ نَارَهَا
وَطَرِيقُ آزَرَ فَلْتَجْتَنِبْهَا وَكَمَا تَهْوِي لَكَ الدُّنْيَا أَقْمَهَا^(٨)
بِالْجَمَالِ لَا تَصِلْ قَلْبًا سَقِيمًا أَغْطِهَا قَلْبًا لَهَا كَانَ الْحَرِيمَا^(٩)

(١) الدَّل : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .

(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياه وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .

(٣) السَّيَّار هو الكوكب السيار ، وضدُّه الكوكب الثابت .

(٤) شَرَى الشَّيْء : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشتري .

(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقك ، وتحفر فيها قبرك .

(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .

(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرَّجْس : القذر .

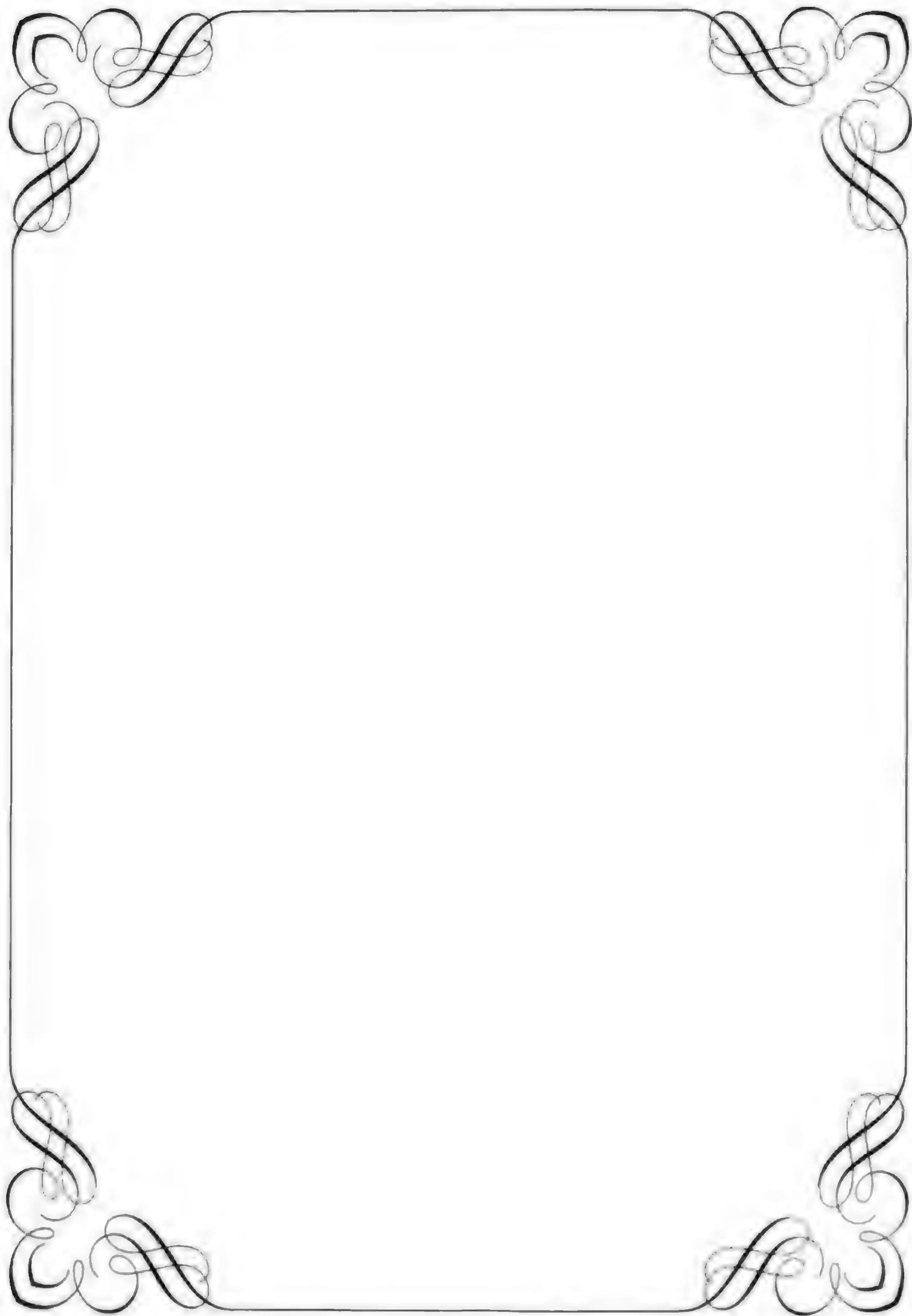
(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنْ أَنْتَ إِلَّا رَكَّ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

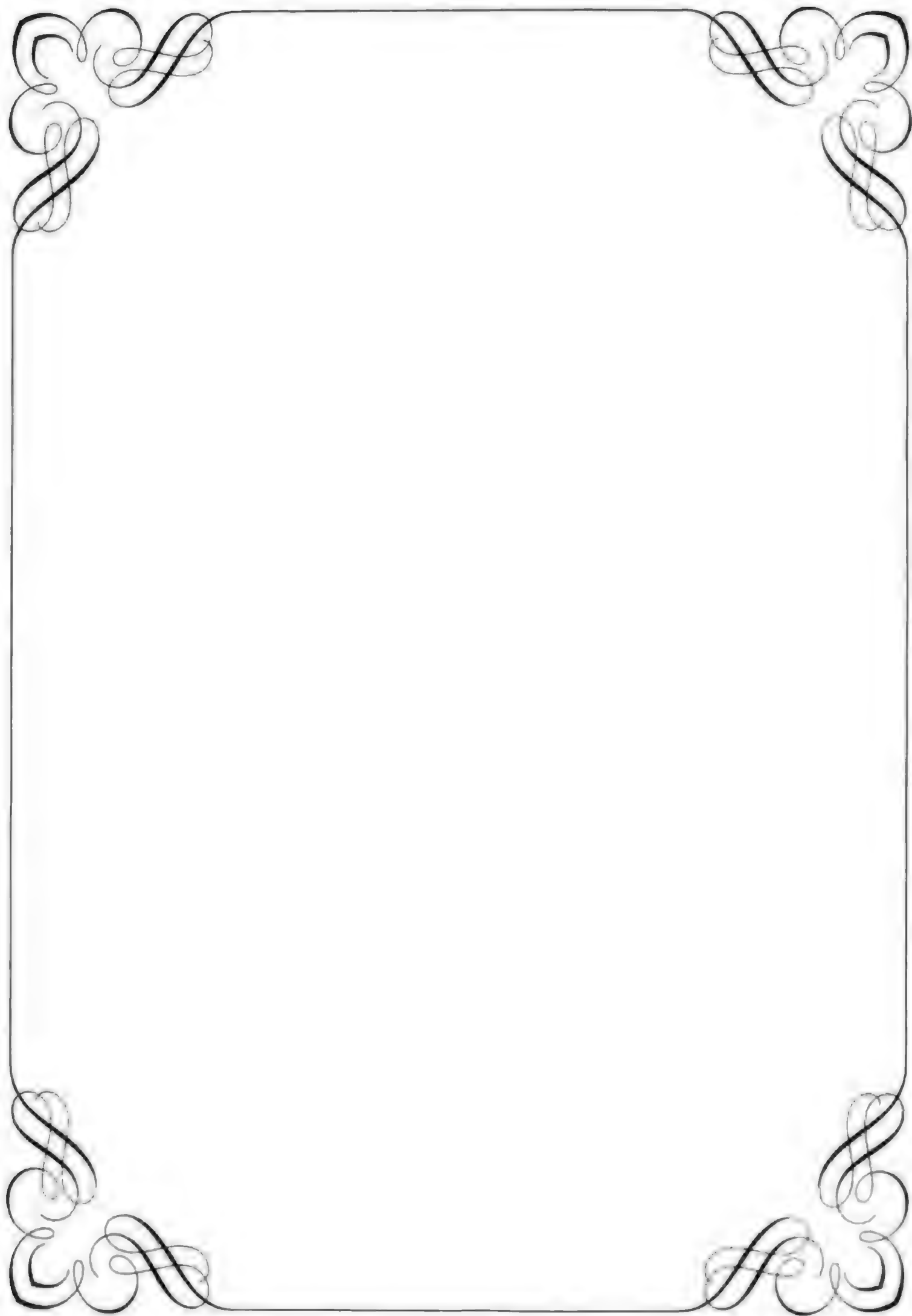
(٩) الحريم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيط بتلك الأرض وتلزم حمايتها وحمايته .

أَنَمُوتُ ؟ مَا لَنَا مَالٌ وَقَبْرُ أَنْضِيعُ ؟ وَلَنَا أَهْلٌ وَوَفْرُ^(١)
 « لَا إِلَهَ » وَلَهَا الْقَلْبُ اتَّسَعَ عَالَمًا فِي الذَّاتِ إِنْسَانٌ جَمَعَ
 كَيْفَ فَقْرُ الْجُوعِ أَوْ فَقْرُ الْعُرَاةِ
 حُكْمُ سُلْطَانٍ ، فَدَعِ ذِكْرَ الْعُقَاةِ^(٢) !

(١) الوفير : الكثير من المال .

(٢) يقول : إِنَّ الْفَقْرَ هُوَ حُكْمُ الْحَاكِمِ . وَالْعُقَاةُ : السَّائِلُونَ وَالْفُقَرَاءُ . وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا
 الرُّمَّادُ .





الحكمةُ خيرٌ كثير

قَالَ رَبِّي إِنَّهَا الْخَيْرُ الْكَثِيرُ	إِنْ تَجِدْهُ فَاغْتَنِمْهُ يَا بَصِيرُ ^(١)
وَلِحَرْفٍ وَهَبَ الْعِلْمُ الْجَنَاحَ	لِلْخَسِيسِ رَوْنَقَ الْغَالِي أَتَا ^(٢)
وَالِىَ الْأَفْلَاقِ عِلْمٌ قَدْ طَلَعَ	نَظْرَةً مِنْ مُقَلَّةِ الشَّمْسِ اقْتَلَعَ
لِلوُجُودِ ، مَا يَرَى تَفْسِيرُهُ	وَالْمَصِيرُ لِلوُزَى تَقْدِيرُهُ ^(٣)
لِلصَّحَارَى قَالَ جُودِي بِالْحَبَابِ	لِلْبَحَارِ قَالَ مُوجِي بِالسَّرَابِ ^(٤)
عَيْنُهُ دَوْمًا عَلَى مَا قَدْ جَرَى	أَصَلَ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ كَيْ يَرَى
كَنْبِي ، رَبِّهِ إِمَّا ذَكَرَ	وَيَقْطَعِ الْفِكْرَ عَنْ رَبِّ كَفَرُ ^(٥)
وَيَغَيِّرِ الْقَلْبَ عِلْمٌ كَانَ شَرًّا	نُورُهُ الظُّلُمَاءُ بَحْرٌ ضَلَّ بَرًّا
مِنْ دُخَانٍ عَالِمٌ أَضْحَى كَفِيفًا	وَالرَّبِيعُ فِيهِ قَدْ أَمْسَى الْخَرِيفُ ^(٦)
الْقِيَافِي وَالرِّيَاضُ النَّاضِرَاتِ	وَالْجِبَالُ هَدَمَتْهَا الطَّائِرَاتِ
صَدْرُ أَهْلِ الْغَرْبِ يُضِيئُهُ اللَّهَابُ	لَذَّةٌ لِلسَّطَوِ وَالْفَزْوِ اسْتَطَابُوا ^(٧)
نَكَّسُوا الْأَوْضَاعَ فِي أَيَّامِنَا	نَهَبُوا الْأَمْوَالَ مِنْ أَقْوَامِنَا

(١) قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أَتَا : هَبَّ .

(٣) أَيْ أَنَّ مَا يَرَاهُ الْعِلْمُ ، وَيَحْكُمُ بِهِ ، هُوَ وَحْدَهُ مَا يَفْسِّرُ الْوُجُودَ .

(٤) الْحَبَابُ : النِّفَاحَاتُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ . وَالسَّرَابُ : مَا يَشَاهِدُ نَصْفَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ مَاءٌ .

(٥) إِمَّا : تَتَأَلَّفُ مِنْ إِنْ الشَّرْطِيَّةِ وَمَا الزَّائِدَةُ .

(٦) الْكَفِيفُ : الْأَعْمَى . أَيْ أَنَّ الْمُتَصَاعِدَ مِنَ الدُّخَانِ وَالْغَازِ يَعْمِي الْعَيُونَ .

(٧) اللَّهَابُ : مُصَدَّرٌ مِنْ لَهَبْتَ النَّارُ أَيْ اشْتَعَلَتْ .

وَاسْتَمِدُّوا بِطُشِّ إِبْلِيسَ الرَّجِيمِ تَضِيحُ الْأَنْوَارُ نَاراً بِالْجَحِيمِ^(١)
قَتْلُهُ مَا زَالَ كَالْأَمْرِ الصَّعُوبِ إِنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي غُمِّ الْقُلُوبِ^(٢)
كَانَ أَوْلَىٰ مُؤْمِناً أَنْ تَجْعَلَهُ وَبَسِيفِ الْكِتَابِ تَقْتُلُهُ^(٣)
مَا جَلالٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ جَمَالٍ أَيُّ هَجَرٍ ذَاكَ يَخْلُو مِنْ وَصَالٍ
عَلَّمْنَا بِالْعِشْقِ عِلْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَبِغَيْرِ الْعِشْقِ عِلْمُ الْكَافِرِينَ
جَنَّةٌ عِلْمٌ لَنَا مَا لَمْ نُحِبْ وَلَنَا الْعَقْلُ كَسَهُمْ لَمْ يُصِبْ
هَبْ عُيُونُ الْعُمَىٰ نَوْرًا تَشْهَدُهُ
وَاهِدٍ لِلْإِيمَانِ مِنْ تَبَتْ يَدُهُ^(٤)

زنده رود

مَحْكَمَاتٌ لِي أَبْنَتْ فِي الْكِتَابِ عَالَمٌ مَا زَالَ يَطْوِي فِي الْحِجَابِ^(٥)
النَّقَابُ عَنْ جَبِينِ مَا رَفَعَ وَلَمَّاذَا مِنْ فُؤَادٍ مَا طَلَعَ
وَلَدَيْنَا عَالَمٌ فِيهِ الدَّيِّبُ لِلْبَلَىٰ ، وَالنُّومِ فِيهِ لِلشُّعُوبِ
فِي التَّارِ خَمَدَتْ نَارُ الْغِلَابِ إِمَّنْ أَسْلَمَ مَوْتُ وَالْكِتَابِ^(٦)

سعيد حلیم باشا

إِنَّ دِينَ الْحَقِّ كَالْكَفْرِ الصُّرَاحِ إِنْ تَرَدَّى الشَّيْخُ فِي الْكَفْرِ الْمَبَاحِ^(٧)

- (١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .
(٢) الصَّعُوب : الصَّعْب . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .
(٣) الْكِتَاب : الْقُرْآن .
(٤) يقول : هب عيون العميان بصرأ لرؤية الله بقلوبهم : وَمَنْ تَبَتْ يَدَاهُ هُوَ أَبُو لَهَب . قال تعالى : ﴿ تَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ ﴾ [المسد : ١] .
(٥) الْكِتَاب : الْقُرْآن .
(٦) غَالِبُهُ غَلَاباً بِمَعْنَى قَاهِرُهُ .
(٧) الصُّرَاح : الْخَالِص . وَتَرَدَّى فِي الشَّيْءِ : سَقَطَ .

طَلُّنَا يَبْدُو كَبْحَرٍ عِنْدَنَا وَبُرَى فِي الْبَحْرِ هَذَا طَلُّنَا ^(١)
 مِنْ أَعَاجِيبِ لِمَنْ بَاعَ الْكِتَابَا كَمْ تَعَالَى صَوْتُ جِبْرِيلَ انْتَحَابَا
 فِي السَّمَاءِ لَمْ تَشْفُهُ جَوْلَةً عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ قَوْلَةً ^(٢)
 مَا نَصِيحاً نَالَ مِنْ دِينِ النَّبِيِّ فِي ظِلَامٍ لِضِيَاعِ الْكُؤُوبِ
 وَضَرِيرُ الْقَلْبِ يَهْذِي فِي النُّفَاقِ تَعْمَهُ الْأُمَّةُ مِنْهُ فِي الشَّقَاقِ ^(٣)
 مَكْتَبٌ ، شَيْخٌ ، وَأَسْرَارُ الْكِتَابِ أَكْمَهُ وَالشَّمْسُ كُفَّهَا لَا تَحَابِي ^(٤)
 دِينَ مَنْ يَكْفُرُ تَدِيرَ الْجِهَادِ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَيْخٌ فِي الْفَسَادِ
 « رَجُلُ اللَّهِ لِدُنْيَا الرُّوحِ كَانَا » قُلْ لِمَنْ فِي عَزْلَةِ الرُّكْنِ اسْتَكَانَا !
 أَنْتَ يَا مَنْ لِلْحَيَاةِ الْفَكْرُ مِنْكَ وَثَبَاتُ الشُّعْبِ قَوْلٌ قِيلَ عَنْكَ
 حَفِظْتُ قَوْلَ اللَّهِ كَانَ دَيْدُنُكَ نَشْرُهُ فِي النَّاسِ كَانَ مَذْهَبُكَ
 أَرْفَعَ الرَّأْسَ تَكَلَّمْ يَا كَلِيمَ مَنْ يَدَيْكَ يَصْدُرُ الْأَمْرُ الْعَظِيمَ
 عَنْ بِيَاضِ الشُّعْبِ حَدَّثَنَا طَوِيلَا وَلْتَذَكَّرْ بِالْفَلَا ظُيْأَ جَمِيلَا ^(٥)
 أَنْتَ حَقًّا مُسْتَنِيرٌ مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَضَعْنَا الْحَالِي فَصْفَهُ ، أَيْنَ تَوْجَدُ !
 مَا اسْتَمَدَّ رَجُلُ اللَّهِ الْبَشَرُ وَاسْتَمَدَّ مِنْ إِلَهٍ قَدْ غَفَرُ

- (١) الطَّلُّ : النَّدى .
- (٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .
- (٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردد في الضلال ، ويتحير في طريقه ، وكلام هذا الشيخ يوقع الناس في الحيرة والخلاف .
- (٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .
- (٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ ﴾ [طه : ٢٢] وبَيْضَاءُ : أَيْ : مَشْعَةٌ . وَمِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ : مِنْ غَيْرِ عَامَةٍ . وَالْفَلَا : جَمْعُ فَلَاةٍ وَهِيَ الصَّحَرَاءُ الْوَاسِعَةُ .

كُلُّ يَوْمٍ سَعِدَتْ رَوْحٌ بِقُرْبَةٍ كُلُّ يَوْمٍ كَانَ فِي شَأْنِ كُرْبَةٍ
 مُؤْمِنًا أَوْقِفَ عَلَى السِّرِّ الْخَفِيِّ « كُلُّ يَوْمٍ » مُدٌّ بِالشَّرْحِ الْجَلِيِّ^(١)
 مَا لِرَكْبٍ نَزَلَ إِلَّا الْحَرَمُ فِي قُلُوبٍ مِنْهُمْ اللَّهُ الْحَكَمُ
 وَطَرِيقاً آخِراً مَا إِنْ ذَكَرْتَ
 نَظْرَةً أُخْرَى لَهُمْ مَا إِنْ عَرَفْتَ

الأفغاني

مَنْ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى نِلْتَ النِّصْبَا ؟ كَانَ دِينَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا غَرِيبَا^(٢)
 إِنَّهُ قَوْلٌ مِنَ الْأَقْوَالِ بِكَرٍ مَا عَنَى بِالْفَقْرِ قَطُّ أَهْلُ ذِكْرِ
 عَنْهُ مَشْغُولٌ بِبَحْثِ حُقُبَةٍ نَدْرَةُ الْآيَاتِ كَانَتْ غُرْبَةً^(٣)
 إِنَّهَا فِي كُلِّ عَصْرِ تَخْتَلِفُ أَفْهَمَنْ مَا أَقُولُ يَا ثَقِيفَ^(٤)
 أَمِنَحِ الْقُرْآنَ مَنْ فِكْرٍ مَزِيدَا وَكَمَا شِئْتَ افْتَتِحْ عَصراً جَدِيدَا
 عَنْ كِتَابِ اللَّهِ مَنْ زَاغَ السُّتَارَا فِيهِ أَهْلُ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْحَيَارَى^(٥)
 هَؤُلَاءِ الرُّؤُوسُ شَيْئاً أَبْدَعُوا أَوْجَدُوا الْخُبَرَ وَدِيناً ضَيَّعُوا

- (١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَتَنَزَّلُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفتقر إليه كل من قبهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .
- (٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين الممتسكين بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقلب الأيام بين قوم غرباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديث آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .
- (٣) الحُقُبَةُ : المدة من الدهر ، لا وقت لها .
- (٤) الثَّقِيفُ : الحاذق القطن .
- (٥) زاح : أزاح .

بِاللِّسَانِ الْحَقِّ قُلْ وَانْظُرْ بِعَيْنٍ
أَبْلَغَ مِنَ الْقَوْمِ مَنِي لَفْظَتَيْنِ

رسالة الأفغاني إلى شعب روسيا

إِنَّ لِلْقُرْآنِ قَضْدًا آخِرًا
قَلْبُهُ مَا فِيهِ نَارٌ تَسْتَعِزُّ
ثَمَرَ الْقُرْآنِ عَيْدٌ مَا أَكَلْ
قِصْرًا أَفْنَى وَكِسْرَى حَطْمًا
دَوْحَةُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَاسْتَوَتْ
وَمَنْ الْمَلِكِ اخْتِلَافُ النَّظَرَةِ
وَاخْتِلَافُ الْعُزْفِ بِلْ وَالفِكْرَةِ
أَنْتَ أَرْسَيْتَ الْأَسَاسَ الْمُخْتَلِفَ
نَحْنُ فِي الْمَاضِي هَدَمْنَا الْكِسْرَوِيَّةَ
كَيْ تُنِيرَ الْيَوْمَ مَصْبَاحَ الضُّمِيرِ
وَلْتُنْبِثْ قَدَمَيْكَ فِي الْمَصَافِ
هَذِهِ الدُّنْيَا الْعَجُوزُ قَدْ أَرَادَتْ
ثُمَّ وَلَّ الْوَجْهَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ
شَعْلَةٌ أُخْرَى بِرُوحٍ تُوقَدُ
وَيَرَى فِي الشَّرْعِ هَذَا مَنْ يَرَى
صَدْرُهُ فِيهِ النَّبِيُّ لَمْ يَسْتَقِرْ
فِي يَدِ كَأْسٍ دِهَاقًا مَا حَمَلَ^(١)
وَاعْتَلَى عَرْشًا لَهُ كَيْ يَحْكُمَا
صُورَةٌ لِلْمُلْكِ فِي الدِّينِ انْطَوَتْ
وَمَنْ الْمَاضِي قَلُوبًا تَقْطِطِفُ
أَنْتَ قَوَّضْتَ بِنَاءَ الْقِيَصَرِيَّةِ
عَبْرَةً مَنَا اتَّخَذَ عَبْرَ الْعُصُورِ
حَوْلَ أَصْنَامِ حَذَارٍ مِنْ طَوَافِ^(٢)
شَعْبَهَا شَيْخًا وَمِنْ شَيْخٍ أَقَادَتْ^(٣)
كَيْفَ تَسْنَى يَوْمَ مَاضٍ مُعْرِقِ^(٤)
وَلَكِ الْعَصْرَ الْجَدِيدَ تُوجَدُ

(١) الذَّهَاقُ : الممثلة .

(٢) المَصَافُ : موقف القتال .

(٣) أَقَادَ : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .

(٤) وَلَّ : وجه . الْمُعْرِقُ : المعريق في الكرم . يريد ليقول : إِنَّ بَيْنَ الرُّوسِ وَالشَّرْقِ
صَلَاتٌ تَارِيخِيَّةٌ مَجِيدَةٌ .

إِنَّ دِينَ الْغَرْبِ قَدْ أَمْسَى رَمِيمًا لَا تَشَاهِدُ ذَلِكَ الدَّيْرَ الْقَدِيمًا^(١)
وَتَلَلْتُ الْحَاكِمِينَ الْيَوْمَ تَلًّا أَتْرَكُنَّ « لَا » وَلَتُيَمِّمُنَّ نَحْوُ « إِلَّا »^(٢)
إِنَّ « لَا » ضِمْغَنَ كَلَامٍ كَانَ نَفِيًّا أَنْتَ بِالْإِثْبَاتِ خُذْ دَوْمًا لَتْجِيًّا^(٣)

وَإِذَا شِئْتَ نَظَامَ الْعَالَمِ
فَلْيَكُنْ فَوْقَ الْأَسَاسِ الْمُخْتَلَمِ

وَمَنْ التَّارِيخَ تَمْخُو كُلَّ بَابٍ فَاقْبِ الْأَنْوَارَ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ
مَنْ يَقُولُ مَاتَ كَيْسَرِي مَاتَ قَيْصَرٌ؟ بَيْنَ سَوْدٍ بِالْيَدِ الْبِيضَاءِ بَشَرٌ؟^(٤)
دَعَاكَ مِنْ هَذَا التَّجَلِّيِ لِلشَّيْءِ أَتَرِكَ الْغَرْبَ وَأَذْرِكُ كُنْهَ ذَاتِ^(٥)
وَيَمَكِّرِ الْغَرْبِ إِنْ كُنْتَ الْخَيْرَا لَا تُقَلِّدْ نَعْلَبًا بَلْ كُنْ هَضُورًا^(٦)
أَمَلُ الثَّغْلَبِ فِي الدُّنْيَا طَعَامٌ قَوْلُ أَسَدِ اللَّهِ « حُرٌّ أَوْ حِمَامٌ »^(٧)
يُضْبِحُ الثَّغْلَبُ ذِيكَ الْأَسَدِ دُونَ قِرَآنٍ ، وَمُتْلِكٍ مَا اسْتَنْدَ
فَقَرُّهُ مُلْكٌ وَذِكْرٌ ثُمَّ فِكْرٌ وَاهِبَ الْفِكْرِ الْكَمَالَ كَانَ ذِكْرُ
كَانَ تَهْذِيبًا لِأَشْوَاقٍ وَذَوْقٍ إِنَّهُ فِي الرُّوحِ ، لَمْ يُوجَدْ بِحَلْقٍ
فِي الضُّدُورِ مِنْهُ نَارٌ تَلْتَهَبُ وَأَجِيجُ النَّارِ لَمَّا تَسْتَطِبُ^(٨)

يَا شَهِيداً فِي هَوَى الْفِكْرِ الْجَمِيلِ
ذَا تَجَلَّى الْفِكْرِ فِي قَوْلٍ طَوِيلِ

(١) الرميم : العظم البالي .

(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لَا » و « إِلَّا » إلى « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

(٣) دوماً : دائماً .

(٤) السود : العرب .

(٥) الشيات : الألوان .

(٦) الهصور : الأسد .

(٧) الحمام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .

(٨) أجيح النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

ما هو القرآن ؟ هَلِكُ الظالمينا
 أَهْلُ حِرْصٍ أَيَّ خَيْرٍ حَقَّقُوا
 ليس من هذا الرِّبَا إِلَّا الْفِتْنُ
 يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ صَخْرِيَّ الْفَوَازِ
 عن منالٍ رِزْقُ أَرْضٍ مَا امْتِنَاعُ !
 الْأَمِينُ الْعَبْدُ وَالرَّحْمَنُ مَالِكُ
 الْمُلُوكُ نَكَّسُوا لِلَّهِ رَأْيَهُ
 وَالْخِلَاصَ كَانَ لِلْمُسْتَعْبِدِينَا^(١)
 ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا﴾^(٢)
 مَنْ دَرَى مَا لَذَةُ الْقَرْضِ الْحَسَنِ؟
 أَوْ كَلَيْتَ أَذْرَدَ وَشَطَطَ الْمَصَادِ^(٣)
 مُلْكُ رَبِّ وَهِيَ لِلْعَبْدِ الْمَتَاعُ
 كُلُّ شَيْءٍ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ هَالِكُ^(٤)
 وَالْقُرَى مِنْ ظُلْمِهِمْ فِي الذِّلِّ غَايَةُ^(٥)

خَبَرُنَا وَالْمَاءُ تَحْوِي مَائِدَةً

إِنَّمَا النَّاسُ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ^(٦)

صُورَةُ الْقُرْآنِ لَمَّا أَظْهَرَتْ
 وَأَقُولُ مَا بِقَلْبِي يُضْمَرُ
 مِثْلُهُ الرَّحْمَنُ يَخْفَى وَهُوَ ظَاهِرُ
 وَلِغَرْبٍ فِيهِ أَقْدَارُ وَشَرْقُ
 قَالَ جُذَّ بِالرُّوحِ جُذَّ لِلْمُسْلِمِ
 أَنْتَ يَا مَنْ ذَلِكَ الشَّرْعُ اتَّخَذْتَا
 صُوراً أُخْرَى سِوَاهَا أَبْطَلَتْ
 أَكْتُابُ ذَاكَ ؟ شَيْءٌ آخَرُ ؟
 دَائِمٌ حَيٌّ وَمِنْطِيقٌ يُجَاهَرُ^(٧)
 كُنْ سَرِيعَ الْفَهْمِ أَسْرِعْ مِثْلَ بَرْقٍ
 فَوْقَ مَا تَحْتَاجُ طَوْعاً قَدَمُ
 فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْرًا لَوْ رَأَيْتَا

(١) الهلك : الهلاك .

(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَالِمٌ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٣) الأدرد : من ذهب أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .

(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] .

(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النمل : ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل : ٣٤] .

(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٧) المنطيق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَرَفْتُ مَا تَعَالَى وَانْحَدَرُ

فِي الْحَيَاةِ وَفَهِمْتُ مَا الْقَدَرُ

مَا مَعَ السَّاقِي حَوَانَا الْمَخْفَلُ مِعْزَفُ الْقِرَآنِ دَوْماً يَهْدِلُ^(١)
لَوْ خَلَا عِزْفُ لَدَيْنَا مِنْ أَثَرِ فِي السَّمَاءِ لاسْتَمَعْنَا لِلْوَتْرِ
ذَكَرُ رَبِّي عَنْ شُعُوبٍ فِي غِنَى لَزِمَانٍ وَمَكَانٍ مَا انْشَى^(٢)
أَيَنْ مِنْ ذِكْرِ لِرَبِّي مِنْ ذَكْرٍ مَا لِرُومٍ مَا لِشَامٍ مِنْ خَبَرٍ^(٣)
لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَنَّا حَمْلَهُ لاسْتَطَاعَ لِسَوَانَا نَقْلَهُ^(٤)
ذَلِكَ التَّقْلِيدُ فِينَا قَدْ رَأَيْتُ رِغْدَةً لِلرُّوحِ فِي جِسْمِي وَجَدْتُ^(٥)
فِي غِدٍ قَدْ يُخَرِّمُونَ ذِكْرَهُ
وَبِقَلْبِ الْغَيْرِ يَلْقَى نَارَهُ

جلال الدين الرومي

يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إِنَّمَا الرُّومِيُّ فِي جَذْبِ تَفَجَّر وَعَرَفْتُ الْقَوْلَ فِيهِ كَيْفَ أَثَرُ
صَعْدَ الرَّفْرَفَةِ نَاراً لِلْكُبُودِ سَكَبَ الدَّمْعَ دُمَاءَ لِلشَّهِيدِ^(٦)
بِالسُّهَامِ رَاشِقٌ قَلْبَ الرُّجَالِ سَيِّدُ الْأَفْغَانِ خُصٌّ بِالْمَقَالِ^(٧)

(١) المِعْزَفُ : آلة الطرب . وَهْدَلُ الْحَمَامُ : صَوْتُ .

(٢) يقول : إِنَّ ذَكَرَ اللَّهِ لَيْسَ خَاصّاً بِشَعْبٍ خَاصٍّ ، وَلَا يَتَسَبُّ إِلَى زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ .

(٣) يريد ليقول : إِنَّ ذَكَرَ اللَّهِ مُنْفَصِلٌ عَنْ ذَاكِرِهِ ، وَلَا صِلَةَ لَهُ بِالْمَكَانِيَةِ .

(٤) غَرَضُ الشَّاعِرِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْصُّ بِذِكْرِهِ قَوْماً بَعْضَهُمْ .

(٥) يعيب التقليد عند المسلمين .

(٦) الكبود : جمع كبد .

(٧) المراد بسيد الأفغان السيد جمال الدين الأفغاني .

« حمرة للافق ضغها في الوتين
 بالمُنَى الأرواح سيل ذو زَبَدٍ
 وأشار ثم قال « زنده رود
 ناقة من أينها ضاقت خطاها
 امتحان الطاهرين بالبلاء
 وعن النيل ابتعد مثل الكليم
 وسموط الحق أمسك باليمين^(١)
 إنما اليأس لها موت الأبد^(٢)
 فليكن بالشعر نارا ذا الوجود
 آدها الحمل وأن من حذاها^(٣)
 فلنزد في طول جهد للظماء^(٤)
 كالخليل فلتسز نحو الضريم^(٥)

من حبيب نعمة ما جئت بطيب
 أمّة تسكن داراً للحبيب

غزل زنده رود

ليس زهر في الرياض بالمقيم أبدا
 أين معنى ما وجدنا بعد بحث يا ترى
 ومن الذات تعلم أنت حرفاً واحترق
 إنه يمضي كامواج النسيم أبدا
 مكتب يبقى وحان كالعقيم أبدا
 تغدّم الخانقاه نارا للكليم أبدا^(٥)

- (١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والسموط : حبال تتدلى من الشرج .
 (٢) الأين : التعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنى لها . يقول : إن غناء من يسوق الناقة ينبغي أن يصبح أيناً بعد تعب ناقتة .
 (٣) الظماء : جمع ظامى . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .
 (٤) الضريم : الحريق وهو هنا نار إبراهيم عليه السلام . والشاعر يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذفه في النيل ليلقيه بالساحل .
 (٥) الخانقاه : مبنًى يقيم فيه المتصوفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزاً للمعرفة .

لا تَحَدَّثْ عَنْ صَفَاءٍ مِنْ بَخَانِقَاهِ سَكَنُ
وَسِخَ الشَّعْرِ تَرَاهِ وَالْأَدِيمِ أَبْدَا^(١)
كَمْ بِيوتٍ شَيَّدُوها وَسَطَّ بَيْتٍ وَاحِدٍ
لا يَشِيرُ الْقَلْبُ رَبِّاً لِلْمُقِيمِ أَبْدَا^(٢)
لَيْسَ خَطْباً أَنْ يَضِيقَ بِالنَّدَامَى مَجْلِسِي
إِنَّهُ أَلَّا تَرَى كَأْسَ النَّدِيمِ أَبْدَا !



- (١) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبة منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ (أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .
- (٢) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إِنَّ المُوَحِّدِينَ لَهُم جميعاً فكرةً واحدةً لا ريب فيها ، وهو يَعْجَبُ لانقسام القَوْمِ فرقاً وطوائف .

فلك الزهرة

يَخْجُبُ النُّورَ بَدَا بَيْنَ السَّحَابِ
وَأَجْهُونَا بِالسُّتُورِ عُلُقْتَ
كِي تَزِيدَ النَّارُ فِي الْقَلْبِ اشْتَعَالَا
وَبِوَقْدٍ مِنْهُ فِي وَرْدٍ دِمَاءُ
هَكَذَا مِنْ تُرْبِهَا الْأَرْوَاحُ قَامَتْ
وَالطَّرِيقُ يَحْتَوِي مَوْتاً وَخَشَرَا
فِي الْفَضَاءِ دَارَ مُزَرَّقِ الْفَلَكَ
وَهِيَ إِبْرَاهِيمُ أَوْ ذَاكَ الْحَرِيمِ
السَّمَوَاتُ وَهَذِي خَيْبَرُ
مِنْ فُضَاءِ الصَّفِيقِ مِنْ حِجَابِ^(١)
لِلتَّجَلِّي كُلُّ نَارٍ أَخْمَدَتْ
وَتَرَى غُضْناً وَبِالْأَثْمَارِ طَالَا
زُبْقاً بِالرَّقْصِ مِنْهُ كَانَ مَاءُ
وَبِمَا لَا تَشْهَدُ الْعَيْنَانُ لَادَتْ^(٢)
فِيهِ لَكِنْ زَوَّدُوا بِالنَّارِ سَفَرَا^(٣)
هَابِطٌ يعلو وما يعلو انْسَبَكَ^(٤)
كَالدَّبِيعِ ، فِي الْفِدَاءِ لَا يُلُومُ^(٥)
لَا يُجِيدُ الطُّفْنُ إِلَّا خَيْدُرُ^(٦)

(١) الصَّفِيقُ : ضدَّ الرقيق .

(٢) التُّرْبُ : التراب .

(٣) السَّفَرُ : المسافرون . يقول : إِنَّ النَّارَ كَانَتْ زَاداً لَهُمْ .

(٤) انْسَبَكَ الذَّهَبُ : دَوَّبَ وَأَفْرَغَ فِي قَالِبٍ . وبذلك يشبه انخفاض واستواء ما ارتفع .

(٥) الذَّبِيعُ : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .

(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي

لفتح أحد الحصون وكان عليُّ أرمداً . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه

وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمد بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن

معه . وشدَّ عليُّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهمز

اليهود إلى حصنهم وبارزه يهوديٌّ آخر وضربه ضربةً شديدة حطمتُ رُزسه . فتناول كرم

الله وجهه باباً عند الحصن لِيَتَرَسَّ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل

وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طَهَّرَ الرُّوحَ الصَّارِعَ الْمُسْتَمِرَّ إِنَّهَا تَجْرِي بِهِ أَوْ تَسْتَقِرُّ
وَهِيَ فِي نَوْرِ عَلَى نَوْرٍ تَطِيرُ وَلَدَيْهَا الصَّيْدُ جَبْرِيلُ وَخُوزُ^(١)
ثُمَّ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ يَضْحَى النَّصِيَا
لِمَقَامٍ « عِبْدَه » تَمْسِي الرَّقِيَا^(٢)
فِي مَقَامِي لَسْتُ أَدْرِي أَيْنَ كُنْتُ إِنِّي عَنْ كُلِّ خُلَانِي نَائِتُ
تَقَدَّمَ الْحَرْبُ بِصَدْرِي عَسْكَرَا مِنْ لَهُ عَيْنٌ كَعَيْنِي قَدْ يَرَى
مَنْ دَرَى مَا الْحَرْبُ فِي كَفْرِ وَدِينِ وَخَذَهَا نَفْسِي كَزَيْنِ الْعَابِدِينَ^(٣)
أَيُّ مَعْنَى لِلطَّرِيقِ وَالْمَقَامِ ؟ إِنَّ شُكَايَ السُّرَاجِ فِي الظَّلَامِ^(٤)
أَهْلَكَ الْيَمُّ الشُّيُوخَ وَالشُّبَابَا هَاكَ شَيْخاً وَاحِداً جَارَ الْعُبَابَا^(٥)
قَدْ رَفَعْتُ السُّرَّ وَالسُّرَّ انطَوَى أَرْهَبُ الْوَصَلَ وَتَبْكِينِي النَّوَى^(٦)
الْوَصَالُ آخِرُ الشُّوقِ ! الْحَذَرُ ! مَا لَشُكْوِي وَزَفِيرٍ مِنْ أُنْزُرُ !
سَالِكُ مَا إِنْ رَأَى مَثَنَ الطَّرِيقِ مِنْ فَرَاغٍ إِنْ يَكُنْ غَيْرَ الْمُفِيقِ^(٧)

- (١) الصيد : ما يصاد .
(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] . أي ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبتته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من المعجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى النبي ولم يذكر المَوْحَى تفخيماً لشأنه .
(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن أبي طالب الملقب بزين العابدين رضي الله عنه ، رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقة السر ، والحلم ، والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانت وفاته عام ٩٤ هـ .
(٤) السراج : المصباح .
(٥) اليم : البحر . والعباب : الموج .
(٦) النوى : البعاد .
(٧) الفراغ هنا هو : سكون النفس .

إِنَّ لِي قَلْباً وَمِنْ ذَوْقِ النَّظَرِ عالماً يَشْتاقُ ، بالشَّوقِ اسْتَعَزَّ^(١)
 إِنَّمَا الرُّومِي بِرُوحِي تِلْكَ أَغْلَمَ قَالَ يَا مَنْ عَالِماً تَبْغِي تَسْلَمُ
 فِي يَمِينِ الْعِشْقِ نَحْنُ وَهُوَ يَلْعَبُ فَتَأْمَلُ ، يَحْتَوِينَا أَيُّ كَوْكَبِ^(٢)
 عَالَمٍ وَالْأَسْرُ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ مِنْ سَوَادِ الْمِسْكِ يَبْدُو فِي كِسَاءِ^(٣)
 وَبَعِينِ مَرَّقَتْ كُلَّ الْحُجُبِ انْظُرْنَ وَاخْتَرِقِ كُلَّ الشُّجُبِ
 سَتَرِي الْأَرْيَابَ حَتْمًا كُلَّهَا وَأَنَا أَغْلَمُ حَقًّا حَالَهَا
 (بَعْلُ وَمَرْدُوخُ وَيَعْقُوقُ وَنَسْرُ وَفَسْرُ رَمِ خَنْ وَلَاثُ وَمَنَاةُ وَعَسْرُ وَغَسْرُ)
 إِنَّهَا لِلْبَعْثِ تَأْتِي بِالذَّلِيلِ
 فَالزَّمَانُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ خَلِيلِ^(٤)

عودة الجاهلية

مرَّ شاعرُ الإسلام - في بعض زياراته الرُّوحية وسياحاته الفكرية - بوادٍ ،
 اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتت أصنامها
 وتمائيلها ، وبنّت عليها هياكلَ ومعابد ، وعكفَ عليها السُّدنة والكُهَّان ، وتغنّى
 بها الشعراءُ والأدباء ، وكان مَجْمَعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ
 مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التبابعة ،
 والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

(١) استعزت النار : اشتعلت .

(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزُّهرة .

(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .

(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيمُ الخليل عليه السلام
 محطّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسي ، فلتنطق كُلُّ وادٍ
 ضَمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إله الوصل ، وذلك ربّ الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم إنهم أشكالٌ وألوان ، فهذا قد سلّ السيف بيده ، وهذا تقلّد حيةً ولواها حول عنقه ، وكلّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمّديّ ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، وولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسّس على عقيدة التوحيد ، وكلّهم ساخطون حانقون على ضربية إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سرّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحبَ بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنّ إنساناً قرّ من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمنّع بالآثار العتيقة ، ويتحدّث عن مجدنا ، إنّها بارقة أملٍ لاحت بعد مدّة ، ونفحة هبّت من أرضٍ حكمتها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعلّ - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتزّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغني في طربٍ ومرح ، ويقول : « إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنح له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنّهُ لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .

حيّا الله الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحها لنا الدهاء الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدّة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وَضَيَعُوا ذَلِكَ الدِّينَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، وَالَّذِي بَعَثَ فِيهِمُ الْإِيمَانَ وَالْيَقِينَ .

إِنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ الْحَرَّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الْحُدُودَ وَالْجِهَاتِ ، وَلَا يَعْبُدُ غَيْرَ إِلَهِ الْوَاحِدِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَصْبَحَ يُؤْمِنُ بِالْوَطَنِ ، وَيَقْدُسُهُ ، وَيَعْبُدُهُ ، وَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِهِ ، وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ ، وَيُهْجِرُهُ وَيَتَنَاسَاهُ .

لَقَدْ خَضَعَ الْمُسْلِمُونَ لِنُفُوزِ الْغُرَبِيِّينَ وَمَجْدِهِمْ ، وَأَصْبَحَ شَبَابُهُمُ الْكِبَارَ وَعُلَمَاؤُهُمُ الْعِظَامَ يَتَقَلَّدُونَ شِعَارَهُمْ ، وَيَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ ، فَلَنَسْتَبَشِّرُ وَلَنَسْتَهْزِ هَذِهِ الْفُرْصَةَ .

لَقَدْ عَادَ إِلَيْنَا الشَّبَابُ ، وَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَطْرِبَ ، فَقَدْ انْهَزَمَ الدِّينُ ، وَانْتَصَرَتِ الْوُطَنِيَّةُ وَالْجَنْسِيَّةُ . إِنَّ الْمَصْبَاحَ الَّذِي أَنَارَهُ مُحَمَّدٌ ، تَأَلَّبَ عَلَيْهِ مَنَّةُ « أَبِي لَهَبٍ » يَطْفِئُونَهُ ، إِنَّا لَا نَزَالُ نَسْمَعُ صَوْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَكِنَّهُ صَوْتُ يَصْدُرُ عَنِ الشَّفَتَيْنِ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنِ الْقَلْبِ ، وَكُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْقَلْبِ سَيْفِيْبٌ عَنِ الْفَمِ .

لَقَدْ أَعَادَ سَحَرُ الْغُرَبِ دَوْلَةَ إِلَهِ الشَّرِّ وَالظُّلْمَةِ ، وَشَبَابِهِ ، وَأَصْبَحَ الدِّينُ الْإِلَهِيُّ مَهْدَدًا ، فَطَوَّبَى لَنَا وَإِخْوَتِنَا الَّذِينَ قَطَعُوا الرِّجَاءَ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَاعْتَكَفُوا فِي الْخُلُوتِ وَالْمَغَارَاتِ .

لَقَدْ كَانَ عِبَادُنَا أَحْرَارًا ، لَهُمُ التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ ، وَالْحَرِيَّةُ الْكَامِلَةُ فِي حَيَاتِهِمْ ، لَمْ تَنْقُلْهُمْ بِعِبَادَةٍ وَطَاعَةٍ ، وَإِنَّمَا طَلَبْنَا مِنْهُمْ رَكْمَةً لَا سَجُودَ فِيهَا ، وَقَدْ أَثَرْنَا فِيهِمُ الْعَاطِفَةَ الدِّينِيَّةَ بِالْأَنَاشِيدِ وَالْأَغَانِي ، فَلَمْ تَكُنْ صَلَاتُهُمْ إِلَّا مَكَاءً ، وَتَصَدِيَّةً ، وَنَعْمَةً ، وَأَغْنِيَةً ، وَأَيُّ لَذَّةٍ فِي صَلَاةٍ لَا غَنَاءَ فِيهَا ، وَلَا مُوسِيقًا ؟ !

إِنَّ النَّاسَ لَا يَبْدُوْنَ يَفْضَلُونَ عِبَادَةَ طَاغُوتٍ مُشْهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ إِلَهٍ غَائِبٍ ، وَرَبُّ لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ ،^(١) .

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ - ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظلمَ الغَيمُ ولِّلرَّيحِ الخُفُوقُ	في الظَّلامِ تَفْقِدُ النُّورَ البروقُ ! ^(١)
الرياحُ البحرُ فيها قد تعلَّقُ	شَقَّتِ الثُّوبَ بدرُ كم تَأَلَّقُ
لا يرى شَطْطٌ وموجٌ يَهْدُرُ	ما على صَرَعِ الرِّيحِ يَهْدُرُ ^(٢)
ومَعَ الرُّومِيِّ في بحرِ السَّوادِ	حُلماً كُنَّا بسوداءِ الفؤادِ ^(٣)
إنَّه المِسْفَارُ لَكِنْ لَمْ أَصَافِرْ	وعلى هذا رَأَيْ غَيْرُ صَافِرٍ ^(٤)
عاجزاً قُلْتُ كلاماً كُحِرَا	«عالمٌ آخرَ عَيْني لا تَرَى»
وإذا للعينِ أطوادُ تلُوحُ	وغديرٌ في مروجٍ وهي قِيحٌ ^(٥)
وإذا في النَّجْدِ والسَّهْلِ الرِّيعُ	والنَّيْمُ يالهُ مِنْكَ يَضُوعٌ ^(٦)
ولنا الطَّيْرُ تَغَنَّتْ بِالْجَوَى	والينابيعُ وعُشْبٌ ما استوى ^(٧)
ذاك قَيْضٌ مِنْهُ للجسمِ البَقَاءُ	ولَعيْنِ الرُّوحِ في الجِسمِ الجِلاءُ
وَمِنْ الطُّودِ نَظَرْتُ نَظْرَةً	لأرى الدُّنيا ترفُ نَضْرَةً ^(٨)
واستوى الوادي ومدَّ جانبيه	إنَّ ماءَ الخضرِ مشتاقٌ إليه ! ^(٩)

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هدَرَ البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الروميُّ : هو جلال الدين الروميُّ ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبه .

(٤) المِسْفَارُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النهر . والفيح : الواسعة .

(٦) النجد : ما ارتفع من الأرض . وضاع المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلالاً نضرة .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلة تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة وهو ينبوع في أرضٍ بعيدة تسمى دار الظلمات . ومن نَهَلَ نَهْلَةً منه ضَمِنَ أن يكون من الخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنه خيطٌ من =

كُلُّ رَبِّ فِيهِ مِنْ ذَاكَ الرَّمَنُ رَبُّ مَضْرُوزٍ ذَا وَذَا رَبُّ الْيَمَنِ
 ذَاكَ مِنْ أَرْبَابِ عُرْبٍ أَوْ عِرَاقٍ ذَاكَ رَبُّ الْوَضَلِ ذَا رَبُّ الْفِرَاقِ
 وَسَلِيلُ الشَّفْسِ صَهْرٌ لِلْقَمَرِ مِنْ بَزُوجِ الْمُشْتَرِي خَصَّ النَّظَرُ
 وَاحِدٌ يَخْتَالُ بِالسَّيْفِ الْحُسَامِ آخِرُ فِي لَيْتِهِ أَفْعَى السَّمَاءِ^(١)
 كُلُّهُمْ يَرْتَاغُ مِنْ ذِكْرِ الْجَمِيلِ وَيَخَافُ كُلُّهُمْ بَطْشَ الْخَلِيلِ^(٢)
 « إِنَّمَا الْمَرْءُ مِنَ الْمَوْلَى هَرَبٌ وَالْمُصَلَّى » ، قَالَ مُرْدُخُ ، وَانْتَحَبَ^(٣)
 « وَكَأَنَّ الْعَقْلَ مِنْهُ أَوْمَضَا وَهُوَ لَا يَنْسِي زَمَانًا قَدْ مَضَى^(٤)
 ظِلٌّ يَسْتَحْسِنُ مَا كَانَ الْقَدِيمَا فِي تَجَلُّنَا يَرَى شَيْئًا عَظِيمَا
 وَيَجِدُ الْوَهْمُ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَتَهْبُ الرِّيحُ رِيحًا لِلْأَمَانِي^(٥)
 ثُمَّ غَنَى بَعْلٌ مِنْ فَرْطِ الطَّرَبِ
 سَرَّنَا أَفْشَاءُ عِنْدَ كُلِّ رَبِّ^(٦)

أَغْنِيَةُ بَعْلٍ

مَرْقُ الْمَرْءِ السُّتَارَ الْأَزْرَقَا مَا اسْتَطَاعَ رُؤْيُهُ أَنْ يَرْمُقَا^(٧)

- = فضة . فشرب منه ، وتلقت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولما الحياة هذا
 ذكرٌ متردّدٌ في الشعر الفارسي الصوفي على أنه رمزٌ للحقيقة .
- (١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسّمام : السموم .
- (٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .
- (٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها .
 ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .
- (٤) أومض البرق : ومض ولمع .
- (٥) يجد : يصبح جديداً .
- (٦) بعل : اسم إله عند الساميين .
- (٧) رmqه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَوْجَةً لِلْفِكْرِ تَغْشَى قَلْبَهُ مَوْجَةً أُخْرَى لَهَا أَنْ تَفْرَقَا^(١)
 رَوْحُهُ بِالْحَسَنِ أَمْسَتْ فِي قَرَارِ مَنِةَ الْمَاضِي عَلَى أَنْ تَصْدَقَا^(٢)
 نَحْنُ حَافُونَ بِعِلْمٍ فَلْيَعِشْ عَالَمٌ أَحْيَا بِعِلْمٍ مَشْرِقَا^(٣)
 أَيُّهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

قِفْ تَأْمَلْ وَخُذْ قَدْ شُتَّتْ وَ ﴿ أَلَسْتَ ﴾ عِنْدَ قَوْمٍ أُبْطِلَتْ^(٤)
 حُطِّمَتْ كَأْسٌ بِأَيْدِي ثَلَاثِ خَمْرُ جِبْرَائِيلَ مِنْهَا أُسْكِرَتْ^(٥)
 كُلُّ حَرٍّ فِي قِيودٍ مِنْ حُدُودِ وَضَلَّةٌ بِاللَّهِ مِنْهُ صُدِّعَتْ
 سَوْدُدُ الْأَسْلَافِ بَرْدٌ فِي دِمَاءِ وَزَنَانِيرُ الشُّيُوخِ سُوءُ هَدَتْ^(٦)
 أَيُّهَا الْأَرْيَابُ قَدْ آنَ الْأَوَانُ

بَعْدَ دَهْرِ عَادَ يَوْمٌ لِلطَّرَبِ أَصْبَحَ الدِّينَ صَرِيحاً لِلنَّسَبِ^(٧)

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كل مجموعة منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقة في الزوي ، ويتلو كل قسم بيتاً مستقلاً يُكَرَّرُ . وقد التزمنا في الترجمة روي هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . ويفرق : يخاف .

(٢) المنية : الأمل .

(٣) الحابي : واجد الحياة . وكأن هذا الإله يدعو بطول البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرق بعلمه .

(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْتَ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرَضِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقررنا بوحدانيتك .

(٥) الثلثة : الجماعة من الناس .

(٦) الزنانيير : جمع زنار . وهو ما يشد به النصراني وسطه .

(٧) يقول : إنَّ العنصرية طغت على الدين .

لا تفكر في سراج المصطفى
« لا إله » في لسان ناطق
إن سخر القرب أحيا أهرمن^(٢)

أحمد الشغل فيه « بولهب »^(١)
عن فؤاد شردت يا للعجب !
وجه يوم الله من ليل شحبت
أيها الأرباب قد آن الأوان

دينك القيد تحرر من قيود
وعليه كي تشق في صلاة
إنما النعمة تعلني جذبة
إن غيراً من إله قد توارى
عبدنا قد كان حراً في عبيد
ركعتين نبتغي ، ما من سجد
ما الصلاة وهي تخلص من تشيد
ذلك الشيطان يبدو في الشهود
أيها الأرباب قد آن الأوان

الغوص في بحر الزهرة ومشاهدة روح كتشنر وفرعون

مير الزومي ذكر للجميل
غزلاً قال وبالشكر اتقد
ضربه يشبه ضرباً للخليل
كل رب في خشوع قد سجد

غزل

« حص ما يمضي ويأتي بالنظر ، ذاك أولى
ناقة الأيام أوساقاً لعشقي حملت
انهضن خذ بأفكار أخز ، ذاك أولى
ازحلن في المساء والسحر ، ذاك أولى^(٣)

(١) السراج : المصباح . وبولهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .

(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .

(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقل أبياتها عن سبعة عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالزديف ، وهو كلمة أو كلام يُكرّر بعد كل =

قَالَ شَيْخٌ مَا لِدُنْيَانَا أَسَاسٌ مُخَكَّمٌ
أَنْتَ بِالتَّارِكِ أَنْسَاهَا وَلَوْ حَاولَتْهُ
قَلْتُ فِي قَلْبِي مَنَاءٌ وَكَثِيرٌ غَيْرُهَا
قَالَ « فَانْهَضْ مُسْرِعاً وَاقْدَمْ إِلَيَّا
الْجِبَالُ وَهِيَ مِنْ مُوسَى خَلَّتْ
خَلْفَهَا قَدْ لَاحَ بِحَرِّ الْجَوْهَرِ
أَيُّ بَأْسٍ مِنْ عُبابٍ أَوْ أَتَيْ
إِنَّ فِي هَذَا مَقَامٌ مِنْ تَجَبُّرٍ
ذَلِكَ شَرْقِيٌّ وَذَا مِنْ أَهْلِ غَرْبٍ
وَعَصَا مُوسَى عَلَى هَذَا تَهَاوَتْ
مِثْلُ فِرْعَوْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ
يَعْرِفَانِ الطَّغَمَ مَرَّةً لِلرَّدَى
سِرٌّ وَرَائِي يَا بَنِي لَا تَخَفْ
وَكَمُوسَى الْبَحْرَ إِنِّي فَالِقُ
شَقٌّ مِنْهُ الْبَحْرُ صَدْرًا كَالضِّيَاءِ
قَاعُهُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ قَدْ خَلَا

يَنْبَغِي عَمَّا بِهَا قَطَعُ النَّظَرِ ، ذَاكَ أُولَى
قُلْ رُجُودِي لَيْسَ عِنْدِي ذَا خَطَرٍ ذَاكَ أُولَى^(١)
قَالَ فِي الْمَعْبَدِ حَطْمُ ذَا الْحَجَرِ ، ذَاكَ أُولَى
بَنِي تَمَسُّكَ لَا تَدْعُنِي يَا بَنِيَّا
بِالتَّلُوجِ مِنْ لُجَيْنٍ أَضْبَحَتْ^(٢)
وَانْجَلَى بِالْجَوْفِ لَا بِالمَظْهَرِ
قَرَّ عَيْنًا بِسَكُونٍ مَرْمَدِي^(٣)
وَوُجُودُ كُلِّ مَا قَدْ غَابَ أَنْكَرُ
مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ فِي حَرْبٍ وَضَرْبٍ^(٤)
وَالرَّفِيقِ مَدِيَّةُ الدَّزْوِيشِ غَالَتْ^(٥)
ظَامِثَانِ بَيْنَ أَمْوَاجِ تَشْوَرٍ
مَوْتُ جِبَارٍ كَأَيَاتٍ بَدَا^(٦)
هَاكَ كَفِّي فَمَا قَلْبٌ وَجَفَ^(٧)
فِيهِ يَخْوِيكَ فَوَادٌ خَافِقُ
أَهْوَاءُ كَانَ يِيدُو مِثْلَ مَاءٍ
إِنَّهُ وَادِي الظَّلَامِ فِي الْفَلَا

- بيت تُلْتَزَمَ قبله قافيةً موحدة . وقد احتفظنا في الترجمة بقافية الأصل . والأوساق :
جمع وَشَقْ ، وهو حُمْلُ البعير .
(١) الخطر : الأهمية وارتفاع القدر .
(٢) اللجين : الفضة .
(٣) الآتي : السَّيْلُ . والسَّرْمَدِي : الدائم .
(٤) الحقُّ هنا هو الله .
(٥) المديّة : السكين . وغاله : أهلكه .
(٦) يقول : إِنَّ هلاك الجبار من آياتِ الله .
(٧) وجف القلب : اضطرب .

وَمَنْ الْقُرْآنِ طَهَ الشَّيْخُ يَتْلُو فَإِذَا الْقَمَرَاءُ جَوْفَ الْبَحْرِ يَجْلُو^(١)
وَنَضَّتْ عَنْهَا الْجِبَالُ ثَوْبَهَا رَجُلَانِ حَائِرَانِ بَيْنَهَا
لَمْ تَشَاهِدْ وَجَهَ شَيْخِي مَرَّةً بَعْضُهَا أَلْقَى لِبَعْضٍ نَظْرَةً
قَالَ فَرَعُونَ أَيَجْرِي الْبَحْرَ نُورًا ! أَصْبَاحُ مِلءٍ عَيْنِي أَمْ ظُهُورُ !

الرومي

الخفي منه وضَّاحُ الجلاء واليدُ البيضاءُ أضلُّ للضياء^(٢)

فرعون

أَوْ عَقْلِي آهَ دِينِي قَدْ قَعَدْتُ وَنَظَرْتُ وَالضِّيَاءَ مَا عَرَفْتُ
أَمْنَحُونِي نَظْرَةً يَا مَنْ مَلَكَتُمْ وَهَبُونِي لَفْتَةً يَا مَنْ ظَلَمْتُمْ^(٣)
يُشَسَّ مِنْ حَرَصٍ لَهُمْ أَعْمَى الْبَصَائِرُ يُخْرِجُونَ التُّبْرَ مِنْ جَوْفِ الْمَقَابِرِ^(٤)
ذَلِكَ التَّمَثَالُ فِي دَارِ الْعَجَائِبِ صَمْتُهِ يَرَوِي لَنَا كُلَّ الْقَرَائِبِ
جَاءَنَا عَنْ غَاصِبِينَ بِالْخَبَرِ عَيْنَ عَمِيانٍ أَنْارَ بِالْبَصَرِ
مَا يَرِيدُونَ لَنَا غَيْرَ الشَّقَاقِ وَالْأَسَاسُ أَحْكَمُوهُ بِالنِّقَاقِ
وَلِهَذَا دَبَّ فِي الْحَكَمِ الْخَوَرُ وَالْفَسَادُ ، وَتَفَشَّى كُلُّ شَرٍ^(٥)

لو بدا موسى كليمُ الله لي
لا لَمَسْتُ مِنْهُ قَلْبَ الْعَاقِلِ

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكان جوف البحر يُظهِرُ نور القمر .
(٢) يلمح إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَضْمَمْتُمْ بِذَلِكَ إِلَيْنَا جَنَاحَكَ فَخَرَجَ بَيِّضًا مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةً الْفَرَى ﴾ [طه : ٢٢] .

(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .

(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنقبين عن آثار الفراعنة .

(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّؤْيَى

إِنَّ نُورَ الرُّوحِ لِلْحُكَمِ الْفَلَاحِ وَالْيَدُ الْبِيضُ بِهَا الْمُلْكُ الْمُبَاحِ
حَاكِمٌ يَقْوَى بِضَعْفٍ مِنْ حُكْمِ وَبِحَرَمَانٍ لِكُلِّ مَنْ حُرِّمِ
يَلْبَسُ النَّاجِ بِجَمْعٍ لِلْخَرَجِ وَرَجَالُ الصَّخْرِ كَانُوا مِنْ رُجَاكِ
الْمَغِيرُ مَنْ لَهُ جِيْشٌ وَقَبْدُ حَاكِمٌ عَنْ مِثْلِ هَذَا مَنْ يَصُدُّ

اللورد كتشنر^(١)

إِنَّ لِلْغَرْبِيِّ قَصْداً قَدْ ظَهَرَ وَلَاجِلِ التَّيْرِ كَمْ قَبْرِ حَفَرَ
إِنَّ تَارِيخاً لِمَضَرٍ وَالْكَلِيمِ مَا نَرَاهُ الْيَوْمَ فِي مِضَرٍ قَدِيمِ^(٢)
إِنَّمَا بِالْعِلْمِ لِلسِّرِّ الظُّهُورِ حَكْمَةٌ وَالبَحْثُ ، أَوْ شَيْءٌ حَقِيرِ^(٣)

فِرْعَوْن

بِالْعُلُومِ كَشَفُوا عَنَّا الْحَجَرَ
كَانَ لِلْمَهْدِيِّ قَبْرٌ ، مَا الْخَبِرُ ؟

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتناحيه في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حقق من ذلك بغيته ، أمعن في التثفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليذكر بثار القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاء الله له أن يذوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أن هَوَتْ به السفينة إلى قاع اليم .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إِنَّ الْحَكْمَةَ بِلَا بَحْثٍ تُعَدُّ شَيْئاً حَقِيرًا .

ظهور درويش السودان

هو ذا في الماء برقٌ يأتلق
وَمِنْ الْفِرْدَوْسِ ضَاعَ نَفْحُ عِطْرِ
إِنَّ مِنْهَا الدُّرُّ فِي الْقَاعِ اسْتَقَرَّ
قال « كشنر » انظُرَنَّ يَا فَهِمُ
ما حباك الله من قبرٍ يَضُمُّكَ
ثُمَّ ضَاعَ فِي اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ
قال « هُبِّي أَنْتِ يَا رُوحَ الْعَرَبِ
يا فؤادُ ! ابنِ السُّعُودِ ، فيصِلُ
أَوْقِدُوا فِي الصَّدْرِ نَاراً أُخْمِدَتْ
وَادِيَّ الْبَطْحَاءِ أَنْجِبْ خَالِداً
أُمَّةَ الْإِيمَانِ ، يا سَوْدَ الْجُلُودِ
فَالْإِلَامَ تَجْهَلُونَ سَيَرَكُمُ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَخَافُونَ الْبَلَاءَ

- (١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفح : فاح .
(٢) كشنر هو اللورد كشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستعر :
التهب .
(٣) الفهم : السريع الفهم .
(٤) طم الماء : غمر .
(٥) الحُقبُ : جمع حِقْبَةٍ : وهي السَّنةُ والمُدَّةُ من الزَّمان لا وَقْتُهَا .
(٦) فؤاد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان
ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفي عام ١٩٣٣ .
(٧) السُّود : هم العرب . واستاف : شَمَّ .

البلاءُ كَانَ لِلْمَرْءِ الصَّفَاءُ^(١)

قَدْ سَكَنَّا يَثْرِباً وَالْحَبُّ نَجْدًا أَيْنَ يَا حَادِي حَدَاءُ هَزٌّ وَجْدًا^(٢)
دِيمَةٌ تَهْمِي وَأَرْضٌ خُضِرَتْ فَكَأَنَّ الْخَطَّوَاتِ أَثْقَلَتْ^(٣)
الْفِرَاقُ وَهُوَ يُضْنِينِي طَوِيلُ امْضِ فِي أَرْضٍ بِهَا عُشْبٌ قَلِيلُ
نَشْوَةُ النَّاقَةِ عُشْبٌ ، لِي حَبِيبُ لَكَ حَبْلٌ ، وَلِمَنْ أَهْوَى قُلُوبُ^(٤)
جَعَلُوا لِلْمَاءِ فِي الصَّحْرَا سَبِيلَا فِي الْجِبَالِ بَلَّلَ الْمَاءُ النَّخِيلَا
وَتَنَالَتْ فِي الثَّلَالِ ظَبْيَانِ فَتَأْمَلْ ، كَيْفَ مِنْهَا تَهْطِئَانِ
تَرْشِفَانِ مِنْ مِيَاهِ النَّبْعِ قَطْرَا تَرْمُقَانِ مَنْ بَتَلَكَ الْأَرْضُ مُرَا
وَمِنْ الْمَاءِ الرُّمَالُ كَالْحَرِيرِ هَانَ فِيهَا كُلُّ سِيرٍ لِلْبَعِيرِ^(٥)
مِثْلُ رِيَشَاتِ السَّمَانَةِ الْغَمَامُ أَرْهَبَ الْغَيْثُ فَقَدْ شَطَّ الْمَقَامُ^(٦)

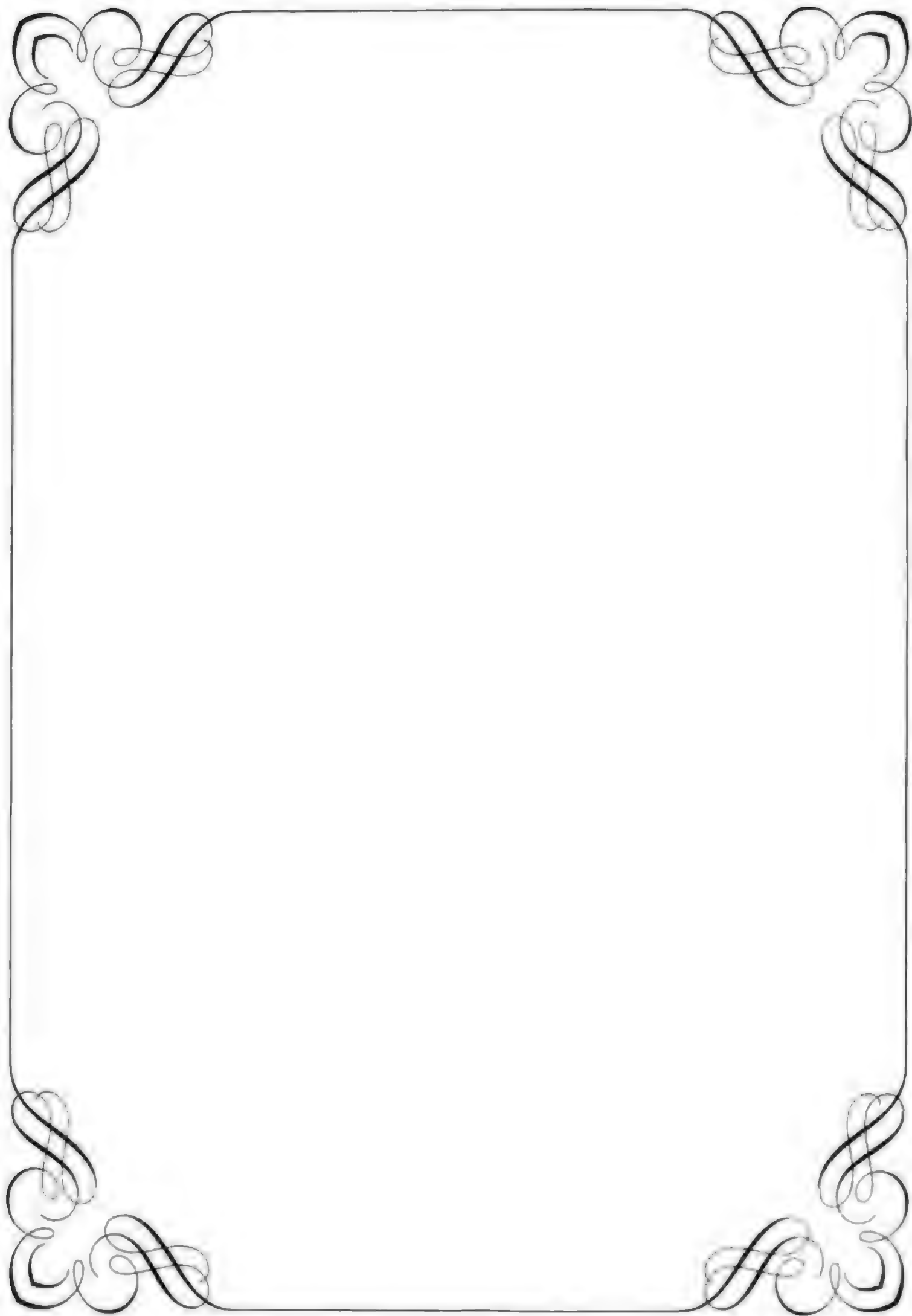
قَدْ سَكَنَّا يَثْرِباً وَالْحَبُّ نَجْدًا

أَيْنَ يَا حَادِي حَدَاءُ هَزٌّ وَجْدًا هـ

- (١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيِّ قال فيه : (أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياءِ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ إلى أن قال : فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) .
- (٢) يثرب : المدينة المنورة . والحبُّ : الحبيب . والحادي : من يسوق الإبل . ويغني لها .
- (٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضر الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إنَّ المطرَ يُنبِتُ العشبَ في الأرض ، فيصبح سِرُّ الإبلِ في الأرض المعشبة ضعباً .
- (٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إنَّ الناقةَ تجد في العشبِ لذتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .
- (٥) هان : سهل .
- (٦) السماناة : مفرد الشَّمانى ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشطَّ : يَغْدَ .

القسم الرابع
فَلَاكُ الْمَرِيخِ





أَهْلُ الْمَرِيخِ

تَحْتَ هَذَا الْمَاءِ عَيْنِي أَطِيقَتْ
نَحْوَ دُنْيَا طَابَ لِي أَنْ أَزْحَلَا
شَمْسُنَا فِي الْأَفْقِ مِنْهَا أَشْرَقَتْ
فَإِذَا بِالْجِسْمِ رَوْحاً يَجْهَلُ
رَوْحُنَا كُلَّ لَهَيْبٍ تُخِمِدُ
لَمْ تَشِخْ ، وَالْيَوْمُ مَرٌّ كَالطَّيُورِ
ثُمَّ عَنِّي الذَّاتُ مِنْي أُبْعِدَتْ
وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ بُدِّلَا
وَلَهَا لَيْلاً وَصَبْحاً أُوجَدَتْ
عَنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يُفْصَلُ
إِنَّهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ تُشْعِدُ
إِنَّ لَلْأَيَّامِ مِنْهَا أَلْفَ نُورٍ^(١)

هَذِهِ الْأَيَّامُ مِنْهَا كَمْ تَوَالَتْ
الدُّنْيَى مِنْهَا وَلَوْلَاهَا لَزَالَتْ^(٢)

ذَلِكَ الْمَرْصَدُ فِي مَرْجٍ سَمَقَ
الْقِيَابُ الْخَضِرُ لَأَحَثَّ أَشْهَدُ
لَا تَسَاعِ مَا أَرَى حَدّاً طَلَبْتُ
قَالَ شَيْخُ الرُّومِ وَهُوَ مَرشَدِي
مِثْلُ دِيَانَا لَهُ لَوْنٌ وَرِيحٌ
وَكَأَهْلِ الْغَرْبِ فِيهِ مَنْ سَكَنُ
الثَّرِيَا قَدْ يَصِيدُ بِالْوَهَقِ^(٣)
عَالِمٌ هَذَا لَدَيْنَا أَسْوَدُ
فِي فِضَاءٍ لِلسَّمَاءِ كَمْ نَظَرْتُ
« أَنْتَ فِي الْمَرِيخِ فَاسْمَعِ وَاشْهَدِ
فِيهِ بِلْدَانٌ وَبُيُوتَانٌ وَسُوحٌ^(٤)
سَبَقُونَا كُلَّنَا فِي كُلِّ قَنْ

(١) شَاخ : صَارَ شَيْخاً .

(٢) الدُّنْيَى : جَمْعُ دُنْيَا .

(٣) سَمَقَ : ارْتَفَعَ . الْوَهَقُ : حَبْلٌ فِي طَرَفِهِ أَنْشُوطَةٌ يَطْرَحُ فِي عِنَقِ الدَّابَّةِ حَتَّى تَتَّخِذَ .
وَالشَّاعِرُ يَشْبِهُ الْمَنْظَارَ الطَّوِيلَ الَّذِي تَشَاهِدُ بِهِ النُّجُومُ فِي الْمَرْصَدِ بِالْوَهَقِ .

(٤) السُّوحُ : جَمْعُ سَاحَةٍ . وَالرَّيْحُ : الرَّائِحَةُ .

قَهَرُوا حَتَّى الزَّمَانَ وَالْمَكَانَا
 إِنَّ وَعَرَأَ فِي الْعَقُولِ مَهَّدُوا
 قَلْبُ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالطَّيْنِ الْمُقَيَّدُ
 كَانَ بِالطَّيْنِ لِقَلْبٍ مَنَزِلُ
 تَهَبُ الرُّوحُ الْخُمَارَ وَالسُّرُورَا
 الْوُجُودُ عِنْدَنَا فِي مَظْهَرَيْنِ
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ طَيْرٌ فِي قَفَصِ
 وَإِذَا مَا جَاءَ يَوْمٌ لِلْفِرَاقِ
 بِالْمَنُونِ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ يُخْبِرُ
 رُوحَهُمْ بِالْجِسْمِ مَا إِنَّ رَبَّيْوَه
 انْدِمَاجِ الْجِسْمِ فِي النَّفْسِ الْفَنَاءِ
 وَكَأَنِّي قُلْتُ مَا لَا يُفْهَمُ
 فِي عِلْمِ لِفَضَا كُلِّ شَأْنٍ^(١)
 الْخَفَايَا فِي الْفَضَاءِ شَاهَدُوا
 وَهَنَّاكَ الْجِسْمُ بِالْقَلْبِ الْمُصَفَّدُ^(٢)
 كُلُّ مَا شَاءَ بَيْنَ يَفْعَلُ
 تَمْنَحُ الْغَيْبَ لَجِسْمٍ وَالْحُضُورَا^(٣)
 جِسْمَنَا وَالرُّوحُ مَا لَاحَتْ لِعَيْنِ
 سَاكِنُ الْمَرِيخِ عَنْ فِكْرِي نَكْصَ^(٤)
 أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ حَيًّا بِاخْتِرَاقِ
 وَيَقَالُ بَعْدَ يَوْمٍ سَوْفَ تُقْبَرُ^(٥)
 وَلِهَذَا جِسْمُهُمْ لَمْ يَأْلُفُوهُ^(٦)
 وَمِنْ الدُّنْيَا فِرَارٌ وَانْطِوَاءُ^(٧)
 لَكَ رُوحٌ وَبِجِسْمٍ تُحْكَمُ !

بِرَهْمَةٍ لَا غَيْرَ تَبْقَى هَاهُنَا

لَمْ يُشَاهِدْ مِثْلَ هَذَا غَيْرُنَا

(١) شَأْنِي : مَبْقَى .

(٢) صَفَدَ : قَبَدَ .

(٣) الْخُمَارُ : صِدَاعُ الْسُكْرِ وَالْمُرَادُ هُنَا السُّكْرُ .

(٤) الْفِكْرِي : إِعْمَالُ الْخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ .

(٥) الْمَنُونُ : الْمَوْتُ .

(٦) رَبَّيْوَهُ : رَبَّاهُ .

(٧) يَقُولُ : إِنْ الْفِرَارَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالْانْطِوَاءَ عَلَى النَّفْسِ مَوْتٌ كِإِدْمَاجِ الْجِسْمِ فِي النَّفْسِ .

ظهور فلك المريخ من المرصد

مسياً كان يعلم مصباحاً ^(١)	ذاك شيخ العلم بالثلج التحي
كنصاري الغرب في لبس المسوح ^(٢)	كشيوخ الغرب في الفكر السبوح
مشرق الوجه كأتراك بمرو ^(٣)	وهو هم بقوام مثل سرو
لمعت عيناه بالفكر العميق	وعلى علم بمعنى للطريق
قال كالخيّام والطوسي كلاماً ^(٤)	وكورد كان قد ألقى الكمّام
وهو في « تحت » و « فوق » لم يقم	« قالب الطين أسير الكيف والكم
جوهرة السيار أعطى ما تبث ^(٥)	وأطار الثرب ، ريش ما تبث
منهما شاهدت عرض المستحير ^(٦)	عقله والقول كالماء التميز
ساكن المريخ هذا قال شغراً !	كان حلماً ما أرى أم كان سحراً
بيتنا من كان من أهل الصفا	قال « في عهد النبي المصطفى

- (١) أمسى وأصبح : دخل في الماء والصبح .
- (٢) الفرس السبوح : السريع . والمسوح : جمع مسح بالكسر وهو الكساء من شعر ، كثوب الرهبان .
- (٢) الهم : الشيخ الفاني . ومرو : عاصمة خراسان بإيران . والأتراك مضرب المثل في الحسن عند شعراء الفرس .
- (٤) الخيّام : هو العالم الفلكي المفكر عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة من أهل القرن السادس الهجري . والطوسي هو نصير الدين الطوسي من أهل هذا القرن . وله المؤلفات في المنطق والحكمة ، والأخلاق ، والعقائد . وله شهرة مستفيضة بحذفه في علم الفلك . وقد ارتقى هذا العلم بفضل منه ، وأسّس هولاءكو مرصداً في مدينة مراغة كان نصير الدين يرأس العمل فيه .
- (٥) الثرب : التراب . يقول : إنه أطار التراب وما للتراب ريش ولا جناح ليطير ، ثم أشار إلى الكواكب السيارة والثابتة .
- (٦) الماء التميز : الماء الكثير . والمستحير : الطريق المعترض لا يدرى أين منقذه . واعتراضه يشير الحيرة .

هذه الدنيا بعقل أبصرا ورأى الإنسان ماذا دبّرا
الجنّاح في سموات بسط في الحجاز وسط بيداء هبط^(١)
ما رأى في الخافقين قد رقم^(٢) في كتاب كان أبهى من إرم^(٣)
فارساً شاهدتها والغرب رزت أرض مضر جبتها في الهند كُنت^(٤)
وعن الأرض تيقّنت الخبر وبخبر ويبر لي سفر^(٥)
وعراك المرء في الدنيا رعينا
وهو حقاً ليس يدري ما لدينا^(٥)

الرّومي

من سماء كنت من أرض ريفي ثمل ما ذقت طعاماً للرّحيق^(١)
رجل نجد يُسمّى زنده رودا خرّ سكرأ إذ رأى هذا الوجودا^(٢)
أرضكم هذي إليها قد وصلنا نحن في الدنيا وليّنا خرجنا
التّجلي نحن عنه الباحثونا والدليل أنت نرضى أن تكونا

(١) البيداء : الصحراء .

(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ قَاتِ الْأَعْمَادِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إنّ إرم ذات العماد مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الياقوت والزّبرجد .

(٣) جاب البلاد : قطعها .

(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .

(٥) رعى : راقب .

(٦) الرّحيق : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .

(٧) النّجد : الشّجاع . خرّ : سقط .

حكيمُ المَرِيخِ

مرغدين تلك أرضُ برخيا فرز مرز بالشرور الأمرُ
قال : أنت هانيءٌ كالعادة عالمٌ ، ما أنت فيه يفضُلُ
وعلا حتى على تلك الجنانِ أيراه الله ؟ إني ما دريتُ !
قد خلا حتى من الربِّ الدَّخيلِ ليسَ فيه من طوافٍ أو مُجودِ
قالَ فانهض دبرنُ خدعتك ما بهذا السُّخْرِ أغوي جدُّنا
إِنَّه من فضلِ ربِّ العالمينا
امضِ فيه وتأملِ مرغدينا

٦

- (١) برخيا : اسم الجدِّ الذي يتخيله إقبال لكان المريخ . ولم يُلَقَّ سمعاً إلى وسوسة الشيطان .
- (٢) فرز مرز : اسم يتخيله الشاعر كمرغدين .
- (٣) الجادة : وسط الطريق ؛ وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .
- (٤) يحدنه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنه ربيعٌ دائم ، وكأنَّ الجنةَ قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعاناً ما تذبل .
- (٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقومات الشعر وسماته .
- (٦) هذا كلام برخيا .

التَّجَوُّالُ فِي مَدِينَةِ مَرْغَدِينَ

البناءُ فِي السَّمَاءِ كَانَ طَوَلاً
سَاكِئُوهَا قَوْلُهُمْ مِثْلُ الشَّهَادِ
مَا بِتَحْصِيلِ وَكَذِّ فِكْرُهُمْ
مَنْ أَرَادَ الْمِلْحَ فِي نَوْرِ وَجَدَ
الْعِلْمُومَ وَالْفَنُونُ تَخْذُمُ
إِنَّمَا الدِّينَارُ كَانَ كَالصَّنَمِ
آلَةُ الشَّيْطَانِ لَمْ تَقْهَرِ طَبِيعَهُ
إِنَّ لِلْفَلَاحِ مَصْبَاحاً أَنَارَا
آمناً يَرْوِي نَبَاتاً يَمْلِكُهُ
هَاهُنَا مَا لَاحَ جَنْدِيٌّ لِرَائِي
مَرْغَدِينَ لَيْسَ فِيهَا مِنْ قَلَمٍ
لَيْسَ فِي الشُّوقِ نِدَاءٌ مَنْ تَبْطُلُ

فِي السُّمُومِ مَا عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَا
زَانَهُمْ حُسْنٌ وَطَيْبٌ فِي الْفُؤَادِ^(١)
سِرُّ تِلْكَ الشَّمْسِ أَفْشَى عِلْمَهُمْ
مِثْلُ مِلْحٍ مِنْ بَحَارٍ يُسْتَمَدُّ
وَازِنُوهَا بِالنُّضَارِ مَنْ هُمْ؟^(٢)
أَبْعَدُوا الْأَصْنَامَ عَنْ هَذَا الْحَرَمِ
مَا الدِّخَانُ فِي السَّمَوَاتِ الْوَسِيعَةِ^(٣)
مَالِكاً لَمْ يَخْشَ حَتَّى إِنَّ أَغَارَا
مَالَهُ فِي مَلِكِهِ مَنْ يُشْرِكُهُ
لَا وَلَا مِنْ عَاشٍ مِنْ مَصِّ الدِّمَاءِ
فِرْيَةً لِلْخَادِعِينَ قَدْ رَقَمَ^(٤)
لَا وَلَا فِي الْأُذُنِ نَوْحٌ مَنْ تَسْوَلُ^(٥)

حَكِيمُ الْمَرِّيخِ

لَا مَكَانَ هَاهُنَا لِلشَّائِلِينَ
وَالْعَبِيدُ لَا تُرَى وَالْمَالِكِينَ

(١) الشَّهَاد : جَمْعُ شَهِيدٍ .

(٢) النُّضَار : الذَّهَبُ .

(٣) يَقُولُ : إِنَّ الْآلَةَ شَيْطَانٌ لَا تَقْهَرُ الطَّبِيعَةَ ، وَدِخَانُهَا لَا يَعْكُرُ صَفْوَ السَّمَاءِ الْوَاسِعَةِ .

(٤) الْفِرْيَةُ : الْكُذْبُ وَاخْتِلَاقُهُ . وَرَقَمَ : كَتَبَ .

(٥) تَبْطُلُ : تَعَطَّلُ ، وَلَمْ يَتَعَمَّلْ .

بِقَضَاءِ اللَّهِ هَذَا مِنْ حُرْمِ وَبِأَمْرِ اللَّهِ ذَاكَ مِنْ حُكْمِ
إِنَّمَا التَّقْدِيرُ لِلَّهِ الْمَقْدُورُ لَيْسَ مِنْ تَذْيِيرِ إِنْسَانٍ مُدَبَّرُ

حكيم المريخ

القضاءُ إنْ عَدِمْتَ خَيْرَهُ مِنْ إِلَهِ الْكَوْنِ فَاطْلُبْ غَيْرَهُ^(١)
سُؤَالَ اللَّهِ كُنْ أَنْتَ الْجَدِيرَا يَمْلِكُ اللَّهُ الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَا^(٢)
كُلُّ مَالِ الذَّاتِ فِي قَوْمٍ هَذَرُ إِنَّهُمْ لَمْ يُذَرِكُوا مَعْنَى الْقَدَرُ^(٣)
رَمَزُهُ حَرْفَانِ ، هَلْ أَدْرَكْتَهُ « إِنْ تَغَيَّرَتْ فَقَدْ غَيَّرْتَهُ »
كُنْ تَرَاباً لِتَطِيرَ فِي الْهَوَا حَجَراً كُنْ بِكَ تَحْطِيطُ الْإِنَاءِ
أَنْتَ طَلٌّ ؟ فَالسَّقُوطُ فَوْقَ زَهْرٍ أَنْتَ بَحْرٌ ؟ فَالْخُلُودُ كُلُّ دَهْرٍ^(٤)
قَدْ صَنَعْتَ لَكَ دوماً أَنْتَ لَنَا مَا ثَبَتَ ، فَلَتَعْلَمَكَ الثَّبَاتَا
أَنْتَ مَا لَمْ تَرْفُضِ الْإِيمَانَ نَفْسُكَ عَالَمَ الْأَفْكَارِ فِيهِ كَانَ حَبْسُكَ
قَدْ يَنَالُ الْمَالَ مَنْ يَلْقَى التَّعَبَ وَعَدِيمُ الْأَيْنِ مَوْفُورُ النَّشَبِ^(٥)
كَانَ هَذَا أَصْلَ دِينٍ يَا غَرِيرَ ! فليزد في فَقْرِهِ هَذَا الْفَقِيرُ^(٦)

(١) القضاء : ما يقدره الله للإنسان .

(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدراً آخر ، وكأنه بذلك يستطيع اختيار قدر يوافقه .

(٣) هدر الدم : ذهب باطلاً ليس فيه قوَّةٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غير نفع .

(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .

(٥) الأين : التعب . والنشب : المال .

(٦) الغرير : من لا تجربة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقر ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسبه أو توفره على عمله .

أَيُّ دِينٍ ! وَالْيَ نَوْمِ دَعَاكَ فَاطْلَتِ النَّوْمَ لَا تَبْدِي حَرَكَاتَا
أَفْسَحَرُّ ذَاكَ أَمْ دِينٌ لَكَا
نَشْوَةُ الْأَفْيُونِ تَمْحُو وَغَيَّكَ ؟

أَعْلِمْتَ أَنْتَ مِنْ أَيْنَ التَّهْيِ قُوَّةٌ فِي الْفِكْرِ كَانَتْ لِلْحَكِيمِ
ذَلِكَ الْقَلْبُ عَلَيْهِ مَا خَطَرَ أَفْصِيحُ أَنْتَ ؟ مَا هَذَا بِقَوْلِكَ
كُلُّ هَذَا كَانَ فَيْضاً لِلرَّيِّغِ مَا الْحَيَاةُ ؟ مَعْدَنٌ لِلجَّوْهَرِ
يَشْرُفُ الْإِنْسَانُ بِالطَّبْعِ الْجَوَادِ تِلْكَ كَانَتْ شِمَةً لِلْأَنْبِيَاءِ
تَاجِرٌ مِنْ نَالٍ رِبْحاً كَالْجَزَاءِ^(١) !

هَذِهِ الْحَوْرَاءُ أَيْنَ طِينُهَا طَاقَةٌ بِالذِّكْرِ كَانَتْ لِلْكَلِيمِ
وَجَمِيعُ الْمُعْجِزَاتِ مِنْ فَطَرَ^(٢) تُنْجِزُ الْأَعْمَالُ ؟ لَكِنْ مَا بِحَوْلِكَ^(٣)
أَوْ رِبِيْعِ فَطَرَهُ اللهُ الْبَدِيعِ الْأَمِينُ أَنْتَ ، مُلْكُ الْآخِرِ^(٤)
خِدْمَةُ الْخَلْقِ لَهُ كُلُّ الْمُرَادِ تِلْكَ كَانَتْ شِمَةً لِلْأَنْبِيَاءِ
تَاجِرٌ مِنْ نَالٍ رِبْحاً كَالْجَزَاءِ^(٥) !

هَكَذَا تِلْكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ أَتَقُولُ مَا لَدَيْنَا مُلْكُنَا ؟ !
كُلُّ أَرْضٍ أَرْضُ رَبِّي فَاشْهَدُوا سَلَّمَ الْمَرَّةُ لِإِبْلِيسَ الْقِيَادَا

(١) فطر : أوجد .

(٢) الحول : القدرة . يقول : إِنَّ الفصاحة ليست للفصيح ولكنها هبة من الله . وكذلك الشأن في القدرة على إنجاز العمل .

(٣) المعدن : المنجم . يقول : إن الإنسان أمين على هذا المنجم والله صاحبه .

(٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .

(٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَنْ أَمِينٌ مُنْجِزٌ أَعْمَالَهُ ؟
 قَدْ أَخَذْتَ أَنْتَ شَيْئاً غَيْرَ مِلْكِكَ
 أَمِلَكِنَّ الشَّيْءَ فِيهِ رَاغِبَا
 إِنَّ مُلْكَ اللَّهِ هَذَا فَلْتَرَدَّهُ
 وَلِمَاذَا الْيَوْمَ نَشْكُو فَقْرَنَا ؟
 كُلُّ مَنْ طِيناً وَمَاءً لَازِمَا
 مَنْزِلٌ ذَا أَمْ طَرِيقٌ ؟ مَا عَرَفْنَا
 جَوْهَرٌ هَذَا لَكِنْ إِنْ مَلَكَتَهُ
 لَيْتَنَاهُ اللَّهُ رَدَّ مَالَهُ
 يَا لَعَمْرِي لَيْسَ هَذَا شَأْنٌ مِثْلِكَ !
 أَوْ فَخَاطَبْتُ مِنْكَ نَفْساً عَاتِيَا^(١)
 كَيْ تَحُلَّ أَنْتَ فِي الْأَعْمَالِ عُقْدَهُ
 مَا لِرَبِّ الْكَوْنِ قُلْتُمْ : ذَا لَنَا !
 كَأْسُهُ بِالصَّخْرِ طَوْعاً حَطْمَا
 كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدُو لَوْ نَظَرْنَا
 وَالْحَصَى إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَفِّ دُسْتَهُ^(٢)

قِصَّةُ فَتَاةٍ الْمَرِيخِ الَّتِي ادَّعَتْ النُّبُوَّةَ

بِقُصُورٍ وَبِسُوحٍ قَدْ مَرَرْنَا
 مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ فِيهِ حَشْدٌ
 وَأَنَارَ وَجْهُهَا مِنْ غَيْرِ رُوحٍ
 لَفْظُهَا صَلْدٌ وَعَيْنٌ مَا جَرَتْ
 الشُّبَابَ قَلْبُهَا مَا إِنْ سَعَرَ
 وَعَنِ الْعِشْقِ أَتَدْرِي مَا الْخَبَرُ ؟
 هَكَذَا قَالَ الْحَكِيمُ شَيْخُنَا
 جَانِبَ الْأَسْوَارِ مِيدَاناً رَأَيْنَا
 وَفَتَاةً ، وَلَهَا كَالْبَيَانِ قَدْ
 وَالْكَلَامُ لَيْسَ فِيهِ مِنْ وُضُوحٍ
 بَهْجَةِ الْأَمَالِ قَطُّ مَا دَرَتْ
 وَلَهَا الْمِرَاةُ لَا تُبْدِي الصُّورَ^(٣)
 صَعُوةٌ وَالْعِشْقُ شَاهِينٌ كَسَرَ^(٤)
 « هَذِهِ الْحَسَنَاءُ لَيْسَتْ مِنْ هُنَا »

(١) يقول : إذا لم تكن مالكاً لشيء من حقك أن تملكه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .

(٢) يقول : إذا ملكت الجواهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حققت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأى متعة وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجواهر حقاً إلا إذا كان لك .

(٣) سَعَرَ النَّارَ : أَوْقَدَهَا .

(٤) الصَّعُوةُ : أَنْثَى الصَّعُو ، وهو عصفورٌ صغير . وَالشَّاهِينُ : طَائِرٌ مِنْ جِنْسِ الصَّقَرِ . وَكَسَرَ : ضَمَّ جَنَاحِيهِ لِيَقْضَى عَلَى فَرِيستِهِ .

فَرَزَمَرَزُ فِي حَدِيثٍ قَدْ صَدَقَ « مِنْ بِلَادِ الْغَرْبِ إِثَّاهَا سَرَقُ
لَقِّنَ الْحَسَنَاءَ أَسْرَارَ النُّبُوَّةِ ثُمَّ فِي الْعَالَمِ أَلْقَاهَا بِقُوَّةِ !
مِنْ سَمَائِي قَدْ هَبَطْتُ الْيَوْمَ قَالَتْ دَعَوْتِي فِي آخِرِ الْأَيَّامِ كَانَتْ
عَنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ مَا تَقُولُ وَصَرِيحُ الْقَوْلِ مَا عَافَ الْحَجُولُ !
سَأَقُولُ مَا الْمَصِيرُ مَا الْقَدَرُ ،
بِلِسَانٍ تَفْهَمُونَ يَا بَشَرُ »

رسالة نبيّة المريخ

يَا نِسَاءَ ، أَنْتِ يَا أُمِّي الْجَلِيلَةَ قُلْنَ لِي حَتَّامَ عَيْشِي كَالْحَلِيلَةِ^(١)
عَيْشُهَا مَا كَانَ إِلَّا ظُلْمُهَا إِنَّمَا الْجِزْمَانُ فِي الدُّنْيَا لَهَا
إِنَّا بِالْمَشِطِ نُزْخِي شَعْرَنَا فِي الرُّجَالِ قَدْ وَجَدْنَا صَيْدَنَا
الرُّجَالُ صَائِدُونَ ، حِذْرُكُنْ ! وَلَا أَجَلَ الصَّيْدِ دَارُوا حَوْلَكُنْ^(٢)
وَإِذَا أَبَدُوا هَيَاماً مَا كَرُونَا وَبِشَوْقٍ وَشُجُونٍ خَادَعُونَا
كَافَرُونَ ، وَيُقِيمُونَ الْحَرَمَ وَلَكِنَّ فِيهِ أَلْوَانُ الْأَلَمِ^(٣)
وَعَلَى الْعَيْشِ إِذَا تَمَّ اتِّفَاقُ فَالْوَصَالُ السُّمُّ وَالشَّهْدُ الْفِرَاقُ^(٤)
الْأَفَاعِي ؟ مَنْ تُطِيقُ لَذَعَهُمْ لَا تُرْفِقَنَّ فِي الدُّمَاءِ سُمَّهُمْ^(٥)

- (١) الحليلة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ، وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبرُّج فتاة الغرب وصراحة تعبيرها عن مبادئ المرأة المنحرفة التي تفضل الخليل على الخليل .
- (٢) حذر كن : احذرن .
- (٣) الحرم هنا : بيت الزوجية .
- (٤) الاتفاق على العيش : الاتفاق على الحياة الزوجية .
- (٥) يشبه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كُلُّ أُمٍّ مَمُوفَةٌ تَضُوءُ فِي ذُبُولِ

طَابَ عَيْشٌ لَيْسَ فِيهِ مِنْ حَلِيلٍ^(١)

طَابَ لِي الْإِيمَانُ عُمُقًا وَأُتْسَاعًا
الْجَنِينُ قَدْ نَرَى فِي طِيٍّ بَطْنُ
مَا أَرَدْتَ مِنْ بَنِينَ أَوْ بَنَاتٍ
كَانَ دِينًا قَتْلُهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
وَلَأَسْرَارٍ وَأَسْرَارٍ ظُهُورُ
مَا رَأَى قَطُّ ظِلَامًا فِي الرَّحِمِ
حَيَوَانًا كَانَ فِي الْعَهْدِ الْعَهِيدِ^(٢)
لِلنَّدَى مَا هَمَّهَا قَطُّ الْوُقُوعُ !
مَا لَدَيْهِ مِضْرَبٌ هَذَا الْوَتَرِ^(٣)
وَلَتَمُتْ ظَمَانٌ تَطْوِيكَ الْبَحَارُ^(٤)
وَالْفَتَاةُ فَلَتَكُنْ مِنْ بَعْدُ حُرَّةً

إِنَّ هَذَا الْوَحْيَ يَأْتِينِي تَبَاعًا
عَصْرُنَا أَبَدِي لَنَا إِعْجَازٌ قَنُ
فَلَدَيْكَ أَنْتَ مِنْ حَقْلِ الْحَيَاةِ
إِنْ وَجَدْتَ غَيْرَ مَرْغُوبٍ لَدَيْكَ
إِنَّ هَذَا الْغَضَرَ تَلَوُّهُ الْعُصُورُ
فَالْجَنِينُ هَذِهِ الدُّنْيَا قَدِيمُ
فَلَيْمُتْ ! يَيْدُو كَشَيْطَانٍ مَرِيدُ
لِلوُرُودِ الْحُمُرِ مِنْ أَرْضِ طُلُوعِ
وَحَدَّهِ سِرُّ الْحَيَاةِ قَدْ ظَهَرَ
دَعَاكَ مِنْ غَيْثِ الرَّبِّيعِ يَا مَحَارُ
غَالِبِي مَا النَّاسُ قَدْ سَمَّوْهُ فِطْرَةً

بِافْتِرَاقِ الْجَسَدَيْنِ وَخَلْدِي

كِي تُصَانِي ، عَنْ رَجَالٍ فَا بُعْدِي^(٥)

- (١) ضوي : ضَعْفٌ وَنَحْلٌ . يقول : إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا وَلَدَتْ اعْتَرَاهَا الضَّعْفُ وَالذُّبُولُ .
والحلِيل : الزَّوْجُ .
- (٢) المريد : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً .
والعهيد : القديم .
- (٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سِرَّ الْحَيَاةِ وَتَرٌ يرسل الأنغام من غير
عازفٍ .
- (٤) المحار : صَدَفُ اللُّؤْلُؤِ . وفي عقيدة القدماء أَنَّ مَطَرَ الرَّبِّيعِ إِذَا سَقَطَ فِي الْمَحَارَةِ تَكُونُ
اللُّؤْلُؤُ بِهَا .
- (٥) يبالغ الشاعرُ فِي التَّهَكُّمِ فيقول : إِنَّ افْتِرَاقَ الْمَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ دِينُ
التَّوْحِيدِ عِنْدَهَا ! لِأَنَّ تِلَازِمَ الْجَسَدَيْنِ أَوْ الشَّخْصَيْنِ فِي الزَّوْاجِ يَعُدُّ ثَنِيَّةً لَا تَوْحِيدًا !!

الرُّوميُّ

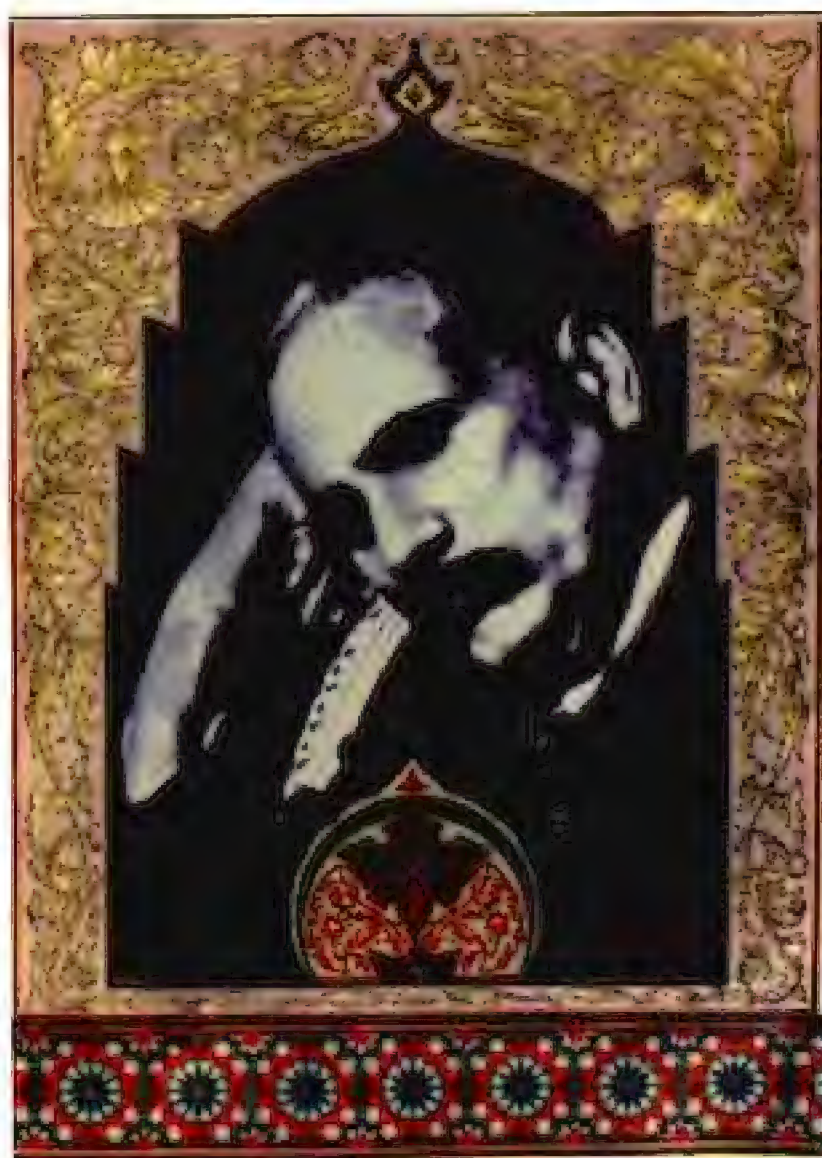
مَذْهَبُ الْعَصْرِ الْجَدِيدِ ! قِفْ لِنَنْظُرْ يَا لِعَمْرِي كُلُّهُمْ بِاللَّهِ يَكْفُرُ
 إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَرْعٌ لِلْحَيَاةِ فِي الْحَيَاةِ مَا لَنَا دِينَ سِوَاهُ^(١)
 وَهِيَ فِي الظَّاهِرِ نَارٌ تَحْرِقُ وَبِنُورِ اللَّهِ قَاعٌ يُشْرِقُ
 نَارُهُ قَدْ أُوجِدَتْ كُلُّ الْفُنُونِ كُلُّ فَنٍّ كَانَ مِنْ فَرْطِ الْجُنُونِ !
 إِنَّ عِشْقاً بَوّاً الْعِلْيَاءِ دِينَا
 ذَلِكَ الدِّينُ فَخُذْ عَنْ عَاشِقَيْنَا^(٢)

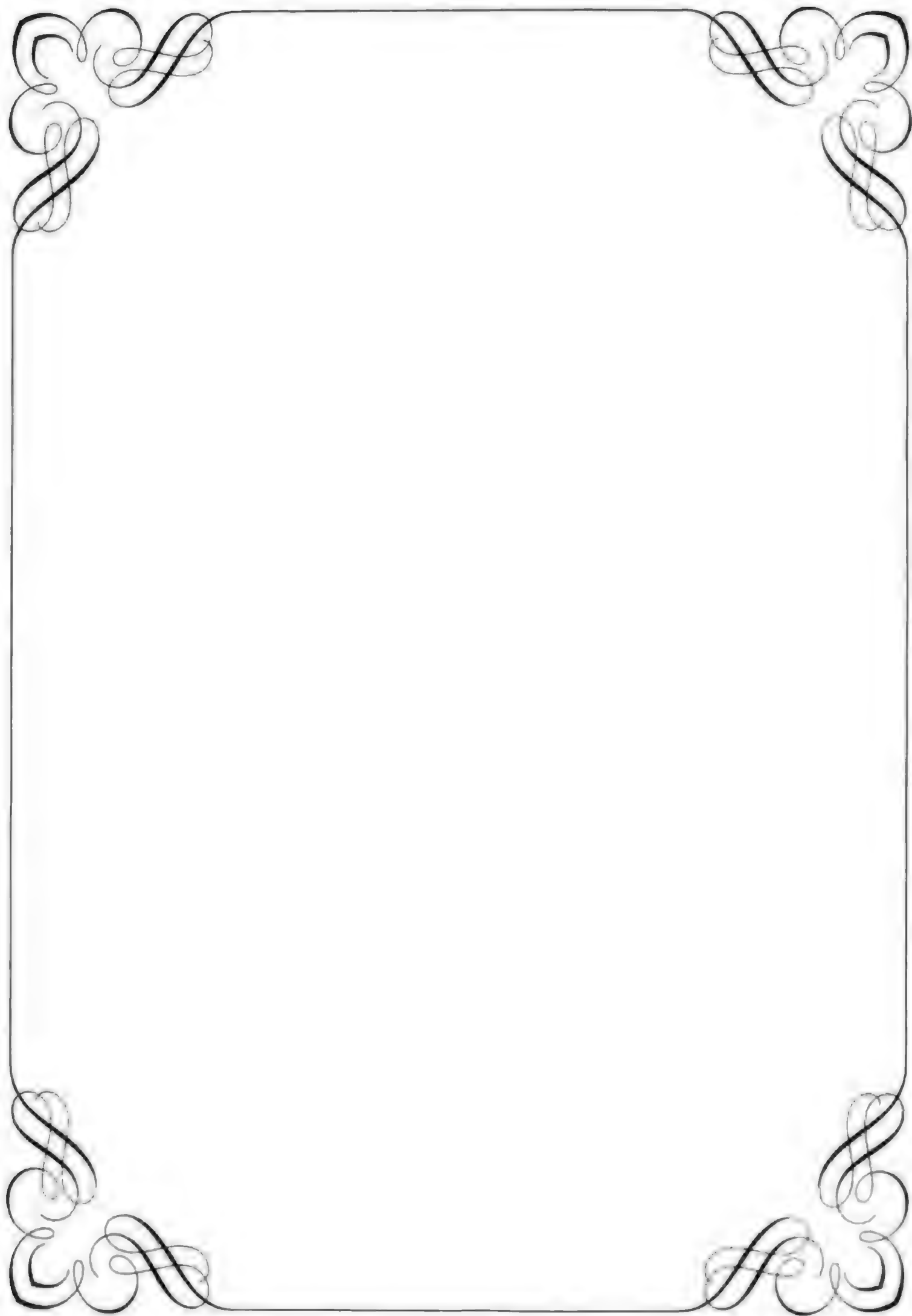


- (١) المراد بهذا العشق عشق الصُّوفية للذَّاتِ الإلهية .
 (٢) العلياء : المكان العَالِي وكلُّ ما علا من شيء . والمعنى : أَنَّ الْعِشْقَ الْإِلَهِيَّ يَسْمُو
 بِالذِّينِ . والعاشقون : عاشقوا الذَّاتِ الإلهية .

القسم الخامس

فَأَنْتَ الْمُشْتَرِي





أرواحُ الحلاج^(١) وغالب^(٢) وقُرّة العينِ الطاهرة^(٣)

لم تجذ لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدوام وإلى الأبد

قلبي المجنون إني قد قَدَيْتَ كلُّ يومٍ منه صحراءٌ وَجَدْتُ^(٤)
إِنْ بَلَغْتُ منزلاً لي قال قُمْ القويُّ بحره كوبٌ يَضُمُّ^(٥)
ما لآياتِ رَبِّ الكَوْنِ آخِزَ ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافرُ ؟
الحكيمُ مَنْ يرى شيئاً وَيَحْبُو والعَلِيمُ ما يَراهُ سوفَ يَربو^(٦)

(١) الحلاج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصوفي المعروف بشدة الغلو والتطرف في نزعاته الصوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان متطوياً على نفسه . بل كان يصيح في الأسواق ، وهو في حالة من الجذبة والطرب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلِّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، وأتهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فُصِّلَ عام ٣٠٩ هـ .

(٢) غالب : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظم بالفارسية والأوردية ، ويُسَمُّ شعره ببعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكرٌ عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩ م .

(٣) الطاهرة : شاعرة إيرانية تُعرَف كذلك بقرة العين . وقد شابت من يسمَّى « الباب » في حركة دينية تُعدُّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢ م . وشهرتها بشدة الجرأة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى الشفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبه بمجنون ليلي ؛ الذي دلهه الحبُّ ، فهام على وجهه في القفار .

(٥) المنزلُ هنا : مكانُ نزولِ المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العالم . والعليم هو الصوفي . وتخيو النار : تخمد وتنطفئ . ويربو : يزيد .

الْحَكِيمُ طَبِقَ فَنُ مَا اخْتَبَرَ لِلْعَلِيمِ كَانَ مِيزَانُ النَّظَرِ^(١)
 الْحَكِيمُ الطَّيْنُ بِالْكَفَّيْنِ جَسًا وَالْعَلِيمُ مَسَّ تِلْكَ الرُّوحَ مَسًا
 التَّجَلِّي كَانَ هَذَا مِنْ رَأَاهُ
 غَيَّرَ أَنَّ ذَاكَ فِي ذَاتِ طَوَاهُ

عن جديدٍ مِنْ تَجَلُّ قَدْ بَحَثَ
 كُلُّ هَذَا كَانَ فِضًا مِنْ طُهُورِ
 وَصَلًا مِنْ بَعْدِ أَنْ طَالَ الرَّجِيلُ
 ذَلِكَ الْعَالَمُ لِلتُّرْبِ الْمَقَرِ
 كَرُمِهِ مَا فِيهِ مِنْ كَأْسٍ لَنَا
 كَانَ جَوْفُ اللَّيْلِ بِالْقَمَرَاءِ ظَهَرًا
 فِي السَّمَاءِ تِلْكَ عَيْنِي تَشْرِبُ
 دَخَلْتَنِي هَيْبَةً مِمَّا أَرَى
 هَذِهِ أَرْوَاحُ طُهُورٍ تَظْهَرُ
 تَرْتَدِي ثَوْبًا جَمِيلًا أَحْمَرًا
 مِنْ ﴿ أَلَسْتُ ﴾ هَزَّهَا فَرَطُ اضْطِرَابِ
 « الزَّمِ الذَّاتِ » بِهَا الرُّومِي حَبَانِي
 مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الشُّوقِ فَاَنْظُرْ
 طِفْتُ بِالْأَفْلَاكِ مِثْلَ النَّايِ نُحْتُ
 أَلْهَبَ الرُّوحَ بِمَسِّ مِنْ سَعِيرِ^(٢)
 وَبِشَطِّ الْمُشْتَرِي كَانَ التُّزُولُ^(٣)
 حَوْلَهُ شَاهَدْتُ أَقْمَارًا تَمُرُ^(٤)
 أَرْضُهُ مَا أَخْرَجَتْ قَطُّ الْمُنَى
 مَا عَرَفْنَا جَوْهَ بَرْدًا وَحَرًّا^(٥)
 وَأَرَى الْكُوكَبَ مِنِّي يَقْتَرِبُ
 مَا أَرَاهُ كُلَّ شَيْءٍ غَيَّرَا
 قَلْبُهَا بِالنَّارِ دُنْيَا يَضْهَرُ
 وَجْهَهَا ، وَالْقَلْبُ نَارٌ ، نَوْرًا
 سَكِرْتُ ، مِنْ لَحْنِهَا رَشَفُ الشَّرَابِ^(٦)
 « عِشْ بِأَنْفَاسٍ لِمَنْ غَنَّى الْأَغَانِي »
 وَعَلَى تِلْكَ الْحُمَيَّا أَيْنَ تَفْشُرُ

(١) المراد بالفن أصول العلم .

(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .

(٣) يريد بمن وصل : العالم والصوفي .

(٤) التُّرْب : التراب . ومن أسماء الدنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .

(٥) القمراء : نور القمر .

(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

قُرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ وَغَالِبٌ حَرَمُ الْأَرْوَاحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبٍ^(١)
لَحْنُهُمْ رَوْحاً يَمُكُّ بِالثِّبَاتِ
نَارُهُمْ مِنْ جَوْفِ تِلْكَ الْكَائِنَاتِ

لحنُ الحلاج

مِنْ تَرَابِي لِي لَهَيْبٌ مَا رَأَيْتُهُ مِثْلُ هَذَاكَ التَّجَلِّي مَا طَلَبْتُهُ
نَظَرْتِي أَمَعَنْتُ فِي ذَاتِي طَوِيلًا فِتْنِ الدُّنْيَا حَبِيبِي مَا شَهِدْتُهُ !
ذَاكَ شِعْرٌ أَيْنَ مِنْهُ مِلْكُ جَمٍّ غَيْرُ مَقْتُولٍ بِعَشْقٍ مَا نَسَبْتُهُ^(٢)
عَقَلْنَا إِنْ كَانَ يَغْزُو أَيُّ بَأْسٍ ؟ عَشَقْنَا هَذَا وَحِيدًا مَا عَرَفْتُهُ
الطَّرِيقَ وَالْمَقَامَ لَسْتُ تَدْرِي أَيُّ لَحْنٍ لِسُلَيْمَى مَا سَمِعْتُهُ

(١) قُرَّةُ الْعَيْنِ وَمَنْصُورٌ اسْمَانِ لِلطَّاهِرَةِ وَالْحَلَّاجِ . وَجَلِبٌ : لَفْظٌ وَصَاحٌ وَضَجٌ .
وَالْجَالِبُ : اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ جَلَبَ وَلَكِنْ الْمُرَادُ هُوَ ضَجِيجُ الْأَرْوَاحِ لَا ضَجَّةُ الْحَرَمِ .

(٢) جَمٍّ أَوْ جَمَشِيدٍ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ فِي الْعَهْدِ الْأَسْطُورِيِّ ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِعَظَمَتِهِ ، وَاتِّسَاعِ
مُلْكِهِ . وَيُرِيدُ الشَّاعِرُ بِالشَّطْرِ الثَّانِي مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَهُوَ لِشَاعِرٍ يُسَمَّى نَظِيرِي عَاشٍ فِي
الْهِنْدِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ إِيْرَانِ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ١٦١٢ م .

وَهَذَا الشَّاعِرُ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَمُتْ عِشْقًا لَيْسَ مِتًّا . وَهُوَ يَذْكُرُنَا بِتَرْدِيدِ شِعْرَاءِ الصُّوفِيَّةِ
لِهَذَا الْمَعْنَى ، وَمِنْهُمْ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ عَمْرُو بْنُ الْفَارُضِ الْقَاتِلُ :

هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَاةَ مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلُ
وَعِشْ خَالِيًا فَالْحُبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَأَخِيرُهُ قَتْلُ

وَقِيلَ فِي شَرْحِ هَذَا : إِنَّ الْمَوْتَ فِي الْحُبِّ عِنْدَهُ حَيَاةٌ تَفْضُلُ الْحَبِيبَ بِهَا عَلَى الْعَاشِقِ .
وَالْوَفَاءُ لِلْحَبِيبِ بِالْوَفَاةِ . وَالْمَوْتُ فِيهِ حَيَاةٌ . وَالْمَيِّتُ خَارِجٌ عَنْ دَعْوَى قُدْرَتِهِ ، وَهَذَا
مَا يَظْهَرُ أَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ . وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ مَاتَ الْمَوْتُ الْاِخْتِيَارِيُّ قَبْلَ الْمَوْتِ
الْاِضْطِرَارِيِّ . وَعَلَيْهِ فَمَوْتُهُ حَيَاةٌ لِانْكِشَافِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأَزَلِيَّةِ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ
شَاعِرٌ آخَرُ :

وَلَكِنْ لَدَيْ الْمَوْتِ فِيهِ صَبَابَةٌ حَيَاةٌ لِمَنْ أَهْوَى عَلَيَّ بِهَا فَضْلُ

صَفَ لَنَا النُّونَ وَبَيَّنَ كَيْفَ صَيَّدَهُ لَا تَقُلْ لِي زُورَقٌ مَا إِنَّ رَكِبَتَهُ^(١)
 إِنَّ شَيْخِي قَالَ لِي : لَوْلَا صِغَابٌ صَادَفْتَنِي فِي طَرِيقِي مَا سَلَكَتُهُ !
 أَرَشَفَ الصُّهْبَاءَ فِي حَشْدِ النَّدَامَى
 قُلْ لَنَا شَيْخَ النِّضَالِ مَا اجْتَنَبْتَهُ^(٢)

لحن غالب

السَّمَاءُ مِثْلَمَا شِئْنَا نُدِيرُ والقضاء الكأسَ أزوئنا نُدِيرُ^(٣)
 شُخْنَةُ السُّلْطَانِ نَحْنُ مَا رَهَبْنَا للنَّوَالِ كَفْنَا مِنَّا نُدِيرُ^(٤)
 الْكَلِيمُ لَمْ يَنْلُ جَوَاباً لِلْخَلِيلِ وَجْهَنَا كُنَّا نُدِيرُ^(٥)
 سَارِقَ الْبُسْتَانِ مَاذَا أَنْتَ تَبْغِي سَلَّةٌ قَدْ أَفْرَعَتْ إِنَّا نُدِيرُ^(٦)
 نَحْنُ فِي رِفْقِ طَيَّورِ الرِّوْضِ صَبْحاً نَحْوَ أَعْشَاشِ لَهَا كُنَّا نُدِيرُ^(٧)

(١) النُّون : الحوت .

(٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصوفية دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصل الفارسي .

(٣) أدار الكأس : قدّمها بالتناوب إلى جماعة الشاربين . وكلمة ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .

(٤) الشُّخْنَةُ : مَنْ يَضْبُطُ الْبَلَدَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ . والنَّوَال : العطاء . وإدارة الكف للنوال كناية عن رفضه .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصوفية في معانيهم الرمزية . فهو يقول : إِنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَى مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ إِبْرَاهِيمَ ضَيْفًا .

(٦) يقول : إِنَّ السَّارِقَ إِذَا أَفْعَمَ سَلَّتْهُ بِشَمَارٍ سَرَقَهَا مِنَ الْبُسْتَانِ أَفْرَعْنَا تِلْكَ السَّلَّةَ مِمَّا فِيهَا ، فعاد بها فارغة .

(٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لأنه يقول : إِنَّهُ عَنِيفٌ مَعَ الْعَنِيفِ ، رَفِيقٌ مَعَ الرَّفِيقِ .

حَيْدَرٌ جَدُّ لَنَا ، لَا تَعْجَبُوا نَحْوَ غَرْبِ شَمْسِنَا إِنَّا نُدِيرُ^(١)

لَحْنُ الطَّاهِرَةِ

هَآءِ لَوْ كَانَ اللَّقَاءُ بِالْعُيُونِ
لَكَشَفْتُ لَكَ مَكْنُونَ الشُّجُونِ^(٢)
كَيْ أَرَاكَ مِثْلَ أَنْسَامِ الصَّبَا
بِالدِّيَارِ طُفْتُ تَوَاقِ الْحَيَيْنِ^(٣)
مِنْ نَوَاكٍ فِي عَيْوَنِي ذَابَ قَلْبِي
مَنْ رَأَى بَحْرًا جَرَى بَيْنَ الْجُفُونِ^(٤)
إِنَّ لِلرُّوحِ شُفُوفًا خَاطَهَا
بِهَوَاكَ مِخِيطُ الْقَلْبِ الْحَزِينِ^(٥)
طُفْتُ بِالْقَلْبِ طَوِيلًا لَمْ أَجِدْ
غَيْرَ مَنْ أَهْوَى ، وَيَخْفَى بِالْكُمُونِ^(٦)

وَجَدُ مَنْ يَغْشَقُ بِالْقَلْبِ الصَّدِيعَ تِلْكَ رُوحِي مِنْهُ فِي الْحُزَنِ الْوَجِيعِ^(٧)
مَشْكَلَاتٌ لِي تَوَارِثَ قَدْ بَدَتْ كُلُّ فِكْرِي كُلُّ ظَنِّي أَطْبَقَتْ^(٨)

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٢) الشُّجُونُ : الأحزان .

(٣) الأنسام : جمع نَسَم ، وهو نفسُ الرِّيح إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .

(٤) النَّوَى : البعاد .

(٥) الشُّفُوف : جمع شُف ، وهو الثَّوب الرقيق الذي يُسْتَشَفُّ ما تحته . والمِخِيطُ : الإبرة .

(٦) كَمَنْ كُمُونًا : توارى .

(٧) الصَّدِيع : المضدوع ؛ أي المشقوق . الْوَجِيعُ : المؤلم .

(٨) أَطْبَقَ الشيء : غطاه .

بَخَرُ فِكْرِي فِيهِ مَوْجٌ مُضْطَرِبٌ شَطُّهُ مِنْ عَصْفٍ هُوَ جَاءَ خَرِبٌ^(١)
 لَا تَضِيغُ مِنْ زَمَانٍ مُدَّةٌ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَخْلُ عُقْدَةً^(٢)
 وَالْإِمَامُ أَنْتَ لِلْفِكْرِ الْأَسِيرُ
 وَمِنْ الْبَلْبَالِ فَلْيَخْلُ الضَّمِيرُ^(٣)

زنده رود يعرضُ مشكلاته على الأرواح

عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ بَعْدْنَا ؟
 مِنْ جَنَّاتِ الْخُلْدِ هَلْ طَوَّعَا خَرَجْنَا ؟

الحلّاج

مَنْ رَأَى خَيْرًا وَشَرًّا بِالْجَنَانِ مَا اسْتَفَرَّتْ مِنْهُ رُوحٌ بِالْجِنَانِ^(٤)
 جَنَّةُ الزَّاهِدِ حُورٌ أَوْ غِلَامٌ جَنَّةُ الْأَحْرَارِ فِي سَيْرِ دَوَامٍ^(٥)

- (١) الهوجاء : الريح التي تفلع البيوت .
- (٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .
- (٣) إلام : أي وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصُّدُرِ .
- (٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنّات .
- (٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصُّوفِيَّةِ مِنَ الْفِرْسِ الَّذِينَ يَتَهَكَّمُونَ بِالزَّاهِدِ فِي شَعْرِهِمُ الرَّمْزِي الَّذِي يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ أَحَدُهُمَا قَرِيبٌ غَيْرُ مَقْصُودٍ وَالْآخَرُ بَعِيدٌ هُوَ الْمَقْصُودُ .
 وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إِنَّ الْعَاشِقَ الْإِلَهِيَّ ، أَوِ الصُّوفِيَّ يَتَلَقَّى الْحَقِيقَةَ إِلَهَامًا مِنْ رَبِّهِ ، وَنُورًا يَشْرُقُ بِهِ قَلْبُهُ ، وَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَرْدِيدِ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ عِنْدَهُ مَصْدَرُ الْمَعْرِفَةِ . أَمَّا الزَّاهِدُ أَوْ غَيْرُ الصُّوفِي الَّذِي يَأْخُذُ بِظَاهِرِ النَّصِّ وَلَا يَتَجَاوَزُ الْقَشُورَ إِلَى الْبَابِ فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَقْلِ وَحْدَهُ مَصْدَرًا لِلْمَعْرِفَةِ . وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْخِلَافَ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . وَهُمْ يَبَالِغُونَ فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ مُحَاوِلِينَ الْبَلَاغَةَ ، وَكَلَامُهُمْ غَيْرُ مَحْمُولٍ عَلَى ظَاهِرِهِ . وَيَدْعُونَ إِلَى التَّحَوُّرِ مِنْ قِيود مَنْ يَتَعَجَّزُ فِي نَظَرِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِ

جَنَّةُ الزَّاهِدِ نَوْمٌ فِي التَّبَطُّلِ
حَشْرٌ مِنْ يَزْهَدُ شَيْئٌ لِلْقُبُورِ
وَأَسَاسُ الْعِلْمِ خَوْفٌ أَوْ رَجَاءٌ
يُرْهَبُ الْعِلْمَ مِنَ الْكَوْنِ الْجَلَالِ
مَا مَضَى لِلْعِلْمِ أَوْ مَا قَدْ حَضَرَ
مَذْهَبٌ لِلْعِلْمِ كَانَ وَهُوَ جَبَرٌ
يَا لِهَذَا الْعِشْقِ مِنْ حُرٍّ غَيُورٍ
عِشْقُنَا مَعْنَى الشَّكَاةِ مَا دَرَى
كَانَ مَجْبُوراً وَحُرّاً قَلْبُنَا
الْفِرَاقُ كَانَ نَاراً فِي الْفُؤَادِ
وَبَلَا وَخَيْرٌ وَحَزْرٌ كَيْفَ نَحْيَا
الْحَيَاةَ هَكَذَا ، تَقْدِيرُ ذَاتِكَ
ذَرَّةٌ لِلشُّوقِ شَمْسٌ حَاسِدَةٌ

جَنَّةُ الْعَاشِقِ فِي الْكَوْنِ التَّائُلُ (١)
إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ صُبْحٌ لِلشُّورِ (٢)
مَا لِعُشَاقٍ عَلَى هَذَا اتِّكَاءُ (٣)
يُغْرِقُ الْعِشْقُ الرُّوَاءَ وَالْجَمَالَ
وَالِى الْآتِي مِنَ الْعِشْقِ النَّظَرُ
مَا لِدَيْهِ كُلُّهُ جَبَرٌ وَصَبْرٌ
وَيَرَى الْكَوْنَ بِعَيْنٍ لِلْجُسُورِ
دَمْعُهُ فِي نَشْوَةٍ لَمَّا جَرَى
لَيْسَ مِنْ أَجْفَانٍ حُورٍ سَهْمُنَا (٤)
رَوْحُنَا يَحُلُّو لَهَا مَرُّ الْبُعَادِ
قِفْ عَلَى نَارٍ كَوَتْ سَاقِيكَ كَيْتًا !
وَهُوَ تَعْمِيرٌ لَهَا ، سِرٌّ فِي حَيَاتِكَ
صَدْرُهَا فِيهِ السَّمَاءُ رَاقِدَةٌ

إِنْ يَكُنْ لِلشُّوقِ فِي الدُّنْيَا الْهُجُومُ
يَمْنَحُ الْخُلْدَ لِفَانٍ لَا يَدُومُ

= الحقيقة ، ولا يُذكرها إلا القلب العامر بعشق الذات الإلهية .

(١) التبطُّل : التعطُّل عن العمل ، والشاعر يرمز إلى ضرورة التأمل في الكون لأنه مظهرٌ
لِلْقُدْرَةِ الإلهية . وشعرُ الصوفية من الفرس خصوصاً زاخرٌ بمثل تلك الرموز التي تجد
مبالغاتها مساعاً في ذوقهم .

(٢) نشر الله الموتى نشرّاً ونشوراً : أحياءهم .

(٣) يشير إقبال إلى مَنْ يعبد الله رغبةً في ثوابه ورهبةً من عقابه ، ويقول إِنَّ الصُّوفِيَّ يَعْبُدُ اللَّهَ
وِيَحِبُّهُ لِمَجَرَّدِ الْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ .

(٤) يقول : إِنَّ قَلْبَنَا كَانَ حُرّاً مَعَ خُضُوعِهِ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ
سَهْماً ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عَيُونِ الْحُورِ الْعَيْنِ .

زنده رود

بالرّدى والعيشِ تقدیرُ جرى
ذلك التّقدیرُ مِنّا من دَرى^(١)

الحلاج

مَنْ لَهُ التَّقْدِيرُ سَهْمٌ سُدِّدَا يَفْزَعُ الشَّيْطَانُ مِنْهُ وَالرَّدى^(٢)
كَانَ جَبْرًا دَيْنُ أَصْحَابِ الْهِمَمِ وَالْقُوى عِنْدَ رِجَالٍ فِي الْقِمَمِ^(٣)
الْحَصِيفُ زَادَ فِي عَقْلِ الْجَبْرِ وَالْغَرِيرُ مِنْهُ فِي أَغْمَاقِ قَبْرِ^(٤)
خَالِدٌ بِالْجَبْرِ هَذَا عَالِمَا أَنَا جَبْرٌ لَنَا قَدْ هَذَا^(٥)
الرَّضَا مِنْ شَأْنِ ذِيكَ الْبَطْلِ وَهُوَ ثَوْبٌ فِيهِ قَتْلٌ مَا رَقْلُ^(٦)
وَلَمَوْلَانَا عَرَفَتْ مَا الْمَقَامُ
فَلْيَشْنُفْ أَذُنَيْكَ ذَا الْكَلَامُ
المجوسى زمان بايزيد مهتدي قال له جدد سعيد
يا اخي كن كمثلي مؤمنا لتكون للنجاة ضامنا
إنما الإيمان هذا يا مريد وهو إيمان يراه بايزيد
فأنا عن حمل ذاك أضعف
وبروحي وهي تُعَيِّي يُفْنُفُ

(١) التّقدیر : قضاء الله .

(٢) يريد بالسهم السّلاح الذي يتسلّح به ، وهو القَدْرُ الذي يفزع الشيطان والموت .

(٣) المرادُ برجال في القِمَمِ رجالٌ في أوجِ العظمة وعلو القدر .

(٤) الحصيف : العاقل . والغرير : من لا تجربة له .

(٥) الأس : الأساس .

(٦) الفسل : الضعيف الذي لا مروءة له . ورقل : جرّ ذيله وتبختر .

غَيْرُ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ مَا لَدَيْنَا وَجَمِيعاً سَلَّمُوا ؟ لَا مَا رَأَيْنَا
 أَنْتَ قُلْتَ : كُلُّ شَيْءٍ بِالْقَدَرِ وَهُوَ قَيَّدٌ ، يَا تُرَى أَيْنَ الْمَقَرِ
 قَدْ أَسَاءَ الْفَهْمُ يَا هَذَا كَثِيرَا مَا رَأَيْتَ الذَّاتَ وَاللَّهَ الْقَدِيرَا^(١)
 بِالذُّعَاءِ الْمَرءُ كَانَ مُؤْمِنَا « لَكَ نَحْنُ يَا إِلَهِي كُنْ لَنَا »
 وَقَضَاءُ اللَّهِ كَانَ عَزْمُهُ
 سَهْمُهُ فِي الْحَرْبِ كَانَ سَهْمُهُ^(٢)

زنده رود

فِتْنَةٌ هَا قَدْ أَثَارَ الْغَافِلُونَ هُوَ ذَا الْمَصْلُوبُ يَبْدُو لِلْعُيُونِ^(٣)
 الْوَجُودُ وَهُوَ سِرٌّ قَدْ عَرَفْنَا أَيُّ ذَنْبٍ قُلْ لَنَا كُنْتَ اجْتَرَحْتَ^(٤)

الحلاج

إِنَّ فِي صَدْرِي لَصُوراً لِلشُّورِ هُوَذَا شَعْبٌ مَضَى نَحْوَ الْقُبُورِ^(٥)
 مُؤْمِنُونَ يُشَبِّهُونَ الْكَافِرِينَ مُسْلِمُونَ وَلِذَاتٍ مُنْكَرُونَا
 قَوْلُهُمْ : الرُّوحُ شَيْءٌ بَاطِلٌ قُيِّدَتْ بِالطَّيْنِ وَهُوَ زَائِلٌ

(١) رَأَيْتَ هُنَا بِمَعْنَى رَأَيْتَ بِالْقَلْبِ لَا بِالْعَيْنِ .

(٢) أَيُّ أَنْ عَزَمَهُ كَانَ قَدَرًا ، وَسَهْمُهُ سَهْمُ اللَّهِ .

(٣) يَشِيرُ إِقْبَالَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيَ إِلَى صَلْبِ الْحَلَّاجِ .

(٤) اجْتَرَحَ الذَّنْبَ : ارْتَكَبَهُ .

(٥) الصُّورُ : الْقَرْنُ يَنْفَخُ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ سَبَبًا لِعُودِ الصُّورِ وَالْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَامِهَا .

الْحَيَاةُ أَشْعَلْتُ مِنْ نَارِ ذَاتِي مَيِّتاً بَصَّرْتُ أَسْرَارَ الْحَيَاةِ ^(١)
 عَالَمٌ مِنْ ذَاتِهِمْ مَا يَصْنَعُونَا رَقَّةً بِالْعُنْفِ كَانُوا يَمْزِجُونَا
 أَيْنَ تَبْدُو الذَّاتُ أَوْ أَيْنَ اخْتَفَتْ الْعِوَنُ قَطُّ هَذَا مَا رَأَتْ
 يَسْتُرُ النَّيْرَانَ سِتْراً نَوْرُهَا بِالتَّجَلِّيِ الْكَوْنُ يُبْدِي طَوْرُهَا
 قَلْبُنَا بِالذَّاتِ كَمْ كَانَ الْحَفِيَّا ^(٢) مَا وَنَى عَنْ ذِكْرِهَا ذِكْراً خَفِيًّا ^(٣)
 مِنْ لَظَاهَا كُلُّ مَعْدُومِ النَّصِيبِ مَاتَ عَنْ نَفْسٍ لَهُ مِثْلُ الْغَرِيبِ ^(٤)
 نَارُ فُرْسٍ نَارُ هِنْدٍ هَلْ عَرَفْنَا أَنْتَ وَصَّافاً لَهَا مَا إِنْ رَأَيْتَا
 نَارُهَا وَالنُّورَ إِنِّي قَدْ وَصَفْتُ يَا أَيْسَ الْقَلْبِ هَذَا مَا اجْتَرَحْتُ
 مَا فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ فَاخْذِرِ
 وَدَعَاوَتِ مَيِّتاً لِلْمَخْشَرِ

الطَّاهِرَةُ

مِنْ ذُنُوبٍ وَخَطَايَا لِلْعُلَاةِ قَدْ بَدَا مَا لَمْ يَكُنْ ، مِنْ كَائِنَاتِ
 إِنْ فَرَطَ الشُّوقِ سِتْراً مَرَّقَا وَعَنِ الْعَيْنِ الْقَدِيمِ فَرَّقَا
 نَالَ مِنْ عُوْدٍ وَمِنْ حَبْلِ نَصِيْبِهِ لَمْ يَعُدْ حَيًّا وَقَدْ وَافَى حَبِيْبِهِ ^(١)
 بِالتَّجَلِّيِ يَشْنَاهَا قَدْ ظَهَرَ لَا تَنْظُرَنَّ أَنَّهُ الدُّنْيَا هَجَرَ
 عَصْرُهُ كَانَ ضَمِيراً وَهُوَ فِيهِ
 عَزْلَةٌ مَهْمَا تَكُنْ لَا تَخْتَوِيهِ

(١) بَصَّرَهُ الْأَمْرَ : عَرَفَهُ إِيَّاهُ .

(٢) الْحَفِيَّ : الْبَرُّ اللَّطِيفُ .

(٣) اللَّظَى : النَّارُ ، أَوْ لَهَبُهَا .

(٤) وَافَى : أَتَى .

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ جَهَدَ بِحَثٍ قَدْ أَلْفَتَهُ اشْرَحَنَّ لِي يَتَا أَنْتَ قُلْتَهُ
« مِنْ رَمَادٍ قَبْضَةٌ قُمْرِيَّةٌ ، قَفَصُ اللَّوْنِ الْهَزَارُ
يَا شَكَاةَ فِلْتَجِيي : أَيْنَ رَمَزٌ لِفَوَادٍ فِيهِ نَارٌ »^(١)

غالب

يشتكي النيران في القلب الدنف وشكاة عن شكاة تخلف^(٢)
أحرق القمري منها في اللهب وبدا البلب في الثوب القشيب^(٣)
وتضم الموت في حضن الحياة فحياءً ، أو لها شأن الممات^(٤)
يا للون كان منه سقر ماني أو زوال اللون مسلوب المعاني^(٥)
أفتدري ما للون من مقام ؟ ونصيب القلب مقدار الهيام^(٦)
أنت باللون تعال ، أو فيسر^(٧)
كي ترى آثار قلب يستعز

(١) يقول المشرق الإيطالي باوزاني : إنَّ هذا البيت ترجمة لإقبال عن بيت بالأوردية لغالب يكتنف الغموضُ معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جديرة بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأى شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدا » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الدنف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أنَّ الشكاة إمَّا حياة أو موت .

(٥) السقر : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرسم . وارثرنگ عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجد القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدم باللون أو امضي بدونه .

زنده رود

ألفُ دُنْيَا فِي الْقَضَاءِ الْأَزْرَقِ
وَبِهَا كُلُّ نَبِيٍّ مُتَّقِي

غالب

أَنْظُرَنَّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ كَمْ دُنْيَى تَأْتِي لَنَا مِنْهُ الْقِدَمُ^(١)
نَحْنُ دُنْيَا فِي الْوُجُودِ إِنْ رَأَيْنَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قَدْ رَأَيْنَا

زنده رود

وَضَحَّ الْقَوْلُ فَإِنِّي مَا فَهِمْتُ

غالب

أَنَا إِنْ زِدْتُكَ تَوْضِيحاً غَلِطْتُ

زنده رود

لَا يَفِيدُ قَوْلُ أَصْحَابِ الْجَنَانِ^(٢)

غالب

مَشْكَلُ قَوْلٍ دَقِيقٍ فِي اللُّسَانِ^(٣)

(١) الدُّنْيَى : جمع دنيا .

(٢) الجنان : القلب .

(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اشْتَعَلْتَ أَنْتَ مِنْ نَارِ الطَّلَبِ
لَفْظَةً مَا قُلْتُهَا يَا لِلْعَجَبِ

غالب

إِنْ خَلَقْنَا وَقَضَاءً ابْتِدَاءً^(١)
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ انْتِهَاءً

زنده رود

المعاني عاجزٌ عَنْ فَهْمِهَا
لَكَ نَارٌ؟ قُمْ وَأَخْرِقْنَا بِهَا

غالب

أَنْتَ يَا مَنْ تُبْصِرُ الْأَشْعَارَ مِثْلِي وَعَلَيْهَا لِلْكَلامِ أَيُّ فَضْلٍ
أَمْرَاءُ الشُّعْرِ زَانُوا جَمْعَهُمْ وَالْيَدُ الْبَيْضَاءُ لَيْسَتْ عَنْدهُمْ
لَيْسَ مَا تَبْغِيهِ مِنِّي غَيْرَ كُفْرٍ إِنَّهُ كُفْرٌ وَرَاءَ كُلِّ شُغْرِ

الحلاج

وَإِذَا أَبْصَرْتُ دُنْيَا لِلشَّيَاطِينِ فَالْمُنَى فِي أَرْضِهَا مِثْلُ النَّبَاتِ^(٢)

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ٢-٣] .

(٢) الشَّيَاطِينُ : الألوَان .

إِنَّ نُورَ الْمُضْطَفَى فِيهِ الْبَهَاءُ أَوْ رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا مَا تَشَاءُ

زننده رود

النَّبِيُّ الْمُضْطَفَى مَا أَمَرُهُ جَوْهَرٌ ، أَفْصَحَ أَجِبَ مَا سِرُّهُ
فِي الْوُجُودِ آدَمِي أَوْ جَوْهَرٌ ؟ نَارَةٌ يَخْفَى وَأُخْرَى يَظْهَرُ

الحلاج

عَقَّرَ الْعَالَمُ خَدًّا عِنْدَهُ نَفْسَهُ سَمَّى النَّبِيَّ «عَبْدَهُ»
«عَبْدَهُ» فَهَمَّا لَدَيْكَ تَبَهَّرُ إِنَّهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ الْجَوْهَرُ^(١)
لَيْسَ مِنْ عَرَبٍ وَلَيْسَ الْأَعْجَمَا آدَمٌ بَلْ كَانَ مِنْهُ الْأَقْدَمَا^(٢)
«عَبْدَهُ» قَدْ شَكَّلْتَ هَذَا الْقَدْرَ بِالْفَيَافِي الْخَضْبُ مِنْهَا قَدْ ظَهَرَ^(٣)
أَحْيَيْتِ الْأَزْوَاجَ وَهِيَ تَقْتُلُ وَالرُّجَاجُ ، وَهِيَ صَخْرٌ يَتَّقُلُ
غَيْرُ «عَبْدٍ» «عَبْدُهُ» فَلْتَعْتَبِرْ وَلَهَا طَالَ انْتِظَارُ الْمُتَنَبِّرِ^(٤)
عَبْدُهُ الدَّهْرُ وَكَانَ الدَّهْرُ مِنْهَا كُلُّا لَوْنٌ وَيَنَائِي اللَّوْنُ عَنْهَا
وَلَهَا الْبَدْءُ وَمِنْ غَيْرِ انْتِهَاء مَا لَدَيْهَا مِثْلُ صُبْحٍ أَوْ مَسَاءٍ
مَا دَرَى الْإِنْسَانُ قَطُّ سِرَّهَا سِرُّ «إِلَّا اللَّهُ» كَانَ ذِكْرُهَا
لَا إِلَهَ السَّيْفُ وَهِيَ حِدَّةُ وَلْتَصْرُخْ وَلْتَقُلْ «هُوَ عَبْدُهُ»
«عَبْدُهُ» كُنْهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ «عَبْدُهُ» فِيهَا مَعَانٍ مَغْلَقَاتِ

(١) بهر : غلب .

(٢) فِي الْأَصْلِ الْأَعْجَمُ وَهُوَ الَّذِي فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ وَعَدَمٌ فَصَاحِيَّةٌ . وَالْمُرَادُ الْأَعْجَمِي أَيِ غَيْرِ الْعَرَبِيِّ .

(٣) الْفَيَافِي : جَمْعُ فَيَافٍ ، وَهِيَ الْأَرْضُ لَا مَاءَ فِيهَا .

(٤) اعْتَبِرْ : نَظَرَ فِي الشَّيْءِ وَاخْتَبَرَهُ .

ولهذا الشُّعْرُ معنى ما فهِمْتَ قَبْلَ فَهَمِ قَوْلِ رَبِّي ﴿ مَا رَمَيْتَ ﴾^(١)
 دَعَاكَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ زِنْدَهُ رُود
 امْضِ وَلْيُغْرِقْكَ ذِيَاكَ الْوُجُود

زنده رود

إِنَّ هَذَا الْعِشْقَ شَيْءٌ مَا عَرَفْتُهُ
 أَهْوَ لِلرُّؤْيَةِ ذَوْقٌ مَا عَهْدْتُهُ ؟

الحلّاج

هَذِهِ الرُّؤْيَةُ مَعْنَاهَا النَّبِيُّ يَحْكُمُ النَّفْسَ ، بِذَا وَهُوَ الرِّضَا
 أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ عِشٌّ مِثْلَ الرُّسُولِ وَمَنْ الْخَلْقِ سَتَحْظِي بِالْقَبُولِ
 ذَاتَكَ انْظُرْ إِنَّ هَذَا رُؤْيَاهُ سِرُّهُ السِّرُّ الْعَظِيمُ نَسْتُهُ

زنده رود

رُؤْيَةُ اللَّهِ أَفْلاكَأَ تَنَزَّرُ ؟
 وَأَدَارَ الشَّمْسِ فِيهَا وَالْقَمَرُ^(٢)

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم بيدكم بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصره إياكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصا ، فإنَّ كفاً من الحصا لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إن كان الرامي من البشر ، ولكنَّ الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي الله الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلاج

صورةُ الحقِّ بروحٍ اطَّرَحَنَ ثمَّ في الدُّنيا إليه انظُرَنَ^(١)
 وإذا كانت بروحٍ صُوِّرَتْهُ فلكلِّ العالَمِينَ رؤيته
 إن جَرَتْ « هو » يا حظيظُ مِنْ لِسَانِكَ طافَتِ الأفلاك طَوْفاً حَوْلَ دَارِكَ^(٢)
 ويلُ درويشٍ بفيه قد جَرَتْ ثمَّ ضَمَّ شَفْتِيهِ أَوْ صَمَتَ
 إنَّه لم يُجِرِ حُكْمَ رَبِّهِ ما الشعيرُ ؟ حَيْدَرُ في حَزْبِهِ^(٣)
 طلبُ الزُّهد تحاشى خبيراً راهباً أضحى ، مَلِيكُ يا ترى !^(٤)
 صورةُ الحقِّ ، هي الدُّنيا لَدَيْكَ والقضاءُ كالزُّمام في يَدَيْكَ
 القتالُ بُغْيَةُ العَصْرِ المَرِيدِ
 ألقها في لوحٍ كفارٍ عَيْنُ

زندة رود

كان في الدُّنيا لَدَيْنَا رَمِيْهَا
 لستُ أدري كيف كان رَمِيْهَا !

- (١) الحق : هو الله تعالى .
 (٢) الحظيظ : السعيد الحظ .
 (٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدُّنيا بأقلِّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال . والشاعر يتهمكم بالمسرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .
 (٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهمكم ثانيةً بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من ملوك الأرض .

يعرف الأفلاك حقاً طيناً أين ناز للمريد هاهنا^(١)

الحلاج

أوجز الأقوال عن شيخ الفراق وجهلنا ، كل شيء قد ذرى
ذو الهيام والنجيع في الدهاق^(٢) ويكفر كل سر أظهرا
الشقوط بَعْدَهُ طاب الصعود بعد نقص قر عيناً من يزيد
إن عشت في لهيب فاخترق كان منه ، أو فلتت المخرق !
إنه في العشق منا أقدم سره ما ليس يدري آدم
إن للتقليد ثوباً ، مرقته
وخذ التوحيد عنه وافهمته

الحلاج

المقام ليس في طوق لنا ونطير ، كان ذا ذوقاً لنا^(٣)
نحن دوماً من رأينا أو خفقنا ما لدينا من جناح ، حسبنا^(٤)

ظهور رأس أهل الفراق إبليس

وحدث الحكماء برهتان الوجود والفناء تصنعان

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطين هنا هو الإنسان . والمريد : الخيث .

(٢) الهيام : الظمأ . والنجيع : الدم . والدهاق من الكؤوس : الممثلة .

(٣) الطوق : الطاقة والقُدرة .

(٤) دوماً : دائماً . وحسبنا : كافينا .

الحلاج

يُحْنِنُ كَانَ لِلْوَجْدِ الرَّهِيْفُ أَمْ يَقْسِرُ كَانَ لِلْقَهْرِ الْعَنِيْفُ^(١)
إِنَّ فِي الرَّقَّةِ رَبِّي أَظْهَرُ هِيَ مِنْ عُنْفٍ شَدِيدٍ أَجْدَرُ

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ تَعْرِفُ الْأَسْرَارَ شَرْقًا
بَيْنَ زُهْدٍ هَلْ تَرَى وَالْعِشْقَ قَرْقًا ؟

الحلاج

إِنَّمَا الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا الْغَرِيبُ
ذَلِكَ الْعَاشِقُ فِي الْعُقْبَى الْغَرِيبُ

زنده رود

إِنْ عَرَفْتَ فَاَنْتِهَاءَ بِالْفَنَاءِ مَنْ سَعِدَ فِي الْفَنَاءِ بِالْبَقَاءِ ؟

الحلاج

تُسَكِّرُ الْكَأْسُ خَلَّتْ بَعْدَ امْتِلَاءِ وَعَنِ الْعِلْمِ اغْتَرَابُ كَالْفَنَاءِ
فِي الْفَنَاءِ لَكَ شَوْقٌ وَاحْتَدَمَ ذَلِكَ الْمَوْجُودُ لَا يَلْقَى الْعَدَمَ^(٢)

زنده رود

مَنْ عَلَى آدَمَ أَغْلَى قَدْرَهُ لَمْ يَجِدْ فِي قَاعِ دُنْ خَمْرَهُ^(٣)

(١) الرَّهِيْفُ : الرَّقِيْقُ .

(٢) احْتَدَمَ : اشْتَدَّ . يَقُولُ : أَنْتَ فِي الْفَنَاءِ تَطْلُبُ شَيْئًا . وَالْعَدَمُ لَا يَصَادِفُ الشَّيْءَ الْمَوْجُودَ .

(٣) الدُّنْ : جِرَّةُ الْخَمْرِ . وَيَعْلَى قَدْرَهُ عَلَى قَدْرِ آدَمَ : يَدَّعِي أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، وَهَذَا مَا ادَّعَاهُ =

أَضْرَمَ الْعِشْقَ عَلَيْنَا وَانْصَرَفَ
 أَغْمَضَ الْعَيْنَيْنِ حَتَّى أَمْلَكَهُ
 وَظِلَامٌ كُفَّ مِنْهُ النَّاطِرَانِ
 شَعْلَةٌ لَاحَتْ بَلِيلٍ قَدْ وَقَبَ
 وَهُوَ شَيْخٌ يَرْتَدِي سَوْدَ الثِّيَابِ
 وَهَبَ الرُّؤْيَةَ عَقْلًا ، مَا وَقَفَ
 فِي فَوَادِي طَابَ لِي أَنْ أَسْلُكَهُ
 فِي الْمَكَانِ وَإِلَى غَيْرِ الْمَكَانِ^(١)
 وَإِذَا مِنْ جَوْفِهَا شَيْخٌ وَثَبَ^(٢)
 وَالْذُّخَانُ لَقَهُ مِثْلَ السَّحَابِ

قال مولانا أرى شيخَ القِرَاقِ

يَتَلَطَّى وَالتَّجِيعُ فِي الدَّهَاقِ^(٣)

طَالَ مِنْهُ الصَّمْتُ فِي طَوْلِ الْوُجُومِ
 مَا جَنَّ شَيْخٌ حَكِيمٌ زَاهِدٌ
 مَا دَرَى طَبْعٌ لَهُ ذَوْقُ الْوِصَالِ
 وَهُوَ عَنْ هَذَا الْجَمَالِ مَا انْقَطَعَ
 قِفْ تَأْمَلْ بُزْهَةً مَا قَدْ عَرَاهُ
 وَبِرَى الْأَرْوَاحِ وَهِيَ فِي الْجُسُومِ^(٤)
 يُشَبِّهُ الرُّهَادَ وَهُوَ الْجَاهِدُ^(٥)
 زُهْدُهُ تَرَكُ الْخُلُودِ فِي الْجَمَالِ^(٦)
 وَامْتِنَاعٍ عَنْ سَجُودِ مَا صَنَعَ
 ثَابِتًا فِي الْمُسْكَلاتِ كِي تَرَاهُ^(٧)

وبه الهيجاء ما زالت تدور

كم نبيي قد رأى وهو الكفور

مِنْ لَظَاهِ الرُّوحِ فِي جِسْمِي ازْتَعَدَ
 فَتَحَ الْعَيْنَ وَقَالَ وَاعْتَدَلْ
 وَزَفِيرُ الْحُزْنِ مِنْ قِيهِ اصَّعَدَ^(٨)
 مِثْلُنَا مَنْ كَانَ مِيمُونَ الْعَمَلِ

(١) كُفَّ بَصْرُهُ : ذهب . النَّاطِرَانِ : العينان .

(٢) وَقَب الظلام : دخل على الناس .

(٣) يَتَلَطَّى : يتلهب . التَّجِيعُ : الدم . والدَّهَاقُ من الكؤوس : الممتلئة .

(٤) الْوُجُومِ : الحزن مع الصمت .

(٥) الْمَاجِنِ : الذي لا يبالي ما صنع . وَالْجَاهِدُ : المجتهد .

(٦) الذَّوْقُ : الإدراك . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ زُهْدَهُ قَطَعَ النَّظَرَ عَنِ الْجَمَالِ الْخَالِدِ .

(٧) عَرَاهُ : اعتراه ، وَغَشِيَهُ .

(٨) اللَّظَى : النار . اصَّعَدَ : صَعَدَ .

أَنهَمَكْتُ فِي شُرُونِي وَاجْتَهَدْتُ
 مَا لَدَيَّ مِنْ مَدَدَتْ مِنْهُ قُوَّةُ
 لَيْسَ عِنْدِي مِنْ حَدِيثٍ أَوْ كِتَابٍ
 كَالْفَقِيهِ غَزَلَ دِينَ مِنْ غَزَلٍ
 مَا عَرَفْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَطْلَبِ
 يَا جَهْلُ ، إِنِّي مَا إِنْ سَجَدْتُ
 لَوْجُودِ اللَّهِ لَسْتُ مُنْكَرًا
 أَجْهَلْتُ كَيْ أَقُولَ مَا وَجَدْتُ
 وَ « نَعَمْ » فِي سِرِّ « لَا » مَا قَدْ نَطَقْتُ
 آدَمُ مِنْ هَمِّهِ نِلْتُ النَّصِيحَا
 مِنْ مَرُوجِي نَبَتْ نَارٌ وَنَارُ
 إِنِّي أَظْهَرْتُ قُبْحِي ، قُمْ بِشَأْنِكَ
 تِلْكَ نَارِي صَدَّ عَنِّي حَرُّهَا
 أَنْتَ يَا إِنْسَانُ فِي أَسْرِي وَقَعْتُ
 وَهَمَامًا كُنْ وَلَا تَخْشَ الْخُطُوبَا
 دَعَاكَ مِنْ حُلُوي وَمُرِّي وَانْسَ مَا بِي

لِلصَّلَاةِ قَلَمًا وَقَتًا وَجَدْتُ^(١)
 إِنَّ وَحْيِي لَا يُمْرُ بِالنُّبُوَّةِ^(٢)
 وَالْفَقِيهِ مِنْ دَحَرْتُ فِي الْغَلَابِ^(٣)
 جَعَلَ الْكَعْبَةَ آثَارَ الطَّلَلِ^(٤)
 مَا لِإِبْلِيسَ انْشِقَاقُ الْمَذْهَبِ
 أَرْغُنِي هَذَا عَلَيْهِ قَدْ عَرَفْتُ^(٥)
 أَبْصِرِ الْبَاطِنَ وَاتْرُكْ ظَاهِرًا
 كَيْفَ هَذَا ، إِنَّ رَبِّي قَدْ شَهِدَ^(٦)
 مَا سَكْتُ ، فَأَنَا خَيْرًا صَنَعْتُ
 وَلِذَاكَ عَنْهُ هَذَانُ الْحَبِيئَا^(٧)
 بَعْدَ جَيْرٍ قَدْ هَدَاهُ الْإِخْتِيَارُ
 ثُمَّ قُلْتُ : أَنْتَ فَلَتَخْتَرُ لِنَفْسِكَ
 عُقْدَتِي حُلٌّ وَدَبَّرُ أَمْرَهَا
 أَنْتَ عَصِيَانَا لِشَيْطَانٍ أَبْخَتَ
 وَلَتَعِشْ يَا مُسْعِدِي عَنِّي غَرِيبًا^(٨)
 لَا تَزِدْنِي مِنْ سَوَادٍ فِي كِتَابِي

- (١) فِي الْأَصْلِ أَنَّهُ مَا وَجَدَ وَقَتًا لِلصَّلَاةِ الْجُمُعَةِ .
 (٢) مَدَدَتْ مِنْهُ قُوَّةُ : أَخَذَتْهَا مِنْهُ . وَالْمَنْ : التَّعْيِيرُ بِالصَّنِيعَةِ .
 (٣) دَحَرَ : طَرَدَ ، وَهَزَمَ . الْغَلَابُ : مِنَ الْغَالِبِ .
 (٤) يَجْرِي إِقْبَالٌ عَلَى مَأْلُوفِ الصُّوفِيَّةِ فِي تَهْكِمِهِمُ الرَّمْزِيَّ بِالزُّهَادِ وَالْفُقَهَاءِ .
 (٥) الْأَرْغَنُ : آلَةٌ يَعْرِفُ عَلَيْهَا .
 (٦) شَهِدَ : رُبِّي .
 (٧) الْحَبِيئُ : هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا .
 (٨) الْهَمَامُ : الْعَظِيمُ الْهَمَّةُ . الْمُسْعِدُ : الْمَوَاسِي وَالْمَعِينُ .

يَرْصُدُ الصَّيَّادُ مَا يَزْمِيهِ حَتْمًا إِنَّ بَدَوْتَ فِي مَصَادِي نِلْتِ سَهْمًا^(١) !
 مَا هَوَى مِنْ طَارٍ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ
 يَغْلِبُ الصَّيَّادُ صَيْدَ الذِّكَاةِ^(٢) !

قُلْتُ : « فَاطْرَحْ لِلْفِرَاقِ مَذْهَبًا فِي الطَّلَاقِ لَيْسَ لِي أَنْ أَرْغَبَا^(٣) »
 « الْفِرَاقُ لِلْحَيَاةِ مِثْلَ شَطْرِ
 الْوَصَالِ بِلِسَانِي مَا ذَكَرْتَ فَهُوَ فِي الْوَصْلِ أَمَحَى بِي وَأَمَحَيْتِ^(٤) » !
 لَفْظُهُ عَنْ نَفْسِهِ كَانَ الْغَرِيبَا ثُمَّ زَادَ الْقَلْبُ بِالْحُزْنِ اللَّهْيَا
 وَتَلَوَّى فِي الدُّخَانِ وَاخْتَلَجَ ثُمَّ ضَلَّ وَهُوَ مِنْهُ فِي الْحَرَجِ^(٥)
 الشُّكَاةُ لِلدُّخَانِ فِي انْسِكَابِ
 تَشَعُّدِ الرُّوحِ بِآلَامِ الْعَذَابِ

شكوى إبليس

رَبِّ مَنْ أَخْطَا وَرَبِّ مَنْ أَصَابَا صَحْبَةُ الْإِنْسَانِ لِي كَانَتْ مُصَابَا^(٦)
 ذَلِكَ الْإِنْسَانُ حَكَمِي لَمْ يُخَالِفْ أَغْمَضَ الْعَيْنَ وَذَاتًا لَمْ يُصَادِفْ
 طِينُهُ لَمْ يَذَرِ ذَوْقًا لِلْإِبَاءِ لَا وَلَا مَعْنَى لِنَارِ الْكِبْرِيَاءِ

(١) المصَاد : موضع الصيد .

(٢) الصَّيْدُ : ما يصاد .

(٣) التلميح هنا بحديث للنبي ﷺ ، وهو قوله : « أَبْغَضَ الْحَلَالِ عِنْدَ اللَّهِ الطَّلَاقَ » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد قناء الصوفي في الذات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضيق كثير الشجر .

(٦) المصاب : النازلة الشديدة .

وَيَقُولُ الصَّيْدُ لِلصَّيَادِ خُذْنِي
 وَمِنَ الصَّيْدِ ، إِلَهِي ، خَلِّصْنِي
 مِنْهُ ذُلِّي وَرِمَانِي مِنْ عِلَائِي
 وَضَعِيفُ الْعَزْمِ فَجَّ الْفِطْرَةَ
 وَجَدِيرٌ بِي حَصِيفٌ ذُو نَظَرٍ
 دُمِيَّةَ الطَّيْنِ اسْتَرَدَّ مِنْ يَدَيَا
 مَا هُوَ الْإِنْسَانُ ؟ ضِغْثٌ مِنْ غُثَاءٍ
 لِلْغُثَاءِ وَخُدَّةٌ كَانَ الْوُجُودُ
 أَيُّ شَيْءٍ لِلرُّجَاجِ كَانَ صَهْرُ
 مِنْ فَتُوحِي هَا أَنَا ذَا قَدْ مَتَّيْتُ
 مُنْكَرَ الذَّاتِ أَرِيدُ مِنْكَ فَا مَنُخَ
 وَأَرِيدُ طُلَيْتِي مِنْ يَغْصَرُ
 مَنْ يَقُولُ : « أَخْرُجْ مِنْ حُضُورِي »

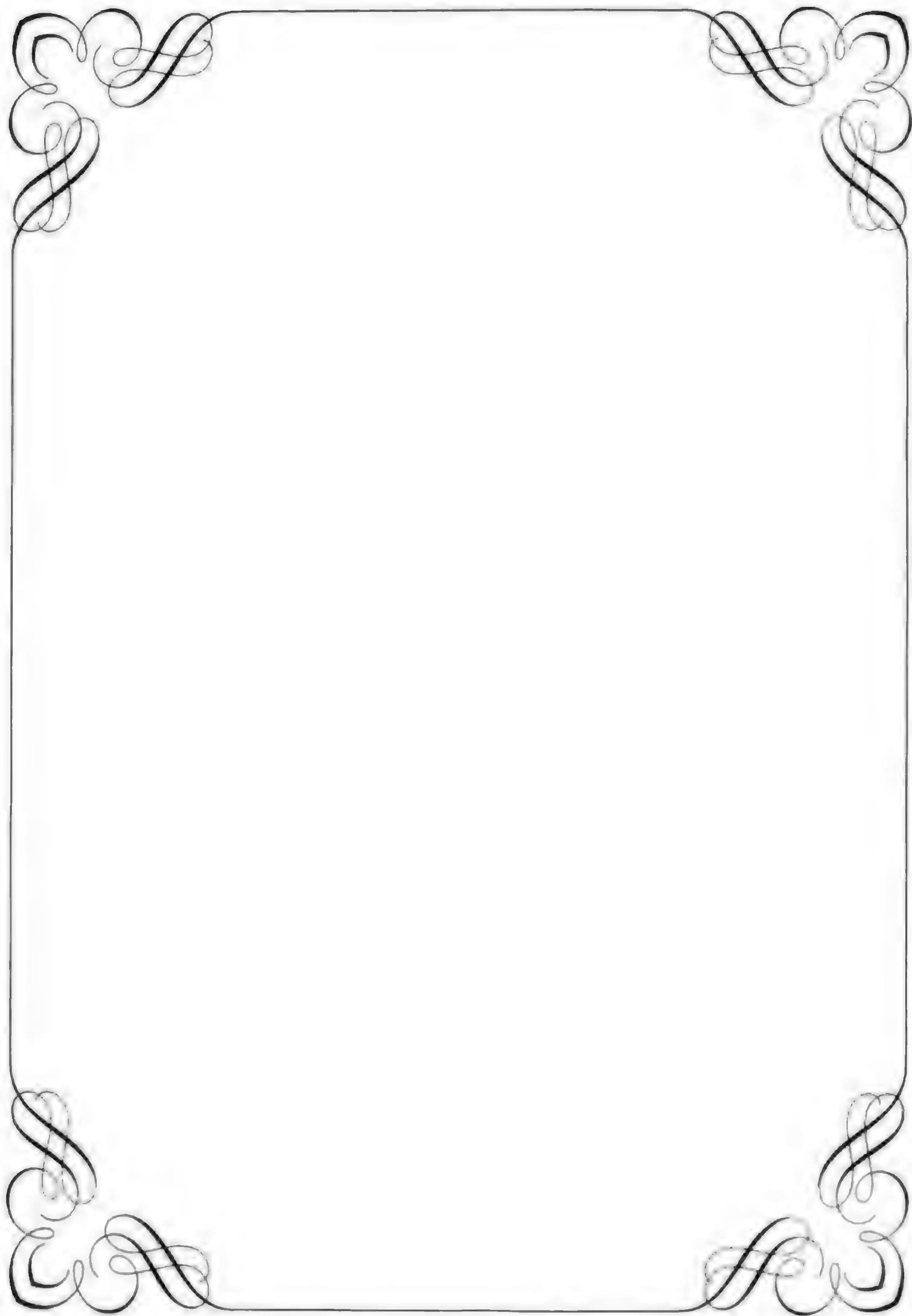
يَا إِلَهِي فَلْتَهَبْ حُرّاً أَيَّامَا
 فِي انْهْزَامِي مَتْعَةً كَانَتْ لَدَيَا

-
- (١) لم يرقني : لم يعجبني .
 (٢) الفج : ما لم يتضح من الثمار . وخر : سقط .
 (٣) الحصيف : العاقل الحكيم .
 (٤) عتا الشيخ : طعن في السن .
 (٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة اليابس بالرطب .
 (٦) الطلية : العنق .

القسم السادس

فَأَنكَ زُحْلٌ





الأرواحُ الخبيثةُ التي غَدَرَتْ بالوَطنِ ولم تقبلها جهنَّمُ

<p>كَانَ لِلأحرارِ مولانا الإماما السماء قال يا مَنْ قَدْ طَوَيْتَ وكما شاهَدْتَه أَنْتَ انْتَطَقَ ويطِيءُ كالشُّكُونِ عِنْدَ سَيْرِ جَسَمِهِ ماءً وَطِيناً شُكَّلاً تَضَعُ النَّارُ بَأْيِدِ المَلائِكِ دِرَّةٌ قَدْ أَوْجَعَتْ تِلْكَ النُّجُوما عَالَمٌ مِنْهُ النُّفُورُ لِلْقَلْبِ ما لأرواحٍ بِهِ يَوْمَ النُّشُورِ إِنَّ شَيْطَانَيْنِ فِيهِ يَسْكُنَانِ ذَاكَ فِي البَغْضالِ هَذَا فِي الدَّكَنِ</p>	<p>كُلُّ حُرٍّ بَوًّا الشَّيْخَ المَقَامَا^(١) أعلى العالَمِ زُنَّاراً رَأَيْتُ^(٢) بذِيولٍ لنجومٍ قَدْ سَرَقَ^(٣) خَيْرُهُ ما كانَ إِلا كُلَّ شَرٍ خطوهُ في الأرضِ صَغْبٌ أَشْكِلا^(٤) قَسَمْتُ سُخْطاً لِرَبِّي مِنْ هُنَالِكَ^(٥) مَنْقَتُها في المَدَارِ أَنْ تَحُوما^(٦) وهو مِنْ بُخْلِ الشُّمُوسِ فِي الحَلَكِ^(٧) لَمْ تُعَذِّبْها الجَحِيمُ بالسَّعِيرِ^(٨) أَزْهَقَ الرُّوحَ لِقُومٍ قَاتِلانِ وهما لِلدِّينِ عارٌّ وَالوَطَنِ^(٩)</p>
--	--

-
- (١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومِي .
 (٢) الزُّنار : ما يَشُدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .
 (٣) انتطق : شَدَّ وسطه بالمنطقة .
 (٤) أَشْكَل الأمر : التبس .
 (٥) الملائك : الملائكة ، والنَّار هنا : الصاعقة .
 (٦) الدِّرَّة : السوط .
 (٧) الحَلَك : الظلام .
 (٨) يوم النشور يوم القيامة الذي تعود فيه الحياة إلى الموتى . والسَّعِير : النار .
 (٩) مير جعفر : هندي قبل أن يكون حاكماً للبنغال تحت نفوذ الإنجليز ؛ الذين توطدت =

أَبْغَضًا فِي الْيَأْسِ مِنْ نَيْلِ الْمُرَادِ الْفَسَادَ قَدْ أَشَاعَا فِي الْبِلَادِ
أُمَّةٌ كُلُّ الصَّلَاتِ قَطَعَتْ مُلْكُهَا وَالذِّينَ حَتْمًا ضَيَّعَتْ^(١)
وَبِلَادُ الْهِنْدِ هَلْ أُنْسِيَتْهَا ؟ وَلَهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ مَا لَهَا^(٢)
فَتَجَلَّيْهَا أَنْارَ الْعَالِمَا مَا تَزَالُ أَرْضُهَا تَجْرِي دَمًا
فِي ثَرَاهَا مَنْ رَمَى بِذَرِّ الْعَبِيدِ ؟ ذَاكَ فِعْلٌ كَانَ مِنْ رُوحٍ مَرِيدِ
بِرَهَةٍ قِفْ أَنْتَ فِي هَذَا الْفَضَاءِ
مَا يَنَالُ الْمَرْءُ شَاهِدًا مِنْ جَزَاءِ

بَحْرُ الدِّمَاءِ

مَا رَأَيْتُ ، وَضْفُهُ يُغَيِّي اللَّسَانَ يُرْعِبُ الرُّوحَ وَيُنْسِيهَا الْبَدَنَ^(٣)
إِنَّهُ بَحْرُ الدِّمَاءِ قَدْ جَرَى فَوْقَهُ رِيحٌ وَأُخْرَى أَضْمَرَ
يُشَبِّهُ الْحَيَتَانِ تَيْنَ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْ زَيْبِقٍ وَالْكَفُّ قَيْرَ^(٤)
مَوْجُهُ اللَّيْثُ الْهَاصُورُ ذُو الْمَنَاصِلِ مَاتَ رُغْبًا مِنْهُ تَمْسَاحٌ بِسَاحِلِ^(٥)

= أقدامهم ، واستقامت أمورهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الدكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور المتوفى عام ١٧٩٩ .

- (١) يريد قطع الصلات بينها وبين غيرها من الأمم .
- (٢) أي لها في كل قلب ما لها من علو المنزلة .
- (٣) اللسان : الفصاحة .
- (٤) التين : العظيم من الحيات . يقول إن التناين في الجو كالحيتان في البحر وجناحاها في لون الزئبق ومخالبها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تغطي بها السفن .
- (٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكان أنياب الأسد سيوف .

لَمْ يَنْلِ مِنْهُ الْأَمَانَ الشَّطُّ قَطُ فِي الدِّمَاءِ تِلْكَ أَعْلَامُ تَغَطُّ^(١)
هَذِهِ الْأَمْوَاجُ دُومًا فِي نِزَاعٍ تُهْبِطُ الزُّورُوقُ مِنْ بَعْدِ ارْتِفَاعِ
فِيهِ يَبْدُو رَجُلَانِ شَاحِبَانِ
أَشْعَثَانِ مِنْ ثِيَابِ عَارِيَانِ

روحُ الهِنْدِ تَظْهَرُ

تِلْكَ بِنْتُ الْحَوْرِ فِي شَقِّ السَّمَاءِ تَرَفَعُ الْبُرْقَعُ عَنْ وَجْهِ الضِّيَاءِ
وَلَهَا نَارٌ وَنُورٌ فِي الْجَبِينِ وَسُرُورٌ أَبَدِيٌّ فِي الْعُيُونِ
تَرْتَدِي ثَوْبًا أَرَقَّ مِنْ عَمَامٍ نَسَجَتْهُ مِنْ وَرُودٍ فِي الْكِمَامِ^(٢)
مَعَ هَذَا الْحُسْنِ نَاءَتْ بِالْقِيُودِ تَصْدَعُ الشُّكُوى لَهَا قَلْبُ الْحَدِيدِ^(٣)
قَالَ : رُوحُ الْهِنْدِ مَوْلَانَا أَشْهَدَا
نُوحُهَا فِي الْقَلْبِ نَارًا أَوْقَدَا

روحُ الهِنْدِ تَنُوحُ وَتَتَحَبَّبُ

أَيُّنَ نُورِ الرُّوحِ فِي مَصْبَاحِهَا مَنْ وَعَى مَجْدًا لَهَا مِنْ أَهْلِهَا
مَنْ عَلَى سِرِّ لَهَا لَمْ يَطْلُعْ أَلِلَّحْنِ مِنْهُ مُشْجٍ نَسْتَمِيعُ
وَيَرَى الْمَاضِي بَعِينٍ جَامِدَةً يَخْرِقُ الْقَلْبَ نَارِ خَامِدَةٍ
وَقِيُودِي مِنْهُ يُعْيِي ثِقْلُهَا وَشَكَاتِي لَيْسَ يُجْدِي قَوْلُهَا

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .

(٢) الكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البرعم .

(٣) ناء بالحمل : نهَضَ به مُثْقَلًا .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » مِنْ تَقَالِيدِ لِه سِجْنًا بَنَى
عَيْشُهُ أَلَمَ حَتَّى قَوْمَنَا
طَهَّرَهُ بِالْحُزْنِ أَضْنَى عَضْرَنَا^(١)

دَعَاكَ مِنْ فَقْرٍ بِهِ عَزِيٌّ وَجِب
دَعَاكَ مِنْ جَبَرٍ وَصَبَرٍ ، الْحَذَرُ
إِنَّ هَذَا مِنْ يُدِيمُ صَبْرَهُ
يَا لِفَانِ الظُّلَمِ مُرّاً فِي التَّحْسِي
لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، وَيَحْ نَفْسِي

أَلَيْلِ الْهِنْدِ صَبَحَ قَدْ يَلُوحُ
إِنَّ قَيْدَ الْجِسْمِ عَنْهُ قَدْ خَلَعُ
تَارَةً كَانَ أَلُوفاً لِلْكُنَائِسُ
دِينُهُ مَا كَانَ غَيْرَ الْمُتَجَرِّ
إِنَّهُ عَنْ كُلِّ هَذَا لَا يَحِيدُ
وَقَدِيماً لِسَوَى هَذَا سَجَدُ
وَعَلَى الدِّينِ لَنَا يَبْدُو حَزِينَا
جَعَفَرُ الْأُمَّةِ هَذَا مَنْ قَتَلَ

جَعْفَرُ أَوْدَى وَتَحْيَا مِنْهُ رُوحُ^(٢)
وَبِجَنِّمِ آخِرِ عَثَا وَضَغُ
وَهُوَ مَنْ فِي الدِّيرِ أحياناً يُجَانِسُ^(٣)
عَتَرُ يَبْدُو كَمِثْلِ حَيْدَرِ^(٤)
طَالَمَا كَانَ لِدُنْيَانَا وَجُودُ^(٥)
وَطَناً فِي عَضْرِنَا مَا قَدْ عَبَدُ
وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِثْلُ الْمُلْحِدِينَا
مُسْلماً وَالْقَتْلُ كَانَ مَا فَعَلَ

- (١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما طَهَّرَ وما لم يَطْهَرُ .
- (٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ من مُلْكِ الملوك .
- (٣) الْجَبَرُ وَالصَّبْرُ هُنَا هُمَا الْقَدَرُ وَالْإِسْتِسْلَامُ لَهُ .
- (٤) أَوْدَى : هَلَكَ .
- (٥) الْأَلُوفُ : الْكَثِيرُ الْأَلْفَةُ . وَيُشِيرُ إِلَى وِلَايَةِ الْإِنْجِلِيزِ . وَجَانِسُهُ : كَانَ مِنْ جِنْسِهِ .
- (٦) الْمُتَجَرُّ : الْأَتْجَارُ .
- (٧) يَحِيدُ : يَعْدِلُ وَيَنْحَرِفُ .

باسم ، ما شاق يوماً خِلَّةُ يسمُ الثُّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ ؟^(١)
 الشُّقَاقُ بَشَّةٌ فِي قَوْمِهِ واللَّيِّمُ شَعْبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ
 الفساد في بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أضلُّ له أو كانَ جَعْفَرُ
 جَعْفَرٌ مِنْ رُوحِهِ رَبِّي أَغْثَا
 مِنْ مِثْلِ جَعْفَرٍ رَبِّي أَجْرُنَا

صِيحَةُ رَاكِبٍ فِي زورِقٍ بِحَرِّ الدِّمَاءِ

حائِرٌ بَيْنَ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَبَحْ نَفْسِي مِنْ وُجُودٍ كَمْ ظَلَمَ
 نَحْنُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ عَبَرْنَا وإلى بابِ الْجَحِيمِ قَدْ وَصَلْنَا^(٢)
 ما زَمَتْ هَٰذِينَ حَتَّى بِالشَّرِّزِ ما لنا كَفٌّ رَمَادٍ فِي الشَّعْرِ^(٣)
 ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ ضِغْثًا أَفْضَلُ
 فَهُوَ أَنْقى ، فِيهِ نَارِي تَشْعَلُ
 فِي السَّمَوَاتِ مَضِينَا مُضْعِدِينَا ورأينا بَغْتَةً تَلُوكَ الْمَنُونَا^(٤)
 قَالَتِ الْأَزْوَاجُ : أَسْرَارٌ لَدَيْنَا حَفِظْ رُوحَ هَٰذِمِ جِسْمٍ فِي يَدَيْنَا
 إِنَّ رُوحَ الشَّرِّ شَيْءٌ يُخَفَّرُ امضِ عَنِّي ! ما بِمَوْتٍ تَظْفَرُ^(٥)

- (١) شاق : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يسم الثعبان ولكن عن نابين يمجّان السَّم .
 (٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .
 (٣) أي لم تنثر حفنة من الرماد على رؤوسهم .
 (٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .
 (٥) يقول : إن قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحة الأرواح لَيْسَتْ فِي الْجَمَامِ

لَا يُرِيحُ الْمَوْتُ رَوْحاً لِلنَّامِ

يا رياحُ ، يا محيطاً لِلدُّمَاءِ أَنْتِ يَا غَبْرَاءُ ، يَا لَوْنَ السَّمَاءِ^(١)
يا ذُكَاءُ ثُمَّ يَا بَذْرُ الظُّلَمِ وَالْكِتَابُ وَمَعَ اللُّوْحِ الْقَلَمِ
يا إلهاً أَيْضاً يَا لَوَزْدِ غَرْبِ تَمْلُكَانِ عَالِماً مِنْ غَيْرِ حَزْبِ^(٢)
مَا لِدُنْيَانَا ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً

الْعَبْدِ حَانَ بِالْمَوْلَى لِقَاءً^(٣)

ثُمَّ دَوَّى بَغْتَةً صَوْتٌ رَهِيْبٌ شَقَّتِ الصَّدْرَ الْبَحَارُ وَالشُّهوبُ^(٤)
تِلْكَ أَوْصَالُ الْجُجُومِ فَكَّكَتْ وَالصُّخُورُ وَهِيَ تَهْوِي فَتَّتْ
وَالْجِبَالُ كَالنَّحَابِ فِي الْمُرُورِ هَذِهِ الدُّنْيَا انْتَهَتْ مِنْ غَيْرِ صُورِ
وَالْبُرُوقُ أَضْلَهَا نَارُ الْخَفَاءِ عُشَّهَا تَطْلُبُ فِي بَحْرِ الدُّمَاءِ
جَاشَتْ الْأَمْوَاجُ وَهِيَ تَسْتَبِقُ فِي الدُّمَاءِ الطُّورُ كَالسَّهْلِ الْغَرِقِ^(٥)
لِلنُّجُومِ مَا بَدَأَ أَوْ غَابَ عَنْهَا
لَمْ يُثِرْ أَدْنَى اهْتِمَامٍ كَانَ مِنْهَا

(١) الغبراء : الأرض . يا لون السماء : أي : أيتها السماء الزرقاء .

(٢) في الأصل أيتها الأصنام البيض وبالوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع .
ويقول : إِنَّ هَؤُلَاءِ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْعَالَمَ بِكُلِّ يَمِينٍ وَهَيْئَةٍ .

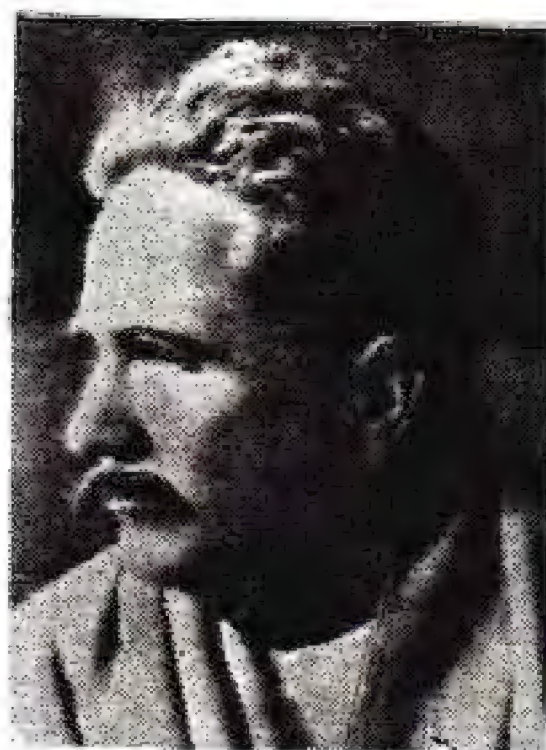
(٣) المولى : السيد .

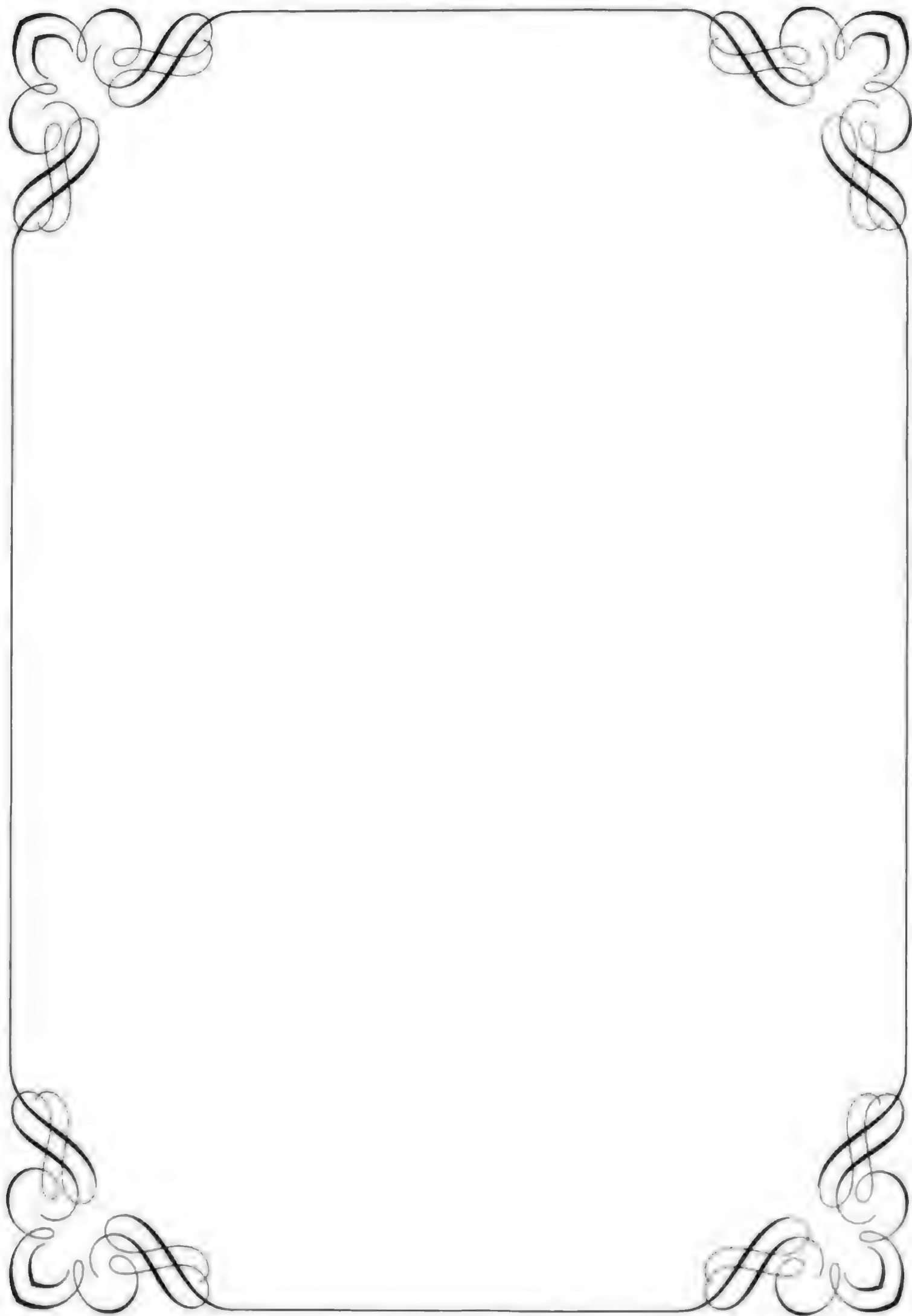
(٤) الشُّهوب : السهول .

(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تسابق .

القسم السابع

مَا وَرَاءَ الْأَفْلَاقِ





منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه^(١)

للفناء والبقاء مُعْتَرِكٌ لِمَنْ يَدْرِي الْمَرْءُ سِرًّا لِلْقَلْبِ^(٢)
 للحياة يَحْمِلُ الْمَوْتُ الرُّسَالَةَ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَعَى لِلْمَوْتِ حَالَةٌ !
 الرِّيحُ أَشْبَهَتْ هَذِي الْحَيَاةَ مَا اسْتَقَرَّتْ ، كُلُّ مَا تَبْغِي الثَّبَاتُ !
 كَمْ دُنَى لِي نَاطِرَانِ شَاهِدَا ثُمَّ حَذُّ الْكَائِنَاتِ لِي بَدَا
 كُلُّ دُنْيَا كَانَ فِيهَا نَوْرُهَا قَطُّ مَا إِنَّ أَشْبَهَتْهَا غَيْرُهَا^(٣)
 إِنَّ فِيهَا الْوَقْتَ يَجْرِي كَالْبَحَارِ فَهِيَ تَجْرِي أَوْ لَهَا بَعْضُ الْقَرَارِ
 عَامُهَا شَهْرٌ وَحَتَّى بُرْهَةٌ قَلْبُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا كَثْرَةٌ^(٤)
 عَقَلْنَا فِي عَالَمٍ كَانَ الذِّكْيَا
 فِي سِوَاهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْغِيَا
 ثَغْرُهُ الْقَاصِي بِهِ مَنْ قَدْ ظَهَرَ صَوْتُهُ الْمَحْزُونُ بِالْحَزَنِ انْفَطَرَ
 وَلَهُ الْعَيْنُ كَعَيْنٍ لِلْعُقَابِ كَاسَفَ الْوَجْهِ لِأَهْوَالِ الْمُصَابِ^(٥)
 وَالتَّبَارِيحُ تَزِيدُ فِي الْجَنَانِ يَبْتَ شِعْرٍ مَا طَوَاهُ عَنْ لِسَانِ^(٦)

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعَدُّ بِحَقٍّ مِنْ أَهَمِّ قَادَةِ الْفِكْرِ الَّذِينَ كَانَ
 لتفكيرهم أثرٌ في العصر الحديث . وأكثر كتبه سيرورة كتاب بعنوان : « هكذا قال
 زرادشت » وإن كان أشدَّ ما كتب غموضاً . وقد تناول المسيحية بالنقد ، واختلط عقله
 قبل وفاته عام ١٩٠٠ م .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد أن الفناء والبقاء في حروب إلى الأبد .
 (٣) في الأصل أن كلَّ عالمٍ له قَمَرُهُ وَثَرِيَّاهُ ، وهو مختلفٌ عن غيره .
 (٤) أي أن القلة في عالم كثرة في غيره . وهذا مطرّد في كلِّ تلك العوالم .
 (٥) كاسفَ الوجهِ : عابسٌ من هول الشدائد .
 (٦) تياريح الشوق : توهجه . والجنان : القلب . ولم يطو بيت شعر عن لسانه : لا يكفـ =

« أَجْبَرِيلُ أَمَ اللَّهُ وَحُورُ الْخُلْدِ ؟ تَنْسَاقُ !

تَرَابُ أَنْتَ فِي نَارِ لَوْحٍ وَهِيَ تَشْتَاقُ » (١)

قُلْتُ لِلرُّومِيِّ ذَا الْمَجْنُونُ مَنْ ؟ قَالَ : فِي الْأَلْمَانِ مَشْهُورُ الرُّكْنِ (٢)
كَانَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ مَوْضِعُهُ وَقَدِيمُ اللَّحْنِ مِنْهُ نَشْمَعُهُ
إِنَّهُ الْحَلَّاجُ لَكِنْ أَيْنَ عُودُهُ ؟ قَالَ قَوْلًا وَسِوَاهُ لَا يُعِيدُهُ (٣)
وَجَرِيءُ الْقَوْلِ بِرَأَقِ الْفِكَزِ قَوْلُهُ السِّيفُ الْفَرَنْجِ قَدْ شَطَرُ
الْجَلِيسُ لَيْسَ يَذْهَبُ جَذْبَهُ تَحْسَبُ الْمَجْذُوبَ حُنَّ نَظَرَتُهُ
مِنْ خُمَارِ الْعِشْقِ مَعْدُومِ النَّصِيبِ نَبْضُهُ قَدْ أَوْدَعُوا كَفَّ الطَّيِّبِ (٤)
عِنْدَ أَهْلِ الطَّبِّ خُتْلٌ مَا وَجَدَ وَيَلُ مَجْذُوبٍ لِافَرَنْجِ وُلْدِ (٥)
ابْنُ سِينَا فِي كَلَامٍ قَالَ أَفْصَدَ أَوْ بِحَبِّ مَنْ شَكَا الْأَوْجَاعَ أَرْقَدَ
كَانَ حَلَّاجًا بِأَرْضِ كَالْغَرِيبِ

فَرَّ مِنْ قَتْلِ الْفَقِيهِ لَا الطَّيِّبِ !

الطَّرِيقُ فِي الْفَرَنْجِ مَنْ عَرَفَ ؟ فَعَلَى قِشَارَةِ دُومًا عَرَفَ (٦)
الطَّرِيقُ لَيْسَ فِيهِ مَنْ دَلِيلُ ضَلَّ فِي سِيرٍ وَفِي سِيرٍ وَيِيلُ (٧)
كَانَ مَالًا لَمْ يَجِدْ مَنْ عَدَّهُ يُنْجِزُ الْأَعْمَالُ لَكِنْ وَخَدَّهُ
عَاشِقٌ لَكِنْ طَوَّئَهُ زَفَرَتُهُ سَالِكٌ قَدْ تَيَّهَتْهُ خُطْوَتُهُ (٨)

عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .

(٢) الرُّكْنُ : الفطنة والذكاء .

(٣) العود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولاً لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .

(٤) الخمار : الصداع من شدة الشكر .

(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .

(٦) دوماً : دائماً .

(٧) السَّير الويل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .

(٨) تيهه : أضله ، وضيعه .

حَطَمَ الكَاسَاتِ ذِيَاكَ الثَّمَلِ
وَرَأَى لَكِنْ بَعَيْنِ الظَّاهِرِ
وَانْطِلَاقاً شَاءَ مِنْ طِينِ الْبَدَنِ
وَمَقَامَ لَالِهِ مَا يَرِيدُ
إِنَّ تِلْكَ الذَّاتِ شَرَحَ لِلْحَيَاةِ
ظِلٌّ فِي « لَا » وَخَذَهَا هَذَا الْعَجِيبُ
عَنْ تَجَلُّ مَا لَدِيهِ مِنْ خَبَرِ
طَلَعَةُ الْإِنْسَانِ رَاقَتْ مِنْهُ عَيْنَا
أَوْ عَنِ النَّاسِ تَرَاهِ رَاغِبَا
لَيْتَهُ مِنْ عَاشٍ فِي عَضْرِ الْأَحْمَدِ
عَقْلُهُ لِلذَّاتِ قَالَ : اسْتَمِرْ

وَعَنِ اللَّهِ وَذَاتِ مُنْفَصِلِ
الرَّقِيقِ فِي الْعَنِيفِ الْقَاهِرِ
وَخُرُوجِ الْحَبِّ فِي قَلْبِ قَطَنِ
وَعَنِ الْعَقْلِ الْبَعِيدِ وَالْبَعِيدِ
« لَا » وَ « إِلَّا » مِنْ مَقَامَاتِ لِذَاتِ
عَنْ مَقَامِ « عَبْدِهِ » وَهُوَ الْغَرِيبُ
كثَمَارٍ أَبْعَدُوهَا عَنْ شَجَرِ !
ثُمَّ صَاحَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ أَيْنَا
وَكَمْوَسِي لِلْقَاءِ طَالِبَا
لِيَعِيشَ فِي الْحُبُورِ وَهُوَ سَرْمَدٌ^(١)
أَنْتَ فِي خَيْرِ طَرِيقٍ ، فَلْتَسِرْ

وَتَقْدَمُ قَدْ دَنَا هَذَا الْمَقَامُ

طَالَ فِيهِ ، وَبِلا حَرْفٍ ، كَلَامُ

الرَّحِيلُ إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ

انْطَلَقْتُ مِنْ حُدُودِ الْكَائِنَاتِ
لَيْسَ فِيهِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارِ
عِنْدَهُ قِنْدِيلٌ إِذْرَاكِي خَمَدُ

عَالِماً وَاقِفْتُ يَخْلُو مِنْ جِهَاتِ
لَا وَلَا لَيْلٌ أَتَى بَعْدَ النَّهَارِ
هَيْبَةً مِنْهُ كَلَامِي قَدْ جَمَدُ

بِلِسَانِ الطِّينِ لِلرُّوحِ الْمَقَالُ ؟!

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السرهندي المتوفى عام ١٥٦٤ م ، ذلك الصوفي الهندي الذي عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف الثاني ، وكان ضد غلاة المتصوفة .
والحبور : السرور . والسرمد : الدائم .

عالمًا للروح خُصَّ بالنظر
ما الفؤادُ ؟ عالمٌ لا لونَ له
ساكنٌ والسَّيرُ منه في ازدياد
حارَ هذا العقلُ في تلكَ الحقيقة
والخيالُ غيْرُه عَنْهُ اخْتَلَفَ
مَنْ يَقُولُ إِنَّ هَذَا فِي السَّمَاءِ
أَسْرُورٌ مَنْ رَأَى يَوْمًا حَبِيبًا
أَيَقْظُ الْعَيْنَيْنِ أَوْ خُذَ بِالْكَرَى
فَضَّلَ الدُّنْيَا عَلَى دُنْيَا الْفُؤَادِ

بِالْقِيَاسِ حِرْثٌ فِي شَرْحِ الْمُرَادِ

هَذِهِ دُنْيَاكَ فِيهَا غَيْرُهَا
وَتَدْوِمُ ، وَبِهَا دَامَ التَّغْيِيرُ
وَلَهَا دَوْمًا جَدِيدٌ مِنْ كَمَالٍ
لَا تُرَى فِيهَا الشُّمُوسُ وَالْبُدُورُ
كُلُّ مَا فِي الْغَيْبِ يَبْدُو فِي سُقُورِ
بِلِسَانِي هَلْ أَصِيبُ وَصَفَهَا
الْجِبَالُ أَنْبَتُ حُفَرَ الرُّهُورِ
« كُنْ فَكَانَ » غَيْرُ تِلْكَ نَجْرُهَا^(٤)
لَا يَرَاهَا الْوَهْمُ ، إِنَّ الْعَيْنَ تَنْظُرُ
كُلَّ يَوْمٍ كَانَ لَوْنٌ مِنْ جَمَالِ^(٥)
تَسْعَةُ الْأَفْلَاكِ فِيهَا مَا يَدُورُ
قَبْلَ أَنْ يَخْفِقَ قَلْبٌ بِالشُّعُورِ
يَا لَهَا نَوْرُ الْحَيَاةِ يَا لَهَا^(٦)
فِي الرِّيَاضِ النَّهْرُ يَجْرِي بِالْخَرِيرِ

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفص الطير .

(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أَنَّ سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشمُّ الرِّيح التي تأتي من محلته .

(٤) النجر : الأصل .

(٥) لون : نوع . وكان هنا تامة .

(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

الْبَرَاعِيمُ زَهَتْ أَلْوَانُهَا نَفْخَةُ الْأَبْرَارِ مِنْهَا كَوْنُهَا^(١)
 اللَّجَيْنُ الْمَاءُ وَالْأَنَامُ عَنَبُ وَالْقَبَابُ لِلْقُصُورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ^(٢)
 الْخِيَامِ مِنْ يَوَاقِيَتٍ وَتَبَرِ وَجِبِينَ الْغَيْدِ بِالْمِرَاةِ يُزْرِي
 قَالَ لِي « الرُّومِي » أَسِيرٌ لِلْقِيَاسِ ؟ عَنْكَ دَغْ كُلِّ اعْتِبَارٍ لِلْحَوَاسِ
 بِالتَّجَلِّي الْخَيْرُ كَانَ وَالشُّرُور جَنَّةٌ كَانَتْ كَمَا كَانَ السَّوِيرُ
 الْقُصُورُ كَالرَّبِيعِ فِي النَّظَرِ أَصْلُهَا الْأَعْمَالُ لَا ذَاكَ الْحَجَرُ !
 مَا تُسَمِّيهِ بِحُورٍ أَوْ يَكُونُ لِسُرُورٍ وَلِجَذْبٍ كَانَ مَظْهَرُ
 الْحَيَاةُ ، هَاهُنَا هَذَا النَّظَرُ
 وَسِوَاهُ وَسِوَى قَوْلٍ فَذَرُ

قَصْرُ شَرَفِ النِّسَاءِ^(٣)

عُشُّ يَاقُوتٍ أَرَاهُ فِي عُلاهِ وَمِنْ الشَّمْسِ الْخِرَاجُ قَدْ جَبَاهُ
 ذَاكَ قَصْرٌ ذُو قِبَابٍ عَالِيَاتِ ضَمَّ حُوراً فِي ثِيَابِ الْمُخْرِمَاتِ
 رَغْبَةُ الْعِلْمِ وَهَبَتْ سَالِكَا مَنْ لِهَذَا الْقَصْرِ كَانَ مَالِكَا^(٤)

- (١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إِنَّ الْأَبْرَارَ نَفَخُوا نَفْخَةً أَوْجَدَتْهَا .
 (٢) اللجين : الفضة . والأنام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .
 (٣) شرفُ النساء : حفيدَةُ أحدِ حكامِ البنجابِ على عهدِ الإمبراطورِ المغوليِ بهادرخان . ويقال : إِنَّهَا أَقَامَتْ فِي قَصْرِهَا مَنْصَةً لَتَتْلُو الْقُرْآنَ عَلَيْهَا كُلَّ صَبَاحٍ وَإِلَى جَانِبِهَا سَيْفٌ . وَكَانَ الْمَصْحَفُ وَالسَّيْفُ عَلَى تِلْكَ الْمَنْصَةِ دَائِمًا . وَأَوْصَتْ بِدَفْنِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا مَعَ السَّيْفِ وَالْمَصْحَفِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .
 (٤) السَّالِكُ : الْمُرِيدُ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالتَّصَوُّفِ .

قال هـ هذي ، عَشَّهَا الْبَادِي هَنَالِك
 جَوْهَرٌ ، مَا إِنْ حَوَاهُ بَحْرُنَا
 أَرْضُ لَاهُورَ بِهَا أَضْحَتْ سَمَاءُ
 وَلَمَّا بِالذُّوقِ وَالشُّوقِ الشُّعُورُ
 وَهِيَ نُورُ الْأَهْلِ فِي عَبْدِ الصَّمَدِ
 تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، نَفْسًا طَهَّرَتْ
 تَحْمِلُ الْمُصْحَفَ وَالسَّيْفَ الْحُسَامَا
 خَلْوَةٌ سَيْفٌ وَقُرْآنُ الصَّلَاةِ
 آخِرُ الْأَنْفَاسِ وَهِيَ تُخْتَضِرُ
 ثُمَّ قَالَتْ إِنْ عَرَفْتِ الْآنَ سِرِّي
 قُوَّتَانِ بِهِمَا أَيْدُ الثَّبَاتِ
 فِي حَيَاتِي ، وَجَمِيعاً نُقْبِرُ
 قَبْلَ مَوْتِي ذَاكَ مِنْكَ مَطْلَبِي
 كُلُّ هَذَا مِنْ كَلَامِي فَلْتَعِي
 وَتَغْنَى طَيْرُهُ بَيْنَ الْمَلَائِكِ^(١)
 وَفَنَاءٌ لِمِ تِلْذُّهَا أَقْنَا
 سِرُّهَا يَخْفَى عَلَى الدُّنْيَا خَفَاءُ
 وَلَعَيْنِ حَاكِمِ الْبَنَجَابِ نُورُ
 فَقَرُّهَا ذِكْرِي سَتَبْقَى لِلْأَبَدِ
 بِرَهَةٍ فِي تَرْكِهِ مَا فَكَّرَتْ
 إِنَّهَا السُّكْرَى وَمَا ذَاقَتْ مُدَامَا^(٢)
 حَبِّذَا عُمُرُ تَقْضَى فِي الثُّقَاةِ^(٣)
 أَمَّهَا خَصَّتْ بِمُلْتَمَاعِ النَّظَرِ
 شَاهِدِي مَا فِي يَدِي أَوْ مَا يَخْضُرِي^(٤)
 مِخُوراً كَانَا لِدَوْمِ الْكَائِنَاتِ^(٥)
 لَيْسَ لِي يَا أُمُّ شَيْءٌ آخَرُ
 مُصْحَفِي وَالسَّيْفُ مَنِّي قَرِيبِي
 لَا تَزِينِي فِي الثَّرَابِ مَضْجَعِي^(٦)
 الْكِتَابُ وَالْحُسَامُ حَسْبُنَا
 بِهِمَا يَزْدَانُ حَقّاً قَبْرُنَا
 وَقُرُوناً تَحْتَ ثَرٍ لِلْقَبَابِ
 قَدْ تَحَلَّى بِالْحُسَامِ وَالْكِتَابِ^(٧)

(١) أَي تَغْنَى الطَّيْرُ الَّذِي حَطَّ عَلَى سَطْحِ هَذَا الْقَصْرِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ .

(٢) السَّيْفُ الْحُسَامُ : الْقَاطِعُ .

(٣) الثُّقَاةُ : التَّقْوَى .

(٤) الْمَصْحَفُ فِي يَدِهَا ، وَالسَّيْفُ مَعْلَقٌ بِخَصْرِهَا .

(٥) الْأَيْدِ : الْقُوَّةُ .

(٦) وَعَى الْكَلَامُ : حَفِظْهُ وَتَذَكَّرْهُ . وَهِيَ تَرْغِبُ إِلَى أُمِّهَا أَلَّا تَقِيمَ لَهَا قَبْراً يَزْدَانُ بِالْقَبَابِ وَالْقَنَادِيلِ .

(٧) الثَّرَابُ : الدُّهَبُ .

ولنا المَرْقَدُ في دُنْيَا الشَّتَاتِ عَلَّمَ الْمُؤْمِنَ مَعْنَى لِلْحَيَاةِ^(١)
نَفْسَهُ الْمُسْلِمَ حَقًّا قَدْ ظَلَمَ فَالْبَسَاطُ مَا طَوَى دَهْرٌ وَضَمَ
وهو في غيرِ الإلهِ فَكَّرَا أَصْبَحَ الثَّغْلَبُ ، كَانَ الْقَسُورَا^(٢)
ولهيبُ القلبِ فيه مَا انْدَلَعَ أَنْتَ فِي الْبَنَجَابِ تَدْرِي مَا وَقَعَ ؟
مِنْهُ سَيْفٌ وَكِتَابٌ مَا حُمِلَ
ولذا الْإِسْلَامُ فِيهِ قَدْ قُتِلَ^(٣)

زِيَارَةُ الْأَمِيرِ الْكَبِيرِ سَيِّدِ عَلِيٍّ هَمْدَانِي وَمُلَّا طَاهِرٍ غَنِي كَشْمِيرِي^(٤)

حَرَّقَ الْأَضْلَاعَ لِلزُّومِيِّ قَوْلُ آه يَا بَنَجَابُ ! يَا أَرْضاً تُجَلُّ
مِثْلَ خِلَائِنِي اضْطَرَبْتُ فِي الْجَنَانِ وَمِنْ الْهَمِّ ذَكَرْتُ مَا عَرَانِي^(٥)
وَإِذَا صَوْتُ لَأَلَامٍ وَخُزْنٍ مِنْ ضِفَافِ الْكُوْثَرِ الصَّافِي بِأَذْنِي
« وَأَرَدْتُ حَرَّقَ نَفْسِي وَلِذَا جَمَعْتُ قَشًّا

(١) الشَّتَات : التفرق .

(٢) الْقَسُورُ : الأسد .

(٣) يقول : إِنَّ طَائِفَةَ الشَّيْخِ هِيَ الَّتِي أَبْعَدَتِ الْقُرْآنَ وَالسَّيْفَ عَنِ الْبَنَجَابِ . وَفِي عَقِيدَةِ الشَّيْخِ : أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ جَدِيدٌ بِالْإِجْلَالِ وَالتَّقْدِيرِ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ ، وَمُرَّتِ الْأَيَّامُ وَحَارَبَ الشَّيْخُ الْمُسْلِمِينَ .

(٤) الْأَمِيرُ سَيِّدُ عَلِيٍّ هَمْدَانِي صُوفِيٌّ مَرْمُوقُ الْمَنْزِلَةِ عَالِي الْقَدْرِ . كَانَ صَاحِبَ مَشُورَةِ أَمِيرِ كَشْمِيرِ ، وَلَدَ فِي هَمْدَانَ ، وَعَاشَ طَوِيلًا ، وَأَفَادَ النَّاسَ بِعِلْمِهِ فِي كَشْمِيرِ ، وَتَوَفَّى عَامَ ١٣٨٥ م . وَمُلَّا طَاهِرُ غَنِي كَشْمِيرِي ، شَاعِرٌ مِنْ أَهْلِ كَشْمِيرِ ، كَانَتْ وَفَاتُهُ عَامَ ١٦٦٩ م . كَانَ وَاسِعَ الْخَيَالِ مِيَالًا فِي شِعْرِهِ إِلَى التَّمَثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَعَلَى فِقْرِهِ وَرَقَّةٌ حَالَهُ عُرِفَ بِغَنَى النَّفْسِ ، فَكَانَ اسْمًا عَلَى مَعْنَى .

(٥) عَرَاه : أَصَابَهُ .

ويظنُّ الوردُ أنَّني في الرياضِ رُمْتُ عُشًّا^(١) قالَ لي الروميُّ « ما يأتي انظُرْتَهُ
يا بُنَيَّ ما مَضَى لا تَذْكُرْتَهُ هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعرٍ
الفقيرُ ، وَغَنَاهُ مِنْهُ ظَاهِرُ إِنَّهُ النَّشْوَانُ غَنَّى فِي دَوامِ
عِنْدَ هَذَا السَّيِّدِ الْعَالِي الْمَقَامِ سَيِّدُ السَّادَاتِ مِنْ سَادِ الْعَجَمِ
كُفُّهُ مِغْمَارُ تَقْدِيرِ الْعَجَمِ^(٢) الْغَزَالِي دَرَسَهُ لَمَّا تَلَقَّى
اسْتَمَدَّ إِلَهُ فِكْرًا وَحَقًّا فِي بِلَادٍ وَهِيَ لِلْخُلْدِ النَّظِيرِ
مُرْشِدٌ لِلْكُلِّ بَلْ نِعَمَ الْمُشِيرِ فِي الْبِلَادِ ذَلِكَ الْبَحْرُ الْمَعِينُ
فَضْلُهُ عِلْمٌ وَتَهْذِيبٌ وَدِينُ^(٣) إِنَّهُ مِنْ شَادَ إِيْرَانَ الصَّغِيرَةِ
بِصِفَاتِ الْخَيْرِ وَالْحُسْنِ الْكَثِيرَةِ عَقْدَةً بِالْعَيْنِ حَلَّ كَالْحَكِيمِ
قُمْ تَلَقَّ مَا لَدِيهِ فِي الصَّمِيمِ^(٤)

في حضرة أميرِ همدان

زنده رود

أَفْهَمَنِي سِرَّ رَبِّي ، أَنْتَ تَصْدُقُ يَطْلُبُ الطَّاعَةَ وَالشَّيْطَانَ يَخْلُقُ !
كُلُّ شَرٍّ فِي الْوُجُودِ زَيْنُهُ وَابْتَغِي مِمَّا عَمِلْتَ أَحْسَنَهُ !^(٥)
ذَلِكَ سِحْرٌ مِنْهُ لِي شَكٌّ يَخَامِرُ مَا ابْتِهَاجِي صَاحِبِي بِشَسِّ الْمُقَامِرِ

(١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .

(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إِنَّهُ قَرَّرَ مَصِيرَ الْفَرَسِ .

(٣) مَعْنَى الْمَاءِ فَهُوَ مَعِينٌ : أَي جَرَى .

(٤) مَا لَدِيهِ : أَي مَا لَدِيهِ مِنْ فَضْلِ وَصِفَاتٍ حَمِيدَةٍ .

(٥) أَي : أَرَادَ مِنِّي أَلَا أَعْمَلُ إِلَّا خَيْرًا .

أَطْرِيقُ لَيْتَ شَعْرِي مَا سَلَكَ !
 كَانَ عَضّاً لِلْبَنَانِ مِنْ نَدَمٍ
 يَخْلُقُ النَّفْعَ لَدَيْهِ مِنْ ضَرَرٍ
 هَزَمَهُ الشَّيْطَانُ فِي حَرْبِ جَمَالٍ
 كُنْ حُسَاماً وَلْيَكُنْ نِعَمَ الْمَسْنُ
 لَا تَكُنْ فِي الْعَالَمِينَ ذَا الشَّقِيَّا

مِنْ تَرَابٍ حُفْنَةً ، وَهُوَ الْفَلَكُ
 مَا عَمِلْنَا ، مَا ذَكَّرْنَا ، وَالْأَلَمُ
 كُلُّ مَنْ يَدْرِي عَنِ الذَّاتِ الْخَبِيرُ
 حُبُّ إِنْسَانٍ لَشَيْطَانٍ وَبَّالُ
 وَعَلَى الشَّيْطَانِ أَنْتَ فَاحْمِلْنِ
 فَلْتَجَاهِرْ وَلْتَجَالِدْ ، كُنْ وَحِيًّا

زنده رود

لَيَعِيشَ الشَّعْبُ شَعْباً يَقْتُلُ^(١)
 وَيُسْرِ الْقَلْبُ أَضْنَاهُ الْكَمَدُ^(٢)
 وَهُوَ فِي الْآفَاقِ مَعْرُوفُ الْخَبَرِ
 نَاحِ نَابِي لَلْأَلِيمِ مِنْ أَسَاهِ
 كَانَ فِي أَوْطَانِهِ هَذَا الْغَرِيبِ
 وَشِبَاكَ الْغَيْرِ أَرْضِي نَهْرُهُ
 أَفْسَدَ الْأَعْمَالَ شَأْنُ كُلِّ غَافِلٍ
 وَلِنَارٍ فِي الْعُرُوقِ كَانَ خَمْدُ^(٣)
 فِي التُّرَابِ دَائِماً أَدْلَى الْجَبِينَا^(٤)

كُلُّ إِنْسَانٍ أَخَاهُ يَأْكُلُ
 تَتَلَطَّى الرُّوحُ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ
 شَعْبُهُ بِالْعَقْلِ وَالْحُسْنِ اشْتَهَرَ
 دُخِرْجَتْ كَاسٌ وَلَكِنْ فِي دِمَاهِ
 مُنْذُ أَنْ ضَيَّعَ مِنْ ذَاتِ نَصِييَا
 ظَلَّ فِي أَيْدِي سِوَاهِ أَجْبَرُهُ
 وَمَضَتْ فِي سَيْرِهَا كُلُّ الْقَوَافِلِ
 مَاتَتِ الْجَذْبَةُ فِيهِ وَهُوَ عَبْدُ
 لَا تَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ الْمَهِينَا

إِنَّهُ فِيمَا مَضَى خَاضَ الْحُرُوبَا

وَتَحَدَّى وَهُوَ ذُو الْبَأْسِ الْخُطُوبَا

وَكُفُوفُ النَّارِ تَبْدُو فِي الشَّجَرِ

قَمَّةً لِلثَّلَجِ فَاغْمُرْ بِالنُّظَرِ

(١) فِي الْأَصْلِ أَنَّ الشَّعْبَ يَرْعَى شَعْباً غَيْرَهُ كَمَا تَرْعَى الْمَاشِيَةُ الْعُشْبَ فِي الْمَرْعَى لَتَعِيشَ .

(٢) يَتَلَطَّى : يَشْتَعِلُ . الْكَمَدُ : أَشَدُّ الْحُزْنِ .

(٣) الْخَمْدُ : الْخُمُودُ .

(٤) الْمَهِينُ : الْحَقِيرُ .

اليواقيتُ حصاهُ في الربيع والثرابُ ماجَ باللَّونِ البديع
والسَّحابُ حولَ أجبالٍ يَدُورُ مثلَ قُطْنٍ عِنْدَ نَدَافٍ يَطِيرُ^(١)
ذاكَ قرصُ الشَّمسِ في بحرٍ غَرَبَ قد رَأَيْتُ اللهَ عني ما اخْتَجَبَ^(٢)
في «نشاطٍ» سِرْتُ في ركبِ النَّسيمِ وتلوتُ شِعْرَ «مولانا» العَظيمِ^(٣)
قالَ طَيْرٌ كانَ في أعلى الغصونِ ما الرِّبيعُ غَيْرَ ذا الشَّيءِ المَهِينِ
نَزَجَسُ يَزْكُو وزَهَرُ أحمَرُ بالنَّسيمِ شُقَّ ثوبٌ أخضَرُ^(٤)
مِن قديمٍ في الجبالِ قد ظَهَرَ نَزَجَسُ في طُهرِهِ فاقَ القَمَرُ
كم رأينا من ورودٍ أُنْعَتِ
كشهابِ أرضنا ما أثْبَتِ^(٥)

بالشَّكَاةِ ناحَ غُرَيْدُ السَّحَرِ فأوارُ الوجودِ في رُوحِي استَعَرُ
ورأتُ عَيْنايَ مجنونَ الطَّربِ كلُّ ما جَمَعْتُ مِنْ صَبْرِي سَلَبُ

امضِ عَنَّا ، دَعَاكَ مِنْ نوحِ ثَمَلٍ
عن طَلَمِ اللَّونِ في الأزهارِ مِلْ
قلتُ إِنَّ الطَّلَّ في أوراقٍ وَزَدَ
مَنْ بَكَى في الشَّطِّ غُرّاً أو خَبَلَ^(٦)

- (١) الأجبال : الجبال . والنَّداف : ضارب القطن بالمندف ليرق .
- (٢) يقول : إنه شاهد قدرة الله في روعة الطبيعة .
- (٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أنشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمته على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إِنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نارُ العِشقِ الإلهي .
- (٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكمّام الزهر .
- (٥) أُنعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤ هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذروة التقدّم في تاريخها .
- (٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أَيْنَ ضِغْثِ الرِّيشِ مِنْ تِلْكَ الْأَغْنَى
 عَيْنِ رُوحٍ لَغْنِيٍّ تَنْهَمِلُ^(١)
 إِنَّ مَرَزَتَ بَجْنِيفٍ يَا صَبَا
 يَلْغِي الْعُصْبَةَ عُنِّي مَا نُقِلُ^(٢)
 يَبْعَ فَلَاحُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ بِيَعَتِ
 وَأَنَاسٌ ، وَلَهُمْ سِغَرٌ مُذِلٌ^(٣)

أمير همدان

<p>الْثَرَابُ جِسْمُنَا وَالرُّوحُ جَوْهَرُ مِنْ تَرَابٍ إِنَّهُ لَا شَكَّ أَطْهَرُ ذَلِكَ الْجِزْءُ بِلَا رَيْبٍ أَضْعَفَا عَادَتِ الرُّوحُ إِلَيْكَ وَهِيَ حَيْرَى فَهِيَ فِي قَيْدٍ وَمِنْ قَيْدٍ تَطِيرُ ! إِنَّ بَذَلَتِ الرُّوحُ نَوْرًا أَشْرَقَتْ مَا هِيَ الرُّوحُ وَمَا عَنْهَا التَّخَلِّي وَبِهَا الطُّورُ الْعَظِيمُ كَيْفَ يُضْهَرُ فِي اللَّيَالِي السُّودِ لَاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبِ وَالْوُجُودُ ، كَانَ لِلذَّاتِ الْعَطَاءُ^(٤) سِجْنَهُ أَخْلَاهُ مِمَّا قَدْ حَوَاهُ</p>	<p>اسْمَعَنَّ الْقَوْلَ لَا يُنْسَى وَيُذَكَّرُ وَلَاجِلِ الرُّوحِ جِسْمٍ يُضْهَرُ يَا بَنِي ، مِنْهُ إِنْ جِزْءًا قَطَعْنَا إِنْ بَذَلَتِ الرُّوحُ لَكُنْ وَهِيَ سَكْرَى قُلْ أَجْنَبِي أَيْنَ لِلرُّوحِ النُّظِيرُ إِنْ حَفِظْتَ الرُّوحَ مَيْتًا أَضْبَحْتَ مَا هِيَ الرُّوحُ وَفِي سُكْرِ التَّجَلِّي وَلِرَبِّي قُلْ أَجْنَبِي كَيْفَ تُنْشَرُ بَتَجَلِّي السُّكْرِ أَنْتَ الذَّاتُ تَطْلُبُ إِنْ فَقَدْتَ الذَّاتَ حَقَّقْتَ الْفَنَاءَ مَنْ رَأَى الذَّاتَ ، وَشَيْئًا مَا رَأَى</p>
---	---

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أن روح غني في حداد على أملها .

(٢) العصبة : هي عصابة الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .

(٣) أردنا بالسَّغَرِ المذل : السَّغَرِ الرخيص للغاية .

(٤) الوجود هنا هو وجود الذات .

ذَاكَ نَشْوَانُ التَّجَلِّي ، وَهِيَ مَطْلَبٌ لَسَعَةً مِنْ شَهْدِهِ أَخْلَى وَأَطْيَبَ !
 وَتَرَى الرُّوحَ رِيحاً نَظَرْتُهُ سَجُنُهُ سِجْنٌ تَهُولُ رَجْفَتُهُ ^(١)
 يَرْفَعُ الْفَاسَ لِتَخْطِئِمِ الصَّفَاةَ لِنَصِيبٍ قَدْ يَنَالُ مِنْ حَيَاةٍ ^(٢)
 تَرِكَ الرُّوحَ لِتَعْدُو خَلْقَهُ
 وَيَغَيِّرَ التَّرِكَ كَانَتْ ضَيْفَهُ

زنده رود

أَنْتَ خَيْرٌ لِي شَرّاً شَرَحْتَا يَا حَكِيمُ غَيْرَ هَذَا لَوْ ذَكَّرْنَا ^(٣)
 وَإِلَى لُبِّ الْمَعَانِي قَدْ هَدَيْتَ كُلَّ أَسْرَارِ الْمُلُوكِ كَمْ وَعَيْتَ
 فَقَرَاءٌ ، حَاكِمٌ يَبْغِي الْخَرَاجَا قُلْ لِمَاذَا مَجَّدُوا عَرْشاً وَتَاجَا ^(٤)

أمير همدان

أَضِلُّ هَذَا الْمُلْكَ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ ؟ كَانَ إِرْضَاءً لِشَغْبٍ أَوْ لِحَرْبٍ
 وَأَقُولُ لَكَ يَا عَالِي الْمَقَامِ لِسَوِي اثْنَيْنِ الْخَرَاجُ كَالْحَرَامِ ^(٥)
 لِأُولِي الْأَمْرِ وَ« مِنْكُمْ » شَانُهُمْ فِي الْكِتَابِ قَوْلُهُ بَرَهَانُهُمْ ^(٦)

(١) يشبه الروح بالريح على أن الريح لا ثمن لها .

(٢) الصفاة : الحجر الضخم الصلد .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) أي : نحن فقراء .

(٥) أي : أن أداء الخراج حرام إلا إلى اثنين .

(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

[النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أَوْ تَجِيدُ مِثْلَ رِيحِ عَاتِيَةٍ
بِالْقِتَالِ يَفْتَحُ الْبُلْدَانَ فَتَحًا
فَارِسٌ وَالْهِنْدُ مِمَّا يُشْتَرَى
جَامُ جَمَشِيدِ الْعَجِيبِ وَالتَّقْيِيسِ
الرُّجَاجُ لَكَ مَالٌ إِنْ شَرَيْتَهُ
جَادَ فِي الْحَرْبِ بِنَفْسٍ غَالِيَةٍ^(١)
وَهِيَ تَمَسُّ مُلْكَهُ إِنْ شَاءَ صَلَحًا
لَا يُنَالُ الْمُلْكُ مِنْ هَذَا الْوَرَى^(٢)
أَيُّبَاعٌ مِثْلَمَا يَبِيعُ كَوْوسُ^(٣)
أَيُّ نَفْعٍ لِلرُّجَاجِ إِنْ كَسَرْتَهُ

غني

مَنْ أَفَادَ الْهِنْدَ تَخْطِيمَ الْقِيُودِ
عَقْلَاءُ يُنْسُبُونَ لِلْبَرَاهِمِ
مَنْ أُولَى الْعِزْفَانِ أَصْحَابُ النَّظَرِ
أَرْضُنَا كِشْمِيرٌ مِنْهَا أَضْلُهُمْ
إِنْ حَسِبْتَ الْأَرْضَ تَخْلُو مِنْ شَرِّ
أَصْلُ تِلْكَ النَّارِ أَيْنَ ؟ لَيْتَ شِعْرِي
أَيُّكُونُ الصَّيْدُ يَوْمًا كَالصَّيُودِ^(٤)
عِنْدَهُمْ قَدْ أُخْجِلَتْ حُمْرُ الْبَرَاغِمِ^(٥)
أَيُّ غَرِيبِي رَأَاهُمْ لَمْ يَحْزَ
وَبَهَا لَا بِسَوَاقِهَا نَجْمُهُمْ
قَلْبِكَ افْتَحْ وَأَطِلْ فِيهِ النَّظَرَ^(٦)
وَنَسِيمٌ لِلرَّيِّعِ وَهُوَ يَسْرِي^(٧)
فِي الْجِبَالِ عِنْدَنَا خَفَقَ لَرِيحٍ

(١) التجيد : الشجاع .

(٢) الورى : الناس .

(٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصوفي رمز لقلب المتصوف .

(٤) الصَّيْدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .

(٥) البراهم : البراهمة .

(٦) الشرر : ما يتطاير من النار .

(٧) سري : سار عامة الليل .

وبها تختال في لون وريح^(١)

هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ يَوْمًا فِي وَلَر^(٢) طَالَ فِي الْبَحْرِ بِنَا عُنْفُ الصُّرَاعِ
وَابْتَا أَيَّ ذَلِكَ النَّهْرِ الْقَدِيمِ يَضْرِبُ الْأَخْجَارَ فِي عَرْضِ الطَّرِيقِ
مَنْ فَتَى فِي كُلِّ أَرْضٍ قَدْ غَلَبَ إِنَّهُ بِالْعُنْفِ أَبَدَى الْمُخْشَرَا
مَا الصَّوَابُ عَيْشُنَا فِي حَدِّ سَاحِلٍ إِنَّ إلفَ الشَّطِّ مَوْتُ لِلْأَبَدِ
مَوْجَةٌ قَالَتْ لِمَوْجَاتٍ أُخَرُ^(٣) لَوْ حَوَانَا الْبُرُّ يَوْمًا فِي اجْتِمَاعِ^(٤)
مَنْهُ فِي الْوَادِي وَفِي السَّفْحِ الْهَزِيمِ^(٥) كِي يُزِيلَ شَافَةَ الطُّودِ الْعَتِيقِ^(٦)
أَرْضَعْتَهُ أَلْفَ أُمَّ ثُمَّ شَبَّ لَمْ يَجِدْ عِنْدَ سَوَانَا الْمَصْدَرَا
فِي الطَّرِيقِ حَطًّا مَا صَخْرًا يُمَائِلُ^(٧) يَا مُدِيمَ السَّبْحِ فِي لُجِّ الرَّبْدِ^(٨)

الحياة السير في غور ونجد

يسعد الموجه جزر بعد مد

أَنْتَ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ مَنْ قَرَأْتَ الزَّفِيرَ لَكَ هَذَا الْقَلْبُ أَخْرَقَ
النُّوَاخُ لِلطُّيُورِ مِنْ رَجِيْعِكَ وَفَتَحْتَ الزَّهْرَ مِنْ طَبْعِ هُنَاكَ
إِنَّ مِنْكَ الصَّوْتُ أَجْرَاسُ الْقَوَائِلِ ذَلِكَ الشَّرْقَ الْحَيَاةِ مَنْ وَهَبَتْ
ضَقَّتْ صَدْرًا وَلَدَيْنَا الصَّدْرُ أَضْيَقُ وَالْوَضُوءُ لِلنَّبَاتِ مِنْ دُمُوعِكَ^(٩)
وَالْمَنَى فِي الرُّوحِ كَانَتْ مِنْ مُنَاكَ وَلَكْشْمِيرَ أَرَاكَ غَيْرَ أَمَلٍ

(١) الريح : الرائحة .

(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) الهزيم : صوت الرعد .

(٥) شافة الطود : أصل الجبل .

(٦) أي : أن عشنا على الساحل ليس صواباً لأن صخر الساحل عتبة في طريقنا . ويمائل : يشبه .

(٧) اللج : معظم الماء .

(٨) الرّجيع : كل متردّد . والمراد هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فِي الصُّدُورِ لَمْ يُمِثْ يَأْسٌ فَوَادَا
 قِفْ تَمَهَّلْ لِتَرَى مِنْ غَيْرِ صُورِ
 وَتَأْوَةٌ يَا فَتَى لَا تَبْتِئَنَّ
 كَمْ بِلَادٍ تَحْتَ أَفْلَاكِ السَّمَاءِ
 إِنَّ هَذَا الْمُلْكَ أَوْهَى مِنْ حَبَابِ
 إِنَّمَا الشَّعْرُ الْمَصِيرُ قَدَّرَا
 أَنْتَ إِنْ جَرَّخْتَ هَاتِيكَ الْقُلُوبَا
 الْغِنَاءُ لَكَ مِنْ شِعْرِ تَلَوْتَهُ
 مَا وَرَاءَ الشَّعْرِ شَعْرٌ أَنْتَ قُلْتَهُ
 جَدُّ التَّخْرِيبِ وَالتَّأْيِيرِ جَدُّ
 رَدِّ الْأَلْحَانِ فِي الْجَنَّاتِ رَدُّ

زنده رود

اغْرِقَنَّ ، نَشْوَةَ الدَّرْوِيشِ هَذِي فَاثْلَفَنَّ
 إِنْ نَضَجْتَ مَلِكَ جَمَشِيدِ الْعَرِيضِ فَاثْلَكَنَّ^(٥)
 ثُمَّ قَالُوا هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَا هَلْ تَرْضِيهَا ؟
 قُلْتُ لَا ، لَا أَرْضِيهَا ، قِيلَ هِيََا هَدَمَنَّ
 لَيْسَ فِي الْحَانَاتِ كَفٌّ بِالرِّضَا مِنَّا جَدِيرُ

-
- (١) ابتأس : حزن .
 (٢) الأشقياء : ضد السعداء .
 (٣) الحباب : النفاخات التي تعلق الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .
 (٤) الضريب : النظير .
 (٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتَمُ الْأَبْطَالِ حَارِبٌ ، وَمَعَ السَّاقِي امْرَحَنُ^(١)
 أَنْتَ يَا زَهْرُ الصَّحَارَى ، قُلْ أَحَقَّقْتَ احْتِرَاقاً^(٢)
 فِي قُلُوبِ لِلْأَنَاسِي ، هَذِهِ النَّارُ اضْرِمَنَّ
 كُنْتَ فِي قَلْبٍ لَهِيئاً ، وَلَهِيئاً فِي دِمَاءِ
 وَإِذَا لَمْ تَقْتَنِحْ بِالْقَوْلِ ذَا الْكُونَ اشْطَرَنَّ
 أَلَاكَ الْعَقْلُ سِرَاجٌ ؟ فِي الطَّرِيقِ سِرٌّ تَقَدَّمَ
 وَلَكَ الْعِشْقُ مُدَامٌ ، فَمَعَ الْحُبُّ اشْرَبَنَّ^(٣)
 فَلَذَّةُ الْقَلْبِ بَدَمَعَ مِنْ عَيُونِي فِي انْسِكَابِ
 مِنْ يَوَاقِيتِ بَدْخْشَانَ الْفُصُوصِ فَاصْنَعَنَّ^(٤)

حديثٌ مع الشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ بَرْتَرِي هَرِي^(٥)

تَسْكُنُ الْحَوْرُ الْقُصُورَ وَالْخِيَامَا	بشكاتي يُضْبِحُ الْقَلْبُ الضُّرَامَا ^(٦)
هَذِهِ مِنْ خِيَمَةٍ أَبَدَتْ جَيْئَنَا	أَخْتَهَا مِنْ غُرْفَةٍ أَذَلَّتْ عُيُونَا ^(٧)
كُلُّ قَلْبٍ فِي الْجَنَانِ قَدْ وَجَدْتُهُ	بِالْأَسَى مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَمَرْتُهُ

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .

(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .

(٣) الحب : الحبيب .

(٤) بَدْخْشَانَ : مدينة تشتهر بالياقوت .

(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة

السنسكريتية في الحب والخلق القويم والزهد .

(٦) الضرام : النار .

(٧) أذلت عيوناً : نظرت .

قَالَ لِي الشَّيْخُ وَبِسْمَا قَدْ حَجَبَ
 شَاعِرُ الْهِنْدِ ! وَهَذِي حِرْفَتُهُ
 (بَرْتَرِي) يزدانُ بِالْعِلْمِ الْعُجَابِ
 بُرْعُهُمُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا رَأَيْنَا
 إِنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ بِالْغِنَاءِ
 يَرْسُمُ الشَّكْلَ الْبَدِيعَ بِالذِّكَا
 أَمَرَ هَذَا الْعَيْشِ يَدْرِي كُلُّهُ
 أَنْتَ سَحَّارٌ ١ وَهِنْدِيُّ النَّسَبِ ٢
 تَجْعَلُ الطَّلَّ اللَّالِي نَظَرْتُهُ ٣
 فِطْرَةٌ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ السَّحَابِ
 دَفَعْتُهُ مِنْكَ أَنْقَامُ إِلَيْنَا
 وَهُوَ بِالْفَقْرِ الْعَظِيمِ ذُو الْعَلَاءِ
 يُظْهِرُ الدُّنْيَا بِحَرْفٍ مِنْ خَفَاءِ
 وَهُوَ جَمٌّ شِعْرُهُ جَامٌّ لَهُ ٤
 قَدْ عَرَفْنَا فَتْنَهُ فَنَأْ عَلَيْنَا
 وَأَدْرَنَا يَتْنَا قَوْلَا طَلَيْنَا

زنده رود

أَنْتَ يَا مَنْ قُلْتَ قَوْلَا عَبَقَرِيَا
 قُلْ ، لِهَذَا الشَّعْرِ مِنْ أَيْنَ اللَّهَبُ
 يَغْلَمُ الشَّرْقُ بِهِ سِرًّا خَفِيًّا
 أَضْرَمْتُهُ الذَّاتُ أَوْ رَبٌّ وَهَبُ ؟

برتري هري

شَاعِرٌ أَيْنَ يُقِيمُ ، مَنْ عَزَفَ ؟
 وَلَهُ بَمُ وَزِيرٌ إِنْ عَرَفَ ٤

(١) السَّحَّار : الكثير السحر .

(٢) الطَّلُّ : الندى .

(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبعة .

(٤) اليم : أغلظ أوتار العود . والوزير : أدقها .

قَلْبُهُ فِي الصَّدْرِ وَهَاجُ الْأَوَارِ وَأَمَامَ اللَّهِ مَعْدُومُ الْقَرَارِ^(١)
وَبِحْثِ رَوْحِنَا كَأَنْتَ تَطِيبُ وَطَلَبْنَا ، فَلَذَا الشَّعْرُ اللَّهِيْبُ
مِنْ كَرَامِ الْقَوْلِ يَا مَنْ قَدْ ثَمَلْنَا مِثْلَ ذِيَاكَ الْمَقَامِ لَوْ بَلَّغْنَا !^(٢)
وَبَيْتِ قَيْلٍ فِي دُنْيَا الْحَجَرِ فِي الْجَنَانِ تُسَبِّى ذَاتُ الْحَوَزِ^(٣)

زنده رود

إِنَّ أَهْلَ الْهِنْدِ كَانُوا فِي الْعَذَابِ
أَظْهَرَ السَّرِّ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ

برتري هري

هذه الأربابُ شَحَّتْ وَهِيَ مِنْ طِينٍ وَصَخْرٍ
« برتري » كَانَ بَعِيداً عَنْ كُنْيسِ بَلِّ وَدَيْرٍ
سَجْدَةً مِنْ ذَوْقِ أَعْمَالٍ خَلَّتْ لَا خَيْرَ فِيهَا
عَمَلٌ تِلْكَ الْحَيَاةُ ، وَهُوَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ
عَالِمٌ أَنْتَ تَرَاهُ لَيْسَ مِنْ آثَارِ رَبِّ
مِغْزَلٍ بِالْخَيْطِ دَوَّرْتَ وَلَكِنْ لَسْتَ تَدْرِي
أَسْجُدَنَّ عِنْدَمَا لِلْعَامِلِينَ مِنْ جَزَاءِ
مَا لَهُمْ هَذَا النَّعِيمُ وَالْجَحِيمُ غَيْرَ أَجْرٍ^(٤)

(١) وهاج الأوار : متأجج النار .

(٢) لو هنا للتمني .

(٣) استباه : سباه في الحرب .

(٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواء أكان على الخير أم على الشر .

السَّفَرُ إِلَى قَصْرِ سَلَاطِين المَشْرِقِ نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد^(١)

« بَرْتَرِي » قَدْ هَزَّ رُوحِي بِالنَّدَاءِ	أَسْكُرْتَنِي مِنْهُ صَهْبَاءُ الْغِنَاءِ
قَالَ لِي الرُّومِيُّ « عَيْنُ الْقَلْبِ أَفْضَلُ	وَالخُرُوجُ عَنْ إِطَارِ الْفِكْرِ أَمْثَلُ ^(٢)
بِمَقَرِّ لِلدَّرَاوِيشِ اعْبُرَنَّ	وَقُصُوراً لِلسَّلَاطِينِ انْظُرَنَّ
وَمُلُوكُ الشَّرْقِ فِي حَفْلِ كَعْقِدْ	عِزَّةَ الْأَفْغَانِ أَوْ فِرْسِ وَهِنْدِ ^(٣)
« نَادِرُ » التَّحْرِيرُ رَمَزُ الْإِتِّحَادِ	كَانَ لِلإِسْلَامِ بُشْرَى بِالْوِدَادِ ^(٤)
ثُمَّ « أَبْدَالِي » وَقَدْ كَانَ الْبَطْلُ	مَنْحَ الْأَفْغَانِ أَسْأَ لِلْعَمَلِ ^(٥)
وإِمَامُ شُهَدَاءِ الْعَاشِقِينَ	شَرَفَ الْأَقْوَامِ كَانَ أَجْمَعِينَ ^(٦)

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تَأَتَّى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فترجَّع على عرشها عام ١٧٣٦م كان سُنِّيًّا ، وبذل وَسْعَهُ في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . وبعدُ مؤسساً لدولة الأفغان .
أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له المُلْكُ في الدَّكْنِ . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

- (٢) الأَمْثَلُ : الأفضل والأدنى للخير .
(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العِقْدِ ، ويقول : إِنَّ عِزَّةَ الْأَفْغَانِ وَالْفِرْسِ وَالْهِنْدِ بِهِمْ . وَأَوْ هُنَا لِلْجَمْعِ .
(٤) التَّحْرِيرُ : العَاقِلُ الْحَادِقُ .
(٥) الْأَسْ : الْأَسَاسُ . وَفِي الْأَصْلِ : أَنَّهُ مَنْحُ الْأَسَاسِ لِلشَّعْبِ .
(٦) الْعَاشِقُونَ هُنَا عَاشَقُوا الذَّاتَ الْإِلَهِيَّةَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ .

أَيْنَ مِنْ نَوْرِ اسْمِهِ نَوْرُ الْكَوَاكِبِ وَتَرَاهُ عَيْنُنَا هَذَا يُوَاكِبُ^(١)
 إِنَّهُ كَشَفَ سِرَّ الْعَاشِقِ جَادَ بِالرُّوحِ بِشَوْقٍ دَافِقِ^(٢)
 وَبِفَضْلِ مَنْ يَبْذُرُ أَوْ حُنَيْنِ قَدْ حَبَاهُ فَقْرُهُ جَذَبَ الْحُسَيْنِ^(٣)

زَايِلَ السُّلْطَانُ قَصْرًا زَائِلًا

مُلْكُهُ فِي الْهِنْدِ ظَلَّ مَائِلًا^(٤)

نَاقِصَ الْعَقْلِ ، عَجَزَتْ عَنْ كَلَامِي لَيْتَ شِغْرِي كَيْفَ وَصَفِي لِلْمَقَامِ
 يَتَجَلَّى لَهُ رَأْيُ أَهْلِ السَّمَاءِ مَا زُهِمَ لَكِنْ عَجِيبٌ مِنْ ذُكَا
 ذَاكَ قَصْرٌ وَمِنْ الْفَيْرُوزِ بَابِهِ السَّمَاءُ كُلُّهَا تَحْوِي رَحَابَهُ
 فِي السُّمُوقِ مَا لَهُ كَيْفٌ وَكَمْ يَجْعَلُ التَّفْكِيرَ ذَا عَجَزٍ يُذَمُّ
 هَذِهِ الْأَزْهَارُ فِي الْحَسَنِ الْبَدِيعِ صُورَةٌ كَانَتْ تَجَلَّتْ لِلرَّيِّعِ
 وَالنَّبَاتُ وَهُوَ قِيَاضُ الْبَهَاءِ غَيْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ ذَوْقِ النَّمَاءِ
 وَالصَّبَا دَابُّ لَهَا أَنْ تَسْحَرَا تَجْعَلُ الْأَضْفَرَ تَوًّا أَحْمَرًا^(٥)
 دَقَّقَ الْمَاءُ وَكَالِدُرٌّ انْتَشَرُ طَائِرُ الْفِرْدَوْسِ غَنَّى فِي الشَّجَرِ
 يَا لِقَصْرِ فِيهِ بِهِوَ قَدْ سَمَقُ ذَرَّةٌ مِنْهُ ذُكَاٌ فِي الْوَهَقِ^(٦)
 سَقْفُهُ كَانَ عَقِيقًا نُضِّدَا أَرْضُهُ يَشْمُ ثَمِينٌ مُهْدَا^(٧)
 وَصَفُوفٌ فِيهِ مِنْ قَامَاتٍ حُورِ وَلَهْنُ الثُّبْرِ حَلِيٍّ فِي الْخُصُورِ

(١) وَاكِبَ الرِّكْبَ : سَاطِرَهُمْ ، أَوْ رَكِبَ مَعَهُمْ .

(٢) كَشَفَ : بِمَعْنَى كَشَفَ .

(٣) فِي الْأَصْلِ بِنَظَرَةٍ مِنْ سَيِّدِ بَدْرٍ وَحُنَيْنِ .

(٤) الْمَرَادُ بِالْقَصْرِ الزَّائِلِ هَذَا الْعَالَمِ .

(٥) الدَّابُّ : الْعَادَةُ . يَقُولُ : إِنَّ مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تَغَيِّرَ الْأَشْيَاءَ بِالسَّحْرِ .

(٦) سَمَقَ : عَلَا . وَذُكَا : الشَّمْسُ . الْوَهَقُ : حَبْلٌ فِي طَرَفِيهِ أَنْشُوطَةٌ يَطْرَحُ فِي عُنُقِ الدَّابَّةِ لَتَأْخُذَ بِهِ . يَقُولُ : كَأَنَّمَا كُلُّ ذَرَّةٍ فِي هَذَا الْقَصْرِ صَادَتِ الشَّمْسُ بِهَذَا الْحَبْلِ .

(٧) نَضَّدَهُ : وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى الْبَعْضِ . وَالْيَشْمُ وَالْيَشْبُ : حَجَرٌ يَشْبَهُ الزَّبْرِجَدِ .

وعلى العرشِ ملوكٌ يَجْلِسُونَا وملكُ الفُرسِ كانوا يُشَبِّهُونَا^(١)
 ذلِكَ الرُّومِيُّ مرآةُ الأدبِ فرَجَ الغَمِّ بما زادَ الطَّرِبَ^(٢)
 « وَمِنَ المَشْرِقِ هَذَا شَاعِرٌ لستُ أدري ، شاعرٌ أم سَاحِرٌ
 فِكْرُهُ دَقٌّ وفي الرُّوحِ الأَلَمُ
 شِعْرُهُ في الشَّرْقِ قد أذكى الضَّرَمَ »^(٣)

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظِيمَا مِنْ كَلَامِ الفُرسِ أنشَدْتَ القَوِيمَا
 نَحْنُ أَهْلُ السَّرِّ قُلْ سَرّاً لَنَا ثُمَّ عَنْ إِيْرَانَ حَدِّثْ أَنْبَا^(٤)

زنده رود

نَظَرْتُ إِيْرَانَ فِي ذَاتِ مَلِيَا وَهَوْتُ فِي قَاعِ أَشْرَاكِ هَوِيَا^(٥)
 وَقَتِيلُ دَلِّ أَصْنَامِ الجَمَالِ تُشْبِهُ الإِفْرَنْجَ فِي خَلْقِ الكَمَالِ !
 فِكْرُهَا فِي مُلْكِيهَا أَوْ فِي النِّسَبِ مَذْخُ سَابُورِ وَذَمُّ لِلْعَرَبِ^(٦)

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .

(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرح أو حزن .

(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .

(٤) أنبنا : أنبنا .

(٥) هوى هويّاً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحباله .

(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف ؛ لأنه في حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في التشفي منهم .

يَوْمُهَا خَالٍ ، وَمِنْ كُلِّ الْمَهَامِ الْحَيَاةُ طَلَبْتُهَا فِي الرَّجَامِ^(١)
 وَطَنًا رَامَتْ وَذَاتًا لَا تَرَى وَتَنَاسَتْ رُسْتُمًا بَلْ حَيْدَرًا^(٢)
 بَاطِلَ الْإِفْرَنْجِ مَا قَدْ حَصَلَتْ
 وَلَهَا التَّارِيخُ مِنْهُمْ شَكَلَتْ
 كَانَتْ الشَّيْخَ ، وَفِي عَهْدٍ بَعِيدٍ شَاحِبَ الْوَجْهِ دِمَاءُ مِنْ جَلِيدٍ
 عُرِفَهَا بِأَلٍ لَهَا دِينَ قَدِيمٍ وَكَذَاكَ الصُّبْحُ وَاللَّيْلُ الْبَهِيمِ^(٣)
 كَرُمُهَا مَا فِيهِ أَمْوَاجُ لَخْمِرٍ تُزْبِهَا مَا فِيهِ مِنْ وَهْجٍ لَجْمِرٍ^(٤)
 وَمِنْ الصَّحَرَاءِ كَانَ الْمَخْشَرُ فَلَدَيْهَا مِنْهُ عُمْرٌ آخِرٌ^(٥)
 رَحْمَةُ اللَّهِ وَمِنْ تَخْنَانِهِ فَارِسٌ ظَلَّتْ وَرُومًا أَيْنَ هِيَ^(٦)
 مَا مَضَى عَنْ جِسْمِهَا رُوحٌ رُومٍ أَبْغِيرَ الْحَشِيرِ مِنْ تُزْبِ تَقُومُ^(٧)
 رَجُلُ الصَّحَرَاءِ رُوحًا قَدْ مَنَحَ وَإِلَى صَحْرَائِهِ عَنْهَا نَزَحُ^(٨)
 وَمَحَا مِنْ لَوْحِنَا كُلِّ الْقَدِيمِ جَدَّدَ الْعَصْرَ ، وَلَيْسَ بِالْمَقِيمِ
 إِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا فَضْلَ الْعَرَبِ
 وَمِنْ الْإِفْرَنْجِ ذَابُوا فِي اللَّهَبِ !

- (١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
 (٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
 (٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهَا كَانَ قَدِيمًا بِأَلِيًا حَتَّى لَيْلِهَا وَنَهَارَهَا .
 (٤) الترب : التراب . والوهج : انتفاذ النار .
 (٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
 (٦) التحنان : الرحمة .
 (٧) الروم : الرحمة : وفي الأصل الطاهرة .
 (٨) نزح : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها وإنشاد غزل رقيق^(١)

لِلْحُسَامِ وَالْيَرَاعِ تَجْعَلُ الْكَفَّ الْمَدَارَا
مِنْ جَوَادِ الْجِسْمِ بَعْدُ ، أَنْتَ لَا تَخْشَى الْعِثَارَا^(٢)
الْحُسَامُ وَالْيَرَاعُ مِنْهُمَا فَضْلٌ عَمِيم
يَا أَخِي مَضِدُّ الثَّوْرِ لَدِينَا كَانَ نَارَا^(٣)
عِنْدَ كَفَارٍ أَجْنَبِي أَيْ خَيْرٍ فِيهِمَا
لَهُمَا بِالذِّينِ سِغَرٌ يَشْتَرِي حَتَّى الثُّنَارَا^(٤)
عِرَّةُ الدِّينِ بَعْلَمٌ وَبِجَهْلٍ ذُلَّةٌ
دِينُ جُهَّالٍ كَزَهْرِ الثَّوْرِ قَدْ جَابَ الْقِفَارَا^(٥)
مِثْلُ كَرْبَاسٍ وَإِلْيَاسٍ يَخِيطُ نِصْفَهُ

- (١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .
- (٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يكبو من بعد .
- (٣) أخي : تصغير أخ . وهو يقول : إن الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .
- (٤) الثُّنَار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالذِّين غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .
- (٥) يقول : إن الدين يعزُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزُّهرة عند الثور الذي يتجول في الصحارى .

أبدالي

وفتني مُلكاً عظيماً قد أقاما للجبالِ عادَ واختارَ المَقَاما
أضرمَ النيرانَ في تلكَ الجبال أحرقتُهُ ؟ أم شجاعٌ لا يبالي

زنده رود

الشعوبُ بينها صَفُوفُ الإخاء إخوةٌ ، في حَزْبِها أو في المِرَاء^(٢)
وحياةُ الشَّرْقِ كانتَ من حَيَاتِه ابنُه الجندِيُّ أمسى من حُمَاتِه !
ذاتُه مِن ذاتِه جهلاً سَلَبَ مالهُ مِن مَمَكَنَاتٍ ما حَسَبَ^(٣)
ولِه قلبٌ وعنه غافلٌ للجسومِ والقلوبِ من فراقٍ فاصِلُ^(٤)
إنَّما الجَوَّالُ ضلَّ كلَّ غايِه روحُه ما إنْ دَرَّتْ معنى النِّهايَة

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض ورقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .

واقبال يومىء إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه توراة موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصلاة إلا به .

وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشكر .

(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .

(٣) حسب الشيء : عدَّه وأحصاه .

(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يَعْرِفُ الْأَفْغَانَ حَقًّا شَاعِرٌ قَالَ مَا قَدْ قَالَ وَهُوَ السَّادِرُ^(١)
 إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا شَغِيهًا بِذَلِكَ الْوُسْعِ يَقْضِدُ طَبَّهُمْ^(٢)
 سَرُّ قَوْمٍ قَدْ دَرَاهُ ثُمَّ قَالَا مَا رَأَاهُ الْحَقُّ لَمْ يَخْشَ الْوَبَالَ^(٣)
 « فَنَى الْأَفْغَانِ لَوْ يَلْقَى الْبَعِيرَا
 يَحْمِلُ الْجَوْهَرَ وَالذُّرَّ الْوَفِيرَا
 مَا تَمَلَّى ذَلِكَ الْوَسْقَ الْكَبِيرَا^(٤)
 وَأَرَادَ جُلُجُلَ الْهَادِي الصَّغِيرَا^(٥)

أبدالي

إِنَّ مِنْ قَلْبٍ لَنَا الطَّبْعُ اتَّقَدُ وَصَحَا مِنْهُ الثَّرَابُ أَوْ رَقَدُ
 وَيَمُوتِ الْقَلْبُ جِسْمٌ غَيْرَا وَدَمًا أَمْسَى النَّضِيجُ أَحْمَرَا^(٦)
 يَفْسَادِ الْقَلْبِ مَا هَذَا الْجَسَدُ ؟ وَخَدَهُ كُنْ مَنْ عَلَى الْقَلْبِ اعْتَمَدُ
 آسِيَا جِسْمٌ وَمِنْ مَاءٍ وَطِين قَلْبُهَا الْأَفْغَانُ خَفَّاقُ الْوَتِينِ^(٧)
 وَلَهَا مِنْهُ الْفَسَادُ إِنْ فَسَدُ وَانْطَلَقَ مِنْهُ يَا نِعْمَ الْمَدَدُ^(٨)
 بِانْطِلَاقِ الْقَلْبِ فَالْجِسْمُ الطَّلِيقُ أَوْ لَرِيحٍ كَانَ بِالْقَشْرِ الْخُفُوقُ^(٩)

(١) السادر : الذي لا يبالي .

(٢) طَبَّهُمْ : علاجهم من المرض .

(٣) الوبال : سوء العاقبة .

(٤) تَمَلَّى الشَّيْءَ : تمتع برؤيته . الْوَسْقُ : الجحش .

(٥) الجُلُجُلُ : الجرس الصغير . وَالْهَادِي : العنق .

(٦) النَّضِيجُ : العرق .

(٧) الْوَتِينُ : عرق في القلب .

(٨) الْمَدَدُ : العون .

(٩) يقول : إن الجسم إذا لم ينطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشة إذا اشتدت بها الريح في يوم عاصف .

وله كالجسم بالغرف القيود دينه أحياء والموت الحُقود^(١)
 بمقام وخدة قد عز دين
 ذلك الشغب بها شغب يكون
 ذاته يفقد ذا الشرق المقلد
 عز هذا الغرب لا بالمطربات
 لم يهبه قوة وزد الحدود^(٢)
 مجده ما كان من ترك لدين
 العلوم والفنون سره
 لست بالثوب حكيماً كالأعظم
 تذرك العلم بعقل أنت مالك
 ليس في هذا السبيل غير علم
 إن ملكك الفكر هذا الفكر حسبك
 كل شيء عنه ما يغنيك ، طبعك
 السناج في الليالي إن أكلته
 من رأى يوماً حدود ملك معني ؟
 فإلى العلم السبيل قد وجدته^(٣)
 يطلب المطلوب مجهوداً وأيناً^(٤)

- (١) الحقود : الأخقاد .
 (٢) فنده : كذبه وخطأ رايه .
 (٣) الميس : التبخر .
 (٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .
 (٥) ضاره : ضره .
 (٦) يريد بهذا الثوب زي أهل الغرب .
 (٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكل سناج المصباح في الفارسية كناية عن سهر الليالي في طلب العلم .
 (٨) الأين : التعب .

فَقَدْ الْأَتْرَاكَ ذَاتَا بِالْمُدَامِ فَالْفَرَنْجُ أُسْكِرُوهُمْ بِالسُّمَامِ^(١)
 إِنَّ تَرْيَاقَ الْعِرَاقِ مَا لَدَيْهِمْ رَحْمَةً يَا رَبِّ فَاِبْسُطْهَا عَلَيْهِمْ^(٢)
 وَعَيْيِدُ الْغَرْبِ يَبْغُونَ الظُّهُورَا إِنَّهُمْ يُرْضُونَ بِالرَّقْصِ الْغُرُورَا !
 رَوْحَهُمْ فِي اللَّهِوَ كَانُوا يَفْقِدُونَا يَضْعُبُ الْعِلْمُ ، بِلَهْوٍ لَنْ يَكُونَا
 يَطْلُبُونَ السَّهْلَ لَكِنْ مِنْ كَسَلٍ طَبَعُهُمْ مَا يَبْتَغِي سَهْلَ الْعَمَلِ
 الْيَسِيرُ السَّهْلُ لَكِنْ إِنْ طَلَبْنَا أَنْتَ رَوْحاً لَكَ مِنْ جِسْمٍ فَقَدْ تَنَا

زندہ رود

الْفِرَنْجُ بِالرَّقِيِّ مَا أَرَادُوا ؟ أَلَفَ فَرْدُوسٍ مِنَ الْأَلْوَانِ شَادُوا^(٣)
 ظَاهِرٌ مِنْهُمْ دِيَاراً حَرَقَا وَالْغُصُونُ بِالْعِشَاشِ مَرَّقَا^(٤)
 ظَاهِرٌ يَبْدُو لِعَيْنٍ لَامَعَا وَهَنَ الْقَلْبُ لِعَيْنٍ خَانَعَا^(٥)
 يَزَلِقُ الْقَلْبُ وَلِلْعَيْنِ النَّظَرُ وَأَمَامَ الْمَعْبَدِ الْخَفَاقُ خَرَّ^(٦)
 وَمَصِيرُ الشَّرْقِ هَذَا مَنْ دَرَى ؟ أَيُّ تَدْيِيرٍ وَتَبْغِي مَظْهَرَا

- (١) يقول : إن الأتراك سكرُوا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمَامُ : جمع سم .
 (٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارة مشهورة مأثورة ، وهي : (يُسَلِّمُ الْمَلْدُوعُ الرُّوحَ قَبْلَ أَنْ يُحْضِرُوا لَهُ التَّرياقَ مِنَ الْعِرَاقِ) .
 (٣) شاد البناء : رفعه .
 (٤) العشاش : جمع عش .
 (٥) الخانع : الخاضع في ذل .
 (٦) الخفاق : القلب .

أبدالي

وعلى تغييرِ ذاكَ القادرِ بهلوي ملكُ قبادِ ناله
 بهلوي إيران قُلْ أو نادرِ كلُّ معقودٍ لديه حلَّه^(١)
 ومن الدُّرانيِّين كانَ نادرُ وهو للأفغانِ ذخِرٌ مَنْ يُكابرُ ؟
 إنَّه لِلدِّينِ يَأْسَى والوَطَنِ قَادَ جيشاً في جبالٍ قَدْ كَمَنَ^(٢)
 بطلُ الهِجاءِ حقّاً والأَميرُ والحديدُ عندَ قومٍ والحريزُ !^(٣)
 مَنْ رَأَى ذاتاً له إِنِّي فَدَيْتُهُ وَاِزَنَ العَصْرَ بِحَذَقٍ مَنْ هَوَيْتُهُ
 كم لأهل الغربِ مَنْ قَدْ سَحَرَ
 إِن نَسِيتَ الذَّاتَ كُنْتَ مَنْ كَفَرَ !

السُّلطانُ الشَّهيدُ

عَنْ بلادِ الهندِ حَدَّثَنِي طويلاً قُتُّهَا يَفْضُلُ بستاناً جميلاً^(٤)
 مسجدٌ فيها خلا مِنْ صَوْتِ حَشْدٍ دِيرُهَا ما فِيهِ نارٌ بَعْدُ خَمْدٍ
 قلبنا حزنأ على الهندِ انْفَطَرَ رَوْحُنا شيئاً سِوَاهَا ما اذْكَرُ^(٥)

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلمٌ عظيمٌ من أعلام تاريخها . وقباد هو كيقباد أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقة .

(٢) يَأْسَى : يَحْزَنُ .

(٣) الهِجاءُ : الحَرْبُ .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) اذْكَرُ : ذَكَرُ .

حَزْنُهَا قِسْهَ بِأَحْزَانٍ لَنَا لَيْسَ يَدْرِي مِنْ نَحْبٍ حَالِنَا

زنده رود

الهنودُ أنكروا قانونَ غَرْبٍ كلُّ سحرٍ رَقْضُوهُ كلَّ خَلْبٍ^(١)
إِنَّ عُرْفَ الْغَيْرِ رَوْحاً يُثْقَلُ مِنْ سَمَاءٍ إِنَّهُ لَا يَنْزِلُ !

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

وَإِذَا الْإِنْسَانُ مِنْ طِينٍ خَرَجَ قَلْبُهُ مِنْ رَغْبَةٍ فِيهِ اخْتَلَجَ
لَذَّةُ الْعَصِيَانِ كَانَتْ مُتَعْتُهُ رُؤْيَا الدَّاتِ رَأَاهَا يَهْجَتُهُ
هَذِهِ الدَّاتُ بَعْصِيَانِ تُنَالُ وَانْعِدَامُ الدَّاتِ مَعْنَاهُ الْوَبَالُ^(٢)
أَنْتَ فِي أَرْضِي وَفِي دَارِي حَلَلْتَا وَبَعَيْنِ قَبْرِي الْبَالِي مَسَحَتَا
وَعَرَفْتَ حَذُّ كُلِّ الْكَائِنَاتِ فِي الْجَنُوبِ أَيْنَ آثَارُ الْحَيَاةِ^(٣)

زنده رود

فِي الْجَنُوبِ قَدْ نَزَرْتُ الدَّمَعَ حَبَا فَاكْتَسَتْ أَرْضٌ بِهِ وَزْدَا وَأَبَا^(٤)
نَهْرُ « كَاوِيرِي » يَسِيرُ فِي جَمُوحِهِ وَرَأَيْتُ وَقْدَةً أُخْرَى بِرُوحِهِ^(٥)

(١) الخلب : الخداع .

(٢) الوبال : سوء العاقبة .

(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .

(٤) الأب : المرعى .

(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ

قَوْلُكَ النُّورُ بِهِ ضَاءٌ قُلُوبُ
عَالِمِ الْأَسْرَارِ دَوَّامٌ مِنْ ظَفَرِ
وَنَشِيدُ الرُّوحِ إِنْ أَنْشَدْتَهُ
عِنْدَ مَوْلَى الْكُلِّ كُنْتَ حَاضِرًا
وَعَلَى الْقَوْلِ هُنَاكَ مَا شَجَعْتَ
وَأَنَا مِنْ أَحْرِقْتَنِي نَارُ شِغْرِكَ
قَالَ « بَيْتٌ قَلْتَهُ مِنْ قَالِهِ ؟
يَبَانَ لَكَ فِي الرُّوحِ اسْتَعَزَّ
زَنْدَهُ رُودَ أَنْتَ وَهُوَ زَنْدَهُ رُودَ
إِنَّ لِحْنًا مَعَ لِحْنٍ مَا يَجُودُ^(٤)

رسالة السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ إِلَى نَهْرٍ كَاوِيرِي حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْإِسْتِشْهَادِ

إِنَّ هَذَا النَّهْرَ قَدْ سَارَ الْهُوَيْنِي
نَائِحًا بَيْنَ الْجِبَالِ ، كُنْتَ تَعْبُرُ
أَنْتَ مِنْ جِيحُونَ خَيْرٌ وَالْفِرَاتِ
يَا لَأَرْضِي أَنْتَ قَدْ عَانَقْتَهَا
وَدَوَامُ السَّيْرِ مَا أَضْنَاهُ أَيْنَا^(٥)
وَطَرِيقًا لَكَ بِالْأَهْدَابِ تَخْفُزُ !
لِلْجَنُوبِ كُنْتَ وَهَّابَ الْحَيَاةِ
بِرُوءِ كَانِ فَيْكَ زَنْتَهَا

(١) ضاء : أنار وأشرق .

(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .

(٣) بني : يفتقر ويضعف .

(٤) يجود : يحسن .

(٥) الأين : التعب .

شِخْتُ لَكِنْ أَنْتَ فَيَاضُ الشَّبَابِ والبهاءُ لك كالسَّحَرِ العُجَابِ
 بَنَتْ مَوَاجِدَ لَدَيْكَ دُرَّةً فلتُثِرْ مَوْجاً عَلَيْكَ طُرَّةً^(١)
 حُرْقَةُ الْعَيْشِ تَغْنِيهَا نَشِيدَا أَعْلِمْتَ مَنْ لَذَا كَانَ الْبَرِيدَا^(٢)
 إِنَّهُ مِنْ طُفَّتْ حَوْلَ سَطْوَتِهِ لَكَ مِرَاةٌ لَوَجْهِ قُوَّتِهِ^(٣)
 الصَّحَارَى جَنَّةٌ مِنْ قُدْرَتِهِ بَدْمَاهُ كَانَ رَسْمُ صُورَتِهِ
 الْأَمَانِي مِنْ ثَرَاهُ تَقْتَرِبُ مِنْ دِمَاهِ فَيْكَ مَوْجٌ يَضْطَرِبُ

كَانَ فَعَلًا كُلُّ قَوْلٍ قَالَهُ

لَمْ يَنْهَمْ ، وَالشَّرْقُ نَامَ لَيْلَهُ

إِنَّمَا التَّبْدِيلُ شَأْنُ الْكَائِنَاتِ إِنَّمَا الْأَمْوَاجُ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ
 عَالَمًا تَطْلُبُ فِي شَوْقٍ تَمَهَّدُ مَا الْحَيَاةُ غَيْرَ تَجْدِيدٍ تَجَدَّدُ
 الْكَيَانَ لِلْوُجُودِ مِنْهُمَا الذَّهَابُ وَالْمَجِيءُ مَا هُمَا
 سَفَرٌ يَخْفَى لَكِي يَبْدُو الْحَضَرُ الطَّرِيقَ رَاحِلُونَ فِي سَفَرُ
 تِلْكَ أَشْجَاهَا وَأَبْكَاهَا الرَّحِيلُ النِّيَاقُ وَالصَّحَارَى وَالنَّخِيلُ
 لاختِبَارٍ عُرِّضْتَ حَسَنًا وَعَرَفَا^(٤) بَرَهَةً حَلَّتْ وَرُودُ الرُّوضِ ضَيْفَا
 بَرَعَمَ فِي الْحِضْنِ ، نَعَشٌ لِلزُّهُورِ^(٥) مَا تَمَّ فِي الرُّوضِ أَمْ أَفْرَاحُ سُورِ ؟
 قَالَ سَرِّي مَا عَرَفْتَ يَا لَيْقُ ! أَحْمَرُ الْوَزْدِ لَهُ قُلْتُ اخْتَرِقُ

مِنْ هَشِيمٍ لِلْوُجُودِ ذَا الْبِنَاءِ

لِلظُّهُورِ حَسْرَةً كَانَ الْجَزَاءِ

مَا مَضَى أَوْ مَا يَكُونُ ، إِمَضٍ عَنْهُ الْمَجِيءُ لِلْوُجُودِ ، دَعَاكَ مِنْهُ

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشعر النائر .

(٢) البريد : الرِّسُول .

(٣) في الأصل : أنت حامل المرأة لوجه سطوته .

(٤) العرف : الرائحة الذكية .

(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِعْ مِثْلَ الشَّرَارِ إِنْ قَدِمْتَ
 وَإِذَا أَشْبَهْتَ شَمْساً فِي الصُّفَاتِ
 الرِّيَاضِ اخْرِقْ وَآكَامَ الصَّحَارَى
 وَإِذَا عَوَّذْتَ جُزْخَ السَّهْمِ صَدْرَا
 السَّكُونُ فِي الْحَيَاةِ لِلثَّبَاتِ
 دِينُنَا وَالْعُرْفُ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ
 بَرَهَةً كَاللَّيْلِ لَا عَاماً كَشَاةٌ (٣) !
 قَتَلَتْكَ أَخَذَةً قَدْ دُبِّرَتْ (٤)
 مِنْ مَقَامَاتِ حِمَامِ الْمَرءِ فَاعْلَمْ (٥)
 كَالشَّوَاهِينِ إِذَا صَادَتْ حَمَامَا (٦)
 لَمْ يَكُنْ عَيْشٌ لَهُ غَيْرَ الْحَرَامِ !
 رَوْحُهُ الْأَخْرَى لَدَيْهِ حَيْنُهُ (٧)
 وَيَمُوتُ الْحُرُّ لَكِنْ بَغْتَةً (٨)
 إِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَكِنْ فِي الثَّرَابِ
 مَوْتُ إِطْلَاقٍ لَهُ مِنْ تَرْبِهِ
 وَهُوَ لِلتَّكْيِيرِ فِي حَرْبٍ نَهَائِهِ

- (١) اليبدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .
 (٢) السُّمَّاك : جمع سمك .
 (٣) أي عيش برهنة كالأسد ولا تعيش عاماً كالشاة .
 (٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسحر .
 (٥) الضيفم : الأسد .
 (٦) الكامل : الرجل الكامل . يجتاح : يقهر . الحمام : الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر كالصقر .
 (٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .
 (٨) بنة والبنة : بمعنى لا رجعة فيه .

ليس للمؤمن غير الأطيب أي موت مثل موت ابن النبي^(١)
 الملوك حاربوا من أجل سلب كالنبي مؤمن في خوض حرب^(٢)
 وبها يمضي إلى دار الحبيب يهجر الدنيا لو ضل من قريب
 قال للقوم النبي ذو المحامد راهب الإسلام من كان المجاهد^(٣)
 الشهيد وخده هذا دراه
 بدم أخراه في الحرب اشتراه

زندہ رود يغادر الجنة العالية وطلب حور الجنان

كأس صبري أضحت بعض الفئات قال لي الرومي قم قبل الفوات^(٤)
 يا حديث الشوق يا جذب اليقين ! يا لإيوان على الأس المتين^(٥)
 دامي القلب إليه قد وصلت وعلى أعتابه حوراً رأيت
 قالت الحور تعال زنده رود لك عذب اللحن يشجي ، والوقود^(٦)
 خفقات من ضجيج حولنا زنده رود اجلس قليلاً بيتنا

-
- (١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .
 (٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .
 (٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .
 (٤) الفئات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفوات : فوات الأوان .
 (٥) يا هنا للتعجب . والأس : الأساس .
 (٦) الوقود : النار .

زنده رود

كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ سِرّاً لِلسَّفَرِ يَزْهَبُ الْمَنْزِلَ لَا لَصَرَ الْمَمَرِ^(١)
 الْوَصَالَ مَا أَرَاخَ قَطُّ عِشْقَا بَلْ أَرَاخَ سِرْمَدِي الْحُسْنِ حَقّاً
 وَابْتِدَاءَ عِنْدَ حَسَنَاءِ سُجُود بَانْتِهَاءَ حُطَمَتْ تِلْكَ الْقُيُود
 سَادِرٌ مَا كَفَّ يَوْماً عَنْ رَحِيل وَهُوَ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ ابْنُ السَّبِيلِ^(٢)
 دَيْتَنَا يُشْبِهُ مَوْجاً أَسْرَعَا
 مَا أَقَامَ بَلْ أَرَادَ الْمَهْيَعَا^(٣)

حُورُ الْجَنَّةِ

لَكَ دَلٌّ مِثْلَ دَلٍّ لِلزَّمانِ
 فَعَلَيْنَا لَا تَضِنَّ بِالْأَغَانِي

غزل زنده رود

أَلِي الْعَرءِ وَصَلْتَ ؟ لَكَ رَبّاً كَيْفَ تَطْلُبُ وَمِنَ الذَّاتِ فَرَزْتَ أَنْتَ صَحْباً كَيْفَ تَطْلُبُ
 شَاكِبِ الْوَجْهَةِ تَعَلَّقَ بِالْغُصُونِ الطَّلَّ وَارْشَفُ لَكَ شَيْئاً مِنْ نَسِيمِ هَبْ هَبّاً كَيْفَ تَطْلُبُ
 قَطْرَتَانِ مِنْ دِمَاءِ ذَاكَ مَا سَمَّوُهُ مِسْكَاً يَا غَزَالَ الْمِسْكِ مِسْكَاً مِنْكَ عُجْباً كَيْفَ تَطْلُبُ^(١)
 إِنَّ عَرَّ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ مَعْيَارٌ لِفَقْرِ الْحِطَامَ مَا طَلَبْتَ الْمُلْكَ وَهَبّاً كَيْفَ تَطْلُبُ

(١) فِي الْأَصْلِ : أَنَّ رَهْبَةً مِنَ الْمَنْزِلِ أَشَدُّ مِنْ رَهْبَةٍ مِنْ قَاطِعِ الطَّرِيقِ .

(٢) السَّادِرُ : الَّذِي لَا يَبَالِي بِمَا صَنَعَ ، وَالْمَرَادُ بِهِ : الْعِشْقُ .

(٣) الْمَهْيَعُ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ .

(٤) يَعْتَقِدُ الْقَدَمَاءُ أَنَّ الْمِسْكَ مِنْ دَمِ الْغَزَلَانِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمُتَنَبِّي :

وَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وَالْعَجَبُ : التَّيْبُ وَالْخِيَلَاءُ . وَفِي الْأَصْلِ يَا غَزَالَ الْحَرَمِ فِي الْخَطَا مَاذَا تَطْلُبُ .

وَالْخَطَا : اسْمٌ لَشِمَالِ الصِّينِ ، وَهَذَا الْإِقْلِيمُ يَشْتَهَرُ بِغَزَلَانِ الْمِسْكِ .

عَرَفُوهُ فِي الْوُرُودِ الْحُمْرِ بِالْبِسْتَانِ يَتَدَوُّ لِحَنِّ الدَّامِي الْحَزِينِ قَدْ قَلْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ
 مَنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيرٌ زَادَ نُورًا كُلَّ عَيْنٍ لَيْتَ شِعْرِي لِعَيْشِي الْعَيْنَيْنِ طَبًّا كَيْفَ تَطْلُبُ
 زَاهِدُونَ ، رُؤْيَا الدُّنْيَا كِرَامَاتٌ لَنَا
 نَظْرَةً مِنَّا ، وَمَا يَغْوِيكَ خَلْبًا كَيْفَ تَطْلُبُ

فِي الْحَضَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

مِنْ تَجَلَّى اللَّهَ كَانَتْ جَنَّتُهُ لَا يَرِيحُ الرُّوحَ إِلَّا رُؤْيَاهُ
 نَحْنُ قَوْمٌ قَدْ جَهَلْنَا أَضْلَانَا نَحْنُ طَيْرٌ وَأَضَعْنَا عُشَّنَا^(١)
 عَلَّمْنَا إِنْ كَانَ سَاءَ جَوْهَرَا كَانَ لِلْعَيْنِ الْحِجَابَ الْأَكْبَرَا
 وَإِذَا بِالْعِلْمِ حَقَّقْنَا النَّظَرَ فَالسَّبِيلُ وَالذَّلِيلُ يُعْتَبَرُ
 وَيُورِيكَ لِلْوُجُودِ قُشْرَهُ وَيَقُولُ سَلْ تَبَيَّنْ سِرَّهُ
 رَامَ تَمْهِيدَ الطَّرِيقِ دَائِمَا أَيْقَظَ الشَّوْقَ وَكَانَ نَائِمَا
 وَهَبَ النَّارَ لِقَلْبٍ وَالْوَجِييَا وَبِجُوفِ اللَّيْلِ قَدْ أَهْدَى النَّحِيَا^(٢)
 إِنَّهُ مَا فَسَّرَ الدُّنْيَا لَنَا عَيْنَنَا رَبِّي وَرَبِّي قَلْبَنَا
 وَإِلَى جَذْبٍ وَشَوْقٍ يَرْفَعُكَ مِثْلَ جَبْرِيلَ أَرَاهُ يُبْدِعُكَ^(٣) !
 هَلْ يُتَبَّحُ الْعِشْقُ يَوْمًا عَزَلَةً إِنَّهُ يَخْضُدُ مِنْهُ مُقْلَةً^(٤) !

كَانَ فِي الْبَدْءِ الرَّفِيقَ وَالطَّرِيقَا

ثُمَّ يَمْضِي بَعْدَ أَنْ يَنْسَى الرَّفِيقَا

عَنْ قُصُورِ سِرِّ عَنْ حُورٍ بَعْدَتْ زُورَقِي رُوحِي وَفِي نُورٍ فَقَدَتْ

(١) الطير : الطيور .

(٢) الوجيب : خفقان القلب . والنَّحِيْب : رفع الصوت بالبكاء .

(٣) يبدع : يخلق .

(٤) أي إن العشق لا يبيع للعاشق خلوة مع الحبيب .

والغريقَ كُنْتُ فِي هَذَا الْجَمَالِ
وَفَقَدْتُ فِي ضَمِيرِ الْكَائِنَاتِ
إِنَّمَا أَوْتَارُهَا كَأَنْتَ رَبَابَا
أَسْرَةٌ تَحْنُ بِهَا نَارٌ وَنُورٌ
وَأَمَامَ الرُّوحِ مِرَاةٌ أُقِيمَتْ
وَصَبَاحُ الْيَوْمِ مِلْءُ الْعَيْنِ نُورٌ
وَبِأَسْرَارِ لَهُ رَبِّي بَدَا
وَأَزْدِيَادٌ لَا يَخْشَوْنَ أَنْ يُرَى
رَدَّدَ الْعَبْدُ وَمَوْلَاهُ النَّظَرُ

وَهُوَ بِالتَّبْدِيلِ يَحْمِي مَنْ زَوَالَ
فَالْحَيَاةُ كَالرَّبَابِ الصَّادِحَاتِ^(١)
كُلُّ لَحْنٍ كَانَ فِي قَلْبِي حَرَابَا
آدَمُ وَالشَّمْسُ جَبْرِيلُ وَخُورٌ
بِالْيَقِينِ خَيْرَةٌ طَالَتْ فَثِيَّتُ^(٢)
لَغْدٍ فِيهِ وَلِلْأُمْسِ الظُّهُورُ
نَفْسُهُ بِالْعَيْنِ مَنِّي شَاهِدَا
بَلْ خَرُجُ الْجِسْمِ مِنْ قَبْرِ الثَّرَى^(٣)
فَإِذَا شَكَاوَهُمَا شَكَاوَى الْحَسَرِ^(٤)

طَلَبُ تِلْكَ الْحَيَاةِ حَيْثُ كَأَنْتَ
أَيْنَا الصَّيْدُ ؟ رَمُوزٌ مَا اسْتَبَانَ

لَذَّةُ الرُّؤْيَا كَأَنْتَ فِي جَنَانِي
« أَنْتَ نَوْرَ الْعَالَمِينَ قَدْ وَهَبْنَا
مَا رَأَى الْإِنْصَافَ مِنْهَا الْحُرُّ مَرَّةً
غَالِبٌ فِي الْعَيْشِ مَسْرُورٌ طَرِبُ
إِنَّ الْأَسْتَعْمَارَ مِنْهُ كُلُّ نَكْسٍ
وَعِلُومُ الْغَرْبِ نَهَبٌ يُذَكَّرُ

وَمِنْ الْعِشْقِ جَرُّوْتُ فِي لِسَانِي^(٥)
فَإِلَى دُنْيَا الثَّرَى هَلَّا نَظَرْنَا
غَيْرَ شَوْكِ لَمْ يَجِدْ فِي كُلِّ زَهْرَةٍ
وَاللَّيَالِي عَدَّهَا مَنْ قَدْ غُلِبَ !
يَا لَهُ لَيْلًا يُرِيدُ حَجَبَ شَمْسٍ
وَبِلَا حَيْدَرٍ دَيْرٌ خَيْرٌ^(٦)

(١) الرباب : من آلات الطرب .

(٢) شابه : مزجه .

(٣) يحور : يتقص .

(٤) الحسر : التعب .

(٥) الجنان : القلب .

(٦) المراد بذكر أنَّ هذا النهب معروف للناس يذكرونه جميعاً . وإقبال يشير إلى ما كان من أمر عليّ كرم الله وجهه في غزوة خيبر ، وقد سبق بيان ذلك .

إِنَّمَا الْمُسْكِينُ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَّرُهُ نَدَّ وَمِنْهُ الْعَقْلُ تَاهَا^(١)
 نَحْنُ فِي الدُّنْيَا نَمُوتُ أَرْبَعًا أَذْكَرُنْ مِنْهَا الْمُرَابِّي الْأَجْشَعَا^(٢)
 أَيْلِيْقُ بِكَ هَذَا الْعَالَمُ
 مِنْهُ فِي ذَيْلِكَ طِيْنٌ أَقْتَمُ^(٣)

نداء الجمال الأبدى

مِنْ جَمِيلٍ وَقَبِيحٍ رُبْنَا
 مَا الْوَجُودُ هَلْ عَرَفْتَ يَا نَجِيبُ ؟
 كَانَ هَذَا الْخَلْقُ نِشْدَانًا لِعِشْقٍ
 وَضَجِيجٌ مَا يَكُونُ أَوْ غَبَرُ
 الْفَنَاءِ لِلْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ
 أَنْتَ حَيٌّ ؟ حَنْ شَوْقًا وَاخْلُقِ
 مَا تَرَاهُ لَا يَوَاتِي فَلْتُحْطَمْ
 كُلُّ حُرٍّ كَانَ مَكْرُوبًا حَزِينًا
 أَعْلَى الْإِبْدَاعِ أَنْتَ غَيْرُ قَادِرٍ ؟
 خَطٌّ نَقْشًا ، إِنَّ هَذَا نَقْشُنَا
 مِنْ جَمَالِ اللَّهِ أَنْ يُلْفَى النَّصِيبُ^(٤)
 وَالظُّهُورُ بِالْجَمَالِ عِنْدَ خَلْقِ^(٥)
 بِجَمَالٍ عِنْدَنَا يَبْدِي الْأَثَرُ^(٦)
 إِنَّهَا خَلَقٌ وَشَوْقٌ لِلْقَاءِ
 كُلُّ أَفْقٍ مِثْلُنَا فَلْتَطْرُقِ
 عَالَمًا مِنْكَ إِلَيْكَ فَلْتَقْدَمْ^(٧)
 أَنْ حَوَاهُ عَالَمٌ لِلْآخِرِينَا
 لَنْتَ فِي رَأْيٍ لَدَيْنَا غَيْرَ كَافِرٍ

(١) نَدَّ : نَفَر وَشَرَدَ .

(٢) أَي نَمُوتُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . وَفِي الْأَصْلِ أَنَّ السَّبَّ فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ الْمُرَابِّي ، وَالْوَالِي ، وَشَيْخُ الطَّرِيقَةِ ، وَالشَّيْخُ .

(٣) الْأَقْتَمُ : الَّذِي يَعْْلُوهُ اللَّوْنُ الْقَاتِمُ .

(٤) يُلْفَى : يَوْجَدُ .

(٥) النِّشْدَانُ : الطَّلَبُ . وَالْخَلْقُ الثَّانِي بِمَعْنَى النَّاسِ .

(٦) غَبَرُ : مَضَى .

(٧) يَوَاتِي : يُوَافِقُ .

وعدمت حسنا حتى الأثر مِنْ نَخِيلِ الْعَيْشِ مَا ذُقْتُ الثَّمَرِ
مِنْ رَجَالِ اللَّهِ ؟ كُنْ سِيفاً حُسَامَا
عَالَمَ التَّقْدِيرِ فَاخْلُقْ ، وَالْمَرَامَا^(١) »

زنده رود

عَالَمُ الْأَلْوَانِ عَنْهُ مَا الْخَبِرُ هَلْ يَعُودُ الْمَاءُ يَجْرِي فِي النَّهْرِ ؟
سِرُّ تَكَرُّرٍ عَنِ الدُّنْيَا غَرِيبٌ وَهُوَ فِي طَبْعِ لَهَا أَمْرٌ عَجِيبٌ
لَا تَجُوزُ رَجْعَةً تَحْتَ السَّمَاءِ لَمْ يَقُمْ قَوْمٌ تَلَاشَوْا فِي الْفَنَاءِ
لَا يَقُومُ الشَّعْبُ مِنْ أَعْمَاقِ قَبْرِ
مَا لَهُ مِنْ بَعْدِ قَبْرِ غَيْرِ صَبْرِ

نداء الجمال الأبدى

الْحَيَاةُ أَهْيَ تَكَرُّرُ النَّفْسِ ؟ أَصْلُهَا مِنْ قَوْلِ « يَا حَيُّ » انْبَجَسَ^(٢)
إِنَّ قُرْبَ الرُّوحِ مِنْ ﴿ إِنِّي قَرِيبٌ ﴾ مِنْ حَيَاةِ الْخُلْدِ لِلْمَرْءِ النَّصِيبِ^(٣)
يَرْفَعُ التَّوْحِيدُ فَرْدًا بِالتَّقَاةِ يَجْعَلُ الشَّعْبَ أَحَادِيثَ الرُّوَاةِ^(٤)

(١) السيف الحسام : القاطع .

(٢) انبجس الماء : تفجر .

(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب علماً وإجابةً لتعالیه عن القرب مكاناً . قيل : إِنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَهُ ﷺ : أَقْرَبُ رَبِّنَا فَنَنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدُ فَنَنَادِيهِ ؟ فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ . وَالْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ شَرْطُ فِي قَبُولِ الدَّعَاءِ .

(٤) التقاة : التقوى . وَأَرَدْنَا بِجَعْلِ الشَّعْبِ أَحَادِيثَ الرُّوَاةِ أَنَّ هَذَا الشَّعْبَ مَشْهُورٌ عِنْدَ النَّاسِ بِرَفِيعِ الْقَدْرِ .

وَعَنِ الشُّبْلِيِّ سَمِعْتُ أَوْ أَبِي ذَرٍّ طَغَرْلُ كَانَ لِشُعْبٍ ثُمَّ سَنَجَرُ^(١)
بِالتَّجْلِي كَانَ لِلْمَرْءِ الثَّبَات إِنَّهُ لِلْفَرْدِ وَالشُّعْبِ الْحَيَاةُ
وَلَقَدْ نَالَا بِتَوْحِيدٍ كَمَالَا حَقَّقَا هَذَا جَلَالًا ذَا جَمَالَا
وَهُمَا سَلَمَانُ فِي الْفَقْرِ التَّقْيِ وَسَلِيمَانُ لَهُ الْمُلْكُ الْعَلِيِّ^(٢)
وَيَرَى الْوَاحِدَ هَذَا ، ذَاكَ وَاحِدٌ
جَالِسُنْ هَذَا وَذَاكَ فَلْتَعَاوِدْ

= وينقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد
الامتثالي والتقليدي والتعبدية ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد
الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيد علمي تحقيقي . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة
الإلهية . وثالثها توحيد الواصلين من الصوفية ، وهو توحيد حالي وكشفي . وعندهم
أنَّ حال التوحيد وصف لازم لذات الموحِّد ، وللتوحيد نور يكشف الظلمة عن
الصوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً
له ، ويصبح أشبه شيء بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .
(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث
الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي
بغداد ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادئ التصوف ، وكان
يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابي جليل مشهور بالزهد والورع ،
وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع
في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة
العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين
السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام
٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ،
والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى
للمسلم التقى الذي رفعته تقواه إلى منزلة ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو
سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له بصرفها
بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجن جنودٌ وملكٌ عظيم .

أَنْتِ يَا مَنْ « لَا إِلَهَ » قُلْتَ مَرَّةً أَيُّ شَيْءٍ أَلْفُ عَيْنٍ خَلْفَ نَظَرَةٍ ؟
 وَلَأَهْلِ الْحَقِّ دَعْوَى وَخَدَتْ وَلَهُمْ قَلْبٌ وَدَوْرٌ أَبَعَدَتْ
 تُضْبِحُ الذَّرَّةُ شَمْساً بِالنَّظَرِ نَظَرَةٌ كُنْ ، وَالْإِلَهَ مَا اسْتَتَرَ !
 نَظَرَةٌ بِاللَّهِ كَيْفَ تَزْدَرِيهَا وَالتَّجَلَّى كَانَ لِلتَّوْحِيدِ فِيهَا
 وَإِذَا التَّوْحِيدُ شَعْباً أَشْكُرَا فَمَكَانُ الشَّعْبِ فِي أَعْلَى الدَّرَى ^(١)
 إِنَّ رُوحَ الشَّعْبِ بَيْنَ النَّاسِ كَانَتْ لِلخُلُولِ قَطُّ جِمْماً مَا أَرَادَتْ
 بِاجْتِمَاعِ الْقَوْمِ لِلرُّوحِ الْبَقَاءَ وَالشَّتَاتُ فِيهِ لِلرُّوحِ الْفَنَاءَ ^(٢)
 نَظَرَةٌ شَرَّدَ بِهَا نَوْمَ اللَّحُودِ عِشْ طَوِيلاً دَعَكَ مِنْ هَذَا الشُّرُودِ ^(٣)
 وَخَدَةُ الْأَفْكَارِ وَالْأَعْمَالِ حَقَّقْ
 خَاتَمَ الْمُلْكِ إِلَيْهِ الْيَوْمَ فَاسْبِقْ

زنده رود

مَنْ أَنَا مَنْ أَنْتِ أَيْنَ الْعَالَمُ طَالَ بُعْدُ بَيْنِنَا ! لَا أَغْلَمُ
 قُلْ لِمَاذَا كُنْتَ فِي أَسْرِ الْقَدَرِ لَا تَمُوتُ وَأَمُوتُ مَا الْخَبَرُ ؟

نداء الجمال الأبدي

أَنْتِ فِي دُنْيَا الْحُدُودِ الْأَرْبَعِ كُلُّ مَنْ فِيهَا يَلَاقِي مَضْرَعَةً
 إِنْ تَرَدُّ عِشّاً فَتِلْكَ الذَّاتُ أَسْبَقُ بَعْضُهَا فِي بَعْضِهَا الدُّنْيَا لِتَفْرُقَ ^(٤)
 مَنْ أَنَا مِنْ بَعْدُ تَدْرِي بَلْ وَأَنْتَا كَيْفَ فِي دُنْيَاكَ عِشْتَ ثُمَّ مَتَا

(١) الدَّرَى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .

(٢) الشَّتَات : التفريق .

(٣) أَرَدْنَا بِالشُّرُودِ هُنَا مَا أَرَادَ إِقْبَالَ بَعْدِ الْمُرَكِّبَةِ ، أَيِ : الْخُرُوجِ عَلَى الْجَمَاعَةِ .

(٤) أَسْبَقُ هُنَا بِمَعْنَى أَفْضَلُ ، وَقَبْلُ كُلِّ شَيْءٍ .

أَعِذِرِ الْجَاهِلَ بِالْجَهْلِ اغْتَذِرْ وَالنُّقَابَ ارْفَعُهُ عَن وَجْهِ الْقَدَرِ
ثَوْرَةٌ لِلرُّوسِ وَالْأَلْمَانِ كَانَتْ خَفَقَةُ الْأَرْوَاحِ فِي الْإِسْلَامِ بَانَتْ
دَبَّرَ الشَّرْقُ وَهَذَا الْقَرْبُ دَبَّرَ قُلْ أَجْنَبِي مَا الَّذِي كَانَ الْمُقَدَّرُ

ظهور تجلي الجلال

بَغْتَةً دُنِيََا لِدَاتِي مَا رَأَيْتُ إِنَّ أَرْضِي وَسَمَايِي قَدْ شَهِدَتْ
غَرِقَتْ دُنْيَايَ فِي نَوْرِ الشَّفَقِ وَعَلَيْهَا الْأَحْمَرُ الْقَانِي انْطَبَقَ
بِالتَّجَلِّي مَا جَ عُمُقُ مُهْجَتِي كَالْكَلِيمِ بِالتَّجَلِّي نَشَوْتِي^(١)
نُورُهُ أَبَدِي الْخَفِيِّ لِلْعِيَانِ مِنْهُ قَدْ أَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ اللِّسَانِ

مِنْ ضَمِيرِ عَالَمٍ لِلْكَيفِ وَالْكَمِ
أَطْرَبَ السَّامِعِ مَشْبُوبُ النِّعَمِ
« إِنْسَ شَرْقاً لَا تَكُنْ مِنْ سِخْرِ غَرْبٍ كَالْأَسِيرِ
فَالْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ مَا هُمَا غَيْرَ النَّقِيرِ^(٢)
عِنْدَ شَيْطَانٍ قُمِرَتْ وَفَقَدَتْ خَاتَمًا^(٣)
وَلَدَى جِبْرِيلَ رَهْنٌ أَعْسَرَ الْأَمْرَ الْعَسِيرُ !
الْحَيَاةُ زَانَتِ الْجَمْعِ وَصَانَتْ ذَاتَهَا
أَنْتَ فِي الرِّكَبِ وَحِيداً كُنْ وَوَاكِبِ فِي الْمَسِيرِ^(٤)

(١) الكليم : موسى عليه السلام .

(٢) النقير : النكته في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقارة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .

(٣) قَمَرَ : غلبَ في القِمَارِ .

(٤) الرِّكَب : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : سائر ، وركب =

فَقَتَّ شَمْساً فِي ضِيَاءِ تَغْمُرُ الْأَفَاقَ نَوْرًا
عِشْرُ وَكُلُّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ فَاغْمَرَهَا بِنُورِ
كَهَشِيمِ حَمَلَتِهِ بِالْجَنَاحَيْنِ الصَّبَا
انْقَضَتْ أَيَّامُ خُسْرُو ، دَالَ عَصْرُ الْجَهِيرِ^(١)
ضَيْقُ كَأْسٍ فِي يَدَيْكَ كَانَ لِلْحَنَاتِ عَارًا
ارْتَشَفَ كَأْسَ الْحُمَيَّا وَلَتَكُنْ ذَاتَ الْخَرِيرِ^(٢)



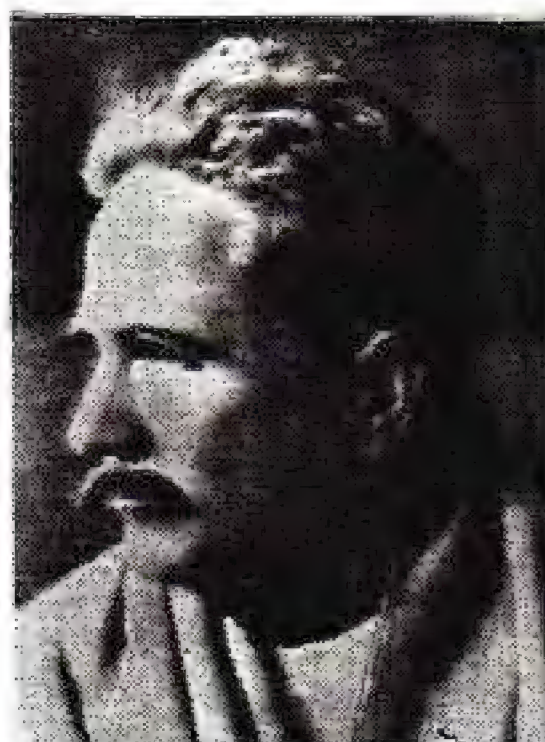
= مع الراكبين .

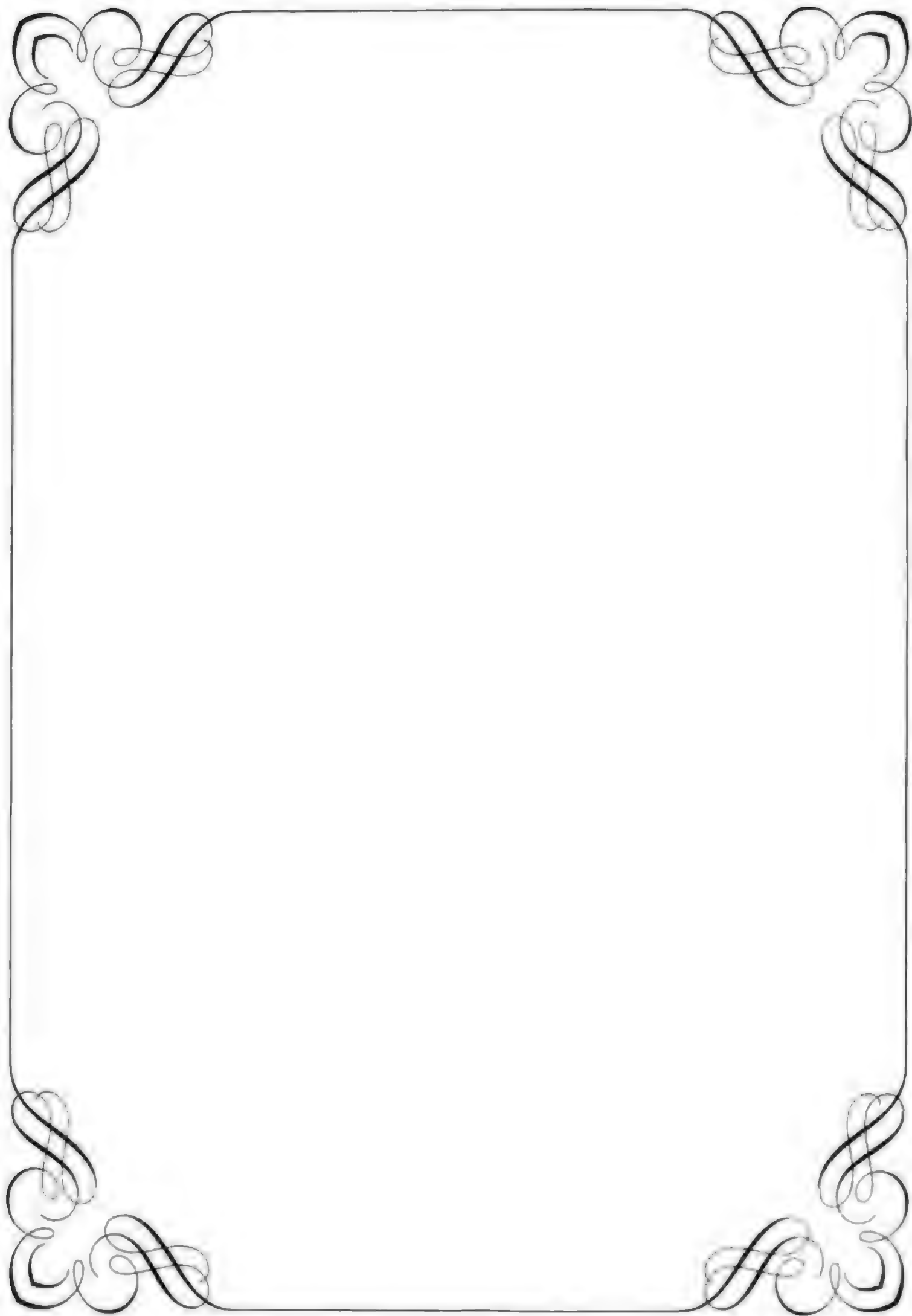
- (١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبي ﷺ إليه رسولاً في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .
- ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخلق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات النسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطب خاصة .
- (٢) الحميا : الخمر . ولإقبال في هذا من كلامه نزعة صوفية جليلة ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .

القسم الثامن

كلمة

إلى الجيل الجديد





وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رقيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفيماً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظماً إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاً وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحداثق كان ماء سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصديق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعنديل في حسن صوته^(١) .

إِنَّ تَمَيُّقَ الْكَلَامِ غَيْرُ مُجْدٍ فَالْفَوَادُ مَا احْتَوَاهُ لَيْسَ يُبْدِي

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .
طبع دار ابن كثير بدمشق .

قُلْتُ قَوْلًا مَا عَلَيْهِ مِنْ حِجَابٍ مَا تَبْقَى مِنْهُ يُبْو عَنْ كِتَابِ !
بِالْكَلَامِ كُلِّ مَعْنَى لِي تَعَقَّدُ وَيَزِيدُ اللَّبْسُ مِنْ صَوْتِ تَرَدَّدِ
نَظَرْتِي مِنْهَا أَفْهَمَنِّ مَا اسْتَعَزَّ^(١)

أَوْ أُنِينِي وَصِدَاهُ فِي السَّحَرِ
بِالنَّيِّمِ بُرْعُمًا قَدْ فَتَحَتْ
فَعَزَزْتُ ، وَبَحْسَنِي صَوْرَكَ
عَلَّمْتُكَ « لَا إِلَهَ » قُلْتُهَا
وَاحْتَرَقَ مِنْ « لَا إِلَهَ » فِي الشَّرَرِ
لِيَكُونَ الْجِسْمُ كَالْمِسْكِ الْفَتِيقِ^(٢)
شَعْلَةً فِي الْقَشْرِ وَالْأَطْوَادِ صَارَتْ^(٣)
بَلْ هُمَا فِي كَفِّ مِضْرَابِ حُسَامِ^(٤)
نَارُهَا نَضْرٌ مَبِينٌ عِشْنَ بِهَا
إِنَّهَا ضَرْبٌ أَفْذُ مِنْ ضَرْبِهَا

مُؤْمِنٌ دَابٌّ لَهُ عَقْدُ النُّطَاقِ
وَيَفْلِسُ شَعْبُهُ وَالْدِّينَ بَاعَا
فِي صَلَاةِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ
إِنَّ نَوْرًا مَا تَبْقَى فِي صَلَاتِهِ
كُلُّ مَنْ يَغْبُدُ فِي الدُّنْيَا الْخُطَامَا
مُؤْمِنٌ بِالْغَدْرِ يَرْضَى وَالنُّفَاقِ !
أُخْرِقَ الدَّارَ فَضَاعَتْ وَالْمَتَاعَا
وَهُمَا كَانَا دَلَالًا فِي الدَّعَاءِ^(٥)
وَالْتَّجَلَّى قَدْ نَأَى عَنْ كَائِنَاتِهِ
عَشِقَ الْمَالَ كَمَا خَافَ الْجَمَامَا

(١) استعر : اشتعل .

(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطع رائحته .

(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .

(٤) المضراب : الكثير الضرب . والحسام : السيف .

(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنها دلالة في دعائه .

ما انتشى ما ذاق شيئاً من حُبُورٍ وكتابُ الدِّينِ في جَوْفِ القُبُورِ^(١)
ويَقُولُ ما يَظُنُّ اليَوْمَ حَقّاً عَنْ نَبِيِّنَ تَلَقَّى ما تَلَقَّى
منَ بلادِ الفُرسِ هذا ، ذاكَ هِندي « حَكْمُ حِجٍّ وَجِهَادٍ لَيْسَ عِنْدِي »^(٢)
إِنَّ حِجَّاً وَجِهَاداً وَاجِبَانِ لَصَلَاةٍ أَوْ لَصَوْمٍ كَالْجَنَانِ^(٣)
إِنَّ رَوْحاً فِي الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ إِنَّ نَأْثَ فَالشَّعْبِ مُخْتَلُ النُّظَامِ
لَيْسَ لِلْقُرْآنِ فِي الْقَلْبِ الْأَثَرُ فِيهِمَا الْأَمَالُ خَابَتْ لِلْبَشَرِ^(٤) !

مَسْلَمٌ عَنْ ذَاتِهِ تِلْكَ انْفَرَدُ

قَدْ طَغَى الْمَاءُ فَيَا خَضِرُ الْمَدَدُ^(٥) !

سَجْدَةً ، وَالْأَرْضُ مِنْهَا زُلْزَلَتْ وَأَرَادَتْ ، فَالشَّمْسُ أُجْرِيتْ
وَالصُّخُورُ إِنْ دَرَتْ عَنْهَا الْخَبَرُ فَهِيَ فِي الْجَوِّ دُخَانٌ وَانْتَشَرُ^(٦)
ذَاكَ عَصْرٌ كَانَ فِيهِ خَفَضُ هَامِ دَبَّ ضَعْفُ الشَّيْخِ مِنْهُ فِي الْحُطَامِ^(٧)
« رَبِّي الْأَعْلَى » أَكَانَتْ عِنْدَنَا ! ذَنْبُهُ هَذَا أَوْ ذَنْبُ لَنَا ؟
فِي سَبِيلِ كُلَّنَا قَدْ أَسْرَعَا لَهُ النَّاقَةُ جَافَتْ مَهْيَعَا^(٨)

صَاحِبُ الْقُرْآنِ مَا ذَاقَ الطَّلَبُ !

الْعَجَبُ ثُمَّ الْعَجَبُ ثُمَّ الْعَجَبُ

إِنْ بِفَضْلِ اللَّهِ فَاضَ عِلْمُكَ فَيَأْتِي لِلزَّمَانِ غَيْرُكَ

(١) الحبور : البهجة .

(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .

(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .

(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين الذين لم يذكر إقبال اسماً لهما .

(٥) انفرد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الفرق .
والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .

(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .

(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .

(٨) جافت : أبعدت . والمهيح : الطريق الواسع .

لَمْ يَخَفْ عَقْلٌ وَقَلْبٌ لَمْ يَذُبْ مَا اسْتَحَثَّ عَيْنٌ وَغَاصَتْ فِي الْكَذِبِ
 كُلُّ عِلْمٍ كُلُّ فَنٍّ كُلُّ دِينٍ لَا تَكُفُّ عَنْ طَوَافٍ حَوْلَ طِينٍ
 آسِيَا أَرْضُ الشُّمُوسِ الْمُشْرِقَاتِ عَيْنُهَا لِلْغَيْرِ ، مَا كَانَتْ لِذَاتِ
 لَا جَدِيدَ جَدًّا لِلْقَلْبِ الْغَرِيرِ نِلْتُ مِنْهَا الرِّيحَ أَوْ حَبَّ الشَّعِيرِ ^(١)
 وَحَوَاهَا ذَلِكَ الدَّيْرُ الْقَدِيمِ فِي جُمُودٍ وَخُمُودٍ لَا تَرِيمُ ^(٢)
 صَيِّدُ شَيْخٍ أَوْ لِسُلْطَانٍ مَلِكٍ فَكَّرُهَا ظَبْيٌ وَلَكِنْ فِي الشَّرْكَ
 عَقْلُهَا وَالْدِّينُ بَلْ حَتَّى الشَّرَفِ مِنْ رِكَابِ « اللُّورْد » كَانَتْ فِي طَرَفِ
 فَعَلَى أَفْكَارِهَا كُنْتُ الْمَغِيرَا وَعَنِ الْأَسْرَارِ مَرَّقْتُ التُّنُورَا
 فَاضَ قَلْبِي بِالذَّمَا مِنْ فَرْطِ جَهْدِي
 ثُمَّ دُنِيَاهَا أَنَا غَيَّرْتُ وَخُدِي
 وَبَطْنِ الْعَصْرِ قُلْتُ لَفْظَتَيْنِ إِنَّ لِي بَحْرَيْنِ فِي قَارُورَتَيْنِ
 لَفْظَةً تَلَفْتُ أُخْرَى تَلَسَّعُ وَالْعَقُولُ فِي شِرَاكِي أَجْمَعُ ^(٣)
 لَفْظَةً كَانَتْ بِمَقْيَاسِ الْفَرَنْجِ نَعْمَةٌ سَكْرَى وَمِنْ أَوْتَارِ صَنْجِ ^(٤)
 أَصْلُ هَذِي الذِّكْرِ تِلْكَ بِنْتُ فِكْرٍ قَدْ وَرِثَتْ ذَا وَهَذَا ، لَسْتُ تَدْرِي ^(٥)
 إِنِّي نَهَرٌ وَمِنْ تَبَعٍ لِأَصْلِي إِنَّ فَصْلِي كَانَ فَصْلًا وَهُوَ وَصْلِي ^(٦)
 طَبَعُ عَصْرِي ذَاكَ لَمَّا أَنْ تَغَيَّرَ

- (١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشعير ، فكأنه لم يظفر منها بشيء .
- (٢) رام : فارق المكان .
- (٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقرب تلسع ، وهو يشير بذلك من طرف خفي إلى كتاب له بالإنجليزية بعنوان « إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام » كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .
- (٤) الصنج : معزف ذو أوتار .
- (٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .
- (٦) يريد بهذا المنيع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيَّرَ الْأَصْدَاءَ صَوْتٌ لِي تَحَرَّرُ

ظَمِئَ الْفَتَيَانُ مَا فِي الْكُوبِ قَطْرَةٌ
شَكُّهُمْ يَزُبُّو وَيَجْتَاحُ الْيَقِينَا
يُنْكِرُونَ الذَّاتَ ! إِيْمَانٌ يَغْيِرُ !
لَيْسَ يَدْرِي الْقَصْدَ مِنْهُ الْمَكْتُبُ
وَمِنْ الْأَرْوَاحِ يَمْحُو نُورَ فِطْرِهِ
صَفَّ أَحْجَارَ الْبِنَاءِ لَيْسَ يَدْرِي
وَعَلَى وَقْدٍ إِذَا لَمْ يَغْتَمِذْ
وَبِهِ شَرْخُ الْمَقَامِ كَانَ غَايَةً
وَبِنَارِ الْحَسِّ طَوْعاً فَاخْتَرَقَ

بَادَىءَ بِالْحَسِّ يُنْهَى بِالْحَضُورِ

آخِرُ الْعِلْمِ أَيْقَى فِي الشُّعُورِ !

كَمْ كِتَابٍ فِيهِ أَغْشَيْتُ الْبَصَرَ
إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ صَبُّ خَمْرَةٍ
تُطْفِئُ الْمَصْبَاحَ أَنْفَاسُ لِفَجْرِ
لَا تُطِلُ فِي الْقَوْلِ وَاقْنَعُ بِالْغِرَارِ
مَنْكَرُ اللَّهِ لَدَى شَيْخٍ كَفَّرُ

خَيْرُ عِلْمٍ مَا عَرَفْتُ بِالنَّظَرِ^(٤)
يَا لَهَا مِنْ بَعْدُ رَشْفٍ سَكْرَةٍ !
وَرْدَةُ الْبِسْتَانِ مِنْهَا كَأْسُ خَمْرِ^(٥)
حَوْلَ ذَاتِي كُنْ كَفَرَجَارٍ مَذَارٍ^(٦)
مَنْكَرُ الذَّاتِ لَدَيَّ مِنْهُ شَرٌّ^(٧)

(١) التراب : التراب . والبنيان : الجدار .

(٢) الوقْد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .

(٣) اللجين : الفضة . والصفَر : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .

(٤) أعشاه : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .

(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفىء نور المصباح ، كما يفتح الهرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكانها كأس خمر .

(٦) الغرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .

(٧) أي : أن منكر الذات أشدُّ كفرًا ، وأكثر شرًّا من منكر الله .

منكراً لله بإنكار عَجُولٍ وعلى الإخلاصِ شِدْدَ قَبْضَتِكَ
 وعلَى الْإِخْلَاصِ شِدْدَ قَبْضَتِكَ اَرْضَ عَنْ عَذْلِ الْقَوِي لَا تَبْتَعِذْ
 ذَا عَجُولٍ وَظُلُومٍ بَلْ جَهُولٍ يَضْعُبُ الْحُكْمُ ؟ حَذَارٍ لَا تُؤُولُ
 رَهْبَةَ السُّلْطَانِ جَنْبَ شَيْمَتِكَ^(١) يحفظُ الأرواحَ ذِكْرٌ ثُمَّ فِكْرُ
 فِي غِنَاكَ بَلْ وَفِي الْفَقْرِ اقْتَصِدْ كُلُّ حَكَمٍ فِي انْخِفَاضٍ وَارْتِفَاعٍ
 وَعَلَى قَلْبِكَ مَصْبَاحاً فَعُولٌ^(٢) لَذَّةُ لِلشَّيْرِ غَايَاتُ الشَّفَرِ
 يحفظُ الْجِسْمَ لِتِلْكَ النَّفْسِ أَسْرَ وَيَدُورُ الْبَذْرُ يحظى بِالْمَقَامِ
 نَالَهُ جَسَماً وَرُوحاً مَنْ يُرَاعِي أَنْ تَطْيِيرَ ، لِلْحَيَاةِ مَتْعَةً
 لَا تَطْرُزُ إِنْ خَطَّتْ بِالْعِشِّ النَّظَرَ^(٣) الغُرَابُ رِزْقُهُ فِي جَوْفِ قَبْرِ
 مَا الْمَقَامُ عِنْدَهُ غَيْرُ الْحَرَامِ^(٤) عِنْدَ شَمْسِ رِزْقٍ شَاهِينَ ، وَيَذُرُ
 وَالتَّزَامُ الْعِشِّ فِيهَا ضَيْعَةٌ إِنَّ سِرَّ الدِّينِ أَكْلٌ لِلْحَلَالِ
 وَالْغُرَابُ رِزْقُهُ فِي جَوْفِ قَبْرِ كُنْ قَوِيّاً وَابْغِ بِالْدِّينِ الْيَقِينَا
 عِنْدَ شَمْسِ رِزْقٍ شَاهِينَ ، وَيَذُرُ بَعْضُ سِرِّ الدِّينِ مِمَّا لَيْسَ يَظْهَرُ

- (١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .
- (٢) عول عليه : اعتمد عليه .
- (٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .
- (٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا . ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فيمعنى الإقامة .
- (٥) التملّي : التمتع .
- (٦) في الأصل : كن صلباً كالماس وأبعد عن نفسك الوسواس .
- (٧) مظفر : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهو في أعماله فَرْدٌ قَرِيدٌ
فرساً كان يُعَزُّ كالوَلَدِ
أَدْهَمٌ مِنْ خَيْرِ أَفْرَاسِ الْعَرَبِ
وَلَدَى الْمُؤْمِنِ عَزٌّ أَوْ نَفْسٌ
أَيُّ وَصْفٍ ؟ إِنَّهُ خَيْرُ الْجِيَادِ
فِي الْحُرُوبِ مُشَبَّهٌ لَمَخِ الْبَصَرِ
عَذْوُهُ مَوْزٌ وَفَوْزٌ يَوْمَ حَشَرِ
أَشْبَهَ الْإِنْسَانَ فَاعْتَلَّ الْجَوَادِ
أَحْضَرَ الْبَيْطَارُ دَنًّا مِنْ شَرَابِ
غَضِبَ الْعَاهِلُ قَالَ لَا أَرِيدُ

فِي عُلُوٍّ لِلْمَقَامِ بِإِزِيدِ
مِنْ حُرُوبٍ خَاضَ أَمْسَى فِي كَبْدٍ^(١)
وَنَجِيبٌ وَكَرِيمٌ فِي النَّسَبِ^(٢)
الْكِتَابُ وَالْحُسَامُ وَالْفَرَسُ^(٣)
مَرَّ رِيحاً بِالْغَدِيرِ وَالنُّجَادِ^(٤)
أَوْ كَرِيحٍ زَلْزَلَتْ طَوْدَ الْحَجَرِ
يَسْحَقُ الْحَافِرُ مِنْهُ كُلَّ صَخْرٍ
ذَاتَ يَوْمٍ ، قِيلَ أَضْنَاهُ الْكُبَادِ^(٥)
وَسَقَاهُ فَاَنْتَفَى دَاءُ الْعَذَابِ^(٦)
ذَا الْجَوَادِ ، فَالْتَقَى مِنِّي بَعِيدُ

نَلِيتَ مِنْ رَبِّكَ قَلْباً مُنْخَتَه

مَسْلَمٌ هَذَا تَأْمَلْ طَاعَتَه

إِنَّمَا الدِّينُ احْتِرَاقٌ فِي الطَّلَبِ
وَبَلَوِي عَزٌّ وَرَدٌّ أَوْ يَعْطُرُ
إِنْ رَأَيْتَ الشَّابَّ هَذَا قَدْ فَقَدَ
وَتَزِيدُ حُرْقَةً كَانَتْ بِصُدْرِي
وَأَتُوبُ مِنْ زَمَانِي الْحَاضِرِ

وَهُوَ عِشْقٌ ثُمَّ يَتَلَوُهُ الْأَدَبُ
أَدَبٌ إِنْ غَابَ كَانَ شَرًّا إِضْرَ^(٧)
فَنَهَارِي ضَاعَ فِي لَيْلِ الْأَبَدِ
فَلَا يَمُوتُ النَّبِيُّ كَانَ ذِكْرِي
لَاغِيْبٌ فِي الزَّمَانِ الْغَائِرِ

(١) فِي كَبْدٍ : فِي نَعْبٍ .

(٢) الْأَدْهَمُ : الْأَسْوَدُ . وَقَدْ يَكُونُ هَذَا السَّوَادُ شَدِيداً أَوْ هِيناً .

(٣) عَزٌّ : صَارَ عَزِيزاً ، وَنَفْسٌ : صَارَ نَفِيساً . وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ : الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

(٤) الْغَدِيرُ : النَّهْرُ . وَالنُّجَادُ : جَمْعُ نَجْدٍ ، هُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٥) اعْتَلَّ : مَرَضَ . وَالْكُبَادُ : دَاءُ الْكَبِدِ .

(٦) الْبَيْطَارُ : طَبِيبُ الْحَيْلِ . دَنُّ الشَّرَابِ : جَرَّةُ الْخَمْرِ . انْتَفَى : طَرَدَ .

(٧) الْإِصْرُ : الذَّنْبُ .

يَسْتُرُ الْمَرْأَةَ زَوْجٌ أَوْ ثَرَابٌ وَالرُّجَالُ حِذْرَهُمْ كَانَ الصُّحَابُ^(١)
تَنْطِقُ الْعَوْرَاءُ ؟ ذَا كُلُّ الْخَطَا كَافِرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ رُبِّي بَرَأ^(٢)
أَنْتَ إِنْسَانٌ ؟ أَخَاكَ فَاخْتَرِمُ لَيْسَ مِنَّا غَيْرَ هَذَا مَنْ عَلِمَ^(٣)
تَرِبْتُ النَّاسَ جَمِيعاً عُزْوَةً مِنْكَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ خُطْوَةٌ ؟
وَلَعَبْدُ الْعِشْقِ مِنْ رَبِّ طَرِيقٍ وَعَلَى الْكَافِرِ وَالْبَرِّ الشَّفِيقِ^(٤)
ضَمَّنَ الدِّينَ وَكَفَرَا قَلْبُكََا وَإِذَا مَا الدِّينُ فَرَّ وَيَلْكََا !
لَيْسَ هَذَا الْقَلْبُ إِلَّا سَجْنُ طِينٍ
إِنَّ فِيهِ كُلَّ أَفْقٍ كَالْوَضِيِّينَ^(٥)
إِنْ رَأَسْتَ الْقَوْمَ أَوْ صِرْتَ الْغَنِيَا فَعَلَى الْفَقْرِ اخْرِصْنَ يَا بُنْيَا^(٦)
إِنَّهُ فِي الزُّوجِ مِنْكَ يَتَّقِدْ عَنْ أَبِي خَمْرًا وَرِثْتَ بَلْ وَجَدَ^(٧)
لَا تَوْمَلْ غَيْرَ قَلْبِ ذِي أَلَمٍ ادْعُ رَبًّا وَانْسَ كُلَّ مَنْ حَكَمَ

- (١) يقول : إِنَّ المرأة يسترها أن تتزوج أو تموت . كما يستر الرجل أن يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .
- (٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .
- (٣) أي لا يعد إنساناً منّا من تناسى وجوب احترام أخيه في الإنسانية .
- (٤) البرّ : من يطيع الله .
- (٥) الوضيين : ما انطوى وانثنى .
- (٦) الفقر من مقامات الصّوفية . وهو ليس فقدان الغنى ليس إلا ، بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاه بعض الصّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إِنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ وَلَا يَمْلِكُ ، وَالَّذِي اسْتَصَفَى نَفْسَهُ فِي فَقْرِهِ تَقَرُّباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين ، ويؤثر عن الصّوفية قولهم « الفقر فخري » .
- (٧) يشبه الفقر بالخمير المعتقد . والخمر في مصطلح الصّوفية نشوة العشق الإلهي .

كَمْ حَصِيفٍ وَهُوَ بِالْحَقِّ الْبَصِيرِ غَمَرَتْهُ نِعْمَةٌ فَهُوَ الضَّرِيرُ ^(١)
 فِيهَا تِلْكَ الْقُلُوبُ أَضَلَّتْ وَدَعَاءَ الْعَبْدِ عَنْهَا أَبْعَدَتْ ^(٢)
 فِي الْبِلَادِ جُلْتُ أَعْوَاماً طَوَالاً لَغْنِي مَا رَأَيْتُ الدَّمْعَ سَالاً ^(٣)
 أَهْلَ فَقْرٍ مِنْ قَدَيْتُ ، طَبْتُ نَفْسَا
 وَيْلُ مَنْ بِالنُّعْمَةِ الرَّحْمَنَ يَنْسَى
 أَتَرَوْمُ الذُّوقَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَتُرِيدُ الشُّوقَ فِيهِمْ وَالْيَقِينَ
 إِنَّ لِلْقُرْآنِ عِلْماً لَيْسَ يُعْرَفُ وَالذُّنُوبُ إِنَّهُمْ أَهْلُ التَّصَوُّفِ !
 الصَّيَاحُ وَالْعَجِيجُ فِي الْخَوَانِقِ أَيْنَ خَمِيرٍ لِحُسْنِ اللَّهِ عَاشِقٍ ^(٤)
 قَلَدَ الْإِفْرَنْجَ مَنَا الْمَسْلُومُونَ مِنْ سَرَابٍ كَوْنَرٍ مَا يَطْلُبُونَا
 وَبِئْسَ دِينَنَا مَا عَلَّمُهُمْ ؟ أَهْلُ حَقْدٍ وَعَدَاءٍ كُلُّهُمْ
 كُلُّ خَيْرٍ لِلْخَوَاصِّ كَالْحَرَامِ مَا رَأَيْتُ الصَّدَقَ إِلَّا فِي الْعَوَامِ
 التَّقِيَّ مِنْ غَوِيٍّ مِيزَنُ مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْفَضْلِ اجْلِسَنُ
 إِنَّمَا النُّشْرُ تَقَالِيداً أَلْفُ
 سَطْوَةُ الشَّاهِينَ طَارَ ، تَخْتَلِفُ
 رَجُلٌ اللَّهُ يُلَوِّحُ مِثْلَ بَرْقِ حَطْباً يَجْعَلُ مِنْ غَرْبٍ وَشَرْقِ
 نَحْنُ كُنَّا فِي ظِلَامِ الْكَائِنَاتِ وَهُوَ ذُو حِذْقٍ يَحُلُّ الْمُغْضَلَاتِ
 وَالْكَلِيمُ وَالْمَسِيحُ وَالْخَلِيلُ وَالنَّبِيُّ وَالْكِتَابُ ، جِبْرِئِيلُ ^(٥)
 إِنَّ أَهْلَ الْقَلْبِ شَمْسُ الْكَائِنَاتِ نَوْرُهَا وَهَابُ هَاتِيكَ الْحَيَاةِ

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أضلّت الأرض : ضلّت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين .
والخمير : مدمن الخمر . والمراد به الصوفي .

(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهي في نور لها قد أحرقتكما
تَحْنُ بالنَّار لها أصحابُ قلب
أنتَ في عَضْرٍ ولكنَّ أيَّ عَضْرٍ
قَحْطُ رُوحٍ سِغَرُ جِسْمٍ انْقِصَا
إِنَّ هَذَا مَا دَرَى مَعْنَى الطَّلَبِ
ذوقُ ذاكِ البَحْثِ لَا تَتْرُكُهُ مَدَّةُ
صُخْبَةِ النَّدْبِ اللَّيْبِ إِنَّ عَدَمَتَا
اجْعَلِ الرُّومِيَّ رَافِقاً فِي الطَّرِيقِ
يَعْرِفُ الرُّومِيَّ لِبَاباً مِنْ قُشُورِ
فَرَوْهُ مَا دَرَى الْمَعْنَى أَحَدُ
رَقْصِ جِسْمٍ مِنْهُ كَانُوا يَفْهَمُونَا
رَقْصَةُ الْجِسْمِ تَدُورُ بِالثَّرَابِ
رَقْصَةُ الْأَرْوَاحِ عِلْمٌ وَهِيَ حُكْمٌ

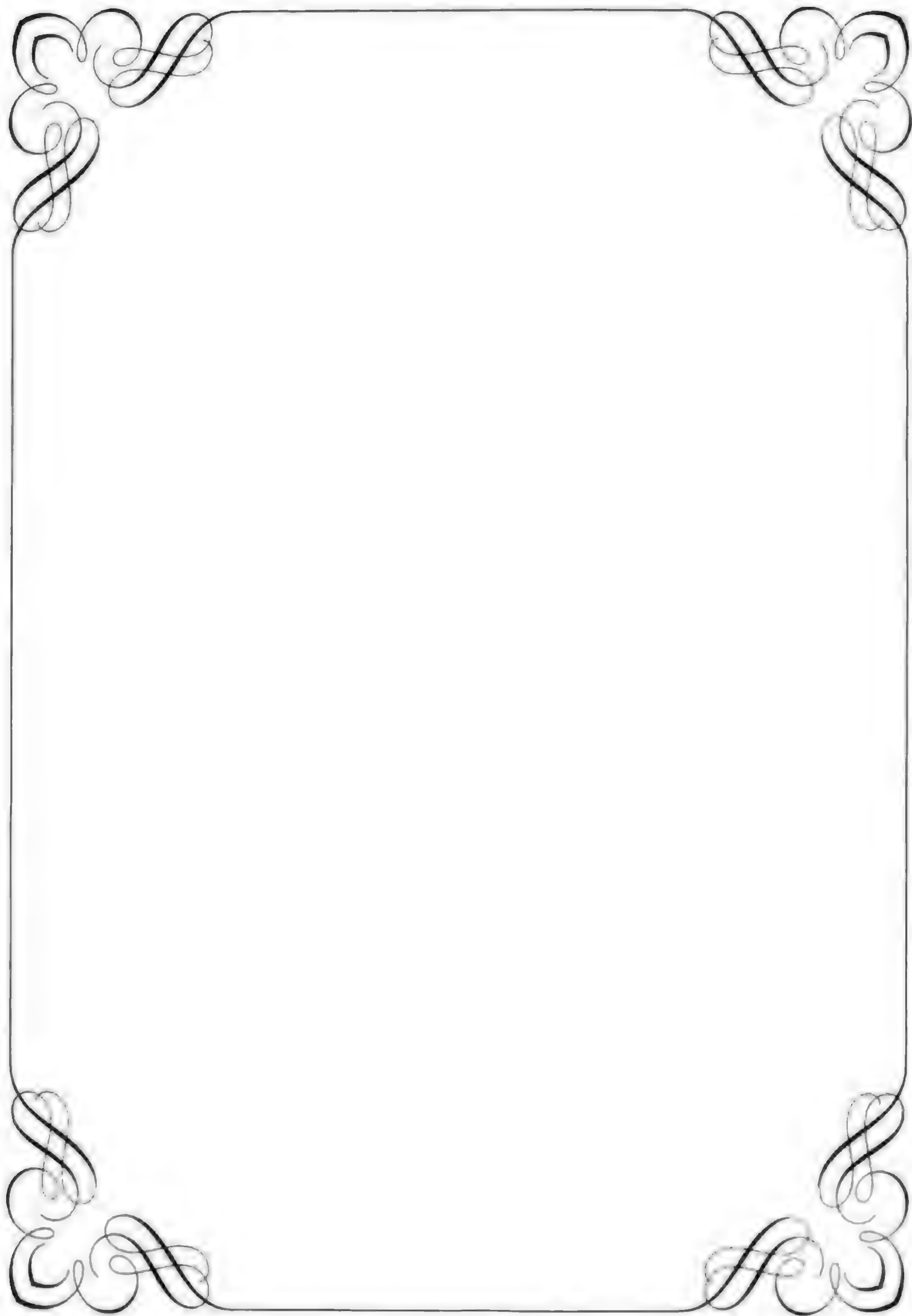
ذَلِكَ السُّلْطَانُ يَغْدُ عِلْمَتُكَ
أَوْ فَمَا مَاءٌ وَطِينٌ مِثْلَ شَوْبِ (١)
غَارِقٌ فِي الْجِسْمِ ، رَوْحاً لَيْسَ يَدْرِي
رَجُلُ اللَّهِ لَذَاتِ نَكْصَا (٢)
وَهُوَ بِالْعَيْنِ يَرَى يَا لِلْعَجَبِ
وَلَتَوَاجِعُ فِي الْحَيَاةِ أَلْفَ عُقْدَةٍ
مَا لَدَيَّْ عَنْ أَبِي هَلَّا أَخَذْتُهَا
يُنْعِمُ اللَّهُ بِمُشْبُوبِ الْخُفُوقِ (٣)
فِي الطَّرِيقِ كَانَ مَوْضُوعَ الْمَسِيرِ
إِنَّ مَعْنَاهُ غَزَالٌ قَدْ شَرَدَ
رَقْصَةُ الرُّوحِ تَنَاسَى الْغَافِلُونَا
رَقْصَةُ الرُّوحِ لَهَا نَجْمُ السَّحَابِ
وَإِلَيْنَا الْأَرْضُ وَالْخَضِرَا تُضْمُ (٤)

- (١) الشوب : القطعة من المعجين . والمراد بها جسم الإنسان .
(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .
(٣) المشبوب : المشتعل .
(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدثنا عن رقص الدراويش المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣ هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . وجرت عاداتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانة أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلائسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحي حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتقرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم .

جَذْبَةً لِلْفَرْدِ مِنْهَا كَالْكَلِيمِ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ ذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ^(١)
 إِنَّ هَذَا لَيْسَ سَهْلًا فِي التَّعْلَمِ وَلَغَيْرِ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ التَّضَرُّمِ^(٢)
 وَبِنَارِ الْحَرَصِ إِنَّ قَلْبًا حَرَقْنَا فَبِرُوحِ مَنْكَ قَطُّ مَا رَقَصْنَا^(٣)
 يُضْعِفُ الْإِيمَانَ فِي الْإِنْسَانِ هَمٌّ يَا بَنِي إِنَّهُ نِصْفُ الْهَرَمِ^(٤)
 هَلْ عَلِمْتَ ؟ الْحَرَصُ فَقَرُّ حَاضِرُ إِنَّ مَوْلَايَ لَذَاتِ قَاهِرُ^(٥)
 بِكَ يَا « جَاوِيدُ » لِي رَوْحٌ تَطِيبُ آهَ لَوْ وَافَاكَ مِنْ هَذَا نَصِيبُ^(٦)
 لَشَرَحْتُ دِينَ خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَأَطَلْتُ لَكَ فِي قَبْرِ دُعَائِي

وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب ويتزعمهم من عالم
 الثرى ليمو بها إلى العالم العلوي ، كما يشير الطرب في النفوس والخوف عند
 النَّائِبِينَ ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت
 البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن
 في ارتفاع وانخفاض . والموجُ بَعْدَ هبوطه إلى البحر يعود . وما مَثَلُ البحر إلا مثل بني
 الإنسان ، لأنَّهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
 ومن مستطرف ما يروى عن السلطان سليم العثماني ، أنَّه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته
 قونية ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسّطاً : إِنَّ مَا فِي تِلْكَ
 الْأَرْضِ مِنْ تَلَالٍ وَأَحْجَارٍ وَغَبَارٍ يَرْقُصُ رَقْصَةَ الْمَوْلُودِ .

- (١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
 (٢) التضرُّم : اشتعال النار .
 (٣) حرق : بمعنى أحرق .
 (٤) قال النبي ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
 (٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدُ
 لمن قهر ذاته .
 (٦) جاويد : اسم ابن إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص
 الروح . ووافاك : بمعنى أناك .



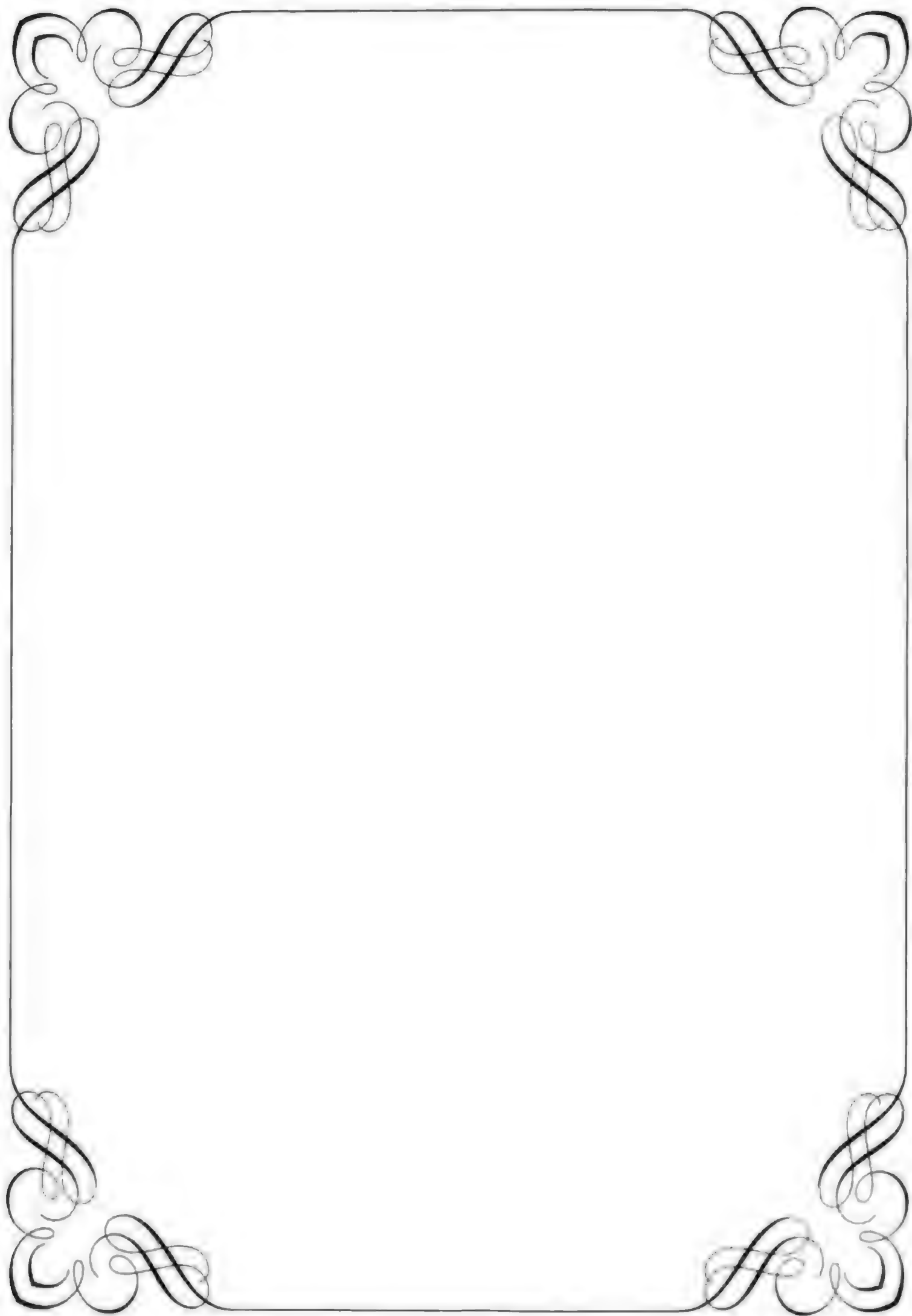
الدِّيَّوَانُ الثَّامِنُ

وَالآنَ... مَاذَا نَصْنَعُ؟
يَا أُمَّ الشَّرْقِ ..

بس چه باید کرد ای اقوام شرق

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ
الاستاذ أحمد الفساري

صَلَّاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الشيخ صاوي شعلان المصري



أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيّة ، صاغه على وزنٍ مثنويٍّ مولانا جلال الدّين الرّومي من بحر الرّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦ م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأموّاج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنّا النظر في هذا الديوان تبين لنا أنّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلّ بيت فيه قطرات الشّوق والحبّ والاضطراب الرّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدّين الرّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامة وفي هذا الديوان بخاصّة ، موضوع نهضة الشّرق ، يقول : إنّ الشّرق هو الذي هدى الغرب إلى التّقدم والرّقيّ العالي ، وإلّا فلقد كان أهل الغرب متخلّفين عنّا في كلّ ناحية من نواحي المدنيّة والحضارة ، وحيث كانت أوربة غارقة في لجة من التعصّب ، والجهل ، والحروب الدّاخلية الدّارية ، كنا - أهل الشّرق - في أرقى منزلة من منازل العلم ، والفنّ ، والمدنيّة ، والحضارة . وهذا هو الشّرق الذي هدّب الأمم الغربيّة بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبّ وغيرها .

والموضوع الثاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « إذا أمكن تطهير الفكر في أمّة استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو

أمعناً النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولاً على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجل ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنه يعني فراغ اليد من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوي في كيان الحقيقة كلها ، بأن كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشاء .

وقد اصططلحت الصوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عما سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظن البعض أن فقر الصوفية هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : إن الفقر قد يعني ترك الدنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والزهد الغالي ، وإنما يعني تسخير الدنيا أولاً ، ثم العزة ، والعفة ، والاستغناء ، كما سخرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنهم لم يغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .

وليس من شأن المسلم أن تستعبده مادة الحياة الدنيا وخطامها ؛ لأنه أرفعُ قدراً ، وأعزُّ مكاناً ، وأنبَلُ هدفاً لأنه له خلافة الأرض ، فالمؤمن الفقير - المؤمن الكامل - هو الذي يُزلزل بعزيمته هذه الكرة المسكونة ببرّها وبحرها ، والفقر النبل العفيف هو احتقار زهو الدنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللغة الفارسيّة ، فنقله منها الأستاذ
أحمد غازي إلى العربيّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميّ المعروف الشيخ صاوي
شعلان المصري شعراً بالعربيّة ، وهو الآن بين أيديكم .

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبه لمرشده الرُّوحِي مولانا جلال الدين الرُّومِي ، مجدّد التصوُّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمَّ يُلقِي الضوء على المكانة العالية التي يحتلّها الرُّومِي في نظر الشاعر .

ويركّز في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومِي ، يقول :

<p>كنْ مثل إبراهيم في الإيمان الشَّعبُ يني عِزَّهُ بكفاحه ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا ما فوق أرضِ الله شعبٌ ظافرٌ إلا إذا عقل الجنون وإنما المؤمنُ المقدامُ يمضي قاهراً وإذا ارتضى للذلِّ أمسى كافراً من كان يدري فَرْقَ ما ينتابه وبأنَّ الاستعمارَ أسرعُ بالردى وبأنَّ للأحرارِ بعد فنائهم وهناك يَرْفَعُ سهمُهُ نحو العلا شُمُّ الجبالِ تذوب في خطواتها كم ثورةٌ للمجدِّ طيُّ ثيابه لا يتركُ الدُّنيا تعيشُ وشعبه العِطرُ مستترٌ ويسري ظاهراً لا تخدعَنَّك في الرُّبى ألوانها</p>	<p>حتى تزيلَ معابدَ الأوثان ليشيدَ مجدداً ثابتَ الأركان يوماً تمرُّدُهُ على الطُّغيان يلوغُ آمالٍ ونيلَ أمانِي يحلُّو جنونَ الحبِّ للأوطان بالعزِّ والإقدامِ دونِ توانِي باللهِ أو بكرامةِ الأوطان في دَهْرِهِ مِنْ عِزَّةٍ وَهَوَانِ للناسِ في الدُّنيا من الحَدَثانِ عمرأً على الأيامِ ليس بفاني ويقيمُ رايته على كيوانِ حتى تفوقَ الماءَ في الجريانِ كالنَّارِ تَقْذِفُ ثورةَ البركانِ فيها قَتيلُ الذلِّ والجُرْمانِ كنْ أنتِ مثلَ العِطْرِ في البُستانِ كنْ خالياً فيها من الألوانِ</p>
--	--

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم
 فالذِّين إرضاءُ الدَّخيل وليس
 فقلوبُهم وجيوبُهم وعقولُهم
 لا تصحبُن في شربِ كاساتِ المنى
 لا ترجُ في نُدْماءِ غدرِ نشوةٍ
 لا تُفشِ للأنعامِ أسرارَ الأسو
 مَنْ شابَ في نسجِ الحَصيرِ فما له
 والذُّبُ يأكلُ يوسفاً خيراً له
 مرشِدُ الأرواحِ مولانا جلال^(١)
 مشرقُ الإيمانِ قدسيّ الضَّميرِ
 قد علا منزلةُ الشمسِ مقاماً
 قلبه في مُحْكَمِ الذِّكْرِ صفاً
 لو رأى مرآته بين الملا
 رأيته المرسلُ بالعشق نداه
 قال شيئاً سَمِعْتَه فطرتي
 أممُ الدُّنيا صَحَّتْ بعد سبات
 وأفاقَ الشُّرقِ من نومٍ طويل
 جَذْبَةً واتته مِنْ دَفْعِ القَدَرِ
 أممُ الغربِ تبيّنت مَداها
 كُنْ كإبراهيمَ سُكُراً وهُياماً
 اجْعَلِ الأصنامَ في الأرضِ هَشِماً
 مِنْ ضميرِ الشَّعبِ من إيمانه
 هي نورٌ يجتليه المُصلِحونَا

لم يهتدوا إلّا إلى الأبدان
 مرضاةَ الإله الواحدِ الذِّيان
 للأجنبيّ تقَرُّبٌ وتفانٍ
 إلّا وفيأ صادقُ الوجْدانِ
 ولو أن فيهم قيصرُ الرُّومانِ
 ولا حديثُ الصَّقْرِ للغُربانِ
 يوماً إلى نسجِ الحريرِ يَدانِ
 من أن يُباعَ لتاجرِ العُبدانِ
 شيخُنا الروميُّ علويُّ المِثالِ
 وهو في قافلةِ العِشقِ أميرِ
 ضارباً في مسبحِ النُّجمِ خياماً
 بهدئِ القرآنِ أضحى مُضحفاً
 جام (جمشيد) تواری خجلا
 أشعلَ الثورةَ في قلبي صداه
 وَتَجَلَّى نغماً في فِكرتي
 واستبانَت كُنهَ أسرارِ الحياةِ
 يكسرُ الأغلالَ والقَيْدَ الثقيلِ
 فأزاحَ العِيبَ عنه وانتصر
 ما اكتوى مثلك حيٌّ بلظاها
 لتصيرُ النَّارُ برداً وسلاماً
 لا تغادرُ هيكلًا منها قديماً
 تنبتُ الثورةَ في وجْدانه
 قاصرُ العقلِ يسميها جنونا

(١) قد سبقت ترجمته .

إِنَّ قَوْمًا لِلْهَوَىٰ يَسْتَلِمُونَ
 لَنْ يَقِيمُوا نَهْضَةً تَمْحُو الْهَوَانَ
 كُلُّ مَنْ تَحْتَ الْفَضَاءِ الْأَزْرَقِ
 ثِقَةُ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ عَتَادُ
 شِمَةُ الْمُؤْمِنِ عِزُّهُ وَثِقَةُ
 بِهِمَا يَسْتَمُو وَيَمْضِي قَاهِرَا
 نَظَرَةُ الْمُؤْمِنِ مَصْبَاحُ مَنِيرِ
 عِزُّهُ الْوَثَابُ لَا يَخْشَى الصَّعَابَا
 حَوْلَتْ ضَرْبَتُهُ صُمَّ الصَّفَا
 يَدْرُكُ الْأَمَالَ بِالْفَقْرِ الْغُيُورِ
 وَمَضَى عَازِفًا نَايَ الْعَاشِقِينَ
 حِينَ أَذْرَكْتَ الْمُنَى فِي صَحْبَتِي
 حَالٍ فِي نَشْوَتِكَ الْعِزُّ الصَّمِيمِ
 كُنْ مِنَ الرُّوضِ قَرِيبًا نَائِيَا
 بَيْنَ أَلْوَانِ الرُّوَابِي وَاعِيَا
 كُنْ مَعَ الْكُلِّ عَلَى هَذِي الْإِلَهِ
 قُوَّةُ الرُّوحِ هِيَ السُّحْرُ الْعُجَابِ
 فَلَدِيهِمْ حُبٌّ غَيْرِ اللَّهِ دِينَ
 ذَلِكَ السِّرُّ وَهَذِي الْمَعْرِفَةُ
 مُنْذُ بَدَأَ الْخَلْقَ فِي مَاضِي السَّنِينَا
 حُرِمَتْ أَعْيُنُهُمْ نَوْرَ الْقُلُوبِ
 لَمْ يَرَوْا فِي الْكُونِ إِلَّا مَنْظَرَا
 وَإِذَا الْأَبْصَارُ لَمْ تُدْرِكْ هُدَاهَا

لَمْ يَقُمْ فِيهِمْ جَنُونَ ذُو فَنُونَ
 مَا لَهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ مَكَانُ
 لَمْ يُجَاهِذْ فَكَأَنَّ لَمْ يُخْلَقِ
 فَتَوَكَّلْ وَاعْتِزِمِ نَحْوَ الْمُرَادِ
 حَيْثُمَا هُمْ بِأَمْرِ حَقِّقْهُ
 لَا أَرَى الْيَائِسَ إِلَّا كَافِرَا
 فَهُوَ بِالْخَيْرِ وَبِالشَّرِّ بَصِيرِ
 تَارِكًا مَا عَمَّرَ الظُّلُمُ خَرَابَا
 وَالْجِبَالُ الشَّمُّ قَاعًا صَفْصَفَا
 وَهُوَ لِلْأَجْيَالِ بَعِثٌ وَنُشُورِ
 يُرْسِلُ الْإِلَهَامَ وَالْقَوْلَ الرِّصِينِ
 ثَمَلًا مِنْ خَمَرِهَا فِي حَانَتِي
 لَمْ تَعُدْ تَحْفَلُ بِالْوَهْمِ الْقَدِيمِ
 كَالشَّذَا يَسْرِي خَفِيًّا بِأَدْيَا
 وَمِنْ الْأَلْوَانِ^(١) طَرَأَ خَالِيَا
 وَبَدُونَ الْكُلُّ لَا تَرْجُو سِوَاهِ
 أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ عَنْهَا فِي احْتِجَابِ
 وَلَغَيْرِ اللَّهِ ذَلُّوا صَاغِرِينَ
 فِيهِمَا حَيْرَةٌ أَهْلُ الْفَلَسَفَةِ
 لَمْ يَجَاوِزْ فِكْرُهُمْ مَاءٌ وَطِينَا
 وَمَعِينُ الْعِشْقِ مِنْهُمْ فِي نُصُوبِ
 أَزْرَقًا أَوْ أَحْمَرًا أَوْ أَصْفَرَا
 مِنْ سَرَّاجِ الْقَلْبِ ضَلَّتْ فِي ضَحَاهَا

فَإِذَا حَزُّ جَعَلَ الْحَقُّ مَصِيرَهُ
مَنْ وَفَى لِهَ رُوحاً وَدَمَماً
إِنَّ سِرَّ الْأُنْدِ فِي حِضْنِ الْأَجْمِ
لَيْسَ كُلُّ الْخَلْقِ أَهْلاً لِلْعَهْدِ
إِنْ تَعَاظَيْتَ مَعَ الصَّخْبِ الْمُدَامِ
هَبْهُ كَسْرِي هَبْهُ أَيْضاً قَيْصَرَا
لَوْ غَدَا يَوْسُفْنَا يَوْماً طَعَامَا
فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ خَسِيسٍ يَحْتَوِيهِ
أَهْلُ دُنْيَانَا تَمَادَوْا فِي غُرُورِ
بَهْرَتْنِي نَكْتَةً مِنْ شَاعِرِ
ذَاتُ مَعْنَى نَوْرُهُ مُؤْتَلِقِ
إِنَّهُ الْعَاشِقُ فِي أَهْلِ الْجَحُودِ
فَهُوَ يَخْكِ مَسْلاً بَاتَ يُعَانِي
قُلْ لِأَهْلِ الْحَقِّ مَا يَشْفِي الْقُلُوبِ
أَقْبِلِ الْهَمَّ وَلَا تَأْكُلِ طَعَامَا
إِنْ يَكُنْ عَيْشُكَ مِنْ طَوْلِ الْكَدَرِ
الدَّوَاءُ الْمُرُّ لِلْعَقْلِ الْكَبِيرِ
خِرْقَةُ الزَّاهِدِ عِبَاءٌ لِلْفَقِيرِ
وَاسْأَلِ الْأَنْسَامَ فِي الرُّوضِ النُّصِيرِ
إِنْ تَكُنْ بَحْراً قَوِيّاً غَامِراً
أَوْ تَكُنْ طَلاً فَعِشْ بَيْنَ الْوُرُودِ
أَنْتَ فِي الْحَرْبِ نَشِيدٌ مِنْ دِمَاءِ
إِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ أَرْيَابُ الْوَفَاءِ
نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي كُلِّ حِينِ
وَتَأْمَلُ قَطْرَةَ الطَّلِّ النَّدِي

لَمْ يَبْغِ يَوْماً لِمَخْلُوقٍ ضَمِيرَهُ
صَانَ عَنْ قَيْدِ سِوَاهِ الْقَدَمَا
لَا تَعِيَهُ فِي مِرَاعِيهَا النَّعَمِ
لَا تَبْخُ بِالسَّرِّ إِلَّا لِلْأَسْوَدِ
أَبْعَدِ السَّفَلَةَ عَنْ حَقْلِ الثَّدَامِي
لَنْ تَرَى فِيهِ النَّدِيمَ الْخَيْرَا
فِي فَمِ الذُّنْبِ وَأَفْنَاهِ التَّهَامَا
وَيَبْخُسُ الْمَالِ يَوْماً يَشْتَرِيهِ
لَمْ يِيَالُوا بِمَقَايِيسِ الْأُمُورِ
بَارِعِ الْفِكْرِ نَقِيَّ الْخَاطِرِ
كَادَتْ الرُّوحُ بِهِ تَحْتَرِقُ
لَمْ تَزِدْ أَسْمَاعُهُمْ غَيْرَ الْجَمُودِ
فِي قَرَى الْإِفْرَنْجِ تَرْدِيدِ الْأَذَانِ
قُلْ عَنِ الدِّينِ وَأَنْبَاءِ الشُّعُوبِ
مَنْ يَدِ تَطْعُمُكَ الْهَمُّ دَوَامَا
فِيهِ مَرُّ الْجُوعِ فَالذُّلُّ أَمْرُ
فَاتْرِكِ الْحُلُوءَ لِلطُّفْلِ الْغَرِيرِ
كُنْ عَفِيفَ الْقَلْبِ وَانْعَمَ بِالْيَسِيرِ
مَا الَّذِي تَحْمِلُهُ غَيْرَ الْعَبِيرِ
فَاجْعَلِ الصَّحْرَاءَ سَيْلاً هَادِراً
وَابْعَثِ الْعِطْرَ سَلاماً فِي الْوُجُودِ
أَنْتَ فِي السُّلَمِ رَسُولٌ لِلْإِحْيَاءِ
لَيْسَ سِرُّ الْحَقِّ عَنْهُمْ فِي خَفَاءِ
لِيَعْمَ الْخَيْرُ كُلَّ الْعَالَمِينَ
مَنْ دَجَى اللَّيْلِ إِلَى فَجْرِ الْقَدِ

حَفِظْتُ فِي الْكَوْنِ ذَاتِيَّهَا
وَبَنَى عُنْصُرَهَا شَوْقُ الْحَيَاةِ
وَمَضَتْ تَجْتَازُ فِي صَمْتِ الْفُضَاءِ
جَانِبْتُ أَنْ تَجْعَلَ الْبَحْرَ الْهَدَفَ
بَلْ أَقَامَتْ بَيْنَ أَحْضَانِ السَّحَرِ
فَتَحَّ الْوَرْدُ بِهَا أَجْفَانَهُ
هَكَذَا الْمُؤْمِنُ رَمَزُ التَّضْحِيَّاتِ

مناجاة الشمس

جَرَتْ فِي حَيَاةِ الشُّعْرَاءِ سَنَةٌ أَدْبِيَّةٌ سَلَكَهَا الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ فِي مُخَاطَبَةِ
الشَّمْسِ ، وَلَعَلَّ أَقْرَبَ مِثَالٍ إِلَيْنَا فِي الْجَدِيدِ قَصِيدَةُ أَحْمَدَ شَوْقِي (قَفِي يَا أُخْتِ
يُوشَعَ خَبِيرِنَا) فَالشُّعْرَاءُ خَاطَبُوا الشَّمْسَ ، وَتَحَدَّثُوا عَنْهَا ، وَتَفَنَّنُوا فِي ذَلِكَ ،
وَأَبْدَعُوا ، وَهَذَا نَحْنُ نَرَى إِقْبَالَ يُخَاطَبُهَا قَائِلًا :

يَا مَبْعَثَ الْإِشْرَاقِ وَالنُّورِ الَّذِي
فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ضَمِيرٌ مُشْرِقٌ
مِنْكَ الْحَرَارَةُ لِلْحَيَاةِ وَبَعْثُهَا
أَوْدَعَتْ كُلَّ مُحَجَّجٍ شَوْقَ الظُّهُورِ
كَيْدِ الْكَلِيمِ أَرَى جَلَالَكَ سَابِحاً
يَطْوِي الْمَسِيرَ عَلَى جَدَاوِلِ فِضَّةٍ
أَرْسَلْتَ بِدَرِّ النَّهْمِ بَعْدَكَ فِي الدُّجَى ^(١)
أَهْدَيْتَ لِلْيَاقُوتِ وَمُضْنَ بِرِيقِهِ

(١) الدُّجَى : سَوَادُ اللَّيْلِ وَظُلُمَتُهُ .

وسكنت في قلب الشقيق حرارة
بعروقه تجري الدماء وقد غدا
والترجس^(١) الغض استفاق من الكرى
لينال من هذا الشعاع نصيبه
مَرَحَى لَقَدْ وَافَى قَدُومُكَ بِالسَّنا
حتى تجلّى نخل سينا مائلاً
أنت الصبح المرتجى لكثني
فهبي لوجداني سراجاً مشرقاً
وليمز ضوءك في ترابي شعله
وصلي حياتي واجعلي هذا السنا
لأنيل فكر الشرق أوضاح الهدى
وأثير ناراً في الصدور جديدة
إني سأسمعهم نشيد المجد من
وأحيل خام الطبع وعياً صارخاً
وأصوغ للائام دوراً مقبلاً
ليحرروا الأرواح والأفهام من
لا يستقي نبض الحياة حرارة
ومجال تحرير النفوس أمانة
والشغب حين يضل في آماله
وتحول فضته النقية بهرجاً
ويموت داخل صدره القلب السليم

صَبَغَتْ مَلَابِسَهُ بِلَوْنِ النَّارِ
يَخْتَالُ بَيْنَ عَرَائِسِ الثُّوَارِ
وَأَزَاحَ عَنْ جَفْنَيْهِ أَلْفَ سِتَارِ
بَيْنَ الْغُصُونِ الْخَضِرِ وَالْأَشْجَارِ
وَسَمَا بَطْلَعَةِ وَجْهِكَ اسْتَبْصَارِ
فِي كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَشْجَارِ
ظَلُّ الْمَسَاءِ الْغَارِبِ الْمُتَوَارِ
يَهْدِي خُطَايَ إِلَى عِلَا وَفَخَارِ
تَصَفُّو بِهَا نَفْسِي مِنَ الْأَكْدَارِ
مَنْ حَوْلَهَا سَتِراً مِنَ الْأَنْوَارِ
كَيْمَا يُبْدِلَ لَيْلَهُ بِنَهَارِ
مَشْبُوبَةً بِعَزَائِمِ الْأَخْرَارِ
قِيَارَةً أَوْتَارُهَا أَشْعَارِ
مَتَحَفُّزاً لِلشَّبَقِ فِي الْمِضْمَارِ
غَيْرَ الَّذِي شَهِدَتْ مِنَ الْأَدْوَارِ
لَغْوِ الْفِرْنَجِ وَزَيْفِ الْإِسْتِعْمَارِ
إِلَّا بِذِكْرِ مُقَدَّرِ الْأَقْدَارِ
مَوْصُولَةً بِنِزَاهَةِ الْأَفْكَارِ
عَنْ قَضِيهِ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ بَوَارِ^(٢)
مَنْ ذَا يَسْوِي بِهِرْجاً بِنُضَارِ
وَيَنْطَوِي فِي ذَلِكَ وَصَغَارِ

(١) الترجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبه بها الأعين .
(٢) بَوَار ، أي : هلاك .

حَتَّى تَرَى الْمُغَوَّجَ فِي نَظَرَاتِهِ
وَإِذَا رَأَى فِي الْكَائِنَاتِ صِرَاعَهَا
فَإِذَا الْحَيَاةُ هِيَ السَّلَامَةُ وَالشُّكُورُ
فِي بَخْرِهِ مَوْجُ الْأَمَانِي رَاسِبٌ
الْخَطْوَةُ الْأُولَى لِنَهْضَةِ أُمَّةٍ
لَوْ أَمَكْنَ التَّطْهِيرُ أَمَكْنَ بَعْدَهُ
يَبْدُو سَلِيمًا عَالِي الْمَقْدَارِ
طَلَبَ الشُّوَاطِئَ خَشْيَةَ الْإِعْصَارِ
نُ وَفُوزُهُ مِنْ حَرْبِهَا بِفِرَارِ
مَا فِيهِ مِنْ لُجٍّ وَلَا تَيَّارِ
تَحْرِيرُهَا بِالْعَزْمِ وَالْإِضْرَارِ
أَنْ يَسْهَلَ التَّغْيِيرُ لِلْأَفْكَارِ

حكمة الكليم - سياسة الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصة ، فوجه منها سهاماً نافذة إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهّم جلال النبوة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصادق ليشحذ من عزيمته وينفخ فيه روح التحرّر ، ويوقظ في فطرته معاني القوة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغية ، وجبروت جبار ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتخذ من صفات النبيّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتذود عن حياضها ، وتدفع العدو عن حماها :

عندما يَضْدَعُ النبيُّ بِأَمْرِ اللَّهِ جَهْرًا فِي مَشْمَعِ الْأَكْوَانِ
يَتَحَدَّى بِوَحْيِهِ كُلَّ حُكْمٍ لِأَمِيرٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْطَانِ
لَا يَرَى قُضْرَهُ سِوَى رَشْمٍ دِيرٍ مِنْ بَقَايَا هِيََاكِلِ الْأَوْثَانِ
لَا يَسِيغُ الْمَقَامَ فِي مَوْطِنِ الدُّلِّ وَلَا يَرْضَى بِعَيْشِ الْهَوَانِ
تَتَذَكَّرُ بِنُورِ صَحْبَتِهِ النَّفْسُ وَيَهْدِي الرَّشَادَ لِلْحِيرَانِ
يُخْدِتُ الضُّجَّةَ الرَّهْيِيَّةَ فِي الْأَيَّامِ حَتَّى تَسِيرَ طَوْعَ الْأَمَانِي
مُغْلَنًا فِي الْوُجُودِ لَا رَبَّ غَيْرَ اللَّهِ يُخْشَى وَيُزْتَجَى كُلُّ آنٍ
كَيْفَ يَرْضَى إِذْ لَالَ عَبْدٌ لِعَبْدٍ وَامْتَهَانَ الْإِنْسَانُ لِلْإِنْسَانِ

قطرة من نداء تُشعلُ ناراً في عروقِ الكُروم والأغصان
 ويُجَلِّي في قبضة من تراتٍ بَعَثَ روحَ اليقين والإيمان
 حارسُ الفطرة التي فَطَرَ اللهُ عليها الأرواحَ في الأبدان
 لا يسامي جلالُ حكمته العقلَ ولا عبقريةُ الفَنان
 حكمةٌ في غنى عن الحشدِ والجمعِ وزهورِ العُروشِ والتيجان
 مِنْ جُمُودِ الشتاءِ يحيي ربيعاً باسمِ الرِّوضِ ناضِرِ الأفنان
 وتُمالُ الرِّاحِ المُعَتَّقُ أشهى مِنْ رَحيقِ مُصَفَّقٍ في الدَّنان^(١)
 ابتهالاتُ صُبْحِهِ توقظُ الكونَ فيصحو من ليله الوَسنان^(٢)
 وله نظرةٌ من الحقِّ فيها نبأٌ يُعلنُ انقلابَ الرُّمان
 ولديه وثيقةُ الأمنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في مُحكمِ القرآن
 وَخِيَه يَغْمُرُ الصُّدُورَ الخوالي بقلوبٍ جديدةٍ الإيمان
 دَرْسُهُ العَزْمُ والرِّضا المحضُ والتَّسليمُ منه في السِّرِّ والإعلان
 كسراجٍ يشقُّ قلبَ الدِّياجيرِ^(٣) باهرَ الضُّوءِ ساطعَ البُرْهَانِ
 قدرةٌ حارتِ النَّواظِرُ فيها أيُّ سرٍّ بها خفي المعاني
 يَضْبُغُ الرُّوحَ في الجُسومِ بلونٍ غَيْرَ كُلِّ الرُّسومِ والألوان
 حَوَّلَتْ كيميائِهِ الصَّدَفَ البالي عِقْداً من الدَّراري الحِسان
 يتولَّى ملءَ الفراغِ بحزمٍ يَفْهَرُ المستحيلَ بالإمكان
 وينادي العَبْدَ المُصَفَّدَ^(٤) هَيْأَ لَا تَحَاكُ القِيُودُ لِلإنسانِ
 فالِى المَخُورِ والبلى كُلُّ معبودٍ قديمٍ مَعَ الحُطامِ الفاني
 مَنْ يُحَارِبُ وسيفُهُ رَبِّي الأعلى يُدمِّرُ قِوَاعِدَ الأوثانِ

(١) الدَّنان : وهي جِرَار الخمر .

(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .

(٣) الدِّياجير : واحدها الدَّيجور ، وهو الظلمة ، وصفوا به فقالوا : ليل ديجور ، وليلة ديجور .

(٤) المصَفَّد ، أي : المشدود .

إِنَّ أَرَدْتَ الْفَقْرَ الْغَيُورَ فَلَا تَفْقِدْ مَعَ الْعُدْمِ ثُرُوءَ الْإِيمَانِ
 فَمِنْ الْحَالِ لَا مِنْ الْجَوَاهِرِ وَالْمَالِ دَوَامُ الرِّضَا وَالْأَطْمِئْنَانِ
 رَأْسُ مَالِ الْآخِرَارِ صَدَقٌ وَإِخْلَاصٌ وَوَجْدٌ وَخُرْقَةٌ وَتَفَانٍ
 لَيْسَ فِي الْحَلِيِّ وَالْمَظَاهِرِ وَالثُّوبِ الْمَوْشَى وَالْأَصْفَرِ الرَّئِيَانِ
 لَا تَحَاوِلْ دَرْكَ الْمَعَالِي بِكَأَوْسٍ وَخَسِرْ فِي غَابِرِ الْأَزْمَانِ
 طُفْ إِذَا شِئْتَ حَوْلَ ذَاتٍ : حُرّاً لَا تَطُفُ بِالسَّرِيرِ وَالْإِيْوَانِ
 قَدْ تَبَاعَدْتَ عَنْ مَقَامِكَ حَتَّى صِرْتَ فِي ذِلَّةِ الْأَسِيرِ الْعَانِي
 لَا تَسِرْ وَاهِنَ الْخُطَى كِبَغَاثِ الطَّيْرِ بَيْنَ الطُّلُولِ وَالْجُذْرَانِ
 كُنْ نَظِيرَ الشَّاهِيْنِ فِي الْقِمَمِ الشَّمَاءِ لَا فِي مَسَارِبِ الْوُذْيَانِ
 تَتَحَرَّى الطَّيُورُ عِشْدَ بِنَاءِ الْعُشِّ أَعْلَى الْفُرُوعِ فِي الْبُسْتَانِ
 لَسْتُ دُونَ الثُّسُورِ بِأَسَافِحَاوِلٍ دَارَةَ النَّجْمِ أَوْ ذُرَى كِيْوَانِ
 مِنْ مِهَادِ الثَّرَى إِلَى التَّشْعَةِ الْأَفْلَاكِ فَوْقَ الزَّمَانِ فَوْقَ الْمَكَانِ
 غَيْرِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَعَمُّرٍ فِيهِ دُنْيَا جَدِيدَةُ الْبُنْيَانِ
 وَالَّذِي يَنْشُدُ الْجِهَادَ فَنَاءً فِي رِضَا الْحَقِّ وَهُوَ مَاضِي الْجَنَانِ
 هُوَ سِرُّ الْأَقْدَارِ وَهُوَ قَضَاءُ الْحَقِّ فِي الْمُمْكِنَاتِ وَالْإِمْكَانِ
 فَتَمَثَّلْ نَضَالِ أَسْلَافِكَ الْأَمْجَادِ نَحْوَ الْعُلَى بِغَيْرِ تَوَانِي
 وَتَدَبَّرْ كَيْفَ اسْتَهَانُوا بِبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ
 أَظْهَرَ الْجَوْهَرَ الْكَرِيمَ مِنَ الْأَصْدَافِ وَاجْعَلْهُ بَادِيًا لِلْعَيَانِ
 وَتَحَرَّرْ مِنْ هَيْكَلِ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْهَوَى وَالْهَوَانِ
 وَاجْعَلِ الْقَطْرَةَ النَّقِيَّةَ نَبْرَاسًا لَعَيْنِكَ بَيْنَ قَاصِرٍ وَدَانِ
 كُلُّ مَنْ ضَاعَ حُطُّهُ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ بَيْنَ الْجُحُودِ وَالنُّسْيَانِ
 لَمْ يَنْلِ طَوْلَ عُمْرِهِ مِنْ جَمَالِ الْحَقِّ غَيْرَ الْإِبْعَادِ وَالْجِزْمَانِ
 مَبْدَأُ الْعِشْقِ وَالصَّبَابَةِ قَهْرٌ وَخَطُوبٌ مَوْصُولَةُ الْأَشْجَانِ^(١)

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهو مَنْ بعدها دَلَالٌ وَتَبَّةٌ بَيْنَ طَيْبِ الْمُنَى وَصَفْوِ الْأَمَانِي
وَيَعُودُ الْمَحَبُّ بِالْقُرْبِ مَحْبُوباً وَيَنْسَى لَوَاعِجَ الْهَجْرَانِ^(١)
الْوَجُودُ الْأَسْمَى هُوَ الْمُؤْمِنُ الْحَرُّ الْأَبْيُّ الْوَفِيُّ فِي كُلِّ آنٍ
وَبَقَايَا الْوَجُودِ فِيمَا سِوَاهُ مَظْهَرٌ حَائِلٌ وَظِلٌّ فَاِنِ
جِئْنَا يَدْعُو أَنْ لَا إِلَهَ سِوَى اللَّهِ الْقَدِيرِ الْمُهَيْمِنِ الدَّيَّانِ^(٢)
يُدْعَى الْكَوْنُ وَالْمَكَانُ وَلَا يُشْرِقُ إِلَّا بِفَوْزِهِ الْقَمَرَانِ

حكمة فرعون أو سياسة الطفافة

إِنَّ إِقْبَالَ قَالَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَالتِّي قَبْلَهَا مَا يَكُونُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ مِنْ إِقَامَةِ
الْعَدْلِ بَيْنَهُمْ أَوْ مِنَ الْجَوْرِ عَلَيْهِمْ فِي الْحَكْمِ ، وَقَدْ اسْتَعْدَمَ كَلِمَةَ (الْحِكْمَةُ) لِهَذَا
الْعَنْوَانِ ، (حِكْمَةُ الْكَلِيمِ) ثُمَّ (حِكْمَةُ فِرْعَوْنَ) ، وَهُوَ إِنَّمَا يُرِيدُ بَيَاناً لِسِيَّاسَةِ
الْحَكْمِ فِي إِطَارٍ مِنْ مِصْطَلَحَاتِهِ الْخَاصَّةِ قَصْداً إِلَى بَيَانِ دَسَائِسِ الْأَسْتِعْمَارِ
وَتَدْمِيرِهِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَالْقَضَاءِ عَلَى حُرِّيَّتِهِ ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يَقُولُ :

قَدِمْتُ حِكْمَةَ النَّبِيِّ لِلْعِيَانِ وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ جِئْتُهُ الطُّفَاةُ
تَبْقَى عَلَى الْإِنْسَانِ جِسْمَ الْحَيَوَانِ وَتَسْلُبُ الرُّوحَ كِرَامَةَ الْحَيَاةِ

حَكْمَتُهَا حَرِيَّةٌ مَارِقَةٌ^(٣) تَعِيشُ فِي الدُّنْيَا بِهَا مِنْ غَيْرِ دِينٍ
وَالنَّفْسُ فِي أَوْهَامِهَا شَارِدَةٌ لَمْ تَعْرِفِ الشُّوقَ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ

(١) الْهَجْرَانُ : هُوَ التَّرِكَ أَوْ الْإِعْرَاضُ عَنْ شَيْءٍ .

(٢) الدَّيَّانُ : هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(٣) مَارِقَةٌ : خَارِجَةٌ عَنْ دِينِهَا .

وسائل التهذيب من هذا النظام سلاسل الأسرى وأغلال العبيد
كما يرى السبب ينقاد الغلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

وذلك البارغ في مهنته يضطئع التجديد في الدين القويم
قد شطر الوحدة في أمته فما له نذ سوى عصا الكليم

متى يفوق القوم من هذتهم وهم لحكم الغير زرع وحصاد
قد هدموا بناء ذاتيتهم وغيرهم في أرضهم ساد وشاد

كم من غرير استطال وادعى حصافة الفكر ودقة النظر
قد خبر الوجود والدنيا معاً وما لديه عن وجوده خبر

أزال نقش الحق من خاتميه وكل خير عن ضميره استتر
قد ولد الرجاء في عالمه لكنه في المهدي ولّى وانذر^(١)

ما تصنع الأيام بالقوم الألى لم يُرزقوا حظاً من العزم الغيور
قد أضبحت أرواحهم رهن البلى^(٢) وما سوى أجسامهم لها قبور

ومزق الكبار أسار الحياء وقلد الشباب صنع الغايات^(٣)

(١) انذر : دثر وامحى وفني .

(٢) البلى : الفناء ، ومنه بلى الميت أفنته الأرض .

(٣) الغايات : النساء الغنيات بحسنهن وجمالهن عن الزينة .

كَأَنَّهُمْ بَيْنَ عَوَامِلِ الْفَنَاءِ يَأْتُونَ مَوْتِي مِنْ بَطُونِ الْأَمْهَاتِ

وَهَذِهِ الْحَسَنَاءُ تَقْضِي يَوْمَهَا فِي مَنْظَرٍ عَارٍ وَصَبْغٍ مُسْتَعَارٍ
سَاعِدُهَا الْفِضْضِيُّ يُبْدِي جِسْمَهَا بِمَنْظَرِ الْأَسْمَاكِ فِي لُجِّ الْبَحَارِ^(١)

جَمُودُ هَذَا الشَّعْبِ عَنْ كَفَاحِهِ يَحْكِي رَمَاداً لَيْسَ تَحْتَهُ شَرَرٌ
مَسَاوُهُ رَانَ عَلَى صَبَاحِهِ بِظِلْمَةٍ فِي لَيْلِهَا زَاغَ الْبَصَرِ^(٢)

كُلُّ يَعِيشُ فِي إِطَارِ نَفْسِهِ وَالْعِيشُ وَالْمُتَعَةُ فِي الدُّنْيَا مِنْهَا
يَخْشَى الْيَلَى قَبْلَ حُلُولِ زَمَانِهِ^(٣) فَاعْجَبْ لِمَيِّتٍ لَمْ يَزَلْ قَيْدَ الْحَيَاةِ

وَذُو الْغِنَى فِي الشُّحِّ يَحْكِي جَلَمَداً وَمَالُهُ فِي اللَّهْوِ يُفْرِقُ السَّحَابَ
حَيَاتُهُ ضَاعَتْ عَلَى الْغِيِّ مُدَى تَشْغُلُهُ قُشُورُهَا عَنِ اللَّبَابِ

يَبِيعُ دِينَهُ لِـدُنْيَا غَيْرِهِ وَفِي رِضَا غَاصِبِهِ يَسْتَشْهَدُ
وَيَوْمُهُ الْحَاضِرُ كُلُّ عُمْرِهِ فَلَيْسَ فِي تَارِيخِ دُنْيَاهُ غَدٌ

وَكَمْ تَرَى فِي الْقَوْمِ حَمَالاً كُتِبَ ثَقِيلَةً يَعِيا بِحَمْلِهَا جَمَلٌ

(١) لُجُّ الْبَحَارِ ، أَي : عَرْضُهَا .

(٢) زَاغَ الْبَصَرُ ، أَي : قَالَ عَنْ مَسْتَوَى النَّظَرِ حَيْرَةً وَشُخُوصاً ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

(٣) الرَّمْسُ : هُوَ الثَّرَابُ الَّذِي يُحْتَنَى عَلَى الْقَبْرِ .

يدور في الناس كحَمَالِ الحَطَبِ ويُزسَلُ الأقوالَ مِنْ غَيْرِ عَمَلِ

ولاؤه لِلغَيْرِ كُلِّ هَمٍّ حتى بنى الدَّيْرَ بأحجارِ الحَرَمِ
ماتَ ولكنَّ ما دَرَى بِمَوْتِهِ قد عاشَ وهماً ثُمَّ وِاراهُ العَدَمِ

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة
القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كلِّ عبودية
لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلا لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التَّوْحِيد التي تُجَدِّد الصُّورة الإنسانية في القلب التُّرابيِّ هيكلاً
من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

في مقام التَّوْحِيد يَشْدُو خيالي بصدى الحقِّ مِنْ رِجالِ الحَالِ
إنَّما تُذَرِّكُ القلوبُ هداها بِصَفَاءِ الأحوالِ لا الأقوالِ

حرف (لا) مُظْهِرٌ لِسِرِّ الجلال وهو لِلجَّوْرِ منذرٌ بِالزَّوالِ
بَعْدَ نفي الظُّلَامِ والظُّلَمِ يبدو عند (إلَّا) إشراقُ صُبْحِ الجَمالِ

لا وإلَّا فَتَحْ لِبَابِ الحَيَاةِ واحتسابُ الوُجودِ والكائناتِ

بِهِمَا تَقْهَرُ الْمَهَانَةَ وَالضَّيْمَ وَتَمْضِي الْأُمُورَ فِي الْحَادِثَاتِ

حِينَ يَقْوَى مَعَ الرَّجَاءِ الْيَقِينُ فِجَوَابِ الْأَقْدَارِ كُنْ فَيَكُونُ
يَدْفَعُ النَّفْيُ لِلتَّحَرُّكِ وَالْجِدُّ وَعِنْدَ الْإِثْبَاتِ يَأْتِي الشُّكُونُ

كُلُّ شَعْبٍ يَرْوُمُ عِزًّا حِمَاهُ فَبِنُورِ التَّوْحِيدِ لَا بِسُوءِ
لَيْسَ يَحْمِي بِلَادَهُ غَيْرُ حُرٍّ سِيفُهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

حَرْفُ (لَا) آيَةٌ لِبَدْءِ الْمَسِيرِ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ نَحْوُ الْمَصِيرِ
إِنَّهَا أَوَّلُ الْمَنَازِلِ طَرًّا لِرَجَالِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ

كُلُّ شَعْبٍ يَمْضِي بِخَطْوِ سَدِيدٍ لِلْعُلَى فِي خَرَارَةِ التَّوْحِيدِ
يَبْتَنِي مِنْ تُرَابِهِ صَرْخُ دُنْيَاهُ وَيَحْيَا فِيهَا بِخَلْقِ جَدِيدٍ

قَوْلُ (لَا) ثَوْرَةٌ أَمَامَ الطُّغَاةِ هُوَ عِنْدَ الْأَحْرَارِ مَعْنَى الْحَيَاةِ
ثَوْرَةٌ مَنْ نَضَّالَهَا يُضْنَعُ الْمَجْدُ وَيَبْدُو تَجَدُّدُ الْكَائِنَاتِ

لَيْسَ فِي ذَلِكَ الْجُنُونِ الْعَرِيقِ كُلُّ ثَوْبٍ يَفُوزُ بِالتَّمْزِيقِ
لَا أَرَى فِي الْغُثَاءِ ^(١) وَالْقَشْرِ ^(٢) يَوْمًا خَطْبًا صَالِحًا لِهَذَا الْحَرِيقِ

(١) الْغُثَاءُ : هُوَ مَا يَحْمِلُ السَّبِيلَ مِنْ رَغْوَةٍ وَمِنْ فُتَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

(٢) الْقَشْرُ : هُوَ مَا يَتَخَلَّفُ مِنَ الْقَمْحِ وَالرَّزِّ وَنَحْوِهِمَا بَعْدَ اسْتِخْرَاجِ حَبِّهِ .

لو يَمَسُّ التَّوْحِيدُ فِكْرًا نَقِيًّا وَضَمِيرًا حَيًّا وَقَلْبًا أَيًّْا
لأَحَالِ الخُمُولِ وَالضُّعْفِ إِيْمَانًا وَعِزْمًا يَغْزُو نُجُومَ الثُّرَيَّا^(١)

حرف (لا) صَيْحَةً تثيرُ العبيدَ ليزولوا ما لَمْ يُزِيلُوا القِيُودَا
ويقيموا في الدَّهْرِ عَصْرًا مجيدَا لا تَرى فِيهِ سَيِّدًا وَمَسُودَا

لو سَرَتْ شَعْلَةُ الهدى في الصُّدُورِ وَتَمَشَّى وَمِضُّهَا فِي الضَّمِيرِ
لأَقَامَ الأَحْرَارُ لِلْهَوْلِ يَوْمًا يَتَحَدَّى أَهْوَالَ يَوْمِ النُّشُورِ

صوتُ (لا) مِنْ دَوِيِّ صوتِ الرُّعودِ لَيْسَ شَكْوَى نَائٍ وَلَا لَحْنُ عُودٍ
لَوْ يَضِيقُ الفِضَاءُ يَوْمًا عَلَى الْحَرِّ تَخْطِئِي بِهِ نِطَاقَ الوُجُودِ

يا لها مِنْ ذِكْرِي لأَمْجَادِ الْعَرَبِ آيَةُ كُبْرَى وَتَارِيخُ عَجَبٍ
حَرَّرُوا أَقْدَارَهُمْ بِالْعَزَمَاتِ فِي جَمِيعِ الْكَوْنِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
فَارَزَدَهُنَّ مِنْ نُورِهِمْ كُلُّ مَكَانٍ وَتَغْنَى بِأَسْمِهِمْ كُلُّ زَمَانٍ
لَمْ تَدُمْ عُزَّى^(٢) وَلَمْ تَبْقَ مَنَاةُ^(٣) هَوَتْ الْأَصْنَامُ تَحْتَ الضَّرْبَاتِ
حِينَ نَادَى الْمُؤْمِنُونَ (اللهُ أَكْبَرُ) زَالَ كِبْرَى وَأَنْطَوَتْ أَعْلَامُ قَيْصَرٍ
أَيُّ سَيْلٍ هَادِرٍ عَمَّ الصَّحَارَى أَيُّ طُوفَانٍ جَرَى يَغْزُو الْبَحَارَ

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .

(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمَر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمرةَ .

(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

وَحَدُوا الْخَلْقَ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ
 مِنْ تَحْدَى نَارِهَا أَضْحَى هَبَاءَ
 وَأَزَالُوا كُلَّ جِبَارٍ عَنِيدٍ
 كُلُّ هَذَا كَانَ مِنْ أَنْوَارِ (لا)
 فِي سَهَوِّ الْأَرْضِ أَوْ دَيْرٍ قَدِيمٍ
 وَأَقَامُوهَا عَلَى النَّهْجِ الرَّشِيدِ
 فَجَرَى الْحَقُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ
 كُلُّ نَوْرٍ يُجْتَلَى مِنْ شَمْسِهِمْ
 فَهُوَ مِنْ شَاطِئِ نَهْرِ الْعَرْبِ
 نَقْشٌ غَيْرَ (الله) ، عَلَامِ الْغُيُوبِ
 ثَوْرَةُ الْإِيمَانِ فِي كُلِّ الشُّعُوبِ
 حَطَّمُوا الْقَيْدَ بِعِزِّهِمْ مِنْ حَدِيدٍ
 وَاسْتَرَدُّوا أَمْنًا حَرِّيَّاتِهِمْ

بِاسْمِ (لا) حَتَّى أَثَارُوا الْأُمَمَا
 وَأَطَاحُوا بِمَعَايِيرِ السُّنَنِ
 لَمْ يَرَوْهُمُ نَحْوُ (إِلَّا) مِنْزَلًا
 بَعْدَ حِينٍ يَقْهَرُونَ الْعَاصِفَ
 نَحْوُ (إِلَّا) يَذْفَعُونَ الْمَوْكِبَا
 كُلُّ نَفْسٍ دُونَ إِبْطَاتِ عَدَمٍ
 هَاتِفًا يَدْعُو لِتَوْحِيدِ الْقَدِيرِ
 دُونَ (إِلَّا) فَهِيَ لِلصَّدَقِ دَلِيلُ
 يَخْشُدُ الْأَلْفَاظَ خَشْدَ الْمَكْتَبَاتِ
 أَسْمِعِ النَّمْرُودَ تَوْحِيدَ الْجَلِيلِ

هَؤُلَاءِ الْعَرْبُ الصَّيْدُ الْأَبَاهِ
 شَعْلَةٌ مِنْ نَوْرِهَا الْحَقُّ أَضَاءَ
 قَدْ أَبَادُوا كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ
 وَسَمَّوْا فَوْقَ الدَّرَارِي مَنْزِلًا
 بَيْنَمَا الْعَالَمُ كَالْعَظْمِ الرَّمِيمِ
 أَنْشَوْا دُنْيَاهُ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
 أَيْقَظُوا الدُّنْيَا بِتَكْبِيرِ الْأَذَانِ
 كُلُّ خَيْرٍ يُرْتَجَى مِنْ غَرْسِهِمْ
 كُلُّ رَوْضٍ بِالْمَعَالِي مُخْصَبٌ
 قَدْ أزالَ الْعَرْبُ مِنْ لَوْحِ الْقُلُوبِ
 فَأَقَامُوا فِي شَمَالٍ وَجَنُوبِ
 فَتَرَى فِي أُمَمِ الْعَرْبِ الْعَبِيدِ
 أَعْلَنُوا الْحَرْبَ عَلَى سَادَاتِهِمْ

صَارَ شَعْبُ الرُّؤُوسِ نَارًا وَدَمَا
 فَاسْتَهَانُوا بِتَقَالِيدِ الزَّمَنِ
 وَقَفَ الرُّكْبُ بِهِمْ فِي بَابِ (لا)
 سَتَرَاهُمْ كَجِيُوشٍ زَاخِفَةٍ
 وَتَرَى لِلْقَوْمِ أَمْرًا عَجَبًا
 لَا وَ (إِلَّا) بِهِمَا الْعَدْلُ انْتِظَمَ
 إِنَّ لِلْفِطْرَةِ فِي كُلِّ ضَمِيرٍ
 لَمْ يَنْ فِي حَرْفٍ (لا) صَدَقُ الْخَلِيلِ
 يَا مُقِيمًا فِي زَوَايَا الْحُجُرَاتِ
 إِنَّ تَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الْخَلِيلِ

لا يساوي قَدْرُهُ وزنَ الهَبَاءِ^(١)
 ثُمَّ لَا يَقْبَلُ عَنْهُ حَوْلًا
 أَمْرُهُ النَّافِذُ فِي كُلِّ الْوُجُودِ
 وَهُوَ فِي عَزْلَتِهِ نَاءٌ مُقِيمٌ
 قُمْ وَأَبْلِغْهُ الْبَرَايَا أَجْمَعِينَ

وَالَّذِي تَبَصَّرُهُ حَوْلَ الْفَضَاءِ
 كُلُّ حُرٍّ فِي يَدَيْهِ سَيْفٌ (لَا)
 فَهُوَ لِلْعِلْيَاءِ دَوْمًا فِي صُعُودِ
 أَيُّهَا الشَّادِي بِقِرَآنِ كَرِيمٍ
 قُمْ وَأَسْمِغْهُ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ

فَقْرُ الصَّالِحِينَ

نَحْصُ إِقْبَالَ مَوْضُوعِ فَقْرِ الصَّالِحِينَ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَلَى أَسْلُوبٍ خَاصٍّ مِنَ
 التَّعْبِيرِ تَعْرِيفًا بِقِيَمَةِ الْفَقْرِ وَمَرَامِيهِ ، يَقُولُ :

مَا هُوَ الْفَقْرُ الْغَنِيُّ الْأَرْفَعُ
 وَارْتَوَاءُ الْقَلْبِ مِنْ عَيْنِ الْبَقِيْنَ
 هَامَةُ الْجَوْزَاءِ مِنْ أَدْنَى خُطَاهِ
 وَيَرَى التَّوْحِيدَ نِبْرَاسَ هُدَاهِ
 لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ إِلَهَ
 لَمْ يَكُنْ ثُمَّ سِوَى خَيْرِ الشَّعِيرِ
 وَإِلَيْهِ خَاشِعًا يَنْعَى الْأَمِيرِ
 ثُمَّ تَسْلِيمٌ لِمَا اللَّهُ قَضَى
 فَهُوَ مِيرَاثُ النَّبِيِّ الْمِصْطَفَى
 يَصْنَعُ الْجَوْهَرَ مِنْ أَدْنَى زُجَاجٍ
 فَهُوَ إِنْسَانٌ وَفِي الثُّورِ مَلَكٌ

يَا عِبِيدَ الْمَاءِ وَالطُّيْنِ اسْمَعُوا
 هُوَ عِزْفَانُ طَرِيقِ الْعَارِفِينَ
 ذَلِكَ الْفَقْرُ عَزِيزٌ فِي غَنَاهِ
 يُخَكِّمُ الْإِبْدَاعَ فِي صَنِعِ الْحَيَاةِ
 يَرْعَشُ الْكَوْنُ إِذَا دَوَّى صَدَاهِ
 خَيْرٌ حَرَّرَهَا ذَاكَ الْفَقِيرِ
 خَاشِعٌ لِلَّهِ ذِيكَ الْقَدِيرِ
 حَالُهُ ذَوْقٌ وَشَوْقٌ وَرِضَا
 يَا لَهُ كَنْزًا بِهِ الْعَيْشُ صَفَا
 لَيْلِهِ الْمُظْلِمُ لِلْمَجْدِ سِرَاجُ
 يَقْهَرُ الْمُؤْمِنُ نَامُوسَ^(٢) الْفَلَكِ

(١) الْهَبَاءُ : الثَّرَابُ الَّذِي تُطَيِّرُهُ الرِّيحُ وَيَلْزَقُ بِالْأَشْيَاءِ .

(٢) نَامُوسُ : الْقَانُونُ أَوْ الشَّرِيعَةُ .

فَلَقَدْ تَنَقَّلْ ذُنُوبَكَ إِلَى
 فِي هُدَى الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
 ذَلِكَ الْمُسْكِينُ فِي رُفَعَتِهِ
 صَامِتٌ لَيْسَ يُطِيلُ الْكَلِمَا
 وَلَهُ مِنْ طَاقَةِ الرُّوحِ جَنَانٌ
 حَوْلَ الْعَصْفُورِ نَشْرًا فِي الْفَضَاءِ
 بِنْدَاءِ الْحَقِّ يُحْيِي مُدُنَا
 مُسَلِّمٌ دَوْلَتُهُ فَوْقَ الْحَصِيرِ
 لَيْسَ يَرْضَى الْعَيْشَ إِلَّا فِي مَقَامٍ
 لَا يَبَالِي مِنْ لَهُ هَذَا السُّلُوكُ
 يَتَلَاشَى الْجَمْرُ فِي نِيرَانِهِ
 صَوْتُهُ فِي الشَّعْبِ يَذْكِي لَهَا
 لَا تَرَى الْأُمَّةَ تَخْشَى مِنْ مُغِيرٍ
 نَحْنُ بِاسْتِغْنَائِهِ نَلْقَى الْغِنَى
 فَاُمْتَحَنَ وَجْهَكَ فِي مِرَاتِهِ
 تَكْتَسِبُ مِنْهُ مَزَايَا الصَّادِقِينَ
 تَتَجَلَّى حِكْمَةُ الدِّينِ جَمَالَا
 قُوَّةُ الدِّينِ وَتَشْيِيدُ عُلَاهُ
 كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْأَحَدِ
 إِنْ يَكُنْ فِي صُورَةِ التَّمَلُّ خَفَاءُ
 قَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ تَاجُ الْمُرْسَلِينَ
 كَيْفَ يَعْلُو مِنْبَرًا لِلْمُسْلِمِينَ
 يَا لَهَا كَارِثَةٌ فِي الْعَالَمِينَ

حَالَةَ أَسْمَى وَشَأْنِ أَفْضَلَا
 دَائِمَ الْإِسْعَادِ مَوْضُولَ النِّعَمِ
 يَسْعُ الْعَالَمَ فِي مُهْجَتِهِ^(١)
 وَهُوَ بِالصَّنْفِ يَرْبِّي أُمَمَا
 يَمْنَحُ الْخَامِلَ ذَوْقَ الطَّيْرَانِ
 فَبَدَا لِلْأَرْضِ تَفْسِيرُ السَّمَاءِ
 وَيَصِدِّقُ الْعَزْمَ يَنْبِي وَطْنَا
 كَانَ يَخْشَى بِأَسَهُ أَلْفُ سَرِيرٍ
 يَسْتَوِي الشَّاهِينَ فِيهِ وَالْحَمَامِ
 أَنْ يَقُولَ الْحَقُّ فِي وَجْهِ الْمُلُوكِ
 وَيَخَافُ الْبَحْرُ مِنْ طُوفَانِهِ
 وَتَخَافُ النَّارُ مِنْهُ الْحَطَبَا
 وَلَدَيْهَا مِثْلُ ذِيكَ الْفَقِيرِ
 وَعَلَى أَشْوَاقِهِ نَرْجُو الْمُنَى
 وَانْشَدِ الْحِكْمَةَ مِنْ آيَاتِهِ
 وَتَقَرُّ مِنْهُ بِسُلْطَانِ مُبِينِ
 حِينَ يُبْدِي الْفَقْرُ عِزًّا وَدَلَالَا
 فِي تَسَامِي الْفَقْرِ عَنْ ذُلِّ الْحَيَاةِ
 لَا يُذِلُّ النَّفْسَ يَوْمًا لِأَحَدٍ
 لَيْسَ يَرْجُو مِنْ سُلَيْمَانَ عَطَاءُ
 كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
 فَوْقَ أَرْضٍ فِي يَدِ الْمُسْتَعْمَرِينَ
 مَسْجِدُ الْهَادِي بِأَيْدِي الْغَاصِبِينَ

حَرَّرِ الْأَرْضَ مَعاً وَالْمَسْجِدَ
 أَهْلُهَا النَّاصِحُ لَيْلاً وَنَهَاراً
 إِنَّ مَعْنَى تَرْكِهَا تَسْخِيرُهَا
 وَالَّذِي يَغْلُو عَلَى صَهْوَتِهَا
 فَاتَّخِذْهَا مِنْ مَطَايَا الْآخِرَةِ
 هِيَ صَيْدُ الْمُؤْمِنِ الْحَرِّ الْجَسُورِ
 كُلُّ زُهْدٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَاجِدٍ
 أَنَا مِنْ مُشْكَلَتِي طَالَ اكْتِسَابِي
 أَهْلُهَا الشَّاهِينَ^(١) مَا هَذَا الْجُمُودِ
 يَانِسُ أَمْ أَنْتَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ^(٢)
 مَا شَكَا مِخْلَبِكَ النَّسْرُ وَلَا
 الْجِبَالُ الشُّمُّ وَالْآفَاقُ لَكَ
 طَرُ إِلَى النَّجْمِ وَخَلَقَ مِنْ جَدِيدٍ
 فَقَرْنَا تُغْلِيهِ آيَاتُ الْكِتَابِ
 فَقَرْنَا مَعْنَاهُ تَسْخِيرُ الْجِهَاتِ
 يَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَوْقَ الشُّبُهَاتِ
 فَقَرُّ أَهْلِ الْكُفْرِ هَذَا لِلْفُطْرِ
 عَيْشُهُ بَيْنَ الْمَرَامِيِّ وَالْكُهُوفِ
 لَمْ يَكُنْ فِي الدَّهْرِ مِنْذُ الْمَوْلِدِ
 لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ بِالْفَقْرِ اعْتِزَالُ
 بَيْنَمَا الْأَوَّلُ فِي صَمْتِ الْجُمُودِ
 ذَاكَ يَطْوِي الْعُمْرَ فِي تَرْكِ الْبَدَنِ

لَا يَكُنْ غَيْرُكَ فِيهَا سَيِّداً
 دَاعِياً أَنْ تَتْرِكَ الدُّنْيَا احْتِقَاراً
 فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ لَا تَذْمِيرُهَا
 بِأَمْنِ الْمِخْنَةِ مِنْ عَثَرَتِهَا
 تَنْجُ مَنْ تِلْكَ الْعَجُوزِ السَّاجِرَةِ
 قَبْلَ أَنْ يَصْطَادَهُ فِيهَا الْغُرُورُ
 فَهُوَ سَلَوَى لِعَدِيمٍ فَاقِدٍ
 حُلَّهَا أَعْيَا عَلَى الْجُهْدِ صَوَابِي
 أَيْنَ مِنْكَ الْبَاسُ أَوْ أَيْنَ الضُّعُودُ
 أَمْ خَشِيتَ الْوُثْبَ فِي هَوَاجِ الرِّيحِ
 فَرَّ مِنْ عَزْمِكَ طَيْرٌ فِي الْفَلَا
 أَهْلُهَا الْهَارِبُ مِنْ أَوْجِ الْفَلَكَ
 فِي الْفَضَاءِ اللَّازُورِدِيِّ الْبَعِيدِ
 لَيْسَ فِي رَقْصٍ وَسُكْرِ وَرَبَابٍ
 وَاحْتِسَابٍ لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ
 مَظْهَرٌ أَعْلَى لِقُدْسِي الصِّفَاتِ
 وَمَجَافَةٌ لِعُمُرَانِ الْبَشَرِ
 لَا تَرَى مَوْضِعَهُ بَيْنَ الصُّفُوفِ
 غَيْرَ صِفْرِ فِي سَارِ الْعَدَدِ
 هُوَ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ نِضَالُ
 سَارَ هَذَا نَحْوَ تَعْمِيرِ الْوُجُودِ
 طَالِباً لِلرُّشْدِ أَوْ تَرْكِ الْوُطْنِ

(١) الشَّاهِينَ : طائر من جوارح الطَّيْرِ وسباعها ، من جنس الصَّقَر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وترى المؤمن في أمته
نحو إدراك المعالي ساعيا
فقرنا الحر إذا ناجى القدر
فقرنا العاري تولاه الزوال
إنه إيمانٌ بدرٍ وخنين
أسفاً لم يبقَ عندي سيفٌ (لا)
أسفاً ، إنني أرى دنيا الفتن
يا شباب الحق ، يا ذخِر الشعوب
إن دنيا اليوم أبلاها القدم
أين منكم يا ذوي الماضي الكريم
طال هذا النوم عن صون حماء
يدأب الحر غدواً وعشيّاً
وجهاذ المصطفى برهائه
يا لقوم ، أنجبوا كل أمير
لا تسأل عن قصة القوم بيانا
ألم أغمد في صذري سهامه
هول هذا الحشر أعياء الواصفين
قوة الدين في النصر القريب
أين مسعاهم وهم في العاجلة
ليس للشيطان فينا مارب
فتراث الدين قد طار شعاعا
كم تغنى بمزايا بايزيد^(١)
فيرى في دولة الأغيار رحمه

ينشد الحق بذاتيّه
وسراجاً في الليالي هاديا
يزهب الشمس ويختل القمر
قد نأى المسلم عن هذا الجلال
إنه زلزال تكبير الحسين
وأرى غمدك منه قد خلا
زلزلت إيمانه فيها المحن
حرروا ممّا سوى الله القلوب
فاخلقوا دنيا سواها في الأمم
غيره الأحرار للدين القويم
ما أرى الموت سوى هذي الحياة
ثم بيني ذاته صرحاً عليّاً
وسجاياء المصطفى ميزانه
فمتى يولد في القوم فقير
أسكت الدمع عن الوصف اللسان
هو في قلبي كاهوال القيامة
فليقدم في الصدر مطوياً دفينا
فكان القوم في شك قريب
قطعوا عمداً طريق القافلة
لا ولا للصر منّا مطلب
وتراث المال قد ولّى ضياعا
ذو رياء هو للوزد مرید
وكان الدل في دنياه نعمة

(١) لا أدري من يرثد الشاعر به .

وينادي أَنَّ حُكْمَ الدُّخْلَاءِ
أَيْهَا المحرومُ مِنْ وَجْدَانِهِ
أَوْ تَذَرِي أَنَّنَا مِنْ عَضْرِنَا
كُلُّ حَيٍّ معرضٌ عن ذاته
عِشْ ولو يوماً عزيزَ المَطْلَبِ
مَنْزِلُ الشَّاهِينَ فِي أَوْجِ السَّحَابِ
لَمْ يَزَلْ فِي الرَّوْضِ ظِلٌّ وَثَمَرٌ
كُنْ كَحَدِّ السَّيْفِ فِي صِدْقِ المَضَاءِ
إِنَّ فِي رُوحِكَ سَيْلاً كَالْعُيَابِ
انْدَفَاعُ السَّيْلِ إِبْثَاتُ البَقَاءِ
أَنَا لَمْ أَسْلُكْ إِلَى الفِقْهِ سَيْلاً
لَمْ أَكُنْ فِي الفَقْرِ ذَا فَهْمٍ دَقِيقِ
فَكْرَةٌ جَاشَتْ بِهَا القَلْبُ اضْطِرَاباً
كُنْتُ فِي الدِّينِ حَدِيدَ البَصْرِ
وَانْجَلَتْ وَاحِدَةٌ بَيْنَ مَنَاتِ
فَاغْتَنِمُ مِنْ فَاقَتِي حِطّاً يَسِيرَا
أَيْهَا الشَّادِي بِقِرَآنِ كَرِيمِ
قُمْ وَأَبْلِغْ نَوْرَهُ للعَالَمِينَ
إِنْ نَكُنْ فِي مِثْلِ نِيرَانِ الخَلِيلِ
مَنْ لَهُ مِنْ ثَرْوَةِ الهَادِي نَصِيبِ
يَا غَرِيباً عَنْ مَقَامِ الْمُضْطَفَى

فِيهِ لِلدِّينِ ازْدِهَارٌ وَازْتِقَاءُ
وَمِنْ الشُّوقِ وَمِنْ أَشْجَانِهِ
غَرِيباً فِيهِ عَنْ أَنْفُسِنَا
فَقَدْ الْجَوْهَرُ مِنْ مِرَاتِهِ
أَجْنِباً عَنْ طَرِيقِ الأَجْنَبِيِّ
مَا لَهُ يَسْكُنُ فِي وَكْرِ الغُرَابِ
فَالْتَمِسْ عُشَّكَ فِي أَعْلَى الشَّجَرِ
وَاحْتَسِبْ نَفْسَكَ فِي كَفِّ القَضَاءِ
يَنْسِفُ الشَّمَّ وَيَهْوِي بِالهَضَابِ^(١)
وَسَكُونُ اللَّيْلِ مَعْنَاهُ الفَنَاءُ
أَتَحَرَّى الحُكْمَ فِيهِ وَالدَّلِيلَا
فِي سَلُوكِ بَيْنَ رُؤَاةِ الطَّرِيقِ
ثُمَّ لَمْ أَفْلِكْ عَنِ القَوْلِ اخْتِجَاباً
رَغَمَ مَا بِي مِنْ قُصُورِ النُّظَرِ
بَعْدَ لَايٍ مِنَ الوَفِّ المُشْكِلَاتِ
فَعَسَى أَلَا تَرَى مِثْلِي فَقِيرَا
وَهُوَ فِي رَكْنٍ مِنَ البَيْتِ مُقِيمِ
قُمْ وَأَسْمَعْهُ البَرَايَا أَجْمَعِينَ
أَسْمَعَ الثَّمَرُودَ تَوْجِيْهَ الجَلِيلِ
فَهُوَ مِنْ جَبْرِيلَ فِي الدُّنْيَا قَرِيبِ
عُدْ إِلَى الحَقِّ تَجِدْ نُورَ الصِّفَا

(١) الهَضَابُ ، جمع هَضْبَةٍ : جبل منبسط ممتدُّ على وجه الأرض .

الرجل الحر

قدّم إقبال في أبياته السابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلا أنه شاء أن يخصّ المسلم الحرّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرجل الحرّ من مقام ، ولذا نجد إقبالاً يكرّر في هذه الأبيات بعض المعاني كصاحب رسالة نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مَسْرِ النَّجْمِ لِلْحَرِّ هَدَفُ
أَمِنُ فِي سِلْمِهِ فِي حَزْبِهِ
عَرَفَ اللَّهَ فَلَمْ يَرْهَبْ سِوَاهُ
لَا يَرَى قَطُّ مَعَ الْبُؤْسِ الْمَرِيرِ
جَمَلٌ فِي الْيَدِ مَوْصُولِ الصِّيَامِ
هُوَ نَبْضٌ فِي عُروْقِ الْأَمَلِ
مَنْ عَلَا تَكْبِيرُهُ مِنْ غَيْرِ تَاجِ
قَدْ ذَكَّتْ نِيرَانُنَا مِنْ جَمْرِهِ
جَنَّةُ الْوَرْدِ شَذَا مِنْ سِخْرِهِ
وَتَرَى فِي قَصْرِهِ رَبَّ الشَّرِيرِ
شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْخَبْرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ نَسْتَجِدِي الْأَمَانِي
أَصْبَحَ الدَّيْرُ لَدِينَا مَقْصُودَا
وَهُوَ يُسْقَى مِنْ يَمِينِ الْمُضْطَفَى
فِي ضَمِيرِ الْحَرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ
نَحْنُ لِلْإِفْرَنْجِ أَسْلَمْنَا الْقِيَادَا
وَابْتَغَيْنَا عَنْدهُمْ عِزَّتَنَا
وَشَعَارُ الْحَرِّ عِزٌّ وَإِيَاءُ
فَلْغَيَّرَ اللَّهُ مَا مَدَّ الْيَمِينِ

وَرَدَّهُ فِي كُلِّ حِينٍ لَا تَخَفُ
رَأْسُهُ فِي الْكَفِّ لَا فِي جَبِيهِ
كَيْفَ يَخْشَى الْخَلْقَ مَنْ خَافَ الْإِلَهَ
عَبْدَ سُلْطَانٍ وَلَا ظِلَّ أَمِيرِ
يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ وَالشُّوْكَ طَعَامُ
وَهُوَ سَعْيٌ فِي طَرِيقِ الْعَمَلِ
يُلْزَمُ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَجِ
وَجَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ
رَاعِشاً مِنْ سَهْمِ عُرْيَانٍ فَقِيرِ
وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظَرُ
وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي طَيْبِ الْمَجَانِي
نَحْنُ لِلْغَيْرِ نَيْعُ الْمَسْجِدَا
كَوْثَرُ عَذْبَاءُ بِهِ الْوَرْدُ صَفَا
فِي جَبِينِ الْحَرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
وَاتَّخَذْنَاهُمْ لَدَى الْجُلَى عَتَادَا
وَجَعَلْنَا وَدَّهْمَ قِبَلَتِنَا
رِزْقُهُ مِنْ يَدِ جَبَّارِ السَّمَاءِ
لَغَيَّرَ اللَّهُ لَمْ يَخْنِ الْجَبِينِ

مَتَعَةُ الدُّنْيَا لَنَا كُلُّ الْمَرَامِ
هُوَ فِي الْحَقِّ جِهَادٌ وَثَبَاتٌ
إِنَّا نَبْنِي قُصُوراً فِي الْخِيَالِ
وَهُوَ بِالْأَعْمَالِ فِي كُلِّ مَجَالٍ
لَوْ رَمَى شُمُّ الْجِبَالِ الْعَاتِيَهُ
اجْتَنَبَ صُحْبَتَنَا وَاشْعَذَ بِهِ
الزَّمِ الْحَرَّ وَدَغَ أَهْلَ الْبَوَارِ^(١)
صَحْبَةُ الْحَرِّ إِلَى الْعِلْيَاءِ بَابُ
صَحْبَةُ الْحَرِّ تَنْبِزُ الْعَالَمِ
قُرْبُهُ لِلْعَزِّ أَصْفَى مَنَهْلٍ
هُوَ يَوْمَ السَّلَامِ فِي أَوْطَانِهِ
بِجَدِيدِ الْفُكْرِ يَحْيِي عَضْرَهُ
وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي مِيدَانِهَا
سَيْفُهُ يَحْفِرُ فِيهَا قَبْرَهُ
لَيْسَ زَرْعُ الْقَلْبِ فِي مَاءٍ وَطِينٍ
إِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ حُرّاً صَافِياً

رُبَاعِيَّاتٌ^(٢)

أَقْبَلَ الْحَرُّ عَلَى يَوْمِ الْفِدَاءِ وَمَضَى يَرْمِي عَلَى النَّجْمِ الْهَدَفَ
وَكَاَنَّ الْوُخْيَ لَقَاءُ النُّدَاءِ مِنْ سَمَاءِ اللَّهِ أَقْدِمَ لَا تَخَفْ

(١) أهل البوار : أهل جهنم .

(٢) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أَشْرَقَ التَّوْحِيدُ نَوْرًا فِي هَذِهِ وَسَرَى التَّحْرِيرُ مِنْهُ فِي الضَّمِيرِ
أُتْرَى مَنْ لَمْ يَخَفْ غَيْرَ الْإِلَهِ يَزْهَبُ السُّلْطَانُ أَوْ يَخْشَى الْأَمِيرَ

رُوحَهُ تَكْشِفُ أَسْرَارَ الْخُلُودِ عَنْ حَيَاةٍ مَا لَهَا فِي الدَّهْرِ مَوْتُ
يُرْسِلُ التَّكْبِيرَ مِنْ قَلْبِ الْوُجُودِ لُغَةً تُغْنِيهِ عَنْ حَرْفٍ وَصَوْتِ

سَلْ مُلُوكَ الْأَرْضِ عَنْ دُنْيَا الْغُرُورِ فِي الْمَلَاهِي خَلْفَ أَسْتَارِ الْحَرِيرِ
زَلْزَلَتْهُمْ بَيْنَ أَبْرَاجِ الْقُصُورِ ضَرْبَةً مِنْ سَهْمِ غُرَيَّانٍ فَقِيرِ

ضَرَبَ الْبَحْرَ كَمَوْسَى بِعَصَاهُ وَرَمَى الصَّخْرَ حُطَامًا مِنْ زَجَاجِ
ذَلِكَ الْأَوَّابُ فِي ثَوْبِ تَقَاهُ أَلْزَمَ التَّيْجَانَ تَقْدِيمَ الْخَرَاجِ

قَدْ جَرَتْ أَنْهَارُنَا مِنْ بَخْرِهِ وَأَضَاءَتْ نَارُنَا مِنْ خَمْرِهِ
بِسْمَةِ الْوَزْدِ شَذَا مِنْ عِطْرِهِ شَعْلَةُ الْمَجْدِ سَنَا مِنْ فِكْرِهِ

شَأْنُنَا فِي الدِّينِ لَا يَعْدُو الْخَبَرَ وَهُوَ فِي الدِّينِ شُهُودٌ وَنَظَرُ
نَحْنُ عِنْدَ الْبَابِ فِي ظِلِّ الشَّجَرِ وَهُوَ فِي الدَّارِ وَفِي مَجْنَى الثَّمَرِ

لَبِنِي الْإِفْرَنْجِ فِي الدُّنْيَا عَيْدُ فِي قِيودٍ مِنْ حَرِيرٍ أَوْ حَدِيدِ
كَمْ تَغْنَى بِمَزَايَا بَايَزِيدِ ذُو رِيَاءٍ وَهُوَ لِلْوَرْدِ مُرِيدِ

فِي حَدِيثِ الْمُضْطَفَى شَمْسُ الْهُدَى كُلُّ أَرْضٍ مَسْجِدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

كَيْفَ تَبْنِي فَوْقَ أَرْضٍ مَسْجُوداً إِنَّ تَرَكْتَ الْأَرْضَ لِلْمُسْتَعْمَرِينَ

لَيْسَ حَيًّا مَنْ يُرَى مُسْتَعْبِداً لِسِوَى مَنْ فِي يَدَيْهِ رِزْقُهُ
سَيِّدَ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى سَيِّداً مَا خِلا رَبِّي فَكُلُّ عَبْدُهُ

فِي ضَمِيرِ الْحَرِّ تَكْبِيرُ الْإِلَهِ فِي جَبِينِ الْحَرِّ تَقْدِيرُ الْأُمَمِ
مَوْتُهُ أَعْلَى مَقَامَاتِ الْحَيَاةِ تَرْفَعُ الدُّنْيَا لِذِكْرِهِ الْعَلَمِ

هُوَ يَوْمَ السَّلَامِ فِي نَهْضَتِهِ يَدِ الْإِصْلَاحِ يَنْبِي عَضْرَهُ
وَيَذِيعُ الْخَيْرَ فِي أُمَّتِهِ مِثْلَمَا يَنْشُرُ رَوْضَ عِطْرِهِ

وَهُوَ يَوْمَ الْحَرْبِ فِي سَاحَتِهِ سَيْفُهُ يَخْفِرُ فِيهَا قَبْرَهُ
يَتَحَدَّى الْمَوْتَ فِي وَثْبَتِهِ أَوْ يُتَمُّ الْعَزْمُ فِيهَا نَصْرَهُ

إِنَّ غَرْسَ الْحَقِّ فِي نَوْرِ الْقُلُوبِ غَيْرُ شَأْنِ الزَّرْعِ فِي مَاءٍ وَطِينِ
فَالْتِمَسْ لِلْمَجْدِ أَحْرَارَ الشُّعُوبِ إِنَّهُمْ فِي الدَّهْرِ أَعْلَامُ الْيَقِينِ

فِي أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ

لم يتحدث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدين فيها ، ولكنه من جهة أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادّيون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إني وعيت

عن جلال الدين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَلٍ ، ما كِدْتُ أتأملُها حتى أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمَةٌ قد وعيتها عن جلال الدين فيها أدركتُ معنى الجلالِ
أنَّ حِفْظَ الأموالِ مِنْ أَجْلِ حِفْظِ الدِّينِ زادٌ وعدَّةٌ للنُّضالِ
قد أبانَ الرَّسُولُ أنَّ صلاحَ المالِ يزكو به^(١) صلاحُ الرُّجالِ
إِنْ يَكُنْ هُمْكَ الغِنَى لم تكنْ له عبداً بَلْ أَنْتَ عبدُ المالِ

كَمْ شَهِدْنَا الإِصْلاحَ مِنْ فارغي الأيدي وأهلِ الخِصاصة المُغْدَمين
كَمْ وَجَدْنَا الكِسادَ مِنْ خازِنِ المالِ وأهلِ الأهواءِ والمُتَرَفِّين
هُمُ يَضِيقُونَ بِالْعَدَالَةِ فِي الأَرْضِ لَيَقْضُوا حَيَاتَهُمْ نَاعِمِينَ
لا يَخَافُونَ فِي المَصِيرِ حَساباً بَلْ يَخَافُونَ غَضَبَةَ الثَّائِرِينَ

يَأْكُلُونَ التَّراثَ جَمْعاً وَبُخْلاً ثُمَّ هُمْ يَأْكُلُونَ خُبْزَ الأجيرِ
وتزِيدُ المأساةَ رُغْباً وهولاً عندما يَسْرِقُونَ حقَّ الفقيرِ
يَقِفُ العَاملُ المُسِينُ^(٢) لديهم خاشعَ الطَّرْفِ خافِضَ التَّعبيرِ
يَصِلُ اللَّيْلُ بالنَّهارِ أنيناً دُونَ جَدْوَى^(٣) فِي بؤْسِ عيشٍ مريرِ

ليس في بيته الرغيفُ ولا يَشْتُرُ مِنْ عَزِيهِ سوى الأَسْمالِ^(٤)
يَتَنَبَّى القَضَرَ وهو يَلْتَمِسُ الأكْوَاحَ بَيْنَ الرُّبُوعِ والأَطْلالِ

(١) يَزْكُو به : يزيده .

(٢) المُسِينُ : كبير السن .

(٣) دُونَ جَدْوَى : دون فائدة .

(٤) الأَسْمال : الأثواب الخَلِقة البالية .

نال ربح الدَّارين مَنْ جَعَلَ الْمَالَ سَبِيلًا إِلَى كَرِيمِ الْفِعَالِ
هُمْ حِيَارَى لَا يَنْظُرُونَ بِنُورِ اللَّهِ بَلْ يَنْظُرُونَ رَأْسَ الْمَالِ

يَسْتَوِي الْحَلُّ وَالْحَرَامُ لَدَى الْقَوْمِ وَأَيْنَ الدُّجَى مِنَ الْأَنْوَارِ
فَأَسَالِيهِمْ مَخَادَعَةَ الْخَلْقِ وَتَعْمِيرَهُمْ خَرَابُ الدِّيَارِ
دَوْلَةٌ تَعْتَدِي عَلَى دَوْلَةٍ ظُلُمًا وَقَطَرٌ يَبْغِي عَلَى أَقْطَارِ
كَادِحٌ يَزْرَعُ الْحَقُولَ فَيَأْتِي غَيْرُهُ عَاجِلًا لَجَنِّي الثَّمَارِ

مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ . مَنْ فَطَرَهُ اللَّهُ ، مَنْ الْقَلْبِ ، مَنْ لِقَاءِ الضَّمِيرِ
يُشْرِقُ الدِّينُ بِالْهُدَايَةِ وَالرُّشْدِ كَمَا يَشْرِقُ الضُّحَى بِالنُّورِ
فَلَوْ أَنَّ الْحَرَامَ يَبْدُو حَرَمًا يَخْجُزُ النَّاسَ عَنْهُ وَعَيُّ الضَّمِيرِ
يَصْبَحُ الْعَدْلُ شَامِلًا كُلَّ أَرْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَوْمِ النُّشُورِ

حِكْمَةُ الدِّينِ أَنْ تُسَلَّمَ لِلشَّرْعِ وَتَرْضَى بِكُلِّ حَكْمٍ قَضَاهُ
مِنْ ضَمِيرِ الرَّسُولِ أَيْنَعُ هَذَا الدِّينِ فِي غَرْبِهِ وَطَابَ جَنَاهُ
إِنَّ هَجَرَ الْحَبِيبِ يَسْتَلِبُ اللَّبَّ وَيُذَكِّي فِي الْقَلْبِ نَارَ جَوَاهُ
لَوْ أَزِيلَ الْحِجَابُ لَمْ تَبْقَ حَيًّا خَلٌّ أَمْرُ الْوَصَالِ وَاطْلُبْ رِضَاهُ

عِشْ بِأَحْكَامِهِ تَرِ الْعَيْشَ صَفْوًا وَرِخَاءً أَوْ نَضْرَةً وَنَعِيمًا
وَاطْعِ أَمْرَهُ تُطْعَمَ الْبَرَايَا وَتَرَى الْأَمْنَ حَيْثُ كُنْتَ مُقِيمًا
قَدْ حَبَاكَ الْإِلَهِ أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ لَتَحْيَا خَلْقًا سَوِيًّا كَرِيمًا
إِنَّ إِزْثَ^(١) الْخَلِيلِ إِيْمَانُهُ الصَّادِقُ فَاحْفَظْ مِيرَاثَ إِبْرَاهِيمَا

(١) إِزْثَ : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخر عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كُلُّ قَلْبٍ لَهُ مِنَ الْحَقِّ نَوْرٌ وله من هدي النَّبِيِّ نَصِيبٌ
لَا يُشَابُّ الْيَقِينَ^(١) مِنْهُ بِرِيبٍ وهو من جبريلَ الأَمِينِ قَرِيبٌ
يَا مُقِيمًا فِي حُجْرَةِ الدَّاءِ ر يتلو وهو عَمَّا يَتْلُوهُ نَاءُ
قُمْ وَأَنْذِرْ بِهِ الْخَلَائِقَ طَرًّا تَجِدِ الْكَوْنَ كُلَّهُ يَسْتَجِيبُ

وَتَقَبَّلْ أَوْامِرَ الدُّيْنِ بِالرَّغْبَةِ وَالشُّوقِ وَالرُّضَا كُلَّ وَقْتٍ وَأَنْ
كُلُّ فَرْضٍ تَقْضِيهِ جَبْرًا وَقَهْرًا لَا تَرَى فِيهِ نَشْوََةَ الْإِيمَانِ
حِكْمَةُ الدُّيْنِ فِي الْعَدَالَةِ وَالْحَبِّ لَيْسَتْ فِي الْبُغْضِ وَالطُّغْيَانِ
وَبِأَنَّ لَا يَحْتَاجُ فِي الْأَرْضِ إِنْسَانٌ لِيَحْظَى بِالرُّزْقِ مِنْ إِنْسَانٍ

قَدْ خَبَرْتُ الدُّعَاةَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ وَالْمُدَّعِينَ لِلْإِلَهَامِ
أَطْفِئُوا جَذْوَةَ الْإِرَادَةِ فِي الشَّغَبِ وَزَادُوهُ خَيْرَةً فِي الظَّلَامِ
وَأَصَاغُوا التَّأْوِيلَ فِي كُلِّ نَصْرٍ حِيلَةً لِلْفَنَى وَجَمَعَ الْخُطَامِ
لَا أَرَى فِي مَنَابِرِ الْقَوْمِ إِلَّا سَلَّةَ الْكَعْكَ أَوْ خَوَانَ الطَّعَامِ

كَمْ أَطَالُوا الْجِدَالَ فِي الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي الْمِرَاءِ
أَيُّ بَابٍ مِنَ الْهَدَايَةِ يُرْجَى مِنْ كَلِيمٍ^(٢) بِلَا يَدٍ بِيضَاءِ
أَيُّ أَمْرٍ يَفِيدُهُ مِنْ كَلَامٍ فِي صَبَاحٍ مُرَدِّدٍ وَمَسَاءِ
صَاحِبِ الْحَقِّ أَنْتَ فَاطِلُهُ بِالسَّغْيِ وَلَا تَنْتَظِرُهُ بِالْإِعْطَاءِ

« إِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ » .

(١) لَا يُشَابُّ : لَا يَخْتَلِطُ .

(٢) كَلِيمٌ : يَرِيدُ بِهِ الشَّاعِرُ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

دمعة على افتراق الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وَحْدَةٌ وَقْتِيَّة بين الهنالك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إِلَّا أَنَّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السّفاكين على الأبرياء الأمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضّر المسلمين على ثورة عارمة بأسلوب دينيٍّ مشير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همالايَا ونهرَ الكنجِ إني أرى صُورَ الحياةِ بغيرِ معنى
فلم أدرك لها في الذوق رأياً ولم أعرف لها في الحسّ لونا

شعوبُ الشرق والغرب استقلّت وضاق بنا على الأرضِ الفضاءُ
فلاغيار ثروتنا متاعٌ ومِن لبناتنا لهم البناءُ

وأين حياتنا والغيرُ فيها يصُولُ كما يشاءُ ويستطيلُ
وليس النومُ ما صرنا إليه فذاك الموتُ لا النومُ الثقيلُ

وإنَّ بدورَ هذا الموتِ جاءت من الأعماقِ مُنذُ الابتداءِ
ومُنذُ المهدِ كان القومُ صرعى^(١) وهذا الموتُ ليس من السماءِ

وليس فقيدُ هذا الموتِ أهلاً لغسلٍ أو لقبرٍ أو بُكاءِ
ولا شقُّ الثيابِ عليه حزناً ولا سعيِ الوفودِ إلى عزاءِ

جهنّمه سوى ما قد عرفنا فليس لها إلى الفلكِ انتسابُ
ويومُ حسابِ كلِّ الخلقِ يأتي بلا عملٍ فليس له حسابُ

حصادُ الزَّارعينِ غداً وهذا بلا زرعٍ فمن أين الحصادُ
ومدّةُ عمره في الدهرِ يومٌ وكلُّ حياته يومٌ مُعادُ

(١) صرعى ، جمع الصريع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس - والمجون .

وَأَيُّةٌ أُمَّةٌ تَرْجُو الْأَمَانِي بِلا جَهْدٍ وَتَمْضِي فِي رُكُودٍ^(١)
يَكُونُ مَصِيرُهَا عَدَمًا وَمَحْوًا وَيَنْسَى نَقْشَهَا سِفْرُ الْوُجُودِ

وَكَمْ فِتْنٍ تَمَادَى^(٢) الْغَرْبُ فِيهَا وَأَحْكَمَ حَوْلَهَا السُّحْرَ الْمِينَا
فَمَا أَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ كَفْرًا وَلَا أَبْقَى لِأَهْلِ الدِّينِ دِينَا

وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا الدَّاجِي^(٣) ظِلَامًا فَمَا تَدْرِي الثَّرَابَ مِنَ الثَّرَابِ
هِيَ الْغَمَرَاتُ مَا مِنْهَا نَجَاةٌ وَلَا حَلٌّ يَغَيِّرُ الْإِنْقِلَابِ

فِيَا مَنْ هَامَ بِالدُّنْيَا مَتَاعًا وَأَصْبَحَ هُمًّا شَبَعًا وَرِيًّا^(٤)
تَطْلُبُ فِي حُضُورِ الْحَقِّ قَلْبًا وَفِيًّا صَادِقَ الْإِيمَانِ حَيًّا

فَهَذَا الْقَلْبُ لِلدُّنْيَا سَرَاجٌ لَهُ أَمَمُ الْخَلِيقَةِ فِي انْتِظَارِ
وَهَذَا الْقَلْبُ مَعْدِنُهُ تَرَابٌ وَجَوْهَرُهُ فَرِيدٌ فِي الدَّرَارِي^(٥)

يَفُوقُ السَّبْعَةَ الْأَفْلَاكَ قَدْرًا بِهَيْئَتِهِ وَلَا يَأْلُو رُقْيَا

(١) الرُّكُودُ : الهدوء ، والسكون .

(٢) تَمَادَى : لَجَّ ودام عليه .

(٣) لَيْلَهَا الدَّاجِي ، أَي : حَالِك .

(٤) رِيًّا : مصدر زَوِيَ ، أَي : شَرِبَ .

(٥) الدَّرَارِي ، جمع الدَّرِي : نسبة إلى الدَّر في حسنه وبهائه .

يَقِيمُ عَلَى الثَّرَى وَلَهُ أَمَانٌ إِلَى الْعِلْيَاءِ أَدْنَاهَا الثَّرْيَا^(١)

وَفِي حَرْبٍ ضَرُوسٍ^(٢) كُلَّ حِينٍ مَعَ التَّارِيخِ مُتَّصِلِ النَّضَالِ
بِضَرْبَتِهِ الْجِبَالُ تَصِيرُ عَنْهَا وَتُرْهَبُ الضَّرَاغِمُ فِي الْجِبَالِ

تَرَى لِشَعُورِهِ الْمَشْبُوبِ نَاراً تَوْقَدُ مِنْ حَرَارَتِهَا ذُكَاءً
لَهُ مِمَّا سِوَى التَّنُورِ خَبِرٌ وَمِنْ غَيْرِ الطَّعَامِ لَهُ غِذَاءٌ

حُضُورُ الْحَقِّ يَمْلَأُهُ يَقِيناً فَمِنْهُ الْخَوْفُ مَخْضاً وَالرَّجَاءُ
شُهُودُ الْحَقِّ إِنَّهُ هُوَ غَابَ عَنْهُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الدُّنْيَا بَقَاءٌ

طَيْفُ الْجَلُوتِ وَالْخُلُوتِ طُرّاً يَضِيءُ الْكَوْنُ بِالرَّأْيِ الْمُتَبَيِّرِ
وَمَالِلِ الْعُشْقِ فِي سُكْرِ وَصَخْرِ دَلِيلٌ غَيْرَ أَوَابٍ فَقِيرِ

فَصَاحِبٌ مِنْ لَهُ قَلْبٌ عَظِيمٌ لَعَلَّكَ تَدْرِكُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَا
وُلِدْتَ عَلَى مَهَادِ الدُّلِّ عَبْدَا فَجَاهِذْ ثُمَّ مِتْ حُرّاً كَرِيمَا

(١) الثَّرْيَا : مجموعة من النجوم .
(٢) حَرْبِ ضَرُوسٍ ، أَي : شديدة مُهلكة .

السِّيَاسَةُ الْحَاضِرَةُ

إِنَّ إِقْبَالَ كَشْفِ الْأَقْنَعَةِ الْمَزَيَّفَةِ عَنْ وَجْهِ السِّيَاسَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَوَجْهِ أُمَمِ الشَّرْقِ إِلَى تَجَنُّبِ أخطارِ دُولِ الْغَرْبِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَقَدَّمَ حَقَائِقَ وَصُوراً عَنِ التَّدهُورِ الْخُلُقِيِّ فِي قِادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُوجَّهِينَ لَشُعُوبِهِمْ لِاسِيَمَا فِي شِبْهِ الْقَارَةِ الْهِنْدِيَّةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَى أَرْضِهَا هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ الْكُبْرَى قَبْلَ الْاِسْتِقْلَالِ . وَمِنْ أَرْوَعِ مَا نَشْهَدُهُ مِنْ رَوَائِعِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ ذَلِكَ الْاِسْتِدْرَاكُ الْعَجِيبُ الَّذِي صَرَّحَ فِيهِ إِقْبَالٌ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُسْتَعْبَدَ الدَّلِيلَ يَكَادُ يَفْقَدُ حَقَّهُ فِي أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى لِسَانِهِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَالْمَحْ إِلَى الْحَالَةِ الْمُؤَسِّفَةِ الَّتِي شَهِدَهَا فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَلِاسِيَمَا فِي شِبْهِ الْقَارَةِ ، وَبَيَّنَّ بِجَلَاءٍ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ وَالذُّلَّ لَا تَلْتَقِيَانِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ فِي قَلْبِ إِنْسَانٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ إِقْبَالٌ :

صَوَّرَ الْغَاصِبُ عَذْلًا ظَلَمَهُ مَا هُوَ التَّفْسِيرُ لِلْعَذْلِ الْجَدِيدِ
زَادَ فِي التَّحْرِيرِ مَعْنًى أَنَّهُ يُخَكِّمُ الْقَيْدَ لِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ

قَالَ لِلطَّيْرِ إِذَا زُمْتَ الْأَمَانُ فَاتَّخِذْ فِي مَنْزِلِ الصَّيَادِ وَكُورَا
لَيْسَ فِي الْأَجْوَاءِ لِلطَّيْرِ مَكَانُ لَا وَلَا تَأْمَنُ فِي الصَّحَرَاءِ نُسْرَا

حِينَ يَلْقَى الْحَبَّ فِي أَشْرَاكِهِ يَسْقُطُ الطَّيْرُ وَيَهْوِي ثَمَلًا^(١)
وَيَغِيبُ الرُّشْدُ عَنْ إِذْرَاكِهِ سَاعَةً يَفْقَدُ فِيهَا الْأَمَلَا

سَدَّدَ الرَّأْيَ وَحَازَرَ كَيْدَهُ كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ زُورٌ وَمَيِّنُ^(٢)

(١) الثَّمَلُ : النشوان من السكر .

(٢) المَيِّنُ : الكَذِبُ .

إِنْ سَقَاكَ الْمَاءَ فَاتَّزُكْ وَزِدْهُ وَلَتَمُتْ ظَمَانٌ حُرّاً كَالْحُسَيْنِ

لَا تُصَدِّقْ مِنْهُ مَا تَسْمَعُهُ فَهُوَ تَخْذِيرٌ مَبِيدٌ لِلْبَشَرِ
وَاحْذَرِ الْكُخْلَ الَّذِي يَصْنَعُهُ إِنَّهُ الْكُخْلُ الَّذِي يُعْمِي الْبَصَرَ

ضَاقَ صَدْرِي بِأَمِيرِ الْقَافِلَةِ لَيْسَ فِيهِ وَمَضَةٌ^(١) مِنْ لَا إِلَهَ
عَابِدُ الْمَالِ يَحِبُّ الْعَاجِلَةَ عَبْدُ جَسَمٍ عَبْدُ نَفْسٍ عَبْدُ جَاهٍ

كَانَ بِالتَّوْحِيدِ مَرْفُوعَ الْعِلْمِ يَنْشُدُ الْمَجْدَ طَرِيفاً وَتَلِيداً
ذَلِكَ الْمَوْلُودُ فِي ظِلِّ الْحَرَمِ مَا لَهُ أَضْبَحَ لِلْغَيْرِ مُرِيداً

أَيُّنَ مَنْ كَانَ بِهِمْ يَسْتَرْشِدُ كُلُّ مَرْتَابٍ فِيحْظَى بِالْيَقِينِ
وَتَرَى الْأَرْضَ إِذَا مَا سَجَدُوا زُلْزَلَتْ مِنْ جَبْهَاتِ السَّاجِدِينَ

فِي دَوِيِّ الْهَوْلِ كَانُوا يُغْلِنُونَ تَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ تَوْجِيدُ الْإِلَهِ
بِمِدَادٍ مِنْ دِمَاءٍ يَكْتَبُونَ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا نَخْشَى سِوَاهُ

أَيُّنَ ذَاكَ الشُّوقُ وَالْقَلْبُ الصَّبُورُ وَمَرَايَا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ
قَدْ طَوَّئَهَا فِي تَوَالِيهَا الْعُصُورُ وَتَوَارَتْ فِي اللَّيَالِي الْخَالِيَاتِ

(١) وَمَضَةٌ : لَمْعَةٌ خَفِيفَةٌ .

قَدْ بَلَوتُ الرُّقَّ^(١) مُنْذُ الْإِبْتِدَاءِ لَمْ يَكُنْ مَهْدِي فِي أَرْضِ الْحَرَمِ
مَنْ رَسُولِ اللَّهِ يَفْرُونِي الْحَيَاءُ^(٢) حِينَ يَدْعُو بِاسْمِهِ الْغَالِي فَمِي

لَكَ قَلْبٌ وَمَعَ الْقَلْبِ ضَمِيرُ أَمْ غَدَا صَدْرُكَ لِلْأَصْنَامِ دَيْرًا^(٣)
أَنْتَ لِلْغَاصِبِ مُحْكُومٌ أَسِيرُ تَحْتَ حُكْمِ الْغَيْرِ لَنْ تَصْنَعَ خَيْرًا

تَدْعِي الْحُبَّ لَخَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَتُكْذِبُ الْأَقْوَالِ مَا لَمْ يَبْدُ فِعْلًا
وَإِذْ لَمْ يَتَّبِعِ الْقَوْلَ اقْتِدَاءُ لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ أَوْ لِلْقُرْبِ أَهْلًا

لَذَّةُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ قُلْ أَنْ يُذَرِّكَهَا عَبْدٌ ذَلِيلُ
مُسْلِمٌ مُسْتَسْلِمٌ لِلطَّامِعِينَ آزَرِي^(٤) حَادٍ عَنِ دِينِ الْخَلِيلِ

صَلَوَاتُ الْحَرِّ بَعَثٌ لِلشُّعُورِ فَهِيَ مِعْرَاجٌ إِلَى الْعَيْشِ الْكَرِيمِ
وَصَلَاةُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ حُضُورِ عَادَةٌ جَوْفَاءُ فِي رَسْمِ قَدِيمِ

إِنَّ لِلْأَحْرَارِ فِي الْعِيدِ السَّعِيدِ مَظْهَرُ الْعِزَّةِ فِي دُنْيَا وَدِينِ
وَلَدَى الْأَسْرَى فِي عَيْشِ الْعَيْدِ يُضْبَحُ الْعِيدُ هَجْوُ الْمُؤْمِنِينَ

(١) الرُّق : العُبودِيَّة .

(٢) يعرفونني الحياء : يُصَيِّبُنِي الْحَيَاءُ .

(٣) دَيْرًا ، مصدر من دَارَ يَدُورُ ، أَي : طَافَ حَوْلَهُ .

(٤) آزَرِي : نَسَبَةٌ إِلَى آزَرَ وَالِدِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

إلى الأمة العربية

خَصَّصَ محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمة العربية ،
ليسجل فيها فضلها وسبقها في حمل الرسالة الإسلامية ، والأخذ بيد
الإنسانية ، وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى
موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة
هذه الأمة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ
على سجيته ، ويعطي القلب والعاطفة زمامه ، ويترسلُ في الحديث ،
فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنْ الذي
سَمِعَ العالم منه نداء « لا قبصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ^(١) ، وَمَنْ الذي
أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنْ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى
بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي
أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتاتٌ مائدتكم ، وهل قوله تعالى :
﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إِنَّ نَفْسَ ذَلِكَ
الأمي أعاد على هذه الصحراء الخُضْبَ والنمو ، فأنبئت الأزهار والرياحين ، إِنَّ
الحرية نشأت في أحضانه ، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أميه ، إِنَّ الجسد
البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشف اللثام عن جمال
وجهه ، إِنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

(١) يشير إلى الحديث المشهور : « إذا هلك قبصر فلا قبصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا
كسرى بعده » .

المعلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلى الأذان بقراءة « الصافات »^(١) بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأبواب كأيي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكر جلال الدين الرومي ، وفكر فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةً من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره^(٢) ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سمو ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبار العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاء وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء .

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثَّل السيف المفلول يترأى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظُبة فهو لا يُستفَعُ به ، فيقول الشاعر :

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنتها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المفاخرات ، وما أجمل تلك الغزوات . »

وبعدما يمدحهم الشاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبَتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبيدي فرحه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفرقة بعد الوحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت ! أما أنتم فما قدَّرتُم قدَّرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمةً واحدةً ، أمةً الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعكم ، ومرَّقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسكم . »

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوً على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسِء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألِّمةٌ منوجَّةٌ شاكيةٌ مستغيثةٌ . »

الشاعر عارف بمكائيد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل

منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرّسهم وخبرهم ، فهو يتألم إذ يرى في الأمة العربية من يُحسنُ الظنَّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إياكم والركون إلى الإفرنج ، والاعتماد عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنَّ حكمة العرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينّة لا تملك شيئاً ، إنّها مزقت وخدّعت العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يجدوا من يرثي لهم ، ويرفّق بهم ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ، فقوموا أيها العرب ! وردّوا فيكم روحَ عمرَ بن الخطّاب مرّةً أخرى ، إنّ منيع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمانةً للسرّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنَّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخير والشرّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أقلّت نجومُ الآخرين ، وطوّيَ بساطهم ، لن تسمعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسمع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السّيل ، حتى تُسرّع ركائبكم في مضمار الحياة ، وتسبقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خَلَّفَكُمْ فِي الْحَيَاةِ ؟ إِنَّ الْعَصْرَ الْحَاضِرَ وَلَيْدُ نَشَاطِكُمْ ،
وَكِفَاحِكُمْ ، وَصَنِيعُ جِهَادِكُمْ وَدَعْوَتِكُمْ ، وَمَا زِلْتُمْ سَادَتَهُ ، وَوَلَاتَهُ حَتَّى أَقْلَتَ
زَمَامَهُ مِنْكُمْ ، فَتَبَاهِ الْغَرْبُ وَامْتَلَكَهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَدْ هَذَا الْعَصْرَ وَهَذَا
الْمَجْتَمَعُ الْإِنْسَانِي شَرَفَهُ وَكَرَامَتَهُ ، وَأَصْبَحَ تَحْتَ وَلايَتِهِ مُنَافِقاً خَلِيعاً ، ثَائِراً عَلَى
الدِّينِ .

فِيَا رَجُلَ الْبَادِيَةِ ! وَبَا سَيِّدَ الصَّحَرَاءِ ! عُذِّ إِلَى قُوَّتِكَ وَعِزَّتِكَ ، وَامْتَلِكْ نَاصِيَةَ
الْأَيَّامِ ، وَخُذْ عِنَانَ التَّارِيخِ ، وَخُذْ قَافِلَةَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْغَايَةِ الْمَثْلَى .

وَهُنَا نَبْذَةُ أُخْرَى مِنْ آيَاتِهِ يَشْكُو فِيهَا إِلَى رُوحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضِيَاعَ الْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَانْطِفَاءَ شُعْلَةِ الْحَيَاةِ وَالْإِيمَانِ فِي نَفُوسِ الْعَرَبِ ، وَيَشْكُو وَخَذَتُهُ
وَعُزْبَتَهُ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْبَارِدِ الْجَامِدِ ، وَيَتَاجِيهِ مُنَاجَاةٌ مِنْ قَامَ بَيْنَ
يَدَيْهِ ، وَأَذِنَ لَهُ فِي الْكَلَامِ ، وَيَقُولُ :

« لَقَدْ تَشَشَّتْ شَمْلُ أَمَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ ! يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَبَالِي أَيْنَ يَلْجَأُ الْمُسْلِمُ
الْحَزِينُ ، وَإِلَى مَنْ يَأْوِي ؟ لَقَدْ سَكَنَ بَحْرُ الْعَرَبِ الْمَضْطَرِبَ الْمَائِجَ ، وَفَقَدَتِ
الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ذَلِكَ اللَّوْعَ ، وَذَلِكَ الْقَلْقَ ، الَّذِي عُرِفَتْ بِهِ ، فَبَالِي مِنْ أَشْكَو أَلْمِي ،
وَأَيْنَ أَجْدُ مِنْ يَسَاعِدُنِي عَلَى آلَامِي وَأَحْزَانِي ؟ وَمَاذَا يَفْعَلُ حَادِي أَمَّتِكَ ، وَكَيْفَ
يَقْطَعُ الطَّرِيقَ الشَّاسِعَ ، وَيَطْوِي السَّفَرَ الْبَعِيدَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ وَالْمَهَامِهِ ، وَقَدْ ضَلَّ
سَبِيلَهُ ، وَفَقَدَ زَادَهُ ، وَانْقَطَعَ عَنِ الرِّكْبِ ، يَا اللَّهُ ! قُلْ لِي مَاذَا يَصْنَعُ حَامِلُ
دَعْوَتِكَ ، الْمُؤْمِنُ بِرِسَالَتِكَ ، وَأَيْنَ يَجِدُ زَمَلَاءَهُ وَرُقُقَتَهُ ؟ » .

وَيُؤَلِّمُ الشَّاعِرُ أَنَّ يَرَى الْعَرَبَ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَوْرَبِيِّينَ الْإِنْجِلِيزِ
وَالْأَمْرِيكِيِّينَ كَأَصْدِقَاءٍ مُخْلِصِينَ ، وَأَعْوَانٍ مُنْجِدِينَ يَحْلُونَ لَهُمْ مُشْكِلَةً
الْمَلَاجِثِينَ ، وَيَرُدُّونَ إِلَيْهِمْ أَرْضَ فِلَسْطِينَ ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْيَهُودِ
وَنَفُوذِهِمُ السِّيَاسِيِّ وَالْاِقْتِسَادِيِّ وَالصَّحَافِيِّ ، يَقُولُ :

« أَنَا أَعْلَمُ جَيِّدًا يَا إِخْوَتِي الْعَرَبُ ! أَنَّ النَّارَ الَّتِي شَقَلَتْ الزَّمَانَ ، وَبَهَرَتْ

التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم ، صدّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنّ اليهود لا يزالون يتحكّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنّ الأمم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطّف واعتذار :

« معذرة يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي^(١) أن يخاطبكم ، ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحة للعرب ؟ إنكم كنتم يا معشر العرب ! أسبق الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدّين ، وإنه لا يتمّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاع عن « أبي لهب » ، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطّاغوت ، كذلك لا تتمّ الفِكرَةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنّ العالم العربيّ أيها السادة ! لا يتكوّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالشغور والحدود ، وإنما يقوم على أساس هذا الدّين الإسلاميّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »^(٢) .

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبُ العُروبةِ والمَجدُ المؤثّل^(٣) في بدو وفي حَضَرٍ حتّى ضُحى المحشر
مَن الَّذي حرّرَ الدُّنيا لخالقها وأسمَعَ الخَلقَ لا كِشْرَى ولا قَيْصَر

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ١٢٤ - ١٣٥ .

(٣) المؤثّل : المَبني الأصل .

مَنْ قَبْلَكُمْ أَبْلَغَ آيَاتِ نَاطِقَةٍ بُوْحِي مَنْ خَلَقَ الدُّنْيَا وَسَوَّاهَا
مَنْ غَيْرُكُمْ رَفَعَ الْمِضْبَاحَ مُؤْتَلِقاً وَوَحَّدَ الْخَلْقَ لَمَّا وَحَّدَ اللَّهُ

لَمْ يَطْعَمِ النَّاسُ إِلَّا فِي مَوَائِدِكُمْ عِلْماً شَهِيّاً وَتَهْذِيباً وَعِزْفاً
فِي شَأْنِكُمْ أَرْسَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ فَاصِداً بِحُكْمِ بِنِعْمَتِهِ فِي الْخَيْرِ إِخْوَاناً

مَنْ حَوَّلَ الْبَيْدَ رَوْضاً وَالْحَصَى دُرّاً وَأَنْبَتَ الْوَزْدَ فِي الصَّحْرَاءِ لِلْعَرَبِ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مَا غَيْرُ النَّبِيِّ بِهَا أَغْنَتْ مَكَارِمُهُ فِيهَا عَنِ السُّحْبِ^(١)

فَكُلُّ مَعْبُودٍ قَدِيمٍ فِي الشُّعُوبِ هَوَى بَعَزْمِهِ سَاجِداً لِلَّهِ إِكْبَاراً
وَكُلُّ غَصْنٍ هَشِيمٍ مِنْ نَدَاهِ غَدَا يُجَدِّدُ الْحُسْنَ أَوْرَاقاً وَنَوَاراً

وَاهِأْ لَهَا جَذَبَاتِ طَالِمَا حَفَزَتْ مَنَا الْخُطَا وَأَثَارَتْ لِلْعَلَا هَمِّمَا
قَدْ أَبَدَلْنَا اللَّيَالِي مِنْ سَعَادَتِهَا يَأْساً مَرِيراً وَمِنْ أَنْوَارِهَا ظُلَمًا

كُلُّ الشُّعُوبِ أَعَدَّتْ مِنْ مَوَارِدِهَا حِصْنَ الرِّخَاءِ وَصَارَتْ لِلْمُنَى قَدَمًا
وَمَلَأَ صَحْرَانِكُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ غِنًى وَثَوْرَةً وَكُنُوزَ تَغْلِقُ النُّعْمَا

كَيْفَ انْقَضَى حِفْلُكُمْ وَانْفَضَّ سَامُرُكُمْ^(٢) وَكَانَ بِالْأَمْسِ مِثْلَ الْعَقْدِ مُنْتَظِمًا

(١) سُحْبٌ ، جمع السُّحَابِ : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .

(٢) سَامِرٌ : هو مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَ زَمِيلِهِ فِي اللَّيْلِ .

تَوَحَّدَتْ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ أُمَّتُكُمْ مَا بِأُلْهَا انْقَسَمَتْ فِي أَرْضِكُمْ أُمَّمَا

قَدْ خَادَعَتْكُمْ مِنَ الْمُسْتَعْمَرِينَ يَدٌ سُمُّ الْعِقَارِبِ فِي أَكْمَامِهَا اسْتَرَا
كَمْ أَهْدَرُوا مِنْ شُعُوبٍ أَدَمِيَّتَهَا كَمْ أَيْقَظُوا فِتْنًا ، كَمْ أَفْسَدُوا فِطْرَا

تَوَارَتْ الْعَرَبُ الْأَحْرَارُ وَخَدَتْهُمْ مَدَى عَصُورٍ وَأَجْيَالٍ وَأَزْمَانٍ
حَتَّى إِذَا جَاءَ الْاسْتِعْمَارُ قَسَمَهَا إِلَى شُعُوبٍ وَأَقْوَامٍ وَأَوْطَانٍ

أَضْرَبَ خِيَامَكَ فِي دُنْيَا وَجُودِكَ لَا تَقِفُ بِهَا عِنْدَ رَسْمِ الدَّارِ وَالْدَّمَنِ^(١)
وَادْفَعْ بِنَاقَتِكَ الْمِيدَانَ أَسْبَقُ مِنْ رِيحِ الصَّحَارَى وَأَنْقِذْ وَخْدَةَ الْوَطَنِ

يَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ انْظُرْ لِعَصْرِكَ فِي دُنْيَا يَفُوزُ بِهَا مَنْ أَحْكَمَ النَّظْرَا
بِالسُّلْمِ بِالْعَدْلِ تَبْنِي مَا تُؤَمِّلُهُ إِنْ شِئْتَ لِلْأَرْضِ عُمْرَانًا فَكُنْ عُمْرَا

نُعَادُ هُنَا نَفْسُ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ فِي صِيَاقٍ أُخْرَى ، يَقُولُ :

(١)

أُمَّةَ الصَّحَرَاءِ يَا شُعْبَ الْخُلُودِ مَنْ سِوَاكُمْ حَلَّ أَغْلَالَ الْوَرَى
أَيُّ دَاعٍ قَبْلُكُمْ فِي ذَا الْوُجُودِ صَاخٌ لَا كَسْرَى هُنَا لَا قِصْرَا

(١) الدَّمَنُ ، جمع الدِّمَةِ : وهي آثار الدَّارِ .

مَنْ سِوَاكُمْ فِي حَدِيثٍ أَوْ قَدِيمٍ أَطْلَعَ الْقُرْآنُ صُبْحاً لِلرُّشَادِ
هَاتِفاً فِي مَسْمَعِ الْكَوْنِ الْعَظِيمِ لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ رَبّاً لِلْعِبَادِ

حَدِّثُونِي الْيَوْمَ عَنْ أَيِّ خِيَوَانٍ قَدَّمَ الْحِكْمَةَ قَوْتاً لِلْقَطِينِ^(١)
يَا مَصَابِيخَ النَّأخِي^(٢) وَالتَّفَانِي أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَصْبَحْتُمْ لِمَنْ

(٢)

وَابِلٌ مِنْ قَيْضِ أُمِّي اللَّقَبِ الْكَرِيمُ الْفَرْدُ فِي كُلِّ الْكِرَامِ
أَنْبَتَ الزَّهَرَ بِصُخْرَاءِ الْعَرَبِ بَلْ سَقَى فِي الْقَفْرِ بُشْتَانَ الْوِثَامِ

بِهَدْيِ الْحَرِّيَّةِ الْعَلِيَا أَنْارَ فَهِيَ رَوْضٌ مُوْنَقٌ مِنْ غَزِيهِ
يَوْمُهَا الْحَاضِرُ فِي كُلِّ الدِّيَارِ لَمْ يُنْزَ إِلَّا بِذِكْرِ أُمِّيهِ

كُلُّ صَدْرٍ مِنْ بَقَايَا آدَمَ صَاغَ فِيهِ لِلْعُلَا قَلْباً جَدِيداً
مَنْحَ الْإِنْسَانِ مُلْكَ الْعَالَمِ بَعْدَ مَا عَلَّمَهُ النَّهْجَ الرُّشِيداً

كُلُّ رَبٍّ غَيْرَ خَلْقِ النَّسَمِ صَارَ مِنْ عَزَمَتِهِ تَحْتَ الثَّرَى^(٣)
كُلُّ غُضَنِ كَانَ فِي يَتْسِ الْعَدَمِ يَنْدَاهُ اخْضَرُّ حَتَّى الثَّمَرَا

(١) قَطِينٌ : الفهم الذكي .

(٢) النَّأخِي ، مصدر من نَأَخَى فلاناً : اتَّخَذَهُ أَخاً .

(٣) الثَّرَى : التُّراب النَّدِي .

(٣)

لا تسلني الآن عن ثورته إنها ميدان بذر وحنين
في أبي بكر وفي صاحبه في علي ثم في صبر الحسين

سيفُ أيوب وتقوى بايزيد فيهما مفتاح كنز العالمين
أسكر الدنيا بجام واحد فحوى الدنيا وضم المشرقين

هاهنا الحكمة والدين القويم وهناك الحكمُ للدنيا يُقام
كل قلب فيه للمجد الصميم ثورة تعلو به فوق المرام

(٤)

لا تقل أين ابتكار المسلمين وسل الحمراء واشهد حسن تاج^(١)
دولة صار ملوك العالمين نخوها طوعاً يؤدون الخراج

دولة تقرأ في آياتها مظهر العزة والمُلْك الحِصين
وكنوز الحق في طياتها دونها حارث قلوب العارفين

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

أرسل الشُّكْرَ إلى غير انتهاء لَبِئْسَ اللهُ قُذْسِي الْجَنَابِ^(١)
أشعل الإيمان نارا بالعراء أوقد الثور بكف من تراب

وحباه الله من عليائه عزيمة فل بها سيف الغير
راكب الناقة في صحرائه سار فيها راكباً خيل القدر

كبروا لله في ظل الحروب وصفوا تحت ظل المجد
ضجة دانت لهم فيها الشعوب وارتقوا فيها مكان الفرقد^(٢)

(٦)

وي كأن لم تشرقوا في الكائنات يهدي الإيمان والنهج الرشيد
ونسيتم في ظلام الحادثات قيمة الصحراء في العيش الرغيد^(٣)

كل شعب قام بيني نهضة وأرى بنيانكم منقسم
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسي كيف صرتم أمما

(١) الجناب : الناحية .

(٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولهذا يهتدى به . وهو المسمى بـ « النجم القطبي » .

(٣) الرغيد : العيش الطيب الواسع .

كُلُّ مَنْ أَهْمَلَ ذَاتَيْتَهُ فَهُوَ أَوْلَى النَّاسِ طَرًّا بِالْعَنَاءِ
لَنْ يَرَى فِي الذَّهْرِ قَوْمِيته كُلُّ مَنْ قَلَّدَ عِشْرَ الْغُرَبَاءِ

فَكُفُّوا فِي عَضْرِكُمْ وَاسْتَبِقُوا طَالَمَا كُنْتُمْ جَمَالًا لِلْعَضْرِ
وَامْلُؤُوا الصَّحْرَاءَ عِزْمًا وَاخْلُقُوا مَرَّةً أُخْرَى بِهَا رُوحَ عُمَرِ

والآن ماذا نصنع يا أُمَمَ الشَّرْقِ (١)

يندّد إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ،
وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ،
ولكن التطوّر السَّريع والثورات المتوالية في الشرق والغرب ، غيّرت الكثير من
الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأُمَّة العربيّة - بعد أن وجّه إليها
خطابه - :

تَكُنْ الخلائقُ في الأرض طُراً وقد سامها الغربُ عُنفاً وَجُوراً (٢)
فيا أُمَمَ الشَّرْقِ فيم الثَّواني لقد آن أن يُصْبِحَ الشَّرْقُ حُراً

أكادُ أرى ثورةً في النفوس تشدُّ الحياة إلى المَجْدِ جَراً
مضى الليلُ وانجابَ عَهْدُ الظَّلامِ وبَعْدَ الدُّجَى يَغُتَبُ الليلُ فَجْراً

وما بَرَحَ الغربُ يَحْتالُ تَيْهاً (٣) وَيَحْتَرِفُ الكَيْدَ لِلْعَالَمِينَ
لينشُرَ في الكونِ إلْحَادَهُ وَيُنْشِئَ دُنْيا على غيرِ دِينِ

وَيَسْتَبِطُنُ الذُّئْبُ في جِلْدِ شاةٍ بانيابه العُضْلِ (٤) خَلْفَ الكَمِينِ

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوان لهذا الكتاب .

(٢) جُوراً : ظلماً .

(٣) تَيْهاً : ضلالاً .

(٤) العُضْلُ : المعوجة .

أَرَى مَشَكَّلَاتِ بَنِي آدَمَ يَزِيدُ بِهِمْ شَرُّهَا كُلَّ حِينٍ

فَمَا قَدَّرُ إِنْسَانَ هَذَا الْوُجُودِ لَدَيْهِمْ سِوَى هَيْكَلٍ مِنْ تُرَابٍ
تَشَكَّلَ فِي الْخَلْقِ مَاءٌ وَطِينًا وَبِنَائِهِ صَائِرٌ لِلْخَرَابِ

وَقَافِلَةُ الْكَوْنِ ضَلَّتْ خُطَاهَا بِحِكْمَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ
لَأَطْمَاعِهِمْ كُلُّ شَرٍّ مُبَاحٌ وَمَا لِلضَّمِيرِ عَلَيْهِمْ حِسَابُ

وَالْحَقُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ دَلِيلٌ وَمِنْ نُورِهِ كُلُّ مَا تُبْصِرُونَ
وَفِي كُلِّ مَعْنَى لَهُ حِكْمَةٌ يَفُوزُ بِأَسْرَارِهَا الْعَارِفُونَ

إِذَا شَهِدُوا آيَةَ اللَّهِ عَاشُوا أَبَاءَ عَلَى الضَّيِّمِ^(١) لَا يَزْهَبُونَ
لَقَدْ نَظَرُوا فَاسْتَبَانُوا الْهُدَى بِإِدْرَاكِهِمْ أَفْلا يَنْظُرُونَ

وَلِلْمُؤْمِنِ الْحَرِّ مِنْ رَبِّهِ هُدًى فِي الْحَيَاةِ وَنُورٌ مَبِينٌ
وَفِي قَلْبِهِ لَوْعَةٌ^(٢) وَاشْتِيَاقٌ وَعُطْفٌ عَلَى مِخْنَةِ الْآخِرِينَ

(١) الضَّيِّمُ : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثلث العبدى :
ونحني على الثغر المخوف ونثقي بغارتنا كيدَ العدا وضُيُومها
(٢) لَوْعَةٌ : حرقه في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إِذَا الْعِلْمُ حُلَّ بِقَلْبِ الْفَتَى أَحْلَ بِهِ خَشْيَةَ الْمُتَّقِينَ
ويزدادُ خوفاً مِنْ اللَّهِ حَتَّى يردُّ الأمانَ إِلَى الْخَائِفِينَ

هُوَ الْعِلْمُ لَنَا فِيهِ كَيْمِيَاءُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ يَهْدِي الْبَصَرُ
فِيهَا أَسْفَا لَيْسَ لِلْغَرْبِ مِنْهُ سِوَى حَيْرَةٍ فِي دِيَاغِي الْفِكْرِ

فَلَمْ يُجِبْهُ الْعِلْمُ عَقْلاً سَوِيّاً يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرٍّ
فَلَا يَنْبَعُ الطُّلُّ مِنْ جَفْنِهِ وَفِي صَدْرِهِ قِطْعَةٌ مِنْ حَجَرٍ

فَبِالْعِلْمِ كَانَ رَقِيّ الْحَيَاةِ تَضِيءُ الْقُرُونُ بِهِ وَالْعَصَرُ
فَحَوَّلَهُ الْغَرْبُ سِيفاً رَهِيّاً لِمَخَوِ الْبَوَادِي وَقَتْلِ الْحَضَرِ

تَصِيرُ الْمَلَائِكُ لَوْ جَاوَزَتْهُمْ مَعَاوِلٌ^(١) هَذِمَ لِمَخَوِ الْبَشَرِ
وَلَوْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَنَّةً عَذِيًّا لِسُكَّانِهَا جَعَلُوهَا سَقَرًا

غَدَا مَظْهَرُ الْعِلْمِ فِي عَضْرِهِمْ بِكُلِّ الشُّعُوبِ خِدَاعاً وَسِحْرًا
مَعَاذَ الْحَقِيقَةِ ، مَا ذَاكَ سِحْرٌ لَقَدْ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا

لَهُمْ فِتْنٌ تَجْعَلُ الْوَزْدَ شَوْكاً وَتُوقِدُ فِي رَوْضَةِ الْأَمْنِ جَمْرًا

(١) الْمَعَاوِلُ جَمْعُ الْمِعْوَلِ : آلةٌ مِنَ الْحَدِيدِ يُنْقَرُ بِهَا الصَّخَرُ ، وَيُهْدَمُ بِهَا الْبُيُوتُ .

خُذِ السَّيْفَ مِنْ غُصْبَةِ الْمُعْتَدِينَ إِذَا كُنْتَ تَنْشُدُ لِلْحَقِّ نَصْرًا

لَقَدْ آنَ لِلرُّوحِ أَنْ تَسْتَفِيقَ وَلِلشَّرْقِ أَنْ يَتِينَ الدَّلِيلُ
لِيَجْعَلَ أَنْفَاشَ هَذَا الْبَنَاءِ عَلَى الظَّالِمِينَ كَثِيبًا مَهِيلًا

إِذَا الْعَقْلُ أَدْعَنَ لِلْقَلْبِ حِكْمًا رَأَى طَاعَةَ اللَّهِ أَهْدَى سَبِيلًا
وَإِنْ لَمْ يُجِبْ دَاعِيَ الْقَلْبِ أَضْحَى كِبَابِلِسَ مَكْرًا وَشَرًّا وَيَبِلًا^(١)

يَرَى الْغَرْبَ يَسْتَعْلُ الْبَرَايَا^(٢) كَمَا يَشْتَهِي دُونَ قِيلٍ وَقَالَ
يَرَى الْآدَمِيِّينَ مِثْلَ الْقَطِيعِ فَهُمْ لَقَمِ الذَّنْبِ رِزْقٌ حَلَالٌ

لَقَدْ حَانَ تَغْيِيرُ دُنْيَا بِهَا نَرَى الْعَذْلَ أَمْرًا بَعِيدَ الْمَنَالِ
وَسُرَّاقِ أَكْفَانٍ مَوْتَى الْقُبُورِ عَلَى يَدِهِمْ أَيُّ خَيْرٍ يُنَالِ

ضَوَارِي السَّبَاعِ التَّقَتْ فِي جَنيفٍ^(٣) لَطَفَسِ الْهُدَى وَالتَّهَامِ الْعِبَادِ
قَدْ اقْتَسَمُوا كُرَّةَ الْأَرْضِ نَهَبًا^(٤) وَهُمْ نَحْوَ تَقْسِيمِهَا فِي اتِّحَادِ

(١) وَيَبِلًا : شَدِيدًا .

(٢) بَرَايَا : جَمْعُ الْبَرِيَّةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ .

(٣) جَنيف (Geneva) : مَدِينَةُ فِي سُوِيْرَا .

(٤) نَهَبًا : غَصَبًا .

يَقُولُونَ هَذَا بِلَادِي لَكُمْ وَنَحْنُ لَنَا كُلُّ تِلْكَ الْبِلَادِ
هَنَا ثَوْرَةٌ وَهَنَا فِتْنَةٌ بِهِمْ نَارُهَا أَبَدًا فِي ازْدِيَادِ

لَكَ الْأَرْضُ أَمْ هَذِهِ أَرْضُهُ وَأَيْكُمْ فِي جَمَاهَا نَزِيلِ
بَنَفِكَ كَنْ وَاثِقًا مُؤْمِنًا وَعِشْ كَافِرًا بِالْعَدُوِّ الدَّخِيلِ

فَمِنْكَ إِلَيْكَ الْعُلَا وَالْهَوَانِ وَمَجْدُكَ فِي الشَّرْقِ عَالٍ أَصِيلِ
كَرَامَةُ أَجْيَالِهِ فِي يَدَيْكَ فَأَنْتَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ الدَّلِيلِ

عَلَى قُوَّةِ الْحَقِّ تَحْيَا الشُّعُوبُ وَتَجْتَازُ فِي الْمَجْدِ حَدَّ الْمَجَالِ
فَلَا شَعْبَ يَقْوَى بِهَا وَخُدَّةِ تَضُمُّ الصُّفُوفَ لَيْلِ الْمَعَالِي

وَمَهْمَا سَمَا الرَّأْيُ إِنْ لَمْ يَقُمْ عَلَى قُوَّةِ فَهَوَ زَيْفُ الْخَيَالِ
وَفِي قُوَّةِ دُونَ رَأْيٍ جُنُونٌ وَجَهْلٌ وَطَيْشٌ وَعُقْبَى وَبَالٌ

بِنَا لَيْسَ الْعِشْقُ ثَوْبَ الدَّلَالِ وَفَاضَ عَلَى الْكَوْنِ طَيِّبٌ وَخُسْنَا
وَفَطْرَةُ آدَمَ فِي كُلِّ حَيٍّ رَوَّثَهَا الْخَلَائِقُ فِي الدَّهْرِ عَنَّا

تَعَلَّمَتِ الْأُمَمُ النَّاهِضَاتُ مِنْ الشَّرْقِ دِينًا وَعِلْمًا وَفَنًّا
رَفَعْنَا الْحِجَابَ عَنِ الْكَائِنَاتِ فَتَحْنُ مِنَ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ مِنَّا

إِذَا لَاحَ فِي صَدَفِ جَوْهَرٍ فَذَلِكَ مِنْ قَطْرِ نَيْسَانِنَا
وَإِنَّ هَذَرَ الْمَوْجِ فِي بَحْرِهِ فَذَلِكَ مِنْ قَيْضِ طُوفَانِنَا

حَرَارَةُ شَذُو الْهَزَارِ الطَّرُوبِ عَلَى غُضْنِهِ بَغْضِ نَيْرَانِنَا
سَقَيْنَا دَمَ آدَمَ قَلْبَ الْوُرُودِ فَأَهْدَى رَسُولَهُ إِيْمَانِنَا

فَتَى الشَّرْقِ أَنْتَ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ فَأَظْهَرَ يَدَ الْعَزْمِ لِلنَّاسِ جَهْرًا
لِتَخْرُجَ بِيضَاءَ مَنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَتُبْطِلَ مَنْ فِتْنَةِ الْغَرْبِ سِخْرًا

عِلَامَ اِزْتَبَطْتَ بِرُزْنَارِهِ وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ عَلَى الْقَيْدِ صَبْرًا
فَوَحَّدَ بِلَادَكَ صَوْبَ الْعُلَا بِإِيْمَانِهَا تَلَقَّى عِرْأَ وَنَضْرًا

لَقَدْ نَشَرَ الْغَرْبُ أَسْوَاقَهُ وَمَنْ حَوْلِهِ الْجُنْدُ أَقْوَى سِيَّاحِ
وَسِلَعُتْهُ شَرَكٌ لِلشُّرَاءِ وَمَتَجَرُّهُ ظِلُّ عَرْشٍ وَتَّاجِ

لَهُ فِي التُّجَارَةِ رِبْحٌ وَنَفْعٌ وَبِالْحُكْمِ يَأْتِيهِ كَنْزُ الْخَرَّاجِ
وَيَلْقَاكَ بِالْكَلِمَاتِ الْعِذَابِ وَفِي قَلْبِهِ الْحَقُّدُ خَلْفَ الرُّتَاجِ

فَكُنْ فِي مَتَاجِرِهِ زَاهِدًا فَفِيهَا الْخَسَارَةُ وَالْمَغْرَمُ
نَسِجُ بِلَادِكَ أَقْوَى خِيوطًا وَقُطْنُكَ مِنْ خَزْهِ^(١) أَنْعَمُ

(١) خَزْ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جَهَّازُ الْمَنَایَا بِدُولَایِهِ یَدُورُ وَأَنْتَ بِهِ أَغْلَمُ
یَمِیتُكَ بِالْعَشِّ مِنْ غَیْرِ حَرْبٍ وَأَنْتَ لَهُ الرُّبْحُ وَالْمَغْنَمُ

إِذَا جَاءَ یُعْرِضُ نَقْشَ الْبِسَاطِ فَدَعُهُ وَعِشْ رَاضِیاً بِالْحَصِیرِ
وَإِنْ وَصَلَتْكَ بِهِ رُقْعَةٌ فَلَا تُعْطِهُ یَثْدَقُ^(١) بِالْوَزِیرِ

جَوَاهِرُهُ بِهَرَجٍ^(٢) زَائِفٌ لَجَمْعِ الثُّقُودِ وَیَبِيعِ الضُّمِیرِ
وَنَافِجَةٌ^(٣) الْمِسْكِ فِي سُوقِهِ مِنْ الْكَلْبِ لَا مِنْ غَزَالٍ غَرِیرِ

تَنْبَهُ لِهَذَا الدَّخِيلِ الَّذِي تَفِرُّ الثَّعَالِبُ مِنْ مَكْرِهِ
وَلَا تَتَعَمَّمْ بِمَنْسُوجِهِ وَلَا تُغْمِضِ الْعَیْنَ عَنْ غَدْرِهِ

وَأَمَّا مَرَزَتْ عَلَى حَانَةٍ تَعَوَّذُ بِرَبِّكَ مِنْ شَرِّهِ
فَمَنْ ذَاقَ خُمُرَتَهُ لَمْ یُعَذِّ إِلَى دَارِهِ بَلْ إِلَى قَبْرِهِ

بِأَصْبَاغِهِ وَبِالْوَانِهِ تَضِلُّ الْبَصِیرَةُ قَبْلَ الْبَصَرِ
بِیْلَعَتِهِ قَدْ غَدَوْنَا سُكَارَى وَصَاحِبُهَا بِالْغِنَى قَدْ سَكِرَ

(١) الْیَثْدَقُ : الدَّلِيلُ فِي السَّفَرِ ، وَالْجَنْدِيُّ الرَّاجِلُ . وَمِنْهُ : یَثْدَقُ الشُّطْرَنْجُ .

(٢) الْبَهْرَجُ : الْبَاطِلُ .

(٣) النَّافِجَةُ : وَعَاءُ الْمِسْكِ فِي جِسْمِ الطَّيْرِ .

فَمِنْ جَهْدِ كَسْبِكَ مَا يَجْتَنِيهِ وَمَا يَفْتَنِيهِ وَمَا يَدْخِرُ
وَمِنْكَ الْغِذَاءُ مَعاً وَالْكِسَاءُ لَهُ فِي نَعِيمٍ وَعَيْشٍ نَضِرُ

وَإِنَّ ذَوِي الْفَضْلِ فِي كُلِّ شَغَبٍ عَلَى مَجْدِ أَمْتِهِمْ سَاهِرُونَ
فَهُمْ بِسَوَاعِدِهِمْ يَعْمَلُونَ وَهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ يَزْرَعُونَ

وَمَنْ أَرْضَهُمْ كُلُّ مَا يُتَجُّونَ وَمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَلْبَسُونَ
فِيَا مَنْ غَدَا مُنْكَرَا ذَاتَهُ إِلَى أَيْنَ يَمْضِي بِكَ الْمَاكِرُونَ

وَكَمْ بَغَتْ مَخْضُولَ زَرْعٍ لَهُ رَخِيصاً وَأَنْتَ غَدَا مُشْتَرِيهِ
يَعُودُ بِأَضْعَافٍ مَا نَلْتَهُ بِرَبْحٍ سَخِيٍّ لِمُسْتَوْرِدِهِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَشَقَّ مِنْ أَجَلِهِ وَلَا كُنْتَ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَارِعِيهِ
أَفِي الْبَحْرِ لَوْلَاهُ كَامِنٌ وَمَنْ يَدُ غَوَاصِهِ يَشْتَرِيهِ

شكوى ومُنَاجَاة

كان محمد إقبال كثير الاعتداد بالإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع - يشير إلى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلفلتا في أحشائه ، وملكنا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غُلَّتَه من معين غريب يقول : « رفقاً يا رسول الله بفقير غيور أبي النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال^(١) (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيمتها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطمت الأصنامَ القديمة كاللاتِ ومناة ، وجددت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويسنمُّ من الشهادة التي لفته إيَّاه الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيا برديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا - وإن ولدنا في بلادٍ عربيةٍ في الوثنية - رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأ طيء رؤوسنا أمام الكهَّان والسُّدنة ، فلم نخزَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطُف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على الشُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيَّة في الفقر ، عفيفة في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب وديار المعجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلامي قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضماثرهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رفاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنَّهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطبقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم التُّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنَّهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنَّهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الصُّقور التي تحلق في السماء عصافير صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاة لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام ، إنه حَكَم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيماً ، وقبل مئة مئة إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنَّ محطّم
الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من
الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بئسٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرّةً
ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن
يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يثُلُّوا عروش
كسرى وقبصر ، والعالم ينتظر من جديدٍ ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ،
ويكسر طلاسّم هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسى فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف بي لحظةً أبث
إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنَّني في صراعٍ بين
سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من
الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إِيَّاكَ والفضول ، فافتح العينين وأطبق
الشفتين ، ولكنَّ الشَّوقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة
التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهَدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه
الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد
اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرّدت
من لوعة القلب ولهب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن
الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسمعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه
يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من
عللٍ يعانيتها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليَّ من طرف خفي ، إن
هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة
لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء
الأطفال ، إذا جرّعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساغته ، إنني كالבוصري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليّ ذلك اليوم الذي فقدته ، إنّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضرّ عليّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنّ قيمة الجسم بالروح ، وإنّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنّ مهمتي أصعب وأدقّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أخذ ، وقوى أشدّ ، حتى أتم مهمتي ، وأحقق رغبتي ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهي فضعتني على المسنّ ، فإنني حديدٌ من معدن كريم .

إنني وإن كنت قد ضيّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، إنّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، إنما يتسلّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديّ لوعة العرب ، اسمح للهنديّ أن يمثّل بين يديك ، ويتحدّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاءه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطبٍ في الصحراء مرّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبُ السَّير ، فمضى وخلفه ، وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركبٌ

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يا رأسَ مالِ البائسينَ ويا مَنَارَ الحائرينَ
ادعُ الإلهَ يَهَبْ لأمَّتِكَ : الشُّجَاعَةَ واليقينَ

ويعيذُهم منُ شرِّ خوفِ المَوْتِ منُ قَبْلِ المَمَاتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهم على قيدِ الحياةِ

يا منُ هَدَمْتَ اللَّاتَ والعُزَّى وحَزَّرتَ الحَرَمَ
وبَنَيْتَ أعلى أمةٍ تَهْدِي بِسِيرَتِهَا الأُمَّمَ

ذَكَرُ الإلهَ وَيَقْظَةُ الوجدانِ في إنسٍ وجانِ
منُ قَبَضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبْحِ يا صَوْتَ الأَذَانِ

فحرارةُ الإيمانِ في القلبِ المَشُوقِ إلى النُّضالِ
وسراجُ ليلِ الفِكرِ (لا معبودَ إلا ذو الجَلالِ)

لَمْ نَتَّخِذْ في الكونِ ربّاً من رُخَامٍ أو حَجَرٍ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، ص ٢٠١-٢٠٦ .

كَلَّا وَلَمْ تَسْجُدْ لِنَجْمٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ بَقَرٍ

لَمْ نَلَقْ جِبْهَتَنَا لَدَى الْكُفَّانِ فِي ذُلٍّ حَقِيرٍ
لَمْ نَحْنِ هَامَتَنَا لِسُلْطَانٍ قَوِيٍّ أَوْ أَمِيرٍ

مَنْ فِضِرَ رَوْحَكَ كُلُّ هَذَا الْفَضْلِ وَالْعِزِّ الْمَكِينِ
وَبِنَاءِ صَرْحِ الْمَجْدِ فِي تَوْحِيدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ذَكَرَاكَ وَرَدُّ سَائِغٍ يَحْلُو بِهِ الْعَيْشُ الْمَرِيرُ
وَيَغَيِّرُ الْإِيمَانَ صَارَ الدِّينُ كَنْزاً لِلْفَقِيرِ

يَا مُنْتَهَى كُلِّ الْمَنَازِلِ فِي طَرِيقِ السَّالِكِينَ
يَا مَنْ إِلَى أَنْوَارِهِ تَهْفُو قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ

قِيَّارَتِي^(١) ثَقُلْتُ وَأَغْيَاهَا التَّجَاوُبُ وَالرَّئِينَ
أَوْتَارَهَا لَا تَسْتَجِيبُ إِذَا عَزَفْتُ وَلَا تَبِينُ

فَإِذَا نَصَحْتُ فَإِنِّي نَادَيْتُ مَنْ لَا يَسْمَعُونَ
وَإِذَا نَهَيْتُ فَإِنَّمَا اسْمَعْتُ مَنْ لَا يَسْتَهْوُونَ

(١) القيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طَوَّفْتُ فِي أَرْضِ الْأَعَاجِمِ ثُمَّ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ
لَمْ أَلْقَ فِيهَا الْمَصْطَفَى وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَبَا لَهَبٍ

عَجِبِي لِهَذَا الْمُسْلِمِ الْمَزْهُوِّ بِالْعَصْرِ الْمُنِيرِ
لَا هِمَّةٌ تَحْدُو خُطَاهُ وَلَا سِرَاجٌ فِي الضَّمِيرِ

وَأَرَى شَبَاباً وَاهِنَ الْعِزْمَاتِ فِي لَبَنِ الْحَرِيرِ
وُلِدَتْ أُمَانِيهِ فَكَانَ الْمَهْدُ مِصْرَعَهَا الْأَخِيرِ

ذَاكَ الْغُلَامُ بَنُ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ بِنِ الْغُلَامِ
فِي شَرْعِهِ تَحْرِيرُ أُمَّتِهِ مُحَالٌّ أَوْ حَرَامٌ

الَّذِينَ لَيْسَ لَهُ بِذُنْيَاهُ زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ
كُلُّ الَّذِي أَذْرِيهِ عَنْهُ أَنَّهُ بِالْأَمْسِ كَانَ

عَنْ ذَاتِهِ أَضْحَى غَرِيباً مُسْتَهَاماً بِالذُّخِيلِ
بِذُلِّ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ ثَمْنًا لِمَطْعَمِهِ الدَّلِيلِ

كَالطَّيْرِ غَايَتُهُ التَّقَاطُطُ الْحَبُّ فِي ظِلِّ الْقُصُورِ
هُوَ طَائِرٌ لَكِنَّهُ لَمْ يَذَرْ تَحْلِيْقَ الشُّسُورِ

قَدْ ذَابَ فِي نَارِ الْفَرْنَجِ فَمَا لَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ^(١)
وَأَتَتْهُ نَارُ جَهَنَّمَ لَكِنَ بِاسْلُوبٍ جَدِيدٍ

هُوَ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ مِنْ جَنَّةِ الشُّهَدَاءِ هَارِبٌ
لِيَسْتَقَرَّ بِقَلْبِهِ أَنْ (لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ غَالِبٌ)

ذَاكَ الَّذِي فَقَدَ الْيَقِينَ وَقَلْبُهُ فَقَدَ الْحَيَاةَ
وِطْعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَنَامُهُ أَغْلَى مِنْهُ

وَتَرَاهُ بِالْمِنَنِ الثَّقَالِ مَقِيداً وَمُكَبَّلاً
مِمَّنْ يَقُولُ : (نَعَمْ) وَمِمَّنْ لَا يُجِيبُ بِغَيْرِ (لَا)

فَلْيَضْحُكْ مِنْ غَفَلَاتِهِ لِيَعُودَ حَيّاً قَلْبُهُ
وَيَعِيشَ فِي أَوْجِ الْكَرَامَةِ هَاتِفاً (اللَّهُ هُوَ)

مَدِينَةُ الْإِفْرَنْجِ مَاضِيَةٌ بِنَا نَحْوِ الزُّوَالِ
قَتَلَتْ مَوَاهِبَنَا بِلَا حَرْبٍ تَدُورُ وَلَا قِتَالِ

فَاكْشِفْ لِقَوْمِكَ عَنْ كَرِيمِ النَّفْسِ مُتَّقَدَ الْحَيَاةِ
ثَمَلٌ يَحِبُّ اللَّهَ لَا يَرْجُو وَلَا يَخْشَى سِوَاهُ

(١) فَمَالَهُ عَنْهَا مَحِيدٌ ، أَي : مَالَهُ مِنْهَا مَفْرٍ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ مُسْلِمٌ فِي ذَاتِهِ شَرَفَ الْمَكَانَةِ
أَخْلَقَ بِهِ فِي الدَّهْرِ أَنْ يَخْتَارَ فِي الدُّنْيَا مَكَانَهُ

أَيْهَذَا الْفَارِسُ الْمِغْوَارُ أَهْلٌ فِي الْمَسِيرِ
وَإِخْبَسَ عِنَانُكَ لِمَحَّةٍ تَسْتَقْبِلُ الْقَمَرَ الْمُنِيرَ

أَمَلِي عَلَى شَفَتَيَّ مُخْتَبِسٌ عَنِ النُّطْقِ اخْتَجَبَ
وَالشَّوْقُ يَقْتَحِمُ الْمَقَامَ فَلَيْسَ بِحُكْمِهِ الْأَدَبُ

هَذَا يَقُولُ ابْنٌ عَنِ الشَّكْوَى وَلَا تَكْتُمُ أَسَاكَ
وَيَقُولُ ذَاكَ انْظُرْ وَلَا تَهْمَسْ بِحَرْفٍ عَنْ جَوَاكَ

أَنْتَ الْهَدَايَةُ وَالذَّلِيلُ وَأَنْتَ عِرْفَانِي وَفِكْرِي
وَسَفِينَتِي فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَطُوفَانِي وَبَحْرِي

زَادَتْ بِي الْأَنَاتُ وَالْعَبْرَاتُ حَتَّى عَيْلَ صَبْرِي
فَالِىَ مَتَى هَذَا اللَّهَيْبُ يَظُلُّ مَطْوِيًّا بِصَدْرِي

فَلَمْ يَبْقَ لِلْأَرْوَاحِ فِي شَوْقِ الْعِبَادَةِ مِنْ أَثَرٍ
لَمْ يَبْقَ لُطْفُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ

قَدْ كُنْتَ يَا شَمْسَ الْخَلِيقَةِ مَنْقُذًا فِي النَّائِبَاتِ

وأبرَّ بالعاصين رفقا من قلوب الأمهات

في حَرْبِ عِبَادِ الظَّلامِ أصارُحُ الدَّاءِ العِيَاءِ
فامْنَحْ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضياء

كُلُّ الخمائل^(١) في رياض الكَوْنِ أَنْتَ ربيعُها
مِنْكَ الفواضِلُ كُلُّها والمَكْرُماتُ جميعُها

الجِسْمُ في بُيانهِ بِالرُّوحِ يَكْتَسِبُ الحَيَاةَ
لَكِنْ حَيَاةَ الرُّوحِ في قُرْبِ الحبيبِ وفي رِضاةِ

انْظُرْ إِلَيَّ فَأَنْتَ بِالْجَدوى وبالإحسانِ أوفى
إِنْ لَمْ أَكُنْ بِهَذَاكَ مِفْتَاحاً ، أَكُنْ بِحِمَاكَ سِيفاً

لِي مَحَنَةٌ مِنْ دُونِهَا قَطَعُ الصُّخُورِ مِنَ الْجِبَالِ
فاجْعَلْ لِفَاسِي مِنْكَ حَدّاً ماضِياً عِنْدَ النُّضالِ

إِنْ كَانَ عُمْري قَدْ بَدَأَ خِلَواً مِنَ المَخْصُولِ جَذْباً
مَا زِلْتُ أَمْلِكُ مَضْغَةً^(٢) يَدْعُونِها فِي الحُبِّ قَلْباً

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلَة : كل موضع كثر فيه الشجر .

(٢) المَضْغَة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أَخْفَيْتُهُ لِأَكُونَ فَرْدًا فِي هَوَاكَ وَفِي رِضَاكَ
وَعَلَيْهِ خَاتَمُ حُبِّكَ الْغَالِي فَلَيْسَ بِهِ سِوَاكَ

إِنَّ الَّذِي لَا يَبْتَغِي مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعًا
إِنْ لَمْ يَتَلَّ قُرْبَ الْحَبِيبِ تَكُونُ دُنْيَاهُ ضَيَاعًا

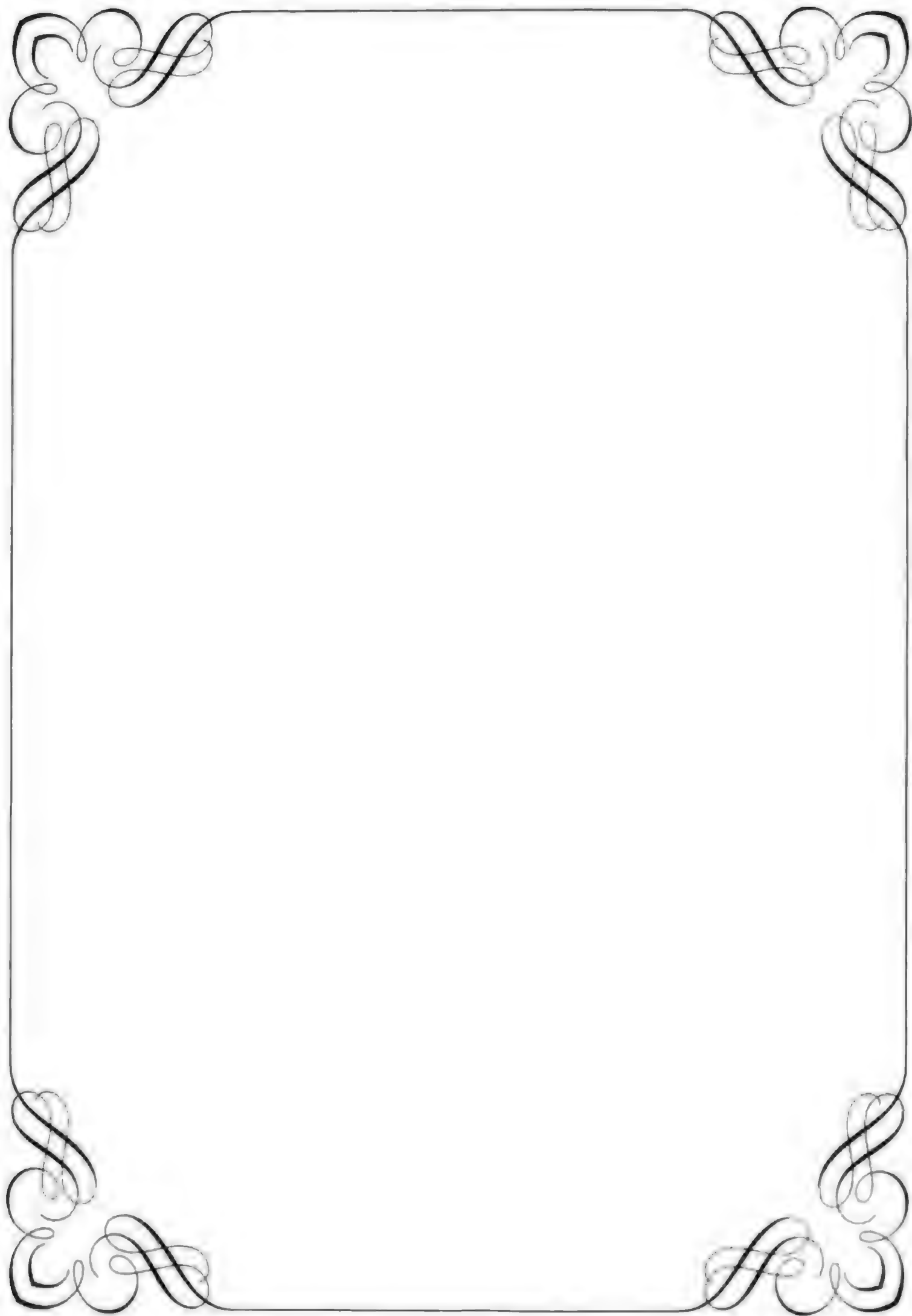
كَمْ ذَا يُعَانِي الْقَلْبُ مِنْ نَارِ اللَّوَاعِجِ وَالشُّجُونِ^(١)
وَيَبْسُ مِثْلَ النَّايِ بِالشَّكْوَى لِمَنْ لَا يَعْلَمُونَ

قَدْ خَلَقْتُهُ عَلَى رُبَى الصَّخْرَاءِ قَافِلَةً الرِّفَاقُ
كَهَشِيمِ غُصْنٍ يَضْطَلِي بِالْجَمْرِ فِي نِصْفِ اخْتِرَاقِ

يَرْنُو إِلَى الْيَدَاءِ وَالْمُدُنِ الرَّحْبَةِ وَالْفَضَاءِ
فَعَسَى تَمَرُّ قَوَافِلٍ أُخْرَى تُعِيدُ لَهُ الرِّجَاءَ

يَا مَنْ خَلَقْتَ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ حُلَّةَ خَالِدٍ
فَمَضَى بِعِزٍّ دَائِمٍ يَبْقَى وَمَجْدٍ خَالِدٍ

(١) الشُّجُونُ : الهموم والأحزان .

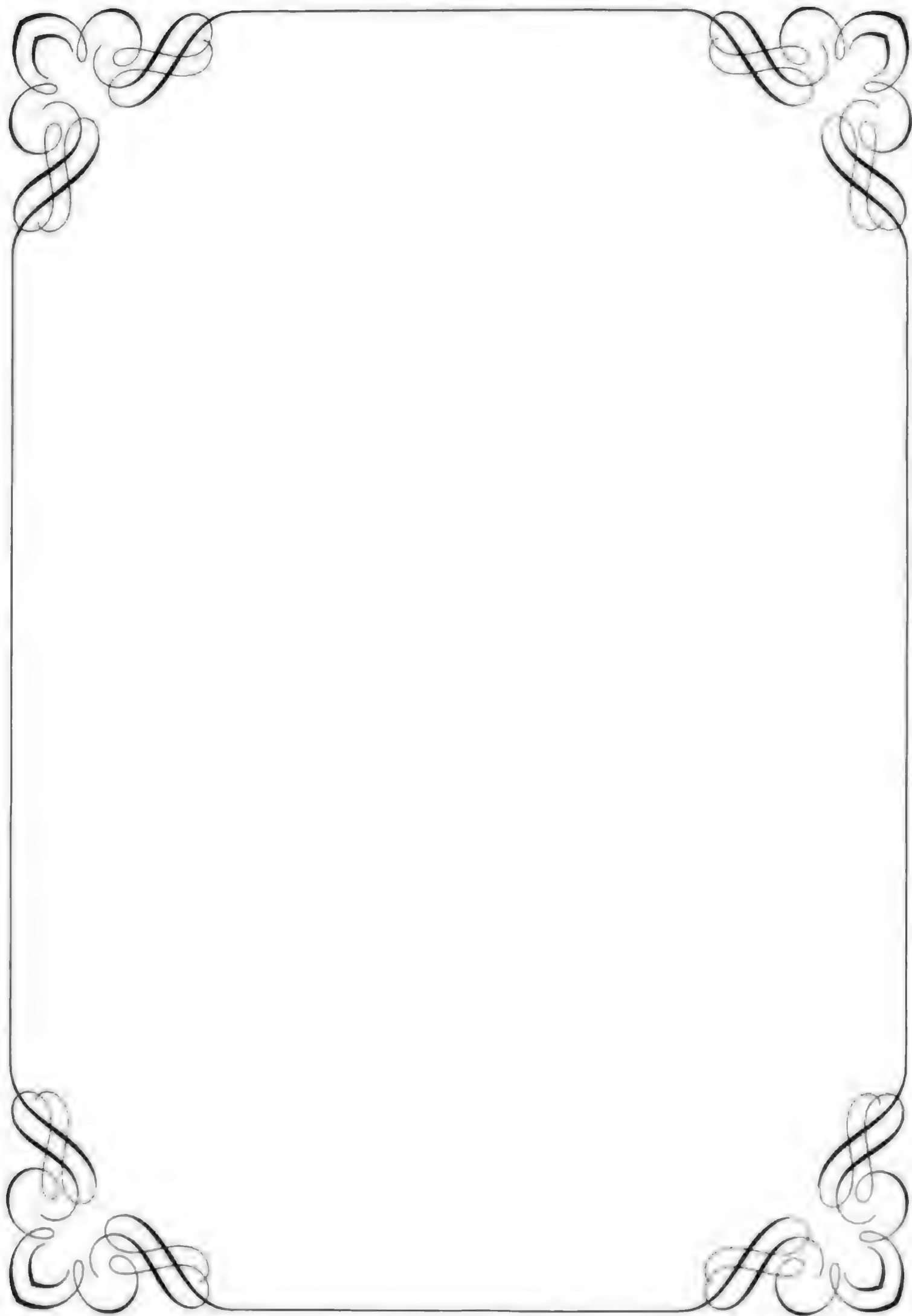


الدِّيَّوَانُ التَّاسِعُ

هَدِيَّةُ الْحِجَازِ
أرمغان حجاز

نَقْلُهُ مِنَ الْفَارِسِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور حسين مجيب المصري





نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسي والأردوي معاً ، وهو يتألف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصور جلسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية والعصرية التي تهدد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعِدَ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهي هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض
بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دله الشوق والتوق ، فيقول معبراً عن
وجدته وكمده :

هياجٌ ماجَ في ماء وطين بلاءُ العشقِ من قلبِ حزين
قَراري برهةً حقاً حرام فرفقاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في
عشقِ الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم
يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ
بالمعنى الأصحُّ الأدقُّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من
المادية بصفاتها :

لي الدارين إني لا أريد وحسبي فهم ما روحٌ تفيض
فهني سجدتي فيها احترافي ومنها الكون في وجدٍ يميز

غير أن إقبالاً حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة
لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلغ نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ،
فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجّع ويتوجّع للخلق وقد
تردّوا في ضلالهم وتحيروا في طريقهم ، وعزَّ عليه ألا يذكرهم وهو في مناجاة
ربه ، فجأراً بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب
نفسه داعية حقٍّ بيّنه لهم ليضع أمرهم في نصابه :

على قومٍ إلهي فلتُعني كَرَاعي الضأن عالمهم بفنٍّ
رأت عيناى ما يقذي عيوناً ألا يا ليت أمي لم تلدني

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعايبهم في رأيه ، كان على ذكر من
الإنسانية ، ولم يفتُه أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقلي والروحي وهو يقول :

إلهي زُنْ لنا خيراً وشرّاً هب الدنيا نعيماً مستمرا
وشاهدنا خلقنا من تراب لنجعل عالم الفبراء نصرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائن من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضح التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مساءً مثل صبحٍ قد تبسّم تمطى صبحُها والليلُ أظلم
تمهّل إن خطوت على رمالٍ كقلبي كلها قلبٌ تألم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساءه أن يكون للمسلم قلبٌ أفقر من حبيب ، وهو يلتمح بذلك إلى أن صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلام إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غدٍ أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداء والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربا بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منطوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صَدَّرَهُ بقوله « صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى » وتدرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد ليبصِّرَها بمبادئه المثالية ونزعته الإنسانية ، ويبدل النصيح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفرادهِ ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبشما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل ويتزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبر مقتاً عنده تعالى :

ولاة الأمر من ربي لشعبٍ زماماً يملكون لكل أمرٍ
ولكن لا يحب الله شعباً به الفلاح يزرع كي يلبى

ويخصُّ الذاتية بالذكر لأنَّه من يجلُّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تنفي في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة ، وما هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لذاتك لا إله فضم مرَّه لُخْرِج من ترابٍ مات نَظَرَه
ولا تقبض يمينك عن وجودٍ له القمران في وهق يجرَّه

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملا » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السلبين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في تأكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلظ اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ أخذ بالمظهر لا يتجاوزه إلى الجوهر ، أما الصوفي في عزلته وسليته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من وراء :

لُمْلَأْ أَوْ لَصُوفِي أُسِير ! وفي القرآن للمعيش الكثير
من الآيات ما أدركت شيئاً ومن ياسين بُغْيَتِكَ الحَفِير !

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة أنفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتها وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه ليقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتبس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلى دعوته إلى التأدب بآداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيه حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أمأً صالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقراً حتى رق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة وحرِّيَّاته وأد الطفاة

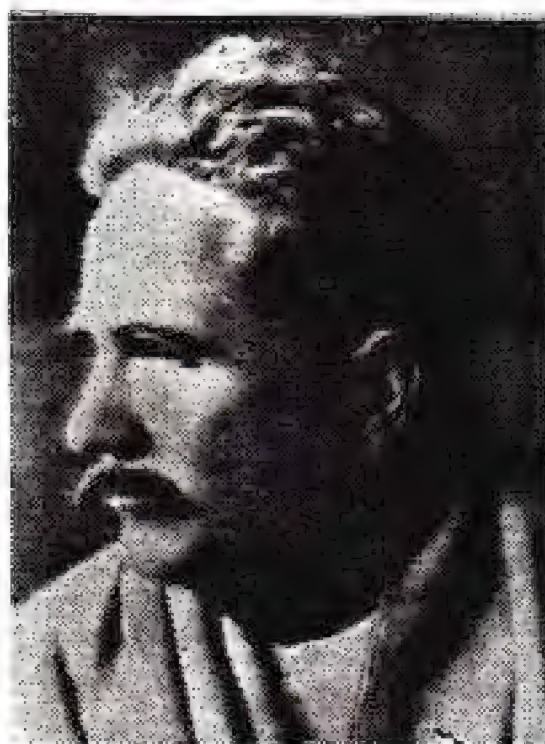
كما أنه يقدح في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلدوا ، وتلك منه دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

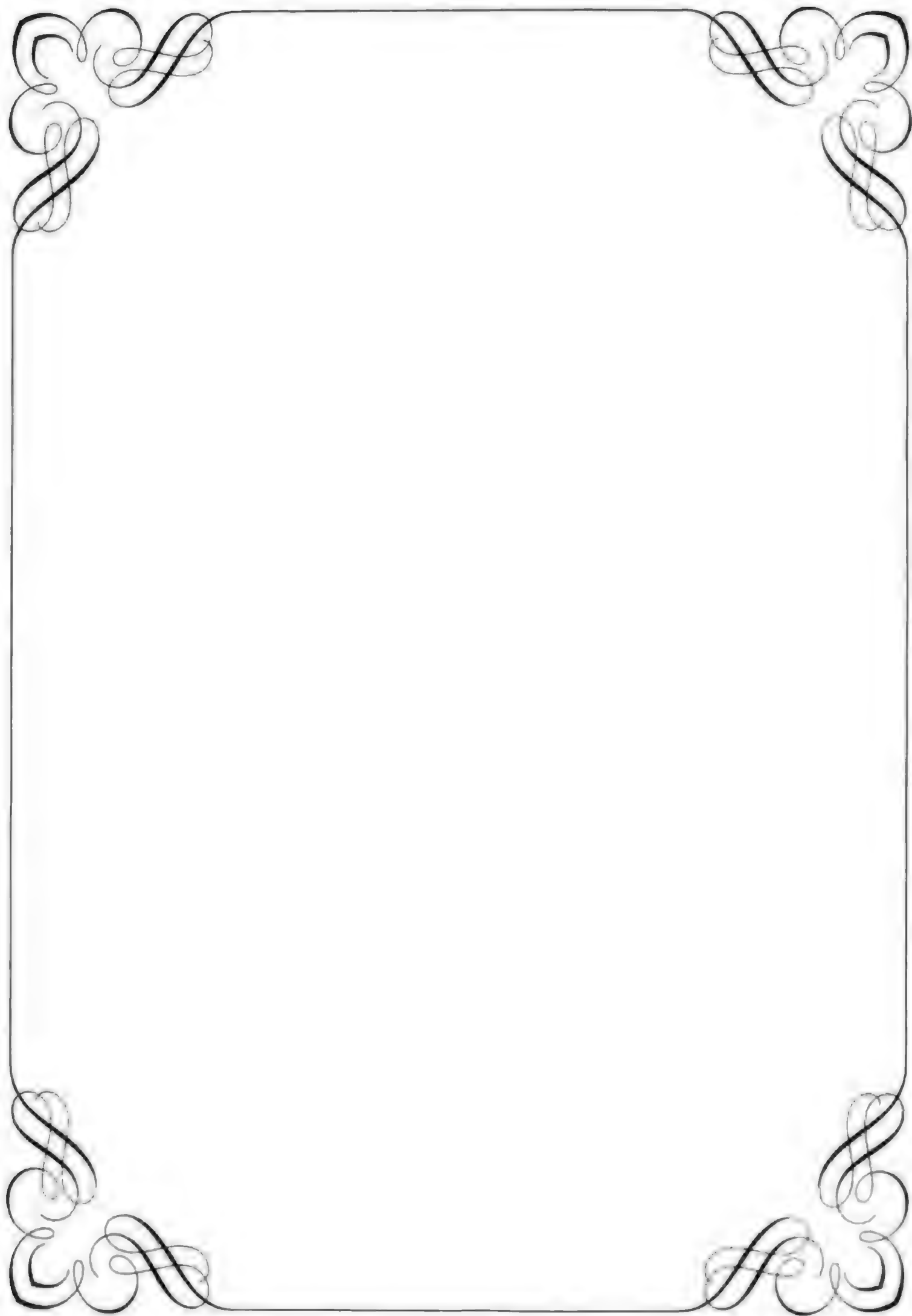
ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهمي لا يكل عن العمل الدائب ساعده القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى الغايات ويبتغوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن العلم مقطوع الصلة بالعشق ، نائر متمرّد كالشيطان . أما إذا زاوج العشق فهو إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم بفضل منه نعمة للبشر .

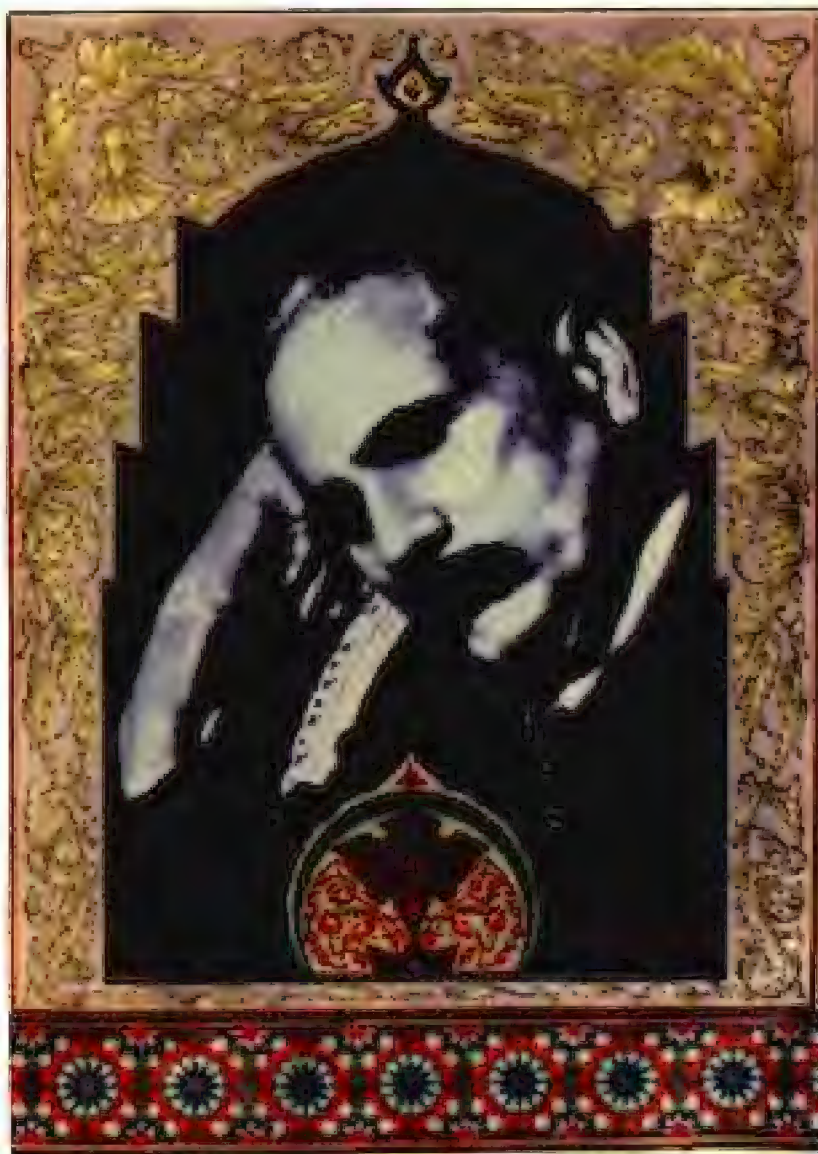


القسم الأول
(بالفارسيّة)





أَلَا يَا حَبِّدَا بِلَكَ الطَّرِيقُ تَطَوُّلٌ وَلَا يُوَآنِسُهَا الرَفِيقُ
لَهَا الزَّفَرَاتُ، فَافْتَحْ مِنْكَ قَلْبًا لَتَحْرِقَ فِيهِ حَزْنًا لَا تَطِيقُ



سراقبال عالم شباب میں



مدرسہ شریعت و فرائض
سراقبال صاحب ایم۔ اے۔ پی ایچ ڈی۔
بیت الاسلام

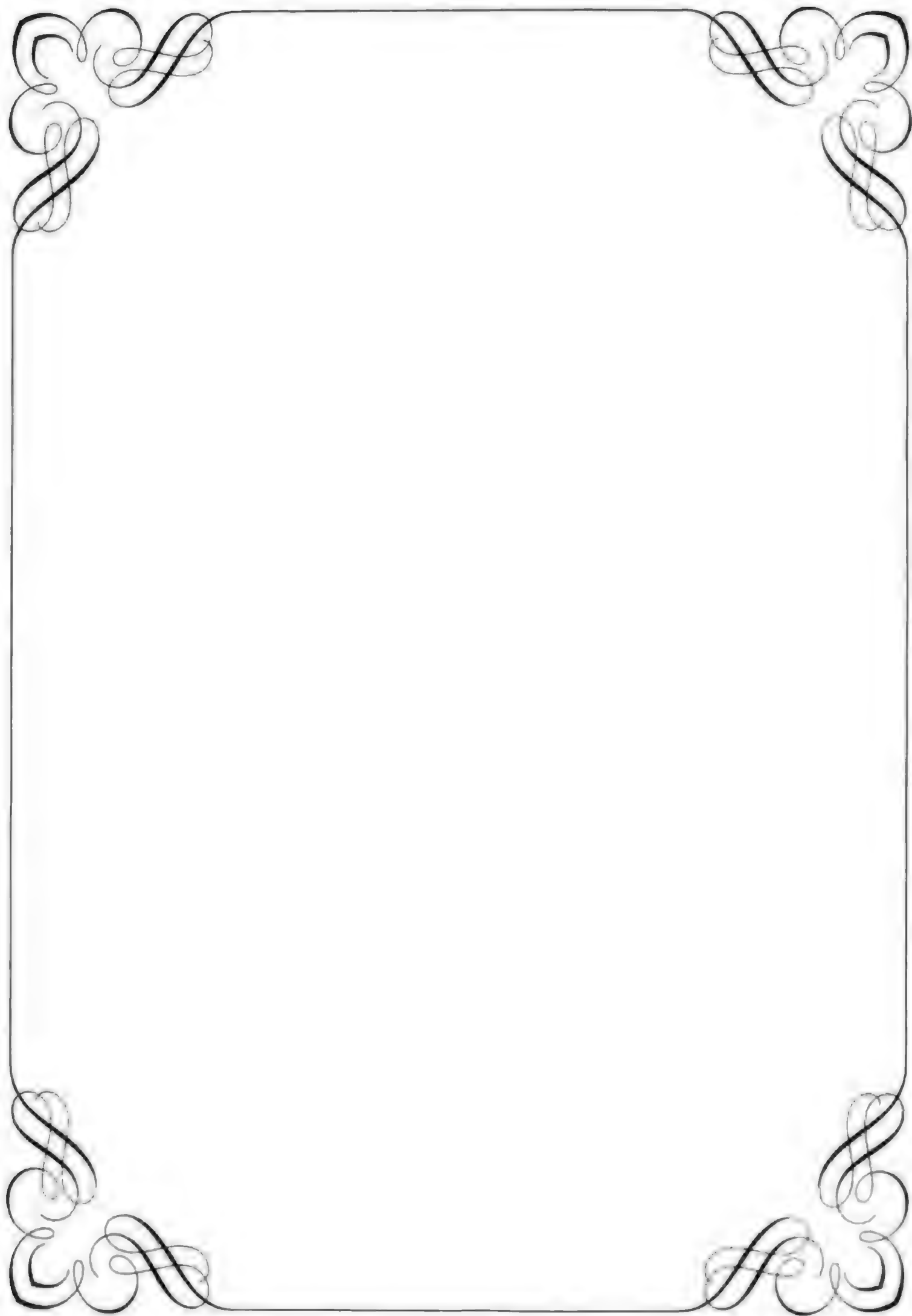
الدكتور الشيخ محمد اقبال في شبابه

القسم الأول^(١)

(المترجم من الفارسية)

مَنَاجَاةٌ

(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية
شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .



في الحضرة الإلهية

لقد سلبوا لنا قلباً ومزوا
عوام القوم عايشهم زويدا
وكانوا شعلةً خمدت ومزوا
فإن خواصهم ثملوا ومزوا

أطالوا القول شكاً في وجودي
لحي القلب هل تدري سجوداً
وقد أقصرت عن قولٍ سديد^(١)
علي احكم بهذا من سجودي

فؤادي كان قيد الكيف والكم
خلاء هبه حتى في سعي
يرى لكن وراء البدر إن تم
بخلوته كفوراً فهو يهتم
هياج ماج في ماء وطين
قاراري برهة حقاً حرام
بلاء العشق من قلب حزين
فرقاً ، شأن قلبي من شؤوني

أجبنني من عن الدنيا تخلى
تقول احذر من الشيطان لكن
لها حسن ، لمن حُسن تجلى^(٢)
أعرف موجد الشيطان أم لا ؟

ولي قلب طليق في عذاب
نصيبي من عتاب أو خطاب

(١) أقصر عن القول : سكت عنه .

(٢) تخلى عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليسَ أنا ما سؤت قلباً خطيئة كل حين من صواب
صبنت الكأسَ عنا أمَّ عمرو وكان الكأسُ مجراها اليميناً^(١)
إذا ما كانَ هذا دأبَ عشقٍ بكأسك فاضربِ البيتَ المصوناً^(٢)

أسيرُ هوى ، على النفس انطواءً به ألمٌ ومما يجدي دواءً
عجيبٌ أنْ تُكلِّفني سُجوداً خراجُ الأرضِ والأرضُ الخلاء ؟

بلا أمدٍ تراخي بي طريق نثرُ الحبِّ ، أين لي الوريق^(٣)
من الآلامِ لا أخشى ولكن بهذا القلبِ هبْ ألماً يليق
سريع السكر لا تُرشِف شرابي وأبعد عن غريرٍ في ارتياب^(٤)
عن القصباء يحسن بُعد نارٍ خواصُّ القومِ وحدهمُ فحاب^(٥)

أنت لقيتَ في طلب لغوباً وما أصليتُ في شوقٍ لهيباً^(٦)

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصبنت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمعات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الدأب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وتحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمرو بن الفارض خمرة مشهورة مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وَأَنْتَ هَارِبٌ مِنْ لَا مَكَانِي فَتَوَحُّ الْوَهْنِ لَمْ يُشْجِ الْقُلُوبُ^(١)

أَبْزَ دُنْيَاكَ خَذَ مِنْي الْمَثِيرَا بِهَا التَّغْيِيرَ فَاجْعَلْهُ الْكَبِيرَا
لَكَ الْإِنْسَانُ فَاخْلُقْ مِنْ ثَرَاهَا أَبْزَ مِنْ كَانَ لِلْمَالِ الْأَسِيرَا^(٢)

بَنُورِ الشَّمْسِ دُنْيَانَا ظَلَام وَلَيْسَ الْحَقُّ مَا أَدَى كَلَام
إِلَى كَمْ ، إِنَّ دُنْيَانَا خَرَاب سَيَكْسُوهَا دِمَاءُهُمُ الْأَنَام^(٣)

(١) الوهن : منتصف الليل . ويتردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يبعثنا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي ، وقد تابعه على ذلك الفارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين . والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حد اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء متمكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشئان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمنعه من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما يتناهى الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده . ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار ، فيقول إن الإناء قد يمتلىء بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلىء الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره . ولقد دلتني الدكتورة سهير فضل الله مدرسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضاك ، فإنني عبد ذليل بأمر منك يمضي بي السبيل
إذا ما قلت سَمَّ العَير طرفاً فهذا القول حقاً لا أقول^(١)

فؤادي ليس فيه من حُبور ومن لهب خلا من تُربي ونور^(٢)
صلاتي تلك خذ منها ثواباً صلاتي ليس فيها من حضور!^(٣)
أعن دين وعن وطن كلامي وهذا السر يُطوى بالتمام
فلا تغضب ، جَفَوْتُ وَمِنْ جَفَاء بنيت الدير يبدو كالخطام^(٤)

من الإفرنج إن ضاقت قيودُ فقلبك لا يحقُّ ما يريد
على عتبات غير الله وجهُ تَعَفَّرَ لا يليق به السجود^(٥)

لي الدارين إنني لا أريد وحسبي فهم ما روح تفيذ
فهبني سجدتي فيها احتراقي ومنها الكون في وجدٍ يميز^(٦)
أنا المكسأل ما تبغيه مني أهبت هبوة لم تقتلِعني^(٧)

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .

(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .

(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .

(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .

(٥) تعفر الوجه : تمرغ في التراب .

(٦) يميز : يتحرك ويضطرب .

(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتشير .

رَأَيْتَ ابْنِي يَصْلِي فِي صَبَاحٍ مَسَائِي فليَقُلْ بِالصَّبْحِ زَيْنِي^(١)

عَلَى قَوْمٍ إِلَهِي فَلْتَعْنِي كِرَاعِي الضَّانِ عَالِمُهُمْ بَفَنٍ^(٢)
رَأَتْ عَيْنَايَ مَا يَقْذِي عَيُونَا أَلَا يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِذْنِي^(٣)

إِلَامَ بَعِينٍ عَتَبَكَ أَنْتَ تَنْظُرُ وَأَصْنَامٌ لَدَيْكَ إِلَامٌ تَحْضُرُ
لَأَبْنَاءِ الْخَلِيلِ رَأَيْتَ دَارَا وَنَمْرُودُ يَرْبُّهُمْ وَيَكْفُرُ^(٤)

أَيَرْجِعُ مَنْ نَعِمِي مَا تَوَلَّى وَمِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ الرِّيحُ ؟ كَلَّا
وَهَذَا الْعَمْرُ يَالْهَفِي تَقْضَى فَهَلَّا عَادَ مِنْ أَحَبِّتَ هَلَّا ؟

إِذَا مَا جَاءَ مَنْ ذَا السَّرِّ يَعْرِفُ بِلَحْنِ الْقَلْبِ أَسْمَاعاً فَشَنَّفَ^(٥)
وَرَوْحَ الْقَلْبِ مَنْ أَبْقَى وَنَقَى كَلِيمٌ أَوْ حَكِيمٌ وَهُوَ يَعْرِفُ^(٦)

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزَيْنِي : من زان يزين .

(٢) راعي الضأن مضرب المثل في الجهل .

(٣) أقْذَى العين : أوقع فيها القذى . وهو ما تتأذى به من غبار أو نحوه

(٤) الخليل : سيدنا إبراهيم عليه السلام . يرب : يربي .

(٥) شَنَّفَ في الأصل بمعنى جعل له شنفاً أي قرطاً ، وشَنَّفَ كلامه : زَيَّنَهُ وحلاه وشنف السمع : زينه وأطربه .

(٦) يتردد في الشعر الصوفي ذكر العزف والغناء على أنهما رمز لنشوة العشق الإلهي . ويمكن القول إن الحسناء والصهباء والغناء تؤلف وحدة قلما نجد انفصاماً بين مقوماتها الثلاثة .

أرجي لي فؤاداً قد توجع شكوتُ فمن شكاتي سوفَ يسمع
بزهرٍ قانيءٍ يزدان قبري عديم النطق دامي اللحن موجع^(١)

أسيرُ القلبِ لا يفدي الأسيرا وليس يزيدُ من ألمٍ كثيراً
وينفخُ في الثرى الأنفاسَ دوماً ورامَ الأكلَ أو سكنَ الحفيرا^(٢)

من الأضلاعِ لي قلبٌ يفرُّ تبقى صورةٌ معناه سرُّ
طريدُ البابِ يفضِّلني كثيراً رآه اللهُ ، لي في السمعِ ذكُر

نداءُ جبرئيل ليس يدري ففي طلبِ مقامٍ طيِّ سرُّ
وهذا عبدك المسكينُ سلُّهُ عنِ الآمالِ في حلٍّ ومُرُّ
صفاتُ هبٍ لخسرو أو لرومي وجُدْ لي من سنائي بالمروم^(٣)

(١) القانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفيرا : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .

والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤ هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المثنوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا على ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

أَلْفَتْ صَفَاتَ عَبْدٍ مِنْ دَهْرٍ فَلَيْسَ لِكُلِّ هَذَا مِنْ لَزُومٍ
فَقِيرٌ عَفَّ عَنْ لَبْسِ الْمَرْقَعِ لِهَذَا مِنْهُ جَبْرِيلٌ تَوَجَّعُ
لَدَيْنَا أُمَّةٌ أُخْرَى لِنَخْلُقُ بِهَا كَلًّا عَنِ الدُّنْيَا لَنَرْفَعُ

وَشَعَبٌ مِنْهُ جَهْدٌ فِي الثَّانِي وَمِنْ إِبْرَ تَرَاهُ الشَّهْدُ يُجْنَى
وَذَاكَ بِعَالِمٍ مَنْ لَيْسَ يَرْضَى فَتَحْتَ الْعَالَمِينَ الظُّهْرُ يُخْنَى

وَقَوْمٌ وَحَّدُوا عِنْدَ ابْتِهَالٍ أَنْارُوا الْفَجَرَ مِنْ جَوْفِ اللَّيَالِي
رَأَوْا فِي الشَّمْسِ صَبْحاً مُسْتَقْرَأً فَأَبَدَتْ نَهْجَ نَجْمٍ مِنْ رِمَالٍ^(١)
لِحَفَلٍ فِي اللَّيَالِي كُنْتُ زِينَا نَقَضْتُ وَكُنْتُ بَدْرًا ذَاقَ أَيْنَا^(٢)
وَفِي هَذَا التَّغَافُلِ كَمْ أَفَاضُوا وَلَكِنِّي تَرَكْتُ الْجَمْعَ وَهْنَا^(٣)

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .
أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥ هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواهيهِ ، ويئن تالماً من جفاء الخلان وصروف الزمان . غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيع الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنيّة في الإنجليزية وحاملة التبن أو ناثرتة في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبنانة لأنها تشبه طريقاً تنثر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبن الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كَهَذَا الْعَصْرِ عَصراً مَا رَأَيْنَا حَزِينُ الْقَلْبِ جَبْرِيلُ عَلَيْنَا
هُنَا قَدْ شِيدُوا دِيراً عَجِيباً يَزِيدُ لِمُؤْمِنٍ كُفْرٌ لَدِينَا !

أَرَى دُنْيَاكَ فِي أَيْدِي اللُّثَامِ وَلِلْأَحْرَارِ فِي أَسْرِ مُقَامِ
فَضِيلٌ بَيْنَ مَنْ فَقَهُوا أُمُوراً يَعِيشُ كَمَثَلِ نَسْرِ لَا الْأَنَامِ^(١)

مَرِيدٌ قَالَ عِنْدَ الشَّيْخِ بِحُومَا إِلَهِي لَمْ يَحِطْ بِالنَّاسِ عِلْمًا ؟
كَمَثَلِ الْعَرَقِ فِي عُنُقٍ قَرِيبِ وَلَيْسَ كَبَطْنِنَا فِي الْقُرْبِ حَتْمًا

لَأَرْضِ الْهِنْدِ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ وَهَذَا الْكَوْنُ أَمْسَى فِي اخْتِلَالٍ
إِلَيْنَا كَيْفَ تَطْلُبُ أَنْ نَصْلِي بِرَأْسِ الْجَيْشِ عَبْدٌ كَالْمَحَالِ
وَيُخَكِّمُ مُسْلِمٌ فَالْنَفْسَ بَاعَا وَأَذَاناً وَعَيْناً قَدْ أَطَاعَا
وَهَتْ أَجْسَادُنَا مِنْ إِضْرٍ حُكْمِ فَآدَ الشَّرْعُ مَتْنًا وَالذَّرَاعَا^(٢)

إِلَهِي زِنْ لَنَا خَيْرًا وَشَرًّا هَبِ الدُّنْيَا نَعِيمًا مُسْتَمِرًّا
وَشَاهِدُنَا خُلُقُنَا مِنْ تَرَابِ لَنَجْعَلَ عَالَمَ الْغِبْرَاءِ نَضْرًا^(٣)

خُلُودُ الْمَرءِ فِي الدُّنْيَا عَرِفْنَا وَعَنْ مَوْتِ الْفَجَاءَةِ مَا سَمِعْنَا
وَوَقْتُكَ لَنْ تُعَرِّضَهُ لِنَقْصِ إِنْ خَلَدَتْ قَالُوا قَدْ ضُرَزْنَا ؟

(١) الفضيل : ذو الفضل .

(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظهر .

(٣) الغبراء : الأرض .

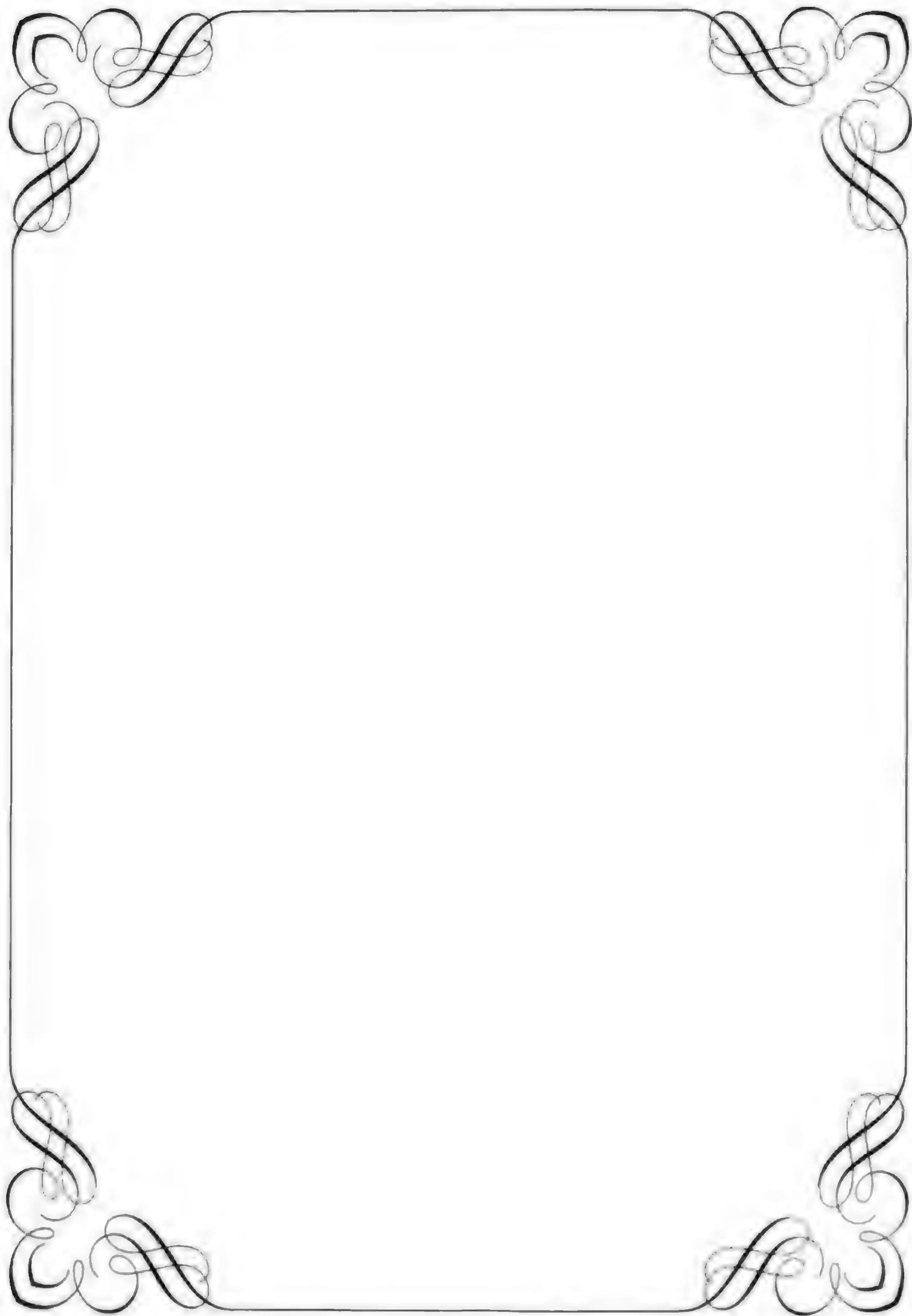
إِنَّ الدُّنْيَا دَنْتٌ مِنْ مَتْنِهَاهَا أَبَانَ الدَّهْرُ أَسْرَاراً طَوَاهَا^(١)
فَلَا تَفْضُخْ لَدَى الرَّحْمَنِ أَمْرِي حَسَابِي صَفْحَةً مَا إِنْ رَأَاهَا !

بَقِيتُ هُنَا وَلِي رَوْحٌ تَسِيرُ إِلَى الْبَطْحَاءِ أَشْوَاقِي تَطِيرُ^(٢)
خَوَاصُّ الْقَوْمِ عَاشِهِمْ ، تَلْبِثُ بِشَوْقِي دَارَ مَنْ أَهْوَى أَزُورُ^(٣)

(١) أَبَانَ : أَظْهَرَ .

(٢) الْبَطْحَاءُ : مَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ .

(٣) عَاشِهِمْ : عِشَ مَعَهُمْ . تَلْبِثُ : أَبْقِ .



القسم الثاني

الرّسالة



إلى الرسالة

تحت السماء مقام أرق من العرش يستلزم الأدب
ذلك المقام الذي يحضر إليه جنيد وبايزيد تأنهى الأنفاس^(١)
عزت بخاري^(٢)



-
- (١) جنيد وبايزيد من المتصوفة المشهورين ، توفى الجنيد البغدادي عام ٥٢٩٧
أما بايزيد فهو أبو يزيد البسطامي
المتوفى عام ٥٢٩٥ ولهما تراجم كثيرة في كتب التصوف مثل حليه الأولياء
طبقات الصوفية ، مرآة الجنان .
تذكرة الأولياء ، الرسالة القشيرية .
- (٢) شاعر إيراني .

تمهل لا تُقم تلك الخياما دليلُ الركبِ في البيداءِ هاماً^(١)
وهذا العقلُ نعدمه دليلاً لذا أسلمتُ للقلبِ الزماما

سويدائي بها ألقىَ نظره بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فتره^(٢)
بريحٍ للمدينةِ ضقتُ ذرعاً لقلبي من نسيمِ اليدِ خطره

ولي قلبٌ لمن كانَ الشهيدَا هو الخفاقُ بألفُ أنْ يميذاً^(٣)
إلى الصحراءِ أحمله فيأسى على شطِّ الغديرِ بكى وليداً^(٤)
ولا تسألُ عنِ الركبِ الشُّكاري فما يزُضُّونَ تلكَ الدَّارِ دارَا
يهرُّ قُلُوبُهُمْ جَرَسٌ مدوٌّ نسيماً في ذُرَى القُصْبَاءِ ثارا^(٥)

ليشربَ كانَ في كُبْرَى رَجِلي وبِي فَرَحُ اللقاءِ مَعَ الخليلِ
كَأَنِّي الطيرَ قبلَ الليلِ يمضي ويَبْغِي العشَّ في الرُّوضِ الجميلِ

أَذَانُوا عاشقاً رَشَفَ المدامَا وَكَمْ لِمَحْنُكَ عَابُوا الكَلَامَا

(١) الركب : راكبو الإبل ، وفي الأصل القافلة . والبيداء : الصحراء . وهام : سار على غير هدى .

(٢) السويداء : حبة القلب . استروح : استراح .

(٣) يميذ : يتحرك في اضطراب .

(٤) يأسى : يحزن . الغدير : النهر .

(٥) ذرى القصباء : أعالي القصب في منبته .

عَلَى نَعْمِ الْحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي
أَتَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتٍ لِلْخَنِي
لَقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّخْرَاءِ رَحْلِي

وَمَا إِنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامًا^(١)
وَمَاذَا يَعْرِفُ النَّدَمَانُ عَنِّي^(٢)
وَفِيهَا أُخْتَلِي حَتَّى أُغْنِي^(٣)

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرَّفْقِ سِيرِي
وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْرًا عَنِفًا

بَشِيخٍ فَارَفِقِي دَنْفٍ حَسِيرٍ^(٤)
أَتَخْطُو فِي الرَّمَالِ أَمْ الْحَرِيرِ

وَيَا جَمَالَ عَنْهَا اطْرَحْ عَقَالًا
تَهَادَثَ مَوْجَةٌ أَيْقَنْتُ مِنْهَا
تَرَفَّرَقَ دَمْعُهَا سُودَ الْعَيُونِ
مُدَامَ أَضْرِمَتْ فِي الْقَلْبِ نَارًا

لِرُوحِي رُوحَهَا كَانَتْ مِثَالًا
بِأَنَّ عَلَى الْفَوَادِ الْأَسْرُ طَالًا
وَمِنْ زَفَرَاتِهَا كَانَتْ شُجُونِي
بِنَظَرَتِهَا كَمَوْجٍ يَخْتَوِينِي

وَفِي الصَّخْرَاءِ قَافِلَةٌ تُكُونُ

وَفِي تَوْدِيعِهَا خَفَقَتْ لُحُونٌ^(٥)

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رَأَيْتُهُ فِي السَّمَاعِ رَأْيِي حِجَازِي وَفِي الشَّرَابِ رَأْيِي أَهْلَ الْعِرَاقِ
(٢) المقام : من مصطلحات الموسيقى . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الفناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : التديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصحبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحن : الألحان .

أَلَا فَاسْجُدْ عَلَى رَمْلٍ تَلْقَى عَلَيْهِ الْوَسْمُ يَخْتَرِقُ الْجَبِينَ^(١)

مَسَاءٌ مِثْلُ فَجْرِ قَدْ تَبَسَّمَ
تَمَهَّلُ إِنْ خَطَوْتَ عَلَى رَمَالِ
أَمِيرُ الرِّكَبِ مَنْ ذَا الْأَعْجَمِيِّ
يُغْنِي وَالْغَنَاءُ لَهُ سَرَابٌ
تَمَطَّى صُبْحُهَا وَاللَّيْلُ أَظْلَمَ^(٢)
كَقَلْبِي كُلُّهَا قَلْبٌ تَأْلَمُ
بَغِيرِ لِسَانِنَا لَحْنٌ شَجِي
وَفِي الصَّحْرَاءِ مِنْهُ الْقَلْبُ حَيٌّ

وَمِنْ عَشْقٍ وَمِنْ سُكْرِ مُقَامِهِ
لَهُ الْأَنْغَامُ تُطْرِبُ كُلَّ قَلْبٍ
وَفِي مَاءٍ وَفِي طِينٍ ضِرَامُهُ^(٣)
لَنَا قَلْبٌ يَفْلُذُّهُ قِوَامُهُ^(٤)

خَفِيَ الْحَزَنُ فِي صَمْتِ تَرَاهُ
طَرِيقٌ وَغَرَّةٌ وَالنَّضْوُ فِيهَا
رَبِيعُ الْمَرْجِ مُخَمَّرُ الزَّهْوِ
أَتَوْقُ إِلَى الْبَقَاءِ هُنَاكَ وَخَدِي
لِسَانُ الْمَرْءِ فِي خُبْرٍ رَوَاهُ
بِلَا نُورٍ لِمُصْبَاحِ هَذَا^(٥)
أَقَامَ الصَّحْبُ فِي كَنْفِ السُّرُورِ
وَفِي جَبَلٍ عَلَى شَطِّ الْغَدِيرِ^(٦)

(١) الوسم : أثر الكي .

(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .

(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .

(٤) الفلذة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .

(٥) النضو : المهزول الضعيف .

(٦) أتوق : أشتاق .

وَأَقْرَأَ تَارَةً شُغِرَ الْعِرَاقِي^(١) وَأَخْيَاناً مِنَ الْجَامِيِ احْتِرَاقِي^(٢)
أَبْيَنَ لِحُونَ أَعْرَابٍ وَلَحْنِ لِحَادِي نَاقَتِي بَغْضُ اتِّفَاقِي^(٣)

أَشْبُ قَرَحاً بِأَحْزَانِ الطَّرِيقِ وَكُنْ مَجْنُونَهُ غَيْرَ الْمَفِيقِ
طَرِيقاً طَالَ يَا حَادِي لِتَسْلُكَ وَالْأَمَ الْمَفَارِقِ مِنْ حَرِيقِ^(٤)
أَنْيَسُ الرُّوحِ بَادِلْنِي شَكَاتِي وَقُلْ مِثْلِي « بَذِي حَسِي مَمَاتِي »
« لِنَمْسَحَ مَوْضِعَ الْقَدَمِينَ » فَاهْمِسْ « بِأَجْفَانِ رِقَاقٍ دَامِعَاتِ »

لَقَدْ غَضُّوا وَغَضُّوا مِنْ حَكِيمٍ جَهُولٍ كَانَ ذَا الْفَضْلِ الْعَمِيمِ^(٥)
وَنَحْنُ الْيَوْمَ فِي عَضْرِ سَعِيدٍ لَدَى السُّلْطَانِ دَرْوِيشٍ عَظِيمٍ

بَصْدْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَعَيْتِ بِرَأْسِي « لَا مَكَاناً » قَدْ حَوَيْتِ
وَلَمَّا جُرْتُ فِي الْعَلْيَاءِ سَقْفاً جَنَاحِي كُلِّ فِي أَرْضِي هَوَيْتِ

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يمزج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلزم أتباعها بالسياحة فراح في البلاد طويلاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطاتها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية وبعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبة على شعره ، وقد نظم قصة ليلي والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاتاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِوَادِينَا خُلُودٌ لِلزَّمَانِ بِلَا صُورٍ نَمَتْ فِيهِ الْمَعَانِي
حَكِيمٌ دَائِمًا أَخَى كَلِيمًا لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنْ (لَنْ تَرَانِي) ^(١)

وَيُيَدِّي الْمُسْلِمُ الْمَحْبُوبُ فَقَرَهُ يُصَعَّدُ مِثْلَ حَرِّ النَّارِ زَفَرَهُ
شَكَا مِنْهُ الْفَوَادُ وَلَيْسَ يَذَرِي فَهَبْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَظَرَهُ

عَذَابِكَ مِنْهُ كَمْ دُقَّتْ الْعَذَابَا بِكَ الْأَلْحَانُ لِي كَانَتْ عَذَابَا
حَزِينٌ ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ يَوْمًا بِأَرْضِ الْهِنْدِ قَطُّ لَكَ الصُّحَابَا
لِعَبْدِ الْهِنْدِ لَيْلٌ ضَاعَ فَجْرُهُ وَأَيْنَ الشَّمْسُ بَلْ قُلْ أَيْنَ بَذْرُهُ
أَنَا الْمِسْكِينُ فَلْتَرْفُقْ بِحَالِي أَمِثْلِي مُسْلِمٌ قَدْ عِيلَ صَبْرُ ^(٢) ؟

فَقِيرٌ ضَاقَ بِالْأَلَمِ الْمُقِيمِ بَدِينِ الْحَقِّ ذُو الْأَصْلِ الْكَرِيمِ
إِلَهِي كُنْ لِمَحْزُونٍ مُعِينًا هَوَى مِنْ صَرْحِ الْعَالِي الْقَدِيمِ

لِسَانِي كَيْفَ يَرُوي عَنْهُ شَيْئًا وَتَعْلَمُ مَا بَدَأَ بِلِ وَالْخَفِيَا

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَلَغَ رَجْعُهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْغًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال جلال الدين الرومي في شعره : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :

(لن تراني) إنها المعنى الدقيق ولتضع فيه فذا البحر العميق

(٢) عيل صبره : نفذ .

وما قاساه في دهر طويل طوى قلبي على الآلام طيا
جَرَى فلكٌ على غير المَرَامِ شكاة الركب من بُعد المقام
أفي هذا كلامٌ لست شعري وهذا الشغبُ كان بلا إمام

دِماءٌ فيه تخلو من لهاب وما زرع الأزاهر في الخراب ^(١)
خلي الغمد . ما في الكف مال وهذا الرق يهوى بالكتاب ^(٢)

بظاهر ما يراه القلب قيد فمن ذوق ومن شوق تجرد ^(٣)
صغير الصقر حتما ليس بذري على طن البعوضة من تعود
له بالقلب باباً ما فتحننا وذاتاً في ثراه ما رأينا
ولا التخيير دوى في ضمير ومنه الذكر قط ما سمعنا

يقد الجيب مقطوع الرجاء لماذا قد تردى في البلاء ^(٤)
ثبته الموت ما يلقي نصيباً إذا ما كف عبداً عن ثناء

أنله الحق ، منكبين أسير فقير وهو في قلق يثور
وهذي حانة قد أوصدوها ليظماً والردى كاس تدور ^(٥)
فطهر ماءه والطين طهر بدنيا منه هذا القلب عمر

(١) اللهب : اشتعال النار

(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .

(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .

(٤) يقد : يشق . الجيب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .

(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَرَّقَ ذَيْلُهُ وَالرَّيْحُ تُسْفِي قَفِي مِضْبَاحِهِ الْمَخْطُومَ فَكَّرَ^(١)

عَرُوسٌ هَذِهِ الدُّنْيَا لِغَيْرِهِ مَقَامٌ لِلْفَنَاءِ نَهَجٌ لِسَيْرِهِ
وَقَبْلَ الْمَوْتِ آدَتُهُ الْخَطَايَا لَهُ الْمَلَكَانِ مِنْ دَيْرٍ بِقَبْرِهِ^(٢)

أَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ أَوْ سُرُورٌ وَمَا فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ صَبُورٌ
لِهَذَا الشَّعْبِ كُنْ رَبِّي مُعِينًا قَضَى ، قَالَرُوحٌ مَا فِيهَا حُضُورٌ^(٣)
حَنِيفٌ وَالرَّدَى مَا لَيْسَ بِأَلْفٍ أَيْخَلَعُ قَلْبَهُ رُغْبًا وَيَأْنَفُ!^(٤)
وَيَيْنَ ضُلُوعِهِ مَا كَانَ قَلْبٌ يَقْطَعُ زَفَرَةً حَزَى وَيَأْسَفُ!

وَحُكْمُ الْفَرْدِ شَرٌّ لِلْأَنَامِ فَمَنْ مِنْ شَرِّهِ غَيْرَ الْمَضَامِ
شَكَاةَ الْقَلْبِ لِلْخِلَافِ قَاسِمِغِ إِذَا مَا شِئْتَ تَحْقِيقَ الْمَرَامِ

رَكِينًا كَانَ جِئِمُ الْمُسْلِمِينَ بِنَاءٌ ظَلٌّ فِي آدِ مَتِينَا^(٥)
وَإِنْ نَظَرُوا فَقَدْ ظَهَرُوا بِذَاتِ لَهُمْ فِي الْحَقِّ أَشْبَهَتْ الْوَتِينَ^(٦)

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمخطوم : المحطم .

(٢) آدته : أثقلته .

(٣) قضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .

(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .

(٦) الوتين : عرق في القلب .

خَجُولٌ مُسْلِمٌ هَانَتْ شُرُونُهُ لَهُ الْخَانِقَاءُ فَقَرُّ ، مَاتَ دِينُهُ ^(١)
 بِدُنْيَانَا فَقُلْ مَاذَا وَرِثْنَا كَلِيمٌ عَنِ مُلُوكِ نَسَبَيْنُهُ ^(٢)

وَعَنِ أَخْوَالِهِ لَا تَسْأَلَنِي فَقَدْ سَاءَتْ وَفِيهَا حَارَ ظَنِّي
 وَهَذَا الطَّيْرُ بِالثَّمَرَاتِ يَغْذُو لَهُ فِي الْيَدِ نَقَرٌ بِالتَّعْنِي ^(٣)

لِعَيْنَيْهِ الْحَيَاةُ أَنَا فَتَخْتُ وَمَا فِي الْأَمْسِ وَالْعَدِ كَمْ شَرَحْتُ
 كَشَفْتُ الرُّوحَ أَسْرَاراً فَهَلَّا بِلَاغَةً يَغْرُبُ يَوْماً مَنَحْتُ
 وَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ جَيْشٌ عَرْمَرَمَ بِذَاتِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَكْرَمَ ^(٤)
 فَلَوْ رَدُّوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ حَقًّا لَكَانَ جَلَالُهُ لَا رَيْبَ أَغْظَمَ

أَسَاطِيرُ مَتَاعِ الشَّيْخِ حَقًّا مِنْ الْأَوْهَامِ أَقْوَالًا تَلَقَّى
 لَهُ الْإِسْلَامُ بِالرُّنَارِ يَثْدُو وَذَا حَرَمٍ وَمِنْ دَيْرٍ تَبْقَى

وَعَالَمُنَا بِالْحَادِ تَغْيِيرُ وَأَنَّ الرُّوحَ مِنْ جَسَدٍ تَقَرُّرُ

(١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى العبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقات ووقف الأموال عليها .

(٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نسبته : نعرفه ونميزه .

(٣) التعني : الشدة والصعوبة .

(٤) الجيش العرمرم : الشديد .

بِفَقْرٍ كُنْتَ لِلصَّدِيقِ تُغْطِي أَنْزِ رَوْحاً تَسَامِي أَوْ تَطْوِرُ^(١)
لَنَا حَرَمٌ فَمَاذَا يَسْتَعِيرُ ! بِهِ صَنَمٌ هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ
وَأَظْلَمَ حَقُّنَا نَحْنُ الْحَيَارَى وَمَا فِي الْقَلْبِ إِلَّا مَالٌ نُورُ

فَقِيرٌ رَزَقْنَاهُ لِلَّهِ صَلَّى طَغَاةٌ أَوْ بُغَاةٌ مَنْ أَذْلَا
وَتِلْكَ النَّارُ إِنْ خَمَدَتْ بِصَدْرِ إِلَى عَتَبَاتٍ مَنْ ظَلَمُوا تَوَلَّى^(٢)

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن ينهكموا بالشيخ أو الزاهد .
والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة
والفقهاء ، ولا غرو فالمتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن
الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فواقفون عند حرفية النصوص لا يمعنون
في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد
والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربِي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة
يوم أَلَسْتَ) والإشارة في يوم أَلَسْتَ إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ
مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ والشاعر يريد ليقول
إن الصوفية أتشفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني
على وسطه .

يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على
رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي
أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل
ماله كله معه . وقال لها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباها قد فجعها بماله
فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان
أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدها الضرير ووضعت يده عليها
فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدها وتوهمه بأن
أباها ترك شيئاً ، ولم يترك لعماله أي شيء .

(٢) تولى : مضى وأدبر .

يُعَادِي الْمُسْلِمُونَ الْأَقْرَبِينَا وَظَلُّوا فِي شِقَاقٍ رَاغِبِينَا
تَدَاعَى مَسْجِدٌ يَوْمًا لِيَأْسُوا وَكَانُوا مِنْهُ دَوْمًا هَارِبِينَا^(١)
لِغَيْرِ اللَّهِ عَقَرْنَا الْجَبِينَا وَكُنَّا كَالْمَجُوسِ مُهْلِكِينَا
فَأَنْفُسَنَا شَكَوْنَا لَا سَوَاتِنَا لِمِثْلِ عُلَاكَ لَسْنَا لَا نَقِينَا

خَلَّتْ مِنْ رَاحِهَا كَأْسُ التَّدَامِي إِلَامَ الصُّمُتِ لِلْسَاقِي إِلَامَا
عَلَى الرَّفَرَاتِ مِنْي الْقَلْبَ أَطْوِي دُخَانًا لِلسَّرَاجِ مَحَا الظَّلَامَا^(٢)

لَدَى الصُّوفِيِّ دِنَ مَا رَوَاه وَيَطْوِي مَكْتَبًا نَهَجًا طَوَاه^(٣)
أَغَادَرَ مَجْلِسَ الشَّعْرَاءِ كَرَاهَا وَمَاتَ اللَّحْنُ فِي نَائِي حَوَاه
غَرِيبٌ ، مُنْهِمٌ ، عَنْ كُلِّ دَارٍ وَلِي دُنْيَا أَعَافُ ، مِنْ الْغُبَارِ
وَهَذِي لَوْعَتِي مِنْ فَرْطِ عَجْزِي لِغَيْرِ اللَّهِ أَبْدَيْتُ اقْتِدَارِي

وَتَمْنَحُنِي جَنَاحًا كِي أَطِيرَا وَالْحَانِي خَفَقْتُ بِهَا سَعِيرَا^(٤)
فَهَلْ مِنْ مُنْهِمٍ يَخْشَاهُ مَوْتُ ؟ أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا الْمَسِيرَا

سَأَلْتُ اللَّهَ بِالدَّمْعِ السُّكُوبِ أَحَانَ لِمُسْلِمٍ رَفَعَ الْكُرُوبِ ؟

(١) يَأْسَى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .

(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .

(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعبير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتفديد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .

(٤) السعير : النار .

« لَهُ قَلْبٌ وَأَقْفَرٌ مِنْ حَيْبٍ »
فَهَذَا الذُّكْرُ مَا كَانَ الْمَفِيدَا
وَفِي قَرْنَيْنِ أَنْتَ الْخُمُودَا^(١)

يَقِينُ مَاتَ فِيهِ رَنَا لِغَيْرِ^(٢)
تَجَلَّى بِأُسُهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ

نِدَاءٌ ظَلَّ فِي سَمْعِي يُدَوِّي
لِمَاذَا أَذْكَرُ الْمَاضِي الْمَجِيدَا
بِصَدْرِي قَدْ حَوَيْتُ أَنَا سِرَاجَا

وَيَخْرُسُ كَغَبَّةَ بَنَاءٍ دِيرٍ
وَتَقْصُرُ نَظْرَةٌ مِنْهُ وَفِيهَا

مِنَ الْحَرَقَاتِ هَبْ نَارَ الضَّمِيرِ
بِأَمَالِ الْيَقِينِ كَفَيْضِ نُورٍ
بِلَا سَيْفٍ دِمَاءٌ كُنْتُ أَسْفَخُ
فَلِي عَصْرٌ أَجَاهِدُهُ وَأَكْدَحُ

وَتَشْرِيبُ وَنَارٌ لِلْفَقِيرِ
وَفِيهِ الْقَلْبُ ثَبَتَ أَوْ أُنْزَهُ
وَلِي مِنْ نَشْوَتِي^(٣) قَدْ تَرَنَّنْخُ
فَهَبْنِي نَظْرَةً وَارَأْفَ بِحَالِي

وَيَتَرَبَّ رُمْتُهَا فَاجْتَرَتْ بِيدَا
تَحْيَزُ ، حَيْرَتِي تَأْبَى الْمَزِيدَا

لَقَدْ آتَرْتُ أَنْ أَشْكُو وَحِيدَا
أَطْلُبُ مَكْتَبِي أَمْ هَانَ شَوْقِي

وَمِنْ غَيْمٍ جَنَاحِي قَدْ تَرَطَّبُ
أَغْنِي مَا بِقَلْبِي ثُمَّ أَطْرَبُ
وَمَنْ مِنْ دَوْحَتِي الثَّمَرَاتِ يَطْعَمُ
عُرِفْتُ بِشَاعِرٍ غَزَلَ تَرَنَّمُ

أَطِيرُ بِجَوِّهِ هَذَا الْمَحَبَّبُ
وَبَيَّتُ اللَّهَ أَخَوِيهِ بِقَلْبِي
أَقُولُ السُّرَّ مِنْ مَا قُلْتُ يُفْهَمُ
أَمِيرَ الْقَوْمِ أَنْصِفْنِي فَإِنِّي

(١) أنس : رأى . والشاعر يشير إلى قساد حال القوم في القرنين الماضيين .

(٢) رنا : أدام النظر .

(٣) النشوة : السكر .

خِلَافَ الشَّعْرِ مَا أَبْغَى بِقَوْلِي وَحُلَّتْ عُقْدَةُ الْمَعْنَى بِحَلِّي
وَأَكْسِرَ لِعِشْقِي مَا أَرْجُو فَدِرْهُمْ مُفْلِسٍ ذَهَبَ بِصَفْلِي^(١)

حَيَاةُ الْخُلْدِ عَنْهَا قُلْتُ خَبِرُ وَمَنْ مَاتُوا حَدِيثَ الرُّوحِ ذَكُرُ
وَقَوْمٌ يَجْحَدُونَ الْحَقَّ قَالُوا بِمَوْتِهِمَا إِذَا مَا شِئْتَ بَشُرُ
جِئَنِي مِنْ أَسَى كَالرَّغْفَرَانِ جَرَتْ عَيْنِي بِمِثْلِ الْأَرْجَوَانِ^(٢)
وَحَالِي أَنْتَ تَعْلَمُ رَغَمَ صَمْتِي فَهَذِي عُقْدَةُ لِي فِي لِسَانِي

غَرِيبٌ ، لِي لِسَانٌ وَهُوَ نَظَرُهُ وَذُو أَلَمٍ تُكَلِّمُهُ بَعْبَرُهُ
فِمِّي أَوْصَدْتُ ، بِالْعَيْنَيْنِ أَرْنُو فَشَرَعِي لَا يَجِيزُ الْقَوْلَ مَرَّةً

مَنْخَتُ الدَّاتِ مِنْ ذَاتِي غَرِيبَا وَزَمَرَمَ بَيْنَ صَلَاصَالِ قَلِيَا^(٣)
فَهَبَّيْ زَفَرَةً حَرَّى وَمِنْهَا سَاضَلَى كُلَّ بَلْبَالٍ لَهِيَا^(٤)
زَفِيرٌ لَيْسَ فِي قَلْبِي سِوَاهُ وَلِي أَمَلٌ وَنَبْعُكَ مَا رَوَاهُ
لَمَنْ أَشْكُو غَمُومًا فِي فَوَادِي عَلَى مَنْ غَيْرَ ذَاتِكَ مَا طَوَاهُ

غَرِيبٌ شَجَوَهُ بِالنَّايِ أَبَدِي وَنَارُ اللَّحْنِ مِنْهَا ذَابَ وَجَدَا
أَتَعْلَمُ مَا يَقُولُ وَمَا تَمْنَى يرومُ القلبُ^(٥) عَنْ دَارَيْنِ صَدَا

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص .

(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .

(٣) القليب : البئر .

(٤) البلبال : الهم .

(٥) يروم القلب : يُريدُ .

وما زهراً ولا قطراً أريد
وتعلو نظرتي عن كل نجم
ببحر شطّاه لم أدر بُغده
إلى البطحاء تامرنا بسير
لتلك الريح ، شمك كم تجود
ورأيي لا أبدله سديد
دليلُ العاشقين القلبُ وحده
والأ كنت ما وقفت عنده^(١)

أطرد من يتوق إلى الحضور
بما أحببت مَر إلا بصبر
ألقت ولستُ أعرف بالصبور
عجزت أنا إليه عن المسير

دُمى الإفرنج قلب لي تعشق
لقد أصبحت عن نفسي غريباً
بحان الغرب عاقرتُ الشرايبا
وكم جالستُ أهل الحسن لكن
ومن نارٍ لأهل الدير أحرق^(٢)
فما أذري وجوداً لي تحقّق
برُوحٍ قد شريتُ لي العذابا^(٣)
بدت ييرانهم ثلجاً مذاباً

فقيرٌ فلتحقّق لي رجائي
سئمتُ الدرس يلقى حكيماً
هشيمي اجعله قلباً في الفضاء^(٤)
فلي من نظرتي فيض الذكاء

(١) البطحاء : مكة المكرمة .

(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهافت على تقليد الغربيين .

(٣) عاقر الخمر : أدمن شربها . شريت : اشتريت .

(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أَنَا الصَّوْفِي وَالْمَلَأُ أَجَافِي
عَلَى صَفْحَاتِ قَلْبِي « اللَّهُ » فَكُتِبَ
فِي قَلْبِي لَمَلَأَ الْقَلَمُ حَلًّا
أَوَّلِي مِنْ مَجَالِسِهِ فِرَارًا

وَتَعْلَمُ مَنْ أَكُونُ بِلَا خِلَافٍ^(١)
لأَشْهَدُهُ وَذَاتِي بِالشُّغَافِ^(٢)
وَهَلْ بِالْدمْعِ بَلَّ الْعَيْنَ بَلًّا
أَزِينُ حِجَازَهُ بِالْبُشْرِ ؟ كَلًّا

يَقُولُ الْقَوْلَ نَضْلًا لِلْحَرَابِ
وَتَخْجَلْنِي الصَّرَاحَةُ فِي كَلَامِي

وَفِي حِضْنٍ لَهُ كَمِ مِنْ كِتَابِ
عَنِ الذَّاتِ اخْتَفَى لَا عَنْ صِحَابِ^(٣)

أَجِبْ بِاللَّهِ مَنْ مَلَكَ الْقُلُوبَا
كِلَانَا مَنْ رَمَى فِي الدِّينِ سَهْمًا
وَلَسْتُ بِمُخْفَلِي غَيْرِ الْغَرِيبِ
ذُبُوعَ السَّرِّ بَيْنَ الْقَوْمِ أَخْشَى

وَمَنْ قَدْ أَلْهَمَ الشُّوقَ الْمَذِيبَا
فَقُلْ فِي الرَّمِي مَنْ كَانَ الْمَصِيبَا
لِمَنْ فِي مُشْكِلِي شَكْوَى كُرُوبِي ؟
شَكَاتِي صَنْتُ عَنْ قَلْبِي الْكَثِيبِ

وَقَلْبِي لَسْتُ أَسْلَمُهُ لِأَيْدٍ
إِلَى غَيْرِ الْإِلَهِ رَفَعْتُ عَيْنِي

أَضِيقُ بِعَقْدَتِي وَأَجِلُّ وَخَدِي
لِذَا مَنْ قَمَّتِي كَانَ التَّرْدِي

(١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقيه وغير الصوفي .

(٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبه . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المتصوفة . غير أنه يريد ليخرج ضيفي الأفق من المسلمين المترمتين الجامدين .

(٣) يعبر إقبال عن نزعة الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتؤيد الغرض .

يَرُّ أُمِّي جَمْرَةً هَذَا الْجَنُونُ (١)
وَمِنْ أَمْوَاجِ طُوفَانٍ تَقْضَى (٢)
لِهَذَا التَّرَبِّ مَا زَالَ الشَّرَارُ
بِمَا أَهْدَيْتَ مِنْ نُورِ التَّجَلِّي

بِصَدْرِي فَوْرَةً هَذَا الْفُتُونُ (١)
بِرُوحِي الْمَوْجُ يَجْفُوهُ السُّكُونُ (٢)
لِهَذَا الصَّدْرُ زَفَرُ الْفَجْرِ نَارُ
عَلَى نَظَرٍ لِعَيْنِي أَقِيدَارُ

أَشَاهِدُ غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ أَرْغَبُ
وَهَذَا الْعَضْرُ مِنْ رَوْحٍ تَخْلَى

وَبَيْنَ جَوَانِحِي قَلْبٌ تَلْهَبُ
فَقُلْ مَا السُّرُّ أَوْ مِثْلِي تَعَجَّبُ (٣)

وَفِي عَصْرِ بَلَا لَهَبٍ خُلِفْتُ
وَفِي عُنُقِي حَيَاتِي مِثْلُ خَبَلٍ
وَمَا لِلزَّهْرِ أَلْوَانِي وَرِيحِي
وَمَا وَسِعَ الْكَلَامُ أَسَى خَفِيًّا

تُرَابِي فِيهِ مَا يَهْفُو مُنِخْتُ
عَلَى عَوْدٍ كَأَنِّي قَدْ صُلِيتُ
يَضِيقُ الصَّدْرُ بِالْأَمَلِ الْجَرِيحِ
لِمَنْ أَشْكُو بِقَوْلٍ لِي صَرِيحِ

وَفِي شَرْقٍ وَفِي غَرْبٍ غَرِيبُ
هُمُومُ الْقَلْبِ أَشْكُوهَا لِقَلْبِي

فُوَادِي لَا يُوَاسِيهِ الْحَيِّيبُ
فَكَانَ لِغُرْبَائِي خَذَعٌ عَجِيبُ

لِعِلْمِ الْيَوْمِ أَبْطَلْتُ الطُّلَسْمَا (٤)

خَطَمْتُ حَبَائِلًا بِالْحُبِّ حَطَمًا

(١) الجنون عند المنصوفة هو جذبة العشق الإلهي .

(٢) تقضى : مضى وانتهى .

(٣) تخلص منه وعنه : تركه .

(٤) الطُّلَسْمُ والطُّلَسْمُ ، ج : طلاسَم وطلسمات ، يونانية معربة : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر .

وإِبرَاهِيمَ مَنْ أَشْبَهْتُ حَقًّا
حَبَوْتُ الْعَيْنَ بِالْبَصْرِ الْبَصِيرِ
وَفَجْرًا فَلْتَهَبْ مِنْ « مَنْ رَأَى »
فَمَا كَانَتْ لَدَيَّ النَّارُ هَمًّا
وَقَوْلُهُ « لَا إِلَهَ » كَفَيْضِ نُورٍ
فَلَيْلِي مِنْكَ ذُو الْبَذْرِ الْمَنِيرِ^(١)

وَفِي يَوْمٍ جَذَبْتُ إِلَى ذَاتِي
بِهَذَا الدَّيْرِ مِنْ نَعَمَاتِ فَجْرِ
بِأَنْوَارِ مَقَامِي مُشْرِقَاتٍ
خَلَقْتُ دُنَى الْقُلُوبِ الْوَالِهَاتِ^(٢)

بِعَالَمِنَا جَنَّانَ عَالِيَاتٍ
سُكُونٌ كَانَ حَتَّى الْيَوْمِ فِيهَا
لِدَوْحَتِهَا دَمُوعِي الْجَارِيَاتِ^(٣)
فَأَيَّامٌ لَأَدَمَ آتِيَاتٍ
هَوَاهُ الْكَأْسُ دَارَتْ بِحَتْسِهَا
أَلَا هَبَّهَا فَتَى يَخْتَالُ فِيهَا
مُنَى الدَّارَيْنِ مَا إِنْ يَشْتَهِيهَا^(٤)
تَرَاهُ مِثْلَ حَيْدَرٍ فِي قَوَاهِ

أَذِرْ يَا صَاحِبَ كَأْسَاتِ النُّدَامَى
وَهَذَا الْقَلْبُ رُدُّ إِلَى ضُلُوعِي
وَزِدْ فِي نَائِي أَلْحَانِي ضِرَامًا^(٥)
لَأَفْضَلَ كُلِّ مَنْ مَلَكَوْا ، مَقَامًا

وَمِنْ عِشْقِي لَنَا الدُّنْيَا بِصَدْرِكَ
فَمِنْ جَبْرِيلَ ؟ إِنِّي لَسْتُ أَدْرِي
وَتَفَرَّحَ فَرْحَةً نَشْوَى بِصَدْرِكَ
أَأَبَدْتُ جَوْهَرًا مِرَاةَ صَدْرِكَ

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رأى فقد رأى الله) كذا في الأصل .

(٢) الدنى : جمع دنيا .

(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .

(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فَوَادِي لَمْ يُمِثْ أَحَدًا بِمَعْبَدِ
إِلَهٍ يَتَفِي مِنِّي سُجُودًا !

مُقَامِي أَيْنَ ؟ كُنْتُ بِهِ الْمُقِيدُ^(١)
لَقَدْ حَطَّمْتُهُ وَهُوَ الْمَبْدُ

وَهَذِي زَهْرَةٌ نَبَتَتْ بِثَرَابِي
تَقْبَلُهَا ، بِهَذَا الْقَلْبِ رَفَقًا

بَدَتْ فِي حَمْرَةٍ مِنْ ذُوبِ قَلْبِي
فَلِي قَلْبٌ ، وَهَذَا الْقَلْبُ حَسْبِي^(٢)

لِهَذَا الشَّعْبِ إِنِّي قَدْ خَفَقْتُ
وَجِيزُ الْقَوْلِ خَيْرُ الْقَوْلِ قَالُوا

وَلَحْنِي النَّارَ فِي رُوحِي خَلَقْتُ
خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكُنِّي اسْتَرَحْتُ

بِفِطْرَةٍ مِنْ تَمَجَّنَ رَمْتُ صِدْقًا
وَتَحْرِقُ زَفَرَتِي الْأَرْوَاحَ حَرْقًا^(٣)

سَحَابًا لِلرَّبِيعِ فَهَبْ تَرَابِي
وَفِيهِ الْحَبُّ أَنْثَرَهُ لِيَقَى

بَكْفِي الْقَلْبُ ، مَالِي مِنْ حَبِيبِ
وَهَذَا الصَّدْرُ فَلَتَسْكُنُهُ دَارًا

مَتَاعٌ لِي ، فَمَنْ لَصَ الدُّرُوبُ ؟^(٤)
وَحِيدٌ ، لَا أَشْبَهُ بِالْغَرِيبِ

بَيْتِ اللَّهِ كَالرُّومِيِّ أَذَانِي
طَوَاهُ بِفِتْنَةٍ عَصْرٌ قَدِيمٌ

فَيْسُرُ الرُّوحَ أَوْضَحُ وَالْمَعَانِي^(٥)
وَلَكِنْ لِي الْجَدِيدُ مِنَ الزَّمَانِ

لَكَ الْبَسْتَانُ أَنْبَتْ مِنْ تُرَابِي
وَلَوْ نَهَ بَدْمُعِي فِي انْسِكَابِ

(١) ومث : أحب .

(٢) حسي : كفايتي .

(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .

(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .

(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

وما أملت سيف أبي تراب فهب عيناً كسيف أبي تراب^(١)

على شط يطول به الوقوف فمن عمل وعن أمل عزوف^(٢)
لمن غيري أنا المسكين حقاً على أسرارهِ كان الوقوف

ومن مناه للمحبوب عطرًا وهذاك الربيع يرف زهرا^(٣)
تناسى قولة قلت فمنذا على قضائيه بالنار مرًا
غديري هبه ذرًا من يحارك متاعي ضغ بطودك أو قفارك^(٤)
بطوفان فما فتحت قلبي فهني غير طوعاً وبارك

أثرت الوجد في نايي ، تأمل بناري ذبت مختلياً ، تأمل
عرفت الفقر عن سلفي قديماً عن السلطان إحجامي ، تأمل

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ .
والخبر في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن
عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ماقطاً عن
ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً
وعمار بن ياسر كانا رقيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه
عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما
سنة وتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان
يطلب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلاًاً نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

كشفتُ اللبسَ عَنْ مَعْنَى بَفَنِي
يُوافِي مَرَّةً وَيَغِيبُ عَنِّي
ضَمِيرَ الْعِيشِ أَفْتَحُهُ وَبَيْدًا^(١)
أَغْنِي مَا أَغْنِيهِ وَحِيدًا

عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَالِي أَغْنِي
مَعَ الْمَحْبُوبِ تَسَالُ كَيْفَ حَالِي
لَقَدْ شَارَكْتُ فِي وَجْدٍ وَرَوْدَا
فَمَنْ لَقَنْتَ شَوْقِي لَيْتَ شِعْرِي ؟

وَقَدْ شَاهَدْتُ أَعْمَاقَ الشَّرِيَا
فَمُشْكِلُ (لَا) أَرَى صَعْبًا عَلَيَّا^(٢)

بُنُورِكَ كُنْتُ أَفْخُ مُقْلَتِيَا
وَإِنِّي مُسَلِّمٌ بِأَلْهَفٍ نَفْسِي

وَبَدَأَ وَانْتِهَاءَ مِنْكَ ، حُسْبِي
رَسُولُ اللَّهِ يَا رَحْمَنُ ، حُسْبِي
فَلِأَنَّهُارٍ مِنْ حَجَرٍ تَفْجَرُ
يُزَيِّنُ بِالتَّلَوْنِ وَالتَّعَطَّرُ

بَارِضِكَ حَرْقَةُ الْأَلْحَانِ حُسْبِي
لِرَبِّي قُلْتُ مَتَشِيئًا بِوَجْدِي
مَنْ الْأَشْوَاقِ ثَائِرَتِي لَتَنْظُرُ
وَلَيْتَ ابْنِي بِعَشْقِكَ فِي دَوَامِ

بَدَا قَمَرًا لَعَيْنِ النَّاطِرِينَ
وَقَاهُ اللَّهُ عَيْنَ الْكَافِرِينَ

فَتَى الْإِفْرَنْجِ^(٣) فَلْتَشْهَدْ حِينَا
قَتَانَا سَادِجٌ مِنْ فَرْطِ ظَرْفِ

وَمَنْ لِسَوَاكَ كَانُوا نَاطِرِينَ
نَصِيبًا هَبْ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ
لِتَسْكُنَ دَائِمًا قَلْبَ الْحَبِيبِ

يَمِينُكَ مُدَّهَا لِلْعَائِرِينَ
فَمِنْ نَارٍ أَضْرِمُهَا بِرُوحِي
إِلَيْكَ الرِّاحَ مِنْ كَأْسِ الْحَبِيبِ

(١) وبَيْدًا : على مهل .

(٢) فِي الْأَصْلِ (لَا إِلَهَ) .

(٣) الْإِفْرَنْجِ وَالْإِفْرَنْجَةُ وَالْفَرَنْجِ : اسم لساكن أوربة كلها ماعدا الأروام والأتراك .

أَيَا هَذَا (الْمَلِك) أَذَا سُجُود ! لَتَكُنَّسَ مُقْلَتِي دَارَ الْحَيِّبِ^(١)

لَكَ السُّلْطَانُ لَكُنِّي فَقِيرُ لَأَرْضِ الرُّوحِ وَالْمَعْنَى أَمِيرُ^(٢)
وَدُنْيَا ۝ لَا إِلَهَ ۝ بَدَتْ تَأْمَلُ خَوَاهَا كُلَّهَا مِنِّي ضَمِيرُ

دَوَاءٌ لَيْسَ يَنْجِعُ فِي سَقَامِي فَإِنِّي الشَّيْخُ قَدْ وَهَنْتُ عِظَامِي
أَلَا يُلْقُونَنِي عَنْهُمْ بَعِيداً أَلَسْتُ لِدِينِهِمْ أَحَدَ السَّهَامِ
تَعَالَ وَفِي اغْتِنَاقٍ نَحْنُ نَرْقُصُ وَدُنْيَانَا نُجَافِيهَا ، وَنَرْقُصُ^(٣)
وَعِنْدَ دِيَارٍ مَنْ نَهْوَى تَوَقَّفُ دِمَاءَ الْعَيْنِ نَذْرِفُهَا ، وَنَرْقُصُ

- (١) في الأصل اسم أحد الملوك .
(٢) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف . ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعففها عن ذل الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقاً من كل قيد . وفي كتابه جاويدنامه الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصيح لولده قائلاً :
إن رأست القوم أو صرت الغنيا فعلى الفقر احرصن يا بنيا
(٣) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع نفوسهم من عالم الثرى ليمسوها إلى العالم العلوي . كما يشير الطرب والخوف عند الثائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :
(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شينين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

وَيُشَبِّهُ لَيْلَهَا الصُّبْحَ ابْتِمَامًا
وَكَانَ الْحَبْلُ مِنْ أَحَدِ حَرَامَا^(١)

بِصَخْرَاءَ لَكَ اخْتَرْتَ الْمَقَامَا
فَفِي أَيِّ الْبَقَاعِ خِيَامَكَ انْصَبْ

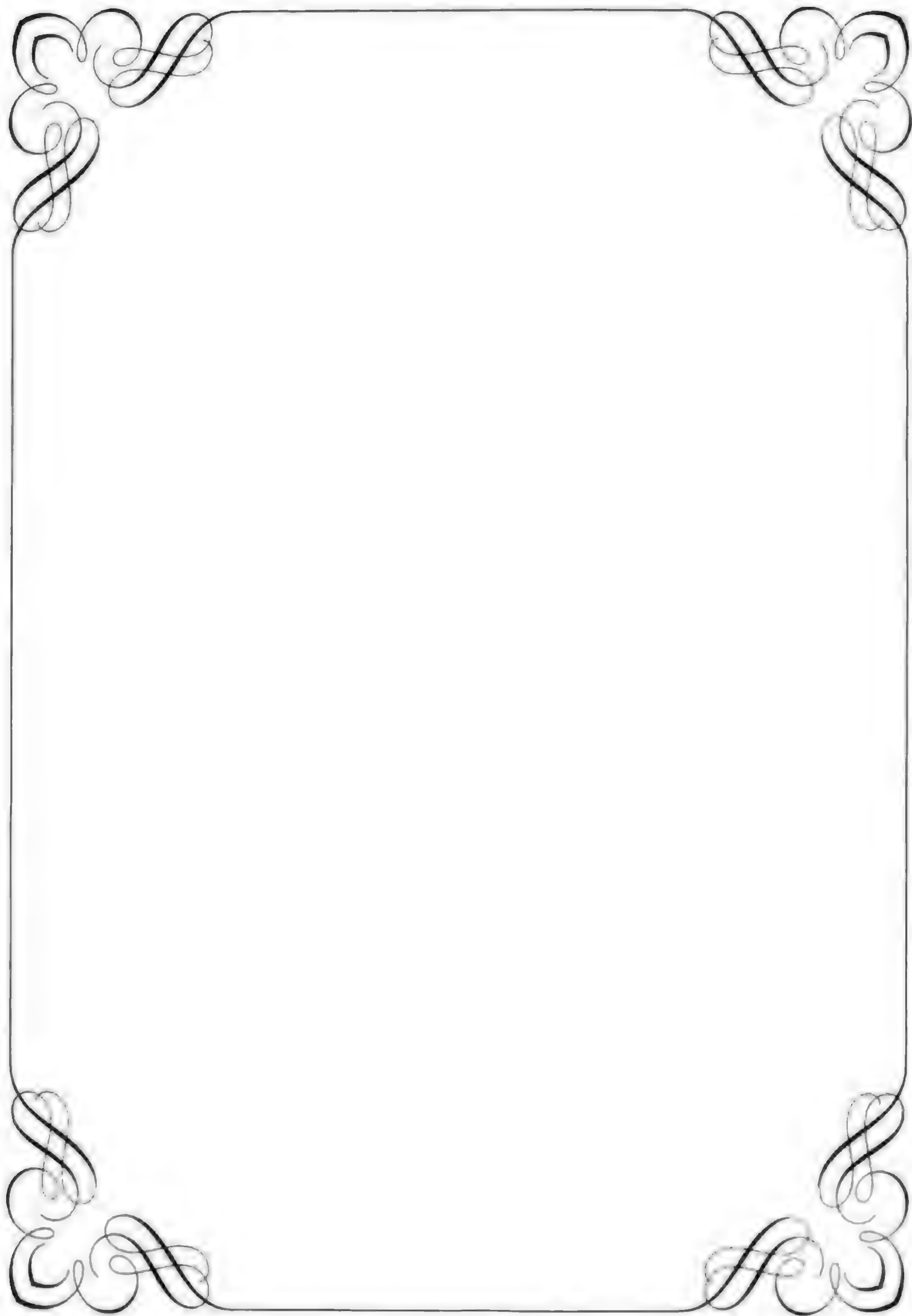
وَمِنْ كُلِّ السَّمَوَاتِ انْطَلَقْنَا
وَكُنْهَ الْحَاكِمِينَ بِهَا عَرَفْنَا
لَقَدْ كَذَبُوا وَإِنْ بَدَلُوا وَعُودَا
وَشَكَّلْ عَالَمًا حُرًّا جَدِيدًا^(٢)

بِأَرْضٍ تَخْتَوِينَا الْيَوْمَ ضِيقْنَا
أَرَاهُمْ سَجْدَةً قَدْ عَلَّمُونَا
عَنِ الْإِفْرَنْجِ فَلَتَكُنِ الْبَعِيدَا
لَكَ النُّظْرَاتُ خُذْهَا عَنْ «مَلِيكَ»



(١) يقول : إن اقتراض حبل الخيمة من أحد حرام .

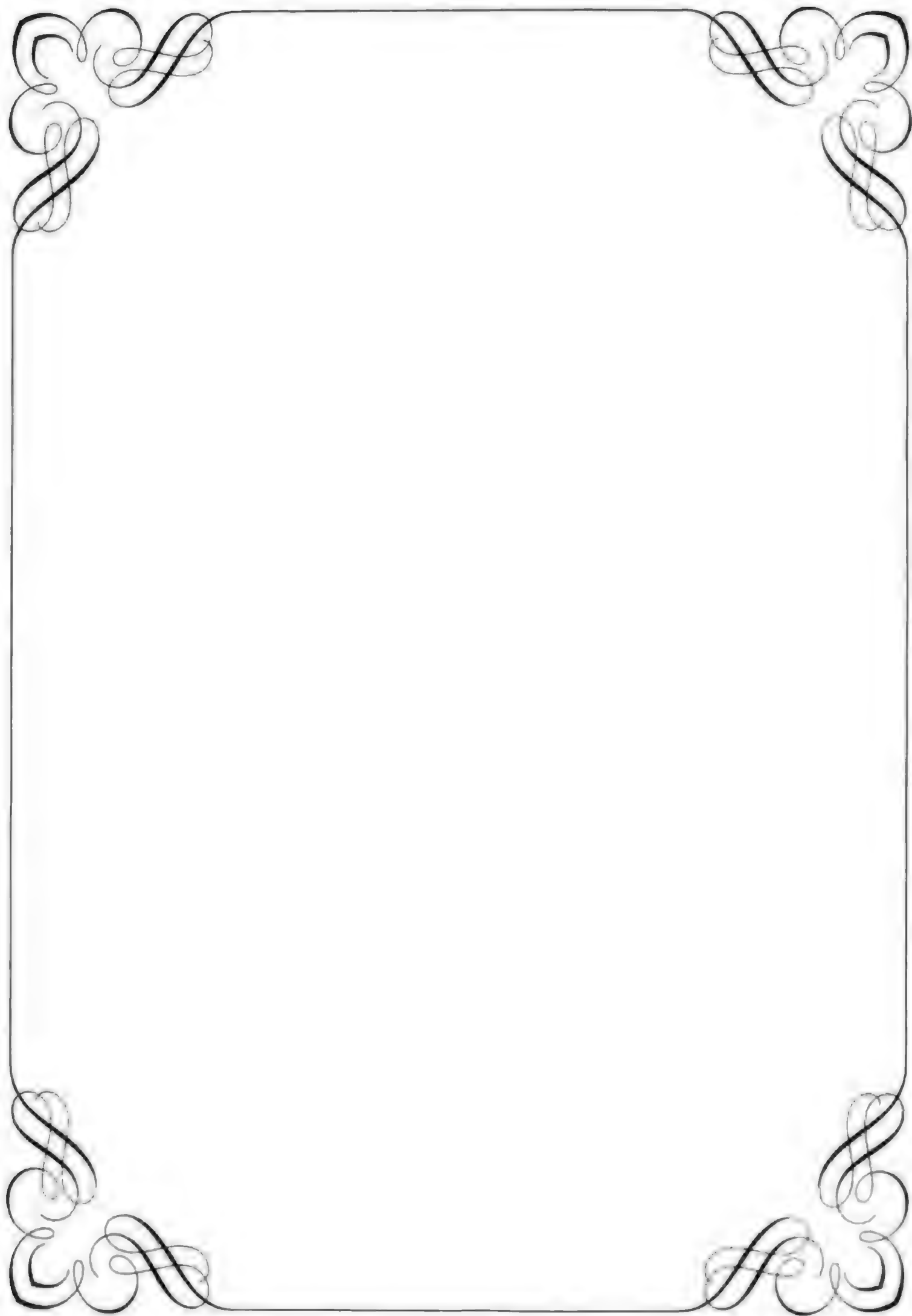
(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .



القسم الثالث

المُختَم





فَطَنِي كَأَن طَبَعَ الْعَاشِقِينَ
لِفَرْطِ الْوَجْدِ أَفَعَمْتُ الْعُيُونَا^(١)
بِأَوْجِ سَمَاكَ حَاوِلُ أَنْ تَزِيدَا
طَرِيقَ الْمُضْطَفَى فَأَسْأَلُكَ رَمِيدَا

عَدِمْتُ أَنَا كَلَامَ الْعَارِفِينَ
يَدْمَعُ مِنْ دَمٍ فِي الرُّوضِ هَذَا
وَدَارُكَ تَشْبَهُ الْقَمَرِ الْجَدِيدَا
سَتَمُّوْا إِن وَهَبْتَ اللَّهُ قَلْبَا

كَمَنْتُ كَجَوْهَرٍ تَحْتَ الصَّفَاةِ^(٢)
أَعْمُرُ بَيْتَ رَبِّي فِي حَيَاتِي

عَلَوْتُ كَمَوْجَةٍ مِنْ بَخْرِ ذَاتِي
وَكُنْتُ غَضَبَهُ النَّمْرُودِ مِنِّي

عَلَى الدَّارَيْنِ هَذَا الذِّلَّ أَسْبِلُ^(٣)
لِمَلَا لَا تَقُلْ « ذَا الدِّينِ فَأَغْقِلْ »^(٤)
قَدَمِي يَخْتَوِي قَلْبِي الْمَذَابَا
لَتَعْرِفَ (لَا تَخَفْ) تُطْرِبُ صَحَابَا^(٥)

بِجَامِكَ سَاقِي الْجُلَاسِ أَقْبِلْ
حَقِيقَتَنَا لَنَا الْخَمِيرُ أَبْدَى
تَعَالَ عَنِ الْجَبِينِ اطْرَحْ نِقَابَا
يَلْحَنُ لَيْسَ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبِ

وَبِالْأَكْثِيرِ تُزِيكُ فَلْتَجِدْ
لِنَفْسِكَ هَذِهِ الْأَقْدَارَ خَدْ

وَمِنْ صَدْرِ لَكَ التَّكْيِيرَ صَعْدُ
وَذَاتِكَ قَامِلِكُنْ تَعِشْ سَعِيدَا

(١) أفعم : ملا .

(٢) الصفاة : الصخرة .

(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .

(٤) الخمير : السكير . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالعشق الإلهي .

(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ والخطاب من

الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

بِتِلْكَ الذَّاتِ شَارَفْتَ الْكَمَالَ
إِذَا مَا قُلْتَ ذَاتِي لِي مَتَاعٌ
وَأَنْتَ الذَّاتُ يَوْمًا إِنْ تُشَاهِدُ
وَتِلْكَ الذَّاتُ إِنْ عَرَّبْتَ عَنْهَا
وَلَا كُنْتَ لِلْعَبْدِ الْمِثْلَالَا
فَنَسِيَانٌ لَهَا لَيْسَ الْحَلَالَا^(١)
تَقَرُّ كَجَوْهَرٍ فِي الْبَحْرِ رَاقِدُ
فَأَنْتَ لِأَجْلِ هَلِكِكَ مَنْ تُجَاهِدُ

كَشَفْتَ السُّرَّ عَنْ وَجْهِ الْمَصَائِرِ
وَمِمَّا قُلْتَ إِنْ أَضْمَرْتَ شَكَا
بِنَهْجِ الْمُصْطَفَى سِرِّ يَا مُسَافِرِ^(٢)
فَمَتَّ يَا مَنْ شَكَّكَ وَأَنْتَ كَافِرُ

لُتْرِكَ فَتَحُوا مَا أَوْصَدُوهُ
تَمَسَّكَ إِنْ ظَفِرْتَ بِذَنبِ ذَاتِ
إِذَا قَوْمٌ رَبِيعُهُمْ تَوَلَّى
وَتُنْبِتُ أَرْضُهُمْ زَهْرًا وَلَكِنْ
وَفِي مِضْرَ أَسَاسٍ وَطَّدُوهُ
بِغَيْرِ الذَّاتِ ذَا لَمْ يَغْهَدُوهُ
فِعْطَرُهُمُ التَّوَهُُّمُ لَيْسَ إِلَّا
تُشَاهِدُ لِلذُّبُولِ عَلَيْهِ ظِلًّا

وَلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ رَبِّي لِشَفِيفِ
وَلَكِنْ لَا يُجِيبُ اللَّهُ شَغَبًا
زِمَامًا يَمْلِكُونَ لِكُلِّ أَمْرِ
بِهِ الْفَلَاحُ يَزْرَعُ كَيْ يُلَبِّي

مِنْ الرَّازِي كِتَابَ اللَّهِ فَافْهَمِ
وَلَكِنْ لِي كَلَامٌ فِيهِ قَانِظَرُ
وَمِنْهُ النُّورُ خُذْ فَالْلَّيْلُ أَظْلَمُ
أَنْخِيَا بِالْفُؤَادِ وَمَا تَضَرَّمُ^(٣) ؟

(١) يوجه الخطاب إلى المسلم .

(٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المغفولات والاعتبارات فعبّر عن الدنيا إلى الآخرة .

(٣) تَضَرَّم : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِذَاتِكَ لَا إِلَهَ فَضُمَّ مَرَّهٗ لِتَخْرُجَ مِنْ تُرَابٍ مَاتَ نَظَرُهُ
وَلَا تَقْبِضُ يَمِينُكَ عَنْ صُيُودٍ لَهُ الْقَمَرَانِ فِي وَهَقٍ بِجُرَّهٗ^(١)

جَهُولٌ ، عِلْمُ هَذَا الْقَلْبِ ، فَأَعْلَمَ طَرِيقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَأَعْلَمَ
تَمَكَّنَ مُؤْمِنٌ مِنْ كَشْفِ سِرِّ بِلَا مَوْجُودٍ إِلَّا اللَّهُ ، فَأَعْلَمَ^(٢)

بِقَلْبِكَ مَا اخْتَفَى هَذَا اللَّهَابُ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا لِلنُّورِ بَابُ
طَرِيقِ الذَّاتِ فَاَنْضَحْهَا بِمَاءِ لِبَحْرِ لَا يَرَى فِيهِ الْعِبَابُ^(٣)

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأُس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأماني . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهب الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصيود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلوح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنا الحق) ذِي مَقَامِ الْكِبَرِيَاءِ أَكَانَ لَهَا الصَّليبُ مِنَ الْجَزَاءِ ؟
فَهَذَا جَائِزٌ فِي رَأْيِ قَرْدِ وَيَبْطُلُ عِنْدَ قَوْمٍ بِالْإِبَاءِ ^(١)

أَلَيْسَتْ قَوْلُهُ لَاقَتْ بِشَغَبِ يَجُودُ دَمًا لِعُضَنِ فِيهِ رَطْبِ
جَلَالٌ فِيهِ قَدْ أَخْفَى جَمَالًا تَجَلَّى فِي سَمَوَاتٍ لِقَلْبِ

وَيُبَيِّنُ الْعَالَمِينَ سَمَا مَقَامَا فَلِلدَّارَيْنِ قَدْ كَانَ الْإِمَامَا
وَلَمْ يَفْسَسْهُ فِي خَلْقِ لُغُوبِ عَلَيْهِ النَّوْمُ يَجْعَلُهُ حَرَامَا ^(٢)
سَعِيرُ الْقَلْبِ تَشْهَدُهُ الْعُيُونُ وَدُنْيَاهُ الْهَشِيمُ وَكَمْ يَهُونُ
يُبَيِّنُ بِهِمَّةٍ مَعْنَى أَنَا الْحَقُّ وَتَأْتِي بَعْدَ كُنْ دَوْمًا يَكُونُ ^(٣)

جَنَاحٌ مِنْهُ يَخْفِقُ فِي الْفَضَاءِ وَيَرْمُقُ عِشَّةً وَالْعُشُّ نَاءِ

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكاثرة من شيوخ المتصوفة الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والضمن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) واصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصبح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِي وَهَقٍ لَهُ الْقَمَرَانِ صَيْدٌ وَطَوْعٌ يَمِينُهُ كُلُّ الرَّجَاءِ^(١)

يُسْنَانِ تَرَاهُ الْمُتَدَلِّيَا وَصَفَرًا كَانَ فِي مَرْجٍ مَهِيَا
أَمِيرٌ فِيهِ قَدْ يَبْدُو فَقِيرًا فَقِيرٌ مِنْ غِنَى نَالَ النَّصِيَا
إِلَيْكَ الْكَأْسُ أَفْعَمُهَا بِخَمَرٍ وَنُورُكَ ضَبٌّ فِي جُحْرِ وَقْضَرٍ
وَنَلٌ مِنْ غُضَنِ مَنْصُورٍ ثَمَارًا وَقَلْبُكَ فِيهِ (إِلَّا اللَّهَ) تَسْرِي^(٢)

الصوفيُّ والمُلاّ

هُوَ الْمَلَأُ ، عَبُوسٌ وَالْكَتَابُ وَقِشْرًا لَا يَمِيزُ مِنْ لُبَابِ
يَبِيتُ اللَّهَ يَطْرُدُنِي لِـدِينِي وَذَلِكَ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْعُجَابِ^(٣)

يَبِيتُ اللَّهَ صَيَّادٌ وَدَيِّرُ وَلِلصُّوفِيِّ لَمْ يَكْ أَيُّ ضَيْرِ^(٤)
عَلَى الْمَلَأِ قَصَصْتُ الْآنَ هَذَا جَوَابًا لَمْ يَجِزْ وَدَعَا بِخَيْرِ !
تَحَدَّثَ وَاعِظٌ لِي عَنْ جَهَنَّمَ وَمِنْهُ كَافِرٌ فِي الْقَوْلِ أَحْزَمُ
غُلَامٌ حَالُهُ مَا إِنْ دَرَاهَا وَقَالَ « جَهَنَّمُ لِسِوَايَ فَاعْلَمْ »

(١) الوهق : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .

(٢) منصور : العلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .

(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويتهمون به بركة الدين .

(٤) يريد الغربي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين وكرامة المسلمين .

مَرِيدٌ كَانَ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ لَشَيْخٍ قَاهٍ بِالقَوْلِ الشَّدِيدِ
« وَجَنَى الرُّزْقِ مَوْتُ ، مِنْ تُرَابٍ تَكُونُ فَوْقَ هَاتِيكَ اللُّحُودِ »

لَشَيْخٍ كَانَ ذَا قَوْلٍ الْعُلَامِ « تَأَمَّلْ وَاسْتَمِعْ لِي بِاهْتِمَامٍ
لِهَذَا الْعَصْرِ نَمْرُودٌ جَدِيدٌ فَمِنْهُ اخْلُقْ خَلِيلاً لِلْأَنَامِ »
لِمَلَأَ أَوْ لِيُصَوِّفِي أَسِيرُ ! وَفِي الْقُرْآنِ لِلْعَيْشِ الْكَثِيرِ
مِنْ الْآيَاتِ مَا أَذْرَكْتَ شَيْئاً وَمِنْ ﴿ يَاسِينَ ﴾ يُغَيِّتُكَ الْحَفِيرُ ^(١) !

لَكَ الْقُرْآنُ كَالْمِيزَانِ فَانْصُبْ وَنَفْسَكَ دَعْ إِذَا غُيِّرَتْ وَاهْرُبْ
لِمَا قَدَّمْتَ مِيزَاناً لِتُضَنِّعَ وَفِي الْمَاضِي قِيَامَاتٍ لِيَتَطَلَّبْ

عَلَى الصُّوفِيِّ وَالْمَلَأَ سَلَامِي كَلَامُ اللَّهِ قَالَا بِالتَّامِّ
وَلَكِنْ أَوَّلًا مَّا أَوْلَاهُ فَخَارَ الرُّوحُ بِلِ خَيْرِ الْأَنَامِ ^(٢) !

جَلَالُ الدِّينِ الرَّومِيَّ

تَرَشَّفْ يَا نَدِيمَ الرُّوحِ خَمْرًا لَهَا كَأْسٌ تُسَاوِي مُلْكَ كِسْرَى

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس لحيوا حياة حرة كريمة وتهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة ﴿ يس ﴾ فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وَلِلرُّومِ يَّ أَشْعَارُ رِقَاقُ قُلُودٍ بِحِمَى فُؤَادِكَ حِينَ تَقْرَأُ

وَفِي كَاسَاتِهَا لَوْنٌ نَوْرَدُ بِوِ الْيَاقُوتِ يُصْبِحُ كُلُّ جَلْمَدٍ^(١)
وَقَلْبُ الْأَسَدِ تَمْنَحُهُ غَزَالًا وَمِنْهَا الْوَسْمُ عَنْ نَمِرٍ تَبَدَّدُ

وَفِيهَا سَوْرَةٌ مِنْهَا نَصِيبِي دُجَايَ سَنَا يَكُوكِبُهَا الْعَجِيبُ^(٢)
فَشَاهِدْ فِي الْحِمَى إِنْ ثَبَتَ ظَنِّي بَدَا فِي بَسْمَةِ الْأَسَدِ الْغُصُوبُ^(٣)
حَبِيبٌ حُبُّهُ كَانَ اخْتِرَاقِي وَمِنْهُ الْوَضْلُ يَنْطِقُ عَنْ فِرَاقِي
جَمَالُ الْعَفَقِ مِنْ نَائِي لَدَيْهِ تَزَيْنَ مِنْ عِلَاءٍ بِائِتِلَاقِي

وَلِي عُقْدِي ، فَحَلَّ بِمَا يَشَاءُ عُبَارٌ فِي طَرِيقِي الْكِيمِيَاءُ^(٤)
وَأَسْمَعَنِي لَهُ أَنْفَامَ نَائِي فَفِي سُكْرِي وَفِي عَشْقِي رَجَاءُ

وَهَا قَدْ فَتَحُوا بَاباً لِقَلْبِي كَمَا خَلَقُوا لَهُمْ دُنْيَا يُتْرَبِي^(٥)
وَمِنْ قَبْضٍ لَهُ نِلَتْ اعْتِبَاراً فِي مَا حَقَّقُوا مِنْ صُنْعِ شُهْبِ
نُجُومِ الْأَفَقِ جَالِسٌ بِالْخَيَالِ وَرَاءَ الْبَذْرِ يَنْظُرُ فِي مَجَالِ
فَقَدَّمَ قَلْبَهُ الضَّاوِي إِلَيْهِ لَهُ الْأَنْفَاسُ تَخْفِقُ فِي انْتِصَالِ^(٦)

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .

(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .

(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .

(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .

(٥) الترب : التراب .

(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَنِ الرُّومِيِّ خُذْ سِرَّ الْفَقِيرِ يُسِرُّ بِفَقْرِهِ خَذُ الْأَمِيرِ
وَفَقْرُ ذَاكَ لَكِنْ مِنْهُ فَاخْذَرْ مَقَاماً نَلَتْ يُدْنِي مِنْ حَفِيرِ^(١)

وَعَنْ ذَاتِ إِلَهِي وَهُوَ نَاءٌ تُمَدُّ الْكَفُّ فِي طَلَبِ الْعَطَاءِ
وَلِلرُّومِيِّ عَيْنٌ حَقَّقَتْ لِي سُرُوراً مِنْ مَقَامِ الْكِبَرِيَاءِ
رَجِيئٌ طَابَ مِنْ كَرَمِي تَدْفُقُ وَيَسْعَدُ مَنْ بِذِيْلِي قَدْ تَعَلَّقُ^(٢)
نَصِيْبِي كَانَ مِنْ لَهَبٍ قَدِيمَا سَنَائِي نَالَ وَالرُّومِي يُحْرِقُ

إلى مصر رسالة الفاروق^(١) (رضي الله عنه)

رِيَّاحُ الْيَدِ وَافِيْنِي وَسِيرِي عُبَابُ النَّيْلِ فِي خَفَقِ أَثِيرِي^(٣)
وَأَدَّى الْقَوْلَ عَنْ عُمَرٍ فَقُولِي « كُنِ السُّلْطَانُ يُعْرِفُ بِالْفَقِيرِ »

وَمَا تِلْكَ الْجِلَافَةُ غَيْرَ فَقْرٍ لَهُ تَاجٌ ، فَكَانَ دَوَامُ أَمْرِ
تَمَسَّكَ يَا فَتَى دَوماً بِفَقْرٍ بِغَيْرِ الْفَقْرِ مُلْكُكَ عِنْدَ قَبْرِ

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سر بز يرى) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ،
والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكأنه يريد ليقلول : أن تلقي
الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيق : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْمًا مِّنْ يُشَاهِدُ يُقِمُّ فِي الْغَدِ لِلدُّنْيَا الْقَوَاعِدُ
وَهَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخُلُوتِهِ بِذَاتٍ ، وَهُوَ قَاعِدُ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابْغِ بَابًا وَخُذْ مِنْ شَيْخِ حَانَاتِ شَرَابَا
إِلَى الْحَاجَاتِ فَلَتَسْلُكُ سَبِيلًا لَتَطْرُخَ مَظْهَرًا وَاطْهَرُ لِبَابَا

وَتَسْعُدُ أُمَّةٌ لِلذَّاتِ عَادَتْ وَفِي عَمَلٍ وَفِي نَصَبٍ تِمَادَتْ^(١)
سَيَلِمُغُ نَوْرُهَا فِي الْأَفْقِ شَرْقًا إِذَا بَسِيوْفُهَا ضَرْبًا أَرَادَتْ

وَمَلَأْخُ مِنَ الْأَتْرَاكِ طَرَّبَ بِذَوْبِ الْوَرْدِ مِنْهُ الْخَدُّ رَطَبُ^(٢)
إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ فِي الْبَحْرِ سِيرًا فَلِي الطُّوفَانُ أَقْهَرُهُ وَأَرْكَبُ
بِمَلِكِ الْأَرْضِ قَدْ مَزَجُوا ثَرَانَا بِآيَاتِ الْإِمَامَةِ هَلْ تَرَانَا^(٣)
لِنَادِينَا بَعْمَقِ الذَّاتِ شَاهِدُ بِهَذَا الْقَلْبِ حَبًّا مِنْ ذُرَانَا^(٤) ؟

وَأَسْرَارَ الْيَقِينِ إِذْ عُرِفَتَا عَنِ الْاِثْنَيْنِ عَيْنِكَ هَلْ كَفَفَتَا
لِمَصْبَاحَيْنِ نَوْرٌ لَيْسَ إِلَّا بغيرِ الدِّينِ مُلْكًا هَلْ أَلْفَتَا

(١) النصب : الإعياء .

(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :

(لو اكثرث هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لوهبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .

(٣) الآيات : العلامات .

(٤) ذرى الحب : ثمره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عرّضتَ ذاكَ لاختبارٍ خلقتُ لكَ السماءَ من الغبارِ
شرارُ الشوقِ طَيُّ القلبِ منه تُضيءُ الشمسُ في وضحِ النهارِ^(١)

شعراء العرب

وقلُّ للشاعرِ العربيِّ عَنِّي لياقوتِ الشفاهِ البَخسِ مُني^(٢)
قبستُ النورَ بالقرآنِ حتَّى جعلتُ الليلَ لي فجراً يَغْنِي

وفي الأرواحِ قد أذكيّتَ جمرًا ترابي ما يراهُ الناسُ قصراً^(٣)
غديرٌ ساكنٌ حركتَ فيه عباباً ، ثارَ في النكباءِ بَحْراً^(٤)

أترسمُ صورةً ؟ لا يا غريزَ لتعملَ ما يحبُّذه الضميرُ^(٥)
وروضتُنا خفقتَ بها جناحاً حنيفاً خُصَّ بالقَبَسِ المنيرِ^(٦)
تُرَابٌ نحنُ ذو قلبٍ كئيبِ وطَلٌّ ظلٌّ في الغصنِ الرطيبِ
وهذا النبعُ فجَّره بِسِحْرِ جوانحُ مسلمِ حرمِ القليبِ^(٧)

(١) الخطاب إلى المسلم .

(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاه ولا شبيهها بالياقوت .

(٣) أذكى النار : أضرمها .

(٤) النكباء : الريح بين الريحين .

(٥) الغريز : الناقص التجربة .

(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .

(٧) القليب : البئر . والمقصود بها بئر زمزم .

خَفِيفٌ شَبَهُ رَبِّي فِي الصِّفَاتِ وَيَحْوِي قَلْبُهُ أَسْرَارَ ذَاتِ
بَنُورِ اللَّهِ تَشْهَدُ فِيهِ حَسَنًا لَهُ أَصْلٌ بِقَلْبِ الْكَائِنَاتِ

لَتَمْنَحَ ذَاتَهُ نُورًا وَنَارًا لِيَصْبَحَ لَيْلُهُ الدَّاجِي نَهَارًا
وَذَاكَ اللَّحْنُ فَلَتَعَزِفَ بِفِيضٍ فَذَلِكَ ذَوْقُ تَبْدِيلِ أَثَارَا
لَغَيْرِكَ يَنْبَغِي لِلْقَلْبِ حَرْقُ وَمِثْلُ خَفَوقِ قَلْبٍ سِوَاكَ خَفَقُ
وَذَاتُ أَنْتَ تَنْكَرُهَا لَشَعْبٍ « وَنَحْنُ الشَّعْبُ » قَوْلُ مَنْكَ حَقُّ

وَلِلْأَرْوَاحِ أَسْرَارٌ دَرَاهَا بَعَيْنِ الذَّاتِ مِنْ دَنِيَا رَاهَا
لَتَعَزِفَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ لَحْنًا حَيَاةً مِنْ ذَبُولٍ قَدْ بَرَاهَا

لَتَحْفَظَ مَا بِصِلْصَالٍ لَدَيْكَ فَكَمْ مِنْ نَشْوَةٍ حَامَتْ عَلَيْكَ
لَهَذَا أَوْ لَذَاكَ الدَّنُّ خَلُوءُ وَقَلْبُكَ قَدَّمَ الصَّهْبَا إِلَيْكَ^(١)
وَهَذَا اللَّيْلُ يَوْجِشُنَا بِفَذَقْدُ فَأَيْنَ الْمَاءُ وَالشَّحْرُورُ غَرْدُ^(٢)
وَلَيْسَ يَضِيءُ رَهْبَانٌ سِرَاجًا فَشَمْسُ الصَّبْحِ حَتْمًا سَوْفَ تَشْهَدُ

وَفِي سِيْمَاكَ ذِي نَظَرًا فَكَّرُزْ وَفِيمَا تُخَيِّئُ الْإِيَامُ فَكَّرْ
وَسِرُّ مِثْلِي بِصَحْرَاءِ الْحَمَى سِرْ لِأَنَّكَ عَمَقَ ذَاتِكَ قَدْ تُقَدِّرْ

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .

(٢) الفدقد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التغريد .

يا بن الصحراء

تنيرُ اليدَ بالفجرِ الجميلِ وَيَصْدَحُ طائرٌ بينَ النخيلِ^(١)
« خيامُكَ يا فتى الصحراءِ دغها أَيْمَكُنْ أَنْ تَعِيشَ بِلَا رَحِيلِ ؟ »

وَلِلرُّكْبَانِ مِنْ عَرَبٍ دَلِيلُ فَمَحْنَةُ رَبِّهِمْ فَقْرٌ طَوِيلُ^(٢)
وَهَذَا الْفَقْرُ إِنْ أَمْسَى غَيُورًا تَرْجَفُ كَوْنَنَا وَهُوَ الذَّلِيلُ

شَهِدْنَا الصَّبْحَ فِي لَيْلٍ مِينَا تَجَلَّثَ فِيهِ أَنْوَارٌ لِسِينَا^(٣)
صَحَحْنَا مِنْ رِيَّاحِ الْيَدِ رُوحًا فَمِنْهَا الْقَوْمُ كَانُوا الْقَادِمِينَ

وما يدريك أنَّ المغوارَ في هذا الغبارِ

رِضَاكَ وَذَلِكَ التَّسْلِيمُ مَذْهَبُ وَعَنْ نَهْجٍ لَصَدَقِ أَيْنَ تَذْهَبُ
وَشِعْرِي لَا تَفْشُرُ بِاجْتِهَادِ جَنُونِي فِي حِجَايَ لَدَيْكَ مَكْتَبُ^(٤)

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (١) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿ ويقول الشاعر : إن الأمم ظهرت من سينا .

(٤) الحجى : العقل . المكتب : المدرسة .

وهذا المرجُ أَفْقَرُ مِنْ جَنُونِي وأصبح كالغريبِ بلا خَدِينِ
وفي بلدٍ أصبحُ ومن صياحي

ربيعي منبتٌ في الفجرِ زَهْرِي وإني مُخْرِقُ زَهْرِي بِجَمْرِي
أنحسبُ أنِّي أَبْقَى وَجِيداً وزَهْرِي لِسَ يَدْخُلُ تَحْتَ حَضْرِي
أتركِني المشَّتُ كالغبارِ على النسماتِ مَسْلُوبِ القَرَارِ
فطوبى لي ويَا بُشْرَى قُوَادِي فَمِنِّي فَارِسٌ يَبْدُو بِغَارِ^(١)

يسودُ القومَ في زمنٍ يَضِيرُ ويظهرُ فيهمُ البطلُ الشَهِيرُ^(٢)
لديه السرُّ من أسرارِ غيبِ أَكُلُ ثَرِي بِه بطلُ جَسُورُ

خَفَقْتُ كموجةٍ في موجِ ذاتِي إلى الطوفانِ أَذْتُ سَافِيَاتِي^(٣)
وَمَا شَاهَدْتُ لوناً مِثْلَ هَذَا وإِلَّا مِنْ دِمِي رُسْمَتُ ثِيَابِي^(٤)
دِنَانُ الخمرِ بالنظراتِ أَفْعِمُ وَرَاحَ مِنِّي بهَذَا الكرمِ أَفْجِمُ
ومن طوفانِهِ أَمْسَى غَدِيرُ صَغِيرُ مِنْ بحارِ البحرِ أَعْظِمُ

زِمَامَ الركبِ يوماً إِنْ تَسَلَّمَ فَقَدْ كَشَفَ الخفا عَنْ كُلِّ مِبْهَمِ
وأظهرَ مِنْ بأفلاكِ جِهَاراً سَمَوَاتٍ بِهَا مَا كَانَ يَهْتَمُ

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المتصو من ورق الكرم .

(٢) يضير : يؤذي .

(٣) السافيات : الرياح .

(٤) الدمى : الصور والتماثيل . الشيات : الألوان .

وَزُفَّ لِهَذِهِ الرُّوحِ التَّهَانِي
الْبُودُ بِحُضْنِهَا أَمَّا رُؤُومًا
يَقُولُ الصَّدْرُ فِي قَلْبِي حَيْبُ
وَعِنْدَ الْمَوْتِ فِي سَمْعِي يَدْوِي

الْمُ تَلِدِ الْأَمِيرَ رَفِيعَ شَانٍ
وَأُخْجَلُ مِنْهُ حُورًا فِي الْجَنَانِ
مَغِيرُ جَاءَ هِيَءَ مَا يَصِيبُ
« بِسَقْطَةِ زَهْرَةٍ ثَمَرٌ يَطِيبُ »

الْخِلَافَةُ وَالْمُلْكُ

بَنُورٍ لِلنَّبِيِّ الْقَلْبُ أَضْرَمَ
وَلَكِنَّ الْخِلَافَةَ وَسَطَ تِيهِ

أَنَارَ بِشَرْقِهِ مَا كَانَ أَظْلَمَ^(١)
فَهَذَا الْمُؤْمِنِينَ الْمَلِكُ عَلَّمَ^(٢)

وَنَشْهَدُ أَنَّنَا نَسْمُو مَقَامًا
خِدَاعُ كُلِّهِ ، بَلْ كُلُّ مَكْرٍ

وَهَذَا الْمَلِكُ قَدْ كَانَ الْحَرَامًا^(٣)
وَتَرَعَى عَهْدَ رَبِّي وَالذُّمَامَا^(٤)

نِزَاعٌ فِيهِ مَلِكٌ وَالْكَلِيمُ
هِيَ الْأَقْدَارُ تَجْرِي كَيْفَ شَاءَتْ
هُوَ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَلَامُ
لِفَقْرٍ عَظِيمٍ قَوْمٍ كُنْتُ عَبْدًا

وَمَنْ أَكْدَى وَأَعْوَزُهُ كَلِيمُ^(٥)
فَعَصْفُ الرِّيحِ مَا وَهَبَ النِّسِيمُ !
وَلَيْسَ لِمَا يَزَاوُلُهُ تَقَامُ
لَدِيهِ الْمَلِكُ فِي دِينٍ حَرَامُ

(١) يقصد العربي .

(٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .

(٣) الخلافة هي التي تشهد .

(٤) الذمام : الحزمة والحق .

(٥) أكدي : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بَنَظَرَتِهِ الْمَحَبَّةُ مَا يَدُومُ وَمِنْهُ الْكُرُّ تَقْدِيرًا يَرُومُ
وَهَذِي «عَبْدُهُ» كَانَتْ مَقَامًا بِرَيْبٍ لِأَشْوَاقٍ يَقُومُ^(١)

التركي العثماني

بِمَلِكٍ وَاسِعٍ أَضْحَى أَمِيرًا بِقَلْبٍ قَدْ وَعَى أَمْسَى بِصِيرًا
يَظُلُّ مِنَ الْفَرَنْجَةِ فِي قِيودٍ لِسَحْرِ طَلَّسِمِهِمْ بَقِيَ الْأَسِيرَا

لَمَنْ قَدْ أَبْطَلُوا ذَا السَّحَرِ طَوْبَى وَمَا شَغَلُوا بِعَهْدِهِمْ قُلُوبًا^(٢)
بِذَاتِكَ فَاعْتَرَفَ وَالْيَأْسَ جَانِبٌ تَحْدَى قَبْلَهُمْ قَوْمٌ خَطُوبَا

بِهِمْ قَدْ حَقَّقَ التَّرْكُ الرِّغَائِبَ وَنَالُوا بِغَنَّةٍ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ
أَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ عَيْنًا بِصِيرٍ ! لَقَدْ كَشَفَ الْمَصِيرَ لَهُ الْأَجَانِبِ

(١) تردد ذكر «عبده» في ديوان «رسالة الخلود» لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان «الحلاج» :

عَفَرَ الْعَالَمَ خِذَا عِنْدَهُ	نَفْسُهُ سَمَى النَّبِيِّ عِنْدَهُ
عَبْدُهُ فَهِيَ لَدَيْكَ تَبْهَرُ	إِنَّهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ الْجَوْهَرُ
عَبْدُهُ قَدْ شَكَلَتْ هَذَا الْقَدْرُ	بِالْفِيَاثِي الْخَصْبِ مِنْهَا قَدْ ظَهَرَ
غَيْرَ عَبْدٍ عِنْدَهُ فَلْتَعْتَبِرْ	عَبْدُهُ فِيهَا اتَّظَارُ الْعَتَقَرِ
عَبْدُهُ كَنَّهُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ	عَبْدُهُ فِيهَا مَعَانِ مَغْلَقَاتِ

(ص ٢٠١-٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاة المجتمع

فتاتي دعك من هذا التجمل^(١) من الكفار تزيين أجمل^(٢)؟
وصدّي القلب عن توريد خدّ فإن الفزوة من عين التأمل^(٣)

لك النظرات من ربي حسام لروح من جراحات قوام^(٣)
ومنها يتمد القلب شياً فماء للحياء هو المرام

ضميرُ العصر ليس له نقاب على حسن تفتح منه باب
بنور الله دنيّا فلتنيري عليه في تجليه الحجاب
ويصلح عيشنا بالأمهات أمين قلبهنّ لممكّنات
وهذا إن يغب عن فكر قوم فليس لأيّ أمر من ثبات

أصبتنا العقل من ذاك الجنون بنظرة هذه الأم الحنون
وما في مكتب عين وقلب وهل من مكتب غير الفنون

ويسعد من رأوا بالواردات قيامات بتلك الكائنات^(٤)

(١) يجمل : يحسن .

(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .

(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .

(٤) الواردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكير ولا تدبير .

وما قد فات أو ما سوف يأتي لهم أبدى جبين الأمهات
ونُصحي فاجعليه ملء أذنك ليفنى الناس طراً قبل دُفْنك^(١)
عن العصرِ اختفى ، كوني بتولاً ليبقى شبرٌ في دفء حضنك^(٢)

ومن ليل لنا فجرأ أنيري إلى القرآن عودي بالبصير^(٣)
(قرأت) وتعلمين لها أواز بها عمرٌ تغير في كثير^(٤)

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منه للدين الشكاهُ وحرّاًئه وأد الطغاهُ
وَجُوةٌ فيه للإنسانِ شاهتُ وأفسدَ نقشه حتى الهواه^(٥)

ونظرتُه بها تصويرٌ كفرٍ وليسَ كمالُ فنٍ غيرَ جمرٍ

(١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن ألف أمة تموت وأنت لا تموتين .

(٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

(٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .

(٤) يلمح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدتهما يقرأان سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ثم أسلم .

(٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

وَمَنْ تُجَارِهِ فِي السُّوقِ فَاحْذَرْ فِهَذَا مَيَّسَّرٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ

شَبَابُ الْقَوْمِ هَذَا الْعَصْرُ أَفْسَدُ لِإِبْلِيسَ دُجَاهُ الصُّبْحِ فَاشْهَدْ
لَهُ الْأَذْيَالُ تَطْوِينًا كَنَارٍ فَكُلُّ شُعَاعٍ نَوْرٍ فِيهِ يُخَمِّدُ
جَمَعْنَا بَيْنَ سُلْطَانٍ وَقَفَرٍ وَمَا يَغْنِي وَمَا يَبْقَى لِدَهْرٍ
عِيَاذًا مِنْهُ بِالْبَارِي عِيَاذًا دَمُ الشَّيْطَانِ فِي السُّلْطَانِ يَجْرِي

أَرْقَصُ ذَاكَ ؟ إِنْ لَسْتُ أَدْرِ أَنْشَوْتُ فَرْحَةً أَمْ سَكْرُ خَمِرٍ
لِتَقْلِيدِ الْفَرَنْجَةِ كَانَ رَقَصُ وَلَيْسَ دَمًا بِعَرِيقِكَ وَهُوَ يَجْرِي

الْبَرْهَمِيَّ

فَتَحْتُ لِفِتْنَةٍ بَابًا وَبَابًا مَشِيتُ ، سَقَطْتُ ، لَاقَيْتُ الصَّعَابَا
دُمِّي لِلْبَرْهَمِيِّ تَزِينُ طَاقًا بِرَأْسِ الطَّاقِ عُلِقْتُ الْكِتَابَا؟^(١)

أَفِي عَمَلٍ وَنَى ؟ لَا بَلْ أَطَالَ لَهُ الْأَحْجَارُ يَكْسُوهَا الصَّقَالَا^(٢)
بِقُوَّةِ سَاعِدَيْهِ بَرَى إِلَهًا صَلَوَدَ الصَّخْرِ قَدْ يَزُنُ الْجِبَالَا^(٣)

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .

(٢) ونى : أبطأ .

(٣) برأ : خلق .

ويحفظُ بزهمي كُلَّ أمرٍ ولا يفضي إلى أحدٍ سرٍّ
وهذي سبعةٌ قالَ أطرحها بزُنارٍ على كتفيه بجري^(١)
وقالَ لتبتعدُ عن بابٍ غيرِ فمن أهلٍ لنا نحطى بخيرِ
وما تسعُ المساجدُ غيرَ مُلَّا ومن سحرِ الدُّمى كأننا بدَّيرِ

التعليم

يدومُ لقلبنا هذا اللهبُ كنوطٌ ، والحياةُ هي النجيبُ^(٢)
فعلُّهم ذاكَ أبناءَ فعلُّهم لأنَّ كتابهم سحرٌ يخيبُ

ومن علمٍ بقلبٍ ليس حرقاً تأملُ متوقٍ خيرٌ وأبقى
وأضقى من عيونِ الصقرِ قلبٌ هو المزورُّ عن دارنه حقاً^(٣)

إلهي مؤمناً لا ربَّ يسألُو من الروحِ الرقيقةِ وهو يخلُو
لذا عن مكتبِ الخلانِ أمضى فما صادفتُ من بالذاتِ يغلو^(٤)
ألا يا حَبذا هذا الضريُّ إذا ما أخطأَ النَّظرُ البصيرُ
أفضَّلُ جاهلاً ورعاً تقياً بعلمٍ ليس يخدعني الكفورُ

(١) أطرحها : ألقيها . الزنار : ما يشد به النصراني وسطه .

(٢) النجيب : الفرس الكريم .

(٣) ازورُّ : مال وحاد .

(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم
النشء .

أُجِدِي الْفِكْرُ فِي أَوْجِ السَّمَاءِ
كَأَنَّ الرِّيحَ تَزْجِيهِ سَحَابًا

يَحُومُ عَلَى النُّجُومِ بِلاَ انْتِهَاءِ
فَتَاةٌ مَمْرُقًا وَسَطَ الْفَضَاءِ^(١)

عَلِيمٌ زَانَهُ أَدَبٌ وَجَاهِلٌ
وَمَا أَحَبُّتُ إِنْسَانًا عَلِيمًا
لَمَّاذَا الْيَأْسُ مِنْ طِفْلِ صَغِيرٍ
وَلَكِنْ مَنْ يَعْلُمُهُ لَسَّالٌ

كَرِيمٌ مِنْهُ مَنْ يَحْظَى بِحَاصِلِ^(٢)
وَمِنْ أَدَبٍ نَصِيبٌ غَيْرُ كَامِلٍ
إِذَا مَا شِئْتَ فَانْعَثْ بِالْفَرِيرِ
أِلَّا طِفَالَ قَلْبٍ فِي الصُّدُورِ ؟

صَغِيرَكَ لَقِّنَ الدِّينَ عِلْمًا
وَلَوْ قَدَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَضْلًا

لِيَشْرِقَ سَعْدُهُ بِدَرًا وَنَجْمًا
لَزَيْنَ بِالْيَدِ الْبَيْضَاءِ كُمًّا^(٣)

غَنَاءٌ مِنْ بَلَائِلِ مَا أَصَابَا
يَعْلَمُ لَيْتَ شِغْرِي أَيُّ فُخْرٍ
إِلَهِي حَيٍّ لِلدَّرْوِيشِ ذِكْرِي
وَيَنْصَحُ طِفْلُنَا نَصْحًا حَكِيمًا

أَوَارُ بِالْوُرُودِ لَدَيْهِ طَابَا^(٤)
فَعَنْ رُوحٍ لِأَجْلِ الْخَيْرِ غَابَا
يَفْتَحُ قَلْبُنَا عِطْرًا وَزَهْرًا
« لَخَيْرِكَ لَا تَذِلَّ النَّفْسَ أَسْرًا »

و « إِنْ شَاءَ اللَّهُ » مَنْ دَوْمًا تَذَكَّرَ

مَنْ الْمَلَأَ وَمِنْ دَرَسٍ تَحَرَّرَ^(٥)

(١) تزجيته : تدفعه .

(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾
وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .

(٤) الأوار : لهيب النار .

(٥) في الأصل (لا إله) .

بِهَذَا الْعِلْمِ لَا تَبْطُطُ جَنَاحَا بِهِ الْإِنْسَانُ فِي عَجَزٍ تَحْيِرُ^(١)

وَأِنْ لَصُرُّ عَلَى رَكَبٍ أَغَارَا أَسْأَلُ كَيْفَ أَوْزَدَهُمْ بَوَارَا^(٢)
فَلَا تَأْمَنُ إِذَا حَصَلَتْ عِلْمَا فَمِنْهُ الرُّوحُ يُمْكِنُ أَنْ تُضَارَا^(٣)
فَتَى رَاقَتْ فَصَاحَتَهُ وَسِيمُ وَنَظَرَتْهُ كَلِيبٌ لَا تُقِيمُ^(٤)
وَفِي دَرَسٍ تَلَقَّنَ عِلْمَ شَاةٍ وَمَا إِنْ يَسَّرَ الْوَرَقَ الْجَمِيمُ^(٥)

وَسَقَبَ أَيُّ شَيْءٍ مَا دَرَاهُ إِلَهِي قَالَ إِنِّي لَا أَرَاهُ^(٦)
فَقَالَ أَبَوْهُ قَدْ يُمْنَى بَعِيرُ بَعَثَرْتَهُ لِيُشْهَدَ مَنْ بَرَاهُ^(٧)

السَّقْيُ فِي الرِّزْقِ

أَمِنْ سَطَحٍ إِلَى سَطَحٍ تَطِيرُ بِهَذَا مَا سَمَتْ قَطُّ الصَّقُورُ
إِذَا مَا كَانَ صَيْدُكَ بَغْضَ رِيَشٍ فَخَيْرٌ مِنْهُ مَوْتُ فِي الْوُكُورِ^(٨)

(١) فِي الْأَصْلِ : هَذَا الْعِلْمُ يَسْلُبُنَا عَيْنَنَا وَقَلْبَنَا وَبَدَنًا .

(٢) الْبَوَارُ : الْهَلَاكُ .

(٣) تَضَارُ : تَصَابُ بِالضَّرَرِ وَالْأَذَى .

(٤) يَشْبُهُ نَظَرَتْهُ فِي دَوَامِ حَرَكَتِهَا بِأَسَدٍ جَوَالٍ لَا عَرِينَ لَهُ .

(٥) الْجَمِيمُ : النَّبَاتُ .

(٦) السَّقَبُ : وَلَدُ النَّاقَةِ .

(٧) يُمْنَى : يَيْتَلَى . بَرَاهُ : خَلَقَهُ .

(٨) الصَّيْدُ : الْفَرِيصَةُ . الْوُكُورُ وَالْأَوْكَارُ : جَمْعُ وَكَرٍ وَهُوَ الْعُشُ .

لذاتك نظرة في كل أمرٍ لنا من نظرة سوطٍ لنجري
وما نسعى وراء الذكر إلا لكي نغلو ونغلو مثل طير

التمساح وصغيره

وللتمساح هَذَا الكلامُ لزومُ الشطِّ في ديني حرامُ
عَنِ الشَّطِّ أَبْعَدُ مَوْجاً تَسْلُقُ فَعِشْ بِحَرَنَا وَبِهِ نَنَامُ

وَهَذَا الْبَحْرُ فِي صَدْرِ حَمَلَتِهِ وَذَا الطُّوفَانُ فِي حَرْبِ عَلْبَتِهِ^(١)
وَلَوْ فِي بُرْهَةِ أَغْيَا وَأَغْفَى لَكَانَ مُقَاتِلًا مَا إِنْ قَتَلْتَهُ

خاتمة

عَنِ السَّاقِي وَعَنْ كَأْسِ الْمَدَامِ سَكْتُ وَكَانَ عَنْ عِشْقٍ كَلَامِي
مِنَ الْأَخْيَارِ فِي قَوْمٍ حَدِيثاً سَمِعْتُ لِكَيْ أُنْلِغَ بِالنُّمَامِ

بِقَلْبِكَ أُمِسَّكَنْ وَعِذْ لِنَفْسِكَ وَصَدْرُكَ فَلْيَكُنْ دَاراً لِحُبِّكَ
لِتَسْقِ الْحَقْلَ دَمْعاً مِنْ دِمَاءِ نَثَرْتَ الْحَبَّ فَلتَعْمَلْ بِفَأْسِكَ

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بِقَلْبٍ حَوْلَ هَذَا الْبَيْتِ طَفْنَا وَمَا كَمْطُوفٍ بِالْبَابِ كُنَّا^(١)
وَيَكْمُنُ بَيْنَنَا سِرٌّ عَجِيبٌ وَهَذَا الرَّمْزُ عَنْ جِبْرِيلَ عَنَّا^(٢)

العالمُ الإنسانيُّ^(٣)

كَانَ حُبُّ الْخَيْرِ لِلْمَرْءِ احْتِرَامًا كَيْفَ تَنَسَّى أَنَّهُ يَسْمُو مَقَامًا
جاويدنامة^(٤)

تمهيد

عَلَيْنَا فَلْتُدِرْ كَأْسَ الشُّمُولِ وَنَضْرُ لِي رَيْعًا فِي ذُبُولِ^(٥)
وَأَنْفَاسًا مِنَ الْأَنْفَامِ هَبْنِي أَضْرِّمْ نَارَ نَائِي بِالْأَلِيلِ^(٦)

بَقِيتَ بِخُلُوءٍ فَلَتَاتِ مَرَّةً وَصَدْرُكَ فِي الصَّبَا فَتَحْ بِخَطَرِهِ

(١) طوف : طاف .

(٢) عن عنه : بعد .

(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .

(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامة » لمحمد إقبال الذي ترجمه الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .

(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .

(٦) الأليل : الأنين .

مَقَامَ الرِّيحِ وَالْأَلْوَانِ دَوَى فَرْدٌ فِيهِ لِهَذَا الطَّيْرِ ثَبْرُهُ

أَثَارَ الدَّهْرِ فِتْنَتَهُ ، وَوَلَّى
بِلَادَ اللَّهِ بَغْدَاداً مَحَاهَا
بِهَذَا الْغَدِ كَمْ شَغَلُوا الْقُلُوبَا
فَمَنْ فِي يَوْمِهِ أَحْيَا دَوِيًّا
لِنَامِ النَّاسِ مَنْ رَأَى ، وَوَلَّى
عَلَى عَجَلٍ كَجُنْكِيزٍ ، وَوَلَّى
فَهُمْ فِي أَمْسِهِمْ ذَاقُوا شُعُوبًا^(١)
لِيَسْعَدَ أَوْ لِيَنَمُغَهُ الطَّرُوبَا ؟

أُنْخَتَ كَمَا يُنُوحُ الْعَنْدَلِيبُ
بِهَذَا الرُّوضِ قَطَفُ الزَّهْرِ حَلٍ
فَمَا لِلرُّوحِ مِنْ نَوْمٍ هُبُوبُ
وَلَيْسَ لَدَيْكَ مِنْ شَوْكِ نُدُوبٍ^(٢)

عَلَى الذَّاتِ انْطِوَاءً ، فَلْتُعْلَمُ
تَرْجِي رُؤْيَا الْمَوْلَى عَيَانًا
بِظْفَرِكَ حَفَرُ صَدْرِكَ ، فَلْتُعْلَمُ
عَنِ الشُّكُوى مِنَ الْأَيَّامِ أَقْصَرُ
فَرُؤْيَا عَمَقِ ذَاتِكَ ، فَلْتُعْلَمُ
بِطِيبِ الْمَاءِ فِي نَهْرِ بَصْخَرٍ
فَمَنْ لَمْ يَنْصَهَرْ كَالثَّبْرِ يُخْسِرُ^(٣)
يَشْتَتُ مِنْهُ أَمْوَاجاً وَيَكْثِرُ

عَنِ الْوَرَقَاءِ لِلْفَرْخِ الصَّغِيرِ
فَقُلْ فِي نَشْوَةِ الْأَشْوَاقِ يَا هُوَ
« بَطَّعَ كَيْفَ نَحْيَا كَالْحَرِيرِ^(٤) »
وَأَخُذْ مَا زَانَ هَامَاتِ الصُّقُورِ «

(١) شعوب : الموت .

(٢) الندوب : جمع نذب وهو أثر الجرح .

(٣) أقصر عن الكلام : سكت .

(٤) الورقاء : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُوَئِكَ مِنْ مَقَامِ الْكِبَرِيَاءِ وَعَفَّرْتَ الْجَبِينِ لِأَذْنِيَاءِ^(١)
 وَشَاهِدْنَا أَرَاكَ تَصِيدُ ذَاتَا
 لَكَ الْبُشْرَى فَذَاتَكَ تَسْرُدُ وَلَكِنْ فِي شَبَاكَ بِأَرْتَمَاءِ
 حَيَاةِ الْخُلْدِ هَذِي فِي يَقِينِ وَمِنْ فَقْرٍ غَنَى مَا تَسْتَمِدُّ^(٢)
 وَفِي حَدْسٍ لِمَوْتٍ تَسْتَعِدُّ^(٣)

أَعَنْ ذَاتٍ تَحْجَبُ بِالْحِجَابِ إِلَيْهَا حَبَّذَا يَوْمُ الْإِيَابِ
 وَفِي رِزْقِي لِي التَّفَكِيرُ كَفَرُ وَأَنْتَ كَفَرْتَ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ^(٤)

لَسَقِبَ قَالَ هَذَاكَ الْبَعِيرُ تَأْمَلْ أَنْتَ لِي نِعَمَ النَّظِيرِ
 لَتَعْمَلْ مِثْلَنَا ، جِنَا الصَّحَارَى بِأَحْمَالٍ لَنَا كُنَّا نَسِيرُ^(٥)
 كَلَامُ جَهْدِ الْإِفْرَنْجِ قَالَا وَفِي كَوْنٍ وَفِي عَدَمٍ أَطَالَا^(٦)
 مَنْ الْأَعْجَامِ شَيْخٌ قَالَ قَوْلَا أَبْلَغُهُ ، فَأَلْقِ إِلَيْهِ بَالَا

غَرِيبٌ عَنْكَ يَجْعَلُكَ الْقَتِيلَا لِقَلْبٍ تَشْتَرِي الْحُزْنَ الْوَيْلَا^(٧)

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم . ويروي أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته :
 (اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس نعلم العشق دفتر عندنا) .

(٤) جاب الصحراء : اجتازها .

(٥) الجهد : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .

(٦) الويل : الشديد .

وَيَفْضُلُ كُلُّ تَأْوِيلٍ لِشَيْخٍ مَعَ الذَّاتِ الْجَلُوسُ وَلَوْ قَلِيلاً

وَجُودُ ذَاكَ أَمْ هَـذَاكَ مَظْهَرُ
وَعَلِمُ الْغَوْصِ ضَمْنَهُ كِتَاباً
إِلَيْكَ الْفَاسُ ، هَذَا يَسْتُونُ
شَرَارَ الْفَاسِ دَعِ مَنْ قَالَ عَنْهُ
حَكِيمٌ عِنْدَنَا الْإِشْكَالُ فَسْرُ
وَلَكِنْ لَيْتَهُ فِي الْعُمْرِ أَبْخَرُ^(١)
وَبَادِرُ ، فَهَرُكَ الْعَاتِي حَوْوُنُ^(٢)
أَمِنْ فَاسٍ ؟ أَمِنْ حَجَرٍ يَكُونُ ؟

سِرَاجُ مُنَاكَ فِي كَفِّكَ أَبْقِ
وَفِي دُنْيَاكَ فَاحْذَرْ مِنْ ضِيَاعِ
مَقَامَ الْهَاتِفِينَ فَلْيُخَوِّ
بِذَاتِكَ خُذْ ، دَعِ الدُّنْيَا لِمَحَقِ^(٣)

وَهَذَا الْقَلْبُ بَخْرٌ مِنْكَ يَسْكُنُ
فَتَرْبَا مَوْجٌ وَاحِدٌ مِنْ سُكُونِ
إِلَى ذَاتِ لِكَ الدَّارَيْنِ فَاجْذِبْ
وَيَوْمَكَ مِنْهُمَا نُوراً لَتُبْصِرْ
وَمِنْ جَرَاكَ فِيهِ الدُّرُّ يَكْمُنُ^(٤)
فَهَذَا الْبَخْرُ دَارَا مِنْكَ يَخْسُنُ
أَعْنِ ذَاتِ تَشْرِقُ أَوْ تَغْرِبُ
وَهَذَا الثُّورُ يَوْمَكَ لَا تُجَنَّبُ

- (١) يتهمك الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .
(٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . ويستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريقاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .
(٣) محقه محققاً : أهلكه .
(٤) من جراك : من أجلك .

لَنَا يَا زَهْرَةٌ هَا قَدْ ظَهَرْتَ بِوَجْهِ الْحُسْنِ دُنْيَانَا أَتَرْتِ
وهذي زهرة البستانِ قَالُوا بَغْضِنِكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ صُرْتَ ؟

مَنْ التَّبْرِيحَ لَا يَبْكِي الرَّجَالَ بِصَرْفِ الدَّهْرِ يَوْمًا لَمْ يُبَالُوا^(١)
وَقَدْ تَبْكِي وَلَكِنْ لَسْتَ مِنْهُمْ لِدَمْعٍ مِنْ لَظَى الشَّوْقِ انْهَمَالُ^(٢)
وَمَنْ فِي مِخْنَةٍ نَسِيَ الْفَنَاءَ وَلَوْ شَهِدَتْهُ فِي الْمَوْتِ السَّمَاءُ^(٣)
وَأَنْتَ بِمَوْتِهِ هَذَا جَدِيرٌ وَإِلَّا فَلَنْتُمُتَ مَوْتًا تَشَاءُ

تُرَابُكَ وَهُوَ عَنْ رُوحٍ غَرِيبٍ غَصُونُكَ لَيْسَ يَرُويهَا صَيِّبُ^(٤)
عَلَيْكَ بِحَرَقَةِ الْأَنْفَاسِ وَاسْعُدْ فَمَبْتَهَجٌ بِهَا الصَّدْرُ الْكَنِيبُ

عَلَيْنَا قَدْ تَكَاثَرَتِ الْغَمُومُ غَرِيبًا مُسْعِدًا كُنَّا نَرُومُ^(٥)
فَهَيْئَةً فِي غَدٍ مَا أَنْتَ تَبْغِي وَلَكِنْ إِنْ عَرَفْتَ بِكُمْ يَقُومُ^(٦)
كَرِيمٌ ذَاتُهُ وَالْقَلْبَ ضَمًّا بِرَمِي الشَّصِّ لَا يُؤْذِي الْخِضَمَّا^(٧)
تَجَلَّى السَّكْرُ لِلنَّظَرَاتِ حِلٌّ بِغُلِّ الْقَلْبِ وَالْكَفِّينِ حَنْمًا

-
- (١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .
(٢) انهمل الدمع : سال .
(٣) المعنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيهم الله بالبلاء ليبلوهم به .
(٤) الصيب : المصروب . والمقصود به هنا الماء .
(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .
(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .
(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

هُمُومٌ قَلْبُنَا مِنْهَا تَفْطَّرُ تَرَابٌ أَضْلُهَا وَضَرٌّ وَأَكْدَزُ^(١)
وَلَكِنْ مَا عَرَفْنَا الِهِمَّ يَخْلُو بِأَصْلِ الْفَكْرِ فِي عَقْلِ تَفَكَّرُ^(٢)

إِلَى الْأَقْدَارِ لَا تَنْسِبُ أُمُورًا وَكَانَ اللَّهُ وَهَّابًا غَفُورًا
وَلَكِنْ قَلْبِ الدُّنْيَا فِيهَا حَقِيرُ النَّاسِ مَنْ قَمَرَ الْأَمِيرَا^(٣)
مَرِيرَ الْحَقْدِ فَلْيَلْفُظْ جَنَانُ مِنَ الشُّبَّانِ فليُخْرِجْ دُخَانُ^(٤)
وَلَيْسَ لِحَقْلِ قَلْبِكَ مِنْ خَرَجٍ فَيَا دُهْقَانَ هَلْ مِنْكَ الْأَمَانُ؟^(٥)

لَفَجْرِ مَنْ لِيَالِيهِ الظُّهُورُ لَكُوكِبِهِ عَلَى الدَّارَيْنِ نَوْرُ
وَأَعْجَزُ عَنْ كَلَامٍ فِيهِ عَجْزًا فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَغْشَاهُ السَّرُورُ

وَقَالَتْ لِلصَّبَا فِي الطَّلُ قَطْرَةٌ مُنَايَ إِلَيَّ مِنْ عَيْنِكَ نَظْرَةٌ
مَنْ الْأَزْهَارِ فِي قَلْبِي مَلَالٌ فَهَبِّي كَنِي أَوَافِي الْعَشْبِ مَرَّةً^(٦)

(١) الوضر : القدر .

(٢) يقول : إن الهم الحلو المناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .

(٣) قمره : غلبه في القمار .

(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .

(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .

(٦) وافي : أتى .

القلب

بِلَا شَطِّ خِضَمٍّ كَانَ قَلْبًا يَشُرُّ بِهِبَةِ الْأَمْوَاجِ رُغْبًا
بَسِيلٍ مَغْرَقٍ سَهْبًا وَسَهْبًا حَبَابٌ فِيهِ بِالْأَفْلَاكِ يَعْبَا^(١)

لَهَيْبٍ ، جِسْمُنَا مَوْجُ الدِّخَانِ وَمِنْ خَفَقَاتِهِ رَجْعُ الْأَغْنَانِي
وَمَجْلِسُهُ يَذْكُرُ الْوَهْنَ أَمْسَى كَقَطْرَةِ زَيْتُونٍ تَبْدُو لِرَانِ^(٢)

وَيَنْجِجُ سَعْيُهُ دَهْرَ مُثَابِرٍ بِصَوْنِ الذَّاتِ دُرُوشٍ يُجَاهِرُ
وَصُنْ لِلْقَلْبِ سُلْطَانًا وَفَقْرًا فَهَذَا الْبَحْرُ قَدْ صَانَ الْجَوَاهِرُ^(٣)
قِيَّوِي لِلذَّاتِ يَوْمًا مَا بَلَّوْنَا وَقَيْدًا بَعْدَ قَيْدٍ مَا حَطَمْنَا^(٤)
يَدُومُ الْعَقْلُ لِلْإِنْسَانِ قَيْدًا إِذَا فِي صَدْرِهِ الْقَلْبُ افْتَقَدْنَا^(٥)

تَقُولُ الْقَلْبُ مَنْ تَرَبِّ مَهِينٍ يَذُوقُ الْأَسْرَ مِنْ كَافٍ وَنُونٍ

-
- (١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي ققاعة واحدة في هذا السيل .
(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة .
الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .
(٣) أنجحه : جعله ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عادته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .
(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .
(٥) افتقد : فقد .

وَفِي صَدْرِ لِقَابٍ مُسْتَقَرٍّ هُنَا مَا كَانَ يَوْمًا بِالقَطِينِ^(١)

وَدُنْيَا النُّيُورَيْنِ بِهَا تَمْنَطُوقُ
فَقُلْ لِلْهِنْدِ هَذَا مِنْ كَلَامِي
وَكُنَّا حَقْلَ رَبِّي وَهُوَ حَاصِلُ
غِبَارٍ مِنْ دَرَى سِرّاً بِدَرْبِ
وَكَمْ عَقْدٍ يَحِلُّ إِذَا تَحَرَّقُ^(٢)
بَصَحْوَتِهِ غَلَامُ الْهِنْدِ يُغْتَقُ
لِعَالَمِنَا عَرُوسٌ وَهُوَ مُحَمَّلُ
وَلَمْ يَكْ غَيْرَ هَذَا الْقَلْبِ ، فَاعْقِلْ^(٣)

دُؤُوبٌ يَطْلُبُ الْحَسَنَ الْغَرِيبَا
وَسُلْطَانٌ لَهُ خَيْلٌ وَجَيْشُ
خَطِيبٌ كَانَ مِنْبَرُهُ صَلِيبَا^(٤)
وَيَعْدُمُ عِنْدَ دَوْلَتِهِ نَصِيبَا

وَدُنْيَا الْقَلْبِ مَا اتَّسَمَتْ بِرَوْنَقُ
وَمِنْ أَرْضِي خَلَتْ بِلَ مِنْ سَمَاءِ
رَأَتْ عَيْنٌ ، أَتَى قَلْبٌ سَرِيعَا
وَهَذَا الْقَلْبُ سَكِّيراً يَسْمَى
وَمَا يَبْدُو بِهَا حِجْرٌ وَجَوْسَقُ^(٥)
وَاللَّهُ هُوَ تَغْشِيهَا فَتَفَرَّقُ
أَرَادَ يَقِيسُ عَالَمِنَا الْوَسِيعَا
تَحْتَى مَا بِهِ حُنْناً بِدِيعَا

سَهَامُ الْعَشَقِ مِنْ عَيْنِ تَصِيبُ
بِصَيْدِ الْقَلْبِ سَهْمُكَ فَلْتَدْعُهُ
يَطِيبُ الْجَرْحُ وَالرَّامِي حَبِيبُ
بِكُلِّ الصَّيْدِ ، مِنْ نَظَرِ تَوْوَبُ^(٦)

(١) المراد به هنا : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم

(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .

(٣) الدرب : الطريق .

(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .

(٥) الجوسق : القصر .

(٦) الصيد : اسم من صاد ويعنى ما يصيد .

الذاتية

بنور الكبرياء لها اشتعال ومن نقص لها كل الكمالات
مقامات الوصال لها فراق كما أن الفراق لها وصال

ومن جدل لقوم أن يريخوا ليزهر عندهم أمل نجيح^(١)
بدت ذاتية سيفاً حساماً ويعرف حلة لون وريح

وجود الله أكسبها الوجوداً فكانت مظهراً جاز الحدوداً
أراها جوهراً من خوف بحر سواء بمثله من لن يجوداً
وطين حينما يرضاه قلب يقطره لطيب النوم حُب
ومن نوم بخلق (أنا) سيضحو بجسم حين يحكمها سيخبو

لنا وصل فراق فيه يظهر وهذي عقدة للحل تنظر
تضيق جواهر من حزن بحر وليس لماء بحر ما لجوهر !

ولي من بابه هذا التراب ومن صدر له زهر عجاب
ولا أدري (أنا) أو ما عداها يصدر منه تخويني رحاب^(٢)

(١) أراح : استراح . والنجیح : الذي تنجح أموره .

(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبر والاختيار

سَيُوزَنُ كُلُّ شَيْءٍ يَوْمَ حَشْرِ
لَدَى الْإِنْسَانِ مِنْ جُحْرِ وَقْضَرِ
فَمَاذَا فِي غَدٍ يَا لَيْتَ شِعْرِي
أَيَرْضَى اللَّهُ عَمَّا سَوْفَ يَجْرِي ؟

وَلِي شَيْخٌ مِنَ الرُّهْبَانِ قَالَا
كَلَامِي ذَاكَ أَلْقِ إِلَيْهِ بَالَا
بِتَقْدِيرِ لَكُمْ عَمْرٌ سَيَفْتَى
سُقُوتُ نَحْنُ بِالتَّذْيِيرِ طَالَا

الموت

لِرَبِّي قَالَ ذَا الْمَوْتُ الْمَرِيدُ
لَعِينِ أَصْلُهَا طِينٌ جَمُودُ^(١)
مَنْ الْإِنْسَانِ يَخْجَلُ قَبْضُ رُوحِ
أَمِنْ مَوْتٍ لَهُ الْعَارُ الْجَدِيدُ !

وَأَيُّدٍ فِيهِ مَنْ مَلَكَ الْجِهَاتِ
بِمَقْوَدِهِ يَقْوَدُ الْكَائِنَاتِ
لِذَلِكَ الْمَوْتِ مَا أَغْضِي حَيَاءِ
غَرِيبٌ عَنْهُ نَامُوسُ الْحَيَاةِ

إِلَى إِبْلِيسَ فَلْتَنْقُلْ مَقَالِي
إِلَآمَ لِي التَّعْلُمُ فِي الْعَقَالِ^(٢)
وَلِي دُنْيَا الثَّرَى لَا أَرْتَضِيهَا
فَفِيهَا الصَّبْحُ مَهْدٌ لِلَّيَالِي

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التعلم : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

وَلَمَّا أَخْرَجُوا الدُّنْيَا إِلَيْنَا ضَمِيرًا خَامِدًا فِيهَا رَأَيْنَا
بِغَيْرِ الرُّوحِ أَيْنَ لَنَا لَهَيْبٌ لَقَدْ خَلَقُوكَ مِنْ نَارٍ لَدُنَّا

فِرَاقٌ يَجْعَلُ الشُّوقَ الْبَصِيرَا بَعْمَقِ الْبَحْثِ يَجْعَلُهُ الْجَدِيرَا
وَلَكِنْ كَيْفَ حَالُكَ لَسْتُ أَذْرِي وَطِينٌ قَالَ لِي «كَانَ الْخَيْرَا»

لَقَدْ طَرَدُوكَ يَا مَنْ لَنْ يُعَادَا لَكَ التَّفَكِيرُ بَيْنَ الْخَلْقِ زَادَا
قَضَيْتُ الدَّهْرَ فِي بَلَوَى عَذَابِي فَقَلْبِي فِيهِ كَمْ زَرَعُوا الْقَتَادَا^(١)
مُصِيبًا مَزْتُ مِنْ غَيْرِ الْمَصِيبِ عِدِمْتُ النِّبْتَ فِي حَقْلِي الْجَدِيبِ^(٢)
وَلَمْ تَسْجُدْ فَمَنْ أَلَمْ تَقَاسِي أَخَذْتُ إِلَيْكَ مَالِي مِنْ ذُنُوبِ

تَعَالَ النَّرْدَ فِي مَرَحٍ لِلْعَبِ وَدُنْيَانَا لِنَحْرِقَهَا فَتَعَطَّبِ
بَسْحَرٍ مِنْ هَشِيمٍ كَانَ فِيهَا لِنَصْنَعُ جَنَّةَ الْأَفْلَاكِ فَاعْجَبِ

إِبْلِيسُ التَّرَابِيُّ وَإِبْلِيسُ النَّارِيِّ

فَسَادُ عَصْرِنَا أَوْهَى وَأَنْقَلُ وَأَفْلَاكُ تَشَاهِدُهُ فَتَخَجَلُ
أَلَيْسَ لَدَيْكَ لِلنَّظَرَاتِ ذَوْقٌ لَتُخْدَمَ عِنْدَ شَيْطَانٍ وَتُحْمَلُ

(١) القنَاد : الشوك .

(٢) النبت : النبات .

وَمَنْ عَيْنَاهُ وَالْأَذْنَانِ سَارِقٌ تَرَصَّدُ فِي الظَّلَامِ لِسُلْبِ خَافِقٍ
وَكَانَ السَّعْرُ فِي الْأَسْوَاقِ بَخْسًا بَفَلَسٍ تَشْتَرِي ذَنْبًا ؟ تَحَامِقُ^(١)

عَجِيبُ السَّمِيِّ شَيْطَانٌ عَجِيبُ يَسْخَرُ لِلْعَمَى عَيْنًا يَصِيبُ
اسْمَى ذَلِكَ الشَّيْطَانُ مِثْلًا فَمِثْلَكَ صِيدُهُ وَهُوَ الطَّلِيبُ^(٢)
لَهُ كَأْسٌ بِهَا سَمٌّ دَهَاكًا لَقَتَلَ الرُّوحَ ، جِسْمٌ مَا هُنَاكَ
لَكَ الْحَلَقَاتُ تَبْدِيهَا شَبَاكُ وَمَا شَاهَدْتَ فِي الْحَبِّ الشَّبَاكَ !

هُوَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْلَى مَقَامٍ فَضَاقَ مَجَالُهُ عِنْدَ ارْتِطَامِ^(٣)
بَلَا طَعْمٍ وَلَا لَوْنٍ ذَنْوَبُ وَإِبْلِيسُ لَهُ طَبْعُ الْأَنَامِ^(٤)

وَمَنْ شَيْطَانٍ هَذَا الْعَصْرِ فَاحْذَرْ خَسِيسٌ مَنْ يَضْلُلُّهُ وَيَسْخَرُ
أَرَى إِبْلِيسَ خَيْرًا مِنْهُ حَقًّا رَأَى الرَّحْمَنَ فَهُوَ بِذَاكَ يَفْخَرُ
لَهُ النَّدُّ الْمَقَالِبُ مِنْ هُمَامٍ وَبِالنِّيرَانِ يعلُّو فِي الْمَقَامِ
وَمَا كُلُّ التَّرَابِ رَمَاهُ صِيدًا وَأَعْجَفَ أَنْ يَصِيدَ مِنَ الْحَرَامِ^(٥)

خَسِيسُ الطَّبْعِ هَذَا لَيْسَ يَفْهَمُ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فِيهِ قَدْ تَحْتَمُّ

(١) حَامِقُهُ : سَاعَدَهُ عَلَى الْحَمَقِ ، فَكَانَ يَذُلُّ الثَّمَنَ السَّخِي فِي الذَّنْبِ يَعِينُ الْحَمَقَى الَّذِينَ يَبِيعُونَ بِالثَّمَنِ الْقَلِيلِ .

(٢) الطَّلِيبُ : الْكَثِيرُ الطَّلَبِ .

(٣) الْارْتِطَامُ : الْوُقُوعُ فِي الْوَحْلِ .

(٤) الْأَنَامُ : النَّاسُ .

(٥) الْأَعْجَفَ : الْهَزِيلَ .

أبالسة بهذا العصر جأفى غيورٌ وهو طولُ العمرِ يائسٌ

إلى رُفقاء الطريق

تعالَ لقومِنا أمراً ندبُرُ لنكسبَ إنَّ هذا العيشَ ميسرُ
نصعدُ في مساجدِنا أئيناً على إخرَاقِ قلبِ الشيخِ يُقْدِرُ

وصفُرٌ في السمواتِ القلندَرُ لخفقِ جناحه ذو الثقلِ أصغرُ^(١)
وفي هذا الفضاءِ له مصادُ بعشٍ لم يطفُ فالعُشُّ أغبرُ

ولحنُ «الله» من روجي تردُّ متاعِ الكونِ عثيره تصعدُ^(٢)
ولي في معرَفي وترٌ بنارِ تقطعُ ، ياله دمعِي المبدُّ

خفقت كدمعة سالت فطره إلى عينٍ وصلتُ بفضلِ طَفَرِهِ^(٣)

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياء من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يباليون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكثرثون بما يشاهد الناس من ظواهرهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياء وكان اهتمامه ببواطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولي إشرافه في الهدب تَبْدُو على هذا الهشيم نثرت قطره^(١)
ولم يَفِ منطق لي بالمرام دليل فيه خلو من تمام
سيفتح كل باب أوَصَدوه بيت قاله الرومي وجامي^(٢)

تعال إليك مني بنت حان تثير الروح في طين الدنان^(٣)
ومن قارورتني فلتسقي غصناً لشهد فيه إنساناً يراي^(٤)

بكفي معزفي شعري يغني أنين فيه من لون ولون
عليه بمخلب الأسد عزفي به الأوتار من وجه المجن^(٥)
لكسري العصر عني القول ينقل كفهاده لدى الفأس تحمل ؟
بصدري شوكة أدمته وخزاً لقلب الطود منها السيف يعمل

فقيّر نظرة لي كل مالي هشيم ما لصحي من جبال
على البازي أفضل زاع ميت ولو رباه كسري في الدلال^(٦)

(١) الهشيم : النبات اليابس المتكسر .

(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .

(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .

(٤) يقول : إذا سقيت غصناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .

(٥) المجن : الثرس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .

(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت على منصة عالية ويعرضونها لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر .

لقلبي قط ما أوصدت بابا ولا قاطنتُ أهلاً أر صحاباً
 قبعْتُ بمجلسي في عقرِ صَدْرِي فجزتُ بمجلسي هذا السحاباً^(١)
 عدمتُ بروضةِ عزِّي وجَاهِي نصيبي أيُّ شيء كني أباهي ؟
 وصاحبُها يسميني وقاحاً بعينِ نرجسٍ جذبَ انتباهي^(٢)

وللعلماء في الحفل المزين كلامٌ رقٌّ مثلُ الياسمين
 ولكن من رأى في الروضِ شوكتاً لوصفِ الروضِ بالقولِ اليقين ؟

بعلمٍ أو بفنٍّ ما اهتمامي مقامٌ آخرُ فيه كلامي
 ضعيف الركبِ يجعلُهُ لهيبي خفيف الخطوِ يعدُو في الأمام
 أتحييُني لفجرٍ عندليباً وحسبي الروضُ أفعمه نحيباً
 تمسك بي تجذ مِفْتَاحَ روضٍ بعُشِّي كنتَ تخشى أن يغيباً

هي الدتيا لعيني الممرُّ رفيقٌ ليس لي والكلُّ سَفَرُ^(٣)
 نفاري من قويمٍ كان خيراً غريبٌ وهو لي همٌ وشرُّ

وفي عدم تعلّم كيف تحيا وزد ذاتاً من التقدير هياً

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يربيه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفي أعماق أنعامي تقلب
وتربيسي بتلك الأرض كأننا
نبئت بها بفيض من ندامها
بيخري لؤلؤ فاسكن ملياً^(١)
ولكن أجتويها لي مكاناً^(٢)
سماة لي أشهدّها عياناً

إلى نفس الرجال كن القريباً
شكاة الذات همهم يجافي
لهم أنفاسهم تحيي القلوبا
فما عن ذاته كان القريباً

لتخلق نظرة والروح أبصر
وإلا فلتكن سهماً لقوس
تغرب عقلنا ذا عن يقين
جهول كان خيراً من حكيم
تجد زهراً بغصن غير مزهر
ومن يزمي له هدفاً يُقدّر^(٣)
بدا كمقام العلم المشين^(٤)
بنظرته إلى الحق المين

ومن ذهب وذر ما المرام
من الدارين شيء لا يرجى
وما سرج المطهم والغلام^(٥)
وذاك لمال ذي الفضل القوام

وسكر أنا لتلك الذات عقل
شرابي ما صفاً ، لكن ترشف
وإن الصمت في حائي لفضل
ففي يوم مضى للذن بزل^(٦)

(١) ملياً : زماناً طويلاً .

(٢) التريب : التربية .

(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميهِ الهدف ولا يحدد هو هدفه بنفسه .

(٤) المشين : المعيب .

(٥) الجواد المطهم : التام الحسن .

(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لَدَيْكَ بِخَرْقَةٍ أَوْ فِي نَصِيبٍ وَمَنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شَذَا الْحَبِيبِ^(١)
لَدَيَّ الْمَالُ مِنْ خَشَبٍ لِنَاءٍ وَلَيْسَ لِمَنْبَرٍ أَوْ لِلصَّلِيبِ^(٢)

بِمِرْآةٍ لِدَاتِي قَدْ بَصُرْتُ بَصْدَرِي خُلُوءٌ فِيهَا قَرَرْتُ
مَنْ الْعَمِيَانِ فِي عِلْمٍ وَفَنٍ بِلَبَّالٍ قَدِيمٍ لِي فَرَرْتُ

رَجِيلِي حَانَ عَنْ هَذَا التَّرَابِ فَقَالَ الْكُلُّ « كَانَ مِنَ الصَّحَابِ »
فَمَنْ هَذَا الْمَسَافِرُ لَيْتَ شِعْرِي وَمَنْ قَدْ خُصَّ بِالْقَوْلِ الْعَجَابِ
عَلِمُ الْقَلْبِ رَقَرَاقُ الضَّمِيرِ أَمِيرٌ وَهُوَ يُعْرِفُ بِالْفَقِيرِ
وَلَيْسَ لِمَعْدَمٍ دِينًا وَعِلْمًا قَبَاءٌ بَلْ لَهُ سَرَجُ الْحَرِيرِ

لَجَمٍ أَنْتَ تَسْجُدُ أَوْ لِدَارًا فَلَا تُلْحِقُ بَيْتَ اللَّهِ عَارًا^(٣)
وَلَا تَطْلُبُ إِلَى الْغَرِيبِ شَيْئًا بِقَلْبِكَ حَطَّمِ الصَّنَمَ الْمَعَارَا

بِسَمْعِي طَافَ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ لَهُ عَقْلٌ وَإِشْرَاقُ الضَّمِيرِ
« فَقِيرٌ إِنْ يَصُنْ بِالْفَقْرِ ذَاتًا فَمَلِكُ الْعَالَمِينَ لَذَا الْفَقِيرِ »
وَفِي حَرْفَيْنِ هَذَا السَّرُّ يَسْتَرُ مَقَامَ الْعَشْقَى لَا إِذْوَ كَمَنْبَرُ
وَابْرَاهِيمُ نَمْرُودًا أَيْخَشَى لَعُودٍ نَفْحَةً بِالنَّارِ تَنْشُرُ

(١) الخرقه : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .

(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .

(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بعظمة الملك .

بذاتِكَ فَالتَزِمَ خَلَّ الْوَقَاءِ
وَصَنَ وَشَمًا قَدِيمًا فِي الْخَفَاءِ^(١)

أَلَا يَا زَهْرُ مَا طَلَبُ الْعِزَاءِ ؟
وَصَدْرَكَ افْتَحَنْ لِكُلِّ رِيحٍ

« بِرُوحِكَ وَحَدَّهَا عِشْرَ يَا بَنِيَا
بِجَسْمٍ لَا بِرُوحٍ وَهُوَ يَحْيَا »
بِفِرْعَوْنِيَّةٍ ذَاتِي أَقْلِيذِ
وَأَرْقُصُ بِانْتِظَارٍ فِيهِ أَصِيرُ

يَدُوِّي النَضْحُ فِي سَمْعِي دَوِيَا
لِتَحْذِرُ مَنْ أَضَاعَ الرُّوحَ رَهْنًا
لَشَطِّ قَالٍ مَوْجٍ وَهُوَ يَهْدُرُ
عَلَى ذَاتِي التَّفَافِي مِثْلُ أَفْعَى

عَلَى عَتَبَاتِهِ عَفَّرُ جَيِّنَا^(٢)
كَغَيْرِ سَيِّقٍ فَلَتَكُنْ الْمَهِينَا^(٣)

بِجَاهِ الْغَرْبِ إِنْ كُنْتُ الْقَمِينَا
أَذِرْ لِعَصَاهُ عِنْدَ الضَّرْبِ ظَهْرًا

خِلَاءَ مُلْكُهُ مِنْ كُلِّ دِينِ^(٤)
وَتُوجِّشُ غِيَّةَ الرُّوحِ الْأَمِينِ^(٥)
كِعْطَرِ الْوَرْدِ مِنْ أَصْلِ هَرَبْنَا
لَنَا مَوْتَيْنِ نَحْنُ قَدْ اشْتَرَيْنَا !

وَأَيُّنَ فَوَادُهُ طَوَعَ الْيَمِينِ
شِبَاطِينُ تَطُوفُ لَهُ بَيْتِ
وَمِنْ قَلْبٍ وَمِنْ دِينٍ يَشْتَنَا
وَمَاتَ الدِّينُ مِنْ مَوْتٍ لِقَلْبٍ

لِرَبِّي مِنْهُ تَعْفِيرُ الْجِينِ
أَذَارَ الْأَرْضِ مِنْهُ بِالْيَمِينِ

حَنِيفٌ كَانَ يَعْرِفُ قَدَرَ دِينِ
بِمَا لَا يَشْتَهِي الْأَفْلَاكُ دَارَتْ

(١) الوسم : أثر الكي .

(٢) القمين : الجدير .

(٣) العير : الحمار .

(٤) يريد الرجل من الفرنجة .

(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

مَنْ دُنِيَ لَنَا قَلْبٌ غَرِيبٌ لَهُ الْإِيَّامُ مِنْ فَلَكٍ نَصِيبٌ^(١)
 صَلَاةُ الْعَشَقِ مِيزُهَا بِوَقْتِ فَلَيْسَ لَهَا الْمُؤَذَّنُ وَالْخَطِيبُ
 مَقَامُ الْعَشَقِ يَفْعُمُهُ الْيَقِينُ يَقِينًا يَصْحَبُ الرُّوحَ الْأَمِينُ
 إِذَا حَصَلَتْ مِنْ هَذَا نَصِيبًا فَرَزَ قُدُمًا ، فَمَا اعْتَرَضَ الْكَمِينُ

وَعِزَّ قَانٌ وَإِذْرَاكَ لِمَسْلَمٍ وَعَيْنِيهِ « يَلُولَا » الْذَاتِ يَفْعَمُ^(٢)
 سَمَا رَبِّي سَمُوءًا عَنْ قِيَاسِ بِقَائِلِ « مَا عَرَفْنَا » النَّفْسِ أَكْرَمُ^(٣)

وَأَضْنَامَ الْفَرَنْجَةِ مَا عِدَّتَا بِمَعْبِدِهِمْ فَيْئَسَ الْمَوْتُ مِتَّا
 وَعَقْلُكَ كَانَ عَنْ قَلْبٍ غَرِيبًا فَمَا بَسَلَا فِي مَنْ سَلَفُوا سَكِرَتَا^(٤)
 أَكَلُ النَّاسِ مِنْ نَفْسًا يُسِيلُ وَمِنْ سُكْرِ التَّدَلُّلِ مَنْ يَمِيلُ
 قَبَاءٌ « لَا إِلَهَ » بِهِ دِمَاءُ عَلَى قَدْ الْخِسَاسِ هُوَ الطَّوِيلُ

وَيَحْرِقُ مُؤْمِنًا حَرُّ الْوَقِيدِ مِنْ الْأَبْوَابِ يَفْتَحُ مَا يَرِيدُ^(٥)
 جَلَالُ الْكِبَرِيَاءِ لَهُ قِيَامٌ جَمَالُ الصَّبْرِ يَظْهَرُهُ الشُّجُودُ

أَتَسْأَلُ عَنْ صَلَاةِ الْعَاشِقِينَ وَفِيهَا خُفْيَةٌ هُمْ سَاجِدُونََا
 أَرَى « اللَّهُ أَكْبَرُ » مِثْلَ نَارِ أَفِي خَمْسٍ بَدَتْ لِلنَّاطِرِينََا

(١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .

(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .

(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .

(٤) السلاف : الخمر .

(٥) الوقيد : الوقود .

نِذَاءُ الْعَالَمِينَ بِهَا يَدُومُ وَمِنْهَا مُسَلِّمٌ خَلِداً يَرُومُ
صَرِيحُ الْعَصْرِ فِينَا لَيْسَ يَدْرِي قِيَامَاتٍ « لَقَدْ قَامَتْ » تَقُومُ

رَأَى مَتَفَرِّجٌ لِلَّهِ حُكْمًا فِرْزَقٌ وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْهُ دَوْمًا
عَلَى الشَّيْطَانِ أَغْدَقَ أَيُّ رِزْقٍ ! إِلَى أَنْ حَارَ فِيهِ اللَّهُ يَوْمًا

وَفِي قَوْلِي لِمَ الْإِسْهَابُ كَانَا أَقُولُ الْحَرْفَ عَنْ سِرِّ أَبَانَا^(١)
وَعَالِمُهُ لِمَتَجَرِّينَ أَغْطَى مَكَانَ كَيْفَ يَذْرِي اللَّامَكَانَا
لِمَنْ تَضْفُو قُلُوبُهُمْ نَعِيمٌ وَأَخَرُ فِيهِ ذُو هِمَمٍ يُقِيمُ
فَبُلُغْ مُسْلِمًا فِي الْهِنْدِ بُشْرَى « نَعِيمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ شِيمُوا »^(٢)

إِلَى التَّقْرِيرِ مَا مَالَ الْقَلَنْدَرُ كَأَكْبَرٍ لَهُ رَأْيٌ يَقْدَرُ
وَهَذَا الْحَقْلُ أَقْفَرُ مِنْ حَصَادٍ فَمَا يَرُوي ثَرَاهُ دَمٌ لَشَبْرٍ^(٣)

(١) أَبَانُ عَنْهُ : فَسَرَهُ .

(٢) شِيمُوا : انظُرُوا .

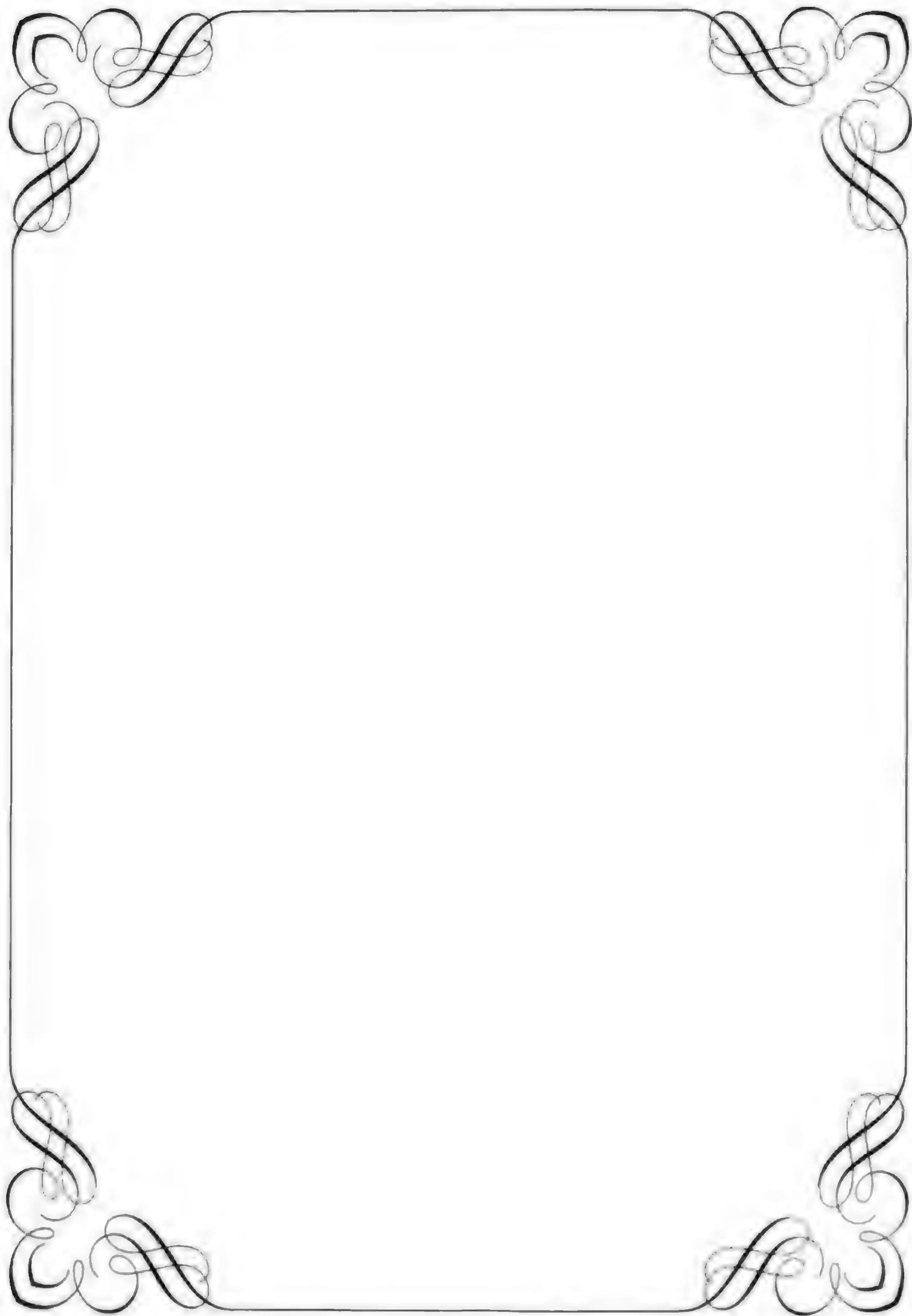
(٣) الْحَصَادُ . الزَّرْعُ . شَبْرٌ : اسْمُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

القسم الرابع

قَصَائِد



(١) من هُنا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .



برلمان إبليس

هذه قصيدة بديعة لمحمد إقبال ، وصف فيها وصور جلسة برلمانية ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدد مهمتهم في العالم وتُحبط مساعيهم ، أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهات نظرهم ، وترأس هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعِدَ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخص في : أنَّ المسلم هو المنافس الوحيد ، والمصارغ الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحول ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيد الاطلاع عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنَّ الشياطينَ وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلسٍ شوري ، وتباحثوا في سير العالم ، وأخطار الغد ، وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ، ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدثت بهم ، وهددت نظامهم ، وجلَّلوا خطبها ، وتناذروا شرَّها ، فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولُكَ أمرُها ، فإنَّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشمر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا نُحمدُ عاقبتها ألهيانه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجود شخص تركز فيه الملوكية ، وفرد يستبدُّ بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءً في ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه مشرقٌ وصَّاحٌ ، وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدَّهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السَّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا يريدونك المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البُغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالرياح (أعلامُ أرضٍ جُمِلَتْ بطائفاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولِ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلس « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأنصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهاوشت الكلابُ ، واقترب من بعضها بعضاً ففعلَ الذئاب ، وإذا همَّستُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنَّ جنونُهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أنَّ الخرقَ الذي أحدثته

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية)
لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك الشفهاء .

إن كنتُ خائفاً ، فإنِّي أخافُ أمةً لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنةً في
رمادها ، ولا يزالُ فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيلُ دموعُهم
على خدودهم سَحَرًا ، لا يخفى على الخبير المتفرّس : أنَّ الإسلام هو فتنةُ الغد ،
وداهيةُ المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهلُ أنَّ هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها قُتِلَتْ بالمال ،
وُسِفَتْ بجمعه ، وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خيرٌ بأنَّ ليل الشرق داجٍ
مكفهرٌ ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق
لها الظلماتُ ويضيءُ لها العالمُ ، ولكنِّي أخافُ أنَّ قوارعَ هذا المصير وهزَّاتِهِ
ستقضى مضجعها ، وتوقف هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ) ، وإنِّي
أحذركم وأندركم من دين محمد (ﷺ) ، حامي الدِّمار ، حارسِ الدِّمَمِ
والأعراض ، دينِ الكرامة والشرف ، دينِ الأمانة والمغاف ، دينِ المروءة ،
والبطولة ، دينِ الكفاح والجهاد ، يلقي كلُّ نوعٍ من أنواع الرِّقِّ ، ويمحو كلَّ أثرٍ
من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرِّقُ بين مالكٍ ومملوك ، ولا يؤثرُ سلطاناً على
صعلوك ، يزكِّي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعلُ
أصحابَ الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم ، أمناء الله ، وكلاء على
الأموال ، وأيُّ ثورةٍ أعظمُ ، وأيُّ انقلابٍ أشدَّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّينُ في عالم
الفكر والعمل ، يومَ صرخَ : إِنَّ الأرضَ لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم أن يظلَّ هذا الدِّينُ متوارياً عن أعينِ الناس ، وليهنكم أنَّ
المسلمَ بنفسه هو ضعيفُ الثقةِ برِّه ، قليلُ الإيمانِ بدينه ، فخيرٌ لنا أن يظلَّ مشتغلاً
بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله ، والآيات ، اضربوا على
أذان المسلم ، فإنَّه يستطيع أن يكسرَ طلاسَمَ العالم ، ويطلَّ سحرنا بأذانه
وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويطيءَ سَحَرُهُ ، اشغلوه يا إخوتي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسر الرُّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجَرَ هذا العالمَ ، ويعتزلّه ، ويتنازلَ عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأمة ، التي يَغْرِمُ عليها دينها أن تراقب العالمَ وتمسّهُ (١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلًا نجح شياطينُ الإنس والجنِّ في مهمَّتهم ، وكانت مؤامرةٌ مبيتةٌ ضدَّ الإسلام ، وخطّةٌ منظّمةٌ ضدَّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرَةِ الإيمانيّة ، التي لا تزال كامنةً في الرّماد ، وتجرّدُ المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحميّة الدّينية ، والعاطفة الإسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحملُ الشدائد والمكاره في سبيل الله ، والثورة على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنَّ المجاهدَ الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسبُ للموتِ حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغولوا العرب بالأفكار الغربيّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الدّينيّ تتمكّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إنّ في الأفغان غيرةً دينيةً ، وعلاجُها أن يقصّي العالمُ الدّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطُّرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجرّد الشباب المسلم من الروح الدّيني والعواطف الإسلاميّة والعقلية الإسلاميّة ، وينشئُ فيه طبيعةً النّفعيّة والأبيقورية ، وطبيعةً التهام الحياة ، وانتهابِ

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرات ، وتقديس المادّة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقيّة والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشكّ في الدّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرة الصقت به العار ، وأثارت عليه اللّعنات ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنّه رزق شيئاً من الابتكار ، وبُغِدِ النظر ، ودقّة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ، ينشئ الجيل الإسرائيليّ الجديد كما يشاء ، ويسبك العقول والطباع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدّينيّ ، ويحمل العاطفة الدينيّة ، والغيرة القوميّة ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمرئيات ، والدرجات ، لو أنّ فرعون وُفّق لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحداث ، ووصل إلى غايته في سهولة ويسر ، وهدوء وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربّي الجيل » وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فضعف الشعور الدينيّ في بلاد الإسلام ، وخمدت جذوة الإيمان ، وفقدت البطولة الإسلاميّة وروح الجهاد ، وفشت النّفعية ، وجمحت المادّيّة ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثير من البلاد الإسلاميّة والعربيّة : « لقد تجوّلت في بلاد العرب والمعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنفاء المغرب » ، ويقول في قصيدة قالها في فلسطين : « لا أرى في بلاد العرب تلك اللّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد المعجم ذلك السموّ الفكريّ الذي كان يمتاز به المعجم ، لا تزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطلٍ من أبطال

الإسلام ، ولكنني لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع ، يقول في أبيات : « يا وارثَ التوحيد الإسلامي لقد فَقَدْتَ الكلامَ الجذابَ السَّاحِرَ ، والعملَ المسخرَ القاهرَ ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً » . ويقول في موضعٍ آخر : « إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرضُ الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول في بيتٍ : « لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نارُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر في محيطك أيُّها المسلم لأولؤة الحياة ، قد بحثت عنها موجةً موجةً ، وتفقدتها صدفةً صدفةً » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمان وشعلة الحياة ، يقول : « لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونزَفَ منهم دَمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائفة ، والقلوبُ مضطربة ، والسَّجدةُ لا لدَّةَ فيها ، ذلك لأنَّ القلب خالٍ من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدَمَاتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلامي أفضَتْ مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه دبيبُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « إذا رأيت النُّجُومَ شاحبةً منكدرَةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجرَ قريب ، هاهي الشمس قد ذرَّ قرنُها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدبارهِ ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلئ

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنَّ المسلم سيُمنحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي ، ويقول في بيت :
« إنَّ إقبالاً ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنَّها إذا سقيت أتت بحاصل كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنَّ الحضارة الغربية قد مثَّلت دورَها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمَتْ ، وأينعت كالفاكهة ، وحانَ قطافها ، وأنَّ العالمَ القديمَ الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهاز قريباً ، والإنسانية تتمحُّضُ بعالمٍ جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنَّ هذا العالم الجديد لا يُحسنُ تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيتَ الحرامَ بالأمس ، وورث إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشاده ، فيهبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن يقومَ ويمسحَ النُّومَ من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاثَ الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخربوا العالمَ وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوتِ الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذنَ أن تُرْفَعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنَّ الأوربيين قد حوَّلوها إلى خمارية ، وبيتِ فسقٍ ودعارة ، ومكانٍ نهبٍ وغارة ، وقد آن لباني البيت الحرام وحاملِ رسالة الإسلام أن يقومَ ، ويُصلِّحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيتَ إلى قواعد إبراهيم ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالمَ من جديد^(١) .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص ٢٣٠ - ٢٣٣ نقلًا عن « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، ص ١١٤ - ١٢٣ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

- ١ - هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصر^(١) ، وهذه الدُّنيا الوضيعة
كانت سبباً في قتلِ أُمْنِيَّاتِ ساكني العَرْشِ الأعظم^(٢) .
- ٢ - الخالقُ الذي سمّاها دنيا الكافِ والنون^(٣)
مُنْهَيْئاً اليومَ لتدميرِها .
- ٣ - عَرَضْتُ على الإفرنجِ حُلْمَ المُلوكِيَّةِ
وحطَّمْتُ سِخْرَ المسجدِ والمعبدِ والكنيسة .
- ٤ - عَلِمْتُ الجهلاء درمَ القَدَرِ
وأعْطَيْتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .
- ٥ - مَنْ يستطيعُ أن يطفئَ نَارَه المتأججة^(٤) .
إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإبليسيَّةَ .
- ٦ - أغصانه^(٥) تنمو وترتفعُ من ماء سُقْيَانَا
فَمَنْ يستطيعُ أن يُنْكَسَ أغصانُ هذا النَّخْلِ القديمِ ؟ !

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .

(٢) أي : الملائكة .

(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .

(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

- ٧ - لا شك أن هذا النظام الإيليسي مُحكَمٌ
ففي ظلّه أَلِفَ الشَّعْبُ طَبَعَ العُبودية .
- ٨ - الخُضوعُ والمذلةُ على جبين هؤلاء المساكين
فنظرتهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام
- ٩ - لا تَنَبُّثٌ لديهم الأمانةُ أساساً
فهي إن تَظْهَرَ تَمُتْ أو تَبْقَ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .
- ١٠ - وهذه هي معجزةُ جهدينا المتواصل
فالיום صار الصُّوفيُّ والملاً عبداً - بشكلاً تاماً - للملكيّة .
- ١١ - هذا الأفيون - الملكيّة - كان مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشُّرْقِ .
مع أن عِلْمَ الكلام ليس بأقلَّ من « الغناء الصُّوفي »^(١) .
- ١٢ - لو بَقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّواف ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالاً .
- ١٣ - إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلم
دليلٌ على اليأس ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

- ١٤ - هل غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتن الجديدةِ في العالم !

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنّى به الصُّوفيّة .

المُستشار الأول

- ١٥ - نَعَمْ ، ولكن بصيرتني تخبرني :
لو تبقى المَلَكِيَّةُ كالسُّنَّارِ فلا خطر !
- ١٦ - فحينَ صارَ الإنسانُ مدبِّراً ومفكِّراً إلى حدِّ ما
ألبسنا المَلَكِيَّةَ لباسَ الجُمهوريَّةِ .
- ١٧ - شُؤُونُ الحُكْمِ شيءٌ آخر
لا يَنحصرُ في وجودِ الأميرِ والسُّلْطَنَةِ .
- ١٨ - وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأُمَّةِ - أو يكونُ بلاطُ برويز
فالحقيقةُ أنَّ السلطانَ هو من تكونُ عيونه على رَزَعِ الغَيْرِ .
- ١٩ - أما رأيتَ أنَّ النُّظامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكِنَّهُ من الدَّاخِلِ أحلكُ من جنكيز^(١) .

المُستشارُ الثالث

- ٢٠ - رُوحُ السُّلْطَنَةِ باديةٌ فأني اضطرابٌ بعدَ ذلك
لكنَّ ما هو الرَّدُّ على شقاوةِ ذلكَ اليهوديِّ^(٢) .
- ٢١ - هو الكلِّيمُ بغيرِ تجلٍّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولاً ولكنَّ في حِضْنِهِ كتابٌ » .
- ٢٢ - ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظَرُ هذا الكافرِ الذي يخترقُ السُّنَّاتِ ؟
هذا النَّظَرُ صارَ كيومٍ حسابٍ لأقوامِ الشَّرْقِ والغربِ .

(١) مثالٌ لظلمِ جنكيز وقهره ، ثم التعبير عن مدى ظلمِ النظامِ الجُمهوري الغربي نفسه .

(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ - لا يوجد للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطّم العبيدُ أطنبةَ خيامِ السّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ - انظر ردّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى^(١)
فقد أعدنا على آلِ قيصَرَ حُلُمَ قيصَرَ مرّةً ثانية^(٢) .

٢٥ - من الذي يتلوّى بأمواجِ بحرِ الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصّنوبر - وأحياناً يبكي كالزّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ - الرّجلُ الذي فضحَ سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا اعترفُ أبداً بدرايته للأمر .

المُستشار الخامس

(يُخاطبُ إبليس)

٢٧ - يا منْ أمورُ العالمِ قائمةٌ بأنفاسِكَ المحترقة !
أنتَ الذي أظهرتَ كلَّ مختلفٍ حينَ شئتَ .

٢٨ - صارَ الماءُ والطّينُ من حرارتِكَ عالماً مليئاً بالحُرقةِ والغِناءِ
وصارَ أبْلُهُ الجنّةِ^(٣) بتعليمِكَ عالماً بالأمور .

(١) أي : الإمبراطورية الرّومانية .

(٢) هذا هو ردّ شقاوة اليهودي .

(٣) أبْلُهُ الجنّة : هو « آدم » .

٢٩ - هو ليس أعرف منك بسرّ الفِطْرة

ذلك الذي اشتهر بين العباد البسطاء باسم الرب .

٣٠ - أولئك الذين لم يكن لهم عمل سوى التقديس والتسبيح والطواف^(١)

هم بسبب غيْرِكَ سيقون أذلاءً خجلين إلى الأبد .

٣١ - ومع أنّ سحرَةَ الإفرنج جميعاً من مرّيدك

لكن لا اعتمدُ على فراستهم .

٣٢ - ذلك اليهودي^(٢) المثير للفتن الذي هو ظهورٌ لروح مزْدَك

والذي كاذ كلُّ قباء أن يكون فتاناً بسبب جنونه .

٣٣ - غرابُ الصّحراء صارَ ندّاً للشّاهين والعُقاب

كيف يتغيّر بسرعة طبعُ الزّمان^(٣) .

٣٤ - إنّ ما اعتقدناه قبضةً غبارٍ بسبب الجهل

انتشرَ فاغبرّت سعةُ الأفلاك .

٣٥ - إنّ هيبةَ فتنةِ الغدِ قد وصلت إلى درجةٍ أنّ

الجبالَ والسهولَ والهضابَ والأنهارَ كلّها تزّرعُ .

٣٦ - وهذا العالمُ الذي لم يكن يدارُ إلا بسيطرتك

أوشك - يا مولاي ١ - أن يضطربَ فيصبحَ أعلاه سُفلاه .

(١) أي : الملائكة .

(٢) كارل ماركس .

(٣) الغراب لم يكن أبداً ندّاً للعُقاب ، والمعروف أنّه من أحسن الطيور ، وهو رمزُ الجاهل الخبيث النفس .

(إبليس إلى مشيريه)

٣٧ - عالمُ اللَّونِ والرائحة^(١) هذا^(٢) في قبضتي المتصرّفة
سواءً هذه الأرض ، أو هذه السّماء ، أو كلّها جميعاً .

٣٨ - وسوف يرى أهلُ الشّرقِ والغربِ بأعينهم
حينَ أثيرُ دماءِ أقوامٍ أوربية .

٣٩ - ما قيمةُ أئمةِ السّياسة ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة
إنَّ صيحةً واحدةً مني تُذهِلُهم وتذهبُ بعقولهم .

٤٠ - الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الرّجّاج
عليه أن يحاولَ أن يحطّمَ كأسَ وأباريقَ هذه المدنية .

٤١ - الجيوبُ الّتي مرّقتها يدُ الفِطرة

أصبحَ من المُحالِ رثّقها بإبرةٍ منطِقٍ مزدك^(٣) .

٤٢ - كيفَ يستطيعُ هؤلاء المتشرّدون الاشتراكيّون

أن يخيفوني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ - إنّ ما بين جنّباتي من خطرٍ ليس إلّا من هذه الأئمة^(٤)

ففي رمادها حتى الآن شرارةُ الأمل .

٤٤ - فحتّى الآن يوجدُ في هذه الأئمة قليلٌ من النّاس

يتوضّؤون بدموعِ الأسحارِ .

(١) أي : العالم المحسوس .

(٢) أصلها في النص « هو » .

(٣) جاء بعد زردشت وماني وأدعى النبوة ، وهو أولٌ من نادى بالاشتراكية الشيوعية .

(٤) الأئمة الإسلاميّة .

٤٥ - إِنَّ مَنْ كُشِفَ لَهُ بَاطِنُ الْأَيَّامِ يَعْرِفُ
أَنَّ فِتْنَةَ الْغَدِ لَيْسَتْ مَزْدَكِيَّةً لَكِنَّهَا إِسْلَامٌ .

(٢)

٤٦ - أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَحْمِلُ الْقُرْآنَ

وَأَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ هِيَ دِينُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ .

٤٧ - أَعْرِفُ أَنَّهُ فِي ظُلْمَةٍ دَجَالِ لَيْلِ الشَّرْقِ

فَإِنَّ أَكْثَرَ شَيْخِ الْحَرَمِ خَالِيَةٌ مِنَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ^(١) .

٤٨ - لَكِنَّ الْخَوْفَ مِنْ مَطَالِبِ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ ،

أَلَا يَظْهَرُ شَرْعُ النَّبِيِّ .

٤٩ - الْحَذَرُ ، الْحَذَرُ مِثَّةَ مَرَّةٍ بِنِظَامِ الرَّسُولِ فَهُوَ

حَافِظٌ لِكِرَامَةِ الْمَرْأَةِ ، وَمَخْتَبِرُ الْمَرْءِ ، وَيَخْلُقُ الرُّجَالَ .

٥٠ - هَذَا النِّظَامُ كَرِسَالَةِ الْمَوْتِ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعِبَادِيَّةِ

لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ مَلِكِ الصِّينِ ، أَوْ فَارِسٍ ، أَوْ مُسْكِينٍ ذِي مَتْرَبَةٍ .

٥١ - إِنَّهُ يُطَهِّرُ الثَّرَوَةَ وَيَخْلِيهَا مِنْ كُلِّ قَذَارَةٍ

وَيَجْعَلُ الْأَغْنِيَاءَ أَمْنَاءَ عَلَى الْمَالِ وَالثَّرَوَةِ^(٢) .

٥٢ - لَا يَوْجَدُ فِي الْفِكْرِ وَالْعَمَلِ ثَوْرَةٌ أَكْثَرُ مِنْ :

« هَذِهِ الْأَرْضُ لِلَّهِ وَلَيْسَتْ لِلْمُلُوكِ »^(٣) .

٥٣ - يَا حَبِذَا لَوْ يَبْقَى هَذَا النِّظَامُ مُخْتَفِياً عَنْ عَيْنِ الْعَالَمِ

(١) إشارة إلى قصّة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و [النحل : ١٢] و [القصص : ٣٢] .

(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .

(٣) له في جناح جبريل قطعة بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ - وهذا أحسنُ أن يبقى في شِرْكِ الإلهيات
ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ - الإنسانُ الَّذِي حَطَّمَتْ تهليلاته سِخْرَ الجهاتِ السَّتِّ^(١)

كَيْفَ لَا يَضِيءُ اللَّيْلَ الحالكَ لهذا الورعِ التَّقِيِّ .

٥٦ - أَمَاتَ ابنُ مَرْيَمَ ؟ أم هو حيٌّ باقٍ ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ
هَلْ صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أم عَيْنُ الذاتِ ؟

٥٧ - هَلْ يَقْصِدُونَ بالقادمِ المسيحِ ابنَ مَرْيَمَ أم هو المجددُ
الَّذِي تَكْمُنُ فِيهِ صفاتُ ابنِ مَرْيَمَ ؟

٥٨ - هَلْ الفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟
وفي أيِّ عقيدةٍ منها تَكْمُنُ نَجاةُ الأُمَّةِ المَرْحُومَةِ ؟

٥٩ - ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام
هذه الأصنامُ^(٢) المنحوتة من الإلهيات ؟

٦٠ - اجعلوه غريباً عن عالمِ العملِ لكي
تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشَّطرنجِيةِ على بساطِ الحياة .

٦١ - فهذا خيرٌ أن يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامةِ
ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية .
ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحواس المشتركة ،
وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ - الشُّعْرُ والتَّصَوُّفُ اللَّذَانِ يَغْطِيَانِ عَنْ عُيُونِهِ مَنَظَرَ الْحَيَاةِ
أَحْسَنُ بِالنُّسْبَةِ لَهُ .

٦٣ - إِنِّي أَخَافُ مَعَ كُلِّ نَفْسٍ مِنْ يَقْظَةِ الْأَمَّةِ
فَحَقِيقَةُ دِينِهَا هِيَ احْتِسَابُ الْكَائِنَاتِ .

٦٤ - أَسْكِرُوهُ وَاجْعَلُوهُ يَنْتَشِي بِالذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْأَسْحَارِ
وَأَنْصِبُوا فِيهِ طَبْعَ الْخَانِقَاهَاتِ .

نصيحة بلوش عجوز لابنه^(١)

لِيُنْعِشَكَ هَوَاءُ صَحْرَائِكَ

فَلَيْسَتْ دَهْلِي وَلَا بَخَارِي بِأَرْوَعٍ مِنْ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ .

إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسِيرَ كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ حِينَمَا تَرِيدُ

فَهَذَا وَادِينَا وَهَذِهِ صَحْرَاؤُنَا

الاعْتِرَازُ بِالنَّفْسِ لَهُ قَدْرٌ عَظِيمٌ فِي دُنْيَا الْكَدِّ وَالْجُهْدِ

فَهُوَ يُلْبَسُ الدَّرْوِيشَ تَاجَ دَارَا^(٢) .

عَلَيْكَ أَنْ تَنَالَ هَذَا الْفَنَّ الْخَفِيِّ مِنْ كَامِلٍ ، إِذْ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ :

إِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الرُّجَاجِ صَخْرًا جَلْمُودًا .

إِنَّ تَقْدِيرَ الْأُمَمِ بِيَدِ الْأَفْرَادِ

(١) فِي الْأَصْلِ : بَلُوج ، هُوَ اسْمُ لِقَبِيلَةٍ تَسْكُنُ مَنَظِقَةَ بَلُوجِسْتَانِ فِي بَاكِسْتَانِ الْغَرْبِيَّةِ عَلَى
الْحُدُودِ بَيْنَ إِيرَانَ وَالْهِنْدِ وَهِيَ بِلَادُ صَحْرَاوِيَّةٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَتَبَ عَنْهُمْ أَوَّلُ فَاتِحِ
إِسْلَامِي دَخَلَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَقَالَ : إِنَّهُمْ أَشَدُّ أَقْوِيَاءَ .

(٢) مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ إِيرَانَ .

ومع كل فرد نجمٌ تقدير الأُمَّة .
 هذا الغواصُّ الذي لا يتركُ صُحْبَةَ السَّاحِلِ
 ظلَّ محروماً من ثورة البحر .
 لو ضاعَ الدِّينُ من يدِ الأُمَّةِ الحرَّةِ
 فهذه التجارةُ خسارةٌ للمُسلم .
 إنَّ العالمَ يواجهُ معركةَ الرُّوحِ والجَسَدِ مرَّةً ثانيةً
 فإنَّ المدينةَ قد هيَّجتُ وحوشَهَا .
 اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلمِ
 وإبليسُ يعتمدُ على آلاتِ أوربة .
 ما هو تقديرُ الأممِ ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقولَ
 لكنَّ لو تجدُ فِرَاسَةَ المؤمنِ ، فالإشارةُ كافية .
 اطلبِ الإخلاصَ في العملِ من الأسلافِ القُدماءِ
 أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكُ على الشَّحاذين !

الصُّورَةُ والمصوِّرُ

الصورة :

قالتِ الصُّورةُ للمصوِّرِ :

سببُ ظهوري من إبداعِكَ وفنِّكَ^(١) ،

كم من الظُّلم أن تكونَ

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوّر :

صَغَبْتُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْبَصِيرَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عَيْنٌ تَنْظُرُ
مَاذَا حَلَّ بِالشَّرِّ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَالَمِ .

فَلْتَقْتَنِي أَيْتُهَا الْجَاهِلَةُ بِهَذَا الْخَبَرِ - إِنَّ النَّظَرَ لَيْسَ إِلَّا
الْغَمَّ وَالْأَلَمَ وَالْحَمِيَّةَ وَالنَّشَاطَ .

الصُّورَةُ :

الْخَبَرُ عَجَزُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ

النَّظَرُ حَيَاةُ الْقَلْبِ الْخَالِدَةُ

لَيْسَ جَدُّ وَجْهٌ هَذَا الزَّمَانِ

لَا ثَقَاً بِحَدِيثٍ ﴿ كُنْ تَرَكْنِي ﴾

المصوّر :

أَنْتِ مِنْ رَوَائِعِ فَنِّي

وَلِذَلِكَ فَلَا تَبْأَسِي مِنْ مُبْدِعِكَ .

لَيْسَ هُنَاكَ شَرْطٌ لِرُؤْيِي

سِوَى أَلَا تَخْتَفِي أَنْتِ عَنِ نَظْرِكَ .

عَالَمُ الْبَرْزَخِ

الْمَيِّتُ (يَخَاطَبُ قَبْرَهُ) :

مَا هَذَا ؟ وَأَيُّ يَوْمٍ تَكُونُ الْقِيَامَةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

الا تعرفُ بعدُ ، يا مَيِّتَ المِئَةِ عام ؟
بأنَّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

المَيِّت :

أنا لستُ أسيراً في شَرِكِ ذلكِ المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .

فمع أنني مِتُّ منذ مئةِ سنةٍ
إلا أنني لستُ متضيقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .
آه لو تلبسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرَّةً أخرى
فإنِّي لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبانِ والعقُربِ أو الغَزَالِ والوَخَشِ
فإنَّ الموتَ الأبدِيَّ ليسَ إلَّا للأُممِ المستعبَدةِ .
صوتُ إسرَافيل^(١) لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئك
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوحِ في دنياهم .
ولو أنَّ مُستَقَرَّ كُلِّ ذي روحٍ هو جِصْنُ اللَّحْدِ
إلا أنَّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرارِ .

القبرُ (يخاطبُ ميتَه) :

آه أيُّها الظَّالِمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

(١) إسرَافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لَمْ تَرَأِيْ مُلْتَهَبٌ هَكَذَا ؟

ازدادتْ ظُلُمَاتِي بِجَسَدِكَ ظِلْمَةً

وَتَمَرَّقَتْ سِتَارَةُ نَامُوسِ الْأَرْضِ بِجَسَدِكَ .

الحذرُ من جسدِ الميتِ المحكومِ ، الحذرُ مِنْهُ مَرَّةً

يا إسرافيلُ ! يا ربَّ الكائناتِ ! النجدةُ أَيْتُهَا الرُّوحُ الطَّاهِرَةُ .

نداءٌ مِنَ الْغَيْبِ :

مع أنَّ النُّظَامَ الكونِيَّ مضطربٌ بسببِ القيامةِ

إلا أنَّ هذا الاضطرابَ يكشفُ أسرارَ الوجودِ .

بالزَّلَازِلِ تطيرُ الجبالُ كالسَّحابِ

وتظهرُ في الوديانِ عيونٌ جديدةٌ .

لا بدَّ لكلِّ تعميرٍ جديدٍ من تخریبٍ كاملٍ

ففي هذا حلٌّ لكلِّ مشكلاتِ الحياةِ .

الأرضُ :

أَو مِنْ هَذَا المَوْتِ الدَّائِمِ ، أَو مِنْ معركةِ الحياةِ

هل ينتهي صِراعُ الكائناتِ إِلَى الْأَبَدِ ؟

لا يجدُ العقلُ النجاةَ مِنْ أَصْنَامِهِ

العارفُ ، العالمُ ، العامَّةُ ، جميعُهُم صاروا عبيداً لِلْأَتِّ وَمَنَاةِ .

كم صارَ خاضعاً ذليلاً هذا الأدميُّ المتمثِّلُ لصفاتِ الله

فبقاءُ هذا العالمِ ثقيلٌ على هذا القلبِ والنَّظَرِ .

فلماذا لا يكونُ ليلٌ هذا الإنسانِ العظيمِ سَحَرًا ؟

المَلِكُ المَعزُولُ^(١)

فلنبارك هذا الملكَ الطَّيِّبَ
الذي فَضَحَتْ تَضَحِيَّتُهُ أَسْرَارَ المُلُوكِيَةِ .
المَلِكُ في المَعْبَدِ البَرِيطَانِيِّ ليس إِلَّا صَنَمًا مِنَ التُّرَابِ
يَمَكُنُ أَنْ يَحْطُمَهُ الْعِبَادُ حِينَما يَشَاؤُونَ .
هَذَا المِسْكُ مَمزُوجٌ بِالْأَفْيُونِ لَنَا نَحْنُ الْعَبِيدُ
أَيُّهَا السَّاحِرُ الْإِنْجِلِيزِيُّ أَنْحِتْ لَنَا سَيِّدًا آخَرَ !

مُنَاجَاةُ جَهَنَّمِيِّ

الْعِبَادُ فِي هَذَا الدَّيْرِ الْقَدِيمِ ذُووُ حَاجَةٍ
يَذْكُرُونَ اللَّهَ حِينَ يَتَأَلَّمُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ .
وَلَا تَفِيدُهُمُ الصَّلَاةُ ، وَلَا تَفِيدُهُمُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ
فَحِظْ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ لَيْسَ إِلَّا التَّوَّاحُّ وَالْعَوِيلُ .
مَعَ أَنَّ الْعِمَارَاتِ تَطَاوُلُ الْقَلْكَ رَفْعَةً
لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ كُلَّ مَدِينَةٍ كَخَرَابِئِ عَامِرَةٍ .
انْظُرْ إِلَى تَقْلِبَاتِ خَطِّ الْفَاسِ
فَبَرُوزِ مَزْتَوِيٍّ ، وَفِرْهَادِ ظَمَانٍ كَبْدُهُ^(٢) .
هَذَا الْعِلْمُ ، هَذِهِ الْحِكْمَةُ ، هَذِهِ السِّيَاسَةُ ، هَذِهِ التَّجَارَةُ

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقد أنه يشير إلى : Edward Assamen .

(٢) انظر خطَّ الفأس كيف كان حين استعمالها برويز ، وكيف كان حين استعمالها فرهاد .

جميعها أشياء من إبداع المَلَكِيَّة .

شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعة من الأرضِ الملتَهبة^(١)
حرَّة من عبوديَّة التَّاجر الأوربي .

مسمود المرحوم^(٢)

هذه الشَّمْسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجُومُ ، وهذه السَّمَاءُ الزُّرْقَاءُ
من يدري أهذا عالمُ الوجودِ أم الفناء ؟
التَّفكيرُ في الرُّحلة والهدفِ ما هو إلا خُرافةٌ
فالحياةُ كُلُّها رحيلٌ دون هدف .

والأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الزَّمانِ تَذْكارُ
كمالاتِ أحمد ومحمود^(٣) .

تأسَّفَ العِلْمُ والفرُّ لموته المفاجيء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .

تُبْكيني جفوةُ أهل الدنيا
فإنَّهم يعتقدون أنَّ بكاء طيورِ السَّحَرِ نغماتٌ .
لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصَّدِيقِ يَمَكُنُ بالصَّبْرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغْزِ الموتِ كامِنٌ في الصَّبْرِ .

(١) جهنم .

(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في
الدراسة ، وأشارت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة

(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسمود . وكان مسمود هو
ذكرى كمالاتهم .

القلبُ الذي يَعشَقُ وَيَضْبِرُ ليس سوى حجر
فبينَ العِشْقِ وَالصَّبْرِ أَلْفُ فَرَسَخٍ ^(١) .

لا تسألني عن العُمُرِ الذي يَمُرُّ بِسرعةٍ
فلا أحد يدري ما هذا التغيُّرُ والجاذبية .

كُلُّ مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرابِ سيوارى فيه
أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟

وَهَبْ لِقُبَارِ الطَّرِيقِ ذوقَ الجمال
والعقلُ لم يستطع أن يكشفَ المعنى الخفي .

أليسَ القلبُ والنَّظَرُ من إعجازِ هذا الماءِ والطَّينِ ^(٢) ؟ وإنْ لم يَكُنْ
فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذا ؟

إِنَّ « لا إلهَ إلا هو » هي رُوحُ الدُّنيا الخالدة
فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليبِ ؟

مِمَّنْ نَطْلُبُ القِصاصَ لدمِ الآمالِ
مَنِ المُذنبُ ؟ وما هي الفِديةُ ؟

لا تَحْزَنْ فَنَحْنُ مَكْبَلُونَ بِقيدِ الدُّنيا
فالقلبُ الذي نملكُ يحطُّمُ الطلاسِمَ ^(٣) .

لو أَنَّ معرفةَ الذاتِ حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
لأنَّ العِشْقَ يختبرُ ثباتها بالموت .

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .

(٢) الإنسان نفسه .

(٣) هذا البيت بالفارسية :

غمین مشوکہ بہ بندِ جہان گرنتاریم طلسمها بشکند آن ولی کہ ما داریم

لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً ، فَبُخْرُكَ لَا شَاطِئَةَ لَهُ
 وَمَوْجُ النَّيْلِ وَالْفِرَاتِ يَتَوَقُّ لَأَنْ يَنْدَمِجَ مَعَكَ .
 لو تَكُنِ الذَّاتُ مَيِّتَةً فَهِيَ كَأَعْوَادِ الْقَشِّ أَمَامَ النَّسِيمِ ؛
 لو تَكُنِ الذَّاتُ حَيَّةً فَهِيَ سُلْطَانُ كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ .
 لو أَنَّ الْبَصِيرَةَ حُرِّمْتَ مِنْ تَجَلُّ وَاحِدٍ
 فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى مِثَّتِي تَجَلُّ لَتَعْوِضَ مَا فَاتَ .
 اللَّاتُ وَمَنَاةُ مَنْتَشِرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى الثَّرَيَّا
 بَيْنَمَا مَقَامُ الْعَبِيدِ الْمُؤْمِنِ وَرَاءَ الْفَلَكَ .
 مَقَامُهُ الْأَبَدِيُّ هُوَ حَرَمُ الذَّاتِ
 وَلَيْسَ مَكَانَهُ الْقَبْرِ الْمَظْلَمُ وَلَا مَكَانَ تَجَلِّي الصِّفَاتِ .
 أُولَئِكَ الَّذِينَ مَلَكَوا مَعْرِفَةَ الذَّاتِ وَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا .
 قَدْ حَطَّمُوا طَلْسَمَ الشَّمْسِ وَالْفَلَكَ وَالنُّجُومَ ^(١) .

صوت من الغيب

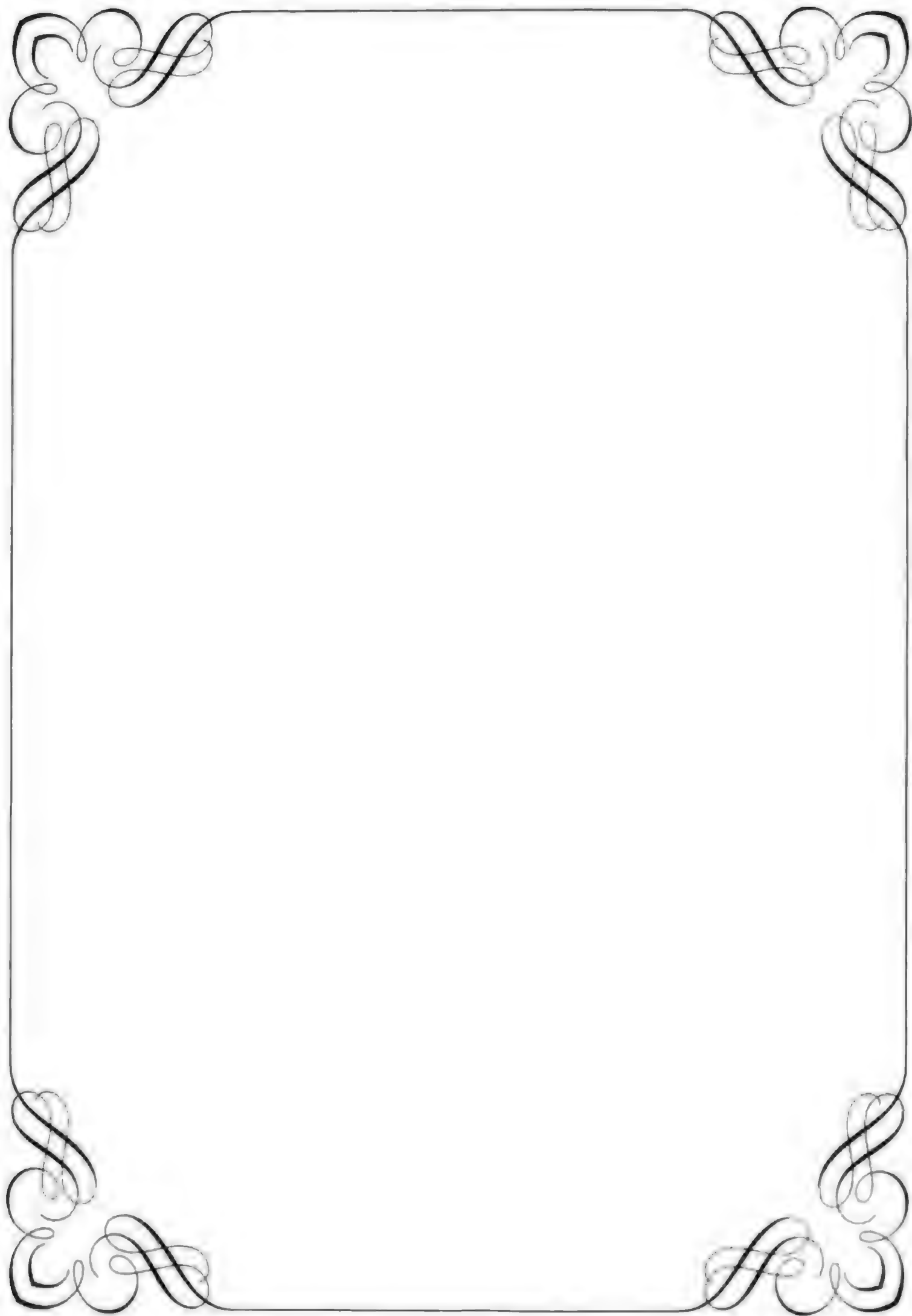
يَأْتِي صَوْتُ مِنَ الْعَرْشِ الْأَعْلَى ذَاتَ صَبَاحٍ ، يَهْتِفُ :
 « كَيْفَ ضَاعَ جَوْهَرُ إِدْرَاكِكَ ؟ »
 كَيْفَ أَصْبَحَ مُشْرِطُ التَّحْقِيقِ لَدَيْكَ كَالْأُ ؟
 لِمَاذَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمَزَّقَ أَكْبَادَ النُّجُومِ !
 لَقَدْ كُنْتَ جَدِيرًا بِخِلَافَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

(١) أصله فارسي .

هل تكونُ الشعلةُ أسيرةً للأعشابِ الجافة^(١) ؟
لماذا لا تخضعُ لك الشمسُ والقمرُ ؟
لماذا لا ترتجفُ الأفلاكُ من أنظارك ؟
مع أنَّ الدَّمَّ يجري في عروقِكَ
لكنَّك لا تملكُ حميةَ الأفكارِ ، ولا الفكرَ الجريءَ ..
العينُ التي لا يوجدُ في ثناياها النظرُ الطاهرُ
تكونُ مضيئةً لكنَّها لا ترى العالمَ .
لم يبقَ في أحضانِكَ صفاءُ مرآةِ ضميرِكَ
يا قتيلاً السلطنةَ والملأَ والمشِيخةَ !



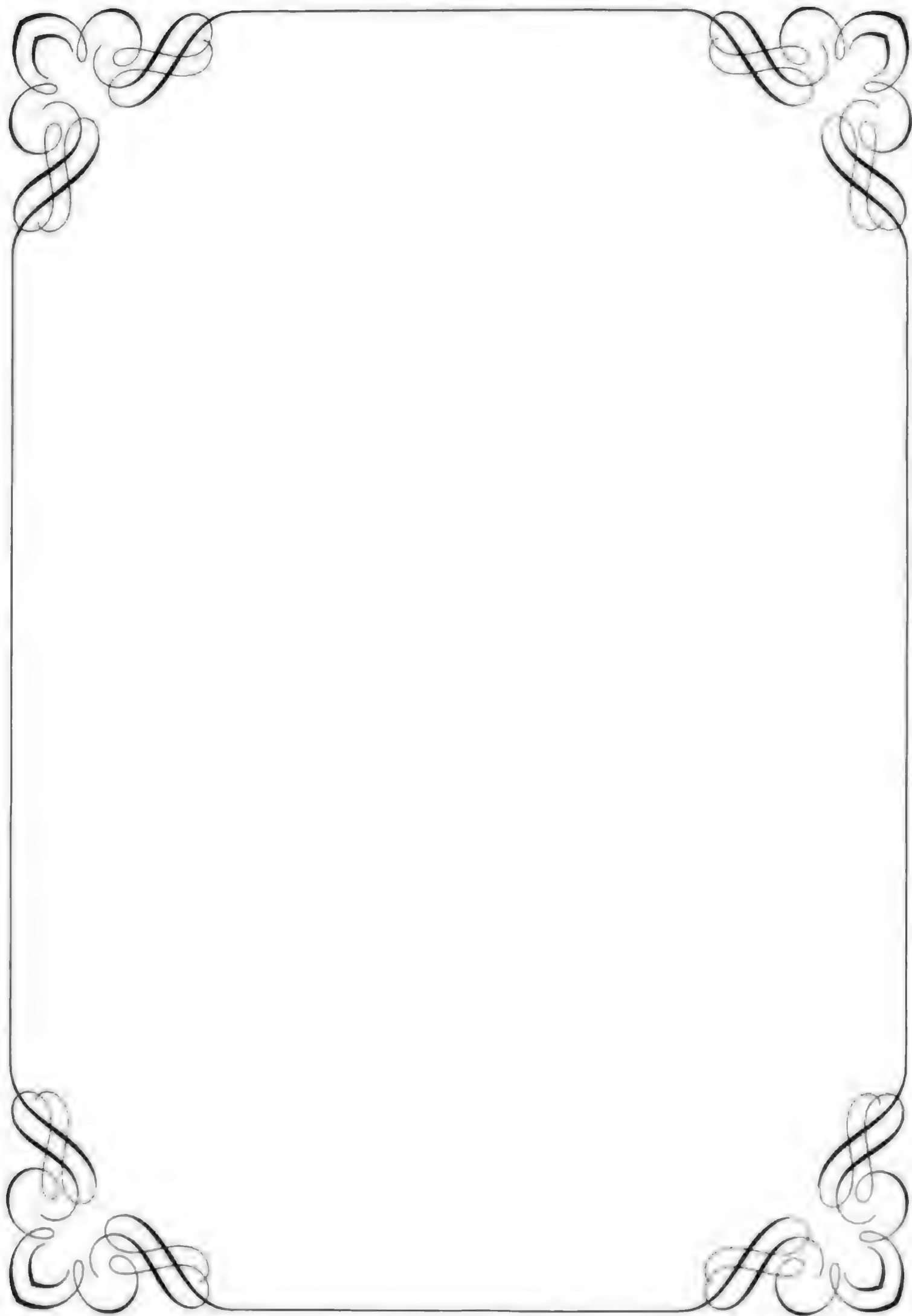
(١) حرفياً : الثُّبْنُ والنُّشارة .



القسم الخامس

رَبَائِعَات





(١)

١ - لا أدري ما هي ثمرة غُضنِ أُملي
فأني دراية لي بتقديرك
بُزعمُ الزهرة يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيم صُبحِ الغد !

٢ - حرَّزُهُ من عَمَلِ الدُّنيا
حتى يتحرَّر من امتحانِ كلِّ نفس
صارَ تفكيرُ الشَّيطانِ بسببِ الكِبَرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثمٍ جديد ؟^(١)

٣ - غَيَّرَ وبدَّلَ عالمَ الماءِ والسَّحرِ
أقْلِبْ هذه الدُّنيا الجافةَ والطرِيقَ
ولتبَقِ الوهيَّتُكَ طاهرةً من الوصمة
واخذِرْ من الشُّجودِ الخالي من أيِّ ذوق .

(٢)

٤ - أنا في حالةِ الفقْرِ محسودُ الغنى
لأنَّ فقري ذو غيرة

(١) المفروض أن تكون آثامه قديمةً قَدَمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الحذر من ذلك الفقر والتصوف
الذي علم المسلمين الذل والخضوع .

٥ - الغوث الغوث من ضيق ذيل العقل ١١
الغوث الغوث من زيادة التجلي ١١
إن النظر يُفصل النظر في غير الله
الغوث الغوث من كفر النظر .

٦ - قال إقبال لشيخ الحرم :
من الذي نام تحت محراب المسجد ؟
أجايت جدران المسجد :
هو الذي تاه في بيت أوثان الإفرنج .

٧ - صارت الهيجانات القديمة رغبة باردة سقيمة
دماء المسلم أصبحت باردة
فلتبارك للأصنام كفري
إذ إن نار الله هو ، أصبحت اليوم باردة .

٨ - حديث العبد المؤمن يتعلق بالقلب
الكبد مليء بالدم ، النفس مضيئة ، النظرة حادة
كيف تتيسر رؤية المؤمن الذي يضيء المحفل
فهو لا يختلط بنا إلا قليلاً .

٩ - صفاء ضمير الصُّبْح المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشُّوكِ والزَّهر
حمايةُ الزَّهر غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشُّوكَةِ طبعَ الحريرِ .

١٠ - لا تذكرِ الفراقَ واللقاءَ
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهور
إنَّ انفصالَ اللؤلؤِ من قلبِ البَخرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبَخرِ ولا لِلؤلؤِ .

١١ - لماذا لا يجتاحُ الطُّوفانُ بَخرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتكَ مسلمةً ؟
عبثٌ تلكَ الشُّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنتَ قَدَرَ الله ؟

١٢ - لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلبِ
يرى العالمَ مُضاءَ بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمسِ والقَمَرِ
لا يَحسِبُهُ إلا دورانَ الليلِ والنَّهارِ^(١) .

١٣ - أحياناً ترتفعُ مِنَ البحرِ كالمَوْجِ

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ الْبَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ الْبَحْرِ
فأظهرْ لنا سرَّ مقامِ ذَاتِكَ واضحاً .

مُذَاكَرَاتُ مُلَّا زَادِهِ ضَيْغَمِ اللُّولَابِيِّ^(١) الْكَشْمِيرِيِّ

(١)

ماءُ عَيْنِكَ كالزُّئْبِقِ الرَّجْرَاجِ
طَيُورُ السُّحْرِ قَلَقَةٌ فِي أَجْوَانِكَ
يا واديَ اللُّولَابِ .

لو لَمْ يَكُنْ خَطِيبُ الْمَنِيرِ وَالْمَحْرَابِ ذَا هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ
فَالَّذِينَ لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ إِمَّا الْمَوْتُ ، وَإِمَّا الْحُلُمُ
يا واديَ اللُّولَابِ .

النِّغَمَاتُ الْمُخْرِقَةُ لِلْقَلْبِ إِنَّمَا تَنْبُعُ مِنَ الْآلَةِ الْمَوْسِيقِيَّةِ
فَلَوْ كَانَتْ أَسْلَاحُهَا رِخْوَةً فَلَا فَائِدَةَ تُرْجَى مِنْ مِضْرَابِهَا
يا واديَ اللُّولَابِ .

بَصِيرَةُ الْمُؤْمِنِ خَالِيَةٌ مِنْ نُورِ الْفِرَاسَةِ^(٢)
وَالْخَمَرُ الصَّافِيَةُ فِي حَانَةِ الصُّوفِيَّةِ خَالِيَةٌ مِنَ الْخُرْقَةِ
يا واديَ اللُّولَابِ .

(١) ضَيْغَمُ هُوَ الْأَسَدُ ، لُولَابُ : اسْمُ وَادِي فِي كَشْمِيرِ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ إِقْبَالَ كَتَبِ هَذَا الشَّعْرِ إِلَى أَهْلِ كَشْمِيرِ .

(٢) تَلْمِيحٌ إِلَى الْحَدِيثِ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَرَى بَنُورَ اللَّهِ » .

إِنَّ الْفَقِيرَ^(١) الَّذِي تَسْتَيْقِظُ الْقُلُوبُ مِنْ آهَتِهِ السَّحَرِيَّةِ
لَا يَوْجَدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْذُ زَمَانٍ
يَا وَاْدِي اللَّوْلَابِ .

(٢)

الْمَوْتُ الصَّعْبُ اسْمُهُ الْعِبُودِيَّةُ
أَلَا لَيْتَ الْعَبْدَ يَفْهَمُ مَكْرَ وَخِدَاعِ السَّادَةِ .
انْظُرْ تَنْوُّعَ الْأَحْكَامِ فِي شَرْعِ الْمُلْكِيَّةِ
غَوْغَاءُ الصُّورِ حَلَالٌ ، لَذَّةُ الْحَشْرِ حَرَامٌ .
يَا مَنْ ذُبِلَتْ^(٢) رَوْحُكَ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ
اتَّبَحُّثْ عَنْ مَقَامِ الذَّاتِيَّةِ فِي الصَّدْرِ الْخَالِي مِنَ الْحَزَقَةِ ١٩

(٣)

كَشْمِيرُ الَّتِي سَمَّاها أَهْلُ النَّظَرِ بِالْأَمْسِ إِيْرَانُ الصَّغِيرِ
هُوَ الْيَوْمَ بِلَدٍّ خَاضِعٍ وَفَقِيرٍ .
حِينَ يَخَافُ رَجُلُ الْحَقِّ السُّلْطَانَ وَالْأَمِيرَ
تَخْرُجُ آهَاتُ مُخْرِقَةٍ مِنْ صَدْرِ الْأَفْلَاكِ .
مَنْزِلُ الْحَزَنِ لِفَلَاحِ عَجُوزٍ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ
يَحْكِي لَنَا حِكَايَةَ قَسْوَةِ الْأَيَّامِ :
وَالْأَسْفَاهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ النَّجْبَاءِ ذِي الْأَيْدِي النَّشِيطَةِ وَالْأَدْمَاغِ الْخَلَّاقِ^(٣) .

(١) استخدم كلمة « درویش » بمعناها الصوفي .

(٢) استخدم اللفظ العربي « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .

(٣) في الأصل : (تردماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس^(١) . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حين تشورُ الشعوب المغلوبة على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعة ، واللونِ والرائحة^(٢) .
ضميرُ الإنسانِ يتطهرُ من الظنِّ والتَّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلَّ طريق .
ذلكَ الفتى القديمُ الذي لم يستطعَ العقلُ رَتْقَهُ
يُخيطُهُ العشقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرةٍ أو خيطِ الرِّقَاءِ .
صنمُ الحُكمِ له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ من زجاج
وهو يصبحُ في النهايةِ قطعاً مبشرةً من الدَّقِّ المُستمر .

(٥)

عظمةُ الشَّاهينِ وشوكتُهُ توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاجِ
والصَّيَّادُ في حيرةٍ شاهينٍ هذا أم درَّاج .
تلاطمتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فالיוםَ مُظهرٌ لغدِ القيامةِ في الشرقِ .
الميتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُورِ إسرائيل
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابةً لمطالبِ الفطرة !

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهل شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ و بو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

حتى السُّكَّيرون^(١) أيضاً يعرفون كمالاتِ الصُّوفية
مع أنَّ كراماتهم غيرُ معروفة ، وغيرُ مشهورة .
حين يكونُ السَّالِكُ خُرّاً فهذه هي مقاماته :
عزّةُ النَّفس وثباتُها والصَّوْتُ الحسنُ القائل « أنا الحق »^(٢) .
حين يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبودية هي كلُّ شيء له
فهو نفسه ميّت ، وهو المريدُ ، وهو الموتُ المفاجيء نفسه .

اخرُج من الخانقاهات ، وقم بتقليدِ شبير
فليس فقرُ الخانقاهات إلا الهَمُّ .
من دينك وأدبك تهَبُ رائحةُ الرُّهبان
إنَّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للأمم التي حان موتُها .
في عيونِ شياطينِ المَلَكِيَّةِ يوجدُ السَّحَرُ
الذي يخلقُ في قلبِ الصَّيَادِ طَبْعَ المَصِيدِ
كيف مَضَوْا غيرَ مكترئين بآهاتي السَّحَرِيَّةِ
ومن الذي ذهب بالنَّشوة والنَّشاط من العيونِ الكشميريَّةِ السوداء^(٣) ؟

إذا اعتقدت أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ من دمٍ فهو كذلك
فقلبُ الإنسان إنما هو - فقط - جذبةٌ عالية .

(١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسك بها .
(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في الجبة غيرُ الله » .
(٣) تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء .

لا يُعْجِبُهُ دوران القمر والنجوم
فهو الذي يَخْطُطُ سَحَرَهُ وَمَسَاءَهُ .

لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك الثُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار^(١) .

(٩)

حين انفتحت في الرّوضة مكتبة الورود
فإنَّ العِلْمَ الكتائبي لم ينفع المُلّا .
كان هواء الرّبيع محطماً للجديّة
فبدأ شيخ « أندراب »^(٢) يُنشدُ الغزل .
قالت زهرة شقائق النعمانِ ذات القميصِ الأحمر
إنني مظهرّة لأسرار الرّوح^(٣) .

من الذي يعتقدُ أنَّ النّومَ في القبر هو الموتُ
إنَّ سرَّ تعميرِ كلِّ شيءٍ يَكْمُنُ في تخريبه^(٤) ؟

ليستِ الحياةُ سلسلة الأيّام والليالي
ليستِ الحياةُ نشوة وغفوة .

الحياةُ والاحتراقُ في نارك
فما أسعدَ اللحظاتِ حينما تستعيدُ هذه الحكمة :

(١) چنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصة في الأصل .

(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .

(٣) لأنها مفتحة في الوسط .

(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي - انظر المثنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّكَ تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفلكِ » .

(١٠)

شِرْيانُ الحرِّ صُلْبٌ كَشِرْيانِ الحَجَرِ
شِرْيانُ المحكومِ رقيقٌ كَشِرْيانِ الكرمِ .
قلبُ المحكومِ ميتٌ سقيمٌ يائسٌ
قلبُ الحرِّ حيٌّ مفعمٌ بالحرارةِ يبعثُ الطُّربَ .
ثروةُ الحرِّ قلبٌ مضيءٌ ونَفْسٌ حاميةٌ
ثروةُ المحكومِ ليست إلا عيناً دامعةً .
المحكومُ غريبٌ عن الإخلاصِ والمروءةِ
مع أنَّه بارِعٌ في البراهين المنطقية .
ليس من الممكن أن يكونَ المحكومُ ندّاً للحرِّ
فهو عبدٌ للأفلاكِ والحرُّ سيِّدُها .

(١١)

جميعُ العارفينَ والعامَّةِ غرباءُ عن الذاتِ
فليقلْ أحدٌ إن استطاعَ : أهذا مسجدٌ أم خُمارةٌ ؟
لقد أخفى هذا السرَّ عنا « مير واعظ »^(١)
إنَّ الفراشةَ التي تدورُ حولَ مصباحِ الحَرَمِ هي الحَرَمُ .
طَلَسُمُ الجَهِلِ هو الكفرُ والتدوينُ

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان
حوالي عام ١٩٦٦ م .

وحديثُ الشَّيْخِ والبرهمن ليس إلا سِحْرٌ وخرافة .
 فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرويشُ نصيبَ هذه الأرض
 ففي فقرِهِ تَكْمُنُ طرقُ الكليم .
 إلى متى تبقى لآلِءُ بحيرةٍ وُلَّرٌ^(١) الفريدةُ من نوعها .
 مختفيةً عن أعين الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ من قوَّةِ عملهم
 فالأُممُ الحيَّةُ خاضت معاركَ كبيرةً .
 إنَّ تقويمَ المُنْجَمِ للغدِ باطلٌ
 فالنُّجُومُ القديمةُ سقطتْ من السَّماءِ .
 ضميرُ العالمِ ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
 حتى أنَّ أمواجَ البحرِ كَسَرَتِ النُّجُومَ .
 الأرضُ لم تَعُدْ خاليةً من الزَّلَازِلِ
 فالدَّلَائلُ الدَّقِيقَةُ لِلْفِطْرَةِ ظاهرةٌ .
 إنَّ الخضرَ - قابعٌ - يفكِّرُ على شاطئِ بحيرةٍ وُلَّرٌ^(٢)
 إلى متى تفورُ عيونُ الهملايا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشعوبِ الخالدةِ على مرِّ الزمانِ :
 أنَّ تقديرَهُم يتغيَّرُ صباحَ مساء .

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .

(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ - ٨٢) .

حياتهم هي كمالُ الصُّدُقِ والمروءةِ
حتى الفطرةُ أيضاً تعفو عن تقصيرهم .
أعمالهم كأعمالِ القَلَنْدَرِ ، وجلالهم كالجلالِ الإسكندري
هذه الأمةُ في العالمِ كالسُّيُوفِ المسلولَةِ .
إنَّ جمالَ وجلالَ الرَّجُلِ العارفِ يَكْمُنُ في معرفةِ ذاتِهِ
هذا هو الكتابُ ، وما تَبَقَّى كُلُّهُ تفاسيرُ له .

أنا لا أنكرُ عظمةَ العيدِ
لكنَّ ما يُقبَلُ هو تكبيراتُ الحرِّ .
كيفَ يَعْرِفُ الحكيمُ سرَّ نغماتي
وأنَّ تدابيرَ أهلِ الجُنُونِ فيما وراءَ العقلِ ؟

(١٤)

كيفَ تقامرُ - قمارِ الحياةِ - كالكاferِ ؟
ذلكَ أنكَ تسيرُ مع الزَّمانِ ولا تسيرُ مع نفسك .
لم أَرِ في مدارسِ الحَرَمِ مرَّةً ثانيةً
قلبَ جنيدٍ ونظرةَ الغزاليِّ والرَّازي .
في حُكْمِ الفتى الأعظمِ الذي هو نفسه حُكْمُ الفطرةِ الأزليةِ :
أنَّ أعمالَ الصُّقُورِ حرامٌ في عقيدةِ الصَّغُوةِ .
قالَ ذلكَ الفقيهُ الأزلِيُّ للصَّغِيرِ الصَّغِيرِ :
عليكَ أنْ ترتبطَ بالسَّماءِ ولا تتعلّقَ بالأرضِ .
أنا الذي لها أقلعُ عن الكلامِ الصَّريحِ
خوفاً من وشيهم بي لدى السُّلطانِ .
قدمَ التحياتِ مِنَّا نحنُ الفقراءُ إلى تركِ شيرازِ

(١٥)

ضميرُ الغربِ ضميرُ الثُّجَارِ ، ضميرُ الشُّرْقِ ضميرُ الرُّهْبَانِ
هناكَ التَّغْيِيرُ المُسْتَمِرُّ في كُلِّ لَحْظَةٍ ، وهنا لَا يَتَغَيَّرُ الزَّمَانُ .
قالَ لي الخُضْرُ على شاطئِ البحرِ وكأَنِّي مُحْرَمٌ لِأَسْرَارِهِ :
إِنَّ طَرِيقَ الإسْكَندَرِ^(٢) والقَلَنْدَرِ كُلُّهُمَا طَرِيقٌ سَحَرِيَّةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني يَدًّا لَهُمْ
وَيَخْشَوْنَ أَلَّا يَنْشُقَّ حَجَرُ عَتَبَتِهِمْ مِنْ نَوَاحِي
النَّصِيحَةِ الواضِحَةِ وَالْعَلَامَةِ المُمَيَّزَةِ لِعِلْمٍ وَمَعْرِفَةِ الأُمَمِ المُسْتَعْبَدَةِ :
أَنَّ الأَرْضَ لو ضَاقَتْ فَهِيَ هُوَ فِضَاءُ الفَلَكِ بِلا حُدُودٍ .
لَا أَعْرِفُ بِمَاذَا أَسْمِيهِ ، هَلْ أَسْمِيهِ اخْتِبَارَ اللَّهِ^(٣) ، أَمْ خِدَاعَ النَفْسِ ؟
إِذْ إِنَّ المُسْلِمَ أَصْبَحَ خَالِيًّا مِنَ العَمَلِ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَقَ مِنَ القَدَرِ عُذْرًا لَهُ .
قالَ غَصَنُ الوَرْدِ عَنْ أَسْرِي قَوْلًا أَبْكَى الصِّيَادَ :
إِنَّ عُشَّ هَذَا المَغْرَدِ المَفْعَمِ بِالْحُرْقَةِ لَمْ يَكُنْ ثَقِيلًا عَلَيَّ .

(١٦)

يَا أَيُّهَا الوَطَنُ العَزِيزُ لَا حَاجَةَ لِلشَّرْحِ وَالبَيَانِ
عَنْ صُورَةِ قَلْبِنَا المَلِيءِ بِالدَّمِ ، كَشَفَاتِنِ النُّعْمَانِ .

(١) إشارة إلى شعر حافظ :

اگر این ترک شیرازی بدست آرد دل مارا بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا
(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .

(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟
إِذْ إِنَّ المُسْلِمَ أَصْبَحَ خَالِيًّا مِنَ العَمَلِ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَقَ مِنَ القَدَرِ عُذْرًا لَهُ .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأةِ الأعمالِ

هذه هي رسالةُ آلهةِ الهمالايا .

جسدهُ عارٍ في ريحِ الشتاءِ

ذلكَ الذي يقدِّمُ للأمراءِ رداءً من الصُّوفِ بفنِّهِ وإبداعهِ .

لا تأملُ في وفاءِ دولةِ الدُّنيا

فهي كالغزالِ ، الهروبُ من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على من علَّمته معرفةُ الذاتِ نسيانَ الجسدِ

حرامٌ على هذا الرَّجلِ المجاهدِ أن يلبَسَ الدُّزْعُ !

(١٨)

أخِمْ على ذلكَ العزمَ الرفيعَ ، واستمع إلى عويلي

لكي تقومَ القياماتُ في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريبُ هذه المدينة ، فاستمع إلى عويلي

لكي تقومَ القياماتُ في صدرك أيضاً .

أغنياتِي الممزوجةُ بالغمِّ والحزنِ متاعٌ عزيزٌ

ونعمةُ القلبِ الحزينِ ليستُ عامَّةً في هذه الدُّنيا .

أنوحُ وأشكو من ذوقِ هذا الزَّمانِ الأعمى

الذي فهمَ محنتي على أنَّها محنةُ فرهاد .

أعرفُ أنَّ الصَّوتَ الذي ينبعثُ من ضربِ الفأسِ على الحَجَرِ

أعرفُ أنَّه آخرُ ، فهو صوتُ الفأسِ والكَبِدِ معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدكن^(١)

كَانَ هَذَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَنْ يُعْطَى الْقَلَنْدَرُ

ذَوِ الصِّفَاتِ الْمَلَكِيَّةِ عِظْمَةً بِرُويِز^(٢) .

قَالَ لِي : خُذْ وَصِرْ حَاكِمًا وَأَعْطِ الثَّبَاتَ

لِحَسَنِ التَّدْبِيرِ لِكُلِّ مَا هُوَ آتٍ وَلِكُلِّ مَا فَاتَ .

كُنْتُ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ أَتَحْمَلَ عِبَاءَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ عَلَى كَتْفِي

لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مَرٌّ طَعْمُهُ يَصِيرُ فِي حَلْقِ الدَّرْوِيشِ الشُّكْرَ .

وَلَكِنْ غَيْرَةُ فَقْرِي وَعِظْمَتُهُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْبَلَ مَا قَدَّمَهُ

حِينَ قَالَ ، إِنَّ هَذِهِ هُوَ زَكَاةُ لَالُوْهِيَّتِي .

حسين أحمد^(٣)

لَا يَعْرِفُ الْعَجَمُ حَتَّى الْآنَ أَسْرَارَ الدِّينِ

وحسين أحمد الديوبندي - ما هذا العجبُ العجَابُ .

مَنْ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَائِلًا بِأَنَّ الْمَلَّةَ قَائِمَةٌ عَلَى الْوَطَنِ

كَمْ هُوَ جَاهِلٌ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ^(٤) !

عَلَيْكَ أَنْ تَصِلَ بِنَفْسِكَ إِلَى النَّبِيِّ فَإِنَّ الدِّينَ كُلَّهُ

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .

(٢) أي : المال والدنيا .

(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ، وهذا الشعر بالفارسية .

(٤) يقصد الدين .

فَإِنْ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ فَكُلُّ هَذَا يَعْدُ مِنْ أَعْمَالِ أَبِي لَهَبٍ .

السَّيِّدُ الْإِنْسَانِ

وَصَلَتْ دَرَجَةُ الْعِلْمِ وَالْفِكْرِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لشيءٍ أَنْ يَخْتَفِيَ ، فَهَذَا عَالَمٌ نُورَانِي .

لَوْ نَظَرَ أَحَدٌ لِرَأْيِ أَنْ حِجَابَ الْفِطْرَةِ رَقِيقٌ إِلَى دَرَجَةٍ :
أَنَّ الْبَسَمَاتِ الْخَفِيَّةَ لِلْمَلَائِكَةِ تَظْهَرُ وَاضِحَةً .

هَذِهِ الدُّنْيَا دَعْوَةٌ لِابْنِ آدَمَ أَنْ يَشَاهِدَ وَيَنْظُرَ
فَكُلُّ مُسْتَوٍ قَدْ وَهَبَ ذَوْقَ التَّعَرِّي .

هَذَا هُوَ ابْنُ آدَمَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ الْأَنْهَارَ
تَفِيضُ مِنْ دَمَوَعِهِ الدَّامِيَةِ .

مَاذَا يَعْرِفُ الْقَلْبُ ؟ مَقَرُّ مَنْ هَذَا الْمَسْكَنُ التُّرَابِيُّ ؟
وَالْهَدَفُ مِنْ خَلْقِ النُّجُومِ هُوَ حِرَاسَةُ بَيْتِ مَنْ ؟

لَوْ أَنَّنِي مَقْصُودُ الْكُلِّ فَمَاذَا « مَا وَرَانِي »
وَمَا هِيَ نَهَايَةُ اضْطِرَابَاتِي الْمُتَجَدِّدَةِ !!



